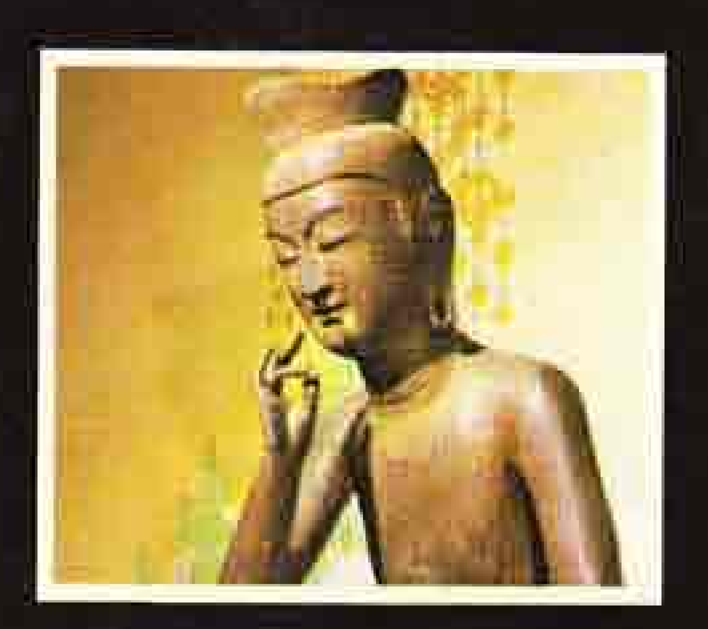
بهجة المعرفة

موسوعة علمية مصورة









المجموعة الثانية

٣

مسيرة الحضارة

مجلد أول

بسم الله الرحمن الرحيم

بهجة المعرفة
موسوعة علميّة مصوّرة

مسيرة الحضارة

مجلد أول

المجموعة الثانية
٣



○

هيئة تحرير الموسوعة :

إشراف : الصادق النيهوم

رئيس قسم التحرير : الدكتور كريم عزقول

المدير الفني : فاروق البقيلي

ساهم في إعداد هذا المجلد :

ترجمة :

الدكتور ماجد فخري

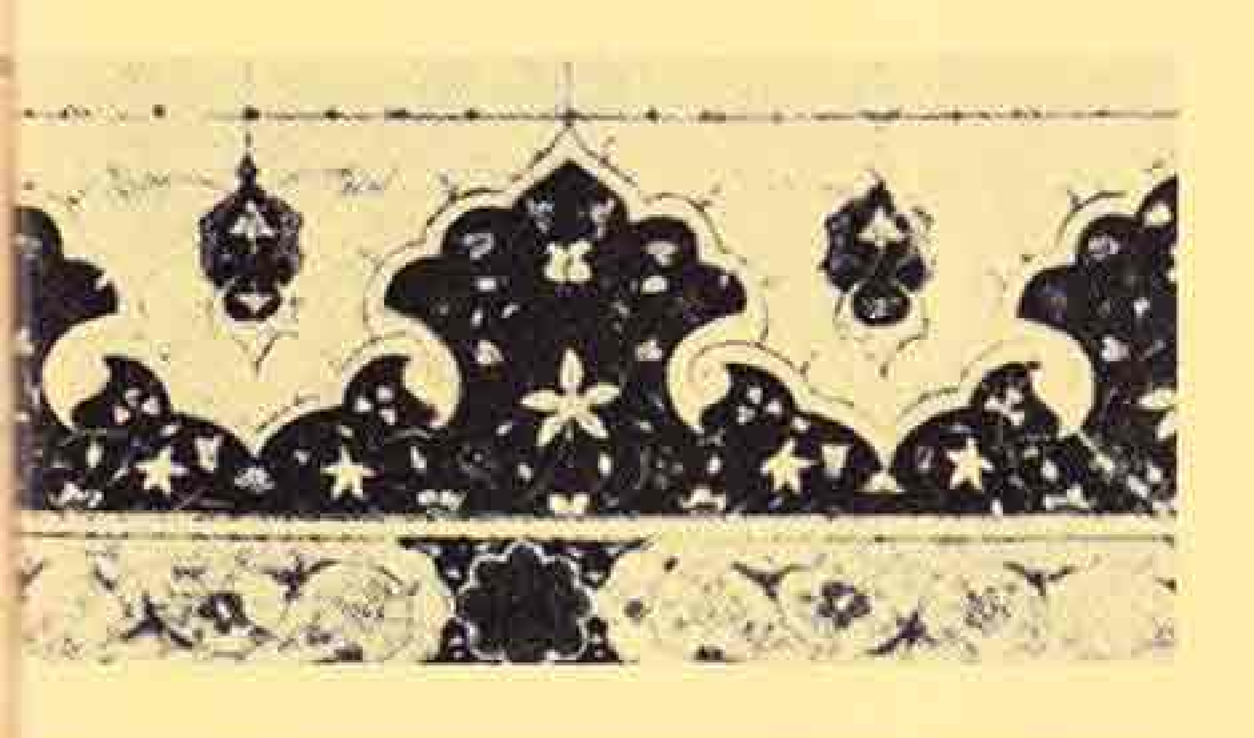
- دكتور بالفلسفة من جامعة أدنبره .
- أستاذ الفلسفة العربية والغربية في جامعة لندن وجامعة جورجتاون بواشنطن سابقا .
- أستاذ الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت .
- رئيس دائرة الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت سابقا .

دراسات خاصة :

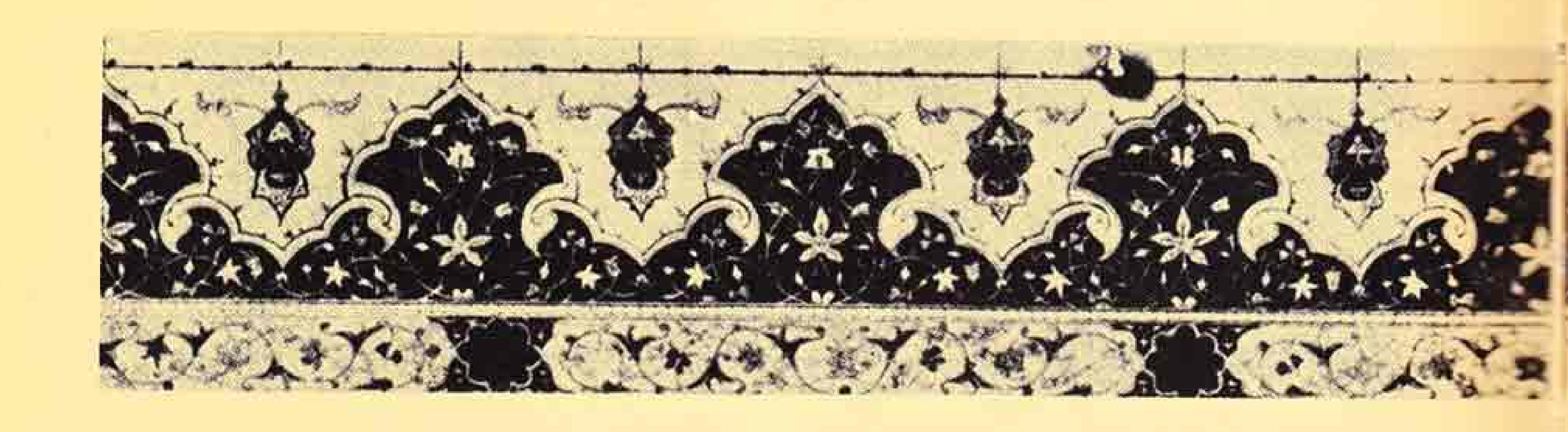
نخبة من أساتذة الجامعات العربية .

مراجعة : الدكتور شاكر مصطفى

التنفيذ الفني : أوصاف البقيلي



فهرس



هـذه الموسوعـة

لأول مرة في لغتنا العربية .

لأول مرة في تاريخنا بأسره ، تصدر عندنا موسوعة مصورة ومعدة فعلاً على مستوى العمل الموسوعي .

لم يكن بوسعنا أن نتجاهل هذا النقص في مكتبتنا العربية ، ولم يكن من خطتنا أن نوفيه بأي عمل لا يجاري مستويات الموسوعات الحديثة في اكثر لغات العالم تقدماً . وقد انفقنا بعض الوقت ونحن نبحث جاهدين عما يدعى عادة باسم « الحل الوسط » ، لكن البحث نفسه لم يعلّمنا شيئاً سوى أنه ليس ثمة حل وسط لأداء أي عمل جدي .

وذهبنا الى القمة .

اتصلنا بدور النشر شرقاً وغرباً ، وفحصنا اعمالهم بكل ما في حوزتنا من رغبة في التدقيق ، واخترنا أفضل - واحدث - عمل بينها ، ثم اندفعنا نفاوض على حقوق نشره في ملحمة مرهقة ، وغريبة بعض الشيء عن عالم منتجي الموسوعات في الغرب . فلم نكن نفاوض على الثمن ، بل على حقنا في تنقيح المادة ، وكان ذلك الطلب يدهشهم - احياناً - أكثر مما نتمنى .

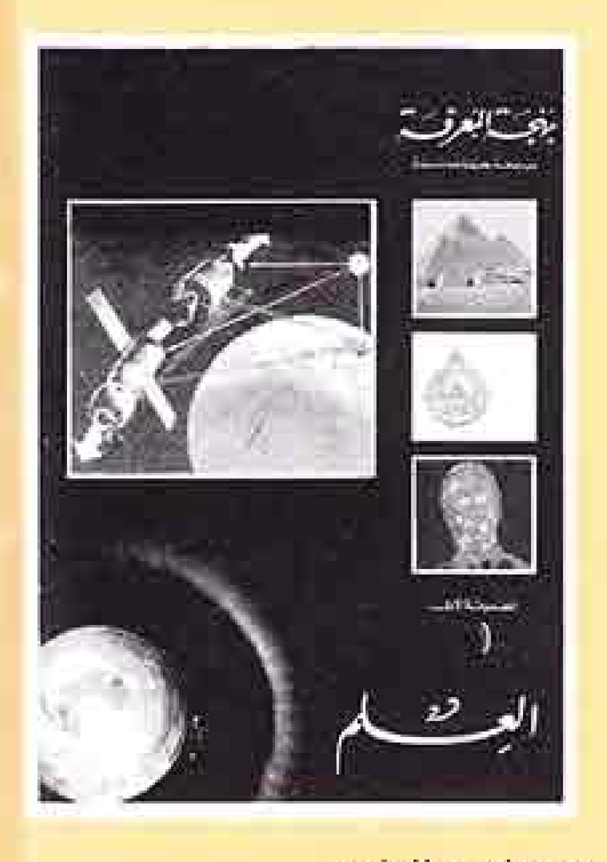
بالتدريج تعلمنا أن نشرح لهم موقفنا .
بالتدريج بدأنا نقنعهم بأننا لا نريد أن ننقل عملهم الى اللغة العربية ، بل نريد ان نعدَّ لانفسنا موسوعة عربية تخصنا ، وتعكس روحنا وبيئتنا وذوقنا ، وترى الاشياء من وجهة نظرنا ، اذا كان لا بد أن تراها من وجهة نظر أمة ما .

وتقبّلوا فكرتنا في دار ميتشل بيزلي ذات الدور الرائد في ابتكار الموسوعات المصورة ، وانفتح الباب الذي ظل مغلقاً طوال تاريخنا القديم والحديث على حد سواء ، وبدأنا بالعمل لتقديم اول انتاج موسوعي متكامل في لغتنا العربية ، بعد ان تقررت خطة التنفيذ خلال جلسة شبه عائلية بين ثلاثة من المسئولين عن التنفيذ .

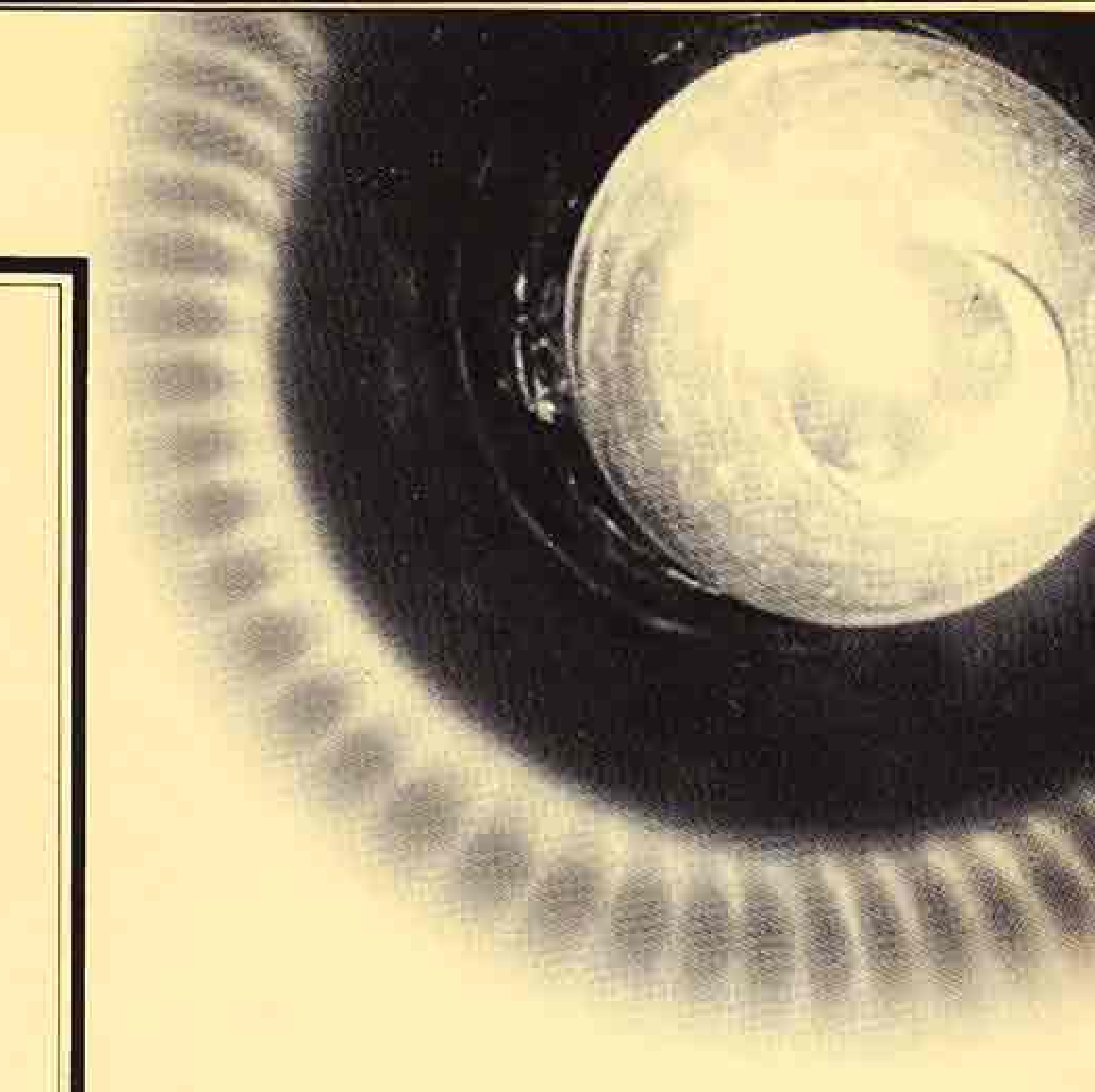
في تلك الجلسة تقرر اولا اننا سنواجه مشكلة صعبة في نقل المصطلحات الى حد قد يدعونا احياناً الى استعمال الكلمة اللاتينية حرفياً . وبالنسبة لهذه النقطة ، كان الحل الوحيد لدينا هو أن نوكل الترجمة الى اساتذة جامعيين في المادة نفسها ، وليس فقط الى مجرد مترجمين ، في محاولة حافلة بالتوقعات لحمل الخبير العربي على مواجهة مشاكل لغته المعاصرة ، واشراكه في مسئولية البحث عن الكلمة الأفضل والاكثر قرباً الى روح ثقافتنا وشخصيتنا .

ابعد من ذلك لم يكن بوسعنا ـ ولم يكن من حقنا أصلاً ـ أن نمضي شبراً واحداً . فنحن لا نتصدى لكتابة لغة جديدة للعرب ، بل لتسجيل معلومات جديدة في لغتهم ، وهي اقصى مهمة تستطيع أية موسوعة أن تؤديها .

في تلك الجلسة تقرر أيضاً أن الترجمة على أي حال ليست هي وحدها كل المشكلة . فمنهج التحرير نفسه في تغطية مواد الموسوعة الانجليزية منهج لا يلبي جميع احتياجاتنا . أنه يهيىء لنا مادة علمية ممتازة العرض والتنسيق في مجلدات « الكون » و « الأرض » و « الحياة » ، لكن اهتماماته في مجلدات اخرى مثل « الانسان والمجتمع » ، و « مسيرة



من مواضيع المجلد :
- النظرية الذرية
- الحرارة والضوء والصورة
- الكهرباء
- الكيمياء . . .



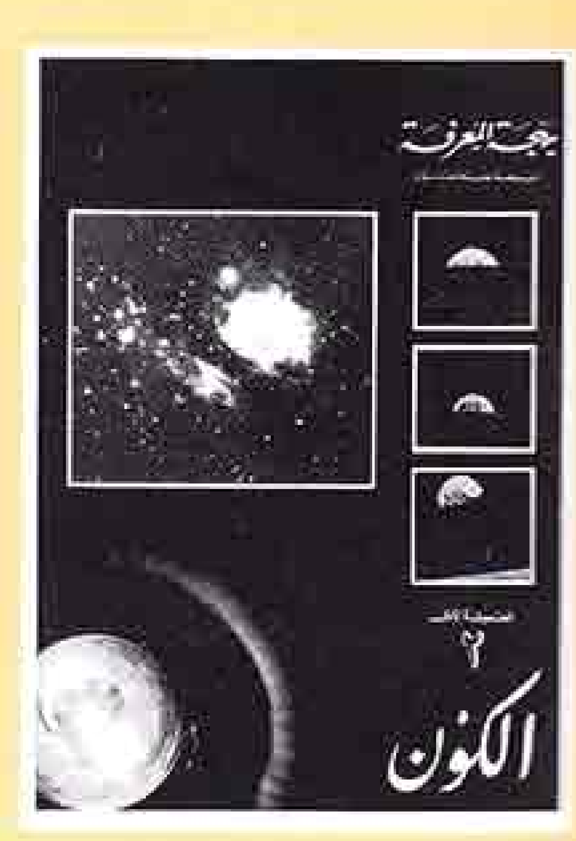
الحضارة » ، لا تغطي كثيراً مما يهمنا نحن في الدرجة الأولى .

بالنسبة لهذه النقطة كان الحل لدينا هو أن نعيد اخراج الموسوعة بأسرها في مجموعتين : -

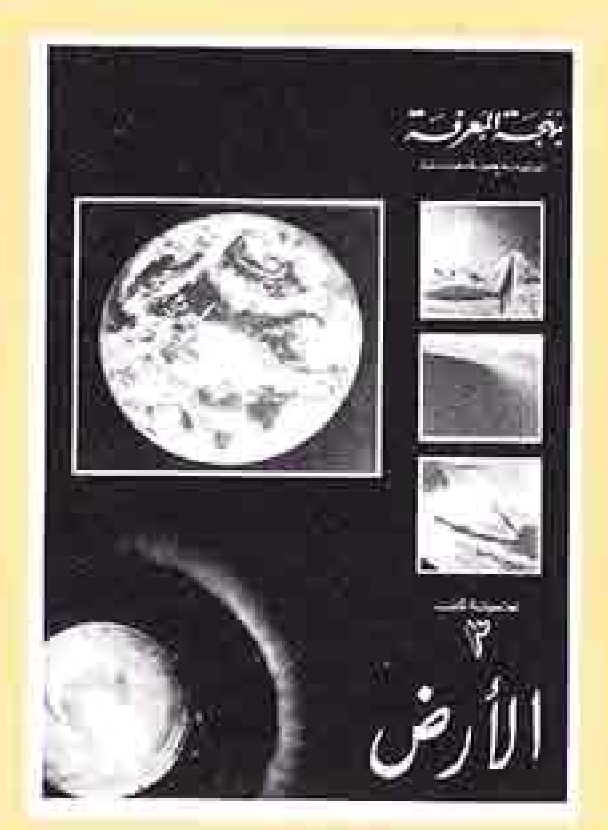
المجموعة الأولى موجهة لتغطية ميادين العلوم الطبيعية المعاصرة في المجلدات الخمسة التالية :

١) العلم
٢) الكون
٣) الأرض
٤) الحياة
٥) الاداة والآلة

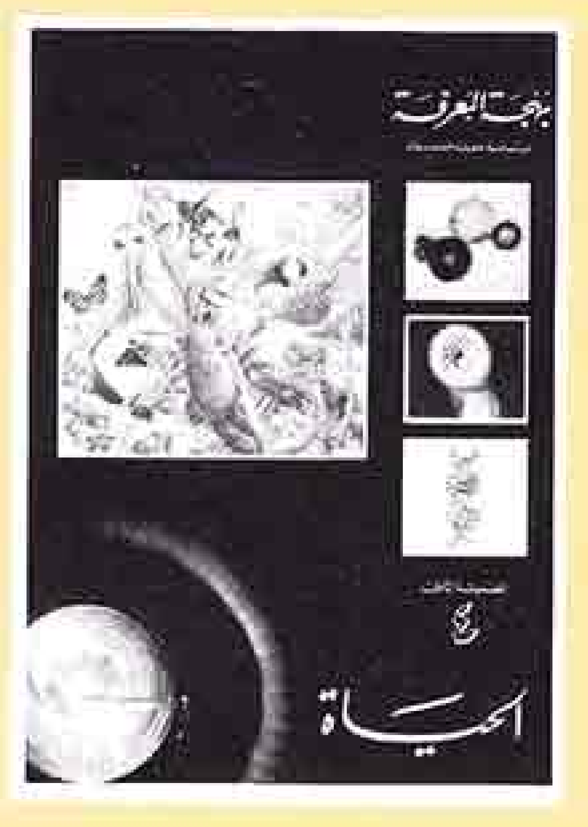
وصفة هذه المجموعة انها تتعامل مع حقائق علمية مجردة . ودورنا فيها هو اننا



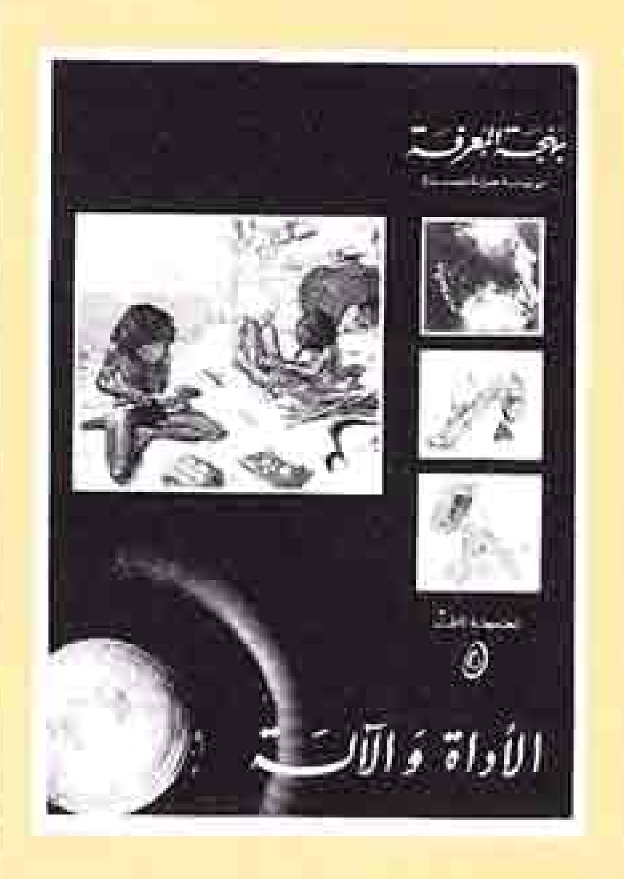
- علوم الفضاء
- المجموعة الشمسية
- النجوم وخرائط النجوم
- الانسان والفضاء . . .



- تركيب الارض
- البحار والمحيطات
- المناخ والطقس
- مصادر الغذاء والطاقة . . .



- كيف بدأت الحياة ؟
- النبات
- الحشرات والسمك
- الطيور والثدييات . . .



- وسائل النقل
- الاسلحة
- الهندسة
- الصناعات الكيميائية . . .

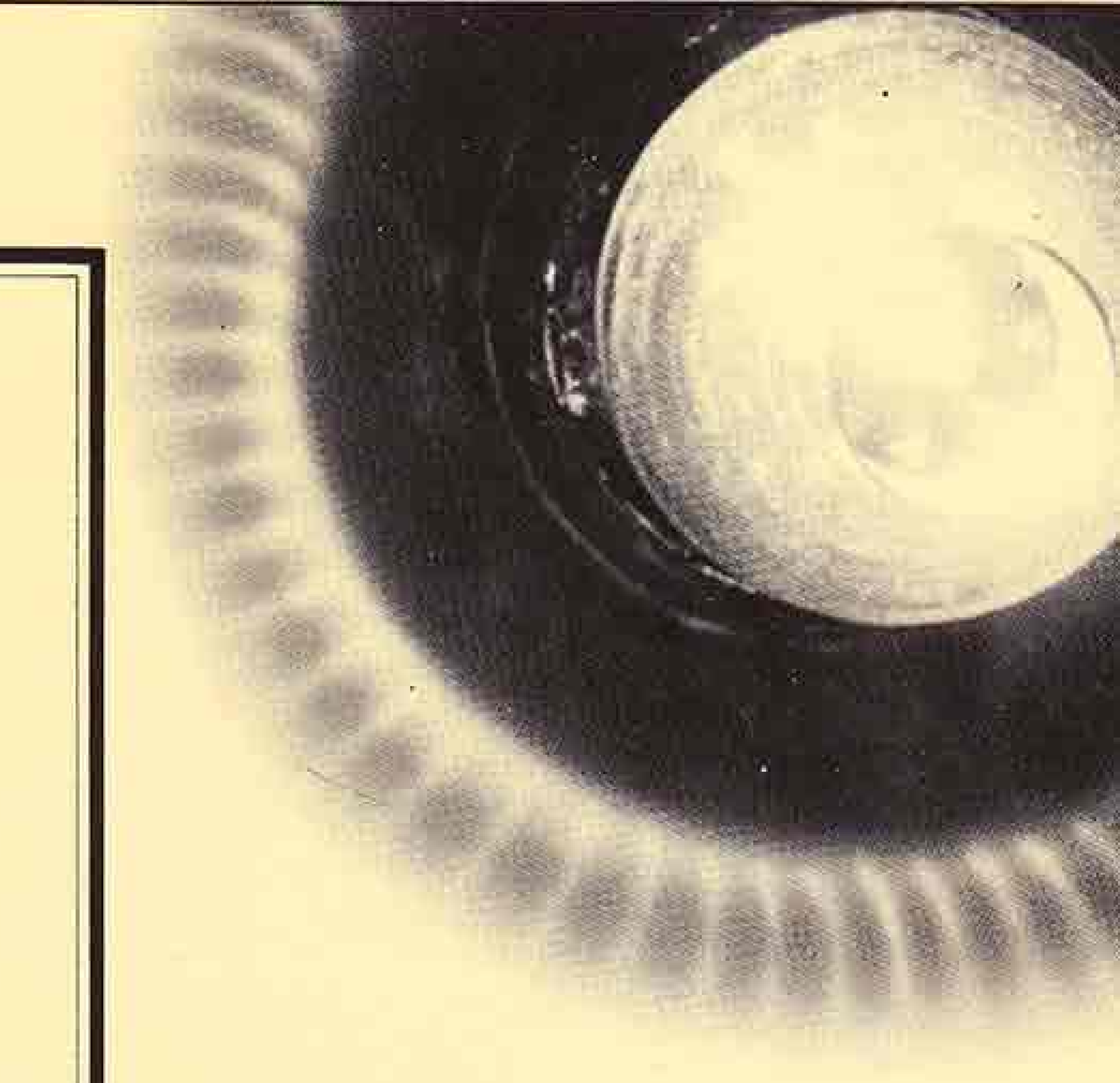
نقلنا جميع معلوماتها بأمانة ودقة . وما نتوقعه منها هو أن تسد الثغرة الهائلة - والشديدة الوضوح - في مكتبتنا العربية في ما يخص حقل المعرفة المصورة بالذات .

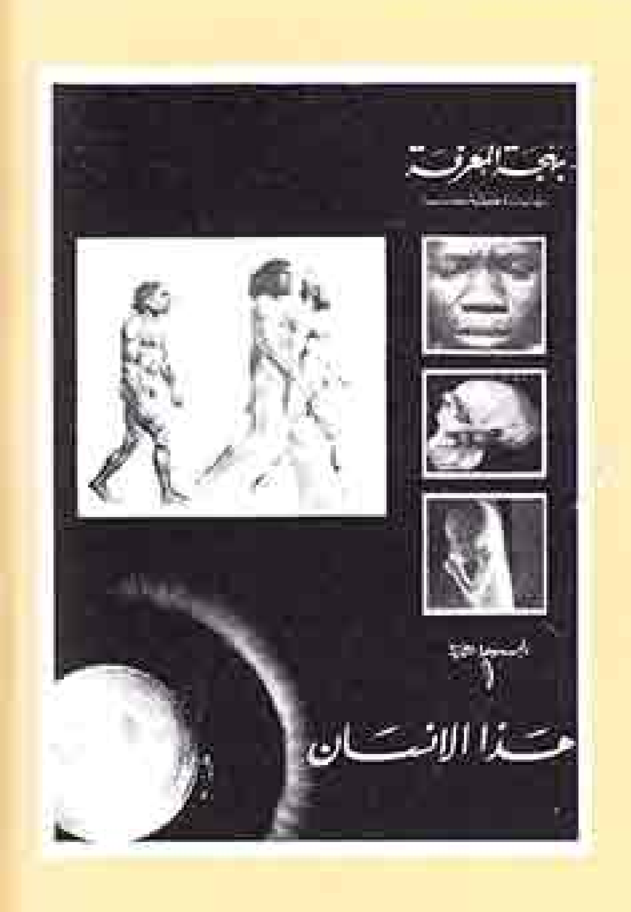
المجموعة الثانية موجهة لتغطية ميادين العلوم الانسانية في خمسة مجلدات اخرى هي :

١) هذا الانسان
٢) الانسان والمجتمع
٣) مسيرة الحضارة مجلد أول
٤) مسيرة الحضارة مجلد ثان
٥) مسيرة الحضارة مجلد ثالث

وصفة هذه المجموعة أن خطة تحريرها بحكم طبيعة العلوم الانسانية نفسها خطة لا يمكن اداؤها من جانبين مختلفين في وقت واحد . فمنهج المحرر الاوربي هو أن ينظر الى ميادين العلوم الانسانية في أوربا ، ويركز بحوث النص على قضايا المجتمع والتاريخ فيها ، مقابل أن يكتفي بتغطية شبه عامة لمعظم ما يقع خارج هذا الاطار . ومشكلتنا نحن في الطرف الاخر أن هذا المنهج يلزمنا بتفاصيل لا نحتاج اليها عن اوربا ، ويحرمنا معلومات اساسية نحتاج اليها اكثر عن مجتمعنا وتاريخنا وطبيعة قضايانا التي نتعامل معها . وكأن الأمر كله بالنسبة لنا مجرد دعوة للاختيار بين أن ننقل المجموعة الى اللغة العربية وبين ان نعدّ لانفسنا مجموعة عربية تخصنا .

هذه المرة لم تكن مشكلتنا ان نجد حلاً ، بل أن نتفق على اتخاذ قرار . وقد اعترانا التردد ، وارتفعت اصواتنا بعض الشيء ، ونحن نعدد لانفسنا انواع المصاعب والاحتمالات ، لكن ذلك فيما يبدو مجرد



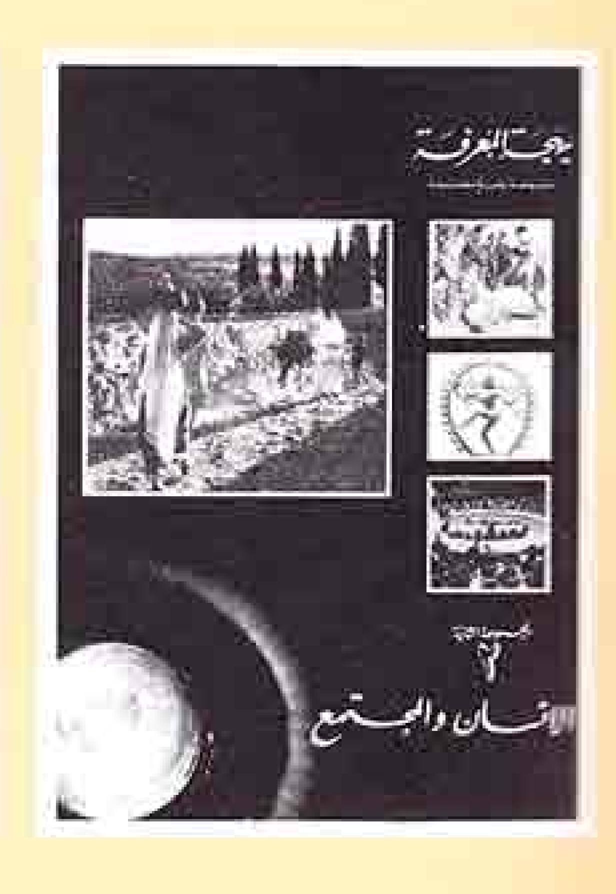


من مواضيع المجلد :
ـ قصة التطور
ـ كيف يعمل جسدك وينمو ؟
ـ الصحة والمرض
ـ مراحل العمر المختلفة . . .

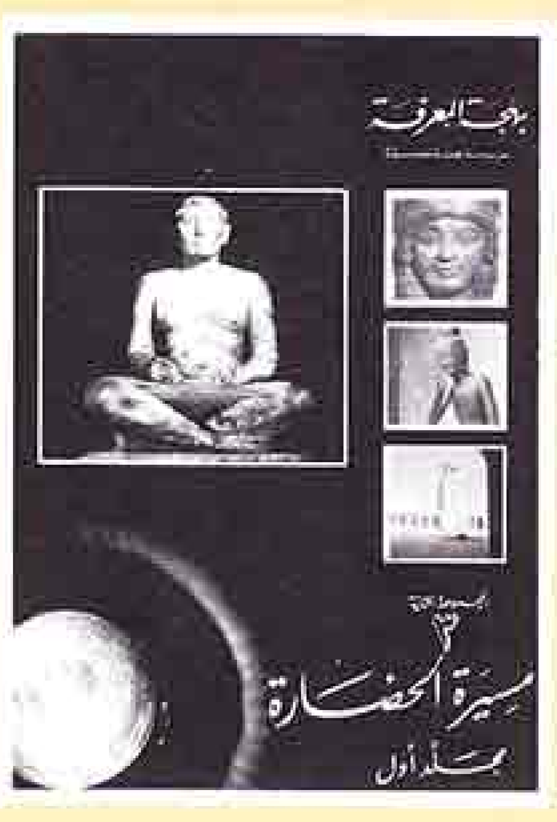
جزء متوقع من أية جلسة مخصصة لاتخاذ قرارات صعبة . فقد انتهى الأمر بيننا بالاتفاق على أي حال ، واتفقنا جميعاً على اختيار الطريق الأطول والأكثر تعقيداً .

رأينا أن نعيد توزيع النص . أن نتدخل لتنقيح المادة . أن نحذف . أن نضيف . ورأينا أن ذلك يعني في الواقع اننا سنعدُّ كثيراً من فصول هذه المجموعة بأنفسنا ، مما يتطلب بدوره أن نلتزم أيضاً بالمستوى الرفيع ـ والمبتكر ـ لاخراج النص في نسخته الاصلية . فماذا فعلنا ؟ قمنا بتقسيم مواد المجموعة الثانية الى ثلاثة اقسام :

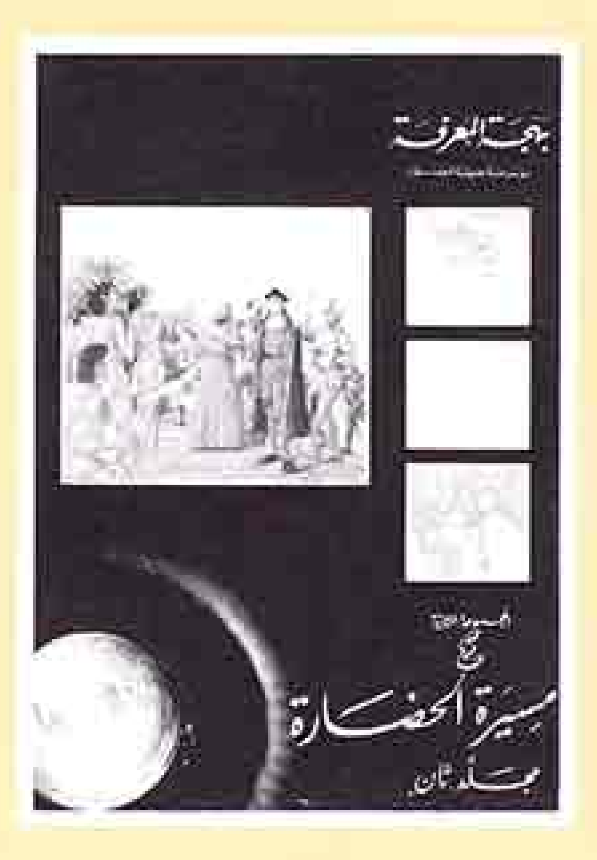
القسم الأول : دراسة علمية منفصلة من مجلدين ، احدهما يضم معظم المعلومات المتوفرة الآن عن الانسان وتطوره ، ووظائف اعضائه وتشريح



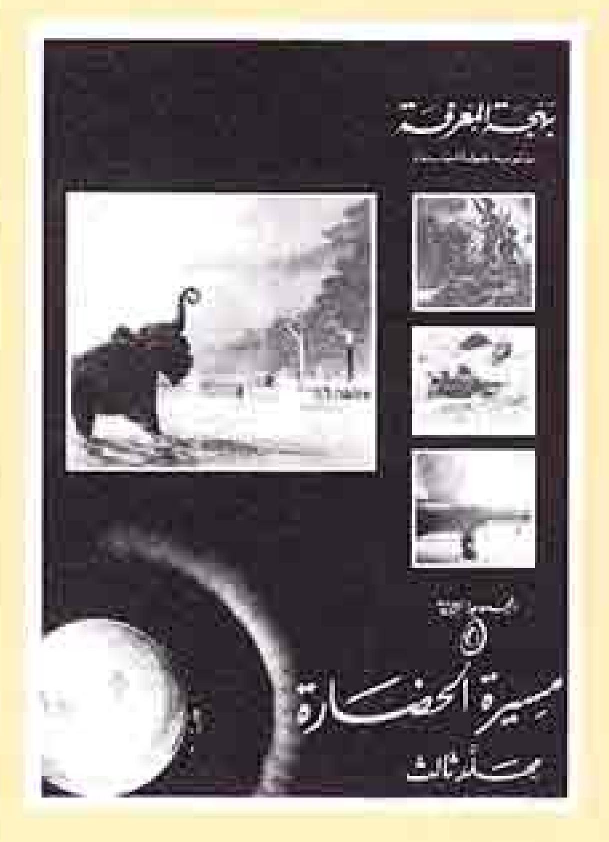
- عن الموت والحياة
- الانسان والدين
- السياسة
- القانون . . .



- نشأة المجتمعات
- امبراطوريات العالم القديم
- ظهور الاسلام
- المغول في بغداد . . .



- اوربا في القرن الرابع عشر
- اكتشاف امريكا
- العثمانيون
- مطلع عصر الاستعمار . . .



- استعمار العالم العربي
- الحرب العالمية الاولى
- حركات التحرير في العالم العربي
- الحرب العالمية الثانية . . .

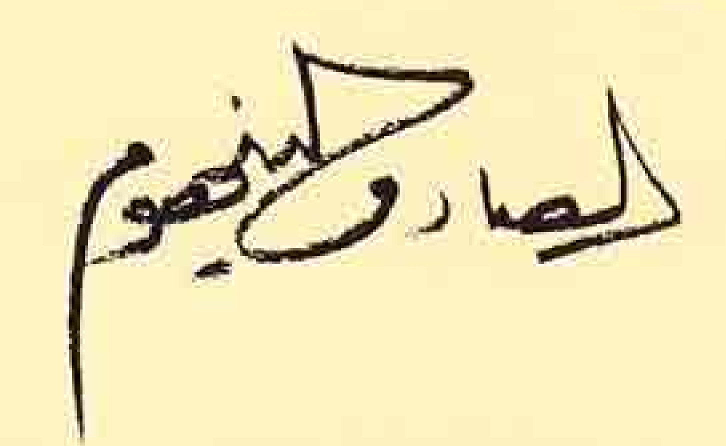
جسده وصفاته ، ومشاكله العقلية العامة . والآخر يتعرض لموقع الانسان في المجتمع ، والتركيبات الجماعية المعروفة في العالم ، وقضايا الشخصية والنمو العقلي . وفي هذا المجلد كان دورنا أن نساند معظم الدراسات الاصلية التي تركزت بحوثها على مجتمعات اخرى بدراسات جديدة عن مجتمعنا العربي ونوع قضاياه ذات الطابع المختلف . وقد بلغت حصيلة اضافاتنا مائة صفحة تقريباً مخصصة كلها لتحديد ابعاد الصورة الأخرى التي تسود مجتمعاتنا في العالم العربي .

القسم الثاني : دراسة تاريخية من مجلدين يعرضان قصة الحضارة منذ عصور ما قبل التاريخ الى نهاية العصور الحديثة . وفي هذا القسم تجاوزت اضافاتنا حدود المائة صفحة ، ووقع علينا عبء اعداد الفصول الخاصة بتاريخ الاسلام والعرب بالذات لتغطية النقص الظاهر في اصل الموسوعة .

القسم الثالث : دراسة للتاريخ المعاصر من مجلد واحد ، يتبعه في وقت لاحق اطلس تاريخي للوطن العربي . ومنذ بداية هذا القسم كنا قد افترقنا كثيراً عن النص الاجنبي ، وكنا نعرف على وجه اليقين اننا هذه المرة لا بد أن نعد معظم المادة بأنفسنا .

فماذا فعلنا ؟

سؤال بديهي حقاً ، لكن اجابته الصحيحة لا تقع في نطاق هذه المقدمة وحدها او هذا الكتاب كله . انها تقع في عشرة مجلدات ، تضم اربعة الاف صفحة تقريباً ، وأكثر من عشرة آلاف صورة ، وجهد خمسمائة محرر ورسام طوال أربع سنوات كاملة .



خطة التحرير

كلمة موسوعة في اللغات الاوربية تعني تقريبا ما تعنيه كلمة « حلقة الدرس » في لغتنا . انها تجميع للمعارف طبقا لخطة اخراج خاصة من شأنها ان تضع حصيلة ضخمة من المعلومات بين يدي القارىء المتخصص والقارىء العادي على حد سواء .

ثمة خطتان لتحرير الموسوعات :

الاولى : ان تتبنى الموسوعة اسلوب التجميع حسب الحروف الابجدية ، وتعمل على تقسيم معلوماتها في خانات ترتبط بنوع الحرف وليس بطبيعة الموضوع . مشكلة هذه الخطة انها قائمة على تفكيك الوحدة الى فقرات مبتورة او مكررة ، مما يجعل الموسوعة نفسها مجرد قاموس مطول ، قد يرضي حاجة قارىء يبحث عن اجابة معينة لسؤال معين ، مثل « من هو قلب الاسد ؟ » ، او « متى عاش صلاح الدين ؟ » ، لكنه لا يسد حاجة من ينشد المعرفة الحقيقية بظروف هذين الرجلين وظروف العصر الذي شهد لقاءهما .

الخطة الاخرى : ان تتبنى الموسوعة اسلوب تجميع المعلومات حسب وحدة الموضوع ، بحيث تقدم عرضا شاملا له ، بغض النظر عن حروفه الابجدية . فالقارىء هنا لا يتلقى معلومات متفرقة عن قلب الاسد او صلاح الدين تحت حروف ابجدية متباعدة ، بل يشاهد حياتهما بمجملها وعصرهما بكامله ، ويتعرف على الظروف والاحداث التي احاطت بهما ، في عرض واحد مفصل تحت عنوان « الحروب الصليبية » .

ان هذه الخطة ، بكل ما تقتضيه من المحرر من مراعاة الشمول والدقة ، هي التي رأيناها جديرة بتحرير موسوعة كبرى مثل « بهجة المعرفة » .

بهجة المعرفة ؟ نعم ، فهذا الاسم بالذات ليس مجرد اختيار عابر من جانبنا ، بل هو المنهج ذاته المتبع في اعداد مواد الموسوعة وفي توزيعها ايضا .

لم نكترث للفكرة القائلة بان المعرفة التي تكتسب بيسر لا بد ان تكون معرفة سطحية او غير نافعة . الواقع ان مثل هذا الزعم ليس خياليا وبعيدا عن مفهوم التربية فحسب ، بل انه مفسد ، اذ من شأنه ان يسد كل طريق ممكن الى المعرفة . لقد تعمدنا ان نتجاهله ، وصممنا على ان نمضي في الاتجاه الاخر ، عازمين على تأكيد ايماننا بان المعرفة في حد ذاتها هي اول لذات الحياة واكثرها اثارة للبهجة .

استعملنا الرسوم . استعملنا الجداول واللوحات والخرائط . اتجهنا لتطوير طريقة

عرض المادة بحيث يسقط الضوء على كل موضوع من ثلاث زوايا مختلفة في وقت واحد :

زاوية النص العام الذي يتولى مهمة شرح الموضوع وتحديد اطاره ؛ زاوية الصور التي تواكب فقرات النص بمثابة شروح او وثائق ؛ زاوية التعليق على الصور ، وهو نص آخر قائم بذاته ، لإضافة مزيد من المعلومات الى النص العام او شرح تفاصيله .

هذا المنهج في تغطية جميع وحدات الموضوع من عدة زوايا في وقت واحد هو الذي قاد المشرفين على اخراج الموسوعة في اللغة الانجليزية الى ابتكار نظامهم البارع ـ والمفيد ـ لتجميع كل موضوع على حدة في قطاع واحد من صفحتين .

نظام القطاع : اصطلاح « القطاع » يمثل هنا الوحدة الاساسية لجميع المجلدات ، وهو صفحتان في الاصل الاجنبي ، واربع صفحات في النسخة العربية ، نظراً لاختلاف حجم المجلد من جهة ، وصغر انماط الحرف اللاتيني من جهة اخرى .

كل قطاع يضم نصاً رئيسياً يقع في ٧٥٠ كلمة تقريبا على امتداد النصف العلوي من الصفحات الاربع ، تضاف اليه الصور والرسوم الملونة التي تغطي مع شروحها اكثر من نصف المساحة . وقد اخترنا للشروح اصغر نمط متاح للحرف العربي ، لكي نفسح مجالاً كافياً لحشد مزيد من التفاصيل ، دون ان تصبح القراءة صعبة او مرهقة .

نقل القطاع من اصله الاجنبي الى النسخة العربية تم بنجاح ، رغم الاختلاف الظاهر بين حجم المجلد في كلتا الموسوعتين . لقد التزمنا اصلا ، في القطاعات التي قررنا نقلها بحذافيرها الى اللغة العربية ، بنشر جميع الصور في احجامها الاصلية وجميع النصوص والشروح التي يضمها القطاع على اربع صفحات بدلاً من اثنتين .

لمن « بهجة المعرفة » ؟ في الدرجة الاولى نحن نتوجه الى القارىء المدرب الذي تلقى تعلياً منظماً يعادل ـ على الاقل ـ مرحلة التعليم الاعدادي . فقراءة موضوعات الموسوعة من دون المام بأوليات المعرفة قد لا تكون امراً مشوقاً . فيما عدا ذلك ، نعتبر « بهجة المعرفة » « حلقة درس » حقيقية مفتوحة فعلاً لجميع الاعمار .

لقد ضمنّاها ثلاثة مصادر للمعرفة ، تمثل مستويات المعارف المختلفة : مصدراً يعالج معلومات اساسية قد يحتاج اليها كل قارىء ، مثل المواد الخاصة بوظائف الجسم

وتربية الطفل وامور الصحة والمرض ؛ ومصدراً يعالج معلومات مفيدة وممتعة معا ، من شأنها ان تشد انتباه كل قارىء بين الاعدادي وبين الجامعة ، لأنها تهيىء له مرجعا علميا موثوقا به لجميع المعارف التي يتلقاها طوال سنوات دراسته ، مثل المواد الخاصة بالتاريخ والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلك ؛ ثم مصدراً ثالثاً يعالج معلومات متخصصة لا يحتاج القارىء الى مطالعتها فقط ، بل الى مراجعتها ايضا بين حين وآخر ، بحثاً عن الحل او المشورة ، مثل المواد الخاصة باستعمال الالات او موضوعات غذاء الطفل ورعاية الحامل .

كيف تقرأ ؟ نظام القطاع مصمم خاصة لتحويل الموسوعة الى مكتبة امام كل قارىء لا يرتبط بمنهج بحث معين . انه يستطيع ان يقرأ كل كتاب على حدة - او حتى كل قطاع على حدة - ويستطيع ان يضمن لنفسه فيضاً زاخراً من المعلومات النافعة دون ان يخسر شيئاً من متعة التشويق والتباين . لكن نظام القطاع قد يقدم خدمة اكبر للقارىء المدرب الذي يستعمل الموسوعة طبقا لمناهج محددة في البحث .

فهذا القارىء ، سواء كان طالبا او باحثا متخصصا ، تمده الموسوعة بمرجع قريب وسهل التداول ، يكفيه مشقة البحث الطويل بين المصادر ، ويكفيه في الدرجة الاولى مشقة تجميع المصادر نفسها . كل ما يحتاج اليه هنا هو ان يراجع في « اقرأ ايضاً » ارقام صفحات القطاعات المترابطة في كل مجلد على حدة ، لكي يكتشف بنفسه ان كل قطاع يعمل تلقائياً بمثابة خلية واحدة في جسم واحد ، وان كل قطاع يقود الى الآخر في نسيج متواصل النمو والتشابك مثل المعرفة الحية نفسها .

كيف تبحث ؟ الخطوة الاولى ان تحدد لنفسك المجلد الذي يتعامل مع موضوعك . فما يخص الانسان مثلا تبحث عنه في « هذا الانسان » ، وما يخص الفضاء تبحث عنه في مجلد « الكون » . ومجلدات الموسوعة مقسمة عمدا الى مجموعتين لتسهيل هذه المهمة بالذات .

الخطوة الثانية ان ترجع ، في « هذا الانسان » مثلا ، الى الصفحة الثامنة عشرة ، حيث تجد خارطة مفصلة للكتاب ، تحدد لك اين تجد موضوعك ، وموقعه من المادة بأسرها . فاذا كنت تبحث عن امر يتعلق بالجهاز الهضمي مثلاً ، فسوف ترشدك الخارطة الى القسم الثاني المخصص للجسم البشري في بنيته وفي وظائفه . بعد ذلك ، كل ما تحتاج اليه هو ان تلقي نظره على فهرس المحتويات لكي تعرف الصفحة التي تحتوي على موضوعك .

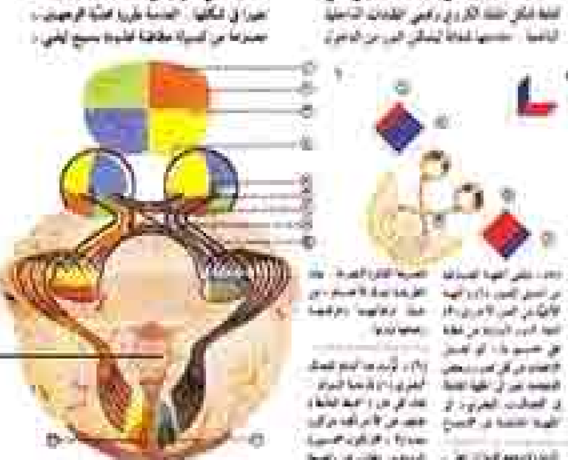
الدكتور كريم عزقول

نظام القطاع

النص الرئيسي هو عرض لموضوع قائم بذاته ، من ٧٥٠ كلمة تقريباً ، يملأ الجزء الأعلى من صفحات القطاع الاربع .

الرسوم والصور هي رسوم وصور ومخططات ولوحات وجداول وخرائط تضفي طابعاً حسياً على تفاصيل الموضوع وتجسِّده ماثلا امام عينيك .





نموذج للقطاع بمختلف عناصره المتآزرة لجعل موضوع في المعرفة الشاملة العامة متكاملاً ومشوِّقاً وحيّاً .

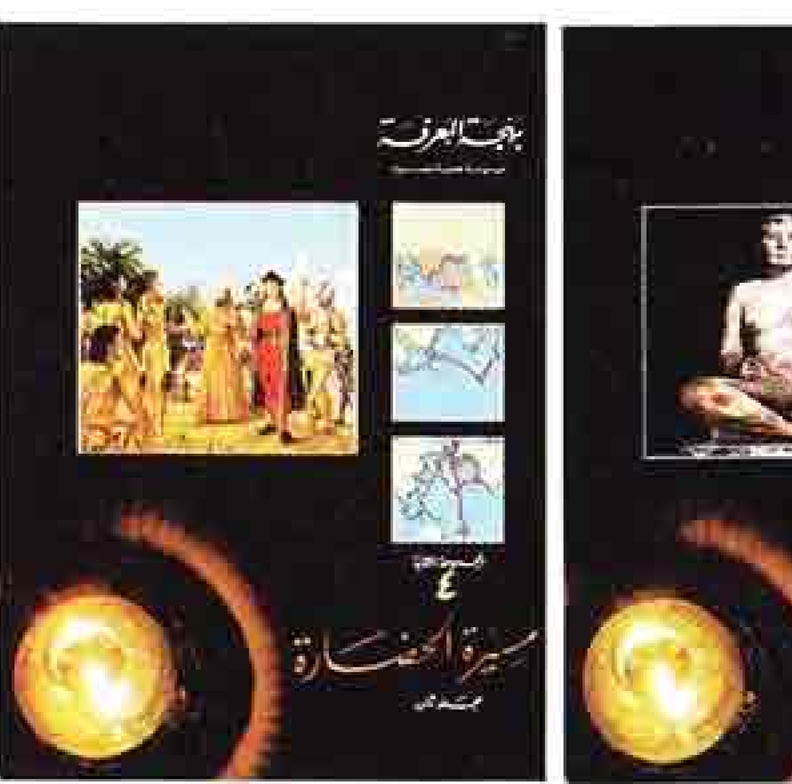
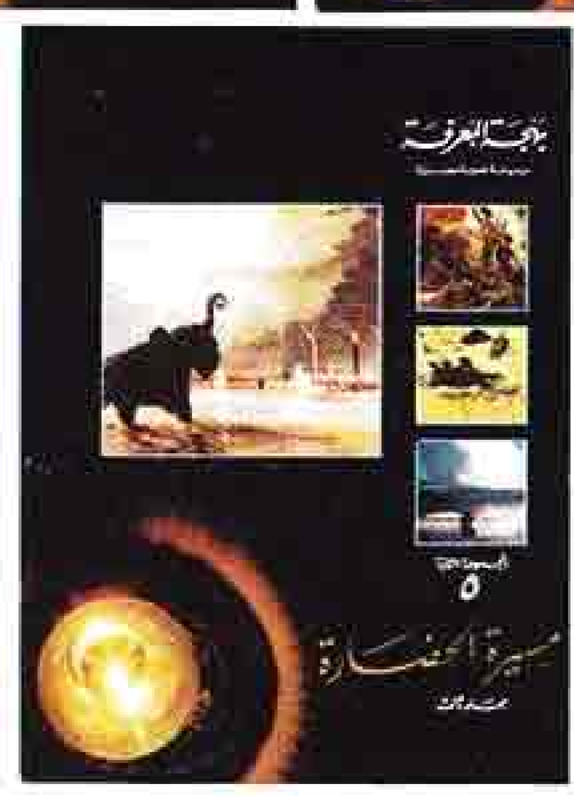
الهوامش هي كلمات ـ عناوين لاجزاء الرسوم والصور او ارقام تدلك الى شروحها في التعليقات .

التعليقات هي شروح للرسوم والصور تستخرج معانيها وتوضح دقائقها وتزودك بمعلومات تفصيلية اضافية عن الموضوع .



اقرأ ايضاً هي قائمة بالابحاث التي تتناول نواحي اخرى من الموضوع ذاته والتي يمكنك مطالعتها في هذا المجلد . وقد افرد لها باب خاص في آخر المجلد .

مدخل

في النص الأجنبي ، التزمت خطة التحرير بمنهج المفكرة في اعداد مجلدات الحضارة الثلاثة ، وهو منهج تطور اصلا على أيدي المؤرخين العرب ، واشهر خصائصه ان مادته مبوبة طبقا لوحدات زمنية محددة ، وليس طبقا لوحدة الأحداث .

ميزة هذا المنهج انه يتيح للمحرر تجميع معلومات وفيرة وسهلة الترتيب عن مسيرة الحضارة من عصر الى عصر . لكن مشكلته انه قاصر عن تجميع ابعاد الصورة النهائية في اطار أخير واحد ، وهو نقص يهمنا أن نوفيه في النسخة العربية بالذات .

فمسيرة الحضارة بالنسبة لنا ، نحن سكان الوطن العربي ، انحرفت الى طريق وعر في مطلع القرن الحادي عشر ، عندما استأنف الأوروبيون غارة الاستيطان المسلح على اراضينا للمرة الثالثة منذ هجوم الاسكندر ويوليوس قيصر خلال الالف الأولى قبل الميلاد ، وصادفت الغارة هذه المرة عصرا تميز بسباق بحري عالمي للسيطرة على المحيط . لقد خسرنا ذلك السباق .

ورغم ان الاوروبيين ارتدوا مؤقتا عن اراضي الشرق تحت ضغط الكتلة العظمى من الهلال الاسلامي ، فان عملياتهم العسكرية على اطرافه القصوى في الاندلس كانت تجري ضد جبهة هشة معزولة عن طرق الامدادات ، ما لبثت أن تحطمت نهائيا قبل مطلع القرن السادس عشر .

واذ ذاك أغلق الاسبان مضيق جبل طارق ، واصبح البحر المتوسط زنزانة . ان تاريخنا لا يدخل المحيط .

نقف خارج دائرة الاحداث . نصبح شعبا قديما في العالم القديم . يستأثر الأوروبيون بالمحيط . وينفردون بشعوب قاراته النائية في حرب مستحيلة بين قبائل مسلحة بسهام العصر الحجري . وبين جيوش نظامية تقاتل بالاسلحة الفتاكة التي طورها صراع الحضارات في البحر المتوسط .

يباد الهنود . يباد سكان استراليا . يباد سكان الجزر . تمحي آلاف اللغات . تندثر حضارات وشعوب بأسرها . يصبح «العالم الجديد» مستوطنة اوروبية . ان الاوروبيين الفقراء الذين عرفهم وطننا خلال الغارة الصليبية على المشرق يرثون فجأة كنوز عالم بأسره .

يختل ميزان القوى . يتغير وجه العالم . تنقلب قوانينه الى حد يبرر تقسيمه شرعيا الى ثلاث عوالم مرة واحدة :

عالم غني واسع تقطنه شعوب غرب أوروبا المطلة على المحيط . وهي الشعوب التي قامت بتنفيذ الغارة ، واستوطنت امريكا الشمالية والجنوبية وجنوب افريقيا واستراليا بالاضافة الى قارة انترتيكا ، وجميع الجزر وممرات التجارة الدولية .

عالم يعيش على الكفاف ، تقطنه شعوب وسط اوروبا واطرافها الشرقية البعيدة عن المحيط . وهي شعوب لم تتمكن من المشاركة في الغارة لكنها ايضا لم تسقط فريسة لها بفضل قدرتها المستمرة على الاحتفاظ بموقع الردع في سباق التسلح .

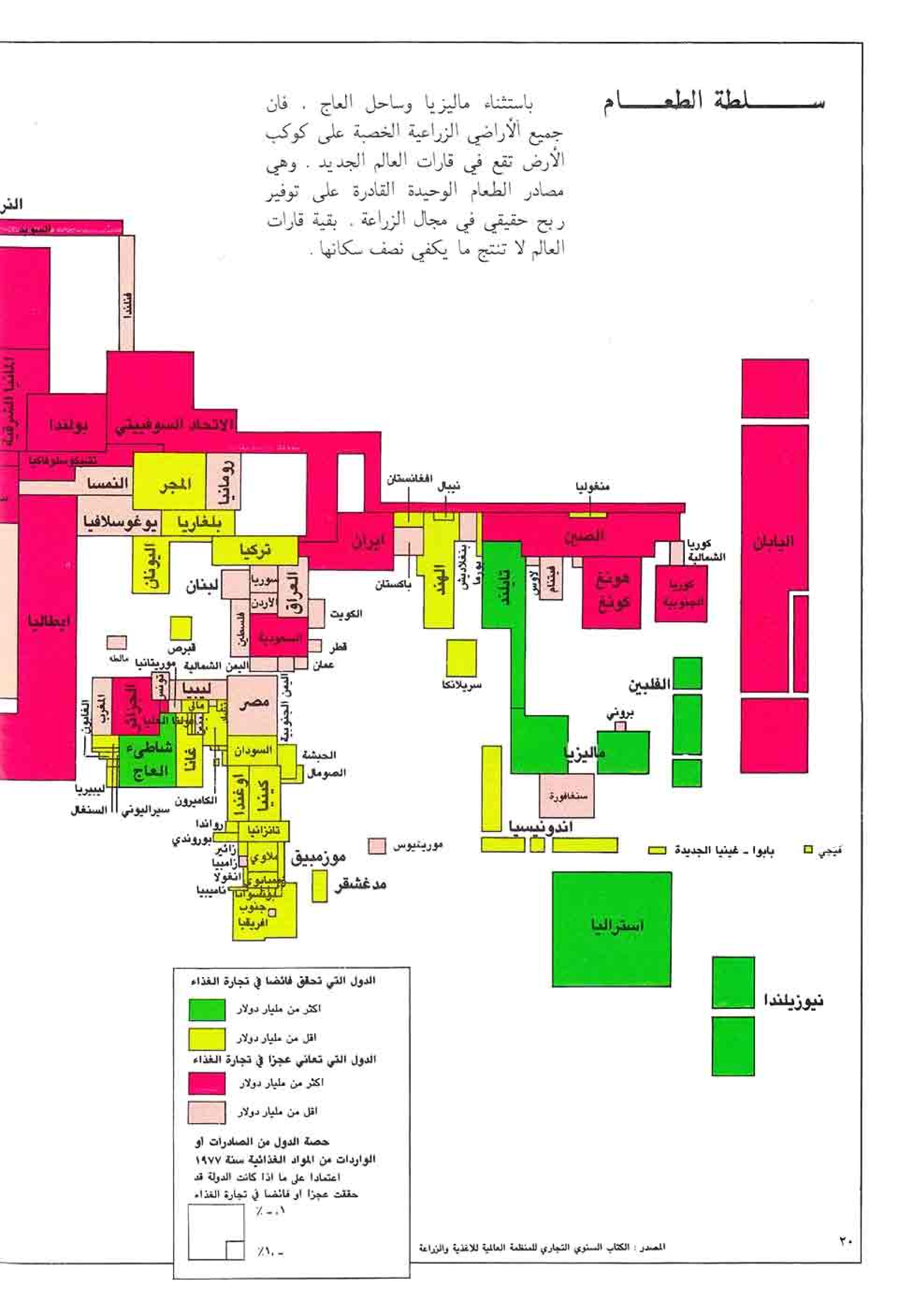
عالم فقير مزدحم في افريقيا وآسيا ، تعرّض للاحتلال أو الابادة . واستنزف الاوروبيون موارده بقوة جيوشهم النظامية وشركاتهم الضخمة حتى اصبح أمر اعادة بنائه مشروعا محفوفا بالشكوك .

تتضاعف الفروق . تتسع الهوة بين عالم وعالم . تقف لغتنا العربية عند جبل طارق . يقف تاريخنا عند جبل طارق . تنتشر ثلاث لغات اوروبية في المستوطنات الواسعة الجديدة ، هي بالذات لغات قادة الحروب الصليبية ، الاسبان والفرنسيين والبريطانيين . وفي هذه اللغات تولد ثقافة العصر الحالي وعلومه . وقيمه الاخلاقية . ان الحضارة التي بدأت مسيرتها من وطننا قبل ان يستوطن الاوروبيون اوروبا نفسها ، قد انحرفت بالنسبة لنا في مسار مفجع حقا .

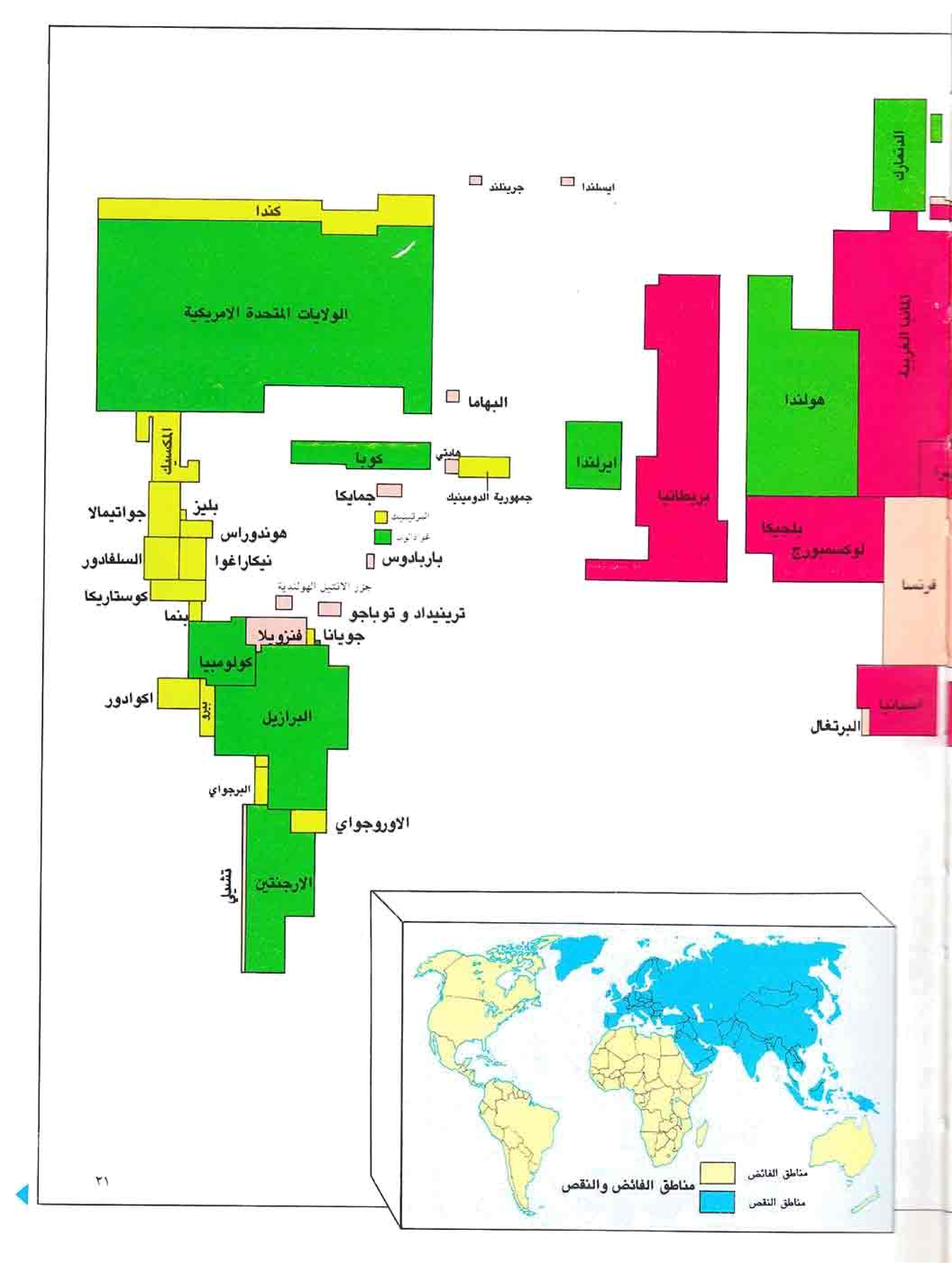
واذا كانت هذه النهاية قد بدت مؤقتة ، أو قابلة للتغيير خلال العصر الذي شهد مطلع الغارة الأوروبية على قارات المحيط الهادىء ، فانها الآن ـ بعد أربعة قرون من تنفيذ الغارة ـ تبدو بمثابة القرار الأخير الحاسم في مصير الحضارة بأكملها . اننا نحيل الحديث عن هذه الحقيقة الى جداول الاحصاء .

سـلطة الطعـام

باستثناء ماليزيا وساحل العاج ، فان جميع الأراضي الزراعية الخصبة على كوكب الأرض تقع في قارات العالم الجديد . وهي مصادر الطعام الوحيدة القادرة على توفير ربح حقيقي في مجال الزراعة . بقية قارات العالم لا تنتج ما يكفي نصف سكانها .



المصدر : الكتاب السنوي التجاري للمنظمة العالمية للاغذية والزراعة


جرينلند
ايسلندا
كندا
الولايات المتحدة الامريكية
الدنمارك
هولندا
ايرلندا
بريطانيا
بلجيكا
لوكسمبورج
فرنسا
اسبانيا
البرتغال
البهاما
كوبا
هايتي
جمهورية الدومينيك
جمايكا
باربادوس
جزر الانتيل الهولندية
ترينيداد و توباجو
المكسيك
جواتيمالا
بليز
هوندوراس
السلفادور
نيكاراغوا
كوستاريكا
بنما
فنزويلا
جويانا
كولومبيا
اكوادور
بيرو
البرازيل
البرجواي
الاوروجواي
الارجنتين
تشيلي
مناطق الفائض والنقص
مناطق الفائض
مناطق النقص

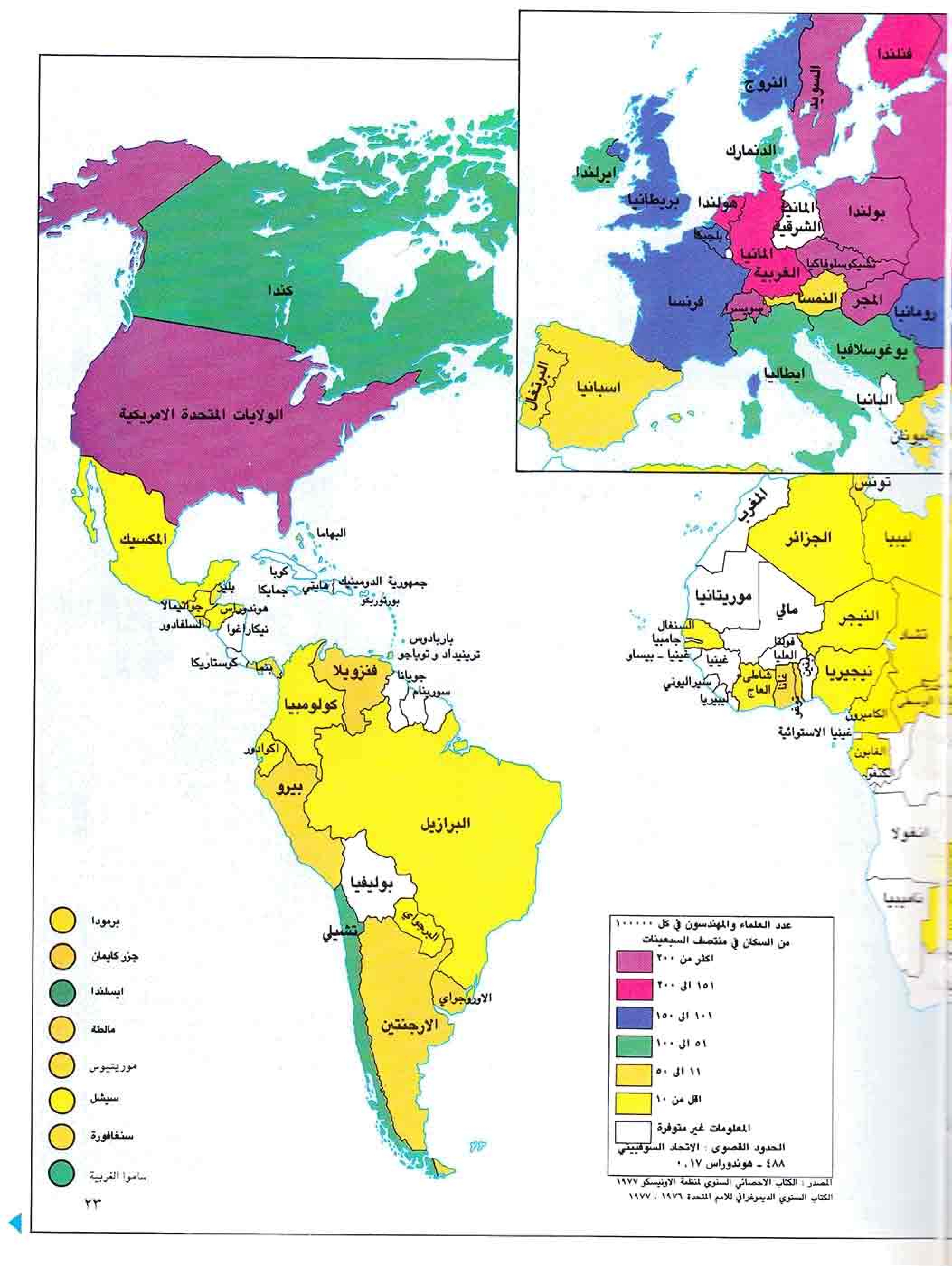
سلطة التقنية

احتفظت شعوب أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي بموقع الودع في سباق التسلح قبل الغارة وبعدها. وما تزال حتى الآن طرفا في السباق التقني الصاعق الذي يغير وجه عالمنا المعاصر. بقية شعوب الأرض ما تزال خارج الحلبة. فيما عدا مستوطنات الأوروبيين واليهود في فلسطين.



القيمة الاستشارية للعمال المهرة المهاجرين الى البلدان المذكورة بالمقارنة مع ما تدفعه هذه الدول من مساعدات المالية.
حالات بين ١٩٦١ و ١٩٧٢ . القيمة ببليارات الدولارات الامريكية.

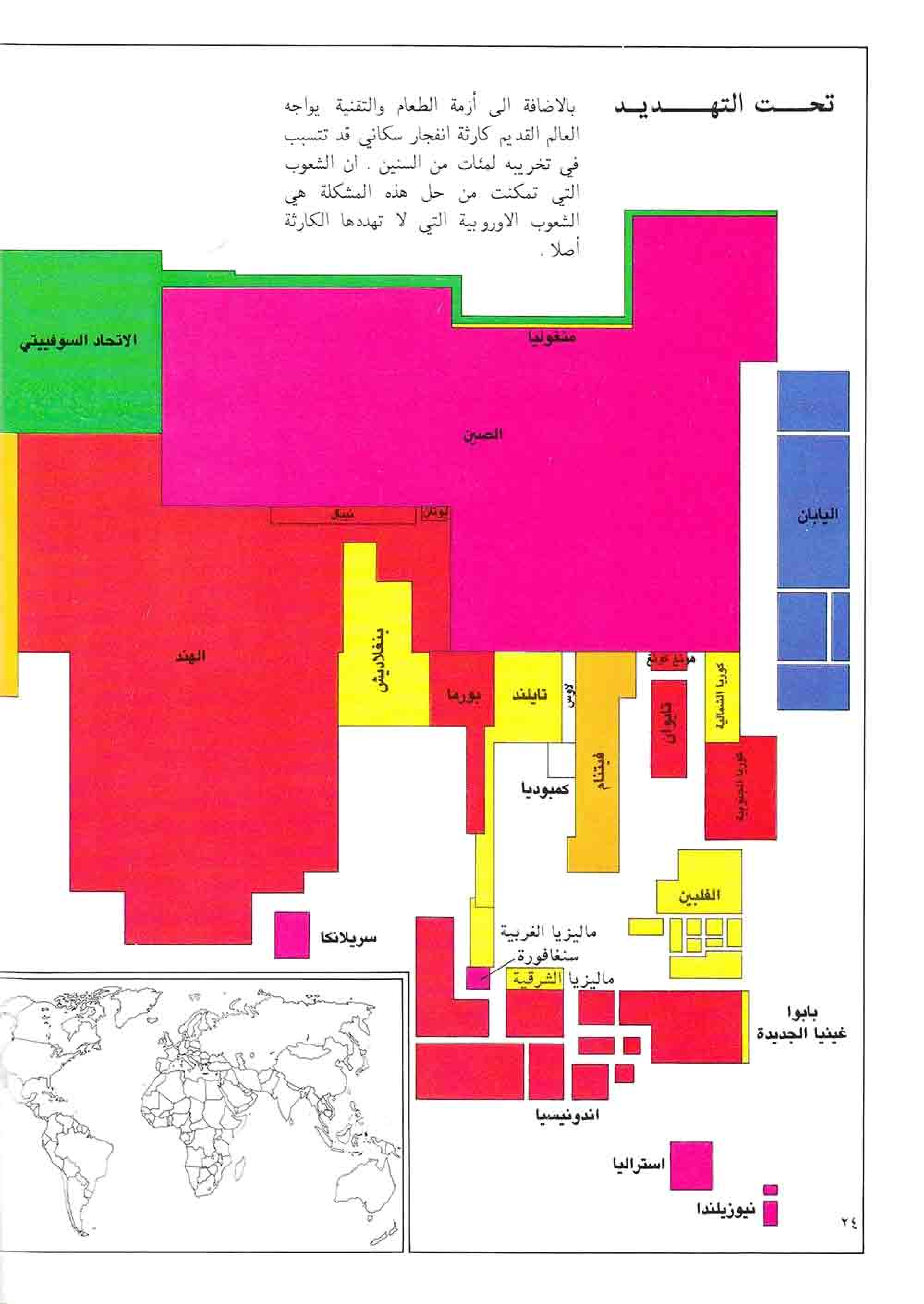
المصدر : منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية .

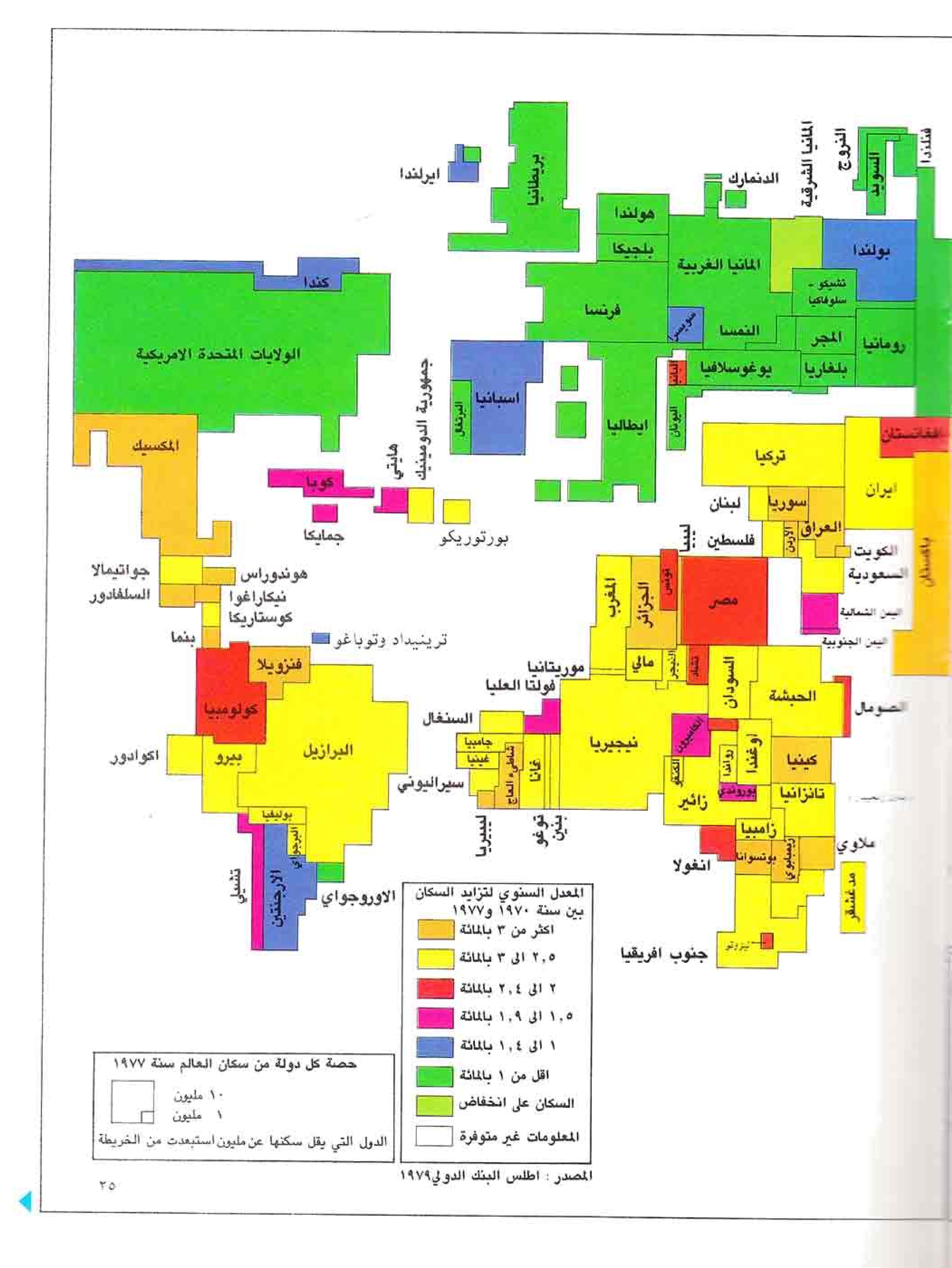


فنلندا
السويد
النروج
الدنمارك
ايرلندا
بريطانيا
هولندا
المانيا الشرقية
بلجيكا
بولندا
المانيا الغربية
تشيكوسلوفاكيا
فرنسا
سويسرا
النمسا
المجر
رومانيا
يوغوسلافيا
البرتغال
اسبانيا
ايطاليا
البانيا
اليونان
كندا
الولايات المتحدة الامريكية
المكسيك
البهاما
كوبا
جمهورية الدومينيك
هايتي
جمايكا
بورتوريكو
بليز
جواتيمالا
هوندوراس
السلفادور
نيكاراغوا
كوستاريكا
بنما
باربادوس
ترينيداد وتوباجو
فنزويلا
جويانا
سورينام
كولومبيا
اكوادور
بيرو
البرازيل
بوليفيا
تشيلي
البرجواي
الاوروجواي
الارجنتين
تونس
المغرب
الجزائر
ليبيا
موريتانيا
مالي
النيجر
السنغال
جامبيا
غينيا - بيساو
غينيا
فولتا العليا
سيراليوني
ساحل العاج
ليبيريا
نيجيريا
الكاميرون
غينيا الاستوائية
الغابون
الكنغو
انغولا
ناميبيا
برمودا
جزر كايمان
ايسلندا
مالطة
موريتيوس
سيشل
سنغافورة
ساموا الغربية
عدد العلماء والمهندسون في كل ١٠٠٠٠٠ من السكان في منتصف السبعينات
اكثر من ٢٠٠
١٥١ الى ٢٠٠
١٠١ الى ١٥٠
٥١ الى ١٠٠
١١ الى ٥٠
اقل من ١٠
المعلومات غير متوفرة
الحدود القصوى : الاتحاد السوفييتي ٤٨٨ - هوندوراس ١٧,٠
المصدر : الكتاب الاحصائي السنوي لمنظمة الاونيسكو ١٩٧٧
الكتاب السنوي الديموغرافي للامم المتحدة ١٩٧٦ ، ١٩٧٧

تحت التهديد

بالاضافة الى أزمة الطعام والتقنية يواجه العالم القديم كارثة انفجار سكاني قد تتسبب في تخريبه لمئات من السنين . ان الشعوب التي تمكنت من حل هذه المشكلة هي الشعوب الاوروبية التي لا تهددها الكارثة أصلا .





المصدر : اطلس البنك الدولي ١٩٧٩

أبعاد الصورة النهائية مفاجئة ومربكة وخطيرة . ولا يمكن تحديدها من زاوية واحدة طبقا لأي منهج جاد . لهذا السبب ذكرنا هنا ان خطة التحرير في النص الأجنبي لا تغطي احتياجات النسخة العربية . وان تحديد الاطار النهائي لمسيرة الحضارة العالمية أمر يتطلب تغيرا جذريا لزاوية الرؤية في كل لغة على حدة . لقد رأينا أن نلتزم بالزاوية التي تخصنا .

أعدنا ترتيب المادة التاريخية في أربعة مجلدات . ثلاثة منها تغطي قصة الحضارة منذ بدايتها المبكرة . الى منتصف القرن العشرين . وهي فترة شهدت صعود وطننا الى موقع الصدارة في حضارة البحر المتوسط . وشهدت تطوير السفينة على يد ملاحيه من وسيلة نقل نهرية الى سلاح تعبوي معد للسيطرة على البحار . ثم شهدت عصر السباق على المحيط الهندي الذي انتهى بسجن حضارتنا داخل البحر المتوسط . وحصر جبهة الصراع الدولي بين الأوروبيين وحدهم .

اضافاتنا في هذا القسم تجاوزت حدود المائة فصل . وتركزت على تغطية مسيرة الحضارة في وطننا العربي بالتفصيل نفسه الذي وفرته خطة التحرير في النص الاجنبي لتغطية أحداث المسيرة في اوروبا . وقد رأينا ان نعيد تبويب المادة بحيث ينتهي المجلد الثالث بوقائع الحرب العالمية الثانية التي رسمت آخر خارطة لوطننا كما نعرفه الآن .

في المجلد التالي . وهو المقدمة العامة لمجموعة الكتاب السنوي . اخترنا أن نعالج المادة من زاوية أخرى . فخطة التحرير هنا لا تهدف الى تسجيل الأحداث . بل الى تحديد نتائجها النهائية كما تشكلت حاليا في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية . وهي فترة تخرج من نطاق التاريخ الى نطاق الواقع اليومي المعاش .

مادة هذا المجلد تم اعدادها في لوحات احصائية موزعة بين قسمين . أحدهما يغطي الصورة العامة على نطاق العالم بأسره . والآخر يغطي الصورة الجزئية في الوطن العربي . وقد رأينا أن نلتزم بآخر الاحصائيات الصادرة حتى عام ١٩٨١ . لكي نحتفظ بالرؤية من أقرب زاوية الى أرض الواقع .

خطة اخراج هذا المجلد تقوم على استبدال النص بالصورة . وتهدف الى تركيز الضوء في بؤرة ضيقة يسهل تحديد أبعادها . وهو هدف سعينا لتحقيقه لكي نختم مسيرة الحضارة بلوحة مركزة واحدة عن نتيجة المسيرة عند آخر محطة . أما تفاصيل الأحداث خلال فترة ما بعد الحرب . فقد تم ادراجها في جداول ملحقة بالمجلد لكي لا يتسبب زحام هذه المادة في حجب ملامح الصورة الأساسية .

هيئة تحرير الموسوعة

مسيرة الحضارة

المجلد الأول
من بدء التاريخ الى سقوط بغداد (١٢٥٨)

المجلد الثاني
من سقوط بغداد الى مؤتمر فيينا (١٨١٥)

المجلد الثالث
من مؤتمر فيينا الى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥)

المجلد الرابع
العالم المعاصر

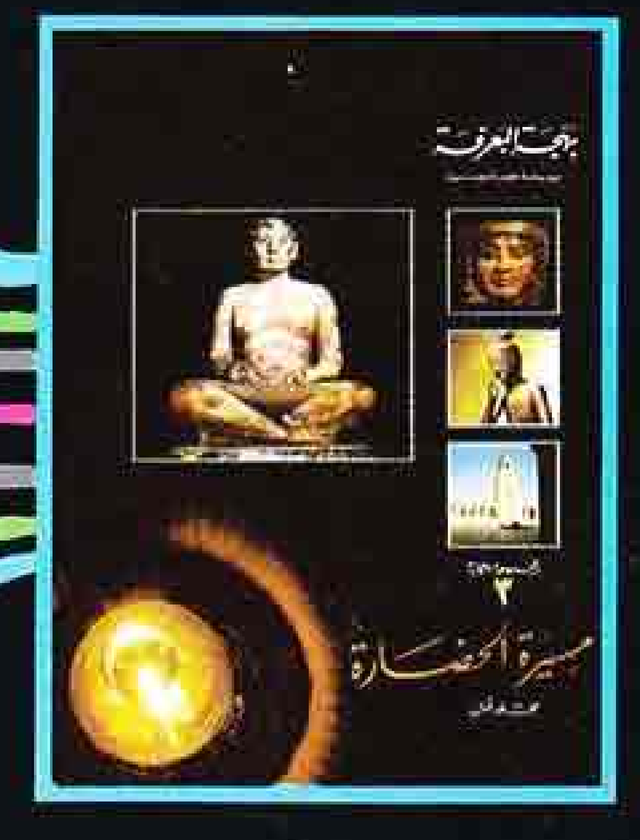
خطـــة الكتاب

بدايات التحضر الانساني (من صفحة ٣٠ الى صفحة ٤٢)

الحضارات القديمة (من صفحة ٤٦ الى صفحة ٢٦٢)

العرب قبل الاسلام (من صفحة ٢٦٦ الى صفحة ٢٧٨)

- عرب الجنوب
- عرب الشمال
- أطراف الجزيرة



نهضة العرب الاسلامية (من صفحة ٣١٨ الى صفحة ٣٧٠)

الثقافة العربية الاسلامية (من صفحة ٣١٤ الى ٤٣٤)

- مصادر الفكر الاسلامي
- العلوم
- الفنون والآداب

التطورات الاسيوية (من صفحة ٢٨٢ الى صفحة ٢٩٨)

أوروبا في القرون الوسطى (من صفحة ٤٣٨ الى صفحة ٤٧٤)

- فن ما قبل التاريخ
- وسائل التاريخ
- علم الآثار

- الشرق الاوسط وأوروبا
- الشرق الأقصى والهند
- افريقيا وأمريكا قبل كولومبوس

- ظهور وانتشار الاسلام
- تطور الامبراطورية
- المؤسسات الاسلامية
- المجتمع

- الهند وفنونها
- الصين الكونفوشية
- اليابان

- الامبراطورية الرومانية المقدسة
- التطورات الحضارية
- الصراع الغربي الشرقي

وسائل التاريخ

لكل علم مادته المتوفرة بين يديه الا التاريخ ، فان مادته هاربة باستمرار مع الزمن الهارب . انها الماضي . ولكن كيف يلتقط التاريخ هذا الماضي الذي لن يعود أبدا ؟ ما هي وسائله في ذلك ؟ كيف يعيد المؤرخ بناء الأمس ؟ مؤرخو العصور الحديثة ، ولاسيما المعاصرة منها ، محظوظون . انهم في عصر تدفق المعلومات . لديهم كل أنواع الامكان التسجيلي لهذا « الزمن » التاريخي الذي يفر ثانية ثانية من يدي الانسان . لديهم الصور والوثائق والسجلات والاحصائيات والتسجيل الصوتي والمرئي وشهود العيان بالالاف والكتابات . ولديهم الى هذا وذاك مناهج التحليل ، والمعطيات التي لا تنفد من

١

٢ أ

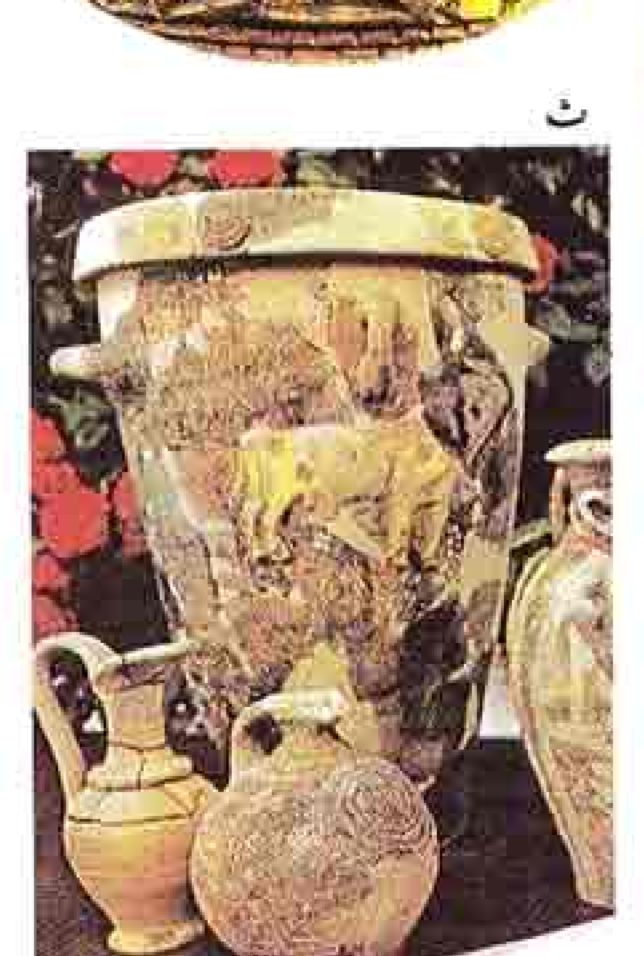


ت

ب



ث



(١) ـ هوميروس ، الشاعر الاغريقي الضرير ، كان من أهل القرن السابع أو السادس ق . م . ينظر اليه على انه مؤلف الملحمتين المشهورتين الالياذة والأوديسة . تتنازع سبع مدن يونانية شرف ولادته فيها . ليس يعرف شيء عن تاريخ حياته . القصص المتوارثة تصوره شيخا أعمى يطوف من مدينة الى أخرى منشدا الأشعار . منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم طرحت مئات الفرضيات حول تاريخ الأعمال الشعرية التي تنسب اليه ، وحول صحة نسبتها وحول عماه . الاغريق يعتقدون ان الآلهة توحي للعميان . فمعظم شعرائهم كذلك . من المظنون انه ليس بصاحب التراث الشعري الذي ينسب اليه ، ولكنه كان الراوي له .

(٢) ـ الأدوات التي يعيد الأثريون بناءها ، كرأس القيثارة الذهبية هذه (أ) التي وجدت في أور ويرجع عهدها الى حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م والموجودة حاليا في المتحف البريطاني ، والعقود (ب) وفص الخاتم الذهبي (ت) التي وجدت منذ أمد قريب في بعض الحفائر في كريت من الحضارة المينوية . وهذه الفخاريات (ث) ومثلها كثير في مختلف الحضارات ، كل هذه وتلك من الأدوات والحلى واللقى الأثرية ، هي من أدوات التاريخ . المؤرخ ، من خلال مادتها ، اتقانها الفني ، معناها ، مكان وجودها ... يبني هيكل المعرفة التاريخية . عليه من خلال هذه الفتات الميت أن يبني مسيرة الحضارة والحياة .

انتاج مادي وفني وعمراني ومكتوب . ولديهم الى هذا كله . الانتقال المكاني السهل الممكن والعلوم المساعدة العديدة . وثائق المؤرخ الحديث للوصول الى الحقيقة موفورة راهنة ، بل انها ضخمة متعددة للدرجة التي تغرقه ، وتجعل امكانياته في استيفاء الاحاطة والالمام الشامل ضيقة محدودة ، كما تجعل الدراسة الواسعة عملا مرهقا ، ضخما يحتاج الى مجموعات متعاونة من الدارسين .

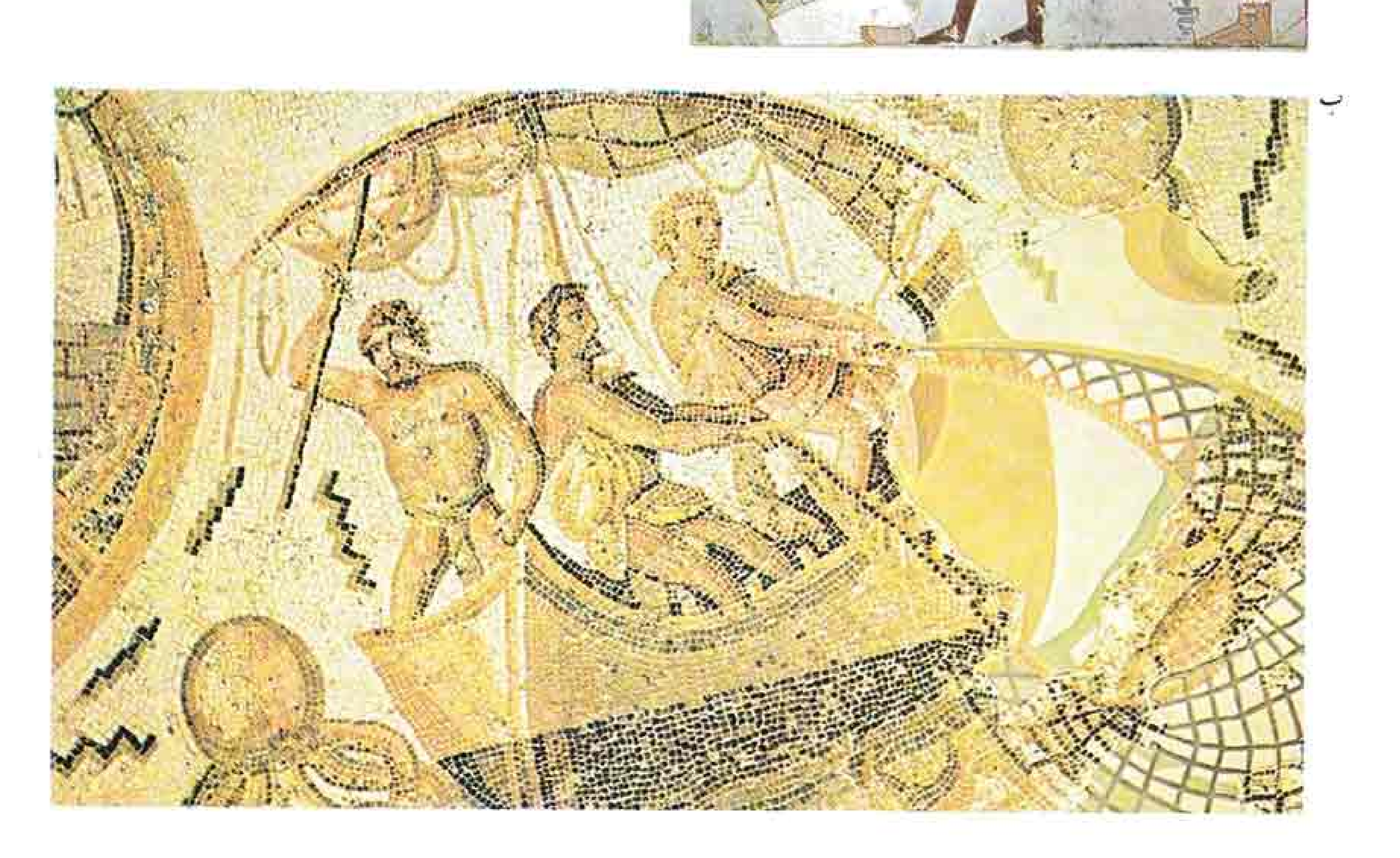
تناقص وسائل التاريخ

ان هذا الامكان يتضاءل طردا كلما عدنا السنين القهقرى . ويشتد ضيقه حين نجتاز حاجز جوتمبرج واختراع الطباعة في القرن الخامس عشر . ثم يشتد هذا الضيق جدا حين نجتاز حاجز « الورق » وانتشاره في القرن الثامن . واذا وصلنا عصر اكتشاف الابجدية في القرون ١٦ ـ ١٨ ق . م ، صرنا نتلمس الطريق بالرموز . واذا تجاوزنا عصر اكتشاف

(٣) ـ ندر أن تحدث المؤرخون ، قبل العصور الحديثة ، عن الحياة العامة وعن تقاليد المجتمع وأساليب الزرع أو شكل الملابس أو طرق تصفيف الشعر . كان الناس يمارسون ذلك دون أن يسجلوه . اهتماماتهم كانت تنصب على المعبودات والملوك والأمراء والنكبات والأحداث العظمى والنوادر الغريبة . هنا تأتي الصور الأثرية والمنحوتات لتسد الثغرة وتكشف طرق العيش المجهولة في العصور الأولى . الفرقة الموسيقية المصورة (أ) في مقبرة أمنمحت في طيبة (الأسرة ١٨) ولوحة الصيد (ب) من فسيفساء القرن الثالث الميلادي في تـوغا .

٣ أ

ب



الكتابة والقرون ٣٠ ـ ٣٥ ق . م ، تجاوزنا التاريخ ودخلنا ما قبل التاريخ وأصبحنا نتلمس المعرفة بالقرائن وبقايا الأدوات والأساطير .

هكذا لا تتماثل وسائل التاريخ بين عصر وعصر، أو بلد وبلد . فلكل بلد ، في كل عصر من العصور ، مصادره التاريخية المختلفة حسب الظروف التي حفظت تلك المصادر . المؤرخ ينطلق من البقايا المتوفرة ليعيد بناء الماضي . وهذه البقايا متفاوتة في الشكل والقيمة ، وفي الكمية والوجود ، وفي مقدار الثقة التي يمكن أن نمنحها لها . فللرواية في التاريخ جانب وللآثار جانب آخر .

التاريخ في الرواية :

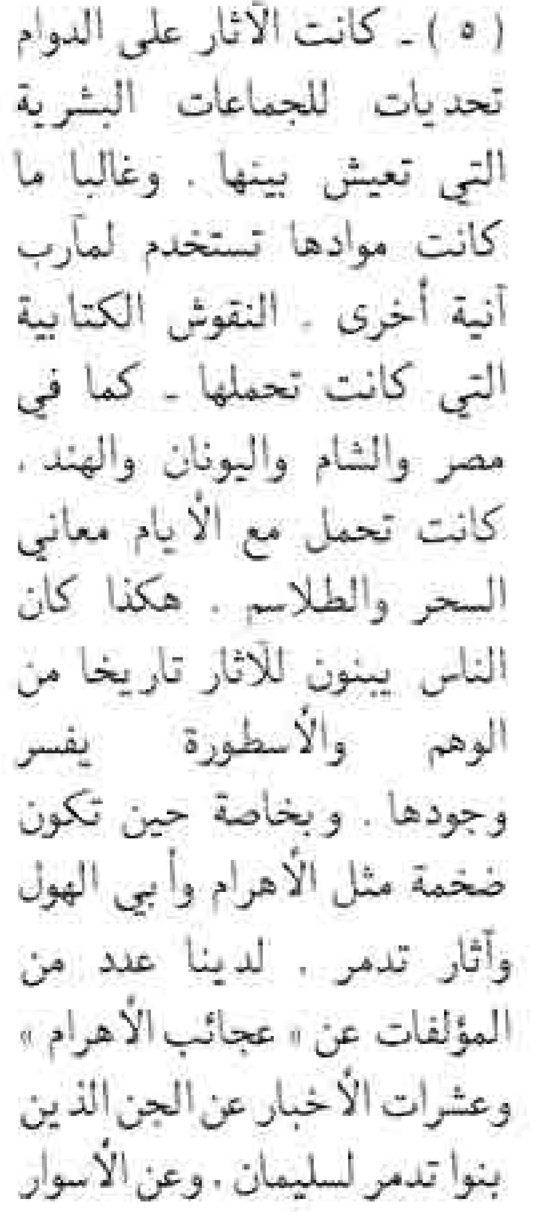
١ ـ هناك أولا الرواية الشفهية ، وهي مادة التاريخ الاولية والدائمة . فقبل أن يعرف الانسان الكتابة وتنتشر طرائقها وأدواتها

٤ أ

ب

(٤) ـ اشتهرت الكتابة المسمارية (أ) في الشرق القديم لأن عدة لغات لعدة شعوب كتبت بها . كما اشتهرت الهيروغليفية . الكتابتان أساسهما تصويري . وكتب بهما كل تاريخ الشرق القديم قبل اكتشاف أبجدية أوغاريت . ظلت الهيروغليفية طلاسم مبهمة حتى اكتشف حجر رشيد سنة ١٧٩٩ (ب) وعليه ٣ كتابات (في ٣ لغات) هي الهيروغليفية واليونانية والديموطيقية . النص يسجل مرسوما بتكريم بطليموس الخامس . استطاع شمبوليون الفرنسي ، بمقارنة نصوص الكتابتين المعروفتين مع الثالثة المجهولة ، أن يكتشف سر الكتابة الهيروغليفية ويضيف أكثر من ٣ آلاف سنة الى تاريخ الانسانية .

٥



(٥) ـ كانت الآثار على الدوام تحديات للجماعات البشرية التي تعيش بينها . وغالبا ما كانت موادها تستخدم لمآرب آنية أخرى . النقوش الكتابية التي كانت تحملها ـ كما في مصر والشام واليونان والهند ، كانت تحمل مع الأيام معاني السحر والطلاسم . هكذا كان الناس يبنون للآثار تاريخا من الوهم والأسطورة يفسر وجودها . وبخاصة حين تكون ضخمة مثل الأهرام وأبي الهول وآثار تدمر . لدينا عدد من المؤلفات عن « عجائب الأهرام » وعشرات الأخبار عن الجن الذين بنوا تدمر لسليمان . وعن الأسوار التي بناها الآلهة في اليونان .

السهلة ، كان أيضا يروي تاريخه ، ويرويه شفهيا . وتأخذ الرواية مع القرون شكل الاساطير . والمؤرخ اليوم يلجأ الى بقايا هذه الاساطير لمعرفة الماضي الأول الذي اندثر . هكذا مثلا يستنطق المؤرخون ملحمتي الالياذة والاوديسة عن المجتمع اليوناني الأقدم (١) . ويستخرجون من ملاحم المهابهاراتا والرامايانا والبورانا وكتب الفيدا في الهند ملامح تاريخها الأول ، لأن الاساطير تحاك حول نواة من الواقع ، والتخيلات فيها تبنى من معطيات أولية مأخوذة من عصورها .

٢ ـ وهناك الرواية المكتوبة ، وهي مادة التاريخ الاساسية منذ وجدت الكتابة . المؤرخون الأقدمون هم الذين سجلوا في الواقع الشهادات والروايات الشفهية المتداولة التي اضحت أول سطور التأريخ . قوافل المؤرخين الى اليوم انما امجادهم هي تلك الكتب التي سجلوا فيها ما رأوا وسمعوا وقرأوا عن عصورهم والعصور السالفة .

التاريخ في الآثار والوثائق

٣ ـ الآثار ، ويزداد شأنها في التاريخ كلما أوغلنا رجوعا في الزمن ، لتصبح في بعض الاحوال ، وفي العصور القديمة خاصة ، مصادر التاريخ الوحيدة . فالشعوب كلها ، بدافع من العقائد الدينية في الغالب ، او من رغبات الملوك او من الحاجات الحياتية الاخرى ، تركت آثارها على الارض التي عرفتها . وعلى هذه الآثار نبني معارفنا مثلا عن حضارات امريكا قبل كولومبوس ، وحضارات الهند والصين والفراعنة والرومان والاتروسكيين وشعوب افريقيا الزنجية . ونكتشف كل يوم جديدا . وبعض النكبات الصاعقة ، كاندثار بومبيي تحت رماد فيزوف (٧٩ م) أو تدمير نينوى الكامل (٦١٢ ق . م) ، تعطي الأثري والمؤرخ فرصته الذهبية للوصول الى الكنوز من المعارف التاريخية . وتتراوح الآثار بين الابنية ، وبين القطع الاثرية الفنية (٢) (تماثيل ، نقوش ، حلى) ، أو أدوات العمل والحياة (آنية ، أسلحة ، أدوات ، نسيج ، نقود ، بردي) . وكلها مادة للتاريخ الانساني . بالاضافة الى ما تكشف عنه بعض الصور الأثرية من ملامح الحياة العامة التي لا يسجلها في العادة أحد من القدماء (٣) .

٤ ـ الكتابات الاثرية ، وهي وثائق العصور القديمة . فمعظم الحضارات السالفة سجلت على آثارها ما تريد قوله ، بكتابات شتى (٤) . حين حل شمبوليون رموز الهيروغليفية ، أضاف الى التاريخ ثلاثة آلاف سنة (٤) . والكتابات التي استعصت على الحل (مثل كتابة كريت) ما تزال تحتفظ بأسرار التاريخ . قبل حل رموز الكتابات القديمة ، كان الناس يخترعون التاريخ اختراعا بالاساطير والوهم حول الآثار (٥) .

٥ ـ الوثائق ، وهي تجمع السجلات والصكوك والمراسلات . واذا كانت نادرة في العصور القديمة أو قليلة نسبيا في العصور الوسطى ، فهي فيض هائل لدى المؤرخ الحديث .

عدا هذا كله ، يستفيد التاريخ الآن من كشوف الانثروبولوجيا والسيكولوجيا وعلم الاجتماع واللغويات وعلوم الاقتصاد والاحصاء والفولكلور والطب وغيرها من العلوم . ان التاريخ يحاول بذلك كله أن يحتضن الانسان بكل أبعاده شريطة أن يعرف المؤرخ كيف يستنطق تلك الوسائل وهذه العلوم .

عِلم الآثار

اذا كان التاريخ الحديث يستند بصورة اساسية الى الوثائق ، فالتاريخ القديم يجد مستنداته في علم الآثار وما يتصل به . ومع ان الاهتمام بالآثار لم يأخذ المنحى الجدي الا في العصور الحديثة ، فانها كانت تفرض نفسها على الناس الذين كانوا ينسجون لها تاريخا اسطوريا ، في الغالب ، يفسر وجودها ، او يحاولون الكشف عن اسرارها السحرية او هويتها . نابونيد آخر ملوك بابل مثلا أمر بالحفر في الأحجار الاساسية لهيكل كان يسبق عهده بـ ٣٢٠٠ سنة ليعرف مبلغ قدمه . وقد وجدت اشارات أثرية لدى المؤرخ توكيديس (٤٦٠ ـ ٣٩٥ ق . م) ولدى بعض مؤرخي اليونان ، اهتم بها الامبراطور

١



٢



(١) ـ ظلت طروادة ، المدينة التي تدور حول فتحها ملحمة الالياذة المشهورة ، مدينة اسطورية حتى اكتشف موقعها وآثارها العالم الألماني شليمان بين سنة ١٨٧٠ و وسنة ١٨٩٠ وتبين أنها حوالى تسع طروادات طبق بعضها فوق بعض . لكن تاريخها كان قد تلفف بالأساطير لدرجة الاعتقاد بأن الآلهة هي التي بنت أسوارها الشاهقة (آبولون وبوسايدون) ، فلما رفض ملكها دفع الأجر أرسلت عليه الغرباء ووحش البحر . وأنبأه العرافون ان المعبودات لا ترضى الا بتقديم فتاة لها كأضحية سنوية ... وتمضي الاساطير بعد ذلك واحدة بعد الأخرى حتى تنتهي باختطاف باريس ابن ملك طروادة لهيلين الاغريقية المنسوبة للآلهة . وحصار الاغريق عشر سنوات لطروادة التي لم تفتح الا بحيلة ، هي الحصان الخشبي الضخم الذي كمن في قلبه المحاربون . حتى اذا هدم الطرواديون جانبا من الاسوار لادخاله خرجوا لهم .

---

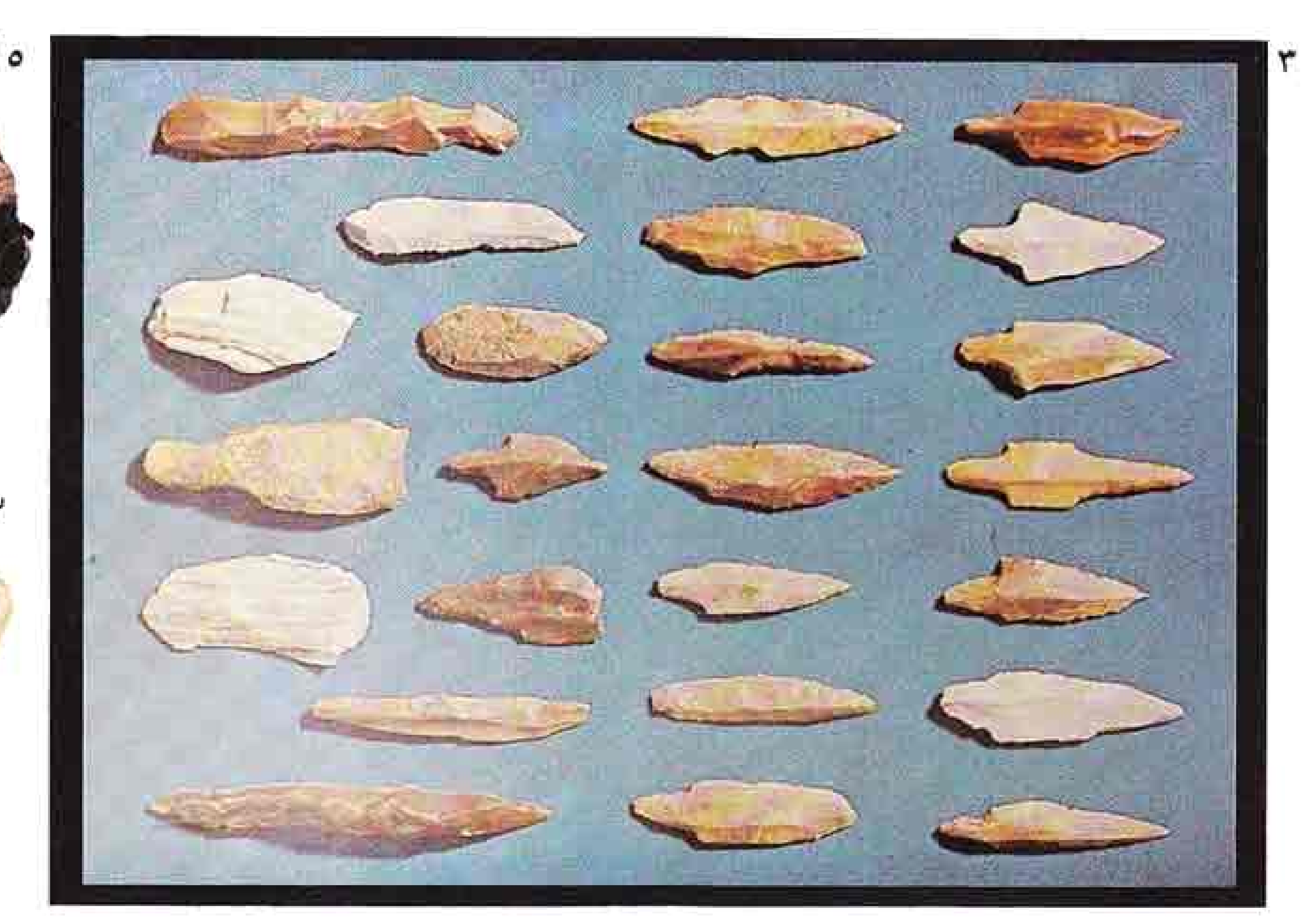
(٢) ـ باستثناء مجموعتي الآثار الاسلامية واليونانية الرومانية فان مجموعة الآثار الفرعونية هي أكبر وأغنى وأهم مجموعة أثرية في العالم كله . وتعتبر من أهم المنجزات الحضارية لأنها تحكي تاريخ الانسانية في وادي النيل خلال خمسين قرنا . كشفت أبنيتها وصورها وكتاباتها وأدواتها عن معلوماتها وأسرارها منذ قرن وبعض القرن . وصار لها الآن علم خاص بها يسمى « ايجيبتولوجيا » .

هارديان . لكن الآثار لم تكن بصورة عامة محترمة ، لا بسبب عدم تقدير قيمتها التاريخية فحسب ، ولكن بسبب النظر اليها في العصر المسيحي ، ثم الاسلامي من بعده ، على انها بقايا وثنية لا تستحق الاحترام والحفظ ، ان لم يكن من المستحب تهشيم انوفها ، او الاستفادة من حجارتها . يضاف الى ذلك عمليات السطو الذي لم ينقطع ، منذ القديم ، على ما يجده الناس ، أو يتوهمون وجوده من كنوزها السحرية الخبيئة .

الآثار لدى مؤرخي الاسلام

مع ذلك اهتم عدد من المؤرخين المسلمين بالآثار القديمة . لكنهم لم يتعدوا وصفها ، ومحاولة القراءة الوهمية او الوعظية لكتاباتها ، ونسبتها احيانا الى الجن او سليمان او قوم عاد (ومن هنا تسميتها بالعاديات) . من هؤلاء المؤرخين مثلا ابن

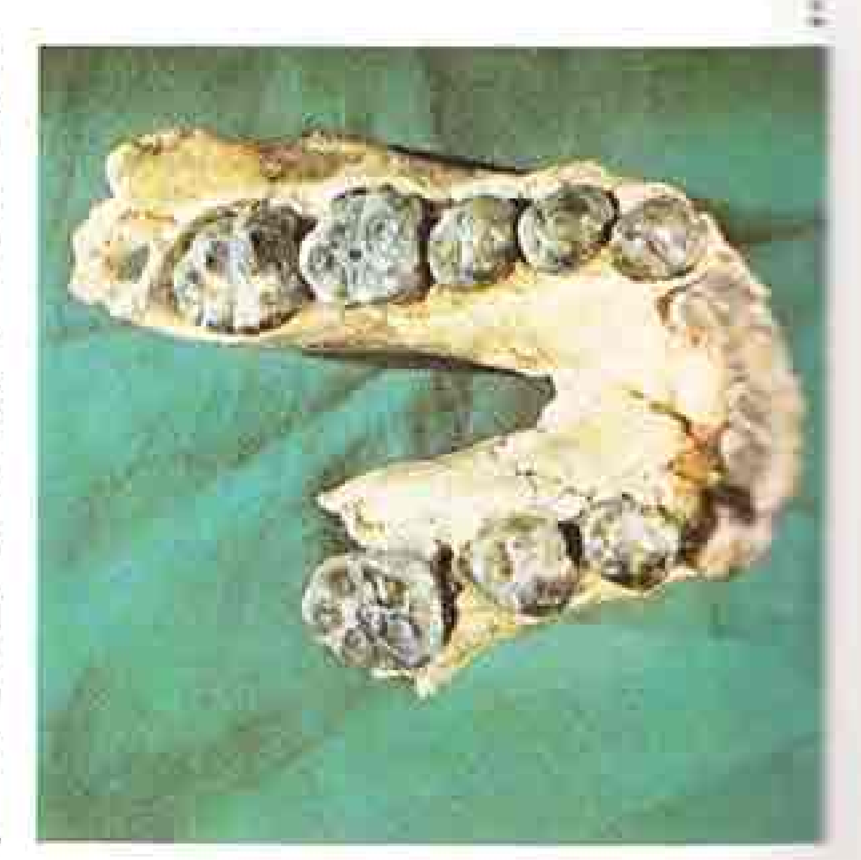
٣



٥ أ

ب

٤



(٣) ـ هذه الظران الحجرية (يظهر سطحها الأعلى وأحد جانبيها) أرسلها أحد العلماء الاثريين الى جمعية الآثار في سفولك سنة ١٧٩٧ ، مؤكدا انها قديمة جدا « حتى انها قد تعود الى زمن سابق لعمر الكون المعروف » . يعكس موقف هذا العالم النظرة الحديثة الى الجيولوجيا والى قدم وجود الانسان على الأرض .

(٤) ـ هذه الفك لانسان ما قبل التاريخ المعروف « بالانسان الماهر » وجدها في وادي اولدوفاي في تنزانيا العالمان الاثريان لويس وماري ليكي . كان من شأن عمل هذين العالمين واتساعه على يد ابنهما ريتشارد ليشمل آثار بحيرة رودولف انه أرجع عمر الانسان (في فترة عشرين عاما) من أقل من مليون سنة الى خمسة ملايين سنة تقريبا .

(٥) ـ قناعان جنائزيان سريعا العطب صنعا لشخصين ماتا قبل حوالى ٤ آلاف سنة في بلاد النوبة . أعيد تركيبهما من الفتات الذي وجدته البعثة الفرنسية الأثرية الى السودان النوبي في مدفن قلعة ميرجيسا على الشلال الثاني من النيل . الاقنعة الملونة صنعت من قالب أخذ عن وجه الميت . وهو يجري اعداده للفائف المومياء .

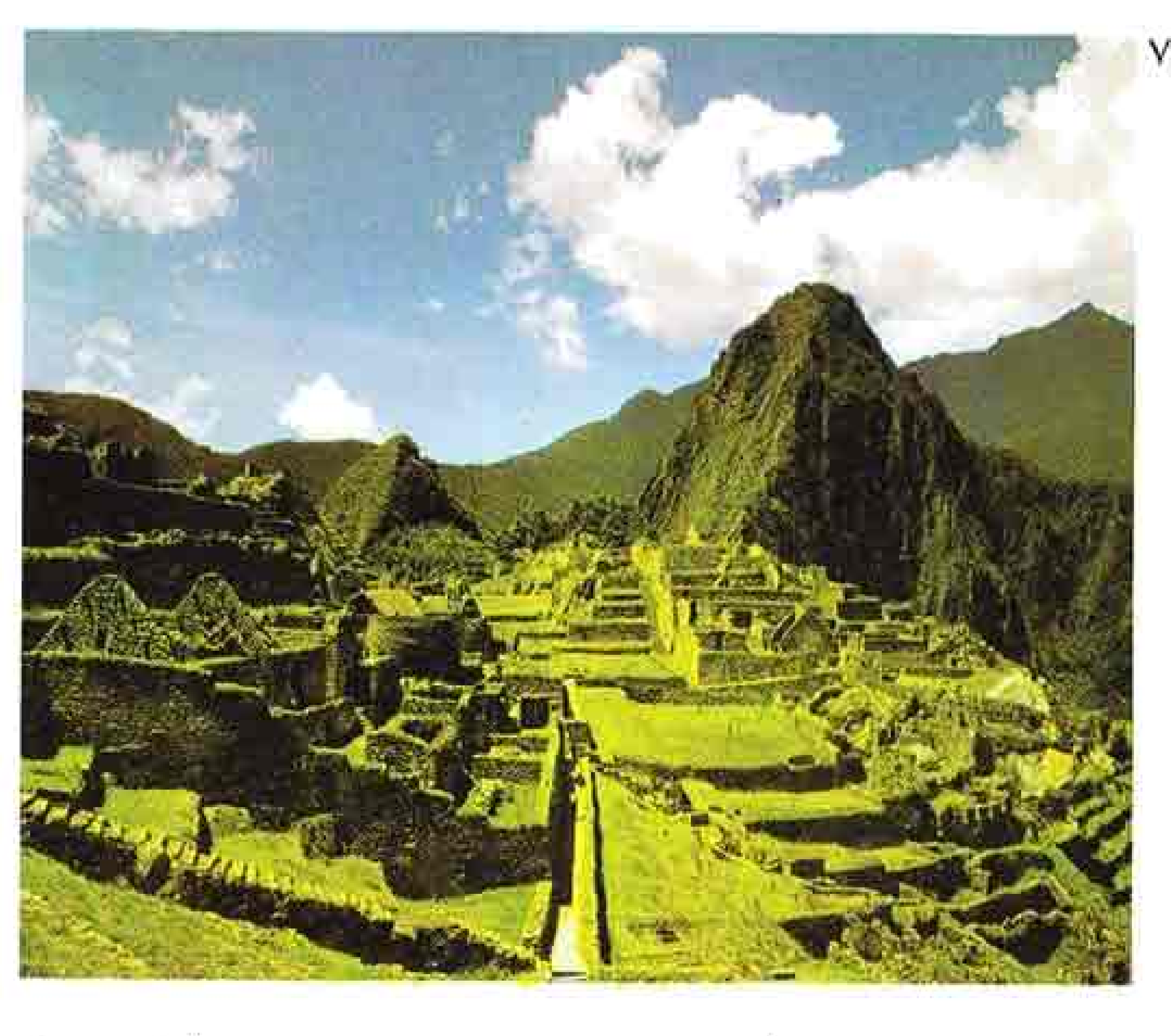
عساكر وابن العديم وابن شداد والمقريزي وابن الجوزي . ونجد الاهتمام نفسه لدى الجغرافيين العرب ، كالمقدسي وابن رسته والادريسي ، ولدى الرحالين الذين كانوا يصفون ما يمرون به من الاوابد . وقد دعا بعض العلماء الى حفظ هذه الآثار ، ومن هؤلاء عبد اللطيف البغدادي وابن خلدون . واستأثرت آثار مصر بالذات باهتمام عدد من المؤرخين ، فألفوا في عجائب مصر واهراماتها (كابن وصيف شاه ، وابن فضل الله العمري ، ومحمد الوطواط) ، كما ألف آخرون في آثار اليمن (الهمداني) وآثار فارس (حمزة الاصبهاني) وآثار مكة (الازرقي والفاسي) .

الآثار في العصر الحديث

اهتم الاوروبيون ، في عصر النهضة ، بالآثار اليونانية والرومانية ، لأنها موجودة

٦

٧



(٦) ـ توت عنخ آمون (١٣٤٨ ـ ١٣٣٧ ق . م) ، الذي يرى في الصورة المأخوذة عن ظهر عرشه الملكي متحدثا الى زوجته . ليس أكثر من ملك شاب من أواخر الأسرة ١٨ توفي في الثامنة عشرة ودفن لأسباب غير معلومة تماما على عجل في مقبرة ملكية صغيرة . نحتت غرفها أسفل مقبرة أخرى ، بعد ان اضيفت الى كنوزه الجنائزية بعض مقتنيات الملك سمنخ كارع ، وتغير الاسم عليها لتوضع معه في قبره الذي ظل تحت الرمال في وادي الملوك ٣١ قرنا . كان من حظه ان اللصوص لم يسرقوه بسبب خفاء مكانه . في نوفمبر سنة ١٩٢٢ عثر العمال على حائط المدخل صدفة ، ضمن حفريات يقودها العالم هوارد كارتر بتمويل جماعة منها اللورد كارنافون . حين فتح باب المقبرة بهر الجميع كما بهر العالم ـ وما يزال ـ لما فيها من كنوز أثرية تشع الذهب .

(٧) ـ أطلال هذه المدينة ماتشو بيتشو تقوم في البيرو بأمريكا اللاتينية في مرتفعات جبلية تزيد على ٨ آلاف قدم . شعوب الأنكا ، صاحبة تلك البلاد قبل كولومبوس بقرون طويلة ، أقامت عاصمة المملكة هذه بين قمتين جبليتين . كانت لها حضارتها الرائعة ومواردها الضخمة من الزراعة وأقنية الري الممتدة في الجبال آلاف الأمتار . ولها فن رائع في صياغة الذهب خاصة والفضة وفي النسيج وفي البناء . دمرها الفاتحون الاسبان بقيادة (بيسارو) سنة ١٥٣٣ ، ونسيها الناس فغطتها النباتات الكثيفة . اكتشف هذه « المدينة الضائعة » الرحالة الامريكي حيرام بنغهام سنة ١٩١١ . بذلت جهود ضخمة لازالة الأدغال التي تغطيها ولتظهر من جديد عاصمة أقوى وأكبر امبراطورية في أمريكا الجنوبية قبل عصر الاكتشافات .

حولهم ، ولأنها العصر الكلاسيكي بالنسبة اليهم ، ولأن العودة اليها كانت سمة من سمات ذلك العصر . بتأثير التاريخ المسيحي ، بعد ذلك ، والتوسع الاستعماري ، امتد الاهتمام الى الشرق . عمل على ذلك الفرنسيون اولا ثم الانجليز . شاركهم بعض الاوروبيين الآخرين ، قبل ان يأتي الالمان في القرن التاسع عشر . كان بين هؤلاء الهواة المولعين بالآثار دبلوماسيون وعلماء ورجال دين وضباط وتجار . كانت كتابات هؤلاء وما يحملون الى بلادهم من الآثار تزيد في الاهتمام الاثري في الغرب ، كما تزيد في منح الشرق طابع الكنوز الاسطورية .

كان القرن التاسع عشر قرن النشاط الأثري الواسع لأكثر من سبب . فهناك التوسع الاستعماري ، وانتشار الأفكار الانسانية الموسوعية ، وتوفر المال في أوروبا للانفاق على البحوث والبعثات ، وظهور النظريات في قدم الارض وقدم الانسان عليها ، واعادة الاعتبار للحضارات السابقة للديانات الموحدة . يضاف الى ذلك ما رافق الكشوف الاثرية من مادة علمية جديدة ومن كسب مادي ومن اعجاب عام ، وبخاصة بعد ذيوع الاخبار عن هركولانوم (سنة ١٧١٩) وبومبيي (سنة ١٨٤٧) وتدمر (سنة ١٧٥٣) وبعلبك (سنة ١٧٥٧) وبطرا (سنة ١٨١٣) ، وبعد ان حل شامبوليون الرموز الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ وكشف شليمان (سنة ١٨٢٢ - ١٨٩٠) عن مدينة طروادة الاسطورية (١) ، وقام التنافس الشرس على نهب آثار اليونان وما بين النهرين (٢) بين الانجليز والفرنسيين في أواسط القرن . ونشرت أخبار مأرب سنة ١٨٧٠ وكشفت كنوسوس في كريت سنة ١٩٠٠ .

علم الآثار الحديث

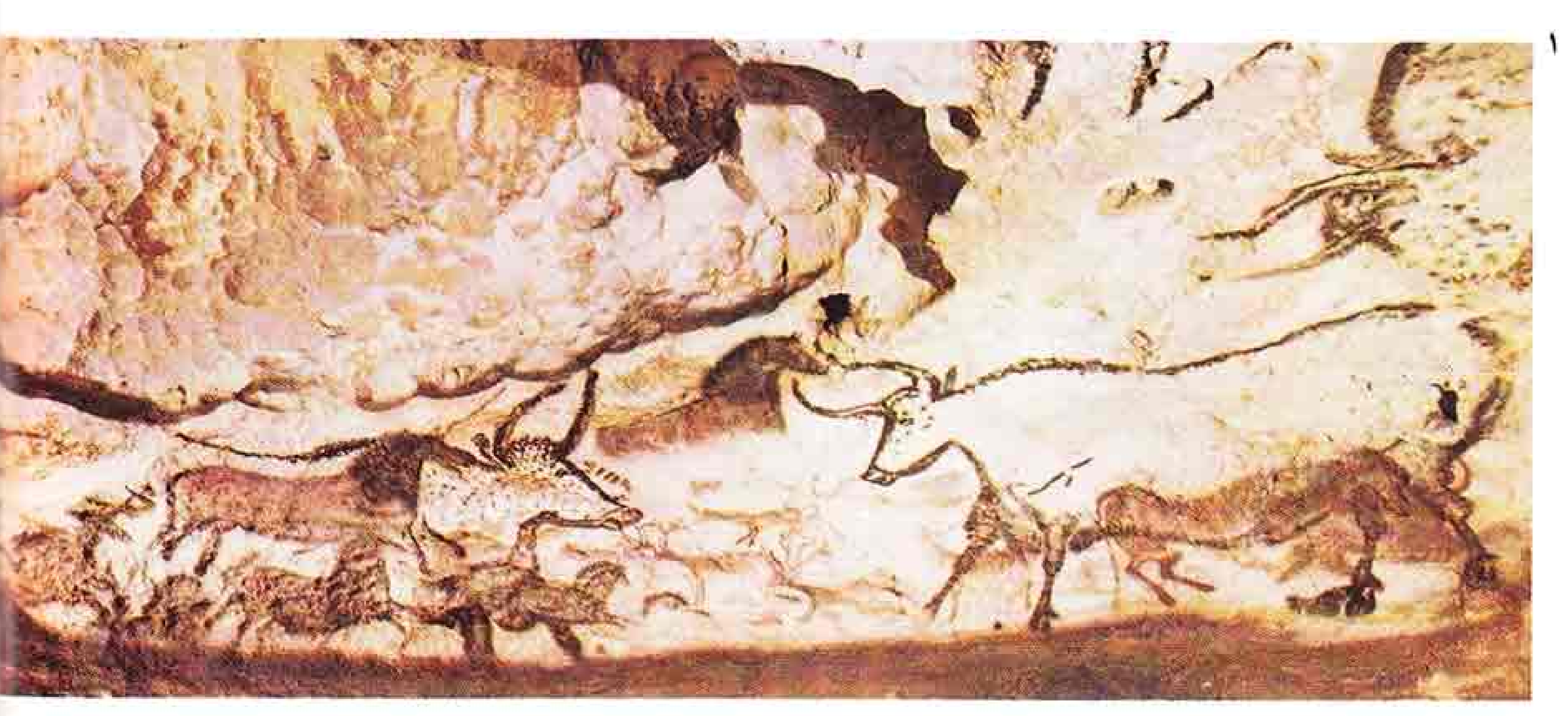
خلال ذلك كانت المكتشفات في حقل ما قبل التاريخ والعصور الحجرية (٣) تزداد ، وبخاصة بعد النظريات التي احدثت ثورة في الجيولوجيا (تشارلز ليل سنة ١٨٣٣) ، وفي الأنواع الحية (كتاب أصل الأنواع لداروين سنة ١٨٥٩) ، واعادة تنظيم العصور الانسانية قبل التاريخ (٤) . بين هذا وذاك تحول الاهتمام بالآثار من الهواة الى العلماء ، ومن الطمع بنهبها للزينة ، الى محاولة دراستها واقامة تطور الحياة الانسانية على اساسها . وولدت ضمن علم الآثار عدة علوم حسب المناطق الأثرية (مصر ، أشور ، يونان ...) ، وحسب نوع الآثار (فخار ، نقوش ، بردي) ، بينما كانت المكتشفات الاثرية تفاجىء الانسان كل يوم بجديد مدهش يزيد في شحذ همته وفي قيمة العمل الأثري ، مثل مقبرة توت عنخ آمون (٦) ومدينة ماتشوبيتشو (٧) .

في القرن العشرين ، جاءت التقنيات الحديثة الى هذا العلم ، وبالتالي الى التاريخ ، بمعونات كبيرة ، كالتصوير الجوي لكشف الحقول الاثرية ، والتصوير بالابعاد (فوتوغرامتري) ، والتنقيب الجيوفيزيائي والاستراتيغرافي (حسب الطبقات) ، وتحديد التواريخ الأثرية بقياس التلف الاشعاعي . هكذا صار لعلم الآثار اليوم مؤسساته واختصاصيوه في التنقيب والحفظ والترميم (٥) . وصار يشمل في الزمان ملايين السنين ، وفي المكان جميع بقاع الارض ، وبقايا الانسان . أهم من ذلك كله انه أخذ مكانه الوطيد بوصفه بعدا اساسيا من أبعاد المعرفة بالانسان .

فن ما قبل التاريخ

يبدو ان حس الانسان الجمالي كان قد توصل الى التعبير عن نفسه ، في أشكال بدائية معينة ، قبل حوالي ٣٠٠٠٠ سنة ، عندما أخذ الانسان الحديث ، أي « الانسان العاقل العاقل » يقضي على « الانسان العاقل النياندرتالي » بطرده أو باحتوائه . تقتصر الفروقات الهامة بين هذين الفرعين من الكائن البشري ، على ان الهيكل العظمي كان أكثر ضخامة عند الانسان النياندرتالي ، الذي كان مع ذلك منتصبا ، كبير الدماغ ، على شاكلة الانسان الحديث . الا ان بيّنات علم الآثار تدل على فوارق أخرى في السلوك ، والتكيف مع البيئة . أحد هذه الفوارق هو القابلية لخلق أشكال فنية .

١



(١) - الرسوم الشهيرة للحيوانات في كهف لاسكو هي من طراز شبيه بالفن الجدراني الموجود في عدد من المواقع الأُخرى في منطقة الدوردوني بفرنسا . اكتُشف هذا الكهف بالصدفة في سنة ١٩٤٠ ، بواسطة فريق من الاولاد الذين كانوا يتنزهون مع كلبهم ، وهو من أحدث مكتشفات فن الكهوف العائدة الى العصر الحجري القديم . معظم الحيوانات ، الظاهرة في هذا الجزء المصور من رسوم لاسكو ، هي من الثور البري (الأرخص) أو الجاموس الاوروبي الذي انقرض في بولونيا في القرن السابع عشر . وقد رُسمت بحيث تبدو للعيان القوائم الاربع والقرنان .

(٢) - حصانان مرقطان ، على جدران كهف بيش ميرل في فرنسا . وحولهما مزيد من البقع ومن الرؤوس والرقاب المرسومة بلون خالص . الأجسام ممتلئة والأعضاء نحيلة، وذلك من مميزات الكثير من الفن الحجري القديم . الحصانان متراكبان مما يدل بوضوح على انهما رسما في حقبتين مختلفتين ، ولكن ليس معروفا هل كان يفصل بينهما ساعات أو قرون . ثمة رسوم لأيد أنجزت بنفخ شيء من الدهان المسحوق حول يد وضعت على الحائط .

(٣) - يرقى هذا الشكل الصغير المصنوع من حجر الجير ، والمعروف باسم (فينوس) فيلندورف ، وهو موقع من الحقبة الجرافاتية في النمسا ، الى ما بين ٢٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ سنة . الثديان والبطن والأرداف الضخمة شواهد على هذا الشكل من الفن المتحرك .

(٤) - هذان الرجلان الراكضان مرسومان على الصخر ، في هضبة تاسيلي في الجزائر ، وذلك في قلب الصحراء ، صُوّرا بالالوان الخالصة . لكن رُكّز الاهتمام على ابراز الزينة التي تغطي جسميهما واعضائهما ، ويرجح ان هذه الزينة تمثل

« طفولة الفن »

مع بعض الاستثناءات ، يقترن الفن العالمي ، في أقدم أشكاله ، بالاقتصاد القائم على القنص عند « الانسان العاقل العاقل » (١) فقد اهتدى الانسان النياندرتالي الى الطقوس ، وربما الى الدين ، كما عرف أيضا كيف يحتفل بدفن موتاه . لكنه لم يكن قد استحدث بعد طريقة للتعبير عن نفسه ، بالرسم على مادة ثابتة . مع ذلك ، كانت أقدم أشكال الفن التي عثر عليها ، في الكهوف في جنوب غربي فرنسا ، وشمال شرقي اسبانيا ، على بعض التعقيد . وعندما اكتشف فن هذه الحقبة القديمة من العصر الحجري القديم (٣٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ سنة) في عام ١٨٧٥ ، تلقاه العلماء بشيء من الدهشة ، فقال عالم أثري فرنسي شهير « ان تلك هي طفولة الفن ، وليست فن طفل من الاطفال » . وبقي الكثيرون ينظرون اليه بريبة حتى عام ١٩٠٠ .

٢



٣

طلي الأجسام بأصباغ طبيعية ، على غرار ما يمارسه أهل النوبة في السودان حتى يومنا هذا . من المحتمل ان فن طلي الأجساد كان معروفا في العصر الحجري القديم .

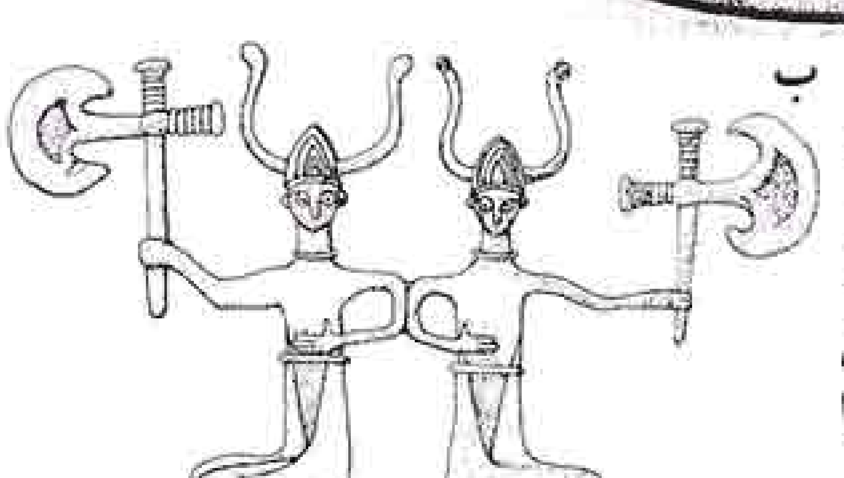
٤



(٥) - هذه المنقوشات الصخرية السكندينافية ، التي وجدت في الدنمرك ، تشبه من حيث التقنية منقوشات وادي كامونيكا ، لا بل حتى منقوشات متأخرة عن ذلك التاريخ . وهي تمثل سفينة مستطيلة (أ) فيها ثلاثة اشكال بشرية أو ربما صار ، ومجداف للقيادة . أما (ب) ، فتمثل محاربين يعتمران خوذتين عظيمتين ذواتي قرون ، وقد امتشقا بلطتين . لقد شكل وجود صخور ملساء تحدياً لا يقاوم لمصوري ما قبل التاريخ ، في أنحاء أوروبا وآسيا الصغرى .

٥ أ

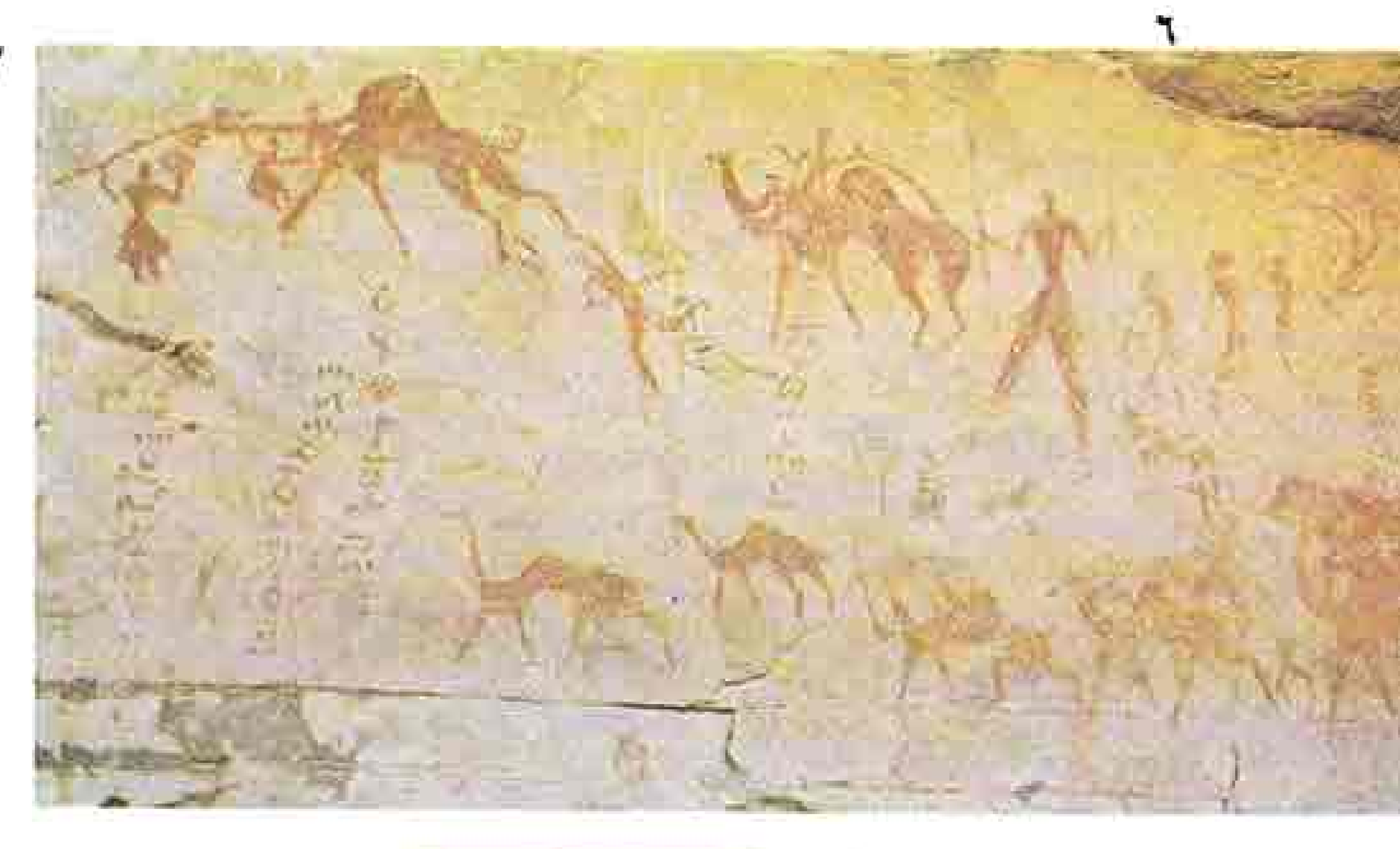
ب



وقد اتهم مرشلينو دي ساوتولا المتوفى سنة ١٨٨٨ بتزوير الرسوم ، وهو الرجل الذي اكتشف قاعات ألتاميرا الكبرى في شمالي اسبانيا ، ولم يضطر المشككون الى التراجع عن اتهاماتهم ، حتى اكتُشفت رسوم أخرى في الموقعين الفرنسيين في بير - نون - بير ولا موت ، وقد غطتها رواسب حضارية أخرى ، ترقى الى العصر الحجري القديم .

أما الرجل الذي برهن ، آخر الأمر ، على وجود فن العصر الحجري القديم ، فهو الأب هنري بروي (١٨٧٧ - ١٩٦١) . تكاد الأدلة المتعلقة بفن العصر الحجري الأول تقتصر على أوروبا الغربية ، مع انه توجد بعض المواقع المنعزلة مثل كابوفا في جبال الاورال بروسيا ، ولفنسو في صقلية ، وبلديبي وبلباسي في تركيا ، كما توجد آثار كثيرة من فن الصخور التقليدي ، في افريقيا الشمالية والصحراوية ، في أماكن مثل تاسيلي

٦



٧



٨

٩

(٦) - دام الفن التاسيلي حتى العصر الحجري الجديد او ما بعده ، أي حتى بعد ترويض الجمل ، كما يتبين من هذا المشهد المرسوم على جدار أحد الكهوف في هضبة تاسيلي . تمثل الاشكال المرسومة بلون أحمر خالص قافلة من الجمال وسائقيها ، وتشتمل الجمال على حيوانات كبيرة محملة ، بالاضافة الى ما يظهر في الجانب الأسفل من الرسوم ، الى اليسار ، ويبدو كأنه يمثل جمالا صغيرة .

(٧) - ضريح - مزار يرقى عهده الى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ سنة قبل المسيح ، وقد أعيد بناؤه في موقع في الاناضول في تركيا ، يعود الى العصر الحجري الجديد ويدعى كاتال هويوك ، وهو من أقدم المدن في العالم ، وقد بلغ عدد سكانه عدة آلاف نسمة . عثر اثناء الحفريات على أضرحة حيوانات عديدة أقيمت من أجل القطعان التي كان الاقتصاد يعتمد عليها ، وقد زينت برسوم مفصلة ونقوش نافرة نموذجية . ويبدو ان المداخل الى المزارات ومعظم البيوت كانت من السقف .

(٨) - هذه المنحوتات الصغيرة من الكهرمان ، بما في ذلك نموذج لدب ، جاءت من سيبيريا . يوجد الكهرمان ، وهو أحفور متحجر ، على سواحل بحر البلطيق بالدرجة الاولى . وقد استعمله الانسان منذ العصر الحجري المتوسط الذي يرقى الى ١٠٠٠٠ سنة .

(٩) - ترقى النقوش الصخرية التي عثر عليها في وادي كامونيكا ، في شمالي ايطاليا ، الى العصر البرونزي . تمثل بعض هذه المنقوشات الواقعة في الهواء الطلق والمحفورة في سطوح الصخر المتجلد الملساء مشاهد مشغولة باتقان . يظهر في هذا النموذج ثلاثة وعول وشكلان بشريان رمزيان . أما مغزى هذه المشاهد ، فمجهول .

(٤ ، ٦) . وقد استمر ذلك الفن حتى العصر الحجري الجديد (قبل ٥٠٠٠ سنة) .

يقسم علماء الآثار فن العصر الحجري القديم الى قسمين رئيسيين : جدراني ، ويتألف من رسوم ونقوش ومنحوتات على سقوف الكهوف وجدرانها وارضيتها لا يمكن نزعها ؛ ومتحرك ، ويتألف من أشياء صغيرة منقولة . ولكل من هذين النوعين ، في نظر عالم الآثار ، ميزاته ونواقصه . ففن الكهوف ، مع انه كثيرا ما لا يحمل تاريخا معينا ، يوجد في موضعه وبيئته الطبيعيين ، أما الفن المتحرك ، فكثيرا ما يوجد في طبقات أثرية واضحة التواريخ ، ولكن دون أدلة تلقي ضوءا على أوجه استعماله . يتألف الفن المتحرك من رسوم مفردة ومنعزلة ، بينما يتألف فن الكهوف من عدة رسوم متلاصقة وأحيانا ذات صلة بعضها ببعض .

انتشار فن الكهوف

يقتصر فن الكهوف على منطقة صغيرة في فرنسا واسبانيا : وادي الدوردوني وجبال البيرينيه العليا والجبال الكنتابرية . تمّ التعرف على أكثر من مائة كهف تشتمل على مواقع شهيرة ، مثل « لاسكو » (١) ، « ألتاميرا » ، « الأخوة الثلاثة » ، « مونتسبان » « وفون دي غوم » ، لكن لا يمكن تحديد التاريخ الا بالنسبة الى عدد قليل منها . والفن الموجود في روفنياك ما زال موضع شك منذ زمن طويل .

على أساس الأدلة الحالية ، يبدو ان أقدم موقع هو موقع لافيراسي ، حيث عثر على صخور مرسومة ، تنتمي الى مراحل الحضارة الاورنياشية العائدة الى ما قبل حوالى ٢٩٠٠٠ سنة . وقد عثر على رسوم ونقوش ومنحوتات بارزة أخرى ، تنتمي الى مراحل اورنياشية أقدم ، وهكذا تبيّن ان اساليب الفن الجدراني الرئيسية الثلاثة وجدت منذ أقدم العصور .

هناك حضارة أخرى ظهرت ايضا ، في منطقة فن الكهوف ذاتها ، هي الحضارة الصولوترّية القصيرة الأمد ، التي تميزت بأعمالها الصوانية الرائعة . ففيها نماذج فنية في « صخرة سير » المعروفة . كذلك ترك لنا طَوْر أخير من العصر الحجري القديم ، هو العصر المجدلاني ، الذي قام على صيد الوعول في أوروبا الغربية ، رسوما متعددة الألوان مدهشة في ألتاميرا . وقد اعتقد البعض ان معظم مواقع فن الكهوف ترقى الى هذه الحقبة المتأخرة .

أما نماذج الفن المتحرك فقد أخذت تظهر ابتداء من الطور الاورنياشي . أشهر نوع من منحوتات هذا الطور هو التماثيل الصغيرة « للزهرة » (فينوس) ، وهي عبارة عن تماثيل اناث ، برزت أردافها وبطونها ، وتحولت رؤوسها وأفخاذها الى أجذال ، ومن أطرفها « فينوس » فيلندورف (٣) .

فن أم سحر ؟

طُرحت تفسيرات شتى لفن الكهوف ، ابسطها انها فن من أجل الفن . وكانت نظرية بروي ، التي تبناها الناس لسنين عديدة ، ان هذا الفن متصل بفكرة رسم الطريدة لاحراز سيطرة سحرية عليها ، وبفكرة الترابط الطوطمي بين النوعين الانساني والحيواني . أعطيت مؤخرا تفسيرات قائمة على الجنس ، الا انها لم تحظ بقبول عام .

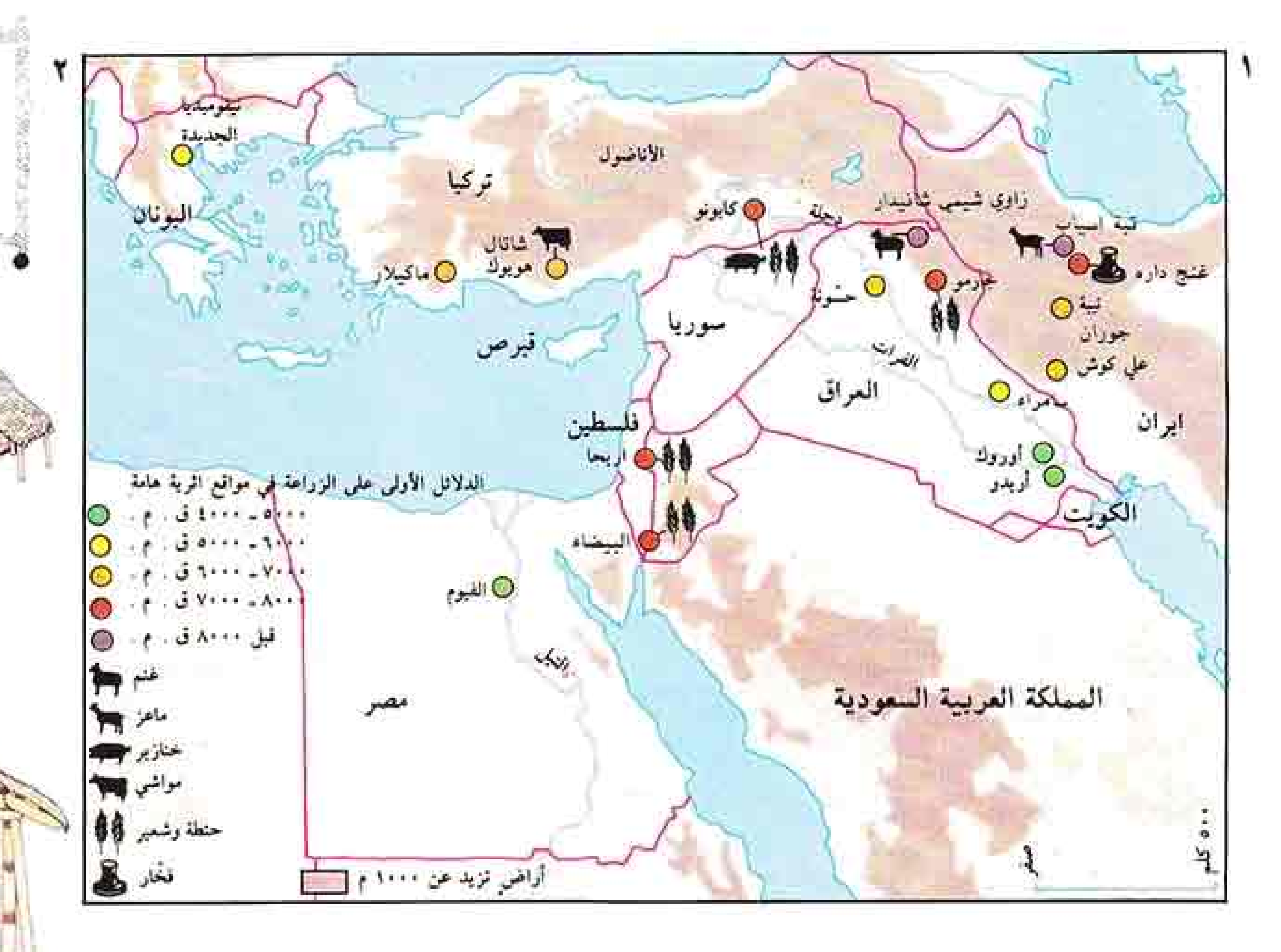
بدايات الزراعة

حتى بداية العصر الحجري الجديد ، لم يكن تدجين النباتات والحيوانات معروفا الا على نطاق ضيق . فالزراعة قد تطورت مع الازمنة على وتائر متنوعة في أماكن مختلفة ، فاتخذت لها اشكالا متفاوتة ، من زرع النبات ، الى رعاية المواشي ، الى اقامة المزارع . ومع ان الانتقال من الاعتماد التام على قطف الغذاء الى بداية انتاج الغذاء كان تطورا تدريجيا ، فقد كانت آثاره ثورة ، اذ تم في هذا العصر تدجين كل النباتات والحيوانات الصالحة للغذاء اليوم .

المزارعون والرعاة الأول

في اوائل الألف الثامن قبل المسيح ،

١

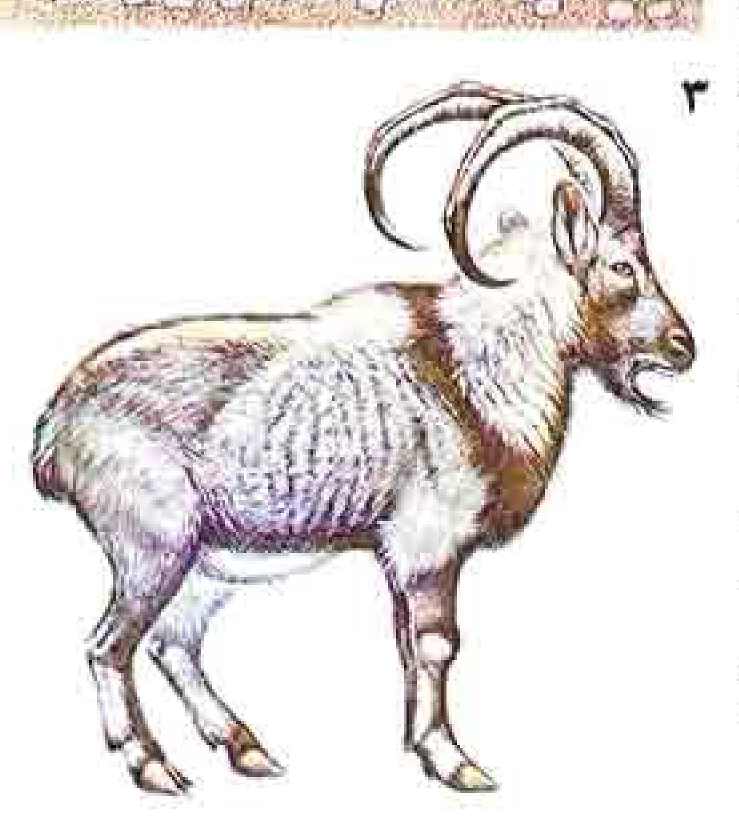


٢

(١) ـ كانت مناطق انتاج الغذاء تمتد من جبال زاغروس بين ايران والعراق ، حتى جبال طوروس في الاناضول ، وحتى غور الأردن . توجد اوائل الأدلة على رعاية القطعان في ايران ، حوالى عام ٨٥٠٠ ق . م . شاع الري في حوض دجلة والفرات حوالى ٥٠٠٠ ق . م . بحيث اصبح من الممكن زراعة الارض التي يغمرها الطمي .

(٢) ـ البيوت المستطيلة في اوروبا الوسطى واسكنديناقيا ترقى الى النصف الاولى من الألف الخامس ق . م . أعيد بناء البيت الظاهر في الصورة استنادا الى آثار مكتشفة في ديرنجسن روبلوه في وستفاليا ، بالمانيا . كان طوله يزيد على ١٦ م وعرضه حوالى ٨ أمتار ، وكذلك كان ارتفاعه . كانت البيوت الطويلة السائدة على شكل مستطيل . الا ان الشكل شبه المنحرف (كما في الصورة) كان مألوفا أيضا . يبدو ان بعض البيوت الطويلة كانت تقسم الى قسمين . ولكن لا نعلم اذا كان الغرض من ذلك فصل غرف السكن عن غرف التخزين . كانت البيوت تبنى ضمن اطار من الخشب .

٣



(٣) ـ ما زال البزل ، وهو الجد البري للماعز المدجن ، يعيش على جبال آسيا الجنوبية

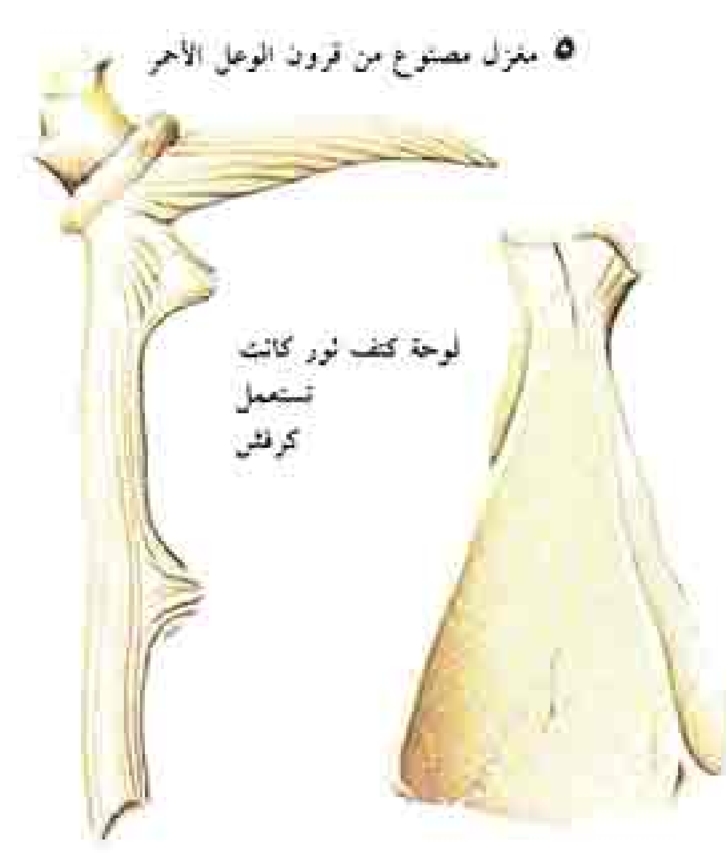
ظهرت زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات في منطقة الشرق الاوسط ، بين خطي العرض ٣٠ و ٤٠ درجة شمالا ، على مساحة تمتد على طول ألف ميل ، من بلاد الاناضول حتى ايران (١) . كانت تعيش في هذه المنطقة انواع مختلفة من النباتات والحيوانات البرية القابلة للتدجين . فقد شاهد الانسان القديم الحنطة والشعير تنمو على المرتفعات ، والماعز (٣) والغنم ترعى على المنحدرات .

لا بل ان التنوع الكبير في المناطق العامرة بالمياه والموارد الطبيعية كان كافيا وحده لجعل القناصين ، وصيادي الاسماك ، وقاطفي الثمار يعيشون عيشة شبه مستقرة ، حتى بعد انتهاء العصر الجليدي الأخير ، حوالى عام ٨٠٠٠ قبل المسيح .

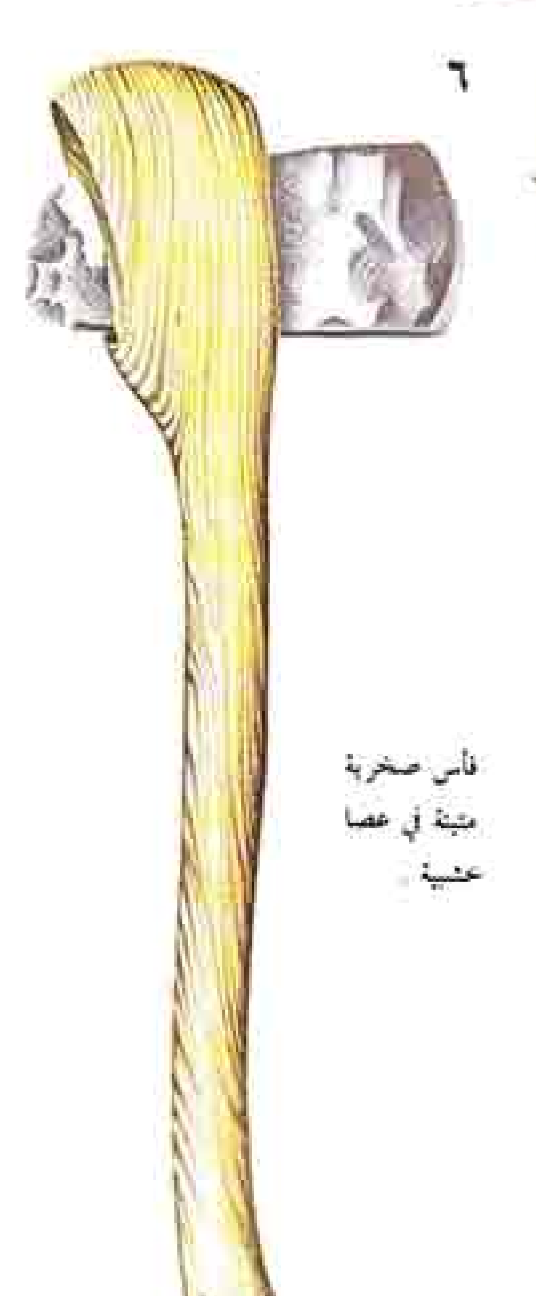
في البدء كان نمو الزراعة ورعاية المواشي بطيئا وعشوائيا . كانت الحبوب البرية تُلتَقط وتُلقى بجوار موقع الاستيطان ،

٤ ٧

٥ مغزل مصنوع من قرون الوعل الأحمر



٦





الغربية . وقد كانت الماعز والاغنام تعيش في قطعان قبل سنة ٨٠٠٠ ق . م . وكانت هي أول الحيوانات التي جرى تدجينها .

(٤) - كانت الحبوب تحصد بادىء الأمر بمناجل مصنوعة من حجارة مثبتة في عصا من العظم أو الخشب . هذا النموذج (في الصورة) من الفيوم في مصر .

(٥) - كانت عظام الحيوانات وقرونها تستعمل في صناعة استخراج الصوان ، وكانت صناعة هامة في اوروبا الغربية . ابان العصر الحجري الجديد . ففي مقبرة جرايمر في نورفوك ، كان يجري تثبيت العصي في الكلس ، ويصار الى حفر اقنية للوصول الى الصوان .

(٦) - كانت الفؤوس الحجرية المصقولة ، المثبتة في عصي خشبية ، تستعمل لشق الطرق في الغابات ، وللنجارة ، وكانت قطع الصوان ، والصخور الأخرى التي تستعمل لصنع هذه الادوات الفعالة جدا ، تنحت في معامل الفؤوس ، ينبئنا مصدرها بالشيء الكثير عن الطرقات التجارية .

(٧) - تحتوي تاسيلي (في منطقة الحجار بليبيا) ، وهي هضبة طولها ٨٠٠ كلم من الحجر الرملي المفتت ، على عشرات من الرسوم والنقوش الصخرية ، فقد رسمت فيها بصورة رائعة المواشي والحيوانات البرية التي ازدهرت في ذلك المناخ المناسب حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م .

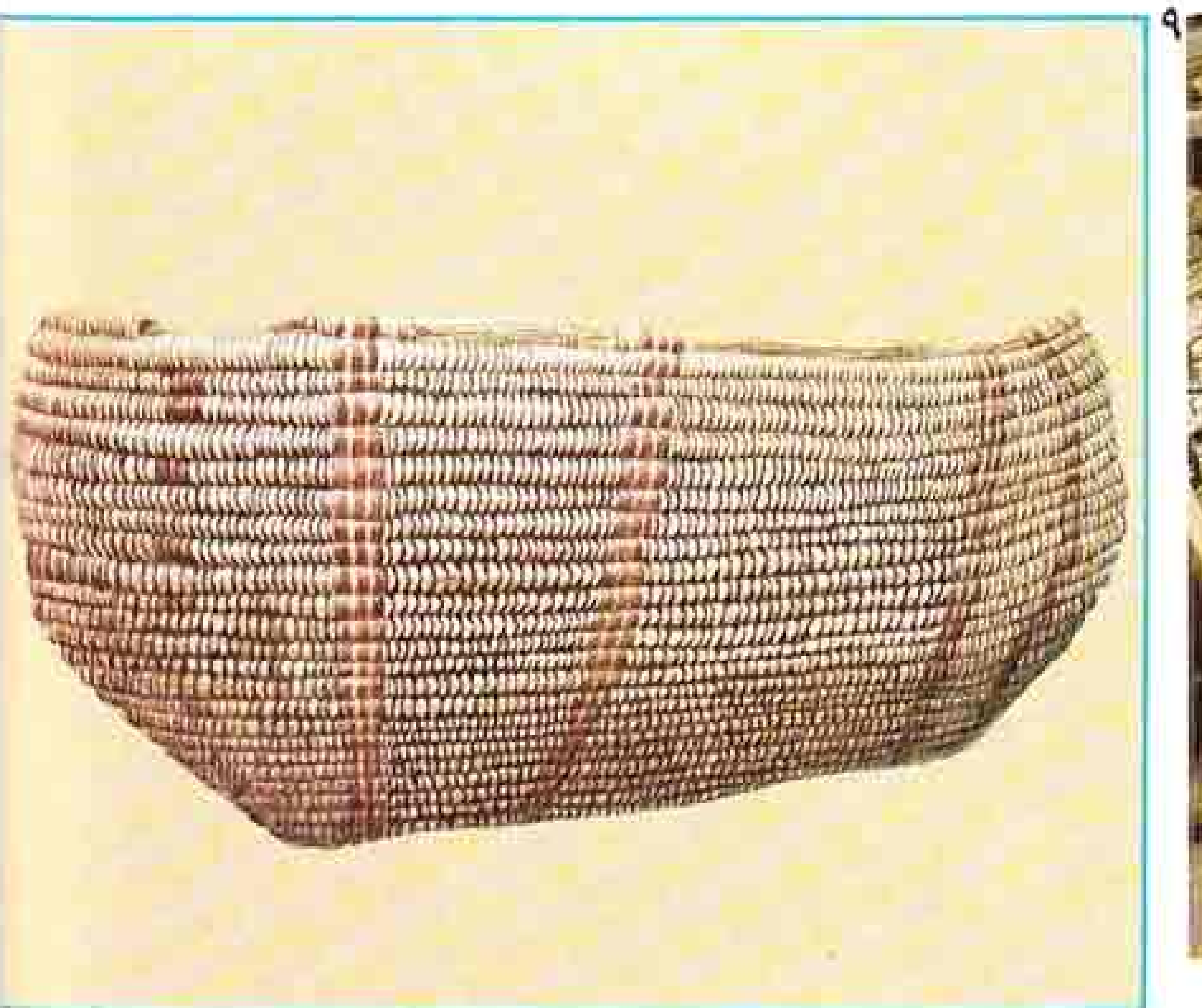
وكان الصيادون ، على الأرجح ، يقبضون على بعض الحيوانات الصغيرة ويحملونها معهم الى المنزل . وليس من السهل في هذه المراحل الباكرة من الزراعة ، التمييز بين البرّي والداجن من الحيوانات والنباتات . فقد أخذت الحيوانات بعد تدجينها تتطور تدريجيا لتصبح ذات أشكال أصغر ، كما حدثت تغيرات تدريجية أخرى في حجم القرون وشكلها مثلا . ويبدو من كمية العظام المكتشفة في زاوي شيمي شانيدار في شمالي العراق ، ان قطعان الاغنام كانت ترعى على الهضاب منذ سنة ٨٥٠٠ ق . م ، وان قطعان الماعز لم تلبث ان لحقت بها بعد ذلك بقليل من الوقت .

أما الأدلّة على زراعة الحبوب ، فهي أصعب منالا ، اذ لا تحفظ الحبوب الا في ظروف استثنائية . فالأدلة الوحيدة الباقية لا تتعدى ، في غالب الأحيان ، الحبوب

٨



٩



١٠

١١

(٨) ـ احتل الرعاة والصيادون سكارا بري . في جزر الاوركيني ، حوالى سنة ١٨٠٠ ق . م . ونظرا لعدم توفر خشب في الجزيرة ، صنعت البيوت والاثاث من الحجارة . تحتوي احدى القرى على ثمانية اكواخ متصلة بعضها ببعض . وفي كل منها موقد وبلاطتان تستعملان كسريرين وخزانة في الحائط .

(٩) ـ كانت الحنطة والشعير الغذائين الرئيسيين . في اقتصاد العصر الحجري الجديد في الشرق الاوسط . وفي حدود سنة ٤٥٠٠ ق . م . كانت هذه الحبوب معروفة في مصر. صنعت هذه السلة (وطولها ٤٠ سم) من الكتان المطوي ، وربما استعملت من أجل البذار . وقد اكتشفت في حفرة لتخزين الحبوب في الفيّوم .

(١٠) ـ نموذج من الفخار لعربة (حوالى ١٩٠٠ ق . م) مأخوذ من مقبرة في المجر ، وهو أول دليل على عربة تسير على عجلات في أوروبا . وقد اخترعت العجلات في منطقة ما بين النهرين ، قبل هذا التاريخ بحوالى ٢٠٠٠ سنة .

(١١) ـ هذا الابريق الفخاري وهو من النماذج الشائعة في فن اللونجشان في شانتونج ، في العصر الحجري الجديد (حوالى ٢٠٠٠ ق . م) . يبدو وكأنه يقلد الفن البرونزي .

المتفحمة نتيجة للحريق . أو الانطباعات الباقية على افران الطين أو في حفر التخزين .

المستوطنات الأولى في العصر الحجري الجديد

معظم المواقع التي ترقى الى اوائل العصر الحجري الجديد تقع بالقرب من الينابيع . من المواقع التي حظيت بأكبر قسط من الاستقصاء « تل السلطان » في أريحا . في فلسطين . الذي أقام فيه ما يناهز ٣٠٠٠ نسمة خلال العصر الحجري الجديد السابق لعصر الفخار . حوالى سنة ٧٠٠٠ ق . م . أما موقع شاتال هويوك في الاناضول . الذي كان أكبر مركز تجاري معروف في زمانه . فقد بلغ حجمه اربعة اضعاف حجم اريحا خلال الألف السادس ق . م .

بلغ فن الفخار والحياكة . وسواهما من الفنون والصناعات . مستوى عاليا . وكانت المعتقدات الدينية الوثنية تدور على عبادة ربّة الخصب . التي كانت ترسم في نقوش ناتئة من الجص . وعلى تقديس الأموات .

بعد أن أصبح السكان . في العصر الحجري الجديد . يعتمدون على الاقتصاد الزراعي لمعيشتهم . أخذوا يتكاثرون بسرعة . ومع ظهور الريّ . الذي يحتمل ان يكون قد استحدث في أريحا . غدا من الممكن لهم الانتشار باتجاه سهول بلاد ما بين النهرين . فهناك مستوطنة واقعة في حسونة الى الشمال تعود الى ما قبل سنة ٦٠٠٠ ق . م . وبعد ذلك بألف سنة جرى استغلال سهول دجلة والفرات . الغنية بالطمي في اريدو في الجنوب . حينذاك . اصبحت بلاد ما بين النهرين مركز حضارة العصر الحجري الجديد . وأرست القواعد لقيام الحضارة السومرية .

في اثناء ذلك . انتشر انتاج الغذاء من بلاد الاناضول الى اليونان . ومنها الى اوروبا . وقد تمكن المزارعون . في الاراضي الغابية التي مهدها القطع او الحريق من استغلال تربة حوض الدانوب الخصبة . كما كان البناة بالحجارة الضخمة يطوفون . في تلك الفترة بالذات . حول سواحل أوروبا الغربية .

المحاصيل الرئيسية للحضارات المختلفة

قامت حضارة آسيا الغربية واوروبا على الحنطة والشعير . اللذين تلائمهما المناطق المعتدلة وما تحت المدارية . فيما كانت المناطق المدارية أكثر ملاءمة للدُخن والرز والذرة . بدأت زراعة الرز في الهند قبل الصين التي كان الدُخن محصولها الأكبر . والخنزير حيوانها الداجن الرئيسي حتى حوالى ٢٠٠٠ ق . م . أما في مناطق افريقيا الواقعة وراء الصحراء . فربما سبقت زراعة النباتات الجذرية زراعة الحبوب (أي الدُخن والذرة) مع انه ليس لدينا أدلة أثرية قاطعة على ذلك . لكن الأدلة المستمدة من عدد من الرسوم الصخرية . تدل على ان الرعاة كانوا يجدون حوالى ٣٠٠ ق . م . مراعي على امتداد الصحراء (٧) . في الحقبة التي سبقت تحول المنطقة الى صحراء جرداء . وكانت الذرة البدائية تزرع في المكسيك في حدود عام ٥٠٠٠ ق . م . لكن لم تستقر الجماعات البشرية في مواطن ثابتة في امريكا قبل العام ١٥٠٠ ق . م .

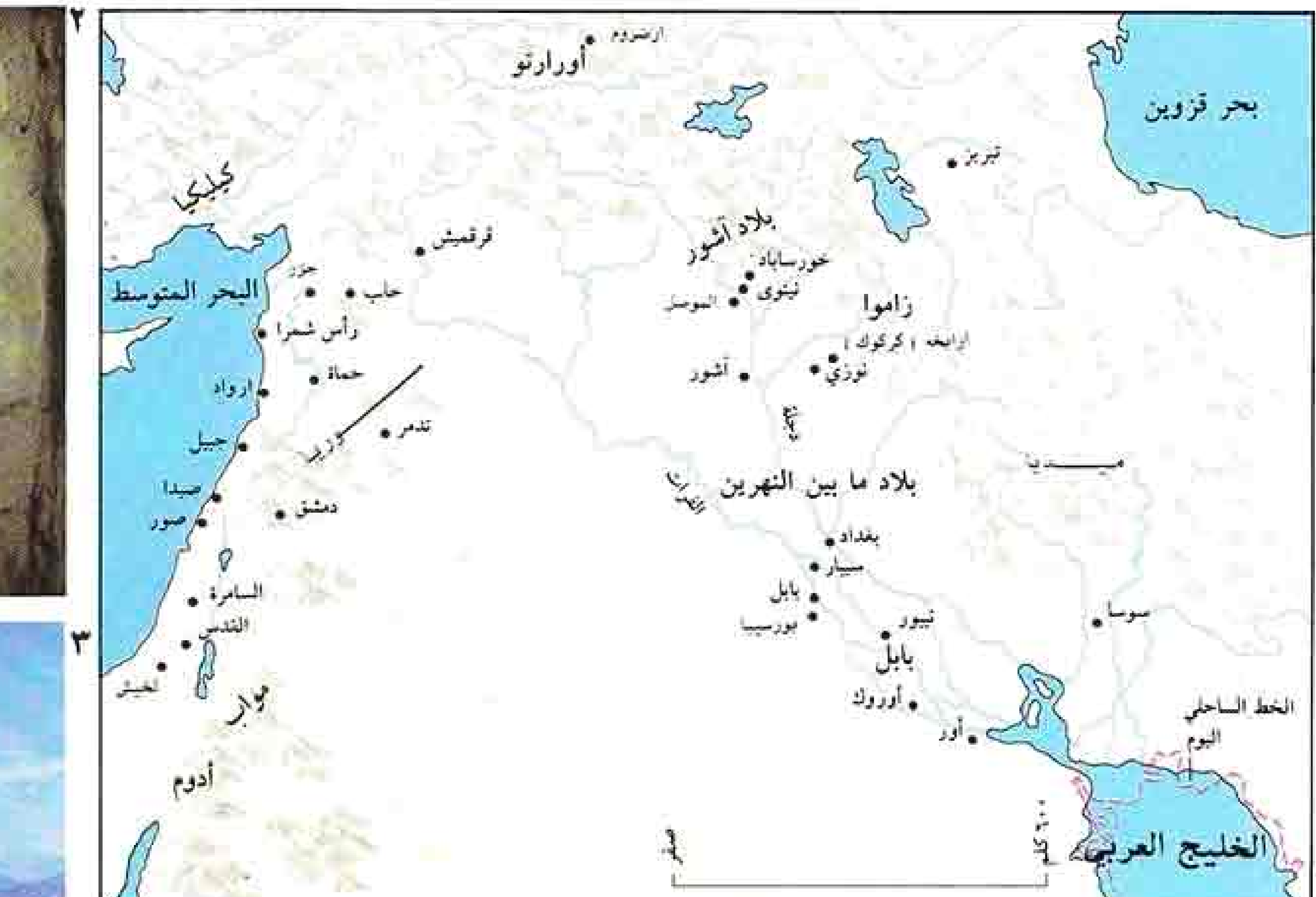
الشرق القديم

التاريخ القديم لآسيا الغربية يسمى في الاصطلاح تاريخ الشرق القديم . ويشمل الحضارات العديدة التي ظهرت في آسيا الصغرى وسورية والعراق والجزيرة العربية مع الخليج وايران . احتل وسط المسرح في هذه المنطقة ، على التوالي ، بصورة خاصة ، السومريون فالبابليون فالأشوريون فالفرس . ولما سقطت دولهم ، عفا النسيان على الكثير من هذه الحضارات القديمة ، وبقيت الحال كذلك مدى عصور الظلمة ، وتأخرت طويلا اعادة الكشف عنها على يد الغربيين .

تطوُر الكتابة

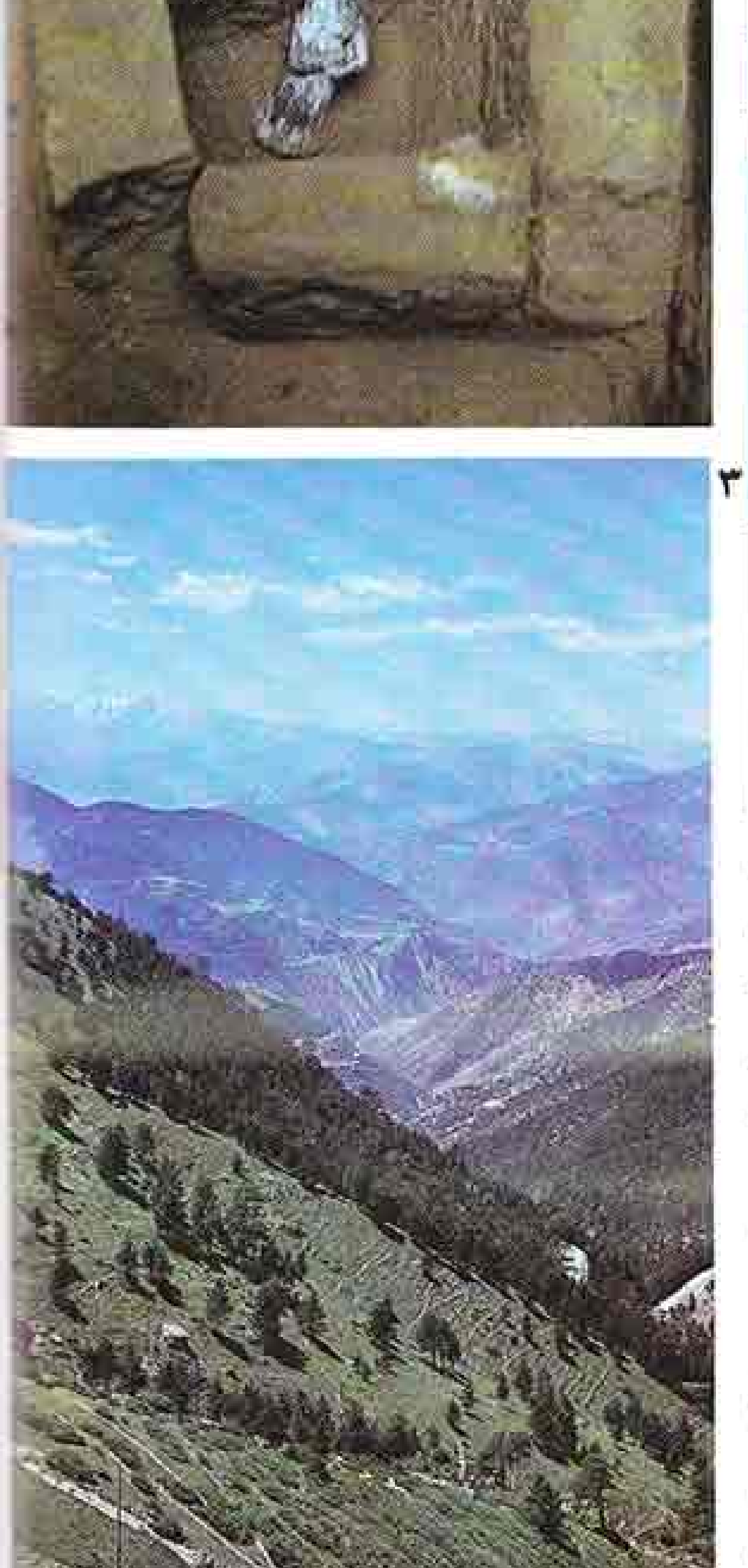
جاء التقدم الحثيث ، في ميدان معرفة

١



٢

٣



(١) ـ تركز تاريخ منطقة غربي آسيا القديم حول السهول النهرية ، والتلال والجبال المجاورة ، الواقعة بين البحرين الاسود والمتوسط والخليج العربي . كان نهرا دجلة والفرات يتحكمان بهذه المنطقة ، وتدعى المنطقة الواقعة بينهما بلاد ما بين النهرين ، الا ان هذه اللفظة تستعمل بتصرف للدلالة على منطقة أوسع محيطة بالنهرين . ساعد الطمي الناتج عنهما وعن روافدهما ، والماء الذي كان يحول منهما بواسطة الأقنية ، على قيام مدن الامبراطوريتين العظيمتين بابل وآشور ، اللتين رسمتا ، بسطوتهما وحروبهما ، الاطار العام لتاريخ زمانهما ، حتى تقهقرهما في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

(٢) ـ تمثال صغير من الفخار المجفف بالشمس ، وُجد في قصر واقع في نمرود ، شمالي العراق ، ويرقى الى القرن التاسع ق . م . وهو يحمل النقش التالي ، المطبوع في الطين على الظهر ، بالخط المسماري الاشوري : « أدخل أيها الروح الميمون ، واخرج أيها الشيطان المنحوس » . كانت هذه التماثيل الصغيرة توضع في مربعات الاساس المصنوعة من الفخار والتي توجد عادة في الزوايا وبالقرب من قائمة الأبواب ، في المباني الاشورية الكبرى في الألف الأول ق . م .

الحضارات القديمة ، في اواسط القرن التاسع عشر ، على أثر فك رموز الخط المسماري الفارسي القديم (٨) . فان نقوشه الثلاثية اللغات (الفارسية القديمة والبابلية والعيلامية) أمدت العلماء بمفتاح لقراءة تلك المكدسات الهائلة من النصوص الاشورية والبابلية والسومرية ، المكتوبة بخط مسماري أصعب .

انبثق الخط المسماري عن الكتابة التصويرية التي كان السومريون يستعملونها اصلا في جنوبي بلاد ما بين النهرين ، في اواخر الألف الرابع قبل المسيح .

وعندما صارت لغتهم الى النسيان الى حد بعيد ابتداء من اوائل الالف الثاني انتقل الخط المسماري الذي كانت تكتب به الى ورثائهم السياسيين والثقافيين ، البابليين الذين أخذوا به لكتابة لغتهم السامية ، المعروفة بالأكادية ، مع انها كانت تختلف كثيرا عن



(٣) - تؤدي طريق رئيسية من طرابزون والمنطقة الساحلية الشرقية للبحر الأسود في الجانب التركي الى ممر زيجانا في الجنوب ، الذي يبلغ ارتفاعه ٢٠٠٠ م ، وهو يبقى سالكا معظم أيام السنة . تستمر الطريق مرورا ببلاد جبلية عالية حتى أرضروم وتبريز وطهران . فتخدم كبوابة شمالية غربية لأرمينيا وبلاد فارس . كذلك خدمت كطريق تجارية ، تصل بين هذه البلدان والأمكنة التي يمكن الوصول اليها بحرا من طرابزون . اما الطريق الملكية الفارسية بين سوسا في بلاد فارس وسارديس في الغرب ، فقد كانت تخترق منطقة أبعد الى الجنوب ، عبر ديار بكر وانقره ، حيث كان السير أسهل .

(٤) - هذا الخزّان الحجري الضخم المصنوع من البازلت ، يرقى الى عهد سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) وقد أعيد تركيبه من قطع صغيرة . تبلغ مساحته ٣٫٢ مترا مربعا ، ويبلغ ارتفاعه مترا واحدا . تظهر في زواياه اشكال اربعة ، تمثل المعبود إيا يحمل زجاجة لرش الماء ، وكذلك الاشكال الاربعة المواجهة للناظر ، في وسط كل من الجوانب الاربعة . ويظهر ايضا كاهنان يرتديان ثيابا على شكل اسماك ، وهما يلتفتان الى كل من هذه الأشكال . ويحمل جانبان اثنان من الخزان نقشا لأسم الملك . ليس لدينا تفسير ثابت لهذه الرموز . الا ان مغزى عنصر الماء واضح ، فإيا ، وهو معبود اليمّ قد يكون وسيطا بين السماء والأرض .

السومرية . واقتبس ناطقون بالأكادية ، ولاسيما الأشوريون ، الخط المسماري أيضا . وقد استعمل هذا الخط ذاته ، مع بعض التعديلات الطفيفة نسبيا ، في مناطق أخرى من غربي آسيا ، لكتابة لغات أخرى مختلفة كليا ، كالحثية والعيلامية والحورية والأورارتية . واستعمل المبدأ نفسه ، وهو عبارة عن مجموعات من نقوش مسمارية مختلفة شبيهة بالاسافين ، في كتابة الخط الفارسي القديم الأبسط للأمبراطورية الأخمينية ، وفي كتابة الخط الأبجدي لدى الفينيقيين .

فك رموز النقوش

ما كاد يعلن ، سنة ١٨٧٢ ، ان نسخة أشورية عن قصة الطوفان ، الواردة في التوراة ، عثر عليها في لوحة في نينوى في شمال العراق قد فكت رموزها ، حتى اشتد الحماس للحفريات ولدراسة اللوحات

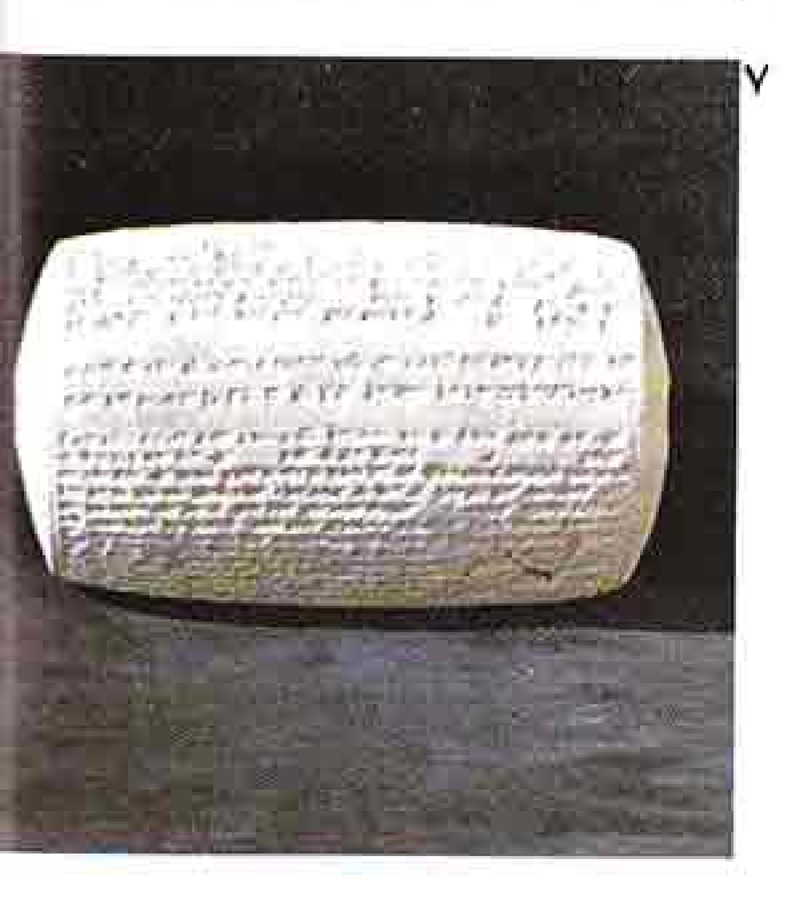
٥



٦



٧



(٥) - اختُرعت العجلة على الأرجح في بلاد ما بين النهرين خلال الألف الرابع ق . م . في ذلك الزمان ، لم تكن تصنع من حلقات شعاعية ، بل من اقراص مستديرة صلبة من الخشب ، مشدودة معا باطار من المسامير العريضة الرؤوس المثبتة في الظرف الخارجي . لم تظهر الشعاعات الا فيما بعد . ولكن أقدم نماذج العجلة ما زال موجودا في بعض المناطق النائية . فهذه العجلة (الظاهرة في الصورة) توجد في قرية صغيرة ، في شرقي تركيا ، بالقرب من بحيرة فان . ومع ان عددا من المباني الشهيرة قد بنيت دون اية استعانة بالعجلة ، بما في ذلك الأهرام ، فقد ساعد ظهورها الزراعة ، والنقل الى حد كبير ، وساهم اسهاما كبيرا في تطور حضارة ما بين النهرين وانتشارها .

(٦) - عثر على قطع من ألواح العاج ، كل واحدة منها ٣٣ سم بـ ١٥ سم ، مغمورة بالوحل ، في قعر بئر في أحد القصور الملكية في نمرود . كانت اللوحات مطوقة بهامش بارز يحيط بقطعة منخفضة كانت تحتوي ، على الأرجح ، على مزيج من الشمع والصباغ ، بشكل قاعدة لنص مسماري . تحمل هذه اللوحة اسم سرجون وعنوانا لكتاب بشائر مستمدة من الأرصاد الفلكية .

(٧) - كان الأشوريون يستعملون أحيانا براميل اسطوانية الشكل ، من الآجر ، لتدوين نصوص مسمارية . تشير هذه الاسطوانة ، وهي حوالى ١٧ سم بـ ١٠ سم ، الى آسر حدّون ، وتعطي موجزا عاما لفتوحاته وانجازاته . وتشير ايضا الى قصر جديد كان هذا الملك قد بناه ، وصنع سقفه من خشب الأرز المستورد من جبال امانوس ، وابوابه من خشب السرو الذكي الرائحة . ترقى اللوحة الى حوالى ٦٧٠ ق . م .

المسمارية والنقوش المماثلة. ساعد الطابع السامي للغة الأكادية، التي كتب بها الكثير من هذه النقوش، على فهم النقوش المسمارية الأخرى التي كانت تنتمي على درجات متفاوتة الى عدد من اللغات المعروفة كالآرامية والعربية والعبرية.

الخلفية الجغرافية

ثمة اختلافات جغرافية كبيرة بين

المعنى	بابلي جديد	اشوري	بابلي قديم	سومري قديم	سومري مبسط	سومري أصلي
سمكة						
ثور						
حمار						
حنطة						
إله / سماء						
شمس / نهار / نور						
يزرع / (يحرث)						
بيت						
انسان						

(٨) ـ تطور الخط السومري، على الأرجح، نتيجة لاحتياجات الاقتصاد والادارة العامين. ومع نمو المدن، باتت سجلات البضائع الداخلة الى المدن، والخارجة منها ضرورية. كانت أشرطة من الطين او الجبس تعلق بالأشياء، باديء الأمر. وتحمل سمة خاتم تدل على صاحبها. وتلا ذلك رسم الاشياء بواسطة خطوط. ثم بُسّطت الرسوم وحُوّلت الى رموز. فيما بعد، استعمل الرمز الخاص بكلمة شائعة مثل تي (أي سهم) للدلالة على جميع اصوات تي بصورة عامة. (وتعني تي أيضا الحياة). وهكذا أدى التمثيل الصوتي الى تطور رموز كتابية للغات بكاملها. أقدم كتابة تصويرية معروفة وجدت في كيش على حجر يعود الى حوالى ٣٥٠٠ ق. م. وعليه من الجانبين رسوم منها رأس ويد وقدم. وعصا ثقيلة لدرس الحبوب، وبعض الترقيم.

المناطق التي تشملها حضارات آسيا الغربية القديمة. فسواحل البحر الاسود والمتوسط تنحسر، بسرعة متفاوتة، أمام هضبة الاناضول في اواسط تركيا، التي تروي المناطق المحيطة بصحرائها الوسطى انهار تجري باتجاه هذين البحرين.

أما في الجنوب، فتعترض سلسلة جبال طوروس الطرق المؤدية الى سهول كيليكيا، فيما تقوم الهضاب المرتفعة التي تشمل جبل أرارات (٥١٨٥ م) الى أقصى الشرق والشمال الشرقي بالحد من سهولة الحركة. هذه الهضاب تحتضن منابع نهري دجلة والفرات، اللذين، بعد اتجاههما غربا، ينعطفان جنوبا ليشكلا معظم الهلال الخصيب ويرويا سهول ما بين النهرين، حيث بنيت عواصم امبراطورياتها الكبرى، لاسيما بابل وأشور ونينوى (١). الى غربي بلاد ما بين النهرين تقع الصحراء، وأبعد من ذلك غربا وادي نهر الأردن والعاصي، وآخر الأمر سهول البحر المتوسط الساحلية. أما الى شرقي بلاد ما بين النهرين، فتتعرج الأودية بين جبال زاغروس الوعرة (٣) حتى هضبة ايران الجافة، مع العاصمة العيلاميّة سوسا، والعاصمتين الفارسيتين باسارجادا وبرسيبوليس.

ولكن بما ان القدرة على انتاج الحبوب في منطقة آهلة بالسكان هي عامل رئيسي في تقدمها، فقد أدّت خصوبة دجلة والفرات، لاسيما بعد تطوير أقنية الري فيها من هذين النهرين، ومن روافدهما الرئيسية، (الخابور والزاب الأعلى والأدنى وديالة) الى جعل حضارة منطقة ما بين النهرين والسهول الجنوبية أكثر الحضارات ازدهارا في منطقة غربي آسيا.

الحضـــارة السومريـّـة

كشفت الحفريات الجزئية لمدينة أريدو ، في جنوبي العراق ، عن أولى المستوطنات التي اكتُشفت حتى الآن ، في بلاد ما بين النهرين ، فأيدت التقليد السومري القائل بقدم هذه المدينة ، اذ كانوا يعتبرونها اولى المدن الخمس الموجودة قبل الطوفان . اما حقب الاستيطان السابقة لعهد السلالات المالكة ، والتي تمتد طوال الالف الرابع ق . م ، فكانت تسمى باسم المواقع الخاصة بها ، وهي تل العُبَيْد وأوروك (الوركاء) وجمدة نصر .

يبدو ان بعض المساكن الاولى في أريدو كان من اكواخ القصب ، وبعضها من بيوت من الطين . وتعاقبت الحقب السابقة

١



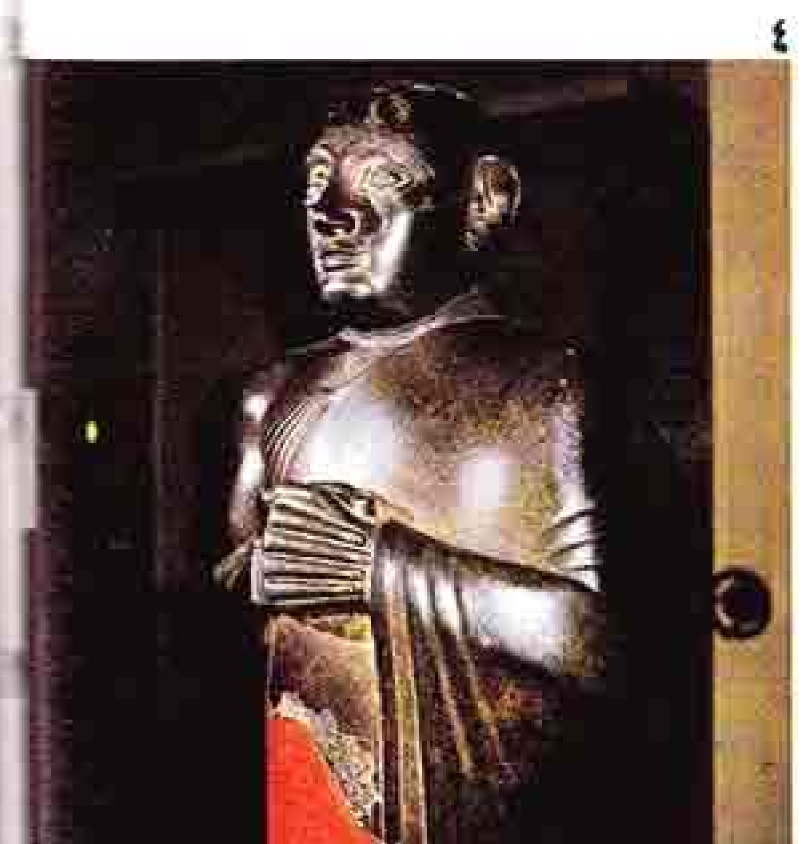
٢



٣



٤



(١) ـ قد لا يكون ملك أور المدعو اورنامو (ملك ٢١١٣ ؟ ـ ٢٠٩٦ ؟ ق . م) والذي أهدي اليه هذا الختم السومري ، محاربا شهيرا . ولكنه نشر بعض التشريعات التي يتعلق بعضها بالاعتداءات الجنسية ، وبالمخالفات المقترفة بحق أراضي الآخرين .

(٢) ـ رُوي عن جلجامش ملك أور من الاساطير ما يفوق ما روي عن أي بطل من ابطال التاريخ البابلي . انبثقت ملحمة جلجامش الاشورية ، التي وصلتنا ، من مجموعة اكبر من الاساطير السومرية . وقد بلغ من تشويش هذه الملحمة ان سيرة الملك غدت فيها غامضة الى حد بعيد . مع ان بعض الروايات قد تكون مستمدة من الواقع . والارجح انه اصلح معبدا في نيبور ، ومن الثابت تقريبا انه بنى جدار مدينة اوروك .

(٣) ـ كانت امبراطورية سرجون الأكادي اول امبراطورية كبرى في العالم . لكن اتساعها كان كبيرا الى درجة انه أدى ، بسرعة وبشكل حتمي تقريبا ، الى قيام الثورات .

(٤) ـ كان جوديا اللجشي الظاهر في الصورة ، صهرا لأوربابا . وقد جلب لمدينته ثروة طائلة مكنتها من القيام باعمال انشائية واسعة . كذلك تولى الاشراف على مدرسة للنحاتين ، توصلوا الى صنع اروع النماذج بالحجر الصلب . وقد خلّف جوديا نفسه نقوشا تصف الطقوس الدينية والحياة اليومية في زمانه ، كما عدّد الاخشاب وحجارة الزينة المستعملة في اعادة بناء بيت صنمه نينجيرسو ، الذي أنفق عليه كل ثروته تقريبا .

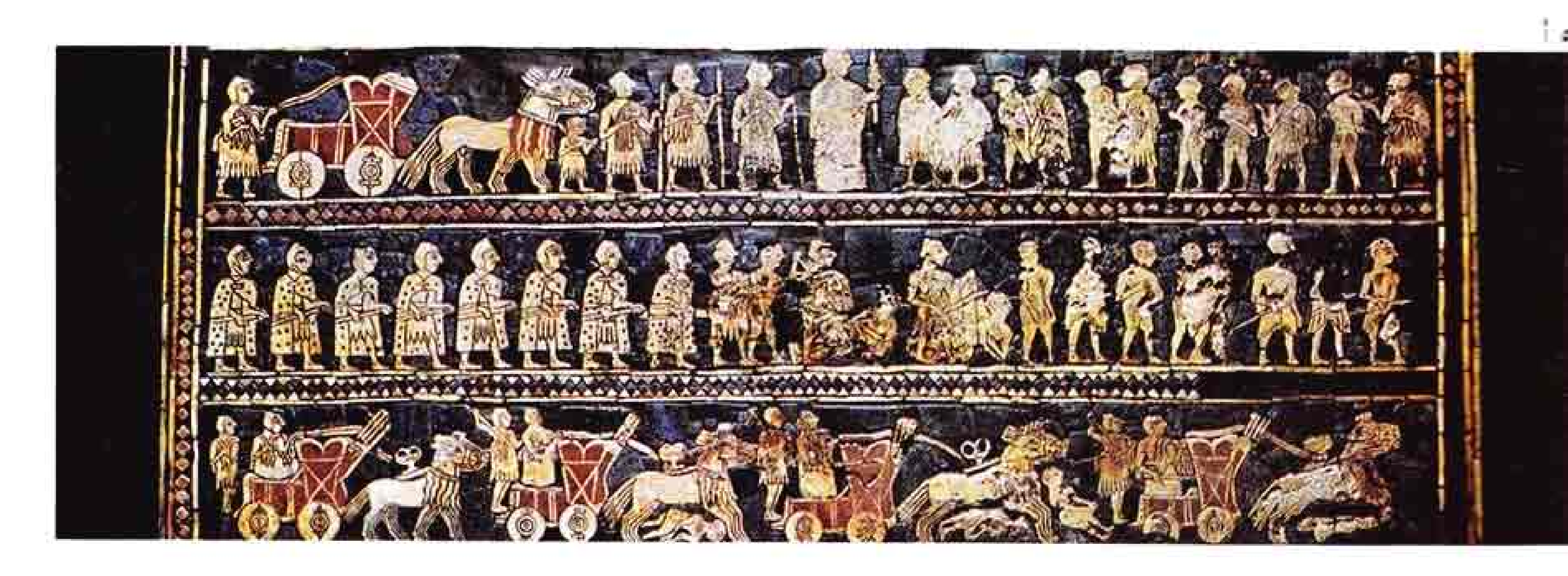
(٥) ـ عثر على الراية الملكية التي ترقى الى حوالى ٢٦٠٠ ق . م . في احدى أعظم

للسلالات المالكة ، فانتجت على التوالي الفخار الملون ، فمراكب صيد الأسماك ، فمقاليع الصيد بالحجارة والفؤوس ذات الرؤوس الصوانية والمناجل المشوية بالنار ، فالكتابة ، فدولاب الخزاف ، فالمحراث والعربة ، فالنحت ، فأواني الفضة والنحاس والرصاص .

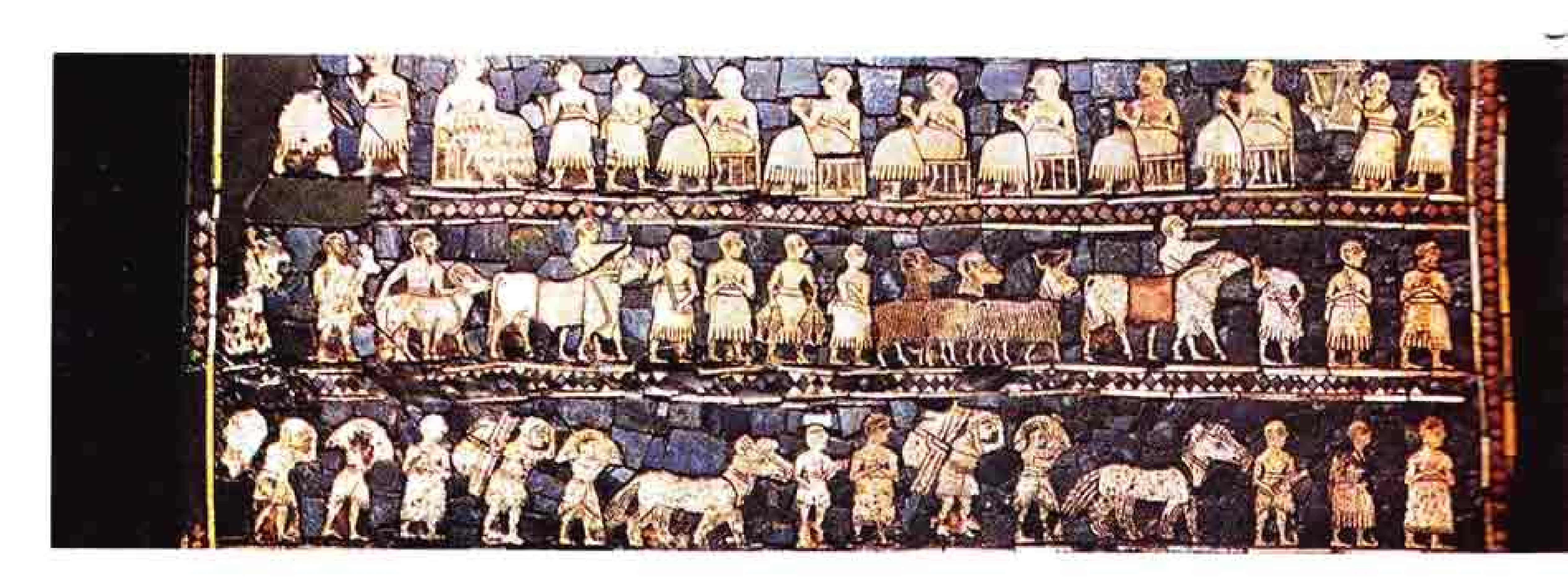
ظهرت الكتابة في مرحلة أوروك قبل سنة ٣٠٠٠ ق . م بقليل ، ولكن ليس ثابتا ما اذا كان السومريون قد جاؤا بها معهم الى تلك البلاد ، أو انهم كانوا هنالك من قبل ، بل الأكيد حتى الآن انهم هم الذين اخترعوا هذا الفن .

تشتمل لائحة ملوك سومر على عدد من الملوك الذين جاؤوا قبل الطوفان ، مع ان تسلسلهم الزمني وتاريخهم ليسا معروفين . كذلك ، ليس من الثابت ما اذا كان الطوفان المذكور في الكتب السماوية وفي التقليد

أ



ب



المقابر في أور . يبدو انه كان يحملها مرافق يرتدي غطاء للرأس غريبا . تظهر فيها عربات ذات عجلات اربع بكامل رجالها . مما قد يشير الى انتصار ما (أ) . كما تظهر على قفاها مشاهد عائلية مختلفة (ب) . اذا صح انها كانت راية . فتكون أصغر (٤٧ سم بـ ٢٠ سم) مما يجدر برمز العظمة الملكية .

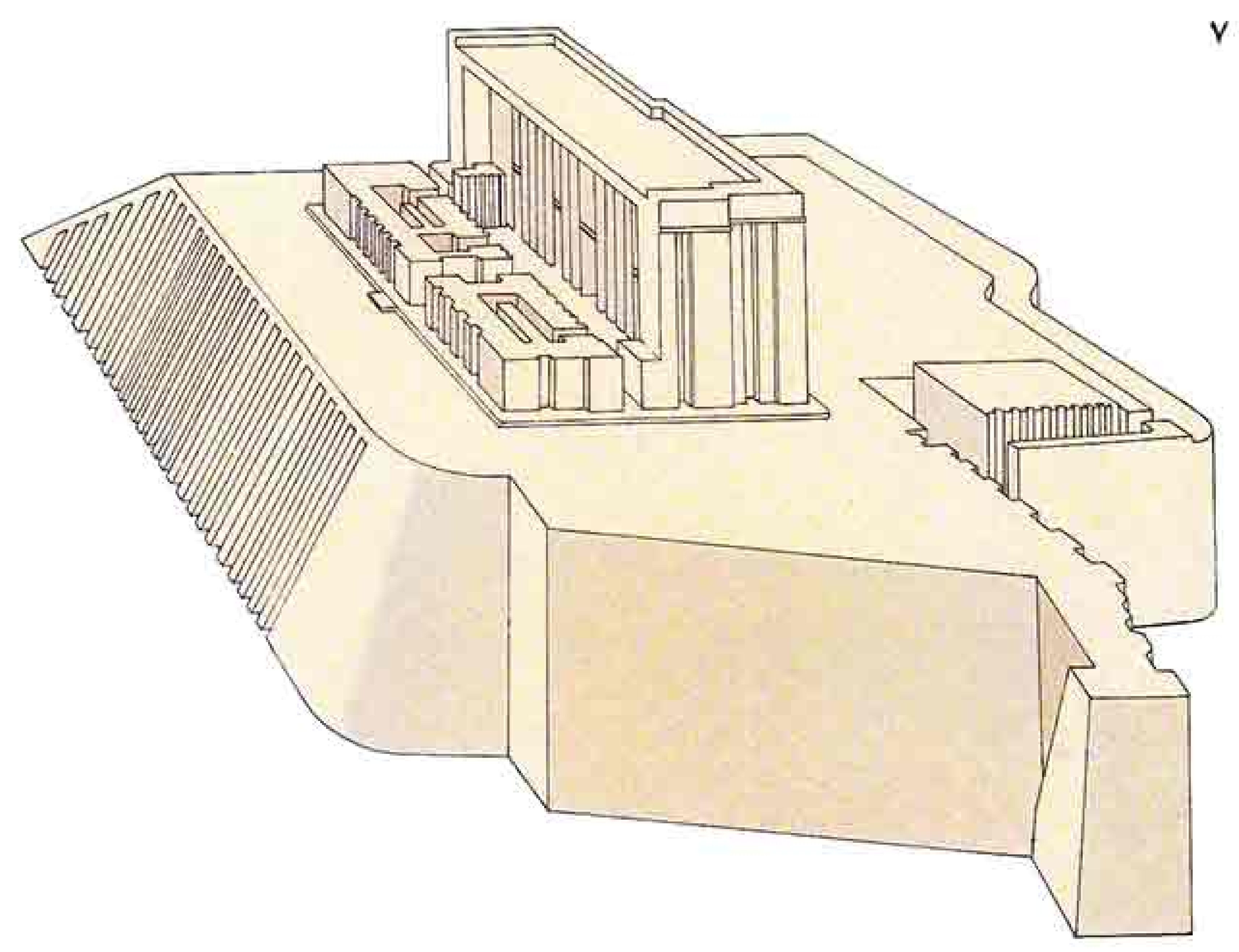
السومري يتمثل في طبقات الطمي الجرداء الموجودة في اور وكيش وشورباك . وقد اشتهر رجل من شورباك قيل انه نجا من الطوفان وان اسمه زيو سدرا (واسمه الاصلي أوتو نا بشتم) ، وقامت شهرته على ورود ذكره في ملحمة جلجامش بوصفه الرجل الذي حافظ على بذور الكائنات الحيّة . لكن كيش هي المدينة التي شهدت « عودة نظام الملوك الى الأرض » في حقبة ما بعد الطوفان .

السلالة الحاكمة الأولى في أور

لا نعلم الكثير عن الملوك الأوائل . لكن الزعامة انتهت ، بعد معركة حاسمة ، الى الملك الشهير جلجامش ملك اوروك (٢) ، ثم انتقلت ، من خلفائه فيها ، الى السلالة الأولى في أور . ترقى اسماء بعض الملوك التاريخيين الى هذه الحقبة . وكذلك على الأرجح المقبرة الملكية الفخمة .

حَفظت هذه المقابر ومقابر أخرى

٦ (٦) ـ تكوّن معظم الهلال الخصيب من أحواض الأنهار السورية ومن البطاح المنخفضة لنهري الفرات ودجلة . كانت الأجزاء الشمالية لهذه المنطقة تنعم بمقدار من المطر والخصب الطبيعي . اما سهول سومر وأكاد في الجنوب الشرقي ، فقد ساعد طمي الانهار ومشاريع الري المعقدة فيها على انماء المحاصيل .



٧ (٧) ـ يمثل الهيكل الا بيض في اوروك أفضل تمثيل فن عمارة الهياكل ، التي ترقى الى حوالى أخر الالف الرابع . وهو آخر هيكل باق من طراز بنائي غير منتظم الشكل ، سبق على الارجح طراز الزقورات الاشد انتظاما . بُني الهيكل الا بيض ، المحاط بثلاثة منحدرات ، من الآجر المجفف ، وكان مطليا بدهان ابيض ومدعوما وفيه مذبح للعبادة . كانت زوايا البناء تواجه نقاط البوصلة . قد تكون الزقورة ، وهي هيكل متعدد الطوابق ، محاولة لردم الفجوة بين الانسان والمعبودات . كان الناس يعتقدون ان على الانسان ان يوفر مسكنا للمعبودات .

كنوزا لا تقدر بثمن، من بينها: قيثارات ذهبية، وكنّارات عليها رؤوس ثيران، وخنجر ذو غمد مشبك، وامشاط ذهبية وفضية مزينة برسوم أزهار، وأكواب ذهبية، وأقراط ضخمة على شكل مراكب، وألوف من المسابح المصنوعة من الذهب والفضة والعقيق، وكثير غيرها، بالاضافة الى راية أور الملكية.

لم تصلنا معلومات موثوق بها تذكر عن تاريخ الحقبة التي تلت السلالة الأولى في أور. أما في مدينة لجش، فقد استهل اورنانشي سلسلة الملوك، وتشهد على قوته عدة مبان ومصنوعات فنية، ونقوش تشتمل على اشارات الى شحنات من الخشب قادمة من الخليج العربي؛ وقد بلغ حفيده إناتوم مرتبة عليا في سومر وفتح ماري على ضفاف الفرات، وربما سوبور الى الشمال. وقد وطد سلطة لجش ابن اخته انتيمينا.

أما تاريخ باقي اجزاء الحقبة السلالية الباكرة في لجش، بل في سائر بلاد سومر، فهو لا يستند الى بينات وافية، الا ان اوروكاجينا (ملك ٢٣٧٨ ؟ - ٢٣٧١ ؟ ق. م) أدخل اصلاحات اجتماعية تدل على نضج سياسي مدهش، كان الغرض من بعضها فيما يبدو تخفيف الاعباء التي كان يفرضها الحكام والكهان على الشعب. وقد غلبه لوغال زاجيزي من مدينة اوما، الذي انهزم بدوره، بعد حكم فعال وناجح، امام سرجون الكبير ملك أكاد (ملك ٢٣٧١ ؟ - ٢٣١٦ ق. م) (٣).

سرجون الكبير، ملك أكاد

خرج سرجون فجأة من الظلمة وسطع اسمه بقهره لوغال زاجيزي واستيلائه على سائر سومر وسوريا وربما جزء من آسيا الصغرى وعلى جزء كبير من المنطقة الجبلية من ايران الجنوبية الغربية. لكن يبدو ان الثورات لم تلبث ان انفجرت بعد ذلك. غير ان حفيده نارام سين حكم حكما مجيدا طيلة ٣٧ سنة. سقطت سلالة سرجون حوالى سنة ٢٢٣٠ ق. م أمام هجمات قبائل الجوتيين القادمة من الشمال أو الشمال الشرقي. وقد طرد اوتو خيجال هذه القبائل من أوروك. لكن يبدو ان نائبه في اور، واسمه أور - نامو (١)، غلبه على أمره وأسس سلالة جديدة في أور.

السلالة الحاكمة الثالثة في أور

لم يتخذ اور - نامو لقب «ملك الاقاليم الاربعة»، بل اتخذ لقبا جديدا هو «ملك سومر وأكاد». كان عهده، الذي امتد ١٨ عاما، حقبة ثراء ومنعة بارزين، كما يتبين من انجازاته الكثيرة في حقل البناء التي من اهمها اعادة المواصلات المائية المباشرة مع الخليج العربي. ترك لنا اثرا ادبيا في رسائله واناشيده الملكية. وقد ادعى انه كان لاعبا حاذقا على ثماني آلات موسيقية. وسع خلفه شولجي «ملك ٢٠٩٥ ؟ - ٢٠٤٨ ؟ ق. م» ممتلكاته في الشمال الشرقي والشرق، متعاملا مع الجوتيين والحوريين وسواهم.

لكن خليفته الثاني شو - سين (ملك ٢٠٣٨ ؟ - ٢٠٣٠ ؟ ق. م) واجه خطر الغزو من الغرب. أما إبي - سين، (ملك ٢٠٢٩ ؟ - ٢٠٠٦ ؟ ق. م) فيبدو انه انتصر على اولئك العموريين الذين كانوا بأمرة إشبي - إيرا من ماري، لكنه شهد فيما بعد سقوط مدينته أمام العيلاميين.

الساميون الأوائل

كلمة سامي لا تحمل علميا أي مفهوم اثنولوجي . وهي تدل على صفات لغوية حضارية أكثر بكثير مما تدل على الصلات العرقية . العالم اللغوي الالماني شلوتسر استخدمها أول مرة سنة ١٧٨١ ليعبر بها عن التقارب الذي وجده بين اللغات العربية والعبرية والجعزية الحبشية . لأن الشعوب التي تتكلم هذه اللغات تنسب في التوراة الى سام بن نوح . ثم صار الغربيون يستعملون الكلمة بالمعنى العرقي ليدلوا بها على هذه الشعوب وعلى غيرها من سكان الهلال الخصيب القدماء وقد شملوا بها : الأكاديين والعموريين والبابليين والكنعانيين والفينيقيين والاشوريين والآراميين والعبريين والعرب



(١) - كمية الرقم الأثرية الطينية (أ) التي وجدت مؤخرا في ايبلا تشكل تحديا كبيرا للأثريين الذين سوف يقضون السنين الطويلة قبل الانتهاء من قراءتها وادخال ما فيها ضمن معلومات التاريخ القديم الذي كان يجهلها تمام الجهل . الرقم التي وجدت (والصورة نموذج منها) تزيد على ١٥ ألفا . كانت منسقة في مكتبات خشبية بالقصر الملكي . كتبت بالمسمارية وبلغة سامية شبيهة بالاكادية . تتناول مختلف المواضيع التجارية والاقتصادية والادارية والتاريخية والأدبية والدينية . وفيها أصول لعدد من المعلومات التوراتية تسبقها بحوالى ١٦ - ١٨ قرنا . كما ان فيها الأوامر والتقارير الملكية والمعاهدات والألواح التعليمية . وتتضمن ايضا أقدم معجم لفظي يرجع الى حوالى سنة ٢٣٠٠ ق . م . وهو ثنائي اللغة بين السومرية واللغة الايبلائية . جفف الحريق الذي أصاب القصر الملكي سنة ٢٢٥٠ ق . م . هذه الرقم وجعلها صلبة مما ساعد على حفظها الى اليوم . عثر في ايبلا عدا القصر الملكي والرقم التي فيه على ثلاثة معابد وعلى عدد كبير من التماثيل للمعبودات وعلى عدد كبير من الأواني الفخارية (ب . ث) عدا أطلال المنازل للسكن (ت) . ثروة المعلومات التي كشفت عنها ايبلا أضافت الكثير الى معلوماتنا أيضا عن مدن وممالك الشرق الأدنى .



والاثيوبيين . السؤال عن المهد الذي خرجت منه هذه الشعوب هو احدى مشاكل التاريخ القديم . وتدور حوله نظريات عديدة ، أرجحها لدى العلماء النظرية التي ترد أصلهم جميعا الى الجزيرة العربية وتجعل خروجهم منها في هجرات دورية اعتبارا من أواخر الألف الرابع ق . م بنتيجة التكاثر والجدب . وثمة دلائل كثيرة على أنهم استخدموا الجمال والحمير في الهجرة .

تسرب الساميون الأولون . ثم تكاثروا في أرض الرافدين حتى شمال الشام ، اثناء الفترة السومرية . سماهم السومريون بالعموريين (أي الغربيين) ، لكنهم دخلوا المسرح السياسي للمنطقة منذ أواسط الألف الثالث بظهور دولة ايبلا أولا في شمال سوريا (على ٦٠ كم من جنوب حلب) ، ثم ظهور الاكاديين ، بعد قرن آخر ، في جنوب العراق بعد الغاء الدولة السومرية .

ث



٢ أ



ت



ث

ب



(٢) - أورنينا هي مغنية معبد المعبود شمش . وتمثالها الحجري (أ) موجود في المتحف الوطني بدمشق تجلس فيه على وسادة مزركشة وترتدي ثوبا شبيها بالسروال وشعرها مرسل على ظهرها ، حيث كتب اسمها . كانت تشرف على الغناء والرقص في المعبد . يعد تمثالها من أنفس وأندر مجموعة التماثيل التي وجدت في ماري . اما تمثال ربة الينبوع (ب) الموجود في متحف حلب ، فيمثل امرأة واقفة بثوب طويل متموج تتدلى منه بعض الخطوط المتعرجة رمزا لتموج الماء ومجاري الأنهر ، وقد رسم عليه بعض السمك . الاناء في يدها رمز للحياة والخصب . وعلى رأسها نوع من العمامة . التمثالان يعودان الى أواخر الألف الثالث ق . م . أما التمثال الثالث (ت) ، فهو لسادنة المعبد ويعود الى القرن ١٨ (؟) ق . م ، وهو في متحف دمشق .

مملكة ايبلا

عرفت ايبلا وحضارتها الزاهرة منذ عهد قريب فقط . نتيجة الحفريات الأثرية التي أجريت ما بين ١٩٦٤ و ١٩٧٥ في تل يعرف بتل مرديخ . فقد كشف عن القصر الملكي فيه وعن كنز أثري هام جدا هو مكتبته الضخمة المؤلفة من آلاف الرقم الطينية المكتوبة بالمسمارية (١) .

لم تقرأ بعد معظم هذه الرقم . لكن ما قرىء مؤخرا منها كشف عن الملك اغريس حليم الذي أنشأ القصر الملكي سنة ٢٤٠٠ ق . م . والملك آرانيوم (٢٣٤٠) الذي أخضع بلدة ماري . والملك ابيريوم (ابراهيم) الذي عاصر سرجون الاكادي وانهزم امامه . كما كشفت الرقم ان ايبلا عرفت عهدين من الازدهار . الأول ما بين ٢٤٠٠ و ٢٢٥٠ ق . م . وكانت تحتل فيه المركز الثالث في الشرق الأدنى بين مصر وما بين النهرين . ثم





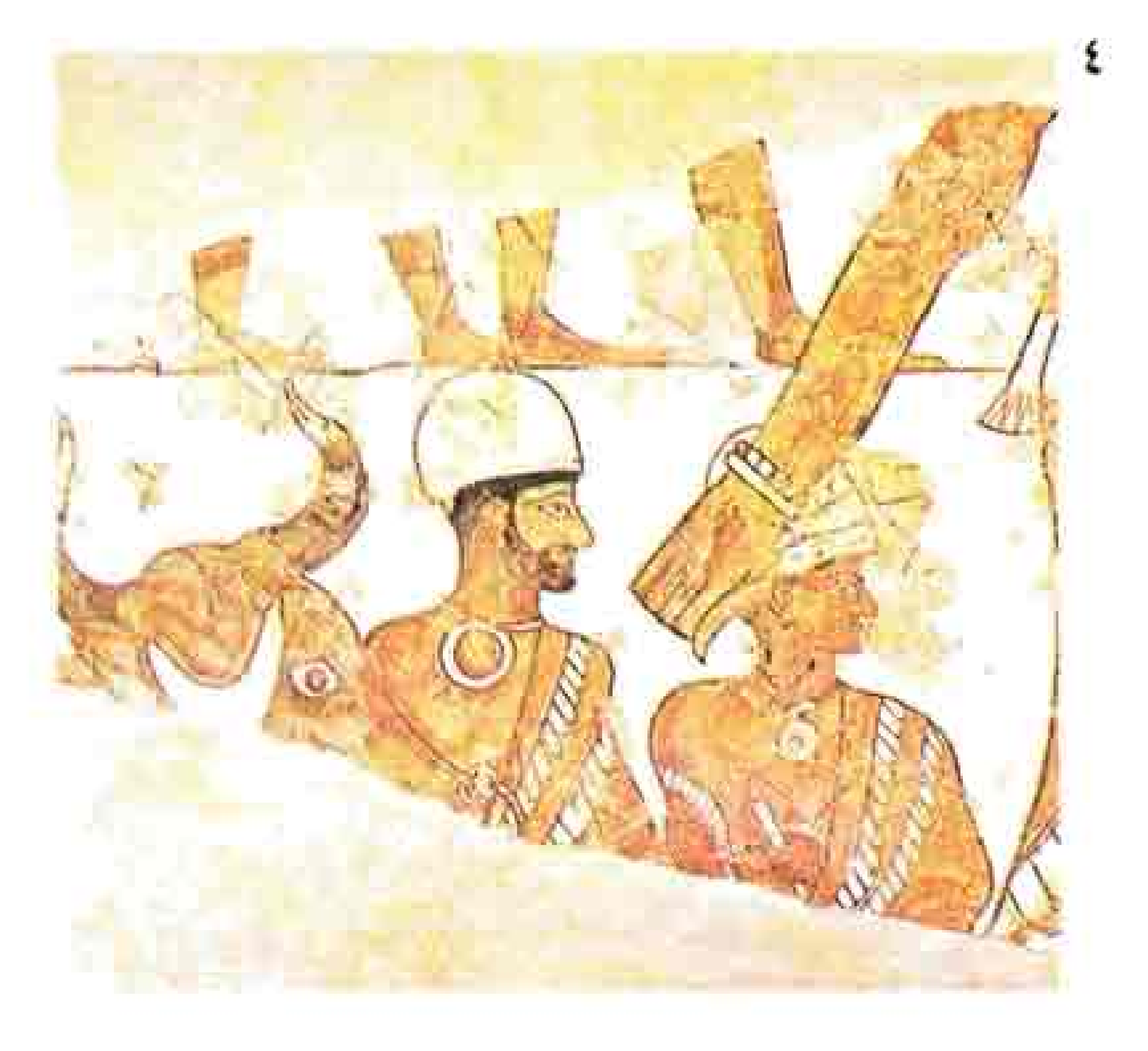


ب



٥

(٣) - تماثيل ماري تتميز باصرار الفنانين فيها على ابراز العيون التي يحفر موضعها أحيانا لينزل فيه الصدف أو العاج ثم تكحل بالسواد أو القار لتكون واضحة قوية النظرة . التمثالان المصوران نموذج لذلك . الأول (أ) هو للمعبودة عشتارات . والثاني (ب) هو لسليم شقيق الملك . والتمثالان من الألف الثالث ق . م . ويمثلان أكمل التمثيل فن ماري .



٤

(٤) - مشهد من تقديم أضحية للآلهة . وهو من رسوم ماري الجدارية الملونة . هذه القطعة الأثرية موجودة في متحف اللوفر في باريس . وهي جزء من صورة واسعة في القصر الملكي بقيت بعض أجزائها .

(٥) - نسر من الذهب والحجر الكريم (اللازورد) وجد بين اللقى الأثرية في ماري . وهو من الهدية الملكية التي أرسلها ملك أور الى ملك ماري أوائل الألف الثاني ق . م .

اصطدمت مع الاكاديين بسبب التجارة وهزمتهم . ثم استطاع نارام سين الاكادي حوالى سنة ٢٢٥٠ ق . م أن يفتحها ويهزم ملكها ابي سيبش ويجعلها خرابا بالحريق الذي ما تزال بعض آثاره واضحة .

على ان ايبلا استردت بالتدريج مكانتها ما بين ٢٠٠٠ و ١٨٥٠ ق . م . أي في الوقت الذي برز فيه العموريون البابليون ، (شعب حمورابي) . من ملوك هذه الفترة الثانية ابي زيكو (١٨٥٠ ق . م) المعاصر لحمورابي . بيّنت الرقم ان ايبلا شكلت امبراطورية سيطرت على ما بين وادي الفرات حتى مدينة جبيل على الساحل السوري . كما سيطرت على بلاد اشور قبل أن تدمّر . وكانت حروبها تجارية تستهدف السيطرة على طرق التجارة المائية والبرية واحتكار تجارة المعادن من الاناضول والاخشاب من جبال لبنان وصناعة النسيج .

مملكة ماري

برزت مع ايبلا في فترة ازدهارها الاولى ثم بعد تدميرها سنة ٢٢٥٠ ق . م مملكة (مدينة) ماري التي بدأ اكتشاف آثارها على حوض الفرات الأوسط (قرب أبو كمال) منذ سنة ١٩٣٣ م وما يزال مستمرا . قراءة نقوشها الاثرية اوضحت ان ماري قديمة تتكون من تطبق عدة مدن . عرفت بدورها مرحلتي ازدهار أولاهما في الالف الثالث قبل عهد سرجون الاكادي ، والثانية في الالف الثاني ق . م .

لعل مؤسس السلالة الملكية الاولى في ماري هو آنسور (حكم مع خلفائه الستة ١٣٦ سنة) ، ثم أعقبه حتى أواسط القرن ٢٥ ق . م أربعة ملوك آخرين منهم ايكو شمش ولامجي ماري ، ثم جاء الملوك المعاصرون للعهد الاكادي منذ ميجير داغان ، ونعرف منهم حوالى ٢٠ ملكا استمر عهدهم حتى القرن الحادي عشر بعد الميلاد أيام توكولتي - مير . ومن أبرزهم زميري ليم (٢) .

ثم دمرت المدينة تحت ضربات ملك اوروك لوجالزاكيزي . لكن الموقع التجاري الهام لماري سمح لها ان تعاود ازدهارها . وان خضع ملوكها لسيطرة حكام جدد هم ملوك أكاد ، قبل أن تنفصل عنهم . لكنها في النهاية ضربت الضربة القاضية على يد حمورابي حوالى ١٧٥٠ ق . م الذي قتل سكانها وساق الباقي عبيدا ...

بالرغم من ان المدينة عادت موقعا تجاريا وذكرت في النقوش الاشورية ، فانها لم تستعد ابدا مكانتها الاولى ، واندثر ذكرها مع نهاية نينوى ثم بابل . وان ظهرت أيام السلوقيين كقرية سلوقية .

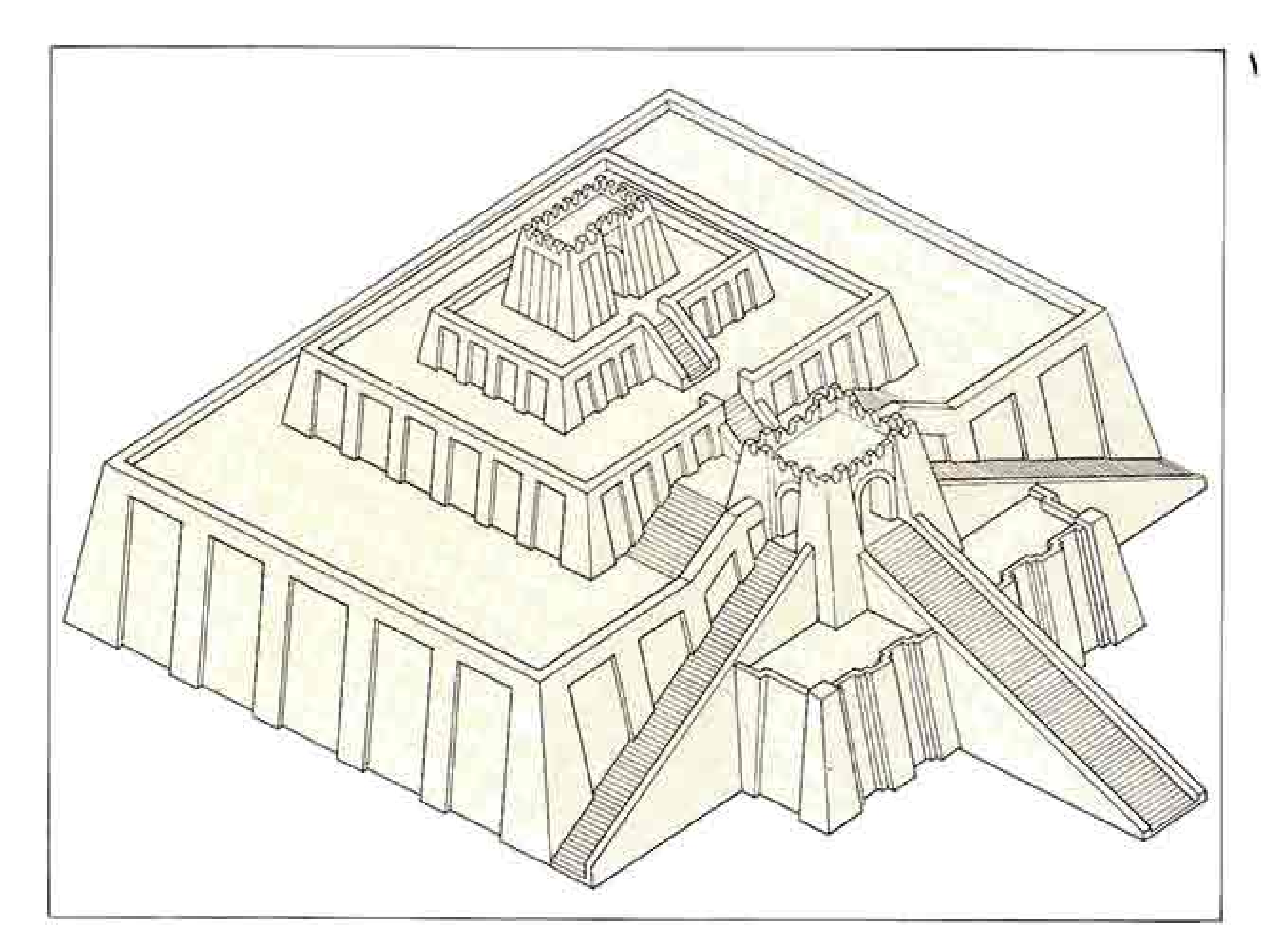
حضارة ماري

حضارة ماري فيها الكثير من المؤثرات السومرية . الطابع الغالب على معظم التماثيل واللقى والاختام والقبور والنحوت البارزة التي وجدت هو الطابع الديني ، ثم المشاهد الحربية . لكنها تعبر عن مستوى فني رفيع . أبرز المعبودات هي عشتار (٣) وشمش وداغان . كانت في ماري زقورة قديمة ، ولعل قصر زيمري ليم الواسع ، الذي كان اشهر القصور في عصره ، هو أهم الكشوف المعمارية التي كشفت في ماري ، كما ان النقوش المكتشفة فيها (٢٥ الف نقش) هي من أهم وأكبر مجموعات النقوش الأثرية في العالم (٤) .

البـابليُّون

تدمير أور وسقوطها سنة ٢٠٠٦ ق . م ، سمحا للعموريين بالظهور على المسرح السياسي للهلال الخصيب . لغتهم السامية هي احدى الدلائل على أنهم هجرة خرجت عن طريق الخليج ووادي الفرات من الجزيرة العربية . تمكن العموريون ، تحت لواء إشبي ايرا ، من تأسيس سلالة قوية في إيسن حكمت أكثر من قرنين . قبل ذلك بسنوات قليلة كانت قد قامت في لارسا سلالة أخرى ناطقة بالسامية ، دام حكمها أكثر من ذلك بقليل . حكمت السلالتان في وقت واحد بلاد بابل طيلة قرن كامل ، حتى قامت في بابل في مطلع القرن التاسع عشر ق . م ، وبدون مقاومة منهما دولة ثالثة ، كانت مؤلفة

١



٢



(١) ـ حسب رواية الملك نابونيد (ملك ٥٥٥ ـ ٥٣٩ ق م) ، بدأ أورنامو (ملك ٢١١٣ ـ ٢٠٩٦ ق . م) بناء الزقُورة العظيمة للمعبود القمر في أور . على انه قد يكون أشاد اسس هذا الهيكل على أنقاض برج قديم ، من عهد ما قبل السلالات . يقول نابونيد ان شولجي ابن اورنامو تابع البناء ولكنه لم يكمله . اما نابونيد نفسه فقد اصلح السلم باضافة درجات جديدة فوق القديمة ، ورفع مستوى الشرفة . لكن اكبر زقُورة معروفة (تبلغ ١٠٠ متر مربع) هي التي بنيت في دور ـ اونتاش في عيلام بالقرب من سوسا ، وهي تختلف من عدة وجوه عن زقورات ما بين النهرين .

---

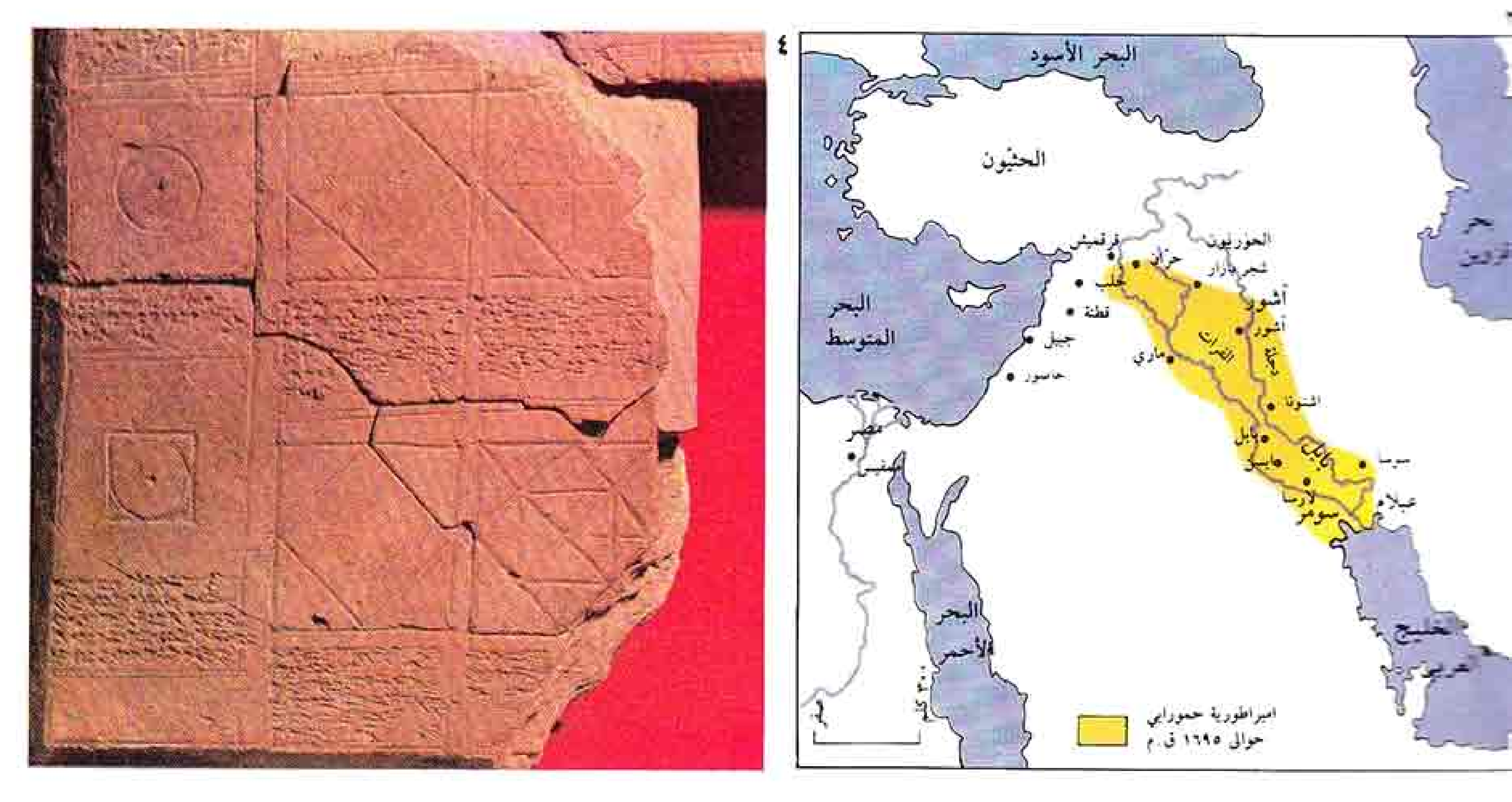
(٢) ـ هذا النصب الصواني لحمورابي نقله من بابل أحد الغزاة العيلاميين ، ربما في القرن الثاني عشر ، وحمله معه الى سوسا ، حيث عُثر عليه في شتاء ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ . على رأس النصب رسم نافر يظهر فيه حمورابي ، وهو يتسلم الأمر بكتابة الشرائع من « شمس » وهو المعبود الشمس او معبود العدالة . يبدو ان العيلاميين ازالوا بعض اجزاء النص ، الا ان معظمه ما زال موجودا في نسخ اخرى من التشريع ، وله

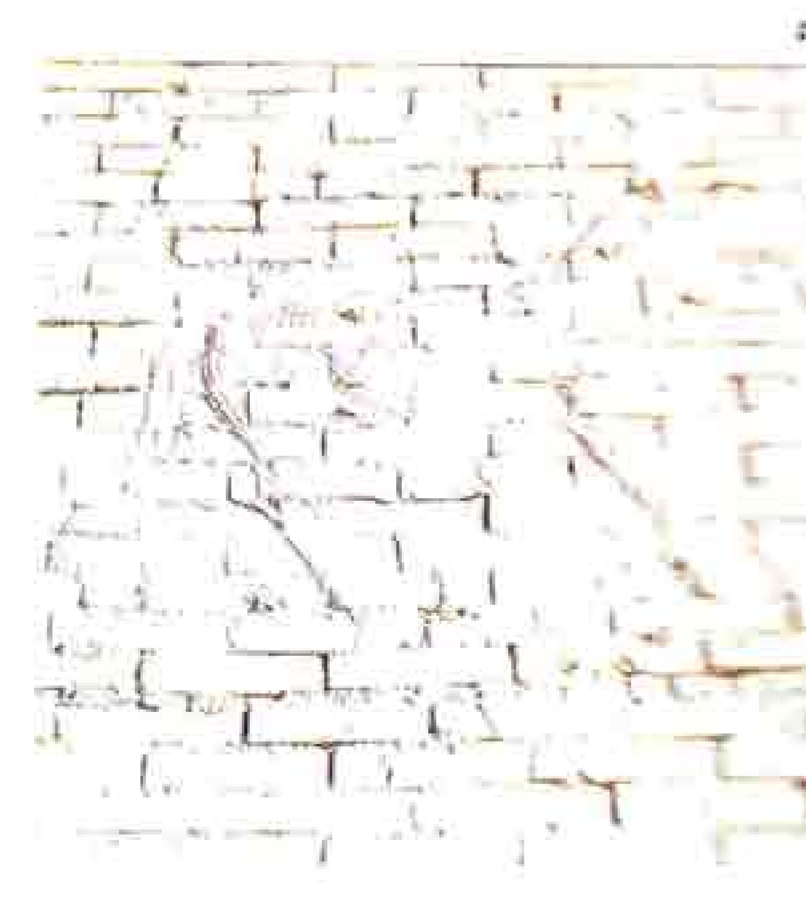
من العموريين الناطقين بالسامية أيضا .

لكن في اوائل القرن الثامن عشر ، كانت لارسا تحت حكم ريم سين « الراعي الصالح » قد تغلبت على إيسن ، واصبحت المناوىء البارز الوحيد لبابل ، من أجل السيطرة على بلاد ما بين النهرين (٣) .

حمورابي وشرائعه

كان الملوك الخمسة الأول ، من السلالة الجديدة في بابل ، منهمكين بالدرجة الأولى في اقامة الأبنية الدينية والدفاعية وبشق الاقنية ، دون توسع اقليمي يذكر ، تاركين هكذا لحمورابي أن يقود الحملات المظفرة التي أفضت الى امتداد امبراطوريته من ماري على الفرات في الشمال الغربي ، حتى عيلام في الشرق ، وان يتقدم بعد تغلبه على لارسا للسيطرة على « مملكة » سومر وأكاد القديمة .





فاتحة وخاتمة مكتوبتان باسلوب شبه شعري .

(٣) ـ سيطرت بابل على آسيا الغربية ، على درجات متفاوتة من السيطرة ، وذلك على مدى ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن .

(٤) ـ يبدو ان هذه اللوحة البابلية التي لم يكشف عن مضمونها تماما بعد تدور على الهندسة النظرية . معظم النصوص الرياضية البابلية معاصرة لسلالة حمورابي (ملك ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق . م) . أما البقية ، فيمكن اعادة تاريخها الى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . لكن تاريخ المجموعة البابلية القديمة الباكر لا يزال مجهولا ، باستثناء البينات المستمدة من نصوص اقتصادية وادارية ، ترقى الى أقدم عهود الكتابة في ما بين النهرين ، وقد اقتبس البابليون القدماء نظامها العددي المبني على التقسيم الستيني .

(٥) ـ تظهر في بعض الرسوم النافرة على الآجر الثيران والمخلوقات الخرافية التي كانت تؤلف جزءا من المواكب الاحتفالية . وهذه الرسوم ، ترقى ، مع معظم البقايا البابلية المكتشفة حديثا ، الى العهد البابلي الحديث .

بالاضافة الى تأسيس هذه الامبراطورية التي لم تدم طويلا جدا ، قامت شهرة حمورابي بالدرجة الأولى على مجموعة الشرائع (٢) المنسوبة اليه ، والمكتوبة باللغة الأكادية (٧) ، وهي لسان سامي أصبح في تلك الحقبة ، انسجاما مع التطورات السياسية ، اللغة الرئيسية لبلاد ما بين النهرين . لكن اللغة السومرية بقيت وقفا على الاستعمال الديني بالدرجة الأولى ، مع ان الحضارة التي عبّرت عنها آلت الى الساميين ، وواصلت ازدهارها معهم .

كان حكم خلفاء حمورابي طويلا ومستقرا . ومع انه ورد ذكر الكاشيين الدخلاء في بابل في اواخر القرن الثامن عشر ق . م (القادمين على الأرجح من الجبال الواقعة في الشمال الشرقي) ، فمن الأكيد ان حملةالملك الحثي مرسيليس الأول سنة ١٥٩٥ ق . م أو بعدها بقليل ، هي التي أدّت الى

٦



٧

(٦) - تحمل قاعدة قصر شلمنصّر الثالث ، التي عثر عليها في نمرود ، نقشا على سطحها الأفقي ، يشتمل على فقرة منفصلة تشير الى حملتي الملك في بابل سنتي ٨٥١ و ٨٥٠ ق . م اللتين أعان فيهما الملك البابلي على حماية عرشه من الثورة . ويظهر في هذا الحفر النافر ، على سطحها الغربي العمودي ، شلمنصّر (الى اليمين) وربما الملك البابلي (الى اليسار) ، ومع كل منهما مرافق . وتظلل الجميع مظلة . يلفت النظر في هذا الرسم ان الملكين يظهران فيه وهما يتصافحان ، وهو نادر في هذا الفن .

(٧) - تُبرز لوحات الآجر الباكرة أهمية الغنم والماعز في اقتصاد المجتمعات السومرية الأولى . وهي تستعمل الرموز الدالة على كلمات « تاجر » « وماشية » « وحمار » . أدخلت الحقبة الأكادية تحسينات على نوعية اللوحات الاولى في أول تدوين من نوعه للغة سامية ، أي الأكادية القديمة . أما تطور تلك اللوحات الى لوحات بابل (اللوحات المصورة هنا بابلية قديمة) وآشور فقد بلغ ذروته في خط الكتبة ، في مكتبة آشور بانيبال في نينوى .

٨



(٨) - يصور هذا النصب نارام سين (٢٢٥٤ ؟ - ٢٢١٨ ؟ ق . م) الأكادي منتصرا على الملك العراقي الشرقي للولوبي . شكلت سلالته السامية فترة متوسطة في التاريخ السومري فمهدت السبيل لسيادة البابليين الساميين . تمثال انتصاراته في متحف اللوفر .

تدمير بابل الشهيرة وسقوط سلالة حمورابي . يصعب ان يكون مرسيليس قد طمع بفتح دائم ، لذلك ملأت الفراغ فيما بعد سلالة كاشية يقال انها حكمت مدى ٥٧٦ سنة .

عصور بابل المظلمة

امتصت بلاد بابل الكاشيين . وطيلة عصر مظلم يزيد على ٢٠٠ سنة ، نكاد لا نسمع عنهم شيئا يذكر . لكن في منتصف القرن الرابع عشر ق . م تزوج الملك الكاشي ابنة ملك آشور ، الا ان هذا الزواج أدى الى سلسلة من الحروب ، انتهت باجتياح الملك المحارب الاشوري البارز توكولتي نينورتا الأول سنة ١٢٣٥ ق . م لبلاد بابل واحتلالها . في الواقع احتفظ الكاشيون ببابل ، ولكن سلالتهم سقطت أمام العيلاميين سنة ١١٥٧ ق . م .

لكن العيلاميين خسروا سيطرتهم السياسية على بابل قبل نهاية القرن ، اذ انتقلت منهم الى سلالة ايسن الثانية ، التي وضعت حدا في عهد نبوخذ نصر الأول (ملك ١١٢٤ - ١١٠٣ ق . م) للتدخل العيلامي . ثم سقطت سلالة ايسن بعد فترة من الاستقرار السياسي دامت أقل من مائة سنة ، تلاها عصر من القلق والاضطراب السياسي ، وضعت حدا له سلالة بابل الثامنة سنة ٩٧٧ ق . م التي عرفت كيف تحافظ ، طوال قرن كامل ، على علاقات وثيقة مع دولة اشور النامية .

استنجدت بابل بشلمنصّر الثالث ملك اشور (٦) (ملك ٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) لمساعدتها على قمع فتنة فيها ، في حقبة بدأت تظهر فيها القبائل الكلدانية القوية في جنوبي بابل . وقد سبقت الحروب مع اشور والفوضى في الداخل قيام تغلت بيلصّر الثالث (ملك ٧٤٤ - ٧٢٧ ق . م) كملك بارز لأشور ، لم يلبث ان اعتمر التاج البابلي . وقد حكم خليفته شلمنصر الخامس (ملك ٧٢٦ - ٧٢٢ ق . م) على كلا البلدين طوال خمس سنوات . لكن كلا من سرجون الثاني (ملك ٧٢١ - ٧٠٥ ق . م) وسنحاريب (ملك ٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) وجدا في الكلدانيين اعداء الداء لهما .

تقلبت أحوال بابل تقلبا عظيما في القرن السابع ، حتى ظهور «ابن أبيه» المجهول الهوية نابو بولصّر (ملك ٦٢٥ - ٦٠٥ ق . م) الذي دشن عهدا عظيما من الحضارة البابلية في ظل السلالة الكلدانية .

ظهور البابليين المستحدثين

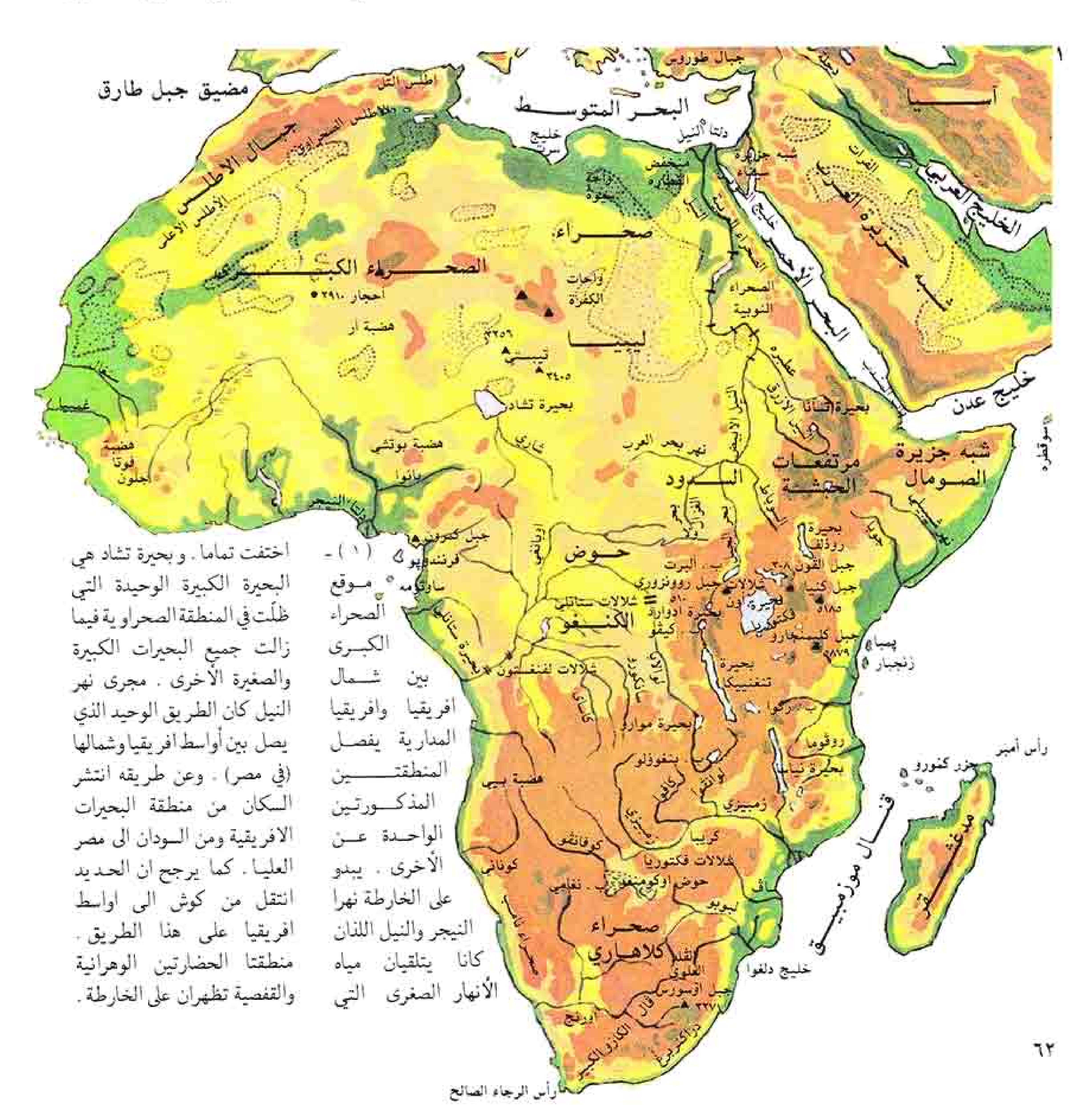
أعانت بابل الميديين على دحر نينوى والاشوريين سنة ٦١٢ ق . م ، ودمر قائدها العظيم نبوخذنصَّر الثاني (ملك ٦٠٤ - ٥٦٢ ق م) القدس وسبى أهاليها ، وأقام أنصابا ومباني جعلت من بابل احدى عجائب الدنيا السبع ، وهذه هي حقبة الجنائن المعلّقة .

اغتيل ابن نبوخذنصّر ، وأخذ انحلال بابل يتفاقم في عهد نابونيد التقي والمولع بالآثار (١) ، وهكذا سقطت بابل ، وبدون مقاومة ، أمام هجمات الملك الاخميني الفارسي قورُش الكبير (حوالى ٦٠٠ - ٥٢٩ ق . م) ثم دمرها احشورش جزئيا سنة ٤٨٢ ق . م ، وكان من الممكن أن يعيد الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) بناءها لو لم يمت هنالك . ومنذ ذلك الحين أسدل ستار التاريخ عليها . مع ان مدارسها الفلكية بقيت حية في الحضارات التي تلتها .

افريقيا في العصور الأولى

اسم افريقيا أطلقه الرومان في القرن الثاني ق . م على ما بين طرابلس وأواسط الجزائر حاليا ، ثم صار اسما للقارة كلها في العصور الحديثة .

الصحراء الكبرى تخترق افريقيا من شواطىء البحر الاحمر حتى الاطلس بعرض ١٦ درجة تقريبا (١٠ ـ ٢٦) ، وهي لا تفصل جغرافيا فقط قسمها المطل على حوض البحر المتوسط عن باقي القارة ، ولكنها ايضا تفصلها عرقا وحضارة وتاريخا بعضها عن بعض . فشمال افريقيا كله من مصر حتى المغرب جزء من منطقة الحضارات القديمة (١) ، بينما افريقيا فيما وراء الصحراء قارة أخرى ظلت في عتمة التاريخ حتى العصور



(١) ـ موقع الصحراء الكبرى بين شمال افريقيا وافريقيا المدارية يفصل المنطقتين المذكورتين الواحدة عن الأخرى . يبدو على الخارطة نهرا النيجر والنيل اللذان كانا يتلقيان مياه الأنهار الصغرى التي اختفت تماما . و بحيرة تشاد هي البحيرة الكبيرة الوحيدة التي ظلّت في المنطقة الصحراوية فيما زالت جميع البحيرات الكبيرة والصغيرة الأخرى . مجرى نهر النيل كان الطريق الوحيد الذي يصل بين أواسط افريقيا وشمالها (في مصر) . وعن طريقه انتشر السكان من منطقة البحيرات الافريقية ومن السودان الى مصر العليا . كما يرجح ان الحديد انتقل من كوش الى اواسط افريقيا على هذا الطريق . منطقتا الحضارتين الوهرانية والقفصية تظهران على الخارطة .

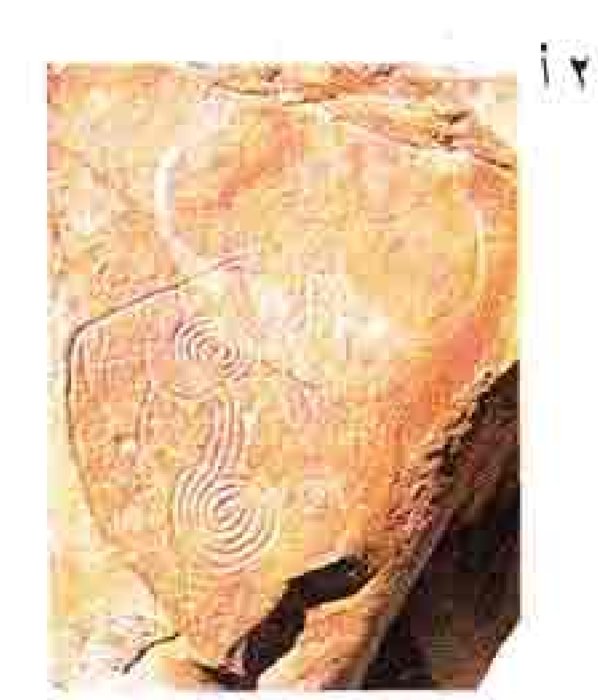
الحديثة ، وان كانت لها تطوراتها البشرية والتاريخية الخاصة والمستمرة عشرات الالوف من السنين .

دلت الأبحاث والآثار الطبيعية والانسانية ان هذا الحاجز الصحراوي الاعظم لم يكن موجودا او على الاقل لم يكن منطقة جفاف ورمال قبل عشرة آلاف سنة ، وان قصة الانسان في هذه القارة كانت مختلفة عما قد توحي به الاوضاع الجغرافية والبشرية اليوم . بقايا الصور التي تركها الانسان القديم في الصخور الصحراوية (موقع تسيلي مثلا وموقع جبارين) (٢) ، وآثار الوديان التي جفت ، وحتى البحيرة التي لا تزال قائمة (بحيرة تشاد) والتي تتقلص باستمرار (٥) ، كلها شواهد على حداثة عمر الصحراء .

افريقيا مهد الانسان

قبل مئات الالوف من السنين ، وجدت

٢ أ



ب



ت



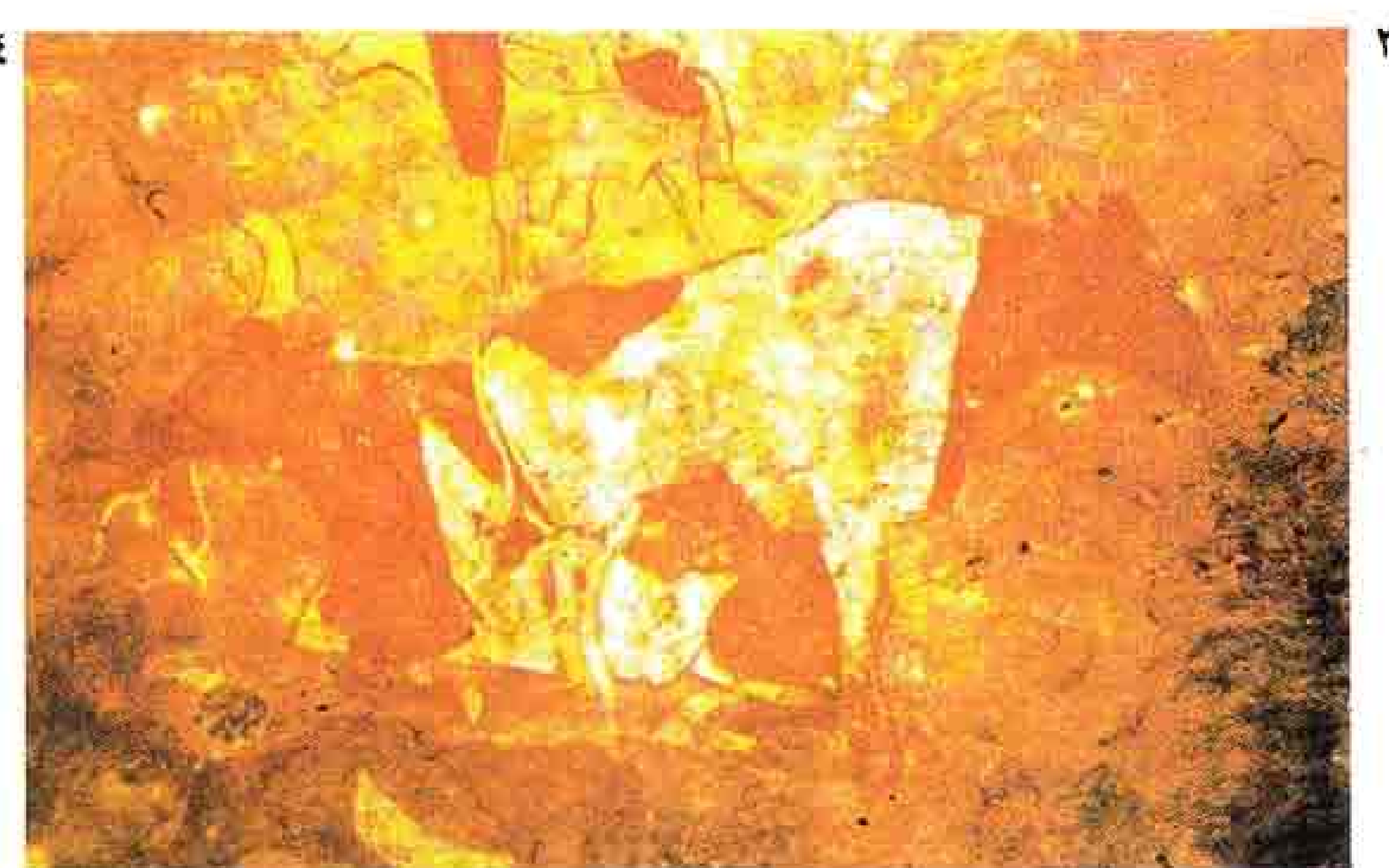
(٢) ـ عثرت بعثة هنري لوث الفرنسية قبل حوالى ثلاثين سنة على عدد من الرسوم والنقوش الصخرية في منطقة الحجار والآيير في الصحراء الكبرى ترجع في تاريخها الى الفترة الممتدة من ٦٠٠٠ الى ٢٠٠ ق . م . ثم توالى اكتشاف الرسوم في مئات المناطق المتناثرة في حزام عريض يمتد من جنوب وهران حتى الواحات المصرية . تمثل رسوم الكهوف والصخور الحيوانات التي كان الانسان يعتمد عليها في حياته وتنقّله . كما يرى في بعضها الانسان وهو يقوم بالاهتمام بها . اختلف الباحثون في تحديد تواريخ دقيقة لهذه الرسوم . هناك تقسيم تقريبي يجعلها في خمسة أدوار ، قديم من عصر الصيد ، ورسومه منحوتة ، وثان ملوّن ينتهي قبل حوالى ٨ آلاف سنة ، وثالث من عصر الرعاة بين ٥ آلاف الى الف ق . م ، ورابع ظهرت فيه صورة الحصان (حوالى ٧٥٠ ق . م) ، وخامس فيه صورة الجمل بدأ مع عصر الميلاد . رسم (ب) هو من منطقة جبّارين (تسيلي حجار) ويعود الى ٣٥٠٠ ق . م ، وترى فيه الأبقار ترعى في تلك المنطقة وعدد من الرجال يحاول حصرها في مكانها . في (أ) رسم حفر في جيرات أيضا من منطقة تسيلي ، يعود الى ٦٠٠ قبل الميلاد . ويرى فيه الأيل ذو القرون الطويلة (الحيرم / الودّان) ؛ في (ت) حفر يمثل زرافات ضخمة في جبال الآيير يعود الى حوالى ٢٠٠ قبل الميلاد .

في انحاء القارة وبخاصة في شرقيها وشمالها مجموعات بشرية الملامح . الأدلة والبقايا الكثيرة التي وجدها العلماء رجحت لدى معظمهم ان افريقيا كانت مهد الانسان ، وان الانسان المنتصب ظهر فيها قبل حوالى ستين الف سنة ، وان الانسان العاقل انتشر فيها فيما بين ٢٠ و ١٥ الف سنة . قبل ذلك وخلاله ، عرف الانسان الافريقي استخدام الصوان (٤) ، ثم سكنى الكهوف ، وصيد الغذاء ، واستخدام النار .

منذ سبعة او ثمانية آلاف سنة ، حين بدأت العناصر البشرية ، التي كانت تمارس جمع الطعام والصيد ، في الافول ، وتنتشر بدلا منها الجماعات المتجهة الى الاستقرار من أجل زراعة الغذاء وتربية الحيوان لاستغلاله ، كانت هناك أربع جماعات عرقية أفريقية قد وطدت اقدامها في هذه القارة ، هي :

البوشمن الأولون في الأجزاء الجنوبية والشرقية .

٣



٤



٥



(٣) ـ أبقار الجرمنتيين التي ذكر هيرودوت ان لها قرونا طويلة منحنية الى الامام مما يجعلها تسير الى الخلف عند رعيها . يبدو انه وصف مبالغ فيه عند مقارنتها بما تبرزه رسوم الكهوف القديمة في جنوب ليبيا ، وذلك كما يظهر في لوحة بكهف جبارين في تسيلي بالصحراء الكبرى .

(٤) ـ كاشطة حجرية من العصر الحجري الحديث عثر عليها في ليبيا . هذه هي الأدوات التي كان يعتمدها انسان العصر الحجري في صيده وقنصه وقطع الأخشاب والحفّ . وقد عثر على هذه الكاشطة مع غيرها فريق من رجال الآثار الليبيين في منطقة جرمنت في الفزّان .

(٥) ـ بحيرة التشاد هي البحيرة الوحيدة التي لا تزال موجودة في الصحراء الكبرى . وقد تقلّص حجمها وضاقت مساحتها خلال الآلاف الستة الماضية . لا تعرف هذه البحيرة حدودا معيّنة ، فمساحتها تتبدل بنسبة هائلة حسب غزارة المياه . وترافق ارتفاع المياه فيضانات على نطاق واسع .

الأقزام الأوائل في الاقاليم الغابية من حوض الكنغو وساحل غانا .

الحاميون ـ القوقازيون الذين انتشروا في الشمال والشمال الشرقي ، دخلاء على القارة .

الزنوج ، وهم الأقدم ، انتشروا في المناطق الباقية وعلى هامش المناطق الغابية الاستوائية ، ثم توغلوا فيها منذ حوالى ٩ ـ ٨ آلاف سنة ، واختاروا المناطق الرطبة والقريبة من المياه في الغرب .

الصحراء الفاصلة :

زادت أعداد الجماعتين الأخيرتين حتى طغت على الجماعات الباقية وفصلت بينهما وبين هذه الجماعات الصحراء الكبرى التي كانت تتسع بالتدريج تحت ضغط تطورات المناخ وانسحاب العصر المطير . الخط الوحيد تقريبا الذي ظل يربط بين الجماعات الحامية والقوقازية والزنجية هو وادي النيل .

التحديات التي لقيها سكان هذا الوادي اضطرتهم الى استغلال الارض ، وتنظيم الري ، وتطوير نظام اداري يضمن الامرين منذ الالف الخامس والرابع ق . م . ولم يلق الزنوج هذه التحديات لقلة عددهم وكثرة الغذاء المتاح ، فلم يلجأوا الى الاستقرار ولم تتطور لديهم مستويات مماثلة من الحضارة .

قبيل القرون الميلادية بقليل ، عرفت افريقيا تطورين هامين ، هما :

١ ـ انتشار جماعات البانتو ، وهي اخلاط من الزنج والحاميين تكونت في مناطق البحيرات الافريقية ، ثم انساحت نحو الغرب والجنوب والشرق من القارة ، حاملة معها طرائق الزراعة وانتاج الغذاء .

٢ ـ دخول افريقيا عصر الحديد ، وربما دخلها عن طريق وادي النيل وحضارة كوش . فقد كان الحديد قد وصلهما في القرنين الثامن والسابع ق . م ، بعد أن شاع في الشرق الأدنى حوالى سنة ١٢٠٠ ق . م .

الشمال الافريقي

القسم الشمالي الشرقي من افريقيا ، وبخاصة مصر ، جزء من الحضارات المتوسطية القديمة . أما باقي الشمال الافريقي فقد عرف ما بين ٥٠ ـ ٢٠ ألف سنة ق . م . انسان النياندرتال ، صاحب الحضارة العتيرية (عتير بجنوبي تونس) . ثم أخذ يختفي ليحل محله الانسان العاقل . ونرى بقايا عصره الحجري القديم في الحضارة الضبعانية (نسبة لكهف الضبعة في ليبيا) . ما بين ١٠ و ١٢ ألف سنة ق . م . انتشر جنس البحر الأبيض المتوسط . العصور الحجرية والمتوسطية تكشف من آثاره :

١ ـ الحضارة الوهرانية (حوالى ١٥ الف سنة ق . م) ، في السواحل والتلال المجاورة لها . عثر على آثارها في كهف هوا الفتايح والجبل الأخضر في ليبيا .

٢ ـ الحضارة القفصية : التي ظهرت بين ٩ و ٥ آلاف سنة شرقي جبال اوراس ، ويبدو انها أثرت في الحضارة الوهرانية .

بين الألف الثالث والثاني ق . م ، وفد على المغرب جماعات عرف أشهرها في النقوش المغربية باسم / ليبو / (ومنها اسم ليبيا) ، امتزجت بصانعي الحضارتين السابقتين ، ونتج عن هذا المزيج مجموعة البربر ، وهي المجموعة البشرية واللغوية التي أهلت الشمال الافريقي في العصور التاريخية .

المملكتان القديمة والوسطى في مصر

مكّنت الآثار الموجودة في مصر العليا من تحديد هوية حضارات متعاقبة ، تعود الى ما قبل التاريخ ، أطلق عليها اسم حضارة البداري « ونقادة الأولى » « ونقادة الثانية » . لكن ندرة وجود الآثار في مصر السفلى تجعل من الصعب اصدار أي حكم تاريخي صحيح . يبدو ان مملكتين مختلفتين قد نشأتا في مصر العليا ، ومصر السفلى (٢) ، وان توحيد البلاد كان نتيجة انتصار الاولى على الثانية حوالى ٣١٠٠ ق . م . لكن استمر سكان مصر القديمة في دعوة بلادهم بالقطرين(مصريم=جمع مصر).

ملوك السلالة الأولى المتألهون

يعرف أول ملوك السلالة الحاكمة الأولى

١



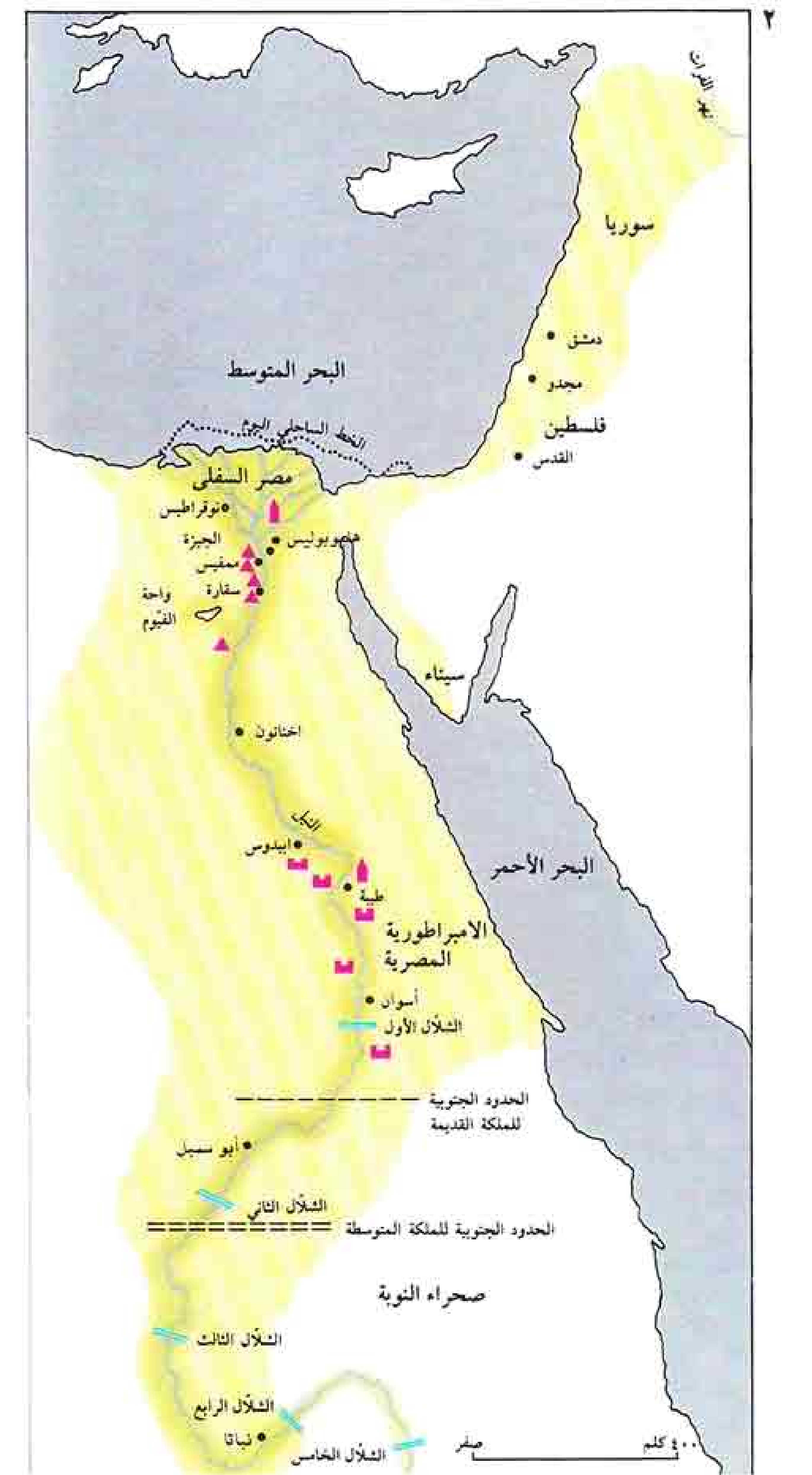
(١) ـ جاء توحيد مصر نتيجة للحرب . وقد دونت انتصارات الحكام الأولين على لوحات طقسية ، كهذه اللوحة التي تصور مينا ، اول حاكم من حكام مصر بكاملها .

(٢) ـ تنقسم مصر بصورة طبيعية الى منطقتين ؛ مصر السفلى التي تتألف من منطقة دلتا النيل ، وحوض النيل الضيق الطويل المعروف بمصر العليا والذي تحيط به الصحراء من كلا الجانبين . كان فيضان النيل السنوي يجلب الماء لريّ الاراضي ، بالاضافة الى طبقة من الطمي الرسوبي الخصيب . وكان ازدهار مصر الزراعي يعتمد على تقلبات أحوال النهر التي كان من الممكن التنبؤ بها .

(٣) ـ كانت نظرة الناس الى الملك في عهدي المملكتين القديمة والوسطى تختلف كل الاختلاف . وهذا ما كان ينعكس في التماثيل الملكية . فهنا التمثال للملك منقرع من السلالة الرابعة (أ) برفقة الملكة هو عبارة عن تصوير مثالي للملك المتألّه . لكن الحقبة التالية للعصر الأوسط شهدت ظهور طراز أعمق وأكثر واقعية . كما يتبين من التمثال الخاص بسنوسرت الثالث (ب) .

٢





وفاتح مصر السفلى تقليديا باسم مينا (١) ، وينسب اليه تأسيس العاصمة القومية ممفيس ، الى الجنوب من دلتا النيل . كان الملك الجالس على العرش يعتبر التجسيد الحي للمعبود الصقر حورس . في عهد السلالتين الأولى والثانية ، أخذ المزارعون يستعملون المحراث على نطاق واسع ، وأدخل الري على الأرجح ، كما قامت حكومة قومية ، واستُنبطت الكتابة التصويرية .

مع قيام السلالة الثالثة ، بدأت الحقبة المعروفة بالمملكة القديمة (٢٦٨٦ ؟ - ٢١٨١ ق . م) . كان أبرز ملوك السلالة الثالثة زوسر ، الذي من أجله بني مجمع الهرم المدرج (٧) . في عهد سنفرو ، مؤسس السلالة الرابعة ، بُني أول هرم بالمعنى الصحيح ، واتقن فن بناء الأهرام في عهد خلفائه خوفو وخفرع ومنقرع . كان بناء الأهرام (٨) يتطلب تكاليف باهظة

٤



٥

(٤) - كان الكتبة ، كهذا الذي يظهر في تمثال عائد للمملكة القديمة ، حجر الاساس في الادارة المصرية وعملها المنظم . كان البرديّ يستعمل لتدوين الحسابات اليومية ، الا انه لم يبق من هذه الحقبة الا قطع محدودة العدد جدا من بقاياه .

(٥) - يظهر الملك منتو حوتب الثاني وقد عانقه رع الرب الشمس في رسم نافر من معبد الملك الجنائزي في الدير البحري . وقد أعد الملك ايضا أضرحة أخرى من أجل نقرو ، أخته وملكته ، ولعدد من جواريه . بنى ملوك لاحقون هياكل مشابهة تجاه طيبة على الضفة الغربية من النيل .

وتنظيما محكما . لذلك أدى ضعف سلطة الملك ، في اواخر السلالة الرابعة ، الى التخلي عن التقنيات الباهظة التكاليف .

ابان عهد السلالة الخامسة ، استعادت عبادة الرب الشمس رع مكانتها على الصعيد القومي ، وباشر الحكام بناء هياكل شمسية لعبادته . في اواخر السلالة الخامسة ، نُقشت نصوص على جدران المدافن في الاهرام الملكية ، لضمان انتقال روح الحاكم بأمان الى العالم الآخر . وفي عهد السلالات الرابعة والخامسة والسادسة ، جُرّدت حملات ضد أفراد القبائل في شبه جزيرة سيناء ، وأرسلت قوات كبيرة الى بلاد النوبة لا بتزاز العاج والذهب وسواهما من المواد النفيسة ، او الاتجار بها .

في نهاية عهد السلالة السادسة ، أدى نمو سلطة الحكام الاقليميين (أو الملوك) الى تدهور سلطة الهيئة الحاكمة في ممفيس . فظهرت سلالات مناوئة في هرقليوبوليس

٧

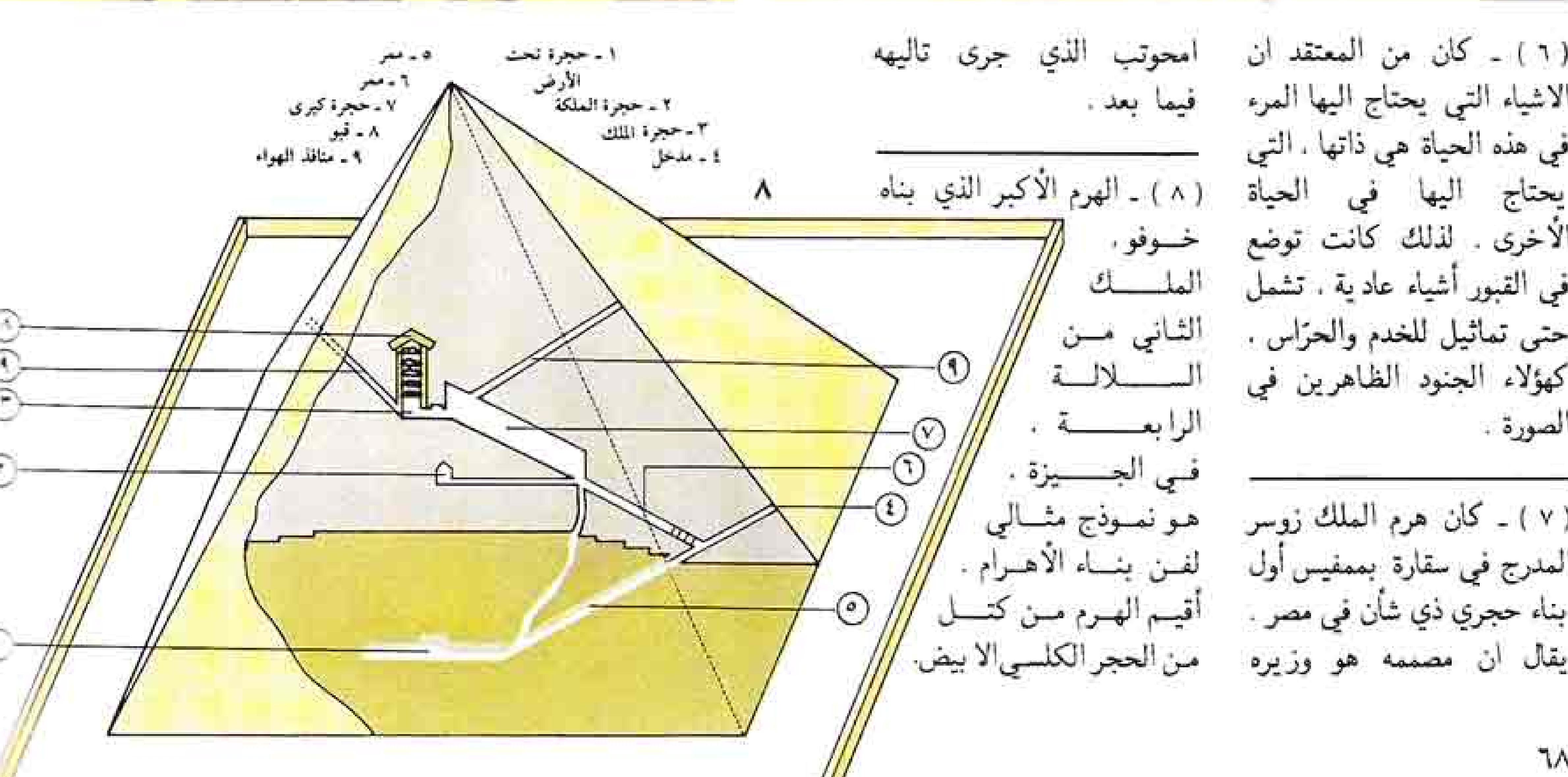
٦



(٦) ـ كان من المعتقد ان الاشياء التي يحتاج اليها المرء في هذه الحياة هي ذاتها ، التي يحتاج اليها في الحياة الأخرى . لذلك كانت توضع في القبور أشياء عادية ، تشمل حتى تماثيل للخدم والحرّاس . كهؤلاء الجنود الظاهرين في الصورة .

(٧) ـ كان هرم الملك زوسر المدرج في سقارة بممفيس أول بناء حجري ذي شأن في مصر . يقال ان مصممه هو وزيره امحوتب الذي جرى تاليهه فيما بعد .

٨



(٨) ـ الهرم الأكبر الذي بناه خوفو ، الملك الثاني من السلالة الرابعة ، في الجيزة . هو نموذج مثالي لفن بناء الأهرام . أقيم الهرم من كتل من الحجر الكلسي الا بيض .

وطيبة مما أغرق البلاد في حروب أهلية . واستغل رجال القبائل في سيناء هذه الفوضى للتوغل الى مناطق الدلتا الخصبة .

انتهاء فترة من الفوضى

تعرف هذه الحقبة المضطربة وغير الموثّقة بأسم المملكة الوسطى الأولى (حوالى ٢١٨١ - ٢٠٥٠ ق . م) . تغلّب أمير طيبة منتوحوتب الثاني من السلالة الحادية عشرة (٥) على منافسيه ووحد مصر تحت حكمه ، تاركا للولاة المتعددين سلطاتهم الواسعة ، ودشن المملكة الوسطى في مصر (حوالى ٢٠٥٠ - ١٧٨٦ ق . م) . بنى منتوحوتب الثاني هيكلا وقبرا جنائزيا لنفسه في الدير البحري . على الضفة الغربية من النيل ، تجاه طيبة . خلف منتوحوتب الرابع حفيد منتوحوتب الثاني وزيره امنمحات الأول في ظروف غامضة فأسّس السلالة الثانية عشرة حوالى ١٩٩١ ق . م .

أراد امنمحات الأول ان تكون له عاصمة جديدة فجعلها في لشت ، الى الجنوب من ممفيس ، لأن طيبة كانت تبعد كثيرا الى الجنوب ، مما يمنع قيامها بمهام عاصمة فعالة . ولكي يوطد سلطته على العرش ، روج نبوءة زائفة حول توليه الحكم وعين ابنه سنوسرت الاول شريكا له في الحكم . على الرغم من هذه الاحتياطات ، اغتيل امنمحات الاول بعد ثلاثين سنة من الحكم ، الا ان ابنه استطاع ان يحتفظ بالعرش . وفي عهد سنوسرت الثالث ، قُضي على شوكة أشراف المناطق الذين كان من شأنهم أن ينافسوا الملك على السلطة . كان امنمحات الأول قد بدأ اجتياح بلاد النوبة ، فأكمل هذا التوسع في عهد سنوسرت الثالث الذي أقام الحدود الجنوبية عند سمنا . وباستثناء حملة واحدة معروفة جنوب فلسطين ، يبدو انه لم تتخذ أية خطوات لممارسة سيطرة مباشرة في فلسطين او سوريا ، الا ان الروابط التجارية بقيت متينة . كذلك تبنى حكام السلالة الثانية عشرة برنامجا واسعا لاستصلاح الاراضي في منطقة الفيّوم .

تميزت المملكة الوسطى الثانية (حوالى ١٧٨٦ - ١٥٧٠ ق . م) بانحسار سلطة الحكومة المركزية . ففي عهد السلالة الثالثة عشرة اقتحم غزاة قادمون من الشمال الشرقي التحصينات المصرية وتسللوا الى الريف . وقد دُعي هؤلاء عموما بالهكسوس ، مع ان هذه اللفظة ينبغي ان تطلق على زعمائهم فقط . سيطر الهكسوس مع مرور الزمن على معظم انحاء البلاد ، بفضل المعدّات العسكرية الجديدة ، كالعربات مثلا ، وأسسوا السلالة الخامسة عشرة (حوالى ١٦٧٤ - ١٥٧٠ ق . م) ، مع انه من المستبعد جدا ان يكونوا قد مارسوا الاشراف المباشر على طيبة والجنوب . لكن من الأرجح ان تكون طيبة قد اضطرت الى الاعتراف بسلطة الحاكم الهكسوسي في عاصمته الجديدة أواريس في الدلتا .

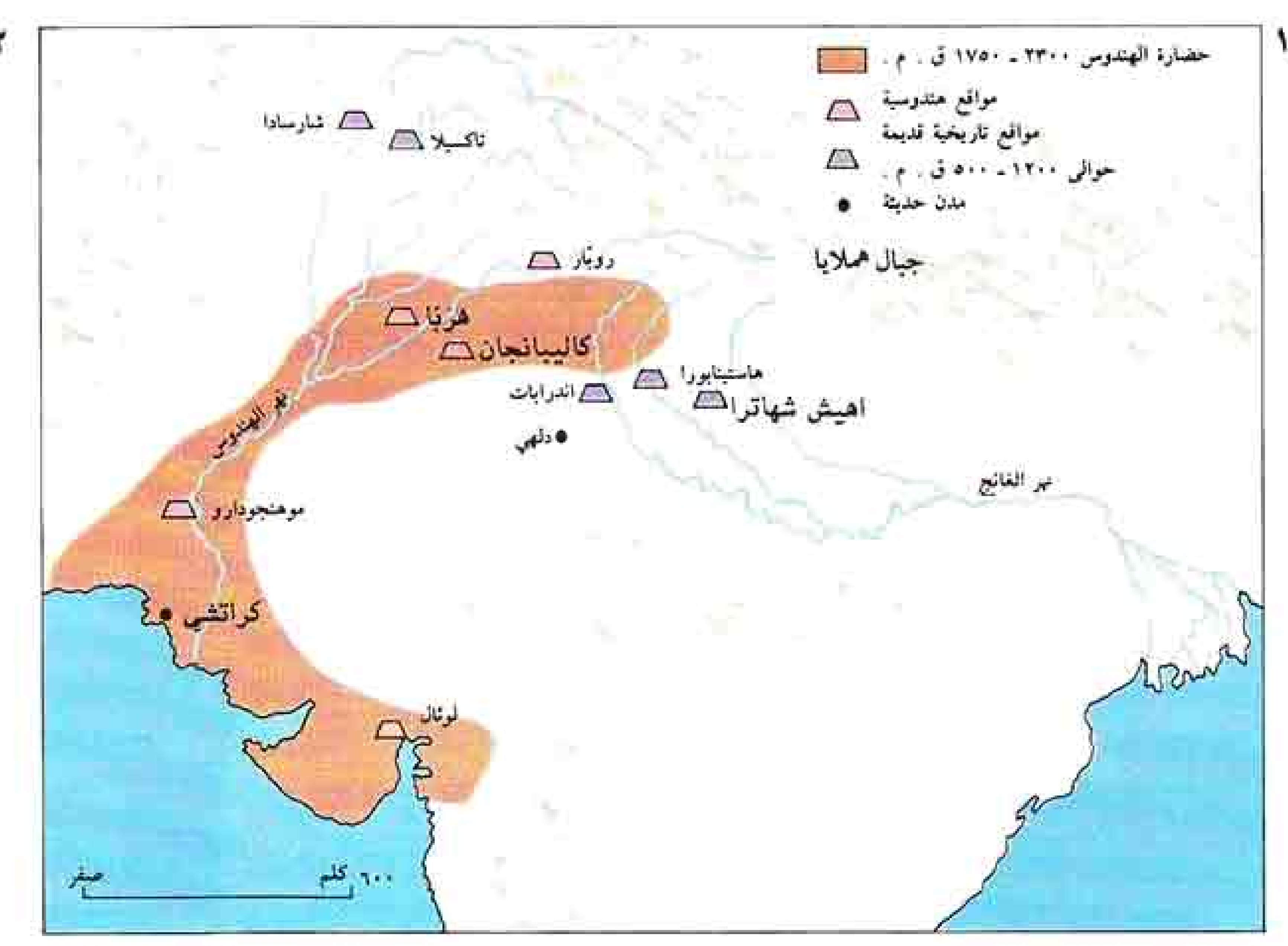
طرد الغزاة

لم يحكم الهكسوس كغرباء ، بل تبنوا الالقاب المصرية والحضارة المصرية . لكن عندما ضعفت سلطتهم ، تجرّأ أمراء طيبة المنتمون الى السلالة السابعة عشرة على رفض حكمهم . وبعد عدة حملات ، نجح كاموس وخليفته واخوه أحمس في الاستيلاء على عاصمتهم أواريس وطردهم من البلاد .

الهند القديمة
« حتى ٥٠٠ ق . م . »

أقدم الدلائل على ظهور حضارة ذات كتابة في الهند تعود الى حوالى عام ٢٣٠٠ ق . م ، وذلك عندما خرجت حضارة نهر الهندوس (= السند) من عصور ما قبل التاريخ ودخلت التاريخ . كانت المراكز الرئيسية للحضارة الهندوسية او الهَرَبِية (نسبة الى مدينة هَرَبًا) في وادي الهندوس الواقع معظمه اليوم في الباكستان . الا ان تلك الحضارة امتدت غربا حتى الحدود الايرانية ، وشرقا الى ما وراء دلهي ، وجنوبا الى خليج بروتش (١) . كانت مدنها الرئيسية هي : هَرَبًا في البنجاب ، وموهنجو - دارو في السند ، ولكن كان لها ايضا عدد من المدن الصغرى ، كميناء لوثال مثلا .

١



٢

(١) - تُبيّن المناطق الملونة باللون البني على الخارطة انتشار حضارة نهر السند التي امتدت من الجنوب الشرقي باتجاه الساحل الى ما وراء خليج بروتش . وشرقا الى ما وراء دلهي الحالية . أما الانتشار غربا باتجاه بلوشستان . فلا يظهر في الصورة . على امتداد هذه المساحة الضخمة . (تبعد روبار عن لوثال حوالى ١٦٠٠ كلم) كانت حضارة الهندوس متجانسة . مما يوحي بسيطرة مركزية . كانت طبيعة المنطقة تسهل السيطرة السياسية . اذ ان هذه الحضارة ازدهرت في المناطق الجافة نسبيا . (خلافا للغابات الاستوائية الممطرة) التي كان من الممكن زراعتها بدون ادوات حديدية .

(٢) - كانت مدن نهر الهندوس الكبرى . جميعها . تتألف من قلعة على مرتفع . تقوم حوله مساكن الأهلين . ممتدة الى شرقي القلعة . كانت القلعة مركزًا لمعظم المباني العامة الكبرى . ففي قلعة موهنجودارو مثلا ، نجد الحمام الكبير . ومخازن الحبوب وبناية يحتمل انها مدرسة بحكم شكلها (فهي عبارة عن مجموعة من الساحات والممرات والحجرات المنفصلة) . أما المدينة السفلى ، فكانت عبارة عن المنطقة السكنية . تُبيّن هذه الخريطة لموهنجودارو شبكة البلد في القسم الاسفل من المدينة . والمنازل التي تختلف كثيرا من حيث الحجم . فمنها ما يتألف من غرفة واحدة . ومنها ما يضم أكثر من عشرين غرفة .

(٣) - بنيت المدينة الهندوسية القديمة موهنجودارو وفقا لتصميم منظم . مع شوارع

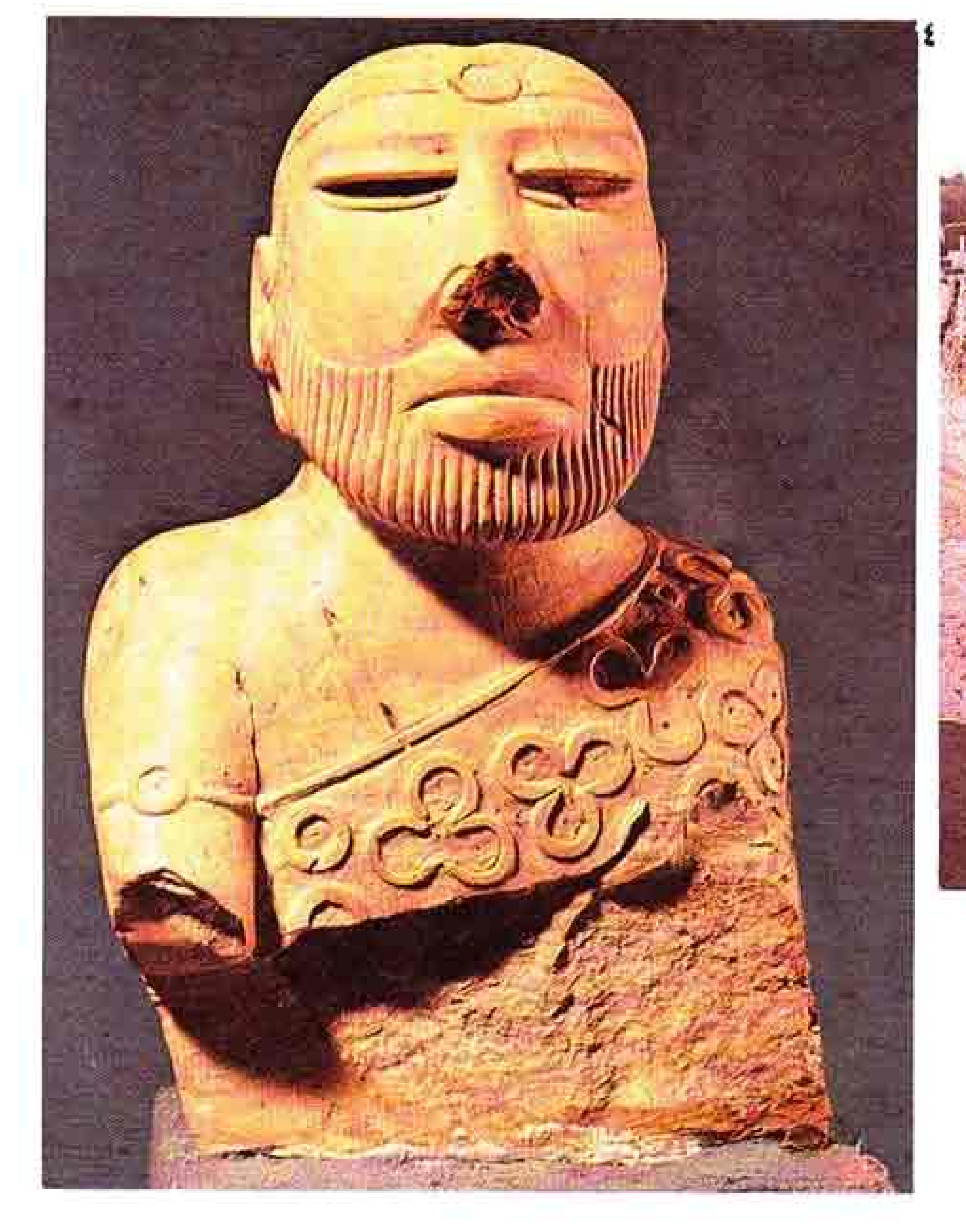
طبيعة المستوطنات

تدل هذه المدن على تصميم مدني متقدم . وتشير الآثار الباقية الى حضارة مادية راقية ومتنوعة (٣) .

من البديهي القول ان مثل هذه الحضارة المتقدمة كانت تحتاج الى نوع من الكتابة . وقد عثر على الآلاف من الأختام المصنوعة من حجر الطلق (أو حجر الصابون) (٧) والتي احتوت ، بالاضافة الى رسوم الحيوانات والناس والمعبودات ، على كتابات قصيرة بخط تصويري لم تفك رموزه بعد .

نهاية حضارة نهر (الهندوس)

معلوماتنا عن نهاية حضارة نهر الهندوس هي أقل حتى من معلوماتنا عن نشأتها . فبعد ان ازدهرت لمدة خمسة أو ستة قرون (٢٣٠٠ ؟ - ١٧٥٠ ق . م) دون ان يطرأ عليها أي تغير يذكر ، تلاشت تماما عقب فترة



متقاطعة على زوايا قائمة ، ومنازل تطل على الشوارع . عثر ايضا على مخازن حبوب متطورة .

(٤) - هذا التمثال من الحجر الكلسي هو أحد المنحوتات القليلة التي وصلتنا من حضارة نهر الهندوس . يبلغ ارتفاعه ١٩ سم ويقدم لنا تمثال شخص ذي لحية وجبين منخفض مرتد الى الوراء وعينين مستطيلتين ، وشفتين كثيفتين . تنم المنحوتة عن ذوق وفن رفيعين .



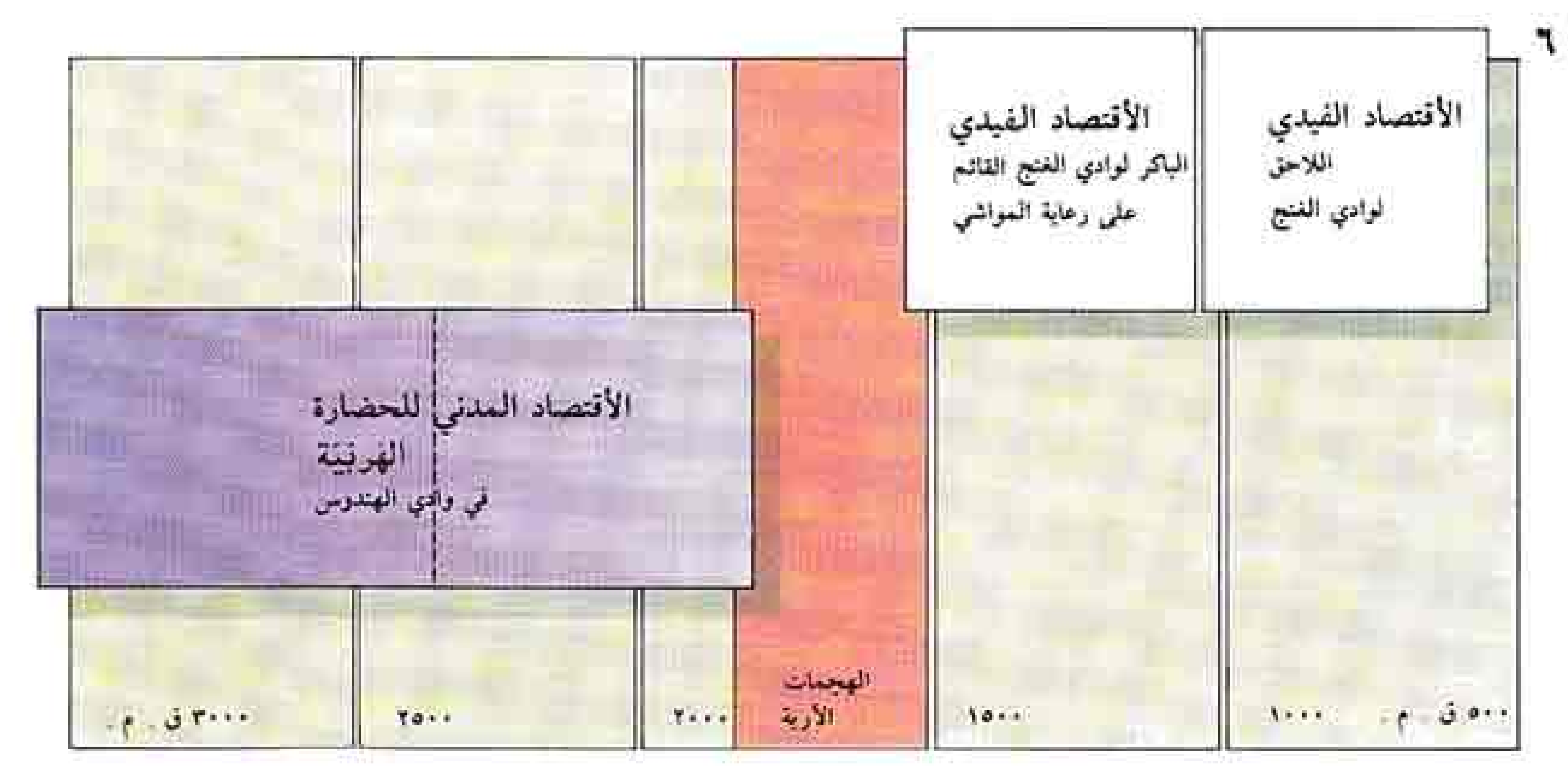
(٥) - تظهر في معظم الأختام الآتية من موهنجودارو رسوم حيوانات ، بعضها طبيعي والآخر مركب أو خيالي . يبين هنا الختم معبودا ذا ثلاثة رؤوس وقرون ، يجلس بوضع يذكرنا بأوضاع اليوجا (آزانا) في العصور اللاحقة . يحيط بالمعبود عدد من الحيوانات هنا ، بالاضافة الى ملامح أخرى . يعيد الى الأذهان تمثيلات المعبود شيفا .

قصيرة من الانحطاط . ومع اننا لا نستطيع استبعاد عامل الكوارث الطبيعية كليا ، يبدو اليوم ان مدن نهر الهندوس خضعت أولا ، في حدود سنة ٢٠٠٠ ، لسيطرة العناصر الهندية التي تعرف بالدرافيدية والتي تابعت حضارتها ، حتى تعرضت المنطقة كلها لاجتياح خيالة رُحّل في القرن الثامن عشر ق . م ، قيل انهم كانوا من شعوب هندو - آريّة . الا ان ذلك غير مؤكـد .

مع حلول القرن الثالث عشر ق . م . كان الهندوآريّون قد احتلوا البنجاب ، بعد ان انقسموا الى قبائل تحاربت فيما بينها بالشراسة نفسها التي قاتلت بها السكان الاصليين .

تعود مجموعة كبيرة من الترانيم الدينية المكتوبة بلغة سنسكريتية قديمة ، عنوانها الريشما فيدا = (المعرفة) الى هذه المرحلة المبكرة (حوالى ١٤٠٠ - ١٠٠٠ ق. م) . وقد نشأ

٦



(٦) - يبدأ أقدم تاريخ حقيقي لشبه القـارة الهنـــدية الباكستانية بعد منتصف الالف الثالثة ق . م عندما نشأت مدنية راقية في وادي نهر الهندوس وحوله . ازدهرت هذه الحضارة الهندوسـية لمـدة تجاوزت ستة قرون ، دون أن يطرأ عليها أي تغيّر يذكر . ويظهر ان نهايتها المفاجئة كانت نتيجـة لهجمـات هندوآرية . الا انه يبدو أقرب الى الاحتمال ان هذه الهجمات حدثت عندما كانت حضارة نهر الهندوس قد تصدعت . استقر الهندوآريون في القرى في البنجاب ، وكانوا ينقسمون الى قبائل . نعرف عنها بعض الشيء من الريشمافيدا . ثم امتدت الحضارة الهندوآرية ما بين ١٠٠٠ و ٥٠٠ ق . م على طول وادي الغانج . (كما يظهر بوضوح من مخلفات الأدب الفيدي اللاحق) . واتخذت الديانة الهندوسية القديمة شكلها المعروف .

٧





(٧) - هذه القوالب الثلاثة المأخوذة عن اختام عثر عليها في موهنجودارو تعطينا معلومات قيمة عن المدينة الهندوسية القديمة . باطلاعنا مثلا على ان الماشية كانت قد أصبحت أليفة في ذلك الوقت . تمثل هذه الأختام ثورا يأكل من معلف وفيلا ووحيد قرن . أما الكتابة فهي تصويرية لم يستطع أحد فك رموزها بعد .

عن النصوص الفيدية الأربعة ، وأهمها ريشما فيدا (= معرفة الحكماء) ، عدد من الشروح والتعليقات أشهرها جميعا الأوبَنِشَد (= الدروس) . كان الهنود عادة يتصورون المعبودات ، كالمعبود اندرا ، مجسمين على شكل بشر ، الا ان بعض الملامح التي اصبحت فيما بعد من مميزات الهندوسية أخذت بالظهور في ذلك الوقت ، كالتأمل والتفكير في حقيقة طبيعة الذبائح .

خلال الحقبة الفيدية المتأخرة (حوالى ١٠٠٠ ـ ٥٥٠ ق . م) انتشر الهندوآريون ، (وقد راحوا يستعملون الأدوات الحديدية الفعالة آنذاك) ، حتى شمالي الهند ، بما في ذلك وادي الغانج ، مخترقين الغابات ، لكي يتمكنوا من زراعة الأراضي الخصبة . يمكن تتبع هذا الانتشار التدريجي بواسطة نوع خاص من الفخار ، هو الآنية الفخارية الرمادية الملونة . لم يكن هؤلاء الأقوام قد تعودوا كالهَرَبيين على حياة المدن ، لكنهم اثناء انتشارهم اختلط أبناؤهم بقبائل الغابات ، ممن كانوا قد سبقوهم الى الاستيطان ، وتعرفوا على الحصان ، فتغيرت طريقة حياتهم من شبه رحل يرعون المواشي الى مزارعين مستقرين .

كان لهذا التغيّر جوانب سياسية وثقافية هامة . فقد حلّت محل الوحدات القبلية ممالك لم تعد قائمة على صلة الرحم ، بل على اقطاع الأراضي . وأخذت تسيطر على الممالك طبقات محاربة (الكشتريا) يرأسها ملك ، ويعاونها اعضاء طبقة الكهنة الوراثية (البراهمة) ، ذات النفوذ الكبير . كانت هاتان الطبقتان الحاكمتان تسيطران على الأحرار من الفلاحين والتجار والصناع الذين كانوا يؤلفون الطبقة الثالثة (فيشيا) ، بالاضافة الى شبه العبيد من العمال والصيادين والقناصين المتحدرين ، جزئيا ، من قبائل الغابات ، والذين كانوا يؤلفون الطبقة الدنيا (الشودرا) . وكان بعض هؤلاء ، لاسيما اولئك الذين كانت طريقة حياتهم تعتبر نجسة او كريهة من قبل الهندوآريين ، يُدرجون في عداد المنبوذين . كانت تلك بداية نظام الطبقات المغلق المعقد .

نشأة المدن الكبرى

نشأت ، خلال هذه الحقبة ، المدن الكبرى ، للمرة الاولى منذ تقهقر مدن حوض الهندوس . كانت أكثر هذه المدن أهمية هاستينابورا على نهر الغانج شرقي مدينة دلهي اليوم ، ومدينة راجّير التي أنشئت حوالى ٥٠٠ ق . م في بهار الجنوبية ، وتميزت بأسوارها الضخمة . في هذه الحقبة ذاتها ، أخذت معظم المفاهيم الاساسية للديانة الهندوسية تتكون : ليس مفهوم الطبقة وحسب ، بل ايضا الايمان بتناسخ الأرواح ، وباللاعنف ، وبقدسية البقر ، أي جميع تلك المفاهيم التي غدت الملامح الثابتة للحضارة الهندية . وبينما بقيت التضحية الفيدية مستمرة لا بل اصبحت اكثر تعقيدا ، ظهرت ردة فعل في صفوف اولئك الذين شعروا بالتبرم تجاه الديانة الرسمية ، وراحوا يبحثون عن قيم عليا في التأمل . فأخذ أبناء الطبقات الحاكمة يعكفون على الانقطاع الى حياة التأمل في الغابات ، عندما لم يعد اولادهم بحاجة اليهم . وعلى هذه الأسس أنشأ سيدارتا جوتاما (٥٦٣ ؟ ـ ٤٨٣ ؟ ق . م) الديانة البوذية .

الحضـارة المينوية

بينما كان آرثر ايفنس (١٨٥١ ـ ١٩٤١) ، عالم الآثار البريطاني ، يقوم بالحفريات في كنوسوس بجزيرة كريت من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٣٦ ، عثر على قصر فخم الزخرفة ، هو رائعة معمارية تدل على حضارة مبكرة ، تفوق في تميزها وتقدمها أية حضارة أوروبية قديمة أخرى اكتشفت حتى ذلك الحين .
منذ ذلك التاريخ ، اكتُشفت قصور أخرى مماثلة ، في فايستوس على يد الايطاليين ، وفي ماليا على يد الفرنسيين ، وحديثا جدا في زاكروس على يد اليونانيين .

بداية الحضارة المينوية

يظهر المينويون (نسبة الى مينوس ،



(١) ـ كانت جزيرة كريت الضيقة المستطيلة الشكل موطن الحضارة المينوية . وهي اولى الحضارات في اوروبا . ليس ثمة ما يعلل ظهور الحضارة في هذه الجزيرة بجبالها المنتشرة في الداخل ، كجبل ايدا الذي يربو ارتفاعه على ٢٤٠٠ م وساحلها الجنوبي الوعر الذي لا يتخلله سوى سهل ميسارا وراء فايستوس . ولكن ساحلها الشمالي اكثر لطفا ، وهو غني باشجار الزيتون والكرمة . كما ان البحار المحيطة بالجزيرة تساعد على التجارة والاتصال بمناطق واسعة بعيدة . لقد عرف المينويون كيف ينمّون ثروتهم الزراعية وتجارتهم الخارجية في آن واحد .

(٢) ـ بعد تطور طويل وغير مرموق ، أحرز الفخار المينوي شهرة بادىء الأمر بفضل

ملك كنوسوس الاسطوري) ، كما دعاهم آرثر ايفنس ، في تلك الجزيرة فجأة في مطلع العصر البرونزي ، حوالى ٣٠٠٠ ق . م . ولعلهم كانوا مهاجرين من بلاد الأناضول ، أو كما دلل بعضهم حديثا ، من فلسطين . تبيّن محتويات قبورهم المستديرة ، التي تكثر خاصة في سهل ميسارا ، انهم كانوا على اتصال بالعالم الخارجي ، وان اتصالاتهم أدّت تدريجيا الى قيام شبكة تجارية كبرى عبر شرقي المتوسط (١) .

مع حلول عام ٢٠٠٠ ق . م تقريبا ، كان التقدم الاقتصادي والاجتماعي قد أدّى بفن العمارة الى تحقيق انجازات بارزة ، وهي القصور القديمة . لقد طمست تفاصيلها الزيادات والتغييرات اللاحقة ، ولكن ما بقي منها في كنوسوس وماليا ولاسيما تحت الساحة الغربية في فايستوس يكفي للدلالة على ان البناء كان قد بدأ في هذه الحقبة

٦



٧



اواني كاماريس التي تعود الى حوالى ١٨٠٠ ق . م . هذه الاواني كانت تُصنع اشكالها الأنيقة بواسطة الدولاب . وقد جاءت بعض الكؤوس فائقة الجمال . توحي الطبقات المشاهدة على ظهر هذا الا بريق من فايستوس ببراغي مقبض نموذج معدني . كما يوحي بذلك ايضا الصقل الأسود اللماع . الا ان الزخرفة الطلائية . والشكل الجريء المجرد ذا الخطوط المنحنية ، لا يمكن ان يكونا قد صدرا الا عن تقليد عريق في صنع الخزف .

(٣) ـ تتجلّى اناقة الشكل ، بصورة أوضح ، في الحقبة المينوية المتأخرة ، ابتداء من ١٥٠٠ ق . م . فقد تحول الاسلوب الشائع في هذه الحقبة الى الطلاء بالأحمر على الاصفر ، وشاع استعمال المشاهد الطبيعية . مع ان بعض العناصر التجريدية بقيت . كانت المواضيع المفضلة في الزخرفة هي الزهور (لاسيما الزنبق) والحيوانات البحرية . كالأخطبوط والنوطل ، والأصداف بين الصخور والعشب البحري .

(٤) ـ يبين عقد ذهبي من ماليا حب الطبيعة ذاته ، لكن في تقنات مختلفة تماما . تقف نحلتان (او ربما دبوران) على حبة توت أو قرص عسل . يبلغ عرض العقد ٤,٦ سم ويعود الى حوالى ١٥٥٠ ق . م .

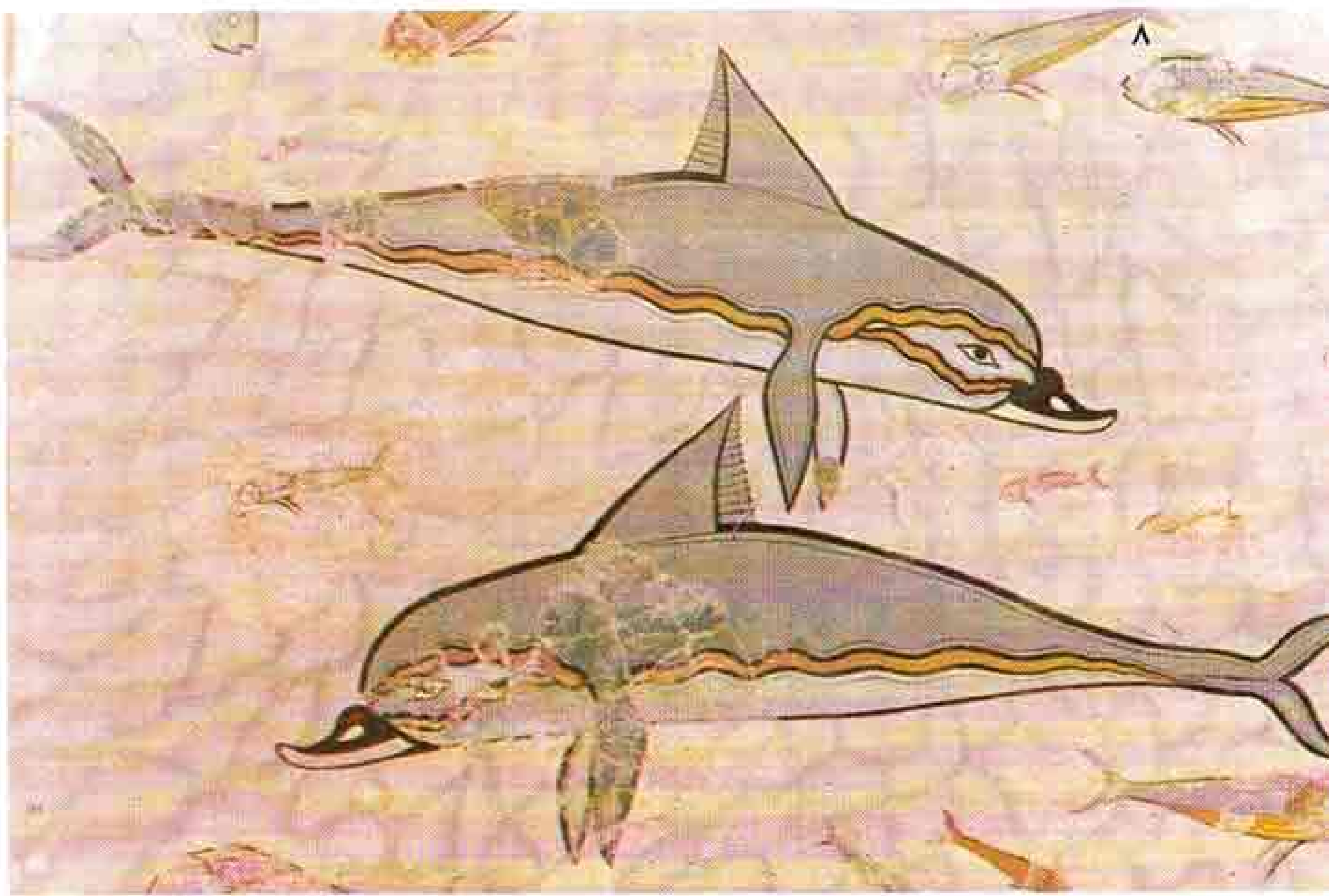
(٥) ـ هذا الاناء الرائع المصنوع من الحجر ، والمستعمل للسكب على المذبح ، وجد في قصر زاكروس الذي دُمّر حوالى ١٤٥٠ ق . م . وهو يبين معبدا (في الوسط الى اليسار) على قمة جبل ، وماعزا على سطح المعبد ، ويطير عصفور على مقربة من وعاءين كانا يستعملان عند تقديم الذبيحة .

(٦) ـ نشاهد على نقش هذا الخاتم ، الذي يبلغ قطره ٢,١ سم ، فارسين يقومان بأعمال بهلوانية ، في حقل مليء بالأزهار .

(٧) ـ هذا الخاتم الذي يكاد لا يزيد على ١,٥ سم يدل على مهارة النقاشين المينويين ، وهو مصنوع من العقيق الأزرق .

على نطاق واسع . ان ما يهمنا من هذا التقدم هو ما يكشفه عن التنظيم الاجتماعي ، أكثر مما يكشفه عن مهارات البنائين التقنية . انه يدل على ان المينويين قد أقاموا حضارة .

من أسطع الأدلة على ذلك استخدام الكتابة . توجد أقدم الكتابات القصيرة المنقوشة على الأختام في كريت ، حيث يظهر ان الرسوم الرمزية تدخل في اطار الكتابة التصويرية . وتدل لوحات الآجر التي عثر عليها ، في القصر القديم في فايستوس ، على ان كتابة مقطعية أبسط من الهيروغليفية (المصرية) كانت قيد الاستعمال العام في تلك الحقبة . ومن المحتمل انها كانت تكتب بصورة رئيسية على نوع من انواع الورق او الرق ، الا انه لم يصلنا شيء من هذه المواد . لم يتقدم أحد بعد بترجمة مقنعة لهذه النصوص ، التي عرفت « بالكتابة الخطية نوع آ » ؛ لذا بقيت لغتها مجهولة .


٨


٩

(٨) ـ كان الرسم الجداري فنا مينويا رائعا ، مع انه لم يصلنا عموما الا في قطع صغيرة . هذا المشهد الذي يمثل دلافين واسماكا كان يزين ما يعرف بقاعة الملكة ، في جناح الخدم ، في كنوسوس . وتبين رسوم أخرى طيورا وأزهارا ونباتات وحيوانات وبشرا .

(٩) ـ تتجلى في هذا التمثال الصغير الخزفي الأناقة الراقية التي كانت تتميز بها الحضارة المينوية في كريت ، في العصر البرونزي . يبلغ طوله ٢٩,٥ سم ، وقد عثر عليه في كنوسوس ، حيث كان مدفونا منذ حوالى ١٥٠٠ ق . م . كثيرا ما تظهر على الأختام وفي اللوحات الجدارية صدرية ضيقة وقد انفتحت لاظهار الثديين ، ومئزر (مريول) مطرز وإزار (تنورة) طويل مزركش . لكن اللبوة الظاهرة فوق القبعة ، اذا صح انها لبوة ، والأفعوان في اليدين هما أقل شيوعا وينمّان عن شؤم غير اعتيادي . ومن المحتمل ان صاحبة التمثال هي معبودة الأرض التي تشهد على انتشار عبادتها المعابد . وسراديب الأقبية في الآثار المينوية وفي الكهوف والأماكن المقدسة الموجودة على قمم التلال ، في جميع أنحاء كريت . يلاحظ ان المعبودة تحمل بيدها أفعى وفي تاجها تمثال فهد صغير .

من الصعب كشف طبيعة التنظيم السياسي للجزيرة بدقة . لكن القدرة الكبيرة في القصور على اختزان الحاجات المنزلية كالأواني الفخارية (٢) و (٣) ، والأغذية كزيت الزيتون ، توحي بأنها كانت مراكز اقتصادية وادارية في آن واحد ، تسيطر على مختلف مناطق الجزيرة .

ذروة الحضارة المينوية

قد تكفينا معالم التجارة الخارجية ، التي كانت تتعاطاها كريت ، لتفسير ثروة هذه الجزيرة في هذه الحقبة . فهناك قطع الفخار المينوي التي وجدت في أماكن نائية مثل مصر ؛ وهناك المستعمرات التي أقيمت على عدة جزر في بحر ايجة ؛ وهناك المقتبسات العديدة عن حضارة البر اليوناني .

يبدو أنه بعد وقوع بعض الكوارث الطبيعية حوالى ١٧٠٠ ق . م أعيد بناء القصور باسراف كبير ، وآثار هذه القصور هي ما يمكن رؤيته اليوم . كان البناء يُشيّد من الحجر الكلسي داخل بنية من الاطار الخشبي ، مما كان يؤمن للمباني شيئا من المرونة المفيدة ، وان تكن غير كافية لاحتمال هزات الزلازل التي كانت كريت عرضة لها . لكن ذلك كان يزيد ايضا في خطر الحرائق . كانت صفوف من الغرف تطل على الساحة الوسطى الكبرى ، وكانت تضيء مجموعات الحجر الداخلية أنفاق انارة حسنة التنظيم . كانت الجدران الداخلية مطلية بالجبس ، وفي غالب الأحيان مزخرفة برسوم مغرقة في الحذلقة والتلوين (٨) . وكانت الأرض مغطاة في الغالب ببلاط المرمر . ولكن لعل ما يدعو الى أشد الدهشة هو نظام تصريف المياه في هذه الجزيرة ، الذي كان من الرقي بحيث يضارع أي نظام تصريف سابق للقرن الثامن عشر الميلادي . ان الانطباع العام الذي تعطيه هذه المدنية هو الاهتمام بالنور والهواء والحرية .

الجدل حول نهاية هذه الحضارة العظيمة هو أشد وطيسا من الجدل حول بدايتها ، ولعل ذلك لوجود أدلة أوفر وأكثر تعقيدا عن تلك النهاية . لكن الرواية الاكثر شيوعا اليوم عن النهاية ، وان لم تكن هي الوحيدة ، تذهب الى القول بأن انفجارا مدمرا وقع في جزيرة ثيرا البركانية ، التي تبعد اكثر قليلا من ١٠٠ كلم عن ساحل كريت الشمالي ، وذلك حوالى عام ١٤٥٠ ق . م ، فطمر رماده السام جزءا كبيرا من كريت ، كما غمرت الباقي امواج الصدمات الناجمة عن الانفجار ، والأمواج المدّية الكبيرة .

الانحلال والهزيمة

يبدو ان كنوسوس كانت الوحيدة بين المواقع الرئيسية التي استعادت نشاطها بعد هذا الدمار ، وهنا نجد عدة أدلة على حدوث تغير عميق . فالحكام الجدد أصبحوا محاربين ، وأخذوا يستعملون « الكتابة الخطية نوع ب » التي تعتبر الآن تطورا « للكتابة الخطية نوع آ » لكتابة شكل مبكر من اللغة اليونانية . ويبدو ان كل ذلك يشير الى غزو الجزيرة من قبل سكان البر الميكينيين الذين اغتنموا فرصة انفجار ثيرا لينتزعوا من المينويين سيطرتهم على الخطوط البحرية الجزيلة الأرباح . وهكذا حل ميكينيو الأرياف محل مينويّي المدن ، وطوى الزمن صفحة القصور .

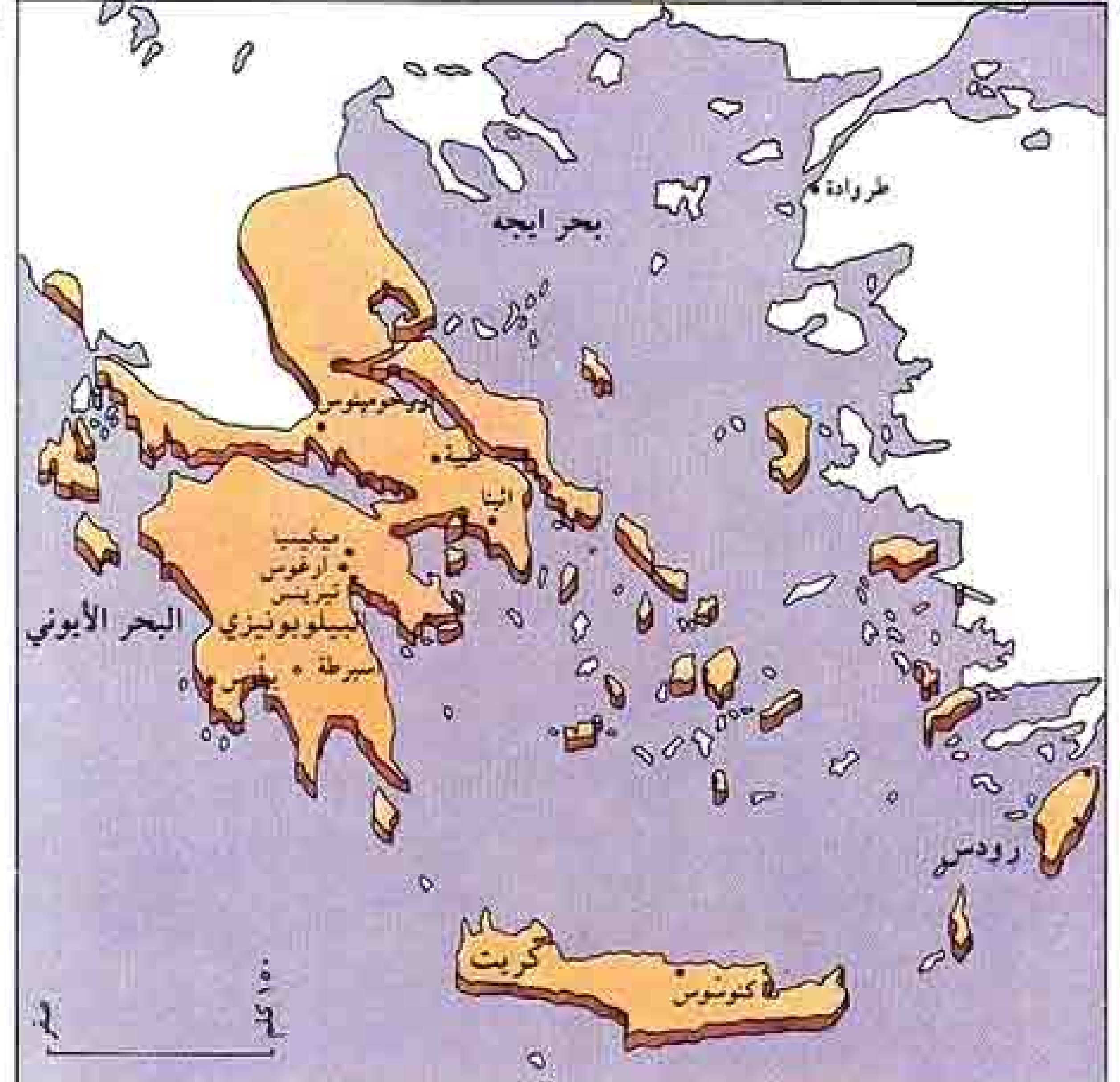
بلاد اليونان
« بين ٢٨٠٠ - ١١٠٠ ق.م »

تسرد ملحمتا هوميروس (الاليـاذة) و « الاوديسة » ، اللتان كتبتا بين ٨٠٠ و ٧٠٠ ق . م ، انتصارات ابطال يونانيين اسطوريين في عصر حروب طروادة . لكن على مر القرون ، أحاط الشك بوجود هذا العصر البطولي الذي يعود الى حوالى ١٨٠٠ - ١١٠٠ ق . م ، الى ان اكتشف هاينريش شليمان (١٨٢٢ - ١٨٩٠) ، وهو عالم آثار الماني ، في طروادة وميكينية (منذ عام ١٨٧٤) بقايا تدعم تلك الاساطير .

بداية العصر البرونزي

بدأ العصر البرونزي اليوناني ، ومركزه البر اليوناني ، باستعمال المعدن الذي كان ذا

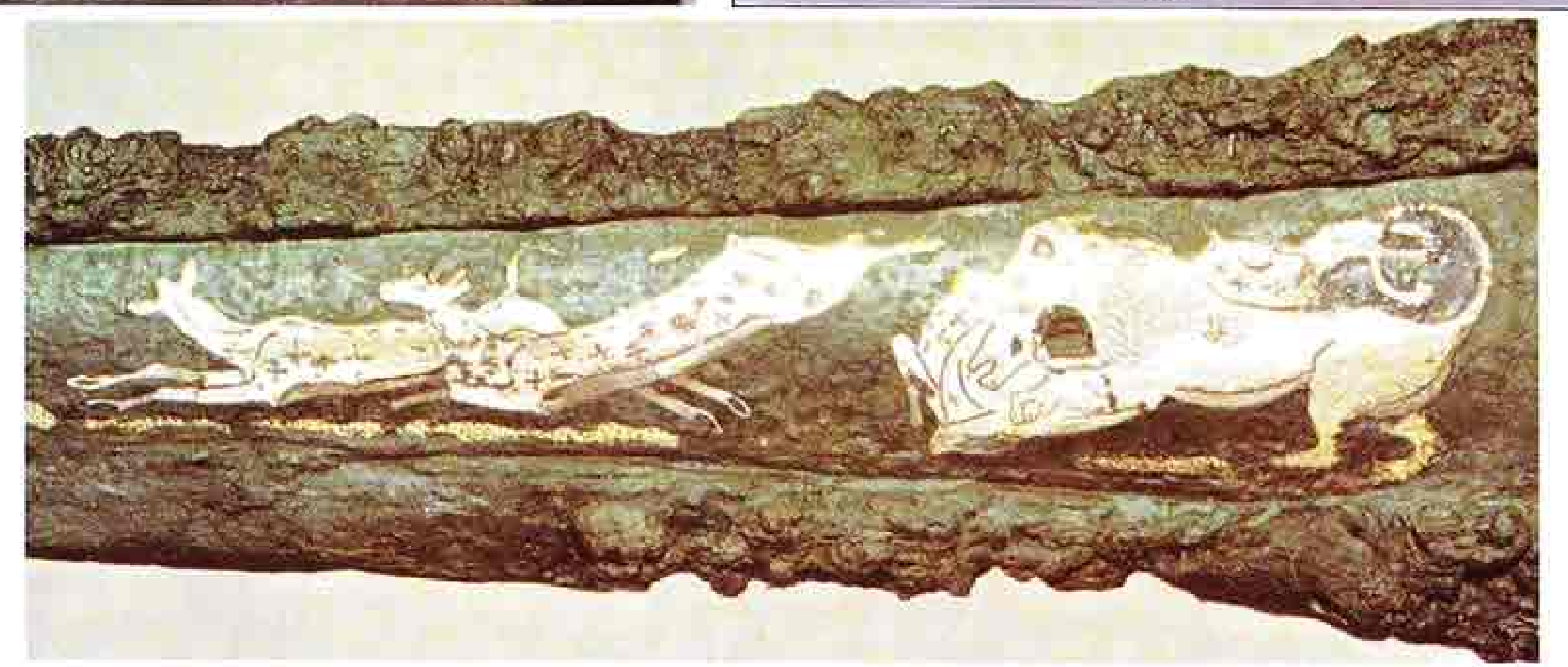
١



٢

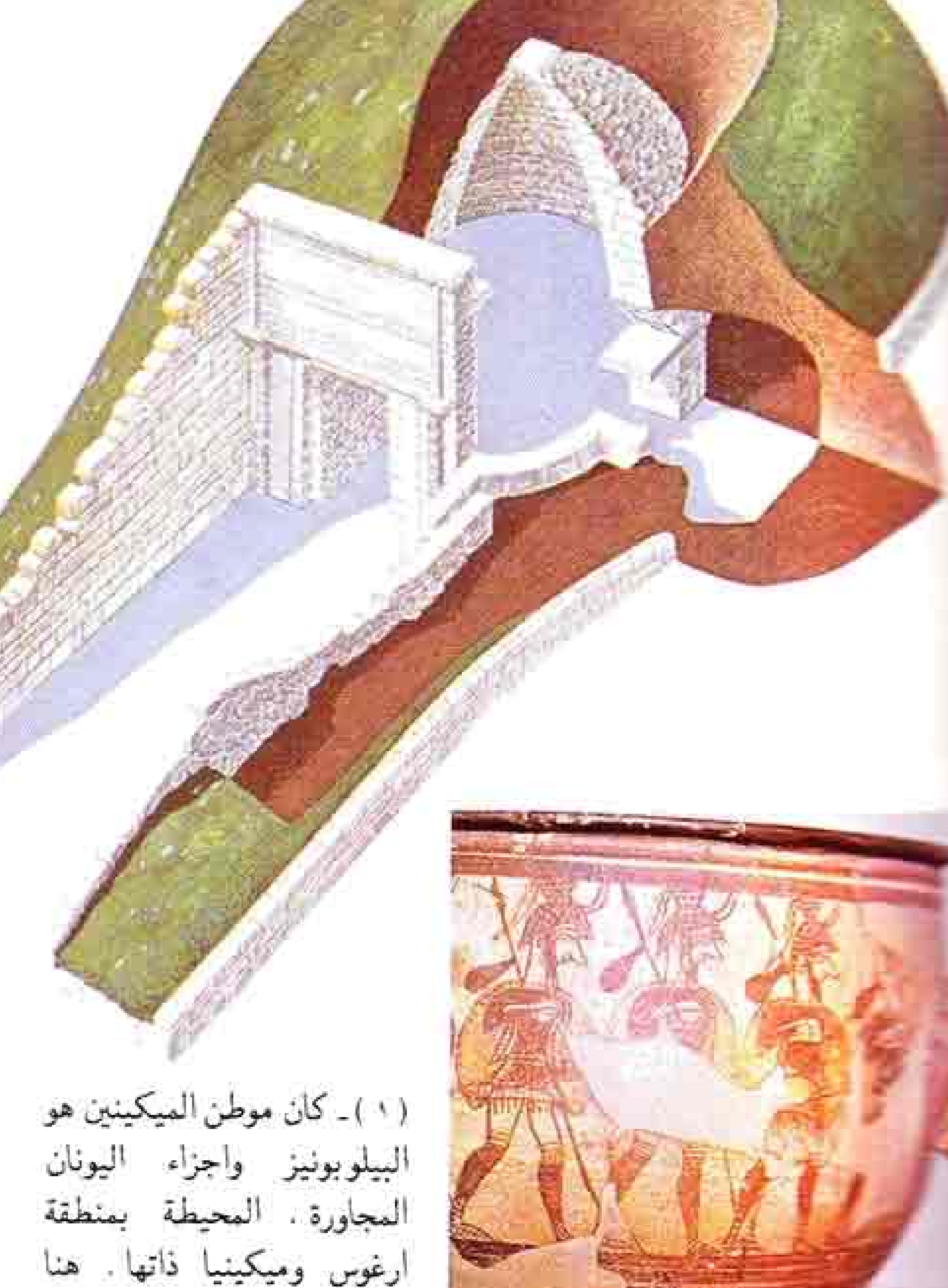


٣



شأن في انعاش التجارة ، وفي كسب الثروة المادية . في حوالى هذا الوقت أيضا ، أخذ يحل محل الاقتصاد المقتصر على الحبوب وحدها ، في سهول تسّاليا والشمال ، اقتصاد قائم على الحبوب والزيتون والكرمة . وحوالى ٢٥٠٠ ق . م ، كان أحد البلاطات يعتمد على هذا الاقتصاد ، وهو « دار الآجر » في ليرنا الواقع في سهول أرغوس . ولكن في حوالى ٢٢٠٠ ق . م . دمّر ليرنا وسواها من المستوطنات المعاصرة العديدة غزاة قادمون من الشمال الشرقي ، كانوا ، على الأرجح ، أول السكان الذين أخذوا يتكلمون لغة ذات طابع يوناني معروف .

في هذه الحقبة استُحدث دولاب الخزّاف السريع ، والقاعة الرحبة ذات الأعمدة . وبعد ذلك بقليل ، أخذت تظهر أدلة على تأثر تلك الحضارة بحضارة معاصرة لها ، هي حضارة كريت المينوية (٧) .



(١) ـ كان موطن الميكينين هو البيلوبونيز واجزاء اليونان المجاورة ، المحيطة بمنطقة ارغوس وميكينيا ذاتها . هنا انشأوا الشكل الخاص بهم من الحضارة التي كانت مزدهرة آنذاك في كريت . وباستيلائهم على تجارة المينويين البحرية ، امتد نفوذهم الى الجزر والسواحل المحيطة ببحر إيجه وما وراءها . هذه المقاطعات الشاسعة لم تؤلف قط دولة موحدة ، بل كانت على الأرجح تؤلف مجموعة من الممالك المتحالفة .

(٢) ـ من الموجودات الصغيرة الجميلة في ميكينيا هذه المنحوتة العاجية التي لا يتجاوز ارتفاعها ٦ سم ، والتي تمثل امرأتين وطفلا . يظهر التأثير المينوي بوضوح في كل من الثوب والحفر .

(٣) ـ تشهد الخناجر البرونزية التي وجدت في قبور نفقية تعود الى حوالى ١٥٥٠ ق . م على مهارة فنية فائقة في الترصيع بالذهب والفضة والنيل . بعضها يمثل حيوانات بحرية ، لكن أحد الخناجر يمثل بأسلوب مينوي « هرًا صيّادا » له ملامح البر القوية ، وثمة أسد يهاجم غزالا ، فيما يهرب اثنان آخران . يبلغ طول هذا الخنجر ٢٣,٥ سم ، وهو أحد الكنوز التي اكتشفها شليمان ، عالم الآثار الالماني ، في القبر النفقي الرابع .

(٤) ـ جاءت بعد القبور النفقية في ميكينيا قبور مقببة مبنية من الحجر ، وأجملها البناء المدعو « خزينة اتريوس » الذي يعود الى حوالى ١٣٢٠ ق . م . يؤدي ممر ذو جدران الى بوابة ضخمة جدا واقعة في التل . وفي الداخل ، تغطي قبة مزخرفة حجرة مستديرة . نهبت الجثث والموجودات الخاصة بالقبر منذ زمن بعيد ، لكنه عثر على قبور أخرى أصغر من ذلك .

(٥) ـ قد يكون لهؤلاء المحاربين الميكينيين جانب مضحك في نظرنا ، الا ان التحصينات والاسلحة والدروع التي اكتشفت تدل على ان الحرب كانت عاملا هاما في حياة ذلك العصر .

مع مرور الوقت ، نشأت مدن قوية ، مثل ميكينيا . الا ان الأدلة الحقيقية الأولى على ازدهار حضارة البر اليوناني تتجلى في القبور النفقية في ميكينيا ذاتها ، التي يعود معظمها الى القرن السادس عشر قبل الميلاد . وهي تحتوي على ثروة حقيقية ضخمة من ذهب وفضة وبرونز وبلور ومرمر وآجرّ ويمكن الافتراض انها كانت مدافن لأسرة من الأمراء وربما من الملوك أيضا تحكم مجتمعا غنيا وموحدا . ويكشف الكثير من الموجودات (٢ ، ٣) تفاوتا بين صناعة مصقولة ومتقدمة ، كريتية الملامح ، وبين صناعة غير كريتية ، هي صناعة الأسلحة والدروع وما أشبه (٥) .

أصبح هؤلاء اليونان القدماء ملاحين أيضا . وربما كانت بعض الموجودات في القبور النفقية ، من صنع مصري ، وصلت الى اليونان عن طريق التجارة ، بدلا من ان ان لم تكن قد صنعت في كريت نفسها .

٦


(٦) ـ يبين هذا القناع الذهبي شخصا ميكينيًا من حوالى عام ١٥٥٠ ق . م . عليه سيماء التكبر . وقد عثر عليه هاينريش شليمان عام ١٨٧٦ في القبر النفقي الخامس .

٧


(٧) ـ تأثر الميكينيون كثيرا بالمينويين . فهذه الكأس الذهبية من فافيو قرب اسبرطة هي من صنع محترف من البر اليوناني ربّما كان قد تدرب على الاسلوب المينوي .

٨


(٨) ـ جاء الخط المقطعي من كريت . كانت الكتابة السطريّة « نوع ب » تستعمل على نطاق واسع في كتابة الوثائق التجارية ، كما يتبين من لائحة الاعشاب هذه التي وجدت في ميكينيا . واللغة المستعملة كانت شكلا مبكرا من اليونانية .

تكون كريتية أو يونانية . اذ ان اليونانيين كانوا حريصين على الحصول على المزيد من السلع التجارية من الخارج . فأقدموا بفضل ثروتهم الزراعية على المغامرات في البحر .

امتداد الحضارة الميكينيّة

الا انهم وجدوا فرصتهم الكبرى عندما انهارت قوة المينويين ، وربما كان ذلك في اعقاب انفجار بركان ثيرا المدمر ، حوالى ١٤٥٠ ق . م . فقد حرر ذلك طرق البحر المتوسط التجارية الغنية التي كان الكريتيون يسيطرون عليها حتى ذلك الوقت . استغل سكان البر اليوناني ، الذين لم تمسهم الكارثة نسبيا ، الوضع الجديد استغلالا كبيرا . ففي الشاطىء الشرقي للمتوسط وفي مصر ، ارتفع سعر أواني الفخار التي كانوا يصنعونها ، والتي كانت تطلب لذاتها . ومن أجل الزيت المعطر الذي كان يُصَدَّر فيها ، وتقدر أيما تقدير مثلا في تلّ العمارنة عاصمة اخناتون المصرية الحديثة التي بنيت حوالى ١٣٥٠ ق . م . وكانت سفنهم تحمل ايضا النحاس القبرصي . وقد نشأ مرفأ تجاري هام باتجاه الغرب في تارانتو ، بايطاليا الجنوبية ، لنقل المزيد من النحاس من سردينيا وجبال الألب الشرقية ، والكهرمان من البلطيق النائي . الى ان احتل الميكينيون كريت نفسها . فأعادوا بناء القصر في كنوسوس كمركز لسلالتهم الجديدة .

مارس الصناع في مدن اليونان حرفهم المختلفة . وانتجوا المصنوعات المعدنية والفخار والسلع السريعة العطب . وأصبحت للمدن ذاتها أكبر وأقوى وأنسب موقعا . فرُفعت الجدران ووُسّعت ، وأنشِئت أنظمة لتأمين مد المياه بصورة مضمونة . وأخذت القصور التي كانت تُبنى على أساس تصميم القاعة الكبرى القديم تُزخرف بدقة برسوم من الجص .

ولتسهيل هذا المستوى الرفيع من التجارة والصناعة والادارة ، كان لا بد من الكتابة . كان المينويون في كريت قد استنبطوا كتابة مقطعية خاصة بهم لم تفك رموزها بعد . وُجد هذا الخط منقوشا على لوحات ، ودعاه علماء الآثار بالكتابة السطريّة « نوع آ » . تبنّى الميكينيّون هذه الكتابة بصورة فظة ، ولكنها مضبوطة ، لكتابة لغتهم اليونانية . فعرفت بالكتابة السطرية « نوع ب » (٨) .

حضارة البر اليوناني تتقهقر

يصعب فهم المراحل النهائية من تاريخ اليونان في العصر البرونزي . لكن احدى الروايات تقول ان غزاة أشداء قدموا من الحدود الشمالية الغربية ، هم الدوريون ، واجتاحوا مدن الجنوب فدمروها جميعا ، باستثناء اثينا . وتقول رواية أخرى ان الميكينيين فقدوا حماسهم التوسعي حوالى ١٢٠٠ ق . م واشتبكوا في حرب أهلية (تمثلت في حصار طروادة) ، حتى دمروا انفسهم بأنفسهم .

في البر اليوناني ، لم يعرف العصر اللاحق الا القليل عما كان قد جرى قبله فحلّت محل المدن المزدهرة قرى فقيرة ، ومحل القبور العظمى حفر بسيطة ، ومحل الروائع المصنوعة من الآجرّ والفضة والذهب أوانٍ رخيصة . أما التقدم الوحيد الذي تحقق في هذا العصر القاتم ، المدعو أحيانا بالعصر المظلم ، فقد كان التعرف الى صناعة الحديد .

الصين
«حتى سنة ١٠٠٠ ق.م.»

يحتل الصينيون مكانة فريدة في التاريخ ، بفضل التخوم الطبيعية التي حمت كتلتهم الارضية الكبرى (وهي تساوي مساحة اوروبا بكاملها) ، ولانعزالهم النسبي عن العالم الخارجي حتى القرن التاسع عشر . لم تبلغ ثقافتهم القديمة نهايتها ، كما انتهت ثقافتا مصر واليونان القديمتان ، بل استمرت تتطور منذ ٢٥٠٠ ق . م حتى الآن .

أقدم المخلفات البشرية

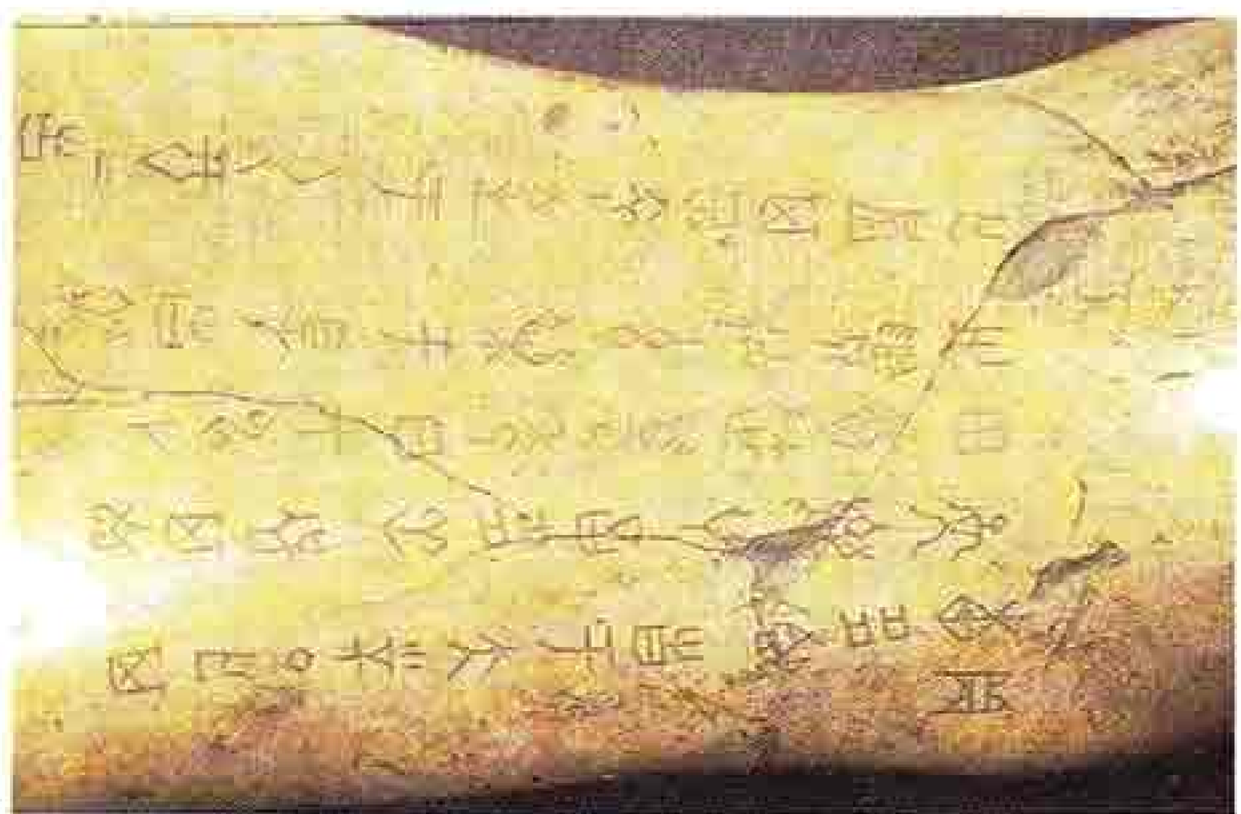
أقدم البقايا البشرية التي تم اكتشافها حتى الآن في الصين هي بقايا انسان بكين ، وانسان لانت إيين ، اللذين يعودان الى ما يربو على نصف مليون سنة . كانا من

١

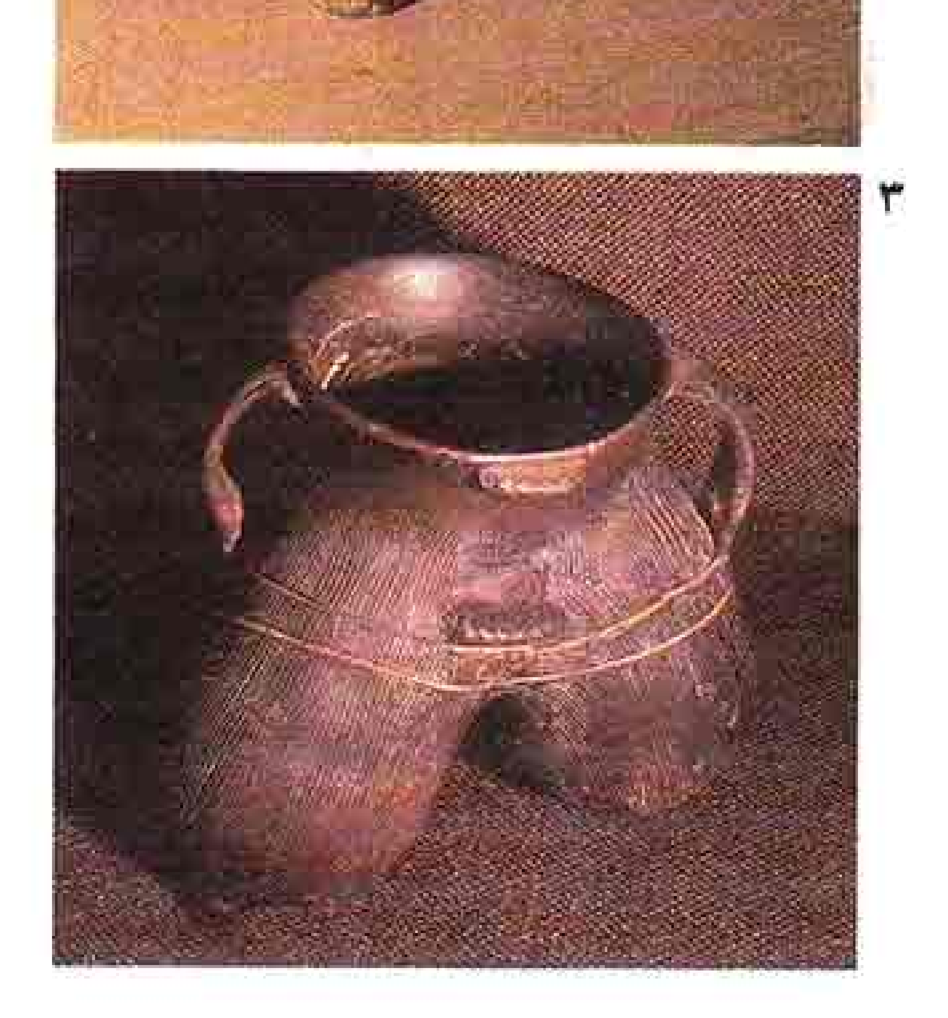
٢

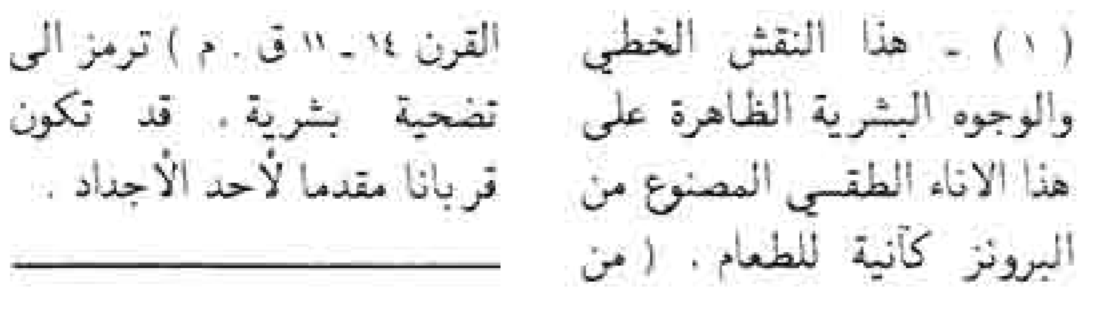


٤



٣





(١) ـ هذا النقش الخطي والوجوه البشرية الظاهرة على هذا الاناء الطقسي المصنوع من البرونز كآنية للطعام . (من القرن ١٤ ـ ١١ ق . م) ترمز الى تضحية بشرية . قد تكون قربانا مقدما لأحد الأجداد .

اوائل البشر الذين صنعوا الادوات . وقد عُثر على آثار اخلافهما في الكهوف الواقعة في التلال ، بالقرب من تشو ـ كو تيين ، التي عُثر فيها على حجارة للقشر وللقطع . جاء في اعقاب هذين الانسانين القديمين أهل الكهوف العليا الذين عاشوا قبل حوالى ٥٠٠٠٠ سنة . كان بوسعهم اشعال النار ، وكانوا يؤمنون عيشهم عن طريق القنص وصيد السمك ، وجمع الثمار والجذور الصالحة للأكل . في العصر الحجري الجديد (٧٠٠٠ ؟ ـ ١٦٠٠ ق . م) صنعوا الإبر والأقواس والسهام ، وشحذوا الشفرات الحادة من الحجارة والاصداف . كذلك صنعوا المناجل والمناشير من قرون الوعول وانشأوا مجتمعا زراعيا ورعويا . تميّز العصر الحجري الجديد أيضا بالأدوات الفخارية الدقيقة (٣ ، ٥ ، ٦) .

كان المزارعون الأول يعيشون في أكواخ تشبه خلايا النحل ، تُحفر في الارض طلبا

٦

(٢) ـ في عهد اسرة شانج نشأت صناعة راقية لتعدين البرونز . وذلك بعد الغرب بقرون . ومع ذلك كانت اقدم صناعة برونزية في شرقي آسيا . كان السلاحان الرئيسيان اللذان استعملهما الشعب الشانجي هما القوس والفأس .

(٣) ـ هذا الاناء الفخاري الاسود المثلث القاعدة يعرف باسم لي . وهو يمثل آخر وأرقى طور من أطوار صناعة الفخار في العصر الحجري الجديد ، ومنشؤه لونج شان ، في حوض النهر الأصفر الأوسط . القواعد الثلاث فارغة وتتصف بميزة حفظ القدر منتصبا على الحجر . وتعريض مساحة واسعة منه للنار .

(٤) ـ كانت عظام الكهانة تصنع عادة من الواح كتف الثور أو درع السلحفاة . وتستعمل للتنبؤ . تحفر الاسئلة على سطح العظم على شكل صور ، ثم توضع عليها مكواة حديدية حارة جدا . فينجم عن الحرارة تشقق يحيط بالحرق . وعلى اساسه . يتمكن الكاهن من « قراءة » الجواب عن السؤال .

(٥) ـ ازدهرت حضارة ليانج تشو في العصر الحجري الجديد ، في منطقة محدودة نسبيا ، في اقليم شانجهاي ، من مقاطعة تسيكيانج الشمالية . تميزت هذه الحضارة بصناعة فخار أحمر خشن ، وأحيانا فخار رمادي ، شبيه بهذا الابريق الخزفي (٤٠٠٠ ؟ ق . م) .

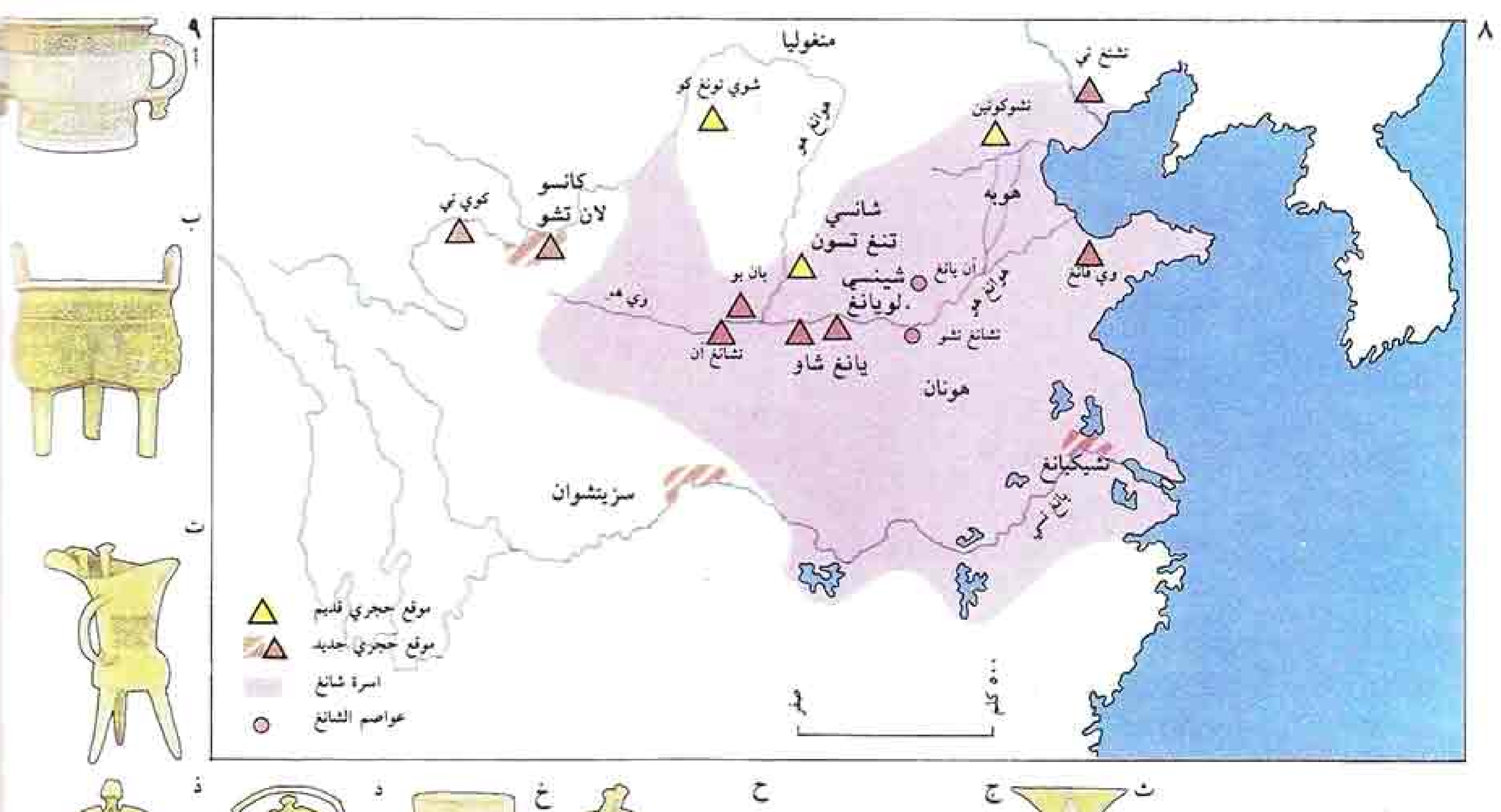
(٦) ـ هذه الجرة الحمراء الخزفية عثر عليها اثناء التنقيب في موقع قرية بان ـ بو في مقاطعة شينسي . وتمثل نموذجا ممتازا لآنية الفخار الأحمر الذي انتجته حضارة يانج شاو .

(٧) ـ المنحدران يؤديان الى حجرة الدفن (١١٠٠ ؟ ق . م) التي يوضع التابوت في وسطها فوق حفرة تحتوي على جثة كلب . كانت جثث الضحايا الجنائزية توضع بعناية على الحافة المحيطة بالتابوت . لم يترك شيء للصدفة ، فالأثاث والثياب والأدوات المنزلية والطعام والشراب ، أي كل ما كان ضروريا لتأمين راحة الميت في الحياة الأخرى ، كان يدفن معه .



للدفء والامان ، وتغطّى بسقوف من القش والطين قائمة على أعمدة خشبية . كانت تساعد على الزراعة تلك الرواسب الكثيفة من الطفال الناعم جدا الذي يعتقد ان الريح كانت تحمله من الشمال الغربي . بلغ عمق هذه الرواسب في بعض الأمكنة من السهل الاوسط ٦٠ مترا . ولما كانت خصبة بصورة خارقة ، فقد كانت توفر تربة من افضل الترب الزراعية في العالم . وعلى غرار طمي النيل ، كانت تعتبر مادة ممتازة لبناء جدران محصنة من الطين او لصنع الآجر . كذلك ساعد مناخ المنطقة المعتدل على نمو الحصان البرّي والجاموس والوعل والخنزير البرّي والغنم . وحتى الكركدن .

يقع السهل الأوسط بين نهرين عظيمين هما : هوانج هو الى الشمال ، ويانج تسي الى الجنوب . يجري هذان النهران من الغرب الى الشرق ، ويحملان معهما الطمي



(٨) ـ كانت الصين في العصر الحجري الحديث تتركز حول السهول الشمالية الخصبة الواقعة حول نهر هوانج هو . حكمت الاسرة الملكية الاولى ، وهي الشانج ، اولا من عاصمتها تشنج تشو . وفيما بعد انتقلت شمالا الى آن يانج .

(٩) ـ اكتشفت معظم قطع البرونز العائدة لأسرة شانج في آن يانغ العاصمة . وكانت تُستعمل في مناسبات رسمية وجنائزية . من الاواني المستعملة للطعام : مراجل تشيو (أ) ذات القواعد السطحية ، التنج (ب) وله ثلاث او اربع قوائم ومقابض ؛ اكواب النبيذ من نوع تشويه (ت) وهي مثلثة القواعد . ولها مقابض وصنابير ؛ الكو (ث) وهي كأس عميقة ذات حافة متوهجة . اما اباريق الخمرة والماء ، فكان الهيي تسون او التسون (ج) يُعطى اشكال حيوانات وطيور . وكان الكوانج (ح) له غطاء في ظهر الحيوان . وكان الهو (خ) واليو (د) والتشيه (ذ) اباريق خمرة أو ماء . كانت الزخرفة المرتفعة والمنخفضة (تاوتييه) طبيعية . ثم اصبحت فيما بعد مؤسلبة هندسيا .

عبر تلك المنطقة . هنا ولدت حضارة العصر البرونزي لسلالة شانج أو يين (١٦٠٠ ؟ - ١٠٣٠ ق . م) . من حسن حظ الصينيين انهم كانوا مزارعين ماهرين ، واستطاعوا ان يستمروا في زراعة الحبوب في الحقول ذاتها طيلة آلاف السنين .

مؤلفات المؤرخين الأول

ليس لدينا حتى الآن بينات كافية لتأييد تاريخ الصين المبكر جدا ، كما يرويه المؤرخون الصينيون ، في القرن الثاني ق . م . فقد ذهبوا الى ان البلاد كان يحكمها ، بادىء الأمر ، فريقان من ثلاثة وخمسة أباطرة من الشخصيات الاسطورية ، ثم تلتهم سلالات هسيا وشانج وتشو . ان وجود سلالة هسيا ما زال محفوفا بالشك . الا ان البيّنات الأثرية دلت على وجود سلالة شانغ ووجود سلطة مركزية في عاصمة ، هي شانج العظمى ، بالقرب من آن يانج في هونان الشمالية . كان الشانج شعبا زراعيا بالدرجة الأولى ، ولكنهم اشتهروا باتقان صناعة سكب البرونز (٢ ، ٩) .

لعبت التضحية دورا هاما في حضارة شانج . وكان البشر والحيوانات على السواء يقدمون كذبائح ، للاحتفال بدفن الملوك او باقامة مبان هامة . وعثر في أحد الأبنية التي جرى التنقيب عنها في آن يانج على حراس خارج البوابات مسلحين برماح ، وآخرين دفنوا بالقرب من الجدران الخارجية . كانت الكلاب موزعة على طول الجدران . وقد دفنت عربات خمس بجميع سائقيها وخيولها في الساحة الوسطى .

كانت المدافن الملكية اكثر اتقانا وتفننا . ففيها منحدرات تؤدي الى الحفرة (٧) التي كانت تحتوي في أعمق جزء منها على التابوت القائم عادة فوق قبر أصغر يحتوي على جثة كلب . كانت الحفرة تحتوي على جثث البشر والخيول والكلاب . بالاضافة الى العربات . وسائر الأثاث والحاجيات المنزلية التي يحتاج اليها ساكن القبر في العالم الآخر . كانت رؤوس بعض الناس قد فُصلت عن اجسامهم وصُفّت جثثهم في مجموعات عشرية ، بينما وُضعت الرؤوس بعناية في مكان آخر . كان العبيد أحيانا يُدفنون أحياء . ويبدو ان سبعين رجلا حيا دفنوا في قبر واحد مع الأموات .

التقاويم والمدن

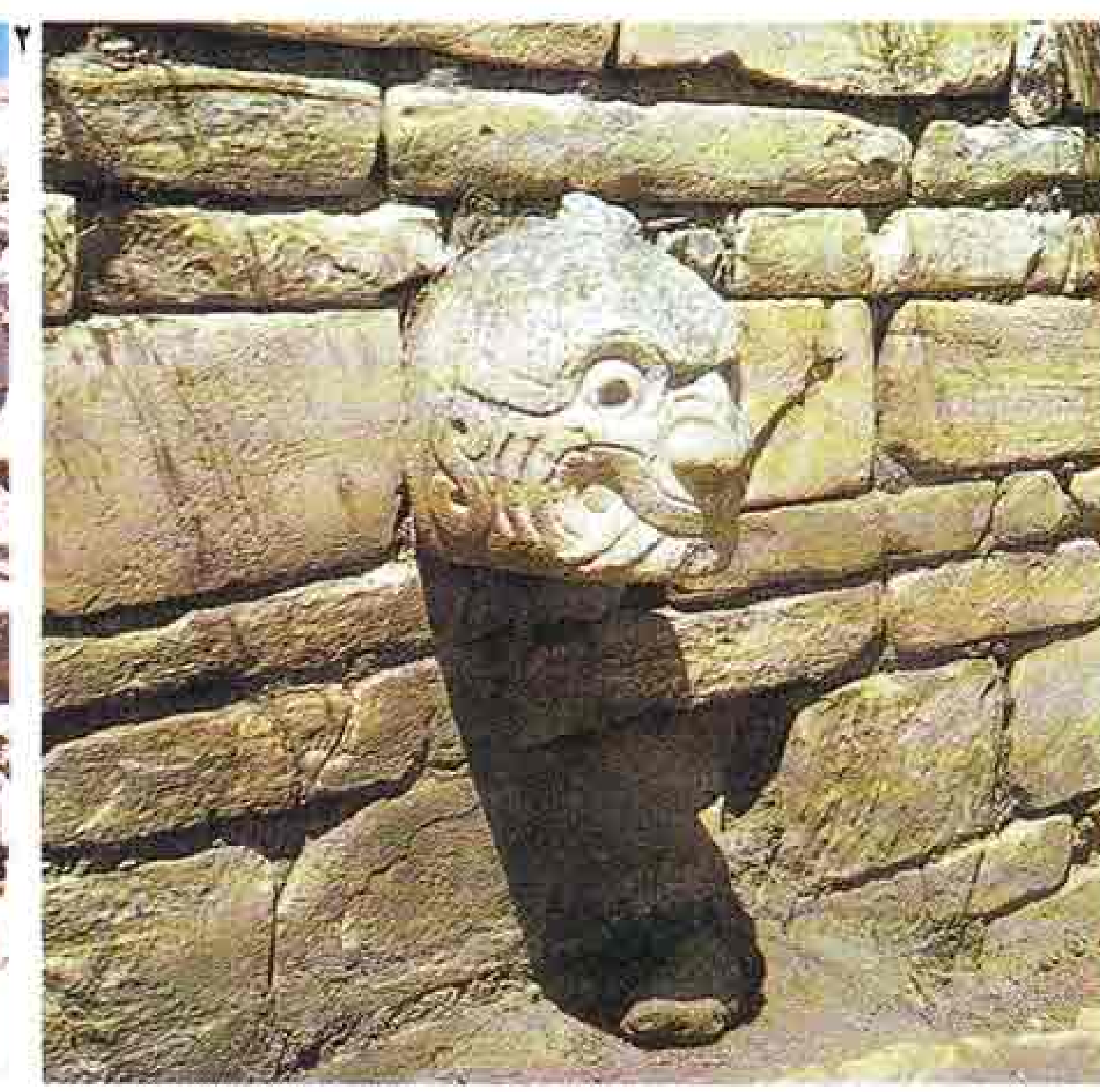
كان الشانج شعبا متقدما الى حد كبير . وقد وضع علماء الفلك عندهم تقويما دقيقا مبنيا على الشهر القمري ، ويجري تصحيحه بزيادة سبعة أشهر قمرية في كل ١٩ سنة شمسية .

انتشرت حضارة الشانج في أنحاء الصين الوسطى . وقد عُثر على آثارها في وادي يانج تسي على بعد ٦٤٠ كلم الى الجنوب (٨) . ويمكن حتى اليوم ، في بكين ، مشاهدة طريقة الشانج في تصميم المدن على المرتفعات .

أخيرا أشرف حكم الشانغ على نهايته . فالحروب المتكررة والظلم الذي لحق بالشعب على يد آخر حكامهم تشوهسين ، حملت العبيد آخر الأمر على الثورة . وقضى تشوهسين نحبه حرقا بالنار التي التهمت بلاطه . ثم بدأ عهد سلالة تشو (حوالى ١٠٣٠ ق . م .) .

أمريكا قبل العصر الكلاسيكي
« حتى ٣٠٠ م »

شهدت الفترة الممتدة بين ٢٢٠٠ ق . م . و ٣٠٠ م ظهور اولى الحضارات ، في كل من المكسيك (حيث عرفت باعتبارها الحضارة التكوينية او ما قبل الكلاسيكية) والبيرو . فمع حلول ١٥٠٠ ق . م كانت القرى الزراعية في امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية آخذة في النمو وفي التخصص المهني في بعض الحقول ، كصناعة الخزف . وكان المجتمع يتقدم ايضا نحو الطبقية ، التي تتجلى في هندسة الابنية العامة الاولى ، حتى ظهر قبل ١٢٠٠ ق . م اول مجتمع معقد بالمعنى الحقيقي وهو مجتمع حضارة الأولمك ، الذي تمركز في المنخفضات الاستوائية لساحل خليج المكسيك . كان اول مركز كبير

١


٢

٣


(١) ـ تختلط خصائص البشر والهررة في هذا التمثال الذي يظهر منه رأس هائل يبرز من جدار القلعة (الكستيلو) وهو البناء الرئيسي في شافين دي هوانتار . يتناقض شكل الحجارة غير المطلية ، ولكن المنحوتة بدقة ، مع شكل المحفورات الفائقة التفنن . يقوم هذا الموقع في واد مرتفع ، في حوض الأمازون الأعلى .

(٢) ـ صور الراقصين هذه ، في مركز مونت البان الزا بوتكي ، بأوكساكا في المكسيك ، تعود الى حوالى ٥٠٠ ق . م ، وهي تشبه صور الفن الاولمكي العائد الى هذه الحقبة ، او ما قبلها . ان اوضاع الاستسلام ، والعيون المغلقة والتفاصيل المختلفة الظاهرة على الجسم ، توحي بان هذه الصور تمثل محاربين قتلى .

للمناسبات الرسمية هو تنوختيتلان (سان لورنزو) حيث تم تحويل شكل جرف طبيعي بأكمله ببناء مدارج ومنصات فيه .

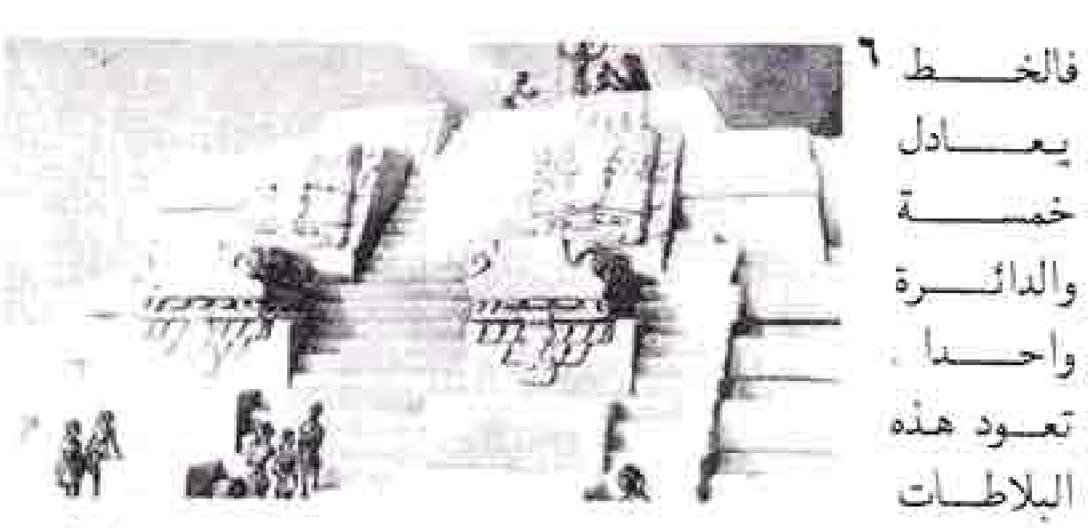
انتشار الحضارة الاولمكية

أثناء اعمال التنقيب في هذا الموقع ، عثر على عدة قطع من النحوتات الأثرية الضخمة المصنوعة من الحجر البركاني ، بما في ذلك رؤوس جبابرة كانت قد شوهت عمدا ودُفنت (٨) . كان مصدر الحجر البركاني جبال توكستلا على بعد عدة كيلومترات . يدل وجود هذه المنحوتات والتفنن في صنعها على وجود يد عاملة منظمة ، ومجموعة من النحاتين المتخصصين ، وحكومة قوية شملت برعايتها النحاتين والعاملين في صقل الحجارة والخزافين . كما عُثر أيضا على مجموعة أخرى من المنحوتات وعلى هرم كبير مخروطي الشكل في مركز أولمكي آخر

... للكتابة المايوية أكثر من ... حرف تصويري رمزي لم يترجم الا عدد قليل منها ، مع ان التقويم المايوي مفهوم اليوم .

(٤) ـ هذا جزء من منسوجة مزينة بسخاء بالنقوش ، من مقابر الصحراوية في شبه جزيرة الباراكاس ، على ساحل المنطقة الجنوبية الوسطى من بيرو . وهي تقدم رسما معقدا يتكرر على كل من اللوحات العديدة . حفظ هذه المنسوجات مناخ الساحل البيروني الجاف .

(٥) ـ تحمل بلاطتان منحوتتان ، في مونت البان ، نقوشا مختصرة على شكل كتابة تصويرية رمزية ، بما في ذلك خطوط طويلة ودوائر تشير على الارجح الى اعداد ، فالخط يعادل خمسة والدائرة واحدا . تعود هذه البلاطات المنقوشة الى ٥٠٠ ق . م . وهي تمثل أقدم كتابة يمكن تحديد تاريخها في أنحاء أمريكا القديمة .



(٦) ـ تبين اعادة بناء الهرم إي ـ ٧ معبدا يعود الى حوالى ٢٠٠ ـ ٣٠٠ م في موقع أوكساكتون المايوي في غواتيمالا .





في لافينتا .

انتشرت تجارة الأولمك الى مسافات بعيدة ، وصلت حتى مرتفعات المكسيك . فكانت اوكساكا مصدرا لمختلف المعادن ، وربما كان وادي نهر بالساس الواقع وراء مدينة مكسيكو منشأ حجر اليشم الأزرق الذي كان يحبه الأولمك . أما المنشأ المحتمل الآخر ، فهو أبعد بكثير ، اذ يقع في كوستاريكا . وُجدت محفورات صخرية ورسوم كهفية مصنوعة على الطريقة الاولمكية في المكسيك الغربي ، ويستمر وجود المحفورات شرقا حتى السالفادور . وسواء كان انتشار هذا النشاط الفني تجاريا ام دينيا ام دبلوماسيا ام عسكريا ، فمن حقه ان يعتبر اول اسلوب عم كل انحاء امريكا الوسطى . هنالك بعض الدلائل على ان الاولمك كان لديهم نظام من التدوين العددي ، وربما نظام تدوين آخر . ولكن ، هل يمكن اعتبار ذلك « كتابة »

٧



٨

(٧) ـ بدأت تيوتيهواكان ، وهي مدينة عظيمة في حوض المكسيك الشمالي الشرقي . نموّها الدرامي حوالى ١٠٠ ق . م. وابتداء من ١٠٠ حتى ٧٠٠ م ، كان عدد سكانها يناهز ٢٠٠٠٠٠ . يمتد شارع الموتى الطويل جنوبا ، من هرم القمر حتى القلعة والسوق في وسط المدينة .

(٨) ـ يعود هذا الرأس الضخم الذي ينتمي الى عصر الاولمك والذي عثر عليه في سان لورنزو تينوختيتلان بالقرب من ساحل خليج المكسيك الى حوالى ١٢٠٠ـ ٩٠٠ ق . م . عُثر على عدد من هذه الرؤوس في الموقع نفسه ، واكتشفت غيرها في لافنتا وفي عدد من المواقع الصغرى . بما في ذلك موقع بحيرة لو سيرّوس المبكر . يعتقد بعض الباحثين انها تمثل حكام الاولمك . وقد صُنعت من الصخر البركاني ، الذي جُلب من مسافة لا تقل عن ١٠٠ كلم في جبال توكستلا . وهي تدل دلالة قوية على السلطة الاجتماعية التي كان هؤلاء الحكام يمارسونها . ان حضارة الاولمك هي اول مجتمع معقد في امريكا الوسطى استطاع ان يبلغ مستوى يمكن وصفه بالمدني . وقد أثرت في التطورات اللاحقة .

بالمعنى الحقيقي ؟ هذا السؤال لا يزال موضع جدل .

حدث انتشار مماثل لأسلوب شافين في البيرو ابتداء من حوالى ١٠٠٠ ق . م . يعتمد هذا الاسلوب على الطيور الكاسرة ، والاشكال المركبة من البشر والهررة (١) التي تحمل بعض صفات الأفاعي ، والملأى بالرموز السرّية الغامضة .

تأثير الشافين في الفنون والحرف

يظهر النمط الشافيني في صناعة الفخار أيضا . وقد عُثر على نماذج منه في الشمال ، حتى الاكوادور . اما صناعة النسيج ، فقد ظهر التأثير الشافيني عليها في منطقة باراكاس (٤) في جنوبي البيرو . استمر التأثير الشافيني حتى حوالى ٢٠٠ ق . م ، وربما يكون قد استمر على مستوى اقليمي في منحوتات منطقة سان اغسطين ، في كولومبيا الجنوبية .

وُجدت مصنوعات ذهبية دقيقة الصنع ، تعود الى الحقبة الشافينية ، في وادي لامبا ييكن ومناطق أخرى من البيرو الشمالي . لقد استهلت هذه الحضارة تقليدا من صناعة المعادن النفيسة استمرّ حتى الفتح الاسباني . ونشأت مستوطنات مركزية هامة في وادي الفيرو الى الجنوب من تروخيلو على الساحل البيرواني ، وذلك في القرون الميلادية الأولى ، استجابة كما يبدو للضغط السكاني والتنافس على الموارد .

منذ حوالى ٥٠٠ ق . م . أخذ تطور الحضارة الزابوتكية بالتسارع (٢) في وادي وكساكا ، في جنوب المكسيك . فقد وُجدت أول نقوش ضخمة بالخط التصويري الرمزي في العالم الجديد (٥) في المركز الهام الواقع على هضبة مونت البان ، كما وجدت معها مبان حجرية ضخمة واشكال بشرية نافرة قليلا . ثمة بناء آخر ، هو التلة (ج) التي ربما كانت مرصدا فلكيا . مع انتهاء الحقبة ما قبل الكلاسيكية ، كانت مونت البان قد عرفت التصميم الشكلي الفسيح والساحات الكبيرة الرحبة والمنصات الضخمة ، التي تمّ تطورها اللاحق في الحقبة الكلاسيكية .

شهد وادي المكسيك ، بعد فترة من نفوذ الاولمك ، انبثاق عدد من الوحدات السياسية المستقلة ، على ضفاف بحيراته العريضة الضحلة . من هذه الوحدات كويكويلكو التي دمرها انفجار بركاني اثناء فترة حياة المسيح تقريبا . أما دولة تيوتيهواكان ، وهي دولة منافسة في الشمال الشرقي للوادي ، فقد نمت حتى أصبحت ، في القرن التالي ، مستوطنة مدنية مركزية ذات تصميم حسن (٧) ، وامتدت بحلول عام ١٥٠ الى اكثر من ٢٠ كلم مربعا ، وكان عدد سكانها في نمو مطّرد .

بداية حضارة المايا

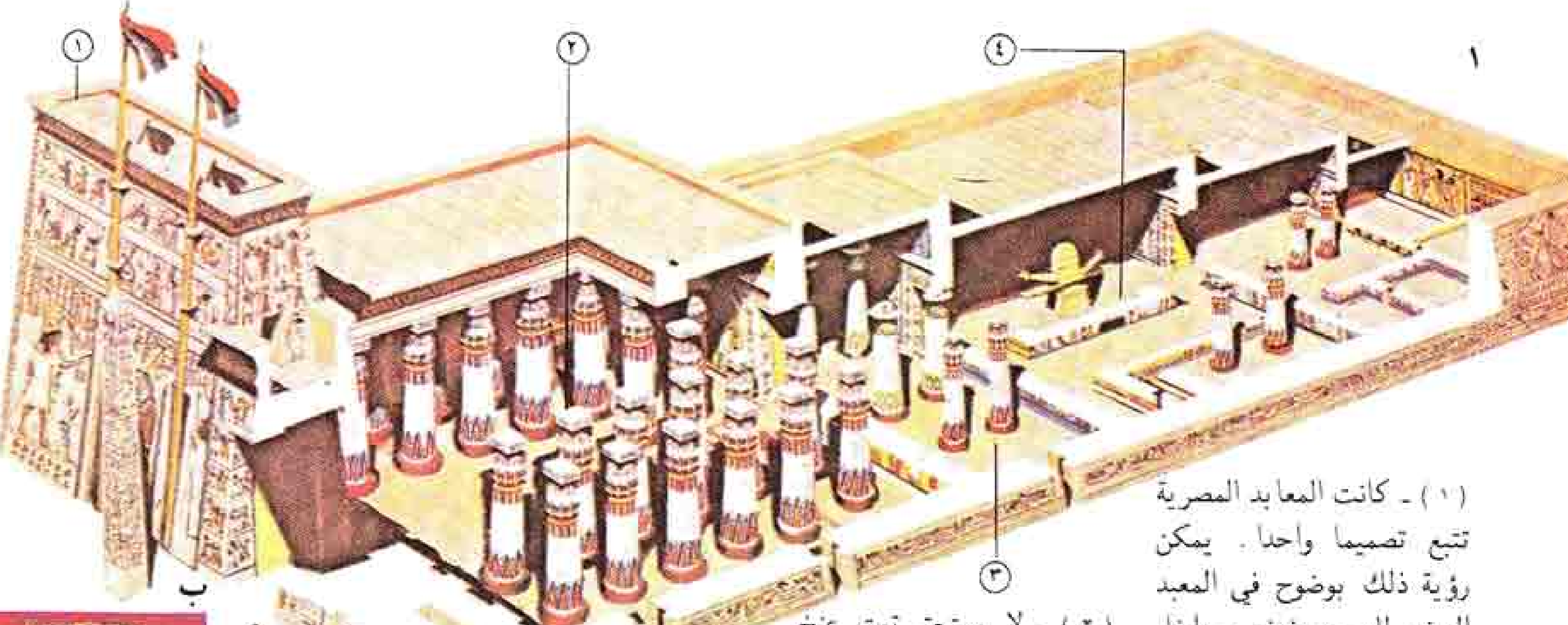
تبدأ الحقبة الكلاسيكية رسميا بظهور شعب المايا في عام ٣٠٠ . فحوالى هذه الفترة ، أخذ أبناء هذا الشعب يبنون الانصاب التي تحمل نقوشا (٣) في « العد الطويل » ، وهو التقويم الذي يمكننا من تحديد زمان الأنصاب المايا وية (٦) بفارق يوم واحد تقريبا . لكن يبدو الآن ان حضارة المايا نفسها اكتسبت معظم مقومات التمدن خلال العصر ما قبل الكلاسيكي المتأخر .

مصر
«من سنة ١٥٧٠ الى الاسكندر»

يبدأ تاريخ المملكة الحديثة في مصر (١٥٧٠ ؟ - ١٠٨٥ ق . م) بانتصار قوات طِيبة على حكام مصر الهكسوس . امتدت امبراطورية مصر الحديثة من السودان الشمالي حتى سوريا ، مشكّلة احدى القوى الرئيسية في العالم القديم . رُفع آمون معبود طِيبة الى رتبة معبود المملكة واعتبر واحدا مع المعبود الشمس رع تحت اسم آمون رع ملك المعبودات (٣) . وكان قسم كبير من الثروة التي دخلت مصر نتيجة لفتوحاتها ينفق على خدمة آمون وكهنته .

توطيد السلطة المصرية

حرص الملوك الأول من الاسرة الثامنة



(١) - كانت المعابد المصرية تتبع تصميما واحدا . يمكن رؤية ذلك بوضوح في المعبد الصغير للمعبود خونس ، داخل مجمع هيكل الكرنك في طيبة . كان مدخل الهيكل يؤدي من خلال بوابة (١) الى ساحة مكشوفة (٢) تحيط بجانبيها اعمدة . بالقرب منها ، على محور مستقيم ، كانت تقوم قاعة ذات أعمدة (٣) تؤدي الى الحرم (٤) الذي وضع فيه صنم المعبود ، وكانت غرف الخدمة والمستودعات تحيط بالحرم . لما كان كل ملك مصري يحرص على تخليد ذكره من خلال المشاريع العمرانية ، كانت الهياكل الرئيسية معرضة دوما لأعمال توسيع وهندسة جديدة ، باضافة مزيد من الغرف الى البناء الأصلي .

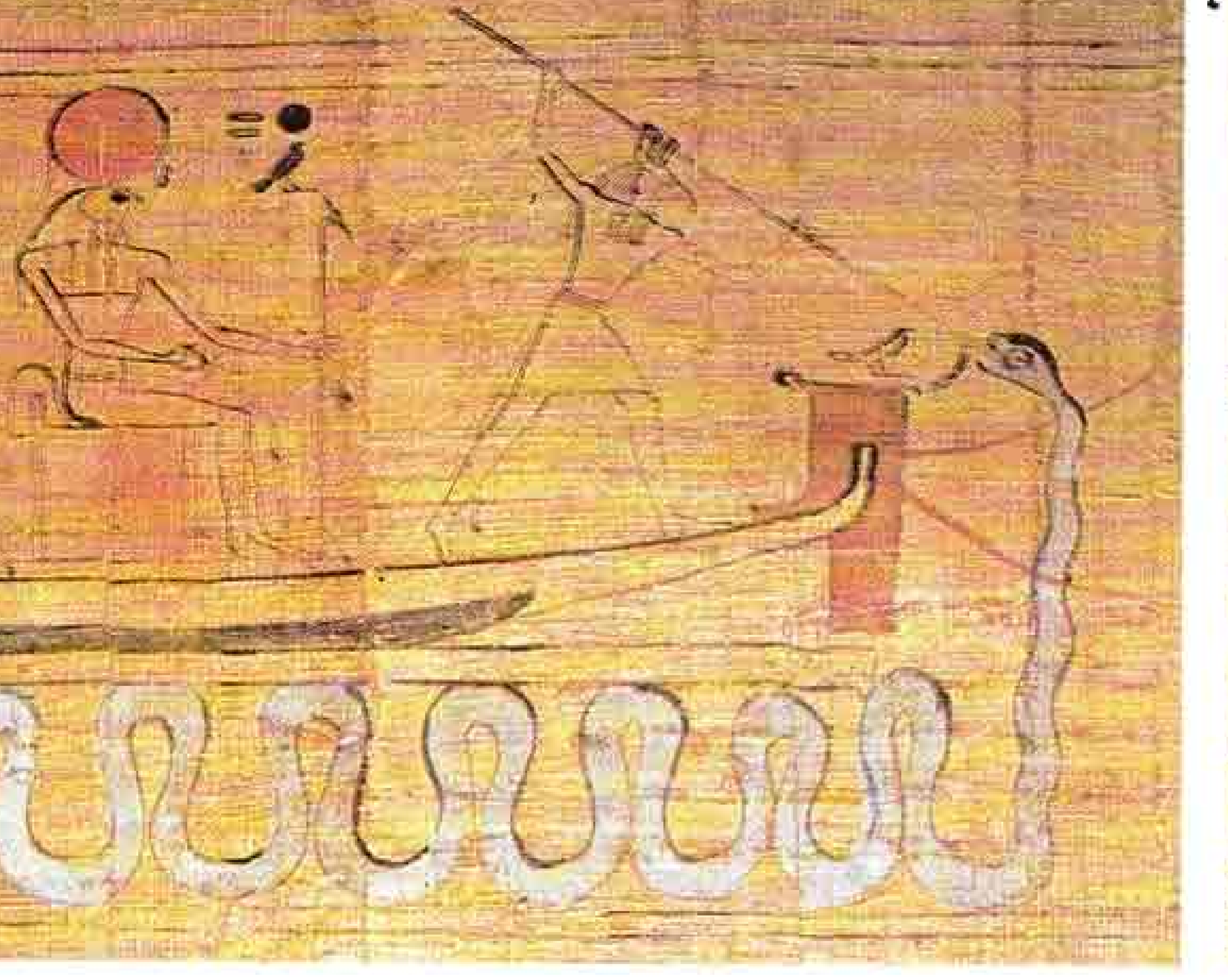
ب



(٢) - لا يستحق توت عنخ آمون ، كملك ، أي شيء من الشهرة التي يتمتع بها اليوم . وانما جاءت شهرته من العثور على مدفنه كاملا بموجوداته الأثرية الثمينة جدا . وهذا الكنز المؤلف من عقد نقشت عليه رموز شمسية وقمرية (أ) ومن قلادة تمثل الشمس الطالعة (ب) ، هو من جملة ما عثر عليه في ذلك المدفن . اعتلى توت عنخ آمون العرش وهو فتى نتيجة لزواجه من ابنة اخناتون ووريثته . امام الضغوط السياسية . تخلى عن ديانة اخناتون . وهجر تل العمارنة عائدا الى طيبة . وأعاد عبادة آمون وسواه من المعبودات .

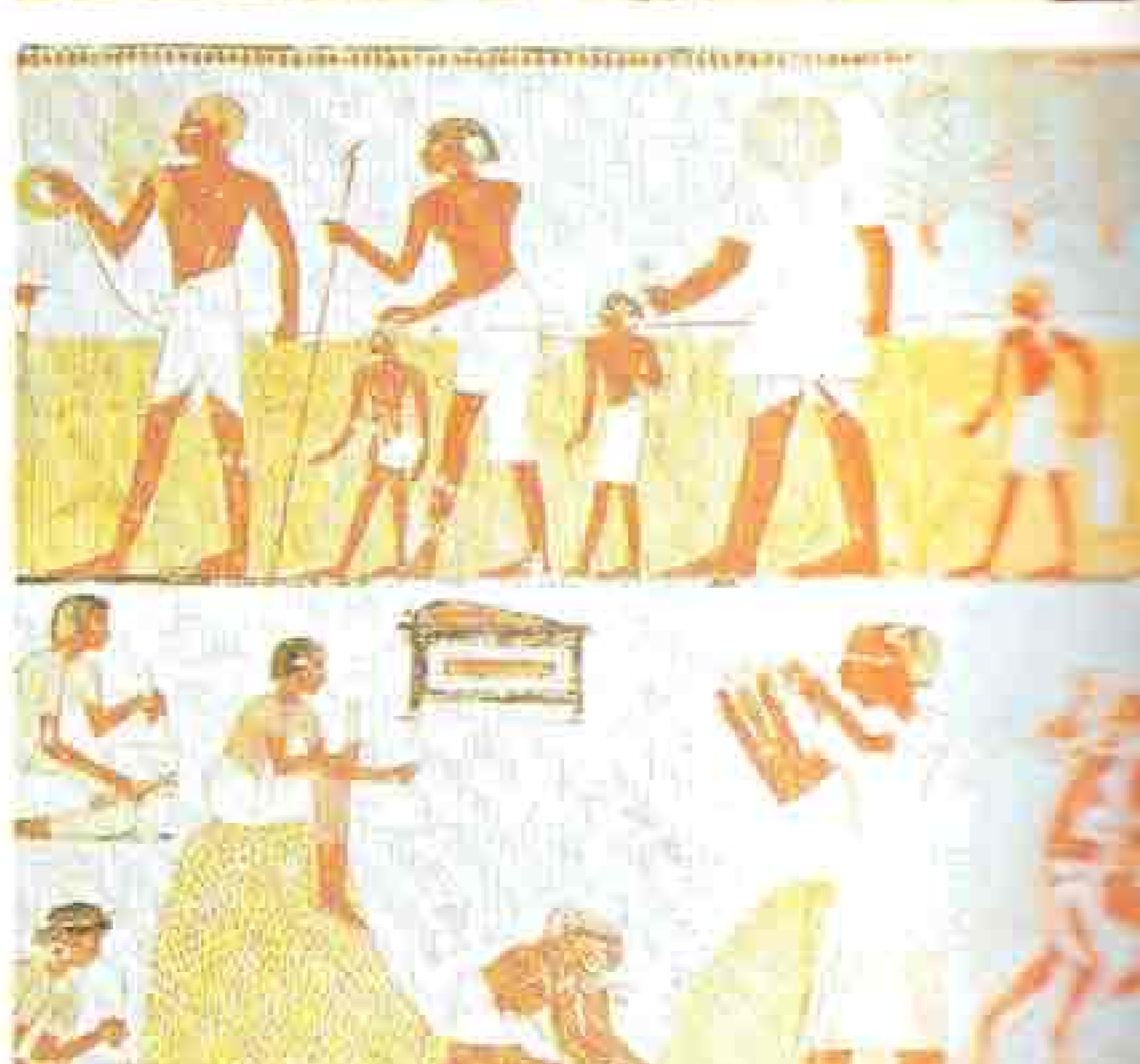
عشرة في الدرجة الأولى على حماية مصر من هجمات البدو في الشرق ، والنوبيين في الجنوب . لكنهم ، بعد تأمين سلامة التخوم الشرقية ، جهزوا عدة حملات للسيطرة على مملكة النوبة في الجنوب ، والاستيلاء على مناجم الذهب فيها .

كان عدم وجود ورثة ذكور للعرش بسبب زواج الملك من شقيقته قد قوّى نفوذ الوريثات الملكيات . كانت احداهن حتشبسوت (حكمت ١٥٠٣ ؟ ـ ١٤٨٢ ؟ ق . م) زوجة تحوتمس الثاني ، واخته من أحد والديه ، التي لم تحمل له مولودا ذكرا . ولدى وفاته ، نُصّب على العرش ابن احدى المحظيات ، وهو تحوتمس الثالث (حكم ١٥٠٤ ؟ ـ ١٤٥٠ ق . م) الذي كان من المفروض ان يتزوج من اخته ، الا ان زوجة أبيه حتشبسوت استولت فيما بعد على العرش لنفسها وحكمت بجانب تحوتمس الثالث الذي





٤



(٣) ـ كانت عبادة آمون قد طغت على العبادة القديمة لرع معبود الشمس ، الى أن حاول اخناتون مكافحة عبادة جميع المعبودات ، باستثناء رع . كان المعبود الشمس هذا يتمثل على صورة اتون (او قرص الشمس) ، الذي تتضرع اليه في هذه الصورة الملكة نفرتيتي .

(٤) ـ في مقابر المملكة الحديثة كان يودع « كتاب الموتى » .

(٥) ـ كان اقتصاد مصر زراعيا . وكان معظم الناس يعملون في الحقول . نظريا ، كان الملك يملك جميع الاراضي . لكن من الناحية العملية كانت الطبقات الحاكمة ورؤساء المعابد يملكون اقطاعات واسعة ، كما كان عدد محدود من المزارعين يملك قطعا صغيرة من الاراضي الزراعية .

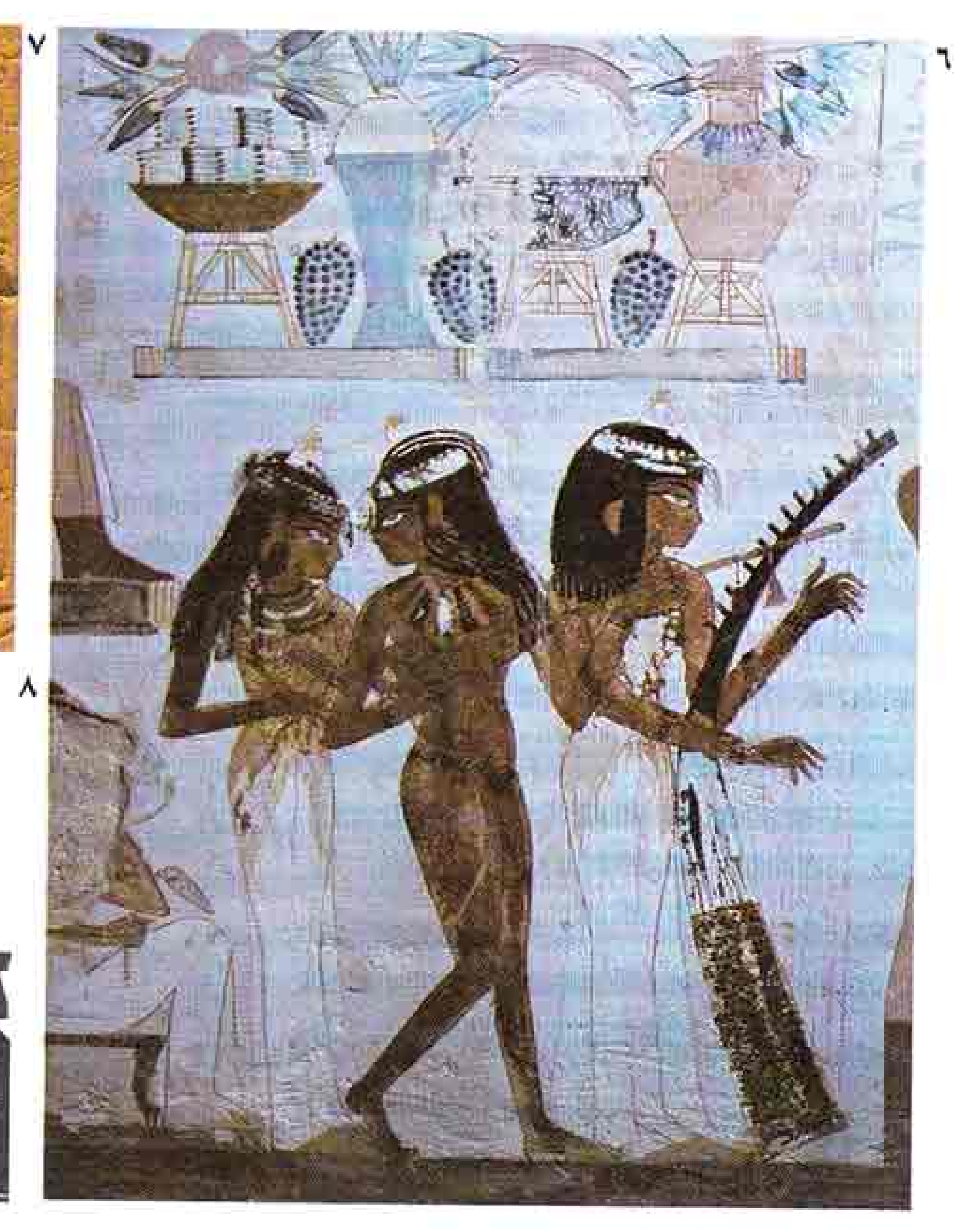
حُرم من ممارسة أية سلطة حقيقية .

وعندما توفيت حتشبسوت ، تسلم تحوتمس الثالث مقاليد الحكم الفعلي ، وباشر فورا بتجريد حملات لاخضاع الممالك الصغرى في فلسطين ومعظم انحاء سوريا . كذلك أتم فتح بلاد النوبة حتى بلدة نباتا ، وواصل خلفاؤه المباشرون سياسته التوسعية .

في عهد امنحوتب الثالث (حكم ١٤١٧ - ١٣٧٩ ق . م) ، بلغ البلاط المصري ذروة نفوذه ، وراح يتلقى الجزية او السلع التجارية من سوريا وبلاد ما بين النهرين والاناضول وكريت وحتى اليونان . وقد حور ابنه امنحوتب الرابع او اخناتون (حكم ١٣٧٩ ؟ - ١٣٦٢ ق . م) الديانة المصرية بفرضه العبادة للمعبود الشمس المتمثل في آتون ، أي قرص الشمس ، ونقل العاصمة الى مدينة آخت آتون الجديدة (تل العمارنة) . لاقت سياسة اخناتون معارضة شديدة من قبل كهنة

٧

٦



٨

(٦) - تعكس القبور المزينة تزيينا رائعا ، والتي تعود الى المملكة الحديثة في طيبة ، الحياة التي عاشها المصريون من جميع الطبقات . كان الاعتقاد سائدا ان هذه المشاهد يمكن اعادتها الى الحياة بصورة سحرية ، بحيث لا يكون الميت مجردا من ممتلكاته ولذاته لدى دخوله العالم الآخر .

(٧) - صد رعمسيس الثالث في اواخر عهد المملكة الحديثة هجمات « الشعوب البحرية » بما فيهم الفلسطينيين القدماء وربما ايضا أجداد الصقليّين .

(٨) - ضمن رعمسيس الثاني بقاء ذكراه بفضل مشاريعه المعمارية الضخمة . فقد اضاف القاعة ذات الأعمدة الى معبد آمون في الكرنك ، وانجز زيادات أخرى (بما في ذلك هذا التمثال الضخم الخاص به) في معبد الأقصر . وعلى الضفة الغربية ، بنى في طيبة معبده الدفني ، المعروف بالرعمسيسي . ومن أجل ملكته المحبوبة نفرتاري ، بنى ضريحا مزينا برسوم رائعة في « وادي الملكات » . شيد أيضا في بلاد النوبة معبد « ابو سنبل » العظيم . فضلا عن معابد أخرى في أماكن شتى من مصر .

المعبودات القديمة، وأدّت الى الفوضى الداخلية والى تقلص نفوذ مصر في الخارج، الى ان تخلى خلفاؤه عن معتقداته، وأعيد الأمن الى نصابه، في عهد حورمحب.

لدى وفاة حورمحب، انتقل العرش الى وزيره رعمسيس الأول (حكم ١٣٢٠ ؟ - ١٣١٨ ق. م) الذي أسّس الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ ؟ - ١٢٠٠ ق. م).

المجابهة مع الحثيين

كان هدف الحكام في هذه الحقبة اعادة توطيد سلطة مصر ونفوذها في الخارج، وتثبيت سيطرة مصر على فلسطين، وذلك لمواجهة تزايد قوة الامبراطورية الحثية. أدّى تنافس هاتين الدولتين الى صدام كبير بينهما، وقع في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني (حكم ١٣٠٤ - ١٢٣٧ ق. م) (٨) في بلدة قادش، حيث ادعى كل من المصريين والحثيين انه هو المنتصر. الا ان الصلح لم يلبث ان عُقد بين المتحاربين.

في عهد خلفاء رعمسيس الثالث الذين كانوا جميعا يُدعون رعمسيس (أي أولاد رع)، أخذت سلطة العرش بالتدهور في وجه الغزوات الليبية وتزايد سلطة الحكام المحليين، لاسيما سلطة كاهن آمون العظيم في طيبة، الى ان فقدت مصر ممتلكاتها الأجنبية في فلسطين وبلاد النوبة. في أواخر حكم الأسرة، ووقعت هي نفسها تحت سيطرة حكام أجانب. وفي عهد الاسرة الواحدة والعشرين التي حكمت البلاد من العاصمة الشمالية تانيس، كانت طيبة مستقلة فعليا في ظل كبار كهنتها، الى ان أعاد الى مصر وحدتها القائد الليبي شيشنق الأول (حكم ٩٣٥ ؟ - ٩١٤ ق. م)، مؤسس الأسرة الثانية والعشرين الذي نصب ابنه كبيرا لكهنة آمون، وعمل على اعادة توطيد سلطة مصر كدولة عظمى، بتجريد حملة كبرى على فلسطين. لكن في عهد خلفائه، عادت وحدة البلاد فتصدعت بسبب الحروب الأهلية، وانقسمت مصر الى مدن - دويلات تحت سيطرة حكام مستقلين، معظمهم من أصل ليبي. أخيرا نشأت مملكة مستقلة في بلاد النوبة الى الجنوب، وفتح ملوك النوبة مصر حوالى ٧١٢ ق. م، وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين.

قُضي على الحكم النوبي في اعقاب سلسلة من الغزوات الاشورية التي أدت الى تنصيب أمير سايس حاكما اسميا على مصر. وبمساعدة المرتزقة اليونان، استطاع بسامتيك الاول (حكم ٦٦٤ ؟ - ٦١٠ ق. م)، من الأسرة السادسة والعشرين، ان يفرض سلطته على البلاد بأسرها، ويحررها من السلطة الأشورية.

الهزيمة على يد بابل وفارس

تميز عهد الاسرة السادسة والعشرين (٦٧٠ - ٥٢٥ ق. م) بفترة جديدة من الرخاء. الا ان آمال مصر باستعادة مكانتها كدولة عظمى مُنيت بالفشل على يد البابليين، في معركة قرقميش عام ٦٠٥ ق. م. وفي آخر الأمر، استولى الفرس عام ٥٢٥ ق. م. على مصر. ومع ان الثورات اللاحقة أعادت لمصر استقلالها فترة وجيزة بين ٤٠٤ و ٣٤٣ ق. م، فقد بسط الفرس سيطرتهم عليها من جديد، حتى مجيء الاسكندر الكبير عام ٣٣٢ ق. م.

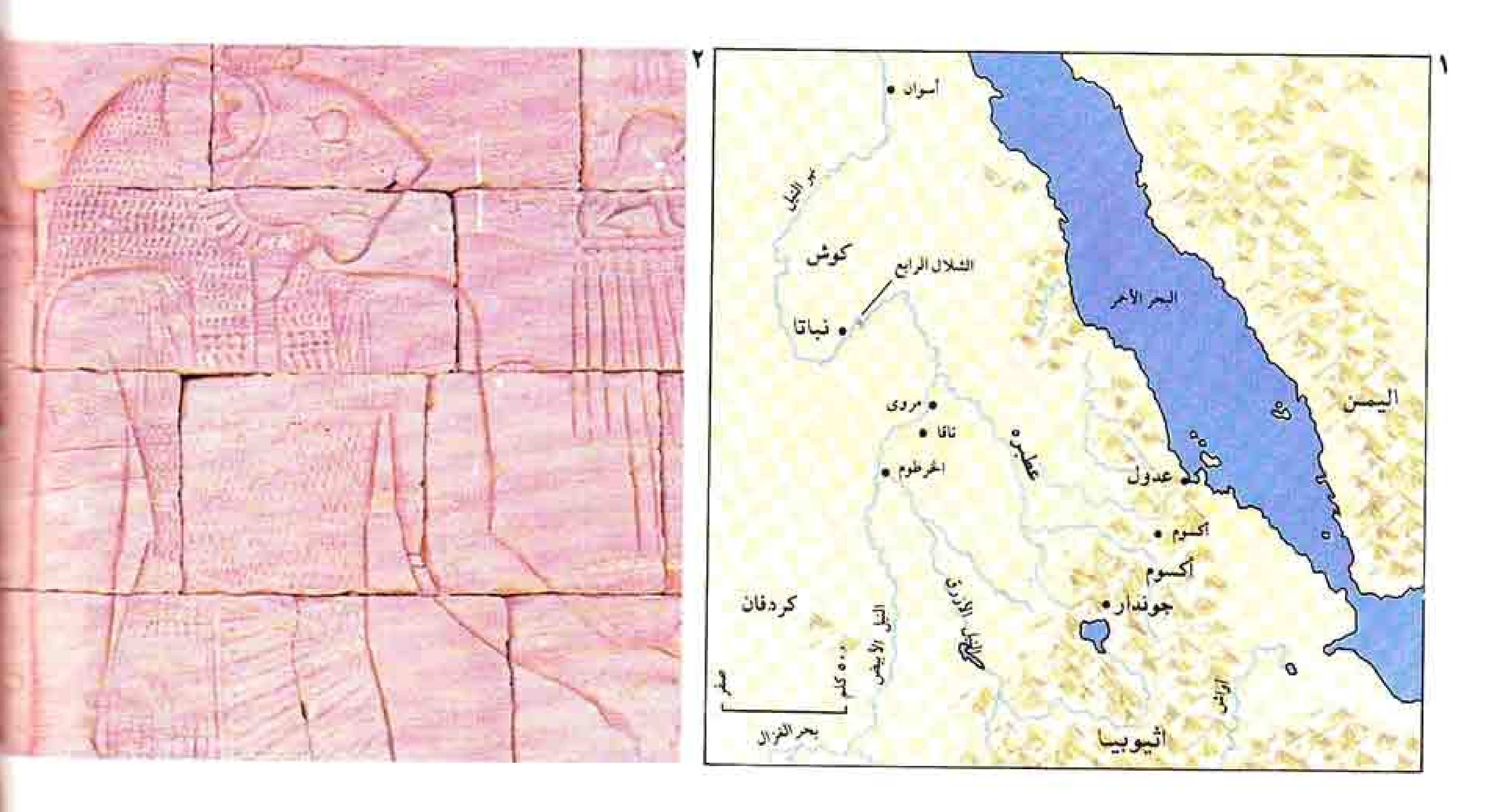
افريقيا :
كوش وأكسوم

على مر التاريخ المصري القديم ، كانت جيوش الفراعنة تدفع حدود امبراطوريتهم جنوبا باستمرار على امتداد نهر النيل ، محور مدنيتهم ومركزها ، باتجاه افريقيا الاستوائية السوداء . وبحلول عهد المملكة الحديثة (١٥٠٠ ؟ ق . م) كانت جميع الاراضي المحيطة بالنهر ، حتى الشلال الرابع ، قد فُتحت واستُوطنت الى درجة ما من قبل المصريين . كانت هذه البلاد التي دعيت فيما بعد ببلاد النوبة ، تعرف لدى المصريين باسم كوش .

ظهور مملكة كوش

في حوالى ١٠٠٠ ق . م ، كانت المملكة

١ ٢



(١) - احتلت حضارات كوش ومروى واكسوم الزاوية الشمالية الشرقية من افريقيا ، كوش ومروى في منتصف وادي النيل الى الجنوب من مصر ، واكسوم في الجرف الجبلي العالي شمالي الحبشة . كانت أكسوم العربية الاصل هي الدولة المؤسسة لامبراطورية اثيوبيا المسيحية .

(٢) - كان معبود كوش الأسد منقوشا على جدار هيكل في ناقا (١٠٠ ق . م - ١٠٠ م) وهي مركز واقع الى الجنوب من مروى . يكشف هذا النقش عن تأثير هندي .

---

(٣) - بقي شيء من الفن المسيحي الذي خلفته ممالك مسيحية منقرضة ، في احدى الكنائس في فاراس بالقرب من وادي حلفا ، الذي تغمره اليوم مياه سد أسوان . خلفت ممالك مسيحية امبراطورية كوش ومروى . بعد سقوط تلك الامبراطورية في القرن الخامس بعد الميلاد . وقبل أن تصبح مصر جزءا من العالم الاسلامي بقليل .

---

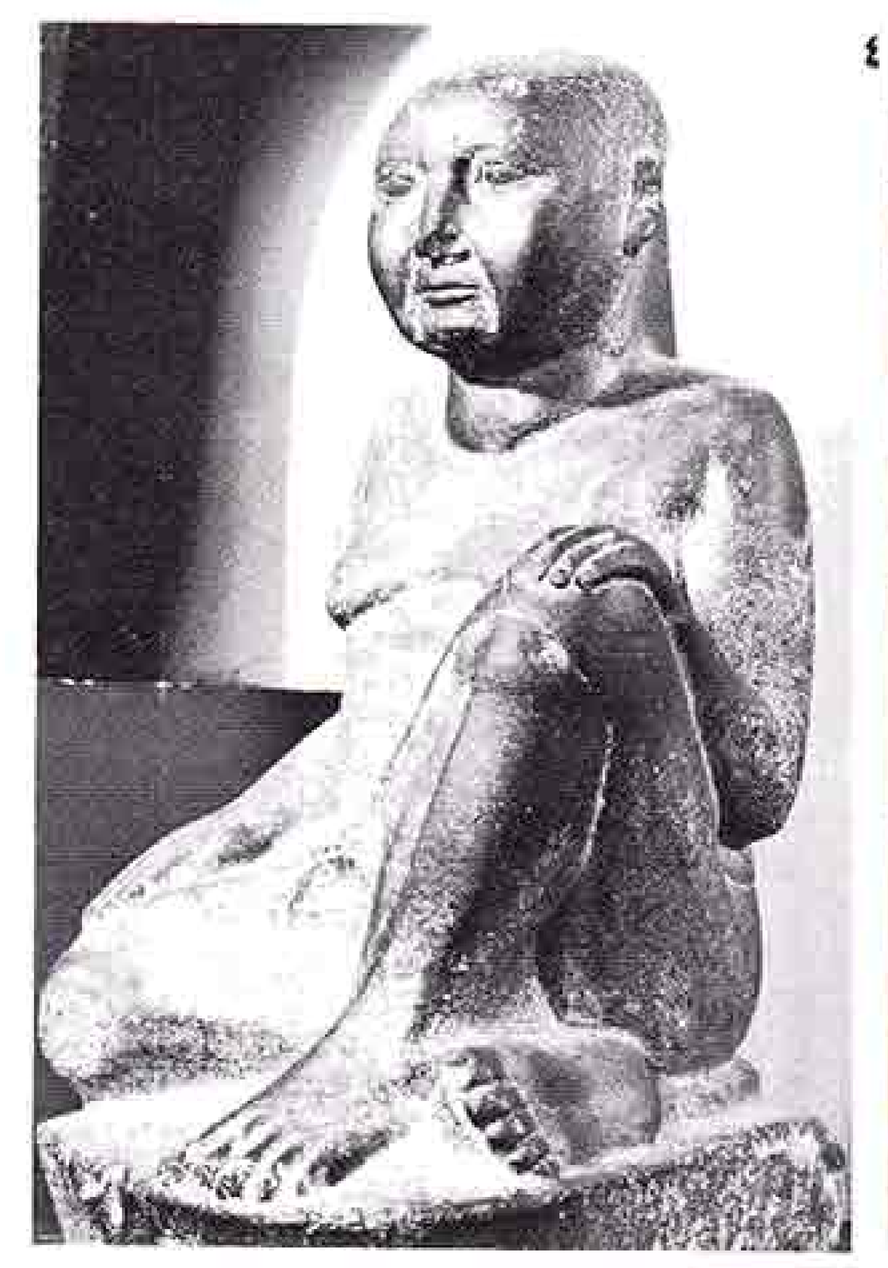
(٤) - كان تاروا حاكم طيبة اثناء حكم احدى سلالات الفراعنة الكوشيين ، في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . كان الكوشيون قد زحفوا شمالا وحكموا مصر حتى هزمهم وردهم الى بلادهم غاز جديد .

الحديثة قد انهارت ، وبرزت كوش كدولة مستقلة عن مصر ، لا سياسيا وحسب ، بل ثقافيا أيضا ، مع الزمن . في غضون ٢٠٠ سنة ، كان حكامها قد بلغوا درجة من الاستقلال والمنعة استطاعوا معها عام ٧٢٥ ق . م أن يزحفوا شمالا على طول النيل ، ويحتلوا مصر بكاملها ، ويؤسسوا فيها الأسرة الخامسة والعشرين من الفراعنة (٤) .

الا ان الحكم الكوشي لمصر لم يدم طويلا . فبين ٦٧٦ و ٦٦٣ ق . م ، غزت الجيوش الاشورية مصر ودمرتها ، في عهد أسر حدون أولا ثم في عهد اشور بانيبال ، فتراجع الفرعون الكوشي تاهارقا جنوبا حتى كوش . كان سر انتصارات الجيوش الاشورية القوية في ارجاء الشرق الاوسط يكمن في الاسلحة الحديدية التي كانت بحوزتها ، والتي كانت تتفوق كثيرا على الاسلحة البرونزية التي يستعملها اعداؤها .

٤







هو » جيش الأشوريين الحديدي » . حضارة الكوشيين في مصر تشكل الجزء قبل الأخير من الحضارة الفرعونية .

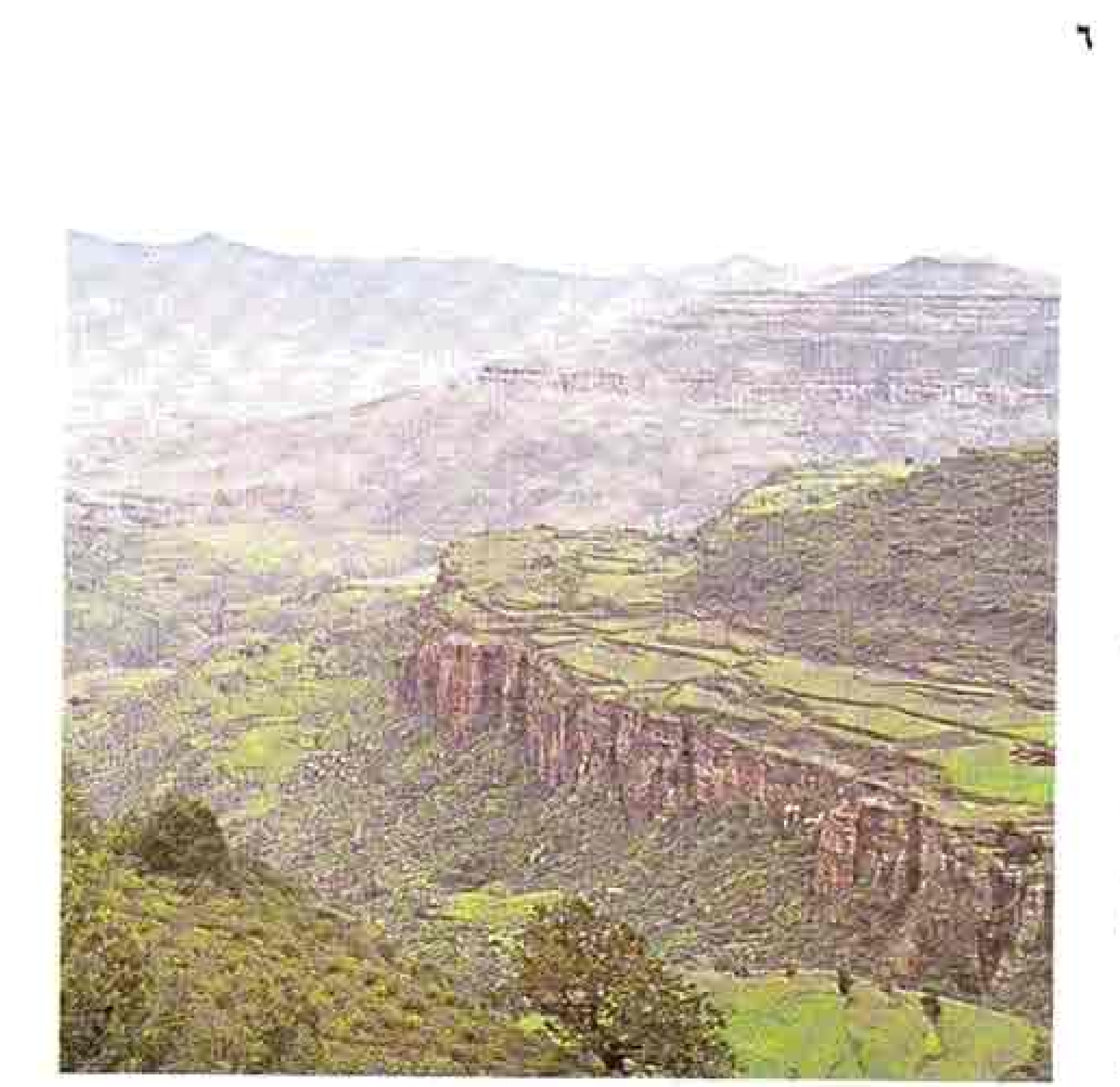
---

(٥) ـ يظهر فيل وعدد من أسرى الحرب في نقوش حافة أحد الهياكل الذي انشىء في القرن الأول بعد الميلاد . كانت الفيلة تستعمل لأغراض عسكرية واحتفالية ، في كوش ومروى . يلاحظ في النقوش الكوشية كلها أنها خشنة الازميل والصقل . تأثرها بالنحت المصري أو الاغريقي ، بوادي النيل ، كان محدودا ، وهي أشبه بالنحت اليمني .

تعلم قادة كوش درسا قاسيا خلال معاركهم مع الاشوريين ، لكنهم حملوا معهم التقنية الحديدية التي اصبحت أساسا لاستقرارهم . فبعد انسحابهم من مصر ، اخذوا يتوغلون جنوبا ، لكنهم لم يبتعدوا عن مجرى النيل ، اذ ان المناطق المحيطة بجانبي النهر العظيم كانت اخصب مما اصبحت عليه في العصور اللاحقة ، وكانت قادرة على توفير الغذاء لقطعان كبيرة من المواشي . مع حلول القرن السادس ق . م ، كانت حدود كوش قد بلغت جنوبي مدينة الخرطوم الحديثة ، حيث كانت الارض مكسوة بالغابات الكثيفة.

سيطرة حضارة مروى

انتقل مركز السلطة في الامبراطورية جنوبا ، من نباتا العاصمة القديمة بالقرب من الشلال الرابع ، الى مروى ، في الجنوب من نقطة التقاء نهر عطبرة مع النيل . منذ ذلك



٦

(٦) ـ أسس امبراطورية اكسوم في القرن الافريقي مهاجرون عرب من اليمن . وكانت هذه الدولة عظيمة وغنية بالمنتوجات تمارس النشاط التجاري مع جزيرة العرب واليونان والهند ، وهي بلاد ذات جروف شامخة ، أعلاها رأس داجان البالغ ارتفاعه ٤٦٢٠ م . كانت من أصعب البلدان الافريقية سواء للعيش فيها أو لغزوها ، وقد دخلت عالم الأساطير الأوروبية كموطن للملك المسيحي الاسطوري ، الراهب يوحنا .

(٧) ـ هذا الخط المروي الغامض (أ) لم تفك رموزه بعد . لكننا نعلم ان الخط السبئي (ب) الخاص بمملكة اكسوم هو أساس اللغة الأمهرية الحديثة ، التي هي لغة أثيوبيا

٧

ب

أ

التاريخ ، صار يشار الى الامبراطورية غالبا باسم مروى ، عوضا عن كوش . وفيما كان بعض سكان الجزء الشمالي من كوش من السود ، كان تقريبا جميع سكان المنطقة المحيطة بمروى من السود ، واصبحت الامبراطورية بكاملها دولة سوداء .

كان لمروى موارد غزيرة من الحديد الخام ، ومن الخشب اللازم لصهره ، فانتشرت صناعة الحديد في الامبراطورية على نطاق واسع ، وما زالت أكوام ضخمة من الحديد منثورة في المناطق الريفية حتى الآن . استطاع فرسان الجيش المروي المسلحون تسليحا جيدا ان يدافعوا عن الاراضي الآهلة ، ضد هجمات البدو الرُحّل القادمين من الصحراء ، وازدهرت التجارة مع مصر البطلمية ، ومع الجزيرة العربية ، وحتى مع الهند عن طريق البحر الأحمر .

الا ان حضارة مروى او كوش اخذت في التقهقر في مطلع الحقبة المسيحية . كان ذلك نتيجة اجداب داخلي ، ولاسيما جفاف الأراضي الزراعية التي كانت غنية بالكلأ .

دامت امبراطورية كوش ومروى أكثر من ألف سنة ، وكانت انجازاتها الثقافية غنية ونابضة بالحيوية (٢ ، ٥) . وقد مثلت أكثر من مجرد شكل افريقي للحضارة المصرية ، اذ ان سكان هذه الامبراطورية أخذوا تراثهم المصري وأضافوا اليه الكثير مما اقتبسوه من شعوب شرقي البحر المتوسط ، من اشوريين وبابليين ، ومن العالم الهيلينستي والهند ، وصاغوا من كل ذلك شيئا فريدا ، بما فيه نمطهم الخاص من الكتابة ، وهو خط نسخي استعصى حتى اليوم على محاولات فك رموزه (٧) .

أكسوم :
الامبراطورية المناوئة في أثيوبيا

نشأت اكسوم ، الامبراطورية المناوئة لمروى ، في الجزيرة العربية ، لا في القارة الافريقية . فقد قام في اليمن عدد من الدول الصغيرة الغنية ، في اوائل الألف الأول قبل الميلاد ، كانت سبأ احداها ، وهي على الأرجح مملكة شيبا التي اقترن ذكرها بزمن الملك سليمان . ومع حلول القرن السابع ق . م ، عبرت مجموعات من الشعوب العربية الناطقة بالسامية ، من اليمن الكثيفة السكان الى قرن افريقيا عبر البحر الأحمر ، وحلّ افرادها كمزارعين على الطرف الشمالي الشرقي من هضبة اثيوبيا العالية . هناك حققوا درجة كبيرة من الازدهار ، واستطاعوا السيطرة على اهالي البلاد الاصليين الناطقين بالكوشية ، فتقبل الكثير من هؤلاء بالتدريج ثقافة الوافدين الجدد ولغتهم السامية . ثم أسس فريق من هؤلاء المهاجرين ، وأفراده مدعوون بالأحباش ، مملكة لهم في القرن الثالث ق . م ، مركزها أكسوم (٦) .

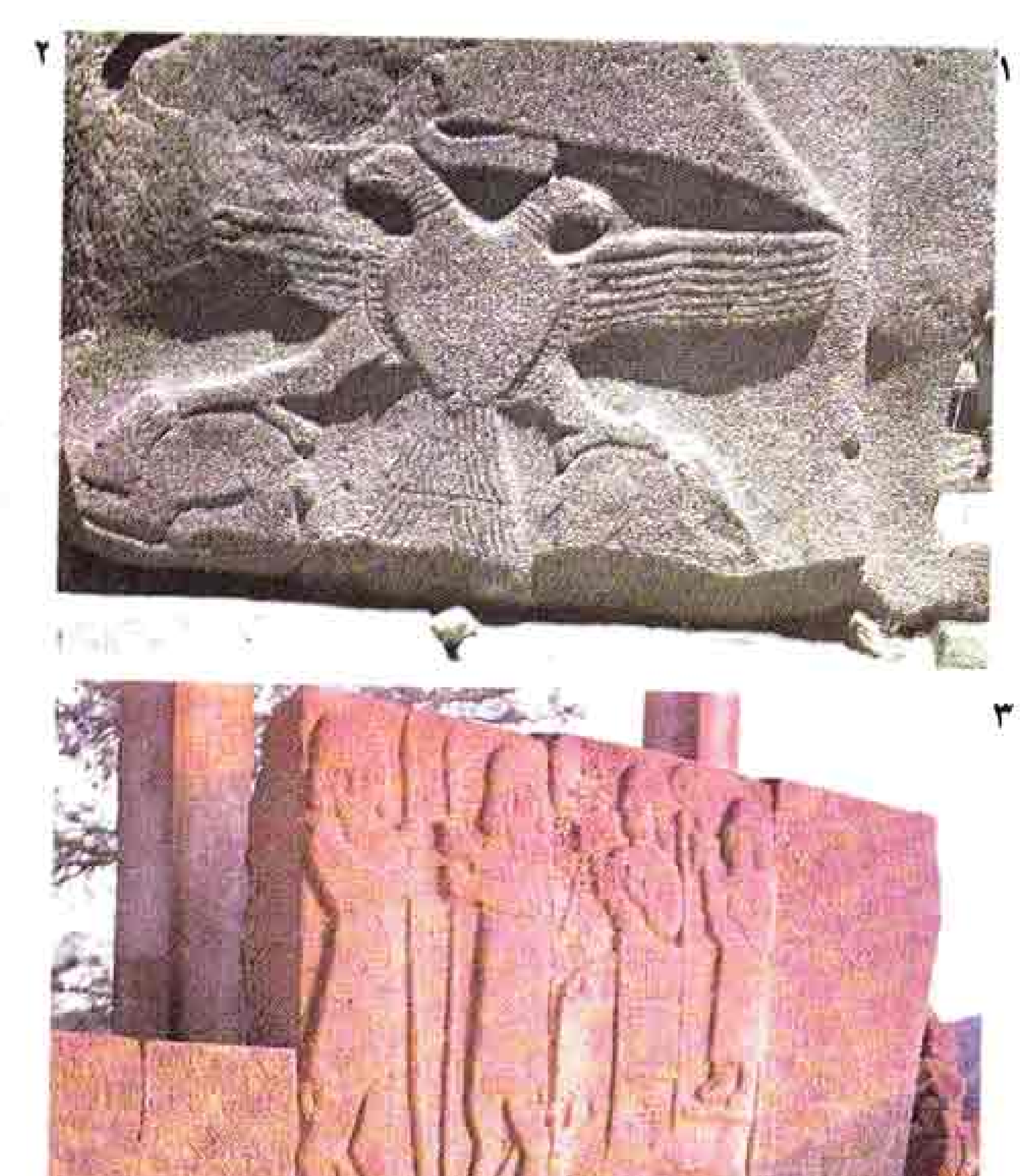
كان لليونان الهيلينستيين نفوذ خاص في بلاط ملوك اكسوم ، فمهدوا الطريق أمام قدوم المسيحية . استولى حكام أكسوم المسيحيون على بعض أجزاء الجزيرة العربية الجنوبية في القرن السادس الميلادي ، لكن ما لبثت الجيوش الفارسية ان طردتهم منها . بعد ذلك الحين ، أخذت أكسوم في التدهور تدريجيا ، لاسيما حين قطع الفتح العربي الاسلامي تجارتها على البحر الأحمر ، وأدى اجتياح قبائل البدو الرحل لها الى زوال قوتها .

الحثـــيّون
«١٧٠٠-١٢٠٠ ق.م»

قبل مائة سنة ، كانت معرفتنا بالحثيين مستمدة فقط من اشارات اليهم واردة في الكتاب المقدس ، وفي مدونات ما بين النهرين . لكن في القرن التاسع عشر ، أخذ المنقبون في تركيا يكتشفون انصابا وتحصينات ضخمة ، تَبَيَّن بوضوح انها كانت آثارا لحضارة قديمة مزدهرة وقوية ، ولم يلبث ان ثبت ان تلك الحضارة هي الحضارة الحثيّة . ان ما سلط الأضواء على هذه الشعوب هو اكتشاف ما يربو على ١٠٠٠٠ لوحة مسمارية، في بوغازكوي ، موقع العاصمة الحثية حاثوشا . كانت اللوحات مكتوبة بعدة لغات ، منها الأكادية والحاطّية والحورية واللووية والسومرية ، فضلا عن الحثيّة . وقد

١

٢



ب



٣



(١) ـ نُقش هذا النسر ذو الرأسين على ظهر تمثال ، في ألاجا هويوك في تركيا ، وهي مدينة تعود الى العصر الحثي الامبراطوري . يقبض النسر ببراثنه على ارنبين بريين يديران وجهيهما الى الخارج ، على غرار رأسي النسر . كان يقف على ظهر النسر شكل لحق به اليوم عطب كبير . لعله كان شكل احد المعبودات . يظهر رمز النسر ذي الرأسين ذاته ايضا كقاعدة لشكلين قائمين بين منحوتات يازيليكايا . ويظهر طائر ذو رأسين في أماكن أخرى من العالم القديم . مثلا على قطعة عاج من اسبرطة ، تعود الى العصر الهندسي المبكر ، وعلى معبد واقع في تاكسيلا .

---

(٢) ـ من المعبودات الرئيسية في مجموعة المعبودات الحثية بالاناضول معبود الطقس

تبين انها وثائق حكومية .

أصول الحضارة الحثية

لا نعرف الا القليل عن أقدم عهود الحضارة الحثية ، قبل احتكاكها ببلاد ما بين النهرين . قدم الحثيون الى آسيا الصغرى قبل ٢٠٠٠ ق . م من اوروبا او روسيا الجنوبية . ويبدو ان الملك حاتوشيلا الأول في اواسط القرن السابع عشر ق . م وحّد عددا من الدويلات ، واختار بلدة حاتوشا مركزا اداريا له . والظاهر ان قوة الحثّيين نمت بسرعة ، فقد استطاع مورشيلي الاول ، في اوائل القرن السادس عشر ق . م ، لا ان يحتل سوريا وحسب ، بل ان يزحف ايضا على بابل ويكتسح المدينة ويقضي على السلالة التي كان حمورابي اعظم ممثليها . كان آخر ملوك الحقبة المعروفة بالمملكة القديمة تيليبينو (حكم ١٥٢٥ ؟ ـ ١٥٠٠ ق . م) الذي اشتهر



٤

تيتوب (أ) ومعبودة الشمس الانثى أرينا (ب) . يبدو تيشوب هنا ، في احد تماثيل القرن التاسع ، في وضعه المألوف ، وقد امتشق ومضة البرق (التمثال موجود في متحف حلب) . خلافا لبلاد ما بين النهرين ، كانت الاناضول منطقة سحاب وعواصف . كان الملك يستنجد في ساعات الحرب والخطر بمعبودة الشمس الأنثى التي تبدو هنا متشحة بقلادة من عصر الامبراطورية . كانت المعبودة الشمس هي الحارس الأعلى للدولة الحثية .

(٣) ـ كشفت الحفريات في قره تيب ، الى الشمال الشرقي من اضنة ، عن نقش بلغتين ، الحثية التصويرية والفينيقية ، مما سهل عملية فك رموز اللغة الحثية .

(٤) ـ عند بوابة ابي الهول في ألاجا هيوك في تركيا الوسطى ، نُحتت تماثيل ابي الهول ، بصورة مستديرة تقريبا ، وهو أمر نادر في الفن الحثي . عُثر ايضا بين الأنقاض على عدة رسوم نافرة تمثل حيوانات وموسيقيين ومشعوذين ، فضلا عن راع يرعى قطيعه . وكثيرا ما عثر هنالك على مدافن لمن سبقوا الحثيين تعود الى الالف الثالث وتحوي اشكالا لحيوانات مصنوعة من الفضة والبرونز ، وأباريق وطاسات وحليا ذهبية .

(٥) ـ معظم المنحوتات الحثية التي وصلتنا هي رسوم نافرة ضخمة حفرت في الصخر ، واقترنت في الغالب بنقوش بالحثية التصويرية (التي هي غير المسمارية) . هناك كذلك عدد كبير من الاشكال الجميلة الصغيرة ، مثل هذا التمثال المنمنم (يبلغ ارتفاعه ٤.٣ سم) لرجل ، لعله ملك ، يرتدي رداء تاما ذا أكمام قصيرة . عُثر على هذا التمثال في يوزغات بالقرب من بوغازكوي ، ويعود الى حوالى القرن الرابع عشر ق . م .

٥



بالمرسوم الذي حدد به قواعد سلوك الأشراف والملك .

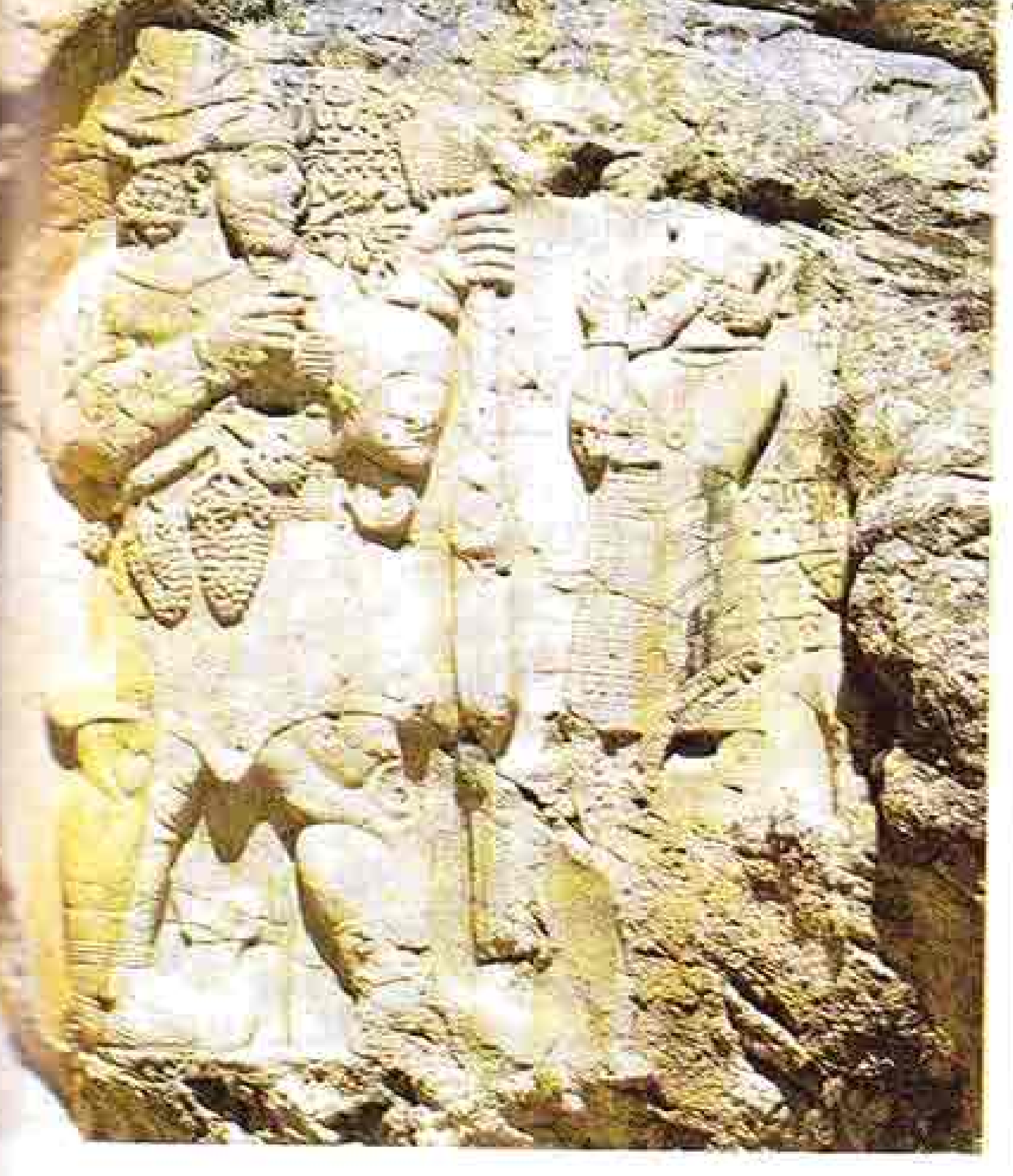
بعد مرور فترة لا يتوفر عنها الا القليل من الدلائل ، ظهرت الامبراطورية الحثّية في حوالى ١٤٦٠ ق . م . كان اول ملوك السلالة الحديثة فيما يبدو توتحاليا الثاني الذي يُروى انه احتل حلب . ويبدو ان ميتاني ، وهي دولة اسسها الحوريون في شمالي ما بين النهرين ، هي التي اوقفت اي تقدم اضافي للحثّيين .

الا ان الوضع تغيّر فجأة بصورة حاسمة عندما استولى شوبيلوليوما على العرش في حوالى ١٣٨٠ . فقد حصن مدينة حاتوشا ، وفي حملة رائعة ، دحر ميتاني والدويلات السورية التابعة لها . الا ان قرقميش ، التي كانت تسيطر على معبر هام على الفرات ، حافظت على استقلالها . فاضطر شوبيلوليوما ان يجهز حملة ثانية اجتاح بها هذا الحصن ، واحتل

٦



٧



٨

(٦) - يقوم معبد يازيليكايا الرائع مشرّعا نحو الهواء الطلق . وقد نحت في الصخور الواقعة خارج جدران حاتوشا العاصمة الحثّية . في المشهد الرئيسي يظهر معبود الطقس تيشوب واقفا على جبل مقدس . وتقف أمامه قرينته مع ابنه ، وتحته تقف مجموعة من معبودات الحوريين . في أخريات سني الامبراطورية ، وقعت الديانة الحثية تحت التأثير الحوري القوي ، كما يتبين من النقوش الظاهرة في الرسم .

(٧) - يقوم هذا الرسم المحفور في الصخر قرب إفريز في جبال طوروس شاهدا على النمط الآرامي في النحت الحثي . كما يتبين خاصة من قبعة المعبود وخصل شعره وشعر الملك الواقف بجانبه . لقد سهّل اقتران الرسوم النافرة بالكتابة التعرف الى الهوية الحثية لأنصاب أخرى عُثر عليها عام ١٨٨٠ في أمكنة مختلفة من آسيا الصغرى ، لاسيما في بوغازكوي ويازيليكايا .

(٨) - هذا الأسد المحفور في صخر من البازلت موجود في ملاطية . ويعود على الأرجح الى حوالى ١٠٠٠ ق . م . وهو شاهد جيد على فن النحت في الحقبة الحثية الحديثة . عندما اصبح استعمال الأسود المنحوتة من الصخر شائعا .

سوريا بكاملها ، من الفرات حتى البحر .

توفي شوبيلوليوما حوالى ١٣٤٦ ق . م ، وبرهن ابنه مورشيلي الثاني عن كفاية مماثلة لكفاية أبيه ، فهزم بلاد ارزاوا الى الغرب ، وقمع ثورة في سوريا . ورث الملك التالي ، موواتلي ، امبراطورية مستقرة مزدهرة . الا ان مصر كانت عازمة ، في عهد رعمسيس الثاني (حكم ١٣٠٤ ـ ١٢٣٧ ق . م) ، على استعادة ممتلكاتها والنفوذ الذي كانت قد فقدته في سوريا . فالتقى الجيشان في قادش على نهر العاصي . ادعت مصر انها احرزت انتصارا حاسما ، ولكن يبدو ان الحثيين استطاعوا ان يصمدوا على الاقل ، ويحافظوا على نفوذهم في سوريا . ثم تحسنت العلاقة بين الدولتين ، حين اصبحت اشور تشكل خطرا عليهما معا ، وفي حوالى ١٢٨٤ ق . م ، وقعا معاهدة صداقة وعدم اعتداء .

نهاية الامبراطورية الحثية

تنقطع سجلات الامبراطورية الحثية فجأة في اواخر القرن الثالث عشر ق . م ، عندما تدفق غزاة هندوأوروبيون يعرفون « بشعوب البحر » على المنطقة قادمين من اوروبا . فقد هرب الحثيون الى الجنوب ، عندما اجتاح الفرّيجيون آسيا الصغرى . ومع ان الحثيين فقدوا وطنهم ، فقد بقيت حضارتهم على قيد الحياة ، اذ أسس هؤلاء اللاجئون مجموعة من الدول ـ المدن في سوريا الشمالية التي كانت قد خضعت للسيطرة الحثية مدة طويلة . ان معظم الأدلة الأثرية مستمدة من هذه الحقبة الحثية الحديثة ، لا من الحقبة الامبراطورية القديمة . كانت كتابة هذه الممالك الصغيرة حثية تصويرية ـ رمزية ، ولكن لغتها كانت في جوهرها لوويّة بحيث يمكننا الافتراض ان الحثيين لم يؤلفوا بالضرورة أكثرية السكان .

بنية المجتمع الحثي

لم تستطع الدول ـ المدن الحثية الحديثة ، التي كانت في الغالب معزولة جغرافيا ، ان تتحد بصورة فعالة ضد قوة آشور المتصاعدة . فبعد استيفاء الجزية طيلة سنين عديدة ، وقمع بعض الثورات الطارئة ، قررت آشور في عهد تيغلات الثالث (حكم ٧٤٤ ـ ٧٢٧ ق . م) ان تضم الممالك السورية الى امبراطوريتها ، وما ان اكتمل القرن الثامن ق . م ، حتى باتت الامبراطورية الحثية في ذمة التاريخ .

في الحقبة التي تنتهي في اواخر القرن الثالث عشر ق . م ، كان الملك الحثي هو الذي يصدر القرارات النهائية حول القضايا العسكرية والدينية والقضائية (٥) . مع انه لم يكن يحتل مركز السيطرة كنظيره في بلاد ما بين النهرين . ولدى وفاته ، كان ينضم الى صفوف المعبودين ، حتى كانت عبارة « اصبح معبودا » تعبيرا مستحبا عن وفاة الملك . وكان للملكة أيضا أهمية ، اذ كانت تلعب دورا في شؤون الدولة . كذلك أصبح التحيز للأقارب شائعا ، بحيث آلت معظم المناصب العليا الى اقرباء الملك ، كما يبدو انه كان ثمة طبقة خاصة من الاشراف وملاّكي الاراضي تتمتع بالامتيازات . اما أفراد عامة الشعب ، فقد كانوا يعملون كمزارعين وصناع وعمال ، ولم يكن ابناء طبقة الخدم ، رغم تمتعهم ببعض الحقوق القانونية ، أكثر من عبيد .

الفـــنيقيون
« ١٥٠٠ - ٣٣٢ ق.م. »

منذ حوالى القرن ٢٥ ق . م . وما بعده ، أخذت تتكاثر ، في شمال سورية خاصة وحتى جنوبها ، هجرة بشرية كبيرة مصدرها الجزيرة العربية . سماها السومريون باسم عمورو (أي الغربيين) لأنها نزلت في غربهم وأعطوا الاسم نفسه لسورية . بين القرنين ٢٥ - ٢٠ . كان شمال سورية وحوض الفرات الاوسط عموريا . وبعد أن أسس العموريون دولة على هذا الحوض ، عاصمتها ماري ، سيطروا على بابل ، وكانت منهم السلالة التي ظهر فيها حمورابي .

عرف الذين توطنوا من هذه الجماعات المهاجرة في وسط سورية حتى فلسطين بالكنعانيين . أما الذين نزلوا على طول

١



٢



(١) ـ هذه المنحوتة العاجية الفينيقية ربما كانت تمثل عشتار ، معبودة الخصب عند البابليين التي تقابلها عند الفينيقيين أنات (عشتروت) وكانت احدى المساعدات الرئيسيات للمعبود الكنعاني بعل .

(٢) ـ يعود هذا التابوت المصنوع من حجر الكلس الى القرن الثالث عشر ق . م . ولكن الملك حيرام الجبيلي استعمله ثانية . في اوائل القرن العاشر . يظهر الملك جالسا على العرش وقد احاطت به مجموعة من اشكال ابي الهول المجنحة . تدل زهرة اللوتس الذاوية في يده انه قضى نحبه . امامه مائدة حافلة بالمآكل ، ويتقدم منه موكب من الخدم . فوق هذا المشهد طنف مصري الطابع مزين بزهرة اللوتس ، وتحته اربعة اسود تذكرنا اكثر بالرسوم الاشورية او الحثية النافرة . على غطاء التابوت يظهر واحد من أقدم أمثلة الكتابة الفينيقية .

(٣) ـ بسطت قرطاجة النفوذ الفينيقي في اسبانيا وسردينيا وافريقيا الشمالية ، وكان للفينيقيين عدة محطات في صقلية الغربية . في عام ٤٨٠ ق . م . قام القرطاجيون بحملة فاشلة على الشمال ، لاسعاف احشورش الفارسي . وفي اواخر القرن الرابع ، خاضوا حربا فاشلة ايضا ضد سرقسطة .

(٤) ـ تظهر شجرة الحياة ، رمز الخصب عند البابليين والاشوريين ، مع زهرة اللوتس المصرية على هذه اللوحة العاجية الفينيقية التي وجدت في احد القصور الأشورية . وهي تبين مدى انتشار التجارة الفينيقية ، وبالتالي التأثيرات الثقافية بين شعوب المنطقة .

◀ مناطق نفوذ قرطاجة حوالى ٣٢٣ ق . م .
طرق تجارية عبر المتوسط حوالى ٣٧٥ ق . م .
استكشافات فينيقية في القرن الخامس

(٥) ـ يعود هيكل المسلات في جبيل ، أقوى المدن الفينيقية في العهد المصري ، الى اواسط العصر البرونزي . كانت هذه المعابد تشمل انصابا او اعمدة اقيمت تعظيما للأصنام ، او احتفالا بحرق الموتى ، او لتعيين مواقع دفن اشياء مهمة .

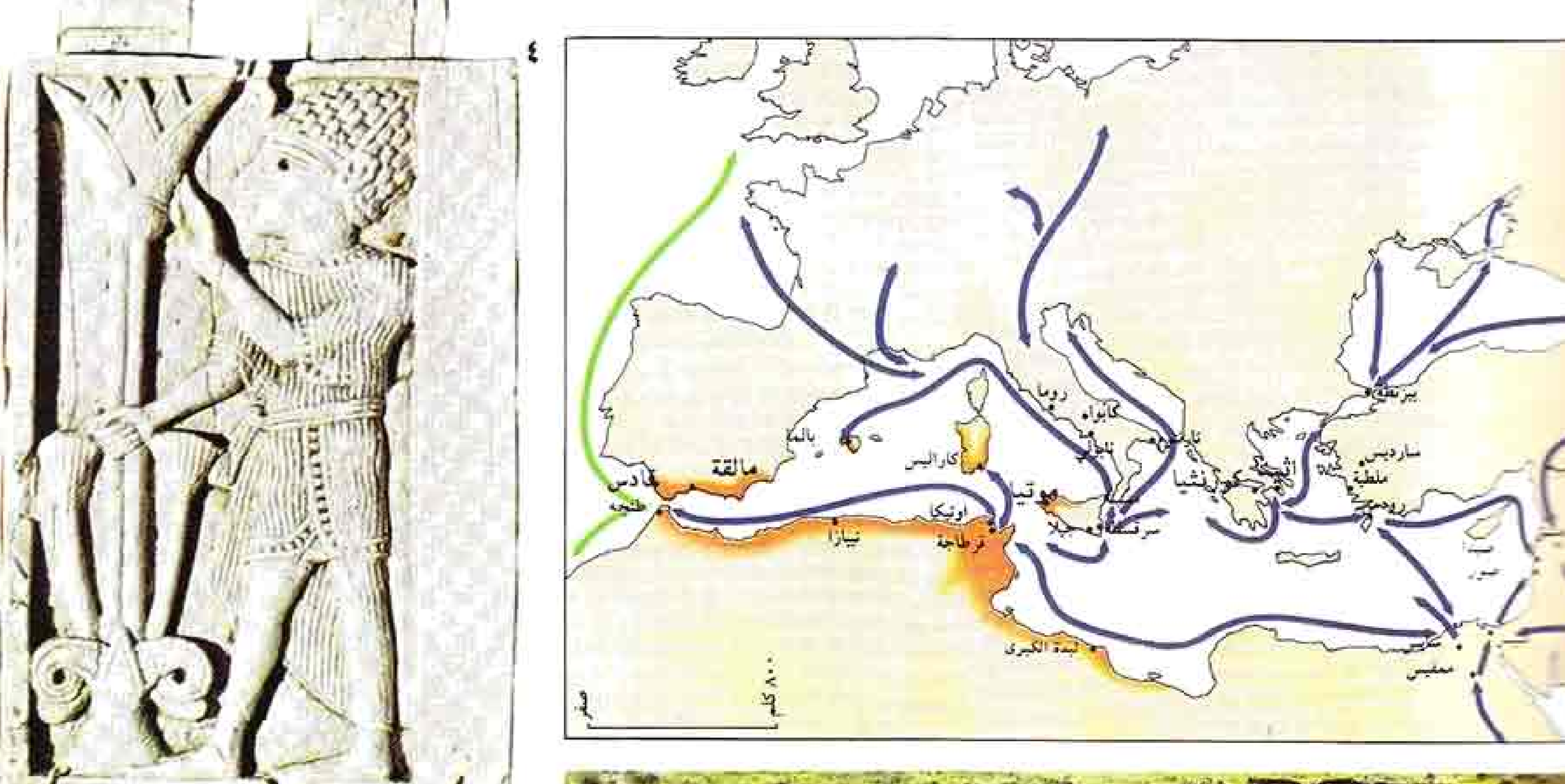
(٦) ـ كان الفينيقيون مهرة في صياغة الذهب ، وهو فن يقال انهم تعلموه من الميكينيين والمصريين . عُثر على هذا الخاتم الذهبي الذي يعود الى القرن السادس او الخامس ق . م . في تاروس بسردينيا .

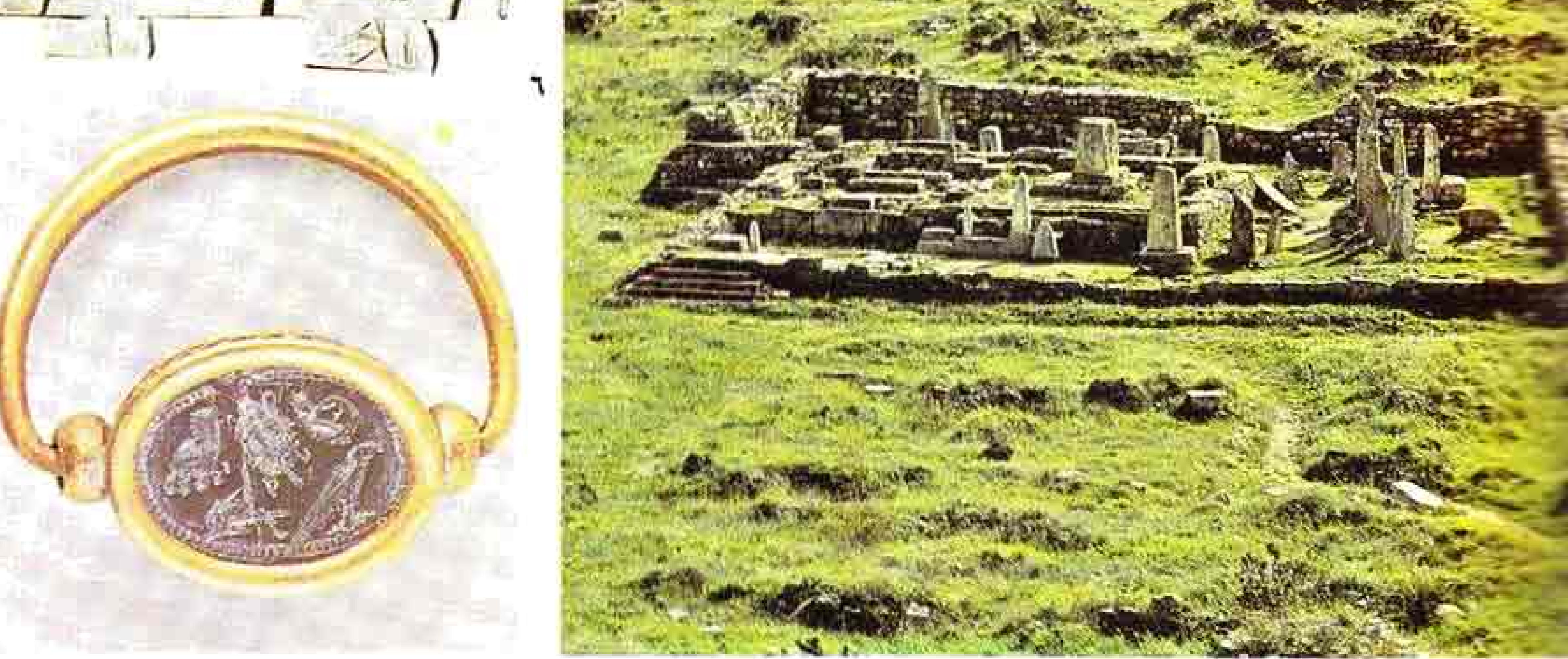
الساحل السوري وأسسوا عليه مجموعة من المدن التجارية المستقلة ، فقد سماهم الأغريق بالفونيين ، وهو الاسم الذي شاعت كتابته اليوم بالفينيقيين .

قامت شهرة الفينيقيين على اعمالهم البحرية الواسعة في البحر المتوسط ، وتجارتهم الناجحة ، وعلى ما أسسوا من المستوطنات التجارية والمدن الهامة على شواطئه ، وجزره المختلفة . كما عبروا مضيق جبل طارق متجهين شمالا حتى انجلترا ، وجنوبا حول قارة افريقيا . لهذا كان تاريخ فينيقيا هو تاريخ مدنها ومستوطناتها العظيمة ، لاسيما أوغاريت وجبيل وصور وصيدا وقرطاجة وقادس .

علاقات الفينيقيين مع جيرانهم :

حافظت المدن الفينيقية ، على غرار الدول ـ المدن في اليونان القديمة ، على





استقلالها الواحدة عن الأخرى . الا ان صيانة استقلالها من جاراتها الاقوى لم يكن بالسهولة نفسها . ففي أوائل القرن السادس عشر ق . م، استوفت مصر الجزية من تلك المدن ، ثم اخضعتها لسيطرتها . بقي النفوذ المصري قويا في فينيقيا لمدة طويلة ، الا ان الوجود الثقافي والمادّي لبلاد ما بين النهرين أخذ في التزايد ، كما يتبين بوضوح من الكتابة الفينيقية المسماريّة والأدلة المستمدة من المصنوعات المحلية . فبعد حقبة من السيطرة الحثية ، استوفى الملك الأشوري تغلات فلسَر الأول (ملك ١١١٥ ؟ - ١٠٧٧ ق. م) الجزية من المدن الفينيقية . استعادت فينيقيا حينئذ حرية التصرف ، وعقب ذلك فترة من الرخاء العظيم وامتداد واسع في أرجاء حوض المتوسط وما وراءه .

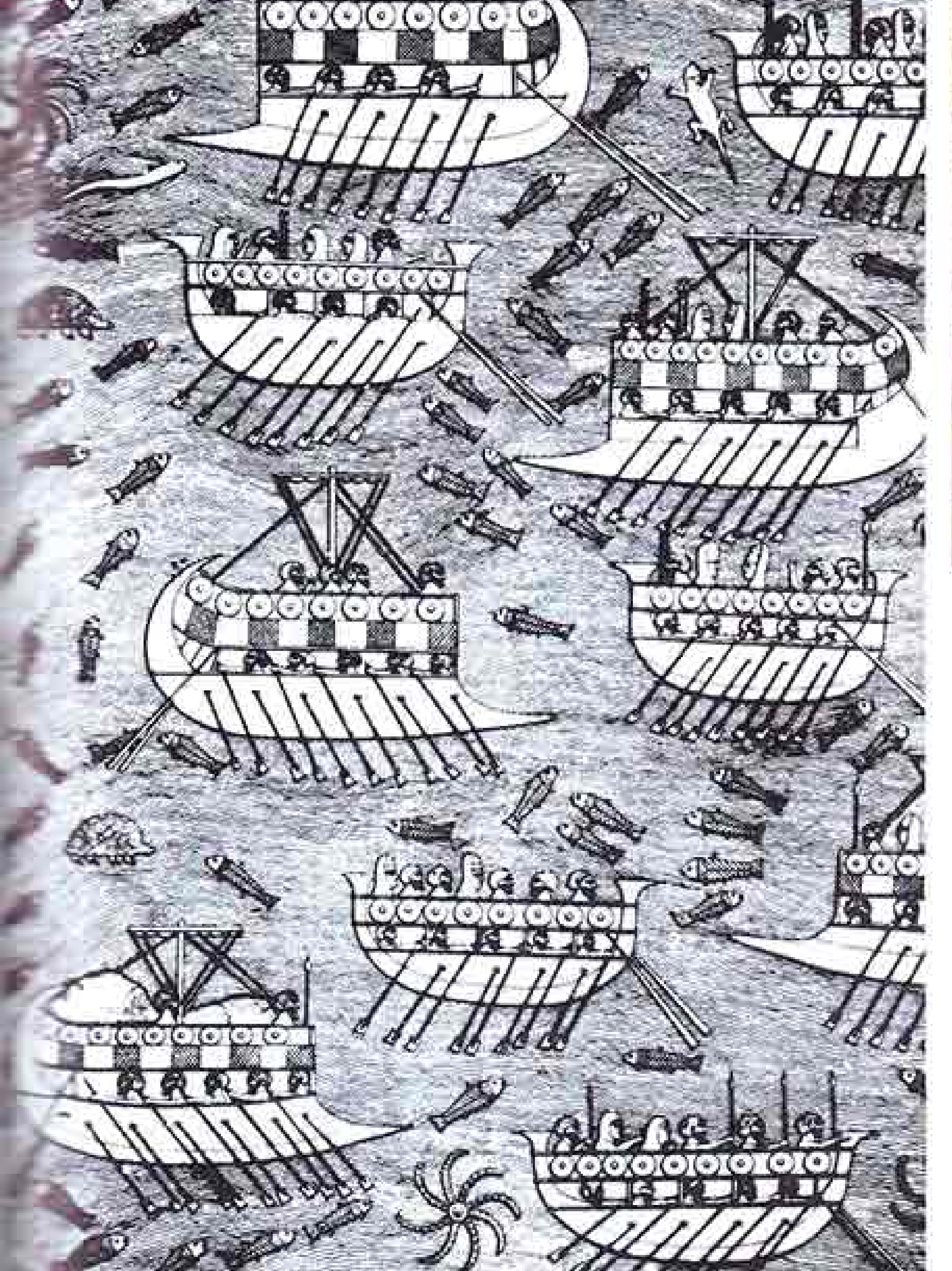
مع ذلك ، عندما أخذت سلطة أشور تقترب من ذروتها ، تحول الفينيقيون مرة

٧



(٧) - استعمل معبد تانيت في سلامبو طيلة تاريخ قرطاجة . كان تانيت اسما آخر لأنات او عشتروت اهم المعبودات عند الفينيقيين . اكتشف عدد من الانصاب والنقوش التكريسية في المعبد . الا ان اغرب اكتشاف كان آلاف الآنية المحتوية على رماد اطفال قد أحرقوا . وذلك دليل واضح على ممارسة تضحية الاطفال في قرطاجة .

٨



(٨) - كان لولي . ملك صور وصيدا . قد عقد حلفا مع مصر، وتصدّى ما أمكنه للغزو الأشوري . الا ان سنحاريب ملك أشور (حكم ٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) أجبره آخر الأمر على الهرب الممثل في هذه اللوحة النافرة. (المفقودة الآن) والتي عثر عليها في نينوى . يمثل الرسم نوعين من السفن : الطويلة التي مهدت لظهور « الطريم » وكانت تستعمل للحرب والاستكشاف ، والسفن المدورة التي كانت تستعمل في التجارة . كان لكل من هذين النوعين من السفن مجاذيف للتوجيه على كلا جانبي المؤخرة ، وكان ظهر السفينة مزينا بالتروس .

٩

(٩) - ملك صيدا ، اشمونصر الثاني الذي قد يكون حكم في القرن السادس . دفن في هذا التابوت المصنوع من البازلت الاسود على الطراز المصري المحض .

ثانية الى شعب محكوم . خاضع أولا لأشور ناصر بال الثاني وابنه شلمنصر الثالث في القرن التاسع . وبعد ذلك لتغلات فلسَّر الثالث في القرن الثامن . في القرن التالي . اجتاحت جيوش آسرحدّون معظم فينيقيا . صمدت صور . ولكنها استسلمت آخر الأمر للبابليين في عهد نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م) . بعد ذلك اصبحت فينيقيا جزءا من امبراطورية قورش الكبير الفارسية . الا انها بقيت قوة بحرية لا يستهان بها . ولكن التشكيلة البحرية التي أمدت بها اسطول احشورش (٥١٩ ؟ - ٤٦٥ ق . م) في حملته على اليونان اصيبت بقسطها الفادح من الهزيمة في معركة سلاميس عام ٤٨٠ ق . م . ضم الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) فينيقيا الى امبراطوريته في اعقاب انتصاره في معركة ايسوس عام ٣٣٣ ق . م . وفتحه لمدينة صور عام ٣٣٢ ق . م .

التوسع الفينيقي

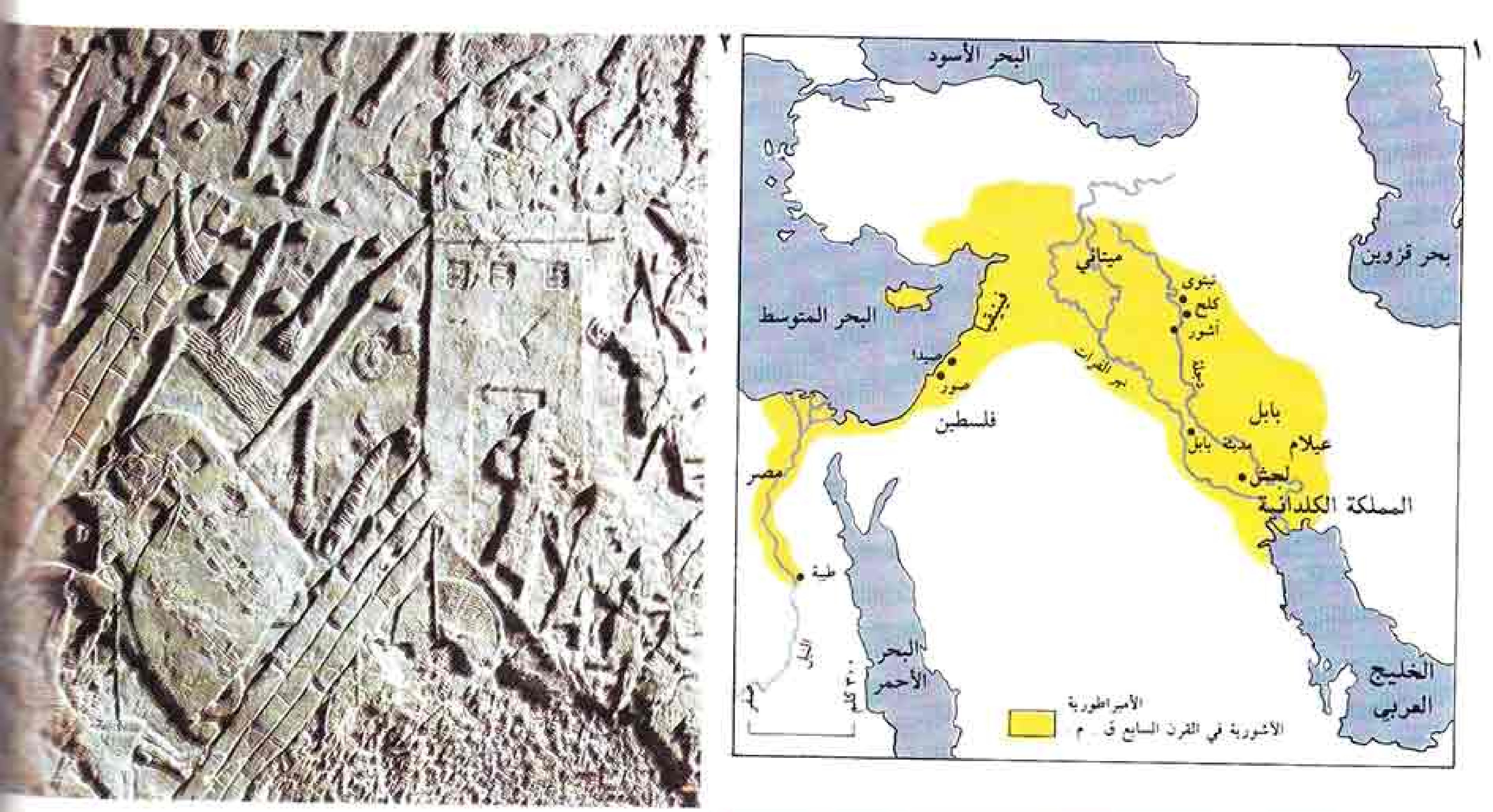
بدأ عصر التوسع والاستيطان في تاريخ فينيقيا في القرن الثاني عشر . كانت قد اقامت مستوطنات لها في قبرص وفي البحر الايجي . وكانت للفينيقيين مستوطنات في رودس . وعلى الأرجح في كريت ايضا . الا ان الأدلة على وجود فينيقي في البر اليوناني مقصورة على الأدلة الكتابية . كذلك لا توجد أدلة محسوسة على استيطان فينيقي في ايطاليا . مع انه كانت لهم علاقات تجارية قوية معها . أما في الحوضين الاوسط والغربي للبحر المتوسط فقد أسس الفينيقيون سلسلة من المستوطنات والمدن . وطدت نفوذهم في تلك المناطق . وكان منها عدة مستوطنات على ساحل افريقيا الشمالية (٣) اشتملت على اوتيكا وحضرومتوم (وتدعى سوسة اليوم) ولبتس الكبرى (لبدة) . لكن اعظم هذه المستوطنات على الاطلاق هي قرطاجة (٧) (قرت حدش = المدينة الحديثة) التي قامت صور . المدينة الأم . آخر الأمر . بتأسيسها . حتى ازدهرت وسيطرت على معظم المستوطنات الفينيقية الغربية وان لم تحكمها فعلا . أهم هذه المستوطنات قادش (قادس) وابيسوس (ابيزا) التي اسستها قرطاجة في منتصف القرن السابع ق . م . وقرطاجة الجديدة (قرطاجنة) التي اسسها هاصدر بعل صهر حن بعل (هانيبال) عام ٢٢٨ (بين الحربين الأولى والثانية من الحروب البونيقية) . لكن الحرب الثالثة انتهت بتدمير قرطاجة نفسها . على يد روما . بسبب التنافس التجاري والسياسي بينهما .

إرث أدبي خصيب

القى اكتشاف نصوص أوغاريت (رأس شمرا . قرب اللاذقية في سوريا) المسمارية ضوءا كبيرا على اساطير ومعتقدات المنطقة . في الحقبة السابقة للعصر الحجري . ومع انه لم يصلنا سوى عدد ضئيل من النقوش والوثائق الخاصة بالأدب الفينيقي نفسه الذي كان خصبا فيما مضى . فهذه المخلفات بالغة الأهمية من ناحية الكتابة ايضا . لأن الابجدية الفينيقية كانت أساس الابجدية اليونانية والابجديات السامية الأخرى كذلك . كان الفينيقيون يتكلمون لغة سامية كتبوها بأبجدية مؤلفة من ٢٢ حرفا ساكنا . لا حروف صوتية فيها .

الأشوريون

يرجح المؤرخون ان الجماعة الأشورية قد خرجت من الجزيرة العربية مع الأكاديين والهجرات الأولى حوالى ٣٠٠٠ ق . م . أو قبل ذلك . لكنها نزلت في الشمال ، في سهول دجلة حيث ظهر كيانها ، ثم انشأت الدولة الأشورية (عاصمتها أشور) التي خضعت أول الأمر للسيطرة البابلية . اكتسب الاشوريون الكثير من ثقافة جيرانهم السومريين والحثيين ، كما تمرّسوا بحياة الحرب والقتال ، مما جعلهم في عهد شمشي حدد الأول ، أواسط القرن ١٨ ، قوة عسكرية تمكنت في القرون التالية ، وبخاصة منذ منتصف الألف الثاني ق . م ، من التغلب على دولة ميتاني ، والتوسع حتى جبال القفقاس





(١) - بلغت الامبراطورية الاشورية اقصى امتدادها في القرن السابع ق . م . وذلك اثناء حكم اشور بانيبال (حكم ٤٢ سنة) . تعرضت شعوب البلاد المحتلة لقمع لا رحمة فيه ، قام به جيشه الذي كان يتباهى بقسوته ويفتخر بها . كان اشور بانيبال يحكم بواسطة جهاز اداري فعّال تشرف عليه الحكومة المركزية . مع ذلك انهارت سلطة اشور وجاءت بعدها مملكة بابل الجديدة .

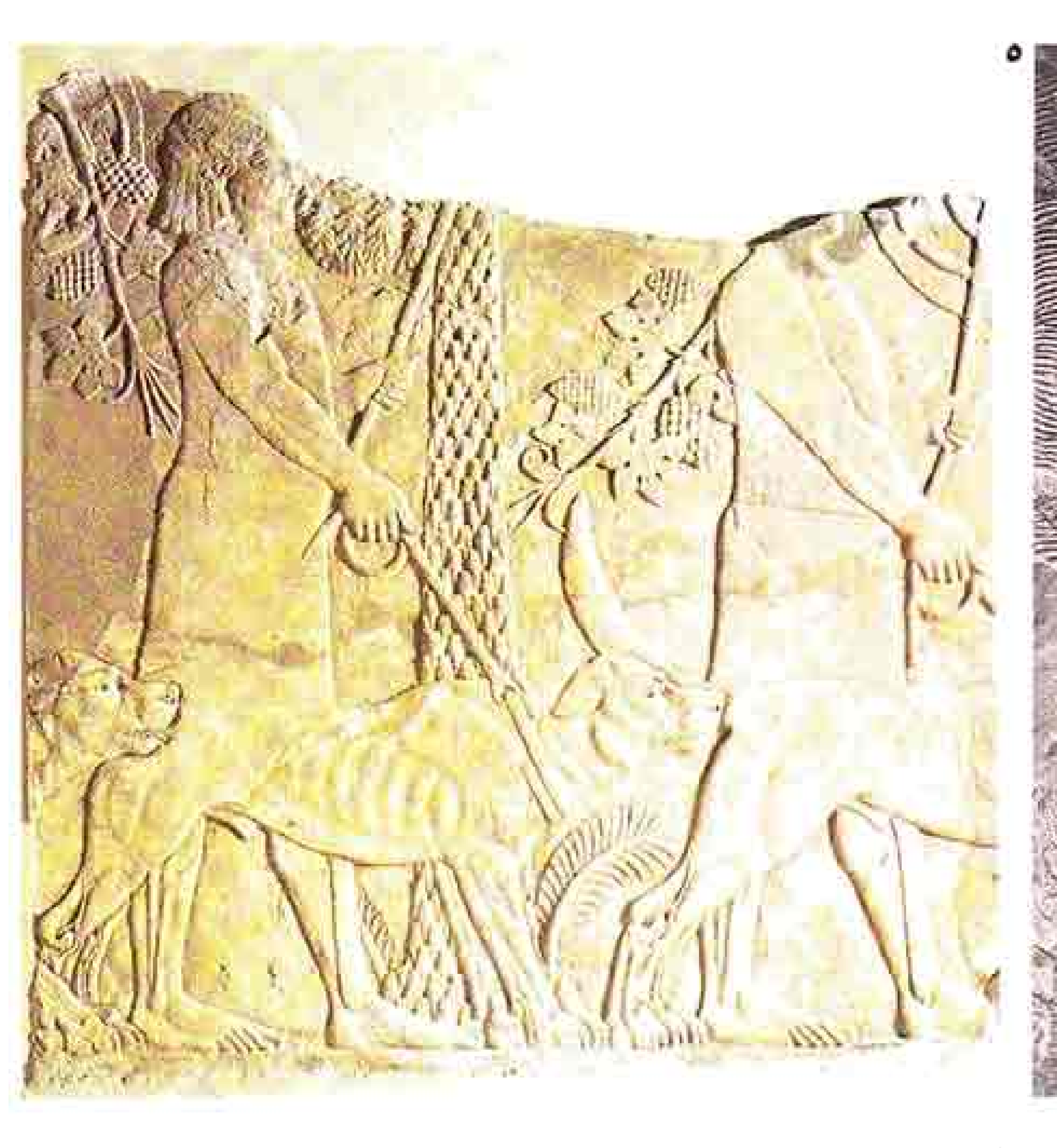
(٢) - تصور بعض اللوحات الحجرية ، في نينوى ، حصار سنحاريب لمدينة لخيش في فلسطين ، التي استسلم ملكها حزقيا اثر سقوط المدينة .

شمالا ، والخليج العربي والجزيرة العربية جنوبا . كذلك ضمّ الاشوريون سوريا ومصر ، في فترة من الفترات ، الى امبراطوريتهم .

تأسيس الامبراطورية

برزت الدولة الاشورية كقوة مسيطرة في عهد شمشي حدد الثالث (١٥٣٢ ـ ١٥٠٧) ، وقد وسع حدد نيراري الأول (حكم ١٣٠٧ ـ ١٢٧٥ ق . م) حدود أشور حتى بلغت الفرات ، وزحف شلمنصّر الاول (حكم ١٣٧٤ ـ ١٢٤٥ ق . م) شمالا حتى سحق الحوريين ، آخر الأمر . أما اول الملوك الاشوريين العظام حقا ، فقد كان تغلات فليسّر الأول (حكم ١١١٥ ؟ ـ ١٠٧٧ ق . م) الذي اعتلى العرش بعد فترة من عدم الاستقرار في آسيا الغربية ، وتوصّل ، بفضل سلسلة متلاحقة من الحملات العسكرية التي جمعت بين البراعة والقسوة ، الى بسط سلطة أشور حتى أقصى الشمال

٥



يظهر على اللوح البادي هنا عدد من آلات الحصار التي كان يستعملها الاشوريون .

---

(٣) ـ وادي نهر الزاب ، وهو من روافد دجلة في شمال شرقي العراق . يمثل تمثيلا حسنا طبيعة الارض التي كان يتألف منها قسم كبير من الامبراطورية الاشورية . في جزء كبير من المنطقة ، جعلت الجبال الحياة والمواصلات تتمركز حول أودية الانهار .

---

(٤) ـ هذا الزورق المصنوع من الجلد ، ربما كان يحمل مواد بناء لقصر سنحاريب . يخبرنا هيرودوتس كيف كانت الزوارق الجلدية المستديرة تطفو على سطح مياه الفرات ، وهي تحمل حمارا او اكثر بالاضافة الى حمولتها العادية . عند وصولها الى بابل ، كانت الزوارق تفك وتطوى وتحمل على الحمير لمتابعة الرحلة برا ، باتجاه ارمينيا .

---

(٥) ـ يقوم الخدم بتدريب كلاب صيد في الحديقة الملكية . في هذا الرسم النافر المأخوذ من القصر الشمالي الخاص بأشور بانيبال الثاني في نينوى . كان الاشوريون يعتقدون ان الملك يؤدي واجبا مقدسا حين يصيد الحيوانات البرية . كانت الأسود تجلب الى البلاد ، حتى يستطيع الملك اظهار مهارته في عمليات الصيد المترفة . كان اشور بانيبال « صيادا عظيما امام الرب » . وفي أيامه كانت الاسود تعيث فسادا في الأدغال ، على طول الفرات ، وتفني البشر ايضا .

والشمال الغربي . كما انه اجتاح سوريا ، واستوفى الجزية من المدن التجارية الغنية على الساحل الفينيقي .

استطاع تغلات فليسّر، وان يكن مع بعض المشقة ، ان يصد هجمات الشعوب الآرامية القادمة من الصحراء الغربية . ولكن ، بعد وفاته ، اجتاح الآراميون والكلدانيون سائر بلاد ما بين النهرين تقريبا . وهيمنوا هناك طيلة ما يربو على ١٥٠ سنة . وعندما اعتلى حدد نيراري الثاني العرش الأشوري عام ٩١٢ ق . م ، كانت مملكته رقعة مستطيلة لا تزيد على ١٠٠ ميل طولا وخمسين ميلا عرضا . ولكن بحلول منتصف القرن السابع ق . م ، عادت أشور فصارت أكبر وأقوى دولة في العالم المتحضر .

كان أشور ناصر بال الثاني (حكم ٨٨٣ - ٨٥٩ ق . م) (٨) صاحب الفضل الاكبر في استعادة السيطرة الاشورية . فقد بنى الجيش

٦


٧


٨


(٦) - يظهر آسرحدون الحاكم الأشوري العظيم على نصب عثر عليه في زنجيرلي الواقعة الى الشمال الشرقي من خليج الاسكندرون والى شمالي غربي حلب . ينتصب الملك عاليا امام اسيرين يستعطفانه . وهما موثقان بحبال أدخلت في شفاههما . أما الأسير الواقف أمامه ، فقد يكون بعلو ، ملك صور . وان كان ذلك لا يعبّر عن الواقع .

(٧) - يظهر ياهو ، ملك اسرائيل ، وهو ينحني امام شلمنصّر الثالث (حكم ٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) في هذه اللوحة من الواح بوابة بلوات . تخلد اللوحات عددا من حملات شلمنصر ضد بابل، وبلاد ما بين النهرين الشمالية، وضد سوريا التي عجز بعد عدة حروب عن اخضاعها كليا .

(٨) - يقف شخصان ، ربما كان احدهما (كما يستدل من اللباس والنقش) يمثل اشور ناصر بال الثاني ، ملك أشور في القرن التاسع ، على جانبي شجرة الحياة . هذا الموضوع ، الشائع في آسيا الغربية ، هو رمز للخصب الذي تمنحه عشتار .

حتى اصبح قوة مقاتلة لا تقاوم وقاده حتى شواطىء البحر المتوسط . في عاصمته الجديدة كلح (نمرود) ، عند مصب نهر الزاب الكبير ، شيد قصرا فسيحا ، كانت تحيط بمدخله تماثيل ثيران مجنحة . لكنه اشترى عظمة اشور بآلام اعدائها . وهناك نقوش عدة تشهد على اشكال العذاب الذي كان ينزله بالمحاربين والمدنيين على السواء . واصل ابن اشور ناصر بال شلمنصّر الثالث (حكم ٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) - وكان لا يقل عن والده غلاظة وقسوة - تجريد الحملات السنوية (٧) ، ولكن دون نجاح يذكر .

الاندفاع الامبراطوري

أضعف مركز اشور تعاقب سلسلة من الحكام الضعفاء على عرشها ، اضافة الى تصاعد قوة مملكة اورارتو الى الشمال . كان الموقف يتطلب شخصية قوية وذكية لمجابهة الخطر ، وكان من حسن حظ الاشوريين انهم وجدوا مثل هذه الشخصية في تغلات فليسّر الثالث (حكم ٧٤٥ - ٧٢٧ ق . م) الذي تمكن من اعادة السيطرة لأشور .

الا ان بابل كانت قد أخذت تقع تدريجيا تحت تأثير القبائل الكلدانية ، التي كانت تسيطر على المناطق المجاورة ، والتي استمرت في سياسة عداء شديد للأشوريين . فرد سنحاريب (حكم ٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) ردا عنيفا على ذلك ، منصبا ابنه على عرش بابل . الا ان البابليين اعلنوا العصيان عام ٦٩٤ ق . م ، واستنجدوا بملك عيلام الذي جاء لنصرتهم ورد الأمير الاشوري الى عقر داره . دامت الحرب القاسية التي نشأت عن ذلك خمس سنوات . وانتهت بتدمير مدينة بابل عام ٦٨٩ ق . م على يد سنحاريب الذي أعلن نينوى عاصمة له وأخذ ينفذ برنامجا واسعا من الاشغال العامة . كما انه اخضع معظم المدن الفينيقية وحاصر القدس .

بعد اغتيال سنحاريب ، لم يتوان ابنه اسرحدُون (حكم ٦٨١ - ٦٦٩ ق . م) (٦) في اعادة بناء بابل . وكان سياسيا لامعا ، يعرف متى يجب استعمال الحزم او الرحمة او المزج بين الاثنين . بقيت سلطة اشور نافذة في الشرق ، وكانت الدولة المنائية على الحدود الشمالية ، دويلة صدام ، تحت سيطرة أشور . أخمدت ثورة في فينيقيا بعد سبي سكان صيدا واعدام ملكها . الا ان اعظم نجاح سجله اسرحدُون كان ضد مصر . فقد كانت الاسرة الحاكمة فيها تحرك الفتن في فينيقيا ، فقرر اسر حدون ان يخضع البلاد لسلطته .

سقوط الامبراطورية

قمع اشور بانيبال (حكم ٦٦٨ ؟ - ٦٢٧ ؟ ق . م) ثورة نشبت في مصر ، وقهر تلك البلاد ثانية . ولما كانت بلادا واسعة وبعيدة جدا يصعب احتلالها بصورة دائمة (١) . فقد أوكل ادارتها الى الامراء المحليين . لكنه اضطر آخر الأمر ان ينسحب من مصر ، بسبب ثورة واسعة قادها أخوه ملك بابل بالتعاون مع عيلام . انتصر اشور بانيبال على الثوار عام ٦٤٨ ق . م . فراح يباهي بان العالم كله بات تحت قدميه . ومع انه كان لا يرحم ، فقد كان من رجال العلم . الا ان اشور لم تستطع الصمود في وجه حلف نابوبولاصّر ملك بابل عام ٦٢٥ ق . م مع الميديين . فلم تلبث ان انهارت ، ودُمرت نينوى تدميرا كاملا عام ٦١٢ ق . م واحترق ملكها في قصره .

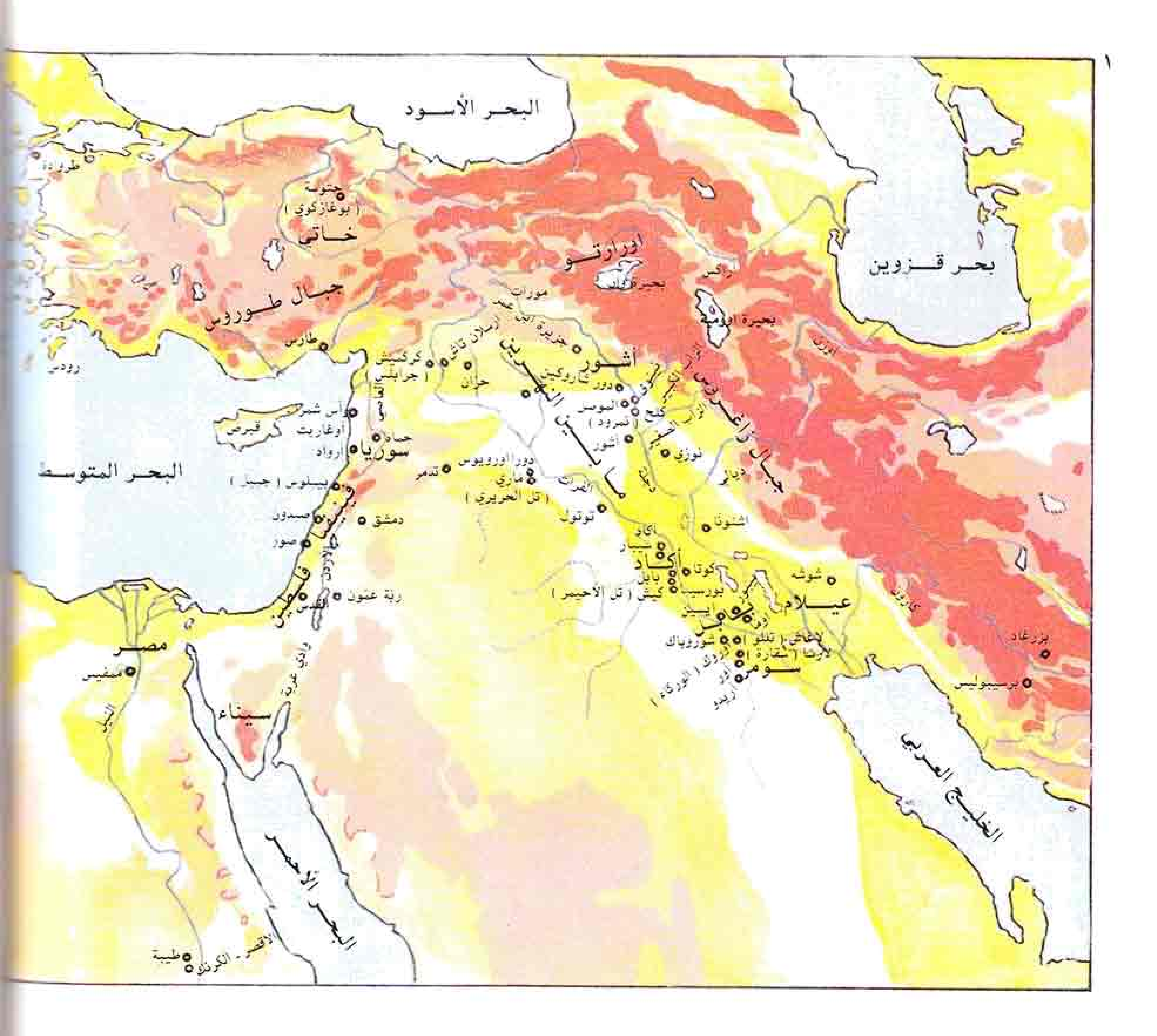
الآراميون

قبل اواسط الألف الثاني ق . م ، كانت مناطق الهلال الخصيب مسرحا لتحركات متوالية ، وموجات متشابكة من الهجرات البشرية المتنوعة ، ومن العلاقات الدولية المعقدة . زالت آثار بعضها وبقيت بقايا من بعضها الآخر حتى اليوم . فحين كان الهكسوس يطردون من مصر حوالى سنة ١٥٨٠ ق . م وبعد ذلك :

أ ـ كان الكاشيون يسيطرون على بابل ، بعد أن أزال الحثيون سلالة حمورابي منها . واستخدموا الحصان في عرباتهم الحربية . ثم حل محلهم العيلاميون في ما بين النهرين .

ب ـ كان الحوريون الذين انحدروا تدريجيا من جبالهم في ارمينيا قد سيطروا

١



على ما بين شمالي العراق وشمال سوريا ، وأسسوا امبراطورية لم يعثر الاثريون حتى اليوم على موقع عاصمتها واشوغاني .

جـ - تلا ذلك ظهور الميتانيين الذين أسسوا مملكة في شمالي سوريا ، ثم غلبهم عليها الحثيون الذين جاؤوا من شمالي بحر قزوين عن طريق الأناضول وحلوا محل الميتانيين .

رافق ذلك كله وصول النفوذ المصري (في عهد الأسرة ١٨ وما بعدها) الى اواسط سوريا ، ثم تضاؤل الامبراطورية الحثية في الشمال لحساب الاشوريين في اعالي العراق الذين سوف يصبحون القوة الكبرى في المنطقة منذ اواخر الالف الثاني ق . م حتى القرن السادس ق . م .

شعوب البحر

أعقب ذلك بين القرنين ١٤ و ١٣ ق . م



ب

النص السرياني

(١) - كلمة آرامي بمعنى سرياني حديثة الاستعمال ، تعود الى القرن الماضي فقط . حين عرف ان السريان هم الآراميون القدماء الذين انتشروا في الشرق الحضاري في النصف الثاني من الألف الثاني ق . م . وزرعوا المنطقة مدنا وقرى من فلسطين وشمال الحجاز حتى بحيرة وان كما توغلوا جنوبي العراق . تأثيرهم الثقافي كان أقوى من تأثيرهم الاثنولوجي .

(٢) - هذه القطعة الصغيرة من الفخار المشوي (أ) ، والتي يحتفظ بها متحف دمشق بوصفها من أثمن كنوزه ، هي نموذج كامل لأول أبجدية عرفها التاريخ . وهي في الوقت نفسه أم الأبجديات كلها في العالم . وجدت في حفريات أوغاريت الفينيقية على الساحل السوري وتعود الى القرن الرابع عشر ق . م . أو قبله بقليل . الآراميون أخذوا أبجديتهم عنها بعد تشذيبها . هذه الأبجدية . حروفها ذات شكل مسماري . أما في الآرامية ، فقد تحولت الى خطوط . من نماذج الكتابة السريانية اليوم . النص (ب) الذي يقرأ السطر الأول منه هكذا ، « شلم بشنت ألف وتلتماتو وشبع » وتعني « كمل بسنة ألف وثلاثمائة وسبع » .

(٣) - في هذا الرسم الجداري من مدفن تحوتمس الرابع في طيبة (حوالى ١٤٠٠ ق . م) رسمت مجموعة من سكان سورية في تلك الفترة . وفيهم الآراميون . كانت امبراطورية مصر تمتد هناك . ملابسهم البيضاء كانت تميزهم . هدا ياهم تتضمن آنية الذهب . وجعبا من الجلد . وجرار زيت .

٣

هجوم شعوب مجهولة الجذور عرفها المؤرخون باسم شعوب البحر ، غزت بأعداد كبيرة جدا الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط ما بين الدلتا المصرية حتى آسيا الصغرى . وكان منها شعب بولوزاتي او فلسطي الذي أعطى أسمه لفلسطين . كان من نتيجة الهجمات البحرية والبرية المتكررة تهدم مدن كثيرة (منها طروادة سنة ١٢٠٠ ق . م) وتوطن بعض الشعوب كالفريجيين في قلب الاراضي الحثية . الى ان أوقفت حروب رعمسيس الثاني هذه الموجات . وردتها الى أوروبا وساحل افريقيا الشمالي .

غير ان هذه الشعوب الغريبة القادمة من الشرق والشمال والغرب لم تطبع المنطقة بطابعها وان بدلت الخريطة السياسية لها عدة مرات . وغيرت التركيب الاثنولوجي فيها. وخلطت السكان القدماء من « الساميين » (العموريين البابليين . والكنعانيين الفينيقيين)

ب

الأبجدية الكنعانية

الارامية

الارمنية

البهلوية

اليونانية

الخروشتية البرهمانية

الجيورجية القفقاسية

السالوية

النبطية

العربية

الفارسية التركية الاوردية السالوية

٤ أ

القيمة اللفظية	تدمري	سرياني قديم	[illegible]	سرياني غربي او سرطا	سرياني شرقي او نسطوري	يعقوبي	فلسطيني مسيحي او سرياني فلسطيني	مانداي	مانوي
'	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible] (ā)
b	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
g	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
d	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
h	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
w	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible] (v,ū,ō)
z	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ḥ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ṭ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
y	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible] (ī,ē)
k	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible] (kh)
l	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
m	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
n	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
s	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
'	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
p	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible] (ph)
ṣ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
q	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
r	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
sh	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
t	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

٥



(٤) ـ تطورت الأبجدية الآرامية خلال عمرها الطويل منذ أواسط الألف الثاني ق . م ـ الجدول (أ) يبين تطور أشكال الحروف الأبجدية الأولى فيها . من الملاحظ ان الترتيب الأوغاريتي الأقدم والأول للحروف ظل هو الترتيب الآرامي نفسه والترتيب المتبع في الخطوط الأخرى التي اشتقت منه . فالألف كانت تمثل رأس ثور [illegible] والباء رسم بيت (غرفة) [illegible] والجيم رأس جمل [illegible] . عدد الأبجديات والخطوط المقتبسة عن الآرامية أو الكنعانية مباشرة كبير . شجرة أنسابها وتفرعاتها تظهر في الجدول (ب) .

(٥) ـ موسيقي ينتظر في حديقة الملك ومن خلفه خدم يحملون الطعام ويذبون عنه . المظنون أنهم من الآراميين . المشهد من نقوش قصر آشور بانيبال المعروف في نينوى .

بعناصر أخرى . والسبب هو أن هجرات أخرى ، سامية ، قدمت في الوقت نفسه الى المنطقة ، وأعانتها على الاحتفاظ بطابعها « السامي » الثقافي ، والى حد ما بتكوينها الاثنولوجي (١) .

الآراميون

بينما كانت الجماعات الاشورية تتحول في شمال العراق الى قوة كبيرة ، كان العبرانيون في ما بين القرنين ١٢ و ١٠ ق . م يسيطرون في فلسطين مختلطين بالكنعانيين وغيرهم . وكانت جماعات « سامية أخرى » ، أشارت اليها النقوش الاثرية باسم أخلامو ، تخرج من البادية الشامية وتتكاثر منذ القرن ١٤ ق . م في أطراف الشام وعلى وادي الفرات .

ما لبثت هذه الجماعات ان حملت بين القرنين ١١ و ١٠ ق . م اسم الآراميين ، وأسست ما بين تيما الى دمشق وحماه حتى (شمأل) وأعالي الجزيرة الشامية ، ثم حتى بابل ، مجموعة من الدويلات والممالك الصغرى التي لعبت دورها السياسي في المنطقة ، وزاحمت الحثيين والاشوريين والبابليين والعبرانيين وحاربتهم طويلا لتوطد استيطانها . كان أهمها مملكة شمأل في أقصى الشمال ، ومملكة دمشق التي تزعمت فترة طويلة تلك الممالك حين هددتها الاخطار الضاغطة من العبرانيين والاشوريين الغزاة خاصة . لكن الممالك الآرامية لم تستطع ان تشكل دولة واحدة قوية . لهذا لم تستطع البقاء السياسي اكثر من أربعة أو خمسة قرون . ثم اضمحلت واحدة بعد الأخرى امام الغزو الاشوري الساحق (٥) . بقيت قبائل وبقايا منهم في البلاد البابلية بين القرنين التاسع والسابع ق . م على الحوض الاسفل من دجلة حتى ذابوا مع الكلدانيين .

الحضارة الآرامية

لكن غياب الآراميين السياسي لم يستتبع الغياب الحضاري . فقد ظل الآراميون موجودين ثقافيا بلغتهم وكتابتهم اللتين ظلتا منتشرتين قرونا طويلة بعد ذلك ، حتى ظهر الاسلام وحلت اللغة العربية محل الآرامية ، وان بقيت بقايا هذه اللغة في اماكن متفرقة وجماعات معينة في سوريا والعراق الى اليوم . ذلك ان اللغة الارامية وما يتبعها من كتابة أبجدية (مأخوذة عن أحرف أوغاريت الفينيقية) (٢) صارت لغة دولية من ضفاف النيل الى نهر السند في السياسة والتجارة ، حين أصبحت اللغة الرسمية للامبراطورية الاخمينية الغازية . ثم استمرت لغة الحياة العادية في سوريا والعراق بعد ذلك في العهدين الهلينستي ثم الروماني ـ البيزنطي . وظهرت فيها مع الزمن لهجات عديدة ما بين شرقية وغربية ، وخطوط كتابية عديدة (٤) ، كان منها الخط النبطي التدمري ثم العربي .

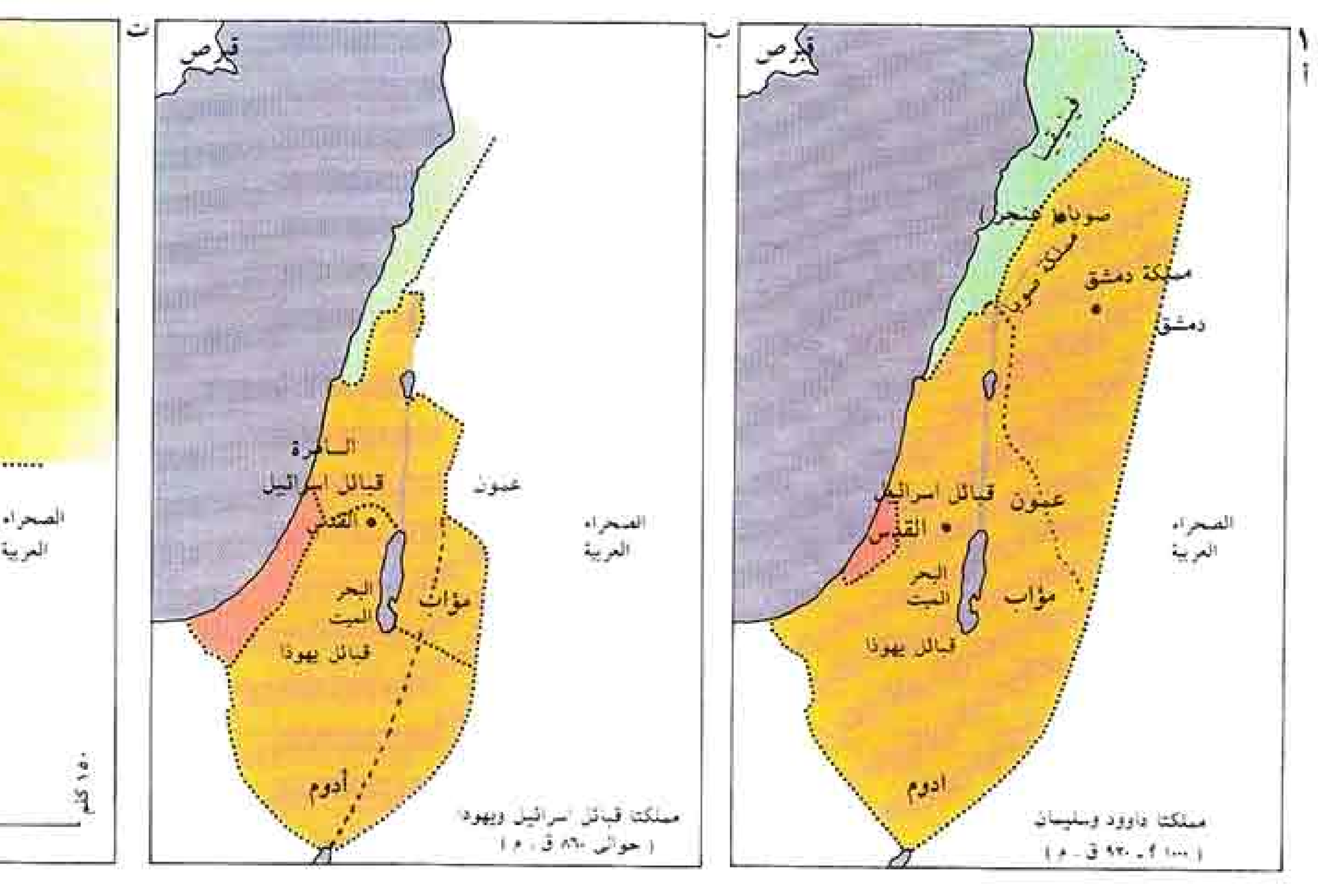
كانت الآرامية هي اللغة التي تحدث بها السيد المسيح لأنها لغة الناس في فلسطين في عهده . وبها كتب الترجوم اليهودي والتلمود . لهذا فان الآراميين الذين اتبعوا المسيحية حملوا في الرها (اورفه) اسم السريان نسبة الى المسيح السوري ، ثم صارت لغتهم السريانية لغة الكنيسة في بلاد الشام والرافدين ، ما بين القرنين الثالث والثالث عشر للميلاد . وامتد اسم السريان فشمل الجماعات الآرامية القديمة .

العبرانيون

لا زال الغموض يحيط بأصل ومعنى كلمة « عبراني » . لكن اسم « عبيرو » يظهر ، في وثائق القرن الرابع عشر ق . م . في وصف جماعات من الرحل ومن خلائط الأقوام كانت تقطع الطرق على التخوم الشمالية للصحراء العربية . ومن الثابت تقريبا ان جماعة عرفت بالعبرانيين هاجمت ، عبر وادي الأردن ، المدن الكنعانية ، في القسم الجنوبي من سوريا بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق . م واستقرت فيها .

يوسف في مصر

كان العبرانيون القدماء رُحّلا ، ويشير التاريخ الى هجرة ابراهيم من بلاد ما بين



(١) - تذهب روايات الكتاب المقدس الى ان العبرانيين تخلصوا من العبودية في مصر ابان القرن الثالث عشر في زمان موسى . بلغت مملكة العبرانيين الذروة اثر استيلائهم على بعض اجزاء من أرض كنعان في القرن الثاني عشر . واحتلال داود (١٠٠٤ ؟ - ٩٦٣ ق . م) لأورشليم وتغلبه على الشعوب المجاورة (أ) . انقسمت هذه المملكة بعد وفاة سليمان الى مملكتين صغيرتين : هما يهوذا الى الجنوب واسرائيل الى الشمال (ب) واخذت كلتاهما في التدهور أمام الحكم الأشوري (ت) .

(٢) - يقوم المسجد الأقصى عند الصخرة التي يعتقد ان (النبي) محمدا عرج منها الى السماء . وهو يقع على جبل صهيون ويبدو حائط المبكى الى جواره .

(٣) - ظهر في التاريخ العبراني عدد من « الانبياء » الذين تحدثوا عن المجتمع الصالح ، ونددوا بالممارسة القائمة على النفاق الديني . وعلى غرار اشعيا الذي صوره ميكال انجلو في هذا الرسم ، دعا هؤلاء الوعاظ الى الايمان باله واحد عادل ورحيم ، وطالبوا الناس ان يتصفوا بصفات مماثلة .

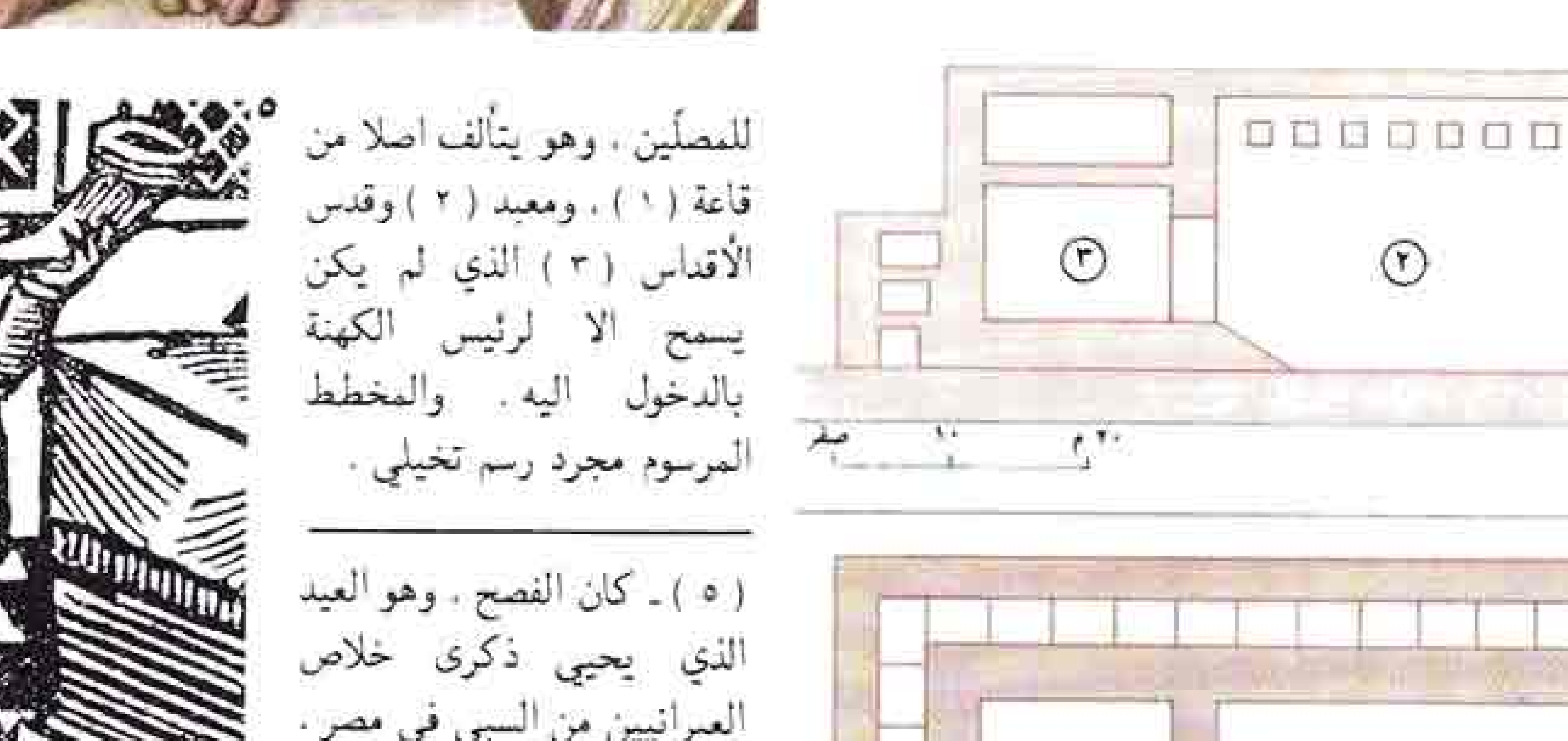
(٤) - كان هيكل اورشليم الاول ، الذي بناه سليمان ، والذي لم يبق منه الآن أثر ، مكانا مكرسا لايداع تابوت العهد وأوعية وقرابين مقدسة أخرى فيه . كانت له ساحة

النهرين الى الجزيرة العربية حيث بنى ، مع ابنه اسماعيل ، الكعبة ، ثم رحل الى ارض كنعان ، (فلسطين) . كان يوسف هو الابن الحادي عشر ليعقوب حفيد ابراهيم ، وتروي الكتب المقدسة كيف ان ابناء يعقوب الآخرين باعوا أخاهم يوسف رقيقا لتجار اخذوه معهم الى مصر ، حيث وصل الى مركز رفيع في الدولة . أقام يوسف ورثته من بعده في مصر لعدة أجيال ، ثم قاد موسى احدى قبائل العبرانيين الى فلسطين في أواخر القرن الثالث عشر ق . م .

وتاريخ هذا « الخروج » غير ثابت ، ولكنه حدث على الأرجح في اواخر القرن الثالث عشر ق . م . وقد هرب بهم عبر الطرف الشمالي للبحر الأحمر الى الصحراء ، ووقفوا عند جبل سيناء أو حوريب . والشريعة التي أنزلت على موسى في جبل سيناء تلخص تقليديا بالوصايا العشر التي يقال انها

٣

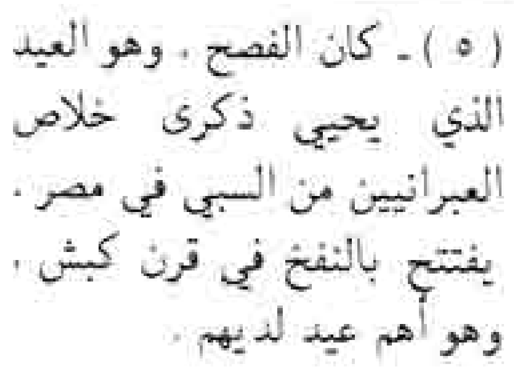




للمصلّين ، وهو يتألف اصلا من قاعة (١) ، ومعبد (٢) وقدس الأقداس (٣) الذي لم يكن يسمح الا لرئيس الكهنة بالدخول اليه . والمخطط المرسوم مجرد رسم تخيلي .

٥





(٥) ـ كان الفصح ، وهو العيد الذي يحيي ذكرى خلاص العبرانيين من السبي في مصر ، يفتتح بالنفخ في قرن كبش . وهو أهم عيد لديهم .

نقشت على الحجر وحفظت فيما بعد في « تابوت » أو صندوق هو « تابوت العهد » . لكن « شريعة التوراة » الأطول والمؤلفة من « خمسة أسفار » تنسب الى موسى نفسه ايضا ، وان سجلها الأحبار بعد القرن السابع ق . م .

أهم ملوك اسرائيل

اعتبر داود دوما عبرانيا مثاليا ، يأتي في المرتبة الثانية بعد موسى . وكان اداريا بارعا (١) ، وشاعرا ، حتى لقد نسبت اليه كتابة عدد من المزامير .

ورث سليمان الملك عن أبيه داود وذهب الى ابعد الحدود في اعطاء المملكة مظاهر العظمة والبذخ والترف . وهو الذي بنى الهيكل (٢ ، ٤ ، ٧) الذي عرف باسمه ، ووضع فيه « تابوت العهد » .

بعد وفاة سليمان طفح كيل النقمة ،

٦

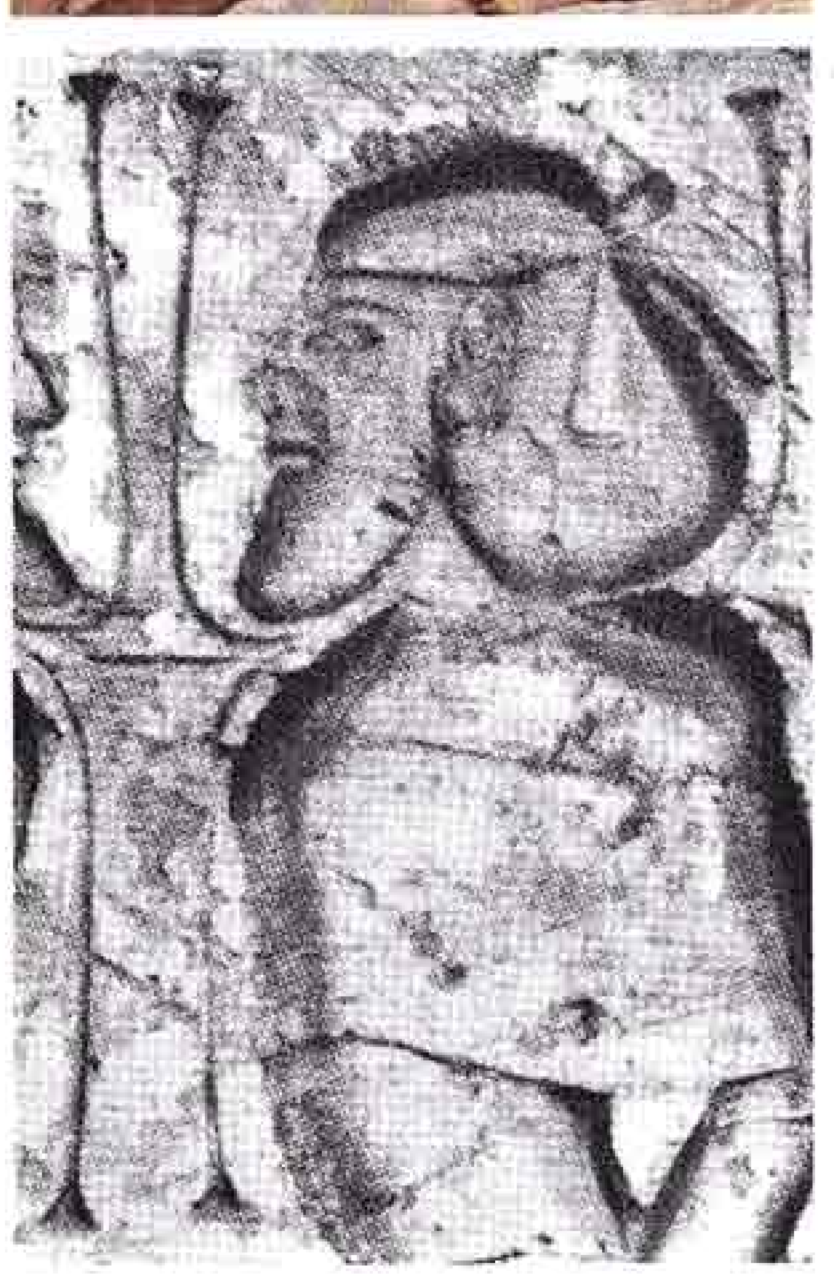
(٦) - التوراة أو العهد القديم ، في النسخ المتداولة اليوم ، تحوي الأسفار الخمسة للشريعة ، مع أسفار أخرى تتضمن التاريخ اليهودي وبعض المزامير والأمثال والأناشيد الدينية . يضاف اليها اخبار وكتابات الانبياء من أشعيا الى زكريا وملاخي ومجموعها ٣٩ سفرا وقد سجلها أحبار اليهود بين القرنين ٧ - ٢ ق . م . في الصورة نسخة قديمة من التوراة يقال انها تعود الى القرن ١٨ .

٧



(٧) - يظهر في الرسم شمعدان بسبع شمعات ، من النوع الذي كان يستعمل في الهيكل في اورشليم . وجد هذا الشمعدان على قوس طيطس في روما ، الذي بني بعد تدمير اورشليم على يد الرومان سنة ٧٠ م .

٨



(٨) - أسير كنعاني يقاد أمام فرعون . وتوجد هذه الصورة في معبد رعمسيس الثالث بمصر . كان الكنعانيون يشبهون العبرانيين من حيث المظهر ، اذ كانوا جميعا من الساميين وكان لهم أنوف رقيقة وشعر ولحى طويلة .

فانقسمت المملكة، التي لم تدم سوى مائة سنة ، بصورة نهائية الى قسمين . احتفظ ابن سليمان الضعيف ، رحبعام ، بالقسم الجنوبي من المملكة المحيطة باورشليم فقط في مملكة عرفت بيهوذا . بينما انفصل عنه ، في منطقة الجليل ، السامرة ، أخوه يربعام على رأس عشر قبائل (أسباط) مؤسسا المملكة الشمالية التي دعيت اسرائيل . وكان للمملكتين معبدان متنافسان في دان وبيت إيل . شهدت القرون اللاحقة نزاعا مستمرا بين مملكتي يهوذا واسرائيل ، الى ان تم تدمير المملكة الشمالية على يد سرجون الثاني ملك اشور عام ٧٢١ ق . م وتشتت اسباطها العشرة بلا رجعة .

تميز تاريخ المملكتين العبرانيتين باختلاف تام في نوع الحياة الاقتصادية لكل منهما ، وبتأثر كل منهما بالحضارات المجاورة الكنعانية والفينيقية والمصرية . يجدر بالذكر كذلك ان أشهر ملوك اسرائيل ، واسمه عمري (٨٨٥ ـ ٨٧٤ ق . م) كان من أصل عربي نبطي ، وهو الذي بنى السامرة عاصمة له .

بعد زوال مملكة اسرائيل ، استمرت مملكة يهوذا في الوجود ١٣٥ سنة . لكنه كان وجودا شكليا خضعت خلاله دوما لنفوذ الممالك المجاورة ، مثل فراعنة مصر وملوك أشور ، حتى سقطت أخيرا تحت ضربات ملك بابل (نبوخذ ناصر) الذي سبى معظم زعمائها وساقهم الى بابل عام ٥٨٦ ق . م وشتت سكانها .

بالحقيقة لم تمارس هاتان المملكتان استقلالا حقيقيا الا لفترات قصيرة ومتقطعة ، وما قصة الأرض الموعودة ، بعد السبي ، سوى ادعاء لا يستند الى أي حقيقة تاريخية .

الانبياء وعقيدة التوحيد

رافقت هذه الاحداث السياسية نشاطات « الانبياء » العبرانيين . كان هؤلاء رجالا متحمسين للدين ، لا تربطهم احيانا اية صلة بديانة زمانهم الرسمية ، بل كانوا في الغالب ينتقدونها . من أوائل هؤلاء صموئيل الذي كان كاهنا وعرافا وصانعا للملوك . كذلك نذد « ايليا » وخادمه ورفيقه « اليشع » بانبياء بعل الكاذبين .

وقد تلا هؤلاء عدد آخر بين القرنين الثامن والسادس ، ولم تلبث دعوتهم أن دونت خطيا . وعظ عاموس وهوشع في بيت إيل وفي اسرائيل وتنبأ الاثنان للشعب الاسرائيلي بالدمار الكامل . كما وعظ ميخا واشعيا (٣) في يهوذا . ونادى هؤلاء الرجال جميعا بوحدانية الله ومطالبته البشر بالسلوك السوي ، وهو تعليم يدعى « الوحدانية الخُلُقية » . وبفضل تأثير هذه الدعوة ، اتخذ الملك يوشع عام ٦٣١ ق . م سفر « التثنية » أساسا لشرائعه الجديدة ، وأزال المعابد المنافسة ، وحصر العبادة في اورشليم وحدها موطدا فكرة ان اليهود شعب يهوه المختار . وقد ظهر ارميا في اورشليم قبل سقوطها عام ٥٨٦ ق . م ينذر بالكارثة المحتومة ويبشر بديانة اكثر باطنية تقوم على عهد جديد مع الله ثم رحل الى مصر . بينما ذهب حزقيال الى بابل وهو يندد بالوثنية . وفي بابل ، ومن خلال ضيق اليهود بالأسر ، ورغبتهم بالعودة الى فلسطين ، ظهرت لدى المتنبئين اليهود فكرة « أرض الميعاد » وأن الإله منحها لهم .

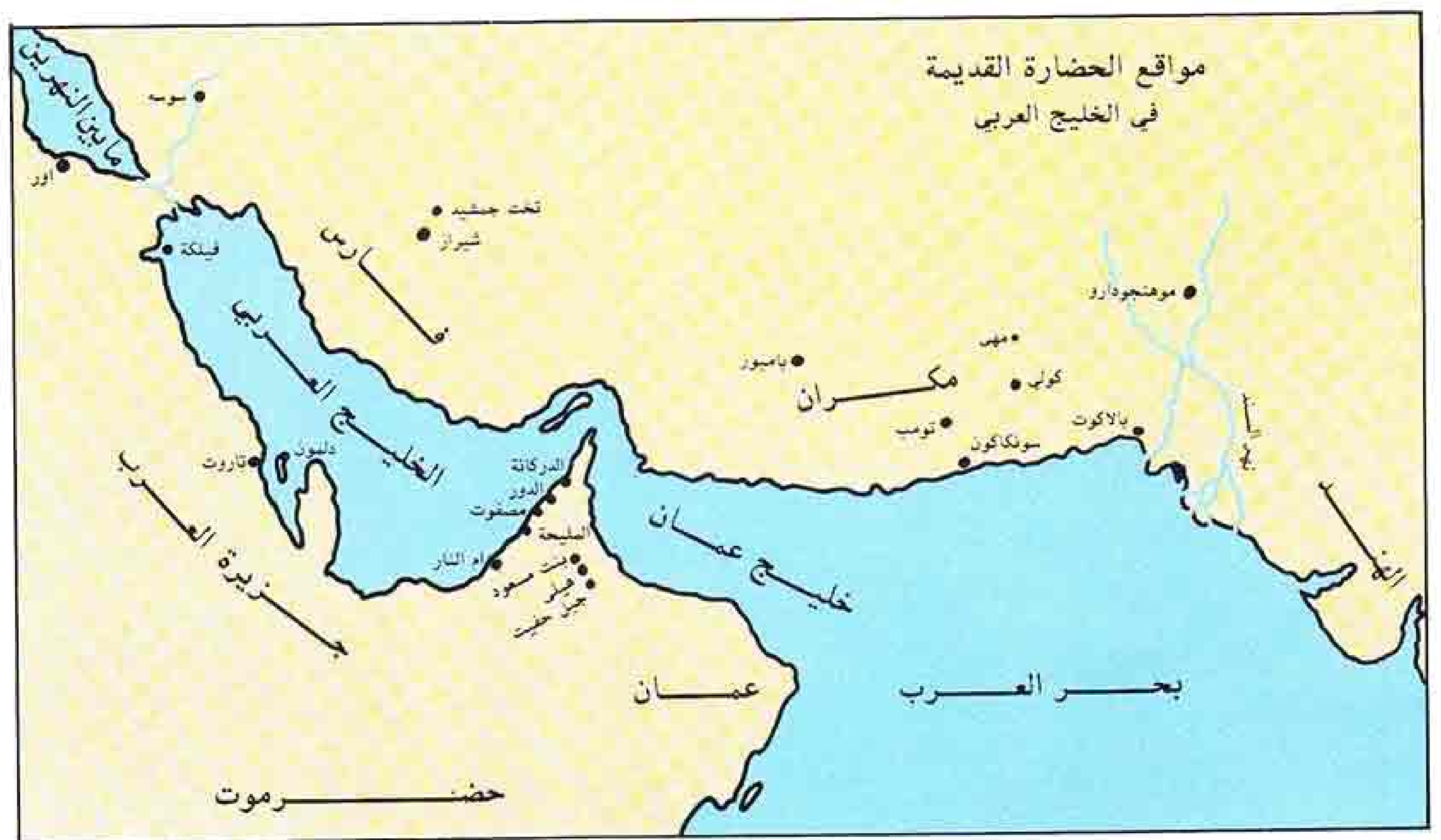
العرب الأقدمون (١)

بلاد العرب اسم يطلق على شبه الجزيرة الكبيرة التي يطوقها الخليج العربي وخليج عمان من الشرق ، وبحر العرب من الجنوب ، والبحر الاحمر من الغرب ، وتمتد في شمالها بادية ثلاثية الشكل تسمى بادية الشام .

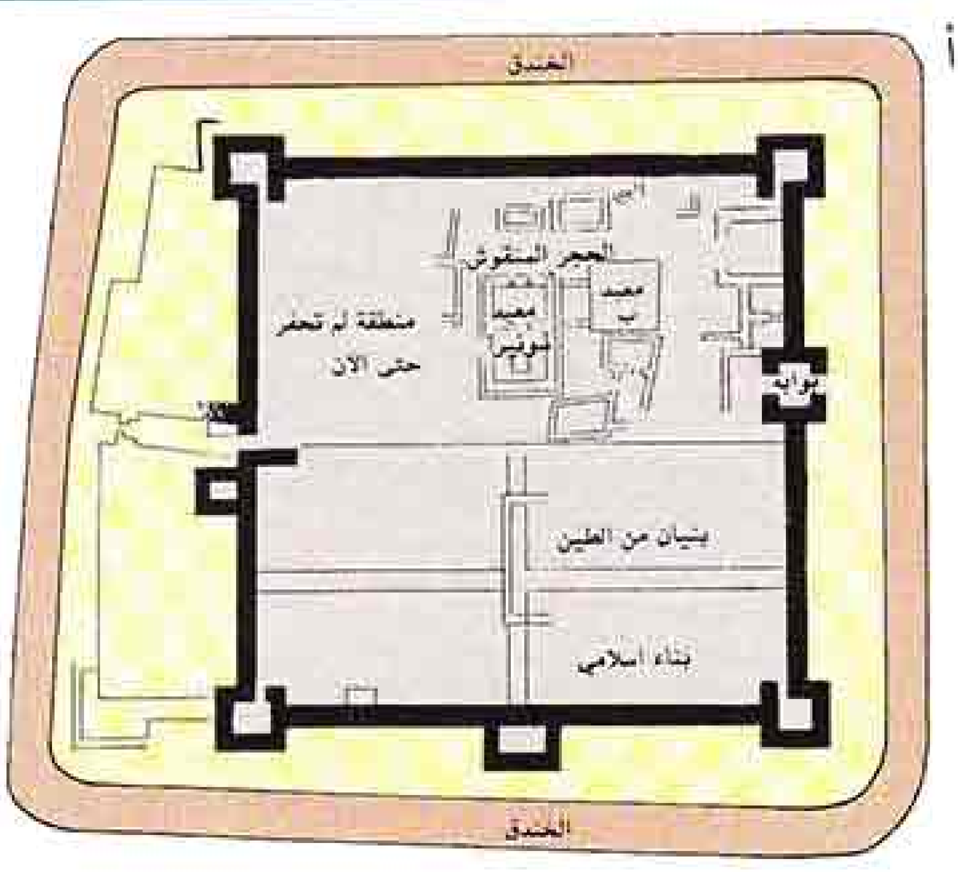
لذلك يسمي العرب بلادهم بالجزيرة العربية .

أطراف الجزيرة جبلية مرتفعة الا في شواطىء الخليج ، وفيها حرات بركانية . وتمتد في وسطها هضبة نجد التي تطيف بها بعض الصحارى الرملية ، وبعض الأودية العرضانية الجافة . يتعرض جنوب الجزيرة وشرقها للامطار الموسمية التي سمحت بظهور حياة زراعية مبكرة على السفوح وفي الأودية

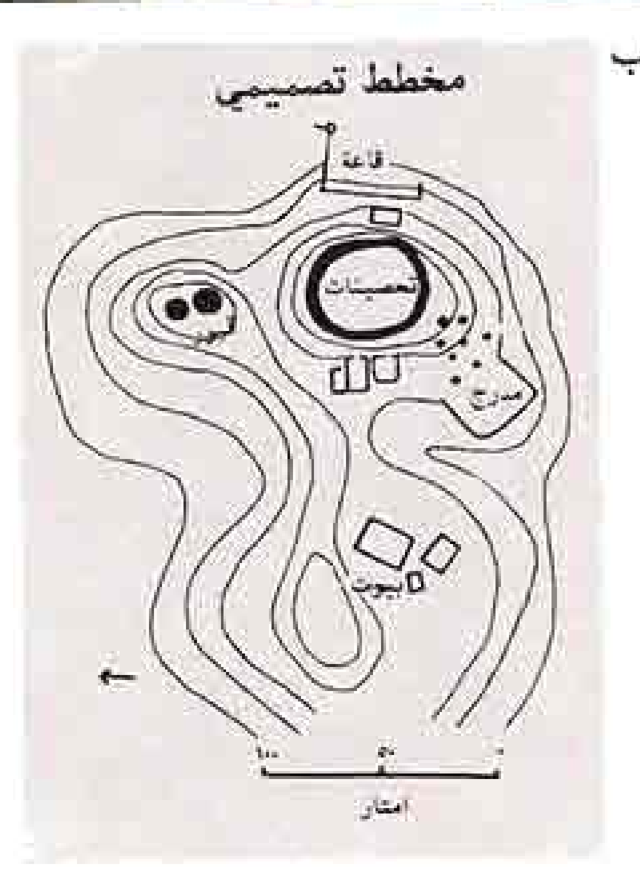
١



٢ أ



ب



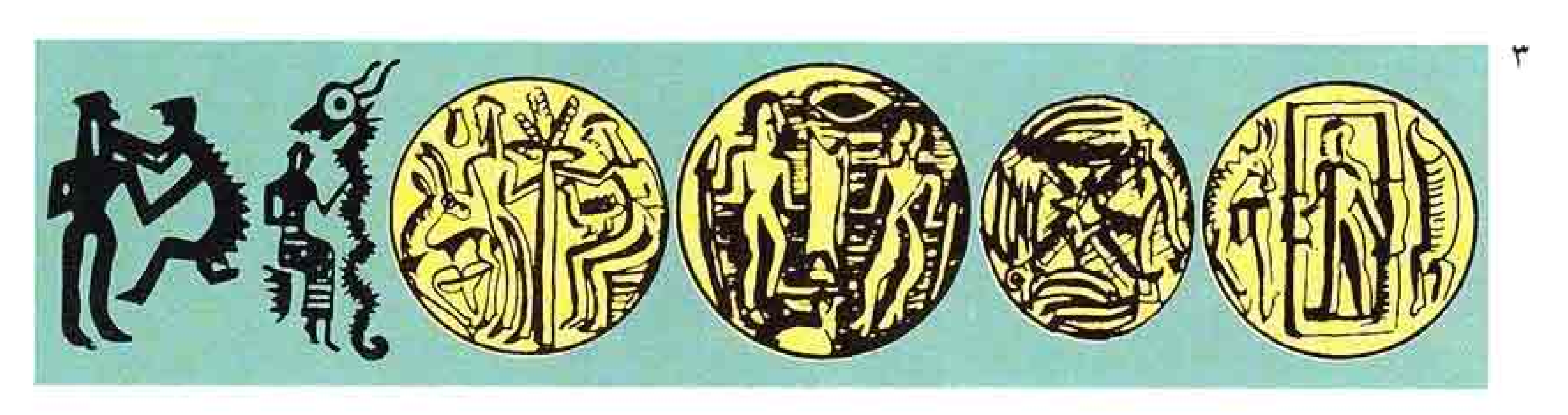
(١) ـ تعددت مواقع الحضارة في الخليج العربي على ساحليه الغربي والجنوبي . توخي الأمن جعل الجزر مثل فيلكه . تاروت . دلمون . هي المراكز المفضلة للتجار بالاضافة الى المواقع المحمية كالجرعاء . أما جنوب الخليج فان كثرة تداخل الساحل مع البحر سمح بظهور مراكز حضارية ساحلية مثل أم النار وهيلي .

ما بين عمان واليمن ، بينما يسود الجفاف معظم الجزيرة وتنتشر الواحات في الحجاز ونجد والاحساء (١) .

الأرض والتاريخ الأقدم

كانت المناطق الجبلية والواحات مستقرا للتوطن البشري المبكر ، ولقيام نشاط زراعي وأعمال مطـردة التطـور من الري والبنـاء والحيـاة الاجتماعيـة ، بينمـا كـان جفـاف المناطق الباقية لا يسمح بأكثر من ظهور حياة الرعي والتنقل البدوي . لكن موقع الجزيرة الجغرافي بين مناطق الحضارات القديمة جعلها منطقة طرق تجارية هامة على الدوام . هكذا كان سكان الجزيرة عبر القرون ذوي نمطين من الحياة : حياة حضرية مستقرة قوامها الزراعة والتجارة والحرف وحّدتها القرية والمدينة ، وحياة رعوية متنقلة وحّدتها القبيلة التي تعمل ايضا على النقل

٣



٤



(٢) ـ كان السلوقيون يسمون جزيرة فيلكة ايكاروس ، ويتخذونها محطة تجارية ومركزا دينيا معا . وجدت فيها آثار ثلاثة معابد على الأقل ذات طراز هليني سواء في الأعمدة والواجهة أو في المذبح وطريقة البناء الحجري أو في التماثيل والكتابات الاغريقية . ويبدو انه كان للجزيرة حاكم وفرقة دفاع . فقد ظهرت فيها أطلال قلعة (أ) مربعة الاضلاع (٢٠٠ قدم) ذات أسوار وأبراج وخندق ولها بوابتان وفي داخلها معبدان وتعود الى القرن الثالث ق . م . وقد بنيت فوق موقع سكني يعود في القدم الى الألف الثالث ق . م . الصورة (ب) مخطط لواحدة من مئات المستوطنات القديمة في وديان عمان . بقاياها الأثرية تعود ايضا الى الألف الثالث والثاني ق . م . منها آثار مدينة مدورة قرب بات . فيها فخاريات كثيرة ، وأدوات نحاسية وبرونزية .

---

(٣) ـ تشكل الأختام جانبا من اللقى الأثرية التي يقدرها الأثريون في الشرق القديم ويستخرجون منها المعلومات الكثيرة . هي في الأصل محاولة لاعطاء الشكل الرسمي وللتوثيق بين التجار في مواقعهم المتباعدة . منها الشكل الاسطواني الذي يدرج درجا على الطين ومنها الختم المدور أو المربع الذي يبصم بصما . اختلاف الرسوم على الاختام وما تقصه من القصص وتعبر عنه من المعتقدات يجعلها من مصادر التاريخ .

(٤) ـ وجدت في جزيرة فيلكا ، بين اللقى الأثرية من الفخار والتماثيل والأختام والقناديل مجموعة حسنة أيضا من النقود . تم اكتشافها بالقرب من معبد سوتر ، في الجزيرة ، وهي ترجع الى العهد السلوقي . من هذه النقود ـ وهي فضية في معظمها ـ هذان النموذجان . يظهر علـى أحـد الوجهـين صورة كبير المعبودات زيوس وعلى الوجه الآخر صورة هرقل .

التجاري مستخدمة فيه الحمير في القديم ثم الحصان والجمل منذ الألف الثاني ق . م .

كان التنائي بين البلاد التي تتوسطها جزيرة العرب ، وتنوع المنتجات فيها من اسباب تميز التجارة العربية على الدوام بالندرة والقيمة والشهرة بالتوابل والبخور واللبان والمر والقرفة والطيوب . وهذا ما كان يعطي الجزيرة ، على حد قول هرودوت ، نكهة الهية .

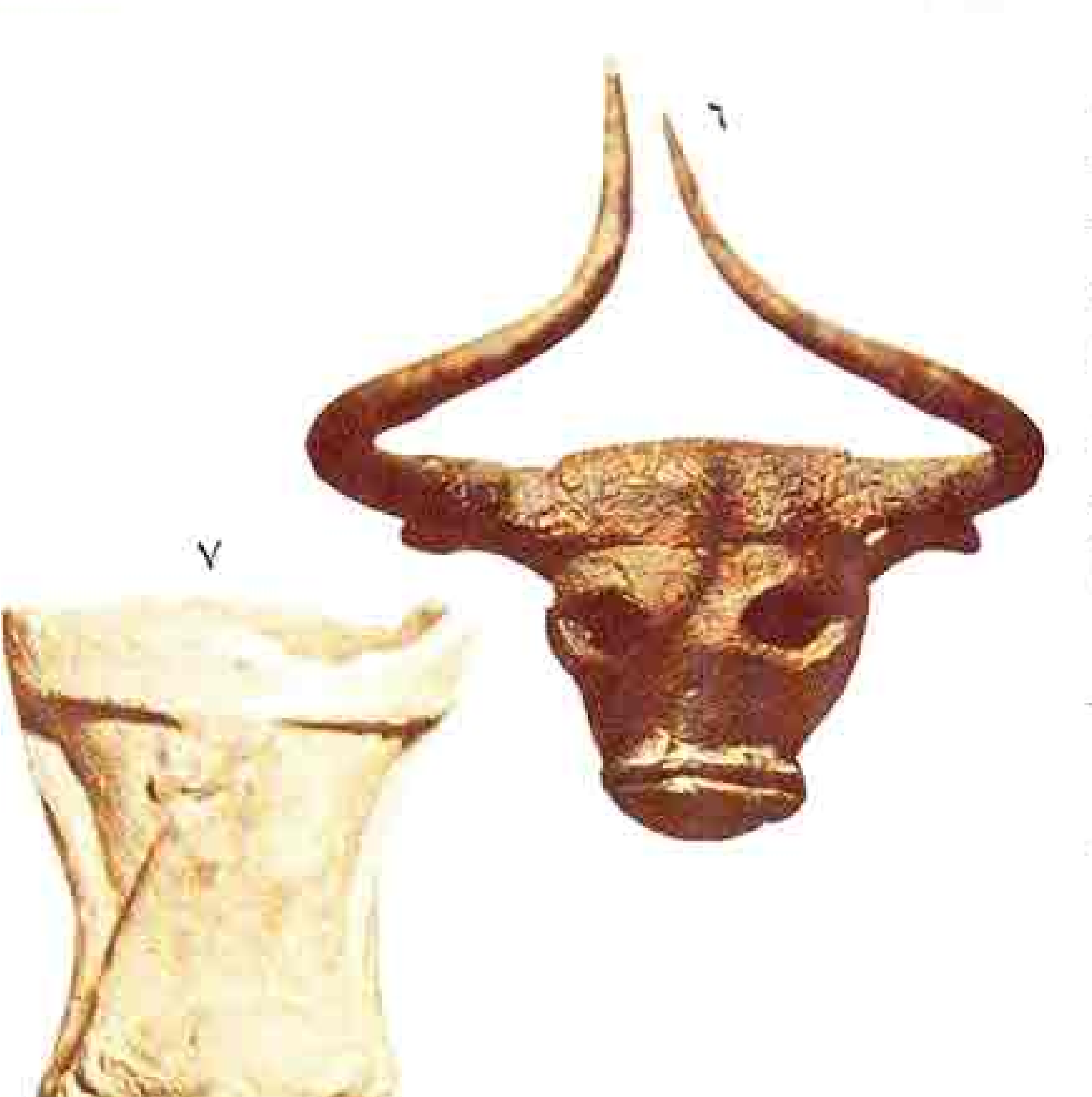
التاريخ الأقدم للجزيرة مجهول في معظمه . اصطلاح « العرب البائدة » الذي استخدمه النسابون الاسلاميون ليدلوا به على الجماعات العربية القديمة التي انقرضت ، لا يقدم سوى معلومات اسطورية عن العهود القديمة .

الأخبار التاريخية عن العرب الأقدمين كانت ، حتى عهد قريب ، لا تجاوز بعض المعلومات عن اليمن القديمة منذ القرن العاشر

٥

(٥) - صنع الفخار قائم في جميع الحضارات القديمة . والتفنن في أشكاله واتقانه وتزيينه هو الذي يميز حضارة عن أخرى كما يكشف العلاقات الانسانية بين الحضارات . في الأشكال المصورة نماذج من الفخار ومن زخرفته في الخليج العربي القديم .

(٦) - اذا كان لحضارة دلمون طابعها التجاري ، وكانت القبور تطغى بأعدادها على آثارها الأخرى ، فالموتى هم الجانب المسيطر ، فقد كان لها ايضا وجهها الديني ومعبوداتها ونظامها الاسطوري الذي تمتزج فيه رموز الفلك . كالثور (الصورة) مع العبادات الشرقية والهندية القديمة . ثمة بجانب ما يسمى اليوم قلعة البحرين بقايا معبدين أقيما للمعبودين بربار وديراز ، اللذين يظهر فيهما المزج بين الأفكار الدينية في حوض السند وما بين النهرين .



(٧) - صنع هذا التمثال من الطين المحروق على هيئة مبخرة . وهو واحد من عدد من التماثيل المحطمة التي أخرجت من معبد سوتر . وجدت في بعض المساكن الواسعة (ولعله كان مصنعا للاهداء الى الآلهة كننور) قوالب عديدة . أمكن استخراج بعض النماذج من تماثيلها .

ق . م ، ثم بعض المعلومات المتناثرة عن الجاهلية ومكة قبل البعثة النبوية . غير ان اعمال المسح الاثري والتنقيب الأخيرة أضافت الى تاريخ الجزيرة الأقدم فصولا جديدة أوغلت به ألفين الى ثلاثة آلاف سنة في الماضي أيضا .

شرق الجزيرة العربية ومملكة دلمون

الجوانب الشرقية من الجزيرة كانت ، بسبب موقعها وأمطارها ، قديمة الاستيطان والتحرك الحضاري . آثار الخليج العربي وعمان تكشف ان هذه المناطق كانت موطن جماعات بشرية استقرت وأقامت الحضارة منذ الألف الرابع ق . م ، حتى عصر الميلاد ، وكانت صلة الوصل ما بين حضارات حوض السند وحضارات الرافدين القديمة . أدلة ذلك نجدها في الكشوف الأثرية العديدة على امتداد الخليج . في جزيرة (فيلكة) بالكويت ، عثر على أعداد من المعابد (٣) والأبنية (٢) والتماثيل (٧) والأختام (٣) والنقود (٤) يمتد تاريخها على ٣ آلاف سنة ق . م ، ونجد آثارا مماثلة في جزيرة تاروت وتلال مستوطناتها الهلينية بالاحساء ، وفي بلدة ثاج الداخلية التي كشف فيها ، وبالقرب منها ، عن مدينتين ذواتي طابع سلوقي لاحداهما سور ضخم (٩٠٠ م) . بالاضافة الى موقعي دارين والجرهاء المشهورين هناك .

أما البحرين ، وهي أهم المواقع ، فالمؤرخون يعرفون فيها دلمون الواردة في الكتابات المسمارية . وفيها مواقع أثرية عديدة رغم صغرها . منها موقع بربار الذي وجدت فيه بقايا فخارية (٥) وأسلحة وتماثيل ومعابد وحلي . ومنها قلعة البحرين التي كشف عندها عن ست مدن تتطبق بعضها فوق بعض . أقدمها من الألف الثالث ق . م . ومنها تلك المدافن المنتشرة في شمال جزيرة البحرين والتي تزيد على مائة الف مدفن من عصور مختلفة .

كانت مملكة دلمون تشمل الاحساء وشواطىء الامارات ، على مدى عشرين قرنا . رغم ذلك ، فتاريخها غامض . بدأت مملكتها القديمة حوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م . وفي ايام حمورابي ظهرت مملكتها الوسطى . منذ أواسط القرن ١٣ يظهر ما يسمى بالمملكة المتأخرة . حوالى القرن الخامس طغت عليها سيطرة الاخمينيين على الخليج . معتقداتها الدينية مزيج فيه الأثر الهندي (٦) .

المواقع الأثرية في عمان

اذا تجاوزنا مواقع مماثلة في أم النار وهيلي (في الامارات) الى سواحل عمان ، وجدنا بعثات المسح الاثري تكشف على امتداد الوديان الكثيرة عشرات المستوطنات البشرية ، من الألف الثالث حتى الألف الأول ق . م ، معظمها قرى ذات بناء مركزي مسور بالحجارة الضخمة (٣) . تدل آثارها على أنظمة زراعية متقدمة بنيت لها الأبراج والسدود . وفي بعضها مواقع للتعدين وصهر النحاس ، مع شواهد عديدة للعلاقات التجارية .

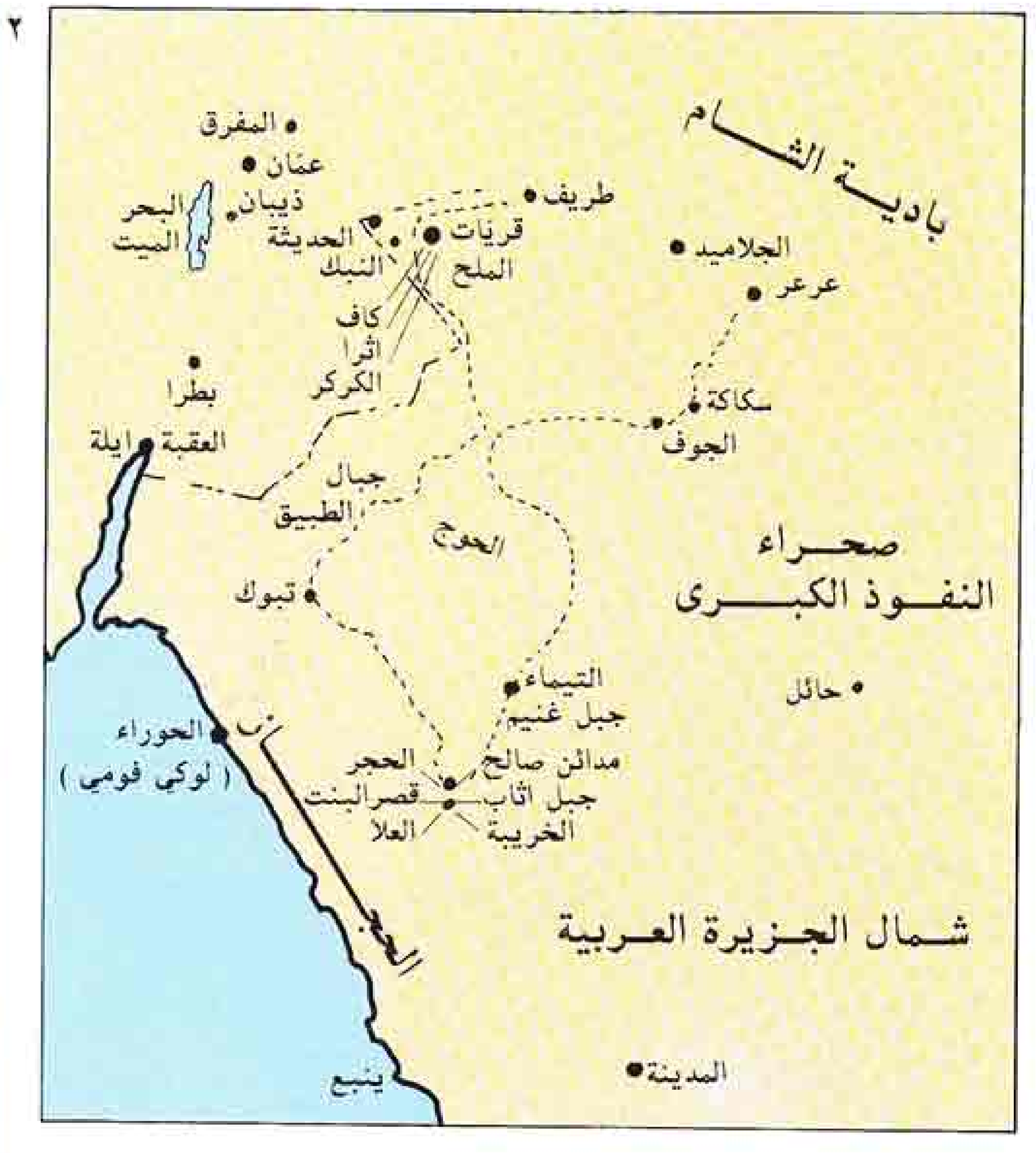
تميزت كل مواقع الحضارة في الخليج وعمان بالملاحة التجارية وبعلاقاتها مع حوضي السند والرافدين . وكانت سفنها تحمل الذهب والفضة والاحجار الكريمة والاصداف والنحاس والنسيج واللؤلؤ والأواني الفخارية والحجرية والتمر .

العرب الأقدمون (٢)

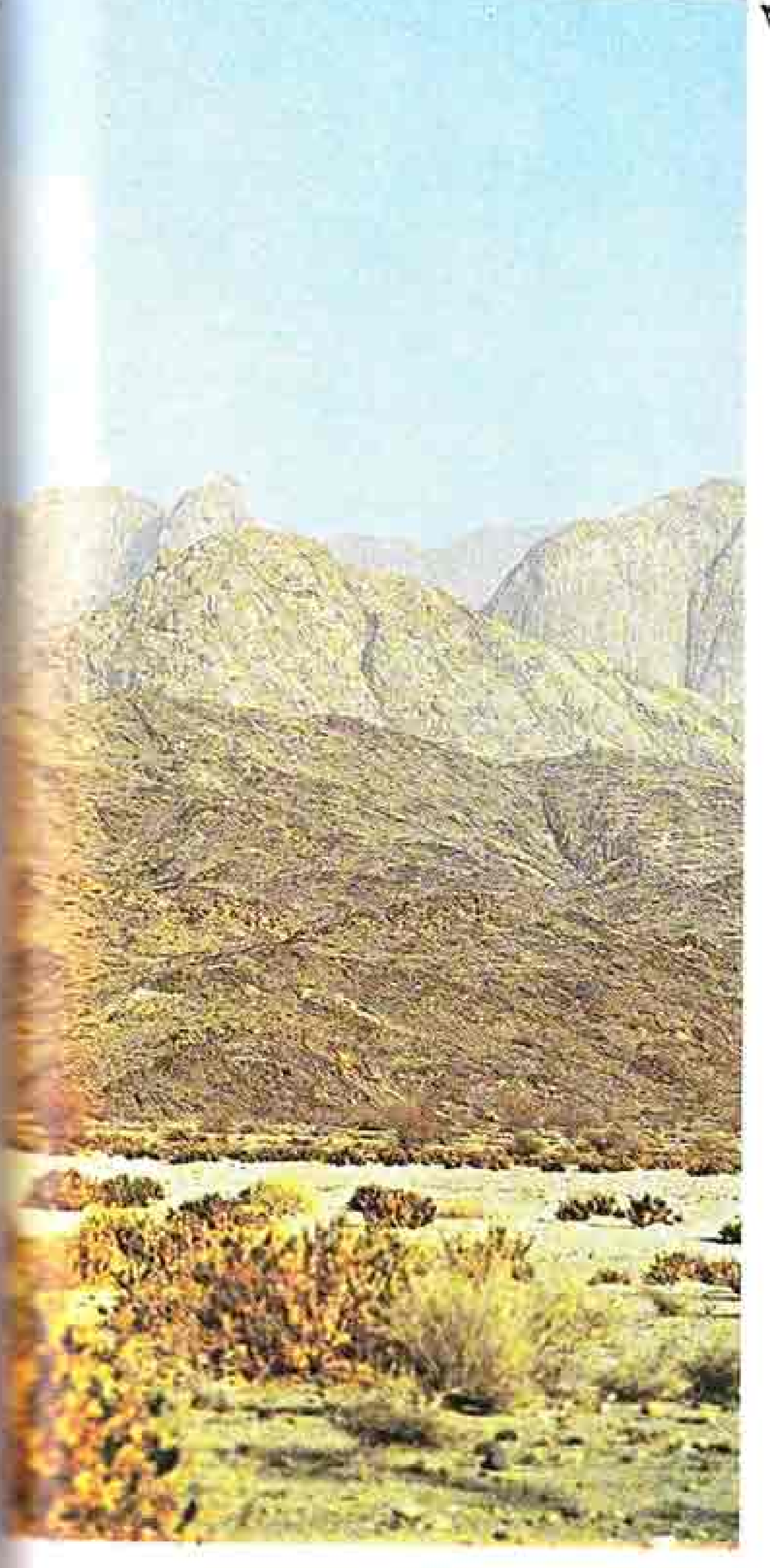
أقدم نص أثري ورد فيه اسم العرب هو حتى الآن اللوح المسماري الذي تركه الملك الآشوري شلمانصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) ، وذكر فيه انتصاره سنة ٨٥٤ ق . م على تحالف ملوك آرام ضده بزعامة بن حدد ملك دمشق ، وذكر أن من غنائمه في المعركة ألف جمل من جنديبو من بلاد العرب .

لكن الوجود العربي هناك أقدم من ذلك بكثير . نرى ملامحه خلال الألف الثاني ق . م في قصة ابراهيم واسماعيل وبناء البيت مثلا وفي قصة موسى وزواجه في مدين . في الألف الأول ق . م نجد في شمال غرب الجزيرة بين الحجاز والشام (١) المجموعات البشرية الآتية :

١



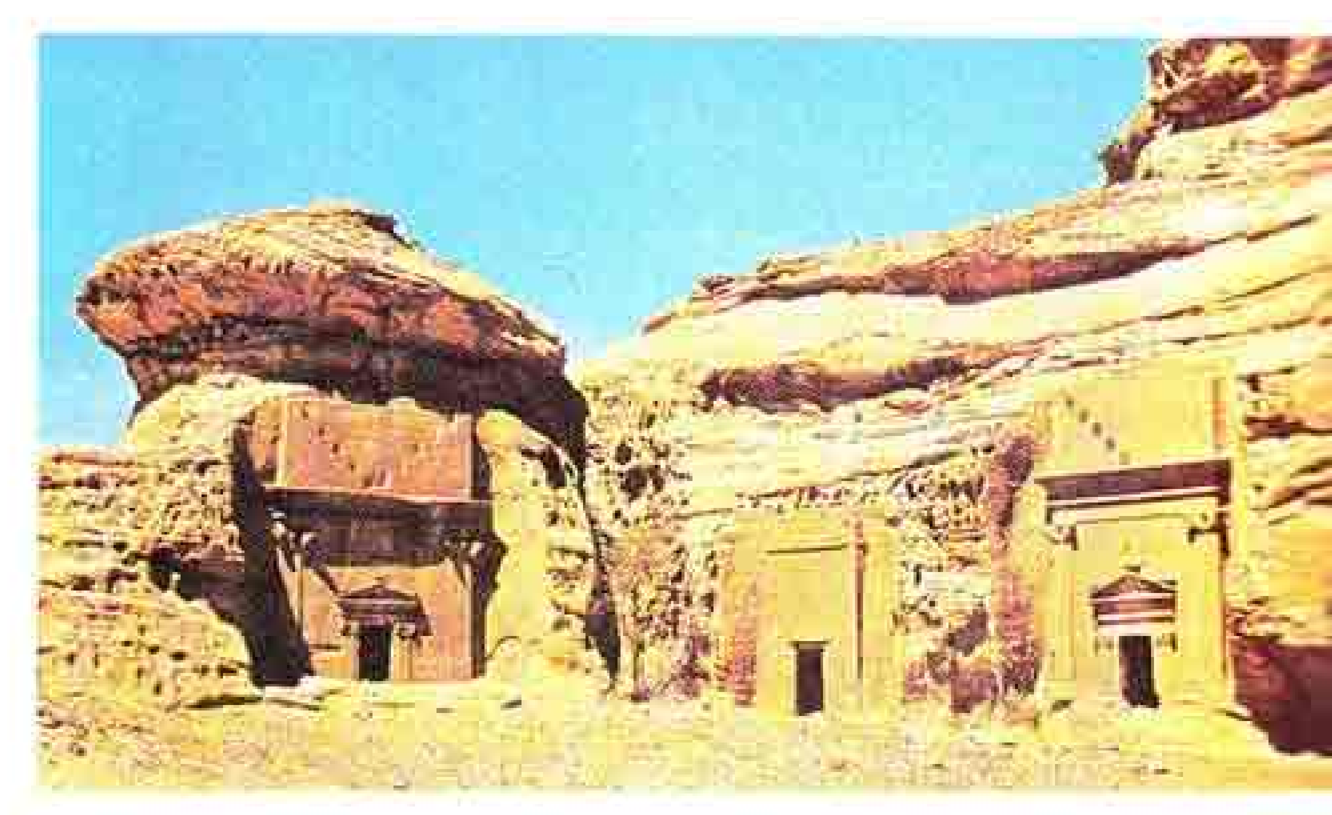
٢

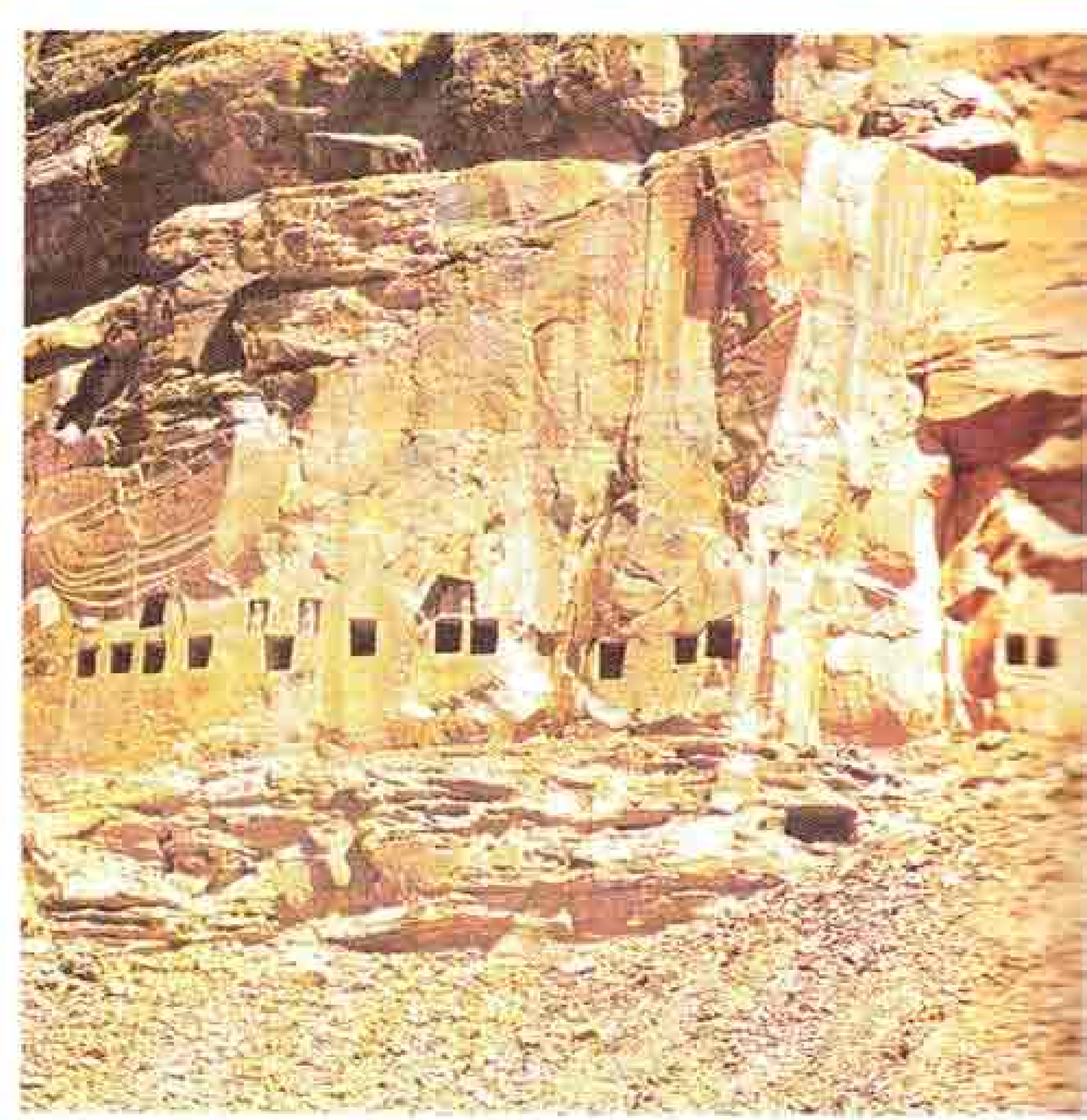


(١) - كان اتجاه شمال الجزيرة ، على العموم ، نحو العراق وبلاد الشام ، وان لم ينفصل عن جنوبها . وكانت الدول والشعوب التي قامت هناك تعتمد على التجارة أصلا ، وعلى الزراعة المحدودة . ومع ذلك قامت لديها حرف خاصة في الواحات التي اشبهت قراها المدن مثل تيماء ويثرب وبترا . كان شمال الجزيرة يعتمد ثلاثة موانىء تقع على البحر الأحمر . وهي العقبة (ايلة) والحوراء (لوكي فومي) وينبع . يضاف اليها ميناء مكنا (البدع) . لكن تجار شبه الجزيرة الشماليون كانوا يفيدون من موانىء

١ ـ المملكة العربية الأولى (آدوماتو) :

النص الآشوري السابق يشير الى جماعة عربية اسمها آدوماتو ، كانت في (الجوف) في القرن التاسع ق . م . هذه البقاع جبلية جرداء (٢) ومقفرة لولا بعض الواحات القابلة للسكنى . الوجود العربي فيها أقدم دون شك من هذه الاشارة . بقي ذكر هؤلاء العرب يتردد بعد ذلك في النصوص الاشورية التي يمتد تاريخها ما بين سنة ٨٥٤ حتى سنة ٦٢٦ ق . م (نقوش آشور بانيبال) . يرد بجانب اسم « العرب » أيضا أسماء جماعات عربية أخرى : السباي (سبأ) ، وتمأي (تيماء) ، وثمود ، وعباديد ، ومارسمعانو والانباط ، وقيدار ... تكشف النصوص ان من تسميهم بالعرب كانوا أسياد منطقة الجوف (دومة الجندل) ويقيمون مملكة لها نظامها وملوكها وجيوشها وقصورها ، وتعقد معاهدات السلم والتحالف مع جيرانها ، ولها ثرواتها





الخليج ، وبشكل خاص الجرهاء (العقير حاليا ؟) .

تتضح على هذه الخارطة الأماكن الرئيسية في شمال الجزيرة ، مع اشارة الى الطرق التجارية التي كانت تصل بين العلا والمدن التجارية في العراق وبلاد الشام .

---

(٢) ـ بلاد الحجاز ، التي تحجز تهامة عن نجد ، منطقة جبلية جرداء . فالجبال الصخرية المرتفعة لا نبات يكسوها ، والسفوح الواطئة فيها نباتات شوكية . ومع ذلك ففي الحجاز واحات عديدة ، صارت محطات هامة للتجارة منها مكة والمدينة ومنها العلا ومداين صالح وتبوك وكان الحجاز طريق التجارة البري الرئيسي بين اليمن وبلاد الشام . الصحارى المطلقة في الجزيرة هي الربع الخالي وصحراء النفوذ .

---

(٣) ـ جاءت مدائن صالح في القرآن باسم الحجر ، بوصفها حاضرة ثمود . بقاياها الأثرية ترجح وجودها قبل الألف الأول ق . م . كان حولها عدد من المستوطنات كالقُريَّة التي اشتهرت بالفخار . في المنطقة كهوف ومقابر منحوتة في الجبال الرملية . على واجهاتها نقوش وصور ورؤوس خرافية يعود بعضها الى القرن الثاني قبل الميلاد . كانت مدائن صالح متصلة أيضا بالبحر عن طريق ميناء باسمها (الوجه حاليا) .

---

(٤) ـ كانت العلا أحد المراكز الهامة للتجارة في شمال الجزيرة وبخاصة في أيام الأنباط . وقد كان فيها ، فيما بعد ، مركز مكوس بيزنطي للتجارة القادمة من الجنوب . كان لوجود الماء في واحة العلا أثر كبير في اختيارها نقطة اتصال تجاري . تعرف العلا اليوم باسم الخريبة ، وترى في الجبال المطيفة بها آثار ومقابر عديدة ، بعضها من العهد المعيني وبعض من عهد الأنباط عدا المخربشات الكتابية .

الضخمة من الابل ، كما كانت عاصمتها آدومو (دومة الجندل) محطة قوافل ملأى بالبضائع التجارية الهامة . كان هؤلاء العرب متصلين بأحداث السياسة حولهم ، وقد تحالفوا مع القوى الاخرى ضد القوة الآشورية التي كانت تسيطر على عقدة الطرق التجارية شمال الشام، وتفرض الضرائب والنهب على الشعوب الاخرى . كان اشتراك جندب في حلف دمشق وموقعة قرقر (قرب حماه) ضد شلمانصر الثالث سنة ٨٥٤ أحد التحالفات للدفاع عن طريق التجارة نحو الاناضول . وقد تلته تحالفات أخرى عديدة من مثله ، كان أخطرها اشتراك هؤلاء العرب في ثورة بابل حوالى سنة ٧٧٥ ضد آشور بانيبال .

كان للمرأة مكانها في هذه الجماعات العربية . فقد وردت أسماء عدة ملكات لديها ، منهن شمس وزبيبة وسمورامات (سميراميس) وباتعة . وكن يحكمن مع



٥ ٦أ ٦ب ٧أ ٧ب

(٥) - رغم كثرة النقوش والكتابات الثمودية كثرة هائلة تبلغ عدة ألوف ، ورغم انتشارها في مناطق واسعة جدا تمتد من اليمن الى عمان الى العراق والشام ومصر . فان العلماء يسمونها « مخربشات » لقيمتها المحدودة . ولأنها عبث كتابي أكثر مما هي كتابة منظمة . فهي لا تحوي أكثر من بعض الاسماء والأدعية للمعبودات . كما ان الكتاب الذين نقشوها كانوا تجارا عابرين هنا وهناك وسجلوا هم أو عبيدهم الاسماء والرسوم التي خطرت ببالهم في أي مكان اتفق أن وقفوا عنده . مع ذلك فبعض الكتابات تفيد في معرفة معبودات ثمود وطرقها التجارية ولغتها وأعمالها .

(٦) - كانت الأختام تستعمل بين التجار لجعل ما يتراسلون به رسميا . بعضها كان على شكل اسطوانة منقوشة تدرج درجا على الطين . وبعضها على شكل دائرة أو مربع . الأختام الديدانية تشبه كل الشبه أختام ما بين النهرين ولعلها تقليد لها أو مجلوبة منها . لولا أن بعضها يحمل أحرفا ديدانية .

(٧) - في شمال الجزيرة استعمل اكثر من خط واحد . ومع ان الخط النبطي كان شائعا . فهناك الخط اللحياني الذي نجد نموذجا منه على هذه المسلّة التي وجدت في العلا . وهي من القرن الثالث ق . م . يذكر النقش أسماء أسرة كانت تعبد الاله « ذو غبت » . طول هذه المسلة حول المتر .

وجود أخوة ذكور لهن ، وكنّ يحضرن الحروب ، وكانت منهن كاهنات .

كان قوام تجارة هؤلاء العرب الذهب والفضة والقصدير والحديد وجلود الفيلة والعاج وأنواع التوابل والملابس الصوفية الملونة والكتانية والصوف الازرق والارجواني ، عدا الخيول والبغال والنعاج والحمير والابل .

٢ ـ الثموديون :

هم الشعب الذي ورد ذكر اندثاره في القرآن الكريم . المسح الأثري في مواقع تبوك والعلا (٤) ومدائن صالح وتيماء ووادي السرحان وحائل وجية وجبل رقم قرب العقبة والمناطق المجاورة لها كشف عن آلاف الكتابات والمخربشات الثمودية التي اختلف المؤرخون في تقدير أعمارها . يعيدها بعضهم الى الألف الثالث ق . م . لكن الثابت ان هذا الشعب العربي كان موجودا يحارب سرجون الثاني ملك الاشوريين في القرن الثامن ق . م . كما كان لدى الروم البيزنطيين فرقة حربية منه في أواسط القرن الخامس الميلادي . في ما بين هذين التاريخين كان الثموديون شعب تجارة يسيطرون على طرقها في منطقة انتقالها من الخليج او من اليمن الى الشام ، من خلال عدد من البلدان والمحطات .

كانت لغة الثموديين عربية ، شبيهة بلغتنا العربية ، واشتق الثموديون لأنفسهم ابجدية ثمودية خاصة كتبوا بها . بقيت لنا من كتاباتهم آلاف الكتابات (٥) والرسوم على الصخور والأبنية في مناطقهم .

اندثر الشعب الثمودي كله وتمزق بدءا منذ القرن الرابع الميلادي حتى القرن السادس ، ودخل في المجتمعات البدوية والحضرية التي خلفته في مناطقه .

٣ ـ اللحيانيون :

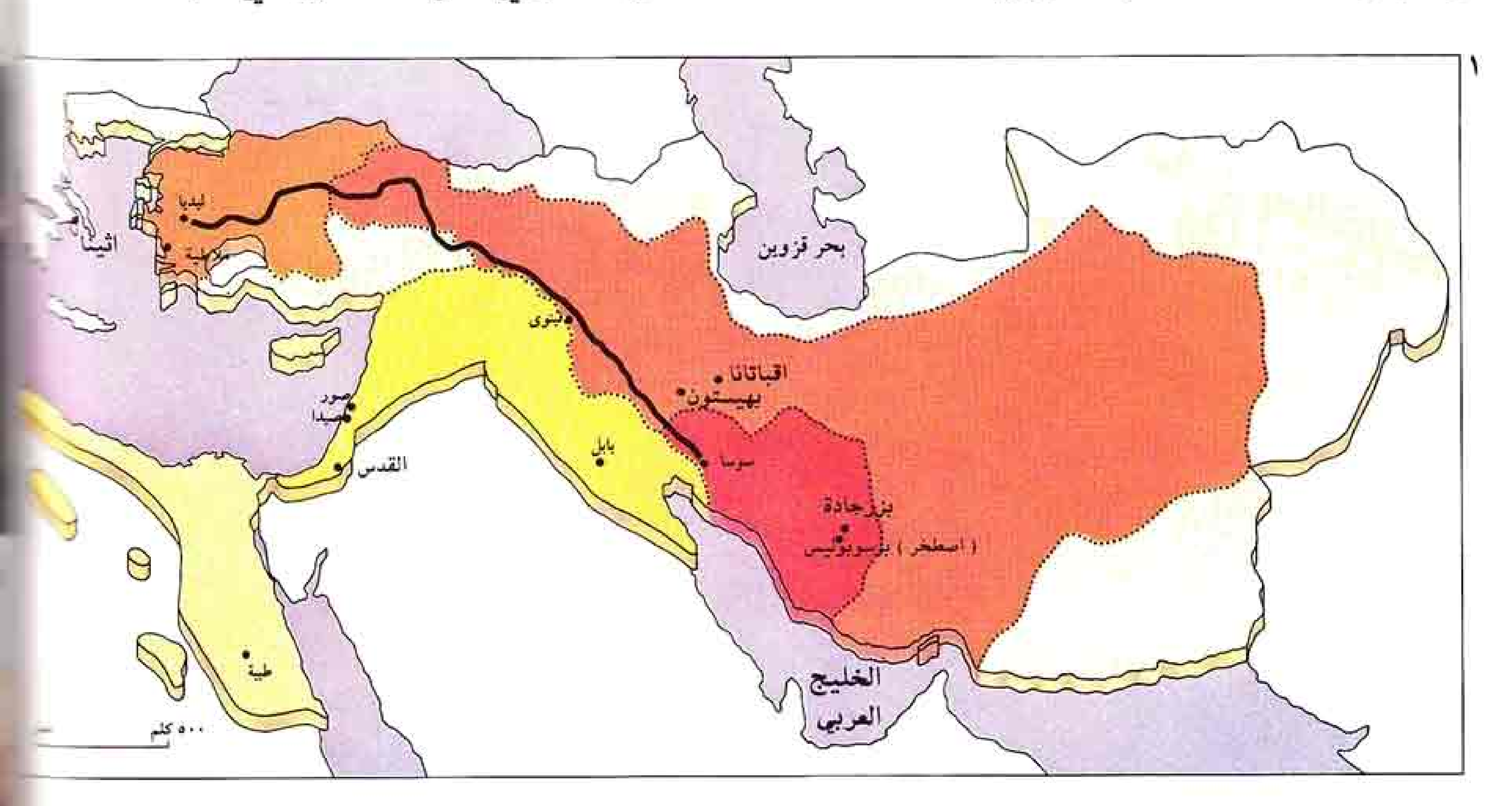
هم شعب عربي آخر قديم لعله من فروع ثمود . عمل بالتجارة مثلها . كانت قاعدته مدينة ديدان (عند مدائن صالح) (٣) التي كانت في الاصل مستعمرة معينية على الخط التجاري الاعظم بين اليمن والشام . لكن اخبار اللحيانيين تذكر ايضا مع المدن الثمودية مثل تبوك والعلا ومدين ودومة الجندل . بعد سقوط البتراء في القرن الثاني للميلاد استولى اللحيانيون على المدينة وورثوا مركزها التجاري . تكشف الآثار اللحيانية والبقايا الفخارية والقبور المزخرفة بالنقوش في بلدة العلا ومنطقتها عن مدنية جاهلية راقية ، وان تكن حتى الآن مجهولة . كان للشعب اللحياني كتابته الخاصة (بين المسند والآرامية) وكانت له صلاته التجارية القوية مع جنوبي العراق . تبرهن على ذلك الاختام اللحيانية المنقوشة بالرسوم البابلية .

تميزت بين المدن الثمودية ـ اللحيانية مدينة تيماء الجبلية التي بلغ من شأنها التجاري ان اتخذها نابونيد (٥٥٥ ـ ٥٣٨ ق . م) آخر ملوك بابل مقرا اقليميا له بعد أن فتحها ، وبنى لنفسه فيها قصرا كقصوره في بابل . ويبدو ان هذا الملك التقي المحب للآثار وجد في تيماء ملجأ له من حملات قورش الامبراطور الفارسي ، فبقي فيها عشر سنوات . وكان مستقرا هناك حين سقط عرشه . من آثار تيماء قصر زلوم وهو الأبلق المشهور في الأدب بقصر السموأل .

أمبراطورية الأخمينيين الفارسية

كانت الامبراطورية الفارسية اثناء فترة ازدهارها بين عامي ٥٥٠ ق . م . و ٤٨٠ ق . م اعظم امبراطورية عرفها العالم حتى ذلك التاريخ ، من حيث المساحة والانجازات . كانت منطقتها المركزية مساحة تضم جزءا كبيرا مما يعرف اليوم بايران وافغانستان ، وبلغ عدد سكانها ٤٠ مليون نسمة ، كانوا يرتعون في ظل قانون موحد ، وينعمون بأنظمة مشتركة للعملة والبريد والريّ ، ويتمتعون بشبكة رائعة من الطرق (١) ، ويوحّد بينهم دين متسامح . ومع ان الاسكندر الكبير كان قد قضى على سلطة السلالة الاخمينية في عام ٣٣٠ ق . م ، فقد عاد النفوذ الفارسي الى الانتعاش في عهد

١



مملكة فارس
الأمبراطورية الميدية التي ضُمّت ٥٤٩ ق . م .
الأمبراطورية الليدية التي ضُمّت ٥٤٦ ق . م .
الأمبراطورية الكلدانية التي ضُمّت ٥٣٨ ق . م .
الأمبراطورية المصرية التي ضُمّت ٥٢٥ ق . م .
الفتوحات اللاحقة حتى ٤٧٩ ق . م .
طرق ملكية

(١) ـ كان يحكم الامبراطورية الفارسية في الحقبة الاخمينية حكام الولايات . ولكي يؤمن دارا الاتصال بين شتى الولايات ، انشأ شبكة طرق بلغ مجموع طولها ٢٧٠٠ كلم . كذلك أقام محطة بريدية ، كانت خيول بديلة تنتظر فيها رسل الملك ، الذين كانوا قادرين على اجتياز الشبكة بكاملها في اسبوع واحد . بينما كان لا بد للقوافل التجارية من ٩٠ يوما لاجتيازها .

(٢) ـ طاسة حسنلو المهشمة المصنوعة من الذهب بمهارة فائقة يظهر عليها رب الطقس راكبا عربة يجرها ثور . كما تظهر عليها ايضا معركة مع هولة . عثر على هذه الطاسة اثناء حفريات التنقيب سنة ١٩٥٨ في قلعة حسنلو في الطرف الشمالي من وادي سولدوز وقد تمسكت بها يدا هيكل عظمي لرجل ربما كان يحاول الفرار من قصر التهمته النيران عندما هوجمت القلعة عام ٨٠٠ ق . م . وهي موجودة الآن في « غرفة الكنز » في متحف طهران .

(٣) ـ بدأ بناء قصر اصطخر (برسيبوليس) عام ٥١٨ ق . م بأمر من دارا ، لكن العمل أنجز في عهد أحشويرش الأول في ٤٨٦ ـ ٤٨٥ ق . م . يعود جانب كبير من عظمته الى وقوعه امام جبل حفر فيه جزء من شرفته الكبرى . كانت الأدراج الرائعة المؤدية الى الشرفة

الامبراطوريتين الاشكانية والساسانية حتى تداعى أمام الامبراطورية العربية الاسلامية في القرن السابع الميلادي .

تاريخ بلاد فارس القديم

بلاد فارس هي الجسر الطبيعي بين اوروبا وآسيا ، ويرقى تاريخها الى ٦٠٠٠ ق . م . وتحتوي على ما يناهز ٢٥٠٠٠٠ موقع أثري (٢) . ألف منها في السهل الواقع أمام برسيبوليس (٣) وحدها . في حوالى ١٥٠٠ ق . م جاء شعب آري من البدو الرحّل من الشمال فأعطى البلاد اسمها : إيران ، أي « بلاد الآريين » . وفي عام ٥٤٩ ق . م ، اتحد احفادهم الميديون مع الفرس في الجنوب ، على يد قورش الكبير الذي أسس بذلك الامبراطورية الفارسية داعيا اياها الامبراطورية الاخمينية نسبة الى أحد اجداده.

بنى قورش امبراطوريته ، لا على

٣







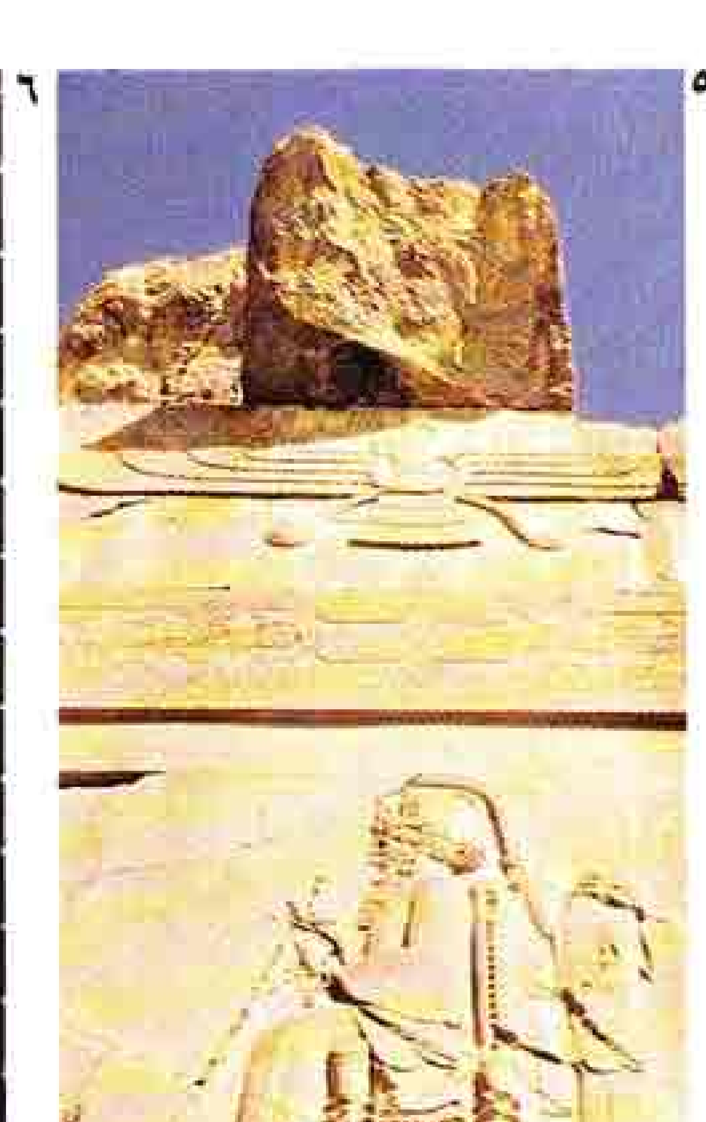
عريضة بحيث تسمح لثمانية فرسان بصعود درجاتها المنخفضة في رتل واحد . يزيّن جوانب الادراج موكب من « الخالدين » محفور في الصخر ، وراءه صفوف من رجال الحاشية الملكية الميديين والفرس ، ثم تأتي الشعوب المحكومة حاملة الجزية . تشد كلّابات من الحديد مثبتة بالقصدير المصهور بعض الكتل الحجرية التي بنيت منها الشرفة .

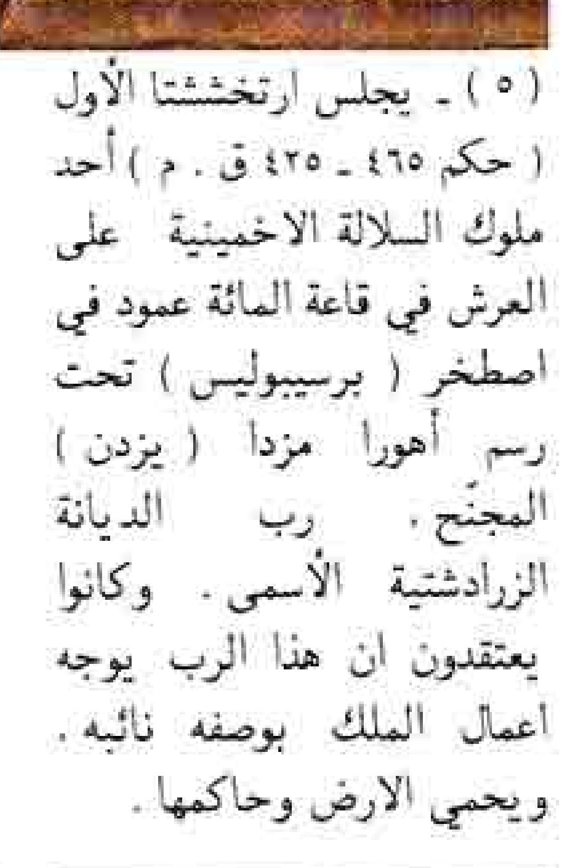
(٤) ـ طريقة انشاء انفاق مائية تحت الارض تدعى قناة أدخلت أول الأمر الى بلاد فارس ، في العصور الاخمينية ، لنقل مياه الجبال على مسافة اميال من الصحراء ، كي لا تتعرض المياه للتبخر الذي تعاني منه الأقنية المكشوفة . تُستخدم آلة رافعة يديرها رجل واحد لبلوغ الانفاق عبر آبار محفورة في الارض ، تباعد بينها مسافات تبلغ نحو ١٠ امتار . كان على الحفار ان يعمل لوحده لشق نفق لا تزيد أبعاده عن ٤٠ × ٦٠ سم ، محاولا المحافظة على استقامة اتجاه النفق ، وقياس درجة انحداره بدقة تكفي لجريان الماء بشكل ثابت حتى مكان استعماله . ساهمت هذه الشبكات المائية الفريدة في تقدم الامبراطورية الفارسية ، بقدر مساهمة حكامها العقلاء .

الفتح الاقليمي وحسب ، بل على التسامح والتفاهم الدوليين ايضا . فكانت حقوق جميع الدول المحكومة واديانها مصونة ، وقوانينها وعاداتها محترمة . بعد انتصاره على بابل عام ٥٣٩ ق . م ضم بقوة جيشه ممالك اشور وليديا وآسيا الصغرى السابقة الى الامبراطورية الفارسية ، فصارت اكبر كيان سياسي قام في العالم القديم ، قبل الرومان . امتدت انتصارات قورش حتى المتوسط غربا ، والكوش الهندي شرقا ، حيث لاقى حتفه اثناء القتال في عام ٥٢٩ ق . م .

خلف قورش ولده قمبيز الثاني (حكم ٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق . م) الذي لم يرث أيا من فضائل أبيه ، بل أخذ عنه فقط رذيلة القسوة . استهل قمبيز الثاني حكمه بقتل أخيه سمرديس ، ثم استهوته ثروة مصر فسار اليها يبتغي الاستيلاء عليها . لكن هذه الحملة أتت على حوالى ٥٠٠٠٠ من جنوده ، ولم تسمح

٥





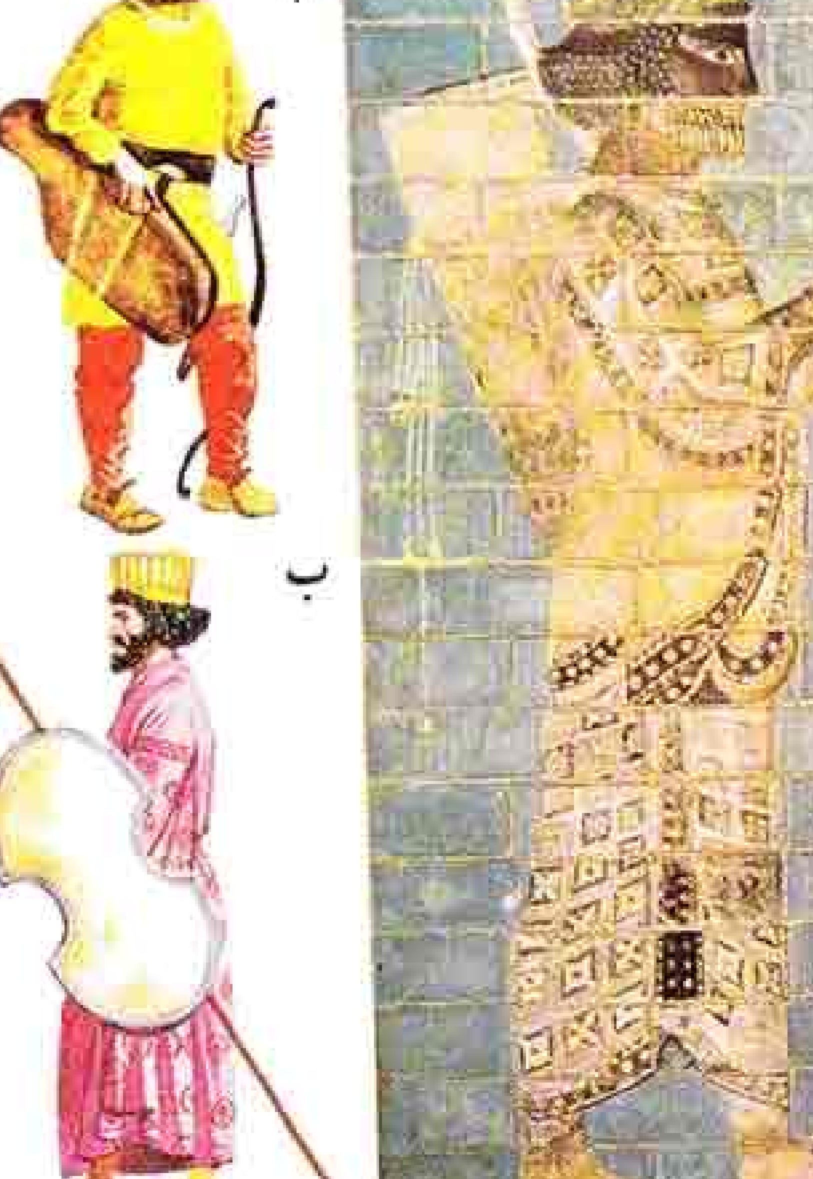
(٥) ـ يجلس ارتخشتا الأول (حكم ٤٦٥ ـ ٤٢٥ ق . م) أحد ملوك السلالة الاخمينية على العرش في قاعة المائة عمود في اصطخر (برسيبوليس) تحت رسم أهورا مزدا (يزدن) المجنّح ، رب الديانة الزرادشتية الأسمى . وكانوا يعتقدون ان هذا الرب يوجه اعمال الملك بوصفه نائبه ، ويحمي الارض وحاكمها .

٦



(٦) ـ هذا الجندي ، الذي ينتمي الى فرقة « العشرة آلاف خالد » ، يظهر في صورة ملونة على الآجر المطلي بالمينا ، وُجدت في قصر سوسا ، احدى عاصمتي امبراطورية دارا ، وهو يحمل قوسا وجعبة . كان دارا يكافىء حراسه على ولائهم ، بوضع رسومهم على جدران كل قصر يبنيه . كانت فرقة الحرس احدى مفاخره العسكرية .

٧ أ



ب

(٧) ـ يعود الفضل في تفوّق المحاربين الفرس ، الى حد كبير ، الى براعتهم في استعمال القوس . كان القوّاس يحمل الأسهم في جعبة (أ) ويرتدي أحذية جلدية وقبعة ، ويتقلد سيفا قصيرا . بينما كان كل من حراس دارا الكبير (ب) يرتدي ثوبا فضفاضا ويحمل رمحا طويلا وترسا مقرّطا . قاد دارا نفسه امثال هؤلاء الرجال المعروفين بالعشرة آلاف خالد .

٨



(٨) ـ قطعة نقود يظهر فيها احشويرش الاول في وضع هجومي ، مع انه اشتهر خصوصا بقيادته الجيوش الفارسية الى الهزيمة على يد اليونانيين في معركة سالاميس . ورث احشويرش الامبراطورية عن ابيه دارا الاول عام ٤٨٦ ق . م . وفي عام ٤٨٤ ق . م قضى على أحد المغتصبين للحكم في مصر بصورة وحشية ، ثم اتبع الطريقة نفسها لاخماد ثورة في بابل . بعد عدد من الانتصارات المبكرة في اليونان فقد اسطوله في سالاميس . فبدأ انحطاط الاخمينيين منذ ذلك الحين .

له بالقضاء على الديانة المصرية . وفي سورة غضب نهائية قتل أخته وزوجته روكسانا ، وذبح ابنه بريكساسبيس ودفن ١٢ من نبلائه أحياء ، ثم مات وهو في طريق العودة الى بلاد فارس .

عهد دارا

كان دارا العظيم (٥٤٨ ـ ٤٨٦ ق . م) ، قبل ان يكسب الصراع من أجل الخلافة على العرش ، قائد « العشرة آلاف خالد » ، وهم صفوة القوات الفارسية (٦ ، ٧) . تميّز عهده بنشوب ثورات بين الدول المغلوبة ، لكنه سرعان ما قمعها . وفي بابل وحدها صلب ٣٠٠٠ من المواطنين المرموقين . وعندما أدرك مدى ضعف الامبراطورية الشاسعة الأطراف أمام الأزمات ، خفف من وطأة الحكم العسكري ، واستبدل به ادارة حكيمة ، وأعاد تنظيم ممالكه تنظيما اصبح نموذجا للتنظيم الامبراطوري ، فنتج عن ذلك فترة نظام ورخاء . لكنه لما استتب السلام والاستقرار في الداخل ، نهض بجيوشه متقدما أولا عبر البوسفور والدانوب حتى نهر الفولغا ، ثم الى وادي الهندوس ، فبلغت الامبراطورية الفارسية بذلك أوج اتساعها ونفوذها .

كانت ديانة البلاد الاصلية قائمة على عبادة ميترا ، ممثلا للشمس ، واناهيتا ربة الماء والخصب . ثم تلا هذه المعتقدات فيما بعد ، عبادة كائن واحد أسمى ، هو : أهورا مزدا أو (يزدن) (٥) . نادى بهذه العبادة رجل من القرن ٦ ق . م أسمه زارادشت . وفي كتابه المقدس (الآفستا) اعتبر هذا المعبود « الرب الحكيم » ، وجعله خالق العالم ومدبره ، قائلا : انه تلبّس بقبة السماء جاعلا من الشمس والقمر عينين له . وقد صاغ مزدا نقيضا لنفسه ، أهرمن ، يمثل الشر . فلما أفلت هذا منه جعل يطارده . ولهذا صار يتعاقب الليل والنهار والخير والشر والصحة والمرض دوما . بهذا الشكل صارت هذه الديانة اثنينية . عرفت الزارادشتية عند العرب باسم المجوسية ، ويعبد أصحابها النور الممثل لمزدا . لهذا يوقدون النار المستمرة بالمعابد .

غزو اليونان

كان الشعب يؤيد نظام الحكم الملكي في فارس ، لاعتقاده بان سيادة الأفراد تصان على أفضل وجه في ظل حُكم سيِّد فرد هو « ملك الملوك » . من جهة ثانية ، كانت دولة أثينا المدنية تؤيد فكرة الديمقراطية للجميع ما عدا العبيد وغير المواطنين . فرأى دارا في دول المدن اليونانية ومستعمراتها خطرا عليه . وعندما ثارت ايونيا وتلقت الدعم من اسبرطة واثينا ، عبر دارا البحر الايجي ، لكن قوة يونانية هزمته في ماراثون . وفي غضون الاستعدادات لحملة جديدة على اليونان ، توفي عام ٤٨٦ ق . م . بعد حكم ٣٦ سنة .

عَبَر احشويرش (٥١٩ ؟ ـ ٤٦٥ ق . م) ابن دارا مضيق الهليسبونت على رأس جيش ضخم وقهر الاسبرطيين في ترموبيلي ، ولكنه أخرج من اوروبا عام ٤٧٩ ق . م ، بعد ان صب عليه اليونان جام كرههم الأبدي لاقدامه على احراق الاكروبوليس في أثينا . بعد ذلك ، تداعت الامبراطورية الاخمينية حتى هزم الاسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق . م) آخر ملوك تلك السلالة وهو دارا الثالث في معركة اربيلا عام ٣٣١ ق . م . وأصبحت بلاد فارس جزءا من امبراطورية الاسكندر ثم خلفائه .

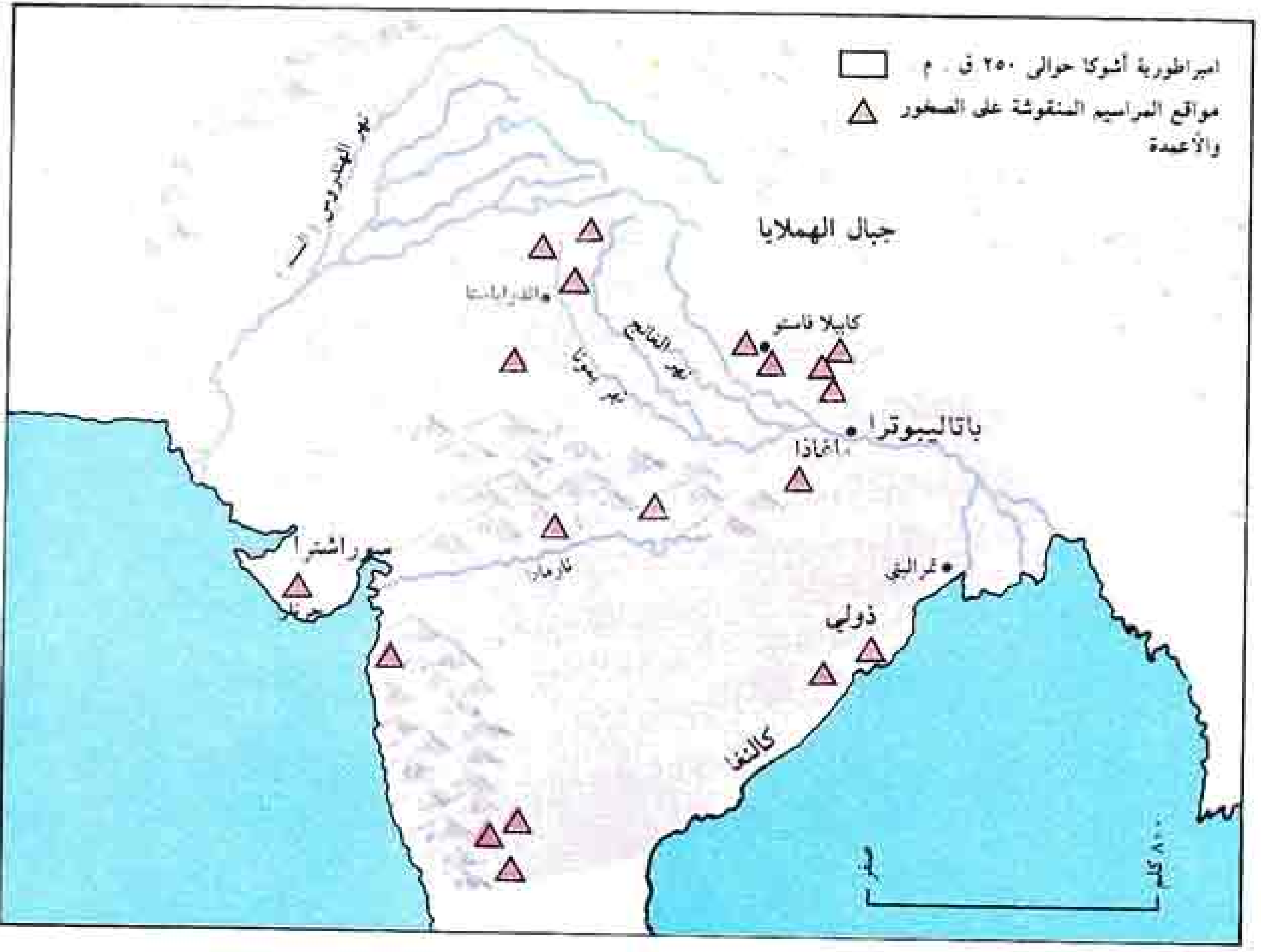
الهـنـد
« من ٥٠٠ ق.م. حتى ٣٠٠ م »

يُعتبر عصر بوذا (٥٦٣ ؟ ـ ٤٨٣ ق . م) (٣ ، ٤) نقطة البداية لاحدى الديانات العالمية الكبرى ، ولتطورات هامة في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، في شبه القارة الهندية . كان ذلك عصرا انبثقت فيه ديانات مختلفة (مثل الجينية) ، وعصر تغيرات برزت فيه الشكوك حيال القيم التقليدية الراسخة .

التجارة والتغير السياسي

في الحقل السياسي ، نشأت دول كبيرة توسعية ، سيطرت اربع منها على مسرح الأحداث . مع حلول عام ٥٠٠ ق . م ، كانت اقوى هذه الدول ماغاذا في الجزء الجنوبي من

١



٢ أ



ب



(١) ـ كانت الامبراطورية الموريانية اعظم دول الهند القديمة . وكانت تضم القسم الأكبر من نصف القارة الهندية (باستثناء طرفها الجنوبي الأقصى) . ومعظم البنغال والسند . كذلك كانت تضم اجزاء هامة من افغانستان الحديثة بحيث كانت تتحكم بالمواصلات البريّة الهامة جدا مع الشرق الاوسط . يمكن تحديد حجمها بدقة استنادا الى مواقع المراسيم الاشوكيّة المنقوشة على الصخور والأعمدة .

(٢) ـ يقال ان بوذا كان يهدي الناس الى دينه عن طريق اجتراح المعجزات . كالمشي على الماء . وهو ما يظهر هنا (أ) في صور محفورة على مدخل برج سانشي . يمثل مشهد آخر (ب) والد بوذا وهو يؤدي واجب الخشوع للشجرة التي بلغ بوذا الأكبر حال الاشراق تحتها .

(٣) ـ تظهر على المنحوتات الفخمة عند مدخل البرج العظيم في سانشي قصص بوذية دينية وصور معبودات محلية تنتمي الى الديانة الشعبية وكانت البوذية قد تسامحت معها . تدور القصص البوذية اما حول أحداث هامة في حياة بوذا . او حول قصص تعود الى مراحل وجوده السابقة . كانسان او كحيوان . للديانة الشعبية معبودات اخرى متنوعة ، مثل الياكشات (أرواح الشجر) .

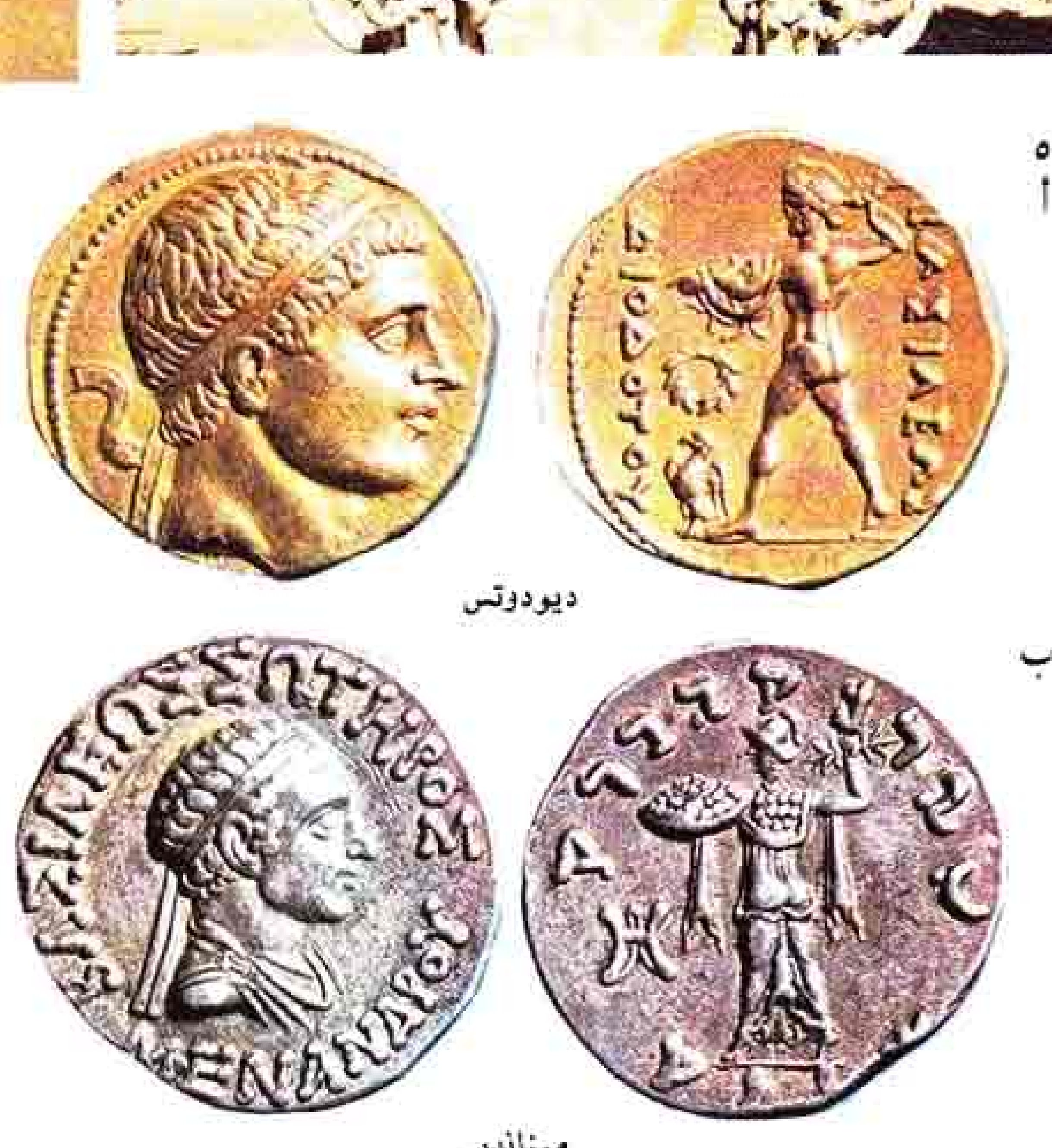
بهار، وكانت عاصمتها اولا في راجير، ثم انتقلت فيما بعد الى باتاليبوترا (بتنه). كان الحديد هو المورد الاقتصادي الرئيسي، الا ان القوة التي تمتعت بها الدولة كانت ايضا نتيجة لدور بعض الحكام النشيطين، الذين تخلصوا تدريجيا من منافسيهم بالقوة والدبلوماسية.

ازدهرت الصناعات المنزلية كالنسيج والفخار والصناعة المعدنية، ونُظّمت ضمن نقابات. كان نتاج هذه الصناعات، بالاضافة الى الفائض الزراعي، يتم تبادله بين المراكز الهندية الشمالية المختلفة، وبين الامبراطورية الاخمينية (الفارسية)، الى الغرب. كان اصحاب المصارف يموّلون معظم اشكال التجارة، ويقدّمون وسائل النقل، ويتحملون الخسائر. ساعدت هذه النشاطات على قيام طبقة ميسورة، تتألف خصوصا من اناس لم يكونوا راضين عن انقسام المجتمع



٤





(٤) ـ شيد البرج العظيم. (وهو مزار ذو قبب)، في سانشي في عهد أشوكا. الا ان الحاجز والمداخل الفخمة النحت اضيفت أثناء القرنين التاليين. كانت سانشي احد المراكز البوذية الرئيسية، ابتداء من عهد أشوكا على الأقل. حتى القرن العاشر الميلادي. وهي تقع في وسط الهند، حيث تلتقي الطرقات الرئيسية الممتدة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب. وقد اعطت أسمها ايضا لاحدى مدارس النحت.

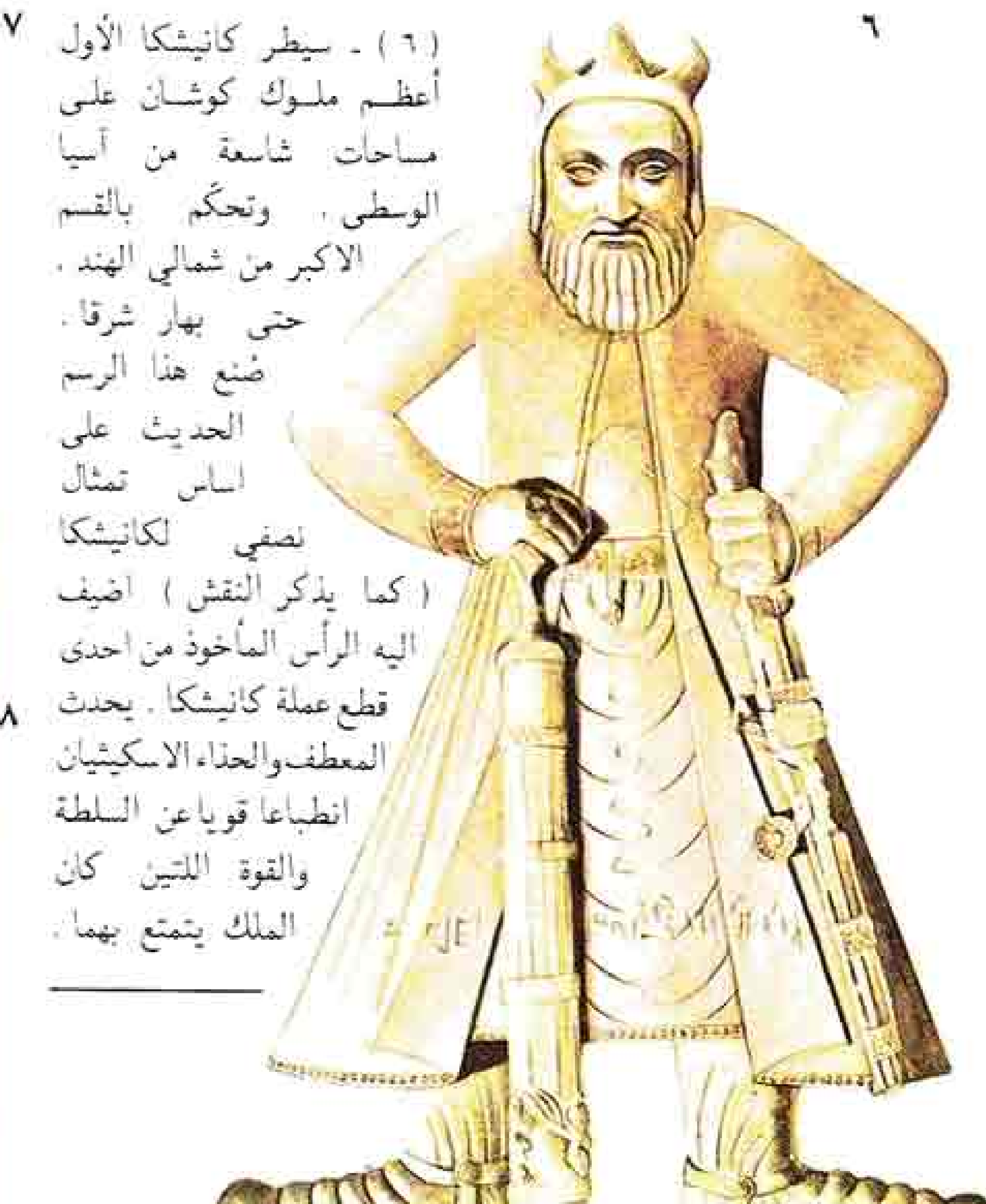
(٥) ـ بعد أن رحل الاسكندر عن الهند عام ٣٢٥ ق. م. أسس عدد من حكامه امارات صغيرة في باكتريا. وشمال غربي الهند. وقد تأثر هؤلاء اليونان الى حد كبير، بالهنود. فاذا قارنّا مثلا قطعة عملة من عهد ديودوتس (أ) الذي لمع في القرن الثالث ق. م. بعملة من عهد ميناندر (ب) (حوالى ١٥٠ ق. م) لا بد لنا ان نلاحظ في الأولى التأثير الهندي، لاسيما في استعمال الخط الهندي.

الهندي ، آنذاك ، الى طبقات متميزة . وغالبا ما اصبح امثال هؤلاء انصارا متحمسين للبوذية ، وسواها من الأديان غير الهندوسية .

تعثَّرت هذه التطورات لفترة من الزمن نتيجة غزوة الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) عام ٣٢٧ . فبعد اجتياح الامبراطورية الفارسية . زحف الاسكندر على مقاطعاتها الهندية لاحتلالها . ولكنه ، طمعا في ثروة الهند الاسطورية ، عمد الى التقدم الى ابعد من ذلك . واستطاع ان يتوغل في البنجاب . الا انه سرعان ما أكره على التراجع ، ولم يلبث الحكام الذين عينهم ، ليحكموا المقاطعات بعد رحيله ، ان اقتفوا أثره (٥) .

العهد المورياني المجيد

خلف تراجع الاسكندر وراءه شعورا قويا بالوحدة الهندية ، التي وجدت زعيما لها في المحارب الشاب تشاندرا جوبتا (٣٢١ ؟ -



٦

(٦) - سيطر كانيشكا الأول أعظم ملوك كوشان على مساحات شاسعة من آسيا الوسطى ، وتحكّم بالقسم الاكبر من شمالي الهند ، حتى بهار شرقا . صُنع هذا الرسم الحديث على اساس تمثال نصفي لكانيشكا (كما يذكر النقش) اضيف اليه الرأس المأخوذ من احدى قطع عملة كانيشكا . يحدث المعطف والحذاء الاسكيثيان انطباعا قويا عن السلطة والقوة اللتين كان الملك يتمتع بهما .



٧

٨

(٧) - ثمة جزء مزخرف جدا في كهوف كارلي بمهاراشترا ، وهو الواجهة التي تضم المساحة الواقعة بين المداخل الثلاثة . فبالاضافة الى المشاهد البوذية التقليدية المرسومة فيها ، تظهر رسوم الاتقياء الذين تبرعوا بالكهوف ، ولاسيما الذين تبرعوا بالأرض لسد احتياجات الرهبان . يظهر المتبرعون عادة ازواجا ، مما يدل على مكانة المرأة في هذه الحقبة من تاريخ الهند الغربية .

(٨) - كانت جماعة الرهبان البوذيين ، وفقا للتقليد البوذي ، تستخدم الكهوف منذ أقدم الازمنة ، لاسيما كملاجيء في موسم الأمطار . ومع ان هذه الملاجيء استبدل بها تدريجيا أديرة مبنية ، فقد استمر التقليد القديم في بعض أجزاء الهند ، حيث كشفت الحفريات عن عدد من الكهوف تعود الى الفترة بين ١٠٠ ق . م . و ٩٠٠ . أما كهف تشايتا في كارلي ، بمهاراشترا فلم يكن يستعمل للسكن ، بل للعبادة .

٢٩٧ ق . م) . بدأ هذا الزعيم بتحرير المقاطعات الغربية ، ثم زحف على باتاليبوترا ، حيث تغلب على ملك ماغاذا النانداثي ، وهكذا أسس السلالة الموريانية عام ٣٢٠ ق . م . في محاولة تشاندراجوبتا للاستيلاء على العرش ، كان يؤازره وزيره البارع الداهية كوتيليا الذي يعتبر مؤلف أهم أثر هندي في السياسة هو « ارثاشاسترا » .

كان العهد المورياني (٣٢٠ - ١٨٥ ق . م) من أكثر عهود التاريخ الهندي تألقا . كان تشاندراجوبتا يسيطر على شمالي الهند من جبال هندوكوش حتى البنغال . وربما على بعض اجزاء جنوبي الهند أيضا . كانت المملكة تتصف بالمركزية ، بصورة عامة . وذلك الى حد ما بفضل شبكة من الطرقات . عقد تشاندراجوبتا عام ٣٠٥ معاهدة مع سلوقوس اليوناني (٣٥٥ ؟ - ٢٨١ ق . م) ، الذي اوفد ميجاستينس (٣٥٠ ؟ - ٢٩٠ ق . م) الى البلاط الهندي مبعوثا ليمنح تشاندراجوبتا رسميا حقوق الحكم في المقاطعات التي كان الاسكندر قد احتلها في الهند .

بلغت الامبراطورية الموريانية (١) اوجها في عهد اشوكا (٢٧٤ ؟ - ٢٣٦ ؟ ق . م) حفيد تشاندرا جوبتا وهو أقوى ملوك الهند القديمة . استمر اشوكا بادىء الأمر يمارس السياسات التوسعية التقليدية ، لكنه لم يلبث ان تخلى عن محاولة فتح البلدان بالقوة ، على أثر حملة شرسة على كالينجا (وهي دولة اوريسا الحديثة) ، واستبدل بذلك أسلوب الفتح بالحسنى . وحوالى ذلك الوقت اعتنق أشوكا البوذية واصبح واحدا من اكثر دعاتها المتحمسين .

اليونان الهنود والسلالة الكوشية

واصلت السلالة الموريانية السيطرة على مساحات شاسعة من الهند حتى بعد انقضاء ٥٠ سنة على وفاة أشوكا . الا ان سيطرتها ما لبثت ان انحسرت ، ففي حوالى عام ١٨٥ ق . م قام قائد الجيش بوشيامِترا بأحد أوائل الانقلابات العسكرية . فعزل آخر الملوك الموريانيين . وأسس سلالة السونجا . وسرعان ما نقل مركز الدولة من بيهار الى اواسط الهند . كان بوشيامِترا حاكما قديرا الا ان خلفاءه لم يستطيعوا الحيلولة دون هجمات اليونان البكتريين ، وهم المتحدرون من بعض قواد الاسكندر . استطاع الهنود صد بعض هؤلاء المهاجمين ، بينما توصل بعضهم الآخر الى تأسيس ممالك قصيرة الأجل ، في البنجاب ومواقع أخرى . تأثر الكثير من هؤلاء بالحضارة الهندية ، ولذلك يعرفون غالبا باليونان الهنود .

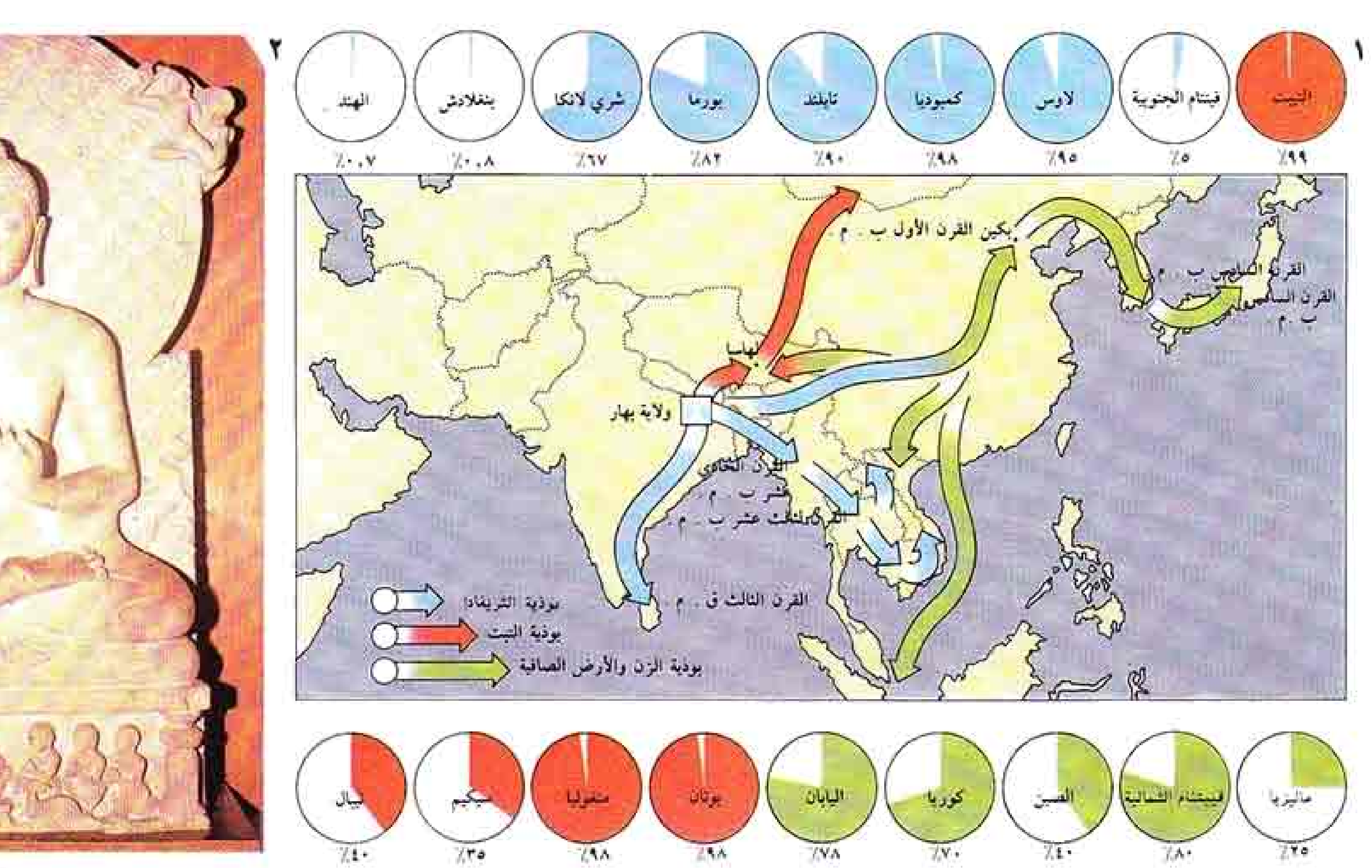
جاء في أعقاب اليونان الهنود غزاة من اواسط الهند ، وفي عام ٧٨ م كان معظم شمالي الهند تحت سيطرة كانيشكا (توفي ١٠٠ م ؟) (٦) أحد ملوك السلالة الكوشانية البوذية التي لم تلبث أن طردت من الهند ، بعد مرور قرن واحد . فنجم عن ذلك ردة فعل هندوسية . وتطوّرت السنسكريتية ، وكانت لغة الكتب المقدسة ، واصبحت لغة التفاهم بين افراد الطبقة العليا في الادارة ، ولاسيما في الادب . ويرجّح ان الملحمتين السنسكريتيتين العظيمتين ، وهما « المهابهاراتا » و « الرامايانا » قد أُلِّفَتا اثناء هذه الحقبة ، وان كانتا تنطويان على تقاليد اكثر قدما . ويصح القول ذاته في شرائع مانو ، وهي التشريع الهندوسي الأساسي .

بوذا والبوذيّة

مع حلول القرن السادس ق . م تحولت قبائل شمالي الهند شبه الرحّل الى مجتمعات زراعية مستقرة ، تحكمها أقليات طبقية (أوليغاركية) أو سلالات ملكية . كان ذلك عصر تحوّل اجتماعي وأفكار جديدة ، أكثرها أهمية تعاليم البوذية الفلسفية والاخلاقية ، التي جاءت ردا على طقوس الهندوسية ، ونظامها الطبقي . وأصبحت احدى أعظم الديانات الشرقية .

سيرة بوذا

ثمة عدد من الروايات المتباينة عن حياة بوذا ، الا ان الخطوط العريضة تبدو واضحة . كان سيدهارتا جوتاما (٥٦٣ ؟ ـ ٤٨٣ ق . م)



(١) ـ كان انتشار البوذية ، خارج الهند ، عملية معقدة استمرت عدة قرون . تتبين هنا الخطوط العامة لانتشارها ، والنسبة المئوية للبوذية في عدد من البلدان اليوم . روج للبوذية رهبان عملوا احيانا بصفة مستشارين للملوك .

(٢) ـ في حياة بوذا الأكبر ، كانت موعظته الأولى هي الحدث الثالث العظيم (بعد ولادته و « استنارته ») . يدعو البوذيون هذا الحدث « دوران دولاب الشريعة » . فالدولاب يمثل الكون ، والشريعة فلسفة بوذا الاكبر التي تقدم تفسيرا لأسرار الحياة . تعود منحوتة سارناث الى عهد الجوبتا (٥٠٠ م ؟) . يعكس اكتمال الشكل المادي المعرفة الكاملة . وتوحي الاذنان المستطيلتان والعينان البيضاويتان بالتركيز العميق .

(٣) ـ يقع هيكل موها بوذي في بوذجايا ببهار . عند البقعة التي بلغ عندها بوذا « الاستنارة » فيما كان جالسا تحت شجرة البوذي . ولعل هذا المكان هو أقدس موقع في العالم البوذي . شيد الهيكل الحالي ، الذي حل محل بناء أقدم ، عند الموقع ذاته ، في عهد الجوبتا (٣٢٠ ؟ ـ ٥٥٠ م) الا انه أعيد ترميمه .

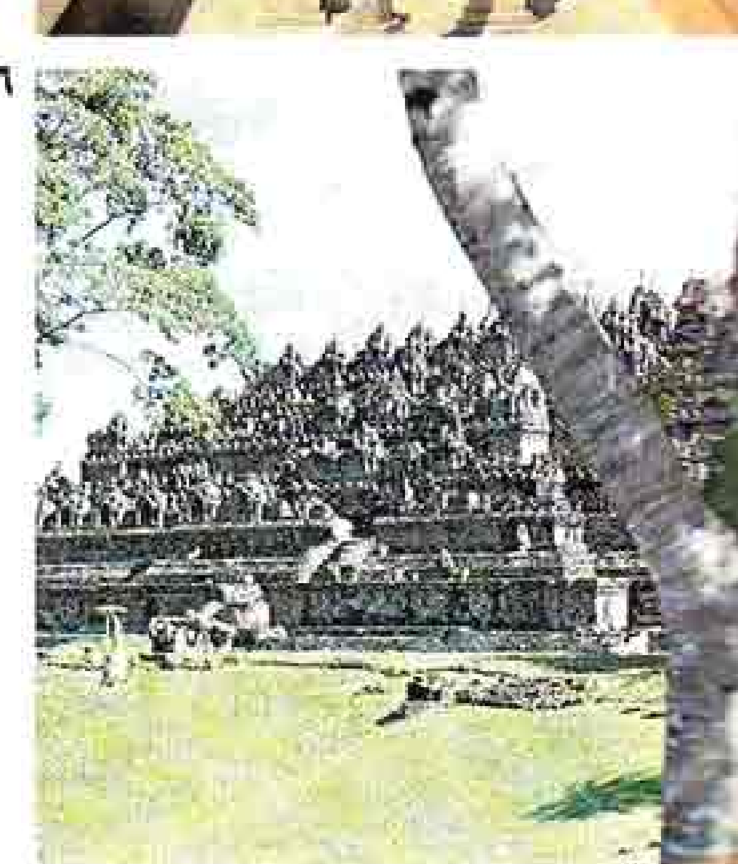
(٤) ـ كان الحدث الرابع العظيم في حياة بوذا هو النيرفانا ، وهي ليست الحياة الأبدية ولا الفناء ، بل هي عبارة عن حال . لا يدركها العقل ، من السعادة المطلقة . في الصورة ، يظهر البوذا في تمثيل رمزي لحال النيرفانا . تعود هذه المنحوتة الضخمة الموجودة في جال فيهارا ، ببولان ـ ناروفا ، بشري لانكا الى القرن الثاني عشر .

الذي اصبح فيما بعد البوذا (أي المستنير) ابنا لسودودانا ، ملك الساكياس ، وللملكة مايا . يقع مسقط رأسه ، لومبيني ، على الاطراف الشمالية لوادي الغانج بالقرب من كابيلافاستو ، حيث قضى السنين الأولى من حياته . بعد طفولة لم تتخللها احداث تذكر ، قرر الأمير الصغير الذي صدمته مشكلة الآلام البشرية ان يقطع صلته بالماضي ، ويبحث عن الحقيقة السامية في التأمل . غادر منزله خفية (٧) . وبلغ ، في نهاية المطاف ، وبعد سنين من العزلة ، حالة « الاستنارة » وهو جالس تحت شجرة البوذي في بوذجايا ، بالقرب من جايا في جنوبي بهار (٣) . أصبح هذا المكان فيما بعد من أقدس الأمكنة البوذيّة ، وحُملت اغراس من هذه الشجرة الى بلدان بوذيّة مختلفة ، حيث نمت اشجارا جديدة . بعد ذلك بقليل ، القى البوذا اولى عظاته في حديقة الغزلان في



٤

٦



(٥) ـ معبد بورو بودور الواقع في وسط جاوه . يوصف غالبا بالمعبد ذي القباب ، ومع ان قمته تعلوها صومعة ، فان طابع القباب هو ما يطغى على المعبد . وهو يشكل معرضا رائعا للمنحوتات لأنه يحتوي على خمسة أروقة مزينة بسخاء تعرض فيها قصص دينية في ١٥٠٠ لوحة نافرة . وقد بناها آل السيلاندرا ، وهي اسرة ملكية بوذية في جاوه .

(٦) ـ اعتنقت شعوب المون ، في جنوبي تايلند ، وشعوب التاي في اواسط تايلند ، الديانة البوذية ، في القرن الثالث الميلادي . وعلى الرغم من احتلال الخمير لهذه البلاد ، فقد واصلت البوذية ازدهارها . يوجد رأس بوذا هذا في لوببوري . ومع أنه يتفق مع المقاييس البوذية ، فقد عدل نحته ليأتي مطابقا للمثل الجمالية عند شعب التاي .

سارناث بالقرب من فاراناسي « محركا بذلك دولاب الشريعة » (٢) .

تمثل العقيدة البوذية الحل الوسط الذي يتفادى التطرف سواء في قتل الشهوات او الانغماس فيها . تُسلّم هذه العقيدة بمفاهيم الهندوسية الاساسية : التناسخ وقانون الثواب (كارما) القائل بان افعال الانسان هي التي تقرر مباشرة مصيره . لكنها ركزت على الأخلاق كسبيل للخلاص (٩) . كان بوذا يعتقد ان الألم ينجم عن الرغبة ، وان التخلص من الرغبة يأتي بانتهاج « الطريق الثماني النبيل » الذي يتمثل بالسيرة الحسنة والفعل الحسن ، وانه من الممكن ، نتيجة لذلك ، بلوغ النيرفانا ، وهي حال من السعادة القصوى ، تتوقف عندها دورة التناسخ او الولادة المتكررة ، وان افضل سبيل لبلوغ النيرفانا المثلى (٤) هو السيرة الرهبانية .

قام بوذا نفسه بالقاء المواعظ في جميع

٧



٨

٩



(٧) ـ كثيرا ما يتجلى الرحيل العظيم من كابيلافاستو في الفن الهندي . ومع ان بوذا رحل خفية تحت جنح الظلام . فالنحاتون يعطون عادة لرحيله أبهة المواكب الملكية .

(٨) ـ من أقدم تماثيل بوذا المعروفة . في جنوبي شرقي آسيا . هذا البوذا البرونزي الموجود في فيتنام .

(٩) ـ في الفلسفة البوذية . يتألف « دولاب الوجود » من ١٢ شعاعا . كل منها عبارة عن حلقة في دورة الحياة والموت المتكررة على الدوام . ويستمر الدولاب في دورانه ما دام الجهل قائما .

انحاء شرقي الهند، وحظي بتأييد الحكام وطبقة التجار الجديدة. وعندما «دخل طور النيرفانا»، في سن متقدمة، خلف وراءه نظاما رهبانيا، دون تعاليم مدونة.

انتشار البوذية

انتشرت البوذية ببطء طوال قرنين من الزمن، على الرغم من العقبات المختلفة التي اعترضتها، مثل عداوة طبقة البراهمة الهندوسيين، الذين خافوا منها على امتيازاتهم الخاصة. ولكن، عندما اعتنق الملك الهندي أشوكا (حكم ٢٧٤؟ ـ ٢٣٦ ق. م) البوذية، ساعد دعمه القوي لها على انتشارها على نطاق واسع. فأقدم الصوامع البوذية الباقية حتى الآن، والتي شيدت لتكون مستودعا للآثار المقدسة، تعود الى هذه الحقبة. وبفضل نفوذ أشوكا، دخلت البوذية الى شري لانكا، حيث بقيت دين البلاد الرسمي حتى يومنا هذا.

ابان القرون القليلة اللاحقة، انتشرت الديانة البوذية اكثر فأكثر في الهند، وكانت لها مراكز في اواسط الهند، (مثل بهارهوت وسانشي)، وفي ماهاراشترا واندرا براديش، حيث ازدهر الفن والعمارة البوذيان. في ماهاراشترا (ناسيك وكارلي وسواهما من المواقع) استخدم عدد من الكهوف كأديرة أو قاعات للعبادة (قاعات الشيتيا). كما شيدت معابد عظيمة في امارافاتي وناغارجوناكوندا في بلاد الاندرا.

كانت البوذية عرضة للانقسام على الدوام، وكانت المجالس التي انشئت لتشجيع الوحدة كثيرا ما تؤدي الى نقيض ذلك. وفي حقبة باكرة من التاريخ الميلادي نشأ انقسام اساسي بين انصار «الطريق الكبرى» (ماهايانا) وانصار «الطريق الصغرى» (هينايانا). ظهر في الطريقة الأولى رهبان، لكنها كانت تشدد على مثال الرجل التقي العادي، الذي يؤازر اقرانه دوما بحكمته ورأفته. كان البوذا التاريخي، واسلافه من البوذات، يعبدون على أنهم معبودات، كما كانت تعبد ايضا الكائنات الاخرى التي نذرت نفسها لتبلغ مرتبة البوذا (بوذيساتفا). كان البوذا والبوذيساتفا يُعبدان على شكل صور، مما اعطى حافزا قويا لتقدم الفن البوذي، الذي سرعان ما اشتمل على صورة بوذا الاكبر. اما طريقة هينايانا، فقد بقيت أقرب الى التعاليم الأخرى.

الانتشار خارج جنوبي آسيا

منذ بداية التاريخ الميلادي، انتشرت البوذية خارج جنوبي آسيا (١) فدخلت الى الصين في القرن الاول، وامتدت فيما بعد الى كوريا واليابان. اما في التيبت فقد القت جذورها في القرن الثامن، وتحولت الى ديانة اللاما فيما بعد. وأخيرا انتقلت الى بلدان الهند الصينية والى بعض الجزر البولينيزية.

مع ان البوذية لم تضمن دوما الانسجام بين هذه البلدان، فقد أمدت شري لانكا وبلاد جنوبي شرقي آسيا بعقيدة ثابتة ومستوى تعليمي عالٍ. كذلك ساعدت على تحقيق انجازات كبرى في مجالي الفن والعمارة. ان المجمّع الرائع لهيكل باجان (بورما) والباجودات الرائعة في مندلاي وبنكوك وايوثا (تايلند) تشهد على التأثير الفني لذلك الدين (٣، ٤، ٥).

أوروبا
« بين ١٢٠٠-٥٠٠ ق.م. »

مع حلول عام ١٢٠٠ ق . م ، كان العصر البرونزي قد بلغ أوجه لدى شعوب الأورنفيلد ، أسلاف الكلتيين الذين سيصبحون بدورهم بين ٨٠٠ و ٧٠٠ ق . م العنصر السائد والأكثر تقدما في المجتمع الأوروبي لبضع مئات من السنين . كانت شعوب الاورنفيلد تعيش في شمالي جبال الألب ، وهي تنتمي الى مرحلة ما قبل التاريخ من تطور أوروبا . خلع عليهم علماء الآثار اسمهم لأنهم أدخلوا طقسا جديدا من طقوس الدفن في أوروبا . فقد استبدلوا بالدفن في التلال إحراق الميت ، وكانت الرفات توضع بعد الحرق في جرة ، وتدفن في مقابر كبيرة مسطحة عُرفت بالأورنفيلد (حقل الجرار) .

١



٢



٣



(١) - تتجلّى المهارة الهالشتاتية في صناعة الخزف والأناقة التزيينية في هذا الاناء من الفخار الذي وجد في بورينهوف بالمانيا ، والذي يعود الى حوالى ٦٢٠ ق . م .

---

(٢) - طغت الحرب ، سواء كأمر لا بد منه أو كرياضة ارستقراطية ، على جميع جوانب الحضارة الكلتية . لم يقتصر التركيز على الاسلحة الفعالة ، بل تناول مظهر المحاربين أيضا . ومع أن الخوذ لم تُعتمر عادة في المعركة ، فقد كانت لباسا شائعا للرأس . تعود هذه الخوذة البرونزية من ايطاليا الى الحقبة الهالشتاتية على الأرجح ، وتمثل نموذجا جميلا جدا للفن الكلتي .

---

(٣) - في التقاليد الإرلندية ، يمثل هذا الحجر ، برسومه اللولبية ، المدخل الى « العالم الآخر » . وهو يعود الى حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . ويمهّد للرسوم الكلتية التي جاءت بعد ذلك بحوالى ٢٠٠٠ سنة .

---

(٤) - صنع صاغة إرلنديون هذه القلادة المذهبة من القصدير حوالى عام ٨٠٠ ق . م .

---

(٥) - هذه الباطية اليونانية البرونزية تزن ٢٠٨ كلغ وتستعمل لمزج الشراب . وقد عُثر عليها في مدفن الكاهنة في فيكس . وهي تثبت ان عالمي الكلتيين والبحر المتوسط كانا على اتصال وثيق حتى منذ القرن السادس ق . م . يمكن ان تكون هذه الباطية هدية سلام او صداقة أو تجارة .

---

(٦) - يبدو التناسق الكلتي المتأخر في هذا الخاتم الإرلندي المذهب الذي يعود الى حوالى ١٠٠٠ ق . م .

ثورة تقنية

تحدر الاوروبيون باستثناء بضعة شعوب منهم ، كالباسك والفنلنديين والايبيريين ، من أصل هندوأوروبي . لذا جَمعت بينهم تقاليد لغوية ثقافية مشتركة . من الممكن أن شعوب الأورنفيلد ، التي كانت تعيش في قرى او مجمّعات سكنية ضخمة ، كانت تنطق بأحد أشكال اللهجة الكلتيّة ، كما يُستدل من التطابق بين توزيع أنصابهم وبين أقدم اسماء الأمكنة الكلتية المعروفة . تعتبر شعوب الأورنفيلد هذه ، في العادة ، شعوبا كلتية بدائية ، ويبدو أن ليس بينهم وبين اخلافهم المباشرين ، كلتيي حضارة هالشتات ، كبير اختلاف .

شهدت الحقبة الاورنفيلدية ، لا تحسنا في الزراعة باوروبا وحسب ، بل تطورات كبرى أيضا في صناعة المعادن . كانت تلك الفترة حقبة توسّع وحروب . وتدل المكتشفات

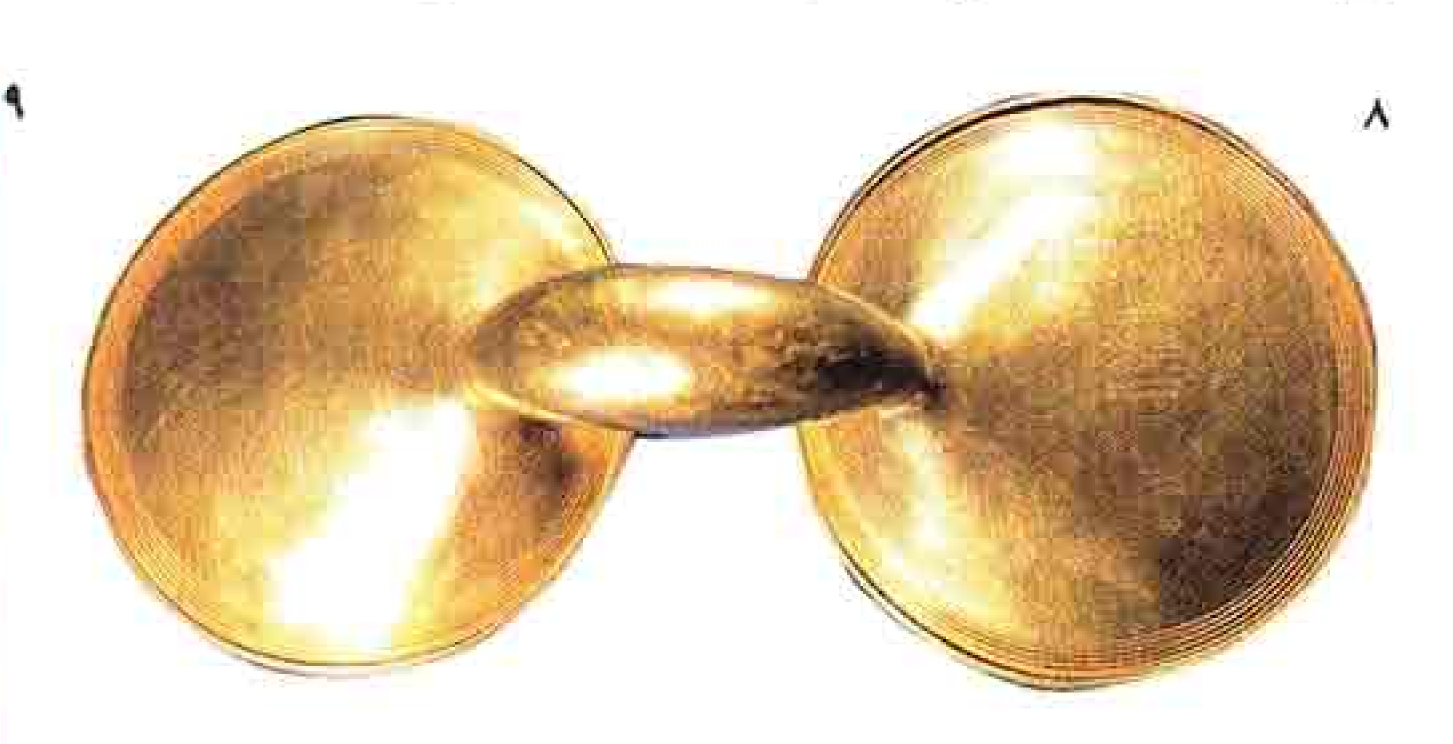


(٧) ـ كان الكلتيّون صناع تعدين مهرة ، فقد أدخلوا الحديد الى اوروبا الشمالية حوالى ٨٠٠ ق . م ولكنهم استمروا في استعمال البرونز بمهارة فائقة . هذه الصورة التفصيلية لمقبض طاسة من البرونز يعود الى القرن السادس تعطي فكرة عن الصناعة المتطورة في حضارة هالشتات .

الأثرية على أن شعوب أوروبا الوسطى كانت تستخدم في ذلك الحين أسلحة برونزية متطورة . لكن في أواخر هذه الحقبة ، أي حوالى ٨٠٠ ق . م شهدت أوروبا ثورة تقنية كبرى ، على يد الكلتيين . فقد أدخلوا استعمال الحديد الى اوروبا في شمالي الألب . ومعه كل التفوق في الاسلحة والأدوات الحادة الناجم عن استعمال الحديد . ويلاحظ ان المواقع الأولى لهذا التطور هي ذاتها مواقع المستوطنات الأورنفيلدية ، في أقاليم نهري الدانوب والراين .

بغضِّ النظر عن الدلائل على بعض الاتصال بشعوب السهوب ، فكل شيء يدل على استمرارية تاريخ السكان الأصليين ، الا أنهم ازدادوا ثراء وقوة بفضل اكتشاف الحديد . تُعرف هذه المرحلة الأولى من حضارة الكلتيِّين بحضارة هالشتات ، وذلك نسبة الى قرية في منطقة سالتزكامرجوت

٨

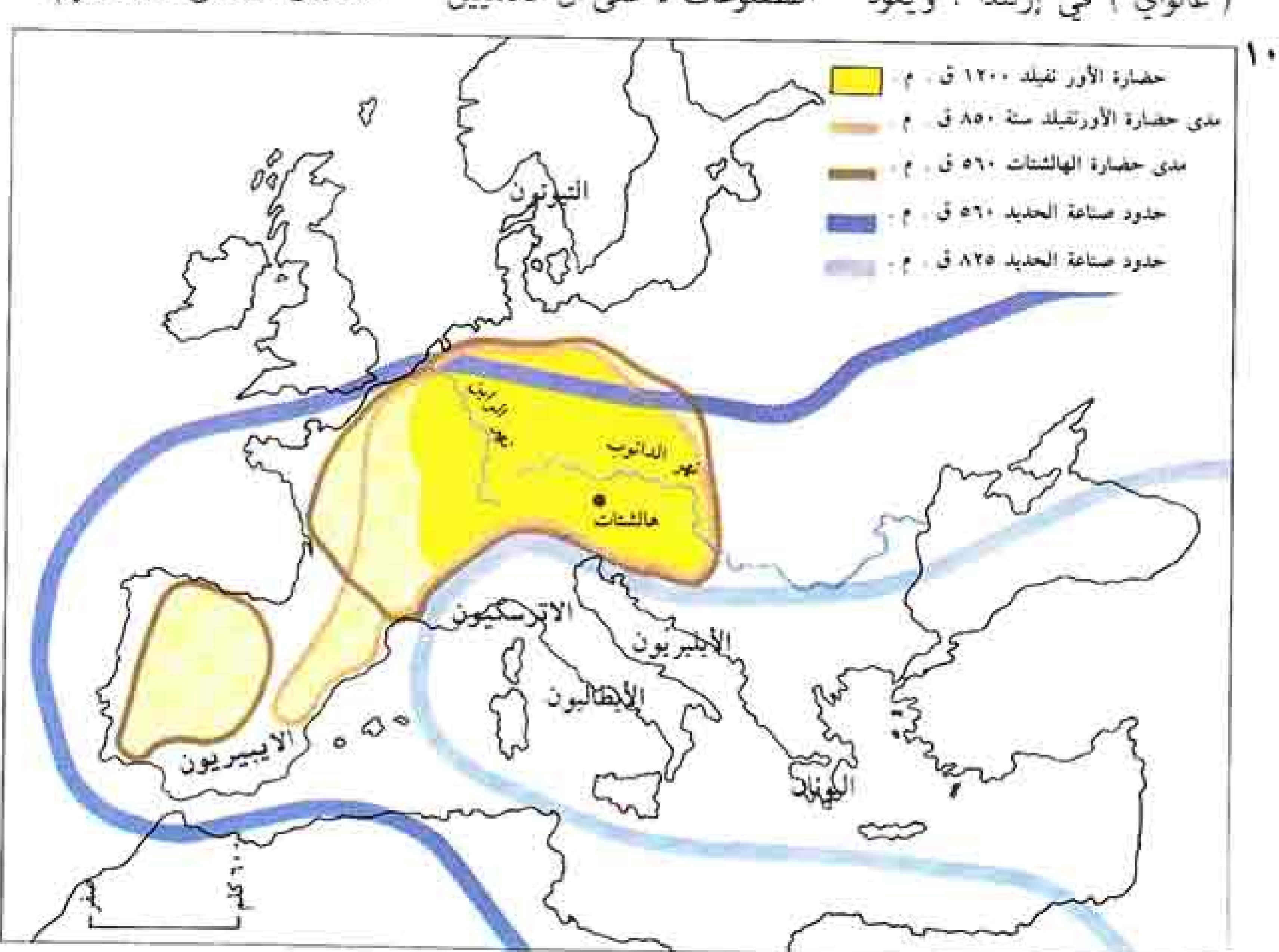


٩

(٨) ـ هذا الرباط الذهبي للملابس هو من بلدة كاونتي (غالواي) في إرلندا ، ويعود الى حوالى ٧٠٠ ق . م ويبلغ طوله ٢٨ سم . تشهد هذه المصنوعات لا على ان الكلتيين كانوا يعتزون بالزينة الشخصية وحسب ، بل على مهارتهم في استعمال المعادن مادة لفنِّهم .

(٩) ـ هذا السوار الذهبي للذراع وجد في دوفر ويعود الى حوالى ١٠٠٠ ق . م وهو يمهد للفن الكلتيّ .

١٠



(١٠) ـ تطوَّرت حضارة الأورنفيلد حول نهري الدانوب والراين . ومع حلول عام ٨٣٥ ق . م كانت قد وصلت الى اسبانيا . ظهرت حضارة هالشتات في المكان نفسه ، وحلَّت محل حضارة الاورنفيلد . وفي عام ٥٦٠ ق . م كانت قد انتشرت في معظم انحاء اسبانيا والبرتغال . في ذلك التاريخ كان تصنيع الحديد ، الذي جاء من الشرق ، قد انتشر في معظم انحاء اوروبا . تستمد حضارة الهالشتات اسمها من موقع أثري رئيسي في النمسا .

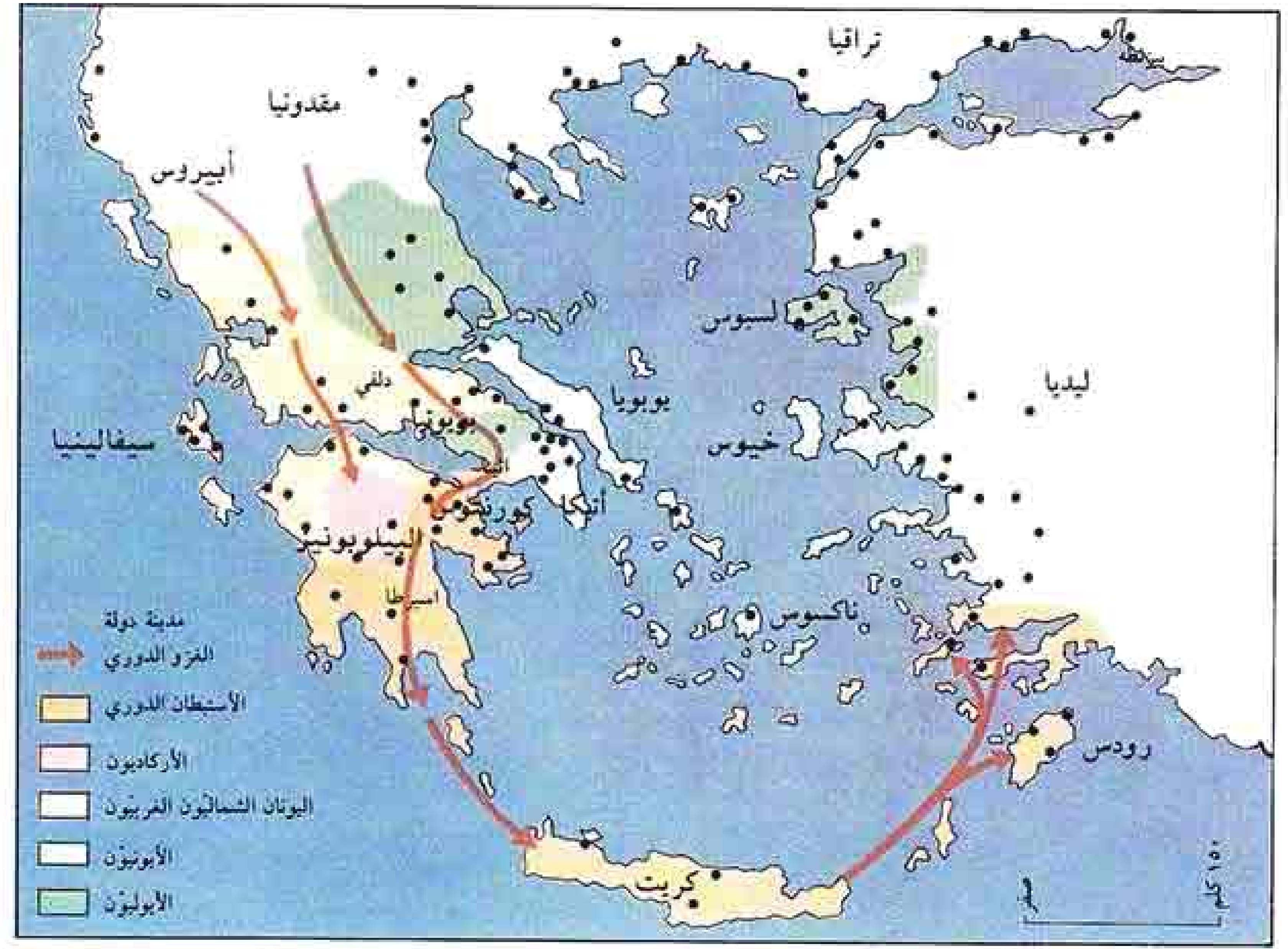
اليونان حتى ظهور أثينا

حوالى عام ١٢٠٠ ق . م ، طرأ تغيير رئيسي على الحضارة اليونانية . فقد زحفت قبائل دُورية عبر شبه الجزيرة من الشمال واستقرت بشكل رئيسي في البيلوبونيز ، ممتصّة الشعوب الموجودة هناك أو حاصرة اياها في مناطق ضيقة . نتيجة لذلك ، اضطر الايونيون والايوليون بصورة خاصة الى الاندفاع عبر البحر ، فأسسوا مدنا لهم في آسيا الصغرى (١) .

تطور المؤسسات

لا بد ان تكون تغيرات اجتماعية كبرى قد رافقت هذا التحول . ولكن تفاصيل ما جرى في الـ ٤٠٠ سنة التالية تكاد تكون

١



(١) ـ لا نعرف الكثير عن تاريخ اليونان في الفترة الممتدة من وقت وصول الدوريين (١٢٠٠ ؟ ق . م) الى مطلع الحقبة القديمة (٨٠٠ ؟ ق . م) . الا أن هوميروس يصف لنا مجتمعا مؤلفا من مجتمعات زراعية صغيرة تتحلق حول الحصون . ويتزعمها ملوك وطبقات ارستقراطية كانت ما تزال محتفظة ببعض ملامح الحضارة الميكينية . لم يكن لدى هذه المجتمعات حرف أو تجارة تذكر . لكن مع قدوم عصر هيسيودس (القرن الثامن ق . م) الذي تصف قصائده الروائية الحقبة القديمة المبكرة ، أخذت الحرف والتجارة في الظهور . وكان النظام الملكي قد استبدل به بصورة عامة نظام حكم الأقليات (الأوليغاركيات) وأصبحت المدينة محور الحياة السياسية .

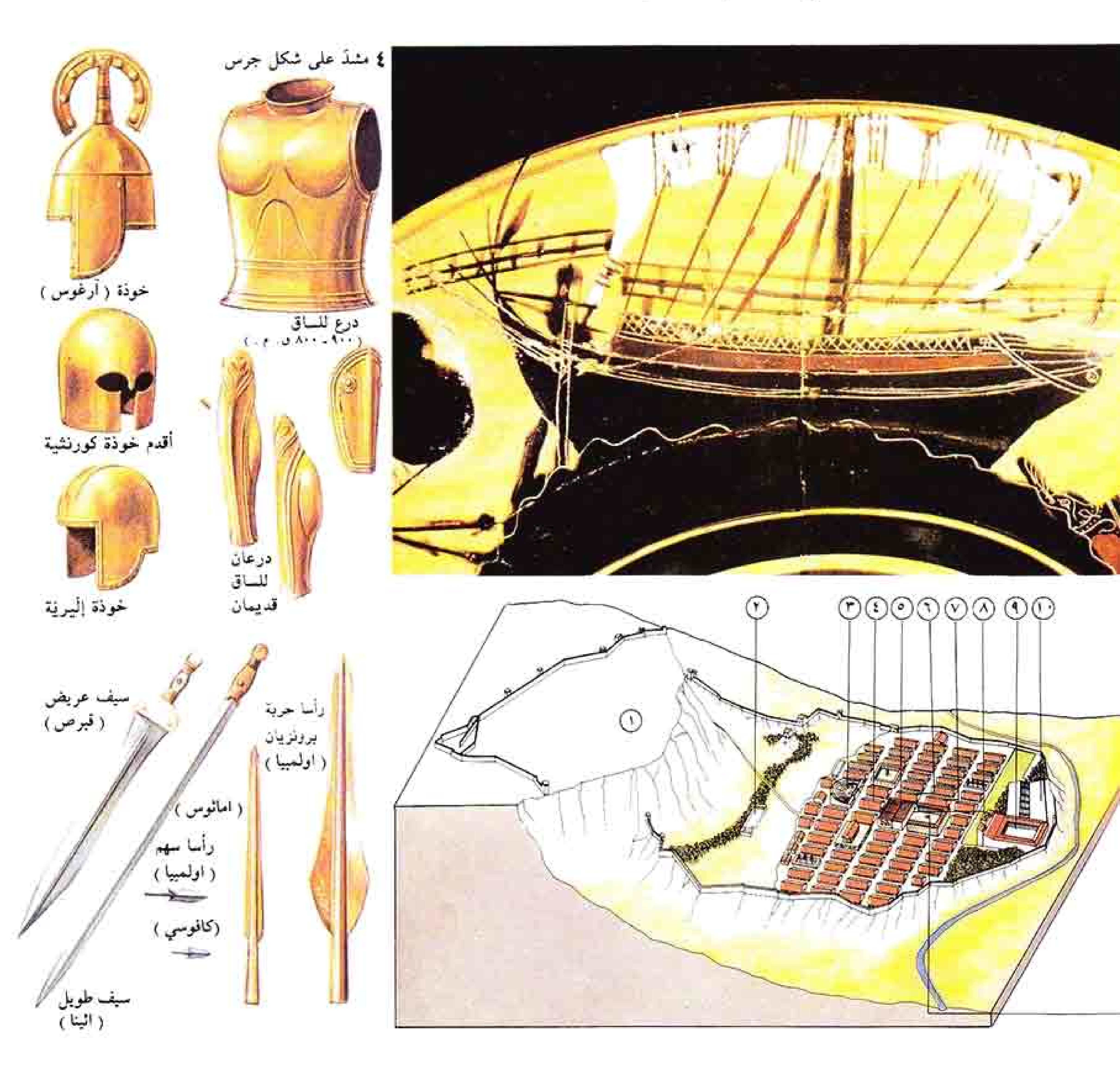
(٢) ـ تاجر اليونانيون مع الفينيقيين والمصريين وسكان الشرق الأوسط . فضلا عن تجارة المستعمرات مع المدن الأم . في الدول المحاذية للبحر . كأثينا وكورنثوس . اصبحت التجارة مصدرا هاما للثروة .

(٣) ـ كانت مدينة برييني في آسيا الصغرى نموذجا لتخطيط المدن عند اليونان . كانت القلعة او الاكروبوليس (١) تقع على قمة التلة . وكانت المدينة الرئيسية تمتد تحتها . أهم معالم المدينة كانت معبد ديميتر ومعابد لمعبودات أخرى (٢) ؛ والمسرح الضخم (٣) . ولعله أقدم نموذج هلّيني يتسع لجمهور مؤلف من ٥٠٠٠ شخص ؛ والأبنية السكنية (٤) التي كان يتألف كل منها من أربعة الى ستة مساكن ؛ ومباني المجلس والمحاكم (٥ ، ٦) ؛ والساحة العامة (١١) . وهي السوق وعصب المدينة النابض بجوار الشارع الرئيسي (٨) ؛ ومعبد زيوس (٧) ؛ والملعب (٩) ؛ وساحة للسباق (١٠) .

(٤) ـ كانت الأسلحة والدروع البرونزية ، حسب قصائد هوميروس ، يستعملها المحاربون في نزالهم الفردي . الا ان الحديد أخذ يحل محل البرونز قبل ٧٠٠ ق . م . فتغيرت اساليب القتال اساسيا . اذ اصبح المشاة المدججون بالسلاح يقاتلون في تشكيلات كبيرة منضبطة جدا . تعرف بالكتائب . جاء الكثير من هؤلاء المقاتلين من خارج صفوف الطبقة الارستقراطية .

مجهولة ، والكثير مما نعرفه عنها مستمد من ملحمتي هوميروس « الالياذة » و « الاوديسة » . ومع ذلك ، بامكاننا تحديد عدد من التطورات الهامة التي كان لها شأن كبير بالنسبة للحضارة اليونانية اللاحقة . فقد انتشر استعمال الحديد في صنع الآلات والاسلحة (٤) ، واقتبست أبجدية صوتية عن الفينيقيين اصبحت قياسية الى حد ما ، وانبثق الشعور بالوعي القومي ، أي ذلك الشعور بهوية عنصرية وفكرية جاءت تعبر عنها لفظة هيلّاس الدالة على العالم اليوناني بأسره . في الوقت نفسه نشأت مجموعة من المعبودات عكستها أشعار هوميروس ، وتطوّرت المراسم الدينية ، وازدادت أهمية المعابد ، مثل معبد دلفي . وأصبحت الدولة ـ المدينة أهم وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية في البلاد .

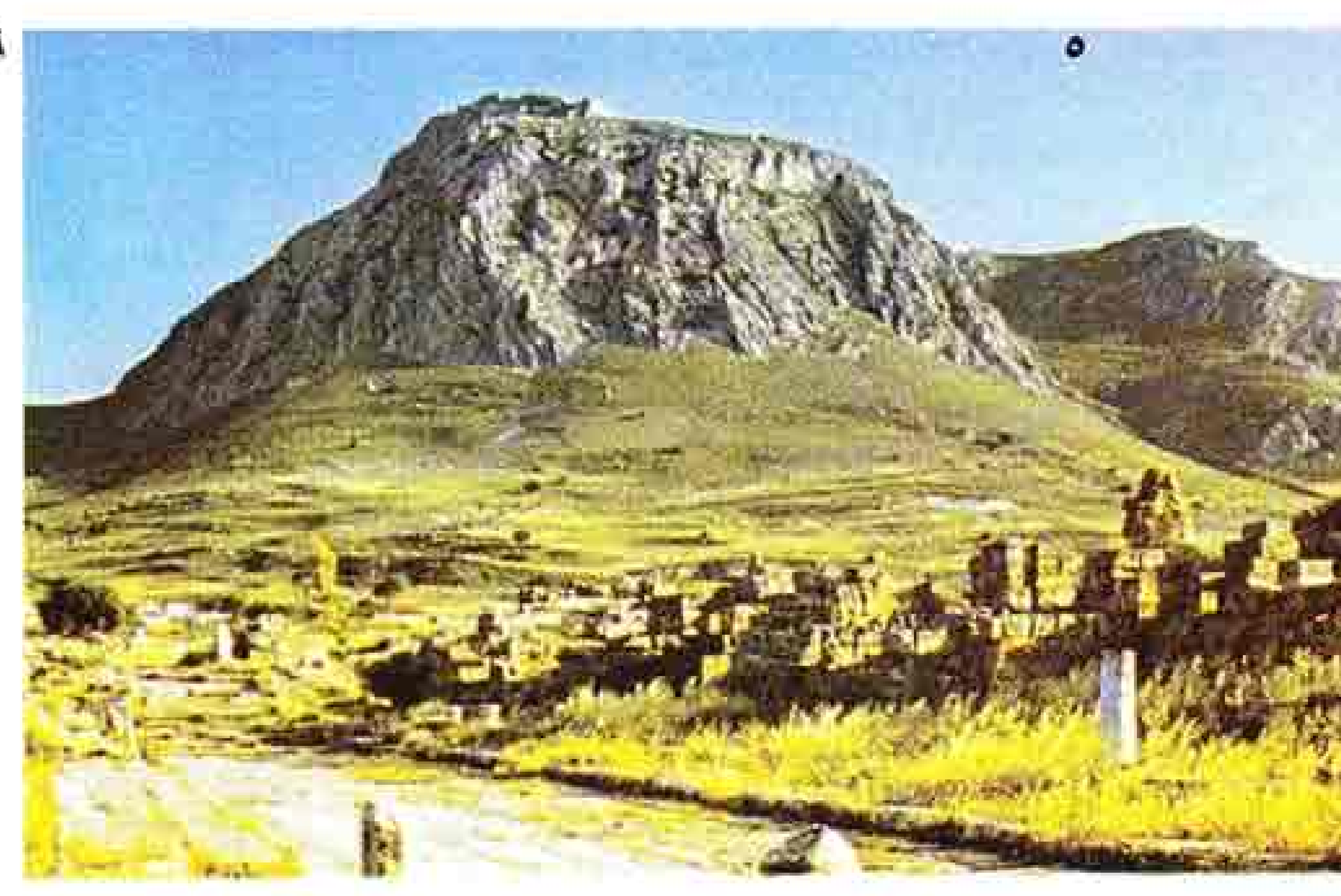
لعبت جغرافية اليونان الوعرة دورا رئيسيا



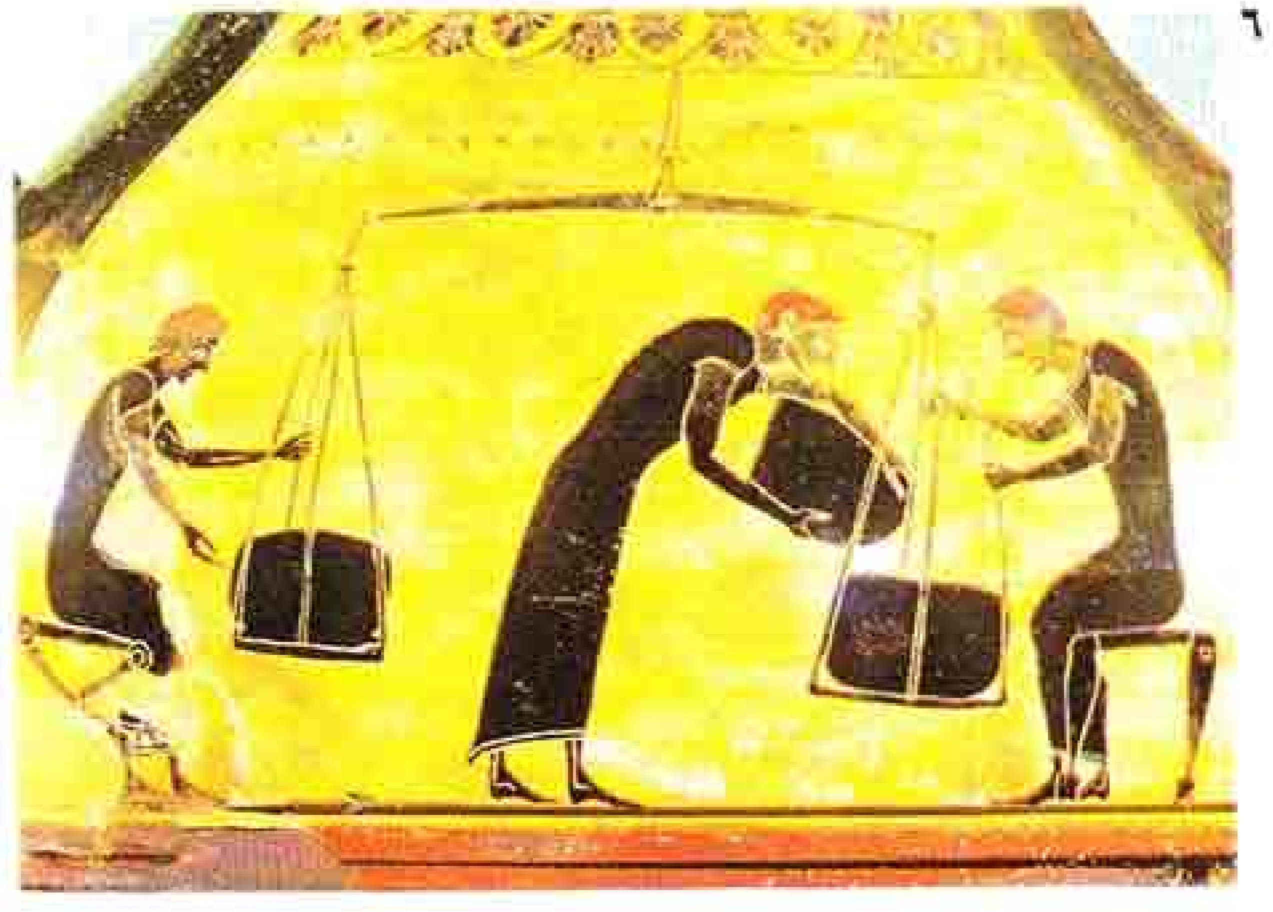
في حمل سكان كل واد من الأودية، على اعتبار أنفسهم كيانا مستقلا. حتى غدت بلاد اليونان تبدو كمجموعة من الرقع، التي تمثل دويلات تحافظ كل منها على استقلالها بحماس كبير (٥).

أثر حجم الدولة ـ المدينة على التطور السياسي اليوناني، اذ رسخ الاعتقاد بانه لكي تكون الوحدة السياسية صالحة، يجب عليها ان تكون صغيرة، وذات استقلال تام. كان لليوناني عدد من الولاءات، لهيلاس ولمدينته ولقبيلته الداخلة في اطار الدولة، الا ان ولاءه للمدينة كان الأقوى. لذلك لم تنشأ في اليونان فكرة الوحدة السياسية الكبرى قط. في هذه الحقبة أيضا توصل اليونانيون الى الاعتقاد بان الحكومة ينبغي أن تقوم على اطار دستوري وقانوني معروف ومحدد.

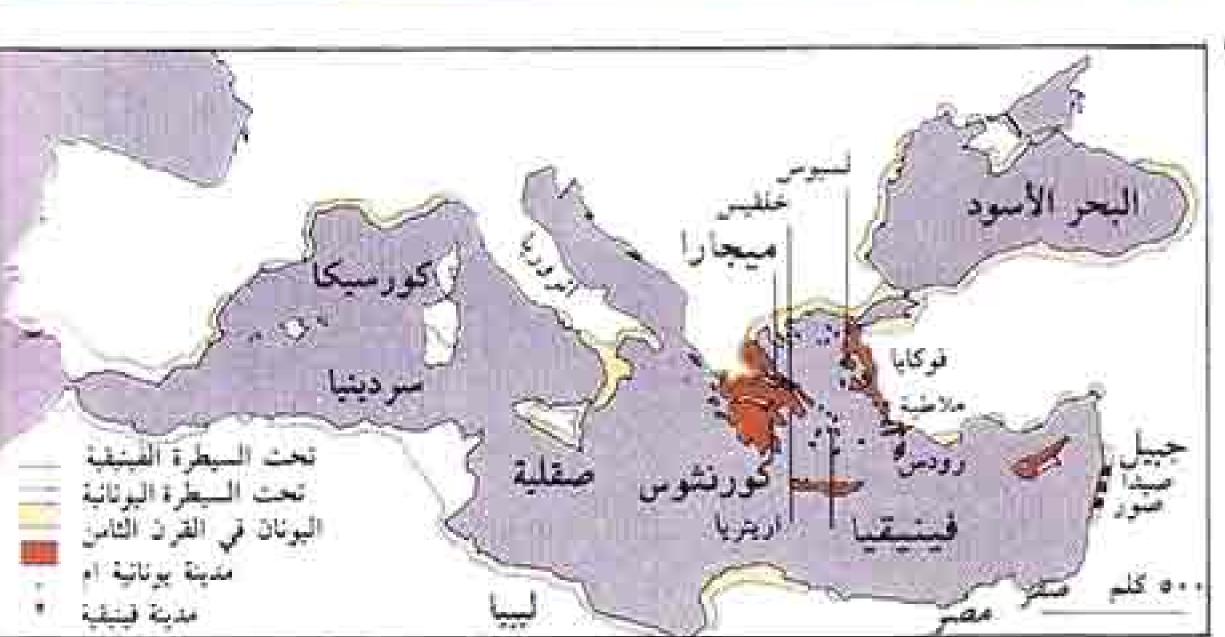
٥



٦



٧



(٥) ـ اصبحت جغرافية اليونان، بسهولها الخصبة المحدودة وجبالها الوعرة، عاملا بارزا في ظهور مجتمعات صغيرة، مثل كورنثوس (الظاهرة في الصورة). كان اليونانيون مقتنعين بأن هذه الوحدات الصغيرة المستقلة هي أنسب حجم طبيعي لحياة سياسية صالحة. هذا الموقف، مقرونا بتحركات دبلوماسية وعسكرية متواصلة بين الدول، كان يعني ان الوحدة الأوسع لم تُجرّب قط، مع ان فكرة الهوية اليونانية المتميزة، والشعور بالتفوق الثقافي على الأجانب، كانا شائعين.

(٦) ـ بعد تأسيس الدول ـ المدن، اصبح المجال واسعا امام تطور الحرف والتجارة. فقد استبدل بنظام المقايضة أساليب أكثر تنظيما. واستنبطت انظمة مختلفة للأوزان والمقاييس (مثل هذا النموذج الظاهر على اناء ذي مقبضين من أتيكا، حيث يبدو رجلان يستعملان ميزانا). لكن لم يكتب لأي نظام واحد ان يسيطر. كانت المعادن النفيسة تستعمل للمبادلة، سواء على شكل اسلحة، او قطع يقدر ثمنها بالوزن. وفي اواخر القرن السابع ق. م. تم اختراع العملة.

(٧) ـ كان الاستعمار وسيلة للتخلص من الفائض من السكان ومن الناقمين بارسالهم الى الخارج كي يؤسسوا مدنا في مناطق جديدة. بدأت المرحلة الأولى في حوالى ٧٥٠ ق. م ببعثات الى الغرب، حيث وجد اليونانيون ان الفينيقيين قد استقروا بصورة ثابتة في عدد من المناطق. لكنهم تمكنوا من الاستيطان في صقلية وايطاليا الجنوبية وفرنسا وليبيا. وفي حوالى ٦٥٠ ق. م. أخذ اليونانيون ينزحون نحو مناطق البحر الاسود، حيث أصبح لديهم مستعمرات

الزراعة والتجارة والسياسة

كانت الزراعة ذات شأن كبير من الناحية الاقتصادية العامة ، ورغم نشوء المدن وتوسعها ، بقيت الرابطة بينها وبين الريف قوية . ومع ذلك ، فقد اقبلت بعض الدول بصورة متزايدة على التجارة والصناعة (٦) ، ونشأت طبقة من التجار والصناع واضحة المعالم . من الناحية السياسية ، ومنذ القرن السابع ق . م كانت معظم الدول قد ابتعدت عن الانظمة الملكية التي وصفها هوميروس ، وأصبحت تحكمها أقليات (اوليغاركيات) مؤلفة من اكثر المواطنين ثروة وقوة . وهكذا حصرت طبقة نبيلة ذات امتيازات مقاليد السلطة السياسية والعسكرية والدينية بأسرها في يديها ، فنتج عن ذلك توتر دائم بينها وبين عامة الشعب .

زاد في تفاقم هذا التوتر تزايد عدد السكان ، لكن الاستعمار جاء يحل هذه المشكلة (٧) . فقد نظمت الدول حملات لتأسيس مدن جديدة فيما وراء البحار . ولكن ما ان تأسست هذه المدن الجديدة حتى اصبحت مستقلة عن المدن الأم ، وان احتفظت بعلاقات وثيقة معها . ومنذ حوالى ٧٥٠ ق . م . أدت الهجرة الى اقامة مدن يونانية ، في جميع انحاء منطقة البحر المتوسط . مقلدين بذلك قرطاجة .

انظمة سياسية جديدة

في أثينا ، قام صولون (٦٤٠ ؟ - ٥٥٩ ق . م) بمحاولات ترمي الى ازالة المشاكل الكامنة في الصراع الطبقي واصلاح الاطار القانوني للدولة ، من اجل حماية الضعفاء . وفي عام ٥٤٥ ق . م ، استولى بيزيستراتوس (٦٠٠ ؟ - ٥٢٧ ق . م) على السلطة ، فأكثر من الحقوق الممنوحة لعامة الشعب ، واخضع طبقة الاشراف لسلطة القانون .

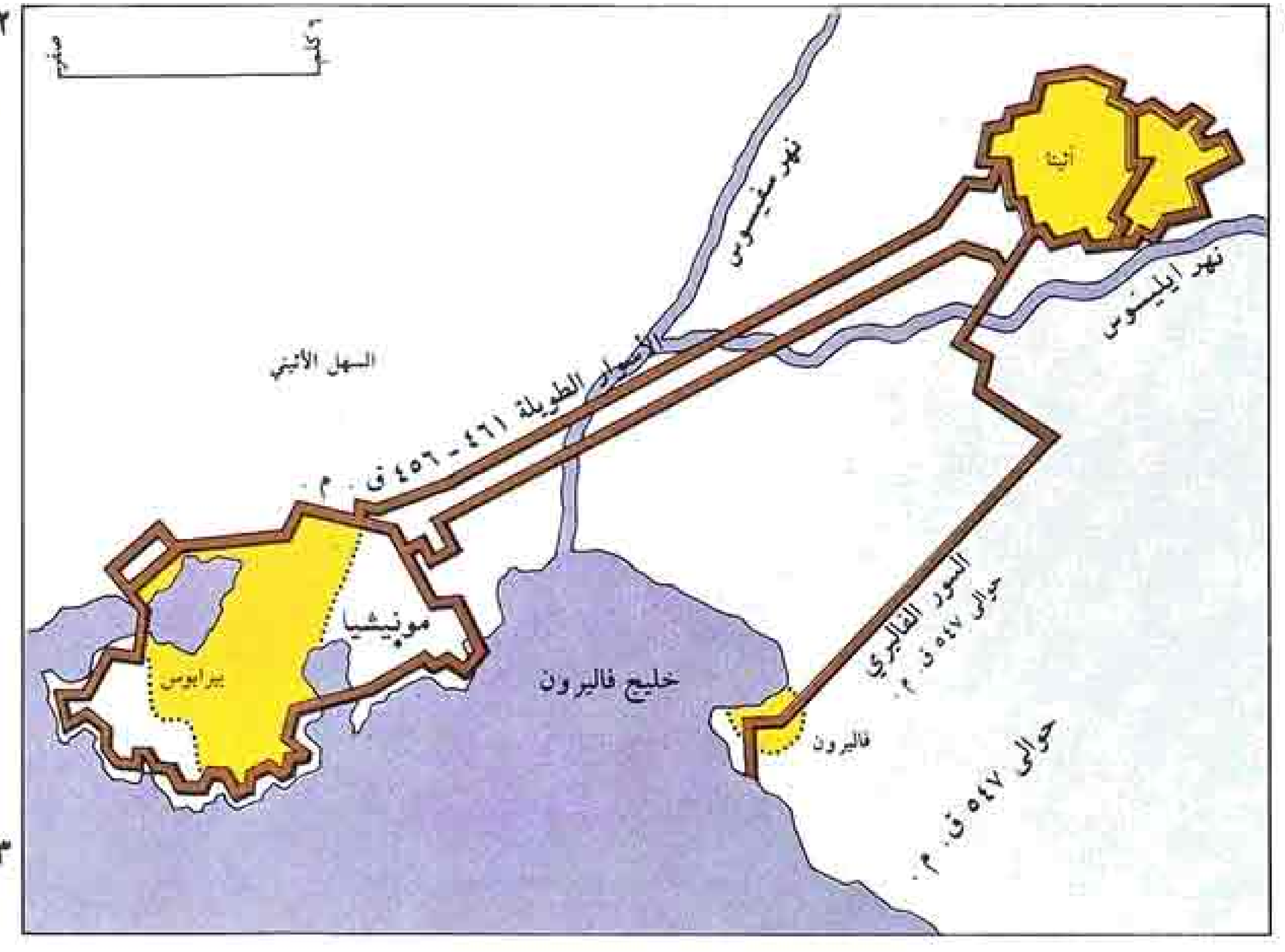
تبعت الدول الأخرى هذا الاسلوب نفسه ، ولذلك قلما استتب الأمر طويلا للطغاة . لكن بعض الدول تفادت كليا النظام الاستبدادي ، كما فعلت اسبرطة بفضل دستورها الخاص ، وكورنثوس بفضل نظامها الاوليغاركي المتين .

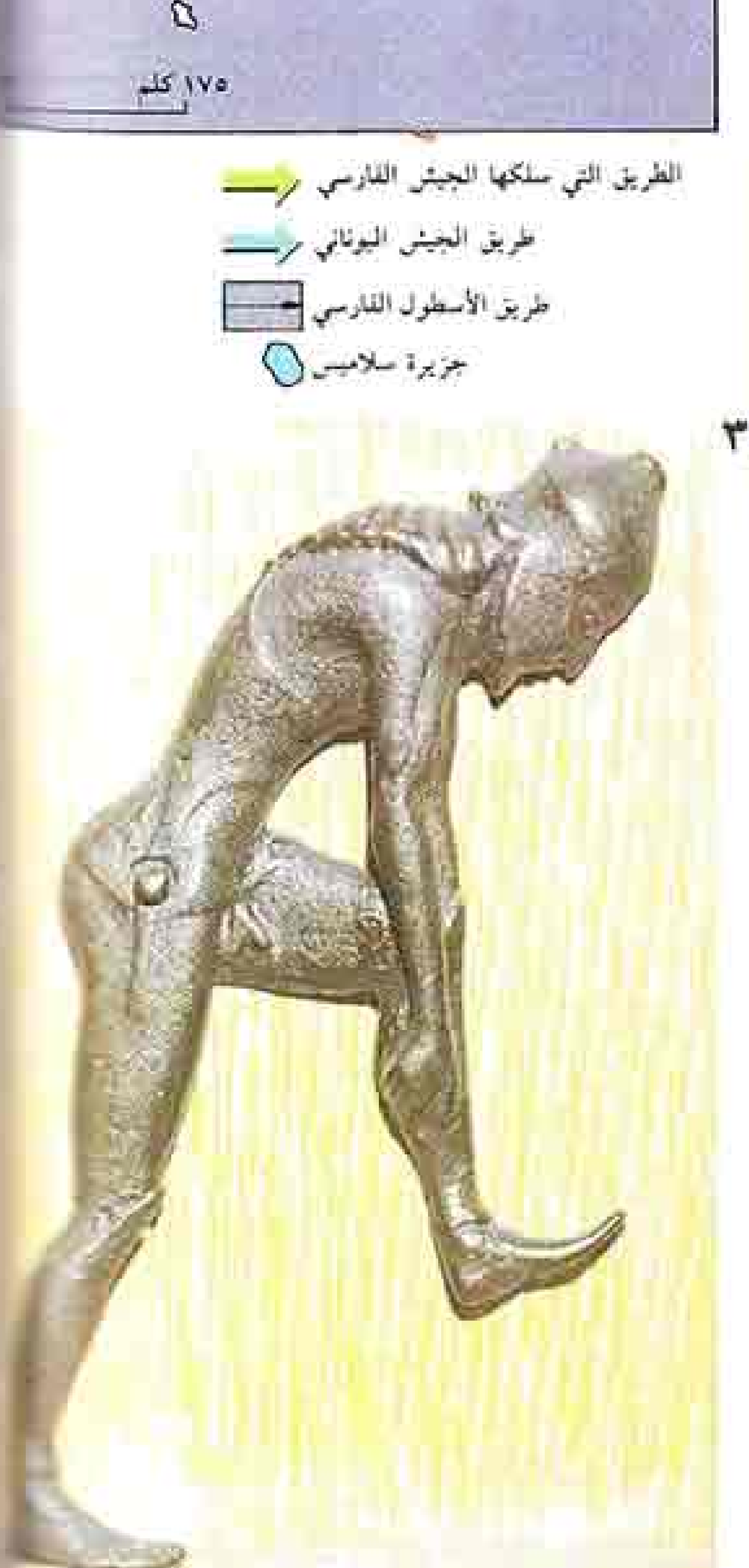
حتى منتصف القرن السادس ق . م ، لم يخضع اليونانيون كثيرا لتأثيرات اجنبية فيما عدا الاتصالات التجارية (٢) . تغيّرت الحال عندما بسط الليديون سلطتهم على الدول اليونانية في آسيا الصغرى ، وخلفهم في ذلك الفرس عام ٥٤٦ ق . م . لم تكن اي من السلطتين جائرة . ومع ذلك اعلن اليونانيون الثورة عام ٤٩٩ ق . م ، ونجحوا في استعادة استقلالهم مؤقتا . لكن بما ان اواصر الوحدة بينهم كانت ضعيفة ، كما كان ضعيفا ايضا الدعم من البلاد اليونانية ، فقد استطاع الامبراطور الفارسي دارا عام ٤٩٤ ق . م . ان يقمع الثورة ، وأعقب ذلك بفرض سلطته ثانية على تراقيا ومقدونيا ، ثم عمد عام ٤٩٠ الى تجريد حملة كبرى على اليونان .

كانت آثينا ، أكبر الدول اليونانية ، هدفه المباشر هذه المرة . استنجدت اثينا بالدول اليونانية الأخرى ، ولكن قبل وصول النجدة ، واجهت قواتها الفرس ودحرتهم بصورة حاسمة في معركة ماراثون ، رغم ان عددها كان أقل بكثير من عدد القوات الفارسية . فانسحب جيش دارا مخلفا اليونانيين على ما كانوا عليه من الانقسام ، ولكن مقتنعين بتفوقهم على من كانوا يسمونهم « بالبرابرة » .

اليونان الكلاسيكية

في عام ٤٨٠ ق . م ، قام الفرس بقيادة احشويرش بغزو اليونان مرة ثانية ، فزحف منهم جيش كثيف عبر مضيق الهليسبونت (البوسفور) ، وانحدر جنوبا عبر شبه الجزيرة . أوقف هذا الزحف ، لفترة قصيرة ، بفضل بطولة ٣٠٠ جندي اسبرطي ، تمركزوا عند مضيق ترموبيلي الصغير ، بقيادة ملكهم ليونيداس . وإذ طوقهم الفرس ، حاربوا حتى آخر رجل منهم . على أثر ذلك احتل الفرس أثينا . غير ان اسطول هذه الدولة - المدينة ، بقيادة السياسي ثيميستوكليس (٥٢٨ ؟ - ٤٦٠ ق . م) لم يلبث ان هزم ، في معركة سلاميس (٢) ، الجيش الفارسي الذي اضطر اذ ذاك الى التراجع شمالا . ثم هُزم مرة





(١) - بدأ ثيميستوكليس بتحويل بيرايوس الى قاعدة لأسطول اثينا وميناء تجاري . فبنى الاسوار الطويلة لربطها بأثينا ولتمكين اثينا من المحافظة على سيطرتها البحرية ، حتى لو غُزيت اراضيها . ومما يدل على أهمية هذا العمل ان الاسبرطيين أصرّوا ، بعد هزيمة اثينا عام ٤٠٤ ق . م ، على هدم الاسوار فورا .

(٢) - عندما اجتاح الفرس اثينا ، فر اللاجئون مع الاسطول اليوناني الى سلاميس . هناك ، وبفضل خدعة عسكرية ، نصب اليونان فخا للفرس ، فدمروا كتيبة كاملة منهم ، فضلا عن ٢٠٠ سفينة فارسية ، دون ان يفقدوا اكثر من ٤٠ من سفنهم .

(٣) - كان المقاتلون المشاة اليونان مدججين بالسلاح ، تدربوا على القتال ضمن كتائب متراصة منضبطة . كانوا يُجنّدون عادة من صفوف المواطنين التجار . الذين اكتسبوا بهذه الطريقة سلطة سياسية كبيرة .

(٤) - بعد هزيمة الفرس ، استخدمت اثينا اسطولها لحماية بحر إيجه منهم ، ولتحرير الدول اليونانية في آسيا الصغرى . سرعان ما تحول الحلف الديلي الدفاعي الى

أخرى عام ٤٧٩ ق . م في بلاثيا .

عصر أثينا الذهبي

انسحب الفرس من اليونان الا ان خطرهم بقي ماثلا . فتألف حلف دفاعي من عدد من جزر بحر ايجه ، والمدن اليونانية في آسيا الصغرى عام ٤٧٨ ق . م بزعامة أثينا قاعدته في ديلوس (٤) .

لم تلبث اثينا ، باعتبارها أقوى الدول اليونانية آنذاك ، أن سيطرت على حلف ديلوس ، وأصبحت ، برعاية زعيميها السياسيين : سيمون (توفي ٤٤٩ ق . م) وبيريكليس (٤٩٠ ؟ - ٤٢٩ ق . م) امبراطورية بحرية بكل ما في الكلمة من معنى ، فيما عدا الاسم . أصلح النظام الديمقراطي في عهد بيريكليس ، وساهمت التجارة في انشاء المباني الكبيرة والانجازات الثقافية العظيمة التي كُتب لها أن ترفع

٤
اسبرطة وحلفاؤها (الحلف البيلوبونيزي) ٤٣١ ق . م .
اثينا وحلفاؤها ٤٣١ ق . م .
دول يونانية محايدة ٤٣١ ق . م .
ثورات

امبراطورية عدوانية . بزعامة اثينا التي استغلت سلطتها هذه للتدخل مباشرة في الشؤون الداخلية للدول الحليفة . وقد أدى خوف اسبرطة من هذا التوسع الى التحريض على الثورات ضد اثينا ، والى تأسيس حكومات تتزعمها اقليات حاكمة ، كما أدى في ٤٣١ ق . م الى اندلاع الحرب البيلوبونيزية التي عمت بلاد اليونان بكاملها .



٥
(٥) - هذا المحارب الجريح منقوش على قوصرة هيكل افايا في اجينا . خلال العصر الكلاسيكي . كان القتال متواصلا تقريبا بين الدول - المدن . فأضعف بلاد اليونان سياسيا ، ولكنه لم يحل دون ازدهار الفنون والأدب والفلسفة فيها . ان انجازات اثينا تكاد تنسينا ان عددا من الدول الأخرى الواقعة في البرّ اليوناني وآسيا الصغرى ، قد انجبت ايضا فنانين وكتابا عظاما .

أسـم أثينـا عاليـا (١) .

كان لا بد ان تثير سيطرة اثينا الغيرة والخوف ، لاسيما لدى اسبرطة التي استمرت في الهيمنة على دول البيلوبونيز ، ولدى كورنثيا ، الدولة التجارية العظمى الأخرى . فحصلت اشتباكات متفرقة ، أثناء الخمسينات من القرن الرابع ق . م ، انتهت بعقد اثينا الهدنة مع منافساتها . اندلعت الحرب ثانية في عام ٤٣١ ق . م بين الأحلاف المتنافسين .

لقي بيريكليس حتفه بالطاعون عام ٤٢٩ ق . م ، الا ان كليون (ت ٤٢٢ ق . م) واصل استراتيجيته . لم يستطع أي من الفريقين الانتصار على الآخر بصورة حاسمة ، فعُقد الصلح عام ٤٢١ ق . م ، لكنه لم يدم اكثر من سنتين ، ثم اندلع القتال ثانية . وفي عام ٤١٥ ق . م ، استطاع الحزب الحربي في اثينا ، بقيادة الكيبياديس (٤٥٠ ؟ - ٤٠٤

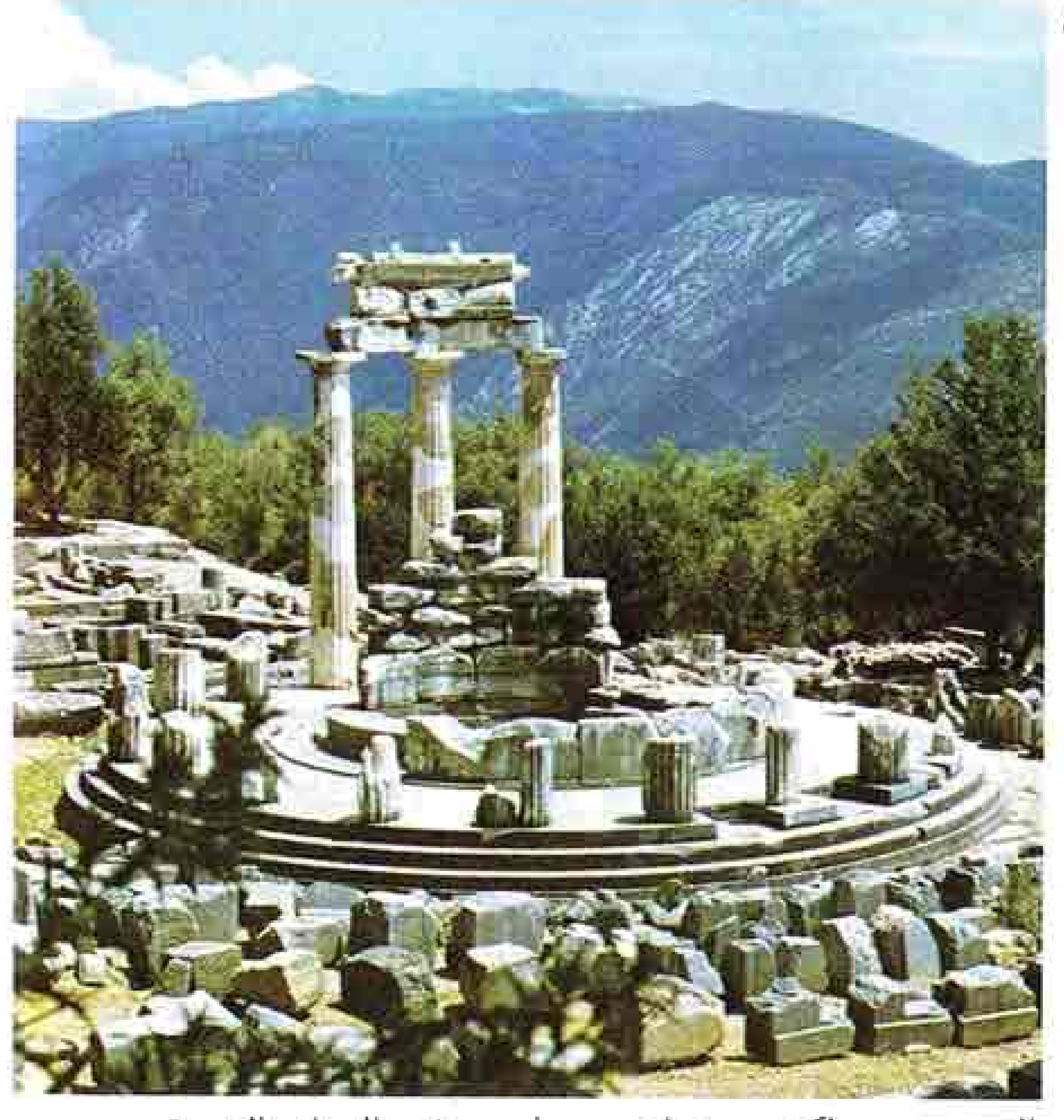
٦

(٦) - تظهر على قطعة الاربعة دراهم الاثينية هذه بومة اثينا التي كانت هي المعبود الشعبي الشفيع للمدينة . وفرت سيطرة اثينا البحرية والتجارية على بحر ايجه ، لتلك المدينة ، ثروة كبيرة ، فأنفقت بسخاء على الأبنية الفخمة والفنون ، ومكنت المواطنين من التمتع بأوقات فراغهم ليشتركوا في النظام الديمقراطي ، او يساهموا في الانتاج الفلسفي والادبي . وحتى في فترة انحطاطها ، بقيت اثينا زعيمة اليونان دون منازع في الميدان الفكري والفني .

٧

(٧) - يظهر على هذا الاناء مقاتل يوناني يقتك بعدوّه الفارسي . يؤرَّخ لبداية العصر الكلاسيكي اليوناني عادة بهزيمة باوسانياس للجيش الفارسي عام ٤٧٩ ق . م ، ولنهايته ببسط السلطة المقدونية على جميع انحاء اليونان عام ٣٢٠ ق . م . جاء عدد كبير من الانجازات اليونانية كنتيجة مباشرة للشعور بالاستقرار والتفوق اللذين نجما عن انتصار اليونانيين على الفرس . ولكن تعلقهم بالدولة - المدينة الصغيرة ، وانهماكهم بالمناورات السياسية والعسكرية ، حالا دون تحقيق وحدة سياسية أوسع ، يكون من شأنها ان تقف في وجه قوة مقدونيا المتصاعدة .

٨



(٨) - معبد اثينا في دلفي ، الذي كان ابولون يترأس طقوسه ، كان جزءا من المزار المحاط بالاكرام ، على نطاق واسع . في اليونان القديمة ، كان الدين في العصر الكلاسيكي عبارة عن قرابين ومراسم تؤديها الدولة او الفرد ، دون ان تنطوي على عنصر الارشاد الخلقي او التجربة الصوفية . الا ان الايمان الديني الواحد أدّى الى الشعور بحضارة مشتركة ، اكتسبت عناصر اضافية اخرى عن طريق مهرجانات شبه دينية ، كالألعاب الأولمبية .

ق . م) ان يقنع الشعب بتجريد حملة كبرى لغزو صقلية ، واحتلال سرقسطة . لكن هذه المحاولة باءت بفشل ذريع . وفي عام ٤٠٥ ق . م . فوجئت شراذم الاسطول الأثيني على حين غرة ودُمِّرت في ايجوسبوتاميا ، على يد ليساندر الاسبرطي (ت ٣٩٥ ق . م) الذي لم يلبث أن حاصر أثينا . وعندما استسلمت عام ٤٠٤ ق . م ، حل نظام حكم الأقليات (الاوليغاركية) محل النظام الديمقراطي ، واستولى الاسبرطيون على الامبراطورية الأثينية .

زوال الحكم الاسبرطي

احدثت انتصارات زينوفون على رأس « العشرة آلاف » ، وهم المرتزقة اليونانيون الذين قاموا بزحف شهير عبر الامبراطورية الفارسية ، حماسة شديدة لدى الدول اليونانية في آسيا الصغرى . فقامت بمحاولات لاستعادة حريتها ، وخلع النير الفارسي عنها . الا ان الفرس حثّوا حلفاء اسبرطة على الانقلاب على تلك الدول ، فلم يكن لها بدّ من التخلي عن هذه المحاولة ، وهكذا بقيت تلك المدن تحت السيطرة الفارسية .

شهدت السنوات الخمسون التالية أسوأ مظاهر النظام السياسي اليوناني في العصر الكلاسيكي . لكن اثينا استعادت قوتها بسرعة ، وأعيد بناء الديمقراطية فيها عام ٤٠٣ ق . م ، وما ان حل عام ٣٧٧ ق . م حتى كانت تقود حلفا بحريا ضد اسبرطة من جديد . ولكن طيبة هي التي قضت على الجيش الاسبرطي في معركة لوكترا عام ٣٧١ ق . م ، واصبحت بذلك الدولة المسيطرة . بعد عقد واحد ، بدأ الوهن يدب فيها هي ايضا حتى استطاعت فوكيس ، بفضل استيلائها على كنز دلفي ، أن تستأجر المرتزقة وتبسط سلطتها لفترة قصيرة .

بدء العصر الهلينستي

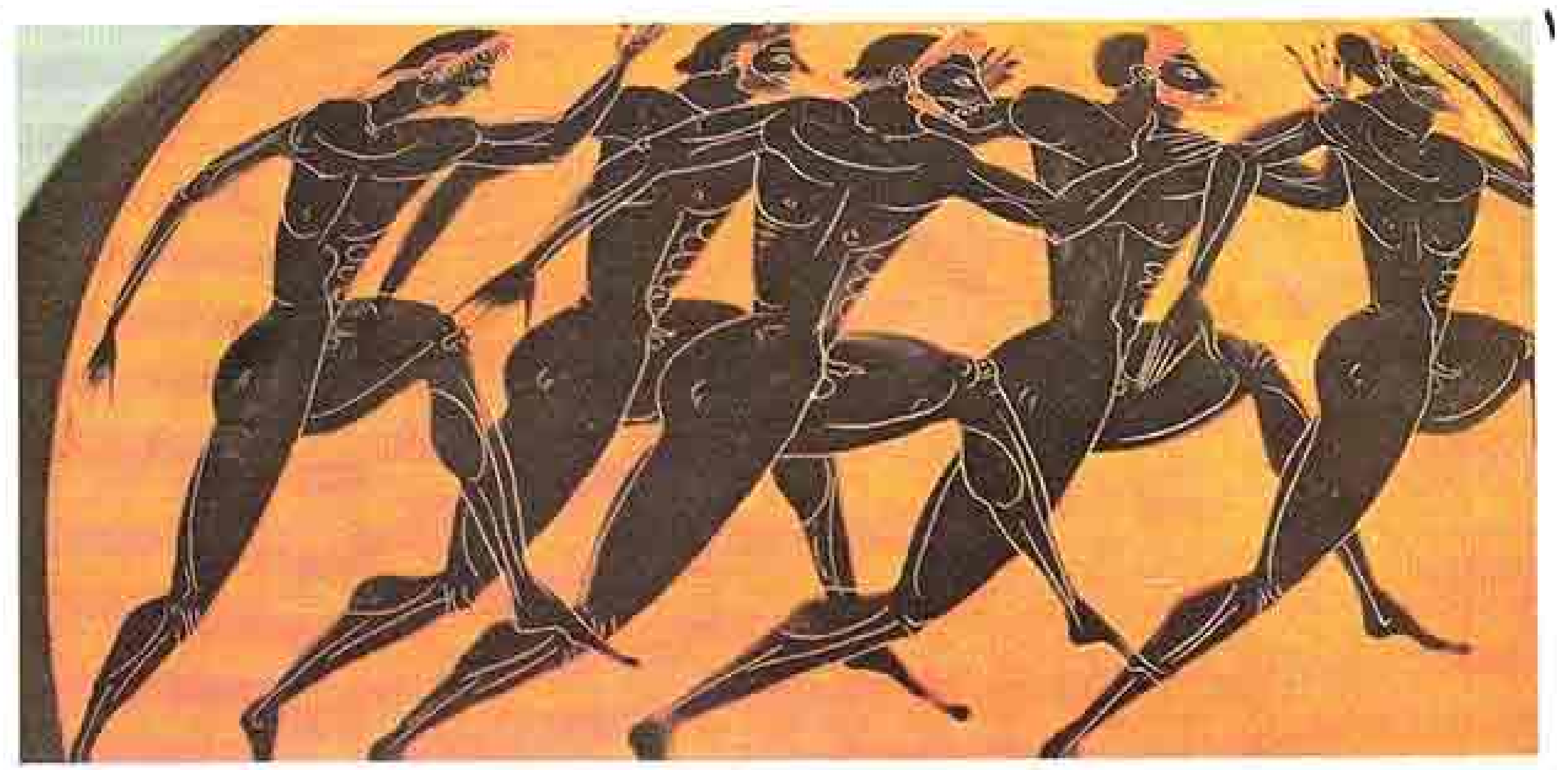
استمرت المنافسات بين الدول ومنعتها من التنبه الى خطر جديد كان آخذا في التفاقم في الشمال . كانت قبائل المقدونيين حتى ذلك التاريخ قد شكلت تحالفا مفككا في ما بينها ، الا ان فيليب الثاني (٣٨٢ - ٣٣٦ ق . م) ، الذي أصبح ملكا عام ٣٥٩ ق . م ، وكان منظما وقائدا ودبلوماسيا بارعا ، توصل الى توحيد تلك القبائل ، داخل مملكته . ثم انتقل الى ضم تيساليا عام ٣٥٢ وتراقيا عام ٣٤٢ ق . م .

كان الاثينيون أول شعب يوناني أدرك مدى الخطر الجديد . فقد هددت سلطة فيليب طرقهمَ التجارية المؤدية الى البحر الأسودْ . ومع ذلك ، فقد كانت سنوات من السلام النسبي قد أدت الى تخاذل الأثينيين ، وزوال النخوة الحربية من نفوسهم . حاول بعض الخطباء ، امثال ديموستينس (ت ٣٢٢ ق . م) ان يحثوهم على وضع حد للخلافات التقليدية بينهم ، حتى يتاح للدول اليونانية ان تتحد في وجه هذا الخطر الجديد . وبعد كثير عناء ، تم تأسيس حلف يوناني . الا ان فيليب هزم جيوش هذا الحلف عام ٣٣٨ ق . م في معركة خايرونيا واحتل طيبة . اما اثينا ، فقد اعدّت العدة لمواصلة المقاومة . ولكنها لم تلق دعما يذكر من الدول الأخرى . فكانت النتيجة أنه انشىء ، في مؤتمر كورنثيا ، حلف جديد ضم الدول اليونانية تحت الزعامة المقدونية . وهكذا قضي على استقلال الدول - المدن الحرة في بلاد اليونان .

المجتمع اليوناني الكلاسيكي

كانت اليونان الكلاسيكية منشأ لكثير من الافكار ذات الأثر العميق في الفن والأدب والفلسفة والعلم في الغرب . كما كانت لها مساهمة كبرى في ميدان السياسة ، اذ فيها نمت مُثل الديمقراطية لأول مرة . في جميع هذه الميادين كانت اثينا هي السباقة ، وهو ما أقرّ به حتى معاصروها . ففي قرنين اثنين ، انجبت اثينا سلسلة من الكتّاب والفنانين والعلماء والفلاسفة البارزين ، وكانت تجذب اليها الكثير من غير ابنائها ، حتى انه يمكن القول انه لم يبق أحد تقريبا من الشخصيات الهامة في الحياة اليونانية الثقافية الا وكانت له صلة بأثينا ، على الأقل في مرحلة من مراحل حياته .

١



٢



٣



(١) - لعبت المباريات الرياضية ، وتنمية الجسم الصحيح والحسن التدريب ، دروا هاما في الحياة الاجتماعية اليومية في اليونان . كان الملعب او الساحة الرياضية ملتقى شعبيا ، حيث كان بوسع الناس التحدث . وعقد المناقشات السياسية والفلسفية . حدد اليونانيون بدء تاريخهم بأول مباراة اولمبية جرت عام ٧٧٦ ق . م وكانت تتكرر سنويا في مهرجان يشترك فيه متبارون من جميع انحاء العالم اليوناني . فيوفر لليونانيين فرصة الاجتماع كأمة واحدة .

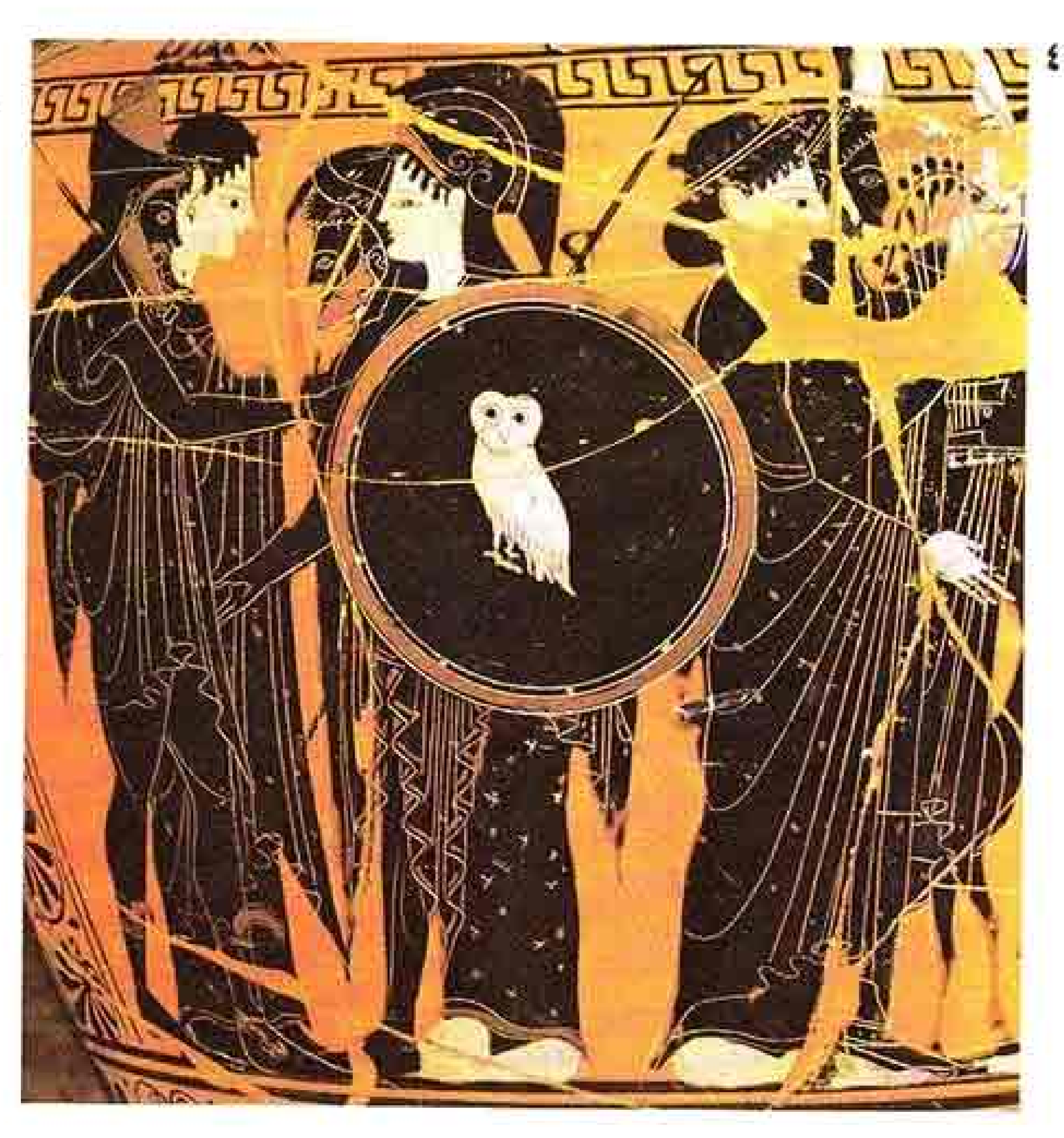
(٢) - كان المشاة الاسبرطيون مجهزين تجهيزا حسنا وباهظ التكليف . كانت دولة اسبرطة . القائمة على شعب معبأ كليا للخدمة العسكرية . (فقد كان الاطفال يرسلون الى الثكنات

اثينا والديمقراطية

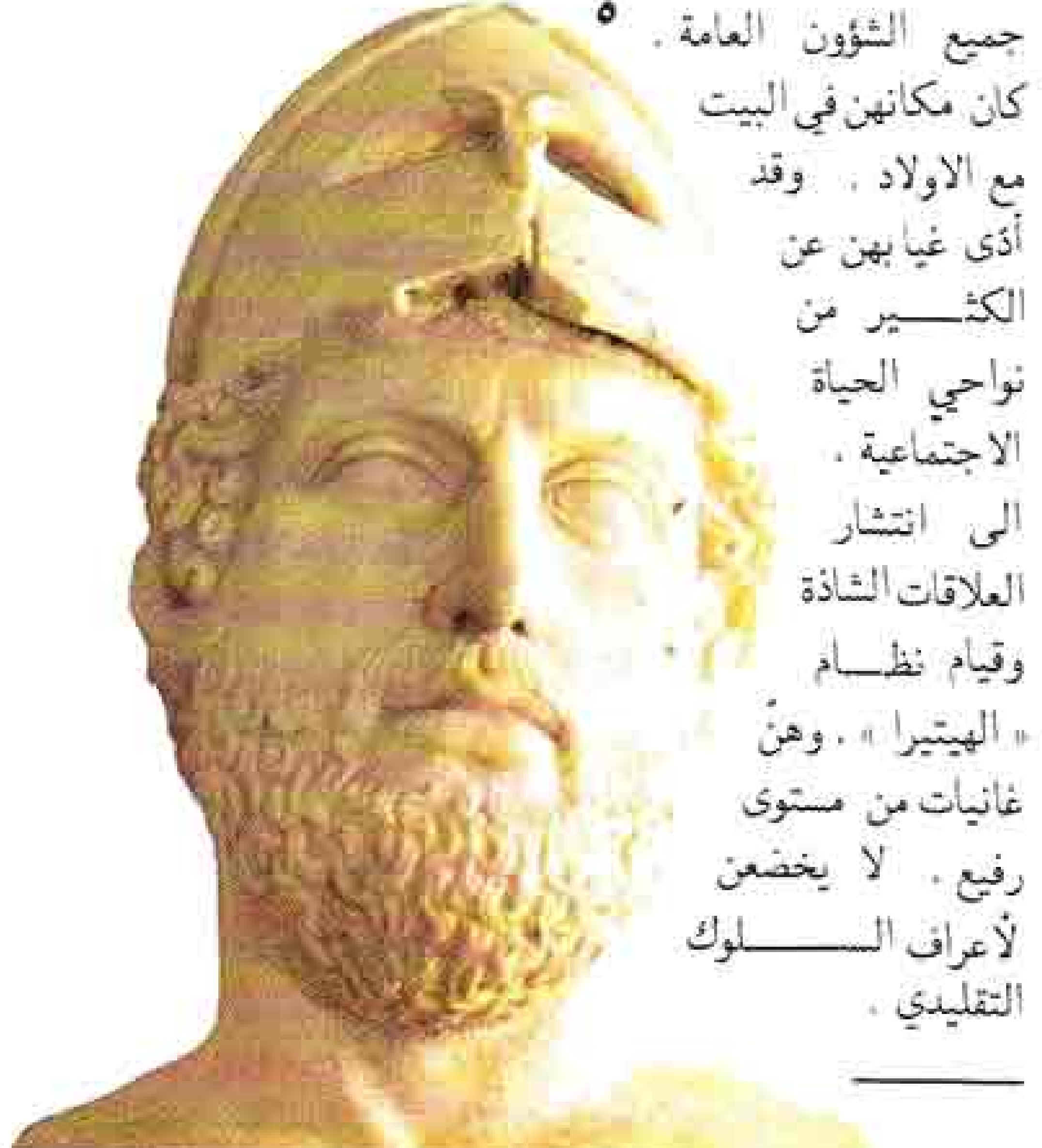
كانت اثينا ، المدينة ـ الدولة ، اكبر الدول ـ المدن العديدة التي ظهرت في اليونان . كانت مساحتها نحو ٢٥٠٠ كلم٢ ، وقد بلغ عدد سكانها في أوج نموها حوالى ٢٦٠٠٠٠ نسمة ، منهم نحو ٤٥٠٠٠ من المواطنين الذكور ونحو ٧٠٠٠٠ من العبيد . اما الباقي فكان من النساء والاطفال والاجانب المقيمين . في ذلك الوقت نفسه كان عدد سكان كورنثوس حوالى ٩٠٠٠٠ ، وكل من طيبة وكورسيرا واكراجاس حوالى ٥٠٠٠٠ ، والدول الأخرى من ٥٠٠٠ وما دون .

قام مفهوم الديمقراطية ، في جميع هذه الدول ـ المدن ، على المشاركة المباشرة في الحكم ، لا على نظام التمثيل . وكانت لجميع المواطنين فرص متكافئة لبلوغ المناصب الرفيعة .

على غرار عدد من الدول اليونانية



٤



٥

وهم في السابعة من العمر ، دون ان يسمح لهم بأية شواغل أخرى) تتمتع بنظام فريد من نوعه في اليونان . اعطاها أهمية تفوق بكثير الاهمية التي كان يستحقها حجمها الصغير . كانت معظم الدول الأخرى تعتمد على التعبئة المؤقتة لخوض الحروب المتكررة ، التي كانت جزءا من الحياة اليونانية . الا ان طبقة من المرتزقة المحترفين نشأت أثناء القرن الرابع . وربما بلغ عددهم ٥٠٠٠ محارب تقريبا . وقد قاتل بعضهم بجانب الفرس .

---

(٣) ـ كانت النساء في اليونان الكلاسيكية هي طبقة « العبيد » الكبرى الأخرى . لم يكن لهن اية حقوق سياسية او قانونية . وكن يستثنين من جميع الشؤون العامة . كان مكانهن في البيت مع الاولاد . وقد أدى غيابهن عن الكثير من نواحي الحياة الاجتماعية ، الى انتشار العلاقات الشاذة وقيام نظام « الهيتيرا » . وهنّ غانيات من مستوى رفيع ، لا يخضعن لأعراف السلوك التقليدي .

---

(٤) ـ تظهر على هذا الاناء اليوناني صور لمعبودات ذكور واناث ، بينها اثينا وهي تحمل ترسا نقشت عليه بومة . جاء وصف مجموعة المعبودات اليونانية في ملاحم هوميروس . وكانت تمثل على شكل بشري ، وتتحلى بالعواطف البشرية بل كثيرا ما كانت تتدخل في شؤون البشر . كان الناس يتضرعون اليها او يسترضونها بالصلوات أو الاضحيات . ولم يكن ثمة ايمان واضح بحياة بعد الموت . بل كان الدين في جوهره آنيا ومكرّساً في سبيل الحياة الهنيئة على هذه الارض

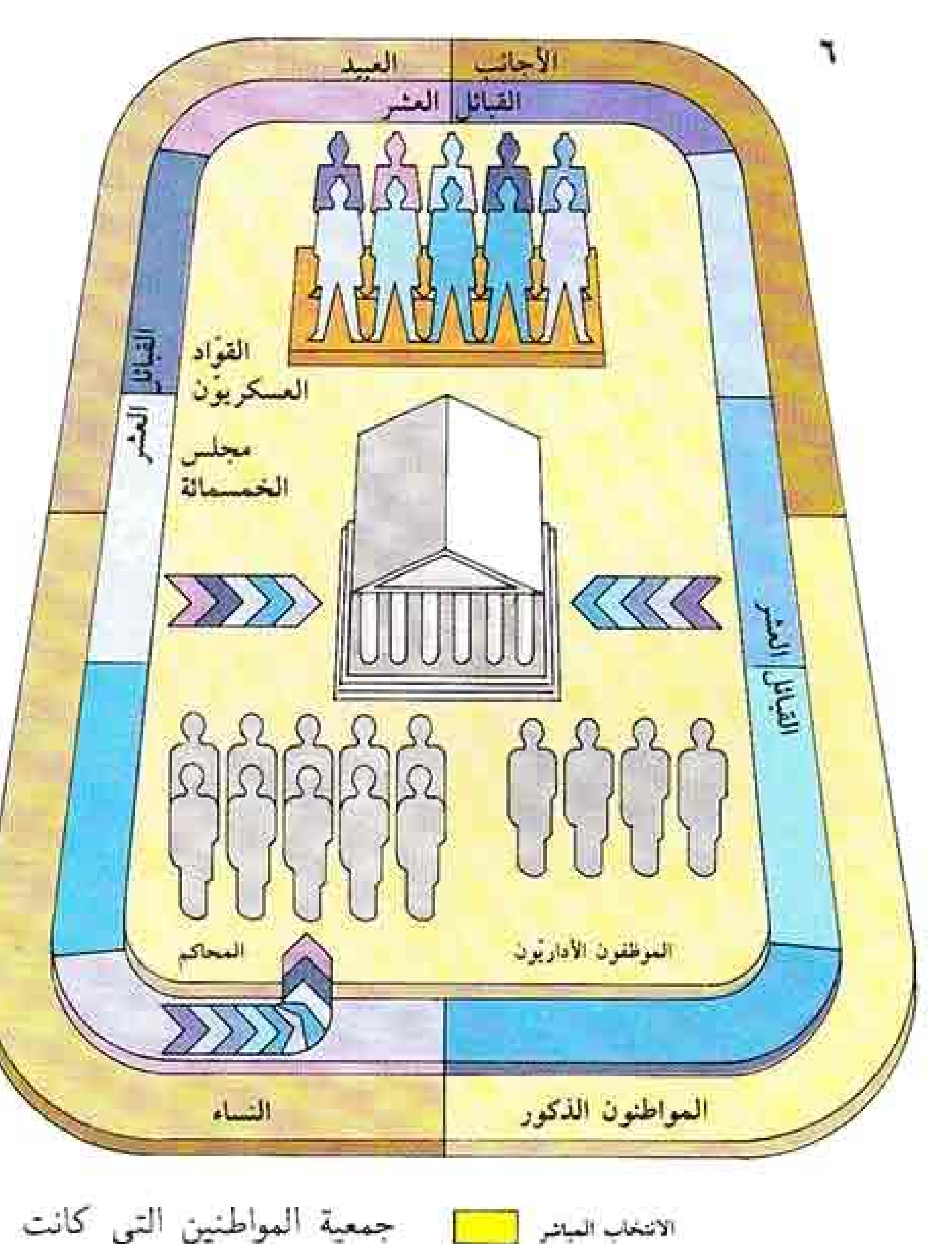
---

(٥) ـ كان بريكليس (٤٩٠ ؟ ـ ٤٢٩ ق . م) السياسي الاثيني العظيم الذي اصبحت اثينا بزعامته أغنى واقوى دولة يونانية . واليه يعود الفضل في بناء الهياكل والانصاب الرائعة في الاكروبوليس .

الأخرى . مرّت أثينا بمرحلة انتقالية من نظام حكم الاقلية (الاوليغاركية = حكم نفر محدود من الأفراد) ، الى نظام الحكم الطغياني (اي حكم الحاكم الفرد المستبد) . واقترنت تلك المرحلة الانتقالية بصراع بين الاغنياء والفقراء ، قبل ان تضع اصلاحات كليستينيس عام ٥٠٨ ق . م الاطار الديمقراطي للدولة .

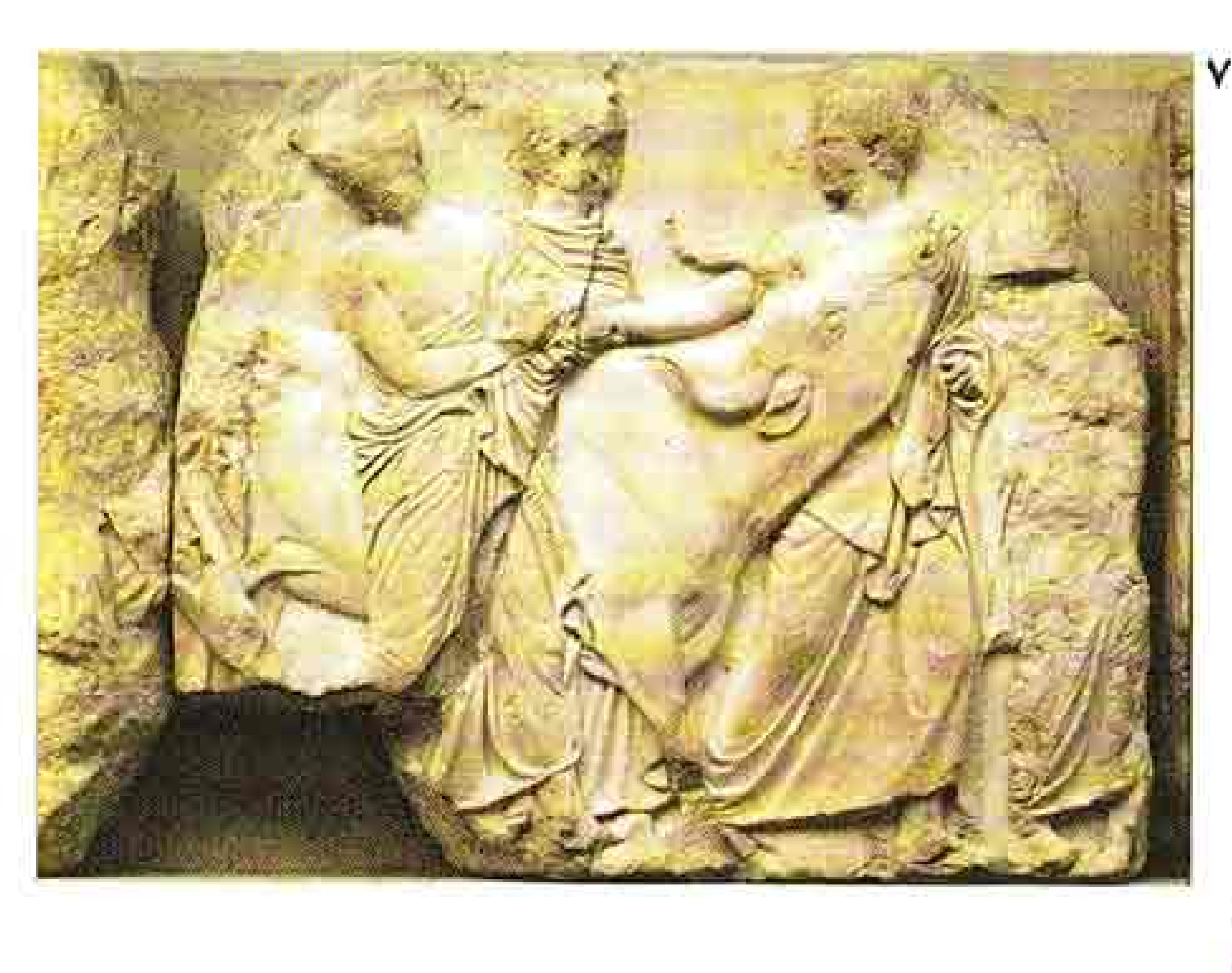
كان عماد هذه الديمقراطية جمهور المواطنين ، أو الشعب ، وكانت المواطنة حقا يحافظ عليه المرء بحرص شديد ، ولم يكن يُعطى للأجانب الا قليلا ، ولم يُعطَ قط للنساء (٣) والعبيد . كانت السلطة بكاملها منوطة بالشعب الذي كان يجتمع في جمعية عامة ، كل عشرة ايام تقريبا (٦) . وهناك كان باستطاعة اي مواطن ان يتقدم بمقترحات تتعلق بالقوانين او بالاجراءات ، فتُناقش ويجري عليها الاقتراع . وهناك ايضا

٦



(٦) ـ كان النظام السياسي الاثيني ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، قائما على سلطة جمعية المواطنين التي كانت تقترع على جميع القرارات الرئيسية . كان الموظفون الاداريون مسؤولين أمام الجمعية ، وكانت تنتخبهم قبائل المواطنين العشر لفترات محددة ، يستثنى من ذلك فقط القادة العسكريون العشر الذين كانوا ينتخبون ويحق لهم البقاء في الخدمة أكثر من سنة واحدة . كذلك كان بالامكان ممارسة السلطة الشعبية على كل من الموظفين والقوانين ، عن طريق المحاكم . حيث لم يكن لهيئات المحلفين الشعبية الضخمة صلاحيات قضائية وحسب ، بل تشريعية أيضا . فضلا عن صلاحية البت في دستورية القوانين .

٧



(٧) ـ عجل يُقاد الى الذبح كقربان في طقس ديني . كانت الدولة تشرف على الدين اليوناني . وكانت الصلوات والقرابين المفروضة يقوم بتقديمها كهنة او افراد عاديون منتخبون . لكن لم يكن للدين اليوناني ذلك اليقين الخلقي والاهتمام بالشؤون الخاصة للافراد ، اللذان تميزت بهما الاديان اللاحقة . كانت المعبودات كائنات شبه بشرية ، اعتباطية التصرف ، ولا تتصف بالحكمة ، وينبغي ارضاؤها عن طريق القرابين في اغلب الأحيان . وكان سلوكها لا ينطوي على أي مثال يُقتدى به .

كان يتم انتقاء الموظفين المدنيين والدينيين . وكانت هيئات القضاء تنتخب من بين المتطوعين .

حقوق وواجبات

كان كل مواطن اثيني يتمتع بحق وواجب خدمة الدولة . ولما كان عدد المناصب التي يجب اشغالها كل سنة يبلغ ١٠٠٠ منصب ، فقد كان نجاح النظام الديمقراطي متوقفا على وجود عدد كاف من الرجال الذين كان لديهم الوقت الكافي ، والرغبة في تكريس حياتهم للخدمة العامة . ومن الحقائق التي يجدر التنويه بها ان اثينا لم تفتقر ، في يوم من الايام ، الى رجال اكفياء يخدمون الدولة ، مقابل مكافأة زهيدة ، او دون أية مكافأة .

كان الاثينيون يجمعون ثروتهم من الارض والحرف والتجارة . ففي مطلع القرن الخامس ، كانت اثينا مصدرة رئيسية للفخاريات والزيت والنبيذ ، ومستوردة للسمك والخشب والقمح الذي كانت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا . وقد نشأت في اثينا طبقة محددة من الرأسماليين ، وطبقة عمال (بروليتاريا) من سكان المدينة . وتمتعت هاتان الطبقتان بأوقات فراغ وفيرة ، نتيجة لاستخدام العبيد في القيام بالكثير من الأعمال الاساسية . وعلى الرغم من نفوذ الأغنياء ، فمن الجدير بالذكر ان الديمقراطية الاثينية لم تشهد الا القليل من حوادث المجابهة ، بين الاغنياء والفقراء ، التي كانت تولد الاضطراب الدائم ، في معظم الدول ـ المدن الأخرى .

كان جميع المواطنين والغرباء مدعوين للخدمة العسكرية . ولكن في الواقع لم يكن يقوم بتلك الخدمة سوى الاغنياء ، لأنه كان على الجنود انفسهم ان يدفعوا ثمن تجهيزاتهم العسكرية .

اسبرطة : دولة عسكرية

لم تحقق أية دولة أخرى النظام الديمقراطي بالكمال الذي حققته اثينا . كانت اسبرطة هي اهم منافسة لها ، معظم هذه الحقبة . وكان نظامها السياسي والاجتماعي هو النقيض لكل ما كانت الديمقراطية تمثله . فمع حلول عام ٦٠٠ ق . م كانت اسبرطة قد اصبحت دولة عسكرية فريدة ، اذ كانت قد اخضعت لاكونيا ومسينا ، واستعبدت قسما من سكانهما ، وسلبت قسما آخر حقوقه السياسية ، واكرهت البقية على القيام بأود الاسبرطيين بدفع الضرائب ، أو بامدادهم بالطعام ، او باليد العاملة .

ولمنع حدوث ثورة او انفصال ، تحولت اسبرطة بكاملها الى معسكر للجنود . لم يكن عدد المواطنين فيها كبيرا قط (اذ لم يزد قط على ٥٠٠٠ على الأرجح) ، الا ان كل فرد كان جنديا محترفا ، كرّس نفسه منذ طفولته للانضباط المطلق ، ولفن الحرب . لم تكن اية دولة يونانية تشبه اسبرطة ، من حيث الانغلاق والخوف من الاجانب . كما ان الحرف والتجارة كانت موضع احتقار كبير . وقد أدّى الرفض التام لادخال مواطنين جدد الى تناقص عدد السكان ، والى الهزيمة في نهاية المطاف .

بقيت اسبرطة نموذجا للمجتمع المغلق ، والمنضبط كل الانضباط . ولكن اثينا سعت وراء الحرية الفردية والديمقراطية .

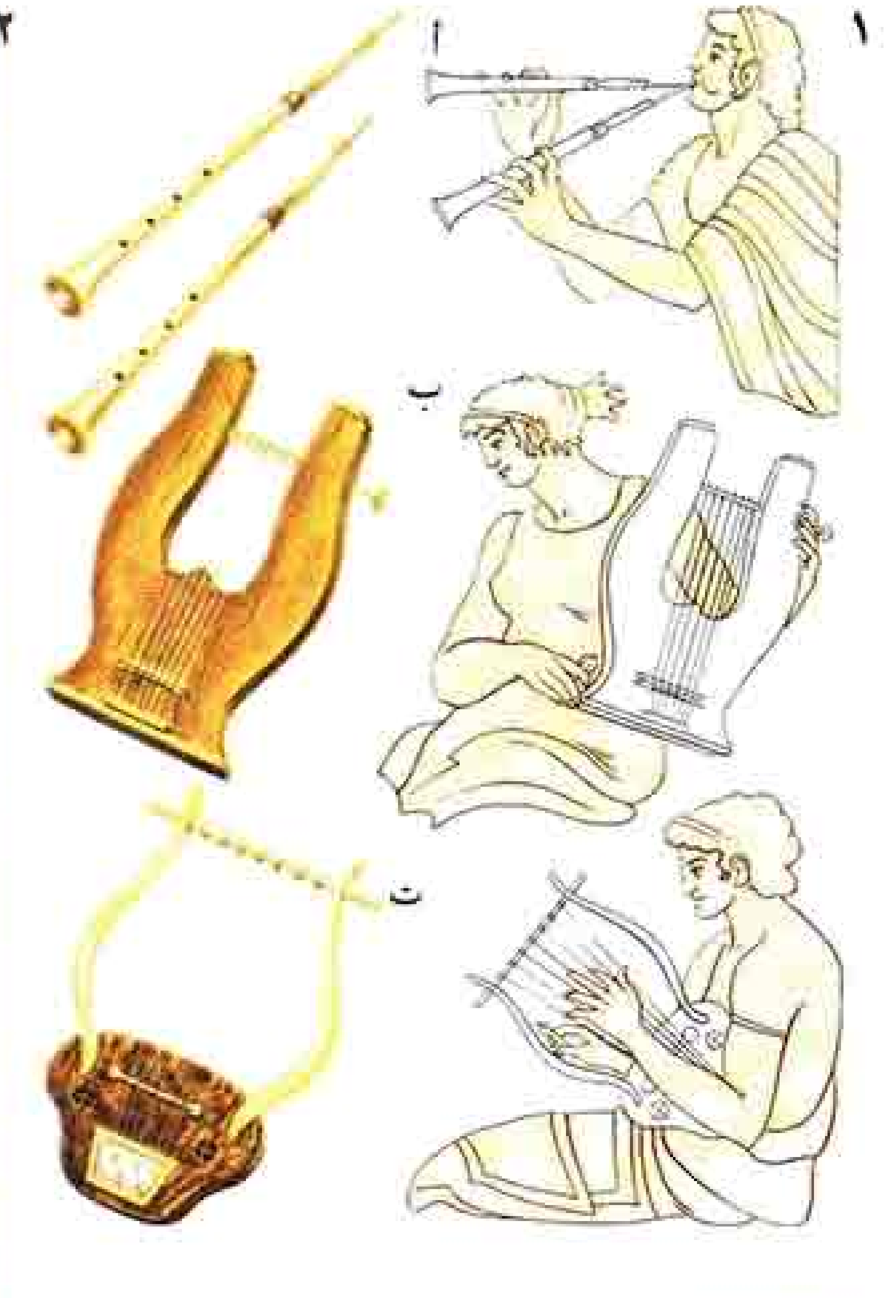
الأدب والمسرح اليونانيّان

لم يصلنا سوى الشيء القليل من أدب اليونان القديمة . ولكن ما وصلنا كان رائعا في تنوعه ونبله ورقته ، وكان تأثيره عظيما في المؤلفين الأوروبيين اللاحقين ، سواء كان ذلك مباشرة ، او عن طريق الأدب اللاتيني .

« الالياذة » و « الأوديسة »

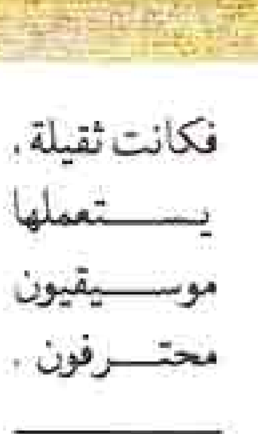
ما زالت شخصية هوميروس ، وهو أحد الأسماء العظيمة في الأدب العالمي ، موضع تساؤل حتى اليوم . فنحن لا نعلم اذا كانت مؤلفاته هي مجموعة أناشيد من وضع عدة شعراء شعبيين ، او روائع من وضع عبقري فائق واحد . وان كان الاحتمال الأخير ضعيفا . لكن مما لا يرقى اليه الشك ان « الالياذة » و « الاوديسة » هما من اعظم

١



٢





٣



(١) ـ لم يصلنا اي من الآلات الموسيقية اليونانية . ولكن ، بالاستناد الى الاواني والرسوم ، نعرف ان الآلات الرئيسية كانت الناي (أ) ، ونوعين من الكنّارة هما : القيثارة (ب) والرباب (ت) . كان العزف يتم على زوج من النايات ، وتنضم اليه أحيانا جوقة العازفين . أما القيثارة فكانت ثقيلة ، يستعملها موسيقيون محترفون .

المؤلفات الأدبية . وضعتا في القرن الثامن قبل الميلاد على الارجح ، الا انهما تصوران شخصيات شبه اسطورية ، عاشت قبل ذلك بـ ٥٠٠ سنة .

تصف « الالياذة » احداثا وقعت في اواخر حرب طروادة . قصة الملحمة مبنية على اساس من الواقع ، مع انها في جوهرها نسج رائع من الخيال الشعري . وتصف ملحمة « الاوديسة » ، وهي أقصر من سابقتها (٤) ، ما عاناه اوديسيوس في طريق عودته من تلك الحرب . بعد هوميروس بقليل ، ألف هيسيود قصيدتين ملحميتين تنطويان على عناصر تعليمية بارزة ، هما « الأعمال والأيام » و « توالد الآلهة » . وكان الشاعر الملحمي اليوناني الكبير الآخر من تلك الحقبة هو ابولونيوس روديوس (ولد ٢٩٥ ؟ ق . م) .

كان الشعراء اليونانيون عامة تستهويهم حرية الوزن والتعبير التي يوفرها الشعر

٤



٥



(٣) - هذه القطعة من الفسيفساء الرومانية ، التي وجدت في فيلا بالقرب من بومبيي ، تمثل حديقة الزيتون المكرسة للبطل اليوناني اكاديموس حيث أسس أفلاطون مدرسته الفلسفية المعروفة بالاكاديمية حوالى عام ٣٨٧ ق . م . يظهر افلاطون ، وهو الثالث الى اليسار ، يعلم في الاكاديمية التي استمرت حتى عام ٥٢٩ م ، عندما اقفلها الرومان . كان افلاطون ناثرا فذا ، وكانت محاوراته ، (في الظاهر مع سقراط) ، تتراوح بين الحديث العرضي ، وبين المجابهة العنيفة . من خلال تلك الآثار ، تبرز ايضا صورة الفيلسوف المتسائل ، والحكيم المتواضع . كان تفكيره من العوامل التي أثرت كثيرا في الفلسفة الغربية حتى القرن العشرين . عند افلاطون ، ليست الموجودات التي تدركها الحواس الا انعكاسا لصورتها او مثالها الذي هو وحده موجود وجودا حقا . ولكي يصل المرء الى معرفة المثال ، عليه ان يتحلى بالعقل او الادراك المجرد .

---

(٣) - هذا التمثال الصغير من الفخار المشوي العائد الى القرن الرابع ق . م يبين ممثلين يلعبان دور رجلين سكيرين طاعنين في السن . كما كان مألوفا في الملهاة اليونانية ، كان الممثلون يلبسون أقنعة مخيفة وأزياء غريبة .

---

(٤) - يسرد هوميروس في « الاوديسة » الاخطار والمصاعب التي احاقت باوديسيوس السيء الطالع ، في طريق عودته الى ايثاكا ، بعد اشتراكه في القتال مع اليونان في حرب طروادة . تظهر الرسوم على الآنية عدة احداث ، مثل لقائه مع الحوريات واصدار أوامره الى البحارة بأن يسدوا آذانهم بالشمع ، كي لا تجذبهم نحو الصخور أغاني الحوريات ، فيما اوثق اوديسيوس نفسه الى السارية ، حتى يتاح له ان يصغي اليها دون خطر .

---

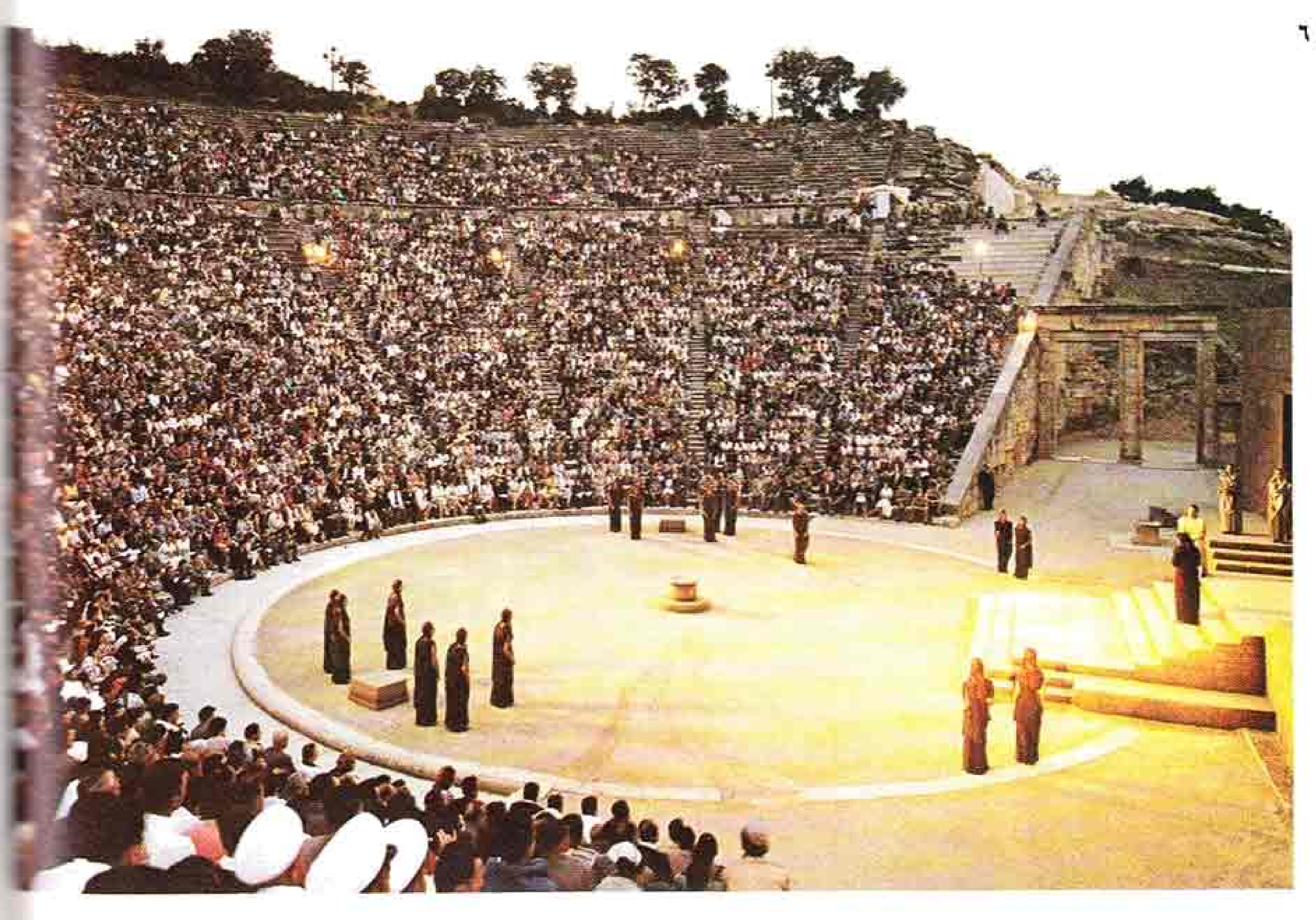
(٥) - تظهر الجوقة في مأساة يونانية ، على هذا الاناء ، وهي ترقص على ايقاع الشعر وتنشد على موسيقى الناي . في عهدها الاول خاصة ، جمعت المأساة اليونانية بين نمطين مختلفين . فالحوار بين الممثلين ، او بين الممثلين والجوقة ، كان ينشد على الحان الوزن العمبقي . اما قصائد الجوقة ، فكانت تبنى على عدة اوزان معقدة ، للتعبير عن العواطف التي تعالجها الاشعار .

الغنائي . نشأ الشعر الغنائي من اغان تنشد على لحن القيثارة ، وبلغ أوج تطوره في القرنين السابع والسادس ق . م ، لكن لم يصلنا منه الا شذرات تشهد على التهاب العاطفة ، والعذوبة ، والقوة التي كانت تتصف بها كتابات الشعراء من امثال تربندر وسافو وألكايـوس مـن بلـدة ليسبوس وألكمـان الاسبرطي وأناكريون الايوني وسيمونيدس من كيوس ، اما استيسيخورس ، الذي ينسب اليه وضع اناشيد الكورس التي تكرم ابطال الشعر الملحمي ، فقد أثر تأثيرا عظيما على بندار (٥٢٢ ؟ - ٤٤٠ ق . م) .

شعراء المأساة

يظهر ما يدين به الأدب الغربي لليونان ، على أبرز وجه ، في الحقل الدرامي . فالمآسي اليونانية الاثنتان والثلاثون التي لم تندثر قد هزت مشاعر الجماهير

٦



(٦) - جرت العادة ان تمثل ، في كل سنة ، مجموعة من المآسي اليونانية على مسرح ابيدوروس الرائع ، الذي يعود الى القرن الرابع ق . م . تظهر هنا أجزاء المسرح المختلفة ، فالى الأمام تقع « الاوركسترا » المستديرة التي كانت الجوقة ترقص وتغني فوقها ، وراءها خشبة المسرح التي كان الممثلون يقفون عليها ؛ في مؤخرة الخشبة المشهد او الخلفية الدائمة التي كانت تصنع من الخشب في الفترات المبكرة ، ومن الحجر فيما بعد . المسرحية الظاهرة هنا هي مسرحية « اليكترا » لسوفوكليس ، وهي قصة انتقام اوريستيس ابن اغاممنون شقيق اليكترا ، من قاتلي والده . يقف الممثلون الى اليمين ، والجوقة في الوسط والى اليسار . بقي لنا من مؤلفات سوفوكليس ، سبع مآس كاملة .

وألهمت الكتاب في جميع انحاء العالم تقريبا ، على مدى يربو على ٢٠٠٠ سنة .

اما عمالقة المأساة اليونانية فهم ايسخيلوس (٥٢٥ ؟ ـ ٤٥٦ ق . م) وسوفوكليس (٤٩٦ ؟ ـ ٤٠٦ ق . م) ويوريبيدس (٤٨٠ ؟ ـ ٤٠٦ق .م) . لكل من هؤلاء الشعراء عبقريته الخاصة . فأيسخيلوس يمتاز بالعظمة . وسوفوكليس بالمقدرة على التعبير عن المعضلات الخلقية ، ويوريبيدس بالنظرة الثاقبة الى الطبيعة البشرية . كانت المآسي اليونانية تمثل في المهرجانات (٥ ، ٦) فتقدم ثلاث مآس في كل حفلة ، بالاضافة الى مسرحية ساخرة كانت عبارة عن محاكاة هزلية للأساطير القديمة .

لا نعرف بصورة جازمة كيف تطورت المأساة حتى بلغت هذا الشكل المعقد الذي وصلنا ؟ من المحتمل انها انبثقت عن اناشيد الجوقة التي كانت ترنم في المهرجانات الدينية . يُروى ان شاعرا شبه اسطوري يدعى ثيسبيس أدخل الى المسرح شخصية تجيب على اقوال الجوقة . ثم بدأت الدراما الاصيلة ، التي تنطوي على صراع بين الاشخاص ، عندما ادخل ايسخيلوس شخصية ثانية . اما سوفوكليس ، فقد استخدم ثلاث شخصيات

ان مفهوم « الملهاة » (الكوميديا) اليونانية يكاد يكون مرادفا لاحدى عشرة مسرحية وصلتنا من قلم اريستوفانس (٤٤٨ ؟ ـ ٣٨٨ ق . م) . كانت كوميدياته شعبية وشخصياته مضحكة ، ومعالجته الساخرة للحياة . وللأفكار ، وللزعماء المعاصرين ، لاذعة في اغلب الاحيان . وكان لا يتردد حتى في هجاء المعبودات . ثم جاء ميناندر (٣٤٢ ؟ ـ ٢٩٢ ق . م) فألف كوميديات تعالج آداب السلوك في حياة المدينة . لكنها تفتقر الى حيوية اريستوفانس ولذعه . قلّدها وترجمها الى اللاتينية بلوتوس وتيرنس ، اللذان تأثر بهما ، فيما بعد ، شكسبير وموليير .

المؤرخون

تناول كل من مؤرخي اليونان القديمة العظيمين مهمته بطريقة خاصة تختلف جدا عن طريقة الآخر . فهيرودوتس (٤٨٥ ؟ ـ ٤٢٥ ق . م) اتخذ الصراع بين اليونان والفرس موضوعا رئيسيا له ، وكان رحالة وقصاصا لا يكل . أما توكيديدس (٤٦٠ ؟ ـ ٤٠٠ ق . م) فكان أول مؤرخ علمي . فقد عاصر ، فعلا ، الأحداث التي يصفها ، في روايته لأخبار الحرب البيلوبونيزية ، واستجوب المشتركين في تلك الحرب ، وشهود العيان من كلا الجانبين ، وربط بين العلة والمعلول ، وبسط الوقائع بأسلوب مقتضب وصريح . من المؤرخين اليونانيين اللامعين ايضا زينوفون (٤٣٠ ؟ ـ ٣٥٤ ق . م) وبوليبيوس (٢٠٠ ؟ ـ ١٢٠ ق . م) .

الفرعان الآخران للأدب اليوناني هما الخطابة والفلسفة . يعتبر ديموستينس (٣٨٣ ؟ ـ ٣٢٢ ق . م) اعظم من سائر خطباء اثينا اللامعين ، وهم ليسياس ، وايسوقراطس واسكينس .

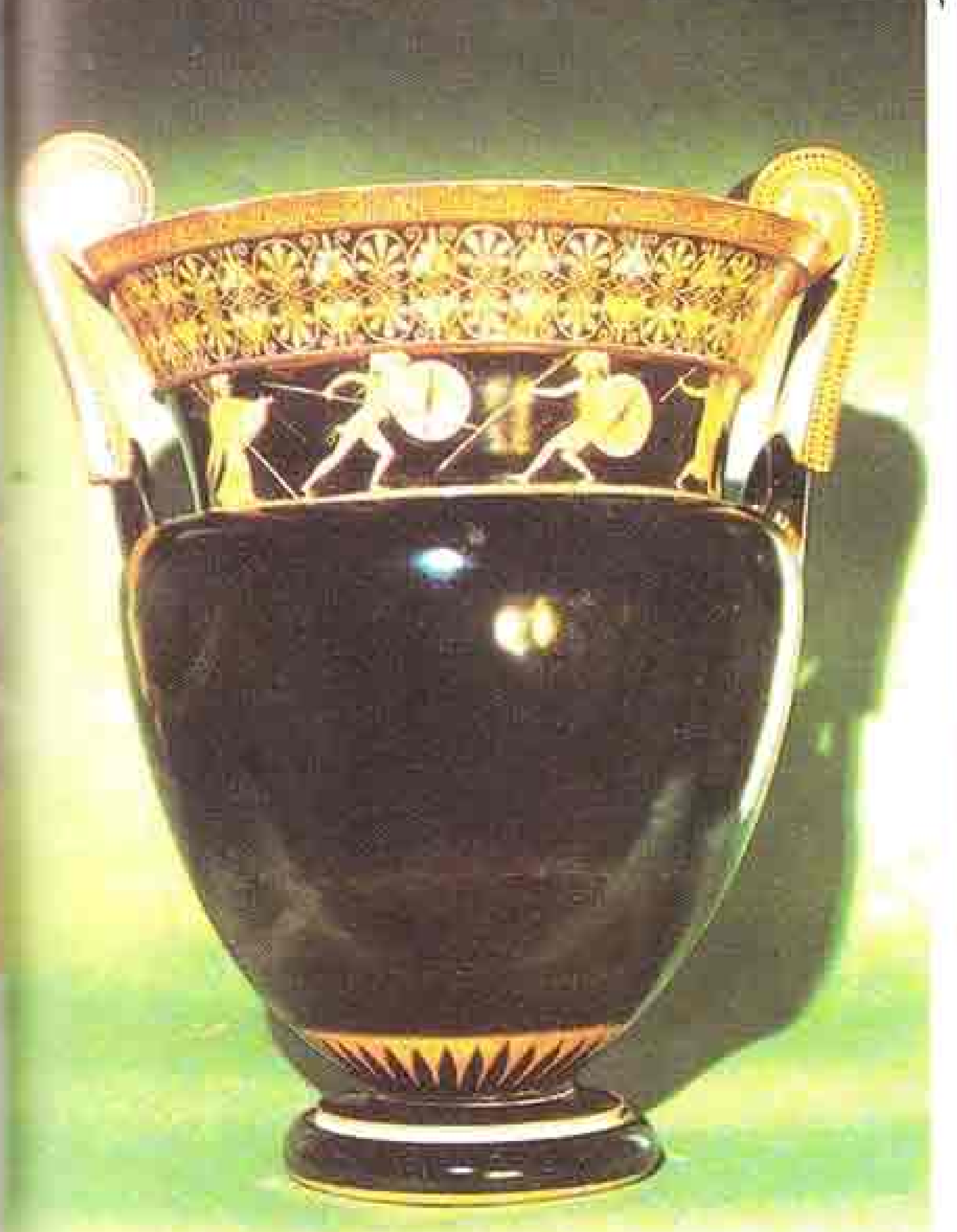
أما فيما يتعلق بالفلاسفة ، فقد انفقد الكثير من كتابات ارسطوطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) الفلسفية والأدبية عدا ما أنقذه ونقله العرب منها .

أما « محاورات » أفلاطون (٤٢٧ ؟ ـ ٣٤٧ ق . م) (٢) فتقدم نماذج من النثر اليوناني في أبدع أشكاله .

الفن اليوناني(١)
« ١١٠٠ - ٤٥٠ ق.م. »

طرأ على الفن والعمارة اليونانيين ، خلال سبعة قرون ، تغير تدريجي وعميق ، فانتقلا من طور بدائي ، الى ان بلغا مستوى رفيعا من التهذيب على عتبة العصر الكلاسيكي ، وهو العصر الذي أثر تأثيرا جماليا وفنيا لا يزال مستمرا على الفن الغربي الحديث . فقد ظلت السمات الموضوعية والطبيعية التي امتاز بها التصوير اليوناني للجسم البشري نموذجا للمجتمعات اللاحقة في الغرب . لكن تجدر الملاحظة انه بسبب ضياع المنسوجات ، والمصنوعات الخشبية ، وقلة المصنوعات المعدنية المبكرة ، لا تعطي حجارة المعابد المهدمة وسطوح المنحوتات المهترئة لوحدها انطباعا كافيا عن لون الفن اليوناني الاصلي

١


٢


٣


(١) ـ هذا الاناء ذو المقبضين هو رائعة من روائع الرسم ، بالشكل الأسود . صنعه وزينه اكسيكياس (اشتهر حوالى ٥٥٠ ـ ٥٢٥ ق . م) وهو اشهر رسامي عصره . يمثل الاسلوب الولادة الثانية للرسم الاثيني بعد ٦٠٠ ق . م . الاناء يرسم لحظة الموت التي التقت فيها عينا ملكة الأمازون بعيني قاتلها . فأدركت انه يحبها .

وتنوعه .

نمت جذور الفن اليوناني في الحضارة الميكينيّة في القرن السادس عشر ق . م ، وعلى اثر انهيار هذه الحضارة ، في القرن الثاني عشر ، بدأ « عصر مظلم » . كانت النماذج الوحيدة للحضارة المادية ، في هذه الحقبة ، أواني تزينها رسوم خطية بسيطة ، من الطراز المعروف بالهندسي النموذجي (١) . اما ولادة الفن اليوناني الحقيقية فقد كانت ، في الواقع ، بعثا جديدا تجلّى في نهضة القرنين التاسع والثامن ق . م التي أدّى نمو التجارة فيها ، وحاجات الحياة المستقرة ، الى انتاج عدد من الاشياء الوظيفية والجميلة معا .

أخذت الخطوط المتعرجة وغيرها من اشكال الفن الهندسي ، الذي ازدهر بين حوالى ٩٠٠ و ٧٠٠ ق . م ، تتصف بالجرأة والاتقان والتعقيد ، واصبحت تشمل تدريجيا

٤



(٢) - يمكن القول ان اسلوب رسم الاشكال الحمراء النافرة على الآنية ضمن خلفية سوداء قد بدأ يحل محل رسم الاشكال السوداء حوالى ٥٣٠ ق . م . هذه الباطية (طاسة) هي نموذج بديع لهذا التطور ، وهي تمثل مشهدا من حروب طروادة حيث يشتبك اخيليس وهكتور في نزال قاتل . تبدو في رسومها خصائص ستؤدي الى اتقان فن الرسم الهندسي .

(٣) - « عرش لودوفيسي » ، الذي يعود الى ما بين الحقبة القديمة المتأخرة والحقبة الكلاسيكية المبكرة ، يتميز بدقة القولبة ولاسيما بمنظر الشعر المبلول الملتصق بالرأس والثياب . كان هذا العرش ذات يوم في حوزة كارد ينال كاثوليكي . لكن مصدره ووظيفته مجهولان . تمثل رسومه ولادة افروديت من البحر بمساعدة وصيفتين .

(٤) - منذ أقدم العصور ، انصب اهتمام المعماريين اليونانيين الاساسي على بناء الهياكل . استنادا الى مخططات البيوت التقليدية المصنوعة اصلا من الخشب ، تطوّرت تصاميمهم بتأثير الهندسة المصرية حتى حل الحجر ، في القرن السادس ق . م ، محل الخشب . لكنهم حافظوا على عدد من عناصر فن النجارة ، مثل الأخاديد الشبيهة بالقدوم الظاهر في الاعمدة . استقر اول « الانظمة » المعمارية وابقاها ، وهو المعروف بالدوري ، في البر اليوناني اصلا . ومع ان بعض التعديل قد طرأ على هيكل هيرا الاول في بايستوم بايطاليا على يد مستعمرين يونانيين غربيين ، فان هذا الهيكل احتفظ بجميع الخصائص الدورية الكلاسيكية ، ويُعتبر أفضل النماذج التي وصلتنا .

اشكالا بشرية وحيوانية . كانت الاشكال مؤسلبة وترسم بطريقة مفاهيمية صرف ، دون اية محاولة لتمثيل العمق او الحركة . لكن هذه المشاهد المبكرة للمواكب الجنائزية والمعارك كانت فتحا جديدا . فقد كانت الخطوة الأولى نحو الفن الروائي ، الذي قيّض له ان يصبح السمة الغالبة لانتاج الفنانين اليونان ، الذين استلهموا قصص « الالياذة » و « الاوديسة » البطولية .

الحقبة القديمة الأولى

شهدت الحقبة القديمة الاولى (٧٢٥ - ٦٠٠ ق . م) التأثير الشرقي ، الذي أتى ، بصورة خاصة ، نتيجة للعلاقات التجارية مع الفينيقيين . كان الحرفيون من قبرص وسوريا يعملون في كريت واتيكا ، فاقتبس المواطنون اليونانيون ابتكاراتهم ، واضيفت أنماط مزهرة ومنحنية الى اشكال الخطوط المستقيمة ، فأدّى ذلك الى نشوء أساليب



(٥) - هذا التمثال البرونزي بالحجم الطبيعي لسائق عربة ، تم صنعه حوالى ٤٧٠ ق . م كقربان بمناسبة انتصار طاغية صقلي هو بوليزالوس من جالا . يتصف بمبالغة في المقاييس ، لأنه صُمّم لكي يشاهد من تحت ، ولأنه كان يستره الى حد ما هيكل العربة الذي كان منتصبا عليها اصلا . ومع انه يبدو للنظرة السطحية عملا معماريا بسيطا ، فان وضع الجسم فيه وتناسقه ينمّان عن مقدرة فنية ، تجعل منه رائعة من الروائع الكلاسيكية .

(٦) - من أبدع الشواهد على النحت ، في العصر الاتيكي ، التمثال المعروف بـ « حداد اثينا » . فقد جاء الجمع موفقا بين المنظر الكامل للجسم ، والمنظر الجانبي لثلاثة ارباع الوجه ، وتوفقت سيماء الوجه ، والوقفة الطبيعية والمسترخية ، في التعبير بوضوح عن الحالة النفسية الغارقة في التفكير . يسود الاعتقاد الآن ان المنحوتة كانت تقدمة وفاء نذر من قبل لاعب منتصر . تبدو في الصنعة الفنية بشائر النحت المتقن للعصر الكلاسيكي .



(٧) - ربما كانت صناعة الفخار على الطريقة « الهندسية الاصلية » المتميزة بدوائر بسيطة وخطوط متموجة ، قد نشأت في اثينا قبل نهاية القرن الحادي عشر ، مع تطور صناعة الفخار . اصبحت هذه الأشكال المبنية في الغالب على نماذج صناعة السلال ، والمنتجة على قياس ضخم (بعلو ١،٥ م) أشد تعقيدا نتيجة لظهور المتعرجات والأطناف (الأفاريز) والاشكال المؤسلبة لصور الحيوانات والبشر .

متميزة في رسوم كورنثوس واسبرطة .

ان اثينا ، التي كانت اصلا المركز الشهير للرسم الهندسي ، لم تعمل الا قليلا في مجال التجارة والاستعمار ، لذا فقد أفل نجمها فنيا ، لفترة من الزمن . ولكن على اثر استيراد الأفكار من مصر ، شهدت هذه الحقبة اولى الاعمال العظيمة في فن العمارة اليونانية . كان من نتيجة تأثير تصميم هندسة الهياكل في مصر ان استبدلت ، شيئا فشيئا ، الاعمدة الخشبية وسواها من الاجزاء بنظائرها من الحجر فنشأت انظمة العمارة اليونانية ابتداء بالدوري (٤) في النصف الثاني من القرن السابع . كما ان فن النحت تطور في ظل التأثير الشرقي ايضا . كان في الاصل يستخدم القوالب لصب الصور الصغيرة الثابتة الاشكال ، من اجل المعابد . ولكن مع حلول عام ٦٤٠ تقريبا ، بُدىء بصنع تماثيل اكبر ، مقتبسة من نماذج مصرية ، كما تم اقتباس واستعمال الكثير من الموارد المحلية ، من الرخام والمواد الرديفة ، كالسنباذج المستعمل للصقل . وفي هذه الفترة شاع تمثيل الاجسام الفتية للشبان .

على الرغم من اقتباس الكثير من اسلوب وطرق تنفيذ الاعمال المصرية السابقة ، فقد برز نمط يوناني مميز . كان من نتائج الاهتمام اليوناني بالالعاب الرياضية ان شاع اسلوب نحت تماثيل الشبان بالوضع العاري . ولتلبية متطلبات هذا الاسلوب اضطر النحاتون الى دراسة علم التشريح بصورة أدق ، وكان ذلك عاملا هاما في تطور فن النحت .

كورنثوس مركز لصناعة الفخار

مع حلول عام ٧٠٠ ق . م . كانت كورنثوس قد احتلت موقع الصدارة ، كمركز عظيم لصناعة الخزف اليونانية . فهناك نشأ وتكامل اسلوب الاشكال السوداء الذي استمر أكثر من ٢٠٠ سنة (١) . مرّت اليونان خلال العصر القديم في مرحلة رخاء لم تعهدها من قبل . فتوسعها الاستعماري كان قد اكتمل تقريبا ، ووفر نمو المدن الثابتة الرعاية اللازمة لتشجيع عدد من الجهود الفنية . فازداد بناء الهياكل وظهر « النظام » الايوني ، فاصبحت الهياكل أشد تعقيدا . وغدت تزيّن بافاريز منحوتة تنم عن مهارة فنية متزايدة . كما ازدادت معرفة تركيب الجسم البشري وطُبقت على نماذج من النحت اقرب الى الطبيعة (٥) سواء من النوع المجسَّم أو النافر (٦) . وتطورت طائفة من الحركات الشكلية والايقونية على فن الرسوم على الاواني فبني عليها العديد من الروائع من رسوم الأشكال السوداء .

أثينا ورسم الأشكال الحمراء

في حوالى عام ٥٣٠ ق . م ، كان رسم الاشكال الحمراء قد تأسس (٢) واصبحت اثينا المركز الرئيسي لهذا الاسلوب الذي لم يلبث ان حل محل أسلوب الشكل الاسود ، بسبب افساحه المجال لقدر اكبر من التفاصيل . تأثر الحس الفني للعصر الكلاسيكي المبكر (حوالى ٥٠٠ ـ ٤٥٠ ق . م) تأثرا عظيما بالنتائج المدمّرة الاجتماعية والاقتصادية ولاسيما النفسية للحروب الفارسية (٤٩٠ ـ ٤٧٨ ق . م) . ومن ابلغ الشواهد على ذلك ظهور النزعة للتخلي عن البسمة القديمة والتعويض عنها بتعبير أشد رصانة وموضوعية على الوجوه .

الفن اليوناني (٢)

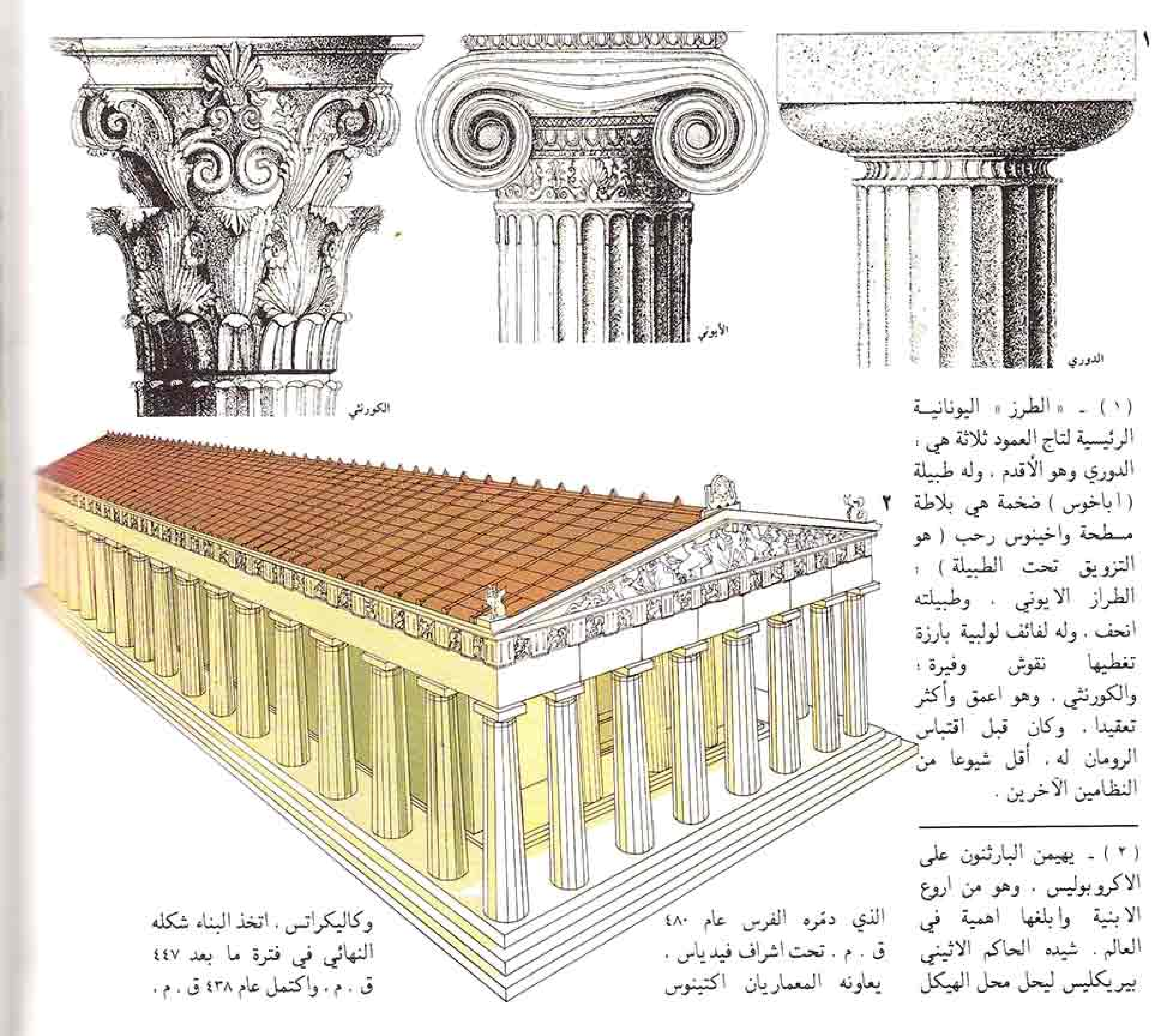
« ٤٥٠ - ٣١ ق.م. »

بعد حوالى ٤٥٠ ق . م ، دخل الفن اليوناني طورا اعتبرته الأجيال اللاحقة العصر الكلاسيكي الذهبي . قام هذا الفن على خبرة سابقة واستوعب تأثيرات جديدة (لاسيما الشرقية منها) وسعى وراء أهداف عليا .

كذلك بلغت فيه الاتجاهات التي كانت قد بدأت من قبل ، كالاقبال على الطبيعة في النحت ، ذروتها في اعمال المشاهير امثال فيدياس الذي يعتبر مبتكر الفن اليوناني الكلاسيكي .

الشكلية الكلاسيكية

مع ذلك ، تميز فن العصر الكلاسيكي الأعلى (٤٥٠ ؟ - ٤٠٠ ق . م) ، ليس بالحذلقة

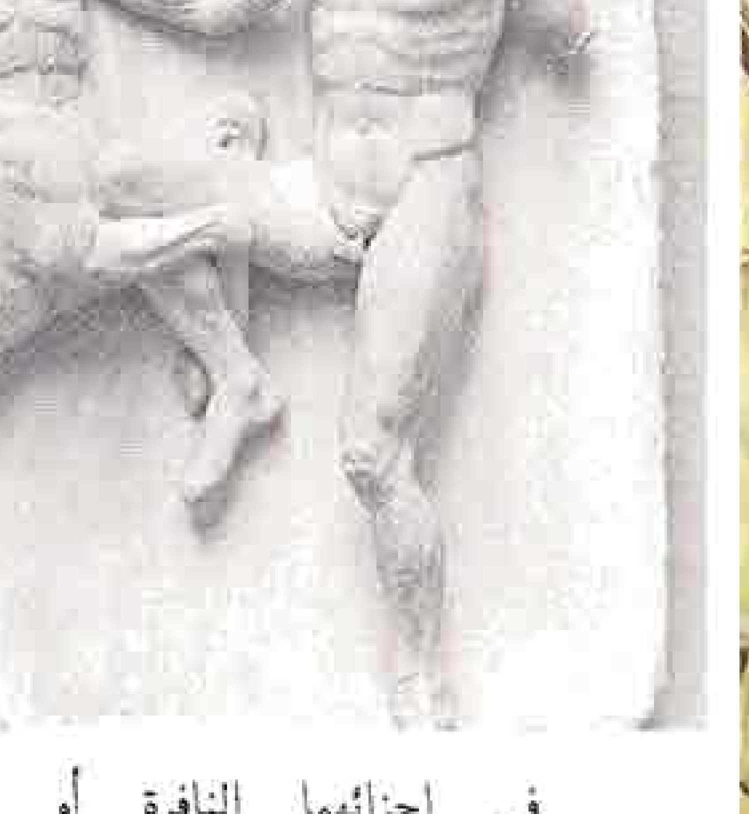


(١) - « الطرز » اليونانية الرئيسية لتاج العمود ثلاثة هي : الدوري وهو الأقدم ، وله طبيلة (اباخوس) ضخمة هي بلاطة مسطحة واخينوس رحب (هو التزويق تحت الطبيلة) ؛ الطراز الايوني ، وطبيلته انحف ، وله لفائف لولبية بارزة تغطيها نقوش وفيرة ؛ والكورنثي ، وهو اعمق وأكثر تعقيدا ، وكان قبل اقتباس الرومان له ، أقل شيوعا من النظامين الآخرين .

(٢) - يهيمن البارثنون على الاكروبوليس ، وهو من اروع الابنية وابلغها اهمية في العالم . شيده الحاكم الاثيني بيريكليس ليحل محل الهيكل الذي دمّره الفرس عام ٤٨٠ ق . م . تحت اشراف فيدياس ، يعاونه المعماريان اكتينوس وكاليكراتس . اتخذ البناء شكله النهائي في فترة ما بعد ٤٤٧ ق . م . واكتمل عام ٤٣٨ ق . م .

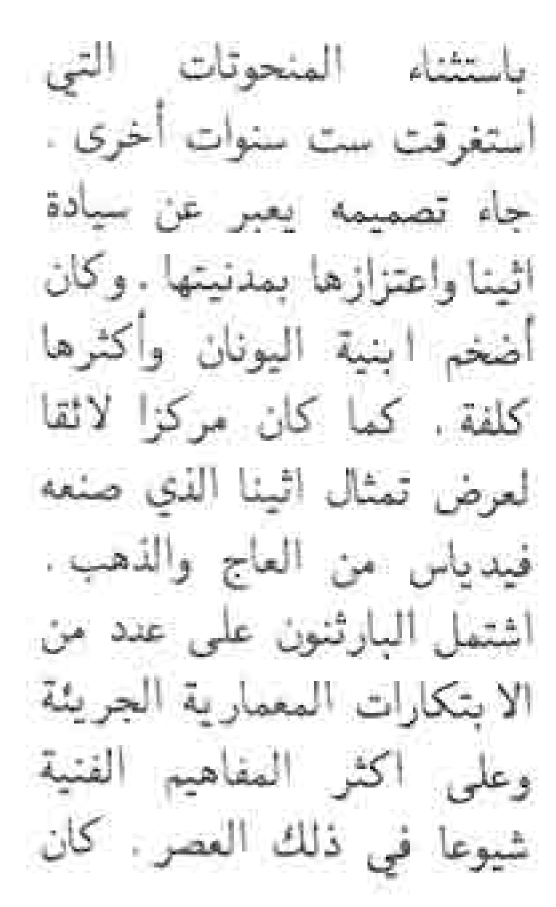
الفنية فحسب ، بل بضبط العواطف أيضا وتجنب التطرف . فقد كان هذا الفن شكليا ، خاليا من رسوم الشباب والشيخوخة ومن آثار مشاعر الغضب أو المتعة . ذلك ان حرص النحات اليوناني على تحقيق مثال الشكل الكامل أدّى الى نمط فني صاف ومنضبط ، ولكنه بارد وغير شخصي الطابع .

شهد العصر الكلاسيكي الأعلى بروز اثينا ، كمركز فني عظيم ، وخاصة في عهد حاكمها بيريكليس (٤٩٠ ؟ - ٤٢٩ ق . م) فبعد الدمار الذي سببته الحروب الفارسية ، وضع خطة لاعادة البناء اتصفت ببعد نظر لا يضارع ، فانتجت عددا من أروع الأبنية في العالم ، منها بصورة خاصة ، البارثنون (٢) والاريكتيوم اللذان شيدا فوق الاكروبوليس في اثينا . تتصف منحوتات البارثنون بواقعية وعظمة في التصور لا نظير لهما في تاريخ الفن (٤) . الى هذه الحقبة أيضا تعود



٤





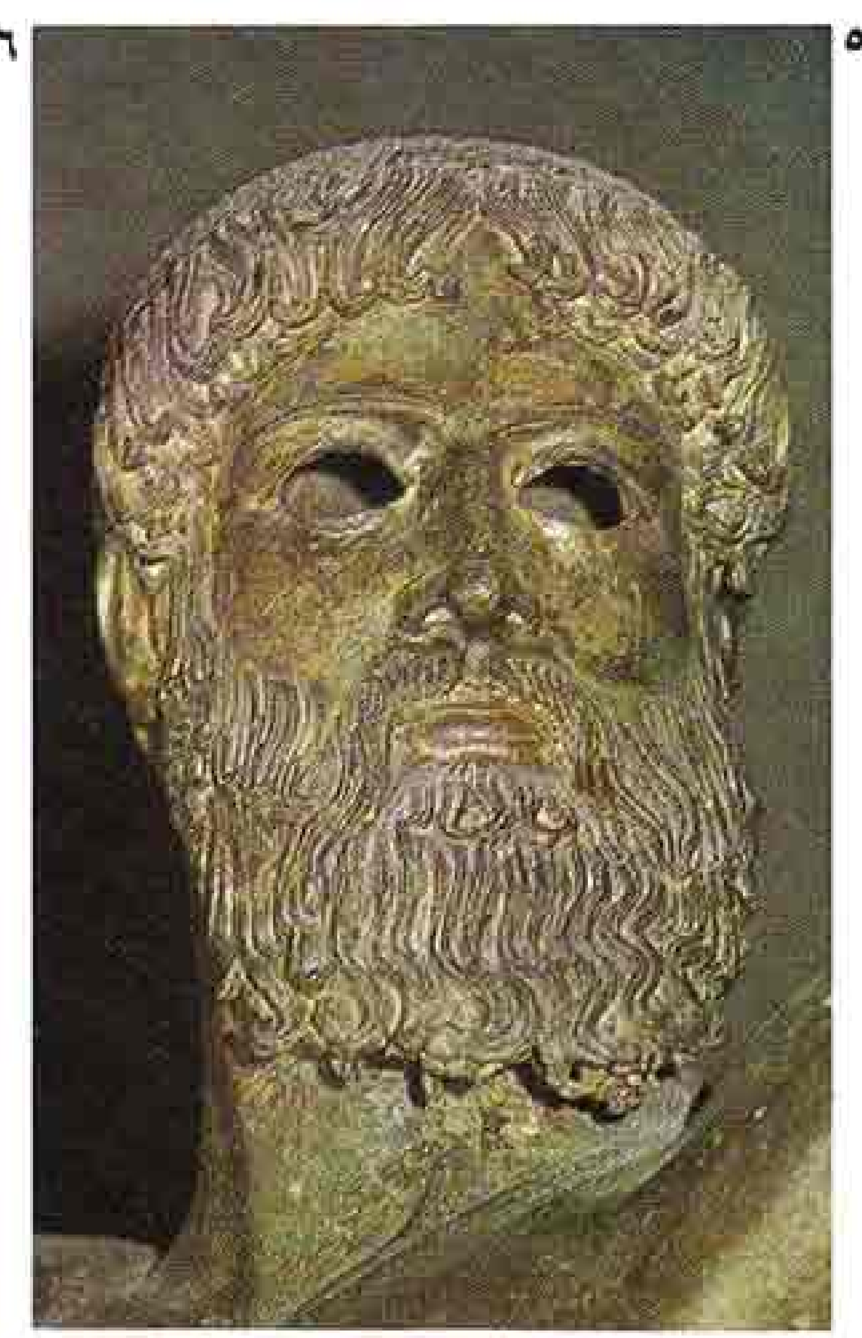
باستثناء المنحوتات التي استغرقت ست سنوات أخرى . جاء تصميمه يعبر عن سيادة اثينا واعتزازها بمدنيتها . وكان أضخم ابنية اليونان وأكثرها كلفة . كما كان مركزا لائقا لعرض تمثال اثينا الذي صنعه فيدياس من العاج والذهب . اشتمل البارثنون على عدد من الابتكارات المعمارية الجريئة وعلى اكثر المفاهيم الفنية شيوعا في ذلك العصر . كان كله من «الطراز» الدوري ، وله ثمانية أعمدة في واجهته ، بدلا من الستة المألوفة ، فضلا عن سبعة عشر عمودا داخل الرواق . يخفف انتفاخ الأعمدة من ظاهرة التقعر الذي يتوهمه البصر . أما الافريز والواجهة ، فقد كان انجازهما الطف وأروع وأمهر من أي من سابقاتهما وهما يبرزان كعملين من أعظم أعمال النحت في العالم . سواء في اجزائهما النافرة أو المستديرة .

(٣) - أمر آخر ملوك صيدا بصنع « ناووس الاسكندر » ، وكان هذا الملك يدين بمنصبه للاسكندر الكبير . كان هذا الأثر قبرا ونصبا في الوقت نفسه لتمجيد مآثر الاسكندر . وهو يصوّر مشاهد من حياته ، بما في ذلك معركته ضد الفرس ، ومشهدا من مشاهد الصيد ، طافحا بالحياة . تأثر النحات الى حد كبير بفن ليسيبوس ، اشهر نحّاتي القرن الرابع جميعا ، لاسيما في قولبة الأشكال . لكن العمل يعبّر أيضا عن النشاط والحيوية اللذين كانا يلهمان الفن الهلينستي .

(٤) - يرمز موضوع افريز البارثنون - وهو الصراع بين اللابيثيين (شعب من سكان تساليا) والقنطورس ، اثناء زفاف الملك اللابيثي بريثاوس - الى انتصار النظام والمدنية على البربرية . كان ذلك موضوعا يتكرر باستمرار في الفن الكلاسيكي الأعلى .

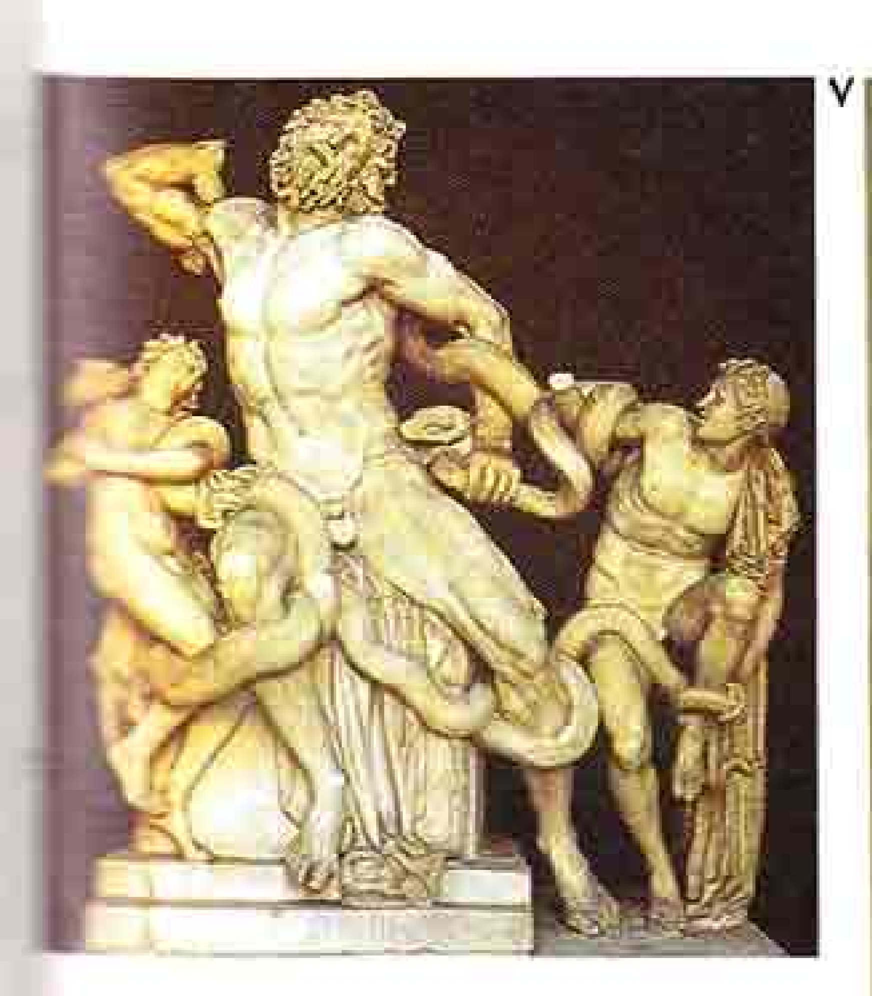
المنحوتات البنائية الفخمة والتفاصيل النحتية النافرة والتماثيل النذرية والتماثيل الطقوسية وخاصة تمثال زفس (زيوس) الضخم من أعمال فيدياس ، في هيكل اولمبيا الذي اعتبر احدى عجائب العالم القديم السبع .

مع ان تمثال الرجل البطل بقي بصورة عامة النموذج المفضل ، فقد تحول النحاتون بشكل متزايد الى صنع تماثيل للاناث ، واصبح التركيز خاصة على الالبسة ، ويبدو ذلك مثلا في تماثيل نايكي ، معبود النصر (٦) . هذا التحول من تصوير المثال الاعلى ، الفتى العاري ، الى التصوير المؤسلب للأنثى الملتفة بثوبها هو عنصر هام في عملية الخروج على الشكلية ، كان من شأنه تغيير مجرى الفن اليوناني . من الفنون الأخرى التي ازدهرت اثناء الحقبة الكلاسيكية العليا ، الرسم على الجدران الذي أخذ يتقدم حتى على الرسم على الآنية .

٥


٦


٧

(٥) - يشكل تمثال « بوزيدون » في ارتميزيوم ، وهو يمثل أحد أقدس المعبودات لدى راكبي البحار من الاثينيين - حلقة فنية وسطى بين أسلبة فن نحت الاشخاص الخاص بالعصور الاولى للفن اليوناني . وبين طبيعة الفن الكلاسيكي . هذا التمثال هو من اروع النماذج المصنوعة من البرونز التي وصلتنا . بجسده المفتول العضلات ورأسه البديع .

(٦) - يمثل تمثال نايكي في ساموثراس معبود النصر المجنح وهو مثال للفن البديع لمدرسة رودس في النحت . خلال العصر الهلينستي . صنع على الأرجح لتخليد انتصار بحري على انطيوخوس الثالث السوري . كانت نايكي تمثل اصلا معبود النصر هابطا على مقدمة سفينة . يعبّر التفاف ثنايا الثوب عن حركة الشكل القوية والرشيقة معا .

(٧) - صنع هذا التمثال الشهير - الذي يصور صراع الموت الذي خاضه الامير الطروادي لاوكوون وابناه في رودس - فنانون يونانيون تخصصوا في الاعمال التي تعبر عن العنف والألم . وهما عاطفتان اصبحتا من خصائص الفن الهلينستي . وكان هذا التمثال ، على غرار عدد من الآثار اليونانية في تلك الحقبة ، موضع اعجاب عظيم لدى الرومان . ونقل الى روما بأمر من الامبراطور طيطُس عام ٦٩ م . وقد قال عنه بلين الاكبر انه « يمتاز على كل الآثار السابقة في ميدان التصوير والنحت » . في عام ١٥٠٨ اكتشف هذا التمثال مرة ثانية في حمامات طيطس . فاشتراه البابا جوليوس الثاني للفاتيكان . حيث اكب على دراسته فنانون . امثال مايكل انجلو وبرنيني وروبنز .

فن رسم الأشخاص

في العصر الكلاسيكي المتأخر (٤٠٠ ؟ - ٣٢٣ ق . م) ، أدى الرخاء المتزايد والحرص الأشد على رعاية الفنون ، الى تحول عن المقاييس التقليدية اللاعاطفية التي ميزت العصر الكلاسيكي السابق . لقد ظهر فن رسم الاشخاص الحقيقي في اول الأمر بفضل تشجيع حكام الامبراطورية الفارسية الغربية المولعين بالجاه والنفوذ ، وجاء منافسا لرسم المعبودات الخيالي . كذلك نشأ فن نحت القبور الضخمة تخليدا للذكرى ، وليس من قبيل المصادفة ان تشهد هذه الحقبة بناء القبر المنحوت الرائع لملك كاريا موسولوس في هليكارناسوس الذي اشتقت منه كلمة موزوليوم (التي تعني الضريح أو المزار) . كان هذا الأثر ، على غرار ضريح الاسكندر (٣) ، من انتاج فنانين يونانيين كانوا يعملون على تخوم الامبراطورية ، ويدل فنهم وفن اقرانهم في البر اليوناني ، مثل براكسيتيليس وسكوباس وليسيبوس خاصة على التحول من المثالية الكلاسيكية الى الواقعية الهلينستية . أنتج ليسيبوس مثلا ، وهو نحّات الاسكندر الكبير الرسمي ، آثارا كان منظرها ممتعا من أية زاوية نظرنا اليها ، خلافا لبعض الأعمال الشكلية من الحقب الكلاسيكية المبكرة . كذلك انتج هذا الفنان رسوما لنصيره الاسكندر مليئة بالحياة . في الوقت نفسه ، ازدهر فن الرسم وصناعة المجوهرات نتيجة للثروة الجديدة للامبراطورية اليونانية .

الواقعية في الحقبة الهلينستية

كان العصر الهلينستي (من وفاة الاسكندر ٣٢٣ حتى معركة اكسيوم ٣١ ق . م) آخر طور في تاريخ الفن اليوناني . في هذه الفترة ، ازدهرت طوائف شتى من الفنون بتأثير تطور حياة البلاط ، واصبحت مدنية برغامة مركزا مرموقا للعمارة والنحت ، فيما نشأت مدارس محلية متنوعة ، في الامبراطورية السلوقية ، وفي الاسكندرية ، ورودس . لكن اثينا وحدها ، احتفظت بعدد من تقاليد الفن الكلاسيكي ، وبقيت المركز الرئيسي لهذا الفن ، في البر اليوناني .

أدّت تطلعات حكام امبراطورية الاسكندر الى اهتمام أكبر بفن رسم الاشخاص ، الذي كان الفنانون غالبا ما يحاولون فيه اعطاء الشخص هيبة شبه الهية . فكانت هي المرة الأولى التي تطغى فيها رسوم البشر على المعبودات مما أدى الى اضعاف النفحة الدينية والميثولوجية الاصلية للفن اليوناني ، لتحل محلها تصاوير دقيقة ، وان تكن مضخمة احيانا ، لبعض الشخصيات المرموقة .

ظهرت قوة الحركة في العواطف في بعض المنحوتات ، كالنقوش النافرة في مذبح زفس ببرغامة وفي تمثال نايكي في ساموثراس (٦) ومجموعة لاوكوون (٧) ، كما برزت الأنوثة في بعض الآثار ، مثل فينوس ميلو . كذلك صورت للمرة الأولى مشاعر الألم الجسدي والخوف والشيخوخة والصبا .

لكن في أواخر العصر الهلينستي ظهر اتجاه نحو تقليد الآثار الكلاسيكية السالفة ، أسهم مع عملية اقتباس الرومان على نطاق واسع للعناصر الرئيسية في الفن اليوناني في تأمين استمرار هذا الفن عبر العصور اللاحقة .

العِلم اليونـاني

ظهرت بواكير العلم اليوناني في القرن الثامن ق . م ، وذلك في القصائد الهوميرية التي تصف الكواكب وتورد فكرة غريبة عن الكون مؤداها انه كروي (٤) . كانت الحضارات الاخرى قد اكتفت بوصف سماوات نصف كروية . الا ان حب اليونان للأشكال المتناظرة حملهم على الأخذ بمفهوم كروي للكون .

الدراسات اليونانية للكون

ان اوائل العلماء اليونانيين الذين وصلتنا اسماؤهم ، وهم طاليس وانكسيمندر وانكسيمينيس ، قدموا من الشاطىء الشرقي للبحر الايجي ، وعاشوا في القرن السادس

١ (١) ـ وضعت خريطة العالم هذه التي نشرت عام ١٤٨٦ على أساس خريطة أخرى رسمها بطليموس في الاسكندرية قبل ذلك بحوالى ١٣٠٠ سنة . استُمِدَّت هذه الخريطة من شهادات المسافرين لاسيما المكتشف اليوناني بيثياس الذي عاش في القرن الرابع ق . م .

(٢) ـ للطب اليوناني تاريخ طويل مرموق . فقد كان الطب النفسي يمارس في هياكل الاستشفاء . مثلما كانت المعالجة مألوفة بالأعشاب والجراحة . يظهر في هذه المجموعة المتنوعة من الأدوات الجراحية اليونانية ، ملاقط ومباضع ذات اشكال مختلفة . اضافة الى أدوات أخرى .

(٣) ـ يحيط بقمة برج الرياح في أثينا عدد من المزولات (الساعات الشمسية) ، وكان يحمل قديما ساعة مائية ضخمة . مبنية وفقا لتصميم من وضع ستيسيبيوس ، كان لها جهاز متشعب معقد يؤمن ضغطا مائيا متواصلا . بحيث كانت الساعة دقيقة لدرجة كافية .

(٤) ـ صورة من العصر الفيكتوري في بريطانيا تمثل عالم هوميروس . تبدو فيها الارض على شكل قرص . في وسطه اليونان عائمة على سطح الماء يحيط بها فلك الكون . الشمس تبزغ من الشرق ويبدو القمر عاليا في كبد السماء . كان معظم الفلاسفة اليونان يعتقدون ان الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة تدور حول الأرض . لكن فكرتهم المبتكرة هي ان السماء تؤلف فلكا محيطا وهو شكل أكثر كمالا من القبة او نصف الكرة . لم يكن ثمة أدلة تدعم هذه النظرة الى الكون ، وانما اقتبست لاسباب جمالية بحتة . بقي الاعتقاد بان الارض تقع في وسط الكون . سائدا حتى ظهور ابحاث كوبرنيكوس في القرن السادس عشر .

ق . م . سلم طاليس بمفهوم الكون الكروي ، وذهب الى ان الماء هو المادة الاساسية التي منها تكوّن كل شيء . اما انكسميندر ، فقد ذهب الى ان المادة الاساسية هي جوهر لا يمكن تحديده . وقال بأن الارض هي على شكل اسطوانة . وكان يرى ، على غرار انكسيمينس ، ان الأجرام السماوية هي عبارة عن ثقوب في السماء المظلمة ، تخترقها اشعة منطقة نارية محيطة . الا ان أهم عالم في القرن السادس ق . م . هو فيثاغورس ، الذي اشتهر خاصة باعطاء البرهان على العلاقة بين اظلاع المثلث القائم الزاوية . كذلك بحث في الانغام الموسيقية ، مما دفعه الى القول بوجود علاقة الهية بين الاعداد والموسيقى والكون .

في القرن الرابع ق . م ، أسس أفلاطون (٤٢٧ ؟ - ٣٤٧ ق . م) اكاديميته في اثينا ، التي ركز فيها كثيرا على ماهية الكون

٣

أ - سكيّن جراحية ذات مقبض مزيّن ومبسط .

ب - سكيّن صغيرة ذات لفافة لولبية مفضضه .

ت - سكيّن جراحية متخذة من البرونز .

ث - مشرط ذو مقبض عاجي وشفرة فولاذية مثبتة .

ج - مفصد يستعمل كسكين للحجامة .

ح - مبضع ذو رأس ومحمل من الفولاذ .

خ - ناسور ذو شفرة ملتوية تقطع من جهة دون الأخرى .

د - مبضع غلصمة .

ذ - ميسم يستعمل لكيّ الالتهاب أو وقف النزيف .

ر - بريمة تديرها جلدة مثبتة الى اسطوانة تستعمل لأزالة سلاح غارز في العظم .

ز - ازميل فولاذي يستعمل لفصل العظم الملتوي .

٥

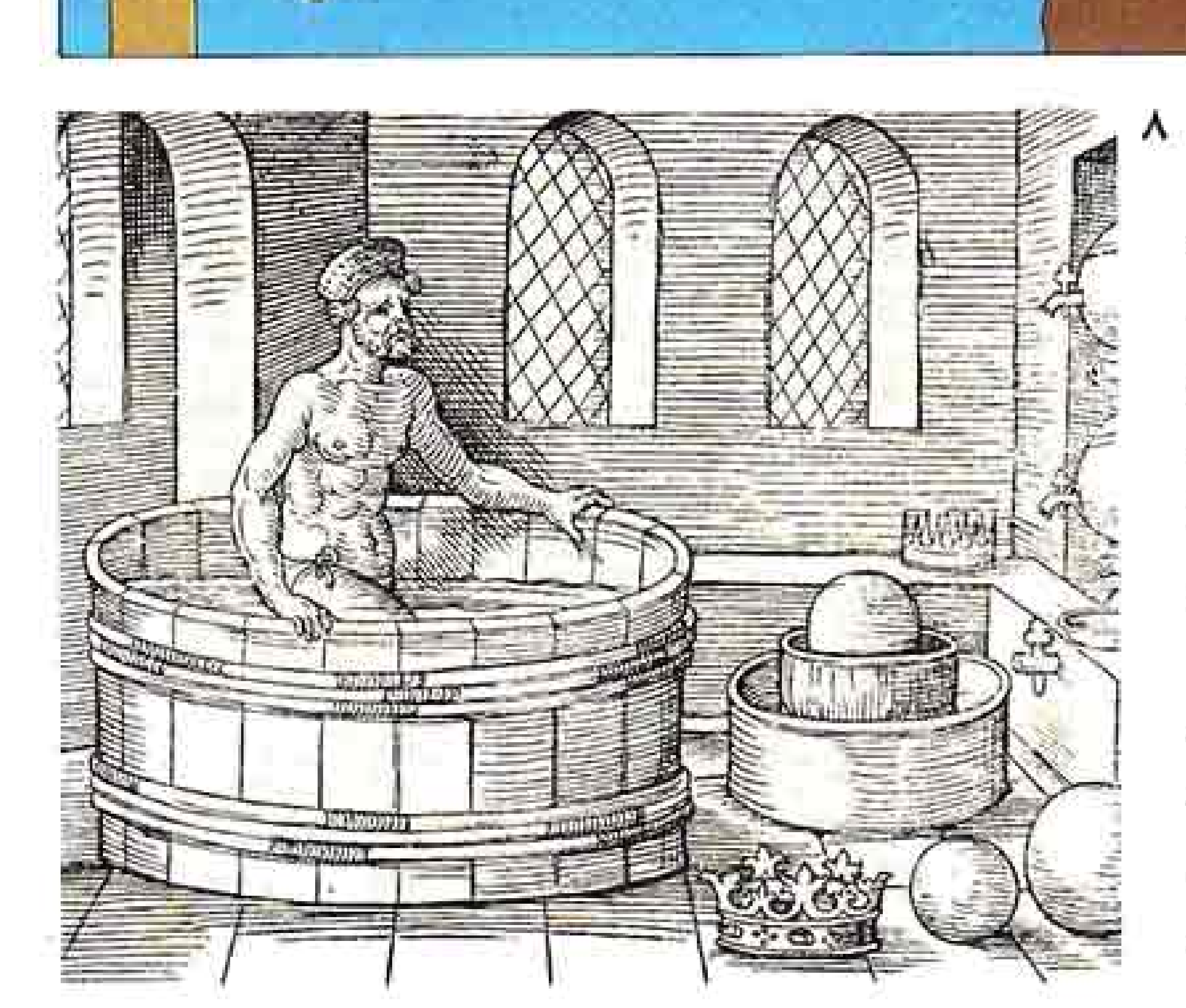
(٥) - « آلة حاسبة » فلكية يونانية اكتشفت عام ١٩٠٠ في حطام سفينة تعود الى حوالى ٦٥ ق . م بالقرب من جزيرة انتيكيتيرا . وتظهر هنا بعد اعادة تركيبها . كانت تحتوي على جهاز معقد جدا من الآلات الداخلية .

الرياضية . ثم انشأ تلميذه ارسطوطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) وهو اعظم فيلسوف علمي في العصور القديمة ، اكاديميته الخاصة المعروفة بالليسيوم في اثينا ايضا . اقتبس ارسطوطاليس النظرية التي كان قد صاغها اصلا انبيدقليس في القرن الخامس ق . م والقائلة بأن العناصر الاربعة ، التراب والهواء والنار والماء ، هي العناصر الاساسية لجميع المواد . في مجال علم الفلك ناقش ارسطو مسألة حركة الارض أو سكونها في الفضاء ، وكان يميل ، بناء على الأدلة المتوفرة لديه ، الى القول بنظرية الارض الثابتة في مركز الكون . كذلك ناقش طبيعة التغير ولاسيما الحركة .

ابحاث العلوم المجردة

مع ان آراء أرسطو في العالم الطبيعي هي التي أثرت في العلم طيلة الـ ٢٠٠٠ سنة





(٦) - كانت ملاحظات ارسطو في علم الأحياء تشتمل على مذكرات خاصة بالنحل والسمك . فقد اكتشف هذا العالم ان ذَكر سمكة السلور يتعهد حراسة بيض الأنثى حتى تنقف صغارها . ولما كانت انواع سمك السلور الأخرى تسلك سلوكا مختلفا ، فقد شك العلماء بهذا القول حتى عام ١٨٥٠ . عندما اثبت لويس اجاسيز ان ارسطو كان على حق . فقد وجد ان ذَكر سمك السلور في امريكا الشمالية يسلك السلوك نفسه .

---

(٧) - قد يكون لولب ارخميدس الاسطواني لرفع الماء قد اختُرع قبل أرخميدس ، ولكنه نُسب الى مهارته الميكانيكية . كان اللولب الذي يُحرَّك بواسطة مقبض أو دعّاسة للرجل يدور داخل اسطوانة . فيسحب الماء الى أعلى .

---

(٨) - ارخميدس في مغطسه (من نقش يعود الى القرن السادس عشر) يذكرنا باكتشافه أن الجسم في الماء يزيح كمية من الماء مساوية لحجمه . ويعني ذلك . انه ايا كان الشكل ، فالأشياء المتساوية في الثقل النوعي والوزن تزيح الكمية ذاتها من السائل . استخدم ارخميدس المبدأ الجديد هنا ليتحقق مما اذا كان التاج الذي صُنع لملك سرقسطة هو من الذهب الخالص . فقد أزاح التاج كمية من الماء أكبر من وزن مساو من الذهب الخالص . فثبت بذلك ان التاج كان يحتوي على معدن آخر .

التالية . فقد تفوق بصورة خاصة في علم الاحياء . لقد وصف بدقة المعدة المزدوجة لدى الحيوانات المجترة كالبقرة ، وعادات النحل . كما درس كلب البحر المشيمي الذي ينجب صغاره احياء على غرار الثدييات ، ووضع دراسة عامة في التوالد الجنسي (٦) . درس ايضا النباتات ، وان كان صديقه وتلميذه ثيوفراسطس (٣٧٢ ؟ - ٢٨٦ ق . م) هو الذي وضع أسس علم النباتات . شدد أرسطو على المفهوم الهام القائل بوجود نظام متواصل من الموجودات يمتد من المادة غير الحية ، صُعُدا حتى الانسان .

استنادا الى مذهب يودوكسوس (٤٠٨ ؟ - ٣٥٥ ق . م) القائل بأن الأجرام السماوية تدور في افلاكها حول الارض ، طرح عالم الفلك ارسطرخُس (٣١٠ - ٢٣٠ ق . م) في القرن الثالث الفكرة القائلة بان الشمس هي مركز الكون وليس الأرض ، وعالج مسألة حجم الشمس والقمر . لكن نظريته الكونية لم تلق قبولا . بعد ذلك بقرن واحد ، اكتشف هيبارخوس (٩١٠ - ١٢٠ ق . م) ، وهو أعظم عالم فلكي اعتمد المشاهدة في العصور القديمة ، تقدم الاعتدالين ، ووضع لائحة بالنجوم وقاس كسوف الشمس وقدم نظرية متطورة لحركة الشمس . وقد اشتهر القرن الثالث ق . م ايضا بعلم الطبيعيات الرياضية لأرخميدس (٢٨٧ ؟ - ٢١٢ ق . م) (٨) وبتأسيس مكتبة الاسكندرية ومتحفها . في هذه المدينة ، وطيلة ٥٠٠ سنة ، استمرت الابحاث المتطورة ، فازدهرت الرياضيات بفضل اقليدس (اشتهر ٣٠٠ ؟ - ق . م) وا بولونيوس (اشتهر ٢٥٠ - ٢٢٠ ق . م) الذي ذاع صيته لأبحاثه في علم الفلك والمقاطع المخروطية . وقد قدر إراتوستينيس (٢٧٦ ؟ - ١٩٤ ق . م) محيط الأرض بفارق ٤٠٠ كلم فقط عن محيطها الحقيقي .

في القرن الثاني الميلادي الَف عالم الفلك بطليموس (٩٠ ؟ - ١٦٨ م) كتابه الشهير « المجسطي » ، وهو ملخص لعلم الفلك اليوناني ، بالاضافة الى مؤلفه « الجغرافيا » الذي استعمل خطوط الطول والعرض ، وطريقته الخاصة بالرسم التجسيمي (١) . وطور هيروفيلوس وإراسيستراتوس في القرن الثالث ، في الاسكندرية ، العلوم الطبية التي كان ابوقراط الكوسي قد وضعها في القرن الخامس ق . م (٢) ، كما شرحا الجسم البشري ، وميزا بين الشرايين والاوردة وبين الأوتار والأعصاب ، ووضعا بصورة عامة أسس علم التشريح .

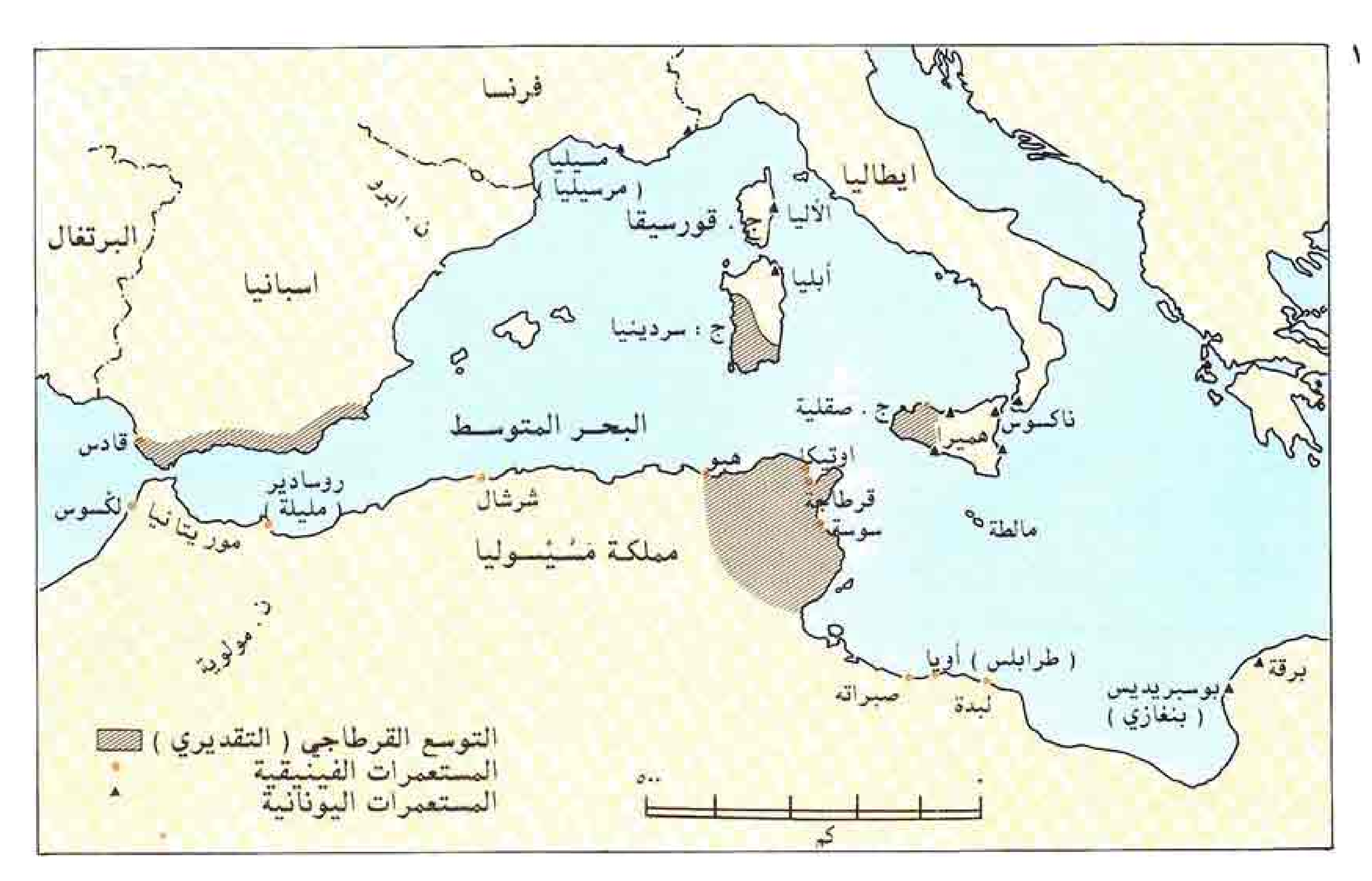
العلوم التطبيقية ودراسة الآلات

كانت البكرة المركبة معروفة في ايام أرسطو ، وكان ارخميدس (٨) و (٧) في سرقسطة قد اخترع الاسطوانة اللولبية لرفع الماء . لكن قسما كبيرا من التقنية اليونانية تم تطويره في الاسكندرية حيث صمم ستيسيبيوس في حوالى عام ٢٠٠ ق . م . ساعات مائية (٥) ، ومضخة على الضغط . وفي القرن الأول الميلادي ، قام هيرو . ليس بدراسة الآلات والأجهزة الهوائية وحسب (مع انه لم يستطع ان يستخلص فوائد عملية لاختراعاته) ، بل أدخل تحسينات ايضا على وسائل علم المساحة . ويدل اكتشاف آلة حاسبة يجري تحريكها ميكانيكيا (٨) للحسابات الفلكية ، على أن التقنية التي ظهرت في الاسكندرية كانت ذات تأثير واسع .

قرطاجة واليونان في شمال افريقيا

بين القرنين الثالث عشر والثامن ق . م ، عرف العالم القديم انسياحا لعدد من الشعوب شمل مناطق واسعة منه ، ونقل جماعات متعددة من مواطنها الاصلية الى مواطن جديدة . كان من ذلك وصول شعوب البحر الى سواحل مصر والشام (فلسطين) ، وبعضها وصل سواحل تونس والجزائر . لكنهم لم يتركوا أثرا يذكر . في الفترة نفسها ، كان الفينيقيون قد انتشروا في حوض البحر المتوسط كله ، وأسسوا عددا متزايدا من المستوطنات (محطات التجارة) في السواحل الاغريقية والايطالية كما في جزر المتوسط والسواحل الافريقية والاسبانية (١) ، تتاجر بالمصنوعات الزجاجية (٢) والعاجية

١



(١) ـ أمبراطورية قرطاجة في القرن ٦ ق . م . واسعة . كان الفينيقيون يحصلون من ترشيش (ترتسُوس) في ايبيريا على الفضة والنحاس والرصاص والقصدير . ومن أجل ذلك انشأوا ، منذ القرن الحادي عشر ق . م . أول مستوطنة لهم في قادس . أما الوصول الى الاسواق الاسبانية ، فقد اقتضى من الفينيقيين ان يحاذوا الشواطىء الافريقية لضمان التزود بحاجاتهم منها وتوفير الراحة للبحارين واللجوء الى المرافىء الآمنة في حال قيام الزوابع والأعاصير البحرية . فالمستوطنات هذه كانت محطات تجارية للسفن التي تقصد اسبانيا بالدرجة الأولى .

(٢) ـ أوعية فخارية بونيقية (قرطاجية) الصنع تعود الى القرن الثامن قبل الميلاد . وهي من أقدم ما عثر عليه من هذه الصناعة في قرطاجة . أولها (أ) عليه طوق من الذهب ويظهر فيه التأثير المصري . أما الثاني (ب) فمن الفخار الملون مع غطاء مسنن .

(٣) ـ اشتهر الفينيقيون منذ القديم بصنع الزجاج والتجارة به . القارورة (أ) ، من الزجاج الملون . وهي من الألف الأول ق . م . أما الصورة (ب) ، فهي لحلقة من حلقات الأذن صنعت من الزجاج على شكل قناع وترجع الى القرن الثاني ق . م .

والاقمشة والحلي والمواد الغذائية والذهب والفضة والجلود والاصبغة . من هذه المستوطنات : ليبتوس (لبدة) على الساحل الليبي وأوبا (طرابلس) وصبراتة وحضرموت (سوسة) وهبو (عنابة) وروسدير (مليلة) ثم لكسوس (قرب العرائش الحالية) في المغرب . وتبع القرطاجيون شواطىء الأطلسي حتى انجلترا ، وجنوبا حول افريقيا ، بالاضافة الى مدنهم على الساحل الاسباني (مثل قرطاجنة) وفي غرب صقلية وسردينيا ، ناقلين الى كل مكان مع البضائع (٣) حضارتهم وعقائدهم (٤) .

قرطاجة

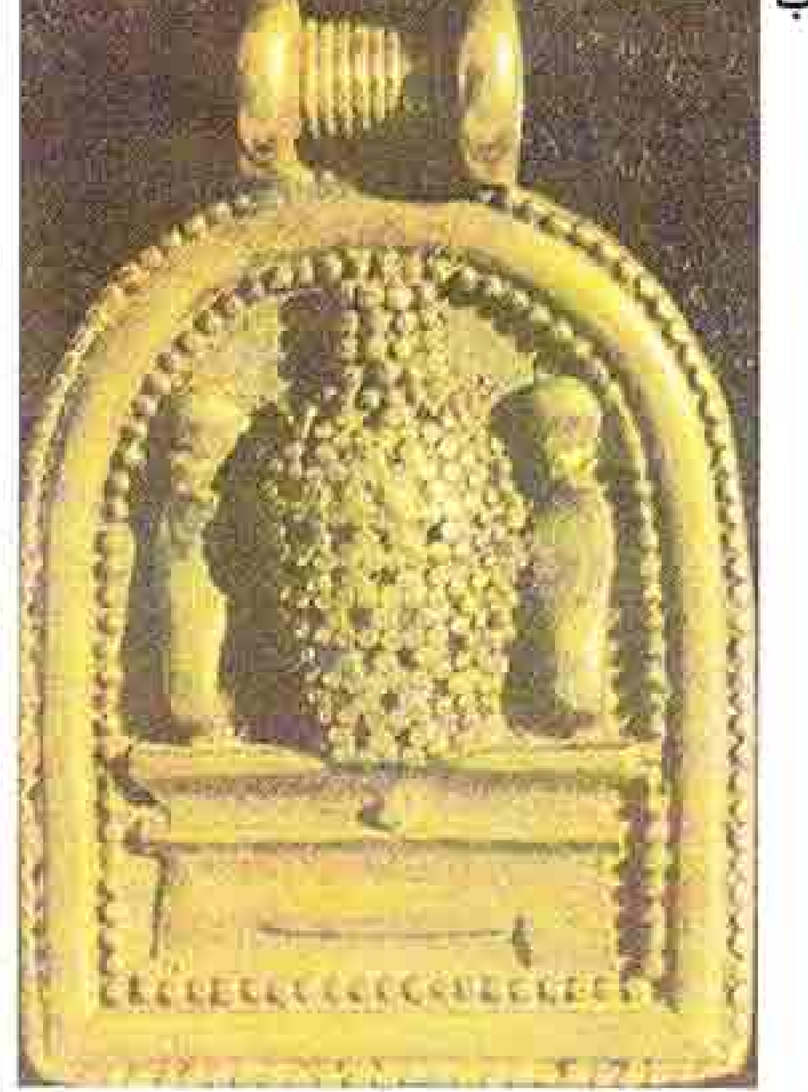
رأس هذه الامبراطورية التجارية كانت قرطاجة (قرت حدش = القرية الحديثة) التي أسست سنة ٨١٣ ق . م . تروي الحكايات عن سبب هجرة أليسار ملكة صور



ب



٤ أ



ب



ب

(٤) ـ المعبود بعل حمون كان مرهوبا أكثر مما كان محبوبا لدى القرطاجيين . كثرة المعابد (بيت ال = بيت الله) دليل على عمق التدين الفينيقي ، وهو يعكس أهوال المخاطرات التي يتعرضون لها . هذا التمثال (أ) الموجود في متحف باردو في تونس والعائد للقرن الأول الميلادي يدل على أن العبادات القرطاجية استمرت قائمة طويلا بعد انهيار قرطاجة . ملامحه الاغريقية ناجمة من ان القرطاجيين كانوا يستقدمون الفنانين الأجانب لحاجاتهم الفنية . أما الصورة (ب) فهي قطعة من الحلى الذهبية . وكان للحلى دور أساسي في التجارة الفينيقية . وجد منها الكثير في القبور . بعضها ذهبي وبعض من العاج أو الزجاج . على هذه الحلية رسم زجاجة من حولها بكل جانب أفعى ولعلها حرز سحري .

التي أسستها وعن طريقة تأسيسها . نقل اليها الفينيقيون حضارتهم ، وسرعان ما أصبحت مدينة ـ دولة افريقية ، وصارت ام المستعمرات الأخرى في حوض المتوسط الغربي . ومركزها التنظيمي والدفاع والاقتصادي . يبدو ايضا انها ، عن طريق دولة الجرمنت وعاصمتهم جرما عند مشارف الصحراء وحمادة مرزوق ، كانت تمد تجارتها الى اعماق افريقيا . لكن نشاطها الاساسي كان يعتمد على اسطولها البحري القوي وعلى علاقاتها بالمستعمرات الاخرى . لم تكن تطلب منها مقابل الحماية الا الاشراف على تجارتها الخارجية وتقديم الجند والمال والاغذية عند الحروب .

قرطاجة كانت أرستقراطية النظم . في أواخر عهدها تشكلت فيها طبقة شعبية لم تعد الحكومة قادرة على السيطرة عليها . وكان الجيش من المرتزقة . فاضطربت أمورها في

٥



(٥) ـ المدن اليونانية الرئيسية التي انشئت في برقة بدءا من القرن السابع ق . م . ازدهرت فيما بعد تجاريا وحضاريا وثقافيا . في مقدمتها مدينة قورينة (شحات اليوم) التي بنيت على تلين : شرقي عليه معبد زفس وغربي فيه الأغورا والمباني الحكومية ومباني السكن . كانت في القرن الرابع ق . م ثاني مدينة يونانية بعد أثينا . بين فلاسفتها وشعرائها كليماخوس وكارتيادس وارستيوس . ومنها جاء اراثوسيتز العالم الاسكندري . كانت قورينة أيضا مدينة زفس . اذ ان هيكله كان من أجمل ما بني تكريما له . عنى الرومان بعد ذلك بالمدينة . لهذا أضحت من أهم المناطق الأثرية في ليبيا بما فيها من أسوار ومقابر صخرية وحمامات ومسرح . وصفها بندار الشاعر الاغريقي بانها مدينة « أقيمت على عرش من ذهب » . وكانت أشهر مدينة في اتحاد المدن الخمس في برقة « بنتا بوليس » . بلغت مدنيتها الأوج سنة ٤٠٠ ق . م . صارت تابعة للبطالمة وبعدهم للرومان . ابتدأ عصر انحطاطها في القرن الثالث الميلادي بعد أن دمرتها الزلازل .

٦

(٦) ـ حكمت مدينة قورينة منذ استوطنها اليونانيون أسرة باتوس الاغريقية (٦٣٠ ـ ٤٤٠ ق . م) . توالى منها ثمانية ملوك . أربعة باسم باتوس وأربعة من ابنائهم باسم اركيسيلاوس . على هذا الكوب الفخاري نرى رسم اركيسيلاوس الثاني (٥٥٤ ـ ٥٤٤) الذي لقي الاغريق في عهده الهزيمة على يد قوات برقة . وهو هنا يشرف بنفسه على وزن نبات السلفيوم تمهيدا لتصديره . كان هذا النبات من احتكار الحكومة وتجارتها الهامة قبل أن ينقرض .

القرن الذي سبق سقوطها . من جهة أخرى ، لم يكن من السهل على قرطاجة قيادة تلك الامبراطورية البحرية سبعة قرون دون أعنف الصراع أحيانا كثيرة مع القوى المنافسة او النامية على شواطىء المتوسط .

الاغريق في شمال افريقيا

القوة المنافسة الاولى كانت جماعات الاغريق . فقد أصاب اليونان تفجر سكاني في القرن الثامن ق . م ، كان من نتيجته خروج اعداد كبيرة من سكان تلك البلاد لانشاء مستعمرات يونانية في حوض البحر الاسود وفي شواطىء المتوسط . بلغ هذا التوسع ذروته بين سنتي ٧٥٠ ـ ٥٥٠ ق . م .

لحق الاغريق بالفينيقيين في معظم الشواطىء . اختاروا ، في الشمال الافريقي ، السواحل المواجهة لبلادهم . انشأوا مدينة نوقراطيس غربي دلتا النيل سنة ٦٤٠ ، ثم انشأوا مدينة قوريني (شحات) سنة ٦٣٠ التي رويت في سبب بنائها الاساطير (٥) . لكن السبب الحقيقي لبنائها انما كان ضغط الجوع على الجزر اليونانية الاصلية ، والتكاثر البشري . انتقل سكان قوريني من الشاطىء الى اطراف هضبة برقة الخصبة (الجبل الاخضر) . ويبدو انهم أهلوا بلدة برقة القديمة هناك ، وان كان الاغريق يزعمون انهم أسسوها . لم تكن التجارة عملهم الاساسي ، لكن الزراعة وتربية الماشية والخيل . استثمروا بخاصة نبات السلفيوم (٦) الذي احتكرته الحكومة ، وكان يستخدم للعقار ولاستخراج العطر . بعد ذلك بقليل أسست مدينة يوسبيريوس (بني غازي) التي كانت ترتبط سياسيا ببرقة .

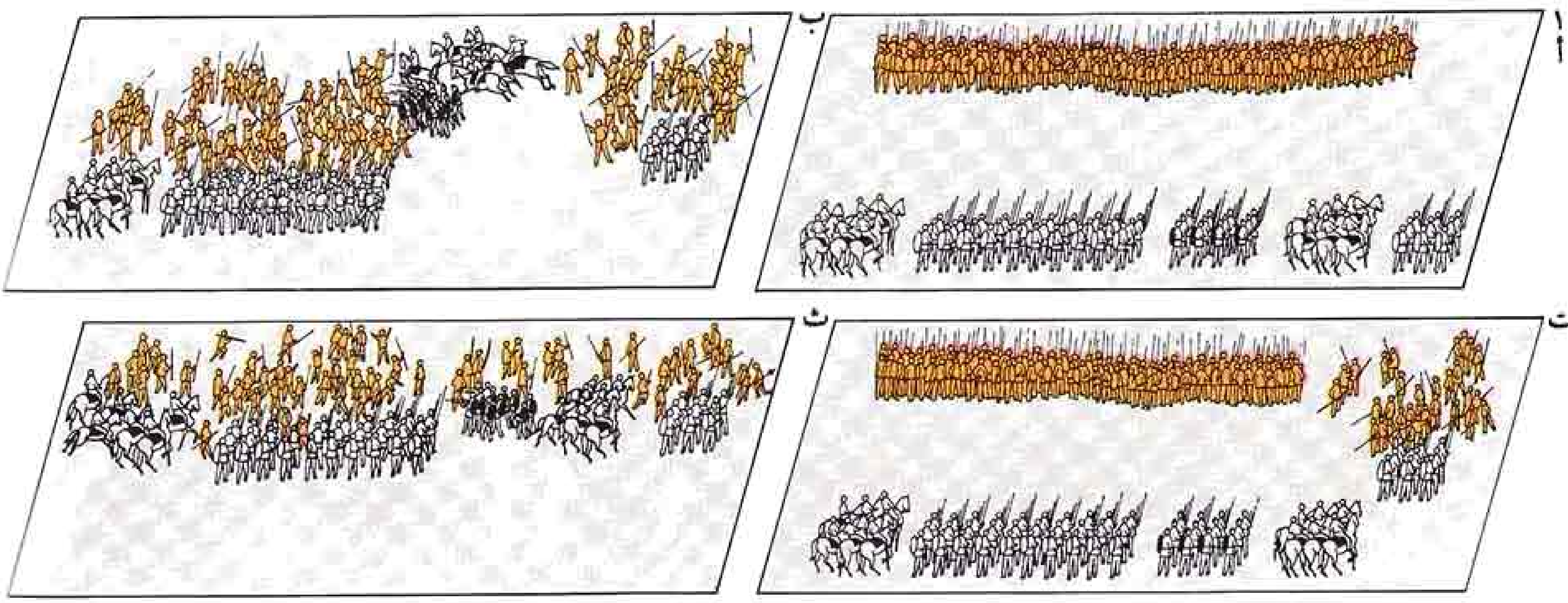
صراع قرطاجة والاغريق

الانتشار الاغريقي شمل خاصة برقة وصقلية . لم يشكل ، أول الأمر ، خطرا على قرطاجة لأنه كان زراعيا ، ولكن الاغريق سرعان ما تعلموا التجارة البحرية ، وتعلموا القرصنة أيضا . وحين تحولت بعض مستعمراتهم قوى سياسية عسكرية كان الصراع مع قرطاجة محتوما . بدأ منذ أواخر القرن السادس زحاما على التوسع ، كما جرى في المستعمرة التي أنشأها الاغريق قرب لبدة القرطاجية ، فأسرعت قرطاجة لتدميرها . بعد فترة قام نوع من اقتسام النفوذ والتعايش بين الطرفين . انصرفت قرطاجة فقط الى مكافحة القراصنة الاغريق في الحوض الغربي للمتوسط وطردهم . لكنها هزمت سنة ٤٨٠ ق . م . فاكتفت بتركيز نشاطها على السواحل الافريقية وجنوب اسبانيا . عاد الصراع مع الاغريق ومستعمراتهم في برقة وصقلية منذ أواخر القرن الخامس ق . م . واستمر في القرن الرابع . لكن دواعي التجارة كانت تنتصر على دواعي الحرب ، ويتبعها ازدهار المبادلات . في الوقت نفسه أعجبت قرطاجة الكثير من اليونانيين فاستقروا فيها . وكان للقرطاجيين علاقات وثيقة مع اليونان . لكن تأثر قرطاجة بالحضارة الهلينية كان ضئيلا وجاء متأخرا ، ولم يظهر الا في المصنوعات والبناء . أما الفكر اليوناني من فلسفة وعلم ، فلم يصل قرطاجة الا بشكل محدود وعن طريق مصر البطلمية .

يبقى أن الوجود الاغريقي في شمال افريقيا اندثر . واندمجت بقاياه مع الغزو الروماني . بينما بقي أثر قرطاجة الثقافي طويلا بعد زوالها سنة ١٤٦ ق . م .

الاسكندر المقدوني

ولد الاسكندر ، وهو ابن فيليب المقدوني واولمبيا اميرة إبيروس ، في بيلا في مقدونيا عام ٣٥٦ ق . م ، وتوفي في بابل عام ٣٢٣ ق . م . تتلمذ الاسكندر (٢) على يد ارسطوطاليس الفيلسوف بين سن الثالثة عشرة والسادسة عشرة واعتلى العرش المقدوني عام ٣٣٦ ق . م ، بعد حادث اغتيال أبيه . وكان فيليب قد قاد فرقة فرسانه ، قبل ذلك بسنتين ، في معركة خايرونيا ، التي وضعت حدا نهائيا لآمال أثينا باستعادة زعامتها على بلاد اليونان وأعطت السيادة لاولئك اليونانيين الحدوديين : المقدونيين . كذلك سجلت هذه المعركة انتصار الجندي على الخطيب ، اذ كان ديموستينوس الخطيب





(١) ـ جعل الاسكندر الكتيبة محور نظامه للمعركة (أ) . كان القتال يبدأ من اقصى اليمين (ب) . وفي اللحظة المناسبة ، كان الاسكندر يقود اعوانه ، تدعمهم فرقة الفرسان الخاصة ، في هجوم يخترق الثغرة في صفوف العدو (ت) . وعندما كانت تتداعى صفوف العدو ، كان يوجه اعوانه نحو الجناح لتخفيف الضغط عن يسار جيشه ووسطه . وعندما كان العدو يأخذ في التراجع ، كان الاسكندر يستغل تفوقه بكل قوة (ث) .

(٢) ـ يظهر الاسكندر على قطعة النقد هذه مرتديا غطاء الرأس المزين بقرني كبش .

(٣) ـ يفسر الامتداد الواسع لحملات الاسكندر ، اثناء ١٤ سنة ، انهيار امبراطوريته السريع اثر وفاته . لم يكن ثمة توطيد للسلطة ، كما ان المسافات الشاسعة حالت دون الاندماج الحقيقي .

(٤) ـ تُروى اسطورة الاسكندر في عدة لغات ، بدءا من الانجليزية المتوسطة الى لغات ماليزيا ، في شتى انحاء بلدان

اليوناني (٣٨٣ ؟ - ٣٢٢ ق . م) اكثر مهاجمي المقدونيين وملكهم عنفا .

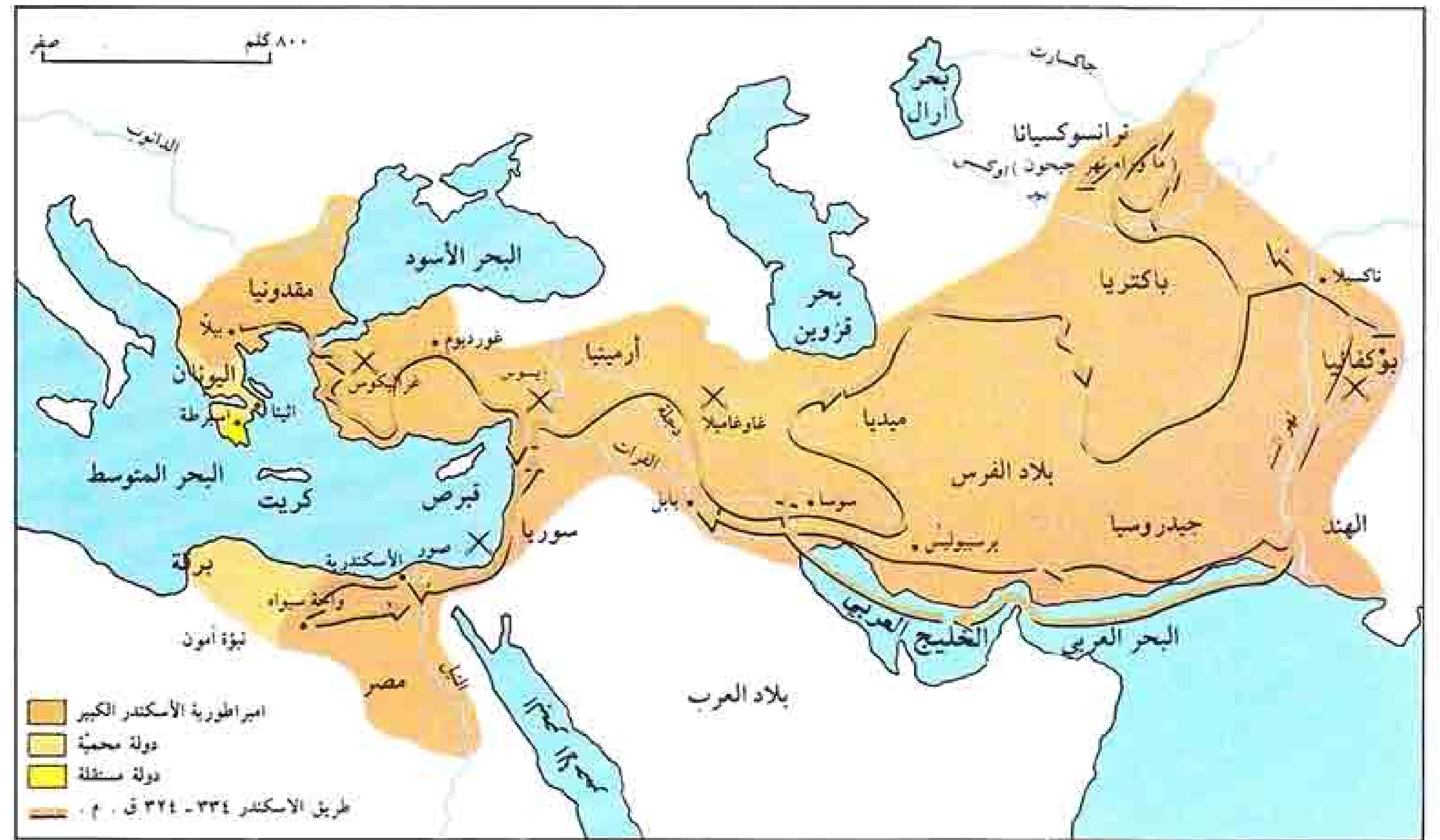
حماية تخوم مقدونيا

في غضون الثلاث عشرة سنة التالية ، قُيِّض للاسكندر أن يشيد اعظم امبراطورية عرفها العالم القديم (٤) ، وكانت تمتد من حدود ليبيا حتى البنجاب . انبثقت عن انتصارات الاسكندر قصص واساطير في اوروبا والشرق الاوسط والهند . صوَّرته هذه الاساطير بعدّة اشكال ، كملك بورجوني ، وفارس ارمني ، وأمير فارسي . (أمر أحد السلاطين في القرن الخامس عشر برسم ملامحه على غرار ملامح الاسكندر) . في هذا الرسم الفارسي (١٥٩٥ - ١٥٩٦) يطلب اليه بعضهم بأن يُبقي على المعبودات الوثنية .

جميع لغات اوروبا ، بالاضافة الى عدد من لغات آسيا .

بعد اعتلاء الاسكندر العرش ، زحف جنوبا على اليونان ، وفرض سلطة مقدونيا عليها ، وحمل التحالف اليوناني على انتخابه قائدا لحملة اسيوية ، كان ابوه قد خطط لها ، ثم اعلنه كاهن معبد دلفي قائدا لا يقهر . وفي عام ٣٣٥ ق . م ، اتجه نحو الدانوب ليحمي تخوم مقدونيا الشمالية . ولدى انتشار

٣



٤



شائعات عن مقتله ، اندلعت ثورة في اليونان ، بدعم من زعماء اثينيين ، فزحف الاسكندر جنوبا ، قاطعا مسافة ٣٨٦ كلم في اسبوعين . ولما استمرت الفتنة ، دخل طيبة وقتل ٦٠٠٠ شخص وسبى من تبقى من أهلها ، ولم يترك فيها بناء قائما سوى الهياكل ، ومنزل بندار ، (٥٢٢ ؟ - ٤٤٠ ق . م) وهو واحد من اعظم الشعراء اليونانيين . ولما اطمأن الى سلامة قاعدته على ارض اليونان ، تأهب للحملة التي كان ابوه قد أعده لها . وكان ايضا بحاجة الى اموال بلاد فارس ليسدّد ديون والده للجيش المقدوني .

الانتصار على داريوس

عبر الاسكندر الهليسبونت (البوسفور) عام ٣٣٤ ق . م على رأس ٣٠٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠٠ فارس ، وفرقة من الاختصاصيين . زار طروادة وخاض بالقرب من نهر جرانيكوس

٥



(٥) - هذه الفسيفساء التي وجدت في بومبيي (ايطاليا) والمأخوذة عن رسم لفيلوكسينوس . تمثل الاسكندر يقود جنده ضد الفرس بقيادة دارا في معركة ايسوس عام ٣٣٣ ق . م . فرّ دارا تاركا للمقدونيين ملكته وعائلته ، فضلا عن ثروة طائلة .

(٦) - كانت معركة هيداسبيس (جهلوم) في البنجاب ، التي تظهر هنا على قطعة النقد هذه ، من اعظم انتصارات الاسكندر ، التي خطط لها وأنجزها بمهارة . وقد وسعت رقعة امبراطوريته الى حد كبير . تأثر اسلوبه الحربي تأثرا كبيرا بخوف الحصان الطبيعي من الفيل . بعد المعركة اصبح الحاكم الهندي المهزوم بورُس حليفا له . واثناء تلك المعركة ، مات حصان الاسكندر الشهير بوسيفالوس ، فأقيم له مأتم امبراطوري كامل .

٦



معركة فتحت آسيا الصغرى أمام قواته ، في زحفها نحو الجنوب . ثم هزم دارا ، ملك الفرس (الذي فر تاركا عائلته وراءه) عند ايسوس (٥) عام ٣٣٣ ق . م ، وواصل زحفه حتى مدينة صور التي صدته اول الأمر ، لكنها سقطت في يوليو عام ٣٣٢ ق . م .

بعد تدمير صور ، توجه الاسكندر نحو مصر ، حيث أسس مدينة الاسكندرية . ولدى زيارته لمعبد امون في واحة سيوه ، استُقبل استقبال الفرعون ، ابن آمون ، وهو الحدث الذي كان باعث روايات حول أصله الالهي . في عام ٣٣١ ق . م ، زحف شرقا نحو الفرات ، وخاض معركة اخرى في جوجاملا ، ولكن دارا تمكن من الفرار ثانية ، فقبل الاسكندر استسلام بابل وسوسا مع ثرواتهما . وفي عام ٣٣٠ ق . م ، احتل عاصمة فارس ، بيرسيبوليس . عند ذاك اعاد التيساليين واليونانيين الى بلادهم ، بعد ان قرر على ما يظهر اقامة امبراطورية فارسية مقدونية . وفيما كان يزحف شرقا ، اغتيل دارا .

في أعقاب ذلك ، زحف الاسكندر على افغانستان وبلاد ما وراء النهر ، ليطارد قائدا تمرد عليه ، ومن ثم الى سمرقند ، والاسكندرية القصوى (وتعرف اليوم باسم لينيناباد) . تواصلت الفتن حتى عام ٣٢٨ ق . م ، وهي السنة التي تزوج الاسكندر فيها روكسانا ابنة ملك باكتريا ، وكان ذلك الزواج رمزا لوحدة الشرق والغرب .

في عام ٣٢٧ ق . م ، قاد جيشه نحو الهند ، فزحف فريق منه عبر ممر خيبر ، بينما تقدم الفريق الآخر الذي كان يقوده بنفسه نحو سوات . خاض الاسكندر آخر معاركه عند هيداسبيس (جهلوم) (٦) ، وبعد ان هزم الأمير الهندي بورُس ، رفض رجال الاسكندر التقدم أكثر من ذلك (٣) .

العودة من الشرق

لدى عودة الاسكندر الى سوسا ، وجد فيها حالة من الفساد والاضطهاد فأُقدم على حملة عقاب لا هوادة فيها . ثم خطط لتوطين اليونانيين والمقدونيين في آسيا والاسيويين في اوروبا ، كجزء من خطته لصهر القارتين في بوتقة واحدة . كذلك قام بتنفيذ مشروع كان أشد الحاحا في نظره ، هو زواجه وزواج هيغايستيون (وهو أعزّ صديق له) من ابنتي دارا ، فيما احتُفل في الوقت نفسه بزواج ثمانين ضابطا مقدونيا من بنات نبلاء الفرس .

كان قد جرى تدريب الجنود الاسيويين على الاساليب العسكرية المقدونية (١) ، وسُمح لبعضهم بالانضمام الى الجيش ، ولبعضهم الآخر بالالتحاق بالخيالة وعُيِّن ضباط من الفرس في سلاح الحرس الملكي . في عام ٣٢٤ ق . م ، أعلن الجنود المقدونيون العشرة آلاف العصيان ، وكانوا قد استاؤوا من السياسة العسكرية الجديدة ، فلم يكن من الاسكندر الا ان أمر بقتل ثلاثة عشر من قادتهم في الحال ، ثم عين المزيد من الفرس والميديّين في مراكز مقدونية .

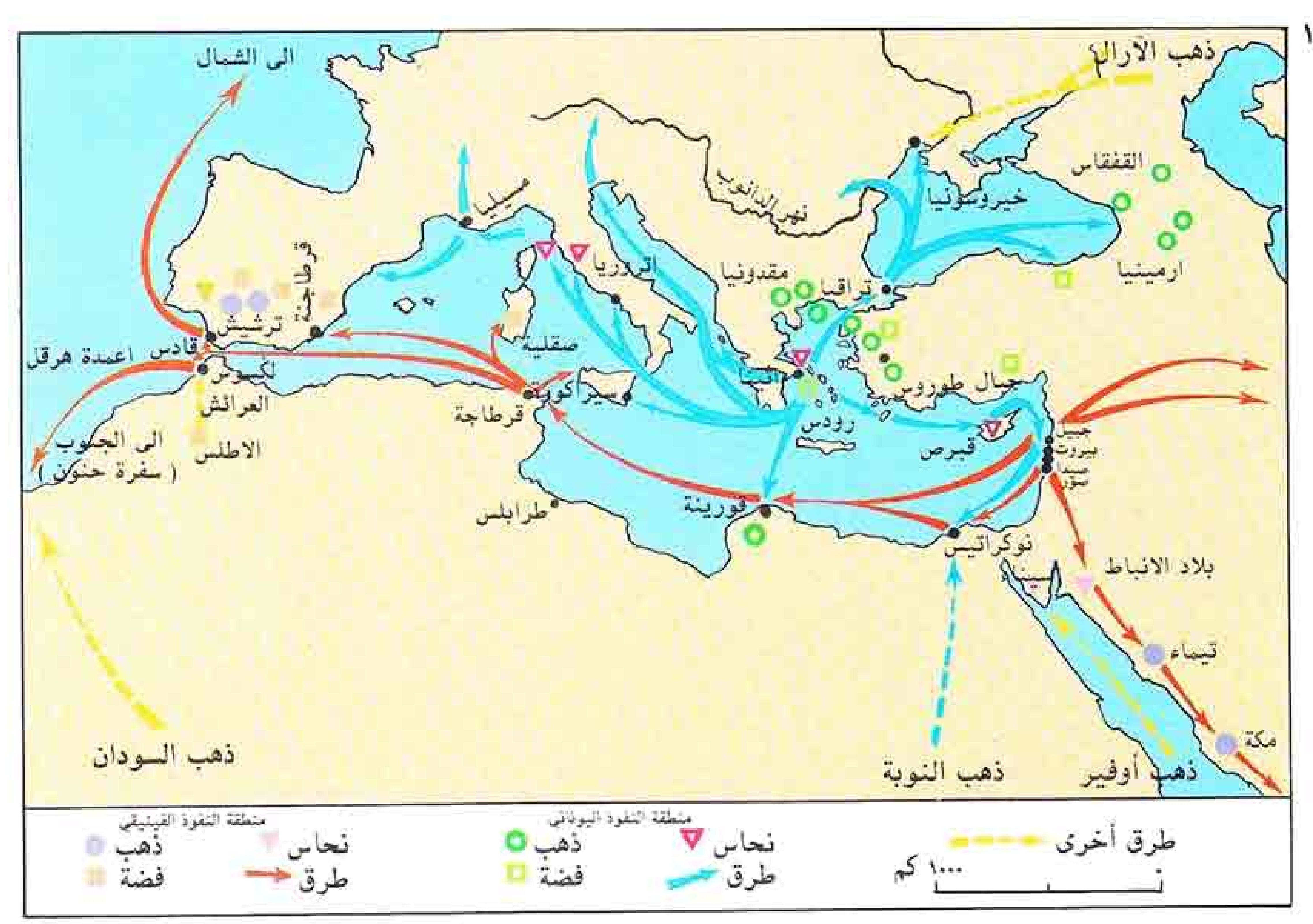
وضعت الخطط آنذاك لحملة على بلاد العرب ، لكن الاسكندر أصيب بالحمى ، وفي ١٣ يونيو عام ٣٢٣ ق . م ، قضى نحبه ولم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر . بدأت امبراطوريته بالتفكك في الحال تقريبا ، وأخذ القادة الاقليميون يطلقون على أنفسهم القاب الملوك .

خلفاء الاسكندر (١) البطالمة

حين توفي الاسكندر المقدوني فجأة بالملاريا سنة ٣٢٣ ق . م ، كان الفراغ الذي تركه أكبر من أن يملأه واحد من قواده . كذلك كانت الامبراطورية التي فتحها بشكل خاطف أوسع من أن يحكمها شخص واحد .

كما ان مشاريعه كانت أضخم بكثير من طموح أي قائد من قواده . لهذا عاد الانسياح الاغريقي الواسع على العالم القديم فتحول ، بعد الاسكندر ، الى زحام بين قادته على حكم الامبراطورية . ابنه الطفل الذي ولد بعد موته لم يكن له من قيمة امام اطماع خلفائه الذين استمرت حروبهم ونزاعاتهم نحوا من اربعين سنة (٣٢٣ ـ ٢٨١) ظهر خلالها جيل جديد من القواد ـ وكان بعضهم من

١



(١) ـ قبيل عصر الاسكندر كانت موارد الحوض الشرقي للبحر المتوسط من المعادن وخاصة الذهب قد استنفذت فيما عدا الحديد والنحاس والفضة . حتى الذهب الذي كان يأتي من سيبيريا ومن الهند توقف . لهذا لم تستطع المملكة المقدونية أن تصدر أي عملة ذهبية بعد الاسكندر . استطاع البطالمة عن طريق التوغل في النوبة أن يقعوا على مناجم الذهب فيها . هذا الذهب مع البردي والزجاج والكتان وقمح مصر كانت السبب في ثرواتهم الطائلة . لأن صادراتهم كانت تفوق وارداتهم من الخشب والمعادن والصوف والتوابل والشراب بشكل كبير . كانت لهم دوما عملتهم الذهبية . الخارطة توضح طرق انتشار وتوزيع ذهب النوبة في العصور القديمة أيام البطالمة والرومان . البقع المنقطة تبين أماكن وجود المعدن والأسهم تشير الى اتجاه الطرق التجارية التي توزعه في العالم القديم (البحر المتوسط) .

(٢) ـ الجواهر واللؤلؤ كانت تأتي مصر من الهند وبلاد العرب . كما كانت مصر تنتج

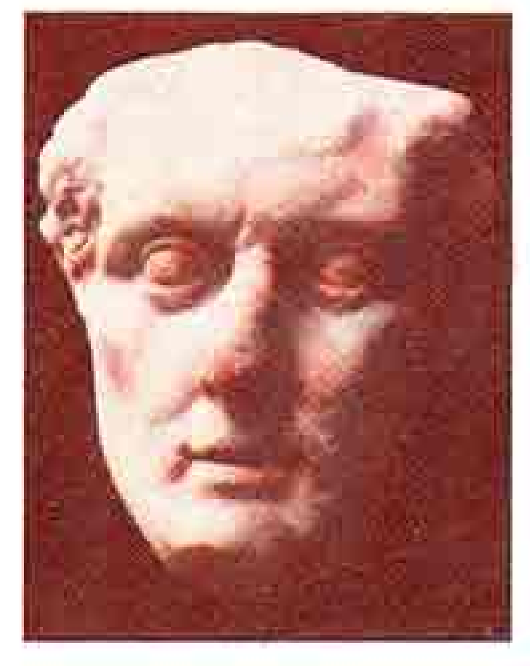
اولاد قادة الاسكندر ـ كما ظهرت التمردات الاقليمية . ومات حلم القواد الاوائل في الابقاء على وحدة الامبراطورية الاولى التي انقسمت في نهاية الفوضى والقتال ثلاثة أقسام : المملكة المقدونية ، والمملكة السلوقية ، والمملكة البطلمية .

البطالمة

كانت مصر هي حصة القائد بطليموس ، أحد حرس الاسكندر الخاص السبعة . كان من الذكاء العملي بحيث اكتفى في التسوية التي أعقبت الوفاة بأن يظفر لنفسه بولاية مصر وبأن ينقل معه رفات الاسكندر اليها . استمر بعد ذلك يحكم مصر ٤١ سنة (٣٢٣ ـ ٢٨٣) . منحه أهل رودس لقب سوتير (المنقذ) ، ثم تسمى ملكا منذ سنة ٣٠٥ حين اتخذ زملاؤه القواد الآخرون هذا اللقب (٣) . وهكذا ظهرت معا ممالك مقدونيا والسلوقيين

٢

٣



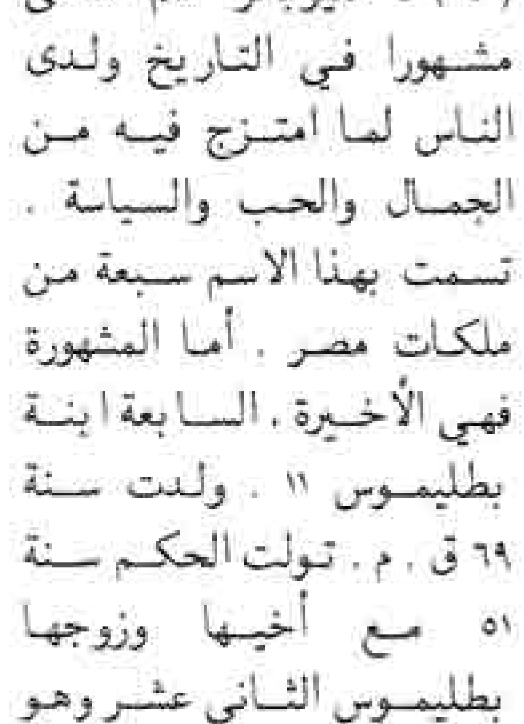


٤



الجمشيت وتحصل على الياقوت الأصفر من البحر الأحمر والزمرد من تلميس في اثيوبيا . لم يكن اللؤلؤ معروفا فيها قبل عصر الاسكندر والبطالمة . كما كان الماس مجهولا . ازدهر فن النقش على الجواهر في الاسكندرية التي ذاعت شهرتها كمركز عظيم لفن الصياغة . ومن ذلك ميدالية الصدر هذه التي يظهر فيها نقش بارز على حجر من الجزع (العقيق اليماني) لأحد ملوك البطالمة مع زوجته ضمن اطار من الذهب . هذه المصوغة الأثرية محفوظة في متحف فيينا .

(٣) ـ رأس تمثال بطليموس الأول . خليفة الاسكندر في مصر (حكم ٣٢٣ ـ ٢٨٣ ق . م) . التمثال يعود الى سنة ٢٨٠ ق. م. أي انه صنع في عهد مؤسس الأسرة البطلمية التي حكمت مصر بين ٣٢٣ ق . م و٣٠ ق . م. التمثال في متحف كوبنهاغن بالدنمرك .



(٤) ـ كليوباترا أسم أضحى مشهورا في التاريخ ولدى الناس لما امتزج فيه من الجمال والحب والسياسة . تسمت بهذا الاسم سبعة من ملكات مصر . أما المشهورة فهي الأخيرة . السابعة ابنة بطليموس ١١ . ولدت سنة ٦٩ ق . م . تولت الحكم سنة ٥١ مع أخيها وزوجها بطليموس الثاني عشر وهو أصغر منها وما لبث حرسها أن أقصاه . كان زواج الأخوة مقبولا لدى البطالمة . فكثيرات من الملكات هن في الأصل أخوة او بنات اخوة الملوك . كانت كليوباترا ذات ثقافة واسعة وارادة قوية وطموح حاولت معه حكم الامبراطورية الرومانية نفسها من خلال يوليوس قيصر ثم انطونيو اللذين اوقعتهما في شباكها . الدعاية الرومانية شوهت صورتها . مع انها كانت الوحيدة بعد الاسكندر المقدوني التي كانت تحلم بوحدة الجنس البشري . ولكن تحت حكمها . التمثال في الصورة هو روماني الصنع لسيدة يظن انها كليوباترا . وهو موجود في المتحف البريطاني .

والبطالمة التي اقتسمت العالم الهلينستي والتي استمرت حتى اندمجت في الامبراطورية الرومانية في القرن الأول ق . م .

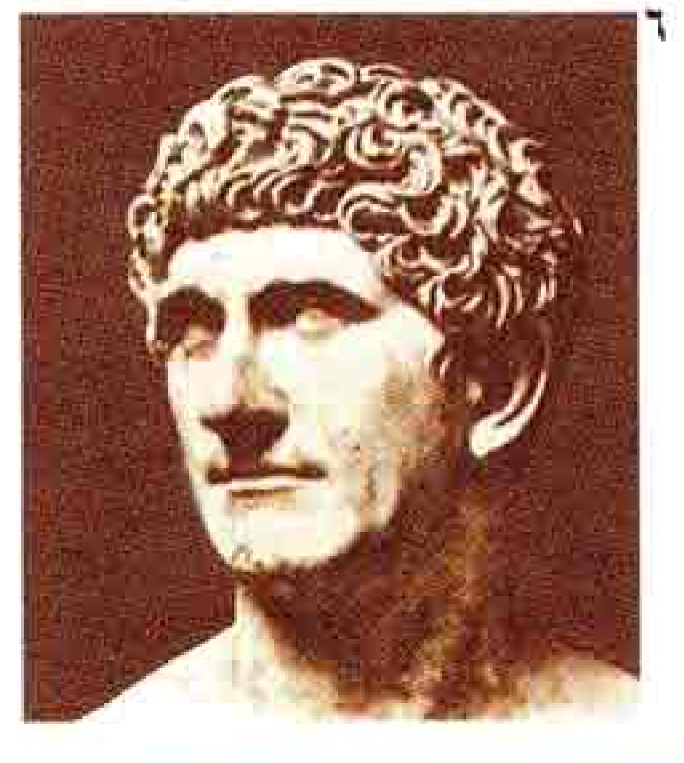
توالى على العرش البطلمي مجموعة من الملوك تسمى كل منهم باسم بطليموس من الاول حتى الخامس عشر (٥) . غير انهم كانوا احيانا يحكمون بالاشتراك مع زوجاتهم او اخواتهم او ابنائهم . من هؤلاء المشتركين سبع من الملكات يحملن اسم كليوباترا (٤) . وكانت الأخيرة منهن السابعة هي المشهورة التي عاصرت الفتح الروماني لمصر .

امتدت امبراطورية البطالمة (١) الى برقة وقبرص وجنوب سوريا وشطر من ساحلها أحيانا ، كما كان من ممتلكاتها ايضا بعض المدن الاغريقية وبعض السواحل في آسيا الصغرى وبعض جزر بحر ايجة ، بالاضافة الى اراضي مصر حتى النوبة . كانت الاسكندرية هي العاصمة ، وكان

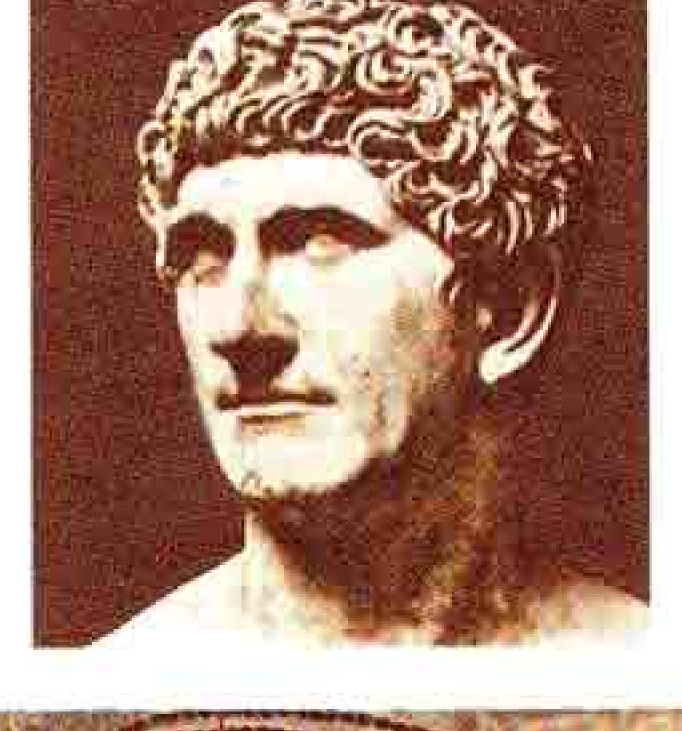
٥



٦



٧



٨



(٥) ـ أرسنوي . شقيقة بطليموس الثاني وقرينته . ابنة بطليموس الأول (الملقب بالمخلّص) . يصفها نقش هيروغليفي بهذه العبارة : « الابنة الحقة والأخت الحقة والزوجة الحقة . سيّدة المصريين أرسنوي ... فيلولفوس (المحبة لأخيها) (الفاتيكان) .

(٦) ـ مارك أنطونيو (٨٣ ـ ٣٠ ق . م .) . كان يحكم النصف الشرقي من الأمبراطورية الرومانية ، بينما كان أوكتافيوس يحكم القسم الغربي بعد مقتل قيصر . وقع تحت تأثير كليوباترا والحياة الباذخة في مصر . سقط في معركة اكتيوم سنة ٣١ ق . م .

(٧) ـ هذا الرأس بملامحه القاسية لكاهن بطلمي . يدعونه بالرأس الأخضر (للون حجره الأخضر) . هو واحد من مجموعة التماثيل الشخصية البطلمية التي تميزت بمحاولة الاقتراب من النحت الواقعي بتأثير الفن الاغريقي . (موجود في متحف برلين) .

(٨) ـ أهم ما حاوله البطالمة لمزيد من الاندماج في الحياة المحلية المصرية ، هو أن يكونوا في عيون المصريين معبودات كالفراعنة القدامى . بنوا المعابد ورسموا أنفسهم فيها على الطريقة الفرعونية . في المنحوتة يظهر بطليموس الثالث عشر (بأقصى اليمين) أمام إيهي وحتحور .

الاهالي يميزونها عن البلاد كلها بتسميتها « المدينة » .

النظام البطلمي

أقام البطالمة في امبراطوريتهم نظاما اقتصاديا متكاملا ضربوا له العملات الذهبية والفضية والبرونزية وأنشأوا المصارف في البلاد . كانت الزراعة بالاضافة الى التجارة هي مصدر الثروة . الانتاج الرئيسي كان القمح . هو النيل الآخر في مصر . وكان يحتكره الملك بطليموس أعظم تاجر قمح شهده العالم عبر العصور ، كما كان يحتكر المنتجات الأخرى كالزيت ، والكتان ، والصوف ، والنسيج المصنوع منهما ، وورق البردي ، والخمور . الأموال التي كان البطالمة يجمعونها لم تكن تظهر آثارها الا لدى الطبقات العليا . وبينما كان السلوقيون يحاولون رفع مستوى الحضارة في غرب آسيا كله ، كان البطالمة إنما يزرعون ضيعتهم ويملأون الخزائن لرفاههم (٢) .

كانت فلسفة البطالمة السياسية تأخذ من التراث الفرعوني بصورة خاصة لا من التقاليد الاغريقية . الملك في نظامهم هو الدولة . هو مصدر القانون ورأس السلطة المطلق والاله المعبود في الوقت نفسه . وكان رجال الحكومة لدى البطالمة الأول من الاغريق . لكن الذين نزلوا مصر منهم كانوا لا ينشؤون في المدن الجديدة مؤسساتهم المدنية (مسارح ، حمامات ، سوق ...) . الجند المرتزقة كانوا يسكنون مع الشعب في مدنه وقراه . لكن الاغريق كانوا مميزين مع كبار الكهنة والموظفين المصريين . والشعب طبقة أدنى وعليه أعمال السخرة . لذا قامت عدة ثورات كان منها ثورة طيبة سنة ٨٥ ق . م التي حولت تلك المدينة الى مجموعة من القرى والأطلال .

سقوط الدولة

سقطت دولة البطالمة في النهاية نتيجة اصطدامها بقوى الامبراطورية الرومانية التي طمعت بثروتها وتجارتها . جاءت النهاية في عهد ملكة كانت من أعظم شخصيات التاريخ البطلمي هي كليوباترا (السابعة) . بصرف النظر عن الدعاية الرومانية التي اطلقت ضدها في التاريخ ، فان روما لم تخش في تاريخها الا عددا محدودا من الاعداء منهم هانيبال وزنوبيا وكليوباترا . حاولت هذه الملكة الحفاظ على استقلال مصر ، وضمان العرش لابنائها بكل وسيلة . استغلت افتتان يوليوس قيصر ثم انطونيوس بها . لكن قوة روما وأطماعها كانت أقوى منها بعد ان سقط البحر المتوسط كله بيدها . فانهزمت في معركة اكتيوم سنة ٣١ ق . م ، وانتحرت بينما كانت مصر تتحول الى ولاية رومانية .

كثيرون يعتبرون العهد البطلمي ، رغم طابعه الهليني الواضح ، امتدادا لمصر الفرعونية في الحكم والدين . لكن هذا العهد تميز بتشجيع البحث العلمي والفلسفي ، وهو ما ميز الاسكندرية . اتجهت الفلسفة ، في عهد البطالمة ، الى بحث القيم الخلقية ، وهذا ما أشاع الفلسفتين الابيقورية والرواقية . وأسس البطالمة مكتبة الاسكندرية الشهيرة ومتحفها ، فقلدهم زملاؤهم في المناطق الأخرى مما مهد لظهور نوع من الفكر الموسوعي في هذا العصر ، ولتقدم الجغرافيا والفلك والرياضيات والطب والتشريح حتى الأدب .

خلفاء الاسكندر(٢)
السلوقيّون

لم يرث الاسكندر الاكبر احد من قادته أملاكا وطموحا مثل سلوقوس . كانت احلام الاسكندر تتضخم مع توسع الفتوحات على يديه ، لدرجة الاصرار على مزج العالم القديم كله بعضه مع بعض ، حتى بالزواج والصلاة المشتركة . وقد زرع ٢٥ مدينة جديدة للاغريق في أنحاء الامبراطورية كالمسامير ، لربطها من مصر والشام حتى افغانستان والهند . كان قد بقي عليه فقط أن يخضع الجزيرة العربية واليمن ليجمع العالم في يده . حاول ذلك بالفعل . أرسل قائده نيارخوس ليكشف عن الساحل الاسيوي ، من مصب نهر السند حتى مصب النهرين . ثم أرسل ثلاث بعثات بحرية تكتشف السواحل

١ أ



ب



(١) - ظلت ذكرى الاسكندر وأحلامه العالمية ذات أصداء مترددة عدة قرون ليس لدى خلفائه فقط ولكن في العصر الروماني ايضا وفي بعض الأجواء الاسلامية . تمثاله (أ) نسخة رومانية عن تمثال صنعه له نحاته الأثير المعاصر له ليسيبوس . أما داريوس رمز الشرق المهزوم ، فقد صور وعلى وجهه الألم والمفاجأة دوما . الصورة (ب) قطعة من فسيفساء وجدت في بومبي تمثل المعركة . (موجودة في متحف نابولي) .

٢



(٢) - جبيل كانت أول مدينة فينيقية تتحالف مع الاسكندر سنة ٣٣٢ ق . م . ثم كانت دوما خلال العهد الهلينستي تضطرب نتيجة حروب البطالمة والسلوقيين . عرفت منطقتها عددا كبيرا من الأبنية في تلك الفترة واشتدت العناية بمينائها الذي كان فيه مرفآن . في الصورة المرفأ الصغير .

(٣) - كانت المدن السلوقية جُزرا في بحر من الحضارات والعادات والتقاليد واللغات

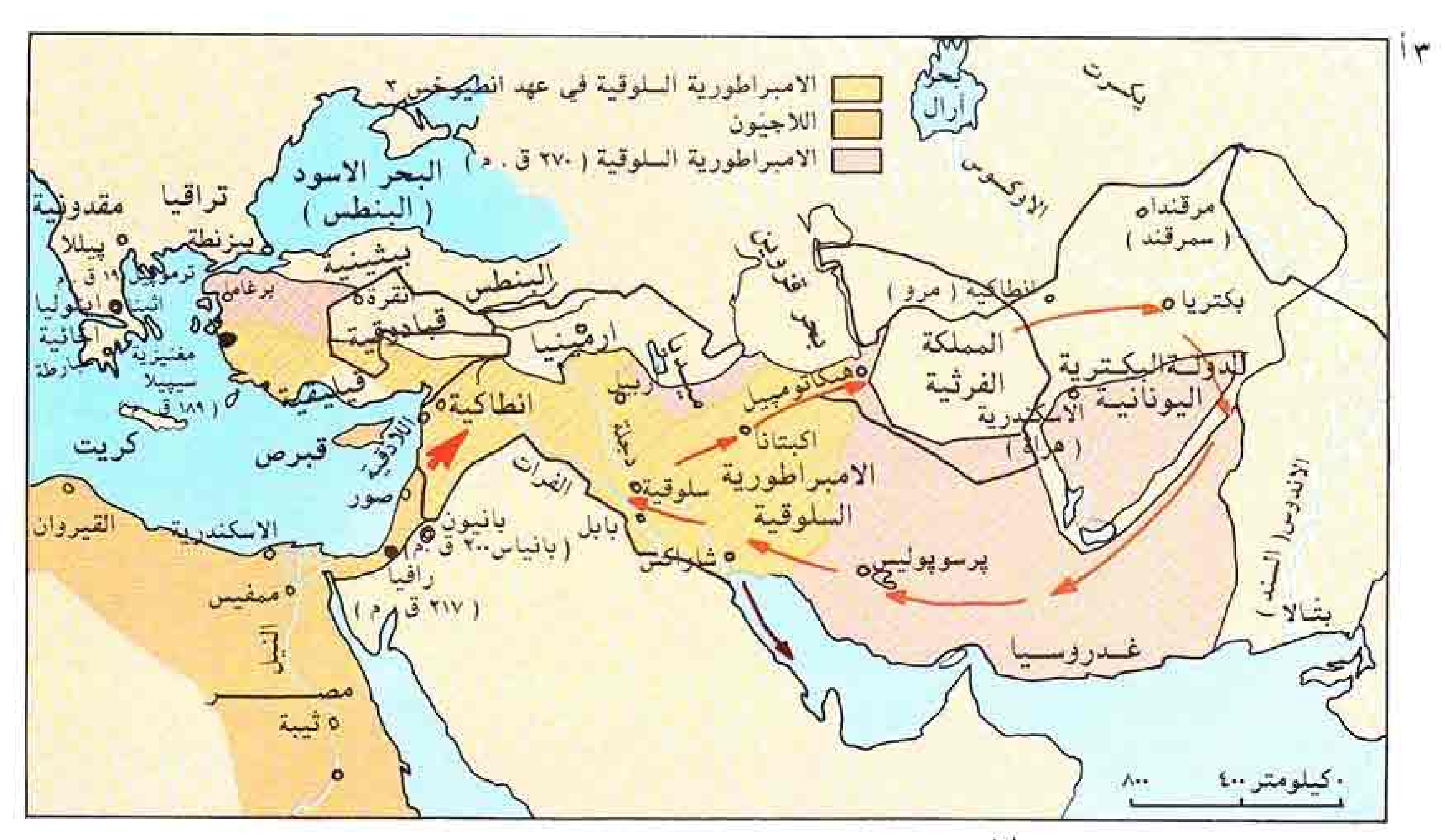
الغربية للخليج العربي حتى ما وراء عمان . لكنه توفي قبل تحول الاحلام حقيقة . كثيرون قبله دغدغوا مثل احلامه ، لكن قلائل هم الذين تركوا اثرا عميقا مستمرا مثل اثره (١) . سلوقوس كان أكثر خلفاء الاسكندر ارتباطا باحلام ملكه .

المملكة السلوقية :

برز اسم سلوقوس الأول (٣١٢ ـ ٢٨٠ق. م) الملقب نيكاتور (المنتصر) حين استولى على اكبر اجزاء الامبراطورية من حوضي السند وجيحون الى شواطىء الشام الشمالية (٣) ، وان فشل في ضم آسيا الصغرى ومقدونيا . لكن هذه المملكة ما لبثت ان فقدت اجزاءها الشرقية كلها بالتدريج حتى انتهت دولة لسوريا فقط .

حاول انطيوخوس الثالث الكبير (٢٢٣ ـ ١٨٧) أحد أحفاد سلوقوس أن يعيد المجد

٣ أ



الشرقية . تكلم سكان هذه المدن اللغة اليونانية ، الا ان سكان الريف ظلوا يستعملون الآرامية والفينيقية على العموم . كان من المدن الرئيسية في العصر السلوقي في بلاد الشام انطاكية العاصمة ، وسلوقية واللاذقية ، وافامية المعسكر الرئيسي للدولة السلوقية في شمال سوريا . وكانت هناك حلب ومنبج ودورا (الصالحية على الفرات) وحمص وبعلبك

ب



وفيلادلفيا (عمان) وابولونيا (قرب نابلس) وعمواس (في غربي القدس) وطرابلس وبيبلوس (جبيل) وبيروت وصيدا وصور ويافا وعسقلان وغزة ورفح . وكان سكان هذه المدن من قدامى المحاربين وأولادهم واحفادهم من زمن الاسكندر . ومن يونانيين ومقدونيين نقلوا أو شُجّعوا على الانتقال الى هذه المدن .

لهذه الدولة ، فتوغل بالحروب حتى وادي السند ، واهتم بتجارة الجزيرة العربية يريد السيطرة عليها فردته الشواطىء الصعبة البعيدة (٢٠٤ ق . م) ، وحارب البطالمة عشرين سنة حروبا طويلة ناجحة استعمل فيها الفيلة .

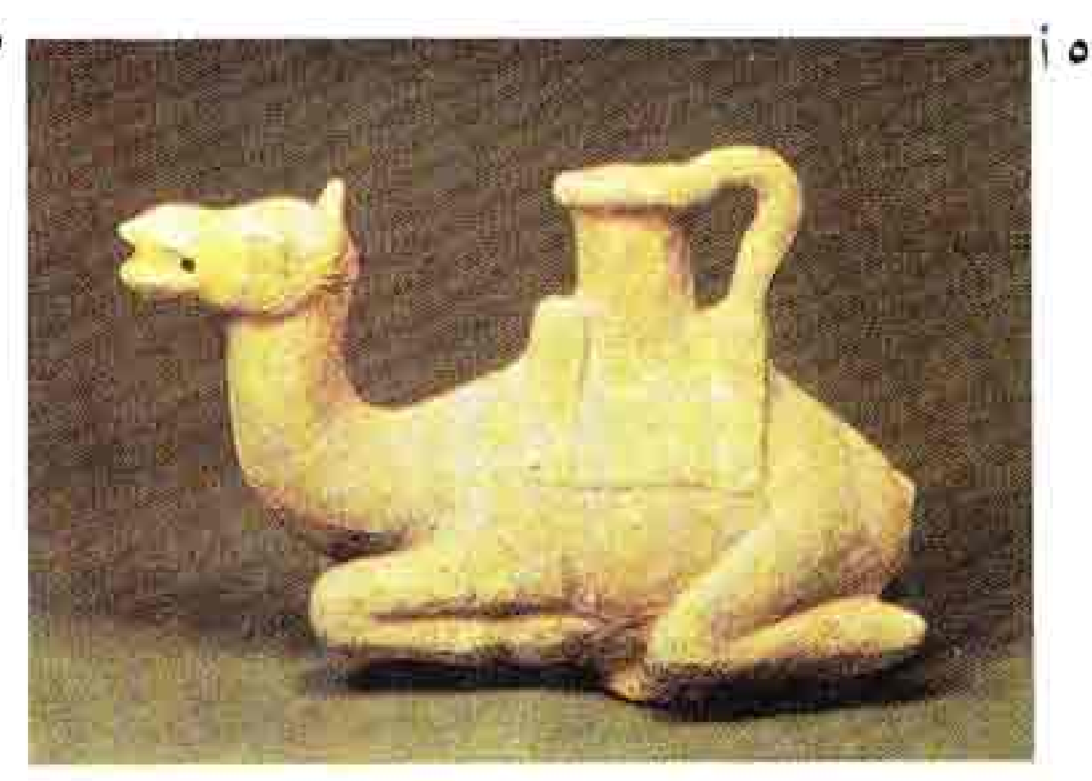
كان موضوع الخصومة الدائم بين السلوقيين والبطالمة هو السيطرة على جنوب سوريا (سوريا المجوفة) التي كان الطرفان يريدانها لاستقرار خطوطهما التجارية ، ولاتخاذ خطوط دفاع وتهديد ، بالاضافة الى غناها بالأخشاب والزيت وبعض المعادن . دارت من أجلها خمس حروب بينهما (٢٧٦ ـ ٢٠٠ ق . م) وانتهت بسيطرة البطالمة عليها بعض الوقت . لكن السلوقيين عادوا في عهد انطيوخوس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٤) فحاربوهم ودخلوا بلادهم حتى الاسكندرية سنة ١٦٩ ق.م.

في البدء ، كانت بابل هي العاصمة ، ثم بنى سلوقوس الأول مدينة انطاكية عاصمة

٤



٥ أ



ب

(٤) ـ كانت صور ، مع مدن جنوب سوريا ، تنتقل حسب نتائج الحروب بين أيدي البطالمة والسلوقيين . سمعتها التجارية وطابعها الفينيقي واصداء مقاومتها العنيدة للاسكندر لم تتغير خلال العهد الهلينستي . سمح لها ديمتريوس الثاني (١٤٥ ـ ١٢٥ ق . م) بأن تكون مدينة مقدسة وبأن تسك نقودها الخاصة وتذكر عليها ذلك مع شعاراتها . حفريات صور الأثرية كشفت الكثير عن ماضيها الفينيقي والهليني والروماني . من ذلك شارع معبّد بالفسيفساء تنتصب على جانبيه أعمدة الرخام الأبيض المطعم بالأخضر . وفي طرفه مبنى كبير مربع الشكل كان محاطا من جهات ثلاث بأعمدة من الغرانيت . وفي الصورة بقاياها . على ٣٠ مترا من الشارع شيد ملعب حجري مدرج من العهد الروماني . كما انتشرت الحمامات .

(٥) ـ حافظت سوريا خلال العهد الهلينستي على تقاليدها الحرفية التي اشتهرت بها . انطيوخس الرابع كان يهرب احيانا من حاشيته ليزور أماكن صياغة الذهب والفضة . وظلت الأقمشة وخاصة الارجوانية من براعات هذه البلاد . وكذلك الزجاج والخزف . الجمل (أ) هو اناء للعطور من القرن الثاني قبل الميلاد . وهو في المتحف الوطني بدمشق . أما (ب) فهو اناء صنع على النموذج اليوناني بلون أسود ورسوم حمراء ويعود الى القرن الخامس قبل الميلاد . وهو موجود في المتحف الوطني ببيروت .

للدولة . كانت سياسته نشر الهلينية ، لهذا شيد اكثر من ١٦ مدينة مثلها تحمل اسم والده انطيوخوس ، وتسع مدن تحمل اسمه ، وخمسا تحمل اسم امه لاوديسا (منها اللاذقية) وثلاثا باسم زوجته آباما (ومنها آفامية في وسط سوريا على العاصي ، وكانت للجيش والخزينة) . بلغت المدن التي انشأها السلوقيون في سوريا وحدها ٣٦ مدينة . وفي هذا ما يدل على التكاثر السكاني من جهة وعلى كثافة السكن الاغريقي وانفصاله عن السكان الاصليين من جهة ثانية .

النظام السلوقي

كان نظام الحكم الذي طبقه السلوقيون يقوم على الجمع بين اساسين مختلفين : فمن جهة مبدأ الملكية الشرقية القديمة التي تعطي الملك السلطة المطلقة ، ومن جهة اخرى نظام المدينة اليونانية في المدن التي انشأوها . فكان للدولة ـ المدينة (الاغريقية) مسارحها ومؤسساتها الدستورية واستقلالها الذاتي الذي يرفض التسلط الملكي ، وكانت تسعى لزيادة هذا الاستقلال مستغلة حاجة السلوقيين للمال . وقد صارت منذ عهد انطيوخوس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٣ ق . م) حرة في سياستها وفي سك نقودها ولبعضها حصانتها الخاصة (مثل أرواد وصور (٤) وطرابلس وعسقلان) مما أضعف المملكة وجعلها مجموعة خلايا مفككة . في الوقت الذي أضحت فيه هذه المدن اشبه بالجزر الحضارية الاغريقية ، ضمن بحر من الحضارة والعادات والتقاليد الشرقية القديمة . الريف خاصة احتفظ بطابعه الحضاري الكامل وصفاته الآرامية (٥) . ومع ان الارض في عرف الامبراطورية كانت ملكا للدولة (أي للملك) ، فان اراضي المدن والاراضي الموقوفة على الهياكل فيها لم تكن خاضعة له . وبعض الهياكل كان دويلات مستقلة لديها ما يقارب ستة آلاف عبد وجارية مثل هيكل منبج وهيكل حمص . وبينما كان سكان المدن اليونانية يتكلمون الاغريقية ، كان السكان الاصليون والريف يتكلمون الآرامية او الفينيقية ، وان ظهر منهم عدد كبير من الشعراء والكتاب والفلاسفة باليونانية .

نهاية السلوقيين

بدأت فترة الضعف السلوقي قبل اواسط القرن الثاني ق . م . في تلك الفترة كان الانباط يستغلون الظروف ليقيموا دولتهم على هامش الدولة جنوب سوريا ، وكانت مجموعات عربية أخرى تتوغل في قلب الاراضي السلوقية وتنشىء دولا محلية (مثل بني الابجر في الرها واليطورين في عنجر وبني شمس الكرام (؟) في حمص) .

ضعفت الدولة السلوقية بعد توسع الفرس ١٣٠ ق . م على حسابها ثم الأرمن الذين اكتسحوا سوريا ٦٩ ق . م . ثم جاءتها الضربة القاضية على يد القائد الروماني بومبي الذي احتل سوريا سنة ٦٤ ق . م . وجعلها ولاية رومانية .

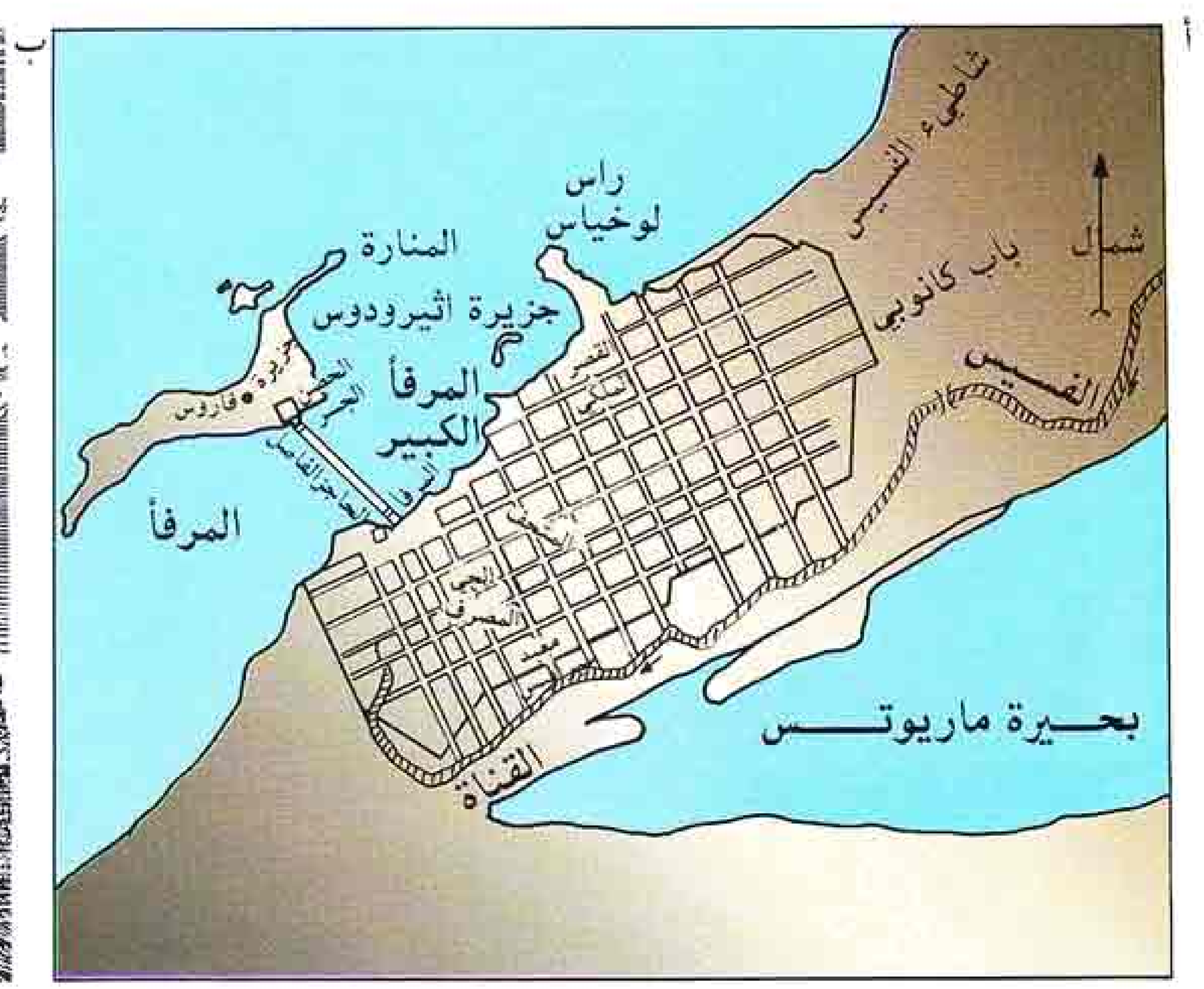
رغم بقاء الهلينة أجنبية في سوريا ، فالتمازج الحضاري ترك أثره الواضح عمرانا وفنونا وفكرا . ظهر من أهل البلاد كثير من رجال الفكر منهم زينون الصيداوي (٣٣٣ - ٢٦١ ق . م) مؤسس المدرسة الرواقية ، وديودوروس الصوري المشاء (أواخر القرن ٢) وبوسيدونوس الأفامي (١٣٥ ـ ٥١ ق . م) ، وعاصره من الشعراء فيلوديموس ومليغر .

الاسكندرية في العصر الهلينستي

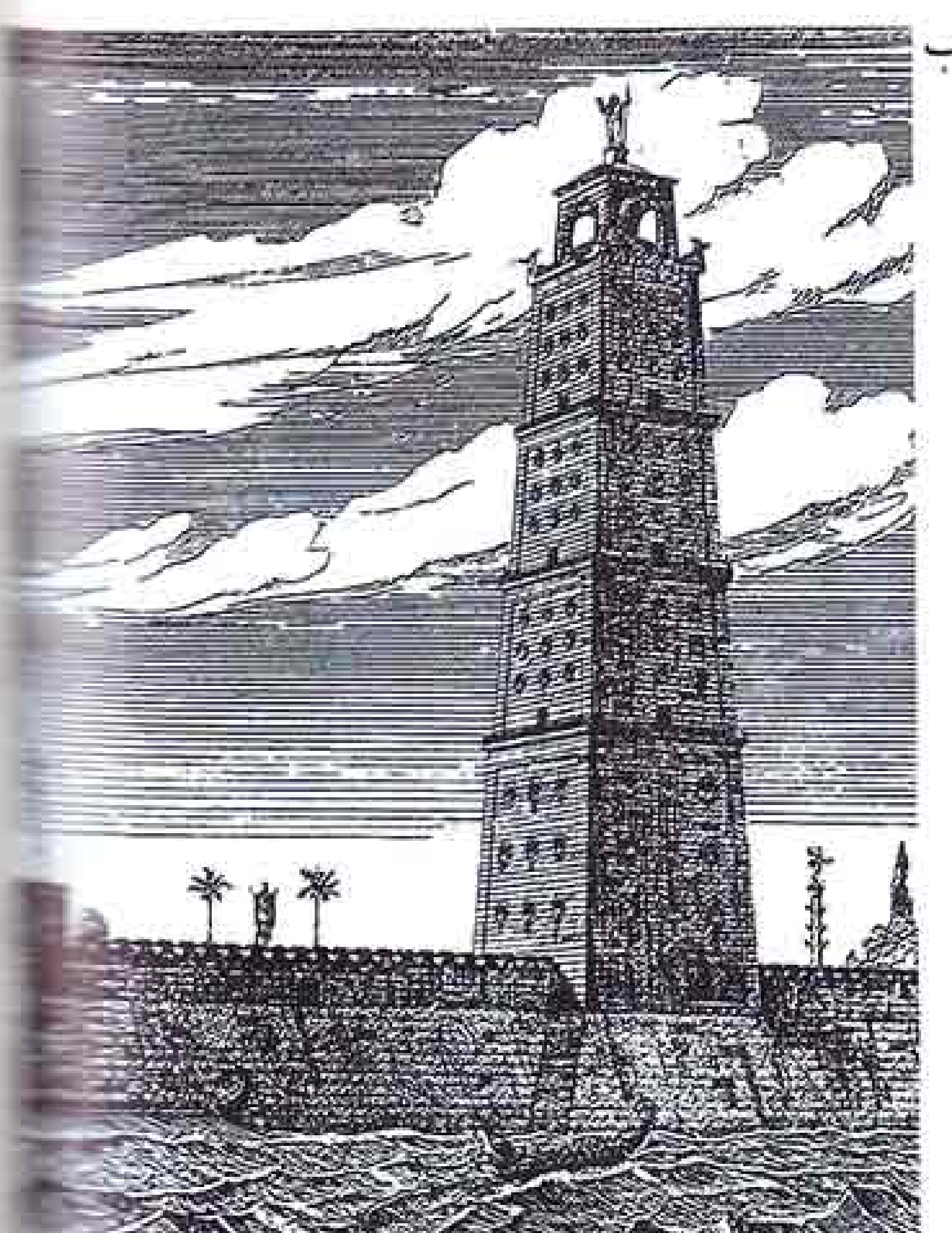
أدت فتوحات الاسكندر (٣٣٣ ـ ٣٢٣ ق . م) الى منح الشرق صبغة هلينية في الثقافة والدين والعادات والتزاوج . وقد بنى عددا من المدن منها الاسكندرية (١) (سنة ٣٣٢) التي سرعان ما أصبحت ، بجانب مركزها التجاري على البحر المتوسط ، مركزا للعلم والفكر اليونانيين ، وللالتقاء ذلك كله بالثقافات الشرقية (المصرية والفينيقية والعبرانية) . هذا المزيج الحضاري هو ما اصطلح على تسميته بالحضارة الهلينستية التي حاول الاسكندر نفسه أن يكون رمزا لها ومات قبل تحقيقها .

عني البطالمة كل العناية بالاسكندرية . أسس أولهم مكتبتها المشهورة (٥٠٠ ألف طومار

١ أ



ب

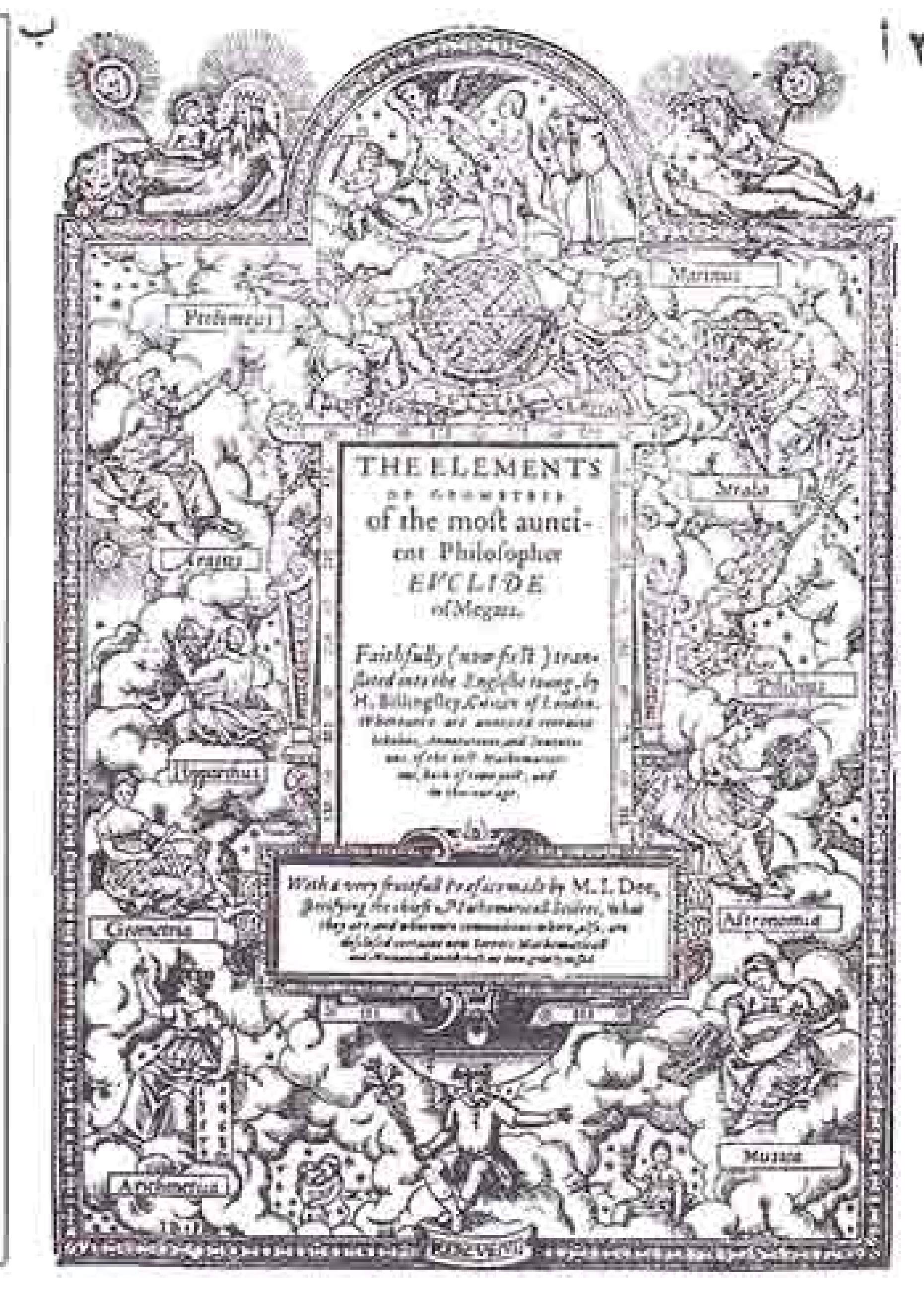


(١) ـ الاسكندرية أسم يطلق على أكثر من مدينة واحدة من المدن التي بناها الاسكندر المقدوني موزعة في الشرق . اسكندرية الساحل المصري هي اشهرها وأهمها . موقعها (أ) كان ـ وما يزال ـ يمتد في شريط ساحلي ضيق بين البحر الابيض المتوسط وبين بحيرة مريوط . كان يقابل الساحل جزيرة صغيرة قريبة هي جزيرة فاروس . أمر الاسكندر بردم الشقة البحرية الفاصلة بينها وبين البر بجسر (١٢٠٠ م) سمح بظهور مرفأين للمدينة . كان مخطط المدينة ذا شوارع متعامدة . ومدت للاسكندرية قناة تأتيها بالماء من النيل . حوالى سنة ٢٧٠ ق . م أقيم على جزيرة فاروس برج ـ منارة (ب) بناه المهندس سوسيتراتوس . بقي قائما حتى القرن الرابع عشر الميلادي . كان بارتفاع ١٢٠ مترا (أو اكثر قليلا) تشتعل فيه نار يراها البحارة على بعد ٥٠ كم . شهرة هذه المنارة لم تعط فقط اسمها للجزيرة (فاروس = منارة) ولكنها ذهبت في العالم لدرجة جعلتها احدى عجائب الدنيا السبع . ورد ذكرها دوما في الكتب القديمة عند الكلام عن الاسكندرية . أوفى وصف لها بالعربية يرد في كتاب الألفباء ليوسف بن محمد البلوي المعروف بابن الشيخ الملقي (١١٣٢ ـ ١٢٠٧) الذي كان يقيم في الاسكندرية قبيل وصول صلاح الدين الايوبي اليها . يؤخذ من وصفه ان المنارة كانت قائمة على منصة تعلو سطح البحر ١٢ قيراطا وتتألف من ثلاث طبقات . يبلغ محيطها عند السفح ١٨٠ ذراعا وعند أعلاها ٤٠ ذراعا . أما ارتفاع الطبقة الاولى فكان يعادل ٧١ مترا . وكانت تتألف

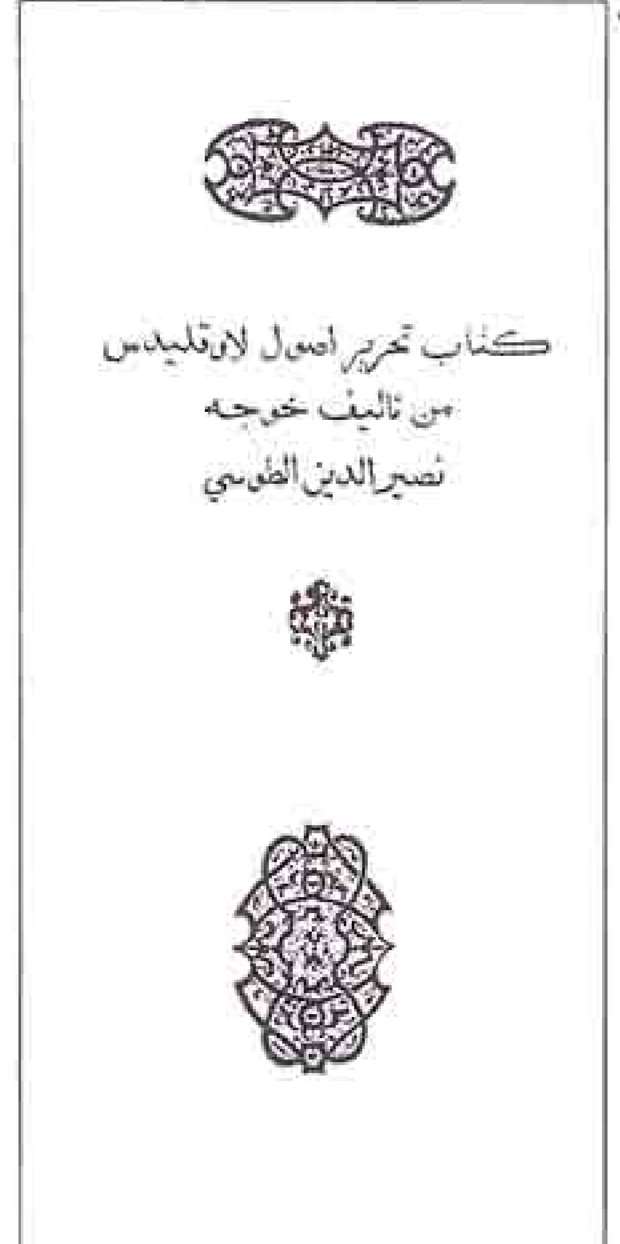
جلدي) التي ظلت على ازدهارها حتى عصر الميلاد ، ثم تدهورت وأصابها الحريق أكثر من مرة ، ولم يعد لها ذكر في القرن الخامس الميلادي . كانت شهرتها في العالم القديم لا تقل عن شهرة منارة الاسكندرية التي اعتبرت احدى عجائب الدنيا السبع . دعا بطليموس الثاني علماء اليونان اليها (مثل ديمتريوس الفالروني و استراتون ٢٧٠ ق . م الذي أسس النزعة العلمية المادية فيها) .

بلغت الاسكندرية في العهد الهلينستي البطلمي أوج ازدهارها الثقافي الذي امتد الى العهد الروماني . ثم أخذت ثقافتها بعد القرن الثاني الميلادي المنحى الديني ، اذ لعبت دورها في فلسفة الوثنية والمسيحية واليهودية . بنيت سمعة الاسكندرية العلمية على جهود عدد من كبار علماء العصور القديمة الذين كانوا خليطا من شعوب مختلفة وان كان أكثرهم من الاغريق .

٢ أ



ب



٣



من ٥٠ حجرة أو منفذا بنيت في جدارها . ويصعد المرء الى الطبقتين الثانية والثالثة بسلمين حجريين (٣٢ و ١٨ درجة) .

---

(٢) ـ صفحة من الطبعة الانجليزية الأولى لكتاب اقليدس (النصف الأول من القرن الثالث ق . م) العالم الرياضي الشهير التي ظهرت في لندن سنة ١٥٧٠ (أ) . أما الصفحة العربية (ب) فهي مأخوذة من شرح نصير الدين الطوسي (توفي ١٢٧٤) . الفلكي والفيلسوف الشهير . وهو من أول الكتب المطبوعة (روما سنة ١٥٧٤) .

---

(٣) ـ توصل علماء الاسكندرية الى الاعتراف بكروية الأرض فسعوا السعي الحثيث لتحديد قياساتها . العالم أيراتوستين (ولد في برقة حوالى سنة ٢٨٤ ق . م . وتوفي بالاسكندرية حوالى ١٩٢ ق . م) حقق هذا الموضوع بأبسط الطرق . افترض ان الاسكندرية وأسوان هما على خط طول واحد . ولما كانت تفصلهما ٥ آلاف غلوة ، فانه قاس ميل أشعة الشمس ، يوم الانقلاب الصيفي في كل من البلدين . واستخرج قياسا لمحيط الأرض ليس بالبعيد عن الواقع . ومدد خطوط الطول والعرض ووضع خريطة عامة للمسكونة تلفت النظر بقلة أخطائها في السواحل المتوسطة وآسيا الصغرى . كان ايراتوستين رياضيا فلكيا لغويا مؤرخا شاعرا . ولكنه ، في نظر معاصريه في القرن الثالث للميلاد ، كان العالم الأول في الجغرافيا . لكن اسمه لم يشتهر شهرة بطليموس القلوذي بعده . صاحب المجسطي ، الذي أضحى أبرز ممثلي مدرسة الاسكندرية في الجغرافيا الفلكية .

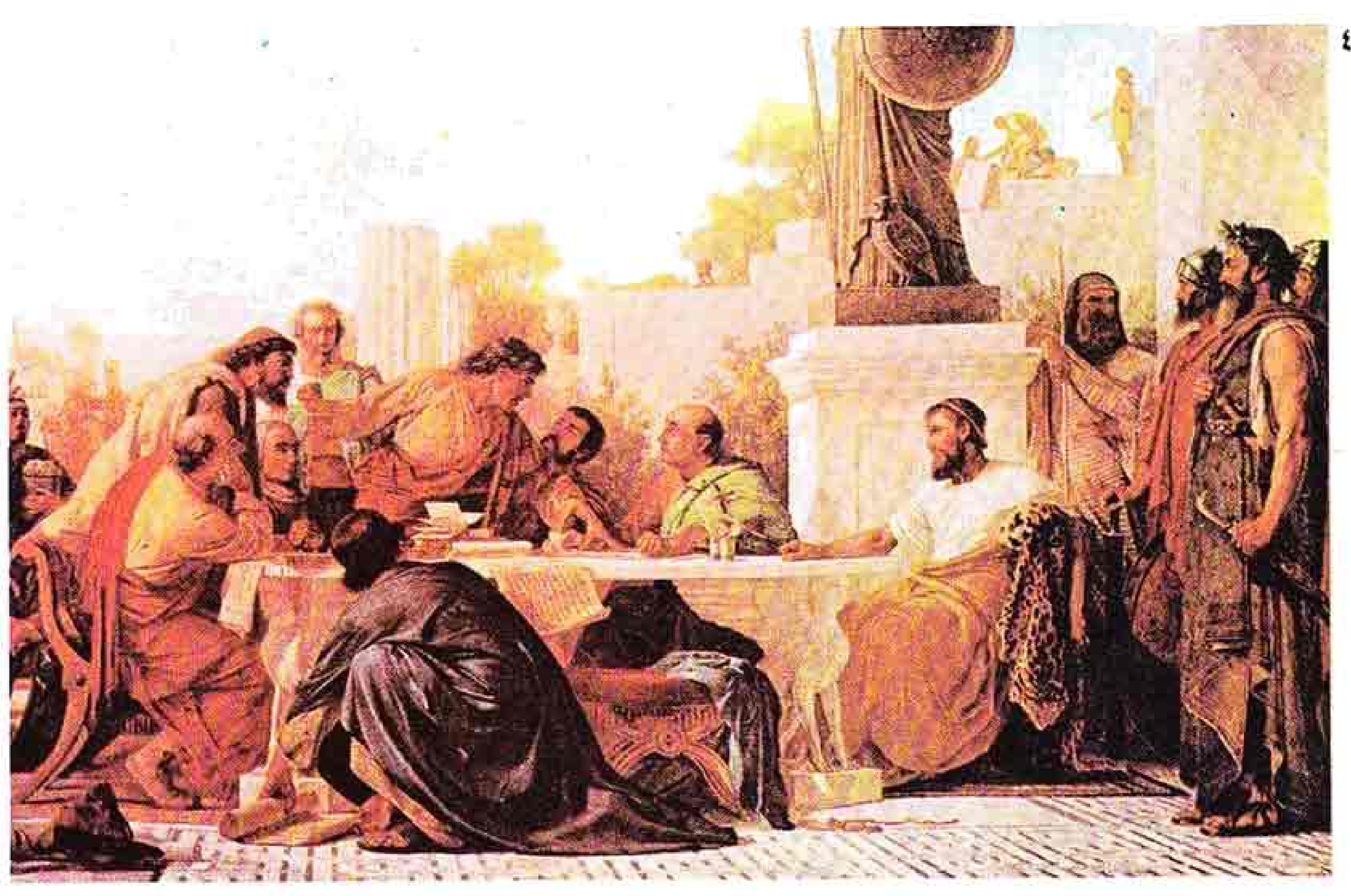
في الهندسة :

كان أعظم رجال العلم الاسكندري هو اقليدس (ولد في أثينا وجاء الاسكندرية حوالى سنة ٣٠٠ ق . م.) . كتابه الشهير « الأصول » أو « العناصر » (٢) ترجم الى معظم لغات العالم وبقي حتى القرن الماضي أساس علم الهندسة . وقد ترجم مرتين في عصر الرشيد والمأمون الى العربية . وغطى على الكتب الأخرى في مادته .

في الفلك :

برز اريسترخوس (٣٠٠ - ٢٢٥ ق . م) الذي كشف ان الشمس هي محور دوران الكواكب ، وايراتوستين الذي قاس محيط الأرض (٣) ثم بطليموس الاسكندري (اشتهر حوالى ١٥١ - ١٢٧ ق . م) أوسع علماء الفلك شهرة . كتابه المجسطي ترجم في عصر الرشيد أيضا وبقي المرجع العلمي حتى مطالع العصور الحديثة .

٤

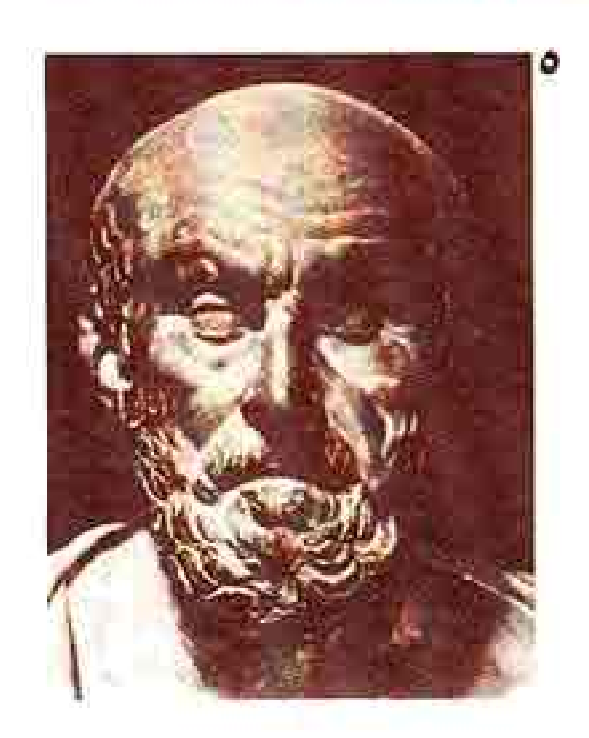


(٤) - كان الجدل الديني الفلسفي في القرن الرابع الميلادي في أوجه . الامبراطور جوليان (٣٦١ - ٣٦٣) أسهم في الجدل والمحاضرات (الصورة) . كان يعتنق الأفلاطونية الحديثة . نشطت الوثنية في عهده لأنه أقام كنيسة لعبادة الشمس وجعل لها الكهنة وجعل نفسه رئيس الكهنوت . ترك كتابات كثيرة منها كتابه (ضد المسيحية) الذي نعرفه من الردود التي رد بها عليه كيرلوس بطريق الاسكندرية .

---

(٥) - هيبوقراط (٤٦٠ - ٣٧٧ أو ٣٥٩ ق . م) ويسميه العرب أبقراط هو أشهر طبيب في العصور القديمة ويسمونه بأبي الطب . يقولون ايضا انه عاش ٩٥ سنة . تعلم الطب حتى بلغ ١٦ سنة وأقام يعلمه ٧٩ سنة ! تميز بطريقته التجريبية . ينسب اليه « القسم » الذي يقسمه الأطباء عند مزاولة المهنة وكان سببا آخر في شهرته . هذا التمثال لأبقراط في غاليري أوفيزي في فلورنسا .

٥



في العلوم الطبيعية :

أشهر اسم في تاريخ الفيزياء والميكانيك القديمين هو ارخميدس الذي ولد في صقلية وتوفي ٢١٢ ق . م ، وقد أقام فترة في الاسكندرية . اشتهر كذلك بكتسيبوس (حوالى ٢٧٠ ق . م) الذي اخترع عددا من الآلات كمضخة الضغط والارغن المائي والساعة المائية ، وفيلون البيزنطي الذي قدم في كتابه (الحيل) عددا من المبتكرات العسكرية تابعها من بعده هيرون الاسكندري في القرن الأول .

في الطب والتشريح :

اتبع الطب الاسكندري مدرسة هيبوقراطوس (٥) . ظهر عدد كبير من الاطباء والعلماء في التشريح ووظائف الاعضاء أهمهم : هيروفيلوس الخلقيدوني مؤسس علم التشريح . كان أول من وصف الدماغ وميز المخ عن المخيخ والاوتار عن الأعصاب والشرايين عن الأوردة ، كذلك وصف عددا من الحواس ومن الاعضاء الداخلية . وخالف ارسطو حين اعتبر الدماغ لا القلب مركز الادراك . واصل تلميذه ايراستراتوس (ولد سنة ٣٠٤ ق . م) اعماله . لمع في القرن الثاني سيرا بيون الاسكندري ، مؤسس المدرسة التجريبية في الطب . لكن اعظم اطباء الاسكندرية اطلاقا هو جالينوس البرغامي (١٣٠ - ٢٠٠ م) الذي درس أولا في آسيا الصغرى ، وبعد ان طوف في سوريا ، استقر زمنا في الاسكندرية ، قبل أن يذهب سنة ١٦٤ الى روما ، ثم الى صقلية . ينسب اليه ما لا يقل عن ٤٠٠ مؤلف في الطب والفلسفة والعلوم . اشتهرت منها كتبه الطبية الستة عشر التي ترجمت في عهد المأمون الى العربية وكانت دستور الأطباء .

انعكست بوادر الانهيار البطلمي على الاسكندرية في القرن الأول ق. م . ثم صارت مصر ولاية رومانية ، وتحولت الاسكندرية بلدا خليطا جامعا . وعرفت الازدهار ، لكنها عادت الى التراجع وخاصة بعد انتشار المسيحية وصعود نجم انطاكية .

في عصر الميلاد ، كانت الاسكندرية معقلا من المعاقل الكبرى للوثنية في العالم القديم ، ومجال تفاعل وجدل بينها وبين التوحيد اليهودي . ظهر ذلك في أعمال أرسطوبولس (حوالى ١٥٠ ق . م) . ثم خلفه فيلون الاسكندري (٣٠ ق . م - ٥٠ م) الذي حاول التوفيق ما بين الفلسفة اليونانية في شكلها الافلاطوني وبين العقيدة اليهودية ، فمهد بذلك لقيام الافلاطونية المحدثة التي ظهرت على يد أمونيوس ساكاس (١٧٥ - ٢٤٢ م) وطبعت الفكر اليوناني المتأخر ثم الفكر المسيحي ثم الفكر الاسلامي بطابعها الخاص .

كانت المسيحية قد انتشرت في الشرق وفي مصر حين جاء أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠) الوثني آخر فلاسفة اليونان الكبار ومعاصره أوريجينوس (١٨٥ - ٢٥٤) المسيحي . عمل الأول على الأفلاطونية المحدثة ، والثاني على « هلينة » المسيحية وفلسفتها حتى أصبحا رائدي اللاهوت الكلاسيكي الوسيط .

لعبت الاسكندرية دورها بعد ذلك في الجدل حول طبيعة السيد المسيح . كان آريوس صاحب المذهب الاريوسي قسيسا في كنيستها . كذلك كانت آراء أسقفها اثناسيوس ثم خلفه كيرلس هي الأساس الذي قامت عليه الكنيسة الارثوذكسية القبطية .

الكلتيّون

منذ بداية الطور الثاني من الحضارة الكلتية، وهو المعروف عند علماء الآثار بأسم لا تين، تصبح معرفتنا بالتفاصيل أغزر وأوفى. فالسجل الأثري يحفل بروايات مدونة، تحدد بكثير من التفاصيل هوية الشعوب، التي لم يكن يميز بعضها عن بعض، من قبل، سوى المصنوعات الباقية من حضارتها المادية. يدور الموضوع الرئيسي لقصة الخمسماية سنة الأولى من هذه الحقبة من التاريخ الأوروبي حول النمو والتطور المدهشين للعالم الكلتي ثم تقهقره التدريجي.

تطور الحضارة الكلتية

تطلق لفظة «لا تين» على هذه الحقبة

١



٢ أ

ب



(١) - يظهر هنا نموذج مبكر لأسلوب فن لا تين. هذه اللوحة البرونزية التي عثر عليها في مدفن فالدالجيشهايم (حوالى ٣٢٥ ق. م) تبين وجها شبيها بالقناع وطوقا حول العنق. وعلى الرأس آثار تاج من ورق الشجر هو من علامات عبادة الاصنام، كما تبين اليدين مرفوعتين على الطريقة الكلتية في الصلاة. هذا الشكل البرونزي هو واحد من زوجين

(٢) - كان الاعتقاد سائدا في بريطانيا بان الديك (أ) يدفع الشر بصياحه. وان أكله يجلب النحس. تدل القرون الثلاثة الغريبة المزينة لرأس الثور (ب) على صفات الثور الفائقة للطبيعة. وذلك بسبب الدلالات السحرية للعدد ٣.

(٣) - يرقى الاعتقاد «باصابة العين» الى المعتقدات الكلتية العريقة في القدم. فهذه العين المرسومة على تمثال حجري لخنزير معبود تعود الى حوالى القرن الأول ق. م.

(٤) - المعبود سيرنونوس «ذو القرنين» سيد الحيوانات البرية. وقد زينت به احدى لوحات المرجل الفضي النذري الذي عُثر عليه في الدنمرك. وهو يعتمر قرني وعل.

من حضارة الكلتيين المبتدئة حوالى ٥٠٠ ق . م ، والتي تعتبر فترة أهم انجازاتهم . على غرار تسمية هالشتات التي اطلقت على المرحلة الأولى الممتدة من حوالى ٧٠٠ حتى ٥٠٠ ق . م ، جاء اسم « لا تين » من اسم موقع أثري هام . فقد عثر في القرن التاسع عشر على عدة اشكال من القرابين الدينية (٨) في لا تين على شواطىء بحيرة نوشاتيل بسويسرا ، وتدل هذه المكتشفات ، مثلها في ذلك مثل تلك التي وجدت في هالشتات ، على التغيرات التي طرأت على أدوات الكلتيين وطريقة عيشهم . وكما جرى لكلتيي حضارة هالشتات ، تطور نمط حياة هؤلاء الكلتيين الجدد ، في معظم انحاء أوروبا ، بسرعة هائلة .

كان الكلتيون ارستقراطيين جدا في نظامهم الاجتماعي ؛ فقد كان النظام الملكي شائعا بين قبائلهم ، وكانت تأتي ، بعد

٤





٦



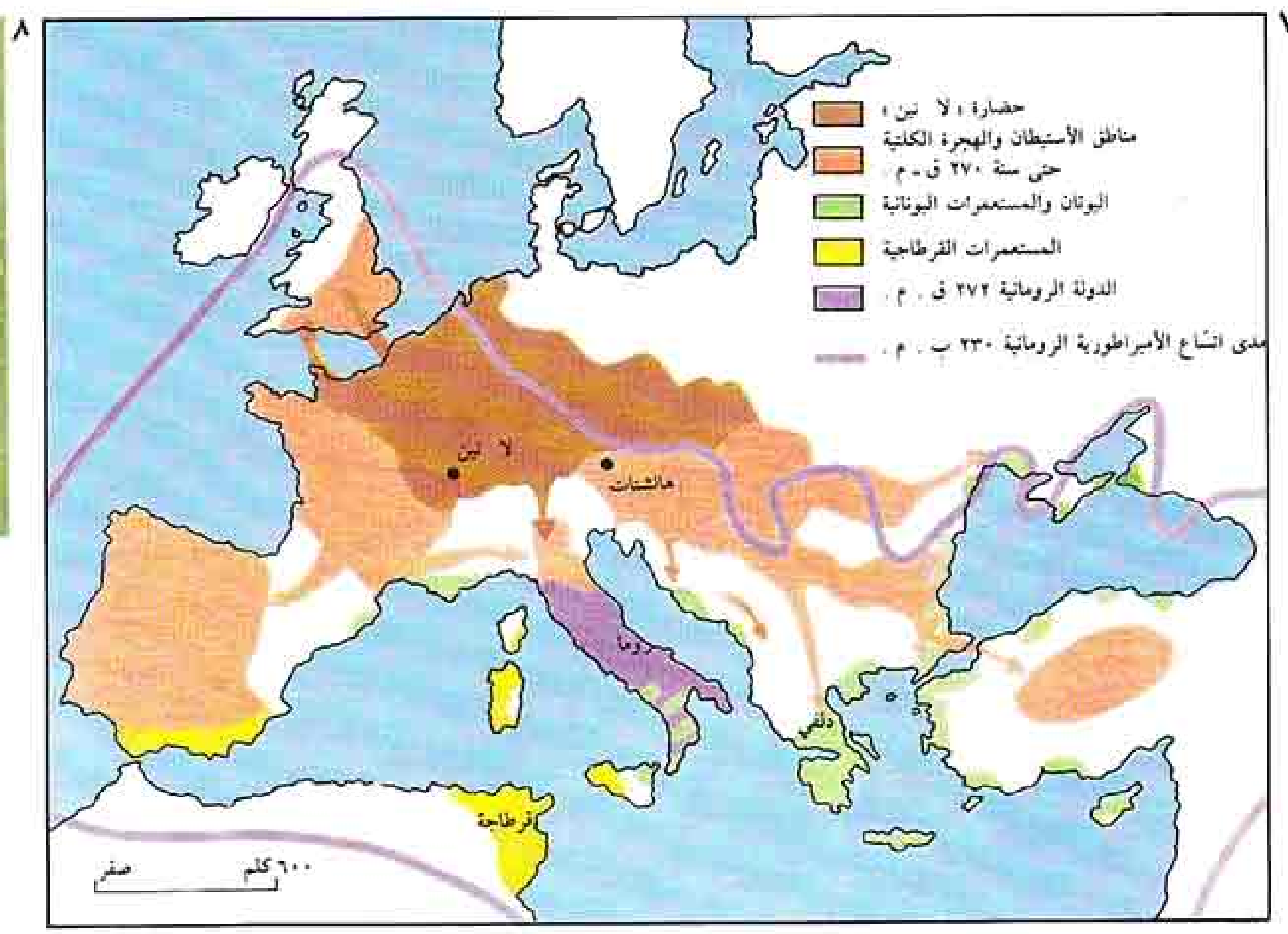
(٥)ـ ابريق من البرونز وُجد في باس يوتز باللورين ، وقد رصع بالمرجان. تكشف الحيوانات الشبيهة بالذئاب التي تشكل المقبض ، وتظهر على الغطاء، عن العلاقة بين هذه الآنية . والآنية المشابهة لها في العصر البرونزي.

(٦) ـ تمثال برونزي لشخص من بلاد الغال (فرنسا) ، في حالة النزع الأخير ، اكتشف في احد حصون التلال في أليزيا عند أليز سانت رين ، حيث وقف فرسانجيتوريكس الزعيم الكلتي الشاب ، قائد جميع الأحلاف الغالية ، وقفته الكبرى الاخيرة ، في وجه يوليوس قيصر عام ٥٢ ق . م . استطاع هذا البطل الغالي ، لفترة من الزمن ، صد قيصر وتكبيده خسائر فادحة ، ولكنه غلب على أمره بعد معركة مريرة أخيرة استسلم فيها لانقاذ مواطنيه .

الطبقة المالكة الطبقة الارستقراطية المحاربة ، ثم طبقة المزارعين الاحرار . كانت لدى الكلتيين ديانة متطورة جدا (٢ ، ٤) يهيمن عليها كهنوت قوي مؤلف من رجال الدرويد الذين كانوا يشكلون طبقة هامة . كانت هنالك ايضا طبقة عبيد .

تعوّد الكلتيون استخدام عربة حربية خفيفة ذات عجلتين ، يجرها مهران صغيران . وبلغت مهارة حرفييهم الفنية في صناعة المعادن (وكانت عالية دوما) مستويات جديدة من التقدم . في الوقت نفسه ، حدثت ثورة في اسلوبهم الفني . فقد دمجوا انماط الاورنفيلد وهالشتات القديمة بفن السكيثيين الحيواني البديع ، وبالتزيينات اليونانية النباتية ، وببعض العناصر من انماط فنية نشأت في اصقاع أبعد الى الشرق ، فنتج عن هذا المزيج فن مبتكر رائع يتصف بالدقة والغموض ويمتلىء بالدلالات السحرية .

٧



٨

٩



(٧) ـ لا تين موقع أثري في سويسرا يطلق اسمه على تلك الحقبة من التاريخ الكلتي في أوروبا التي امتدت من ٥٠٠ ق.م حتى فترة التوسع الروماني خلال القرنين الثاني والاول ق . م . وكما يتبين من الخريطة فقد كان الكلتيون ، مع حلول عام ٢٧٠ ق . م تقريبا ، قد هاجروا الى فرنسا وشبه الجزيرة الايبيرية ، وبعض انحاء الجزر البريطانية . والى حد ما الى اوروبا الوسطى . الا انهم منذ ذلك التاريخ اخذوا يتراجعون امام روما ، ومع انتصاف القرن الاول ق . م ، كان الامر قد استتب لروما نهائيا .

(٨) ـ طوق حديدي نذري (عقد أو سوار) ملبس بالفضة يزن حوالى ٦ كلغ . طرفاه مزينان برأس ثور . ولكل منهما قلادة خاصة . ولما كان اثقل من ان يرتديه انسان ، فالأرجح انه كان يعلق على صنم من الحجر أو الخشب . وقد وجد في ناحية فورتنبرج بالمانيا .

(٩) ـ كانت المرايا البرونزية المزينة من اشكال الفن الكلتي الرائعة . هذا النموذج المأخوذ من قبر امرأة في احدى نواحي انجلترا يعود الى ما قبل العهد المسيحي .

ابتداء من عام ٥٠٠ ق . م . انتشر هذا الوجه الجديد من الحضارة الكلتية بسرعة ، ومع حلول عام ٣٠٠ ق . م ، اصبح هو الفن السائد ، من بحر البلطيق حتى المتوسط ، ومن البحر الأسود حتى الاطلسي .

المجتمع الكلتي والحروب

لم يضع الكلتيون الاوائل وثائق مكتوبة ، بل حفظوا تاريخهم شفويا . مع ذلك ، يوجد لدينا ، خلافا لحضارة الهالشتات الباكرة ، وثائق كافية عن حضارة لا تين . فالكثير من معلوماتنا عن حياة الكلتيين اليومية مستمدة من مؤلفين يونانيين ورومانيين معاصرين .

كان الكلتيون حسب رواياتهم يتصفون بطول القامة وقوة العضلات ولون البشرة الفاتح . وهي صفات تعزى اكثر ما تعزى الى الطبقة المحاربة وتبلغ ذروتها في الرماحين ، وهم طبقة عالية التخصص من المحاربين الكلتيين .

كانت الحرب جزءا اساسيا من الحياة الكلتية . ولما كان الكلتيون مسلحين بأسلحة حديدية فعالة جدا . فقد استطاعوا اجتياح اوروبا الوسطى في القرنين الرابع والثالث ق . م ، والتغلب على جيرانهم الاترسكيين في حوالى ٤٠٠ ق . م . وتدمير روما عام ٣٩٠ ق . م ونهب معبد دلفي عام ٢٧٩ ق . م .

لكن الكلتيين لم يكونوا محاربين وحسب ، بل بلغوا مستوى عاليا من الحضارة المادية . واستغلوا مهارتهم في صناعة الحديد كوسيلة لاستغلال اراض جديدة ، وتطوير الزراعة . كان اقتصادهم مبنيا على الزراعة المختلطة . اي زراعة الحبوب والخضار ، وتربية المواشي ، وعلى التجارة . هذان الجانبان من حياة الكلتيين ، اي حرب التوسع والاستيطان الداخلي يظهران بوضوح في قلاع التلال التي تُشاهد بقاياها مبعثرة في جميع انحاء اوروبا . بنيت هذه القلاع اصلا على رؤوس التلال للدفاع فقط . الا انها كانت تختلف اختلافا كبيرا ، من حيث الحجم ، وقد تطور بعضها الى مدن رئيسية . من هذه القلاع تلك المسماة « اوبيدوم » الواقعة في بيبراكت بالقرب من أوتون في فرنسا ، والتي كانت تشغل مساحة تزيد على ١٣٠ هكتارا وتشمل بيوت سكن وشوارع وربما دكاكين .

نشوء الامبراطورية الرومانية

كان بروز نجم روما ، وهي مدينة صغيرة على ضفة التيبر ، وتطورها الى مدينة منظمة عظيمة ، وتمكنها عام ٢٢٥ ق . م من قهر الكلتيين في تيلامون بايطاليا بعد قتال مرير ، حدثا تاريخيا مهما . فهي ما لبثت على اثره ان اتخذت الخطوة الرئيسية نحو اخضاع الكلتيين نهائيا . لكن حتى بعد هذا الاخضاع التام ، استمرت التقاليد واللغة الكلتية فاعلة في المجتمع الروماني ، بعد ان اتخذت اشكالا تتفق مع حاجات المؤسسات الرومانية . لم تسلم من السيطرة الرومانية في الجزر البريطانية سوى ايرلندا ، وجزء كبير من اسكتلندا .

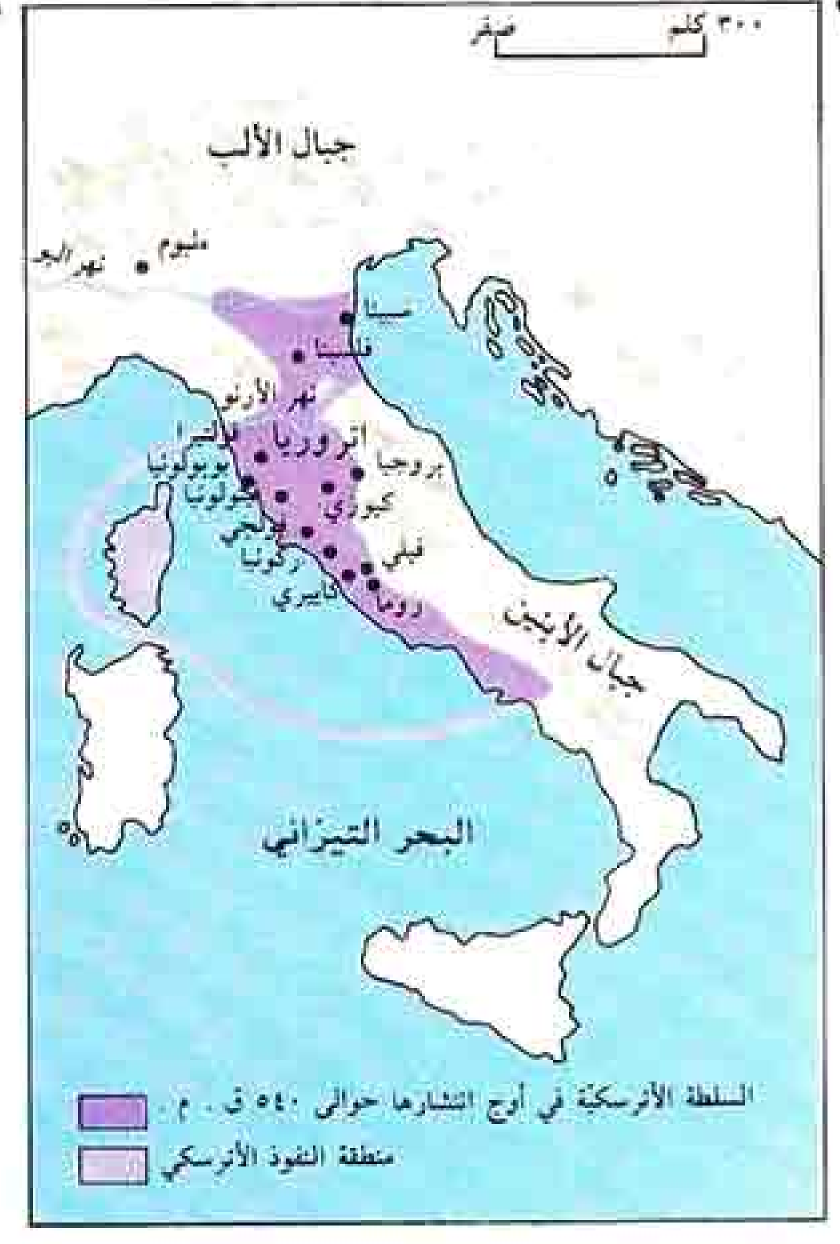
دامت الامبراطورية الرومانية حتى القرن الخامس الميلادي ، لكنها منذ القرن الثالث اخذت تتعرض لخطر غزو « البرابرة » ذوي القوة المتزايدة . كان هؤلاء البرابرة القادمون من الشمال ، من شرقي نهر الراين والسهوب الشرقية للقارة الاوروبية ، هم الذين حطموا ، في نهاية الأمر ، الامبراطورية الرومانية .

الأترسكيون

ان المعلومات المتوفرة عن الاترسكيين هي أقل بكثير من تلك المتوفرة عن معاصريهم اليونان والرومان. السبب في ذلك يعود، بصورة رئيسية، الى ضياع أدبهم. ومع ان كتاباتهم تكاد تقتصر على نقوش جنائزية مقتضبة، فآثارهم المادية الأخرى توفر مجالا واسعا جدا للأبحاث الأثرية.

أصول الأترسكيين

يبدو أن الجدل الطويل حول أصل هذا الشعب قد قارب نهايته. بدأ هذا الجدل منذ عهد المدوّنات القديمة: فقد أعلن هيرودوتس ان الاترسكيين ابحروا من ليديا في بلاد الاناضول، لاستعمار منطقة جديدة في

١


٢


(١) - كانت أراضي الوطن الاترسكي تقع بين نهري الارنو والپو الأدنى. هنالك نشأت حضارتهم المميزة وبلغت ذورة تطورها. لقد بلغت السلطة الاترسكية، في اوج ازدهارها حوالى ٥٣٥ ق. م. سفوح جبال الالب وامتدت جنوبا حتى خليج سالرنو. لكنها لم تكن امبراطورية، بل كانت تحالفا واهنا من الدول - المدن المستقلة بدون حدود مشتركة.

(٢) - خفر «قبر النحوت النافرة» في تشيرفيتيري في الصخر الصلد، ويمثل غرفة في منزل له سقف ذو عوارض قائم على اعمدة ذات رؤوس ايونية أصلية. ثمة ثغرات في الحائط للأسرّة، وقد اضيفت اليها اسرّة جنائزية لكل منها وسادتان، ولبعضها موطىء قدم وخفّ، وكأنه ينتظر صاحبه. فوق الثغرات، قطع من الدروع والاسلحة معروضة بشكل نافر، منها تروس وخوذ وصفائح للأرجل وسيوف. زينت الأعمدة الوسطى بعدة أشكال من الأدوات والآنية المستعملة في الحياة اليومية. القبر الظاهر هنا فريد من نوعه.

---

(٣) - هذان الزوجان منحوتان بحجم طبيعي على غطاء تابوت من الفخار المشوي، وجدا في تشرفيتيري بايطاليا، قرب كاييري.

(٤) - كانت علب المجوهرات البرونزية لدى الاترسكيين تحتوي على مقتنيات النساء الخاصة والجواهر وأدوات الزينة. وكانت مزينة بمشاهد اسطورية ومزودة بقوائم ومقابض من حديد. في هذا النموذج البديع من باليسترينا (٣٠٠ ق. م) نقش يمثل بيليروفون ممسكا بحصان مجنح.

الغرب ، وذهب ديونيسيوس الهاليكارناسّي الى انهم من أصل ايطالي . واليوم يتمتع كل من هذين الرأين بالقبول ، وكلاهما يعتبر صحيحا الى حد ما على الأقل .

ويبدو أنه قد أصبح مقبولا الآن ، أكثر من أي وقت مضى ، القول بتحدر المدن الاتروسكية ومقابر أوائل القرن السابع في فيلانوفا (شمالي ايطاليا) ، عن المستوطنات التي كانت قائمة فيها (بين ١١٠٠ ؟ - ٧٠٠ ق . م) وعن مقابر القرن التاسع ق . م . يمكن تتبع آثار معظم السكان وجزء كبير من الحضارة الى ما قبل ذلك التاريخ ، اي حتى العصر البرونزي . لكن من ناحية ثانية ، يمكن ان تكون الافكار والملامح الثقافية الجديدة التي ظهرت في تلك الحقبة قد أتت على عدة مراحل ، مع مجموعات المهاجرين الجدد .

كانت النتيجة ازدهارا حضاريا عظيما في

٤





٥



٦

(٥) - كان تمثال ابولون قائما ، مع تماثيل عطارد وهرقل ولاتونا ، على حافة سقف هيكل بورتوناتشيو في مدينة فايي . اسم النحات هو فولكا ، وقد صنع تمثالا لأبولون من الفخار المشوي حوالى ٥٠٠ ق . م . يختلف هذا التمثال عن تماثيل ابولون التي خلّفها اليونان . من الواضح أن الاترسكيين كانوا يدينون بالكثير لليونان ، ولكنهم عبّروا عن كل ما اقتبسوه بطريقتهم الخاصة .

(٦) - كانت المرايا المصنوعة من البرونز المصقول تساعد النساء الاترسكيات على الاهتمام بزينتهن . كان ينقش في الغالب على الجهة الخلفية من المرايا الشبيهة بهذه (٥٤٠ ؟ - ٥٣٠ ق . م) مشاهد اسطورية ، مثل النقش على هذا النموذج الذي يمثل اوريون يقطع البحر . وكانت المرايا من المقتنيات التي تدفن عادة مع الميت .



القرنين السابع والسادس ق . م ، بني على أسس محلية ، اعتمدت بدورها على وفرة الموارد المعدنية في اتروريا المعروفة باسم توسكانا (١) ، ولكنه تأثر كثيرا باليونان والعديد من بلدان شرقي البحر المتوسط . والواقع ان هذا التنوع يعطي حجة قوية ضد رواية هيرودوتس عن موطن الاترسكيين الاصلي في ليديا .

لا تزال الحضارة الاترسكية بمجملها لغزا محيرا ، فالانطباع العام الذي تعطيه هو يوناني بشكل واضح . لكن التمعن الدقيق بالتفاصيل يبين انه مهما كان التأثير اليوناني كبيرا ، فلقد تم تحويله وتَمثُله بشكل تام . كما انه تطعم بالأفكار الآسيوية الأخرى ، مثل العرافة وتشييد الاضرحة ، ورافقه تطوير صناعة محلية بحتة ، كصناعة الفخار الاسود الجيد المعروف باسم « بوكيرو » . كل هذا يسمح للمؤرخين ان ينظروا الى الحضارة

٧



(٧) ـ كان النمط التركويني من القبور عبارة عن حجرة مستطيلة حفرت في الصخر . يُدخل اليها عبر ممر منحدر . كانت الحُجر تطلى بالكلس وتزين بمشاهد زاهية رائعة الجمال والمعنى . في نهاية حائط « قبر القنص والصيد » (حوالى ٥٢٠ ق . م) يحتل المأتم الجنائزي السقف الهرمي . وتحته أفريز من اكاليل الحداد . تقفز الاسماك حول الرجال في زورقهم من كل جانب ويحاول صياد يقف على الشاطىء اصطياد أحد العصافير الزاهية الالوان التي تغطي السقف . كانت الوليمة الجنائزية موضوعا فنيا شائعا . تضاف اليها في بعض القبور الأخرى رسوم جداريّة تمثل الرقص والمباريات الرياضية المقامة تكريما للأموات .

---

(٨) ـ بلغت صناعة المجوهرات مستوى عاليا من التطور . في الحضارة الاترسكية . كان الاترسكيون صاغة مهرة بصورة خاصة . وقد بقي لنا عدد من القطع البديعة تزينها نقوش دقيقة . هذا المشبك او الدبوس يعود الى ما بين ٧٠٠ و ٦٠٠ ق . م وهو قطعة فاخرة تدل على الجودة والابداع اللذين بلغهما الفن الاترسكي .

٨

الاترسكية بوصفها حضارة قائمة بذاتها، وليس كمجرد نسخة اقليمية عن حضارة اليونان. فضلا عن ذلك، يبدو ان الشعبين كانا سياسيا عدوّين لدودين، اذ كان شغل الاترسكيين الشاغل هو محاولة منع اليونان من دخول البحر التيراني. وفي احدى المعارك البحرية طُرد اليونان من كورسيكا عام ٥٣٥ ق. م، وذلك في ذروة سيطرة الاترسكيين السياسية.

لعب الفينيقيون دورا في هذه الاحداث ايضا، كوسطاء بين اتروريا والشرق. كانت العلاقات السياسية، في هذه الحالة، اكثر ودّية، اذ كانت اترووريا وقرطاجة، في اغلب الاحيان، حليفتين ضد عدوهما المشترك، اليونان. ففي بيرجي، وهي ميناء في تشرفيتيري، عُثر على تقدمة الى المعبود يونو، أي عشتروت، وقد حفر على لوحاتها الذهبية نصّان متقابلان، أحدهما بالفينيقية والآخر بالأترسكية.

دلائل على اللغة

لعبت اللوحات التي وُجدت في بيرجي دورا كبيرا في تحسين معرفتنا باللغة الاترسكية، وهي أهم رابطة وحّدت بين الشعوب الاترسكية. وبما ان هذه الشعوب كانت قد اقتبست الأبجدية اليونانية، دون تغيير يذكر، لم ينطو تحليل رموز كتاباتها على صعوبات كبيرة. لكن ترجمتها كانت أكثر صعوبة. لأن جميع محاولات التقريب بين تلك اللغة ولغة معروفة أخرى باءت بالفشل. ويبدو ان هذه اللغة كانت الوحيدة الباقية من لغات التخاطب قبل دخول اللغة الهندوأوروبية الى المنطقة. لكن مقدرة العلماء على ترجمة هذه اللغة زادت، شيئا فشيئا، ابتداء ببعض النقوش على القبور مثل عبارة: «س ابن ج، عمره ن». لكن النصوص الطويلة القليلة العدد الباقية هي وثائق طقوسية غامضة، ولا نعلم حتى الآن سوى معناها العام. اطول هذه النصوص المكتشفة، حتى الآن، مكتوبة على القماش.

الحضارة الاترسكية

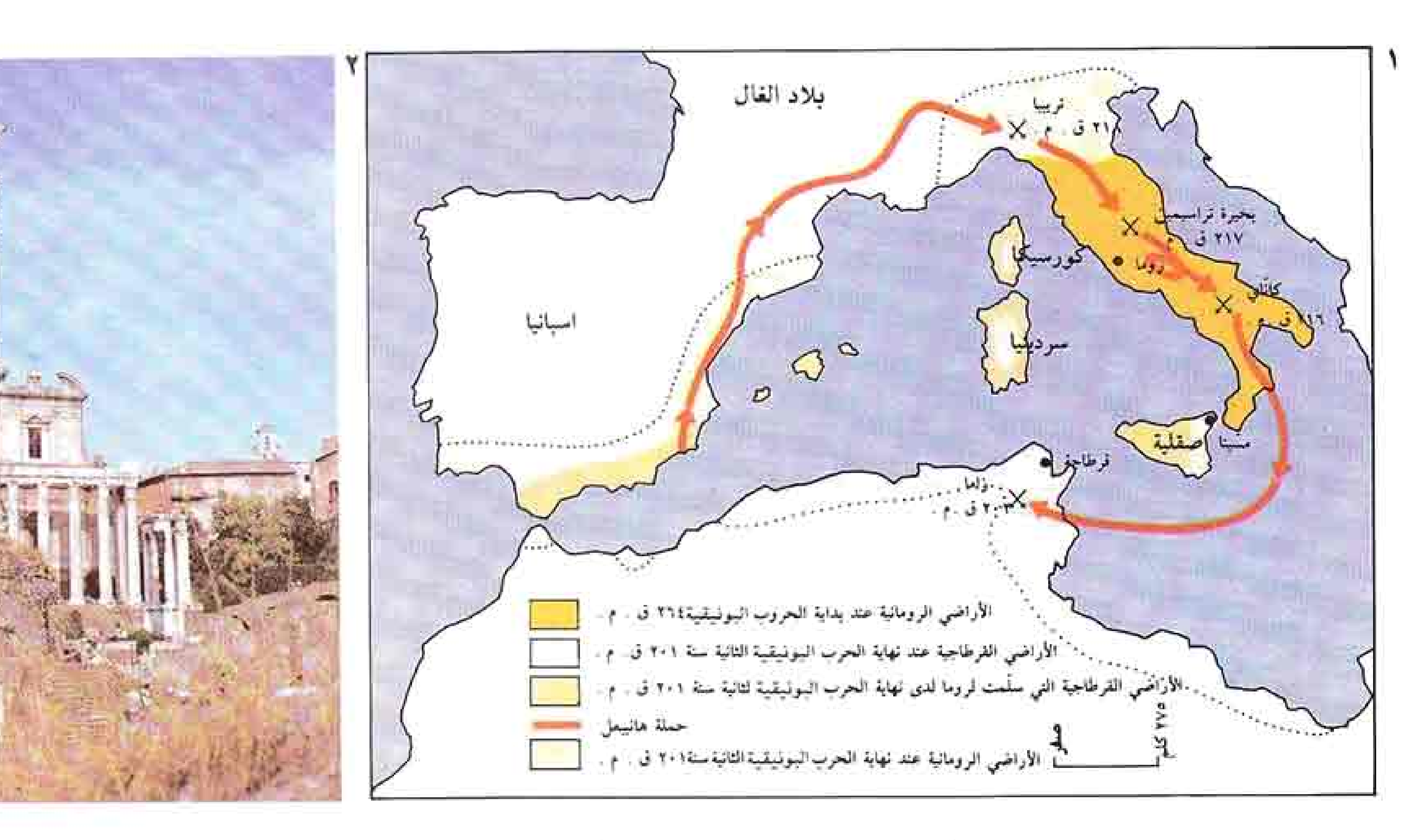
بالرغم من ان اللغة وحدت بين الاترسكيين، فلم تكن لهم وحدة حضارية تامة. كانت ثمة فروق واضحة (كما في هندسة القبور) بين مختلف المدن الاترسكية، مما يعكس استقلالها السياسي. لكنها جميعها تعطي انطباعا عن شعب نشيط سعيد، له فن جريء جميل. ومع ان الكثير من الأدلة مستمد من القبور (٢، ٧)، فالصورة التي لدينا ليست قاتمة على الاطلاق. كانت هياكل الاترسكيين ومدنهم ايضا مثيرة من الناحية المعمارية. وكانت الهندسة المدنية عندهم ذات مستوى رفيع. فقناة الملاحة في كوزا، وتحويل الجداول لتجري تحت الارض، منعا لتعرية التربة، وطريقة حفر الانفاق للأنهار لتمر تحت الطرق عوضا عن بناء الجسور فوقها، كل ذلك يبرهن على هذه المهارات.

ان ما تبقّى من الحضارة الاترسكية موجود في المواقع والمقابر الرومنطيقية الخربة، وفي مجموعات المتاحف الكبرى التي انتزعت تحفها من هذه المواقع. لكن مكانة الاترسكيين في التاريخ ثابتة، بفضل مساهمتهم في الحضارة الرومانية.

روما المبكرة

لا يزال الغموض يحيط بنشأة المدينة التي وضعت أسس عظمة الامبراطورية الرومانية . لكن الرواية التقليدية التي دونها تيطس - ليفيوس تقول ان رومولوس وريموس (٥) أسسا مدينة على التل البالاتيني في ٢١ ابريل ٧٥٣ ق . م ، مما يتفق على الأقل مع الأدلة الأثرية ، التي تبين ان بعض الرعاة قد استوطنوا فعلا هذا التل حوالى منتصف القرن الثامن ، ثم انضموا الى بعض الجماعات الأخرى في تلك المنطقة ، في اوائل القرن السادس ، لتأسيس مدينة ، حول موقع اصبح يعرف فيما بعد بالساحة الرومانية (الفوروم) . لكنه كان يستعمل لفترة من الزمن كمقبرة (٦) .

١ ٢



(١) - كان على روما ان تصبح قوة بحرية لكي تقوم بتحد فعال لسيطرة قرطاجة على المتوسط الغربي . لذلك بنت اسطولا ضخما وجهزته بوسائل اجتياح السفن المعادية . ليسهل القتال فيها بالسلاح الابيض ، الذي كان الرومان يمتازون به . وبنتيجة ذلك وبعد هزائم أولية تكبدوها ، انزلوا هزيمة بحرية كبيرة بقرطاجة في الحرب البونيقية الأولى .

(٢) - الأعمدة الثلاثة الباقية ، من هيكل كاستور وبولوكس في ساحة روما . كانت في الاصل جزءا من صف اعمدة ، يحيط بمعبد مكرس للتوأمين المقدسين اللذين كانا يعرفان ايضا باسم الديوسكوري . تقول الرواية التقليدية ان الهيكل بني اثر معركة بين الرومان واللاتين . عند بحيرة رجيلوس عام ٤٩٩ أو ٤٩٦ ق . م . حارب التوأمان الى جانب الرومان . وحملا نبأ انتصار الرومان الى المدينة . والواقع انه كان من الممكن ان يكون الهيكل قد شيد قبل ذلك بكثير ، أي في حقبة الملوك السحيقة . وهو يقع داخل حدود اولى قرى البالاتين . ثم اعيد بناؤه في القرن الثاني ق . م وفي القرن الأول الميلادي .

---

(٣) - يُروى ان اينياس الذي هرب من طروادة في اعقاب حرب طروادة هو الذي أسس روما . وقد خلّد فرجيل (٧٠ - ١٩ ق . م) هذه الاسطورة في ملحمة الانياذة . هذه المخطوطة العائدة للقرن الرابع تمثل . بصورة حية ، الاخطار التي حفت برحلته الى لاتيوم .

---

(٤) - يرتدي هذا الجندي الروماني من القرن السادس ق . م درعا وخوذة ويحمل سيفا ورمحين . حتى حوالى عام ٤٠٠

من الملوك الستة الذين يقال انهم خلفوا رومولوس ، ما من شك في ان الثلاثة الاول كانوا اسطوريين ، اما الرابع ، وهو تاركينيوس ، فقد كان اترسكيا ، ويمثل عهده بداية حقبة من السيطرة الاترسكية .

التوسع في ظل الجمهورية

انتهى العهد الاترسكي والنظام الملكي في الوقت نفسه ، في اعقاب طرد الملك تاركينيوس سوبربوس الواقع تقليديا في عام ٥٠٩ ق . م . فأخذ يشرف على شؤون روما قنصلان منتخبان ، ومجلس شيوخ مؤلف كليا من ارستقراطيين أغنياء ، يعرفون بالنبلاء (البطريقيين) .

بعد تأسيس الجمهورية بقليل ، لعبت روما دورا رئيسيا في انشاء « الحلف اللاتيني » ، وهو تحالف بين مدن لاتيوم ، وهي المنطقة الغربية من ايطاليا الوسطى .

٣



٤



٥

ق . م لم يكن الجنود يتقاضون رواتب ، لذلك كان الأغنياء فقط يستطيعون الانخراط في الخدمة العسكرية . انشيء الجيش النظامي حوالى عام ١٠٠ ق . م .

(٥) ـ تقول الاساطير ان ذئبة ارضعت رومولوس وريموس المؤسسين الاسطوريين لمدينة روما . يعود هذا التمثال البرونزي الشهير الموجود في متحف الكابيتول ، الى اواخر القرن السادس ق . م ، وهو عصر المَلَكية الاترسكية . اما تمثال التوأمين ، فقد اضيف فيما بعد ، وذلك خلال عصر النهضة .

في عام ٣٩٠ ق . م ، اجتاح الكلتيون السنونيون ، وسواهم من الشعوب الغاليّة ، ايطاليا الشمالية واستولوا على روما بكاملها ، باستثناء الكابيتول . ثم غادروها مقابل فدية .

انطلاقا من قواعدها المحصّنة ، انصرفت روما بثقة الى شن عدة حروب سمحت لها بفرض سلطة لا تُنازع على كامل ايطاليا ، من وادي البو حتى أقصى الجنوب . ثم اجتاحت الجيوش الرومانية المدن اليونانية ، وانتصرت عليها ، مما مكن روما من بسط سيطرتها على شبه جزيرة البلقان بكاملها .

في هذه الفترة شهد عامة الشعب (البليبيون) تحقيق عدد من مطالبهم . فأصبح لهم مجلسهم الخاص وهو مجلس الشعب ، وموظفوهم الذين عرفوا بالتريبونيين (أي المدافعين عن الشعب) . وفي عام ٤٤٥ ق . م ، حصلوا على حق الزواج من طبقة

٦

١ - السرك الكبير
٢ - السرك الفلاميني
٣ - مجلس الشيوخ
٤ - مكتب الوثائق - هياكل
٥ - هيكل جونو مونيتو
٦ - جوبيتر الكابيتولي
٧ - هيكل زحل
٨ - كاستور وبولوكس
٩ - فيتا (الأرض)
١٠ - جوبيتر القاهر - اسواق وجسور
١١ - الجسر الايميلي
١٢ - الجسر الفابريكي
١٣ - سوق السمك
١٤ - سوق الخضار
١٥ - سوق المواشي

مستنقعات ٠ صفر ١٠٠٠ م

أ - رواق مسرح بومباي
ب - مبنى للسفن

٧ أ

ب

(٦) - تلال روما السبعة عبارة عن ثلاث روابٍ ، ترتفع فوق نجد منخفض ، كان أصلا مليئا بالمستنقعات . تم اولا الاستيطان على تلي البالاتين وهما كيرينال واسكيلين . وكان آخر التلال المستوطنة هما كابيتولين وآفنتين . أخذت تنشأ مدينة موحدة عندما اتحدت القرى الواقعة على بعض هذه التلال في اوائل القرن السابع ق . م . شيد أول سور حول المدينة حسب الرواية التقليدية في القرن السادس الذي كان فترة نشاط عمراني عظيم في عهد الملوك الاترسكيين . تعود شبكة المجارير الكبرى وهي جهاز معقد للمجارير . وهيكل جوبتير الكابيتولاني الى هذه الحقبة المبكرة ايضا .

(٧) - تبين هذه القطعة النقدية حن بعل (أ) على أحد وجهيها . وفيلا (ب) على الوجه الآخر . جاءت الفيلة في الفرقة التي قادها حن بعل الى ايطاليا من ادغال افريقيا ، بجوار الاطلس والساحل المراكشي وواحة غدامس في ليبيا . كانت اصغر بكثير من فيلة الصحارى ، وتتناسب بشكل أفضل مع الزحف الحثيث الذي كان عليها القيام به ، وكانت ترعب القبائل البدائية .

النبلاء البطريقية ، وفي ٣٦٦ ق . م انتخب أول قنصل من طبقة البليبيين . ومنذ عام ٢٨٧ ق . م ، اصبحت للتشريعات ، التي كان مجلس الشعب يوافق عليها ، سلطة القانون . ولفترة من الزمن ، خفت الصراع الاجتماعي ، مع ان هذه التغييرات لم تؤثر كثيرا في تخفيف وطأة الفقر الذي كان معظم أفراد الشعب يعاني منه .

التوسع على أنقاض قرطاجة

هذا التوسع العسكري ـ الاقتصادي ، يسميه الرومان بالحروب البونية (فونية = الفينيقية) ، وهي حروب ثلاثة طويلة ، شنتها روما ضد التجارة القرطاجية والمستوطنات الفينيقية ، في صقلية واسبانيا وافريقيا ، حتى أدخلتها في امبراطوريتها .

كانت قرطاجة منذ سنة ٥٠٨ ق . م قد قبلت مهادنة روما . وبعد أن شملت هذه المدينة بسيطرتها ايطاليا كلها ، تأكد الاتفاق بين الجانبين سنة ٢٧٩ ق . م . على احترام مناطق النفوذ بل قام نوع من التحالف بينهما ضد القوى الأخرى التي كانت تقلقهما معا ، مثل (بيرو) . لكن روما طمعت في صقلية . وحين خافت قرطاجة وأقامت حامية في مسينا الواقعة في منطقة نفوذها ، أسرع الرومان الى نجدة المدينة ، فكانت الحرب البونيقية الأولى (٢٦٤ ـ ٢٤١) . تمكنت روما ، رغم خسارة عدد من المعارك ، من الاستيلاء على صقلية سنة ٢٦٠ ، ثم على كورسيكا وسردينيا في العام التالي .

بعد عشرين سنة ، عادت روما بسبب تزايد قوتها الاقتصادية والسياسية الى اثارة الحرب البونيقية الثانية (٢١٨ ـ ٢٠١) التي نقلها حن بعل القائد القرطاجي الى ايطاليا ، فنقلها سيبيو القائد الافريقي الى اسبانيا ثم افريقيا . وانتهت بخروج قرطاجة من اسبانيا وخسارتها المعركة الأخيرة (زاما) وخنق قواها البحرية والتجارية .

الحرب البونيقية الثالثة (١٤٩ ـ ١٤٦ ق . م) كانت بسبب عودة النشاط لقرطاجة . انتهت بحصار روماني شديد لها ، أدى الى تدميرها الكامل ، وتحول افريقيا ولاية رومانية . وصارت روما هي القوة الأولى والوحيدة في الحوض الغربي للمتوسط .

تأثير الغراكيين

اثناء القرن الثاني ق . م ، كانت روما تسيطر على شمال وغرب منطقة البحر المتوسط بكاملها تقريبا ، لكن الاجواء في الداخل أخذت تتلبد بالسحب . فقد كان البطريقيون والاغنياء من البليبيين يقبضون بيد من حديد على الحكومة ، وعلى الأرض ايضا ، مما أخذ يثير قلقا عظيما لدى الشعب . فقام نصير للفقراء ، اسمه تيبيريوس غراكوس ، وهو أحد ممثلي الشعب ، وتقدم عام ١٣٣ ق . م بمشروع قانون يرمي الى وضع حد جذري لمساحة الاقطاعات التي كان يملكها عدد قليل من الاغنياء . فاغتال متظاهرون ، بتحريض من بعض الشيوخ الخائفين على مركزهم ، تيبيريوس هذا . ولكن بعد ذلك بعشر سنوات ، حاول اخوه جايوس ان يخفض سعر الحبوب ، ويحد بصورة عامة من سلطة مجلس الشيوخ . الا ان اقتراحاته الخاصة بمنح حقوق المواطنة لجميع حلفاء روما اللاتين جاءت جذرية جدا . فأدت الى تحطيمه سياسيا ووفاته .

روما الجمهورية

غالبا ما تعتبر روما الجمهورية (٥٠٩ ـ ٢٧ ق . م) دولة ديمقراطية . ومما لا شك فيه ان الكتّاب الرومان المتأخرين كانوا يذكرون بحنين ما كان يبدو لهم ، في الماضي ، العصر الذهبي لنظام سياسي واجتماعي وخلقي عظيم . كان ثمة توازن نظري بين سلطات الحكام ومجلس الشيوخ وعامة الشعب . لكن في الواقع حفلت الحقبة الجمهورية الاولى بصراع مرير بين النبلاء ، في مجلس الشيوخ ، الحريصين على امتيازاتهم ، وبين عامة الشعب التي كانت تريد ايضا الحصول على حصتها من المنافع . ولم يتمكن ممثلو الشعب من وضع القوانين بأنفسهم حتى القرن الثالث . كما لم يسفر

١



(١) ـ كان مجلس الشيوخ الهيئة الاستشارية الرئيسية في روما . تبيّن هذه الصورة ، التي رسمها ماكّاري في القرن التاسع عشر ، ابيّوس كلوديوس وهو يحاول اقناع مجلس الشيوخ ان يرفض مقترحات السلام التي تقدم بها بيروس الابيري عام ٢٨٠ ق . م .

(٢) ـ شيد البناء الرسمي العام (الباسيليقا) في بومبيي بمساحة ٥٦ × ٢١ م في القرن الأول ق . م . وكان مركز الحياة الاقتصادية . كان لمعظم المدن الرومانية واحد من هذه الابنية المستطيلة المسقوفة ، حيث تجري المبادلات التجارية ، وهو يقع في الغالب بالقرب من الساحة العامة . بعض هذه الابنية كان يشتمل على اروقة وقاعات واسعة . وقد أثر تصميمها على بناء الكنائس المسيحية فيما بعد .

(٣) ـ يمثل هذا الرسم النافر تسريح الجنود الرومان (حوالى القرن الأول ق . م) . الكاتب الى اليسار يدون التفاصيل التي يمليها عليه جندي مُسرّح يحمل شهادته بيده ، بينما ينتظر الآخرون دورهم .

(٤) ـ بني مكتب الدواوين (في الوسط الى اليسار) عام ٧٨ ق . م حسب تصميم سولا (١٣٨ ـ ٧٨ ق . م) . كانت تحفظ فيه وثائق الدولة ، وهو على الأرجح ملحق بالخزينة . القسم الاعلى عبارة عن قصر .

(٥) ـ كانت عذارى الهيكل الست يعشن في « بيت الفستا » الواقع في الساحة العامة . كن يبدأن الخدمة صغيرات ويستطعن التقاعد بعد ٣٠ سنة . وكن يتعرضن للجلد على يد الكاهن الاعظم اذا تركن النار المقدسة تنطفىء .

فتح جميع ا بواب الادارة أمامهم ، الا عن قيام تحالف بين طبقة الأشراف والطبقة الطموحة من أغنياء العامة ، وهذا ما أدى الى نشوء حكم الأقلية (الأوليغاركية) الذي اتصف بالاستئثار ذاته الذي كان يتمتع به نبلاء البطريقيين في السنين الأولى .

بنية الجمهورية السياسية

كان مجلس الشيوخ ومجلس الشعب يؤلفان السلطة التشريعية في الجمهورية ، فيما كان الحكام (٨) يشكلون السلطة التنفيذية . كان الشيوخ الثلاثمائة (١) ينتخبون من بين حكام سابقين من قبل « المراقبين » اولئك الذين كانوا يراقبون الاخلاق العامة . كان مجلس الشيوخ في الأساس هيئة استشارية ، لكنه كان يتمتع بصلاحيات مراقبة مالية مطلقة ، وبحق اقتراح القوانين ، كما كان في الواقع هو الذي

٢

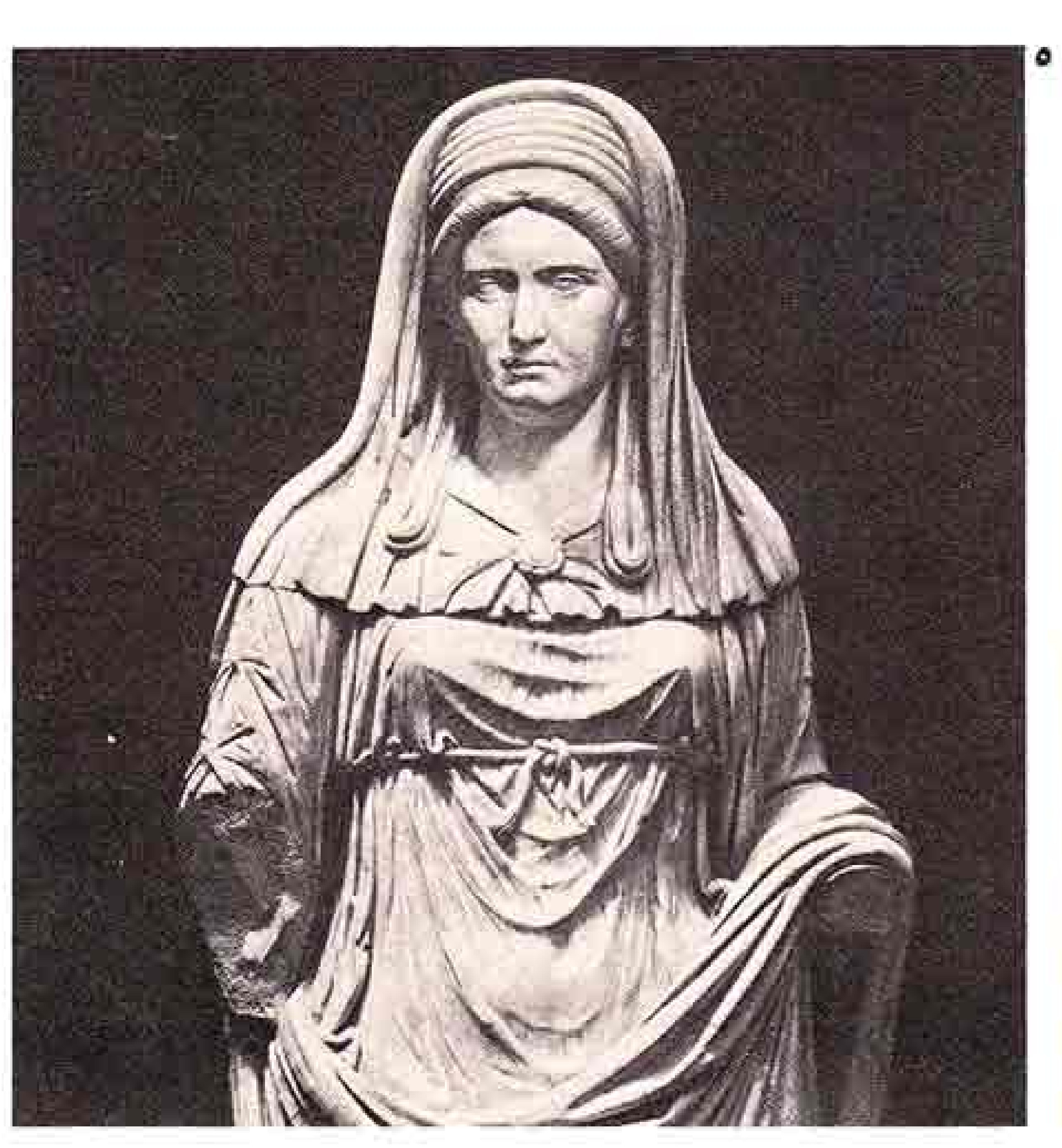
٣



٤



٥



يتخذ القرارات الحيوية ، الخاصة بالحرب والسلم ، والسياسة الخارجية بصورة عامة . وكان لمجلس الشعب الذي يمثل عامة الناس ان يقترح القوانين ايضا ، واصبحت لقراراته سلطة القانون بعد عام ٢٨٧ ق . م ، ولكنه كان بصورة عامة ، يوافق على التشريع المقترح أو يرده .

كان الحكم في روما في العهد الجمهوري بيد اثنين يسميان قنصلين . مجلس الشيوخ هو الذي يرشح للقنصلية ، أما الانتخاب لها فتقوم به لجنة المائة ، وهي جمعية كان للمواطنين الأغنياء فيها قوة اقتراع غير متكافئة مع عددهم . وكان للقنصلين سلطة كبيرة ، فهما يرئسان مجلس الشيوخ ويقومان بدور القائدين الأعليين في حالة الحرب . دونهما رتبة كان يأتي المديرون ويتراوح عددهم بين اثنين وثمانية ، وكانت مهامهم الرئيسية تتعلق بتطبيق القانون . كان



(٦) - في هيكل فسباسيان في بومبيي مشاهد قرابين على مذبح مكرس للعبادة الامبراطورية الرومانية . كانت تضحية الحيوانات ، مثل الخنازير والخراف والثيران ، عنصرا عريقا في العبادات الرومانية المعقدة ، بواسطته يُلتمس الرضى الالهي .

(٧) - كان حكام روما يتمتعون بسلطة ونفوذ واسعين . فالدعاوى المدنية كانت تعرض أولا على الحاكم ، كالذي يظهر في الصورة . قبل ان تحال الى القاضي ليفصل فيها . في الحقبة الجمهورية المتأخرة كانت الدعاوى الجنائية تحال الى محاكم خاصة . حيث كانت العقوبات غالبا النفي ، او التجريد من الجنسية . أو الاشغال الشاقة . كان أهم انجاز للنظام القانوني الروماني تصنيف التشريعات بشكل تتضح معه حقوق المواطنين .

(٨) - كان لمعظم موظفي روما المدنيين (داخل الدائرة الخضراء) مهام قانونية وادارية. أما القادة العسكريون ، فكانت مسؤولياتهم عسكرية صرفا . وكان الكاهن رئيسا لدين الدولة .

٨
الموظفون المدنيون
المحاسبون
ممثلو الشعب
المراقبان
المديرون
القنصلان
القواد العسكريون
الكاهن الأعظم
الكهنة
العسكريون
دينيون

محاسبون اربعة مسؤولين عن مالية الدولة . بينما يشرف مراقبان على عقود الدولة والاخلاق العامة ، وقد شملت سلطة هذين المراقبين ، في اواخر عهد الجمهورية ، حق مراقبة اعضاء مجلس الشيوخ ، وعزلهم عند الضرورة .

كانت الشوارع والهياكل والاشغال العامة وامدادات الحبوب والالعاب العامة تقع تحت مسؤولية خفراء المباني . وكان ١٢ مرافقا يتقدمون القنصلين ، واثنان يتقدمان المديرين ليشقوا الطريق أمامهم ، وهم يحملون رزمة من العصي تتوسطها بلطة . وكان القضاة العشرة مسؤولين عن الدفاع عن عامة الشعب ، ويتمتعون بحق نقض تصرفات الحكام او القوانين . وفي القرن الثاني ق . م ، أصبح من حق هؤلاء القضاة ان يكونوا اعضاء في مجلس الشيوخ .

سلطة القناصل

في نهاية السنة التي كان القناصل والمديرون (البريتورون) يقضونها في الحكم ، كانوا ينقلون من روما الى المقاطعات ، وكان مجلس الشيوخ يقرر أي المقاطعات يجب ان تصبح قنصلية وأيّها مديرية (بريتوريّة) . ولتفادي الفساد ، كان هذا القرار يتخذ قبل انتخاب اولئك الحكام . اما المقاطعة التي سيتولاها الحاكم فكانت تقرر بالقرعة . لكن سلطة القناصل لم تكن تتعدى حدود المقاطعات ، كما ظهر ذلك عندما اجتاز يوليوس قيصر نهر الروبيكون عام ٤٩ ق . م ، فاعتُبر ذلك بمثابة اعلان حرب منه على مجلس الشيوخ . كان الحكام يحتفظون بمقاطعاتهم لمدة سنة واحدة فقط ، الاّ اذا تم تجديد ولا يتهم .

كان الكاهن الأعظم أهم شخصية دينية ، وكان هو الرئيس المنتخب لهيئة الكهنة التي كانت تشمل ايضا عذارى فيستا (٥) (كنّ يعملن على ابقاء النار المقدسة في هيكل فيستا مشتعلة) وكهنة ممن كان كل واحد منهم مسؤولا عن عبادة أحد المعبودات . خارج تلك الهيئة ، يأتي العرافون الذين كانوا يقررون على اساس بعض الاشارات او العلامات ، مثل تصرفات الطيور ، ما اذا كان يجب الاقدام على عمل ما أو الاحجام عنه .

كان الرومان يعبدون عدة معبودات من اصل يوناني . كان سيّد المعبودات هو جوبيتر الذي شيد له هيكل على الكابيتول .

كان أمن الجمهورية وتوسعها المتواصل (الى ان اصبحت بحجم امبراطورية عظيمة) يتوقفان على انضباط جيشها وشجاعته . من الواضح ان سجل انتصارات هذا الجيش على دول كقرطاجة ومقدونيا وسوريا مما يثير الاعجاب ، اذا اعتبرنا ان هذا الجيش كان ما يزال عبارة عن ميليشيا مؤلفة من المواطنين ، يستدعيها القناصل لمعالجة أحوال طارئة معينة .

الضرائب وجبايتها

كان معظم الضرائب الرومانية غير مباشر ، ويشتمل على رسوم الجمارك ، وعدد من الرسوم الخاصة ، كتلك التي كانت تفرض لدى اعتاق العبيد . اما الجزية ، وهي ضريبة مباشرة ، فكانت تجبى بالدرجة الاولى في ايام الحرب . كان المراقبون يقررون نوع الضرائب المتوجبة على الطبقات المختلفة ، بينما كان المحاسبون يتولون امر جبايتها .

الحيـاة الرومانيـة

في روما ، كما في سائر المجتمعات ، كان نمط الحياة التي يعيشها الناس يتوقف الى حد بعيد على الطبقة الاجتماعية التي ينتمون اليها . فالنظام الطبقي بصورة عامة كان يرتكز على الثروة لا على المولد ، مع ان المقياسين كانا كثيرا ما يندمجان معا . كانت اعلى طبقة تتألف من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا ، في معظم الحقبة الجمهورية ، من النبلاء . أما الطبقة الثانية ، وهي الفرسان ، فقد استمدت معظم ثروتها الضخمة من الاعمال التجارية ، مثل الاعمال المصرفية . كان اعضاء الطبقات العليا يمارسون السلطة ، ليس على افراد عائلاتهم فقط ، بل على عدد من الاتباع ايضا يعرفون

١



٢



٣



(١) ـ حفظت خرائب بومبيي تحت الرماد ، بعد انفجار بركان فيزوف عام ٧٩ م الذي وصفه لنا بلينُس الاصغر . كشف التنقيب هناك عن سجل فريد للحياة الرومانية .

(٢) ـ احتفظ عدد من المنازل في هركولانيوم بطابقه الثاني . فالبيت الظاهر هنا ، وهو منزل الكراتيكيو ، لا يزال يحتوي على أسرّته الاصلية في غرفتين علويتين ، فضلا عن سائر الاثاث . وكان ، كما يتضح هنا ، يقسم الى عدة شقق صغيرة . كان من المألوف في العصور الامبراطورية ، مشاهدة مجموعات عديدة من الشقق المبنية في الغالب بناء رخيصا .

(٣) ـ كان للعديد من المنازل الرومانية معبد خاص مكرس لأرواح منزلية ، تعرف باسم (الآريس) ويقدم لها الطعام والأزهار .

(٤) ـ كان منزل ميناندر في بومبيي فيلا ريفية اكثر مما كان منزلا مدنيا . كانت غرفة الاستقبال الرئيسية ، في وسط الفيلات الرومانية ، تعرف بالاتريوم . وهي تحتوي على قسط رائع من الآجر والمرمر والرسوم الجدارية . وفي وسط صحن البيت كانت بركة الماء التي يهطل المطر فيها وتدعى « إمبلوفيوم » .

بالموالي . اما الطبقة الثالثة من المواطنين الكاملين ، وهم العامة او البليبيون ، فقد حصلت على المساواة السياسية التامة بعد صراع مديد . وعندما سمح لابنائها باشغال مناصب الحكام ، اصبح اولئك يستطيعون الارتقاء الى اعلى طبقة اجتماعية .

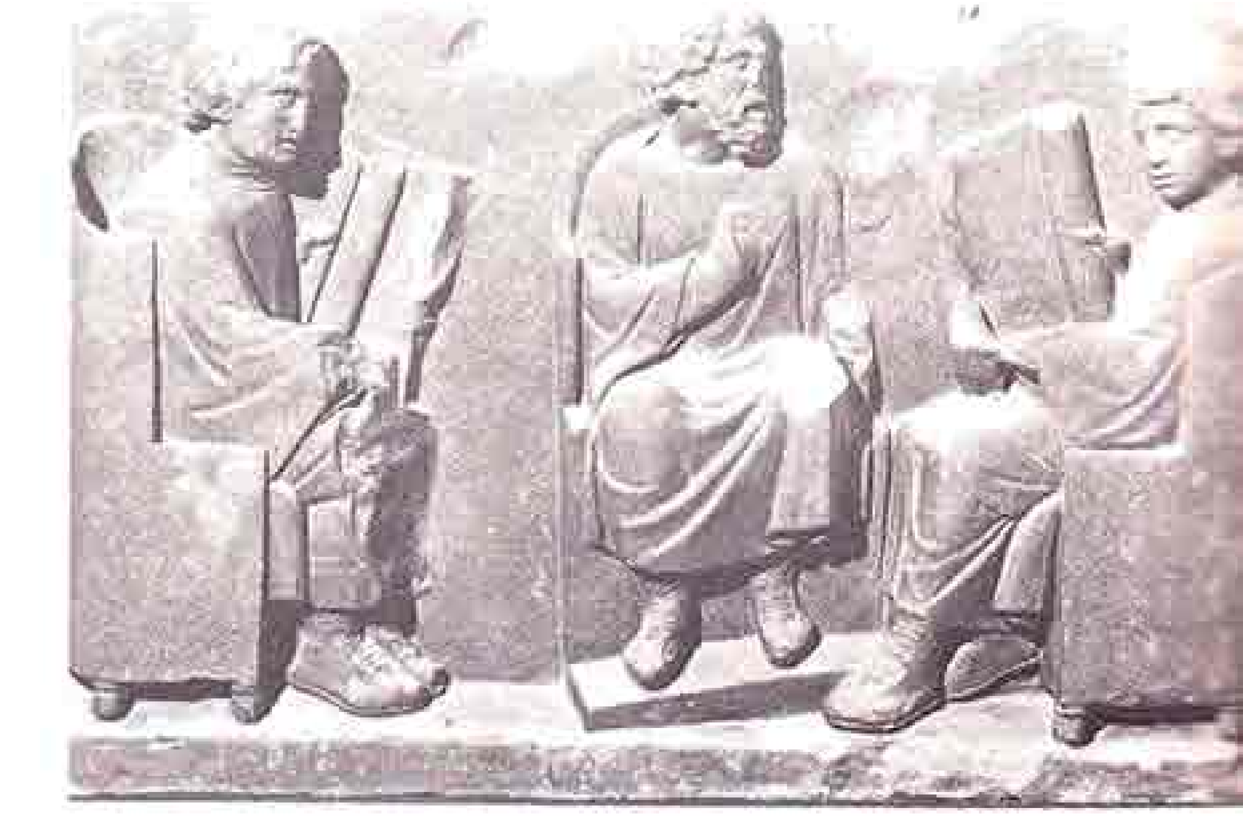
العبيد والرومان

في قاعدة الهرم الاجتماعي كانت تقع طبقة العبيد . فالنظام المستقر للحياة الرومانية كان يتوقف على كدح العبيد ، الذين كانوا يشكلون ما قد يصل الى نصف سكان أية مدينة طيلة العصر الجمهوري . كان على العبد ان يخضع لسلطة سيده المطلقة .

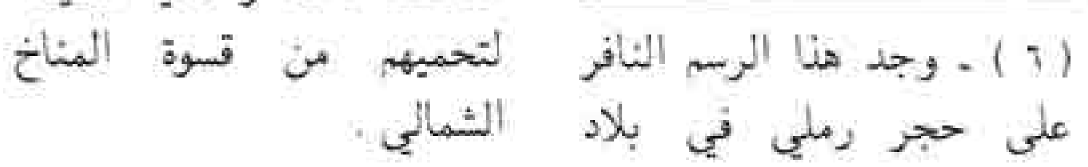
أثناء الحقبة الامبراطورية ، تحسنت معاملة العبيد بعض التحسن . اذ منحوا بعض الحماية ضد الاسياد القساة . لكن التطور











(٥) ـ بعد حفريات مضنية ، تم الكشف عن طريقة العيش في هركولانيوم ، وهي بلدة تقع بين نابولي وبومبيي . كان انفجار بركان فيزوف عام ٧٩ م قد غطاها بطبقة من الوحل الذي حفظ قسما كبيرا من المدينة الاصلية . تبين الفسيفساء هنا رجلا وامرأة تخدمهما أمة .

(٦) ـ وجد هذا الرسم النافر على حجر رملي في بلاد الغال ، وهو يمثل مدرسة ، المعلم يجلس بين تلميذيه . وهما يفتحان دُرْجيهما استعدادا للدرس . كان النظام التربوي قاسيا والعقوبة الجسدية شائعة . وكان يرافق ابناء الاسرة الغنية الى المدرسة عبد يخص الأسرة او عتيق يُعرف بمرافق الطفل . وكان أحيانا مدرسا ايضا . كان الاولاد يرتدون معاطف دافئة وأحذية سميكة لتحميهم من قسوة المناخ الشمالي .

الأكثر أهمية هو ان العبيد اصبحوا يستطيعون التطلع بمزيد من الثقة نحو اعتاقهم النهائي ، واصبح عدد من العبيد المعتقين أغنياء ومتنفذين جدا فيما بعد ، واصبح ابناؤهم مواطنين رومانيين كاملين . كانت حياة العبيد تختلف اختلافا عظيما لاسيما بين القرية والمدينة . ففي القرى ، كان من المحتمل ان يعملوا ساعات طوال في القيام باشغال مرهقة في المزارع او الاقطاعات او الحقول او المطاحن ، بينما كان يمكن لأقرانهم في المدن ان يحظوا بمعاملة حسنة نسبيا .

التربية واعداد المهنة

ربما يكون لابن أسرة غنية من الطبقة العليا طموح سياسي ، لكنه كان يبدأ عادة بالتدرب على المحاماة ، فيصبح اما محاميا امام المحاكم او مستشارا قانونيا . لم تكن

٧



(٧) ـ كان اصحاب الحوانيت الرومان يعملون ساعات طويلة في اليوم . وكانوا يجلبون منتوجاتهم الى المدينة ليلا ، ليتجنبوا ازدحام السير نهارا . يشمل هذا النحت النافر لدكان خضار في اوستيا صورا لخضار شتى .

٨



(٨) ـ يبدو ان عملية الخبز كانت تتم في المنازل ، حتى القرن الثاني ق . م ، وكان العبيد يديرون رحى الطواحين ، بمساعدة الحمير . جرى اكتشاف مخبز كهذا الظاهر في الصورة في بومبيي . وكان هذا الفرن يحوي عددا من الارغفة ما زالت على حالها ، يزن كل منها حوالى ٩٠٠ غرام .

٩



(٩) ـ هذا الدكان الخاص ببيع الدجاج كان يوجد في اوستيا ، التي كانت قديما ميناء روما . كان شيشرون يعتبر ادارة الحوانيت ادنى الاعمال على لائحة الوظائف التي تناسب اصحاب الذوق الحسن ، لكنها افضل من الرقص .

بقية المهن تعتبر جديرة بالاحترام فعلا . ففي اكثر فترات الجمهورية ، كان معظم الاطباء ، والمهندسين ، واطباء الاسنان عبيدا او عتقاء . كما كان الكتاب لا يتوقعون كسب الكثير من المال من كتاباتهم ، الا اذا استطاعوا الاعتماد على غني يشجعهم ويحميهم ، كما شجع مايسيناس الشاعر فرجيل . الا ان معظم الرومان لم يكونوا اغنياء او متنفذين . ومع ان العمل اليدوي كان يعتبر غير لائق بالمواطن ، فقد كافحوا لكسب عيشهم ، كخبازين واصحاب حوانيت ومهنيين من كل نوع ، واستخدموا في الغالب عبدا او عبدين لمساعدتهم . كان بعض الشبان يلتحقون بالجيش الذي اصبح ، بعد اصلاحات القنصل ماريوس في اواخر القرن الثاني ق . م . جيشا محترفا مؤلفا من متطوعين . كانوا يحصلون على اقطاع صغير عند تقاعدهم .

كان معظم أولاد المواطنين الرومان يتلقون قسطا من التربية الرسمية ، مع ان الذكور فقط كانوا يأملون بالاستمرار الى ما وراء المرحلة الابتدائية . في ظل الامبراطورية ، كان قسم من التعليم متوفرا بالمجان للطلاب الفقراء ، فيما كان الآباء يدفعون قسطا زهيدا على العموم . كان الاولاد بين السابعة والثانية عشرة يتعلمون المبادىء العامة للقراءة والكتابة والحساب على يد كاتب محترف (أديب) . بعدئذ كانوا يستطيعون ، اذا ارادوا ، الدراسة على يد نحوي يعلمهم الادب اليوناني واللاتيني ، كما يتلقون مبادىء الهندسة والحساب المتقدم . المرحلة الثالثة من التعليم كانت على يد خطيب يعلمهم مبادىء الخطابة العامة ، وهي مهارة كانت ضرورية للنجاح في السياسة وفي المحاكم . واخيرا كان بوسع الطلاب الاغنياء ذوي الطموح ان يتقدموا حتى المستوى المعادل للجامعة ، فكانوا يدرسون القانون عند محام معروف او في مدرسة الحقوق ، او الخطابة والفلسفة اليونانيتين ، مما كان يقتضي ملازمة أحد مراكز العلم اليونانية الكبرى ، وكانت اشهرها آنذاك اثينا ورودس .

الالعاب الرياضية للمحترفين والمتفرجين

كانت الالعاب الرياضية عند الرومان تصنف في نوعين : العاب للمتفرجين ، والعاب للمحترفين . من النوع الاول كانت المهرجانات العامة التي تقام في المدرجات ، وهي التي وصفها الكاتب الساخر جوفينال « بالخبز والسيرك » . كانت هذه الالعاب تشمل الحفلات الموسيقية والقاء القصائد وتمثيل المسرحيات ببذخ غير عادي أحيانا . الا ان ما كان يجذب الجماهير هو مباريات المصارعة التي كان المجالدون يتصارعون فيها بعضهم مع بعض ، أو مع السباع حتى الموت ، وسباق المركبات المثير والمحفوف بالأخطار .

لم يعط الرومان التمارين البدنية الأهمية التي اعطاها اياها اليونان ، الا ان عددا من شباب الطبقات العليا كانوا فرسانا وصيادين متحمسين ، كما كان كثير منهم يجد متعة في الملاكمة والمصارعة . وكان ثمة عدد من العاب الكرة ، ما زالت تفاصيلها حتى الآن غامضة الى حد ما . اما الاطفال فكانوا يمارسون عددا من الالعاب التي مارسها الاولاد في جميع العصور .

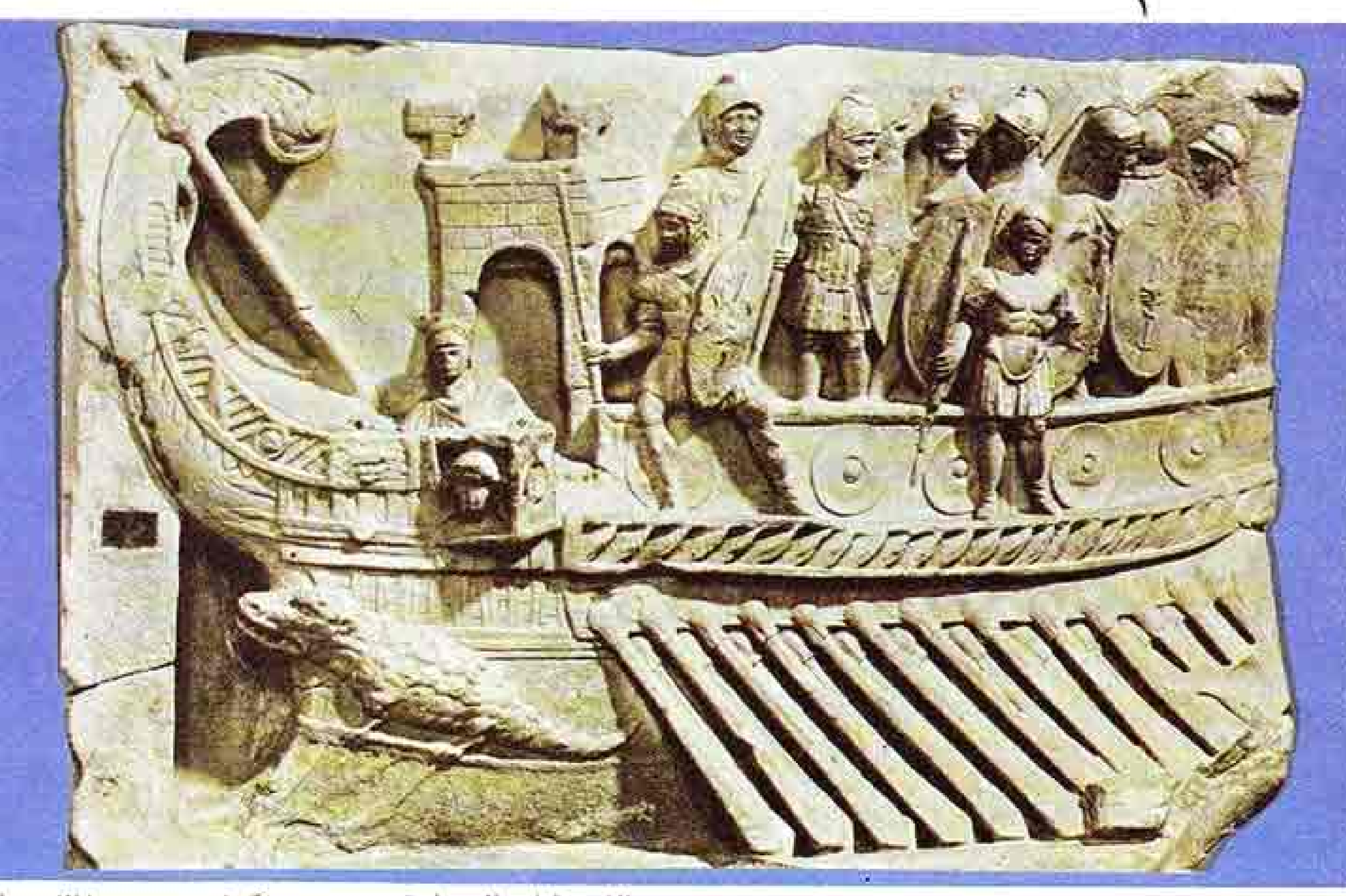
من الحروب الاهلية الى قيصر

كانت الفترة الممتدة من حوالى ١٠٠ ق . م حتى ٤٢ ق . م ، التي سبقت سقوط الجمهورية الرومانية وحلول الامبراطورية الرومانية مكانها ، حقبة اضطراب وانقسام ، استعمل فيها اصحاب النفوذ والطموح اساليب شرسة ، في محاولتهم ترسيخ نفوذهم او المحافظة عليه . كان يوليوس قيصر (١٠٠ ـ ٤٤ ق . م) الشخصية البارزة التي توصلت ، مع مساهمة ماريوس وسولا وبومبي ، الى القضاء على شكل الحكومة القديم .

النزعات السياسية

كان ماريوس زعيم الحزب الشعبي (البليبي) المعارض لأي سلطة ينتحلها

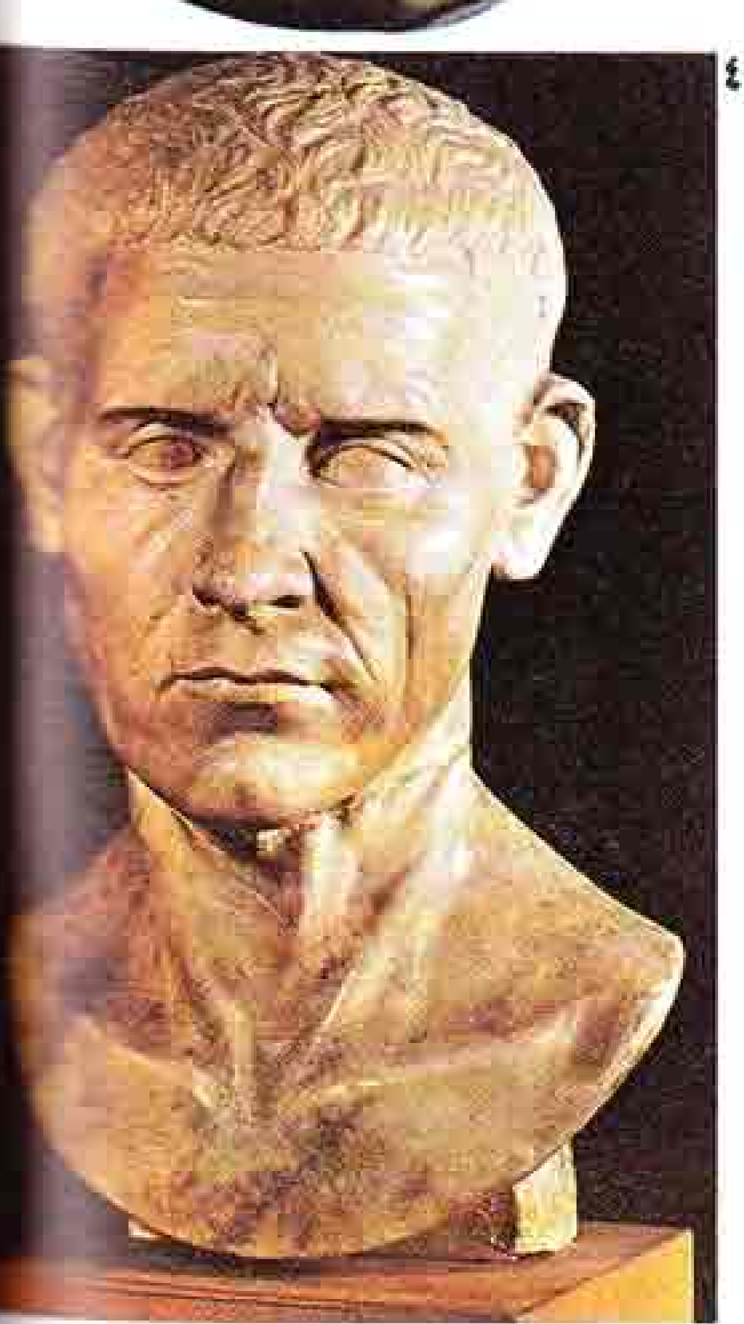
١



٢



٤



(١) ـ يبين نحت نافر من هيكل فورتونا بريميجينيا ، في برينستي ، بارجة حربية تعود الى القرن الاول ق . م . وفيها جنود متأهبون للقتال بالسلاح الابيض .

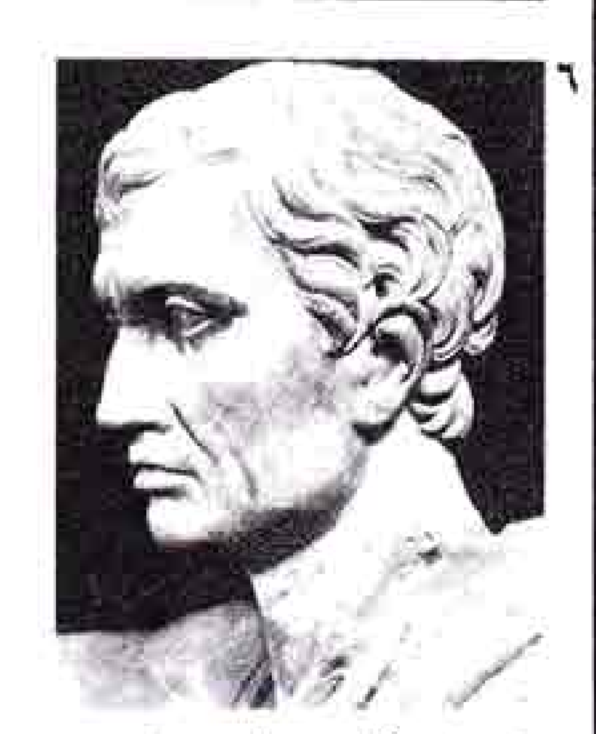
(٢) ـ استولى يوجورثا ، حفيد ماسينيسا ، على عرش نوميديا عام ١١٢ ق . م وقتل عددا من الرومان في تلك العملية . أرسلت روما جيشا لمحاربته ، لكن الحرب طالت على الرغم من بعض الانتصارات الرومانية . ثم قاد ماريوس ، الذي اصبح قنصلا عام ١٠٨ ق . م ، جيشا مؤلفا من فقراء روما ، نحو افريقيا ، وهزم يوجورثا . وبعد ان عُرض يوجورثا في مهرجان انتصار ماريوس في روما ، قُتل خنقا .

(٣) ـ سيطر ميتريداتس السادس ، ملك بونتوس ، على بلاد القرم ، وقسم كبير من روسيا الجنوبية . بدأ عام ٨٨ ق . م كفاحه ضد روما الذي دام لمدة ٢٥ سنة . احتل ميثريداتس آسيا الصغرى وغزا اليونان ، قبل ان يوقع صلحا مع سولا . انتهت حربه الثانية عام ٨٣ ق . م . بسرعة . ولكن الحرب الميثريداتية الثالثة دامت من ٧٤ حتى ٦٦ ق . م عندما جعل بومبي بونتوس وبيثينيا مقاطعة رومانية . قتل ميثريداتس نفسه عندما قاد ابنه فارناسيس ثورة ضده .

اعتباطيا مجلس الشيوخ . وفي عام ١٠٨ ق . م، انتخب قنصلا للمرة الاولى (انتخب فيما بعد لهذا المنصب ٦ مرات أخرى) . كان قائدا عسكريا لامعا ، لكنه لم يثبت مهارة مماثلة في عمله السياسي ، لذلك تضاءل نفوذه . وفي عام ٩٠ ق . م ، قام زعيم شعبي آخر هو دروسوس وبعث ، من جديد ، المطالبة بمنح حق المواطنة لجميع الايطاليين . لكن مصرعه عجل في « اندلاع الحرب الاجتماعية » التي أرهق روما فيها انتقاض حليفاتها عليها ، ولم تنتصر آخر الأمر الا بعد تلبية معظم مطالب تلك الحليفات .

سببت هذه الحرب للقضية الشعبية شيئا من الفوضى . وعندما ثار معظم الجزء الشرقي ، من الامبراطورية ، بزعامة ميثريداتيس (١٣٣ ؟ - ٦٣ ق . م) ملك بونتوس (٣) . أسندت قيادة حملة القمع الى الارستقراطي سولا (١٣٨ - ٧٨ ق . م) (٤)

(٤) - حاز لوسيوس كورنيليوس سولا على شهرته العسكرية اثناء « الحرب الاجتماعية » . انتخب قنصلا عام ٨٨ ق . م وتسلم القيادة ضد ميثريداتس . استعمل سلطته كدكتاتور فيما بعد ، ليفتك بخصومه ، ويفرض تشريعات لمصلحة مجلس الشيوخ . أصلح سولا القانون الجنائي وانشأ محاكم جديدة تختص بجنايات معينة .



(٥) - كان يوليوس قيصر ، الذي ولد عام ١٠٠ ق . م ، ابن احدى العائلات النبيلة (البطريقية) الشهيرة . كانت عمته زوجة الزعيم الشعبي ماريوس ، وكانت زوجته ، كورنيليا ابنة سينّا ، الذي كان خليفة ماريوس . كانت أواصر القرابة هذه مدعاة لاستياء سولا المحافظ ، فغادر قيصر روما . لدى وفاة سولا ، قفل قيصر راجعا ، ولمع كمحام وخطيب ، ثم أخذ في التدرج السياسي ، حتى اصبح محاسبا (كايستور) في اسبانيا . بعد وفاة كورنيليا ، تزوج حفيدة سولا الغنية بومبيلا ، وعمل على ان يصبح زعيما حزبيا ذا شعبية . انتخب لمنصب مدير (بريتور) لعام ٦٣ ق . م ، فمهّد ذلك لصعوده الحثيث نحو ذروة السلطة المطلقة في روما .

(٦) - كانت تعوز بومبي الكبير عبقرية قيصر العسكرية ، كما كان دونه مهارة في السياسة . لكنه كان اداريا لامعا وقائدا عسكريا لا يرحم . حاز على السلطة ، لا عن طريق ايجاد الفرص المؤاتية ، بل بترقب الأحداث التي كانت تقضي بدعوته لتولي القيادة .

(٧) - كانت أدوات الجندي العادية ، في العهد الجمهوري المتأخر ، تتألف من سيف قصير وترس .

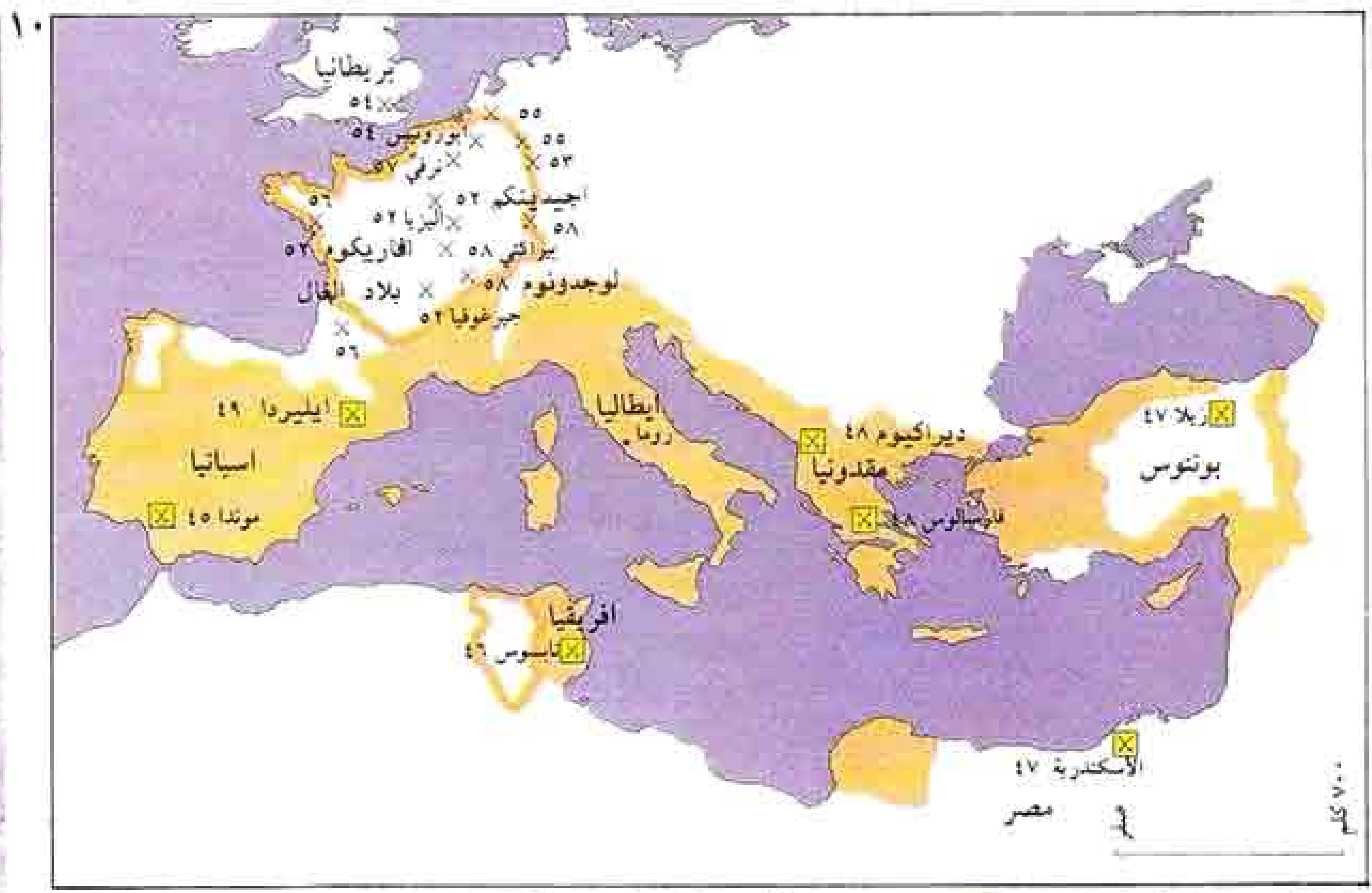


(٨) - كان برج الحصار الروماني يقسم الى عدة طبقات ، ويبلغ ارتفاعه حوالى ٥٥ مترا . كان يُجرّ بالحبال والجرارات الى المكان المطلوب ، عبر طريق مهدت لهذه الغاية . كان الرماة يرشقون المدافعين بسهامهم ، ويقصفون قاعدة السور بالمنجنيق .

لكن الحزب الشعبي أسند القيادة لماريوس . فزحف سولا فورا على روما . وأكره ماريوس على الهرب . بعد ان اتخذ سولا اجراءات عديدة ضد خصومه ، توجه نحو الشرق . حينئذ عاد ماريوس الى روما . وشرع بحملة دموية للفتك بخصومه السياسيين .

عاد سولا الى ايطاليا من الشرق عام ٨٣ ق . م ، شاقا طريقه الى روما بمساعدة قائدين قويين هما بومبي (١٠٦ - ٤٨ ق . م) وكراسوس (١١٥ ؟ - ٥٣ ق . م) . وبدأ عهدا من الارهاب ، ففتك باعدائه ونصب نفسه دكتاتورا . حدّ سولا بشكل جذري من سلطات ممثلي الشعب والقناصل . وزاد في سلطات مجلس الشيوخ . ولكن على اثر استقالته في عام ٧٩ ق . م ظهر عجز مجلس الشيوخ عن استعمال سلطاته ، بصورة فعالة . فانتشر الفساد ، لاسيما في المقاطعات . وفي اسبانيا ، خاض بومبي حملة طويلة ضد

٩

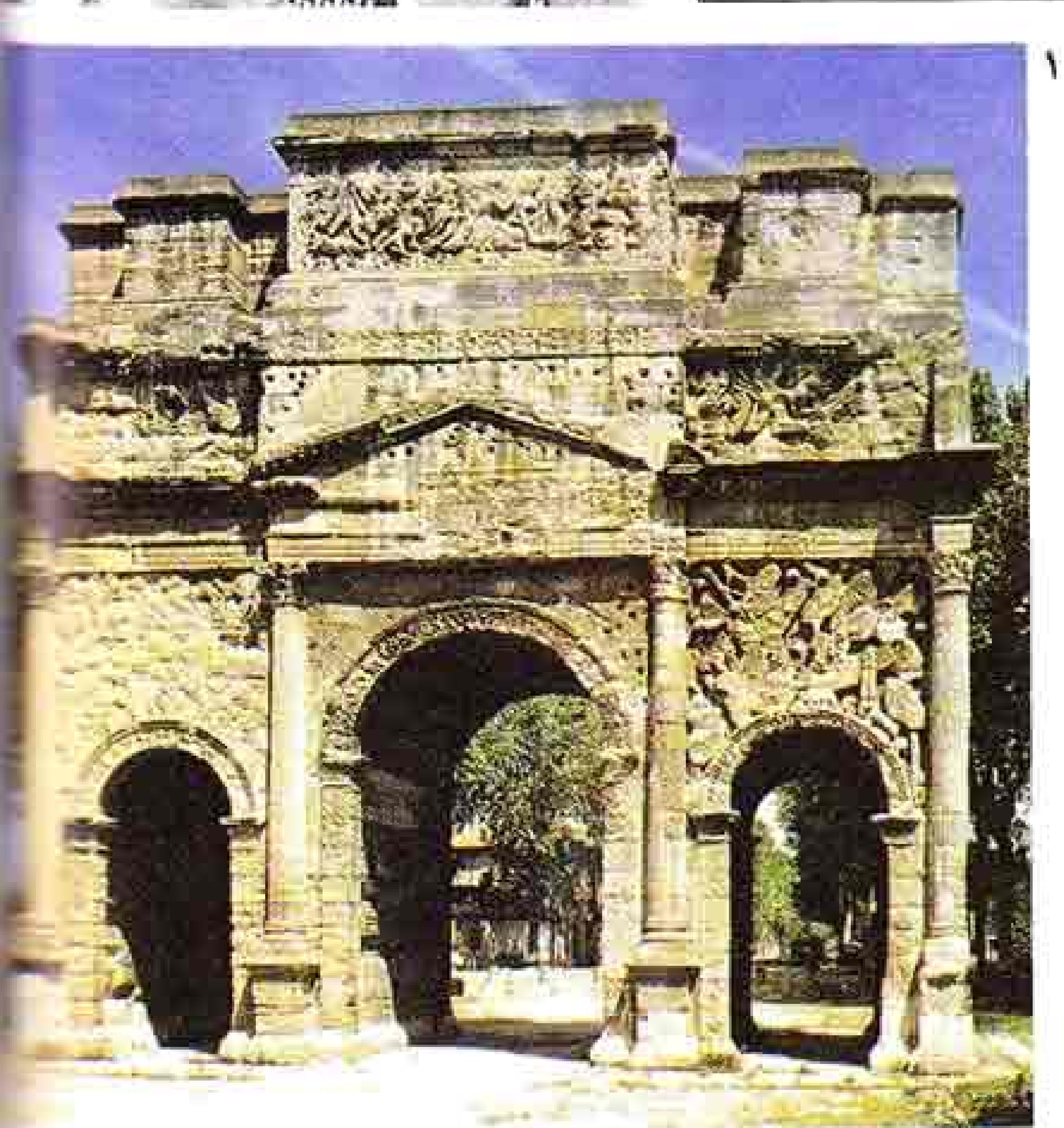


(٩) - شن يوليوس قيصر حملات ناجحة بين ٥٨ و ٥١ ق . م ضد الهلفيتيين والبلجيين والبندقيين والاكيتانيين . اجتاح سائر بلاد الغال ، وجعلها مقاطعة جديدة هي غال ما وراء الألب . وقد نزل في بريطانيا مرتين ، عام ٥٥ ق . م و ٥٤ ق . م . كانت الحملة الثانية ضخمة ، وتوغل فيها قيصر شمالا ، الى ما وراء سانت البانس .

١٠

(١٠) - كانت كليوباترا ملكة مصر عشيقة قيصر ثم انطونيوس . حملت ابنا لقيصر وتبعته الى روما . وبعد وفاته عادت الى مصر وتزوجت مرقس انطونيوس عام ٣٧ق. م.

١١



(١١) - قوس النصر في اورانج بفرنسا هو ثالث اضخم قوس روماني ما زال قائما . وهو يخلد ذكرى انتصارات قيصر في بلاد الغال . كما تخلد ذكرى فتح مرفأ مرسيليا رسوم المراسي ومقدمات السفن والحبال .

سيرتوريوس ، أحد مؤيدي ماريوس . في هذه الأثناء قاد سبارتكوس (توفي عام ٧١ ق . م) ثورة للعبيد . وبث الرعب في جنوب ايطاليا لمدة سنتين .

وحّد بومبي وكراكوس صفوفهما ليظفرا بالسيطرة على روما ، وفازا بانتخاب غير قانوني بمنصبي القنصلين عام ٧٠ ق . م ، وسرعان ما أبطلا تشريعات سولا المؤيدة لمجلس الشيوخ ، ورفعا رايتهما الى جانب الحزب الشعبي .

الحكومة «الثلاثية» الأولى (التريومفيرا)

لدى عودة بومبي الى روما ، لقي استقبالا فاترا من مجلس الشيوخ ، فانضم الى كراسوس ويوليوس قيصر (٥) الذي كان قد عاد من اسبانيا ، حيث كان حاكما ، وألفوا جميعا الحكومة الثلاثية الأولى . واسندت الى يوليوس قيصر ، بعد توليه منصب قنصل لمدة سنة ، في ٥٩ ق . م ، قيادة بلاد الغال لخمس سنوات .

في عام ٥٥ ق . م كان بومبي وكراسوس قنصلين ، بينما حصل قيصر على تمديد قيادته لمدة خمس سنوات أخرى . اختفى كراسوس عن المسرح ، اذ انتهت حملة سيئة التخطيط ، شنها على بارثيا ، بمقتله في معركة كاراي . حصل بومبي على اسبانيا ، كمقاطعة له ، لكنه فضل ان يبقى في روما ، ليدبر المؤامرات مع أتباعه ، ضد قيصر ، الذي كانت حملاته الناجحة في بلاد الغال (٩ ، ١١) مصدر قلق له . وبعد أن أتم قيصر اجتياح بلاد الغال بكاملها ، وقام بهجومين استكشافيين على بريطانيا ، اصبح مستعدا للعودة الى روما على رأس فيالقه المخلصة .

بعد محاولات فاشلة لتحقيق تسوية أو مصالحة بين الطرفين ، أصدر مجلس الشيوخ أمرا لقيصر عام ٤٩ ق . م بتسريح جيشه . فأسرع هذا الى اجتياز الروبيكون ، وهو النهر الفاصل بين مقاطعته وايطاليا ، وزحف على روما ، وهكذا القى بايطاليا في لجة حرب أهلية . هرع بومبي الى اليونان على امل تعبئة موارد الشرق ضد قيصر ، لكن هذا قام بسحق القوات الموالية لبومبي في اسبانيا ، ودحر بومبي نفسه في فارسالوس بتسّاليا عام ٤٨ ق . م ، ثم طارده الى مصر ، حيث لاقى مصرعه . هناك بدأ قيصر مغامرته المعروفة مع الملكة المصرية كليوباترا السابعة (٦٩ - ٣٠ ق . م) (١٠) ، فأخر بذلك عودته الى روما ، لكنه استطاع ، في مدى سنتين ، ان يحكم السيطرة الرومانية على افريقيا . واخيرا وطد سلطته بشكل تام ، بقمع ثورة قام بها ابناء بومبي في اسبانيا .

نهاية الجمهورية

كان مصدر سلطة قيصر الرئيسي منصب الدكتاتور الذي تولاه مرتين ، قبل ان يتقلده لمدة عشر سنوات في عام ٤٧ ق . م . حشد قيصر انصاره في مجلس الشيوخ . وعين بنفسه بعض القضاة . ومع انه أنكر أي طمع بالملكية ، فقد قبل آخر الأمر منصب الدكتاتور لمدى الحياة . دبر بروتوس (٨٥ - ٤٢ ق . م) وكاسيوس (توفي ٤٢ ق . م) مؤامرة واغتالا قيصر ، في أحد اجتماعات مجلس الشيوخ في ١٥ مارس عام ٤٤ ق . م أملا بانقاذ الجمهورية ، لكن هذه كانت قد ضعفت الى درجة اليأس .

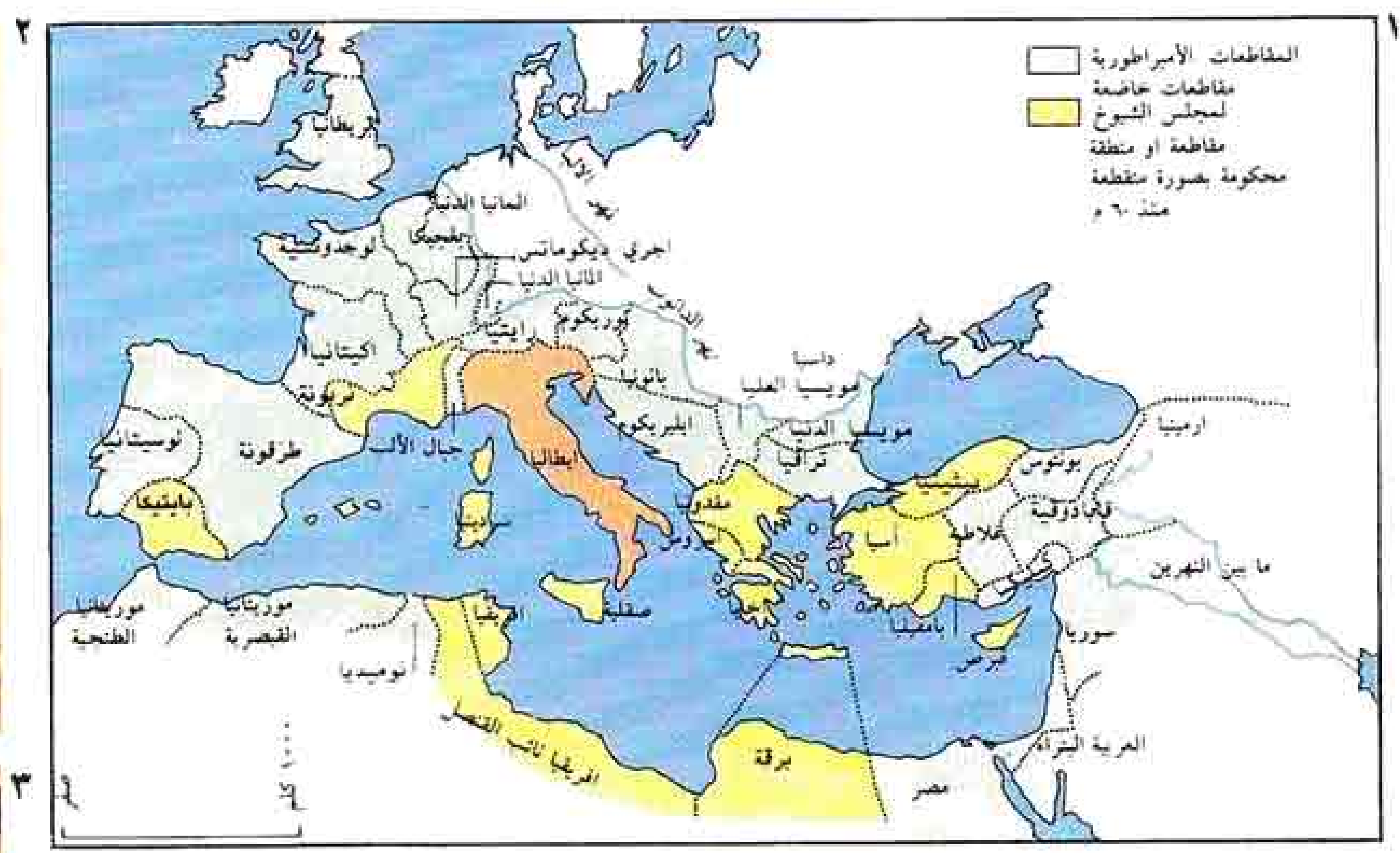
روما الأمبراطورية

أصبح اوكتافيان السيد غير المنازع للجمهورية الرومانية، بعد انتصاره على مرقس انطونيوس في معركة أكسيوم عام ٣١ ق . م . مما لا شك فيه انه كان ينوي تأسيس سلالة ملكية شخصية، لكن حنكته السياسية منعته من تجاهل الشعور الجمهوري القوي في روما . عندما عاد من الشرق عام ٢٩ ق . م ، تظاهر باعادة بناء الجمهورية ، لكنه شرع بتوطيد سلطته المطلقة في اطار النظام الجمهوري ذاته .

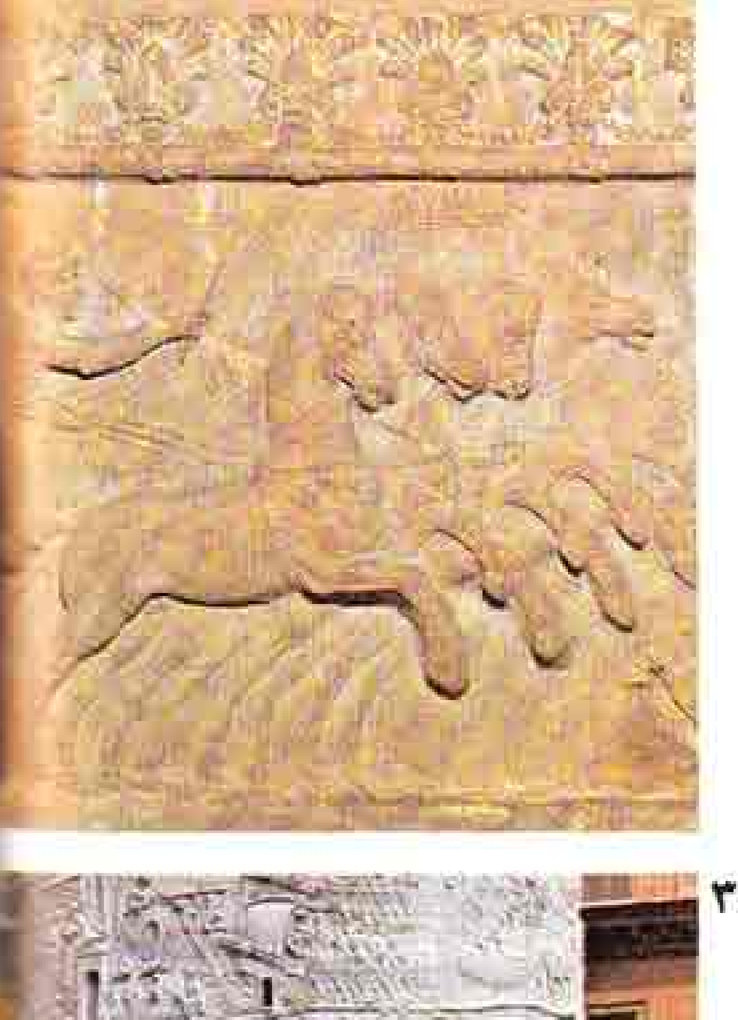
أغسطس : « الأول بين الأنداد »

خلع مجلس الشيوخ على اوكتافيان لقب « المواطن الاول » ولقب أغسطس الذي عُرف

١



٢



٣

(١) ـ كانت الامبراطورية الرومانية في أوج عزها في القرن الثاني الميلادي وكانت تنقسم نظريا الى مقاطعات تحت سلطة مجلس الشيوخ او سلطة الامبراطور . لكن في الواقع ، كانت للامبراطور صلاحية التدخل في المقاطعات الخاضعة لمجلس الشيوخ . اما ايطاليا فكانت تحكم وفقا لصيغة للدستور الجمهوري أدخل عليها بعض التعديل .

---

(٢) ـ تزايدت شعبية مباريات السباق . لاسيما سباق العربات ومباريات المصارعة . في ظل الامبراطورية . كان الامبراطور والبطريقيون يتوددون الى عامة الشعب الروماني . باقامة مهرجانات متزايدة التكاليف . ساعد توزيع الخبز المجاني ، وكثرة الاحتفالات المجانية ، على عزل الشعب الروماني عن الواقع الاقتصادي والسياسي ، ولعب دورا رئيسيا في تقلص الشعور بالمسؤولية المدنية .

---

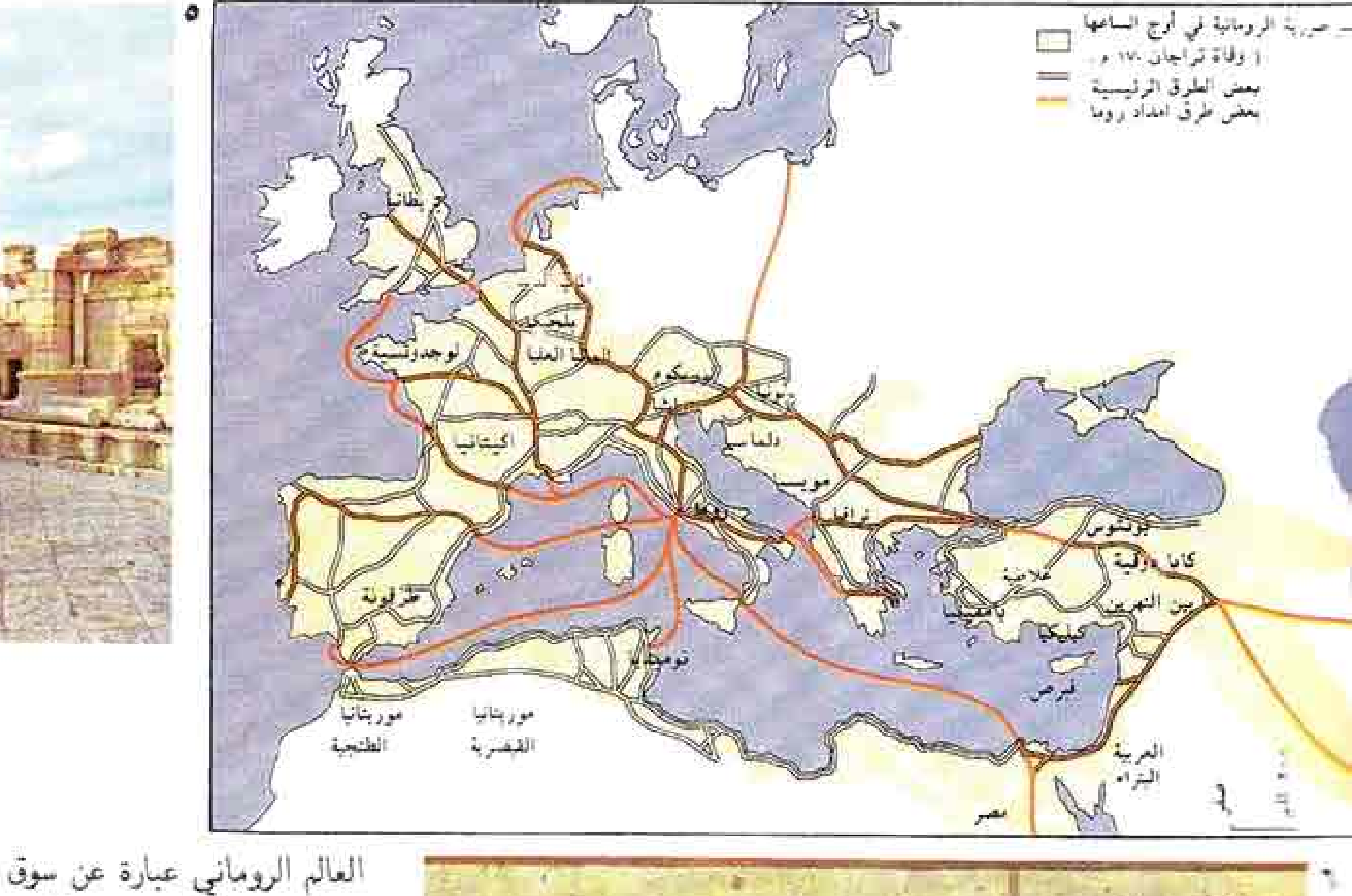
(٣) ـ جنود الفيالق الرومانية واسراهم يظهرون هنا على عمود تراجان . وهو نصب تذكاري في روما يخلد انتصارات الامبراطور في داسيا . وسع تراجان الامبراطورية الى ابعد حد . اذ قطعت كتائبه الدانوب متجهة الى داسيا . بفضل الجسر الذي بناه المهندس السوري ابولودورس الدمشقي ، ثم انطلقت جنوبا نحو دجلة والفرات ، حتى الخليج العربي . الا ان هذه المناطق لم تهدأ قط . فكان الدفاع عنها يستنزف موارد الامبراطورية العسكرية والمالية .

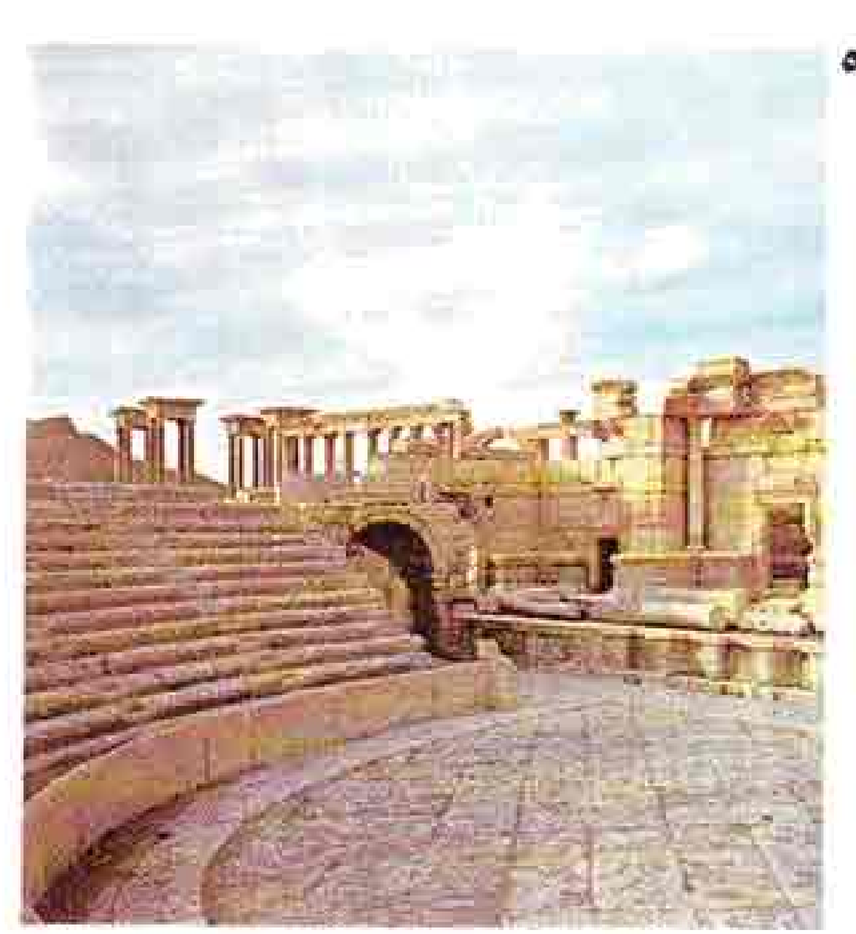
---

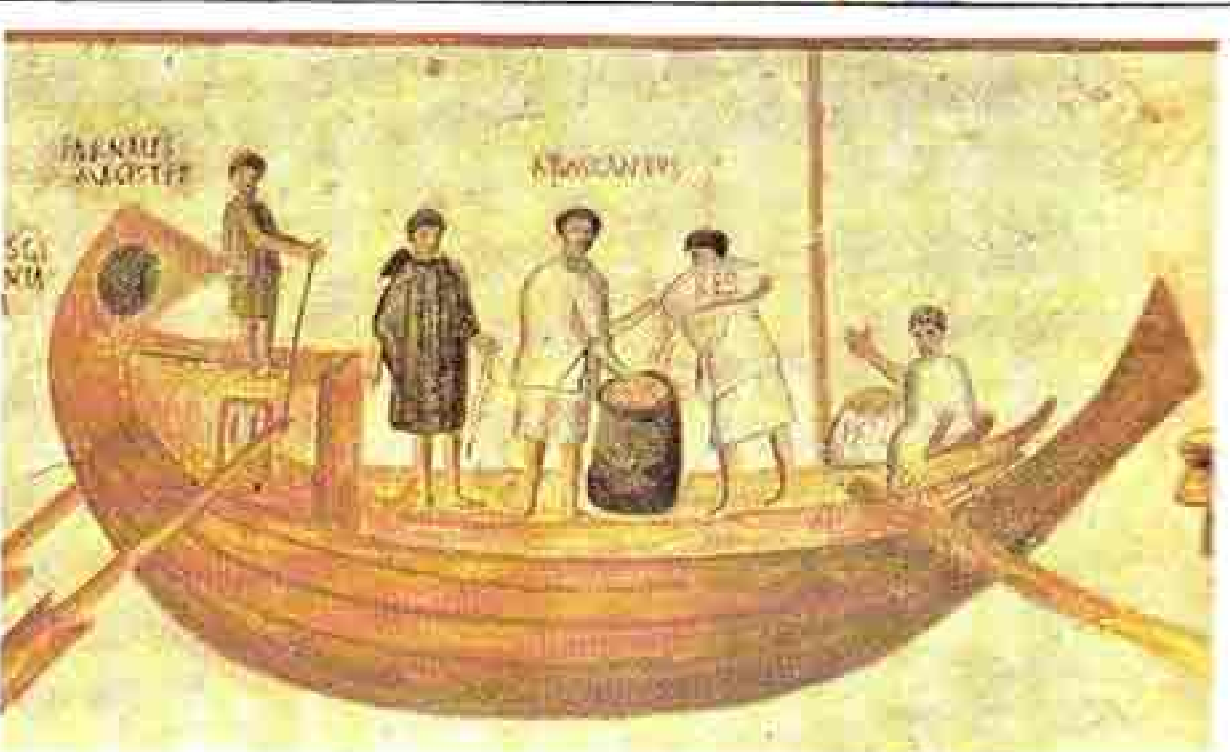
(٤) ـ شبكة الطرقات والمسالك البحرية . التي كانت تربط انحاء الامبراطورية

به فيما بعد (٨). بالاضافة الى ذلك، حصل اغسطس على منصب قنصل وسلطة التريبونوس (اي المدافع عن الشعب) المشتملة على حق دعوة مجلس الشيوخ الى الانعقاد، ووضع جدول الاعمال، ونقض القرارات، وترشيح اشخاص للانتخاب، واصدار المراسيم. هكذا استطاع اغسطس ان يمارس تأثيرا على حكومة روما وايطاليا، ويباشر برامج تنمية واسعة.

قُسمت حكومة الامبراطورية (١) الى المقاطعات القديمة المستقرة، التي كان يحكمها نواب القنصل المنتخبون من مجلس الشيوخ، والمقاطعات الجديدة العسكرية التي كان يحكمها ممثلون يعينهم اغسطس بنفسه كنواب للقنصل، ولهم سلطات خاصة على جميع الآخرين. أعيد تنظيم الجيش فوُضع تحت سلطة الامبراطور المباشرة، واصبح قوة مؤلفة من ٢٨ فيلقا من المحترفين







بعضها ببعض. بنيت لتمكين الجنود وجباة الضرائب والاداريين من التنقل بسرعة. الا ان الطرقات الكبرى اتاحت للتجار ان يجوبوا الامبراطورية بأسرها بسهولة. وهكذا اصبح العالم الروماني عبارة عن سوق اقتصادية مشتركة. حيث كانت البضائع الآتية من منطقة ما متوافرة في كل مكان.

(٥) - يمثل مسرح تدمر في سوريا الطراز الرفيع من المباني (الهياكل والمدرجات واقنية المياه والحمامات) التي كانت تُشاد في جميع مقاطعات الامبراطورية، على النمط الروماني. كان تسامح الرومان مع ديانات وتقاليد الشعوب المحكومة مشروطا بقبول هذه الشعوب لعبادة الامبراطور، وتقديم الثروات والمنتجات، والولاء لروما. استمرت حضارات اليونان والشرق بالتطور رغم تأثر ابناء الأقاليم عموما، بنموذج الحضارة الرومانية.

(٦) - تظهر هذه الصورة عملية شحن سفينة رومانية بالحبوب. كانت مصر وأفريقيا الشمالية وسوريا مستودع الحبوب للامبراطورية. وكانت كميات الحبوب التي كان الرومان يأخذونها من هذه المقاطعات تؤمن لكل مواطن روماني، في العاصمة، جراية مجانية.

الذين كانوا يجنّدون لمدة ٢٠ ـ ٢٥ سنة . شكلت هذه الفيالق من المواطنين الرومان ، بالاضافة الى عدد مساو من المساعدين المجندين من المقاطعات الاقليمية . قُدّر لهذا النظام القائم على امبراطور يحكم بمساعدة مجلس الشيوخ ان يستمر لمدة ٢٠٠ سنة .

كانت أكثر الأمور أهمية آنذاك ، هي اعادة النظام الى الامبراطورية ، وتحصين حدودها . واتجهت أولى حملات أغسطس الى بلاد الغال واسبانيا اللتين اعيد تقسيم كل منهما الى ثلاث مقاطعات . وجرى تحصين خط نهر الدانوب ، بواسطة سلسلة من المقاطعات العسكرية ، تحميها فيالق عسكرية ضخمة (٣) . كما جرت محاولات ابتداء من عام ١٢ ق . م للتقدم عبر الراين الى نهر الالبا . الا ان فتك الالمان بثلاثة فيالق بقيادة فاروس عام ٩ م أرغم اغسطس على

٧



٨

(٧) ـ كانت الفيالق الرومانية، وجيوش الالمان في القرن الأول ، غالبا في حالة حرب ، كما يتبين من هذا النحت الـــنافر . فـــقد عـــجزت الامبراطورية عن اقامة حدود محصنة لها . وهكذا لعبت الغارات « البربرية » دورا رئيسيا في انهيارها . كانت دولة ارمينيا النائية نسبيا الى الشرق تؤمن عادة حماية معقولة ضد الامبراطوريتين الفارسية والبارثية . ولكن في الغرب القريب جدا من قلب الامبراطورية . كان السهر الدائم ضروريا . كان اكثر من نصف الفيالق الـ ٢٨ التي أنشأها اغسطس ، يتخذ مواقعه في المقاطعات المتاخمة للراين والدانوب . حاول اغسطس الاستيلاء على خط نهري الالبا والدانوب السهل التحصين . لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك .

---

(٨) ـ يظهر الامبراطور اغسطس هنا بصفته « الكاهن الاعظم » . استمرت الديانة الرسمية للجمهورية الرومانية حتى في عهد الامبراطورية . كان الاباطرة يُعبدون بعد وفاتهم ، واحيانا كان الشعب ، في بعض المقاطعات الرومانية، يعبدهم وهم أحياء . كان التسامح مع الديانات الاخرى مشروطا بقبولها عبادة الامبراطور . وازدادت شعبية عدة عبادات شرقية ، مثل عبادة ميثرا او عبادة ايزيس . الا ان اليهودية والمسيحية كانتا محطا للامتهان لأنهما رفضتا عبادة الامبراطور . مع العلم ان اضطهادهما المباشر كان نادرا .

الاكتفاء بحدود نهر الراين . في الشرق عقد الصلح مع الامبراطورية الفارسية ، وأقيمت دولة فاصلة في ارمينيا . اما في الداخل فقد قضي على اللصوصية والقرصنة ، وأرسيت قواعد جباية الضرائب ، وتطبيق القانون الروماني على أسس موحدة .

توفي اغسطس عام ١٤ م ، وواصل خلفه تيبيريوس (حكم ١٤ م - ٣٧ م) سياسته الرامية الى توطيد الامن ، بنجاح كبير ، ولم تؤثر في ذلك كثيرا عدم كفاءة كاليجولا (حكم ٣٧ م - ٤١ م) . في عهد كلوديوس (حكم ٤١ م - ٥٤ م) ، بدأ فتح بريطانيا وتم احتلال موريتانيا (وكانت تشمل المغرب والجزائر الحاليين) .

مشاكل الخلافة

كان من اكثر نقاط الضعف في النظام الامبراطوري ، في عهد اغسطس ، عدم وضع صيغة ثابتة لمبدأ الخلافة . لذلك ، وفي عام ٦٨ م ، عندما قتل آخر حاكم من سلالته المباشرة ، وهو نيرون المعروف بعدم اتزانه ، قدمت الفئات العسكرية المختلفة اربعة مرشحين لمنصب الامبراطور . وفي اعقاب حرب اهلية رهيبة ، فاز فيسباسيان (حكم ٦٩ - ٧٩ م) بالمنصب ، فأدخل نظاما يقضي بأن « يتبنى » كل امبراطور خليفته ، مما اعطى للامبراطورية بعض الاستقرار .

في عهد تراجان (حكم ٩٨ - ١١٧) ، اتسعت حدود الامبراطورية ثانية ، وأضيفت اليها داسيا وأرمينيا وبلاد ما بين النهرين (٣) ، الا ان هادريان (حكم ١١٧ - ١٣٨) تخلى عن المقاطعتين الأخيرتين .

السلم والرخاء

في عهد الاباطرة الانطونينيين (نسبة الى اسم عائلة انطونينوس خليفة هادريان) ، بلغت الامبراطورية ذروة السلام (السلام الروماني) . كان المرء يستطيع السفر بأمان من بريطانيا الى البلاد العربية على طرق ممتازة وخطوط ملاحة آمنة (٦) . ازدهرت التجارة (٤) ايضا ، وانتشرت ، في أرجاء الامبراطورية بأسرها ، ثقافة واحدة ولغتان (هما اللاتينية واليونانية) ، ونظام واحد من القانون والادارة . ونشأت في المقاطعات (٥) مدن عظيمة ، ذات مبان عامة فخمة ، وكان الناس يسعون وراء الحصول على الجنسية الرومانية بشغف كبير .

مع ذلك ، كانت ثمة جوانب ضعف كامنة . فقد تعاظمت ثروة روما من الغنائم . وكانت الضرائب والأموال من المقاطعات تنصب في اتجاه واحد ، فاصبحت الثروة والخيرات تتدفق على روما ، دون انتاج يذكر في المقابل .

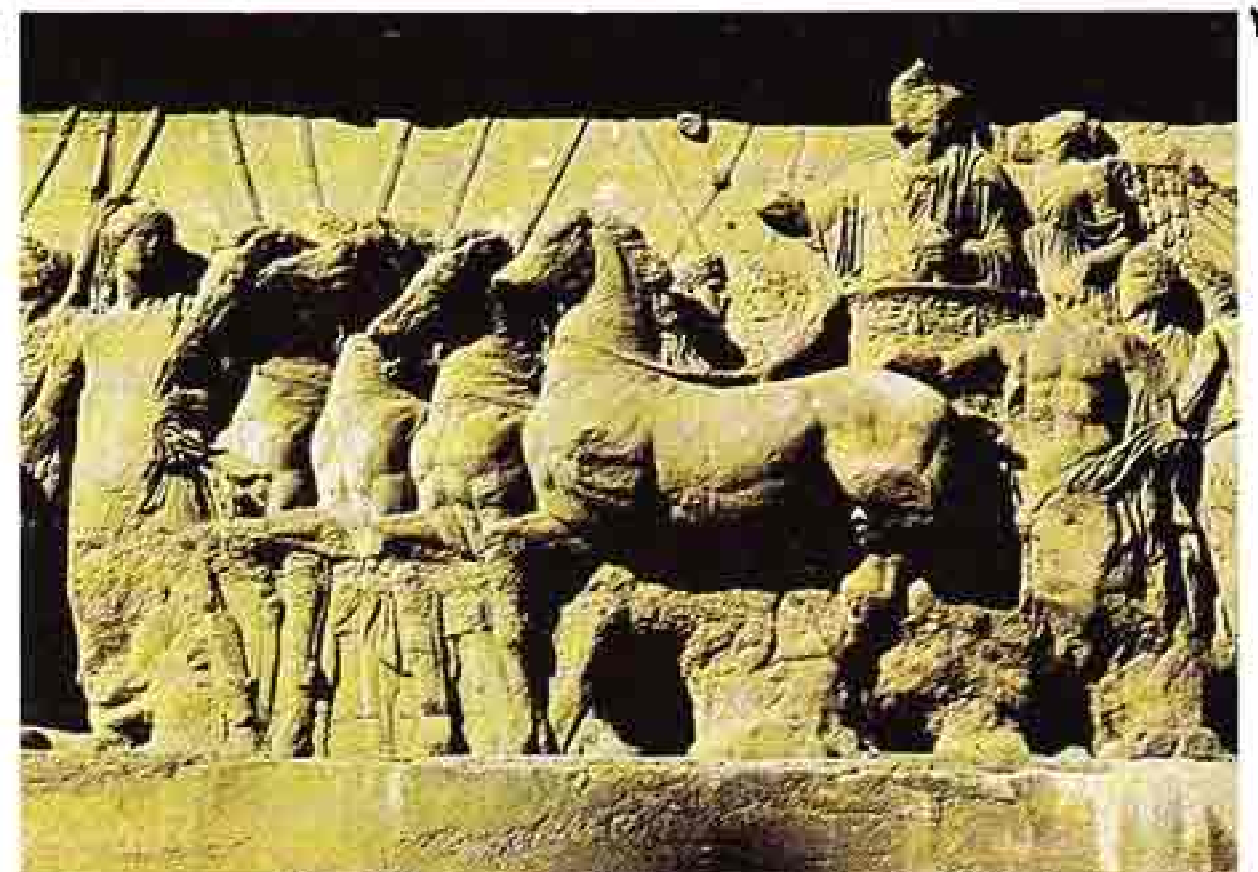
في عهد مرقس اوريليوس (حكم ١٦١ - ١٨٠) ، انتهت فترة السلام . ففي الشرق رد الرومان هجوما بارثيا ، الا ان الجنود العائدين حملوا معهم طاعونا رهيبا اجتاح الامبراطورية بأسرها ، وحط من طاقتها البشرية . وعلى حدود الراين والدانوب ، كانت امواج هجرات القوط الى اواسط اوروبا تدفع أمامها البرابرة (٧) ، نحو المقاطعات الرومانية . وفي عام ١٩٧ ، اجتازت عدة قبائل نهر الدانوب وجبال الالب ، وزحفت على ايطاليا . كما اجتاحت داسيا . هكذا قضى مرقس اوريليوس بقية سني ملكه يحارب ، من أجل اعادة ترسيخ الحدود .

الفن الرومـاني[١]
« بين ٢٧ ق.م. و ١١٧ م. »

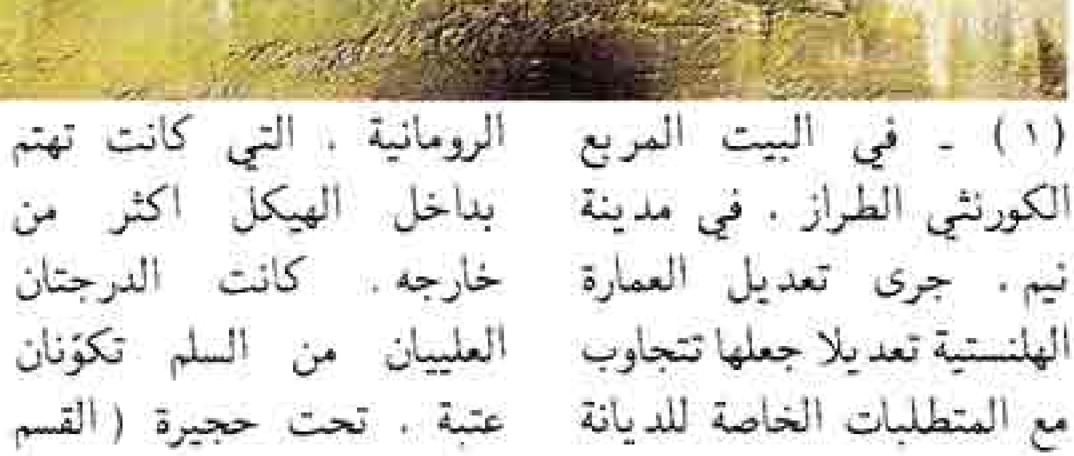
حتى زمن قريب ، كان الفن الروماني يعتبر بمثابة جسر يصل فن اليونان بفن العصور الوسطى ، وكان ينظر اليه كفن منحط الى حد كبير . لكنه كان يقدر بعض التقدير لأنه كان يؤمن استمرار التراث ولأنه ، رغم كونه مستمدا بكامله تقريبا من نماذج يونانية ، لم يكن يخلو من بعض الآثار القيّمة . اما اليوم فمن المسلم به ، على نطاق واسع ، ان الفن الروماني ، وان كان قد اقتبس الاساليب والتقنيات اليونانية ، فقد عدّلها ونمّاها بالفعل كثيرا ، اذ اعادت روما صياغة الفن اليوناني ، ليعبّر عن المثل العليا للامبراطورية ، اي سلطة الحاكم ودوره كراع لمجتمع منظم وحام له ومحسن اليه .

١


٢

٣


٤

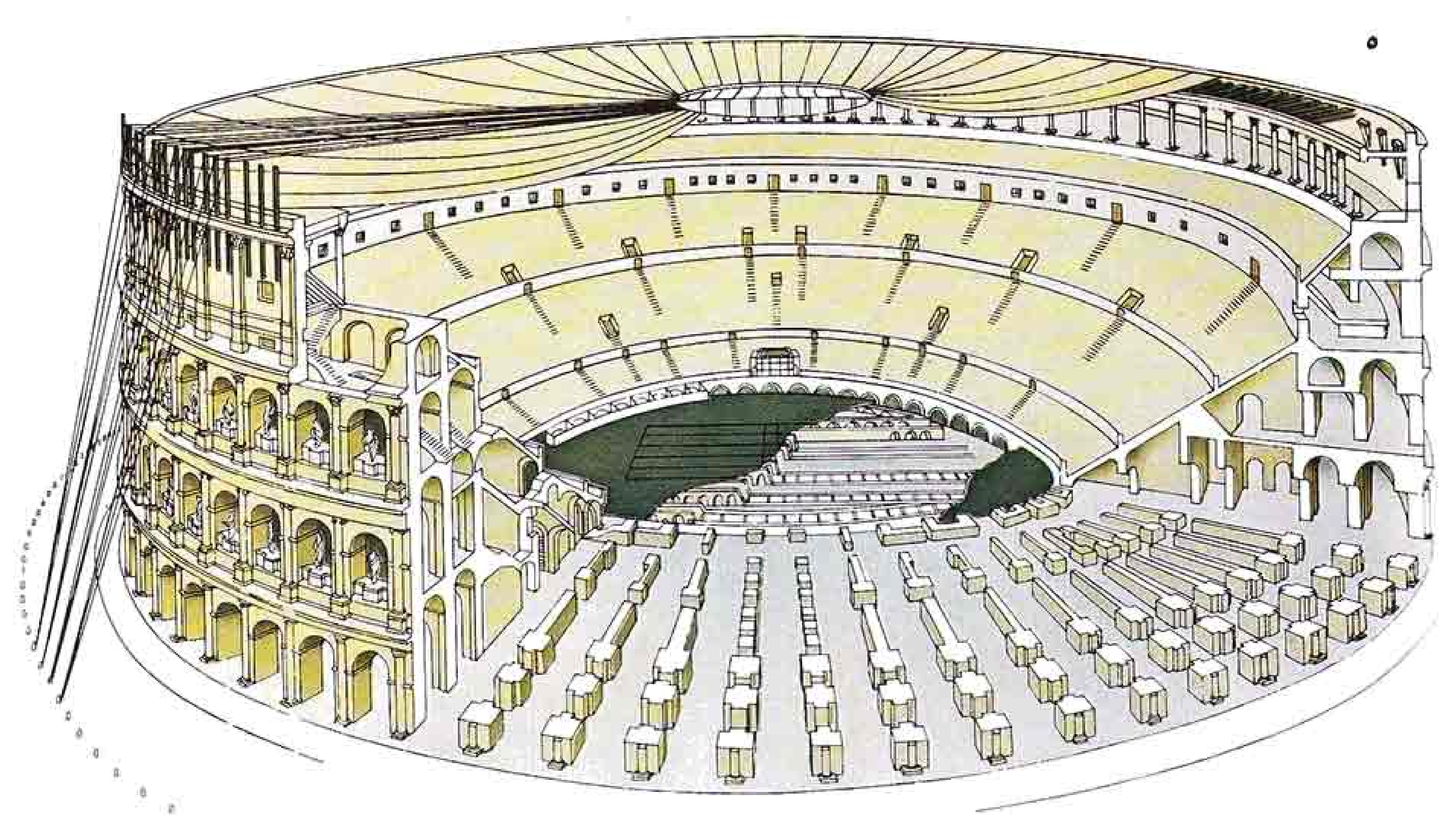



(١) - في البيت المربع الكورنثي الطراز . في مدينة نيم . جرى تعديل العمارة الهلنستية تعديلا جعلها تتجاوب مع المتطلبات الخاصة للديانة الرومانية ، التي كانت تهتم بداخل الهيكل اكثر من خارجه . كانت الدرجتان العلييان من السلم تكوّنان عتبة . تحت حجيرة (القسم الداخلـي) يسـاوي عرضها طول الرواق . وكان صف الاعمدة يدور حول الحجيرة . ولكنه خلافا للهياكل اليونانية ، كان يقوم على جدران صلبة . لقد نحت على غرار نماذج في روما . فجاء من افضل الشواهد الباقية على عمارة الهيكل الرومانية في العصر الأغسطي .

الفن اليوناني والفنانون اليونان في روما

اعترف الرومان انفسهم بتفوق الفن والعمارة اليونانيين . فمنذ ابتداء الاتصالات الاولى بين الثقافتين ، أخذ سيل متواصل من النحاتين والمعماريين والصناع ، في سائر الحقول ، يفد على الامبراطورية الرومانية من الشرق ، لكي يسد حاجات سكانها المتزايدة . وفي فترة مبكرة ، اي حوالى ٢٦٨ ق . م ، انجز الفنانون اليونان رسم تصميم العملة الرومانية ، كما انه ما كاد يتم احتلال روما للعالم اليوناني ، حتى تهافتت على روما كميات ضخمة من الغنائم تتراوح بين الحاجات التزيينية الصغيرة وبين التماثيل الضخمة . في سنة ١٨٧ ق . م استولى مرقس فولفيوس نوبيتور اثناء حملاته في ايتوليا على ٢٨٥ تمثالا من البرونز و ٢٣٠ تمثالا من المرمر ، كما استولى اميليوس باولوس سنة ١٦٨ ق . م على ما لا يقل عن

٥



(٢) ـ كان الفن الأغسطي يستعمل بمثابة أداة للدعاية . في هذه المحفورة يمثل اغسطس الذي لا يشيخ كزعيم مخلص ومبجّل لمجتمع روماني مثقف ورفيع الذوق .

(٣) ـ تخلد انتصارات تيطس العسكرية رسوم نافرة على قوس تيطس . الذي يمثل عودته المظفرة من تدمير اورشليم (القدس) سنة ٧٠ م . وقد بنى القوس دوميتيان .

(٤) ـ هذه اللوحة البومبايية تقوم شاهدا على الاتقان في استعمال الالوان ورسم الظلال والانتباه للتفاصيل وتذوق الداخل المعماري . كانت هذه هي سمات فن الرسم في القرن الأول م .

(٥) ـ ابتكر فكرة المدرج الفلافياني في روما المعروف بالكولوسيوم الامبراطور فيسبازيان الذي بناه بين سنتي ٧٢ و ٨١ . كان أحد الانجازات المعمارية العظمى عند الرومان ، واصبح نموذجا للمدرجات في جميع انحاء الامبراطورية . كان هيكله الخارجي وبنيته الداخلية الرئيسية يتألفان من قطع ضخمة من نوع الحجر الكلسي الصلب المعروف بالترافرتين ، بينما كان الباقي مبنيا من حجر أطرى ومن خرسانة تغطيها طبقة من المرمر . كانت الواجهة ذات الأعمدة تبلغ ٤٥,٧ مترا في الارتفاع ، وتشمل أعمدة من « الطرز » الثلاثة ، اي الدوري والايوني والكورنثي . وكان القسم الاعلى مزينا بعدد من التماثيل .

حمولة ٢٥٠ عربة من الكنوز الغنية من مقدونيا . وقد استخدم الفنانون اليونان ، في نسخ هذه الاعمال او تقليدها ، لتلبية الطلب الشديد عليها .

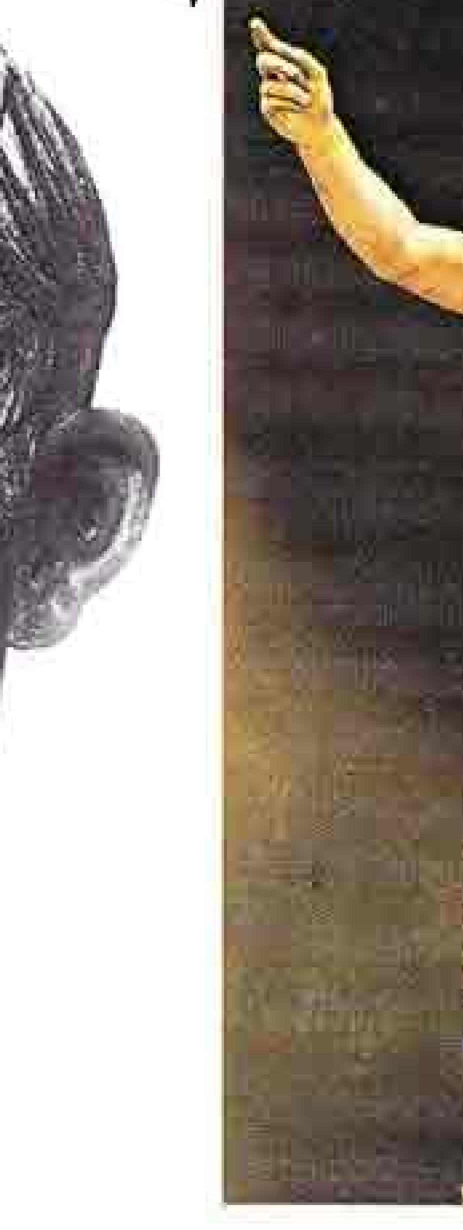
كانت تفصل بين الفنين اليوناني والروماني مواقف واساليب جمالية مختلفة . فالفن اليوناني كان من نتاج افراد ، تدون اسماؤهم ، كفيدياس مصمم البارثنون مثلا ، بينما كانت القطعة الفنية الرومانية لا تحمل عموما اي اسم ، لأن السيد الذي كان يأمر بصنع تلك القطعة ، كان يعتبر نفسه أهم من الفنان الذي يبتكرها . وهكذا بقيت لنا من الرومان آثار تحمل اسم الآمر بصنعها ، لا أسم صانعها ، كقوس قسطنطين وحمامات كاراكلا وسور هادريان .

بحلول عصر اغسطس (٦٣ ق . م - ١٤ م) ، كانت التأثيرات اليونانية (والى حد ما الاترسكية ايضا) قد استوعبت ، كما

٦



٧



٨



(٦) - يبين هذا التمثال « لأغسطس الذي لا يشيخ » الامبراطور لابسا درعا تزينه رسوم تخلد الانتصار على البارثيين . ومع انه نحت على غرار تمثال يوناني ، فالوقفة المعدلة وقوة شكيمة الرأس تطبعانه بطابع الابتكار الروماني الاصيل سواء من حيث المفهوم او الطراز .

(٧) - عثر على رأس برونزي لأغسطس أول امبراطور على روما في مروى بالسودان . كان في فترة ما جزءا من تمثال ضخم . وهو يميز فن تمثيل الأشخاص ذا الدلالة السياسية في عهد الجمهورية الرومانية وما يليها . والرأس يمثل ، وان يكن بصورة مثالية ، اغسطس في ريعان الشباب ، مع انه في الواقع نُحت لدى وفاته في سن الـ ٧٦ . كما يخالف فن تمثيل الاشخاص عند اليونان ، من حيث ايحاؤه بعنفوان الرجل الذي كان رمز الأبهة الامبراطورية ووحدتها . وقد وصف جوليان في رسالته الى ثيودورس الموقف الصحيح من التماثيل الامبراطورية ، بقوله « ان من يحب الامبراطور ، يلتذ بمشاهدة تماثيل الامبراطور » .

(٨) - انبثق تمثيل الاشخاص عند الرومان عن عادة صنع اقنعة للموتى من الشمع ، من أجل المواكب الجنائزية . يمثل هذا الرجل البطريقي والتمثالان النصفيان لجدّيه أفرادا حقيقيين يمكن التعرف عليهم لا مجرد نماذج وحسب .

استقرت معظم الاشكال المعمارية . يعطي فن العمارة الرومانية شواهد على تنوع عظيم في النماذج والانماط الاقليمية ، التي كانت تستعين بطائفة متنوعة جدا من المواد المحلية . وكان من أهم خواصها انها طورت تصميم اليونان العمودي والمؤفق (الاسطوانة والأسكفة) واحتفظت بالانماط المعمارية الثلاثة عند اليونان ، وأدخلت بعض التعديلات عليها ، أحيانا في المبنى الواحد ، كما حصل في بناء الكولوسّيوم (٥) . لكن الرومان اضافوا الطراز التوسكاني ، وهو تحوير للدوري ، والطراز المركب وهو خليط من الايوني والكورنثي ، وكانت جميع الانماط هذه تستعمل في التزيين ، الا ان الطراز الكورنثي المعقد الذي كان أقلها شعبية عند اليونان ، اصبح النمط المفضل عند الرومان .

كذلك طور الرومان فن التزيين الداخلي ، واستعملوا المرمر والالبسطر والتصاوير والفسيفساء وكانوا يهتمون بالتزيين الداخلي اكثر من اليونان . وقد اضافوا الى هذا الثراء البصري المتزايد تنوعا اكبر في الاشكال ، اذ ضاعفت الحياة المدنية عند الرومان الحاجة الى مبان شتى ، من نوع الحمامات والمسارح والمدرجات والجسور والقناطر والاقنية والمنازل المتعددة الطبقات .

تجلى الاستغراق في السياسة بصورة خاصة في عهد اغسطس الذي كان يوصف ، بحكم مهمته كصانع السلام والرخاء في الامبراطورية ، كحاكم طاهر القلب متسامح جميل ودائم الفتوة (٢) . تتجلى الشكلية الصافية وتنوع الصور الخاصّين بالفن الاغسطي في النحوت النافرة لمذبح السلام . وفي برنامج التوسع المدني الذي استحدثه اغسطس ، اعاد بناء عدد من الابنية (٨٢ هيكلا في روما وحدها) وبنى عددا آخر ، بما في ذلك هيكل المريخ المنتقم ، والساحة الاغسطية ، والمنزل المربع في مدينة نيم (١) .

الرعاية الامبراطورية

من ميزات العصر الاغسطي أنه أرسى قواعد مختلف الانماط المعمارية الرومانية . ثم جاءت الاتجاهات اللاحقة تعكس اذواق الحكام الفردية ، وتشدد على وثاقة الرابطة بين الراعي الامبراطوري والموضوعات التي أمر بصنعها . ففي عهد نيرون وافراد اسرة فلافيوس مثلا ، أعطي الفنانون حرية اوسع ، وبالتالي شيدت عدة مبان غريبة ، منها مبان طريفة ذات حُجر مثمنة الزوايا او مدورة او بيضوية الشكل .

الواقعية وتمثيل الاشخاص

تطور تمثيل الاشخاص وهو من اعظم انجازات الفن الروماني ، خلال هذه الحقبة . فقد تحول عن المثالية التي نادت بها الدعاية الرسمية المتجلية في رسوم اغسطس ، متجها نحو نزعة واقعية بارزة ، تكاد تكون وحشية ، في عهد حكام متأخرين مثل كلوديوس ونيرون . كان الفنانون اليونانيون يحاولون تخطي الفرد في بحثهم عن الحقائق الكلّية ، لكن الرومان انصرفوا الى التقيد الدقيق بالواقع (٦ ، ٨) . ويبرز التقابل بين المثالية والواقعية خاصة في التماثيل النصفية ، وفي الرسوم الروائية النافرة التي حفرت على قوس تيطس (٣) وعمود تراجان .

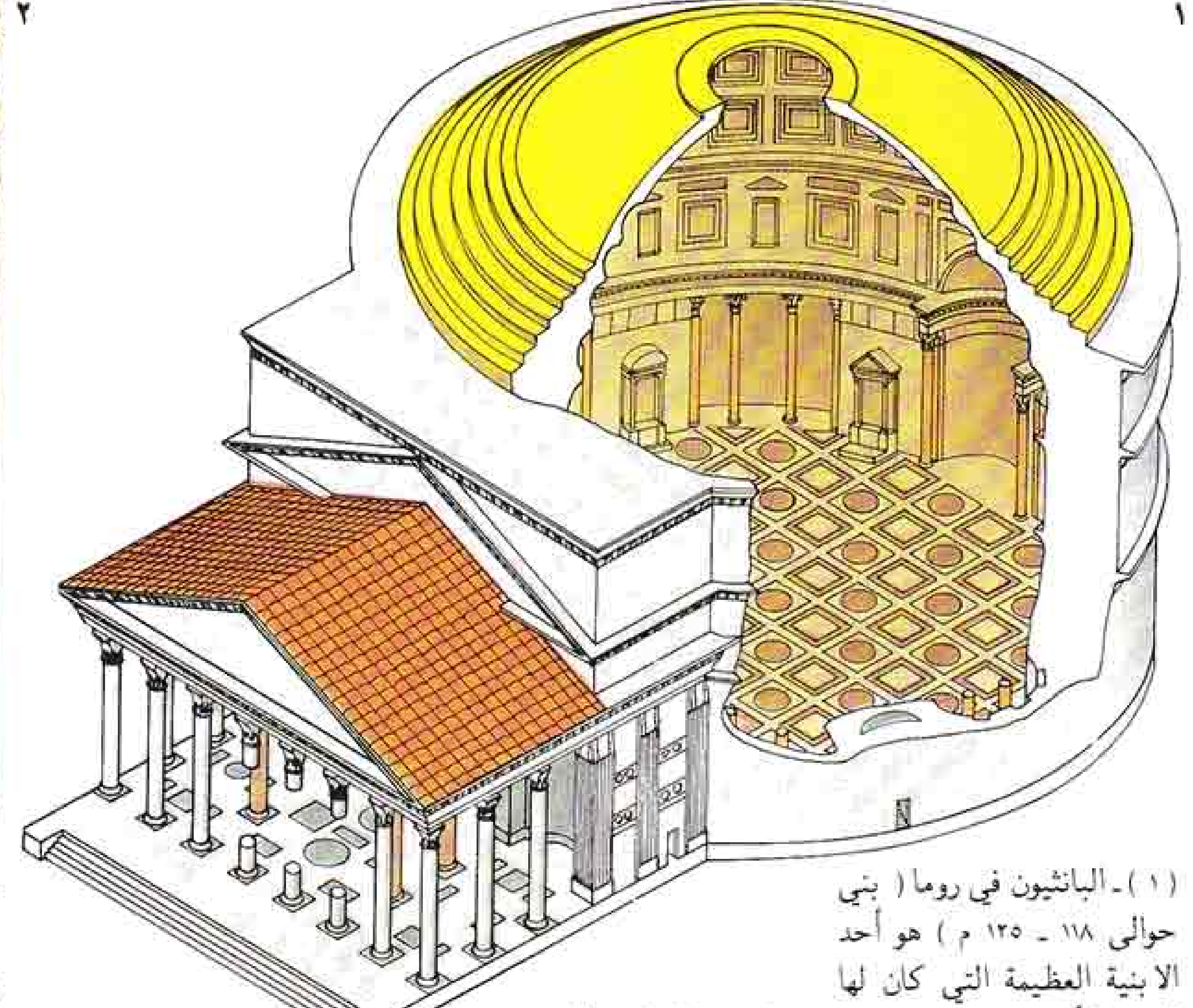
الفن الروماني (٢)
« بين ١١٧ - ٥٥٠ م . »

في عهد تراجان ، انبعث الاهتمام ثانية بفن العصور السابقة ، وبلغ ذروته في عهد خلفه هادريان (٧٦ - ١٣٨ م) فقد أدى رخاء الامبراطورية الاقتصادي الذي لم يكن له مثيل من قبل ، بالاضافة الى رعاية الامبراطور الشخصية للفنون ، الى نهضة هلينستية حقيقية ، والى اقتباس الكثير من الفنون الاقليمية خاصة من سوريا ومصر ، واستمرت هذه الحركة حتى عهد هادريان وما بعده ، فحدّدت الى درجة كبيرة شكل الفن الروماني في القرن الثاني الميلادي كله .

الانبعاث المعماري الهادرياني

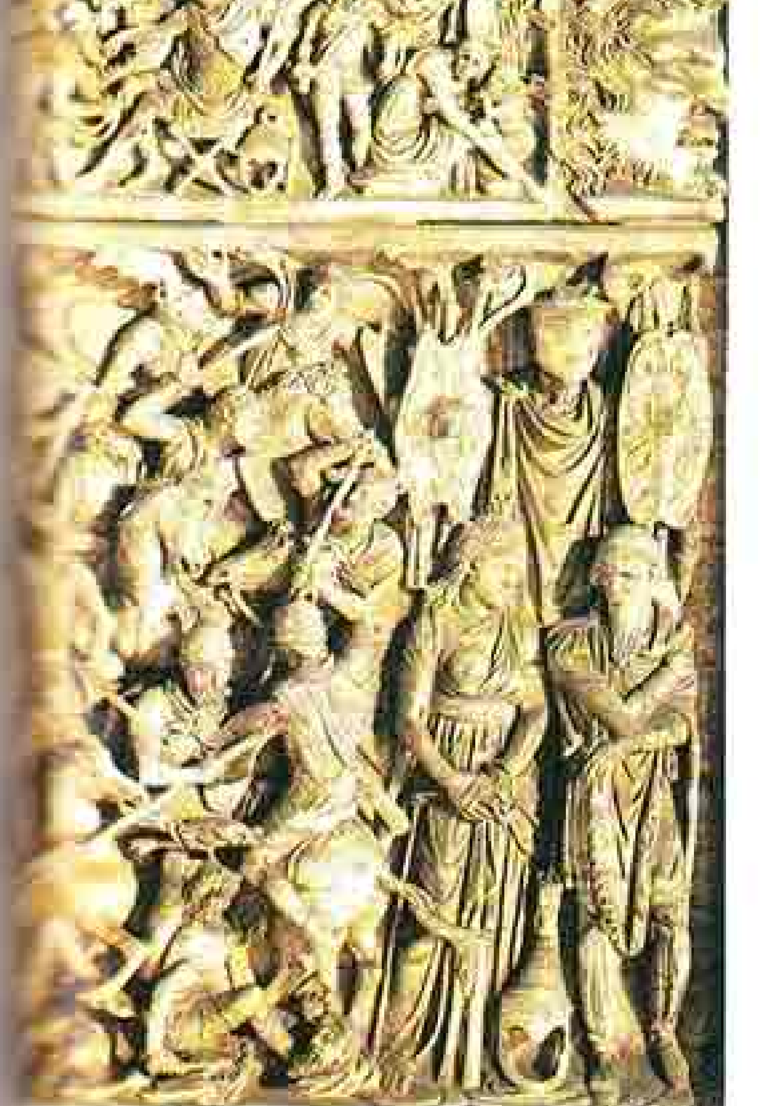
كانت فيلا هادريان في التيفولي (٥) ،

١



(١) - البانثيون في روما (بني حوالى ١١٨ - ١٢٥ م) هو أحد الابنية العظيمة التي كان لها اكبر التأثير في تاريخ فن العمارة . بعد أن اعاد الامبراطور هادريان بناءه كليا اصبح اعظم بناء مقبب في العالم ، حتى العصور الحديثة . وهو اقدم بناء ما زال سقفه قائما بكامله . للرواق الذي يرتفع على ١٦ عمودا من الجرانيت مدخل فخم ولكنه تقليدي ، الا ان القبة وهي نصف كرة تامة تلفت النظر لا بحجمها وحسب ، اذ يبلغ قطرها ٤٣،٢ مترا . بل لأنها تبدو للناظر خفيفة ايضا . وهو وهم بصري ينجم عن المهارة في التلبيس الخشبي ، الذي كان في الاصل مطليا بالجبس ومذهبا . وعن وجود مصدر مركزي واحد للاضاءة . اما طريقة البناء الفعلية فما زالت غامضة . ولكنها تنم عن فهم عميق وراق جدا لتقنية الخرسانة .

٢



(٢) - يصور ضريح معركة بورتوناتشيو الرومان في كفاح مرير مع الغزاة الشماليين . وهو يبرز اللحظة التي يبدو فيها النصر في قبضة القائد الروماني . يهيمن الامبراطور هوستيليان (توفي ٢٥١) الواقف بعيدا عن كومة الاجسام هيمنة تامة على المشهد . تعطينا مهارة النحت مثالا حيا على فن القرن الثالث .

---

(٣) - كانت تزين قوس قسطنطين مجموعة متنوعة من لوحات الرسوم النافرة والتماثيل . كان عدد منها قد انتزع من الابنية العامة السابقة . يلخص هذا الأثر الانماط الفنية الرئيسية . من

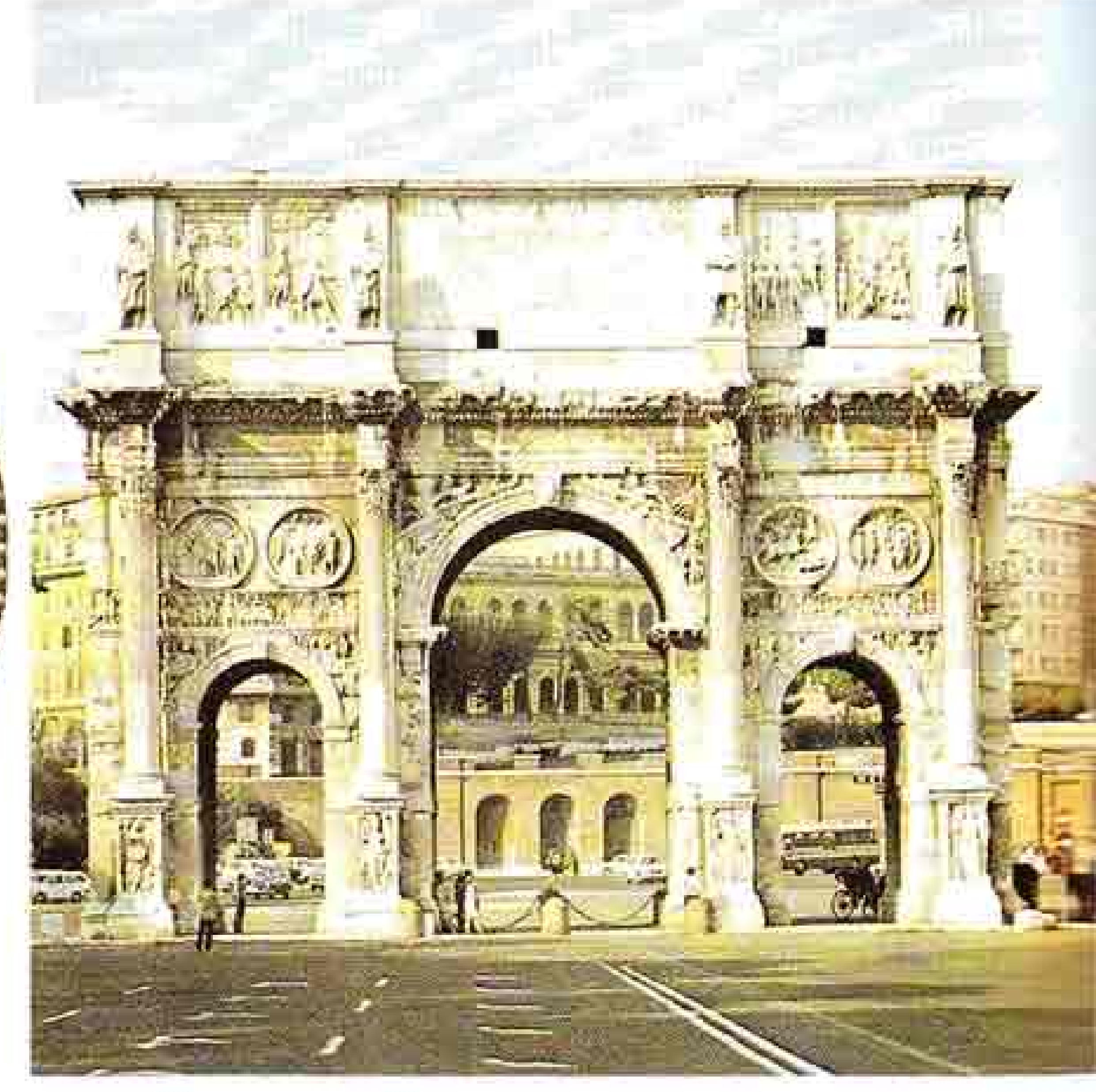
التي وصف أحدهم بقاياها بقوله « انها على الأرجح اجمل مجموعة من الخرائب على الثرى الايطالي » ، اروع المجمعات المعمارية الرومانية . استعمل فيها بسخاء المرمر المتعدد الالوان ، ووسائل التزيين المعمارية المتنوعة ، بما في ذلك الأعمدة الطويلة المقوسة التي كانت شائعة في الامبراطورية الشرقية .

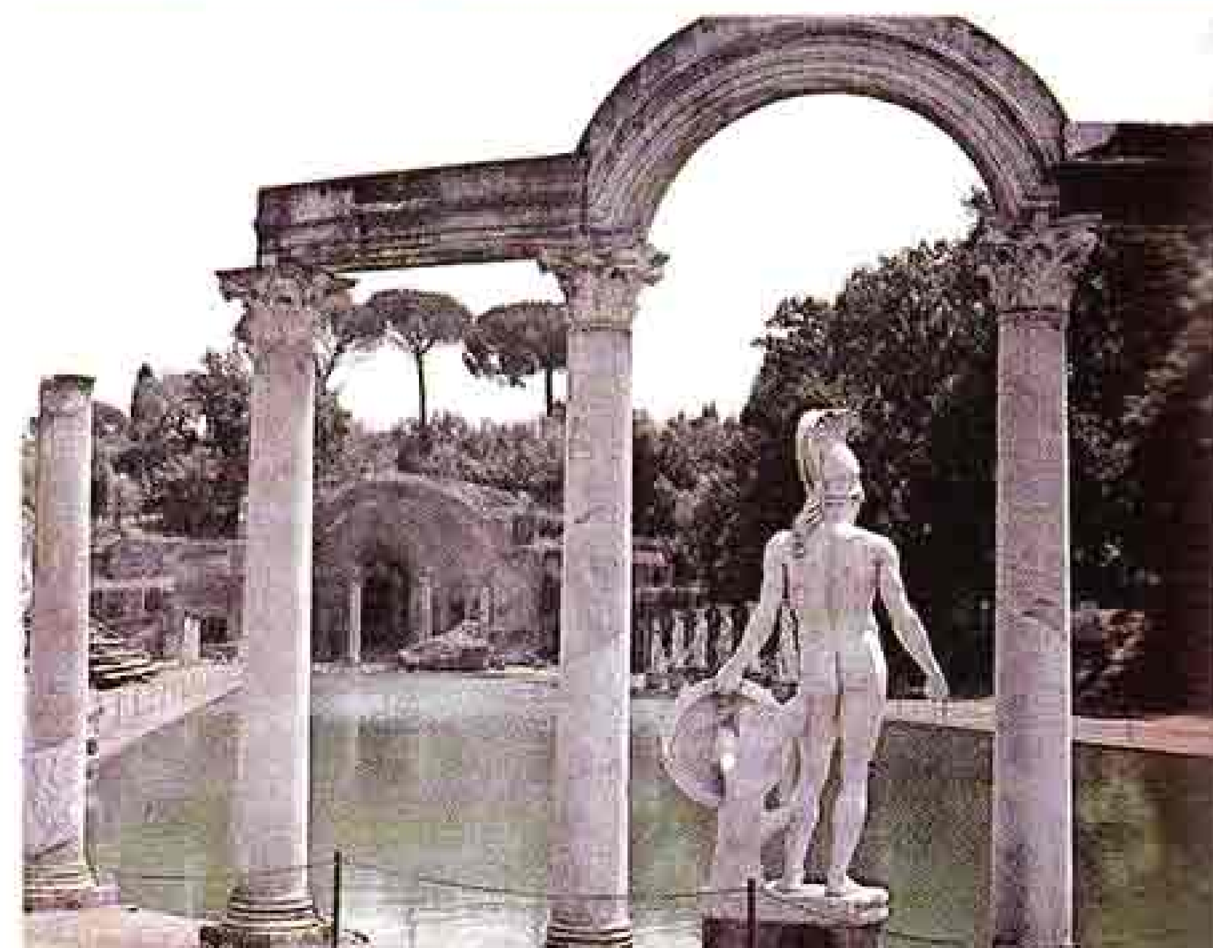
أضافت هذه الملامح وروائع النحت اليونانية او المتأثرة باليونان التي أحاط هادريان نفسه بها ، عددا من العناصر الجديدة والهامة الى الفن الروماني ، انشأ هادريان اكثر الروائع الفنية الرومانية الطابع مثل بناء مجمع المعبودات « البانثيون » ، أهم بناء مقبب في ذلك العصر (١) .

في عهد الاباطرة الانطونينيين الذين خلفوا هادريان ، بقيت العمارة يونانية الطابع في معظم الأحوال . فقد كانت « الطرز » الثلاثة تستعمل على نطاق واسع ،



٤





عهد تراجان حتى قسطنطين ، وينمّ عن التحول باتجاه التصوير والفسيفساء .

---

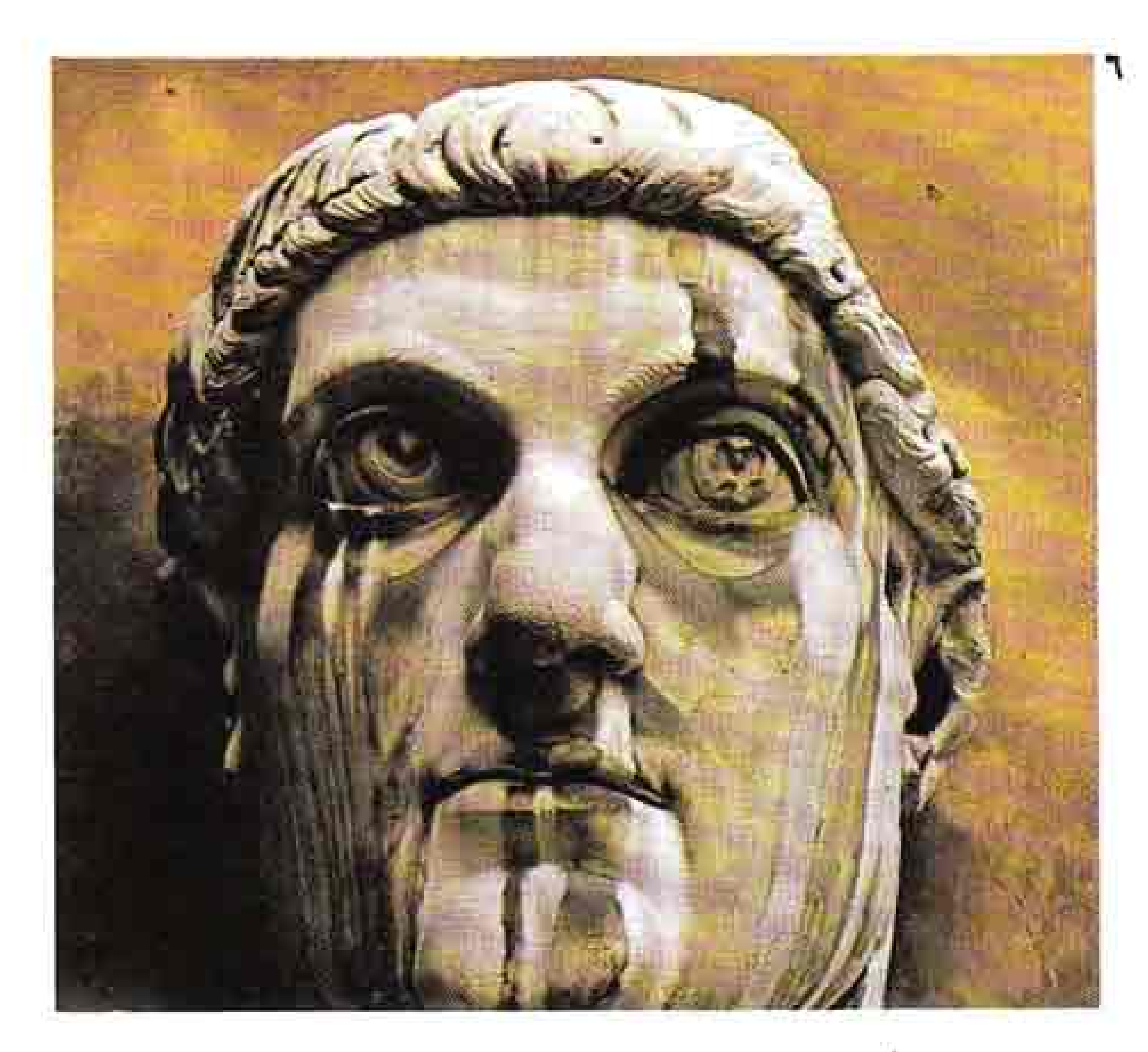
(٤) ـ هذا الصحن الكبير هو من مجموعة فضية رومانية كبيرة معروفة بكنز ميلدنهول ، ويبلغ قطره ٦٠ سم تقريبا ووزنه ٨,٣ كلغ . يرمز الطنف الخارجي الى انتصار باخوس على هرقل تظهر عليه ايضا بعض الشخصيات الاسطورية الأخرى ، كنبتون مثلا .

(٥) ـ كانت فيلا هادريان (١٣٠ م ؟) اكثر القصور الريفية الرومانية بذخا على الاطلاق ، وهي تمثل الاذواق المختلطة، والتجربة المعمارية غير المستقرة لحاكم روماني ذي موارد غير محدودة . لم يكن في هذا الاثر بناء ضخم واحد ، الا ان المجموع الذي كان مؤلفا من عدد كبير من الساحات والينابيع والتماثيل والاعمدة والبرك والفسيفساءات والمباني كانت مساحته ١٨ كلم مربعا .

وشيد عدد من المباني الضخمة ، كمجمعات الهياكل الكبرى ، ولاسيما في الامبراطورية الشرقية . لكن في الوقت نفسه ، استُخدم عدد من الاساليب المعمارية الجديدة ، بما في ذلك الواجهات المبهرجة ، والاعمدة المزينة على طريقة اجنبية والفاصلة بين الأقسام الداخلية ، والاكثار من عدد الكوى لوضع المنحوتات ، وطائفة من اشكال التزيين السطحي من شتى الأنواع .

في عهد الاباطرة « السيفرانيين » في القرن الثالث ، كان ارتفاع مكانة المواطنين وثروتهم ، في الاقاليم الرومانية خاصة ، يتجليان في سلسلة من الأعمال المعمارية الفخمة . وقد حاول بعض الحكام مثل كاراكلا (١٨٨ ـ ٢١٧) مضاهاة اباطرة سابقين في انجازاتهم ، فاستحدثوا عددا من مشاريع البناء الضخمة ، مما أدّى الى عدد كبير من المباني . كان ابرز ما يلفت النظر في هذه

٦



٧



٨



(٦) ـ هذا الرأس هو جزء من تمثال الامبراطور قسطنطين الضخم الموجود في روما . وهو أضخم تمثال صنع في عصره اذ يبلغ عشرة أمثال حجم صاحبه الحقيقي . نُحت حوالى ٣١٣ م ، وكان ذروة الكمال في الفن الامبراطوري .

(٧) ـ تمثال مرقُس اوريليوس البرونزي ممتطيا جواده موجود في روما . وهو يعود الى تلك الحقبة الانطونينية التي اخذت فيها الاشكال المثالية تحل محل الواقعية الشائعة في عهد تراجان . كان التمثال اصلا مطليا بالذهب . وقد أبقي عليه ، بينما حُطمت التماثيل البرونزية الاخرى . بسبب الاعتقاد الخاطىء انه كان يمثل الامبراطور المسيحي قسطنطين . أثر هذا التمثال على انتاج بعض عباقرة عصر النهضة مثل دوناتيلو (١٣٨٦ ؟ ـ ١٤٦٦) .

(٨) ـ في هذه الميدالية الذهبية التي سكت في سالونيك يظهر الملك قسطنطين في صورة تعكس رسوم اغسطس . أدت اعادة النظام الى الامبراطورية الرومانية في عهد ديوقليسيان وقسطنطين الى توحيد النقود الرومانية . ومع ان تصوير الحكام كان قد بلغ درجة عالية من المهارة في الصنعة ، فقد اتخذ شكلا موحدا واتسم بطابع ديني ، وتلك خاصة مألوفة من خواص الفن الروماني المتأخر .

المباني هو حجمها الهائل والاغراق في التزيين .

من هذه المشاريع حمامات كاراكلا بروما ، وهي افضل الحمامات الامبراطورية الباقية حتى اليوم . كانت تتسع لـ ١٦٠٠ مستحم ، وكانت تعلو حجرتها الوسطى قبة يبلغ ارتفاعها ٥٤،٨ مترا . كانت هذه الحمامات مزينة بالمرمر الملون ، وبالتماثيل التي لا تقدر بثمن . لكن اهتمام الرومان بالتزيين الداخلي ، أكثر من التزيين الخارجي ، جعل هذه الابنية بسيطة المظهر من الخارج .

لم تشجع عهود اباطرة القرن الثالث المتأخرين ، وانصرافهم الى الدفاع عن الامبراطورية ، برامج البناء على نطاق واسع ، باستثناء تلك التي كانت تتعلق بالأعمال العسكرية . فبلاط ديوقليسيان (٢٤٥ ـ ٣١٣) المحصن في سبالاتو بدالماسيا (الذي أنجز بناؤه عام ٣٠٥) يبرز كأهم بناء عسكري في الحقبة المتأخرة ، ويمثل التحول عن النزعة التزيينية الى النزعة الوظيفية الصرف .

النحت حتى القرن الثالث م

أثّر الامبراطور هادريان على الفن تأثيرا جعل فن النحت يتحول ، من السعي وراء العظمة الجدية التي اتصف بها في عهد تراجان ، الى نشدان الجمال الحسي الذي يميز الاعمال اليونانية .

في الحقبة الانطونينية ، اصبحت التماثيل اضخم حجما وأشد تعقيدا ، وأخذ استعمال الأزاميل لحفر الحجارة يستبدل به تدريجيا استعمال المثقاب مما مكّن من اداء تزييني افضل لتفاصيل الشعر وثنايا الملابس . وهكذا صنع عدد من التماثيل البرونزية الرائعة ، كتمثال مرقس اوريليوس (١٢١ ـ ١٨٠) ممتطيا جواده (٧) . لكن لم يصلنا منها سوى القليل .

ثمة نوعان معينان من النحوت النافرة وجدا معا في هذه الفترة وبقيت نماذج منهما ، وهما : اسلوب بدائي يكاد يكون من الفن الشعبي ، كما نشاهد على عمود مرقُس اوريليوس ، واسلوب يمثل استمرار العناصر الكلاسيكية اليونانية . اندمج هذان التياران من النشاط الفني في قوس قسطنطين (٣) .

كانت منحوتات القرن الثالث المضطرب متفاوتة الجودة ، فقد اصبحت الرسوم النافرة اقل دقة وظهر اتجاه جديد نحو التكلف والتناظر التجريدي ، مما أدّى الى العودة لاستعمال الازميل عوضا عن المثقاب . نجم عن ذلك ظهور الأشغال ذات الزوايا ، كما يبدو في اعمال شهيرة ومثيرة مثل رأس قسطنطين الضخم (٦) .

التصوير والحرف

يظهر ان التصوير لم يتخطَّ ما يعرف عادة بالاسلوب الرابع المكتشف في بومبيي . فقد تطور فن الفسيفساء بسرعة ، وكان اصلا تقنية خاصة بأرضية البيوت في القرنين الثاني والثالث ، حتى حل عمليا محل التصوير كطريقة لتزيين الجدران .

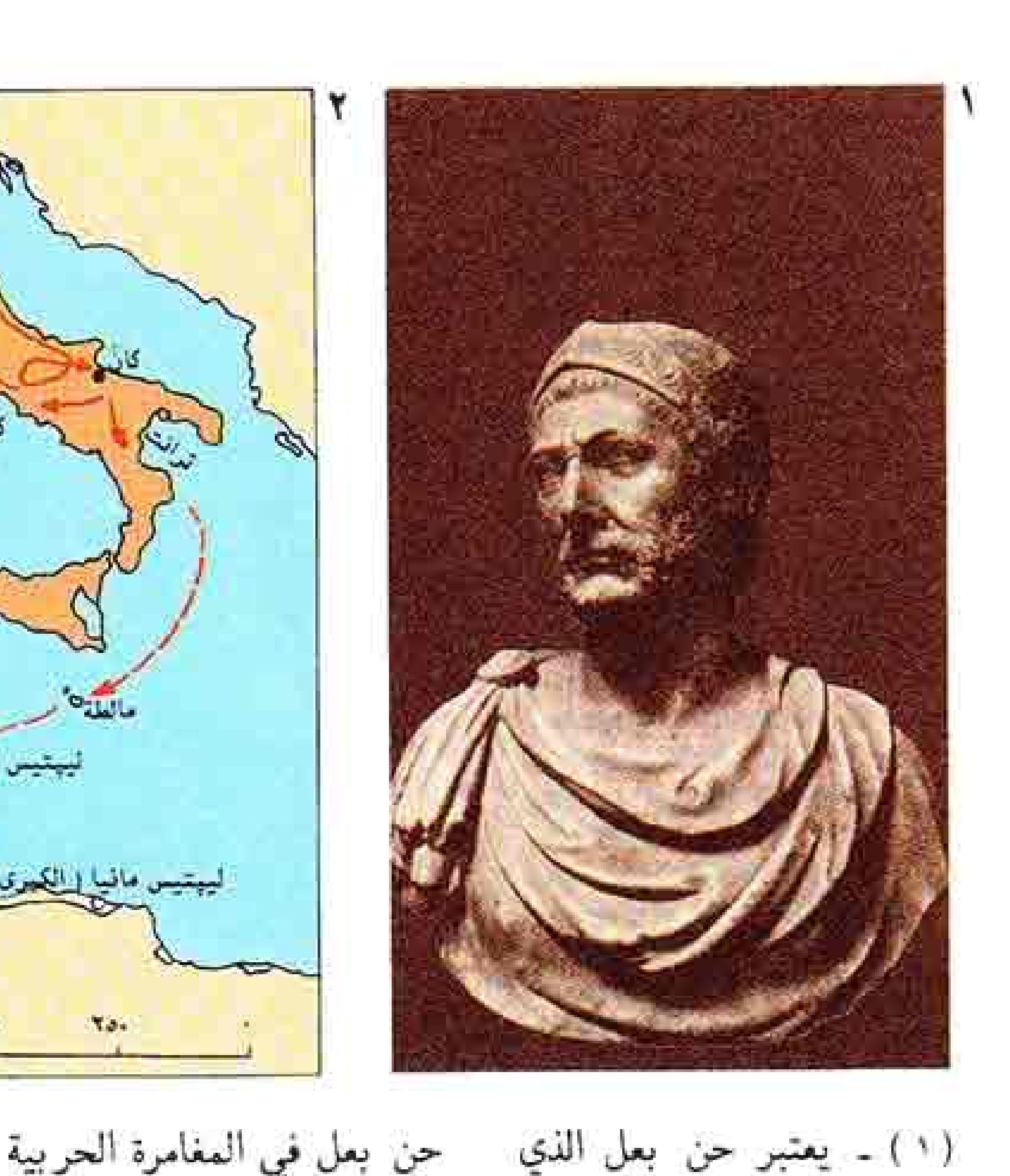
بالرغم من المراسيم الامبراطورية المتعددة الموجهة ضد البذخ الفردي ، فقد شاعت بكثرة ، في جميع انحاء الامبراطورية، المجوهرات الانيقة والاثاث البديع المرصّع بالعاج ، وشتّى المصنوعات المعدنية .

قرطاجة و روما

منذ تجاوزت روما حدود ايطاليا لتتجه الى شمالي افريقيا والى حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي ، كان مقدرا للجماعات والقوى الموجودة في هذه البقاع أن تعاني من الغزو الروماني العسكري الذي اكتملت فيه كل عوامل التوسع .

كانت قرطاجة ، بسبب موقعها الجغرافي في افريقيا وغناها التجاري وامبراطوريتها الواسعة ، هي الدولة التي سوف تتلقى الصدمة الاولى من الرومان . يوم كانت روما مدينة ضعيفة ، التمست من قرطاجة التجارة معها وعقدت معاهدتين تجاريتين سنة ٥٠٨ ثم سنة ٣٤٨ ق . م ، بل تحالفت روما مع قرطاجة حين جاء الاغريق لمعونة سيراقوسة اليونانية

١ ٢



(١) - يعتبر حن بعل الذي يعرفه الغربيون باسم هانيبال (٢٤٧ ق . م - ١٨٣) واحدا من أعظم عباقرة الحرب في التاريخ . براعاته في عمليات التجنيد والسوق والتموين ، وقدراته الاستراتيجية في قيادة المعارك ، ثم نهايته المأسوية ، كل ذلك ترك له صورته المميزة وجعله رمز عظمة وانهيار قرطاجة .

(٢) - على هذا المصور ، في أسهمه المتوالية تظهر تحركات حن بعل في المغامرة الحربية التي طوق بها الحوض الغربي للبحر المتوسط وعبر بالأفيال جبال الألب وقاد فيها ، دون امداد ، معارك دامت قرابة خمس عشرة سنة وتخللها حصار لروما مرعب ثقيل لم تعرفه في تاريخها كله الا عند انهيارها الأخير .

(٣) - سيبيو (أوسيبيون) أسم أسرة قديمة لامعة في روما اشتهر منها اثنان في تاريخ الرومان أولهما (الصورة) سيبيو الذي عرف بالافريقي (٢٣٥ - ١٨٣ ق . م) لأنه انتصر على القرطاجيين أولا في اسبانيا في الحرب البونيقية الثانية ثم انتصر على حن بعل في معركة زاما سنة ٢٠٢ ق . م . اتهمه اعداؤه بعد ذلك بابتزاز أموال الأمة فصاح : « أيها الرومان في مثل هذا اليوم انتصرت على حن بعل وقرطاجة . لنصعد الى الكابيتول ونقدم الشكر للآلهة » لكن ذلك لم ينفعه . مات في المنفى في ليترن . بعد أن كتب كلمته المشهورة : « أيها الوطن الناكر للجميل . لن تكون لك عظامي ! » سيبيو الثاني يعرف باسم سيبيو ايمليانوس (١٨٥ - ١٢٩ ق . م) وبالافريقي الثاني وهو ابن أحد الأولاد الذين تبناهم الابن البكر لسيبيو الأول . كان زعيم الحزب الارستقراطي . قاد الحرب الأخيرة ضد قرطاجة وهو الذي دمرها وأحرقها سنة ١٤٦ ق . م . مات بشكل غامض خلال مناقشة القانون الزراعي الذي قدمه الأخوة غراكوس وكان ضد هذا القانون .

في صقلية (٢٧٨ ـ ٢٧٦ ق . م) .

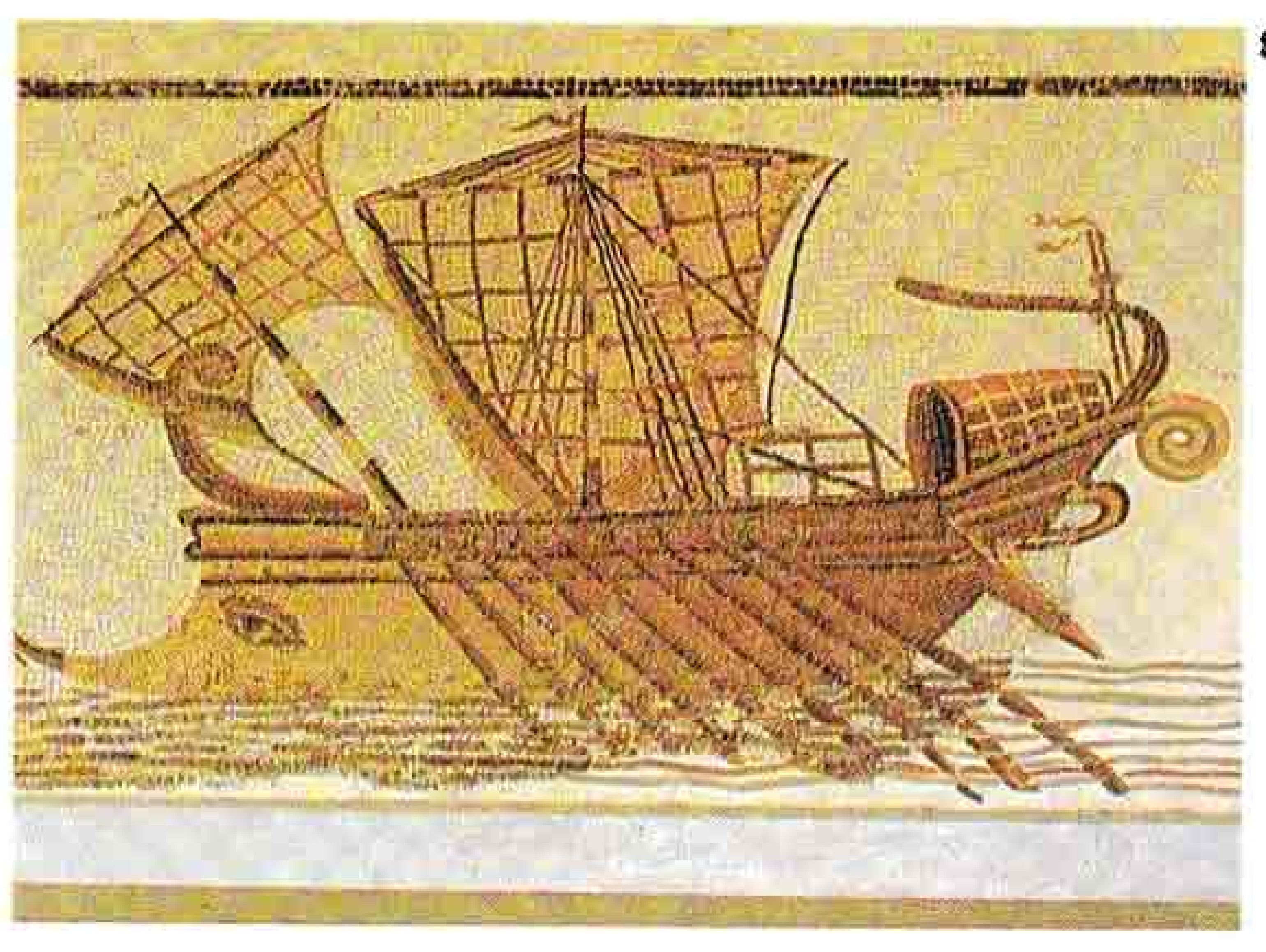
لكن الأمر سرعان ما تغيّر ، حين أرادت روما الاستئثار بصقلية ذات الموقع الاستراتيجي الهام للسيطرة على تجارة حوضي المتوسط . كان ذلك مطلع الشر ، وبدء سلسلة العدوانات التي سمتها روما بالحروب البونية (البونيقية = الفينيقية) ، وهي ثلاث فترات من الحروب ، انتهت بحرث الأرض التي تقوم عليها قرطاجة .

الحروب البونيقية الأولى (٢٦٤ ـ ٢٤١ ق . م)

سببها المباشر اشتباك جماعة من أهل مسينا التابعة لقرطاجة في خصومة مع سيراقوسة ، فاستنجدوا بقرطاجة أولا ، فلما لم تنجدهم ، استنجدوا بروما التي رحبت واحتلت المدينة . ثم ما لبثت أن اجبرت سيراقوسة على التحالف معها وتجهيز اسطولها بالسفن وبدأت الحرب مع قرطاجة سنة ٢٦٤ .

٣

٤



(٤) ـ مركب حربي روماني في لوحة فسيفساء من القرن ٢ م . تمثل أسطول روما . قد يكون من التناقض القول ان روما انتصرت عبر البحار بل حافظت ايضا على امبراطورية البحر المتوسط دون ان يكون لديها اسطول حربي حقيقي . لأنها كانت تعتمد في الدرجة الاولى على قوتها العسكرية البرية . كانت عنايتها بالاسطول تأتي في فترات متقطعة تحت ضغط الحاجة الحربية العابرة . من ذلك انها أوجدت لنفسها اسطولا في حربها ضد قرطاجة مستعينة بمدن وبحارة ايطاليا الجنوبية التي اخضعتها . في علاقاتها باسبانيا اعتمدت على مرسيليا . في حروبها في المشرق كانت تستعين باساطيل جزر بحر ايجه . لكنها لم تكن تتعهد هذه الاساطيل بعد زوال الحاجة اليها وكانت تتعرض في ذلك الى مفاجآت مؤلمة . (كما حدث في الهجوم الذي دبره ضدها ميتريدان سنة ٨٨ ق . م) وكثيرا ما كانت تتغاضى عن الآثار السيئة للقراصنة على التجارة المتوسطية وعلى هيبة روما نفسها . كانت تحاول ـ وقد حققت كثيرا من النجاح ـ قمع القرصنة بحراسة الطرق والمسالك البحرية مما سمح للتجارة البحرية في المتوسط ان تزدهر في عهد الامبراطورية . لكن حجم السفن بقي متوسطا محدودا . لم يحاول الرومان أن يطوروا سوى السفن التي تحمل لهم التموين من مصر . هذه المراكب كانت تخضع لتصميم خاص . وبعضها كان يبنى لنقل مسلة فرعونية أو تمثال لا يقل عن ٥٠٠ طن بقطع النظر عن صابورة السفينة التي كانت تبلغ أحيانا ٨٠٠ طن وهي على الاجمال من العدس . بعد أن سيطرت روما على حوض المتوسط حاولت أن تمد نفوذها الى المحيط الهندي (في حملة ايليوس غالوس) ولكنها كانت أيضا حملة برية لا بحرية . وفشلت .

قاتل الرومان للاحتفاظ بصقلية عشرين سنة . وانتهت الحروب بهزيمة الاسطول القرطاجي (معركة جزر ايغاتس سنة ٢٤١ ق . م) وتخلي قرطاجة نهائيا عن صقلية ، لجعلها ولاية رومانية مع دفع غرامة ٣٢٠٠ وزنة ذهب مقسطة على عشرين سنة . الدرس الذي أخذته قرطاجة من هذه الحروب هو عدم الثقة بالقوى البحرية والمرتزقة من جهة ، واليأس من التعايش السلمي مع روما من جهة أخرى ، لاسيما حين اتبعت روما ذلك باخراج قرطاجة من جزيرتي كورسيكا وسردينيا ، مستغلة ظروف الثورة التي قامت فيها (٢٤١ - ٢٣٨) ضد الصلح المهين .

الحروب البونيقية الثانية
(٢١٨ - ٢٠٢ ق . م)

انكمشت خطوط قرطاجة البحرية بعد الحروب الاولى ، فوجهت همها للتوسع البري

٥ أ


ب


ت


(٥) - معركة قرطاجة الأخيرة سنة ١٤٦ ق . م سجلها التاريخ واحدة من أعمال البطولة الخالدة في الدفاع والاباء ، لم تستطع كل وسائل روما في الدعاية الحاقدة ان تغطيها ، حين نجح الرومان في اقتحام الأسوار ، ذبحت المدينة . الناجون وهم حوالى ٥٠ الفا بيعوا في أسواق العبيد . ونقلت تماثيلها وثرواتها الغنية الى روما مع الغزاة ، بعد ان هدمت اسوار المدينة وقصورها والاسواق وحرثت أرضها . لم يسلم من عملية التدمير الجذري سوى القبور (أ) وهكذا لا نستطيع أن نتبين ما كان عليه الفن القرطاجي الا من خلال اللقى الصغيرة والحاجيات الحياتية ، وهي في معظمها خلو من الشأن الفني ، ومنها الأقنعة (ب) المتخذة من الخزف ونماذج المعبودات (ت) . على ان قرطاجة عادت من جديد الى الحياة والنشاط التجاري تحت الحكم الروماني و بقيت لها فقط معبوداتها . كما بقيت لغتها منتشرة في افريقية حتى القرن السادس .

في اسبانيا . كانت قرطاجة موجودة هناك منذ القرن ١١ ق . م ، ولكنها واجهت في هذه الفترة بعض المتاعب مع الا يبيريين ، بعد أن وصل الرومان هناك . وخسرت سنة ٢٢٨ ق . م واحدا من كبار قوادها هو : هملقارت الذي أسس بلدة قرطاجنة في ايبيريا في سبيل تأمين استغلال مناجم الفضة والذهب والقصدير التي تحمل لقرطاجة الثروة الهائلة .
لكن روما استغلت احتلال القائد القرطاجي الشاب حن بعل (هانيبال) سنة ٢٢٦ لمدينة ادعت ان فيها جالية رومانية فأعلنت الحرب : كانت تطمع هذه المرة في اسبانيا .

أثبت (حن بعل) عبقريته العسكرية التاريخية في هذه الحرب . نقل جيشه (٤٠ ألفا مع ٥٠٠ فيل) عبر اسبانيا وجنوب فرنسا وجبال الألب ، وهزم الرومان على أراضيهم في ثلاث معارك متوالية (٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦) وضرب الحصار على روما سنة ٢١١ ق . م . ظل ١٤ سنة يحارب هناك . خذلته قرطاجة في الأمداد . نجح الرومان في قتل صهره صدر بعل في اسبانيا وأخرجوا قرطاجة منها ، ونقلوا في النهاية الحرب الى افريقيا سنة ٢٠٤ (٢) . فاستدعته قرطاجة للدفاع عنها . في معركة زاما التي قامت بين حن بعل وبين القائد الروماني سيبيو (الذي عرف من بعد بالافريقي) (٣) سنة ٢٠٢ ، وانضم فيها ماسينيسا ملك نوميديا (المغرب) الى الرومان ، لم ينجح حن بعل في احراز النصر ، فتخاذل مجلس الشيوخ في قرطاجة وطلب الصلح . وأملت روما شروطها : مسخ أسطول قرطاجة الى عشر سفن فقط (٤) ، وتخلي قرطاجة عن اسبانيا ، وان لا تحارب قرطاجة حلفاء روما الا باذنها ، بالاضافة الى عشرة آلاف وزنة غرامة حربية ، وتوسع ملك نوميديا على حساب الاراضي القرطاجية .

طاردت روما حن بعل بعد ذلك حتى غادر قرطاجة ، ولجأ الى السلوقيين في سوريا . ثم هرب مرة أخرى الى ملك صغير على البوسفور . فلما شعر انه يفاوض الرومان لتسليمه انتحر سنة ١٨٣ ق . م .

الحروب البونيقية الثالثة
(١٤٩ - ١٤٦ ق . م)

كان سببها المباشر توسع ملك نوميديا في الاراضي القرطاجية ووقوف قرطاجة للدفاع عنها . وسببها الحقيقي عودة النشاط التجاري والغنى الى المدينة المهزومة . وفي سنة ١٤٩ ضرب الجيش الروماني الحصار عليها . ودافعت بشراسة وبطولة كبرى عن نفسها ، ولكنها في النهاية انهارت أمام الدمار والحريق والقتل . وأمر سيبيو (الثاني) بحرث أرضها بالمحراث ورشها بالملح كي لا تزرع ، وصدر قرار مجلس الشيوخ الروماني بلعن الأرض ومن يعيد بناءها (٥) .

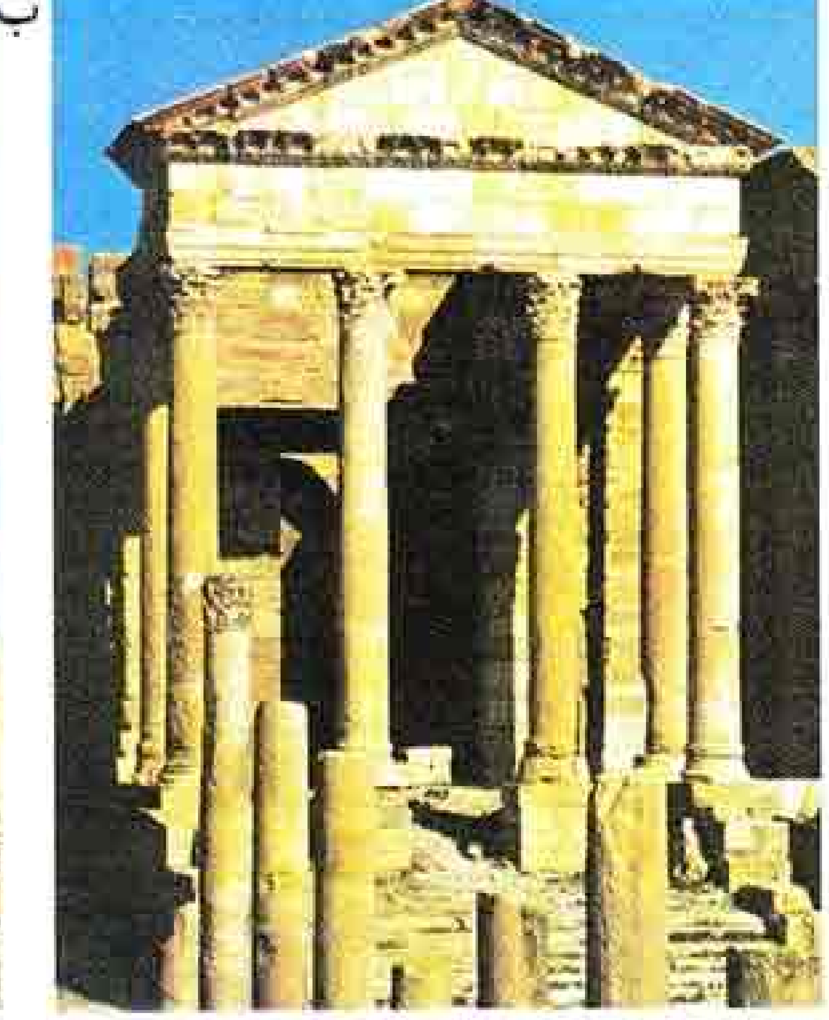
انتهى الحقد الروماني بتحول افريقيا ولاية رومانية ، وبسط الحماية على مملكة نوميديا ايضا التي اصبحت مفتوحة لتجارة الرومان مع البربر . منيت نوميديا بالتقسيم أكثر من مرة بين ورثة الملك . لكنها توحدت مرة تحت حكم يوغرتا (١٥٠ - ١٠٤ ق . م) الذي أراد أن يوحد المغرب كله ، واحتل سرت . وأرسلت عليه روما حملتين تأديبيتين لم تستطيعا النجاح ضده . الى أن قاد ماريوس الروماني حملة (سنة ١٠٧ ق . م) هزمه فيها وأسره . وعند ذلك ضمت نوميديا الى الامبراطورية المتوسعة .

شمال افريقيا والاستعمار الروماني

بعد تدمير قرطاجة سنة ١٤٦ ق . م ، صارت افريقيا طعمة لروما . قسمتها أربعة أقسام ؛ ولاية افريقيا (قرطاجة) تحت حكمها المباشر ، مملكة نوميديا الحليفة وعاصمتها قرطة (قسنطينة) ، موريتانيا القيصرية في غرب الجزائر وعاصمتها أيول (شرشال) ، وولاية المغرب (موريتانيا الطنجية) في النهاية حول طنجة .

بعد قليل من سقوط قرطاجة ، أدرك مسينيسا ملك نوميديا أنه قد وقع في الحبائل الرومانية القوية التي تتدخل في مملكته . حكم ثلاثين عاما (حتى سنة ١١٨ ق . م) دون أمل كبير في الخلاص . ثم اختلف ورثته ، حتى جاءت بعثة رومانية قسمت

١ أ



ب

(١) ـ بنى الرومان ، بعد قيام الامبراطورية ، مجموعة من المدن في شمال افريقيا ، كان أغلبها في ابتداء أمره معسكرات تتحول ، بتكاثر الناس فيها حول السلطة والمصالح ، الى مدن . كان من عادة الأباطرة ان يثبتوا وجودهم وعبادتهم في مختلف أنحاء الامبراطورية باقامة الأبنية المتصلة بالنظام الامبراطوري والحياة العامة الرومانية في المدن ، وهي جميعا متماثلة في المخطط والشكل العام والتزيين بالتماثيل والزخارف . من ذلك هياكل العبادة والطريق الرئيسي في المدينة والساحة العامة (الفوروم) وحلبة الألعاب الدائرية والمسرح نصف الدائري والحمامات وأقواس النصر لتمجيد النصر الداخلي او الخارجي والاسوار للدفاع . (أ) جانب من ساحة المعبد في سبيطلة بتونس . (ب) قوس النصر الذي بناه الامبراطور تراجان (حكم ٩٨ ـ ١١٧ م) في مدينة تمغاد بالجزائر . وبنى العديد أمثاله في المدن الأخرى .

(٢) ـ ترك الرومان ، بعد القضاء على قرطاجة ، نوعا من الاستقلال الذاتي لبعض حكام الدولة القرطاجية السابقة . ومنهم ملوك نوميديا . ومن ملوك نوميديا يوبا الثاني (القرن الأول ق . م) والصورة هنا هي رأس كليوباترة زوجته . وهي من الفن المحلي أي البربري الفينيقي .

٢



(٣) ـ لبدة هي أولى المدن الأثرية في ليبيا . ومن الراجح انها كانت ، في القرن الثاني

البلاد بين اثنين منهم سنة ١١٦ م . في السنة التالية ، ثار أحدهم : يوغورتا . احتل القسم الشرقي ووحد افريقيا . طرد التجار الرومان . تفادى الحملة الرومانية الاولى بالرشوة . لكنه اضطر في النهاية الى قتال روما سنة ١٠٩ ق . م . وهزم الى الجبال ليقود الثورة ضدهم . انتهى في حفلة غدر . تآمر القائد الروماني سولا مع بوخوس ملك المغرب ، فدعا يوغورتا الى عشاء وقبض عليه سنة ١٠٥ ق . م ليصلب في شوارع روما (ولينال بوخوس أجرته قطعة من أملاك نوميديا) .

عصر الثورات

قامت بعد ذلك ثورة في افريقيا امتدت من لبدة الى اقصى المغرب ، فأخمدت بأقصى العنف العسكري . ثم قامت ثورة ثالثة ، سنة ٤٩ م ، جاء يوليوس قيصر بنفسه لاخمادها (معركة تابسوس سنة ٤٦ ق . م) .

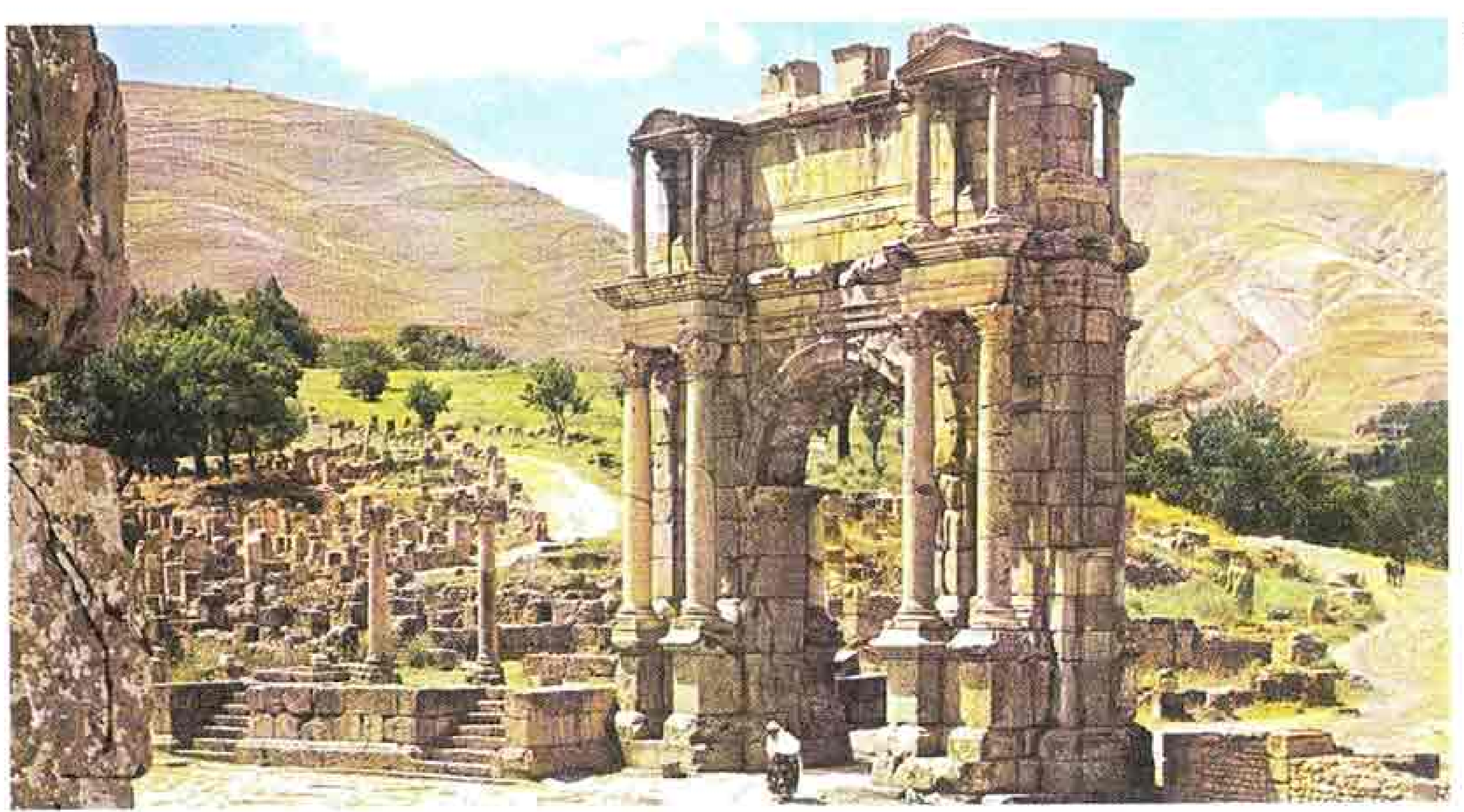
٣



قبل الميلاد . المدينة الرئيسية في المنطقة ، تتاجر بالعاج والحجر الكريم والريش والوحوش للمصارعة . وتصدر النسيج والفخار والأسلحة والزجاج . يوم كانت مرتبطة بقرطاجة ، صمدت في وجه ملك نوميديا الافريقي . واستمرت قائمة بعد خراب قرطاجة . ثم انضوت تحت حكم المملكة النوميدية بصفة استقلالية ، وأخيرا اصبحت جزءا من ولاية افريقيا الرومانية . فرض عليها يوليوس قيصر سنة ٤٦ ق . م غرامة كبيرة جدا لتعاونها مع خصمه بومبي ، وكانت من الزيت . عنى الامبراطور سبتميوس سفيروس كثيرا بهذه المدينة التي ولد فيها ، فبنى فيها الفوروم وحلبة الالعاب وقوس نصر . البيزنطيون جددوا ووسعوا سورها الذي بني في القرن الأول فضيّق مساحتها . لبدة الآن غابة من الأعمدة والآثار . المنظر لمسرحها الذي بني حوالى ٢٠٠ م . والذي ما يزال محتفظا بالكثير من عظمته .

أعانه عليها بوخوس الصغير ملك المغرب (موريتانيا القيصرية) وغودا ملك المغرب الأقصى (موريتانيا الطنجية) . كانوا جميعا ضد يوبا الأول ملك نوميديا فهزم . ودمر يوليوس قيصر البلاد وحولها على هواه : نوميديا الشرقية ، سماها افريقيا الجديدة ووضعها تحت الحكم الروماني المباشر ، ونوميديا الغربية وضعت تحت الحماية ، وأدمجت مع المغرب وأعطيت لبوخوس الصغير ، أجير الرومان .

حين وصل الامبراطور اغسطس الى الحكم ، أعاد تأسيس قرطاجة وتولى بنفسه الاشراف على الولاية الجديدة التي أضحت تضم لبدة وطرابلس وصبراته ، والتي صار اسمها مملكة نوميديا ، ومنحها ليوبا الثاني (٢) الذي كان رهينة في روما منذ سنة ٤٦ ق . م . لكنه عاد فألغى المملكة ، وجمع افريقيا كلها في مستعمرة واحدة ، وأعطى

٤


(٤) ـ كان الامبراطور ترفا هو الذي أقام حوالى سنة ٩٦ ـ ٩٧ م مستعمرة كويكول (تمغاد) في موقعها الاستراتيجي في الجزائر، على أحد الوديان الفصلية . ازدهرت المدينة في عصر الانطونيين (القرن الثاني للميلاد) وبنيت فيها المباني الفخمة زمن سبتميوس سيفروس وابنه الطموح كاراكالا الذي بنى فيها هذا القوس التذكاري . كما عرفت المدينة عددا من المعابد والحمامات والمسارح .

٥


(٥) ـ منذ القرن الثاني لم تجد الفسيفساء من الرواج في أي ناحية من الامبراطورية مثل ما لاقته في شمالي افريقيا . تفنن الصناع فيها في هذه البلاد سواء في التلوين او في الرسم أو المواضيع المرسومة . النماذج الكثيرة من لوحات الفسيفساء التي اكتشفت في المواقع الأثرية ما بين برقة الى فولوبيليس (وليلي) في المغرب ، تمثل أنواع الاتقان ، وتنوع الألوان . واختلاف المواضيع . من اللوحات الاسطورية الى الزخارف النباتية الى رسوم الحيوان الى مناظر الحياة العامة . (الصورة) قطعة من لوحة تحوي عددا من الحيوانات المائية .

يوبا الثاني سنة ٢٥ ق . م مملكة موريتانيا ترضية له . فسمى الرجل عاصمته قيصرية تكريما لقيصر . ويجب أن نضيف أخيرا لاستكمال الصورة : مملكة جرما التجارية التي تشبه تدمر على حدود الصحراء ، وولاية برقة (قوريني) . لكن البلاد نفسها كانت قد دخلت في ليل الاستغلال الروماني الطويل سبعة قرون . ونزفت البلاد ، كما نزفت روما طويلا ، لأن العسكرية الرومانية لم تكن تحارب ضد جماعات بدائية ولكن ضد مجتمعات عريقة الحضارة وصعبة المراس في آن واحد . لهذا كثرت الثورات الدامية خلال معظم عصر الامبراطورية الرومانية . من أهمها ثورات برقة سنة ١١٥ ، وموريتانيا سنة ٣٧٢ م وسنة ٣٩٦ م ، ولم تستطع روما قمع هذه الا بالتآمر الذي انتهى بانتحار زعيمها .

مدن الآثار الرومانية

أهم المدن الممتلئة اليوم بالآثار الرومانية على طول البلاد في شمالي افريقيا من الاسكندرية وبرقة حتى اقصى المغرب ، وهي قورينية ، سرت ، لبدة (٣) ، طرابلس ، صبراته ، قرطاجة ، سبيطلة ، حتى تمغاد (١) وفولوبيليس ، كلها كانت مواقع مدن حضارية سبقت الرومان ، وان سكنها الرومان ، وشغلوا أهلها بالبناء والعمران على الطريقة الرومانية ، فأقاموا لهم المسارح والحمامات والساحات والتماثيل والفسيفساء (٥) وغابات الاعمدة والأقواس . معظم هذه المدن الرومانية انما عمل الرومان على بنائها لتكون حصونا دفاعية عن الامبراطورية . كانت حزاما من القواعد العسكرية الثابتة ومقرا للحاميات . فشمال افريقيا كان احد مصادر ثلاثة لتموين روما بالقمح ، كما كان طريق القوافل التجارية الى البحر المتوسط وموانىء لأساطيل التجارة والحرب . حاول الرومان مرات اختراق الصحراء الكبرى وقادوا الحملات ضد الجرمنت . أقاموا عشرات مشاريع الري والمناجم . حاولوا كل استثمار ممكن . حياة الترف التي عاشها الرومان في القرون الثلاثة الاولى للميلاد كانت مرتبطة بدوام نزف الشعوب المحكومة حول المتوسط . شعوب الامازيغ (= الاحـرار) سماهم الرومان بالبربر والصقوا بهم هذا الاسم الى اليوم .

الرومان والشمال الافريقي

الامبراطورية الرومانية كانت في واقعها مؤسسة عسكرية استغلالية ، آخر ما تهتم به ، الفكر والثقافة للشعوب المحكومة . اذا استثنينا الابنية التي أعطت العصر الروماني طابعه الخاص ، فانا لا نكاد نجد لروما من أثر باق في شمال افريقيا .

بالمقابل ، وخلال عصر المقاومة العنيدة الطويلة ، استطاع شمال افريقيا أن يبعث الى روما بامبراطور هو سبتميوس سيفروس (٦) من أهل لبدة . كان قائدا للجيش في سوريا واختير امبراطورا ، فمنح شعوب المستعمرات حق المواطنة ، ومنع احتكار الرومان للمناصب القيادية ، وأقام على عرش روما أسرة ليبية - سورية كان منها ثلاثة أباطرة (١٩٣ - ٢٣٥) .

حين انتشرت المسيحية ، في القرن الثالث ، أخذت المقاومة لروما الشكل الديني . وتفاقمت الثورات بعد ذلك ، لكنها اتخذت منحى آخر .

المشرق و روما

كانت مملكتا السلوقيين والبطالمة في القرن الاول ق . م قد دخلتا مرحلة الضعف والانهيار ، شكل ضعفهما نوعا من الفراغ السياسي لم تكن روما العسكرية الطامحة لتهمل استغلاله . تدخلت في الشؤون الداخلية للدولتين وفي شؤون الدول الصغرى المنتشرة في آسيا الصغرى واليونان والجزر . كل همها انصرف الى ضمان السيطرة التجارية الكاملة على موارد الغذاء وبضائع الترف من المشرق الغني . لكن ضعف القوى السياسية ادى الى انتشار القرصنة بشكل واسع لدرجة انه صارت للقراصنة قوتهم البحرية الدولية واساطيلهم ومدنهم الساحلية . قلقت روما واضطرت ، بعد فشل عدد من المحاولات ، الى تكليف

١ أ



ب



ت



٢ أ

ب



ت

ث



(١) ـ تزخر متاحف المشرق العربي بعدد من القطع الأثرية التي تعود الى العصر الروماني وتلقي الضوء على مهارة اليد الحرفية فيه ورهافة الذوق الفني . « الخوذة » (أ) المعروفة بخوذة حمص لأنها وجدت فيها . هي قناع من الفضة للوجه مع غطاء حديدي للرأس بينهما طوق فضي بشكل اكليل غار . وتعود الى القرن الأول . أما القطعة الأثرية البرونزية (ب) . فوجدت في بانياس (الجولان) ويطلقون عليها اسم الأميرة ، ولعلها من القرن نفسه . وأما التمثال (ت) . فهو لمنيرفا ـ اللات معبودة الحكمة والفنون والنصر تحمل ترسا وقد ضاع منها الرمح الذي كان في اليد الأخرى . التمثال من حجر البازلت البركاني الأسود . وجد في السويداء ويعود الى القرن الثاني . هذه القطع موجودة في متحف دمشق .

---

(٢) ـ مثل هذه المناظر الأثرية أمر عادي في جميع انحاء سوريا . الغنى الناجم عن الحركة التجارية والصناعية والزراعية فيها في القرنين

قائدها بومبي حسم هذه المشكلة . وتعهد القائد ونجح الى حد ما في قمع القرصنة خلال ثلاثة أشهر سنة ٦٧ . فكلفته روما بالمهمة السهلة : تنظيم المشرق . فلباها باحتلال سوريا والغاء المملكة السلوقية سنة ٦٤ ـ ٦٣ ق . م . وكان يعد العدة لاحتلال البتراء ، لكن الحارث الثالث ، المؤسس الحقيقي لقوة الأنباط صده . فاحتل بومبي القدس وترك للحارث حكم دمشق .

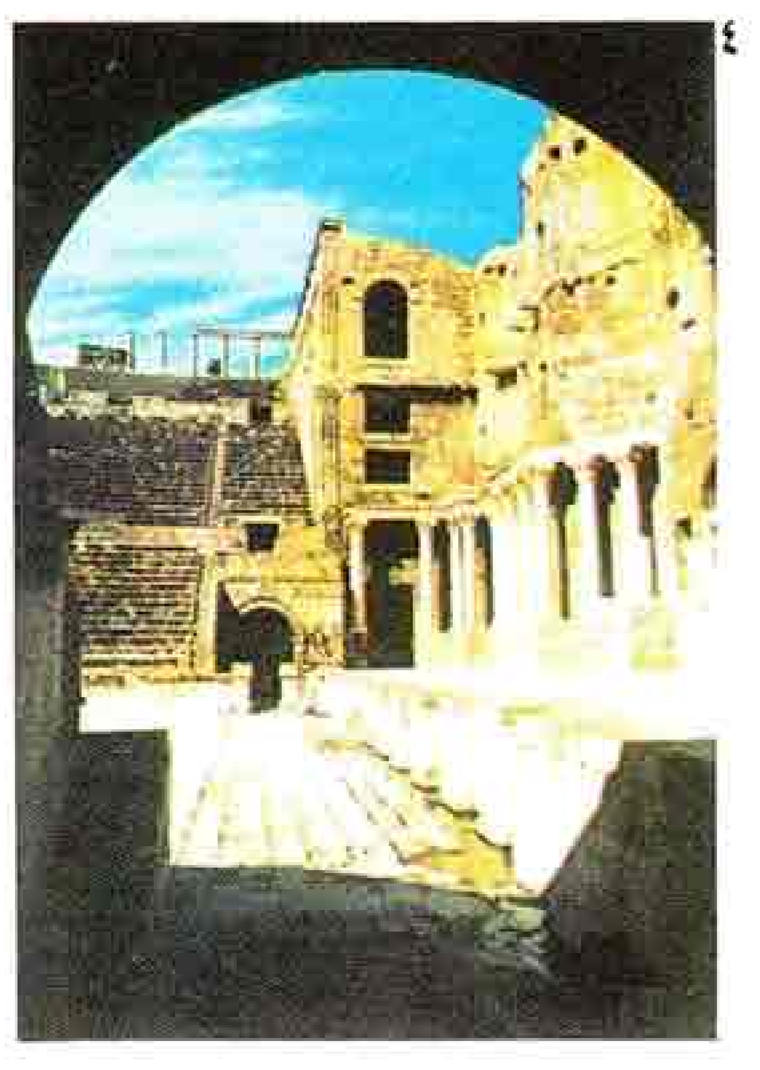
البحر المتوسط بحيرة رومانية

بعد اثنتين وثلاثين سنة أخرى ، اكتمل تطويق الامبراطورية الرومانية لشواطىء البحر المتوسط باحتلال مصر سنة ٣١ ق . م وانهاء المملكة البطلمية . صار المتوسط بحيرة رومانية . وسيطرت روما على مصبات تجارة الشرق ، مما أعطى سوريا ومصر شأنهما الهام ضمن اطار الامبراطورية . كانتا ، مع افريقيا ، عنابر الغلال الثلاثة التي تمون روما

٣



٤



الميلاديين الثاني والثالث خاصة منحها الكثير من القوة . واذا كانت قوتها قد أوصلت ، من الناحية السياسية ، أسرة سورية من حمص وامبراطورا من شهبا لحكم روما ، فانها ، من الناحية العمرانية ، ملأت البلاد بمجموعات واسعة من الأبنية . تناولت حتى البلدان الصغيرة . في زاوية جبلية محدودة من سوريا نجد مثلا : شهبا ، بلدة فيليب العربي . صارت لها أسوار وأبواب (أ) وحمامات ومعبد ومسرح (ب) وطريق معبدة ، وبلدة قنوات بنى فيها معبد للشمس (ث) في القرن الثاني ومجموعة من المعابد (ت) المزخرفة عدا المسرح والبوابة الغنية بالنقوش البارزة وعشرات اللوحات من الفسيفساء . يتكرر ذلك في السويداء وبلدان سليم والمشنف وفي بصرى . كل ذلك في رقعة محدودة لا تجاوز ٢٠ ـ ٣٠ كم في الطول والعرض . ويتكرر الأمر نفسه في انحاء فلسطين والأردن ومناطق سوريا الأخرى .

---

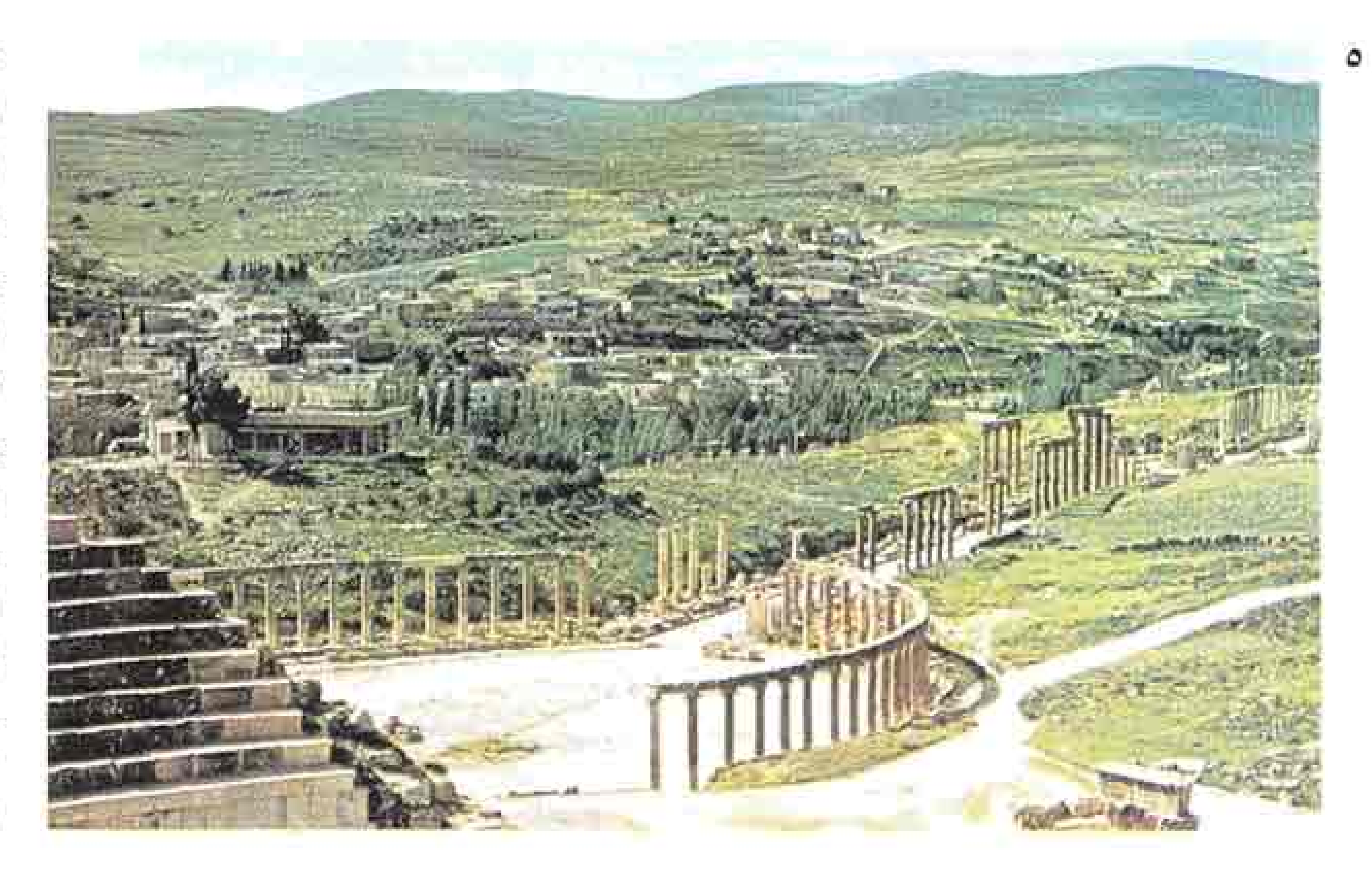
(٣) ـ بعلبك هو الاسم القديم الآرامي (بعل بعقوتو = اله البقاع) للمدينة التي سميت خلال العهد الهليني ـ الروماني هليوبوليس (= مدينة الشمس) . المعبد الذي أعطى بعلبك الى اليوم شهرتها الضخمة كان في الأصل لعبادة حدد معبود الآراميين . بدأ توسيع المعبد في أواسط القرن الثاني م . وعني به كل العناية الاباطرة السوريون الذين جعلوه غاية في الفخامة والروعة . خربته الهزات الأرضية . فتحوّل بعضه الى قلعة أيام الاسلام .

(٤) ـ بعد أن أضحت بصرى سنة ١٠٦ عاصمة للولاية العربية ، ارتفع شأنها كثيرا . وأغدق عليها الامبراطور سبتميوس سيفروس ألوان الرعاية . ثم رفعت الى رتبة مستوطنة رومانية . صارت سيدة مدن المنطقة . عاشت عصرها الذهبي . بني فيها أروع وأكمل مسرح حجري في سوريا في ذلك العصر . يتسع مدرج القاعدة الحجرية لأكثر من ١٥ ألف مشاهد . المسارح الأخرى في جبيل وتدمر وأفامية وغيرها أصغر منه .

بالقمح . كما كانتا في الوقت نفسه الثغور لتلقي التوابل والبخور والافاويه والخمور والعطور والزجاج والاقمشة . وكانت البلدان العربية الاخرى من اليمن الى الانباط وتدمر والحضر والحيرة هي التي تحمل كل ذلك الى موانىء سوريا ومصر . تماما كما كانت دولة جرمة تحمل منتجات ما وراء الصحراء الكبرى الى شواطىء ليبيا وافريقيا .

لم يتدخل الرومان كثيرا في التكوينات المدنية والسياسية القديمة في سوريا ومصر . بقي ملوك العرب في سلطاتهم . كما بقيت المدن الهلينية على دساتيرها . بينما كانت الحكومة في مصر مركزية . وكان الامبراطور بالنسبة اليها ملكا ومعبودا كالفراعنة . تجلى اهتمام الرومان بالبلدين في جعل سوريا تحت حكم نائب قنصل روماني ، وفي حشد ثلاث فرق حربية في مصر ، وفي تشكيل عصبة الديكابوليس (المدن العشرة) في

٥



(٥) - موقع جرش قديم السكنى يعود الى العصر الحجري الحديث . برزت كبلدة صغيرة في القرن الثاني ق . م . وعني بها السلوقيون حتى صارت بلدا هاما . منذ بدء العصر الروماني تطورت المدينة في العمران كل التطور وبني فيها السوق والساحة العامة والحمامات والمعبد قبل أن ينتهي القرن الأول للميلاد . كانت ثروتها قد ازدادت جدا بالتجارة . وصارت تقام فيها الاحتفالات للألعاب . أما أعظم الأبنية التي ما تزال آثارها قائمة فيها . فقد بنيت في القرن الثاني الذي كان عصر جرش الذهبي . صار فيها هيكل للمعبودة ارتميس وآخر للمعبود زيوس وثالث ورابع . غير ان انهيار تدمر وتوسع الساسانيين التجاري واضطراب الصحراء وراء جرش . كل ذلك أوقف نشاطها وبالتالي غناها وعمرانها . عاد الى جرش بعض الحركة والأمن في القرن الرابع قبل أن تدخل العصر المسيحي . رغم الزلازل وغزوات التخريب تحتفظ جرش اليوم بعشرات الأعمدة الغرانيتية . (الصورة) وبقايا المعابد .

٦

(٦) - الفسيفساء كان في العهد الروماني صناعة سورية بامتياز . كثر استخدامه وكان صناعه أحيانا من الرهبان او العبيد او الجنود . تفننوا في تصغير حجم قطعه المرصوفة وتلوينها واتخاذها من الحجر او الزجاج او الخلائط المعدنية مع الذهب . وكثير من المواضيع التي طرقوها كانت تتناول بعض الاساطير الاغريقية . كاللوحة التي تعود الى القرن الثاني وتمثل أرتميس معبودة الصيد .

شرقي الأردن ، واقامة عدد من المستعمرات ـ الحصون على سيف الصحراء في جنوب سوريا .

السلم الروماني

كان عهد الفوضى الاخير أيام السلوقيين والبطالمة في سوريا ومصر ، ثم فترة الحرب الاهلية في روما ، قبل اغسطس ، قد تركا آثارهما التخريبية في المشرق . لكن عهد الاباطرة الصالحين الخمسة في القرن الأول للميلاد أعاد الهدوء والازدهار الى المشرق ، كما أفاد توحيد العالم المتمدن في زيادة عدد السكان وعودة النشاط الحضاري . تنظم الري. زادت المحاصيل . قوي العمران . وتوسعت المدن خاصة في سوريا . مئات القرى المقفرة الآن صارت في تلك الفترة زاهرة . عادت حركة التجارة العالمية وقويت الحرف (١) بسبب الطلب الشديد على العطور والجلود والحلي والأدوات المعدنية والأصبغة والزجاج والفخار والبردي والحرير .

الفنون والثقافة في المشرق

انعكس الفن على عمران سوريا خاصة . بلغ ذروته فيها في القرنين الثاني والثالث للميلاد . المدن الهلينستية والقديمة والمشتركة عرفت في تلك الفترة مجموعات واسعة من الأبنية ما تزال بقاياها تميز آثار سوريا (٢) والى حد ما الاسكندرية في مصر ايضا . بعضها مثل بعلبك (٣) وبصرى (٤) وجرش (٥) حظيت بمجموعات بنائية لم تحظ بمثلها من قبل ولا من بعد ، وقد زين كثير منها بأرقى الفسيفساء . جارتها في ذلك البتراء وتدمر والحضر . كانت كل هذه الابنية من بناء السكان المحليين الذين ذهب بعض المهندسين منهم لتزيين روما نفسها مثل ابولودوروس الدمشقي .

أسهم السوريون أيضا في النشاط الثقافي خلال العصر الروماني . ظهر منهم في التاريخ ميناندر اللاذقي (القرن الثالث) ، وفي الجغرافيا مارينوس الصوري (أواسط القرن الثاني) ، وفي الطب ارخيجينس الآفامي (أوائل القرن الثاني) ، وفي البلاغة والفكر لوكيان السميساطي (١٢٥ ـ حوالى ٢٠٠ م) ، ونومينوس الافامي المؤسس الحقيقي للأفلاطونية الحديثة ، بالاضافة الى بابنيان القانوني الكبير (القرن ٢ ـ ٣) من بيروت وزميله اولبيان الصوري .

في الوقت نفسه الذي حكمت فيه روما سوريا عسكريا عدة قرون ، كانت سوريا ترسل اليها بالمقابل :

١ ـ أسرة امبراطورية حكمتها بين أواخر القرن الثاني وأواسط الثالث .

٢ ـ دينا ألغى أديانها هو المسيحية .

لم يكن حظ مصر مماثلا لسوريا . تاريخها الروماني قصة مخزية من الاستغلال وقصر النظر . كانت روما تنظر اليها كبقرة حلوب وتستغلها استغلالا أدى الى هرب الفلاحين واقفار القرى . في القرن الثالث خاصة ظهرت في مصر مظاهر الانهيار والاضطراب التي شملت الامبراطورية كلها من حروب أهلية طمعا بالعرش ، وهجمات الجرمان وتوغلهم فيها ، وتهديد الفرس ، وانتشار الطواعين ، واجداب المساحات الشاسعة من الأرض ، وتضخم الأسعار الجنوني ، مما مهد لسقوط روما بعد أن انقسمت امبراطوريتها شطرين : الشرقي لبيزنطة والثاني في الغرب لروما .

المسيح

ولد يسوع المسيح حوالى عام ٤ ق . م . وصلب ، حسب قول النصارى وبعض مؤرخي الرومان ، خارج أسوار القدس حوالى عام ٣٠ . ولا شك انه أعطى النصرانية اندفاعها الاول ، لكن من غير المؤكد انه كان ينوي تأسيس كنيسة ما . مع الزمن ، توصل تلامذته الى الاعتقاد بأنه « المسيح » المنتظر (أي المخلص وهي اللفظة المشتقة عن العبرانية والتي تقابلها « خريستوس » باليونانية) . شخصية يسوع وتعاليمه ما زالت ، بعد ألفي سنة من أيامه ، تسيطر على الضمير الغربي والحياةالروحية في الغرب خاصة . ويوجد اليوم اكثر من ١٠٠٠ مليون نسمة في عدة انحاء من العالم يعتبرون انفسهم مسيحيين .

١



٢

(١) ـ يتجلى المسيح برفقة الياس وموسى اللذين يمثلان الانبياء والشريعة بينما يجثو بطرس ويعقوب امام النور في هذه الصورة التي وجدت في كنيسة في قبرص تعود الى القرن الثاني عشر .

(٢) ـ تمثل منحوتة من العاج تعود الى القرن الخامس النساء اللواتي ذهبن الى قبر يسوع المحفور في الصخر ، عند فجر أحد الفصح ، فوجدن انه قام من الموت .

(٣) ـ تقع كفرناحوم ، حيث ما زالت بقايا هذا المعبد ظاهرة حتى اليوم ، في الطرف الشمالي من بحر الجليل . يرد ذكرها مرارا في الاناجيل ، في معرض الكلام على بشارة يسوع .

(٤) ـ في هذه الفسيفساء من رافينا التي تعود الى القرن السادس ، يظهر المسيح متلقيا المعمودية على يد يوحنا المعمدان . والمعمودية هي وسيلة الدخول في الدين المسيحي .

(٥) ـ توجه بولس في رحلته التبشيرية الاولى الى آسيا الصغرى . وفي طريق العودة واصل رحلته الى اليونان . ثم عاد فقطع معظم المسافات ذاتها ، في رحلة ثالثة مر خلالها بحرا بكريت ومالطة وصقلية ، حتى بلغ روما .

حين كان يسوع حيا ، كان يتنازع الدين اليهودي عدد من الآراء والتفسيرات المتباينة ، التي أدت الى مناظرات ومنازعات بين بعض الفئات . وتفيد مخطوطات البحر الميت (٤) والمصادر المعاصرة الأخرى ، ان تعاليم يسوع كانت تتفق الى حد كبير مع بعض الفرق الدينية الناشطة في زمانه .

رغم الجدل الذي ما زال دائرا حول المسؤولية عن مقتل المسيح ، الذي يقول به النصارى ، فان اناجيل العهد الجديد تروي انه صلب بأمر من الحاكم الروماني ، استجابة لالحاح السلطة الدينية اليهودية . يستمد من الاناجيل ان يسوع قد أدين بتهمة التجديف (وهي جريمة كانت عقوبتها الاعدام) ، لأنه ادعى انه « المسيح » .

يسوع في التاريخ

ان سجلنا المفصل الوحيد لحياة المسيح

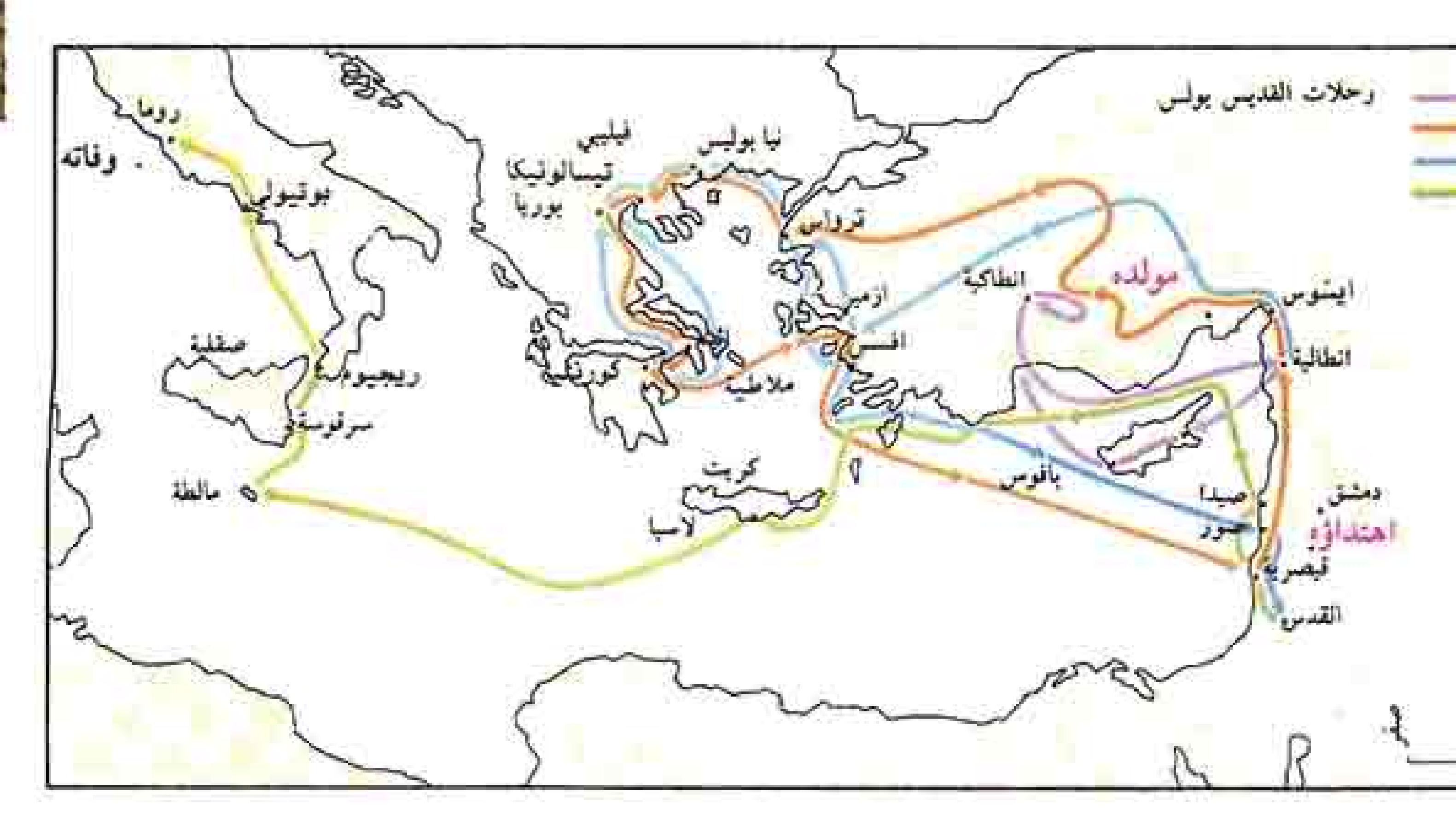
٤



٦



(٦) اكتشفت مخطوطات البحر الميت بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٦ في كهوف في فلسطين ، تقع في الطرف الشمالي الغربي للبحر الميت . وهي تحتوي على معظم أسفار العهد القديم ، وبعض الكتابات اليهودية الأخرى التي لم تكن معروفة من قبل ، وقد وضعت بالعبرانية والآرامية ، وتعود الى مجتمع رهباني في قمران . كتب معظم المخطوطات على جلد الرق وورق البردى ، ومعظمها محفوظ حاليا في متحف القدس .



هو الاناجيل الاربعة التي كتبها مسيحيون من اجل مسيحيين . فقد انتشر شفويا في بادىء الأمر ما كان يعتقد انه أقوال يسوع ، مع القصص الدائرة حول شخصه . ولا ريب ان مجموعات من هذه الأقوال والروايات دونت فيما بعد . ثم كتبت الاناجيل الاربعة استنادا اليها . وضعت هذه الاناجيل باليونانية ، ما عدا انجيل متى الذي صنف باللغة الآرامية الدارجة آنذاك بين اليهود ، والتي كان يسوع يتكلم بها . كُتب أول الاناجيل ، وهو انجيل مرقس ، حوالى عام ٦٣ .

تعطينا هذه الأناجيل تاريخاً مؤولا الى حد كبير ، ومن المستحيل فيه فصل الوقائع التاريخية عن تأويلها . من الطريف ان اولى الوثائق المدونة (رسائل القديس بولس وانجيل القديس مرقس) لا تصف ولادة المسيح . لكن ، حسب روايتي القديسين لوقا ومتى ، ولد المسيح في بيت لحم من ام بتول

٧



(٧) ـ أقام يسوع احتفالا بعشائه الاخير مع تلامذته ، في الليلة التي سبقت قضية صلبه . هذه الوجبة هي الاحتفال المسيحي المميز المدعو بعشاء الرب ، او القربان المقدس . تعود هذه الفسيفساء من رافينا الى القرن السادس ، وتبين ١١ تلميذا متكئين مع المسيح ، وقد تكون السمكتان تمثلان معجزة اطعام الحشود المعروفة . لكن السمك كان رمزا مسيحيا شائعا.

٨

(٨) ـ بدأت المسيحية تنتشر بين اليهود في مقاطعة الجليل الشمالية ، بعيدا عن القدس ، المركز الديني آنذاك . أمضى يسوع معظم سني دعوته بين أهالي الريف البسطاء . تذكر بعض الروايات ان بعض الرسل بلغوا في اسفارهم بلاد فارس والهند . كان بولس أوسع الرسل أسفارا ، يهوديا ، ولكنه كان مواطنا رومانيا أيضا . ولد في طرسوس (وهي في تركيا اليوم) ، وحمل تعاليم الانجيل الى آسيا الصغرى واليونان .

هي مريم ، بعد ان حملت به بقوة روح الله الخلاقة . كانت المدينة التي نشأ فيها يسوع هي الناصرة الواقعة في الجليل (٨) واليها ينسب ومنها جاء اسم النصرانية .

عندما بلغ يسوع سن الثلاثين تقريبا ، عام ٢٦ ، تلقى المعمودية على يد ابن خالته يوحنا المعمدان (٤) . واعتزل اثر ذلك في الصحراء . بدأ تعليمه في الجليل ، شافيا المرضى جسديا وعقليا ، ومناديا بقرب حلول ملكوت السماوات (او بعبارة أدق : ملك الله) .

يجد العديد من الناس جوهر تعاليمه ملخصا في « الموعظة على الجبل » ، تؤكد هذه الموعظة على الحاجة الى الولادة الروحية الجديدة ، وتنوه بالصلاح البطولي الذي ينتج عن ذلك . تتصف تعاليم يسوع بصراحة مثيرة فيها الكثير من التحدّي المباشر . فهو يدعو الناس الى التخلي عن حرفية الشريعة اليهودية ، والتمسك بروحها ، مما أدى به الى انتقاد زعماء اليهود انتقادا شديدا .

اعتقاله وصلبه

مهما كان الطابع الذي اتخذته انتقادات يسوع لزعماء اليهود ، فقد اعتبرته السلطات الدينية اليهودية عدوا مثيرا ، مما كان من شأنه ان يقلق السلطات المدنية (الرومانية) ، التي خشيت ان يؤدي ذلك الى اضطرابات ، نظرا للتأييد الشعبي الواسع الذي صار يتمتع به يسوع . من المحتمل انه ادرك حينذاك ان حياته اصبحت في خطر . ولما زار القدس ، حوالى عام ٣٠ ، للاحتفال بعيد الفصح اليهودي ، اعطى أعداءه ذريعة للقبض عليه ، عندما هجم على الصرافين والباعة وطردهم من الهيكل . قبض عليه حراس الهيكل آخر الأمر ، حين كان يصلي في بستان الزيتون في جتسمانية . سلمه الزعماء اليهود الى الحاكم الروماني بيلاطس البنطي الذي أمر بصلبه (وهي الطريقة الرومانية لاعدام العبيد والمجرمين الوضيعين) بين لصين ، على تلة اسمها الجلجلة . والنص القرآني صريح في قوله : « وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

الكنيسة الأولى

منذ اليوم الثالث بعد الصلب الذي تذكره الاناجيل ، اقتنع اتباع يسوع كل الاقتناع بأنه حي . وبالرغم من اعتقادهم انه انتقل الى مجده السماوي ، كانوا واثقين انه ظهر لهم ، وتكلم معهم شخصيا . بعد ذلك بقليل انتشرت انباء تقول ان بعض النسوة ذهبن الى قبره لمسح جسده الميت بالزيت ، الا انهن وجدن القبر فارغا الا من الأكفان .

في عيد الحصاد المعروف بالعنصرة ، بعد الصلب بحوالى خمسة اسابيع ، اعتقد التلامذة ان روح الله قد حل فيهم ، وان يسوع المرتفع الى السماء هو الذي أرسله اليهم . ومنذ ذلك التاريخ ، راحوا يبشرون بان يسوع هو المسيح المصلوب والقائم من الموت ، وان الخلاص الأبدي يمنح للجميع بواسطته .

بطرس وبولس هما أبرز الحواريين . فعلى جهدهما ، خاصة ، قامت الكنيسة المسيحية . اهتدى بولس الى حقيقة تعاليم المسيح بطريقة عجائبية وهو في طريقه الى دمشق ، وأصبح الرسول الرئيسي الى الأمم (الشعوب غير اليهودية) . كان بولس مواطنا رومانيا يتكلم اليونانية ، وهو الذي بدأ عملية تحويل المسيحية الى ديانة عالمية لجميع البشر .

الأدب الروماني

في القرون الثلاثة الأولى من تطور روما ، كان لليونان المحتلة تأثير واسع على الأدب الروماني . كان الرومان انفسهم يقولون ان ادبهم نشأ اصلا على يد رجل يوناني اسمه ليفيوس اندرونيكوس (٢٨٤ ؟ - ٢٠٤ ق . م) . فقد ألف هذا الرجل مآسي وهزليات (كوميديات) مبنية على نماذج يونانية الأصل . وترجم « أوديسة » هوميروس مستعينا بوزن ايطالي كان يدعى الزُحَلي (نسبة الى زُحَل) .

التأثير الهلّينستي

آذنت نهاية الحرب البونيقية الأولى ببداية الانتاج الادبي في روما . ومع ان ملحمة

١



٢

(١) - يجلس فرجيل بين رمزي المأساة والتاريخ . في هذه القطعة من الفسيفساء التي تعود الى القرن الثالث ، والتي عُثر عليها في سوسه بتونس ، يمسك فرجيل بلفيفة من ورق البردي من ملحمة « الانياذة » ، تظهر فيها كلمات من الكتاب الاول حيث يتضرع الشاعر الى ربّتي الشعر كي تخبراه عن السبب الذي حدا بالأقدار الغاضبة ان تحكم على إينياس بأن يعاني كل تلك الآلام .

(٢) - تمثل هذه الفسيفساء ، العائدة الى اوائل القرن الخامس ، القديس امبروسيوس في الكنيسة الكبرى التي اسسها بميلانو والتي تحمل اسمه . امبروسيوس ألماني المولد (٣٤٠ ؟ - ٣٩٧) ، انتخب مطرانا لميلانو عام ٣٧٤ ، وكان واعظا عظيما . ووضع عددا كبيرا متنوعا من المؤلفات النثرية . كما انه يعتبر مبتكر الترانيم الكنسيّة اللاتينية . كتب ترانيمه التي ما زالت تُستعمل حتى اليوم . باسلوب بسيط

نافيوس (٢٧٠ ؟ ـ ٢٠١ ق . م) التي تعالج تلك الحرب ، اعتمدت الوزن الزُحَلي . فان ا بتكار إنيوس (٢٣٩ ـ ١٦٩ ق . م) للوزن السداسي (وهو وزن الملحمة اليونانية) في قصيدته الملحمية الكبرى « الحوليّات » ، هو ما وضع أسس الشعر اللاتيني اللاحق .

الا ان كاتو الأكبر (٢٣٤ ـ ١٤٩ ق . م) الذي يقال ان إنيوس علمه اللغة اليونانية ، عارض حركة تقليد اليونان هذه . كان كاتو نموذجا للأخلاق الرومانية الصارمة ، فألف أعماله بلغة لاتينية صافية الى أقصى حد ممكن .

كان بلوتوس (٢٢٥ ؟ ـ ١٨٤ ق . م) أعظم كتاب الكوميديا اللاتينية . بنى مسرحياته على نماذج يونانية الأصل ، لكنه أضاف اليها روحا فكاهية قوية واستعمل اللغة اللاتينية استعمالا رائعا . اتبع خلفه تيرنس (١٩٠ ؟ ـ ١٥٩ ق . م) اسلوبا انيقا وبذل عناية

٤







(٣) ـ اريادني ، ا بنة مينوس الكريتي ، تستيقظ على جزيرة ناكسوس لتجد ان ثيسيوس ، ا بن ملك اثينا ، قد هجرها ، بعد ان ساعدته على دخول مغارة التيه ، وعلى قتل حيوان المينوتور الخرافي (نصفه رجل ونصفه الآخر ثور) . كانت هذه الاسطورة موضوعا شائعا للرسوم الجدرانية ، في بيوت الاغنياء في بومبيي . وتؤلف اسطورة اريادني موضوعا رئيسيا ، في اطول وأجمل قصيدة من قصائد كاتولوس بعنوان « بلايوس وثيتيس » . وقد عالج اوفيد فيما بعد هذا الموضوع ايضا .

(٤) ـ تبيّن هذه الصورة كاتوليوس ، وهو يلقي رثاءه الشهير بمناسبة وفاة عصفور عشيقته المدلل . الصورة هي احدى صور مجموعة ألما ـ تاديما التي رسمها لورنس لوصف الحياة الرومانية ، بكل تفاصيلها .

(٥) ـ برز شيشرون من أصل مغمور ، حتى أصبح شخصية سياسية مرموقة في روما ، رغم الغموض الذي أحاط به . توصّل الى ذلك بالدرجة الأولى بفضل بلاغته الخطابية التي لا تضارع .

كبرى بالأشخاص . لكنه لم يحرز نجاح بلوتوس على المسرح . لم تحتل المسرحية مكانة في الحياة والأدب الرومانيين ، كالمكانة التي تبوأتها لدى اليونان ، وكان تيرنس آخر مولف لاتيني مرموق كتب للمسرح (٦) .

طوَّر لوسيليوس (١٨٠ ؟ - ١٠٢ ق . م) فن الهجاء على الأسس التي وضعها إنيوس ، جاعلا الوزن السداسي الوزن الخاص بالهجاء . كان الرومان يعتبرون هذا الفن الشكل الأدبي الوحيد الذي لم يقتبسوه عن اليونان .

أعظم الشخصيات الأدبية

أنجب القرن الأول قبل الميلاد ، وهو آخر عصور الجمهورية الرومانية ، عددا من أعظم الشخصيات في الادب الروماني . اشتمل النتاج الضخم لمرقس توليوس شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م) (٥) على خطبه وأعماله التي

٦



(٦) - صورة من القرن الثاني عشر تمثل فصلا من كوميدية تيرينس المسماة « أندريا » . وهو الفصل الذي يقول فيه سيمو لعتقائه ، فيما يكون عبيده يعدّون العدة لعرس ابنه : « العرس » ليس الا خدعة مدبرة لابنه الذي وقع في شرك غرام فتاة من أندروس .

٧



(٧) - تمثل هذه القطعة النقدية قيصر « كدكتاتور دائم » . وكان أول روماني ظهرت صورته على قطع النقد . كتب قيصر قصة الحروب الغالية والاهلية بلغة لاتينية بسيطة وأنيقة .

٨



(٨) - كان سينيكا السياسي والفيلسوف غنيا مغرورا بنفسه ، وغالبا ما وُجِّهت اليه تهمة النفاق ، لأنه لم يطبق على نفسه مُثُل الزهد العليا التي كان ينادي بها . حاول ان يطبق الفلسفة الرواقية عمليا . كمستشار لنيرون ، لكنه كرّس حياته في أخريات أيامه . عندما أخذ تأثيره على نيرون يتضاءل ، لبسط الفلسفة الرواقية في عدد من المؤلفات ، وفي « رسائله الخُلُقيّة » . كانت فلسفته مشتقة من سابقاتها لكنها أثرت في الفكر الروماني اللاحق .

تعالج البلاغة والمواضيع الفلسفية. كان صديقه، وعدوه فيما بعد، الامبراطور يوليوس قيصر (١٠٠ ؟ - ٤٤ ق . م) (٧) خطيبا بليغا ايضا. وقد ألَّف كتابا هاما في النحو. ولكن لم تصلنا الا اعماله التاريخية.

كان من معاصري قيصر الشاعران الأصغر سنا منه لوكريتيوس (٩٩ ؟ - ٥٥ ق . م) وكاتولوس (٨٤ ؟ - ٥٤ ق . م) (٣ ، ٤). يشكل اسلوب الوزن السداسي الذي استعمله لوكريتيوس في قصيدته التعليمية «في ماهية الاشياء» صلة وصل بين إنيوس وفرجيل. اما كاتولوس، فكان عضوا في حلقة اتخذت الشعر الهلينستي نموذجا لها في نظم الشعر الكئيب، الذي كان معظمه يدور على موضوع العشق، ويتبع اوزانا يونانية متنوعة. رفع سالوست كريسيوس (٨٦ - ٣٤ ق . م) فن كتابة التاريخ الى مستوى أدبي راق في مؤلفاته الخاصة بحروب كاتيليني ويوجورثا، مستخدما اسلوبا قديما لكنه أنيق.

في أعمال فرجيل (٧٠ - ١٩ ق . م) حصل الأدب اللاتيني اخيرا على نظير لهوميروس. آخر وأعظم آثاره، وهو ملحمة «الانياذة» يمثِّل صَهرا للتقليد الملحمي وللأفكار الشعرية الهلينستية الاكثر حداثة وذاتية. برز ايضا صديقه هوراسيوس (٦٥ - ٨ ق . م) الذي حظي برعاية اغسطس، بالرغم من وضاعة أصله. رفعت «قصائده الهجائية» ذلك النوع من الشعر الى مستوى أدبي ذي شأن، ونجمت «رسائله» عن تطويره الرائع لهذا الفن، فيما عرف في «قصائده الغنائية» أن يكيف بنجاح اسلوب الشعر الغنائي مع اللغة اللاتينية.

تغنَّى تيطس ليفيوس (٥٩ ق . م - ١٧ م)، وهو واحد من ألمع مؤرخي العصر، بأمجاد الجمهورية الغابرة، في كتابه «تاريخ روما». وسار أوفيد (٤٣ ق . م - ١٧ م) على نهج كاتولوس في نظم الغراميات الكئيبة، وكتب «التحولات».

انحطاط الأدب وتحوله

في نهاية القرن الأول الميلادي، أخذ الأدب اللاتيني في شكله الكلاسيكي يتدهور. يمثل نثر سينيكا (٤ ؟ ق . م - ٦٥ م) وهو روماني ولد في اسبانيا ردّة فعل ضد الاسهاب الشيشروني، تدعو الى الاقتضاب ودقة التعبير (٨). ان كتاباته، بالاضافة الى ملاحم ابن اخته لوقانوس (٣٩ - ٦٥) وستاتيوس (٤٥ ؟ - ٩٦)، تمثل حقبة ساد فيها تقليد مشاهير اللاتين واليونان. مع ذلك، فقد برز بعض الشعراء والناثرين المجددين.

يمثل تاسيتوس (٥٥ ؟ - ١٢٠)، باسلوبه الذي لا يضاهى وشخصيته القوية، ذروة الكتابة التاريخية الرومانية. وتلقي رسائل زميله بلينُس الأصغر الأنيقة (٦٢ ؟ - ١١٤) ضوءا قويا على المجتمع المعاصر، كما يفعل أيضا الكاتب الهجائي جوفينال (٥٥ م ؟ - ١٤٠) بسخريته اللاذعة ومبالغاته الشنيعة.

في القرن الثالث وما بعده، أصبح المؤلفون المسيحيون، مثل ترتوليان (١٦٠ ؟ - ٢٣٠) والقديس أغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) والقديس جيروم (٣٤٧ ؟ - ٤٢٠) أكثر المؤلفين أهمية. قُدِّر للغة اللاتينية ان تبقى على قيد الحياة، حتى العصور الوسطى، وذلك بالدرجة الأولى لأنها كانت لغة الكنيسة الكاثوليكية.

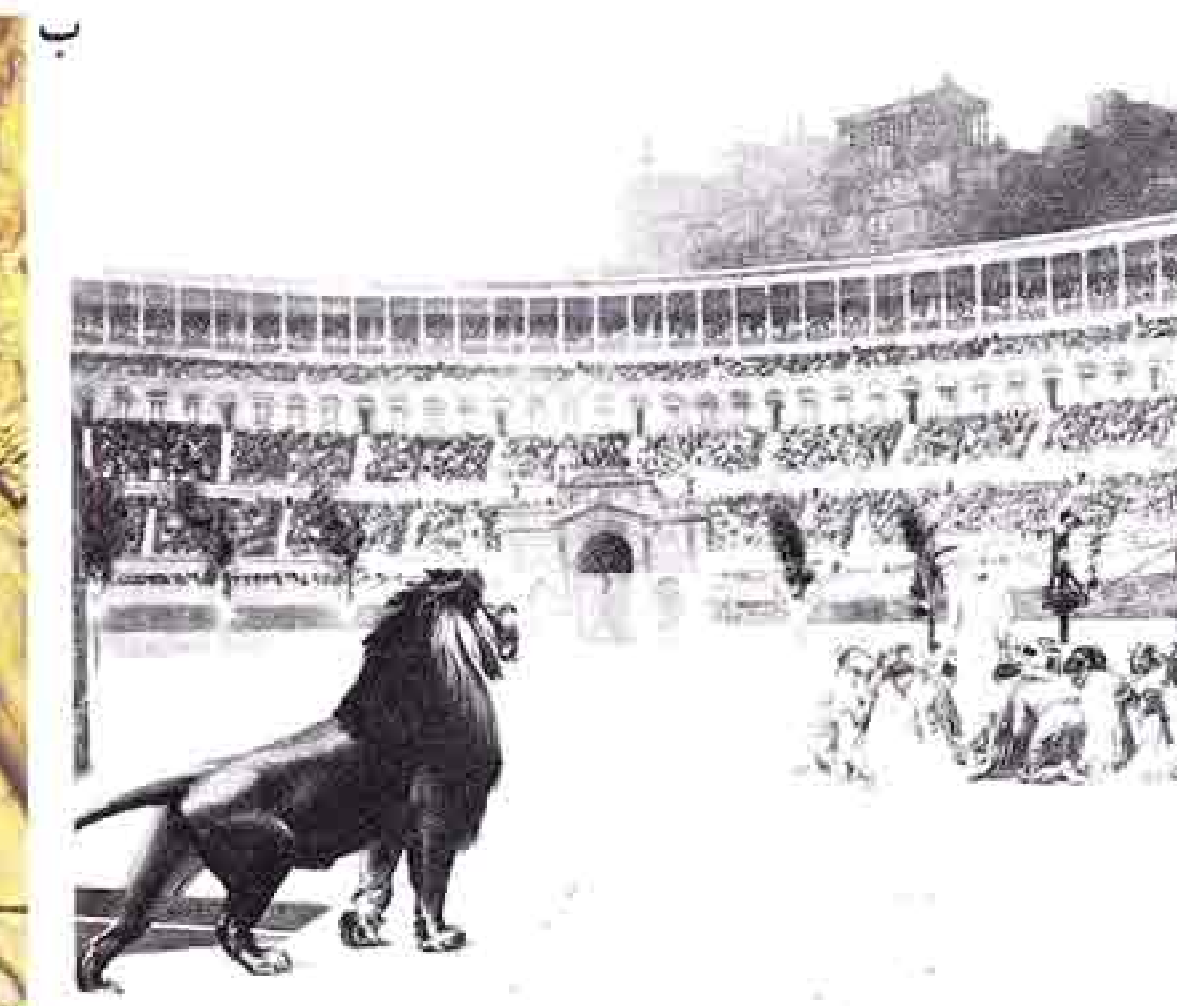
الأباطرة الجنود

بعد مقتل الامبراطور الروماني كومودوس في عام ١٩٣، تنافس على خلافته أربعة طامحين، مما أدى الى حرب أهلية مرهقة، خربت أثناءها عدة مدن كبرى، بينها انطاكية وبيزنطة وليون. ثم استتب الأمر لسبتيموس سفيروس (حكم ١٩٣ - ٢١١)، فأعيد النظام الى نصابه. الا ان القاعدة العسكرية للسلطة الامبراطورية اصبحت أشد بروزا.

الفوضى السياسية والاضطهاد الديني

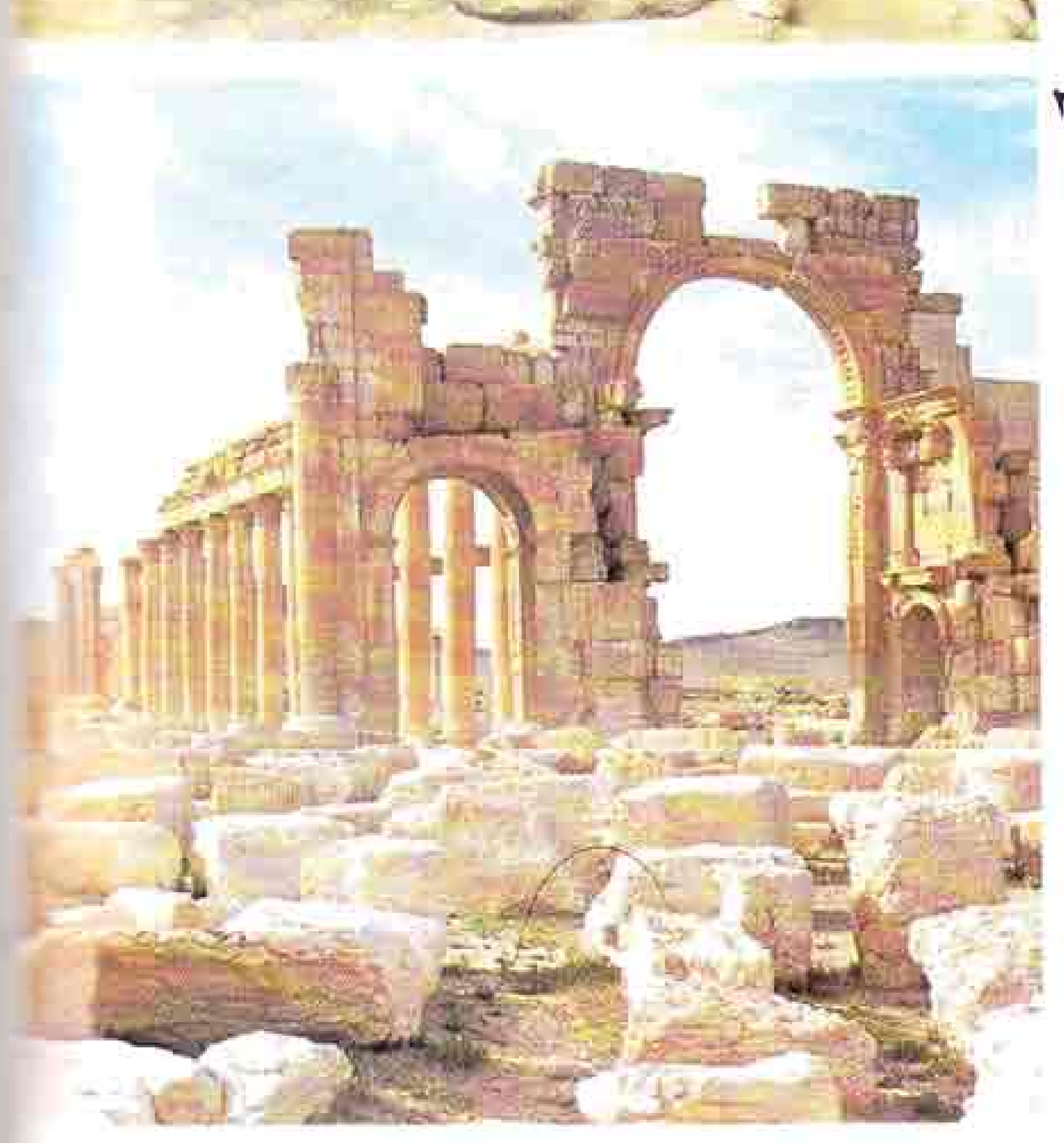
خلف سبتيموس اعضاء أسرته الملكية. لكن عدم وجود نظام ثابت للاستخلاف، وازدياد الاقتناع لدى الفيالق العسكرية ان

١ أ



ب

٢



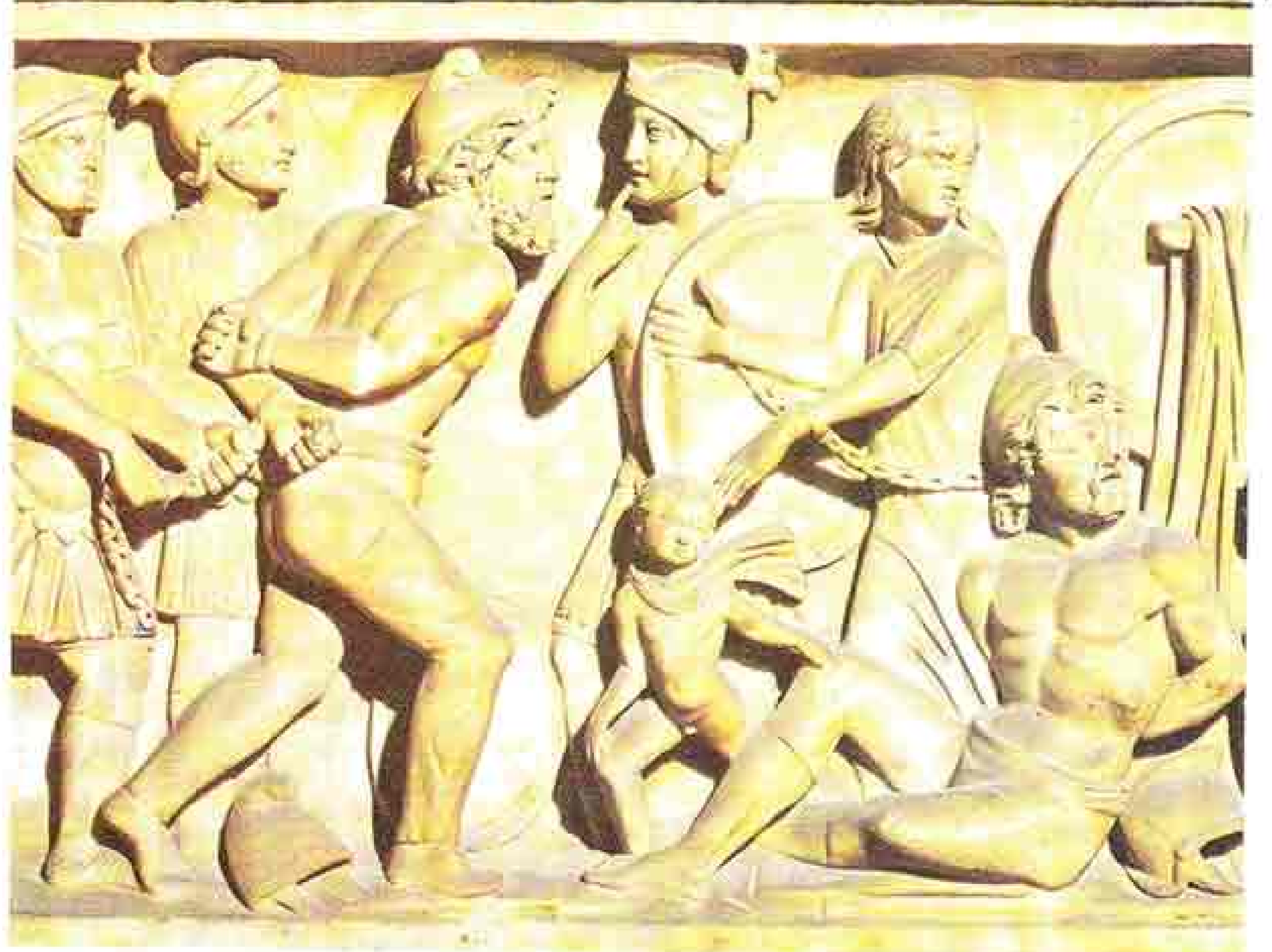
(١) - كان الاضطهاد الروماني للمسيحيين (أ) الذي بلغ أوجه في عهد ديسيوس وفاليريان، يتناقض مع التسامح الديني العام، الذي لم يكن يقيده سوى الاهتمام بوحدة الامبراطورية. كان لاتباع اية ديانة حرية العبادة، وحق التبشير لكسب المهتدين، شريطة قبولهم بتقديم الولاء والعبادة للامبراطور. ازدهر عدد من الديانات الشرقية، مثل عبادة ميثرا (ب) الا ان المسيحيين رفضوا تقديم العبادة للامبراطور فتعرضوا للاضطهاد.

(٢) - استمر تأثير الامبراطورية الرومانية كقوة حضارية، حتى بعد زوالها بوقت طويل. فأبنيتها الضخمة العظيمة، والأبنية التي بنيت على النمط الروماني في حوض البحر المتوسط، كما يبدو في هذه المباني في تدمر، بقيت شاهدا حسّيا على التأثير الحضاري المتبادل بين روما والمقاطعات. فبينما أعطت روما هذه المقاطعات الكثير من أنماط البناء، والنظم، أرسلت المقاطعات الى روما بمنتجاتها وصناعها المهرة وبعدد كبير من بناة الحضارة. بل وببعض الاباطرة ايضا الذين أوفدتهم اليها من شمالي افريقيا وسوريا خاصة.

بوسعها تنصيب الاباطرة وخلعهم ، أدّيا الى استمرار حالة من الفوضى والاضطراب ، استغلتها القوات المحلية لتنصيب من تريد من بين المتنافسين . وخلال الـ ٧٤ سنة التي تفصل بين وفاة سبتيميوس وبين تسلم د يوقليسيان (٢٤٥ ـ ٣١٣) العرش عام ٢٨٤ ، تعاقب على الحكم ٢٧ امبراطورا وعدد آخر من المغتصبين .

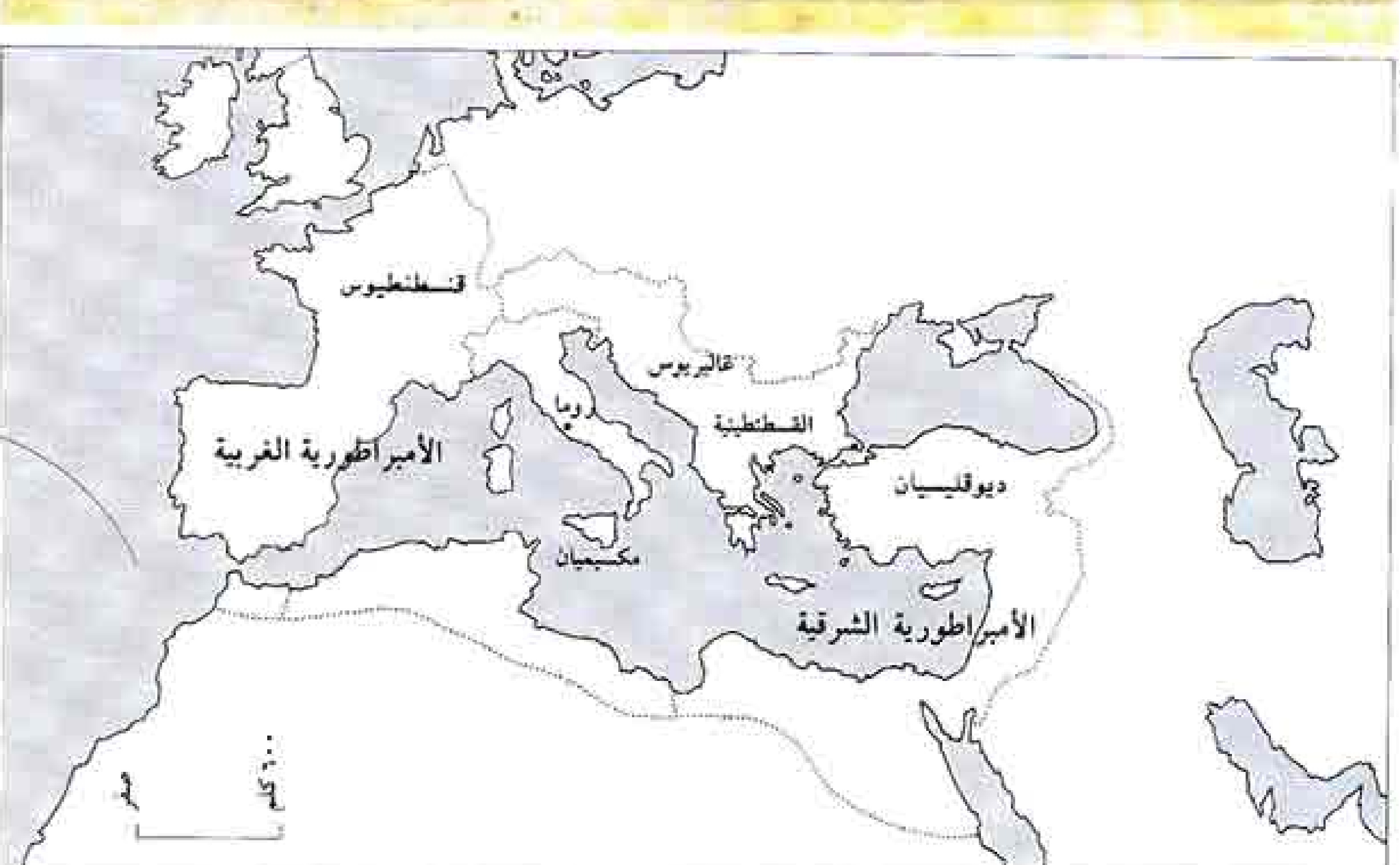
جاءت هذه الفوضى السياسية في اسوأ وقت ممكن ، لأن الجرمن « غزاة الشمال » عادوا ثانية يشددون ضغطهم على حدود الامبراطورية . ففي عام ٢٣٦ ، اجتاز الألمان والفرنك حدود بلاد الغال ، كما انطلق القوط عبر الدانوب عام ٢٤٧ ، فغزوا البلقان وقتلوا الامبراطور د يسيوس (٢٠٠ ـ ٢٥١) . امام هذه الحالة اضطر الرومان اما ان يسمحوا لهؤلاء الغزاة بالاقامة داخل حدود الامبراطورية ، او ان يدفعوا لهم الاموال لارضائهم (٣) .

٣



(٣) ـ هذه التفاصيل المأخوذة من الأضرحة الحجرية تبين جنودا يخضعون بعض الغزاة . استطاع بعض الا باطرة اثناء القرن الثالث ان يحموا الحدود ، ويدفعوا الغزاة الى ما ورائها . لكن بصورة عامة سمح للغزاة ان يدخلوا الامبراطورية ويستقروا فيها ، وينخرطوا في الجيش والبنية الادارية . خلال القرن الرابع ، واوائل الخامس ، تكوّنت ممالك من غزاة الشمال في الغرب ، واقترن ظهورها بصورة تدريجية ، وغير واضحة المعالم ، بتدهور الامبراطورية .

٤



(٤) ـ سببت اصلاحات د يوقليسيان تغييرا اساسيا في الامبراطورية فشطرتها الى شطرين يكادان يكونان مستقلين . كان هو وقيصره غاليريوس مسؤولين عن مقاطعات الدانوب والشرق الهامة ، بينما حكم مكسيميان قسطنطيوس الغرب . نقل الا باطرة مقر قيادتهم الى جوار الحدود . فحكم د يوقليسيان من نيقوميديا ، بالقرب من القسطنطينية .

في الشرق ، غزت السلالة الساسانية ، وهي سلالة فارسية جديدة ، سوريا وآسيا الصغرى ، ثم أسرت الامبراطور فاليريان (١٩٣ ـ ٢٦٠) عام ٢٦٠ (٥) . وقد اضطر ابنه وشريكه في الحكم غاليانوس (حكم ٢٥٣ ـ ٢٦٨) الى القضاء على خمسة منافسين قبل ان يستعيد المقاطعات الشرقية المسلوبة . أخيرا تخلّى اوريليان (حكم ٢٧٠ ـ ٢٧٥) عن داسيا ، الا انه شرع باستعادة حدود الدانوب والراين . ثم اكمل مهمته هذه بروبوس (حكم ٢٧٦ ـ ٢٨٢) .

رافق هذا الاضطراب انهيار الأمن الداخلي وتدهور الاقتصاد . فأصبح لا بد من البحث عن كبش فداء ، وكان المسيحيون اكثر المؤهلين لذلك . كان الرومان يتساهلون كثيرا مع اتباع الديانات المختلفة ، شريطة ان يقبلوا بعبادة الامبراطور ، وهكذا شاعت عدة عبادات شرقية ، منها عبادة ميثرا

٥


٦


٧


(٥) ـ أرغم الأمبراطور فاليريان ان يركع أمام الحاكم الفارسي . في أعظم كارثة حلت بروما في القرن الثالث . كان يرافق الفوضى الداخلية في الامبراطورية الضغط المتجدد ، من جانب غزاة الشمال في الغرب ، ومن جانب الفرس في الشرق . كما زاد في ضعف تماسك الامبراطورية لجوء المناطق المعرضة للخطر الى اتخاذ تدابير بمعزل عن روما ، لتدافع عن نفسها بنفسها .

(٦) ـ هذا التمثال الموجود في ساحة القديس مرقس بالبندقية يمثل الحكومة الديوقليسيانية الرباعية المؤلفة من اغسطسين اثنين يعانقان قيصرين ، وهما النائبان اللذان سيخلفانهما بعد ٢٠ سنة من الحكم . الفوضى والكوارث في القرن الثالث أرغمت ديوقليسيان على ادخال تغييرات كبرى على الامبراطورية . ويمكن اعتبار اصلاحاته ، وهي اولى تعديلات النظام الذي وضعه اغسطس ، تكريسا رسميا لممارسات سنوات الفوضى ، حين كان الاباطرة يردون على الغزو الشمالي والصراع الأهلي ، بصورة ارتجالية . أصبح الامبراطور ونوابه قادة عسكريين بكل معنى الكلمة .

(٧) ـ اتخذ قسطنطين الكبير القرار الحاسم بقبول المسيحية ديانة شرعية في الامبراطورية . كذلك أعاد توحيد الامبراطورية ونقل العاصمة الامبراطورية من روما الى مدينة بيزنطة (القسطنطينية) .

وايزيس . الا ان المسيحيين الذين رفضوا تقديم القرابين للامبراطور ، كانوا هدفا سهلا للاضطهاد ، واضطُهدوا بوحشية من قبل ديسيوس ، وبصورة أشنع من قبل فاليريان (حكم ٢٥٣ - ٢٦٠) (١) .

رغم جميع الكوارث ، استمرت الحياة المتمدنة وشهد القرن الثالث أعمال عدد من اعظم شارحي القانون الروماني ، مثل باولوس بابينيان الحمصي واولبيان الصوري ، بالاضافة الى انجازات أدبية هامة .

تقسيم الامبراطورية

كانت ثمة حاجة ماسة لاعادة تنظيم الامبراطورية ، وفي عام ٢٨٥ ، وضع ديوقليسيان نظاما حكوميا جديدا بكليته (٦) . قسمت الامبراطورية الى قسمين : شرقي وغربي ، يحكم كل منهما امبراطور يلقب اغسطس ، يعاونه نائب له يلقب بـ « قيصر » . كان مقررا ان يتنازل اغسطس عن الحكم بعد ٢٠ سنة وعندها يخلفه نائبه « قيصر » .

لم تجد اصلاحات ديوقليسيان حلا لمشكلة الخلافة ، فعمت الفوضى مجددا ، عندما استقال هو وشريكه في الحكم اغسطس ماكسيميان (حكم ٢٨٦ - ٣٠٥) عام ٣٠٥ . في عام ٣١٢ ، خرج قسطنطين (٢٨٥ ؟ - ٣٣٧) ، الذي كانت جيوشه تحارب تحت شعار الصليب المسيحي ، منتصرا في الامبراطورية الغربية ، من معركة الجسر الميلفياني . فما كان منه الا ان اعلن المسيحية دينا شرعيا بالامبراطورية ، اعترافا منه بالجميل . وفي عام ٣٢٤ ، لدى وفاة الامبراطور الشرقي ليشينيوس (حكم ٣١١ - ٣٢٣) أعاد قسطنطين توحيد الامبراطورية ونقل عاصمته الى بيزنطة ، التي أعيد بناؤها تحت اسم القسطنطينية . وحين جعل تيودوسيوس (سنة ٣٩٢) المسيحية دين الدولة الرسمي أصبحت الامبراطورية الشرقية والمسيحية متحدتين اتحادا وثيقا .

كان الخلاف بين شطري الامبراطورية يزداد عمقا باستمرار ، بسبب وجود غزاة الشمال في الغرب (٣) ، واقامة المزيد من قبائلهم داخل الحدود ، وقيام حكم امبراطوري مطلق في الشرق ، تهيمن عليه المسيحية .

الغزوات الشمالية الكبرى

في أواخر القرن الرابع ، تجددت الغزوات الكبرى ، وفي عام ٣٧٦ سمح للقوط الغربيين ان يعبروا الدانوب للاستيطان .

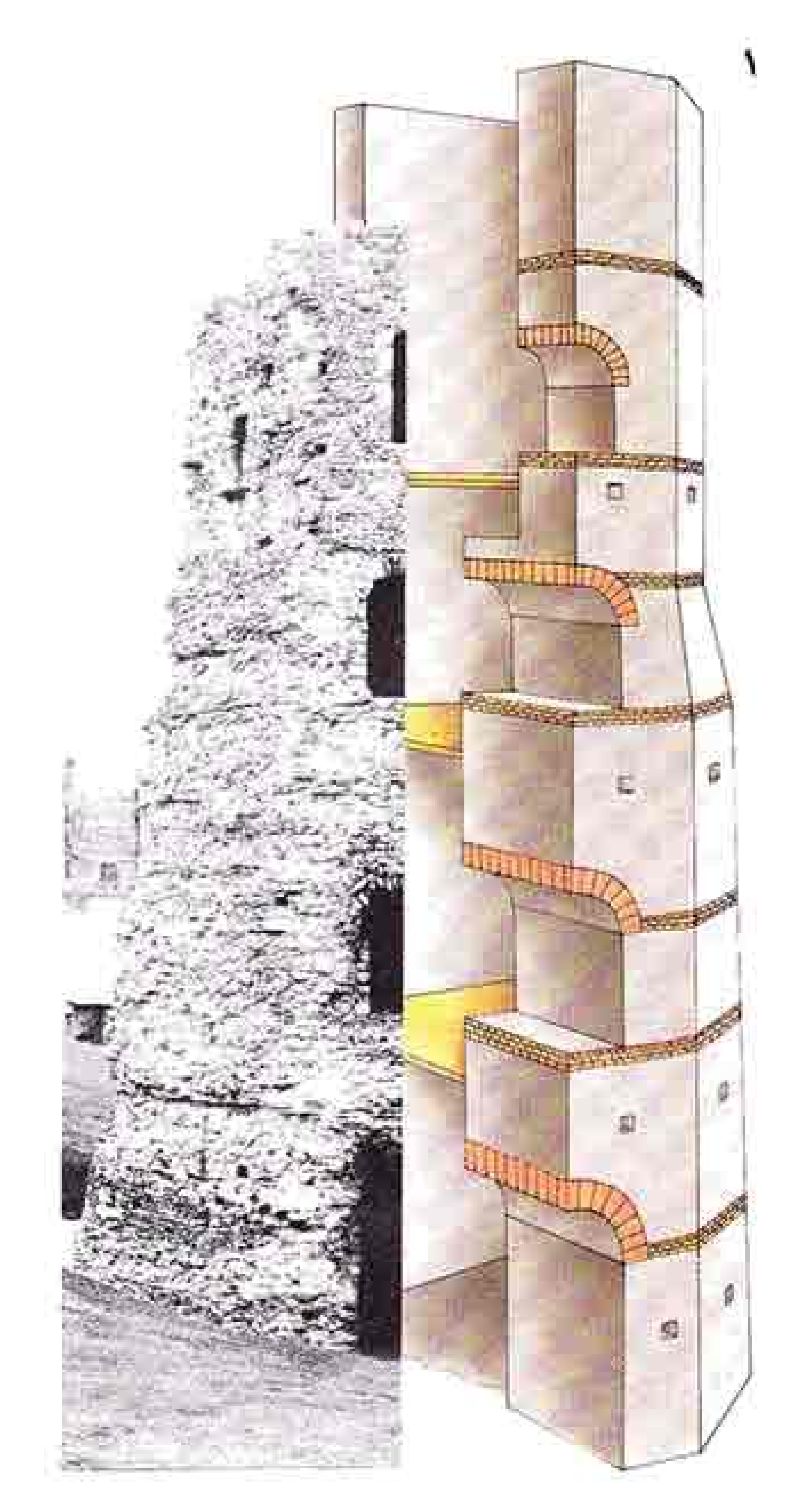
عبرت الحدود ايضا مجموعات أخرى ، فتوغل الفاندال عبر فرنسا ، ثم اسبانيا حيث لحق بهم القوط الغربيون فطردوهم وبقي منهم أسمهم للأندلس . وأقام الفاندال مملكة مستقلة في افريقيا الشمالية ، بينما احتل الجوت والانجليز والسكسون بريطانيا ، واستقر الفرنك والبرجونديون في شمالي فرنسا ، والقوط الشرقيون في ايطاليا . وفي منتصف القرن الخامس ، كانت الامبراطورية الغربية قد وقعت بكاملها تقريبا في قبضة هؤلاء الغزاة ، مع ان الادارة والثقافة حافظتا على طابعهما الروماني . لذا لم يكن مدعاة للاستغراب أن ينتخب الجنود الألمان في ايطاليا ، اودواشير القوطي الشرقي (حكم ٤٧٦ - ٤٩٣) ملكا عليهم ، لكن هذا لم يلبث ان خلع رومولوس اغسطولوس (حكم ٤٧٥ - ٤٧٦) ، منهيا بذلك حكم الاباطرة في الغرب والامبراطورية الرومانية .

بينت الدراسات الحديثة انه جرى في العهود الرومانية تلقيح متبادل بين الحضارات المختلفة . فالامبراطورية الرومانية ذاتها ، بفضل اهتمامها الكبير بالتجارة الخارجية ، وفرت روابط منتظمة بين مختلف حضارات أوروبا وحوض المتوسط وافريقيا والهند ، وحتى الصين .

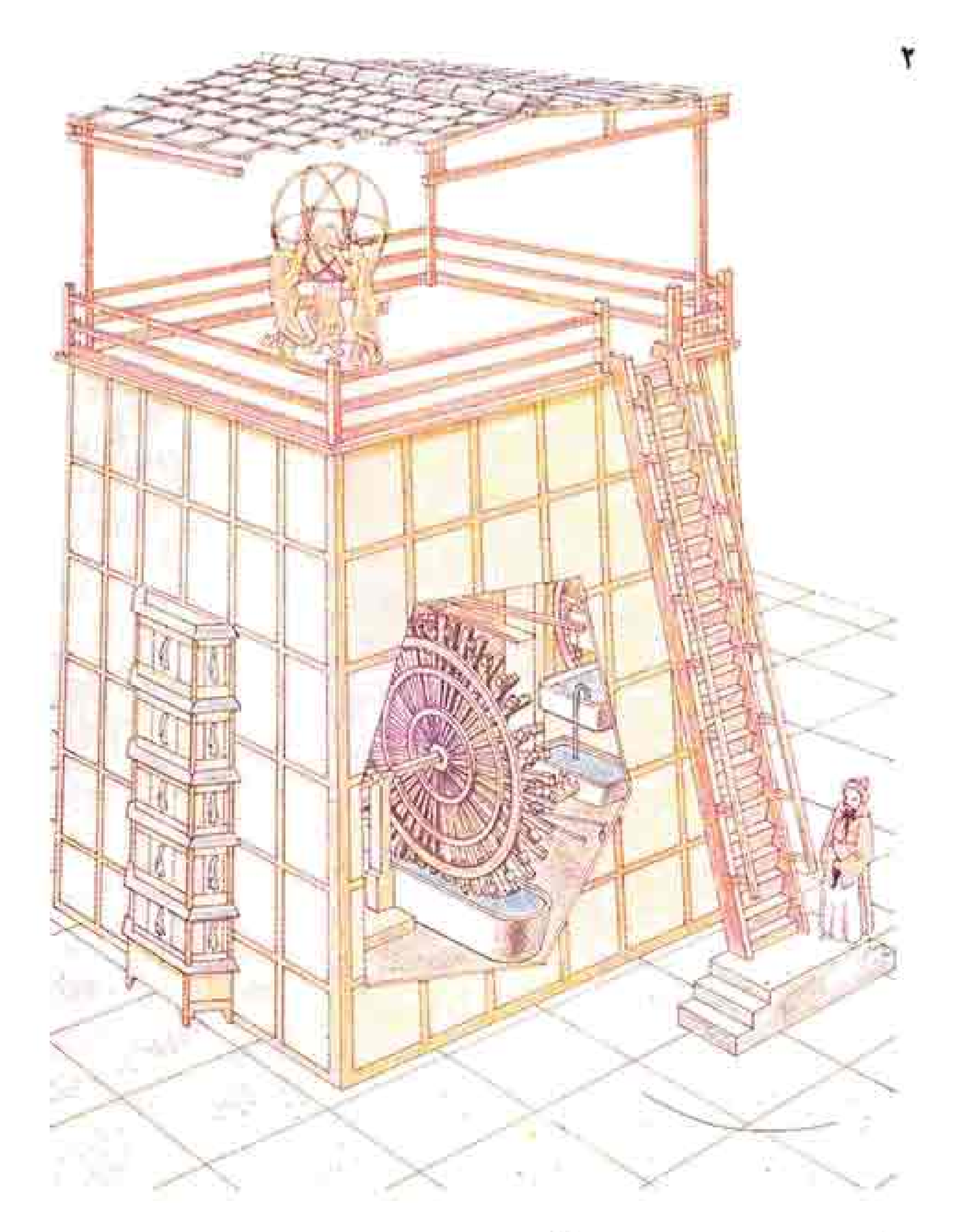
مدى تطور التقنية الرومانية

سبّب اتساع الامبراطورية مشاكل لا تحصى في مجالات حفظ السلام والحكم والادارة . أظهر الرومان براعة في هذه الأمور بتطويرهم التقنية العسكرية ، فقد بنوا مجانيق آلية ضخمة وأجهزة وأقواسا لاطلاق

١



٢



(١) ـ هذه منارة رومانية أقيمت في دوفر . وهي احدى الوسائل الفعالة لهداية السفن . انها تبين كيف كان الرومان يهتمون بالتقنيات العملية . كانت الاضاءة تأتي من نار توقد عادة من الخشب والقار في أعلى المبنى . كانت المنارة مبنية على شكل درجات . شبيهة بمنارة الاسكندرية الشهيرة (القرن الثالث ق . م) .

(٢) ـ كانت أول ساعة ميكانيكية صينية هي التي اخترعها اي هسينج في القرن الثامن . كان يحركها دولاب مائي معقد الهندسة . يقوم بدور المطرقة ، وهو سر جميع الساعات الميكانيكية . كانت الساعة معروفة في الغرب في القرن التاسع على الأرجح . وقد صنعت اولى الساعات ذات المطرقة في القرن الثالث عشر .

الأسهم ميكانيكيا كان الصينيون قد اخترعوها أصلا في القرن الثالث ق . م . كما اقتبسوا اكباشا معقدة وابراج حصار لها عجلات عن الاشوريين الذين كانوا قد اخترعوها في القرن التاسع ق . م .

امتدت الطرق الرومانية في جميع انحاء الامبراطورية . كان معظمها معبدا او مرصوفا بالحجارة ، ولها ارصفة مرتفعة وأقنية لتصريف المياه . ولما كانت الامبراطورية تشمل مناطق أكثر بردا وأشد رطوبة من روما ، فقد شاع استعمال اشكال التدفئة المركزية والحماية من الرطوبة ، على الأقل في البيوت التي بنيت من أجل الموظفين الرومان . كانت الحمامات الساخنة ايضا شائعة في المدن ومعسكرات الجيش ، في جميع أنحاء الامبراطورية . كذلك نحا الرومان منحى سوستراتوس الذي بنى في الاسكندرية منارة ضخمة في القرن الثالث



(٣) - شيّد « عمود تراجان » الامبراطور الروماني تراجان (٥٣ ؟ - ١١٧) لتخليد ذكرى انتصاراته . بُني النصب من المرمر وبلغ ارتفاعه أكثر من ٣٠ مترا . وقد اقيم في الساحة العامة بروما عام ١١٣ . تبين هذه القطعة منه جنودا رومانيين يتلقون العلاج على ساحة المعركة . هناك وفي مبارزات السيافين . تعلم جالينوس وسواه من الجراحين مبادىء التشريح.

(٤) - تظهر رافعة على هذا الجزء من « نصب تراجان » . يمكن بوضوح رؤية البكرة والحبال والرجال داخل القسم السفلي من طاحونة الدوس . بقيت رافعات كهذه تستخدم حتى مطلع العصور الوسطى .

(٥) - تطورت الكيمياء العلمية ببطء . لكن الكيمياء العملية كانت جزءا من الحياة اليومية . كما يستدل من هذه النسخة لمخطوطة عربية تبين تحضير العطور وتعود الى القرن الثاني عشر . قامت محاولات من قبل اليونان والمسلمين لتصنيف العناصر ورفع الكيمياء الى مستوى العلم الصحيح . وكتب لهذا العلم بعض النجاح على يد علماء عرب كان منهم جابر بن حيان وابن داود الانطاكي في كتابيه « تذكرة أولي الألباب » و « البهجة والدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة » . اشتهر جابر بن حيان (٧٣٧ - ٨١٣) ، بتحضيره للحامض الكبريتي والصودا الكاوية ، وفصله الذهب عن الفضة ، واكتشافه لطريقة تحضير كلورور الفضة ، مما دفع بهذا العلم قدما الى الأمام .

٥





ق . م ، فبنوا المنارات في عدد من الموانىء الأخرى (١) .

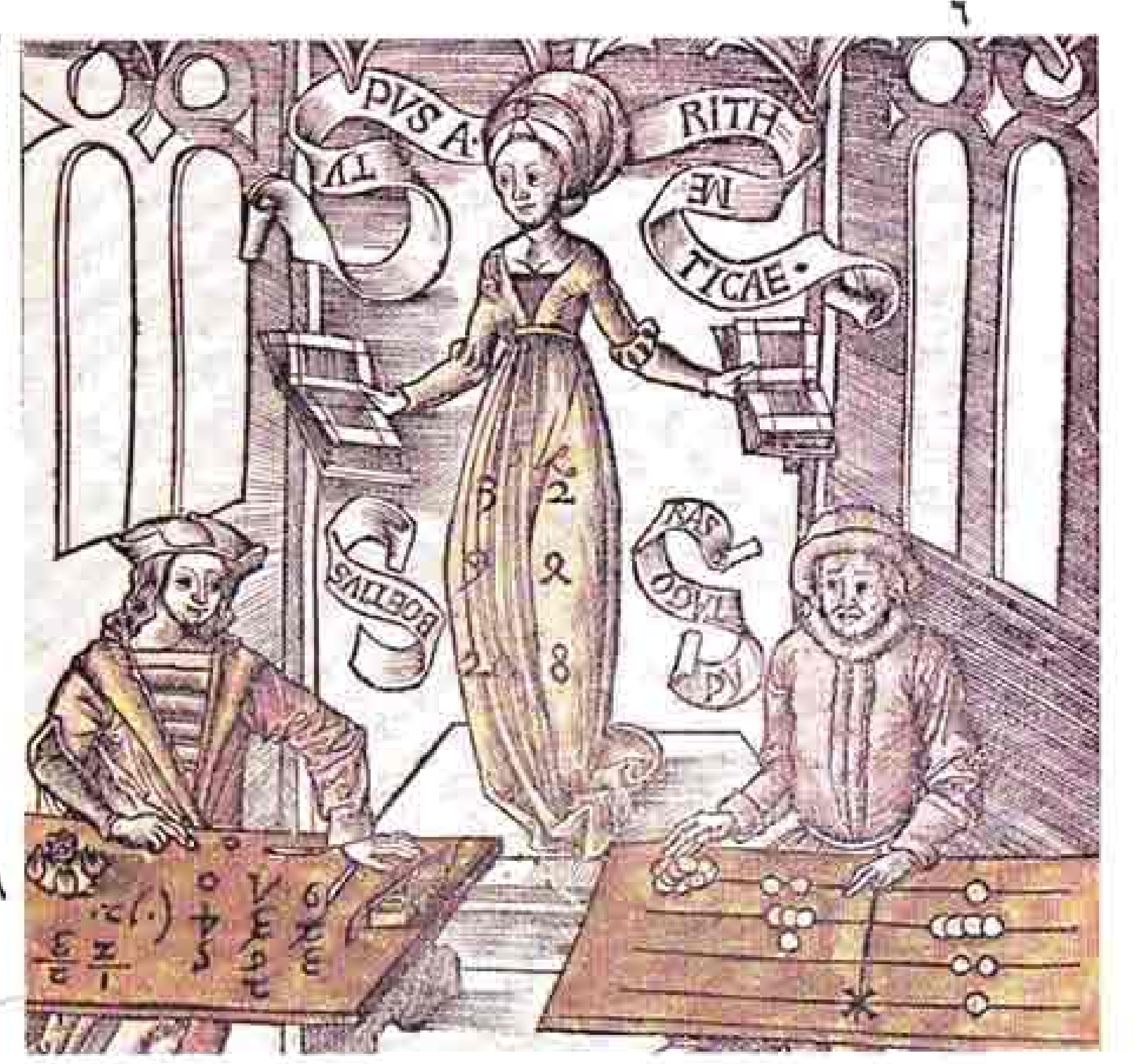
ومع ان الرومان اكتسبوا خبرة في فن ادارة الامبراطورية الواسعة ، وفي استخدام أحدث التقنيات الضرورية لذلك ، فهم لم يحرزوا أي تقدم في ميدان العلوم البحتة ، بل اقتصروا في ذلك على ما اقتبسوه من اليونان . ففي القرن الأول الميلادي ألّف بليني (٢٣ - ٧٩) كتابه « التاريخ الطبيعي » ، وهو موسوعة ضخمة لجميع العلوم المعروفة آنذاك ، ولا سيما العلوم الاغريقية .

كذلك كان جالينوس (١٣٠ ؟ - ٢٠٠) (٣) ، وهو أعظم علماء الطب في العصور الرومانية ، مواطنا يونانيا .

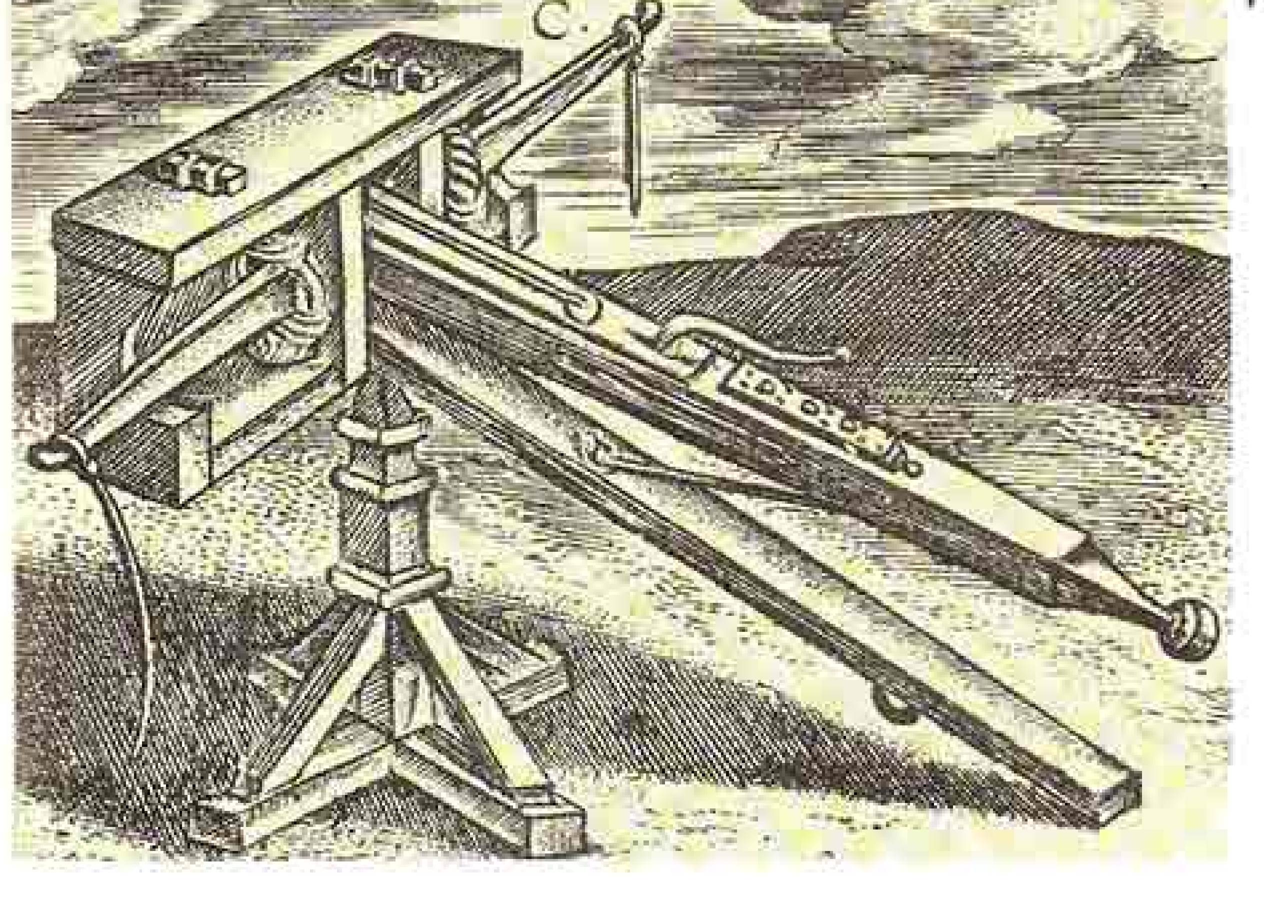
انجازات في الحقول الأخرى

لم يحصل أي تحول عن التركيز اليوناني على الهندسة ، حتى القرن الثالث الميلادي ،

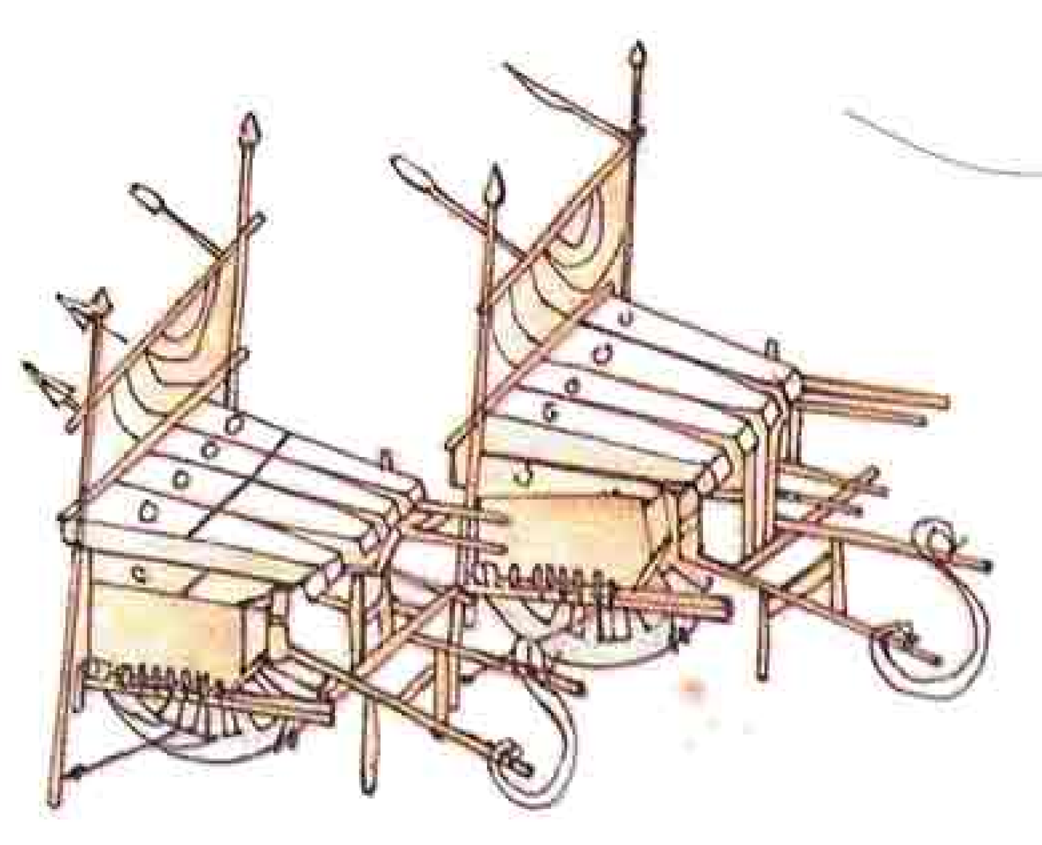
٦



٧



٨



(٦) - يبدو فيثاغورس (الى اليمين) وهو يستعمل آلة للعد ، وكأنه ينافس بويثيوس (٤٧٥ - ٥٢٤) (الى اليسار) الذي يستعمل الأرقام العربية .

(٧) - يبين هذا الرسم نوعا آليا من القوس الخشبية ، التي كانت من الضخامة بحيث كان ينبغي تركيبها على قاعدة ، واطلاقها بواسطة زناد ميكانيكي . هذا التحسين ينسب عادة الى الميكانيكي فيلون ، الذي كان يعمل في بيزنطة (اسطنبول اليوم) ، ما بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ق . م . أخذ هذا الرسم المحفور من كتاب « بوليورسيفيكون » ليوستوس لبسيوس (١٥٤٧ - ١٦٠٦) الذي يبحث في الاسلحة الرومانية ، والذي نشر في انتورب عام ١٦٠٥ .

(٨) - كان البارود الذي اخترعه الصينيون يستعمل أصلا للألعاب النارية ، ولم يسخّر لأغراض حربية ، الا فيما بعد . تظهر هنا قاذفات صواريخ تشبه عربة اليد . وقد ذكر البارود للمرة الأولى كيميائيون صينيون تاويون ، قبل ظهوره في اوروبا بخمسة قرون تقريبا (حوالى القرن الثالث عشر الميلادي) . اما تطور البندقية فهو اكثر غموضا ، لأن البارود استعمل في بادىء الامر للصواريخ والقنابل .

حين انصرف الرياضيان المصريان ديوفانتوس وبابوس ، في الاسكندرية ، الى دراسة الاعداد ، واضعين الأسس بذلك لنوع من الجبر . طورت مساهمة الاجيال اللاحقة عملهما ، لاسيما مساهمة الحضارة الاسلامية في هذا المجال ، حيث بلغ الجبر درجة عالية من التطور . فقد وضع محمد الخوارزمي (٧٨٠ - ٨٥٠ ؟) للخليفة المأمون كتابا في الجبر ، أخذ عنه الغرب طريقة جداول « اللوغاريتم » وسموها بأسمه (٤) . ثم أعطى العرب للعالم الغربي مع هذا العلم « الأرقام العربية » (٦) التي كانوا قد اقتبسوها عن الهنود .

في الغرب ، وقبل الفتح الروماني بأكثر من ١٨٠٠ سنة ، كانت تجري أرصاد فلكية في بريطانيا بدقة عظيمة ، باستعمال دوائر من الحجر ، ربما كان اعظم نموذج لها هو ما كان يدعى ستونهنج . وفي الشرق ، وفي بلاد ما بين النهرين وسوريا كان الكلدانيون (١٠٠٠ - ٥٤٠ ق . م) قد اكتشفوا بدراستهم للأجرام والفلك ان الكسوف يحدث دوريا . مع ذلك ، لم يجر التنبؤ بالكسوف بدقة او دراسة الارض والسماء بانتظام ، قبل اوائل القرن الثاني للميلاد ، وذلك في الصين . الا ان بعض التقدم التقني تحقق في تلك البلاد خلال الحقبة نفسها . فاخترع تشانج هنج جهازا لتسجيل صدمات الزلازل ، ونشأت صناعة الورق . وبحلول القرنين الثامن والتاسع ، كان الصينيون قد اخترعوا البارود أيضا (٨) والطباعة بالقوالب . بالاضافة الى صنع اول ساعة ذات مطرقة ، هي الساعة المائية الكبرى في سيان (٢) . كذلك جاءت التقنية الصينية بأول شكل فعال لعدّة الحصان ، وبالدفة القائمة الخلفية للسفينة ، وبصناعة الحرير ، والأهم من هذا وذلك باختراع البوصلة ، التي كان العرب أول من استعملها في الملاحة العملية .

أما الكيمياء القديمة التي سبقت الكيمياء الحديثة ، فكانت فنّا نجهل أصله ، يهدف الى تحويل المعادن الخسيسة كالقصدير الى فضة وذهب ، بالاضافة الى أمور أخرى . لكن العرب كان لهم الفضل في تحويل هذا العلم البدائي الى علم الكيمياء الحقيقي .

الطب والتأثير الصيني

لم يخل الطب ايضا من الخزعبلات والخرافات ، ولكن الصينيين اكتشفوا بعض العقاقير العشبية واستخدموها بنجاح ، وكان في مجموعة عقاقيرهم أدوية ضد الملاريا والأمراض الشُعَبية ، بينما شاع في الهند استعمال أكثر من ٥٠٠ عقار ، منها نوع مبكر من المهدئات . وقد استحدثت في الصين المعالجة بالوخز بالأبر (التأبير) .

بعد انجازات اليونان ، كان تقدم العلم في الغرب بطيئا ومتقطعا بل يبدو انه توقف عمليا طيلة نحو ٦٠٠ سنة . لكن من حسن الحظ ان المسلمين حملوا شعلة العلم ، فجمعوا ونسّقوا كل المعارف والعلوم التي أخذوها عن اليونان والشرق الاقصى ، ثم اضافوا اليها ما قاموا به من تجارب واختبارات عملية، حتى اصبحت اعمال العلماء العرب مثل ابن سينا والفارابي والخوارزمي والبيروني والزهراوي مصادر الدراسة والتعليم في الغرب ، بدءا من القرن الثاني عشر الميلادي ، ومهدت الطريق لنهضة الغرب بعد ذلك بـ ٤٠٠ سنة .

المسيحية في العالم العربي

في فلسطين ظهر السيد المسيح . وفي القدس أعلن رسالته التوحيدية (١) . خالفت تعاليمه الديانة اليهودية في انها موجهة الى العالم أجمع . بجهود الحواريين الحثيثة (٢) والشهداء ورغم الاضطهاد انتشرت ، خلال القرن الأول للميلاد ، في سوريا وحتى آسيا الصغرى وبعض مدن اليونان . ما بين مطالع القرن الثاني ونهاية الثالث ، توطدت في هذه المناطق وفي العراق وسواحل الخليج . كما انتشرت في مصر والشمال الافريقي . ظهرت في هذه البقاع جميعا مراكز للثقافة اللاهوتية المسيحية (انطاكية ، نصيبين . الرها . الاسكندرية . قرطاجة) ، كما ظهر عدد من آباء الكنيسة ، منهم

١ أ



ب



٢



(١) ـ بجانب القدس ، ليس ثمة أكثر قدسية لدى المسيحي من بلدين هما : بيت لحم (أ) . البلد الذي ولد فيه السيد المسيح (سنة ٦ أو ٥ ق . م) وضم مهده قبل أن تهرب به أمه الى مصر ، ثم الناصرة (ب) . البلد الذي عاد المسيح فنشأ فيه . هذا الثالوث من المدن يضم اليوم أقدس تراث المسيحية الروحي ، وأقدم الكنائس .

(٢) ـ كان الاسم السابق للقديس بولس هو شاول . وكان فريسيا اضطهد المسيحيين بعنف ، الى ان اهتدى فجأة وهو في طريقه الى دمشق نحو سنة ٣٣ م . تعمّد ثم اختلى في شمال جزيرة العرب مدة ثلاث سنوات حيث تعلّم صناعة الخيم . وباشر بعد ذلك تبشير الأمم الوثنية . وكان لها الرسول الممتاز . هذه اللوحة لميكل انجلو تمثل القديس بولس وقد صعقه نور سماوي وهو في طريقه الى دمشق لاضطهاد مسيحييها .

(٣) ـ انتشار النصرانية أعطى فلسطين ، أرض السيد المسيح ، قدسية روحية عند أتباع الديانة الجديدة وبخاصة اثناء فترة الاضطهادات . الحجاج الذين كانوا يزورون الأراضي المقدسة كانوا يحرصون على حمل شيء تذكاري منها . ظهرت منذ القرن الرابع صناعة أوعية صغيرة تضم شيئا من تراب تلك الاراضي يحملها الحجاج معهم للتبرك . في الصورة قارورة صغيرة منها صنعت من الفضة المنقوشة بالمواضيع الدينية حوالى القرن السادس . وهي موجودة مع وعاء آخر مثلها في كاتدرائية مونزا بايطاليا .

كليمنتوس الاسكندري (١٥٠ - ٢١٧) ، اوريجينوس (١٨٥ - ٢٥٤) ، يوزيبيوس السوري (٢١٥ - ٣٤٠) ، ميريانوس الافريقي (٢١٠ - ٢٥٨) ممن وضعوا أسس الفكر المسيحي ، وربطوا العالم بفلسطين (٣) وابنها يسوع الناصري .

النظام الروماني قاوم المسيحية بعنف (٤) ، لأنها تلغي الرابطة التي كانت ، بجانب الجيش ، تربط الامبراطورية بعضها مع بعض ، وهي عبادة الامبراطور . اعتبر المسيحيون اعداء الدولة . اعنف الاضطهاد عرفوه ما بين ايام سبتميوس سيفروس (١٩٣ - ٢١١) وايام ديوقليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥) . انتهت الفترة الصعبة حين منح الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) للمسيحيين حرية ممارسة العبادة ، وقبلت عقيدتهم بين الأديان الشرعية في الدولة . كان ذلك نهاية الاضطهاد وبدء الدعوة العلنية .

٣ ٤ ب



أ



٥



(٤) - كان المسيحيون في فترات الاضطهاد من القرنين الثاني والثالث ، يتخذون اماكن تجمعهم وصلاتهم ومدافنهم في السراديب والدياميس والكهوف بين عامي ٢٩٦ و ٣٠٥ ، وهي حقبة الاصلاحات التي قام بها الامبراطور ديوقليسيان في افريقيا الرومانية . كانت مدينة هذروميتوم (سوسة الحالية) قاعدة مقاطعة بيزاسينيا (تونس الوسطى والجنوبية) . وكان في هذه المدينة دياميس واسعة استعملها المسيحيون في القرنين الثاني والثالث مدافن لهم . تُرى على هذه الشاهدة (أ) عبارة موثرة نصها : « عاش فوريون عشرين عاما بسلام وزرع اربعمئة شجرة » . وتظهر في الرسم (ب) الذي عثر عليه في أحد المدافن أهم رموز المسيحية الباكرة : المرساة ، رمز الكنيسة . الدلفين ، رمز العقيدة .

---

(٥) - القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) أسقف هيبون (قرب بونة) . ولد في تاجاست . وبعد شباب عاصف ، اجتذبته الحياة الدينية . فأصبح بعد ذلك من أشهر آباء الكنيسة اللاتينية . مؤلفاته الأساسية : مدينة الله . الاعترافات . حاول التوفيق بين الافلاطونية والعقيدة النصرانية . اجتاح الفاندال افريقيا وهاجموا مدينته المحصنة . توفي سنة ٤٣٠ قبل أن يرى سقوطها بأيديهم . في الصورة فسيفساء من القرن الخامس يمثله .

انتشار المسيحية

انتشرت المسيحية في المدن خاصة ، الا في الشمال الافريقي (٦) ، فقد كان مجالها الأول في الريف . الذين نشروها كانوا افرادا متطوعين ، لهذا رافقت في انتشارها الطرق التجارية . ظهر فيها منذ البدء اتجاهان دينيان اساسيان ؛ مشرقي نشأ في سوريا والعراق ، لغته السريانية ، ويتصل به اتجاه مماثل في مصر والنوبة ، لغته اليونانية والقبطية (٧) ، وهلينستي ، في اليونان واوروبا وشمال افريقيا ، لغته اليونانية او اللاتينية .

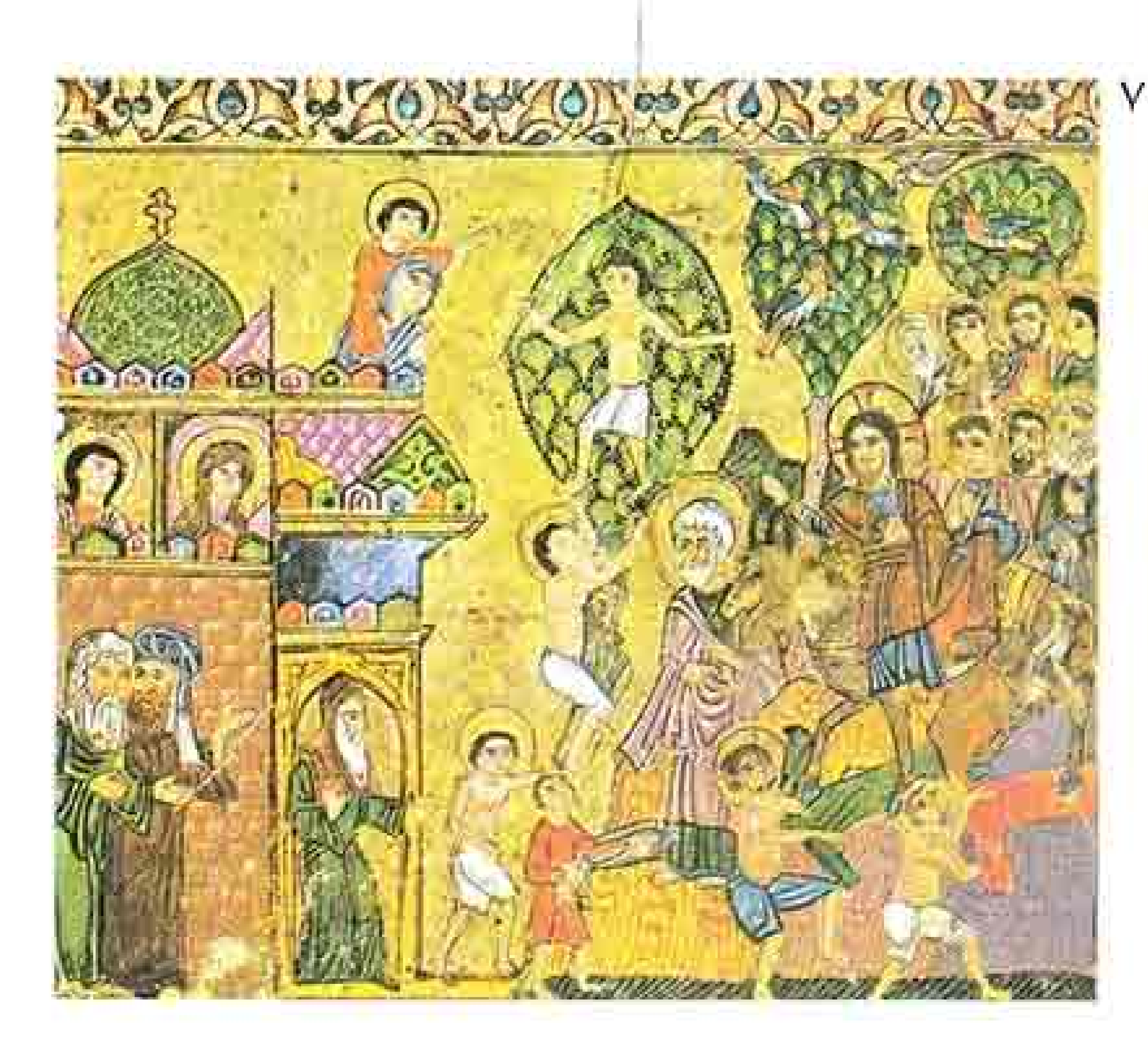
انتظم المسيحيون مبكرين في اسقفيات (كنائس) لكل منها اسقف خاص . هكذا قامت مع الزمن في المشرق اربع كنائس رئيسية : الاسكندرية والقدس وانطاكية والقسطنطينية . كانت قرطاجة ايضا مركزا لكنيسة الشمال الافريقي .

٦ أ

ب



٧



(٦) ـ سبيطلة مدينة تونسية فيها الكثير من آثار العصر الروماني والبيزنطي ، كالسوق وقوس النصر والحمامات والمسرح . فتحها عبد الله بن ابي سرح وهزم فيها الجيش البيزنطي بقيادة البطريق جرجير (غريغوريوس) سنة ٦٤٦ بعد أن ازدهرت فيها المسيحية خلال أربعة قرون وقامت فيها خمس من أقدم الكنائس . في الصورة (أ) صحن المعمودية في احداها مبلط بالفسيفساء على شكل صليب .

(٧) ـ حوالى القرن السادس كانت المسيحية منتشرة في الشام والجزيرة العراقية ، كما كانت منتشرة جزئيا في العراق . تشاركها الزارادشتية من جهة والمذهب النسطوري من جهة أخرى . النساطرة والسريان كانوا نشيطين في العمل الديني والدراسات الفلسفية والطبية . تميز النساطرة بنشاطهم التبشيري . هم الذين حملوا المسيحية الى البحرين والى نجران . أما السريان فأكثروا من التأليف الديني . وكان طبيعيا أن ينال الكتاب المقدس عنايتهم وأن يزينوه بالمشاهد الدينية . من ذلك مشهد دخول المسيح الى القدس على كتاب للأناجيل في دير مارمتو قرب الموصل سنة ١٢٢٠ (موجود في الفاتيكان) .

تحت تأثير الفلسفات الشرقية والاغريقية واختلاف اللغات وتراث الشعوب الحضاري ، نشأت في المسيحية قضايا لاهوتية جدلية عديدة . اتخذ بعضها الشكل العنيف منذ القرن الثالث . أهمها الجدل حول طبيعة السيد المسيح وعلاقة الاقانيم الثلاثة (الاب والابن والروح القدس) أحدها بالآخر . عقدت مجامع كنسية متعددة لحل الاشكال (منها مجمع نيقية الاول سنة ٣٢٥ ، وافسوس سنة ٤٣١ ، وخلقيدونية سنة ٤٥١) . ولكن الجدل كان يزيد في الخلاف بدل ان يضيق منه .

الكنيسة في سوريا ومصر

الكنيستان السورية والمصرية اتجهتا الى القول بالطبيعة الواحدة الناسوتية ـ اللاهوتية للسيد المسيح . سمي هؤلاء فيما بعد باليعاقبة نسبة الى اسقف كنسي كبير هو يعقوب البردعي . صرف ثلاثين سنة (٥٤٨ ـ ٥٧٨) في العمل الكنسي . لكن نسطوروس بطريق القسطنطينية قال سنة ٤٢٨ بالطبيعتين ، فاعتبره مجمع افسوس خارجا على الكنيسة . انتشرت تعاليمه في الرها وفي المشرق الايراني ، بعد ان رحب الملك الساساني فيروز (٤٥٧ ـ ٤٨٣) بالنساطرة . لهذا كان مسيحيو الحيرة والبحرين ونجران على هذا المذهب . اليعاقبة رفضتهم الكنيسة البيزنطية الرسمية (الملكانية) . ولكن كثرتهم لم تسمح لها بطردهم أو اجبارهم على المذهب الرسمي . بل اضطرت للاعتراف بهم بجهود الحارث الثاني الغساني سنة ٥٤٨ .

أما مصر ، فقد عانت كنيستها القبطية الكثير ، لرفضها التحول الى الملكانية . المحاولات الاخيرة ضدها كانت قبيل الفتح العربي حين تسلط عليها المقوقس مندوب هرقل ، فهرب بطريق الاسكندرية من اضطهاده الى الصحراء .

الكنيسة في الشمال الافريقي

هناك في تلك البقاع . ظهر المذهب المونتاني (أصله من آسيا الصغرى) الذي استهوى السكان منذ مطلع القرن الثالث . كبير دعاة المذهب كان ترتليانوس (١٦٥ ـ ٢٢٠) ثم كبريانوس . حركتهما الدينية كانت موجهة ضد رجال الدين الذين تضامنوا مع الدولة الرومانية . بعد ذلك في مطلع القرن الرابع . ظهر مذهب دوناتوس الذي انتشر في نوميديا لمقاومته رجال الدين الكاثوليك المرتبطين بدورهم مع روما . خلال ذلك عرفت الكنيسة اللاتينية ـ الكاثوليكية (الرومانية) بالمقابل واحدا من كبار آبائها هو القديس اوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) الذي كان من اوائل من فلسفوا الفكر المسيحي وحاولوا التوفيق بين العقل والايمان (٥) .

حين وصل الفاندال بعد ذلك سنة ٤٣٣ نشروا المذهب الاريوسي المناهض للكاثوليكية ، بينما كنت تيارات من المذهب اليعقوبي تصل بدورها من مصر . لكن الكاثوليكية كانت تتمتع ما بين تونس واقصى المغرب بقواعد قوية مستندة في ذلك الى سلطات روما الرسمية .

حين أهلّ الفتح العربي على بلاد العرب والرافدين والشام ومصر والشمال الافريقي كانت جميعا ، رغم نصرانيتها ، تناضل من خلال اقرار مفهومها الكنسي الخاص ، لرفض السيطرة البيزنطية الدينية والسياسية على السواء .

المشرق العربي وبيزنطة

منذ أواسط القرن الثالث الميلادي . كانت الامبراطورية الرومانية تجتاز أزمة حادة وضعت مصيرها في الميزان . كانت اقتصادية بقدر ما كانت ادارية وعسكرية . وكانت أخطارا داخلية بقدر ما كانت خارجية . وهزة اجتماعية بقدر ما كانت روحية ودينية . توالى عشرون امبراطورا ما بين ٢٣٥ و ٢٨٤ دون طائل . الامبراطوران اللذان استطاعا تجاوز الأزمة جزئيا هما ديوقليسيان (٢٨٤ ـ ٣٠٥) وقسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧) : اصلاحاتهما فصلت السلطة الادارية عن العسكرية . وحددت مساحة الولايات (مصر مثلا ثلاث ولايات وشمال افريقيا مثلها) . سك ديوقليسيان نقدا جديدا (١) . فرض

١ أ　　ب　　ت

ث



(١) ـ أدى الطلب المتزايد من العالم الروماني الغربي على بضائع الشرق من حرير وتوابل ومجوهرات وزجاج ومصنوعات ثمينة وبخور وخشب صندل الى تدفق مقادير هائلة من سبائك الذهب والفضة الى المشرق كل عام . أعان ذلك على قوته الاقتصادية وبالتالي على دعم النظام البيزنطي الذي قام فيه وأضحى بالنتيجة امبراطورية منفصلة شرقية . بينما كان نظام روما ينهار بالاستنزاف المالي وتحت ضربات الشعوب البربرية . كان لبيزنطة عملتها الخاصة التي كان يفضلها تجار المشرق جميعا لعيارها العالي . وهذه العملة وحيدة المعدن اساسها الذهب . « النوميسما » كانت تعادل واحدا على ٧٢ من الرطل من الذهب (٢٢ قيراطا) . تقسم النوميسما الذهبية الى ١٢ ميلياريسيا . وكل واحد من هذه الاقسام يساوي ١٢ فلسا (فولس) . ظلت العملة البيزنطية محتفظة بقيمتها التجارية والعالمية سليمة من عهد قسطنطين الاول (القرن ٤ م) حتى عهد نقفور فوقاس (القرن العاشر) .

الضرائب على مساحة الاراضي وانتاجها ، قسم الامبراطورية اداريا قسمين ؛ واحدا لبيزنطة والثاني لروما .

ظهور الحضارة البيزنطية

لكن تفاعل هذه الاصلاحات مع الاحداث الخارجية (تهديد الساسانيين للشرق والجرمان للغرب الاوروبي) والدينية (انتشار المسيحية) . والداخلية (الحروب الاهلية المتكررة) لم يؤد الى قسمة الامبراطورية الرومانية نهائيا قسمين بعد قرن من ذلك (سنة ٣٩٥) وحسب . ولكنه كان ايضا ايذانا بغياب مرحلة الحضارة الرومانية واللاتينية عن المشرق خاصة . وعودة التأثير اليوناني في ثوب جديد هو الحضارة البيزنطية التي نجمت عن اتحاد الهلينية بالمسيحية .

ورثت الامبراطورية البيزنطية ، بصورة آلية ، المشرق الروماني . فكانت سوريا ومصر

٢

٣

اهتزت زمن الأمويين بتعريب النقود على يد عبد الملك بن مروان . كان سك الدينار البيزنطي احتكارا للدولة ، وتسمح به احيانا لبعض المدن تكريما لها . من هذه المدن مثلا قرطاجنة . ونرى نموذجا من نقدها الذهبي في (أ) ، وانطاكية التي نجد مدالية ذهبية منها في (ب) ضربت باسم قسطنطين الثاني (سنة ٣٤٣) وصور وبعلبك . في الصورة (ت) قطعة نقد من عهد جوستين الأول (٤٥٠ - ٥٢٧ م الذي حكم منذ سنة ٥١٨) . بعض عمال الصياغة كانوا يستخدمون النقود للزينة . ومن ذلك عقد الصدر (ث) الذي ضمت فيه مجموعة من النقود الذهبية في صياغة وطوق من الذهب يعود صنعه الى حوالى سنة ٦٠٠ ، كما يعود أحدث النقود ضربا فيه الى ما قبل سنة ٥٨٣ م . (محفوظ في متحف برلين) .

---

(٢) - ذكر الكثير عن رفاه البلاط البيزنطي ومباهاة الطبقة العليا بما تصيب من القماش الثمين . أحد أعضاء الشيوخ طرز على ملابسه الرسمية سلسلة كاملة من صور حياة المسيح . وجوستنيان زين أياصوفيا بأقمشة عليها مواضيع دينية . الحاجة المتزايدة دفعت الحكومة الى ايجاد عدد هائل من مناسج الحرير في مصر وسورية لحساب البلاط . واستجلبت دودة القز من الصين . هذه القطعة الحريرية (٣٦ سم) من صنع مصر أو سورية حوالى سنة ٦٠٠ ويسمونها (البشارة) .

(٣) - أورشليم القديمة ، عاصمة فلسطين ، دمرها الرومان عام ٧٠ م بقيادة تيطس ، ثم عادت فازدهرت ايام قسطنطين في القرن الرابع . هذه أقدم خريطة فسيفسائية لها ، عثر عليها في كنيسة مادبا (في الأردن) ، احدى الكنائس التي بنيت في القرن السادس للميلاد . ترى فيها الابراج على سور المدينة ، وبوابتها الكبرى الى اليسار قائمة مكان بوابة دمشق اليوم . تبدو كنيسة القبر المقدس وسط الصورة .

جزءا منها ، لا ولايات تابعة لها . لم يكن ثمة فرق اداري او ثقافي واضح بين الفترتين الرومانية والبيزنطية ، لولا القضية المسيحية . كان الدين الجديد قد انتشر ، رغم الاضطهاد العنيف ، في المشرق وفي الغرب ، ثم صار دينا مقبولا لدى الدولة في عهد قسطنطين ، ثم صار الدين الرسمي الوحيد ايام تيودوسيوس الاول سنة ٣٩٢ . وحل تأثيره في الحياة والفنون محل الوثنية القديمة .

سورية ومصر في العهد البيزنطي

رغم اندثار الانباط وتدمر والحضر ، ظلت التجارة في سوريا مزدهرة . التجار السوريون استفادوا من اتساع العلاقات الرومانية ، فكانت منهم في القرنين الرابع والخامس جاليات في فرنسا، كما في قرطاجة وايطاليا واسبانيا ، تتاجر بالحرير والخمور والاقمشة والسيوف والتوابل والبخور . كما تابعوا نشاطهم الصناعي (٢) وبراعاتهم الفنية (٣)



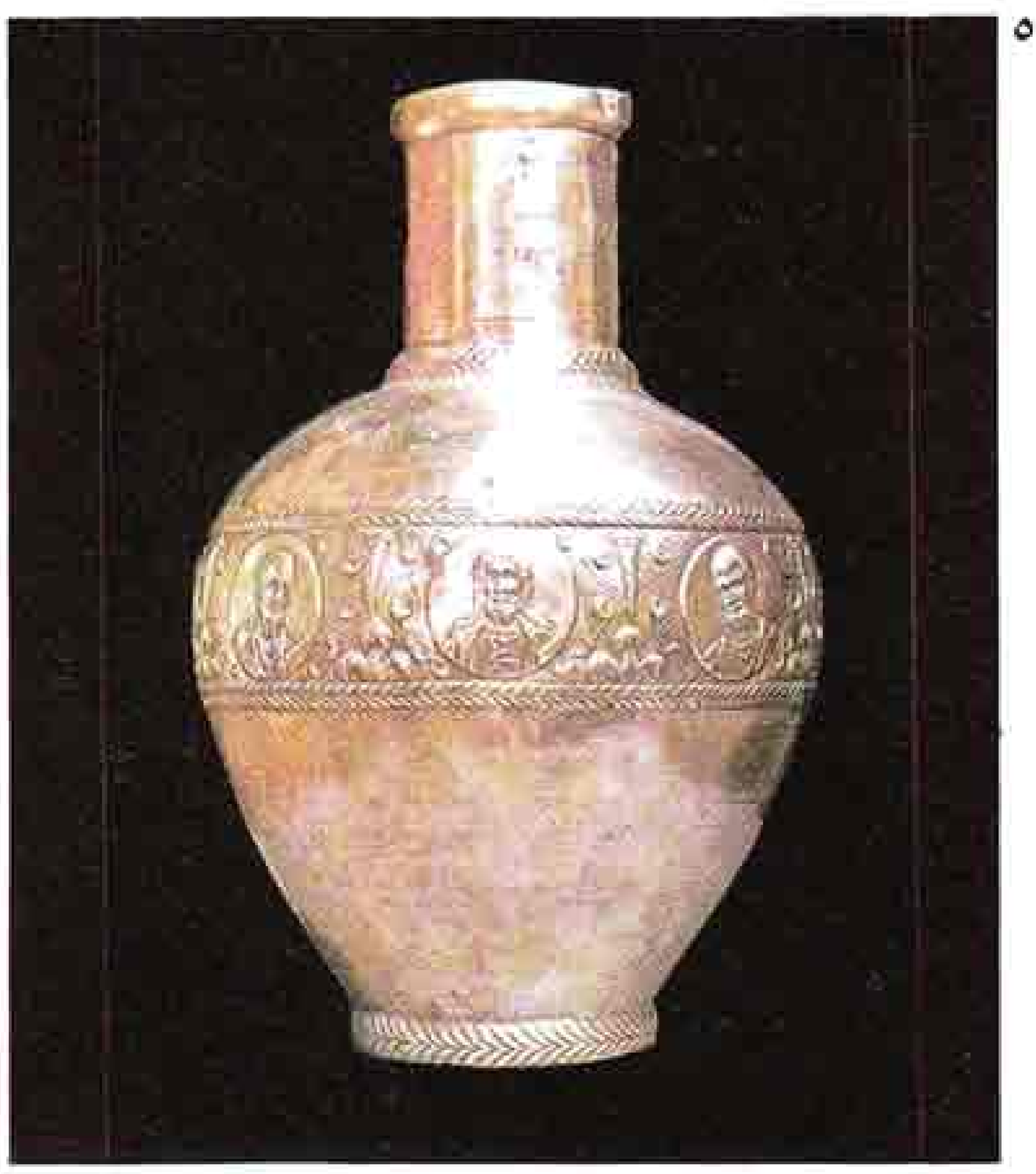
٤ أ

ب



(٤) ـ كانت للنسيج في مصر منذ القديم تقاليده ومهاراته ، سواء كان من الكتان او من الصوف او من القطن . أعان الجفاف على حفظ بعض ذلك النسيج الى اليوم . من ذلك هذه القطعة (أ) من نسيج الصوف على أرضية من الكتان . وهي من صنع مصر في القرن السادس للميلاد . (طول ٢١,٥ × ٢٠,٥ سم عرض ٢٠,٥ سم) ومن ذلك أيضا هذه القطعة الأخرى (ب) ، وهي جزء من حاشية ملوّنة لثوب كنسي من الصوف تعود الى القرن ٦ ـ ٧ . محفوظة في متحف لاهاي .

٥



(٥) ـ كانت أعمال الصياغة في الشام رائجة متقدمة كل التقدم في العصر البيزنطي . ولما كان الكثير من انتاجها قد صنع لخدمة الكنيسة ، فقد أعانه ذلك على البقاء . ثمة عدد من كنائس فرنسا وأوروبا تحوي بين كنوزها ذخائر وأدوات كنسية فضية صنعت في سوريا البيزنطية قبل الاسلام وفي مصر . وصلت هذه الذخائر والأدوات عن طريق التجار السوريين الذين كانوا ينتشرون في تلك الفترة في أوروبا . كانوا في العهد الميروفنجي يشكلون في مرسيليا ونربونة وبوردو واورليان . بل في روما أيضا جالية هامة . من تلك الذخائر ، الدورق الفضي المعروف بدورق حمص (بمتحف اللوفر) ويعود الى أواسط القرن السادس . وهو من الفضة المطروقة . صنع أنطاكية (ارتفاعه ٤٤ سم/قطر ٢٩ سم) . وتظهر عليه رسوم المسيح والعذراء والملائكة والقديسين ضمن اطارات تطوقه . كان للصياغة مصانعها في الاسكندرية كما في دمشق وانطاكية وحمص .

واهتماماتهم الثقافية ، فكان منهم البلغاء امثال ليبانيوس الانطاكي (٣١٤ ـ ٣٩٣) ، ويوحنا فم الذهب (٣٤٧ ـ ٤٠٧) الواعظ الكنسي ، ويوسيبيوس المؤرخ اسقف قيسارية (٢٦٤ ـ ٣٤٩) ، وبروكوبيوس المؤرخ الآخر (٥٢٧ ـ ٥٦٥) . بجانب رجال الكنيسة هؤلاء ، كان ثمة أساقفة سوريون في أوروبا .

ازدهرت كذلك عدد من المدن السورية ، منها غزة وجدرة وبيروت وانطاكية ، وعرفت الثقافة السريانية (الآرامية) يقظة واضحة ، منذ القرن الرابع ، في الرها ونصيبين ورأس العين . وترجم الكثير من كتب الثقافة اليونانية اليها .

أما في مصر ، فالاصلاح الاداري والضريبي الذي جاء به ديوقليسيان لم ينفع في تحسين الاوضاع الاقتصادية . ظل الاستغلال الروماني الجشع قائما . انتهى في القرن الخامس بظهور الضياع الكبيرة لطبقة من النبلاء والمتنفذين . لم تقم ملكيتهم على الاقطاع العسكري ، ولكن على الاستفادة من بؤس الفلاحين وهربهم من الاراضي ، ومن فقر الصناع العاملين في النسيج وغيره (٤) .

في الوقت نفسه ، كانت الحضارة الهلينية الوثنية تتراجع ، ثم أخذت تحتضر في مصر منذ القرن الخامس . غاب ذكر مكتبة الاسكندرية . لم يعد ثمة حديث كثير عن فلاسفة او علماء الاسكندرية الوثنيين . حتى اللغة اليونانية ـ وهي لغة الدولة الرسمية ـ كانت تندثر لتحل محلها اللغة القبطية في الوثائق . كان السبب الاساسي هو انتشار المسيحية وروح المقاومة معا في البلاد . صارت الاسكندرية ، خلال القرنين الثاني والثالث ، مركزا لمدرسة مسيحية ذائعة الصيت ، وأبرز شخصيات الفكر في مصر . جاء من الجهة الكنسية أمثال اريوس ، صاحب الأريوسية ، وأثناسيوس أسقف الاسكندرية في القرن الرابع ، وخليفته كيرلس في القرن الخامس .

التيارات والمذاهب المسيحية

أهم التيارات التي صبغت الجو الاجتماعي والفكري في مصر وسوريا قضيتان :

أ ـ الرهبنة ، أدى طابع الزهد في المسيحية الى ظهور مجموعات من الزهاد في الصحراء المصرية . تفننوا في أشكال التزهد . من أشهرهم انطون وباخوم (القرن الرابع) . انتشرت الرهبنة في سوريا ايضا ، وكان من أهم رجالها سمعان العمودي .

ب ـ النزاع الكنسي حول طبيعة السيد المسيح : لعبت كنيسة الاسكندرية دورها الاساسي في النزاع الذي ظهر خلاله المذهب الاريوسي والنسطوري ، عدا اليعقوبي القائل بالطبيعة الواحدة والذي تعصبت له سوريا ومصر ضد المذهب البيزنطي الرسمي المدعو بالملكاني.

القرن السادس سيطر عليه ملكان : جوستينيان البيزنطي ، وكسرى أنو شروان الساساني . مع ذلك فهما لا يستطيعان اخفاء المآسي . حروبهما التي اشترك فيها المناذرة والغساسنة جلبت الى الشام الدمار . محا الساسانيون الرها وانطاكية في حملتهم سنة ٥٤٠ ، وأفامية وعنجر . ثم أتمت الزلازل تدمير مدن الساحل الشامي وفلسطين . في أيام كسرى ابرويز سنة (٥٩٠ ـ ٦٢٩) وهرقل البيزنطي تجددت الحروب . فدمّر الساسانيون الشام والقدس سنة ٦١٥ ثم احتلوا الاسكندرية سنة ٦١٨ . أخرجهم هرقل منها سنة ٦٢٧ ليسلم البلاد ، بعد خمس سنوات ، الى الفتح العربي.

شمال افريقيا بين روما وبيزنطة

انتشرت المسيحية في الشمال الافريقي ، كما في حوض المتوسط كله ، رغم الاضطهاد ورغم تناقضها مع الأسس التي كانت تقوم عليها الامبراطورية الرومانية المسيطرة . وكما صارت المسيحية شكلا من أشكال المقاومة لروما في المشرق الذي تنوعت فيه الآراء والمذاهب والجدل ، كذلك صارت في الشمال الافريقي نوعا من المقاومة للحكم الروماني منذ القرن الثالث وما بعده (١) . وهكذا بينما كانت القبائل الصحراوية في تلك الفترات تثور وتغير مرة بعد مرة على خطوط التحصينات والقلاع التي أقامها الرومان على طول الحدود بين الصحراء وبين مناطق القمح والزيتون والمراعي والموانىء ، كانت الحركة

١


(١) - المنطقة التي احتلتها روما تدريجيا من القرن الأول قبل الميلاد الى أواخر القرن الثالث الميلادي تبدو واضحة على هذا المصور . كما تبدو الأقسام الادارية للمنطقة واضحة . فقد كانت المنطقة مقسمة الى اربع ولايات دون ان يكون لهذه الولايات مركز اداري رئيسي . كانت ولاية افريقيا القنصلية أهم الولايات الاربع ، وكانت تشمل تونس وجزءا من الجزائر ومنطقة طرابلس . وقد عني الرومان بتوطين السكان الرومان (الايطاليين) فيها . كانت هذه الولاية تتبع مجلس الشيوخ اداريا ، وعاصمتها قرطاجة (أو أتيكا) أما الولايات الثلاث الأخرى ، وهي موريتانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية ونوميديا ، فكانت تتبع الامبراطور مباشرة .

(٢) - محا الرومان قرطاجة الفينيقية ثم عادوا فبنوها مدينة رومانية ، فآثارها تحمل الطابع الروماني . تاج أحد الأعمدة من قرطاجة نقش على الطراز الكورنثي التقليدي المعروف في معظم الأبنية الرومانية وفي العصر البيزنطي .

(٣) - بعد الاصلاح النقدي الذي قام به ديوقليسيان (حكم ٢٨٤ - ٣٠٥) ظلت نقوده قيد التعامل فترة طويلة في الشمال الافريقي . نقده الذهبي الذي نرى (أ) صورته عليه يحمل على ظهره (ب) صورة جوبيتر المنتصر . وكان ديوقليسيان يعتبر نفسه تحت رعايته . يعتمر لباس رأس هرقل ويضع على كتفيه جلد أسد . بعد ذلك حل محله النقد الذهبي الذي ضربه قسطنطين . (الصورة ت) والمسمى (أوريوس) وقد عرف

المسيحية المونتانية تجتذب السكان في القرن الثالث (٦) . ثم تأتي الحركة الدوناتية ، التي أسسها سنة ٣١١ أسقف قرطاجة دوناتس ، فتزيد في المقاومة لروما التي لم تجد طريقا لتمزيقها سوى اصدار قرار بتكفيرها سنة ٤١١ .

الفاندال (= الجوالون) :

منذ أواسط القرن الخامس ، شهد الشمال الافريقي قدوم موجة بشرية غير منتظرة عبر الممر المائي الفاصل بين جزيرة ايبريا والقارة الافريقية . هذه الموجة التي عرفت بالفاندال هي جزء من الجماعات الجرمانية التي عبرت نهري الدانوب والراين وتوغلت في اراضي الامبراطورية الرومانية تعيث فيها ارهاقا وتهديما منذ القرن الرابع . عبر الفاندال اسبانيا وأقاموا فيها دولة لهم ، ثم لحقت بهم قبائل القوط الغربيين فالجأهم

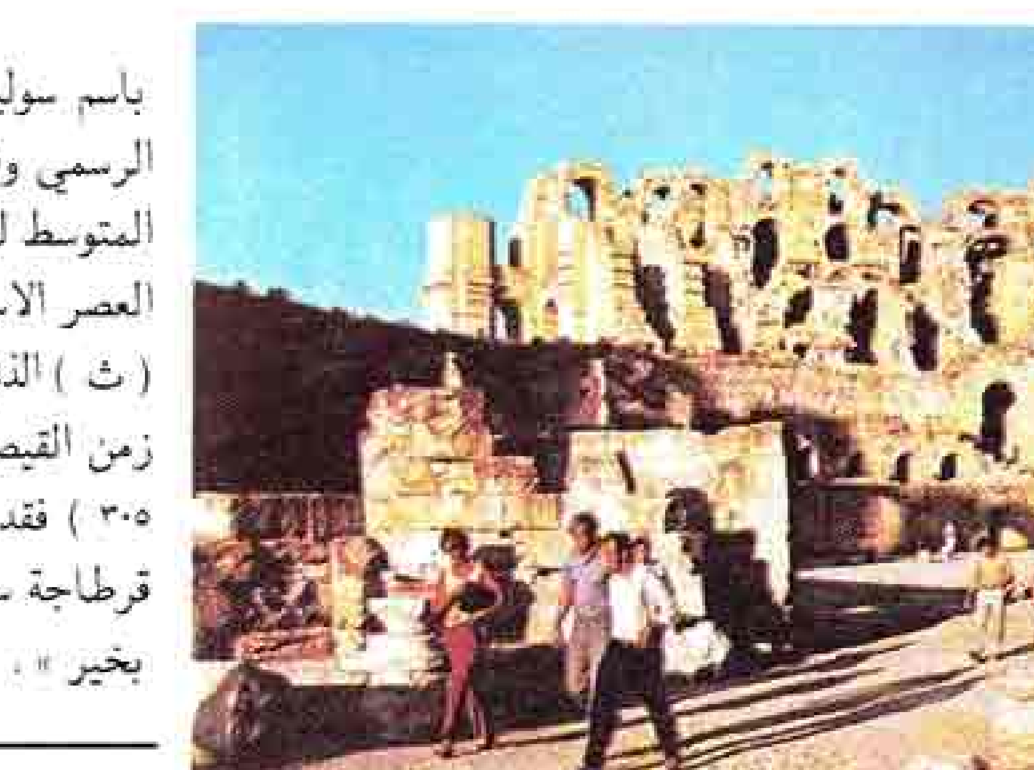
٢



٣ أ — ب — ت — ث



٤



(٤) ـ بلدة (الجم) في تونس بين سوسة وصفاقس . ذات ماض ضخم في العهد الروماني البيزنطي ، كان أسمها توسدروس . من أهم آثارها ملعب كبير لمبارزة الحيوان أمر ببنائه هادريان (١١٧ ـ ١٣٨م) حين زار افريقيا سنة ١٣٥ . يعتبر من أكبر الملاعب الرومانية الباقية في العالم (١٥٠ م × ١٣٥ م بارتفاع ٣٦ مترا) .

باسم سوليدوس فصار هو النقد الرسمي والشائع في عالم البحر المتوسط للتعامل والتجارة حتى العصر الاسلامي . أما عن النقد (ث) الذي ضرب في قرطاجة زمن القيصر غاليريوس (٢٩٣ ـ ٣٠٥) فقد كتب عليه : « تظل قرطاجة سعيدة ما دام الأباطرة بخير » .

ضغطها المتواصل الى التجمع في الجنوب الذي لا يزال يحمل اسمهم حتى اليوم (فاندالوسيا = الاندلس) . ثم الى عبور البحر نحو الشمال الافريقي .

كانت روما سنة ٤١١ قد سقطت في أيدي القوط الشرقيين . ثم جاءتها ضربة أخرى من قبائل الهون المغولية ، وبدأت امبراطوريتها تدخل مرحلة النزع . في تلك الأثناء تدفق الفاندال على شمال افريقيا باحثين عن الثراء والأمن والاستقرار . قاد الملك غيسيريك منذ سنة ٤٢٨ م ثمانين الفا منهم فطرد الحكم الروماني ، وجعل البلاد للفاندال سنة ٤٤٣ .

روما التي كان الهون ، بعد الفوضى الجرمانية ، يتدفقون على أراضيها ، سلمت البلاد للفاندال . لم يكن قد مضى على وصولهم عشر سنوات حين احتلوا قرطاجة بعد موريتانيا الطنجية ونوميديا وجعلوها عاصمة لهم . ثم ما لبثوا ان سيطروا على مدن

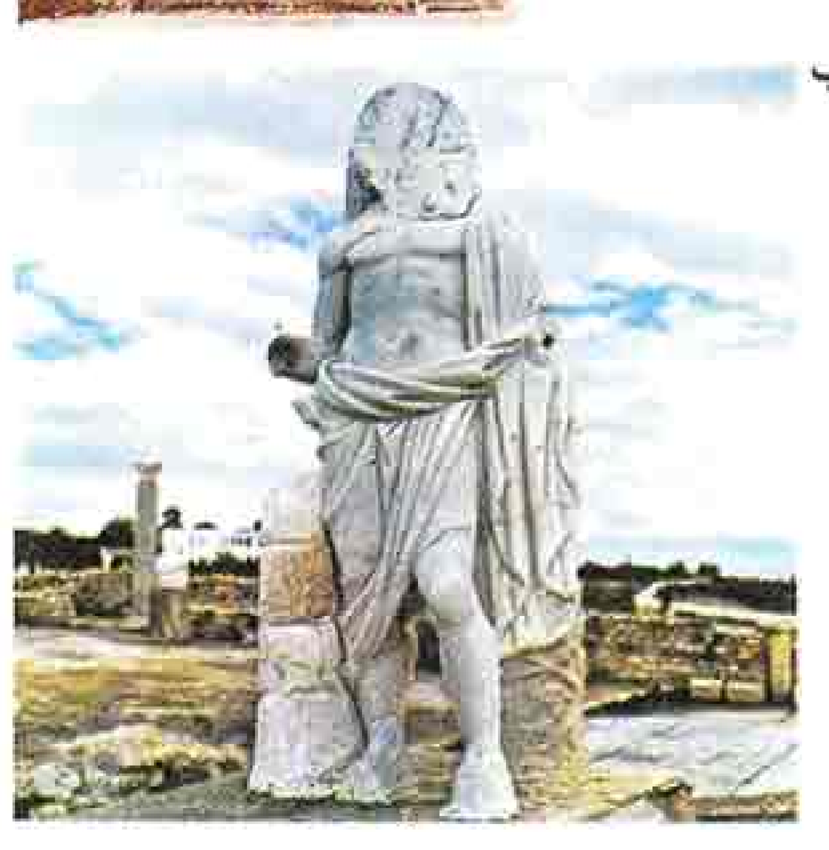
٥



٦ أ



ب



(٥) ـ في العصر البيزنطي شاع استعمال الفسيفساء شيوعا كبيرا في شمال افريقيا شيوعه في المشرق . بعض المدن الرومانية كانت تبالغ في طلبه وتزيين أرض الأبنية به ومجموعة الفسيفساء الأرضي في شمال افريقيا لا تضاهي جمالا ودقة في الصنعة ومواضيعها عامة على اقسام ثلاثة : بعضها يصور مشاهد من الحياة اليومية وبعض يصور مشاهد من الاساطير الرومانية اليونانية ، وقسم ثالث يصور مشاهد دينية مسيحية . هذه القطعة من الفسيفساء ، حمام فينوس من بلدة (جميلة) وفيها المشهد الاسطوري الروماني . لأن البلدة كانت مستعمرة رومانية . مثلها كمثل رجيوس في الجزائر (بونة أو عنابة) وطبرقة في تونس وزليطن في ليبيا .

(٦) ـ مع دخول المسيحية الى شمال افريقيا . بدأ يغيب عن الجو الفني لون أساسي كان يزين الساحات والأبنية الاغريقية والرومانية هو تمثال المعبودات والاباطرة لتحل محله الصور والنقوش والفسيفساء ذات الموضوع النصراني . مشاهد حياة المسيح صارت المواضيع المفضلة . توقف ايضا بناء المسارح والأسواق العامة والمعابد التقليدية والملاعب . واتجه الاهتمام الى بناء الكنائس وتزيينها الديني . وهكذا لم يعد يرى الناس اقامة مثل هذا التمثال (ب) وكثرت بالمقابل نماذج النقش كما نرى في (أ) الذي يمثل المسيح مع السامرية عند البئر وهو من القرن الثالث . (النقش في متحف باردو بتونس) .

الساحل وطرابلس سنة ٤٥٥ . القائد الروماني بونيفاس لم يجد أمامه بعد الهزائم المتكررة سوى الانسحاب . وتحررت افريقيا من الرومان .

تمزق الفاندال

شن الفاندال من قواعدهم الافريقية الجديدة حملات برية وبحرية على اسبانيا وعلى ايطاليا . وتمكنوا سنة ٤٥٥ من دخول روما ونهبها أسبوعين . بدا كأن عهدا جديدا قام في شمال افريقيا بتحالف الفاندال والبربر ضد روما . لكن دولة غيسيريك ما لبثت ، اثر موته سنة ٤٧٧ ، أن تمزقت بين اربعة ملوك . وقام التناحر قرابة عشرين سنة قبل ان يستقر الحكم بيد تراساموند (رابع ملك فاندالي) (٤٩٦ ـ ٥٢٣) . ثم تكرر التناحر من بعده بينما كانت عوامل أخرى تعمل لتدمير هذه المملكة والشعب الفاندالي كله .

قامت الخصومة السياسية والدينية بينهم وبين أهل البلاد بسبب قسوة الحكم المطلق الذي مارسوه ، ورغبتهم في نشر المذهب الأريوسي الذي يعتنقونه . هرب الكثير من السكان ومن رجال الدين الى امبراطور بيزنطة يستنجدون . انتهى الأمر الى هزيمة الفاندال سنة ٥٢٧ وتكاثفهم في المدن .

بيزنطة والشمال الافريقي

قبل ذلك بزمن كانت روما قد سقطت نهائيا سنة ٤٧٦ وصار ارثها في الغرب نظريا الى بيزنطة . الامبراطور البيزنطي جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) كان من طموحاته اعادة استملاك امبراطورية روما في الغرب . انتهز مناسبة الصراع في الأسرة الحاكمة الفاندالية وأعلن الرغبة في تخليص افريقيا من حكم الاريوسيين الهراطقة . أرسل قائده بليزاريوس في اسطول ضخم حطم قوى المملكة (٥٣٣ ـ ٥٣٤) واحتل البلاد . ونفى الزعماء عبيدا الى القسطنطينية . حرب الابادة التي مارسها بعد ذلك خمس سنوات محت الفاندال نهائيا من شمال افريقيا . ذابت بقاياهم في السكان بينما ضمت بيزنطة سردينيا وكورسيكا الى شمال افريقيا تحت امرة حاكم واحد ، وان قسمت الى سبع ولايات .

رغم أن مظاهر الحضارة البيزنطية تسربت الى الشمال الافريقي ، ورغم ما ربحته بعض الطبقات والمدن من الغنى الاقتصادي ، لم يسلم أهل البلاد البربر بدورهم من عدوان القوة البيزنطية . باسم النظام الروماني والقضاء على البدع وتوطيد الكنيسة الرسمية ، أعملت فيهم القتل والتدمير ، ونهب الموارد . في مأدبة عشاء في لبدة سنة ٥٤٤ ذبح البيزنطيون ثمانين من زعماء القبائل . الثورة التي تلت ذلك استمرت عشرين سنة . لم ينجم عنها طرد البيزنطيين ، ولكنها وطدت الحقد في انتظار الفتح العربي القادم . وجعلت السلطة البيزنطية أواخر القرن السادس مقصورة على الشريط الساحلي ، والحاميات الحدودية .

بصورة عامة ، جرى العصر الروماني ـ البيزنطي رغم امتداده سبعة قرون على سطح حياة الناس . لاتينية الرومان أو يونانية بيزنطة ذهبتا معهم . طرائق الحياة التي حاولوا زرعها في مدنهم لم تخلف أي تقاليد . حتى القلائل الذين تأثروا بهم سواء أيام الرومان ، كالملك يوبا ، أو أيام بيزنطة ، كالقديس أوغسطين ، لم يستطيعوا خلق تيار روماني باق . ساعد على التحرر النهائي منهم مجيء الفتح العربي بعد سنة ٦٤٠ .

دول عرب الجنوب

اذا كان تاريخ العرب القديم ، في الخليج وعمان أو في الحجاز ونجد هو اليوم قيد الاكتشاف المستمر ، واعادة الكتابة ، فتاريخ اليمن وجنوب الجزيرة العربية كان معروفا منذ القديم بأنه تاريخ حضارة متقدمة . اليونانيون سموا تلك البقاع « بالبلاد العربية السعيدة » . معلوماتنا عن الحضارات القديمة هناك كثيرة ، منذ زمن طويل . لكنها تتجدد وتزداد ايضا باستمرار ، بما يكتشف من آثارها ، وما يقرأ من نقوشها وكتاباتها ، رغم ان الحفريات الأثرية هناك لم تأخذ بعد الاتساع الذي تستحقه .

خطوات التاريخ الاولى من اليمن لا ترجع الى أقل من ثلاثة الى اربعة آلاف سنة

١

(١) ـ تتداخل مواقع الدول اليمنية القديمة بسبب تفاوت عصورها وحلول بعضها محل بعض ، على امتداد ستة عشر قرنا تقريبا . المواقع التي يحددها المصور انما تذكر الدول في مواقعها الاصلية وحول عواصمها . وتذكر الدول البارزة فحسب . ثمة دول صغيرة أخرى منها الجبائيون (مملكة جبأ) ، ونجران التي لا يعرف من تاريخها القديم الا النذر اليسير .

٢

(٢) ـ كان اليمنيون تجارا ، ويحتاجون الى الأرقام والأعداد في حساباتهم . وكانت لهم

٣



قبل الميلاد . لكن المؤرخين لا يتوقفون كثيرا عندها رغم ثقتهم منها ومن أهميتها ، وذلك لقلة المعلومات عنها ، وندرة الحفريات ، فهم يكتفون ، أحيانا كثيرة ، باستعراض مراحل التاريخ اليمني الواضحة ، وخاصة منذ مطالع الألف الأول قبل الميلاد . وان كانوا يرجعون سكنى الشعوب اليمنية المعروفة في تلك البلاد الى حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م .

أعانت التنقيبات الأثرية ، رغم قلتها في اليمن ، على تنظيم مراحل تاريخها بشيء من الدقة ، رغم اختلاف الآراء في بعض النواحي . هكذا نعرف من الدول التي توالت على أرض اليمن (١) عدة دول .

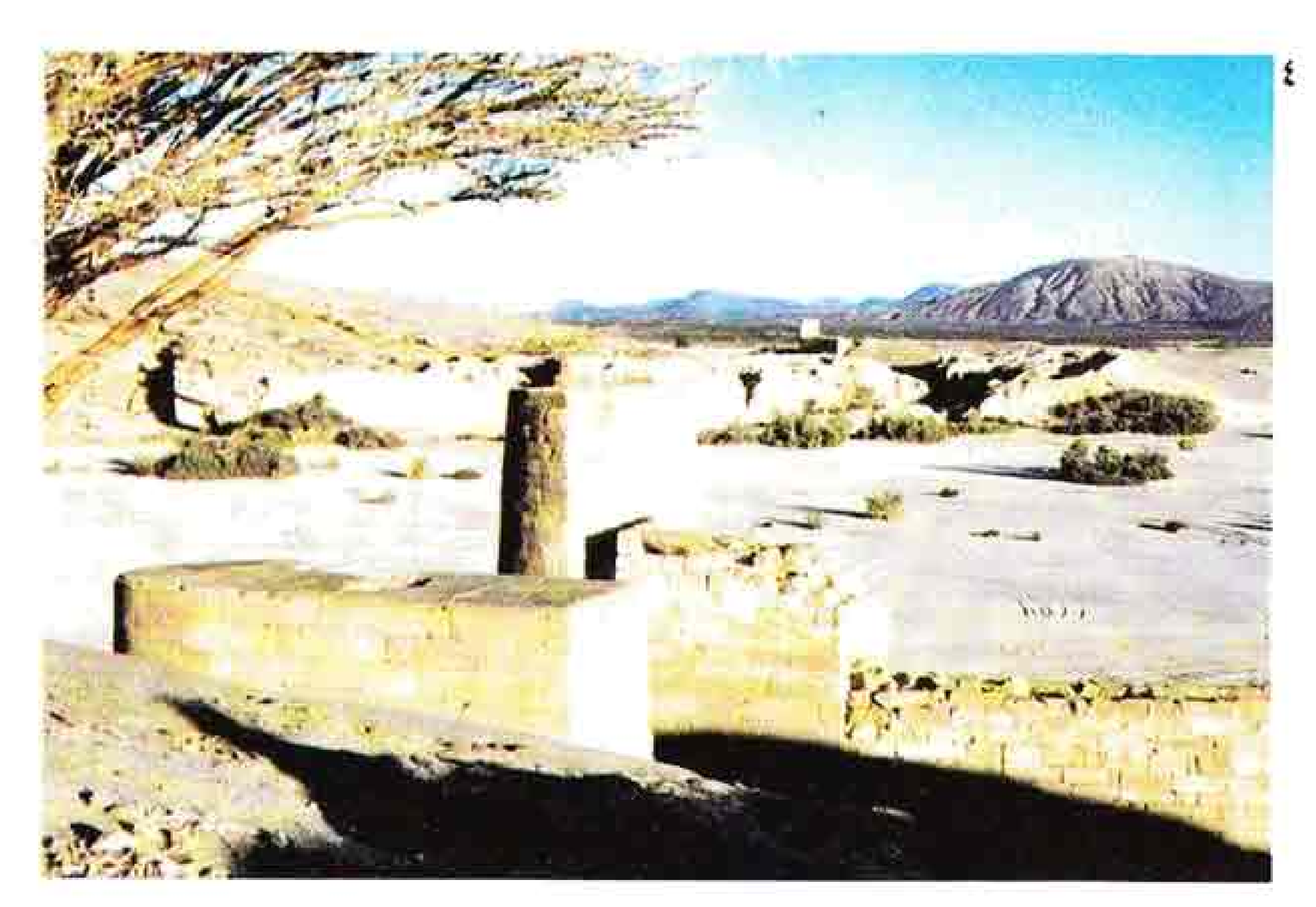
الدول القديمة :

دولة اوسان : ليس من الواضح متى بدأت هذه الدولة اليمنية ولكنها انتهت في النصف

بالفعل سلسلة الأرقام التي أخذت من مطالع الكلمات الدالة عليها . (الصورة) . أما كتاباتهم بالمسند فنرى في السطرين نموذجا منها مترجم الأحرف الى العربية .

(٣) ـ كان لأهل اليمن وبخاصة لمعين محطات تجارية هامة في العلا والجوف تختلط آثارها بالآثار اللحيانية والنبطية والثمودية . رأس التمثال (الصورة) لحياني من القرن الثالث ق . م . وجد في العيص قرب ينبع النخل .

٤



(٤) ـ سد مأرب أشهر سدود التاريخ القديم (٦٠٠ م × ١١٠ م × ١٥ م) . واحد من عشرات السدود في اليمن القديمة . أخذ شكله النهائي ايام شمر يرعش (حوالى سنة ٣٠٠ م) . أصلح مرات آخرها سنة ٥٤١ م . يعزى الى انهياره هجرة الأزد الى الشمال والواقع ان ضعف التجارة هو السبب .

٥



(٥) ـ نقود اليمنيين قلدت النقود الهلينستية . في الصورة نقود سبئية فضية تحمل رسوم الدراخما .

الأخير من القرن الخامس ق . م . على يد كرب إل ملك سبأ . كان نفوذها يمتد على السواحل المواجهة لافريقية ، ما بين حضرموت الى عدن . كانت تنافس سبأ منافسة قوية ، ولملوكها صفة دينية . ظلت قبائل أوسان واضحة الوجود والذكر ، بعد زوال نفوذها السياسي ، حتى القرن الثاني للميلاد ، حين دمرت مدنها وحصونها ، في بعض الحروب بين سبأ وقتبان .

دولة معين : قامت في منطقة الجوف وهي من أخصب بقاع اليمن . استمرت من القرن ٨ ق . م . الى ان زالت حوالى نهاية القرن الاول ق . م . عاصمتها قرناو (خربة معين اليوم) . ومن مدنها يثيل (براقش الحالية) التي كانت المركز الديني الرئيسي لسكان المنطقة . امتد نشاط معين التجاري (٢) أوسع بكثير من نفوذها السياسي . من المصادر عن نشاطها نقوش في العلا بأعالي

٦



(٦) - الواقع الجغرافي فرض نفسه على تاريخ اليمن وبخاصة تاريخها القديم . الجبال العالية المقطعة بالوديان (الصورة) جعلها اعدادا من الدول الصغيرة المتفرقة وحفظ فيها ترابط النظام القبلي مع الأرض وأرغمها على بناء السدود في الوديان وزراعة المدرجات . كما دفعها عند التكاثر الى التماس الرزق في التجارة أو الهجرة . والى الحروب المحلية بين المجموعات السياسية المتنافسة .

٧



(٧) - منظومة الفكر الديني اليمني ما تزال مجهولة . جمع الباحثون أكثر من ١٠٠ اسم من اسماء المعبودات . أشهرها : ألمقة = القمر . ظل نحوا من ألف عام هو الأول فيها عامة ومعابده أكبر المعابد ومنها معبد مأرب (الصورة الأعمدة الباقية) . ومثله المعبود عثتر (يمثل الزهرة) . وهناك المعبود (ود) اله الحب وغيرها . كانت المعابد غنية وكهنتها أقوياء في المجتمع حتى الحكم كان تيوقراطيا .

الحجاز . ووجدت بعض نقوشها في كريت . يبدو من النقوش ان معين كانت متحالفة سياسيا وتجاريا مع حضرموت .

قتبان وحضرموت

الحفريات التي جرت سنة ١٩٥٠ في موقع تمنع ، عاصمة دولة قتبان (تمنع هي هجر كحلان اليوم في بيحان) أخرجت بعض المخربشات التي ترجع بدء هذه الدولة الى القرن ١١ أو ١٠ ق . م . حكمها ملوك بلقب مكرب منذ القرن السابع ق . م . في القرن الرابع كانت قتبان تسيطر على الشريط الساحلي ما بين باب المندب الى ما وراء عدن . بلغت ذروة قوتها في القرن الأول ق . م . ثم انطفأت أواخر القرن الأول الميلادي تحت ضغط دولة حمير . وأحرقت عاصمتها . ما تزال في آثارها بقايا الحريق . أقام القتبانيون عاصمة جديدة لهم بعد ذلك لكنهم سرعان ما انضووا تحت لواء سبأ .

أما دولة حضرموت ، فثمة اختلاف في بدء ظهورها ولعل ذلك كان في القرن الخامس ق . م . وان كان بعضهم يرجعها عدة قرون الى الوراء . بدأت في وادي حضرموت . لكنها امتدت نحو الساحل فضمت مهرة وظفار . عاصمتها شبوة . كانت على علاقة تحالف مع معين ، في قرون ما قبل الميلاد . استفادت من سقوط قتبان للسيطرة على بعض ارضها ، الى أن ضمها ملك حمير الى مملكته ، في القرن الرابع للميلاد .

سبأ وحمير

من الأرجح ان السبئيين جاؤوا اليمن من الشمال حوالى سنة ١٢٠٠ ق . م . تشكلت دولتهم في صرواح حوالى القرن الثامن ق . م . أو قبله بقليل . لكن سلطانها اتسع تدريجيا بعد ان انتقلت العاصمة الى مأرب حوالى سنة ٦١٠ ق . م . قبل القرن الخامس كان السبئيون قد اجتازوا البحر الاحمر الى البر الافريقي . كانت لهم علاقات مع الاشوريين في اعالي الشام وما بين النهرين . توسعت مملكة سبأ على حساب الدول المجاورة . قامت من أجل ذلك بحروب عديدة مدمرة ، أدت في النهاية الى ضعفها الذي يرمز له بانهيار سد مأرب (٤) وانتقال عاصمة الملك سنة ١١٥ ق . م . الى ريدان (ظفار على بعد ١٠٠ ميل من مخا) وبدء دولة حمير التي تفرعت عن سبأ ، وظهر اسمها لأول مرة في النقوش سنة ١١٥ بوصف ملوكها ملوكا لسبأ وذي ريدان . امتد عهدها الاول حتى عهد ملكها شمر يرعش (٢٧٥ ـ ٣٠٠ م) وعهدها الثاني حتى سنة ٥٢٥ م (وهو عهد التبابعة) حين سيطرت على اليمن وحضرموت وتهامة . حلت عاصمتها ظفار محل مأرب وقرناو في أوج ازدهارهما . حاول الرومان بعد سيطرتهم على الحوض الشرقي للمتوسط في القرن الاول ق . م . الاستيلاء على اليمن (حملة ايليوس غالوس سنة ٢٥ ق . م) ففشلوا ، بينما نجح الأحباش (وكانت حمير سيطرت عليهم منذ القرن الأول ق . م .) في غزو اليمن بتحريض الروم سنة ٥٢٥ م . وقد حاولوا السيطرة على طريق التجارة العالمية عبر مكة الى الشام في حملة « أصحاب الفيل » المشهورة . لكنهم فشلوا . ثم استطاعت اليمن التحرر منهم على يد سيف بن ذي يزن الذي أعانه الفرس على ذلك ، بسبب مصلحتهم التجارية والسياسية .

حضارة عرب الجنوب

التقدم الحضاري الذي عرفه الجنوب منذ مطالع الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن السادس بعده ، يضع اليمن في مصاف الحضارات الاولى في العصور القديمة . المراكز الحضارية تعددت كثيرا فيها . كما انتقل التألق أحيانا من مركز الى آخر حسب العصور . لكنها جميعا اشتركت في ملامح حضارية واحدة وفي منح اليمن لقب « البلاد العربية السعيدة » .

ليس يعرف بالضبط أصل التكونات البشرية في اليمن . يظن انها هجرات قديمة من الشمال أو الغرب . المناخ والأمطار والخصب في الوديان والسفوح سمحت بالتوطن المتكاثف ونشوء الزراعة والقرى ،

(١) ـ الحضارة اليمنية القديمة ولدت في البر والبحر معا . الخصب الزراعي كان يقابله المغامرة البحرية . اليمنيون كانوا فينيقيي المحيط الهندي . احتكروا هذا المحيط حتى القرن الخامس عشر . بينما ضاع الفينيقيون في الزحام على البحر المتوسط . هذا المركب البسيط تطور لديهم الى مراكب ضخمة وصلت شرقي افريقيا وسواحل الهند بعد أن كشفوا سر الرياح الموسمية .

(٢) ـ فن النحت اليمني متنوع لا في الموضوع فحسب ولكن في الاتقان الفني ايضا والسبب في ذلك تعدد عصوره التي استمرت ١٥ قرنا على الأقل واختلاف شعوبه وتباين طبقات وبراعات منتجيه بالاضافة الى ان بعض الآثار الباقية منه مستوردة او مقلدة لأعمال الفن الهلينستي ان لم يكن النحاتون أنفسهم ممن جيء بهم الى اليمن لبعض أعمال النحت وهكذا فان الازميل الذي نحت عددا من نقوشهم هو ازميل بدائي . بينما يعبر الوجه القبري (أ) الرخامي عن درجة عالية من دقة النحت والتعبير المتأثرة بطرائق الاغريق . وكان في مكان العينين حجر كريم أبيض . على العادة في عدد من تماثيل اليمن . وأما التمثال الملكي (ب) فيكاد يكون في ملامح الرأس والموقف والأيدي من تماثيل ما بين النهرين المتقنة الدقيقة التعبير .

(٣) ـ البناء العالي من عدة طوابق هو من تقاليد اليمن المعروفة منذ قرابة ثلاثين قرنا . هذا المنظر الحديث لبيوت مأرب الحالية وحصنها يذكر بقصور اليمن التي أطنبت كتب التاريخ في وصفها . حتى يكاد بعض هذا الوصف يعتبر خياليا . من تلك القصور غمدان بناه اليشرح يحصب ، في صنعاء ، في القرن الأول للميلاد وظل قائما الى زمن عثمان بن عفان . وصفوه بأنه كان عشرين سقفا غرفا بعضها فوق بعض وقد أطبق السقف الأخير برخامة واحدة شفافة . يرى الطير من خلالها . ومن القصور الأخرى قصر ناعط ويلي غمدان في الفخامة .

١



٢



فحضارة اليمن هي في الاصل زراعية . وقد تطورت لديهم تقنيات الزراعة والري تطورا كبيرا . كانوا يزرعون السفوح بعد تحويلها الى مدرجات ،ويحفرون الآبار والصهاريج في الصخر ويقيمون السدود على مجاري السيول . ويمدون منها القنوات المنظمة الى مسافات بعيدة وينشؤون الجنات . في اليمن حتى اليوم بقايا المئات من هذه السدود التي اشتهر منها سد مأرب وهو من عجائب الفن الهندسي .

تجارة اليمن

لم يعتمد الاقتصاد اليمني على الزراعة فقط ولكن على التجارة في الدرجة الأولى (١) . النشاط التجاري هو الذي منح اليمن غناها وشهرتها . استفادت في ذلك من عوامل عديدة ، منها ندرة منتجاتها الخاصة المطلوبة عالميا كالبخور للمعابد وغيرها . حضرموت هي التي تنتج اصنافه الجيدة (اللبان) والعود . كما ينتج المر والصمغ في الصومال

ب







وفي الجنوب اليمني ايضا . استفادت اليمن ايضا من اطلال شواطئها على المحيط الهندي ، وكثرة موانئها الطبيعية عليه ، ومعرفة ملاحيها بأسرار الرياح الموسمية ، وتنوع منتجات الهند وافريقيا ، وغلائها والطلب عليها في حوض المتوسط . كالتوابل والقرفة (الدارسين) والعسل والشمع والبهارات والأحجار الكريمة والزعفران والابنوس وأنواع الانسجة الارجوانية والموشاة بالذهب والقطنية والحريرية . حافظ اليمنيون الى ذلك على اسرار مصادر هذه البضائع وأحاطوها بالأساطير المخيفة أحيانا . ضمنوا بهذا احتكارها لأنفسهم ما يزيد على عشرة قرون . أقام أيضا اليمنيون شبكة من الطرق البحرية في المحيط الهندي وجعلوا من بلدانهم وموانئهم مخازن تجميع للبضائع ومحطات تحرك . كذلك نظموا طرقهم البرية المتصلة بما بين النهرين والشام ومصر ، عبر الجزيرة

٤

٥ أ



ب



(٤) ـ اقتبست الألفباء اليمنية القديمة (المسند) في البداية عن الألفباء الكنعانية ـ الفينيقية التي شاعت في سورية منذ القرن ١٤ ق . م . وهيْ أحرف ليس فيها حروف علة . وتظهر الوثائق المنقوشة عليها في هيكل فينوس ـ الزهرة . من أطلال تمنع أن ترتيب الحروف الأبجدية اليمنية ترتيب خاص . أما اتجاه الكتابة فكان قبل القرن السابع ق . م . من اليمين الى الشمال كالعربية . وقد كان في القرنين من ٧ الى ٥ ق . م على الطريقة الاغريقية القديمة وتسمى طريقة دوران الثور . فالسطر الأول ينتهي في الشمال ليبدأ الثاني من الشمال وحين ينتهي يبدأ الثالث من اليمين وهكذا . على ان النقوش كتبت بعدة لهجات لغوية . ونقوش قتبان المبكرة مثلا كتبت بلغة خليط من لهجتي قتبان وسبأ . وقراءة أحرف المسند سهلة لأن اللغة العربية الجنوبية احتفظت بأنقى أصوات الحروف وكتبتها . ففي الحميرية ٢٩ حرفا (ولا حروف علة فيها) وفي العربية ٢٨ (منها حروف العلة الثلاثة المزدوجة مع مخارجها) . في الصورة نقش أثري محفوظ في المتحف بصنعاء وهو نموذج من ألوف النقوش الموجودة .

(٥) ـ النقوش التي تركها اليمنيون والتي تمثل جوانب من الحياة العامة ليست كثيرة ولكنها في معظمها تتصل اما بالزراعة أو بالتجارة . النقش (أ) نقش على حجر مدفن فيه فلاح يقود ثورين ومن فوقه كتابة بالمسند . والنقش من حوالى القرن الرابع أو الخامس ق . م . النقش الآخر (ب) يمثل وسيلتي النقل والتجارة اليمنية ، الحصان والجمل وهو من العهد الحميري .

العربية . أعانهم على ذلك استئناسهم المبكر للجمال . واقامة مستعمرات من المحطات التي تسكنها جاليات منهم تؤمن التموين والحماية للقوافل .

حاول الرومان والاغريق منذ القرن الاول ق . م . التعرف الى اسرار الملاحة في المحيط الهندي . نفذوا تدريجيا اليه أول الأمر . فلما سيطروا على البحر الاحمر في العصر الحميري الاخير ، ضعفت التجارة اليمنية ودخلت في دوامة المنافسة السياسية - الدينية التي قامت (بتحريض الروم والمسيحية) بين الحبشة واليمن ، وانتهت بسيطرة الحبشة عليها . فلما وجد الساسانيون ان تجارة اليمن صارت في مصلحة الروم جهزوا حملة أعانت على تحرير اليمن ، ليضمنوا بذلك السيطرة على تجارة المحيط الهندي عبر الخليج واليمن معا .

الصناعة والعمران

مع النشاط التجاري ، اشتهرت اليمن بعدد من الحرف كالسيوف اليمانية والرماح الخطية ، وصياغة الحلى مع الحجارة الكريمة ، والنسيج (البرود المخططة) والتعدين واستخراج الذهب . ساعد الغنى على تطور العمران والتقدم في هندسة البناء (٣) وقيام عدد كبير من المدن الرائعة (براقش ، مأرب ، قرناو ، ظفار ، تمنع ، تريم ، شبوة ، موزا ، صرواح ، نجران) فيها القصور ذات الطوابق العديدة (مثل غمدان) حتى دعيت اليمن بلاد القصور . وفيها المعابد الضخمة الكثيرة (في تمنع وحدها ٦٥ هيكلا) . هذا عدا الاسوار حول المدن والقلاع وعدا المنحوتات المختلفة (٢) .

الكتابة والدين

كان لأهل اليمن لغتهم العربية المختلفة الى حد ما عن اللغة الحالية . كانت تحوي عددا من اللهجات . لها كتابة تسمى المسند (= الخط) مأخوذة عن الفينيقية تتكون من ٢٩ حرفا (٤) . تكتب منفصلة عن بعضها البعض . ومعظمها له شكل الخطوط العمودية . نقوش اليمن كلها مكتوبة بالمسند . أقدمها يعود الى القرن التاسع ق . م . ظل هذا الخط معروفا حتى ما بعد الاسلام بأربعة قرون .

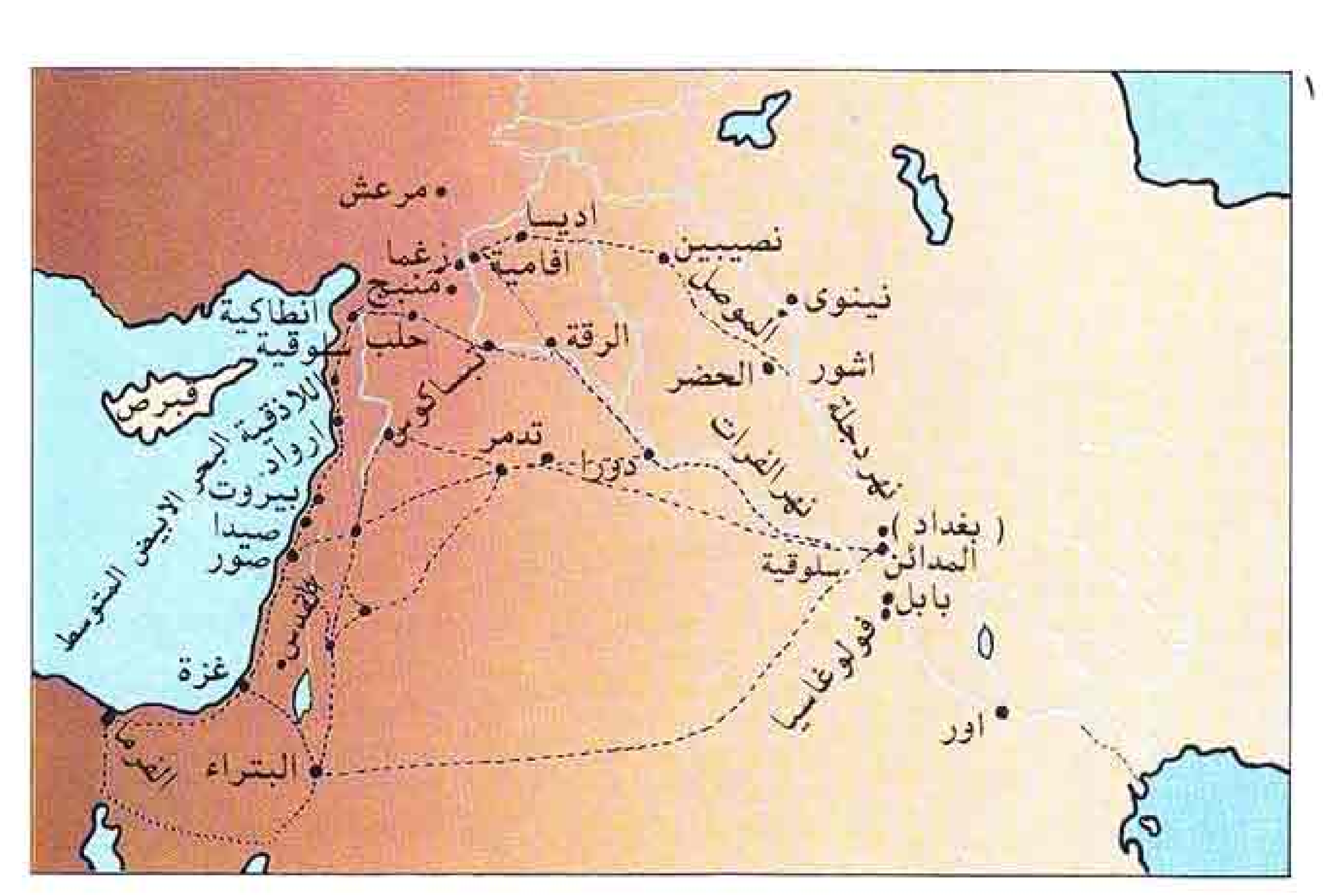
أهل اليمن كانوا عميقي التدين . عبدوا معبودات شتى وأقاموا المئات من المعابد . أشهر المعبودات مثلث الزهرة - الشمس - القمر (عثتر - ود أو المقه - نكرح) . كما عبدوا إل الذي كان اسمه يتصل بعدد من اسمائهم . وذي سماوي (اله السماء) . كان لديهم طبقة كهنوتية ذات نفوذ . تسربت اليهودية الى اليمن قبل عهد المسيح كما تسربت بعد ذلك المسيحية . اعتنق الملك الحميري ذو نواس اليهودية كيدا بالأحباش ، وأجبر المسيحيين على اعتناقها بالقتل والتحريق (حادثة الاخدود). كان من نتائج ذلك حملة الأحباش - بتحريض من الروم - على اليمن واحتلالها . وبناء كنيسة القليس الشهيرة في نجران . حاولوا احتلال مكة في حملة الفيل سنة ٥٦٥ المعروفة .

حضارة عرب الجنوب كان لها امتداد عبر البحر الأحمر قامت عليه حضارة أكسوم . كما ان جماعات يمنية هاجرت في مناسبات مختلفة نحو الشرق والشمال قبل الميلاد وبعده . منها قبائل الازد التي أهلت عمان وعسير ، ومنها جماعات الغساسنة ولخم والمناذرة وكندة وطي .

دول عرب الشمال

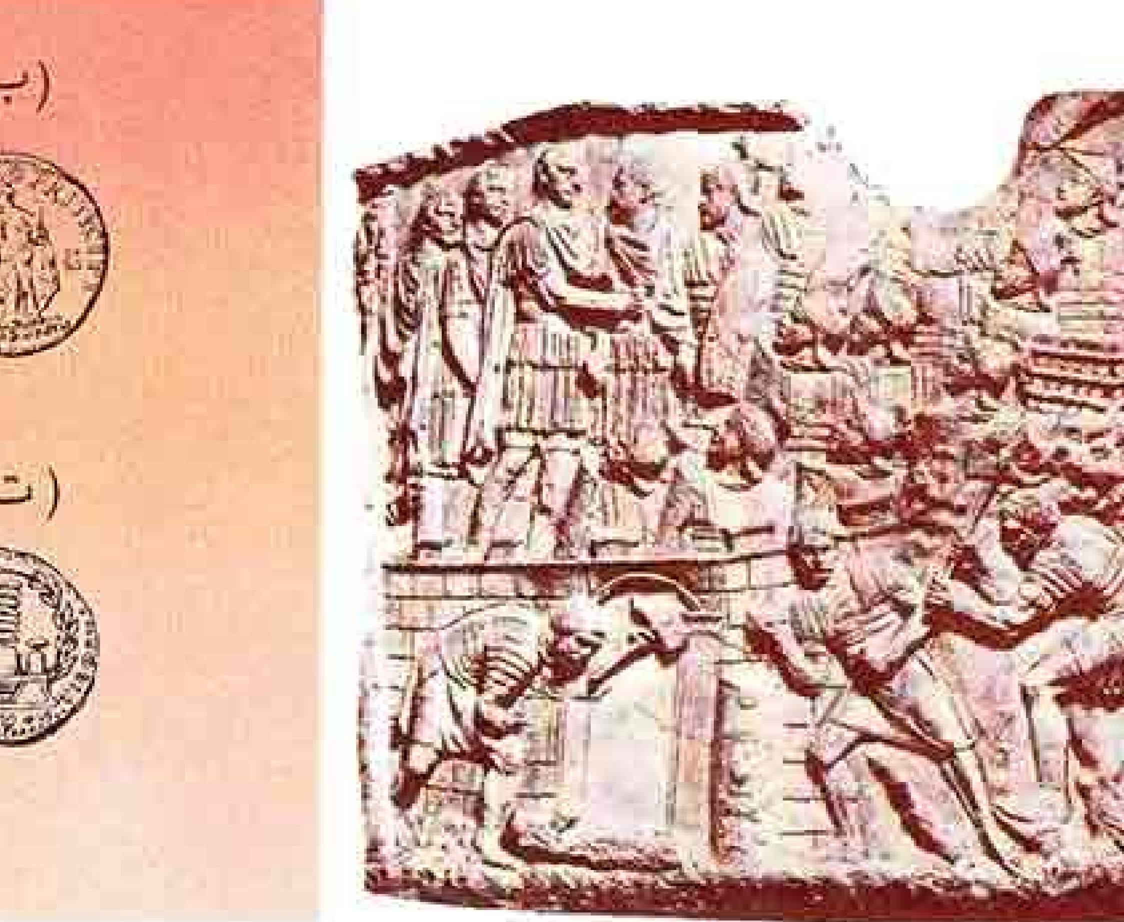
العلاقات بين الجزيرة العربية والهلال الخصيب عبر طرفيه الشرقي (جنوب العراق) والغربي (جنوب الشام) علاقات قديمة . واذا كانت أخبارها التاريخية الثابتة تعود الى مطالع الألف الأول قبل الميلاد وتتحدث عن الثموديين واللحيانيين وعرب الجوف فانها كانت قائمة قبل ذلك . ولم تنقطع أبدا بعد ذلك . وحين كانت هذه الجماعات العربية تتراجع في التجارة والقوة خلال العهد الهلينستي (في القرون الثلاثة السابقة للميلاد) .كانت شعوب عربية أخرى تقوى لتحل محل السابقين . ولتؤلف دولا ذات مكان معروف واضح في الحضارة والتاريخ والعمل التجاري (١) . ومنها بنو الأبجر في

١



(١) ـ المثلث الممتد ما بين تدمر وخليج العقبة والخليج العربي كان خلال القرون التي سبقت الميلاد والتي أعقبته عقدة المواصلات التجارية كلها في العالم القديم . القوافل كانت تخلق محطاتها في شبكة واحدة تغطي المنطقة وتتفرع منها .

٢ أ





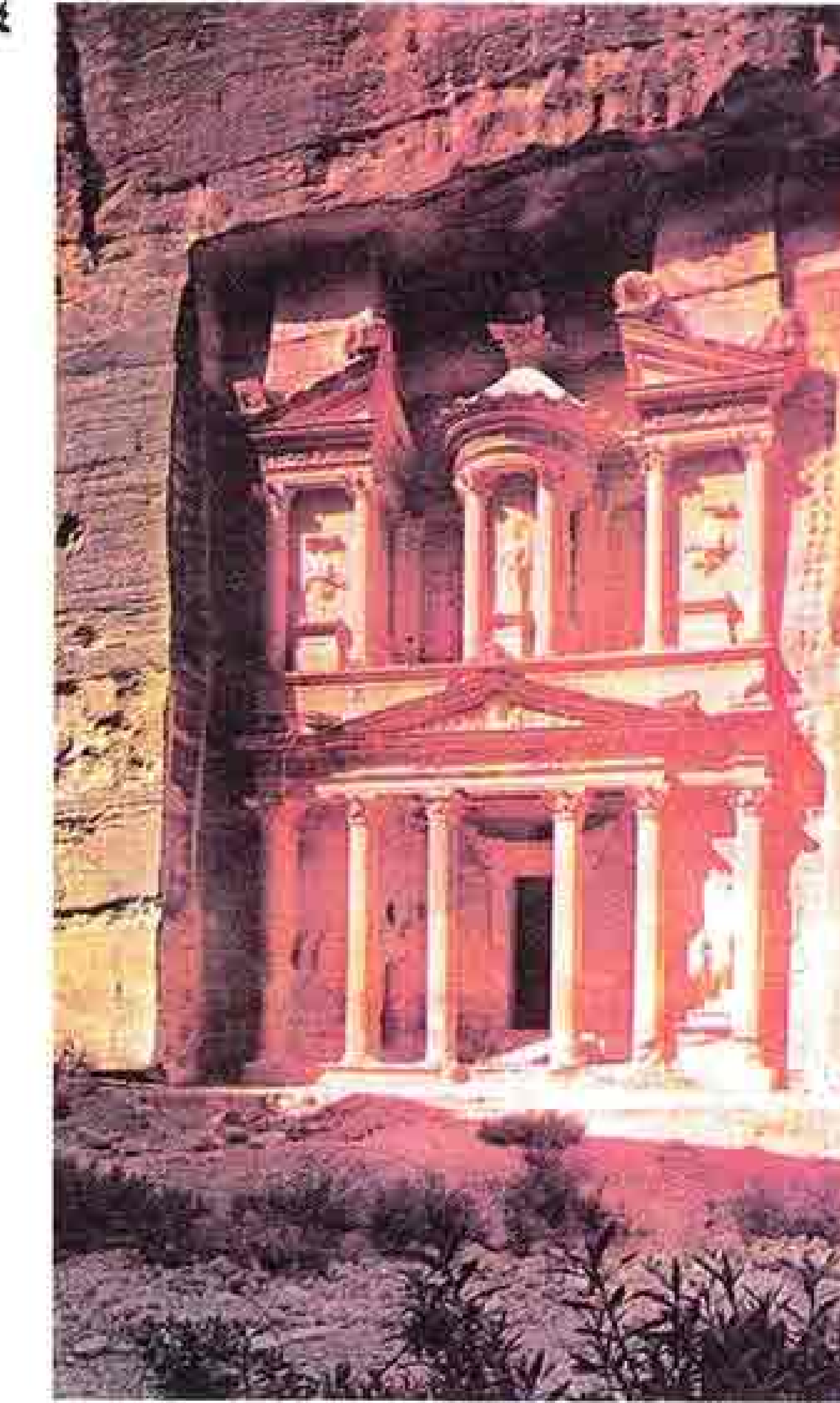
(٢) ـ تسلم الأمبراطور تراجان حكم الامبراطورية الرومانية ما بين سنتي ٩٨ ـ ١١٧ م . بعد أن قضى على مملكة الأنباط سنة ١٠٦ بدأ العمل مباشرة في اقامة عمود تذكاري يخلد حروبه المختلفة وانتصاراته . استمر نقش هذا العمود سبع سنوات . هذه اللوحة (أ) منه يظهر فيها تراجان وهو يتحدث الى جنوده في المعسكر . معظم النقوش تتعلق بحروبه في داسيا (رومانيا) . حين ضم الأنباط الى الامبراطورية أصدر ميدالية تذكارية (ب) يخلد فيها أيضا نصره . بينما سمح لبصرى أن تصدر نقدها الخاص وعليه صورته . وصورة معبودها ذي الشرى (ت) .

الرها . وشمس الكرام في حمص واليطوريون في عنجر . على أن أهمها :

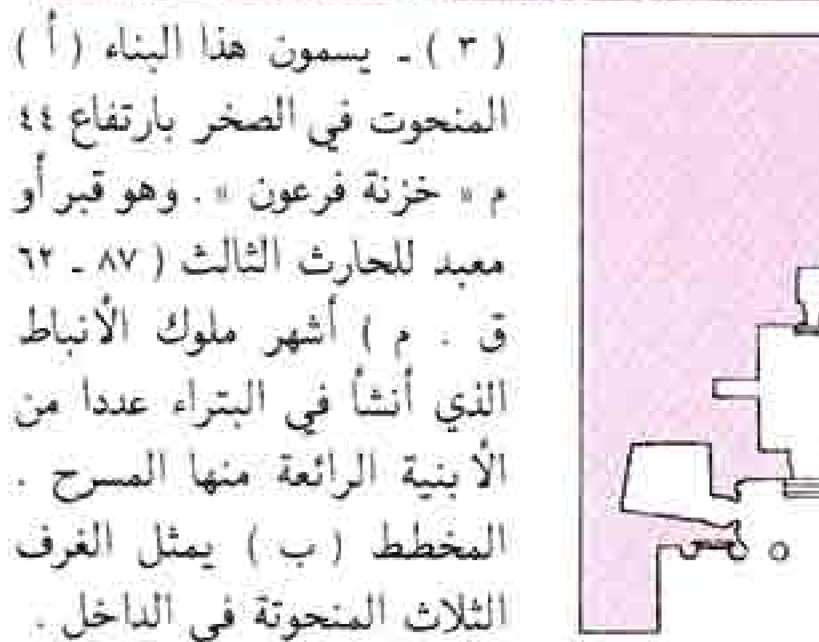
١ ـ الأنباط :

هم في الأصل من عرب جنوبي الجزيرة . ورد ذكرهم في النصوص الاشورية منذ مطالع القرن السابع ق . م . وقد استوطنوا الجزء الجنوبي من الأردن . وقويت شوكتهم هناك بالتدريج منذ القرن الخامس ق . م . اذ اصبحت بلادهم وعاصمتهم البتراء مركزا هاما لقوافل التجار بين الجنوب وثغور البحر المتوسط . بلغت مملكة الانباط أوج عزها في القرن الذي سبق الميلاد والقرن الذي لحقه ووصلت سلطتها الى دمشق (٣) . حافظوا على منعتهم واستقلالهم تجاه السلوقيين ، ثم أيام الرومان الذين احتلوا سورية ثم مصر (سنة ٦٥ ثم سنة ٣١ ق . م) . تعاونوا مع الطرفين . لكنهم في النهاية ما لبثوا ان

٣ أ

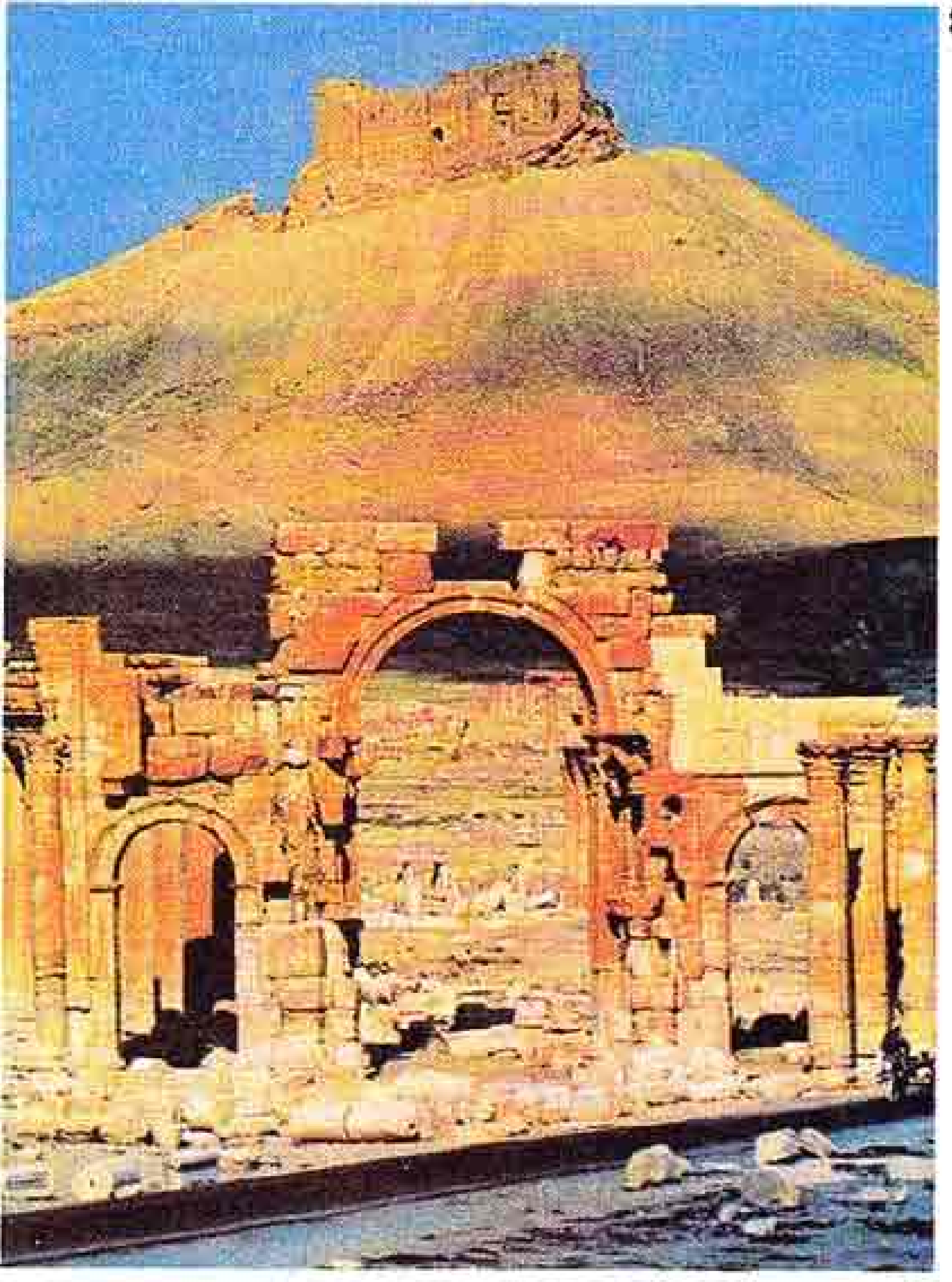


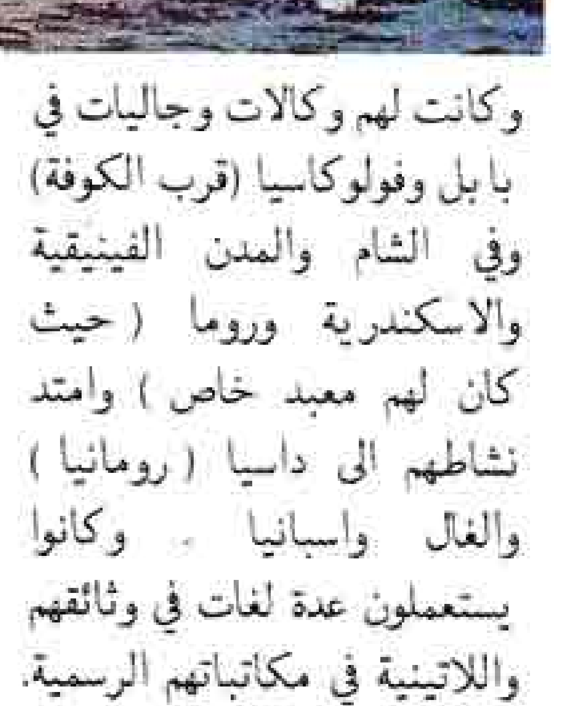
ب



(٣) ـ يسمون هذا البناء (أ) المنحوت في الصخر بارتفاع ٤٤ م « خزنة فرعون » . وهو قبر أو معبد للحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ ق . م) أشهر ملوك الأنباط الذي أنشأ في البتراء عددا من الأبنية الرائعة منها المسرح . المخطط (ب) يمثل الغرف الثلاث المنحوتة في الداخل .

٤





(٤) ـ كانت تدمر فيما بين القرنين الثاني والثالث للميلاد مركزا عالميا للتجارة تمر به بضائع الصين والهند والجزيرة العربية الى روما عبر انطاكية وافسوس ورودوس وبيريه . لم يكن التدمريون مجرد نقلة للتجارة ولكن تجارا لحسابهم نظموا القوافل والمحطات . وكانت لهم وكالات وجاليات في بابل وفولوكاسيا (قرب الكوفة) وفي الشام والمدن الفينيقية والاسكندرية وروما (حيث كان لهم معبد خاص) وامتد نشاطهم الى داسيا (رومانيا) والغال واسبانيا . وكانوا يستعملون عدة لغات في وثائقهم واللاتينية في مكاتباتهم الرسمية.

اصطدموا بالجشع الروماني أكثر من مرة حتى احتل تراجان (٢) عاصمتهم سنة ١٠٦ ثم أضحت بلادهم مقاطعة رومانية سنة ١٦٠ م . باسم الولاية العربية الصخرية . شملت بلدة بصرى التي جعلت عاصمة لها ، وربطت مع خليج ايلة (العقبة) بطريق روماني . مع ان سلطان الانباط السياسي قد زال فان نشاطهم التجاري استمر عدة قرون بعد ذلك . وكانت قوافل « النبط » في اوائل الدعوة الاسلامية تسير بين الجوف والشام ومكة .

٢ ـ تدمر

هي في الأصل واحة في قلب بادية الشام . دلت الحفريات على وجود مجتمع بشري فيها منذ العصر الحجري القديم . عرف هذا المجتمع الزراعة وتدجين الحيوان في العصر الحجري الحديث . أول اشارة تاريخية لتدمر تعود الى مطلع الألف الثاني ق . م .

٥

أ

ب

(٥) ـ ورثت الحضر . الى حد كبير تجارة الأنباط فترة محدودة . بعد سقوط دولتهم في مطالع القرن الثاني . يبدو ان مركزها الديني وموقعها الاستراتيجي هما اللذان أعانا مركزها التجاري على البروز خلال القرن الثاني . ويبدو أنها في البدء تقاسمت النشاط التجاري مع تدمر وتعاونت في تنظيم قوافل التجارة مع المملكة الأرمنية التي كانت قائمة في أعالي الجزيرة . الرحلة من موانىء العراق الى البحر المتوسط تستمر ٢٥ الى ٣٥ يوما . حين دمر شابور الأول (٢٤١ ـ ٢٧٩) مدينة الحضر سنة ٢٤١ انفردت تدمر بخطوط القوافل . كانت مدينة الحضر ذات سور دائري يتكون من جدارين قطره حوالى ٢ كم . يحيط به خندق عميق ويقوم فيه ١٦٣ برجا مع عدد من القلاع وللمدينة اربعة أبواب تمتد منها شوارع أربعة تتقاطع في وسط المدينة حيث يقوم المعبد الأكبر وهو أضخم أبنية الحضر (أ) (٤٣٧٥ × ٣٢٢ م) ويشبه الحصن من الخارج . وكان أهل الحضر قبل بناء السور يحتمون فيه وله سبعة أبواب . وتقوم من حوله مجموعة من المعابد كشف عن ١٣ منها . تماثيل الحضر (ب) كثيرة جدا بعضها فيه التأثير الساساني وبعضها اغريقي وقسم ثالث ذو ازميل بدائي خشن .

على رقم اشورية وبابلية . في ذلك العهد سكنها العموريون . ثم صارت في أواخر الالف الثاني ق . م . للآراميين الذين اختلطت بهم القبائل العربية بالتدريج . كانت تدمر تشارك في العمل التجاري في القرون التي سبقت الميلاد . فلما ضعفت البتراء بعد احتلال الرومان لها وتكاثفت الطرق التجارية القادمة من الخليج العربي ، عبر بادية الشام ، ازدهرت تدمر . بلغت أوج قوتها التجارية والسياسية في القرنين الثاني والثالث للميلاد . معظم آثارها الرائعة الباقية تعود الى هذه الفترة .

استفادت تدمر من موقعها في البادية على الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية . كان ارتباطها بها اسميا لحد كبير . حظيت من الرومان بالكثير من التقدير بسبب مكانتها الحربية والاقتصادية (٤) . لكنها أخذت سمعتها السياسية الضخمة ايام أميرها أذينة ٢٦٠ ـ ٢٦٨ م الذي هزم شابور الأول ملك الساسانيين ، حين أراد غزو الشام سنة ٢٦٥ م ، وطارده حتى عاصمته المدائن . منحته الامبراطورية الرومانية لقب (دوق الشرق) ، وصارت سيادته الاسمية تشمل مصر وسورية والاناضول وارمينية . ولكنه قتل سنة ٢٦٨ . تولت الوصاية بعده على عرش تدمر زوجته زنوبيا (الزباء)، وتسمت « بملكة الشرق » ، وقررت الاستقلال عن رومة . فطردت جيوشها حتى انقره ، وصارت سيدة المشرق كله من مصر الى الأناضول .

لكن الرومان حشدوا لها قواتهم في البحر والبر ، في الوقت الذي كانت تخشى هجوم الساسانيين من الشرق . هزمت جيوشها في حمص ، وحاصرها الامبراطور اورليان في تدمر سنة ٢٧٢ ثم فتح المدينة ، بينما اسرت زنوبيا لتقضي أيامها الأخيرة في روما . لما ثارت تدمر بعد ذلك عاد عليها أورليان فدمرها . وخسرت مكانها التجاري بسرعة اثر ذلك .

٣ ـ مملكة عربايا (الحضر مدينة الشمس)

الحضر واحة قديمة جنوب غرب الموصل . أخذت في الازدهار الواسع ، مثل تدمر ، منذ القرن الأول للميلاد ، كمركز عسكري على حدود الفرس والرومان ، وكمركز ديني أيضا لقبائل المنطقة . زادت قيمتها مع تكاثف الحركة التجارية عبرها . حكمت فيها سلالة عربية أكثر من ثلاثة قرون . بدأت بأمير عربي اسمه سنطروق (لدى العرب الساطرون) وكان يلقب بملك العرب . عرفت المملكة باسم عربايا وكانت ضمن النفوذ الفارسي عديلة تدمر بالنسبة لروما . اشتهرت ايضا بالقوة الحربية (٥) . صدت هجوم الامبراطور تراجان عليها سنة ١١٧ م . كما فشل الامبراطور سبتميوس سيفروس في اقتحامها سنة ١٩٨ ـ ١٩٩ م . بعد أن قذفته بقذائف نارية عرفت بالنار الحضرية وبأقواس مبتكرة .

بعد هذه المعركة استقلت الحضر عن النفوذ الفارسي . لكن ظهور الاسرة الساسانية واستيلاءها على العراق سنة ٢٢٠ جعل أهل الحضر يواجهون الساسانيين ويحالفون الرومان . لم يستطيعوا المقاومة طويلا لأن شابور الأول حاصرها سنة كاملة (٢٤٠ ـ ٢٤١) فلما دخلها تركها بعد النهب خرائب .

لم تسترد الحضر مكانتها بعد ذلك بسبب تغير الحدود الساسانية الرومانية ، وتحولها الديني ، مع الساسانيين ، الى الزارادشتية .

حضارة عرب الشمال

المدن الثلاث البتراء ، تدمر ، الحضر تمثل مرحلة واحدة من حضارة العرب شمالي الجزيرة في القرون الأولى بعد الميلاد . آثار تدمر ، في قلب بادية الشام ، كانت تلفت الانظار منذ القديم الى أن ذاعت شهرتها في أوروبا منذ أواسط القرن ١٨ . أما البتراء فقد عرفت عالميا بعد ان زارها وكتب عنها الرحالة بوركهارت سنة ١٨١٢ . وأما الحضر فلم تصبح معروفة الا بعد أن تناولتها الحفريات الأثرية سنة ١٩٥١ بعد دراسة قيمة كتبتها عنها بعثة أثرية المانية سنة ١٩١٢ .

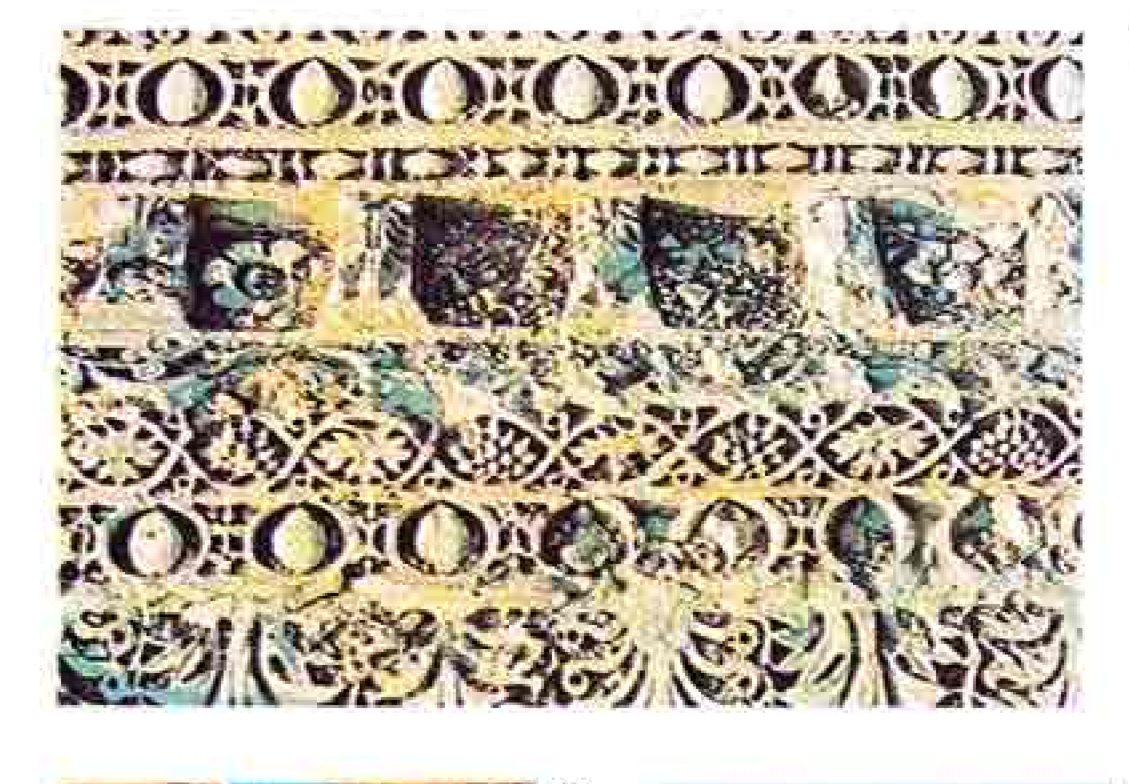
المدن الثلاث

تمتد المدن الثلاث في خط قوس منحن

١



٢ أ



ب



ت



ث



(١) ـ كان التدمريون ذوي شعور ديني عميق يتجلى في مختلف أعمالهم وخاصة في ما تركوا من آثار ومنحوتات وقبور . معبوداتهم كانت كثيرة العدد تقارب الثلاثين . رأسها وكبيرها أي المعبود الأعلى هو (بل) الذي لا يظهر وحيدا في المنحوتات . فأكثر الآلهة التدمرية تصور معه حسب المناسبات ولكنه أكثر ما يمثل مع قرينته بلتي ثم يرحبول . الثلاثي بل ويرحبول وأغلبول يتمتع بأكثر شعبية في تدمر وقد يظهر أغلبول مع ملك بل وبعل شمين (معبود السماء) كما في الصورة . المعبودات التي تظهر مع بل معبودات سماوية وهي بمثابة القادة لمجمع المعبودات التدمري .

---

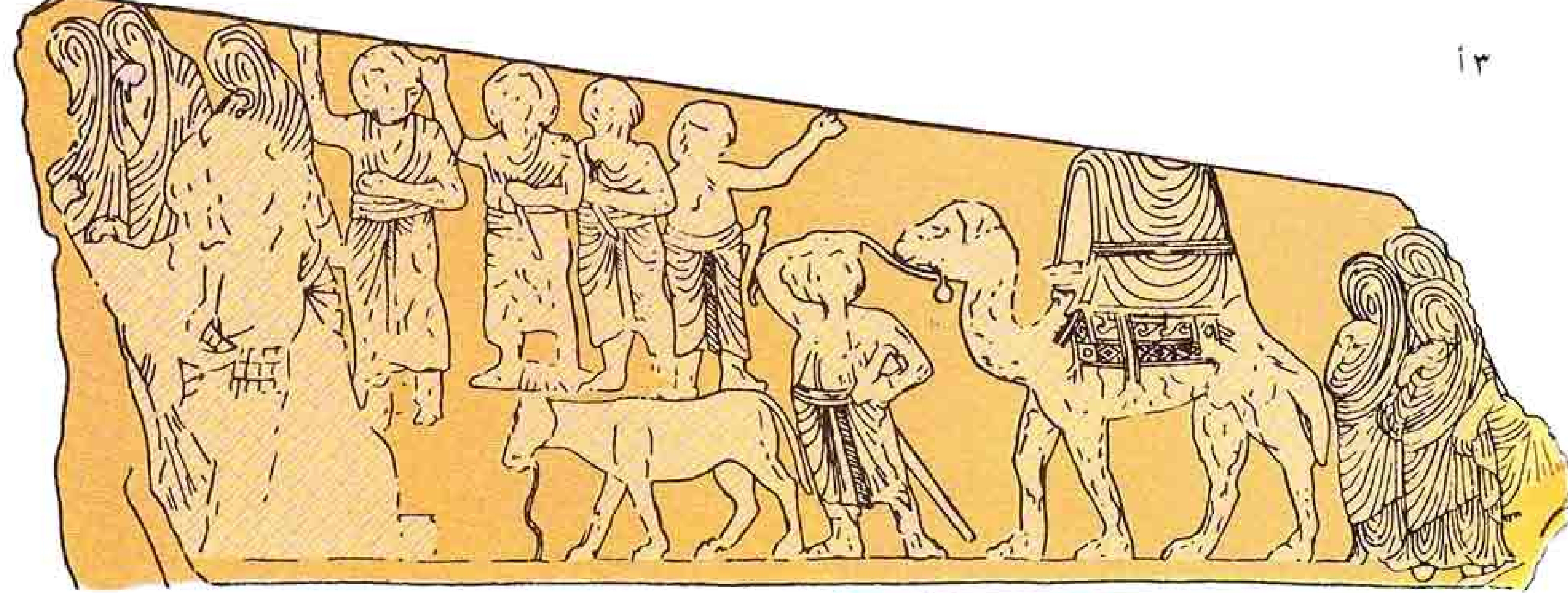
(٢) ـ في تدمر ، كما في الحضر ، تختلف درجة الاتقان الفني في المنحوتات . بعضها ازميل بدائي . وبعضها متقن الاتقان الزخرفي المدهش . الافريز التدمري (أ) يكاد يكون عملا من أعمال التطريز مع انه نحت في الصخر . ومثله تاج العمود الكورنثي (ب) . وهذا التفصيل من الباب الرئيسي (ت) . وفي الحضر أيضا نجد التفاوت نفسه في قوة النحت . وبعضه يكاد يكون نسخا من المدرسة الاغريقية . الا ان تمثال آبو ابنة دميون (ث) الذي نحت بالحجم الطبيعي يمثل تمام التمثيل نماذج النحت في الحضر . الملابس على الرأس والجسد تحتفظ بكل طياتها السابقة . والوجه كامل السمت . أما اليد المرفوعة فهي علامة العبادة .

واحد يخترق الصحراء بين العقبة وأعالي العراق . سكان هذه المناطق قبل الميلاد وبعده كانوا جموعا متكاثرة من أهل البادية العربية ، توغل بعضها في أراضي الهلال الخصيب ، وبقي بعضها الآخر على أطراف البادية . خلال العهد السلوقي ثم الروماني ، ليشكل الممالك . لعب الموقع الجغرافي دوره العسكري والتجاري ليقفز بالممالك الثلاث أحيانا الى واجهة الأحداث السياسية . لكنه في الوقت نفسه سمح لها بالوصول جميعا الى المستوى الحضاري الرائع . آثارها كلها تحمل التأثر الاغريقي ـ الروماني (٥) في العمران والسياسة ، والتأثر الآرامي في الثقافة واللغة والكتابة ، والأثر البابلي والبدوي العربي في الدين .

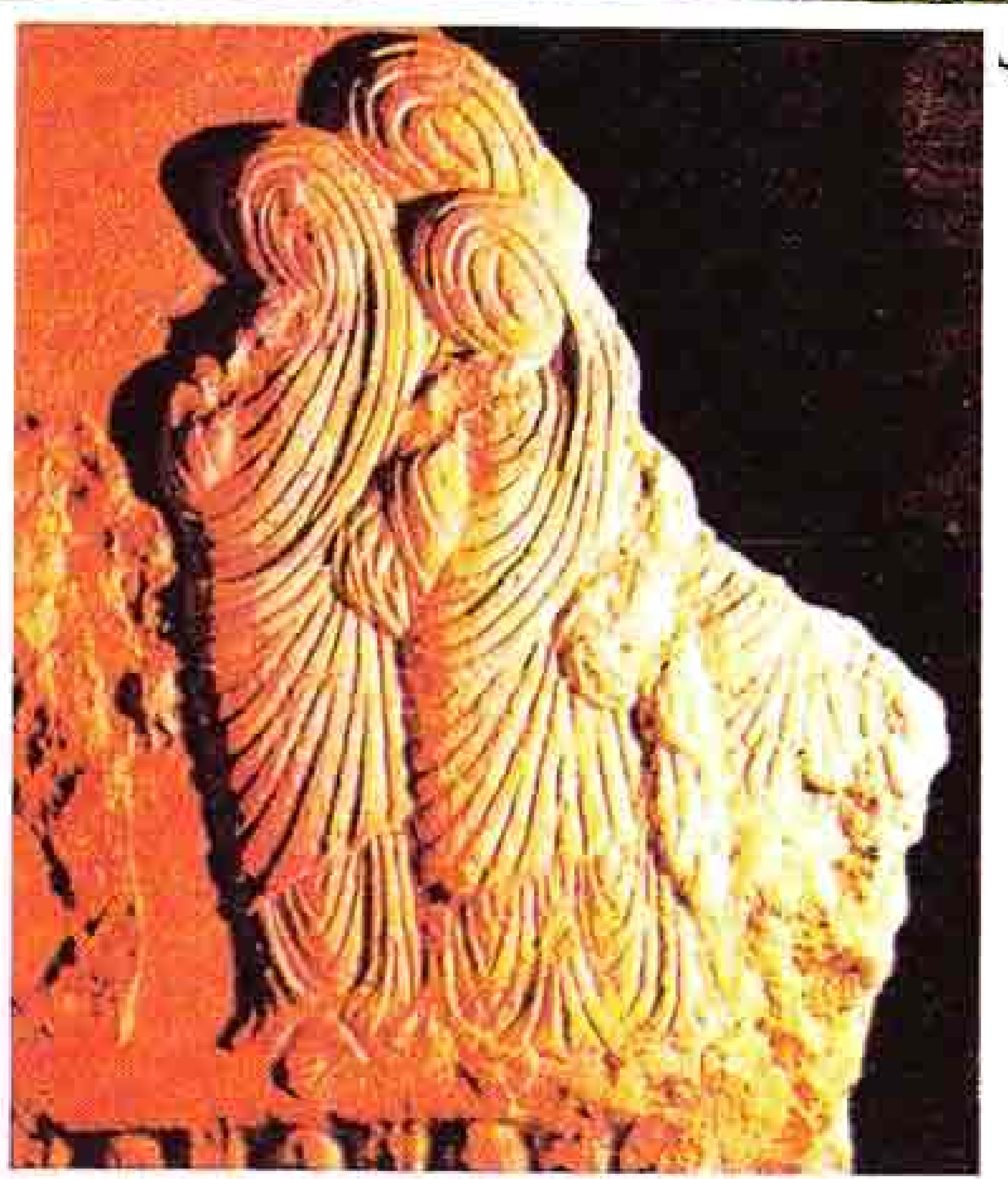
العمران

تتميز البتراء (أو الرقيم) بأنها المدينة

٣ أ



ب



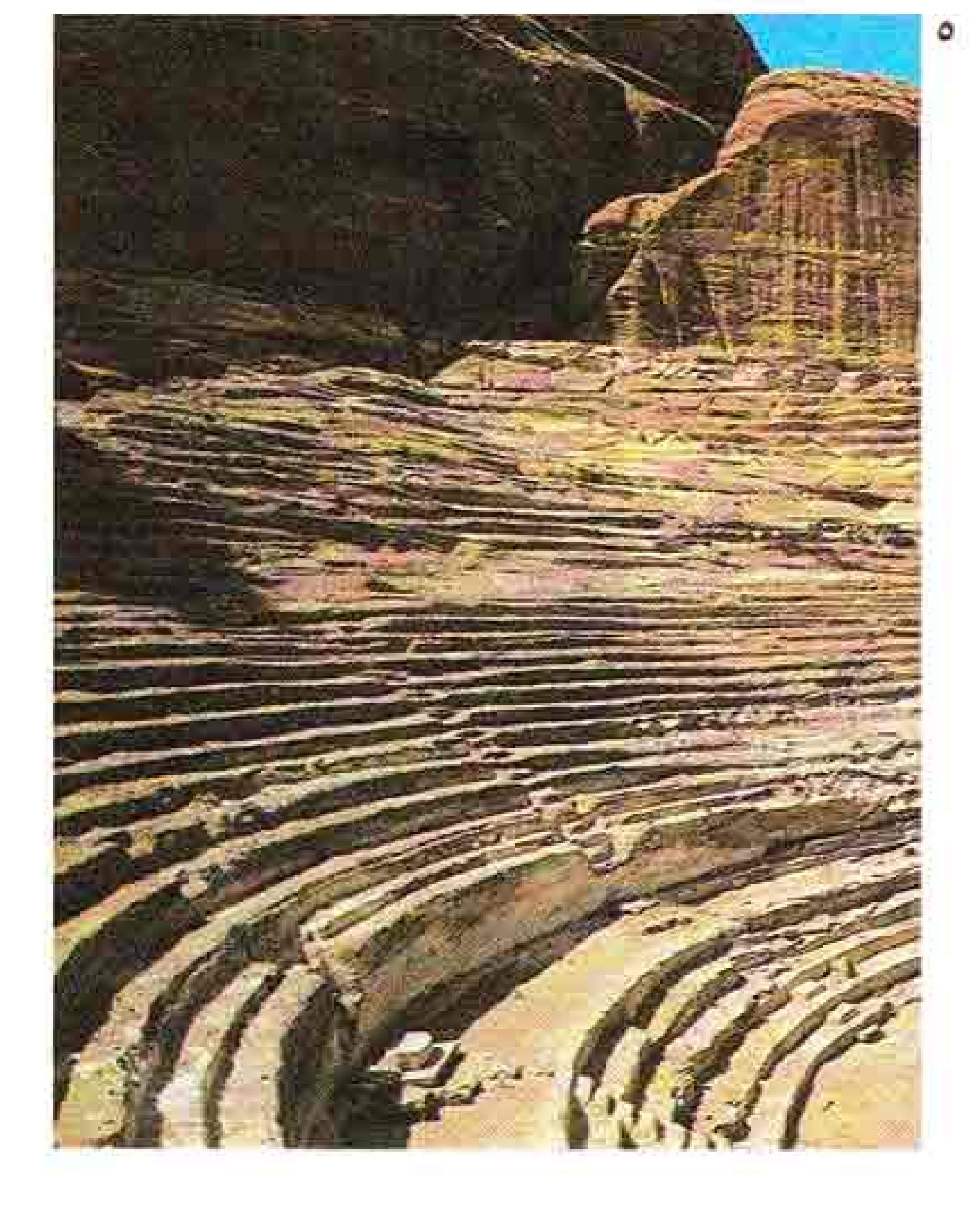
(٣) ـ يعتبر معبد بل من أكبر وأشهر الأوابد الدينية في الشرق القديم . منذ القرن الأول الميلادي بني بناؤه الاساسي على نشز من الارض ، وظل يبنى ويتوسع حتى أواخر عهد تدمر الى أن أضحى بمقاييس ضخمة (٢٢٠ × ٢٠٥ م) أحيطت جدرانه بـ ٣٧٥ عمودا طول الواحد منها أكثر من ١٨ مترا . لا يزال قائما منها سبعة في الواجهة المركزية وأقسام من ١٥٠ أخرى ، منحوتة من المرمر الأبيض أو الغرانيت السماقي . أمام المعبد قوس هائل وشارع عريض يزيد على كيلومتر هو شارع تدمر الرئيسي . المعبد نفسه غني بالزخارف . هيكله المركزي وهو أروع ما فيه محاط برواق محمول على أعمدة باسقة كانت ذات تيجان كورنثية من البرونز المذهب ، وفوقها افريز نقشت عليه صور مجنحة من الجن تحمل أكاليل مضفورة بالفواكه . وسقوف الأروقة عليها نقوش تمثل مشاهد دينية منها مشهد الطواف (أ) وفيه تمثال المعبود محمولا على جمل في قبة حمراء وكاهنات محجبات خلفه (ب) .

الحجرية (ومن هنا اسمها بطرا = الحجر) منازلها وأوابدها المدهشة منحوتة كلها في أعلى واد من الصخر الاحمر يدعى وادي موسى . نشأت المدينة محطة تجارية . لكن مدت نفوذها الى المناطق المجاورة فحصنت المدن ، وحمت القوافل ، واستغلت المناجم وحفرت الآبار ونقبت الخزّانات ، وأجْرَت الأقنية داخل الصخور ، في نظام هندسي مدهش ، لارواء بطرا نفسها خاصة في فترات الحصار والعدوان .

كان الأنباط في أيامهم الأولى يمتنعون عن زراعة الشجر وبناء البيوت أو شرب الخمر، ويعتمدون التجارة والرعي والحرف في نظامهم الاقتصادي . اشتهروا بصناعة الخزف الرقيق وزخرفته بالنقوش الجميلة . كما سكوا النقود الفضية ، واستعملوا في كتابة لغتهم القريبة من عربية قريش ، أبجدية نبطية خاصة مشتقة من الآرامية . لكن مكاتباتهم

٤

(٤) ـ المدافن مجال فني أبرز فيه التدمريون براعة خاصة . كانت مدافنهم التي يوجد معظمها في وادي القبور أسرية في الغالب ومن الحجر وعلى ثلاثة نماذج تخلو كلها من رهبة المقابر وتشبه أن تكون دارة أنيقة يلتقي فيها أفراد الاسرة . اللقاء السرمدي الحجري . متكئين أحيانا على الأرائك وفوقهم الأقواس المزينة بالأزهار . يسمونها « بيت الأبدية » . أول وأقدم القبور التدمرية كانت على شكل برج مربع . ازداد حوالى نهاية القرن الأول جمالا وسعة واتقانا وصار يضم في داخله أربعة أو خمسة طوابق ويتجاوز في الارتفاع عشرين مترا ويتسع لمئات القبور الجدارية . منذ القرن الثاني صار المدفن أشبه بالبيت بطابق واحد يتسع أحيانا لثمانين قبرا جداريا وفيه مسطبة أو أكثر في بعض جدرانه تقوم فوقها منحوتات جنائزية تمثل أصحاب المدفن الأساسيين . وللمدفن باب حجري مزخرف وسقف غني بالزينة الهندسية وهناك أخيرا المدفن الأرضي الذي انتشر في القرنين الثاني والثالث وهو ينحت في الأرض بعدة أجنحة ينزل اليها بسلم منحوت وتكون القبور صفوفا بشكل فتحات مربعة في الجدران يسد كلا منها تمثال نصفي جنائزي للميت ويتصدر المدفن تابوت أو أكثر تقوم فوقه مشاهد تمثل كبار المتوفين . في الصورة تمثال بولا ومولا يا من القرن الثاني . أهل الحضر كانوا أيضا يبنون للمدافن أبنية في أبراج من الحجارة بشكل منتظم ويمارسون حرق الموتى أحيانا . أما أهل البتراء فنحتوا القبور كما نحتوا الكثير من المساكن والمعابد .



٥

(٥) ـ كان طبيعيا أن تأخذ الحضارة الهلينستية ، ثم الرومانية . مداها في التأثير على الأنباط . ومن ذلك ظهور المسرح في البتراء (الصورة) . بناء المدينة في أعالي وادي موسى الضيق . وبين جداريه المرتفعين ، لم يمنع الأنباط من تحويل مسقط من مساقط السيول الى مسرح مدرج واسع .

الرسمية والتجارية كانت بالآرامية .

أما تدمر ، فتحمل طابع المدن الاغريقية ـ الرومانية بأبنيتها العامة والخاصة . أهم آثارها الباقية هو معبد بل الضخم (١) والشارع الأعظم (اكم) المحفوف بالأعمدة ، والمسرح ، والميدان ـ السوق (الآغورا) . والبوابة الكبرى المعروفة بقوس النصر . بالاضافة الى مئات المنحوتات والتماثيل والمدافن الأثرية الملأى بالتماثيل النصفية الجنائزية (٤) ، عدا الحمامات . وسور المدينة البيضاوي الشكل والمدعم بالأ براج .

كان سكان تدمر يتكونون اجتماعيا من ثلاث طبقات : أحرار مواطنين ، وعبيد وأجانب . المواطنون هم ابناء عدد من العشائر . وكان بين بعض هذه العشائر أحلاف .

عنى التدمريون بزراعة واحتهم ، وتنظيم الري والأقنية والسدود فيها ، وحفروا الآ بار للشرب والاحواض ، لكن ثروتهم كانت تجارية . وكانت مكاتباتهم التجارية بالآرامية ، والرسمية باللاتينية (أيام الرومان) والاغريقية . ولهم ايضا لغتهم التدمرية وكتابتهم المشتقة من الآرامية .

أما الحضر : فهي الى حد كبير تدمر الثانية في طابعها العمراني ، لولا ان جو الزراعة والري كان أوضح في تدمر منه في الحضر . سور الحضر المزدوج دائري . في وسط المدينة يقوم المعبد الكبير للشمس (٤٣٨ × ٣٢٣ م) وله سبعة أبواب وثمة ١١ معبدا آخر في المدينة ، على الطراز المعماري الهليني ـ الروماني . عدا المدافن على هيئة الأ براج ، وبركة المدينة والآبار الكثيرة . ومئات التماثيل المتنوعة (٤) .

استعمل في عمارة الحضر الحجر النحيت والجص . الايوان كان عنصرا أساسيا في البناء وكذلك تزيين واجهة الأواوين بالتماثيل والزخارف وأنصاف الأعمدة (٢) .

كانت تجارة الحضر ، مثلها مثل تدمر والبتراء ، تقوم على نقل الحرير والعطور والزيت والتوابل والأخشاب والبخور والاحجار الكريمة والمعادن والانسجة المختلفة والخمور . على ان طابع الحضر التجاري كان أقل وضوحا منه في المدينتين الاخريين لأن نظامها الاقتصادي كان يعتمد على المساحات الزراعية الواسعة حولها في السهول والسهوب الممتدة حتى سنجار وتلعفر .

كشف في الحضر حوالى ٣٠٠ نص كتابي كلها باللغة الآرامية ، وبالابجدية الآرامية بسبب تأثير هذه الثقافة ، في تلك المنطقة ، في تلك الفترة .

الدين

يتشابه المعتقد الديني لهذه الجماعات العربية . جميعها كانت تعبد الشمس ، باسماء مختلفة (ذو الشرى ، شمس ، شماش) . وكان ثمة لدى الجميع ثواليث معبودة يتمثل فيها الشمس والقمر والزهرة ، وبعل شمين (السماء) ، مع عبادة اللات .

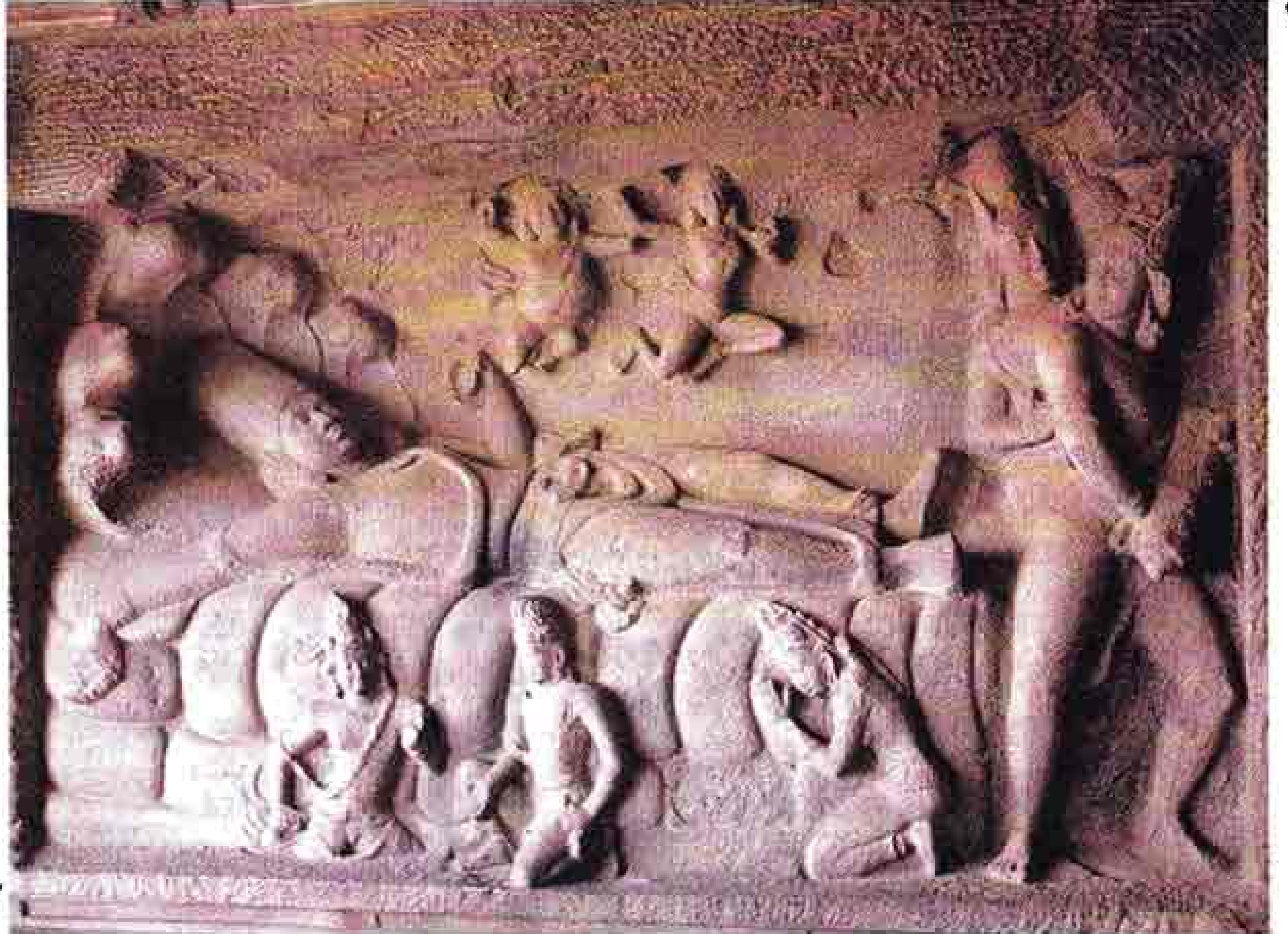
وكان لدى الانباط كعبة لذي الشرى يمثله فيها حجر أسود مستطيل . وفي الحضر كعبة ملأى بالأصنام (هي معبد شمش) يؤمها الناس من الأقاصي بالنذور والحج والطواف وكانت هذه الكعبة مركز النشاط الديني والاجتماعي . تقام فيها الأعياد وتجمع التبرعات وينزل الزوار .

الهـنـد
«من ٣٠٠ الى ١٢٠٠ م»

بعد قرون من التصدع السياسي والسيطرة الأجنبية ، توحدت الهند الشمالية ثانية في عهد أسرة جوبتا الملكية (٣٢٠ ؟ - ٥٥٠) ، وهي الحقبة الكلاسيكية في الهند . وفي الهند الجنوبية ايضا ، نشأت تدريجيا دولة عظيمة اخرى في ظل أسرة بالافا .

سلالة جوبتا وامبراطوريتها

أسس ملوك جوبتا ، لاسيما سامودرا جوبتا (حكم ٣٣٠ - ٣٧٥) ، وتشاندرا جوبتا الثاني (حكم ٣٧٥ - ٤١٥) ، وكومارا جوبتا (حكم ٤١٥ - ٤٥٥) ، امبراطورية عظيمة سيطرت على جميع انحاء الهند الشمالية تقريبا ، محافظين عليها احيانا بالقوة ،







(١) - في اللوحة النافرة في هذا الهيكل الذي يعود الى عهد جوبتا ، يبدو فيشنو اثناء رقاده الكوني فوق حلقات حيوان « التاجا » ذي الرؤوس السبعة ، فيما تجلس قرينته لاكشمي عند قدميه .

(٢) - هذه اللوحات الجدارية التي تمثل فتيات جميلات مرسومة على جانب صخرة ضخمة ، تقع في سيجيريا بشري لانكا ، حيث شيد مسكن ملكي محصن في القرن الخامس .

(٣) - من اغرب اشكال المعبود شيفا شكل ناتاجارا ، ذات الاذرع الأربعة ، وهي ترقص فوق جسد شيطان . وقد احاطت بها هالة من النار تلتهم العالم في نهاية الدهر . يُعتبر هذا التمثال من اروع تماثيل البرونز التي تعود الى عهد التشولا (القرن الحادي عشر) .

(٤) - يبين هيكل قديم لشيفا في اوريسا الشكل المألوف (شيخارا) لهياكل الهند الجنوبية . وقد بُني على منصة بالقرب من بركة ماء تستخدم في طقوس الوضوء .

(٥) - اعظم الهياكل التي شيدتها اسرة بالافا الملكية في كانشي ، في الهند الجنوبيّة ، هو مجمع ماملا بورام او « ماها باليبورام » المعروف لدى العامة باسم « الباجودات

واحيانا بالدبلوماسية . أوجدت المواصلات الحسنة والأمن والرخاء النسبي جوا بلغت فيه الثقافة الهندية مستوى لا مثيل له . فقد بلغت أعمال الشاعر كاليداسا (لمع في القرن الخامس الميلادي) درجة من الاتقان . حاول الكثيرون تقليدها لكن بدون جدوى ؛ كذلك تجلت العبقرية الهندية في الفن والهندسة ، في اروع اشكال الدقة والرمزية . ولكن دون تركيز كبير على التفاصيل . ذلك التركيز الذي سيميز جزءا كبيرا من الفن الهندي ، بعد القرن السابع .

تشهد على رخاء الهند المادي في هذه الحقبة . كتابات الحاج البوذي الصيني فا ـ هسيان (لمع ٣٩٩ ـ ٤١٤) الذي زار الهند في القرن الخامس .

في مطلع القرن السادس ، غزت شعوب الهون الهند من الشمال الغربي ، وتغلغلت حتى اواسط الهند (وكانت قد غزت قبل

٥





٦



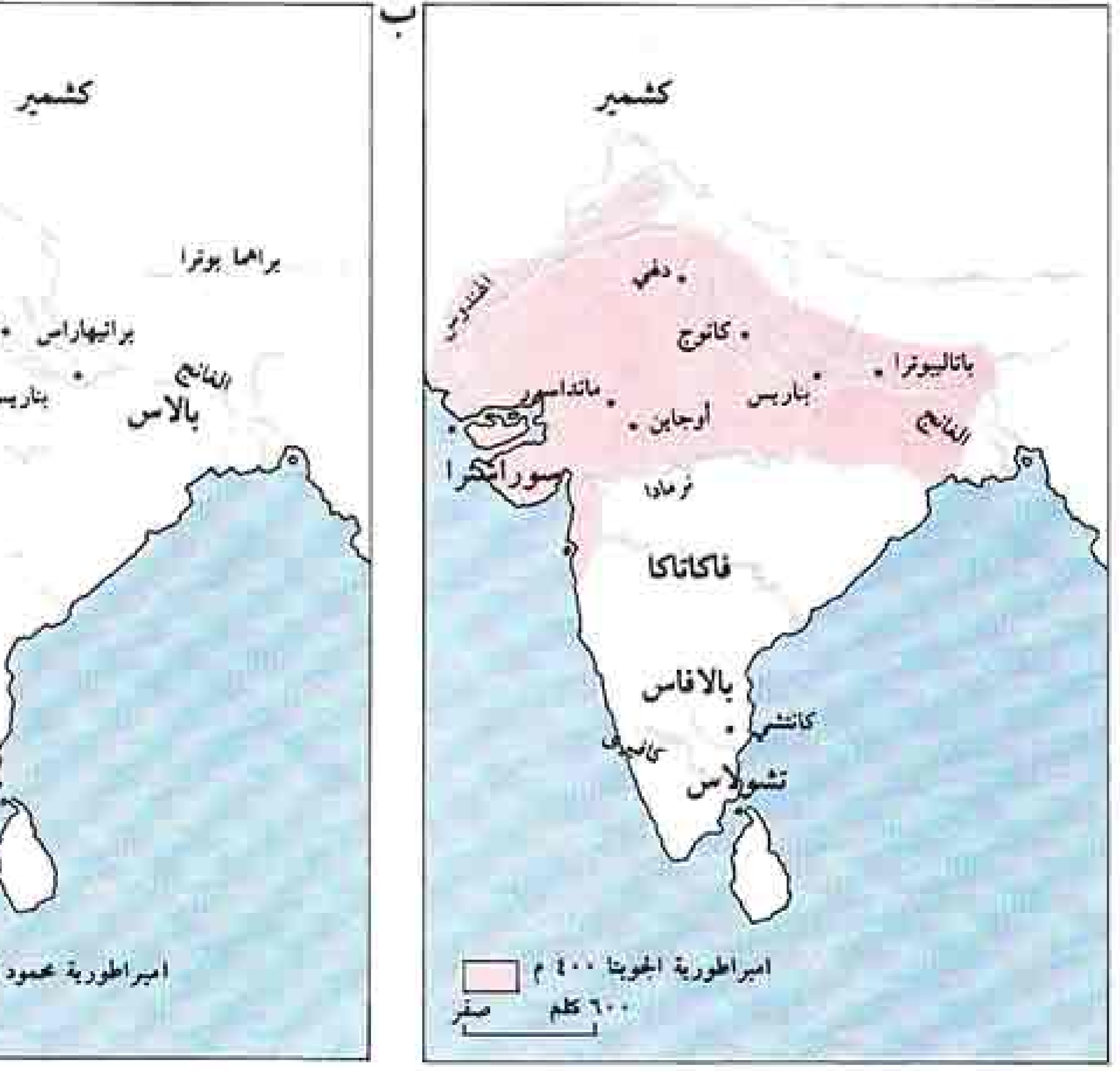
(٦) ـ ان قطع النقد الذهبية العديدة الخاصة بأسرة جوبتا (يحوي كنز البايانا وحده ١٠٢١ نموذجا منها) هي مصدر رئيسي لتاريخ هذه الحقبة . فتوزيعها يعطينا فكرة عن المناطق التي حكمها مختلف ملوك الجوبتا . كما يعكس سكها المتكرر النشاط الاقتصادي .

السبع » . الى الجنوب من مدراس . يشتمل هذا المجمع الذي شيد في فترة ٦٢٥ ـ ٦٧٤ . عددا من الكهوف ومجموعة من المباني الضخمة الرائعة (التي تدعى الراثات) . بالاضافة الى هذا الهيكل الساحلي المكرس لشيفا .

ذلك اوروبا حتى غربها) . غالبا ما اعتبر هذا الغزو للهند السبب الرئيسي في انهيار حكم الجوبتا . لكن هناك من يقول ان الهون لم يكونوا ليستطيعوا تحقيق أي نجاح لو لم تكن امبراطورية الجوبتا قد انحلت بسبب عوامل داخلية .

طرد الهون من الهند

رغم ان الهون طُردوا من الهند بعد ٣٠ سنة ، فقد تقاسمت الهند الشمالية دول متنافسة في سوراشترا واوتار براديش والبنغال . كما حدثت تغيرات هامة ايضا في الهند الشمالية ، وذلك في الولايتين المعروفتين حاليا بمدراس وكيرالا . فمنذ بداية الحقبة المسيحية على الاقل ، ازدهر في هذه المناطق مجتمع ذو ثقافة راقية ، تجلت في أدب تاميل الكلاسيكي . وفي القرن الرابع الميلادي ، جعلت اسرة بالافا من



(٧) - رغم ان امبراطورية الجوبتا (أ) كانت تمثل ذروة الثقافة الهندية الكلاسيكية ، فان تأثيرها على الجنوب يكاد يكون معدوما . ورغم انعدام التماسك في الدولة ، قاوم الشمال تقدم المسلمين بسهولة . ولم يفقد الا السند ، الى ان بدأت امبراطورية محمود الغزنوي (ب) بالتوسع . ومع تأسيس سلطنة دلهي الاسلامية عام ١٢٠٦ اصبح التأثير الاسلامي دائما في الهند .

(٨) - فيشنو هو أحد معبودات البرهمانية الرئيسيين والمعبود الأعلى لدى طائفة الفيشنافا ، التي يجد بعض اتباعها شبها قريبا بين التجربة الدينية والعشق البشري . وقد ظهر كمخلص للبشر في عدة أشكال مختلفة ، ولاسيما في عشرة تجليات (افاتاراس) اتخذ فيها شكل انسان او حيوان . واشهر تجسداته هو كريشنا ، الراعي الاكبر والملك الفيلسوف . اما بالنسبة الى التجليات الحيوانية ، فالخنزير البرّي (فاراها) الذي يبدو في الصور ٩ بكثير من الزينة ، هو الذي يظهر بواسطته في أكثر الأحيان .



(٩) - بوري هو أحد المراكز الدينية الكبرى في الهند ، وهو يجذب عددا لا حصر له من الحجاج ، من جميع انحاء البلاد ، اثناء المهرجان السنوي للعربات المعروف بجاغانات .

مدينة كانتشي (كونجيفارام) مركزا لمملكة واسعة . كانت هذه المملكة اصغر من امبراطورية جوبتا الواقعة الى الشمال ، لكنها كانت ذات أهمية كبرى . فقد أسست أسرة بالافا شكلا ناجحا من المشاركة في الحكم ، بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية ، مما ساهم في توطيد الاستقرار السياسي . بقي الساحل الشرقي للهند الجنوبية تحت سيطرة البالافا ، حتى حوالى عام ٨٨٠ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى ١٢٠٠ ، وقع تحت سيطرة التشولا .

قدمت أسرة بالافا رعايتها لطبقة البراهمة ، التي كانت تقدم بدورها خدمات تربوية ممتازة . وفي مجالي الفن والهندسة بصورة خاصة ظهر نمط درافيدي معين ، (نسبة الى اللغة المحكيّة في الهند الوسطى والجنوبية) بلغ ذروته في المعابد الضخمة ، والرسوم الصخرية النافرة في ماما لا بورام (الباجودات السبع) (٥) . فوق ذلك ، ساهمت أسرة بالافا ، اكثر من أية أسرة هندية أخرى ، في نشر الحضارة الهندية في آسيا الجنوبية الشرقية .

تأثير هارشا الكانوجي

توحدت معظم أنحاء الهند الشمالية بصورة مؤقتة ، على يد هارشا الكانوجي (٦٠٦ - ٦٤٧) الذي تكشف سيرة حياته عن مستويات راقية من الحكم والازدهار ، وقد وصفت وصفا رائعا بقلم الكاتب السنسكريتي بانا ، والحاج الصيني هسوان تسانج (تجول في الهند بين ٦٣٠ و ٦٤٣) .

عقب انتهاء حكم هارشا ، عانت الهند الشمالية من تجزئة سياسية متزايدة ، اذ أخذت الدول الكبيرة تنقسم الى وحدات صغرى ، كانت تعلن ولاءها في البدء للسلطة المركزية ، ثم تصبح مستقلة تدريجيا . هكذا اصبحت كانوج عاصمة هارشا ، عام ٧٥٠ ، مقرا لأسرة براتيهارا الملكية ، التي حكمت دون منازع ما يعرف حاليا بأوتار براديش والبنجاب وراجاستان . ولكن سلطتها الفعلية اصبحت ، قبل انتهاء القرن التاسع ، مقصورة على اجزاء من البنجاب واوتار براديش ، بينما حكمت راجاستان أسر راجبوت المختلفة ، المتحدرة من أصل قبلي . أما بهار والبنغال فقد حكمتهما اسرة بالا البوذية (٧٥٠ ؟ - ١١٥٠) ، ثم شاركتها الحكم منذ القرن العاشر أسر صغيرة أخرى .

في غمرة هذه الانقسامات غزا الفاتح المسلم محمود الغزنوي (من غزنة في افغانستان) (٩٧١ - ١٠٣٠) الهند الشمالية عدة مرات (بين عامي ١٠٠٠ و ١٠٢٦) (٧) . استطاع محمود ان يحقق هدفه الاساسي وهو نشر الدين الاسلامي في اجزاء كثيرة من الهند بالاضافة الى اثراء عاصمته بالغنائم . أدى المزيد من التدهور السياسي ، الى غزوات اسلامية جديدة ، ومع أواخر القرن الثاني عشر ، كان معظم الهند الشمالية تحت سيطرة السلطنة الاسلامية في دلهي .

يشمل الأدب السنسكريتي ، في الحقبة اللاحقة للهارشا ، عدة اعمال ممتازة ، وان كانت لا تضاهي ما كُتب في الفترات المبكرة . ويعتبر « تاريخ كشمير » ، الذي يعود الى القرن الثاني عشر ، أكثر النصوص التاريخية عن الهند القديمة أهمية . شهدت هذه الحقبة المتأخرة أيضا تحقيق عدد من أعظم الانجازات في مجالي الفن والهندسة .

الفن الهندي حتى المغول

يمكن اعادة بداية الفن الهندي الى حضارة الهندوس في هَرَبّا وموهنجودارو (الباكستان) التي ظهرت حوالى ٢٣٠٠ ق . م . فقد وجدت في هذين الموقعين بعض نماذج صغيرة من المنحوتات التي تتسم معا بالطبيعية وبالأسلبة ، وهي تعكس فهما عميقا لكيفية معالجة الجسم البشري سواء في الحجر او البرونز . كذلك كانت تصنع هناك تماثيل من الطين باسلوب بدائي الى حد ما ، ومن الأرجح انها كانت نماذج من الفن الشعبي . على عكس ذلك ، حفرت ايضا هناك بعض الاختام من حجر الطلق على شكل حيوانات وأجسام بأسلوب شكلي محكم .

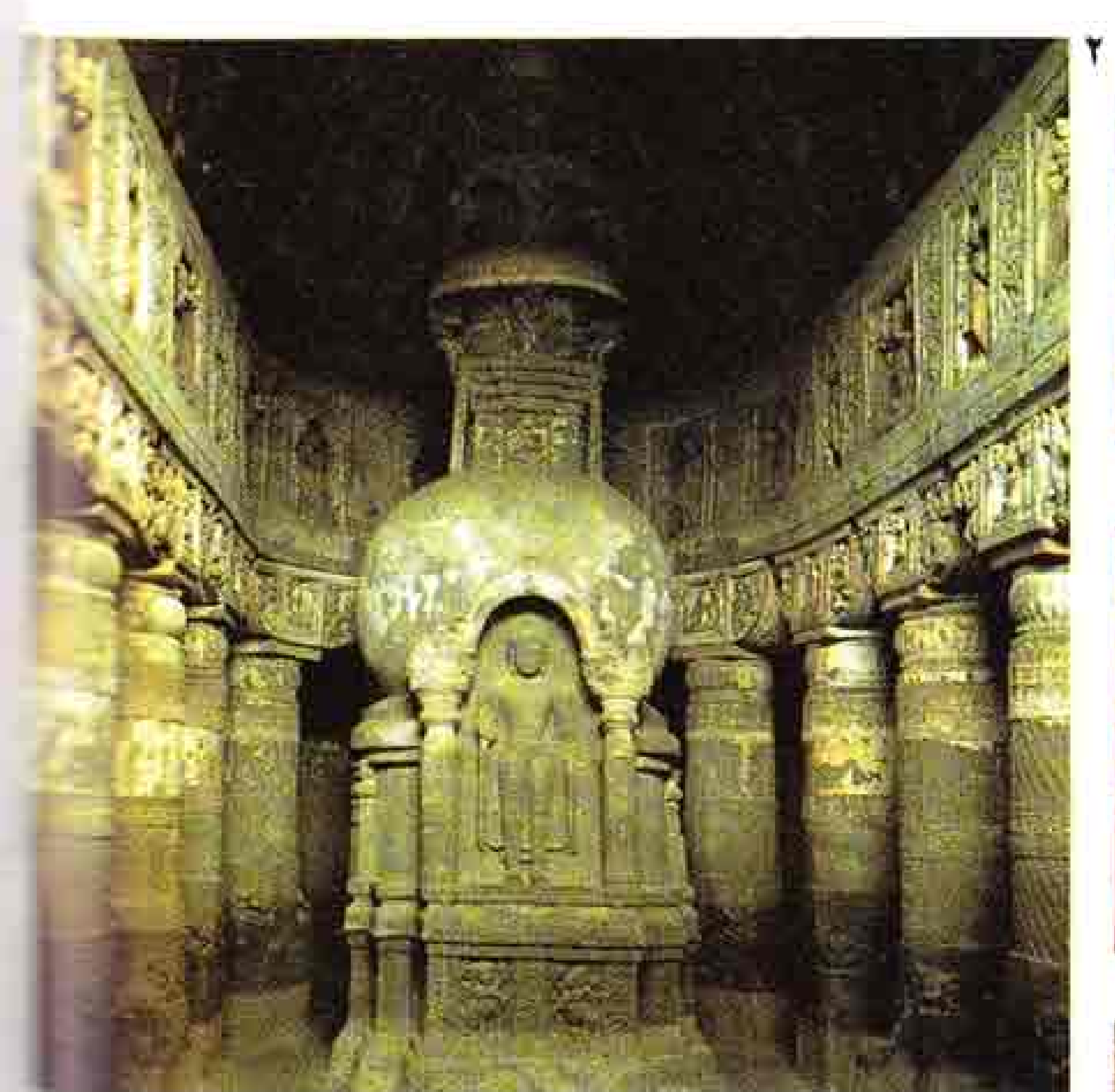
١



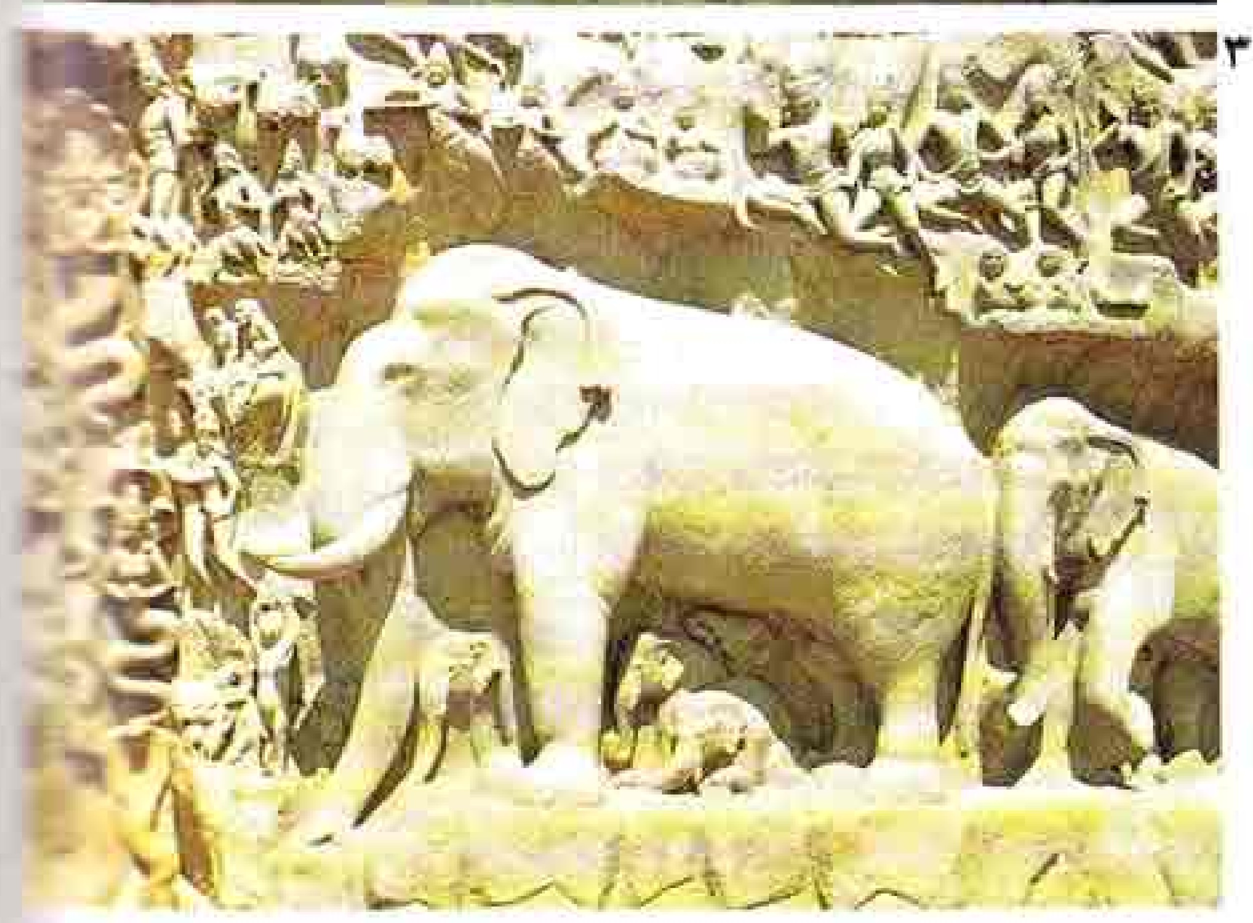


(١) ـ هذه المخطوطات المزينة على ورق النخيل والتي تعود الى القرن الثاني عشر هي من أولى الأمثلة التي وصلتنا من الرسم الهندي غير الجداري . من المحتمل انه كان ثمة نماذج . من هذا التصوير . أقدم منها لم تصلنا . لأن هذه المخطوطات تدل على درجة رفيعة من التطور . خلافا لبعض المنمنمات الهندية التي نشأت عنها ، لم يكن القصد من هذه الرسوم بالضرورة تزيين النص ، بل احاطته بهالة من القدسية .

٢



٣



اتقان تقنية النحت

في الفترة التاريخية التي تقع بين هذه الحقبة وبين العصر الموريانى (٣٢٠ ـ ١٨٥ ق . م) ، يبدو بوضوح ان الفنان الهندي توصل الى السيطرة على مادته سيطرة تامة . فتيجان اعمدة اشوكان ، كتلك التي نجدها في سارناث ، والتي اتخذت شعارا وطنيا للهند . تحمل اسودا مؤسلبة وتنم عن ارتباط كبير بالشكل الطبيعي في طريقة حفر أجسام الحيوانات في الحجر الرملي المصقول . كانت هذه التقنية من خصائص النحت الموريانى ، وقد استمرت حتى وقت قصير لاحق . كذلك كان للتماثيل المصنوعة على اسلوب ياكشي (٩) سطح حجري مصقول ، مع انها لا تعود الى الحقبة الموريانية . ربما كانت هذه التماثيل تستعمل للعبادة ، وان كانت تماثيل النساء تتميّز بمعالجة غير روحانية لجسد الانثى . نعثر على هذا الجمع









(٢) ـ في كهوف اجانتا الشهيرة ، نحت كل تفصيل من الرسوم في الصخر الصلب المؤلف منه جانب التل . نحتت هذه الرسوم بين القرنين الثاني ق . م والتاسع الميلادي . تشبه قاعة العبادة البوذية من القرن السابع الظاهرة هنا كنيسة مسيحية بصحنها ، واجنحتها ذات الأعمدة ، واجزائها الناتئة نصف الدائرية . تؤلف القبة (فوق) وتمثال بوذا الجالس (الوسط) النقطة المركزية من المشهد بكامله .

(٣) ـ كانت الهياكل القائمة بذاتها تنحت ايضا في الهند ، في نتوءات صخرية طبيعية ، شبيهة بتلك التي توجد في كايلاساناثا في ايلورا . فقد نحتت في الهند الجنوبية الشرقية ، في القرنين السابع والثامن ومن صخور الغرانيت ، بالقرب من شاطىء ماها باليبورام ، سلسلة من الهياكل والقطع النافرة الضخمة (مثل هذا الرسم الذي يبين النزول الى نهر الغانج) . وهي تنمّ عن سيطرة تامة على الشكل والتصميم . لاسيما عندما تصنع من مادة صعبة كهذه .

(٤) ـ لتماثيل أرواح الاشجار المنحوتة على هذا العمود من بهاروت العائد الى القرن الأول ق . م شكل يمتاز بنتوءات منخفضة وبتصميم اكثر شكلية من بعض تماثيل أرواح الاشجار اللاحقة . ساهمت هذه التماثيل مساهمة فعالة في تطور الفن الهندي فيما بعد . ليس ثمة فن اختلطت فيه المفاهيم الدينية مع طرق التعبير الفني بنجاح كما في الفن الهندي .

(٥) ـ صنع تمثال بوذا الانيق هذا من الحجر الرملي في ماتهورا في عهد الجوبتا حوالى القرن الخامس الميلادي . وهو فيما يعبر عن تأمل هادىء ، ينم عن احساس بالشكل والاسلوب التزييني .

(٦) ـ يمكن تلمّس التأثير الهلينستي المتأخر في اسلوب هذه الصورة التي تمثل بوذ يساتفا من جاندارا والتي تعود الى ما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين . استعملت في منحوتات هذه الحقبة موضوعات عدة . شاعت في الفن البوذي المتأخر .

بين العنصرين الروحي والحسي في جميع مظاهر الفن الهندي . كذلك لم يكن من غير المألوف تزيين الأجزاء الخارجية من الهياكل الكهفية بأزواج من الأجسام المتعانقة (مايثونا) في سياق ديني او في اوضاع جنسية مثيرة .

من المحتمل ان المعبودات الرئيسية لم تكن تمثل بشخصها ، بل بواسطة رموز ، حتى حدث تطور هام في القرنين الاولين الميلاديين ، نتيجة لظهور مذهب « باكتي » اي العبادة الشخصية للمعبود ، اذ اصبحت صور الاشخاص موضوع الايقونة الرئيسي . يبدو ان التغير حدث في مكانين مختلفين في وقت واحد ، هما جاندارا (٦) وماتهورا ، مع حدوث بعض التأثير المتبادل بينهما .

التأثير الهلينستي على النحت

في جاندارا ، ونتيجة للنزعة الهلينستية

٧



٨



٩



(٧) ـ يتمثل فنّ مايسور الهندوسي في القرن الثالث عشر في هذه المنحوتة ، التي كانت في الأصل تؤلف قسما من تصميم معقد يزين الجزء الخارجي من هيكل . نحتت تفاصيلها بدقة خاصة كما في شغل المجوهرات والملابس والمواضيع التزيينية الأخرى . وهي تمثل شكل المعبودة الانثى « دورجا » منتصرة على الشيطان الجاموس « ماهيشا » . لهذه المعبودة عدة أذرع كبعض المعبودات الهندية الأخرى . وهذا أمر ضروري لاعطاء المعبودات الصفات التي ترمز لقوتها من جهة ، وتميزها عن غيرها من جهة أخرى . تحمل « دورجا » شعارات عدد من المعبودات المتعاونة للقضاء على الشيطان .

---

(٨) ـ انتجت اوريسا اسلوبا محليا مميزا للنحت ، اقتبسته جميع الطوائف . يتمثل هذا الاسلوب في الشكل الجيني الظاهر هنا للمعبودة الأم أمبيكا ، من القرن الحادي عشر .

---

(٩) ـ تمثال لشخص يحمل كاشحة للذباب مصنوع من الحجر الرملي المصقول . وقد وجد في ديدارجان (بهار) ، ويعود الى القرن الأول الميلادي . من المحتمل ، بناء على أوجه الشبه التي يتفق فيها مع أشكال أخرى وجدت في سانشي وبهاروت ، ان يكون تمثالا لمعبود روح الشجرة (ياكشا) . ترمز كاشحة الذباب الى القوة ، وهي العلامة البصرية الوحيدة التي تثبت ان هذا الشكل ليس لآدمي عادي . وهو ما يجعله يختلف اختلافا واضحا عن المنحوتات المتأخرة ، التي تمثل أشكالا من المؤكد انها تمثل معبودات .

الكامنةالتي بقيت في أعقاب الانتشار الشرقي للثقافة اليونانية . نشأ اسلوب للنحت تأثر عميقا بالأفكار الهلينستية . لم يقتصر تأثير هذه الافكار على الاهتمام بالجسم الانساني ، ومعالجة ثنايا الثياب وحسب ، بل كان لها ايضا اثر في التجسيد المثالي للقوى المعبودة الخارقة . وبينما كانت جميع المنحوتات تقريبا في جاندارا بوذية فقط ، وجدت في ماتهورا المنحوتات البرهمانية والبوذية جنبا الى جنب . وفي ماتهورا ايضا كان اسلوب الاشكال اكثر هندية . وكان الحجر المستعمل في الغالب حجرا رمليا أحمر أو أسمر مرقّشا عوضا عن الصخر المتبلور (شيست) الرمادي الذي صنعت منه معظم المنحوتات الحجرية في جاندارا . ان تماثيل بوذا ماتهورا المتأخرة (عهد الجوبتا) (٥) ، التي تبدو فيها الثياب وكأنها تلتصق بالنصف الأعلى من الجسم كما لو كانت مبلولة ، أصبحت في وقت لاحق النموذج لعدد من تماثيل بوذا التي صنعت حيثما انتشرت الثقافة البوذية .

مع ان ابنية الآجر والحجارة كانت مستعملة ، فمعظم اشكال العمارة الباقية منذ أولى القرون الميلادية لا تشتمل الا على كهوف ومدافن بوذية ، ثابتة الشكل (ستوبا) (٥) . نحتت هذه الكهوف ، كتلك التي وجدت في كارلي وألّورا وأجانتا ، في طبقات الصخور الطبيعية ، خصوصا بين القرنين الثاني ق . م والقرن التاسع الميلادي ، وذلك لجعلها أمكنة للعبادة لاتباع الديانات الثلاث الرئيسية في الهند ، البرهمانية والبوذية والجينية . بعض الكهوف كان خلوا من الزينة .

كذلك نحتت هياكل كبيرة قائمة بذاتها في الصخر ، في كل من الدكن الغربية ، والجنوبية الشرقية . كانت أجملها هياكل ماهابليبورام الشاطئية (٣) .

دونت نظريات فني النحت والعمارة وكيفية تطبيقها العملي في نصوص (سيلباساستراس) وكانت على الأرجح واسعة الانتشار . على الرغم من ذلك ، بقي الفن الهندي يتميز بالتنوع والحساسية ، في معالجته للمواضيع الدينية . يتضح ذلك خاصة عند مقارنة المنحوتات البرونزية بمنحوتات أوريسّا الحجرية التي تعود الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر (٨) . على العكس من ذلك ، نشأ اسلوب معقد ومضطرب في مايسور اثناء حكم اسرة هويشالا الملكية .

قبيل ذلك وحتى الفتح الاسلامي ، ازدهر في البنغال وبهار فن حقبة بالاسينا (من القرن الثامن حتى الثاني عشر) وذلك بفضل رعاية ملكية سخية واندفاع ديني عارم ، وصنعت منحوتات برونزية وحجرية ، بأنواع وأعداد كبيرة جدا (٧) ، كان لها تأثيرها في جميع أنحاء آسيا الشرقية .

نماذج باقية من التصوير الهندي

بلغ التصوير ايضا مستويات رفيعة من الاتقان ، كما تدل على ذلك الرسوم الجدارية الموجودة في الهياكل الكهفية ، في الدكن الغربية (مثل تلك التي توجد في اجانتا) . تشير هذه الصور الى حقبة طويلة من التطور ، ومن المؤكد تقريبا ، انه كانت توجد ايضا أشكال أخرى من التصوير ، لم يبق منها شيء . بقيت ايضا نماذج أخرى ، منها مخطوطات مزينة من سعف النخيل (١) ، وهي تدل على اتقان للخط والالوان الزاهية .

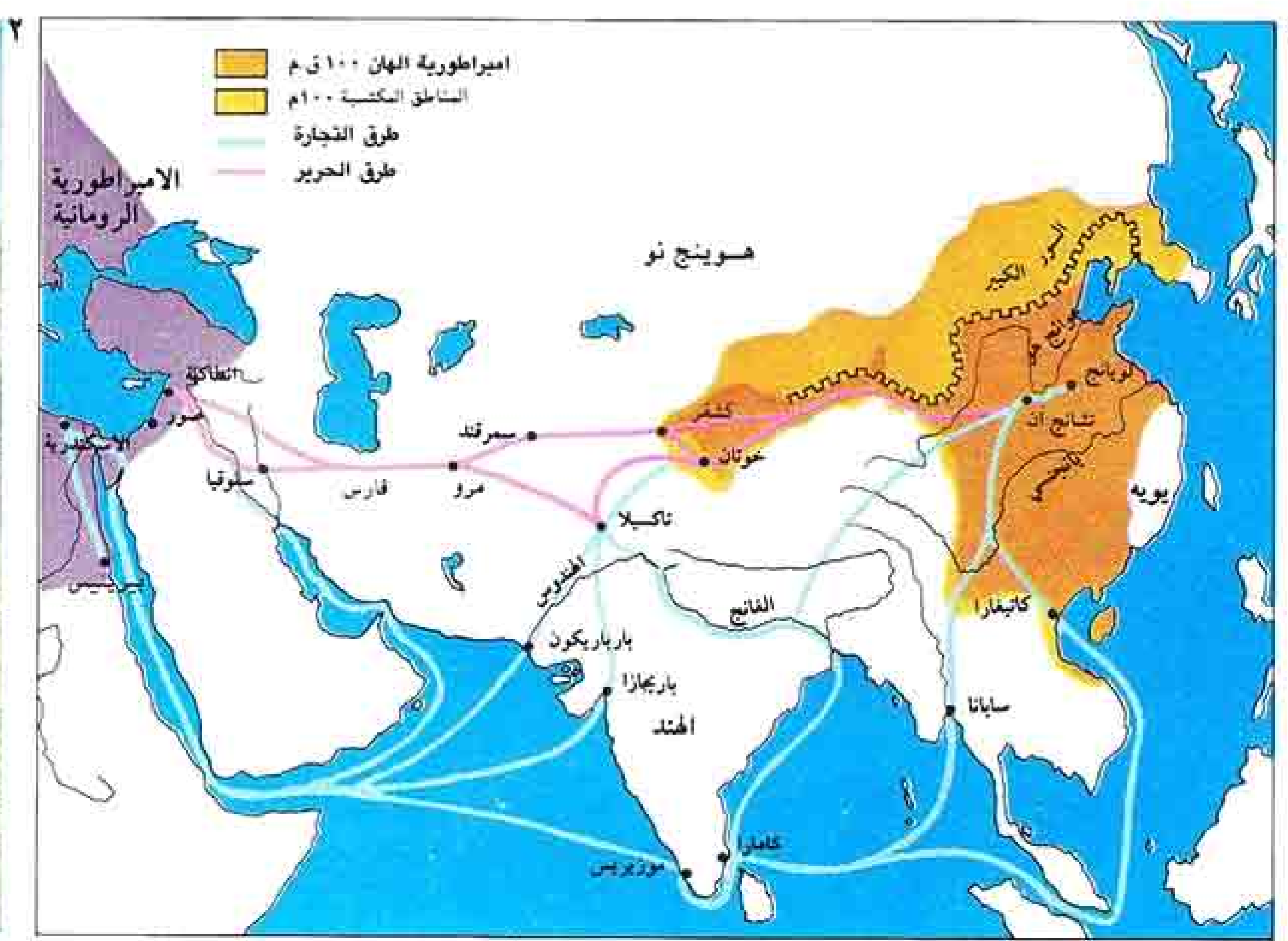
الصين
«بين سنة ١٠٠ ق.م. و ٦١٨ م.»

حوالى ١٠٣٠ ق . م ، قدمت من الصين الغربية مجموعة من القبائل تدعى تشو وخلعت اسرة شانج (١٦٠٠ ؟ ـ ١٠٣٠ ق . م) عن عرشها ، وهي الأسرة الحاكمة الأولى في تاريخ الصين المدون .

حكمت هذه القبائل الصين لفترة اطول من فترة اية اسرة اخرى . وكانت مساهمتها الكبيرة في تاريخ الصين ، انها شهدت ولادة الفلسفة الكونفوشية ورواجها الشعبي .

اسرتا تشو وتشين

على عهد اسرة تشو (١٠٣٠ ؟ ـ ٢٢١ ق . م)، حدثت تطورات عديدة كبرى . فقد امتدت المملكة نحو البحر شرقا ونهر اليانجتسي

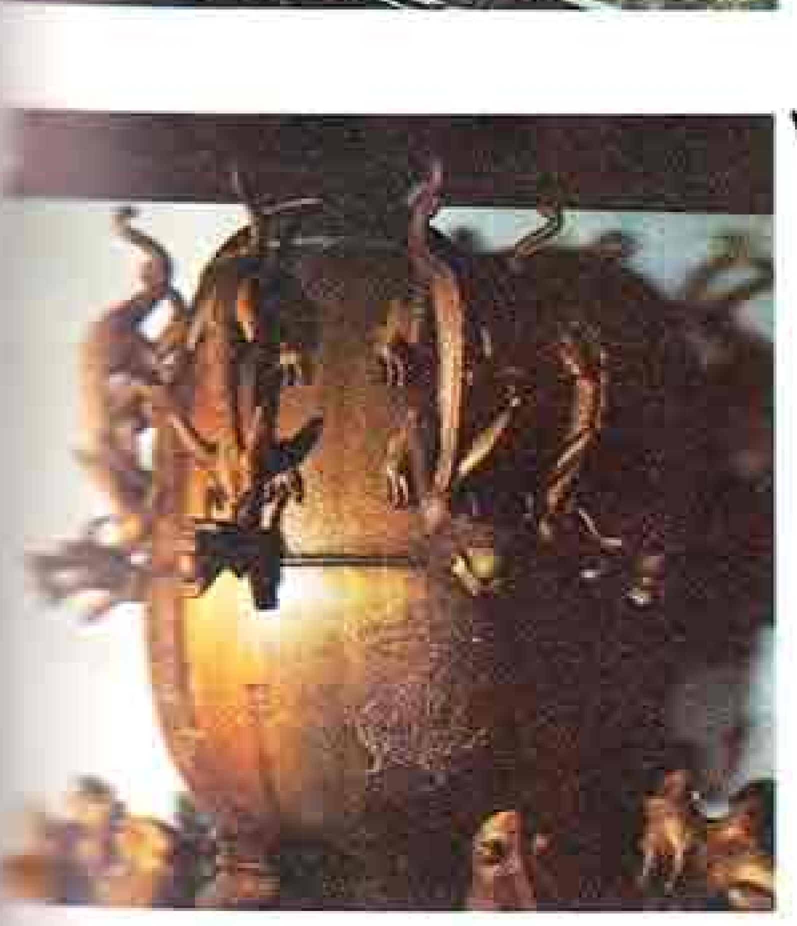
١


٢

(١) ـ اتسعت رقعة الصين تحت حكم اسرة هان . بعد توحيدها على يد اسرة تشين . كان على الصين حماية تجارة الحرير النامية . الا ان آسيا الوسطى بقيت عرضة لتهديدات القبائل الرحل .

(٢) ـ بدأ بناء سور الصين العظيم في عهد اسرة تشو في القرنين الرابع والثالث ق . م . كان الغرض منه حماية الشعب الصيني من هجمات القبائل الرحل التي كانت تحتل النجود الواقعة في الشمال والغرب النائيين . استمر البناء في عهد الاسر المالكة اللاحقة وتم وصل اقسام شتى من السور ، حتى امتد اثناء حكم اسرة مينج (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) على مسافة ٢٤٠٠ كلم .

(٣) ـ تحمل اول آلة صينية معروفة لقياس الزلازل ثمانية تنانين يمسك كل منها كرة في فمه . حول قاعدة الاناء ، تجلس ثمانية ضفادع فاغرة أفواهها . من شأن أي زلزال في أي نقطة من نقاط البوصلة ان يسبب سقوط الكرة التي يحملها التنين المقابل لذلك الاتجاه ، في فم الضفدع الجالس تحته . فيتبيّن من ذلك اتجاه الهزة الأرضية . اخترع هذه الآلة فلكي ورياضي وشاعر ومؤلف شهير اسمه تشانج هنج .

٣


جنوبا وحدود سيتشوان الى الجنوب الغربي . ومع استمرار التوسع ، قامت دول شبه مستقلة . تهتم بالثقافة والدين . اكثر من اهتمامها بالسلطة السياسية . وكانت تدفع الجزية للامبراطور وبلاطه .

الا ان توازن القوى الدقيق ، بين الدول الخاضعة للامبراطور ، لم يلبث ان انهار ، فبدأت حقبة « الدول المتناحرة » (٤٧٥ ـ ٢٢١ ق . م) . اثناء حقبة الصراع العنيف هذه ، ازدهرت الافكار الفلسفية والاخلاقيات ، ونشأت طبقة اجتماعية مثقفة جديدة . كان على رأس الحكماء كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق . م) الذي الحّ في تعاليمه على الواجبات نحو العائلة والمجتمع ، اكثر مما أهتم بالأموات . بتأثير من أفكاره ، تدهور نظام الاقطاع القديم ، ونشأ تقليد من التعاون الوثيق بين الفكر الفلسفي والعمل السياسي في الصين .



٤



٥



٦

(٤) ـ دفنت الاميرة تو وان بهذا الثوب المصنوع من اليشب . كانت هذه الأميرة قرينة الامير ليوشنج الذي مات قبلها بوقت قصير عام ١١٣ ق . م . اكتشف قبرهما صدفة بعض الجنود عام ١٩٦٨ داخل صخرة على جبل لينج ، في مقاطعة هوبي . كانت الا بواب الحجرية الضخمة التي تؤدي الى حجرات الدفن ، موصدة بحديد مصبوب . وكان حجم القبرين يبلغ حوالى ١٢,٥ مترا مربعا . وجد بعض الرماد تحت اثواب اليشب المرتخية ، وهو كل ما بقي من الزوجين الملكيين . كان من المعتقد ان لليشب خواص سحرية ، لحفظ كل ما يوضع فيه الى الأبد . كانت الثياب مصنوعة من ١٢ قطعة لكي تغلف الجسد كليا .

(٥) ـ عثر على هذا الحصان السماوي الذي يعود الى عهد اسرة هان في عام ١٩٦٩ في قبر قرب وو ـ واي في مقاطعة كانسو . كان الحصان الطائر موضوعا شائعا في فن أسرة الهان .

(٦) ـ غطاء محور عجلات عربة يعود الى حقبة تشو الوسطى (القرن السابع ق . م) . يزين رأس نمر مسمار العجلة الذي يثبتها في موضعها . كانت العربات التي أخذت منها هذه المحاور تستعمل على الأرجح لأغراض احتفالية .

كان هذا العهد ايضا مرحلة تغيير تقني عظيم. فقد حل الحديد محل البرونز، لاسيما في صناعة الاسلحة. واكثر الري المحاصيل الزراعية. وزاد اختراع السرج الصدري فعالية الحصان الى حد كبير.

تدريجيا، امتصت الدول المتفوقة عسكريا واقتصاديا الدول الصغرى والضعيفة. حتى لم يبق سوى متنازعين رئيسيين هما اسرة تشو الحاكمة في الجنوب، واسرة تشين الحاكمة في الغرب. في آخر الأمر، أصبح أفراد اسرة تشين حكاما مطلقين ووحيدين للصين. فشهد عام ٢٢١ ق. م توحيد الصين للمرة الاولى في عهد «اول امبراطور» يحكمها وهو شيه هوانج تي (٢٥٩ - ٢١٠ ق. م) (٩). ابطل الحاكم الجديد نظام التشو السياسي واعاد النظام الاقطاعي القديم. قسّم البلاد الى ٣٦ مقاطعة، أقام عليها موظفين مسؤولين تجاهه مباشرة. كذلك أكمل بناء

٧


٨


(٧) - هذه النسخة عن رسم نافر من عصر اسرة الهان، تبين احد الرماة من الغزاة، على حصانه السريع. لفّ العنان حول رقبة الحصان، لكي يتسنى له ان يطلق سهمه بحرية. ولما كان يرمي من على صهوة جواده، كان يتمتع بسرعة وحركة فائقتين. كان هؤلاء الغزاة يشكلون خطرا دائما على حكم اسرة الهان.

(٨) - صنعت مدرسة النحاتين البوذيين هذا النصب من المرمر الابيض، في القسم الاول من القرن الخامس الميلادي. وهو يمثل بوذا سكياموني، في وضع يظهره على انه مانح الشجاعة. يجلس بوذا تحت بعض اشجار السال، يحيط به تلامذته واعضاء جماعة بوديساتفا. وبينهم انأندا تلميذه المحبب، وماهاكاسيابا الذي اصبح قائدا بعد وفاته. فوقه تدور معبودات اناث حاملة اكاليل من الزهر.

٩


(٩) - كان أول من امر بتوحيد الأوزان والمقاييس هو: شيه هوانج تي، اول امبراطور للصين بكاملها. من التدابير الأخرى التي اتخذها توحيد اللغة، وبناء نظام طرق دفاعي. لكن الضرائب والعمل الاجباري أدت الى ثورة الفلاحين وسقوط الاسرة الحاكمة.

السور العظيم ودعمه (٢) . وهو يمتد اليوم مسافة ٢٤٠٠ كلم ، من مقاطعة كانسو الجنوبية حتى ساحل بكين الشرقي . يذكر التاريخ شيه هوانج تي كامبراطور مستبد وعملي ، أحرق جميع الكتب الموجودة ، مستثنيا فقط المؤلفات التي تعالج مواضيع الزراعة والطب والصيدلة . بعد وفاة الامبراطور الأول ، انهار الكيان السياسي بسرعة في ظل حكم الامبراطور الثاني الضعيف الذي قتل عام ٢٠٧ فانتهى بذلك عهد اسرة تشين .

أسرة هان : التربية والثروة

برز من خلال الفوضى التي تلت ذلك ، مرشح ناجح للعرش هو ليو بانج (٢٤٧ ـ ١٩٥ ق . م) الذي أسس أسرة هان عام ٢٠٦ ق . م (١) . حاولت اسرة هان ، في بادىء الأمر ، ان تحكم على اسس نظام حكم تشين . لكن بعد قرن تقريبا ، تقلص مبدأ الحكم المحلي الوراثي ، واصبح المرشحون للحكومة المحلية ينتخبون على أساس امتحانات عامة . وفي عام ١٢٤ ق . م ، انشئت جامعة امبراطورية ، لدراسة الروائع الكونفوشية . كان طلاب هذه الجامعة يتلقون ثقافة تهيؤهم للحكم ، وزاد عددهم بسرعة ، حتى بلغ في نهاية حكم تلك الاسرة ٣٠٠٠٠ تقريبا . كذلك تأسست مدارس اقليمية . وقد ساعد اختراع الورق ، على تطور الجهاز الاداري ، وتعزيز التربية ، كما حل الحبر والريشة محل ادوات الكتابة الحادة .

انتعشت الفنون بفضل رعاية الدولة لها ، وتجلت ثروة اسرة هان المبكرة في فخامة قبورهم (٦) . ويمكن القول اجمالا ان معظم انجازات هذه الحقبة يعكس احتياجات جهاز بيروقراطي حكومي : فقد طور المهندسون تقنات الري ، واخترعوا ساعات مائية ، كما اخترعت مزاول شمسية وآلات لقياس الزلازل (٣) .

حتى ذلك التاريخ ، لم يكن للصين اتصال يذكر بالعالم الخارجي ، ولكن رقعة الامبراطورية اتسعت تحت حكم أسرة هان ، ففتحت طرق القوافل ، بما في ذلك طريق الحرير القديمة التي كانت تصل سلسلة من الواحات المحيطة بسفوح التلال في حوض تاريم مع بلاد ما بين النهرين وسوريا . كانت الأفكار تنتقل مع التجارة ، وكان ابرزها الديانة البوذية (٨) التي جيء بها من الهند ، في ظل اسرة هان ، والتي اصبحت بحلول القرن السابع قوة رئيسية في الصين .

اصبحت الصين دولة كبرى للمرة الاولى ، في عهد اسرتي تشين وهان . لكن طبقة الموظفين الكبار (ماندارين) ، الذين كانوا ينتخبون بعناية بواسطة امتحانات علمية ، اصبحت فاسدة وانضمت الى كبار ملاكي الارض في قهرهم للفلاحين . فنشبت ثورة عامة عام ٢٢٠ م اطاحت بأسرة هان .

تفكك الامبراطورية

خلال القرون الثلاثة والنصف التالية ، تعاقب على الحكم عدد من الأسر لفترات قصيرة . ولم تتوحد البلاد ثانية حتى عام ٥٨١ م على يد أسرة سوي ، فازداد الرخاء ، وخفضت الضرائب ، الا ان الامبراطور الثاني كان مبذرا ، فرفع الضرائب . وفي عام ٦١٨ م اغتاله أحد ضباطه ، وهو لي شيه مين (الامبراطور لي يوان) الذي أسس أسرة تانج .

كونفوشيوس والكونفوشية

من شأن آلاف العظام المستعملة في العـرافة ، والتـي بقيت من عهد أسـرة شانج (١٦٠٠ ؟ ـ ١٠٣٠ ؟ ق . م) ، ان تهدي علماء الآثار الى شكل الديانات التي كانت شائعة في الصين القديمة . فمن النصوص المحفورة على تلك العظام ، تبرز صورة عالم تسيطر عليه ارواح الملوك الموتى (تي) ، والأجداد ، وقوى الطبيعة ، والأرواح الحارسة . بعد ان خلعت اسرة تشو (١٠٣٠ ؟ ـ ٢٢١ ق. م) اسرة تشونج ، ادعى ملوكها ان اسرتهم مدعوة من السماء لحكم البلاد . وكان من المعتقد ان السماء (تيين) ، أو الجـد الأعظم (شانج تي) يحكم الكون ، ويحدد فصول السنة ، ويمنح الخصب للناس والحيوانات ، وينظم

١



٢

(١) ـ ان هيكل السماء في بكين ، بسقوفه الثلاثة ، ومزاره المقبب بالذهب والآجر الازرق ، هو من أروع المباني في الصين . هنا كان الامبراطور نفسه يؤدي دور الكاهن الأعظم امام الشعب . وما زال هذا الهيكل نصبا وطنيا حتى اليوم .

(٢) ـ كان يعهد ، حتى قبل الحقبة المسيحية ، لموظفي البلاط الشبيهين بهذا الماندارين ، بدراسة الروائع الكونفوشية . ولم تلبث دراسة هذه الآثار أن شاعت بين الطبقات المثقفة . وصار من الضروري اجتياز امتحان فيها ، قبل مباشرة خدمة البلاد ، او الحصول على الترقية . أخيرا نشأت طبقة بيروقراطية كبيرة مدربة عـلى الـطريـقة الكونفوشية حملت ادارة الصين عبر القرون .

(٣) ـ تقديم القربان والثناء على الملك وقوانينه تظهر على هذه الصورة المأخوذة من « شيه تشينج » ، احدى الروائع الكونفوشية .

(٤) ـ هذه الصورة المرسومة على الحرير والتي تعود الى عهد أسرة مينج (١٣٦٨ م ـ ١٦٤٤ م) تبين كونفوشيوس ، كمعلم مثالي ، او « ملك غير متوج » . في حياته كان مربيا لأبناء الارستقراطيين ، وتجوّل بين ولاية وأخرى ، أملا في ان يجد بعض الحكام الذين يطبقون تعاليمه . الا انه لم يلاق سوى عدم الاكتراث ، وفي بعض الاحيان ، سوى العداء . في الحقيقة ، كان الاعتراف بكونفوشيوس كمعلم اخلاقي اثناء حياته مقتصرا على حلقة صغيرة من تلاميذه . مع الأيام أضيفت الى شخصيته ملامح جعلته المعلم الأقدس .

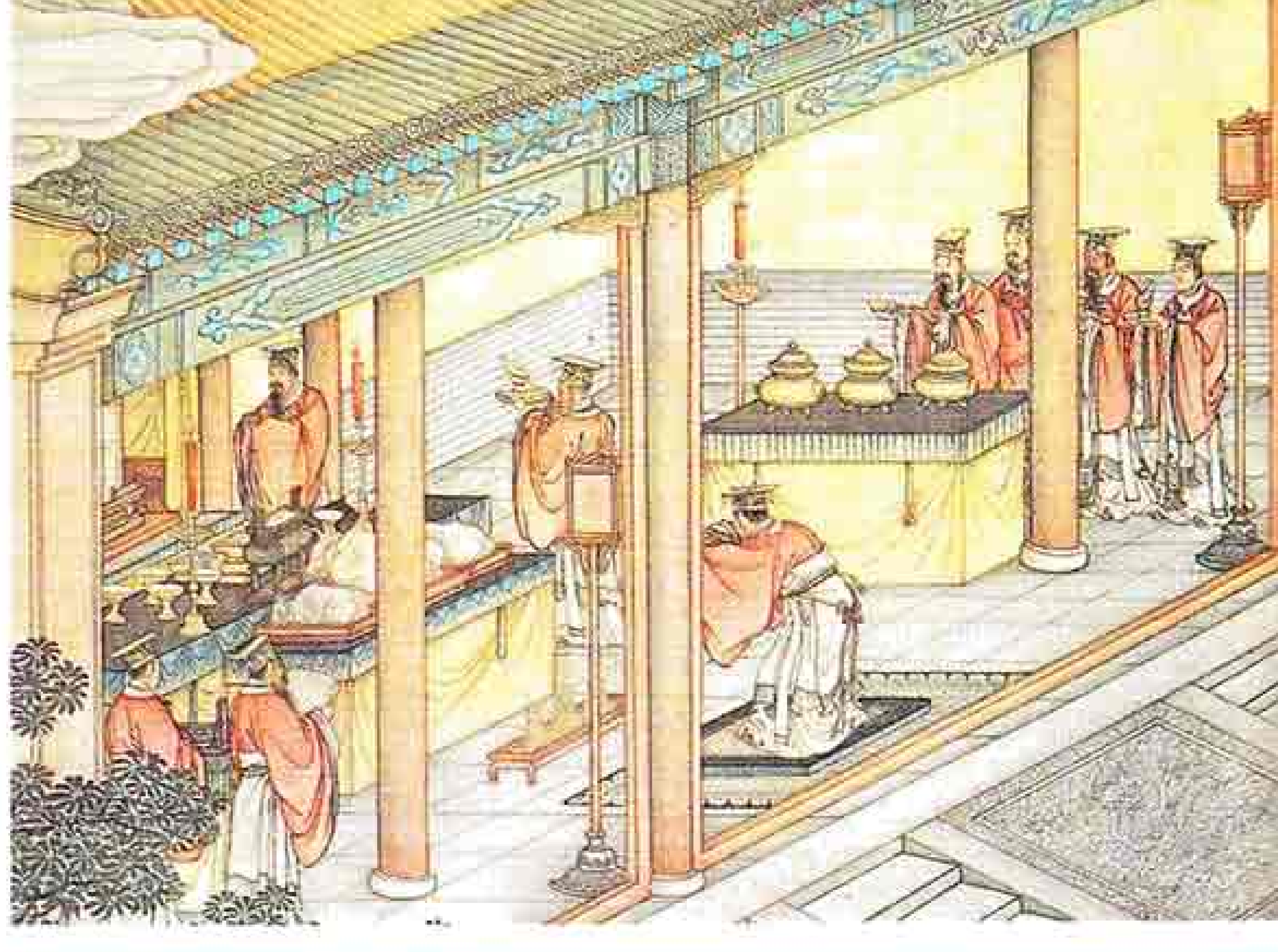
دورة الموت والتجدد . وكان الامبراطور ايضا كاهنا ، يمارس الطقوس اللازمة لانتظام سير الأحداث الطبيعية .

حياة كونفوشيوس

ثمة وثائق بقيت من عهد أسرة تشو ، يعتقد ان كونفوشيوس قد استشهد ببعض نصوصها ، او ربما يكون قد جمعها ونسقها . وهي تؤلف جزءا من التراث ومن العقيدة التقليدية القديمة ، التي تنطوي على القول بالقوتين المكملتين الواحدة للأخرى ، يين ويانج (٦) ، وبواجب احترام السماء والاجداد ، (٨) . ذلك القول الذي ورثه كونفوشيوس . كذلك بشر بعض المعلمين الكونفوشيين المتأخرين ببعض معتقدات ديانة تشو . ان اسم كونفوشيوس هو الصيغة اللاتينية للاسم الصيني كونج وهو المعلم كونج الذي ولد في مدينة لو المستقلة في



٤





(٥) هذه الصورة الخيالية تمثل ملتقى ثلاث طرق للتفكير في الصين القديمة. قد لا يكون كونفوشيوس (الى اليسار) قد التقى لاوتسي (الى اليمين) الذي يظهر هنا كرجل طاعن في السن . وقد لا يكون البوذا (في الوسط) ، وهو الراهب ، قد زار الصين ، الا ان الاخلاق والمراسم الكونفوشية ، والتصوف التاوي الطبيعي ، والتقشف البوذي لعبت جميعها دورا تكوينيا في البنية التقليدية للدين والفن والحياة الاجتماعية في الصين .

شمالي الصين عام ٥٥١ ق . م وتوفي عام ٤٧٩ ق . م . كان كونفوشيوس ينتمي الى عائلة ارستقراطية ، لكنه نشأ نشأة فقيرة نسبيا . ولما خاب أمله بالعمل السياسي ، وجد عمله الحقيقي في تدريب الشبان على الخدمة المدنية (٥) .

أسس كونفوشيوس مدرسته الخاصة ، وكانت من اولى المدارس من نوعها في الصين ، ودون ان يدّعي الابتكار علّم ما كان يعتبره أفضل جوانب الحكمة القديمة . مع ان كونفوشيوس كان يدعي انه يحافظ على التراث القديم او يبعثه ، فقد فسر الوثائق بطريقته الخاصة ، وصاغ نظاما أخلاقيا ومسلكيا أثر على الصين منذ ذلك التاريخ .

عند بلوغ كونفوشيوس سن الخمسين ، عيّن في مجلس الدولة ، وقد ذهب بعضهم انه كان رئيس وزراء لو . لكنه لم يكن راضيا عن منصبه ، فأخذ يتجول في الولايات

٦



٧

(٦) - في هذه الصورة يحمل بان كو ، وهو شخصية اسطورية ، رمزي يين ويانج اللذين يظهران في التعاليم الكونفوشية .

(٧) - يمكن رؤية قبر كونفوشيوس حتى يومنا هذا في تشوفو ، في مقاطعة شانتونج . امام القبر ، تقوم لوحة حجرية ، ومذبح عليه شموع ، وأوان للبخور . وتحمل اللوحة نقشا بسيطا : « المعلم



القديم الأقدس » .

٨



(٨) - كانت الاواني الطقسية البرونزية تستعمل في القرابين والمراسم الدينية ، منذ أقدم العصور . هذه الاواني المصفوفة على المذبح او حوله تحمل اشكالا واقنعة لها اشكال تقليدية . تصف نقوشها مراسيم ملكية ودينية ، وهي تقاليد أثرت في الفكر الكونفوشي .

المجاورة بدون ان يلاقي اي نجاح ، بل جابهه الكثير من العنت ، فعاد الى بلاده خائب الامل . وقضى السنوات الأخيرة من حياته في التعليم والدراسة .

أدب كونفوشيوس وتعاليمه

ينسب الى كونفوشيوس تقليديا تأليف ، أو على الأقل ، تحرير الروائع الكونفوشية الخمس ، وهي « كتاب الشعر » و « كتاب التاريخ » و « كتاب التغيرات » و « اخبار الربيع والخريف » و « كتاب الطقوس » . لكن القليل من هذه الاعمال يمكن نسبته اليه نسبة صادقة . اما تعاليمه الحقيقية فينطوي عليها كتاب « المنتخبات » (لون يو) ، وهو كتاب صغير يحتوي على اقواله ، كما دونها تلاميذه .

تدعو « المنتخبات » الى حياة من الصلاح (جين) تشمل التهذيب والاخلاص وايثار الغير على النفس ، وتطلب من الحكام ان يسعوا وراءها ، وان كادت تكون من صفات القديسين . على الملك المثالي ان يحكم بموجب مبدأ الخير والصلاح ، وينظم سلوكه بواسطة الطقوس (لي) . لا تقتصر هذه الطقوس على العبادة الدينية ، بل تتعلق باللباس وآداب السلوك والاخلاق الشخصية . وقد دعا كونفوشيوس ذلك « سيرة » الرجل الشهم الحقيقي ، واعتبرها مثله الأعلى . كذلك دعا الى البر (هيسياو) بالوالدين والأجداد ، ووضع سلما للعلاقات البشرية : بين الحاكم والمحكوم ، وبين الأب والابن ، والأخ الأكبر والأصغر ، والزوج والزوجة ، والصديق وصديقه . كان كونفوشيوس يؤمن بالكائن الأسمى ، ولكنه كان يقول بأن خدمة الله تبقى دون فائدة اذا أهمل المرء خدمة الانسان .

كان كونفوشيوس ومعاصره لاوتسي (٦٠٤ ؟ ـ ٥٣١ ق . م) معلمين ، لا مؤسسي ديانات . الا ان مؤلفاتهما المزعومة باتت الاسفار المقدسة للكونفوشية والتاوية ، وجزءا من ثقافة الصين بكاملها (٤) . واصل تعاليم كونفوشيوس ووسعها ، بعد ذلك بقرن ، مينشيو (٣٧٢ ـ ٢٨٩ ق . م) وهسون تسو . خلال بضعة قرون اصبحت التعاليم الكونفوشية هي العقيدة الرسمية للدولة ، واساس تصرفات الطبقات الرسمية (٢) .

دور كونفوشيوس في التاريخ

قبل الحقبة المسيحية ، كان الاباطرة يقدمون الاضحيات على قبر كونفوشيوس (٧) ، وهي ممارسة استمرت عدة قرون . الا ان كونفوشيوس لم يكن الها له تماثيل ورسوم ، بل كان سلفا او حكيما عظيما ، يحاط بالاحترام على انه « معلم عشرة آلاف جيل » . مع ذلك ، فقد أدت تقاليد تبجيل الأجداد لدى الصينيين ، وإلحاح كونفوشيوس نفسه على البر بالوالدين ، الى اعتبار مراسم عبادة الاجداد جزءا من الكونفوشية .

في العصور الحديثة ، هوجم كونفوشيوس كارستقراطي اقطاعي كما وصف بأنه اعظم معلمي الصين القديمة . ما زال الصينيون يبجلون الموتى ، كما يستمر انفاق الكثير من الوقت والمال ، في سبيل حفظ الهياكل (١) والمقابر . وما زالت الصين الحديثة متأثرة الى حد كبير بالكونفوشية على الرغم من التحول عن التقاليد الذي جاءت به المثل الماركسية المطبقة في الصين .

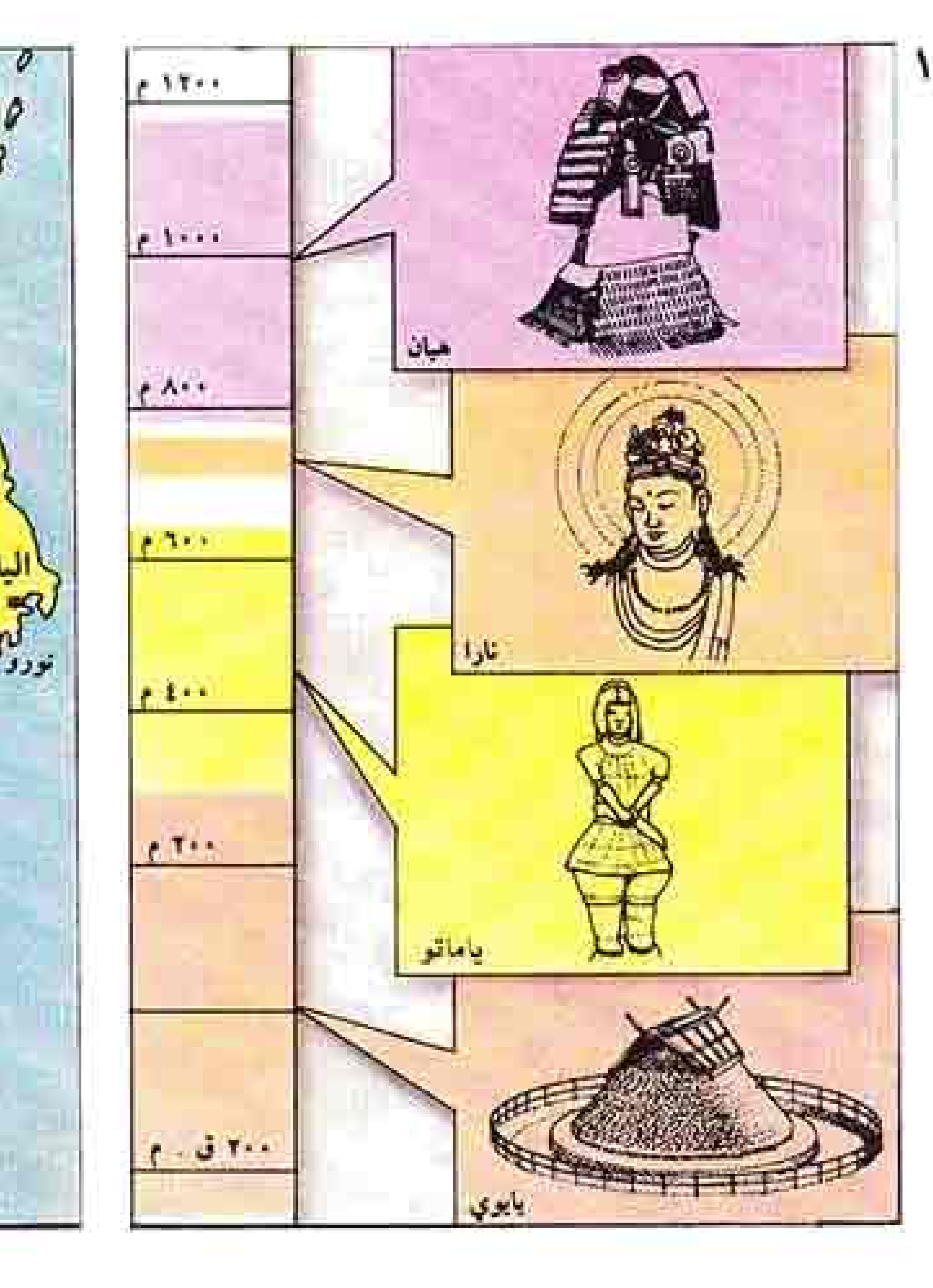
اليابان
«بين ٢٠٠ ق.م. و ١١٨٥م.»

منذ بداية القرن الاول الميلادي ، جاءت الى اليابان امواج متتالية من المهاجرين القادمين من البر الاسيوي ، عن طريق كوريا في معظم الاحيان ، جالبة معها ثلاث مهارات رئيسية : عملية صب الحديد والبرونز التي أنتجت آلات وأسلحة أشد فعالية ؛ دولاب الخزاف الذي زاد انتاج الآنية الخزفية ؛ لكن ما كان أهم من هذين الأمرين هو ادخال الأرزّ وطرق ريّه التي جعلت الزراعة المستقرة تحلّ محل القنص والصيد . قامت الحضارة اليايوية على قرى زراعية .

توحيد اليابان

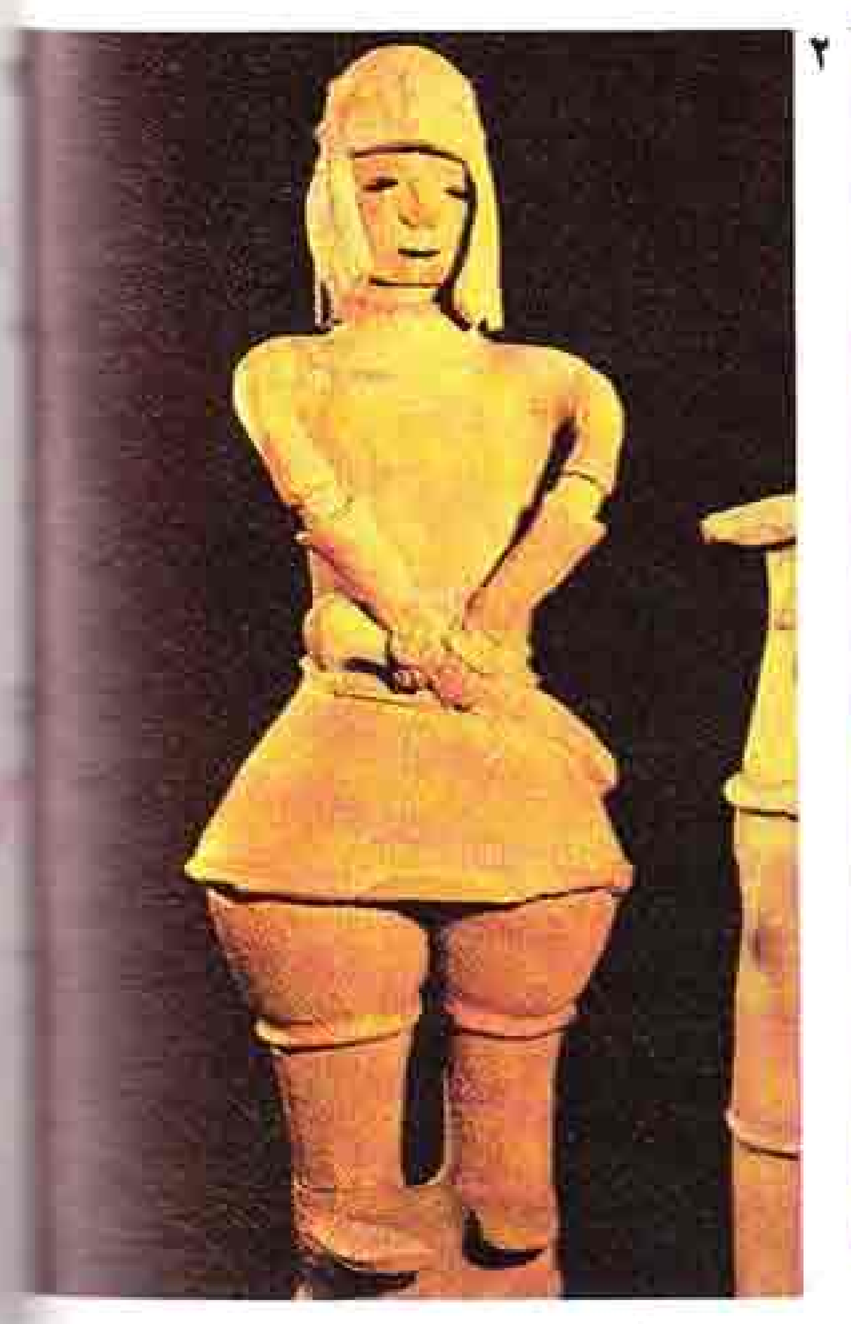
في القرن الثالث الميلادي ، وصفت وثيقة

١



طرق التأثير الثاني
٦٠٠ كلم
صفر
بحر اليابان
اليابان
كاماكورا
نورو
كيوتو
نارا
ساكاي
كوريا
الصين
بحر الصين الشرقي

٢



(١) ـ استقرت المسالك التي دخلت منها الثقافة الصينية والديانةالبوذية الى اليابان . أثناء القرنين التاسع والعاشر . تعود الاتصالات بين البلدين الى حوالى عام ٤٠٠ م . عندما ارسل ملك بايكتشي . في كوريا . علماء الى اليابان ومعهم كتابات كونفوشية . ثم حمل الكوريون في القرن السادس الى اليابان كتابات ومنحوتات بوذية . وعندها بدأت اليابان ترسل بعثات رسمية وتلامذة الى الصين في عهد تانج .

(٢) ـ تمثال هانيوا هو تمثال أجوف من الفخار . مصمم ليكون مقرا للروح . وكثيرا ما كان يقام على روابي الدفن الخاصة بزعماء القبائل . واعضاء الاسرة الامبراطورية . هذا التمثال المصغر لمحارب يلبس درعا يعود الى حقبة ياماتو (٣٠٠ م ؟ ـ ٦٢٥ م) . هناك ايضا تماثيل للحيوانات والمباني والمراكب بالاضافة الى تماثيل للرجال والنساء . كانت فكرة تمثال بشري خاص بالقبور . جزءا اصليا من تراث شنتو . اذ عندما أخذ الصناع البوذيون يؤثرون في الفنانين اليابانيين . فانهم اعطوهم دقة الصنع . وليس الأفكار الاساسية . تختلف تماثيل هانيوا اليابانية عن التماثيل الصينية بأنه كان لها « عين » جوفاء يزعمون ان الروح تدخل منها الى الجسم .

(٣) ـ هذه الصورة الجدارية لمعبود بوذي في هيكل كوندو هوريوجي في نارا رسمت باسلوب فن التصوير التانجي المعاصر . في القرن السابع أو الثامن . وهي تكشف عن الاصول الهندية للبوذية .

صينية لتأريخ الأحداث أسمها « واي تشيه » ، اليابان كبلد فيه اكثر من « ١٠٠ جماعة » ، وحدتها الملكة بيميكو . فقد توصل بعض الزعماء القبليين (أوجي) الى التمتع بسلطة كافية لتنظيم بناء قبور واسعة ، متعددة الحجرات . وقامت احدى هذه الاسر ، مدعية انها متحدرة من معبود الشمس الانثى ، تتزعم تحالفا ضعيف الروابط بين قبائل قوية .

مع حلول القرن السادس ، استطاعت اسرة ياماتو الامبراطورية هذه (٢) ان تتدخل في الخلافات الكورية الداخلية ، مما أدّى الى الاحتكاك بالأفكار والمهارات الصينية ، التي كانت قد اجتاحت شبه الجزيرة الكورية . أدّى هذا بدوره الى تحول ثان أعمق في الحياة اليابانية .

لقد دخلت البوذية (٣) والكونفوشية ، والطب وعلم الفلك وهندسة البناء الصينية والخط الصيني الى اليابان في القرنين

٤



(٤) ـ قاد ميناموتو يوريتومو (١١٤٧ ـ ١١٩٩) الجيوش التي قضت على سلطة أسرة تايرا عام ١١٨٥ . هذا الصراع الذي خلدته « قصة جينجي » أوحى بعدد من الآثار الأدبية الهامة . يبدو هنا ، باللباس الرسمي ، يوريتومو الذي أقام عاصمته في مقاطعته الخاصة ، بعيدا عن العاصمة الامبراطورية .



(٥) ـ قام شوتوكو تايشي (٥٧١ ـ ٦٢١) بدراسة عميقة للبوذية . وأسس بعض الهياكل الهامة الشبيهة بهوريوجي في نارا . كذلك حاول ادخال الافكار الكونفوشية الى الدولة اليابانية ، ونشر تشريعا حكوميا عام ٦٠٤ . وهو يظهر في الرسم في الزي الصيني ، والصورة مرسومة كما ترسم الصور الامبراطورية .

السادس والسابع (١) ، واخذ العلماء اليابانيون يترددون على الصين (٦) . وسرعان ما عمل حكام اليابان المركزيون على تنظيم دولتهم ، على غرار بيروقراطية امبراطورية تانج الصينية . وفي عام ٥٩٢ م ، اصبح شوتوكو تايشي (٥) وصيا على العرش ، فبدأ برنامجا خاصا لنشر البوذية ، وبسط سلطة « اسرة ياماتو الامبراطورية » على البلاد .

في عام ٦٤٦ ، اشتملت التدابير ، التي تعرف باصلاحات تايكا ، على وضع حقول الأرزّ تحت سلطة الامبراطور ، وفرض ضرائب نظامية ، وتوسيع شبكة الموظفين الامبراطوريين . انشئت ايضا في وسط الدولة الجديدة عاصمة على الطراز الصيني ، اسمها هايجو (نارا) ، بقصورها وهياكلها وشوارعها المستقيمة العريضة الرابطة بين المباني العامة . الا ان النظام الصيني الخاص



٦ (٦) - تبين دروع يابانية من حقبة كاماكورا الفن المقترن بالحقبة الهايانية المتأخرة ، وبظهور الطبقة العسكرية الاقليمية ، التي كانت تتطلب مهارات حرفية كبيرة . كثيرا ما كان المحاربون يهدون دروعا فاخرة الى المعابد الهامة . وقد أعطت مثلهم الشخصية أهمية كبرى لمبادىء الكرامة والبساطة .



٧ (٧) - تعود هذه النسخة الخطية لنص سوترا (سفر من الأسفار البوذية) الى الحقبة الهايانية المتأخرة . كان من المعتقد أن القيام بنسخ أجزاء السوترا باليد ، هو احدى الوسائل المؤدية الى الولادة الثانية في الفردوس . كان ذلك أحد مظاهر العبادة البوذية (عبادة الجودو) ، التي نشأت في أواخر القرن الثاني عشر ، وألحت كثيرا على قيمة حياة الآخرة .

بامتحانات الخدمة المدنية لم يقتبس قط . وبقيت الأسر القوية في المقاطعات مستقلة الى حد كبير . وفشل تطبيق نظام التعبئة العسكرية . مع ذلك ، جاءت قوانين عام ٧٠٢ مفصلة وشاملة .

ظهور أسرة فوجيوارا

بعد خمسين سنة من الادارة المستقرة ، تردّت أوضاع البلاط ، فظهرت مخاطر جديدة أخذت تهدد السلطة الامبراطورية . فأفراد أسرة فوجيوارا الذين كانوا طيلة القرون الأولى موظفين حكوميين مخلصين توصلوا الآن ، بتزويج بناتهم الى الاباطرة ، وبحبك المؤامرات البارعة ، الى السيطرة على البلاط . وفي عام ٨٥٧ أصبح فوجيوارا يوشيفوسا كبير الوزراء . بعد ذلك بقليل ، اعتلى حفيده الطفل عرش الامبراطورية ، وتولى هو منصب الوصي على العرش .

كانت العاصمة ، هايان ، مسرحا لانجازات ثقافية بارزة . فبينما كانت أهم فنون هايجو (نارا) متأثرة بأسلوب تانج الصيني ، قطعت المملكة الجديدة روابطها مع البر الآسيوي ، وطورت أساليب فنية تعبر عن الاحاسيس اليابانية الصرف . فغدا فن العمارة أقل توهجا وأكثر عذوبة ورقة . وأخذت اللفائف المصورة تمثل موضوعات تاريخية وأدبية . وحل خط صوتي جديد محل الأحرف الصينية ، ففتح المجال بذلك لأشكال مرنة من التعبير (٧) . في تلك الأثناء ، ألفت سيدة ، من سيدات بلاط العاصمة هايان ، رواية « قصة جينجي » (١٠١٠ ؟ - ١٠٢٠) ، وهي أشهر رواية يابانية .

العائلات المحاربة وحياة البلاط

رافق تضاؤل سلطة الامبراطور ظهور عائلات اقليمية تستمد قوتها من مصادر جديدة . أخذ هؤلاء الأسياد يعزّزون جيوشهم ، لكي يتمكنوا من المحافظة على القانون والنظام ، ويحاربوا سكان الشمال الاصليين ، وهكذا اصبحوا مستقلين أكثر فأكثر عن سلطة الامبراطور . كانت مزارعهم المستقلة (شوين) تدفع مبالغ ضئيلة للعاصمة ، لكنها شجعت التطور الاقتصادي لمقاطعات اخرى .

في القرن الحادي عشر ، أدركت بطانة الامبراطور مدى سطوة هذه الطبقة الجديدة ، فدعت اسر تايرا وميناموتو القوية لمساعدتها على قمع الثورات الخطيرة . كانت اسرة فوجيوارا تأمل في السيطرة حتى على هؤلاء المحاربين الاشداء (٦) ، الا ان افراد أسرة تايرا لم يلبثوا ان حلوا محلها كأسياد نافذين في البلاط والعرش . استعمل تايرا كيوموري القوة والمكيدة للتغلب على منافسيه ، وفي عام ١١٨٠ نصب حفيده امبراطورا . بعد عشرين سنة من الحكم ، بدت اسرة تايرا وكانها لا منازع لها في العاصمة ، الا ان القوة العسكرية كانت قد اصبحت آنذاك العامل الحاسم الوحيد في السياسة ، وهكذا ثارت جماعة ميناموتو على الأسياد الجدد في هايان كيو .

بين عامي ١١٨٠ و ١١٨٥ اشتبكت هاتان العائلتان وحلفاؤهما في حرب اهلية شاملة أدت ، في عام ١١٨٤ ، الى تدمير قوات اسرة تايرا البرية ، وبعد ذلك بسنة واحدة الى تدمير اسطولها ايضا ، فاستتبت السيادة على اليابان آنذاك لعائلة ميناموتو (٤) .

نشأة العالم المسيحي الغربي الوسيط

كان غزاة الشمال الذين قضوا على الامبراطوريات الغربية في القرنين الخامس والسادس وثنيين ، أو آريوسيين ينكرون فكرة وحدة الآب والابن ويرفضون بعنف المسيحية الرومانية . كانت أوروبا اذن عند حلول القرن السادس تبدو بحاجة الى التنصير ثانية . جاء النشاط التبشيري من روما ، على أثر نمو الرهبنة البندكتية وانتعاش البابوية . كان القديس بندكتوس (٤٨٠ ؟ - ٥٤٧ ؟) يعيش في ايطاليا عندما كان يحكمها القوط الشرقيون الاريوسيون . في حوالى عام ٥٠٠ ، بدأ بندكتوس حياة تنسك في سوبياكو داعيا الى ممارسة الطقوس الدينية ، وحياة اجتماعية قائمة على نكران معتدل للذات .

١



٢

لندسفارن
ايونا
ملروز
جارو
يورك
اوتريخت
فولدا
اشترناخ
فورسبورج
ايخشتات
كونستانس
لوكساي
فرايزينج
سالزبورج
سان جال
اللوار
الرون
الدانوب
بوبيو
روما
مونتي كاسينو
٤٠٠ كلم

البلدان التي اصبحت اكثريتها مسيحية بحلول عام ٦٠٠
البطريركيات +
الامبراطورية الرومانية المقدسة

اديرة كلتية وتأثيرها
اديرة انجلو - سكسونية وتأثيرها

٣



(١) - بلغت المسيحية في أواخر عهد العالم الروماني أوسع انتشار لها حوالى عام ٦٠٠ . فقد استعاد جوستينيان في أواسط القرن السادس شمال افريقيا وروما ورافينا من يد القوط الأريوسيين . وفي الشمال كان قد تمّ تنصير الارلنديين ، حوالى عام ٤٣٠ والفرنك عام ٤٩٦ ، والبورغونيين عام ٥١٦ ، والقوط الغربيين عام ٥٨٩ . كما بدأت الارساليات الأنجلو - سكسونية عملها التبشيري عام ٥٩٧ . الا أن هذه الوحدة المسيحية المؤقتة ، في حوض المتوسط ، استمرت فقط حتى أنجز العرب في القرن السابع أثناء امبراطوريتهم ، التي امتدت من سوريا الى اسبانيا ، وضمّت ثلاثا من البطريركيات الخمس الأصلية ، أي انطاكية والقدس والاسكندرية .

---

(٢) - بقيت المسيحية والتعليم الكلاسيكي قائمين في ارلندا بعد الغزوات الشمالية لأوروبا ، وقد أسس المرسلون القادمون منها عددا من الأديرة الأوروبية . كما ان الانجلو - سكسون الذين كانوا قد تنصروا على يدهم ، أسسوا عددا آخر .

---

(٣) - يعتبر صليب روثويل ، الذي يحتمل انه كان صليبا يستعمل في القداس أو للتبشير ، أجمل نصب من أنصاب الفنّ النورثمبري . خلال النهضة الثقافية البريطانية في القرن السابع .

---

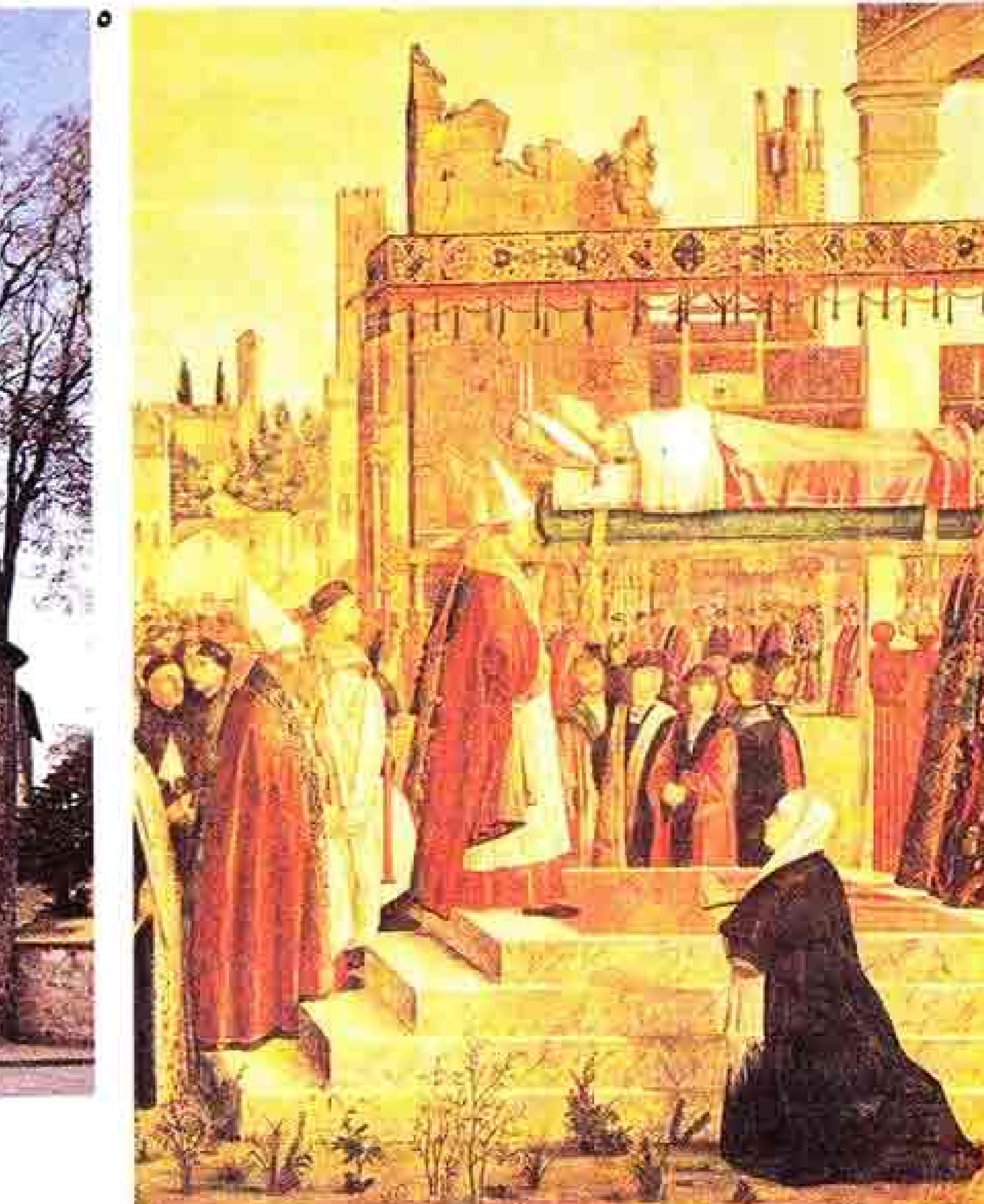
(٤) - قصة مصرع القديسة اورسولا هي اشهر روايات الاستشهاد في فترة الغزو الشمالي لأوروبا . فقد قتلت القديسة مع رفقائها على يد الهون (المغول) في كولونيا عام ٤٥٤ ، وهي تصرّ على بتولتها وايمانها . يبدو مأتمها الاحتفالي ، في لوحة لفيتوريو كارباتشيو (١٤٩٠) . اكتسب تقليد تكريم الشهداء المحليين أهمية متزايدة . خلال حقبة اعادة التنصير ، وفي تلك الحقبة ارتفع عدد رفقاء القديسة أورسولا المستشهدين معها الى ١١٠٠ .

وحوالى عام ٥٢٩ ، أسّس دير مونتي كاسينو الذي اصبح أحد معاقل المسيحية والمدنيّة ، في أوائل العصور الوسطى في أوروبا . وقد وضع « نظاما » لأتباعه من الرهبان ، يتصف بنزعة انسانية ، ويضمن استمرارية أفكاره ومؤسساته (٨) .

البابويّة الروحية والزمنية

كان مؤسس بابوية العصور الوسطى هو البابا غريغوريوس الكبير (٥٤٠ ؟ - ٦٠٤) (٧) ، الذي كان نصيرا حازما وداعية للحياة الرهبنية . جلس غريغوروس على كرسي البابوية عام ٥٩٠ ، حين كانت سلطات حكّام ايطاليا البيزنطيين تتدهور بسرعة ، وفيما كان اللومبارديون الاريوسيون يهددون بتحويل البابوية الى مجرد اسقفية لومباردية . أشرف غريغوريوس بنفسه على ادارة املاك الكنيسة ، في ايطاليا الوسطى

٥







(٥) - يشكل مدخل دير لورش في هيسين بالمانيا الغربية شاهدا على برنامج شارلمان لبناء كنائس جديدة .

(٦) - أصبحت الذخائر المقدسة جزءا رئيسيا من محتويات كل كنيسة ، في القرن التاسع ، كانت توضع بشكل بارز ومنمق ، كما نرى في المذبح الكبير لكنيسة القديس أمبروسيوس في ميلانو ، التي زخرفها فولفينيوس الألماني حوالى عام ٨٣٥ .

والجنوبية . ونظَّم الدفاع عن روما . وعيَّن حكام المدن الايطالية الرئيسية . كما وقَّع في ٥٩٢ ـ ٥٩٣ صلحا مع اللومبارديين . دون الرجوع الى الامبراطور الشرقي . منذ ذلك الحين ، أصبحت البابوية في آن واحد سلطة زمنية وروحية في الغرب .

كان الفرنك أول الغزاة الشماليين الذين دخلوا في الكنيسة المسيحية ، وذلك عندما جرى تعميد مؤسس المملكة الميروفنجية ، الملك كلوفيس (٤٦٥ ـ ٥١١) في عام ٤٩٧ على الأرجح .

أرسل غريغوريوس راهبا اسمه أغسطين الى انجلترا عام ٥٩٧ ، بصحبة رهبان من ديره الروماني الخاص ، ليبدأ عملية تنصير بريطانيا من جديد . الا ان بريطانيا عادت الى المسيحية من بابين مختلفين : فالارلنديون ، الذين حافظوا على دينهم المسيحي ، بعد بعثة القديس باتريك عام

٧



٨





٩

الطقوس الكنسية . تبدو هنا ثالثة الكنائس التي كرّست لهذه المثل العليا .

(٧) ـ انتخب غريغوريوس الأول (في الوسط) لمنصب البابوية ، في فترة كانت روما معرّضة فيها لضغط اللومبارديين الأريوسيين . الا أنه تمكن ، بفضل نشاطه وتفانيه وفهمه للادارة ، من اعطاء الكنيسة الرومانية مكانة لم تتمتع بها من قبل . كذلك وطّد مبدأ السلطة البابوية في الشؤون الزمنية ، بمبادراته الدبلوماسية من جهة ، وبفرض سلطته من جهة أخرى على « ميراث بطرس » ، الذي اتسع فيما بعد ، وعرف بالممتلكات البابوية . كما أنه ، بإرساله اغسطين الى انجلترا عام ٥٩٧ ، ضمن تطلّع الكنيسة في بريطانيا نحو روما ، وليس نحو بيزنطة . أخذ الترتيل الغريغوري اسمه من اسم هذا البابا .

(٨) ـ جلس ليون التاسع على كرسي البابوية من عام ١٠٤٩ حتى عام ١٠٥٤ . كان من انصار الاصلاح الكلوني المتحمسين ، وشرع بتحسين مستويات البابوية .

(٩) ـ شهد دير كلوني بداية الاصلاح القائم على اساس النظام البندكتي ، والذي كان يلحّ على التقيد التام « بالنظام » ويشيد بفخامة

١٠



(١٠) ـ يقال ان القديس باتريك ، وهو بريطاني روماني من كمبريا ، قد نصّر ارلندا في الفترة بين عامي ٤٣٠ و ٤٦١ . كانت ارلندا البلد الوحيد الذي نجا من غزوات القرنين الخامس والسادس . بقيت المسيحية فيها سالمة ، مع العديد من المخطوطات التي كانت تحتوي على الأدب اللاتيني الدنيوي والمسيحي . كان الاندفاع التبشيري الارلندي عاملا رئيسيا في اعادة تثقيف أوروبا .

٤٤٤ (١٠) . كانوا قد أرسلوا القديس كولومبا (٥٢٣ - ٥٩٧) الى اسكتلندا حوالى عام ٥٦٣ ليؤسس دير أيونا وينصّر البكتيين . وفي حوالى عام ٦٣٥ . توجّه القديس ايدان من أيونا الى لنديسفارن لينصر الانجليز في نورثمبريا . هناك التقى التراثان الروماني والارلندي . وكانت النتيجة أرقى وأزهى ثقافة عرفها القرنان السابع والثامن في أوروبا (٣) .

التأثير الانجليزي الارلندي

توغّل الارلنديون أيضا في أعماق القارة الأوروبية (٢) . ففي عام ٥٩٠ . أسّس راهب آخر أسمه كولومبان (٥٤٠ - ٦١٥) أديرة في اناجراتوم ولوكساي . في جبال الفوج بفرنسا . وعندما طرد من بورجونيا . لانتقاده تصرفات حاشية البلاط . نزح الى ايطاليا ليؤسس دير بوبيو . الذي أسهم اسهاما كبيرا في تنصير اللومبارديين .

جاء تنصير فريزيا والمانيا . انطلاقا من بريطانيا . في القرن الثامن . كان رسول الفريزيين ويلبرورد (٦٥٨ ؟ - ٧٣٩) . الذي كان من اصل نورثمبري والتحق بدير في ارلندة . واصل بونيفاسيوس (٦٨٠ ؟ - ٧٥٤) . وهو انجليزي . رسالة البعثة التبشيرية في فريزيا عام ٧١٦ . ثم انتدبه غريغوريوس الثاني لتنصير الألمان في عام ٧١٩ . وهو الذي وضع أسس الكنيسة الكارولنجيّة . وقد قتل في فريزيا عام ٧٥٤ (٤) .

جرى تنصير القوط الغربيين الاريوسيين في اسبانيا . في مجمع طليطلة الكنسي الثالث عام ٥٨٩ . في أوروبا الشمالية . تأخرت عملية التنصير أكثر من ذلك . فقد تنصرت السويد والدنمرك مؤقتا على يد القديس أنسكار في القرن التاسع . وبولونيا والمجر في أواخر القرن العاشر . والنروج بحدّ السيف . على يد القديس أولاف . في أوائل القرن الحادي عشر .

قبل ذلك بمدة . كان امبراطور الفرنك شارلمان (٧٤٢ - ٨١٤) قد استقدم مبشرين انجليز وارلنديين . لوضع أسس المسيحية الكارولنجية . التي دعمها ببرنامج نشيط لبناء الكنائس (٥) . كذلك شهد آخر القرن الثامن تحالفا بين البابا والأباطرة الفرنكيين ضدّ اللومبارديين . كما شهد بروز فكرة « الامبراطورية الرومانية المقدّسة » بتتويج شارلمان سنة ٨٠٠ لهذه الامبراطورية .

رافق نشوء « الامبراطورية الرومانية المقدسة » تدهور ملحوظ في المستويات الكنسية . فقد انتشرت السيمونية (اي شراء المناصب الكهنوتية) . واغتنت الأديرة . واصبحت متساهلة مع اعضائها . وأصيبت البابوية نفسها بالفساد .

اصلاح الكنيسة

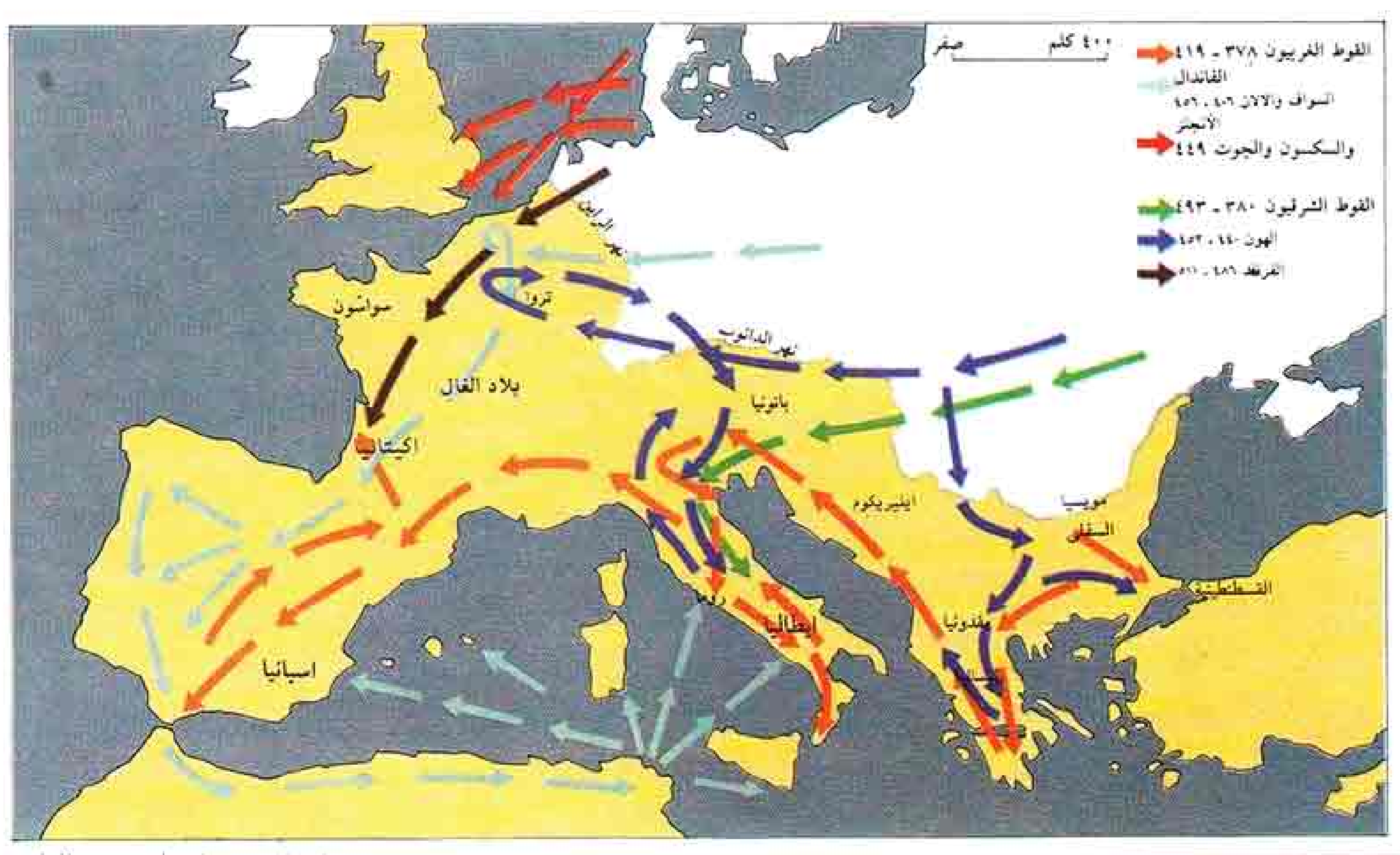
بدأت عملية اصلاح الكنيسة في دير كلوني . وهو دير بندكتّي في بورجونيا (٩) . فقد جرى في هذا الدير . تحت أمرة رئيسه أودو . تطبيق النظام البندكتي بحزم ودقة . ثم تسربت روح الاصلاح الكلوني الى جميع جوانب الكنيسة المسيحية الغربية . وبلغت ذروتها في عهد البابا ليون التاسع (٨) وغريغوريوس السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) . ولكن في عام ١٠٥٤ . وهو آخر عام من ولاية ليون التاسع . تم الانفصال النهائي بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية .

غزوات الشعوب الجرمانية

كانت كلمة « برابرة » عبارة تحقير، استعملها الرومان لوصف الشعوب التي لم تكن تنتمي الى حضارة اليونان والرومان. في حوض البحر المتوسط. ومنذ عهد قيصر، كانت تهدد حدود الامبراطورية الرومانية شعوب جرمانية غازية، فهزم عدد منها، واستقرت، كشعوب مستوطنة مسالمة الى حد ما، لكنها بقيت مسلحة. فدعا الرومان ايضا هذه الشعوب بالبرابرة.

في القرن الرابع، تعرضت الحدود الممتدة من بحر الشمال حتى البحر الأسود، مرورا بنهري الراين والدانوب لضغط جديد، من قبل موجة أخرى من الشعوب الجرمانية المعتدية. ضمّت الفرنك والسكسون

١



٢



١ - الجوت
٢ - الانجلز
٣ - السكسون
٤ - الفرنك
٥ - البورغون
٦ - التورنجيون
٧ - السواف
٨ - الفاندال
٩ - القوط الشرقيون
١٠ - القوط الغربيون
١١ - الجيبيديون
١٢ - الألان
١٣ - الهون

(١) - بعد انهيار حدود الراين والدانوب، أخذ الغزاة الشماليون يجولون بطريقة عشوائية، داخل حدود الامبراطورية الغربية. ومع أنهم لم يكونوا يعملون بصورة منسقة، فقد كانت لهم أربعة أهداف؛ أولها القسطنطينية ومقدونيا وتراقيا. وثانيها ايطاليا. وثالثها بلاد الغال الشمالية الشرقية، ورابعها افريقيا الشمالية التي كانت مصدر الحبوب لأوروبا الغربية. وبدون خطة هجومية

والبورجون والقوط الغربيين والقوط الشرقيين والسواف والآلان والفاندال والجيبيديين (٢) . كانت مجتمعاتهم تقوم على القبيلة . وكانت قبائلهم صغيرة العدد نسبيا ، تتراوح بين ٢٥٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ نسمة . كان جميع الرجال الأكفياء جسديا جنودا ، وكان يتولى العبيد الزراعة . أثبتت جيوشهم المدعومة بالفرسان الأقوياء ، انها اصلب من أن تنال منها أقوى الفيالق الرومانية . كان هؤلاء الغزاة الشماليون قد اعتنقوا المذهب الأريوسي الهرطوقي ، البغيض في نظر المسيحية الرسمية ، لأن اتباعه كانوا لا يعتبرون المسيح مساويا لله الآب . تدفقت هذه الشعوب غربا ، في أواخر القرن الرابع ، نتيجة التكاثر السكاني ، ونقص الغذاء لديها ، بالاضافة الى وصول الهون الذين كانوا من القبائل المغولية الرحّل ، القادمة من آسيا الوسطى للنهب والسطو ، لا للاستيطان .

٣

مسالك القوط الغربيين
مسالك الفرنك
ممالك البورغونديين
ممالك القوط الشرقيين
ممالك الفاندال

(٢) - كانت مواقع القبائل الشمالية الغازية المتمركزة الى الشرق من الحدود الرومانية على طول نهري الراين والدانوب ، تتغير باستمرار ، فبسبب قدوم شعوب محاربة سابقة . سقطت قلاع الامبراطورية ، الواحدة تلو الأخرى . وكان الاندفاع نحو الغرب يشتد كلّما قدمت قبائل جديدة من الشرق ، لاسيما قبائل الهون . كانت الضربة القاصمة للامبراطورية غزو الفاندال لأفريقيا ، الذي أدى مع حلول عام ٤٢٩ الى محاصرة روما ، وسيطرة الفاندال على غربي المتوسط .

---

(٣) - أسس الغزاة الشماليون تدريجيا ممالك مستقلة في غرب أوروبا . وجدت المجتمعات الرومانية والتوتونية ، جنبا الى جنب ، في توازن قلق . وكانت قوة الغزاة العسكرية هي التي وفرت الطاقة الدفاعية التي هزمت الهون عام ٤٥٣ . بقي الهون رُحّلا ، ولم يقيموا مملكة دائمة قط . ممالك الغزاة هي التي رسمت الحدود القومية

٤ أ

جديدة الى أوروبا ، تدفعها غربا ، بلا هوادة ، من آسيا الوسطى . عوامل الجوع وحياة البداوة الخشنة ، كان الضغط يستمر على حدود روما الشمالية الشرقية التي كان الدفاع عنها يضعف تدريجيا حتى توصل الهون الى اجتياح ايطاليا عام ٤٥٣ .

ب

ت

(٤) - كانت صناعة المعادن هي أعظم انجاز لفن الغزاة الشماليين . لكن هذا الصحن المذهب والمفضض ، المصنوع في بلاد فارس الساسانية في القرن السادس (ب) ، يعادل أية من المصنوعات المعدنية الرومانية الشرقية المعاصرة . في الغرب ، كان الانتاج يتراوح بين نقش التاج القوطي الغربي التوتوني الصارم (أ) ، وبين الجوهرة المدعوة جوهرة ألفريد الانجلوسكسونية (ت) ، وهي مصنوعة من المينا الأوروبي المقطع ، ولها ملامح كلاسيكية ، وفيها صورة للربيع .

الامبراطورية الرومانية الشرقية

كان الغزاة يهددون الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) . على جميع الجبهات الأوروبية (١) .

بعد وفاة ثيودوسيوس الكبير عام ٣٩٥ ، تحرّك القوط الغربيون في مويسيا الدنيا ، بقيادة ألاريك (٣٧٠ ؟ - ٤١٠) . الآ أن الامبراطور الشرقي (البيزنطي) أركاديوس أقنعهم بالتوجه غربا . منصّبا ألاريك « زعيما على الجنود » في ايليريكوم (المنطقة الساحلية من يوغوسلافيا الحالية) . فقاد ألاريك ، بوصفه قائدا رومانيا ، هجوما جرمانيا على ايطاليا في ٤٠١ - ٤٠٣ ، ثم عام ٤٠٨ ، وفي عام ٤١٠ استولى على روما .

في عام ٤٠٦ ، عبرت جيوش كبيرة ، من قبائل الفاندال والسواف والآلان ، نهر الراين ، نحو بلاد الغال التي كانت تعاني من نزاعات داخلية ، في الادارة الامبراطورية . كذلك



(٥) - أثناء هجوم قبائل الفرنك على بلاد الغال ، في القرن الخامس ، كان جميع رجالها الأحرار محاربين . كان الجيش الفرنكي مؤلفا ، بالدرجة الأولى من المشاة ، لا من الفرسان . وكان اشهر اسلحتهم الفأس المسماة ، فرنسيكا (١) مع أنهم كانوا يحاربون أيضا بسيف حاد (٢) ، وبالأقواس والأسهم (٣) . ولما كانت المعادن نادرة في ذلك الحين ، كان الترس المستدير (٤) يصنع من الخشب المغلّف بالجلد المشدود . كان المحاربون يلبسون الصدريات الضيقة (٥) والخوذ المزينة بالريش (٦) .



(٦) - حين اعتنقت القبائل الجرمانية المسيحية ، كان المذهب الذي اعتنقته هو الاريوسية ، التي كانت تنكر مساواة المسيح لله الأب . عندما أسس تيوديريك عاصمة مملكته في رافينا ، بنى كاتدرائية وبيتا للمعمودية ، على المذهب الاريوسي . تُظهر الفسيفساء ، في ذلك البيت ، الطريقة التقليدية لمعمودية المسيح ، مع صفٍّ من الرسل . ويدل وجود المباني الاريوسية والكاثوليكية ، جنبا الى جنب ، في المدينة نفسها ، على روح التعايش التي كانت سائدة في ايطاليا في ظل حكم ثيوديريك .



(٧) - الرسم النافر الجداري الذي أنجزه روفائيل ، بعنوان « صدّ اتيلا » (١٥١٣) يمثل أتيلا وأتباعه من الهون ، وقد جابههم البابا لاوون الأول الذي لم يحمه - حسب الروايات - سوى تدخل خارق من القديسين بطرس وبولس . بعد أن صدّ أتيلا من قبل الرومان والقوط الغربيين ، قرب تروا عام ٤٥٢ ، ومن قبل البابا في ايطاليا ، انسحب عائدا الى بانّونيا ، وتوفي ليلة عرسه ، نتيجة انفجار احد شرايينه . هذه الأحداث الأربعة أنقذت تراث الحضارة الرومانية من الدمار .

أدت هجمات مماثلة ، مقرونة بالصراع الداخلي ، الى انسحاب آخر فيلق روماني من بريطانيا فتسنّى بذلك لقبائل الانجلز والساكسون والجوت أن تغزو البلاد . ثم اجتاح الفاندال بلاد الغال وتقدموا نحو اسبانيا عام ٤٥٨ . وفي ٤٢٩ وجهوا بقيادة جيسريك (٣٩٠ ـ ٤٧٧) أعنف ضربة للأمبراطورية الغربية ، بغزوهم لافريقيا .

أول الأمبراطوريات الجرمانية

في عام ٤١٦ ، أسس البورجونيون في بلاد الغال أول الممالك الجرمانية ، داخل حدود الامبراطورية القديمة ، وانتشر الفرنك في أنحاء فرنسا الشمالية ، فكانت النتيجة أن أخذ شكل أوروبا الغربية الجديد ، (أي بعد الحقبة الرومانية) يبرز بالتدريج . الا ان أي أمل في السلام تبدّد عندما هبّ الهون ، الذين كانوا مستقرين طيلة قرن تقريبا ، في المنطقة المعروفة اليوم باسم هنجاريا ، وأخذوا يهددون الشرق والغرب معا ، بتحالفهم مع الشعوب الجرمانية المحكومة سابقا . وفي عام ٤٥٠ عندما رفضت الامبراطورية دفع أية كمية اضافية من الذهب للهون ، لقاء وقف تهديدهم ، ما كان من هؤلاء الا أن غزوا بلاد الغال ، بقيادة أتيلا (٤٠٦ ؟ ـ ٤٥٣) .

كان الهون بخيولهم القوية وطاقة جلدهم الخارقة ، يشكلون قوة لا تقهر بسهولة ، ولم يتوقفوا الا عند مدينة تروا عام ٤٥٢ . عندما وحّد الفرنجة والقوط الغربيون قواتهم مع الرومان ، عندها تحوّل أتيلا جنوبا وهدّد روما ، ولكنه مات عام ٤٥٣ (٧) .

وطّد الفرنك سلطتهم تدريجيا على بلاد الغال ، وفي عهد كلوفيس الأول (٤٦٥ ـ ٥١١) أقاموا فيها دولة موحّدة تدين بالدين المسيحي الرسمي (مجمع أورليان ٥١١) .

بعد خلع اغسطولوس ، آخر الأباطرة الغربيين عام ٤٧٦ ، أصبح الجندي الجرماني اودواسر (توفي ٤٩٣) حاكما على ايطاليا . وفي تلك الاثناء ، كان القوط الشرقيون قد غادروا منطقة البحر الأسود ودخلوا ، بعد سقوط الهون ، منطقة بانونيا ومنها انتقلوا الى أيليريكوم . وبقيادة تيوديريك قاموا منذ عام ٤٧١ بنهب مقدونيا وتيساليا . وفي عام ٤٨٧ زحفوا على القسطنطينية . هناك دفع الامبراطور زينون لملكهم تيوديريك ثمن ارتداده عن القسطنطينية ، وأقنعه بالتوجه نحو ايطاليا ، وخلع أودواسر . هزم تيوديريك أودواسر على نهر أدّا عام ٤٩٠ ، وبعد حصار رافينا لمدة ثلاث سنوات ، استسلم أودواسر فقتله تيوديريك غيلة . وأسس مملكة القوط الشرقية في ايطاليا (٦) .

الامبراطورية الشرقية

تفادت الامبراطورية البيزنطية معظم أخطار الجرمان والهون ، وذلك بتحويل اتجاههم الى الغرب . في الشرق ، حارب الامبراطور جوستينيان (٤٨٣ ؟ ـ ٥٦٥) مدة ٣٥ سنة ملك الفرس كسرى أنو شروان (حكم ٥٣١ ـ ٥٧٩) . وفي حوض البحر المتوسط انقلب ميزان القوى مؤقتا ، بعد احتلال جوستينيان لأفريقيا ثانية (٥٣٣ ـ ٥٣٤) ، ولايطاليا (٥٣٦ ـ ٥٥٤) . الا أن كل هذه الجهود ذهبت سدى في القرن التالي ، عندما سيطر العرب على جميع اراضي الامبراطورية من الشرق الأوسط حتى أفريقيا الشمالية ، وراحوا يحاصرون القسطنطينية سنويا .

أطراف الجزيرة العربية قبل الاسلام

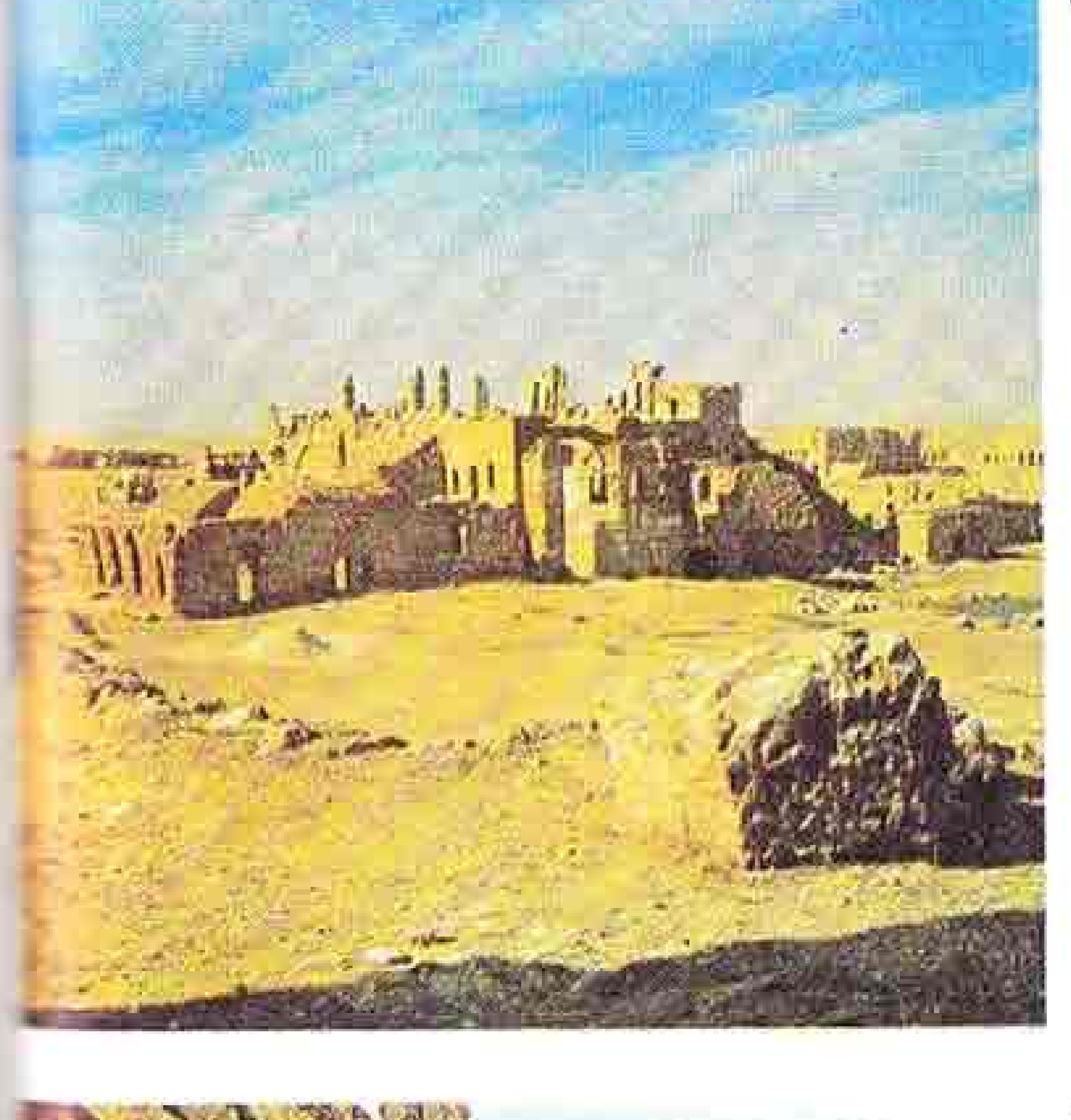
الفترة السابقة للاسلام من تاريخ العرب تسمى عادة باسم الجاهلية . ليس ثمة تحديد لمبدأ تلك الفترة . ربما أمكن ارجاعها الى مطالع القرن الثالث الميلادي وعهد سابور الأول (ذي الاكتاف) الذي يظهر من الأخبار (١) انه سحق هجرة بدوية واسعة من العرب، وردها الى الصحراء ، كما دمر مدينة الحضر ، وحاول احتلال تدمر .

الهام في الأمر ان ظهور الساسانيين بدل الاخمينيين في فارس والعراق ، ثم تحول الامبراطورية الرومانية الى امبراطورية بيزنطية مشرقية يتبعها الشام ومصر وشمال افريقية ، هذا وذاك جعل منطقة الهلال الخصيب منطقة حدودية بين القوتين ومسرح

١



٢ أ



ب

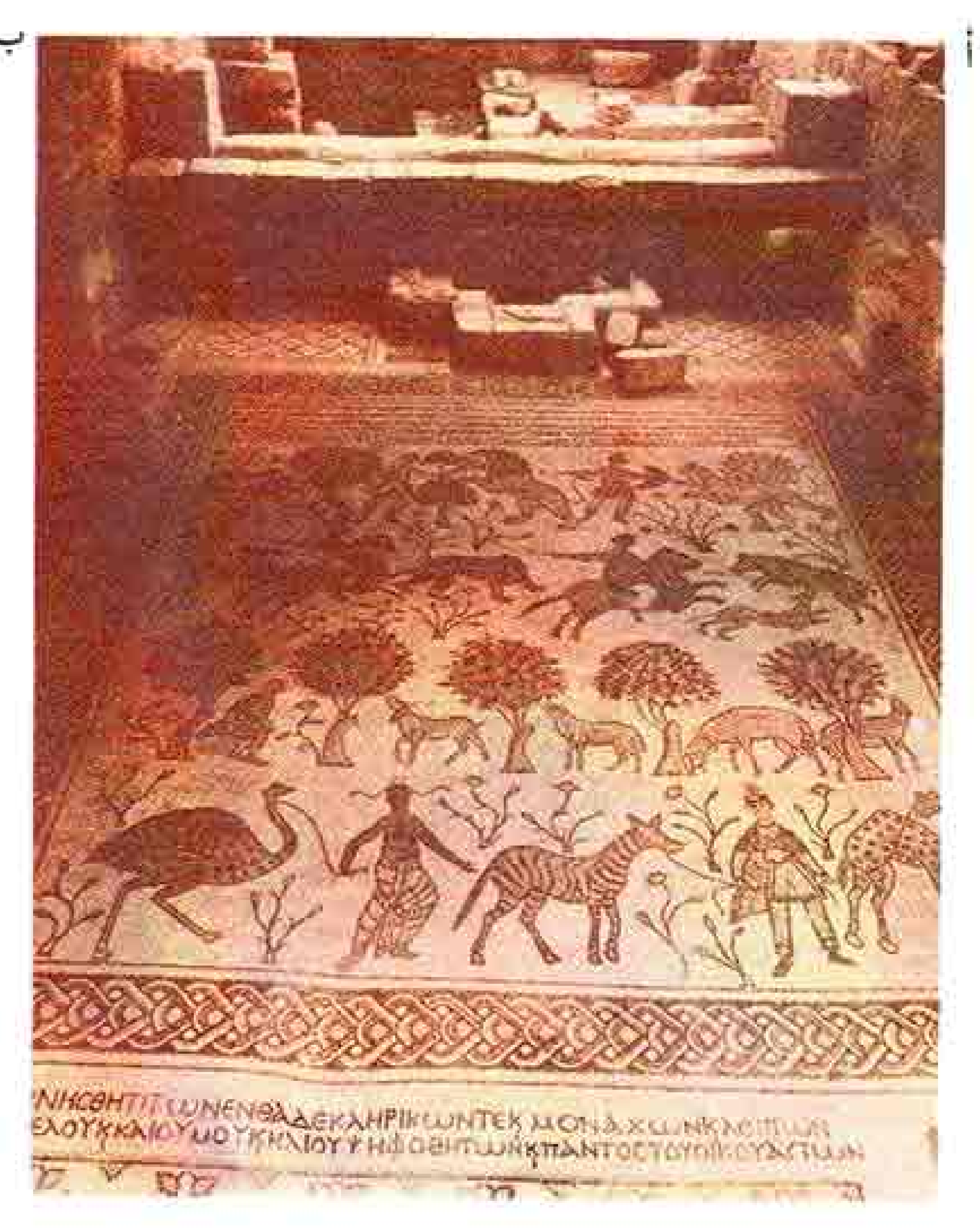


(١) - سابور ذو الأكتاف (ابن هرمزد الثاني) دام حكمه سبعين سنة بين ٣١٠ - ٣٧٩ هو العاشر بين الساسانيين . حين وصله التاج كان قاصرا فحكمت أمه أولا . لقب ذي الأكتاف يعني عريض الكتفين ضخما يتحمل اعباء الحكم . بعض مؤرخي الفرس يذكره بأنه هون ستبا وتعني بالفارسية النقّاب أو منقب الأكتاف وخالع الأكتاف . وهي عقوبة كانت معروفة لدى الساسانيين . حارب الروم طويلا واضطهد المسيحيين . بنى عدة مدن . ورسمه هنا على صحن من الفضة يرجع الى عهده في القرن الرابع الميلادي .

حروب دورية . ولما كان القرن الثالث للميلاد قد شهد زوال تدمر والحضر ، بعد أن زال الأنباط قبلهما بأكثر من قرن ، فقد وجدت المجموعات البدوية الوافدة بتدفقات مستمرة على هذه المنطقة ، مهمة حربية جاهزة للعمل بجانب هذه القوة او تلك . كما دفع ذلك القوتين الى استخدام الوافدين الصحراويين لحماية المناطق الحضرية من الجماعات الجديدة اللاحقة بعدهم ، ولحراسة قوافل التجارة ، وسلامة طرقها ، ولدعم القوى العسكرية في فترات الحروب . هكذا بدأت بين البادية العربية وكل من الساسانيين والرومان علاقات جديدة تمثلت في عدد من الممالك :

١ ـ المناذرة : مع ظهـور الساسـانيين في العراق في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي ، كانت مجموعات من القبائل العربية قد دخلته من الجنوب المفتوح على

٣ أ



ب



(٢) ـ تبنى الغساسنة المذهب اليعقوبي من المسيحية . وهو المذهب الذي كان شائعا في الشام وان لم يكن الروم رسميا بالراضين عنه . ويقول بالطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفستية). الحارث الثالث دعم هذا المذهب في سورية بأخذ نوع من القبول الرسمي البيزنطي له . بنى الغساسنة الكنائس وعنوا بالرصافة (أ) (سرجيوبوليس على أسم أحد آباء الكنيسة المدفون فيها) وكانت لهم فيها منازل وصلات واسعة . كما كانوا يقدمون النذور والهدايا لكنائسها . يعزو بعضهم بناء كاتدرائيتها (ب) للحارث الثالث الذي بنى سور الرصافة . وقام الملك الأيهم الغساني باصلاح وترميم صهاريج المدينة ومد المياه اليها .

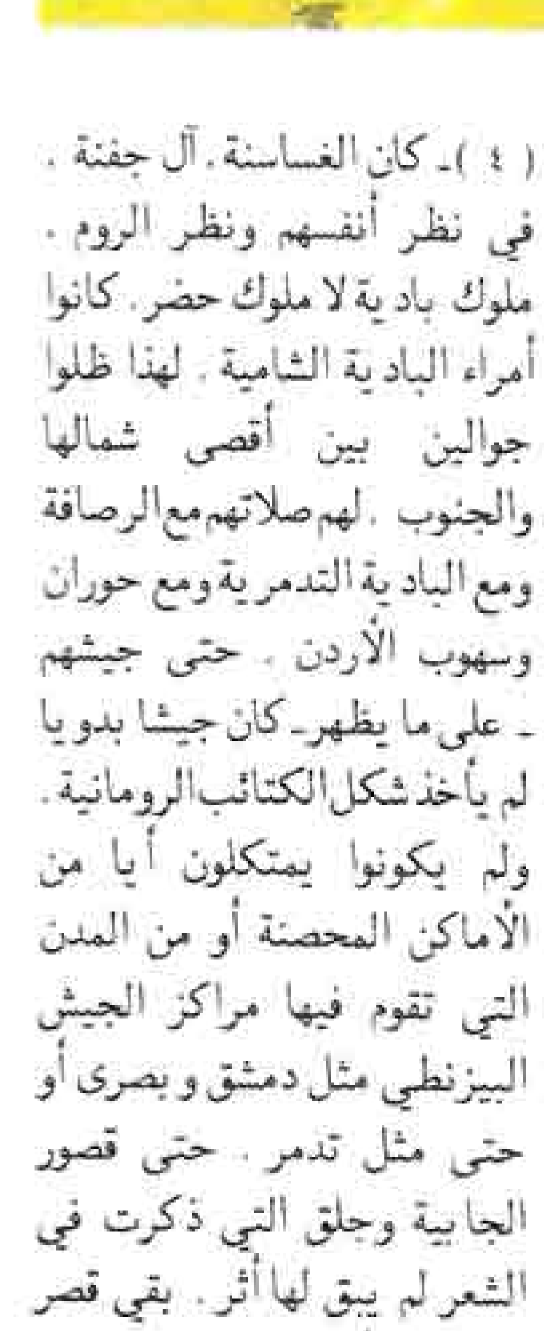
(٣) ـ في أيام الغساسنة ، بنيت كنائس كثيرة (ب) . وكان الفن السائد ، بطبيعة الظروف التاريخية ، الفن البيزنطي . ومن ثم فالكتابات التاريخية والنقوش التي توجد على الأبنية هي باليونانية . والأماكن التي توجد فيها آثار من تلك الفترة كثيرة . وهنا صورة لفسيفساء (أ) في كنيسة في جبل نبو ، في أواسط الأردن على مقربة من ماديا . أعيد بناء هذه الكنيسة سنة ٥٣١ . ويقول النقش فيها انه تم أيام كان الأب الياس راعيا للكنيسة والطائفة . وتمثيل مناظر الصيد والقنص كان مألوفا شائعا في الأبنية الكنسية . في ذلك العصر . مع المشاهد الدينية .

البادية . هي قبائل تنوخ . أصلها غير معروف بوضوح ولعلها تحالف من قبائل شتى . استغلت ضعف الاخمينيين فتوطنت غربي وادي الفرات ، متعاونة مع تدمر والحضر . ثم تحالفت مع الساسانيين ايام زعيمها جذيمة الابرش . فلما قتل تزعمها ابن اخته عمرو بن عدي الذي يعتبر مؤسس اسرة آل لخم التي تحدر منها ملوك المناذرة .

استفاد عمرو من سقوط تدمر والحضر فأضحى يسيطر على البادية وتجارتها حتى حدود الشام . اتخذ مقرا له في الحيرة التي صارت بسرعة مركزا عسكريا وتجاريا وزراعيا معا ، قرب طيسفون (المدائن) ، عاصمة الساسانيين . امرؤ القيس بن عمرو المتوفي سنة ٣٢٨ م . سمى نفسه في نقش وجد على قبره « ملك العرب كلهم » . أبرز الملوك المناذرة بعده هو النعمان الأعور (٤٠٠ ـ ٤١٨) الذي اشتهر عسكريا بكتيبتيه :

٤ أ

ب



(٤) ـ كان الغساسنة ، آل جفنة ، في نظر أنفسهم ونظر الروم ، ملوك بادية لا ملوك حضر . كانوا أمراء البادية الشامية . لهذا ظلوا جوالين بين أقصى شمالها والجنوب . لهم صلاتهم مع الرصافة ومع البادية التدمرية ومع حوران وسهوب الأردن . حتى جيشهم ـ على ما يظهر ـ كان جيشا بدويا لم يأخذ شكل الكتائب الرومانية . ولم يكونوا يمتكلون أيا من الأماكن المحصنة أو من المدن التي تقوم فيها مراكز الجيش البيزنطي مثل دمشق وبصرى أو حتى مثل تدمر . حتى قصور الجابية وجلق التي ذكرت في الشعر لم يبق لها أثر . بقي قصر الحير (أ) الغربي والشرقي (بالتحديد الأموي) . وأطلال قصر البرج الذي بناه المنذر بن الحارث (٥٦٩ ـ ٥٨١) .

٥



(٥) ـ تألق الغساسنة في القرن السادس بأعمال الحارث بن جبلة (نحو ٥٢٩ ـ ٥٦٩) الذي عاصر الامبراطور جوستنيان في كل عهده (الصورة) والذي هزم المناذرة سنة ٥٢٨ وقمع ثورة السامرية سنة ٥٢٩ ونال من الامبراطور جوستنيان لقب فيلارك وبطريق . ثم استمر يقاتل المناذرة حتى نال عليهم الانتصار الحاسم في معركة حليمة (قرب قنسرين) التي قتل فيها المنذر بن ماء السماء سنة ٥٥٤ وأضحت مشهورة بين العرب حتى ضرب بشهرتها المثل « ما يوم حليمة بسر » . انتقم المناذرة لأنفسهم بعد ذلك سنة ٥٧٨ ثم خسروا سنة ٥٨٠ . هذه المعارك انهكت القوى العربية القائمة على الحدود البيزنطية والفارسية ومهدت لانهيار أوضاعها السياسية كليا في مطالع القرن السابع . فلم تكن موجودة أيام الفتح الاسلامي كقوى حماية ودفاع .

الشهباء والدوسر . وبانه بنى قصر الخورنق والسدير . في النصف الثاني من القرن ٦ دخل المناذرة النصرانية ، ونشروها في البحرين .

سقطت الاسرة اللخمية زمن النعمان الثالث (ابي قابوس ٥٨٠ ـ ٦٠٢) بمقتله على يد الساسانيين . قبل الفتح الاسلامي بخمس وثلاثين سنة . كان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي . ولهم كتابة مشتقة عن الآرامية صارت فيما بعد أصل الكتابة الكوفية العربية .

٢ ـ الغساسنة

فرع من قبائل الأزد التي تحركت من اليمن نحو عمان ونحو الشام ، حوالى القرن الرابع . كان بنو سليم وبعض قبائل العرب الأخرى قد سبقوا الغساسنة وتعاملوا مع السلطة البيزنطية . في أواخر القرن الخامس استقر الغساسنة في أطراف البادية بزعامة آل جفنة . ثم أثبتوا قوتهم الحربية ، وحلوا محل سليم في حماية الحدود والقوافل ، وأخذ المعونة السنوية على ذلك من البيزنطيين ، بعد أن دخلوا المسيحية أيضا على المذهب المونوفيستي (الشامي) .

كان العرب يسمون الغساسنة بالملوك . بيزنطة منحتهم (الاكليل) . ثم منحهم الامبراطور البيزنطي التاج سنة ٥٨٠ ، لكنه حين هزم أمام الفرس نسب الهزيمة الى المنذر الغساني ونفاه الى صقلية . لما ثار أولاده على بيزنطة تصدعت أحوال العرب في الشام . وفقدت جبهة البادية استقرارها . حين احتل الساسانيون الشام (٦١٣ ـ ٦١٤) ثم جاء الفتح الاسلامي بعده سنة ٦٣٢ وضع هذا كله النهاية للملك الغساني .

بنو الجلندي (المعوليون) :

هم زعماء موجة الهجرة العربية الثانية من الأزد الى عمان في القرن الخامس الميلادي . توحدت المجموعات الأزدية السابقة واللاحقة (بنو هناءة وبنو المعاول) تحت زعامتهم . كانت السلطة في الساحل المأهول من عمان للفرس ، ومركزها الرستاق . عين الفرس زعيم المعاول جلندي على عرب عمان . وكان لهم في البحرين واليمن قائد (أصبهبذ) . تحول بيت المعاول في القرن السابق للاسلام الى بيت ملك وصار اللقب اسما للأسرة .

حين ظهر الاسلام وجد أهل عمان فيه ، بجانب الدين ، وسيلة للتخلص من سيطرة الفرس ، فسرعان ما قبلوه بزعامة جيفر وعبد ، ولدي الجلندي المستكبر .

لا نعرف الكثير عن حضارة عمان القديمة لكن حضارة المناذرة والغساسنة كانت ، رغم سماتها البدوية ، متأثرة بحضارة الهلال الخصيب . الحيرة كانت مدينة في العمران والسياسة تسيطر على الخليج العربي . أما الغساسنة فكان مقرهم في الجابية بالجولان . ثم في جلق بالقرب منها . ولهم النفوذ ما بين الرقة الى شمال الحجاز ، وهي مناطق كانت تحوي أكثر من ٣٠٠ قرية عامرة بنوا فيها السدود والصهاريج للري (٤) لكنهم كانوا يفضلون التنقل فبنوا عددا من الحصون والقصور البدوية (١) (منها قصر الضمير ودير قصر الحير الغربي) كما عنوا ببناء الكنائس والأديرة .

كان كل من المناذرة والغساسنة يمثلون التحضر العربي ، يفد عليهم زعماء العرب في قصورهم ، ويستقبلون الشعراء ، ويجزلون لهم العطاء .

العرب قبيل الاسلام

كانت أطراف الجزيرة العربية دوما (في اليمن وعمان والمناطق المتصلة بالشام وما بين النهرين) ، أكثر تقدما من وسطها النجدي - الحجازي الذي تغلب فيه البداوة وحضارة الواحات . الأسباب واضحة . مع ذلك كان قلب الجزيرة في الحجاز خاصة وفي نجد ما بين النصف الأول من القرن السادس ومطالع السابع - وهي فترة العصر الجاهلي - قد وصلت الى حالة من الاستعداد الواسع لتقبل القفزة الحضارية الضخمة التي سيأتي بها الاسلام . الجاهلية كانت عصر ما قبل النهضة . في عدد من المناطق كانت تتبلور عناصر ثقافية ومحاولات في التنظيم السياسي والاقتصادي والتقدم الفكري والديني تمهد

١ طرقات التجارة العالمية عبر الجزيرة العربية

(١) - رغم سيطرة الجفاف وصعوبة الحياة البدوية في الجزيرة العربية عامة فقد دخل أهلها منذ العصور القديمة تيار الحضارات العالمية وكانوا أحد عوامل اللقاء والتمازج بينها. القوافل التجارية التي كانت تتوغل على طرقاتها بكل اتجاه لم تكن تحمل البضاعات فقط ولكن الافكار والمعتقدات والمبتكرات الانسانية أيضا .

(٢) - كانت نجران قبل الاسلام على المسيحية في أغلبها وقصة الأخدود فيها معروفة حين تهود ملك اليمن الحميري ذو نواس وأراد أهل نجران على اعتناق اليهودية فلما أبوا حفر لهم أخدودا وحرقهم فيه . عند الأخدود كان ثمة معبد ضخم ما تزال أطلاله الحجرية موجودة .

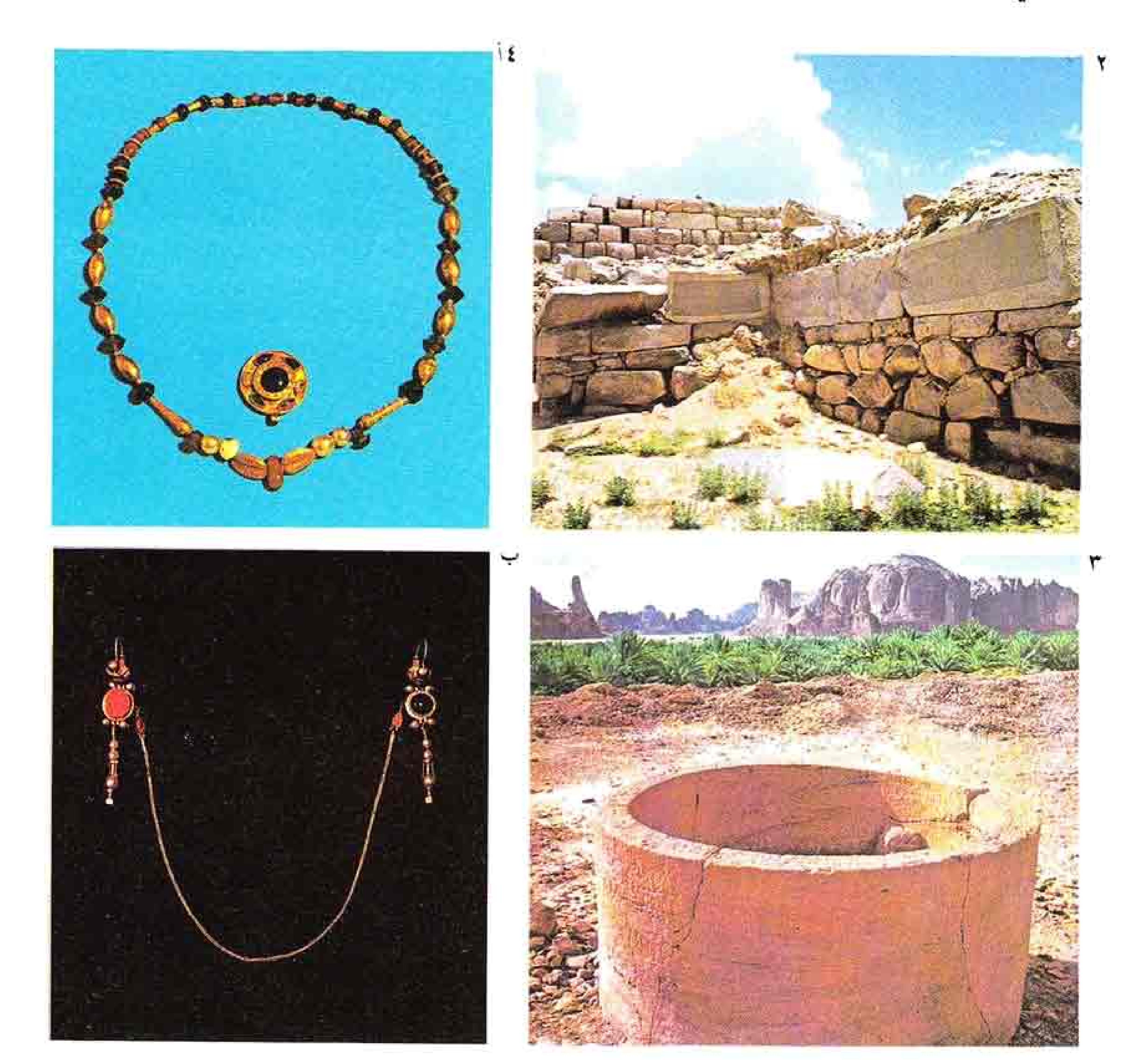
(٣) - الأحواض الحجرية التي عثر عليها في آثار الجزيرة عديدة لكن حجومها صغيرة . أما هذا الحوض فيسميه الناس « محلب الناقة » لأنهم يربطونه بناقة صالح رغم انه أكبر بكثير من أن يكون محلبا . (قطره ٤.٥ م بعمق ٢.٥ م) . عثر عليه في معبد لحياني في الخريبة (العلا القديمة) ولعله كان للسقاية في المعبد .

(٤) - يكشف شرق الجزيرة العربية يوما بعد يوم عن تراثها العريق واتصالها المستمر بالحركة الحضارية العالمية . هذان العقدان (أ . ب) وجدا في أحد قبور جاوان (رأس تنورة) وهما دليل المستوى القديم في الثروة والتجارة في تلك المنطقة . التي كانت تحوي بلدة الجرهاء الشهيرة في تاريخ الخليج في العصر الهلينستي . وجزيرة تاروت ومدينة ثاج .

كلها لنصر النهضة الاسلامية القادمة وتشمل الخليج العربي (٣ ، ٦ ، ٧) كما تشمل نجران (٢) والحجاز . فقد كانت هناك عدة محاولات قديمة مجهولة لاقامة دول بين شمال الحجاز والشام آخرها مما بقيت بعض أخباره :

مملكة كندة :

هي قبيلة يمانية يحوط تاريخها الغموض الكثير بسبب اختلاف الرواة في أخبارها . النقوش المكتشفة حديثا أوضحت انها كانت في شمال نجران حوالى سنة ٦٠ ق . م . ثم سكنت (أو سكن قسم منها) تهامة . ثم كانت في اوائل القرن الرابع الميلادي واحدة من ثمانية تجمعات عسكرية تؤلف جيش حمير . ثم كانت حوالى سنة ٤٢٥ مع حملة الملك الحميري على اواسط الجزيرة وأخذ زعيمها منه حكم قبائل معد . أول الملوك حوالى سنة



٤٥٠ هو حجر بن عمرو آكل المرار وقد استقر في غربي نجد . بلغت الاسرة أوجها في عهد حفيده الحارث بن عمرو الذي حكم أكثر من أربعين سنة . عين أولاده لحكم القبائل المختلفة . أنهى حرب البسوس بين بكر وتغلب . حاول أن يزاحم الغساسنة حين استقروا في الشام ففشل ثم صار صديق بيزنطة . حاول الحلول محل مناذرة الحيرة (ولعله اعتنق المزدكية) . ففتك هؤلاء بالأسرة الكندية سنة ٥٢٩ م . كانت تلك هي الضربة القاضية عليها . مات الحارث بعدها أو قتل في بني كلب ، وتوزعت المملكة بين أولاده . كبيرهم كان حجر الذي حاول منع تقسيم المملكة ، وقتل في حربه مع بني أسد الثائرين عليه . حاول ابنه الأصغر امرؤ القيس (الشاعر العربي الأول) المولود حوالى سنة ٥٠٠ م أن يثأر لأبيه ، واستنجد في النهاية بالروم لاسترداد الملك . لكنه توفي

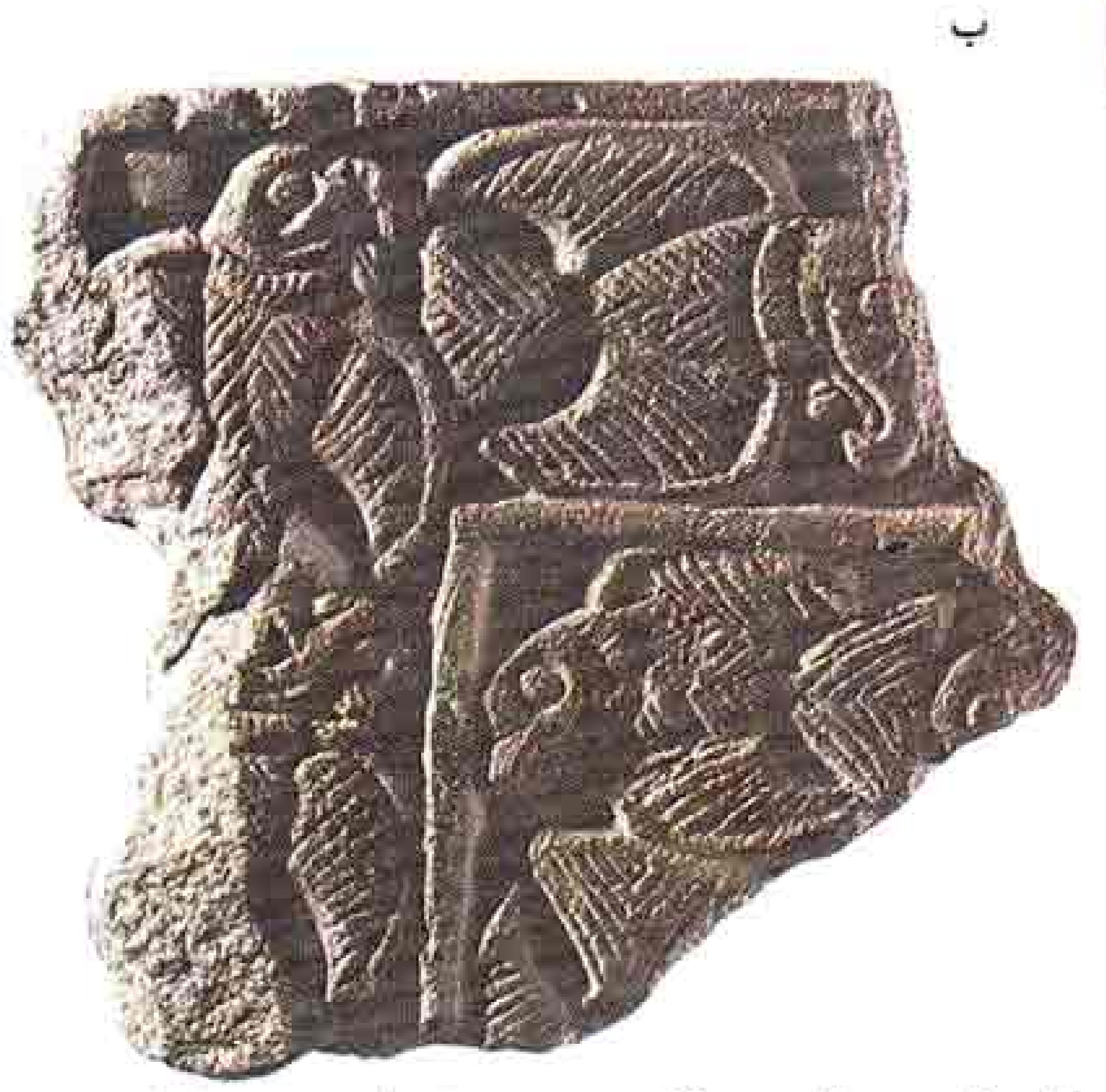
٥

نقش النمارة

تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التج
وملك الأسدين و نزرو و ملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا
يزجي في حبج نجرن مدينة شمر و ملك معدو و بين بنيه
الشعوب و وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدي هلك سنت (٢٢٣) يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

٦ أ

ب



(٥) ـ نقش النمارة مشهور لدى الأثريين فهو مؤرخ ويعود الى سنة ٣٢٨ م . وقد وجد في قصر النمارة بجبل العرب في سورية . الخط الذي كتب به خط نبطي متأخر ولغته عربية مشوبة بشيء من الآرامية (والنص في الصورة مترجم) وهو يمثل مرحلة انتقال في الكتابة (وفي اللغة الى حد ما) من الآرامية النبطية الى الخط العربي .

(٦) ـ سواحل الخليج لم تكن ممرا للحضارة فقط ولكن مستقرا أيضا . وجدت فيها قبل الاسلام بقرون طويلة تصل أحيانا الى الثلاثين مراكز حضارية تنكشف مع التنقيبات آثارها ، هنا وهناك . من هذه المواقع موقع ثاج (في الاحساء) الذي وجدت فيه أطلال مدينة كاملة ذات سور ترجع الى اواخر القرن الرابع ق . م . كما وجدت بقايا مدينة اغريقية الطابع بالقرب منها (في قرية الحنا) . الأواني الفخارية (أ) وجدت في ثاج وهي من القرن الرابع الميلادي أما النقش (ب) فهو يمثل أربعة نسور نقشت على حجر صابوني وقد وجدت في جزيرة تاروت . ويعيد الأثريون عهدها الى حوالى ٤٥٠٠ ق . م . فهذه الجزيرة الصغيرة كانت منذ عصر السلالات الأولى لبلاد ما بين النهرين محطة تجارية بالقرب من الجرهاء . تقوم مدينة تاروت في قلبها ويقوم ميناء دارين الشهير بنشاطه التجاري في جنوبها .

في أنقرة ، بينما كانت بقايا الكنديين في نجد ينسحبون الى حضرموت . لعل ذلك كان في أواسط القرن السادس .

التنظيم السياسي في الحجاز

مكة محطة تجارية قديمة السكنى . تميزت بوجود الكعبة فيها . فشل الرومان ثم الروم والأحباش في السيطرة عليها . استطاعت في القرن السادس أيام زعيمها قصي بن كلاب أن تستفيد من الحروب بين الروم والفرس فتنظم أحوالها في شبه جمهورية أوليغاركية ؛ فاللواء لبنى عبد الدار ، والقيادة لبني أمية . والحكومة (وهي أموال المعبودات) لبني سهم ، والأعنة لغيرهم . الوظائف الدينية بدورها كانت مقسمة بين الأسر كالحجابة (مفاتيح الكعبة) والسدانة ، والسقاية والرفادة (وهي أمور المال) والنسيء ، والعمارة .

نظمت قريش أيضا الأشهر الحرم السنوية فلا حرب فيها . كما فرضت من حولها منطقة حراما فلا سلاح يحمل فيها . جعلت لقافلتها التجارية نظاما في رحلتي الشتاء والصيف . عقدت لذلك الاحلاف مع اليمن والشام والحيرة . كان لقريش « ندوة » أشبه بمجلس الشيوخ يجتمع فيها كبارها أو « الملأ » وتتخذ فيه القرارات المتصلة بالمصلحة العامة . لعبت دورها في مطلع الدعوة الاسلامية .

في يثرب ؛ كان تطور مماثل تقريبا يجري في هذه الواحة . التي سكنها الأوس والخزرج من اليمن ، وبعض العرب المتهودين . كانت بينهم منافسات ووقائع . ثم اتفقوا قبيل هجرة الرسول اليهم ان يكون عبد الله بن ابي السلولي الخزرجي ملكا عليهم . كانوا يعدون له التاج حين تمت الهجرة ، فانقلب وصار رأس المنافقين .

مثل ذلك جرى في بني حنيفة ، وفي بني سليم ايضا ولبس زعماؤهما التيجان .

التطورات الاقتصادية والدينية :

عرف العرب تنظيما تجاريا شاملا تجلى في الاسواق التي كانت تطوف الجزيرة في دورة سنوية كاملة ، بتواريخ محددة وتعتبر مواعيدها ومواقعها حرما ما امتد السوق . كانت مواسمها الكبرى مناسبات دينية وأدبية واجتماعية بجانب التجارة . وأشهرها سوق عكاظ قرب مكة .

وكانت الجزيرة على جانب من التطور الفكري يتجلى في ناحيتين :

١ ـ الشعر الجاهلي الذي يكشف في تقاليده الشعرية وبحوره وقوافيه وموسيقاه ومواضيعه وتعابيره عن تطور فني طويل .

٢ ـ واللغة العربية التي تعبر في مفرداتها ودقائقها وتراكيبها عن مستوى رفيع لا يمكن ان ينجم الا عن مستوى مماثل من الفكر (٥) .

وفي الدين ؛ عرفت بلاد الحجاز ونجران واليمن الديانتين اليهودية والمسيحية ، كما تسربت اليها الزارادشتية في البحرين وعمان . لكن الوثنيات المختلفة كانت هي السائدة ، على ان هذه الجماعات الوثنية كانت قد بدأت تعتبر الاصنام وسيلة الى الله . وظهر بين جماعات الحجاز وفي مكة جماعة الأحناف ، أتباع دين ابراهيم ، الذين مهد وجودهم لتقبل الاسلام . كما كان الحج الى الكعبة يجمع العرب على قبلة واحدة . والجدل الذي كانت قريش وغيرها تثيره مع الرسول (ص) يعكس مستوى الفكر الديني لديها .

عالم الرسول

ينفرد محمد بن عبد الله (ص) بأنه الوحيد بين الأنبياء الذي تقع حياته كلها في ضوء التاريخ . دقائق أعماله ، وخاصة بعد النبوة ، معروفة ، وتعتبر سنة حياة وعمل لمئات ملايين المسلمين عبر القرون .

ولد محمد بن عبد الله (ص) حوالى سنة ٥٧٠ م . في مكة ، في أسرة ذات مكانة في قبيلة قريش وان تكن غير ذات يسار . جده الأعلى (قصي) يعزى اليه فضل حلول قريش محل خزاعة في مكة (١) . جده الأول هاشم هو أول من سن رحلتي الشتاء والصيف لقريش . جده المباشر عبد المطلب أعاد حفر بئر زمزم للحجيج بعد أن درست . طفولته امتلأت باليتم . ثمة اختلاف في موعد

أ ١

(البيت النبوي)

عبد مناف

عبد شمس — هاشم

أمية (الأمويون في الشام والأندلس) — عبد المطلب

عثمان (ثالث الخلفاء الراشدين)

عباس — ابو طالب — ابو لهب — عبد الله

محمد (النبي)

تزوج

خديجة بنت خويلد

عائشة بنت أبي بكر (أول الخلفاء الراشدين)

حفصة بنت عمر بن الخطاب (ثاني الخلفاء الراشدين)

علي (رابع الخلفاء الراشدين)

فاطمة الزهراء (تزوجت عليا) — رُقية — ام كلثوم — ابراهيم (توفي صغيرا)

الحسن — الحسين — تزوجتا عثمان بن عفان

(١) - عبد مناف ، جد الرسول ، يحفظ النسابون نسبه ويروون أنه ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر (قريش) . كان من أخوة مرة ، عدى جد القبيلة التي كان ينتسب اليها عمر بن الخطاب ومن بني مرة ، أخوة كلاب ، كان بنو تيم قبيلة أبي بكر الصديق ، ومن أخوة هاشم عبد شمس جد الأمويين . للباحثين في التاريخ القديم آراء تنفي في معظمها التقسيم التقليدي للعرب الى شعبين هما قحطان وعدنان أو عرب الجنوب وعرب الشمال أو يمن وقيس . الشجرة التي يضعها النسابون للقبائل العدنانية (ب) والقبائل القحطانية ليست بالموثوقة تمام الثقة ولكنها على أي حال تعطي فكرة عامة عن توزيع قبائل العرب المعروفة بالشمالية العدنانية . مقابل الجنوبية القحطانية . قريش التي تأتي من كنانة هي أرومة الرسول الأعظم ، وكانت تنزل مكة وما حولها (فهناك قريش البطاح وقريش الظواهر) .

(٢) - واحة خيبر هي كبرى مجموعة من الواحات في شمال المدينة (على ١٥٠ كم منها) ، فدك ووادي القرى وغيرها الى تيماء والى مدائن صالح والعلا . كان يسكن خيبر ومجموعتها قبائل تهودت . وكان قسم من هؤلاء اليهود يسكن يثرب عند الهجرة . كان هؤلاء حسب تقاليدهم الدينية ينتظرون النبي المخلص . فلما ظهر الرسول من الأميين (أي من غير اليهود) ورأوا انتصاره وانتشار دعوة الاسلام أخذوا في التآمر عليه . أخذهم الرسول بالحسنى وبالصبر على النفاق وبالرفق ان نقضوا العهد فلما لم يجد سبيلا الى التعايش معهم حاربهم . ولما علم ان أهل خيبر أقاموا حلفا لمحاربته تحرك اليهم في مطلع سنة ٨ هـ / سنة ٦٣٠ م . فهاجم آطامهم (حصونهم) وهي أكثر من

فقده لأبيه وأمه في طفولته . لكنه فقد أيضا جده وهو في الثامنة فكفله عمه أبو طالب . رحل وهو يافع الى الشام مع قافلة التجارة ، وحضر احدى الحروب ، ثم تزوج وهو في الخامسة والعشرين من خديجة بنت خويلد الأسدي وكانت ذات شرف ومال .

عرف محمد بن عبد الله ، في قومه ، بالخلق العظيم حتى لقب بالأمين . انصرف عن عبادة الأصنام فكان يتحنث شهرا كل سنة في غار حراء قرب مكة للتأمل الروحي على عادة الأحناف يومذاك .

الوحي والدعوة

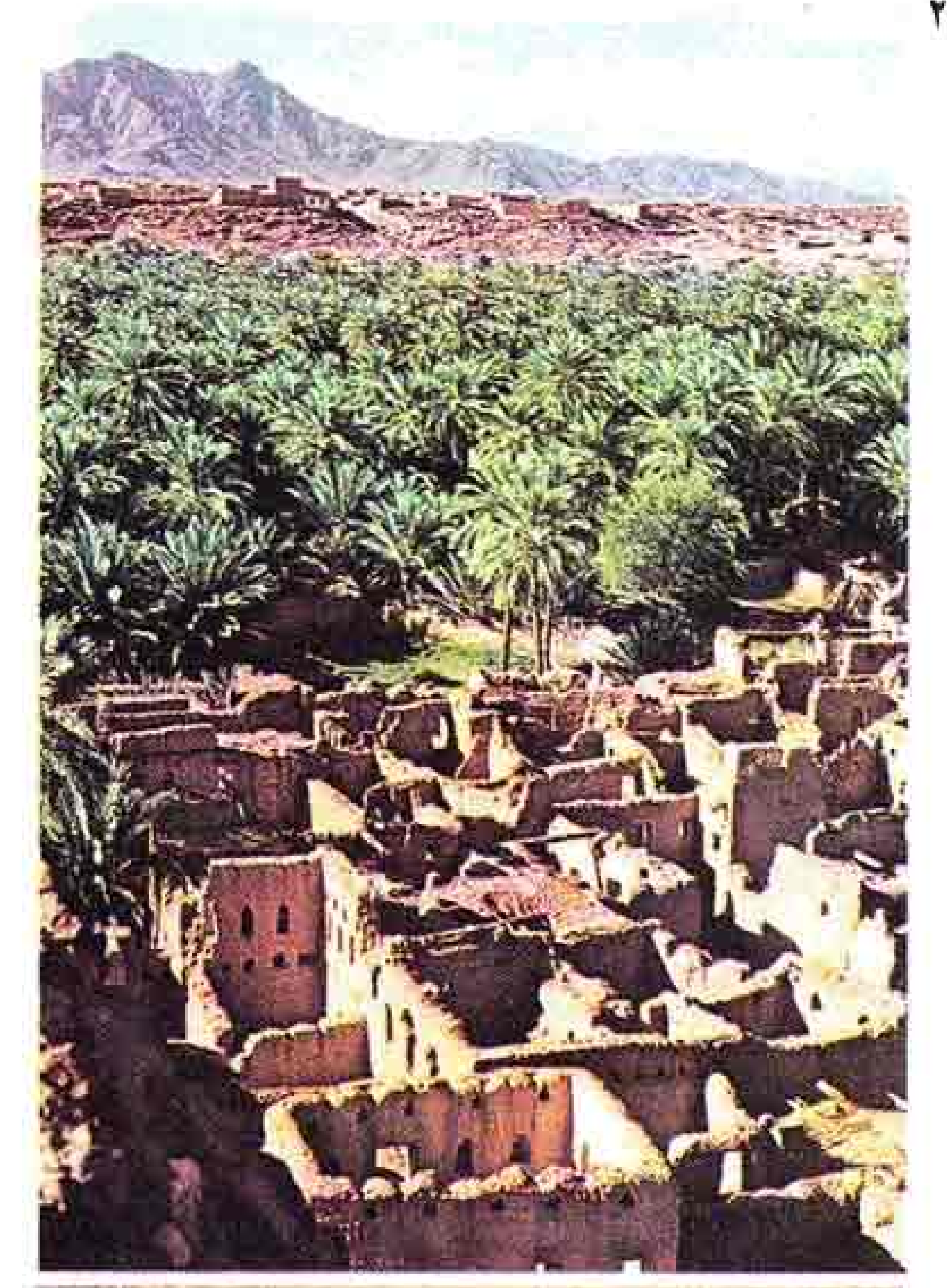
هناك ، وهو في الأربعين من عمره سنة (٦١٠ م) ، تنزل عليه الوحي الالهي : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ثم « يا أيها المدثر قم فانذر » . موضوع الانذار هو عبادة الله وحده لا شريك له . بدأت بذلك رسالة

ب

(القبائل العربية العدنانية)

عدنان
معد
نزار
ربيعة
مضر
عنزة
وائل
بكر
تغلب
تميم
قيس عيلان
مدركة
خزيمة
هذيل
كنانة
قريش
غطفان
هوزان
سليم
عبس
ذبيان
هلال
كلاب
عقيل
كسير
ثقيف

٢



٣

سبعة حصون واستولى عليها . في صدر الصورة بقايا بلدة خيبر القديمة وتقع الى الشمال الغربي من خيبر الحالية .

(٣) ـ الاسلام دعوة عالمية . في السنة الثانية للهجرة أرسل الرسول الى ملوك عصره كتبا يدعوهم فيها الى الاسلام . أرسل الى كسرى وهرقل الروم ونجاشي الحبشة والى المقوقس في مصر . وأرسلت كتب مماثلة الى ملوك الغساسنة واللخميين وأصحاب عمان واليمامة والبحرين واليمن . هناك اليوم كتب يقال انها من كتب الرسول هذه . منها هذا الكتاب الى المنذر بن ساوي .

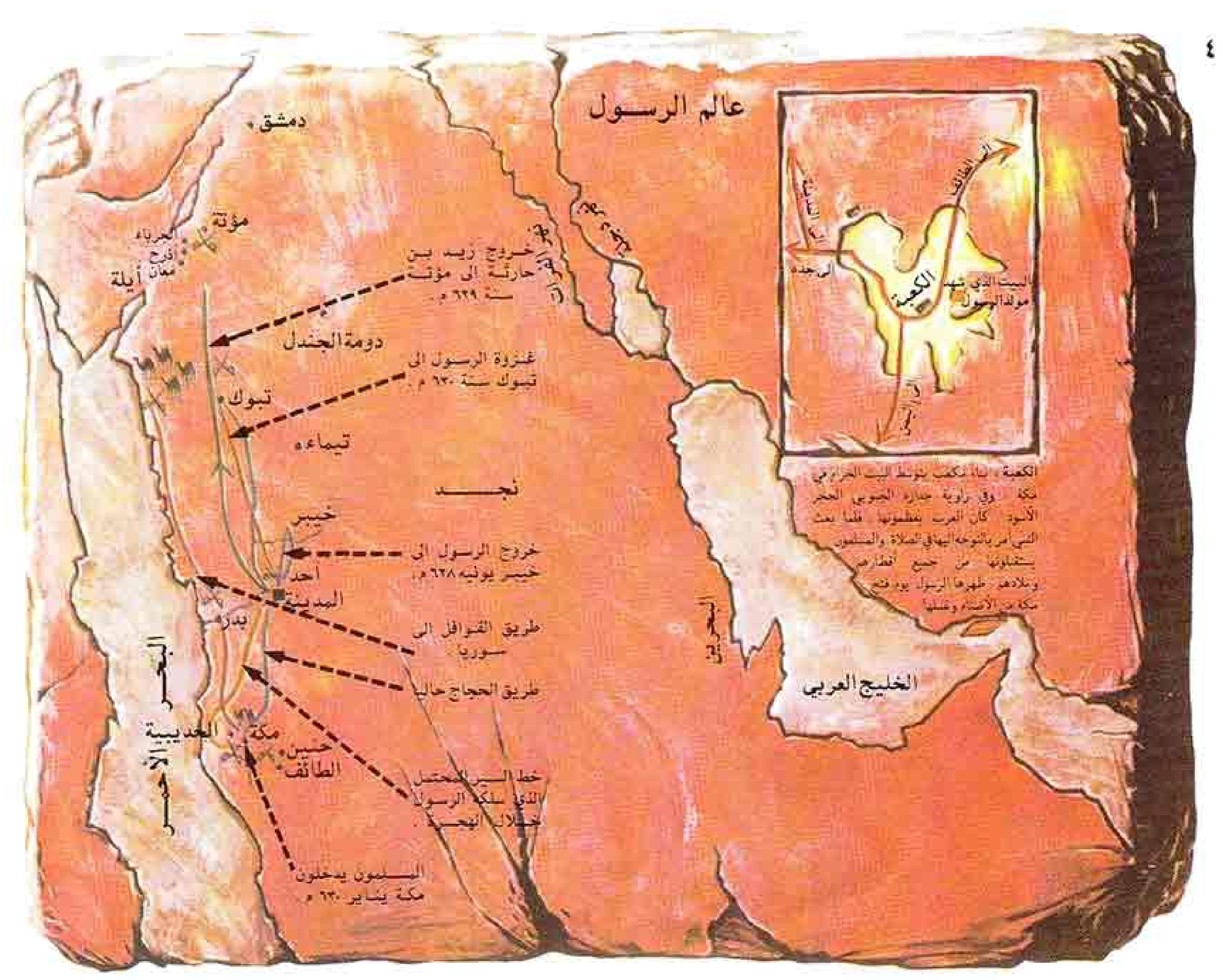
الاسلام الذي اشتق اسمه من اسلام الامر الى الله .

قضى الرسول (ص) بعد ذلك ثلاث عشرة سنة يدعو الى عبادة الله الواحد الأحد . لم تكن الدعوة سهلة ولا تجاوزت الاستجابة النفر القليل من الأهل والأصحاب وبعض المستضعفين . أما معارضة قريش للرسالة فتصاعدت من اللامبالاة ، الى الهزء والرفض ، الى المقاطعة والمكيدة ، وتعذيب المستضعفين من المسلمين أشد العذاب .

كانت الدعوة الاسلامية تهدد مكانة قريش الدينية ومواسمها الرابحة من الحج والأرض الحرام . وتلغي عقائدها الموروثة .

الهجرة

اذن الرسول لبعض أتباعه بالهجرة الى الحبشة لاجئين . التمس التأييد من غير قريش في المواسم وبخاصة بعد وفاة زوجته



(٤) ـ المغازي النبوية كانت الموضوع الأول الذي اهتم به المؤرخون المسلمون الأولون بتسجيله التفصيلي لشأنها السياسي والتشريعي ولأنها الأساس الذي قامت عليه دولة الأسلام . على الخارطة تظهر التحركات الأساسية لهذه المغازي ومكان المواقع الكبرى التي تمت في بدر وأحد وحنين والطائف وخيبر وتبوك ومؤتة . كما يظهر طريق الهجرة الى المدينة وطريق القوافل الى الشام واليمن . وفي الزاوية العليا من الرسم نجد قرب الكعبة موقع بيت الرسول في مكة مع الطرق الرئيسية الخارجة منها الى اليمن والى الشام والعراق .

وعمه . حين لقي الاستجابة من بعض أهل يثرب ثم استوثق منهم في بيعة العقبة الثانية اذن لأصحابه بالهجرة اليها . ثم هاجر بنفسه سرا (مع صاحبه الصديق ابي بكر) ١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ / ٢٤ أيلول (سبتمبر) سنة ٦٢٢ . كانت هذه الهجرة نقطة التحول الكبرى في تاريخ الاسلام . كان قبلها دعوة دينية فأضحى دينا ودولة . وكان جماعة مضطهدة فصار أمة وبلدا ونظام حياة .

استقبل الرسول في يثرب بأكبر الترحاب . أول ما فعله كان بناء المسجد . وبجانب منه نزل مع أهله . كانت يثرب مجموعات ثلاثا من الاوس والخزرج ويهود . فلما انضاف اليهم المهاجرون كان من الضروري تنظيم الجماعة كلها . هكذا أصدر الرسول « الصحيفة » التي يعتبرها المؤرخون دستور المدينة . اعتبرت الصحيفة المسلمين « أمة دون الناس » وآخت بين المهاجرين والأنصار (أهل المدينة) . وأمنت اليهود على حريتهم الدينية .

غضبت قريش كل الغضب لهذه الهجرة وبخاصة حين خرج الرسول بثلاثمائة ونيف من اصحابه يحاولون منع الطريق على قافلة التجارة القرشية التي كانت قادمة من الشام . خرج القرشيون بألف من المقاتلين . المعركة التي تمت بين الطرفين في بدر (١٧ رمضان سنة ٢ / ١٤ مارس ٦٢٤) سجلت أول نصر اسلامي على قريش . كما وطدت « الأمة » الجديدة التي بدأت الظهور في يثرب . رغم ان القرشيين ثأروا لأنفسهم بعد سنة في واقعة أحد ، الا ان الجماعة الاسلامية كانت قد تجاوزت نهائيا مرحلة النشأة . صارت قوة متنامية . حاولت قريش غزوها في المدينة نفسها بغزوة الخندق (سنة ٥ هـ / ٦٢٦) وجندت لذلك الأحزاب معها ففشلت .

فتح مكة

بعد سنتين قرر الرسول دخول مكة مسالما للعمرة مع أصحابه . واضطربت قريش وصالحته على تأجيلها الى السنة التالية . في ذلك الوقت كاتب الرسول الأعظم زعماء الأمم بالاسلام (٣) . وانضم لدعوته العديد من القبائل . وأرسل الغزوات نحو حدود الشام (٢) . ولما نقضت قريش الصلح سار الى مكة في عشرة آلاف مقاتل ففتحها (سنة ٧ هـ رمضان / ٦٣٠) وحطم أصنامها .

كان العام التاسع للهجرة « عام الوفود » على الرسول من كل فج وعام الحج الأكبر . وفي السنة العاشرة كانت حجة الوداع . بعد ثلاثة أشهر لحق الرسول (ص) بالرفيق الأعلى (الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ / ٨ يونيو سنة ٦٣٢) .

يقوم الاسلام على الوحدانية المطلقة . والله رب العالمين . والاسلام للبشر كافة . عباداته هي الصلاة والصيام والزكاة والحج من استطاع اليه سبيلا . كتابه هو القرآن الذي يجمع كلام الله المنزل بالوحي على الرسول . آياته المكية حارة الايمان فيها الدعوة . أما المدنية فأكثرها للتشريع وللقيم الاجتماعية المثلى ، وفيها تحريم الخمر والربا .

من أهم ميزات الرسول (ص) انه كان اتحادا لا نظير له من التأثير الديني والدنيوي معا ، المستمر منذ ١٤ قرنا . ومن أهم آلاء الاسلام انه رفع عيون الانسان وقيمه من الارض الى السماء ، ودعا الى الصفاء الروحي والأخوة الانسانية .

الفتوحات الاسلامية (١) في المشرق

تمتاز الفتوحات الاسلامية بعدة خصائص تاريخية تجعل منها ظاهرة تكاد تكون فريدة في التاريخ الانساني . فقد امتد الفتح في زمن يسير حتى شمل اجزاء العالم القديم الذي لم يشهد قبل ذلك سلطة مماثلة توحد ارجاءه منذ أيام الاسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق . م .) . كان من أبرز نتائج هذه الحركة انتشار الاسلام في معظم العالم القديم وانتصار اللغة العربية معه على بقية لغات العالم . هذان الحادثان يفوقان في مغزاهما الحضاري الفتوحات العسكرية نفسها وان كانا نتيجة لها . فقد دخلت نهائيا في نطاق الاسلام والعروبة وارتبطت بعضها مع بعض بلدان شتى من آسيا وافريقيا وذات ثروات

١ (١) ـ كان العرش الكسروي في المدائن عشية الفتح الاسلامي في حالة قاسية من الاضطراب . بين موت كسرى الثاني سنة ٦٢٨ والفتح توالى عدد من الملوك . في أربع سنوات تقريبا ولي عرش ايران عشرة ملوك على الأقل حتى اتحدت المملكة أخيرا بجهود عظماء اصطخر والقائد رستم في تتويج يزدجر الثالث سنة ٦٣٤ (عمره ١٦ سنة) الذي أخرج بعد أن أعياه دفع الفتح العربي العلم الملكي الجلدي (درفش كاويان) . بعد ثلاثة أيام من المعارك الدامية في القادسية سنة ٦٣٦ / ١٥ هجرية سقط العلم بيد العرب وقتل القائد رستم ودخل الجيش الفاتح مدينة طيسفون (المدائن) عاصمة الساسانيين سنة ٦٣٧ . في الصورة بقايا القصور الملكية فيها . وهي معروفة باسم ، طاق كسرى

هرب الملك يزدجرد الى الشرق بينما وقعت جميع كنوز البلاط الساساني بيد العرب . استمر هرب يزدجرد ١٦ سنة وانتهى قتيلا سنة ٦٥٣ في خراسان .

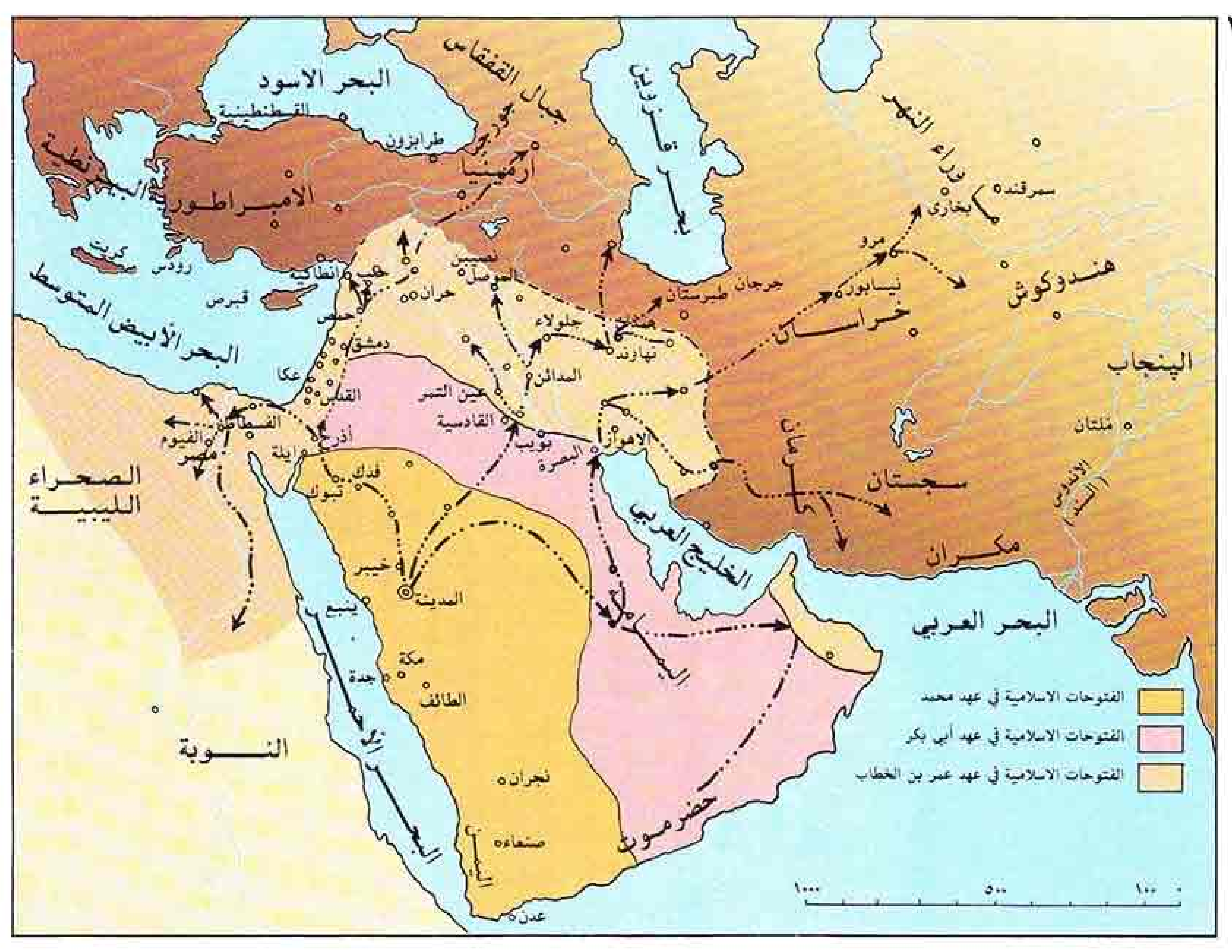
٢ (٢) ـ بعد اخماد حركات الردة وامتداد الفتوح كان بناء المساجد في أنحاء الجزيرة العربية دليل استقرار الاسلام فيها وتوفر الغنى الكافي لها . المساجد الأولى في جملتها درست أو تغيرت ملامحها بالتجديد والاصلاح . الأطلال في الصورة بقية مسجد أقيم في عهد عمر بن الخطاب عثر عليه في واحة الجوف عند التقاء طرق الشام والعراق بطرق الجزيرة الى الخليج .

زراعية وتجارية ومعدنية طائلة .

الفتوحات الاسلامية والعالم القديم

أدت سرعة الفتوحات ، في البدء ، الى الحفاظ على مؤسسات الدول السابقة وانظمتها في المناطق المفتوحة . نجم عن ذلك بدوره ثبات مجرى الحياة العامة لاسيما حين أبقت السلطات العربية الفاتحة للشعوب المغلوبة حريتها الدينية . ومصادر رزقها المعتادة ، وتقاليدها في العمل والحياة . فحارب العديدون من ابناء هذه الشعوب في صفوف المسلمين الفاتحين شرقا وغربا . كان لهم شأن كبير في افتتاح المناطق المجاورة لبلدانهم القديمة (كالفرس في فتح بلاد ما وراء النهر . والمغاربة في فتح الأندلس) . نتيجة للفتوح أعيد توزيع الأراضي التي كانت مجتمعة في أيدي الطبقات الحاكمة القديمة . أما الباقي فتركت لأصحابها مقابل الخراج .

٣



(٣) ـ سبقت معركة القادسية الحاسمة كما أعقبتها سلسلة من المعارك بين العرب والفرس كان منها أولا ذات السلاسل (كاظمة) ثم الأبلة والولجة والثني ثم معركة نهر الدم . برز فيها جميعا خالد بن الوليد والقعقاع بن عمرو التميمي وانتهت باحتلال الحيرة ثم الأنبار . حين ترك خالد العراق الى الشام كان المثنى بن حارثة الشيباني الذي انتصر في معركة عند بابل هو الاسم الأول مع قبيلته بني بكر ، في معركة البويب ، وان توفي بعد ذلك من جراحه . فتولى سعد بن أبي وقاص الذي قاد معركة القادسية ضد جيش الفرس والأفيال التي رافقته (سنة ٦٣٧) . أمر عمر بن الخطاب عند ذلك بعد احتلال المدائن سنة ٦٣٨ بجعل الكوفة والبصرة معسكرين للجيش العربي .

وأعيدت الى التداول كميات الذهب والأموال الطائلة التي كان الفرس والروم قد كدسوها ، في الحواضر الكبرى ، خلال حروبهم الطاحنة التي سبقت الفتح . فتحت طرق التجارة العالمية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط بوقوعهما في أيدي العرب . سمح ذلك كله باستصلاح الاراضي ونشاط الحركة التجارية وازدهار المدن (٢) . لاسيما تلك التي خطها الفاتحون . كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان .

جرت الفتوحات . على موجات متتالية . وفي فترات تاريخية متلاحقة . ولأسباب متعددة وكان الجهاد في سبيل الله أساسا لها . وقد انضافت اليه اسباب أخرى منها التكاثر السكاني في الجزيرة . ومنها الرغبة في الغنائم المتاحة (٥) . كما أعانهم على النصر براعة استغلال القوى وحسن استخدام الجمال في الانتقال السريع . امتدت الفتوحات . في

٤



(٤) ـ عند الفتح الاسلامي كان العالم القديم مقسوما بين ديانتين ، المسيحية على حوض البحر المتوسط كله والزارادشتية في ايران . وكما كان في المسيحية مذاهب متعددة كذلك كان للزارادشتية مذاهبها المتصارعة . أقامها زارادشت في القرن السادس ق . م . على اساس عبادة اله الخير اهورامزدا (يزدن) لمعونته على قهر اله الشر أهرمن . الأول هو مصدر السعادة والصحة والنور والخلق . والثاني هو النقيض له . هذه اللوحة من الفضة تعود الى ما قبل عصر الميلاد وتصور مولد اهورامزدا وأهرمن اللذين يمثلان معبودات الخير والشياطين .

٥



(٥) ـ تراكمت الأموال اثر الفتوح في المدينة . عاصمة الدولة فعرفت فترة من الرخاء لم تعرفها من قبل ولا من بعد . ونشأ جيل أولاد الصحابة الفاتحين على الرفاه وحب الحياة الرخية . كان وادي العقيق أحد مواقع الراحة حول المدينة بنى فيه أهلها القصور والبيوت . في الصورة قصر عروة بن الزبير بن العوام هناك كما هو اليوم وبجواره بئر عروة ليس بالمدينة بئر أعذب منها . وعروة (٦٤٣ ـ ٧١٢) كان يعد أحد فقهاء المدينة السبعة وأحد المؤرخين . وأخوه عبد الله بن الزبير ظل خليفة حوالى عشر سنين (٦٨٢ ـ ٦٩٢) .

وقت واحد نحو الشرق الاسيوي والغرب الافريقي .

فتح العراق وبلاد فارس

تمتد فترة الفتوحات الأولى منذ وفاة الرسول (ص) (١١ هـ / ٦٣٢ م) . حتى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٣٥ هـ / ٦٥٦ م) .

مهدت للفتوحات سلسلة من الغزوات في اتجاه الشام والعراق (٣) كان نجاحها حافزا للخلفاء الراشدين على توسيع رقعة القتال ، وتنظيم اساليبه ، وتوفير الاسباب المادية والبشرية لامتداده . معركة القادسية (ربيع سنة ٦٣٧ م) كانت المعركة الفاصلة مع الامبراطورية الساسانية التي انهارت بعدها . قادها سعد بن ابي وقاص (١) . وصلت راية الفتح الاسلامي في هذه الفترة حتى مدينة بلخ (شمالي افغانستان حاليا) . وشملت العراق ومعظم بلاد فارس باستثناء بعض المناطق الى الجنوب من بحر قزوين . كانت خراسان الخصبة أهم المناطق التي وصلها الفتح وأبعدها . الا ان الحرب الاهلية التي نشبت بين معاوية وعلي أوقفت مؤقتا هذه الفتوحات الاولى . أنهت هذه الحروب ، في المشرق ، كيانا سياسيا مضى على وجوده أكثر من ٢٠ قرنا وكان خلال الألف سنة التي سبقت الاسلام احدى قوتين هما أعظم قوى العالم . لها تكوينها السياسي والعسكري (الاخميني - الساساني) . وسلالتها الملكية الوطيدة ، ودينها القومي الزارادشتي (٤) .

موجة الفتح الثانية في المشرق

بدأت زمن الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م .) . اذ قاد قتيبة بن مسلم الباهلي جيوشا من العرب والموالي ، في سلسلة من الفتوحات ، حملت المسلمين الى ما وراء النهر (أي نهر جيحون ، وهو الآن نهر آموداريا) ، ففتح بخارى وسمرقند ثم بلاد خوارزم ، ثم سار قتيبة حتى اجتاز نهر سيحون (سرداريا) ، على الطريق التجاري العالمي الى الصين .

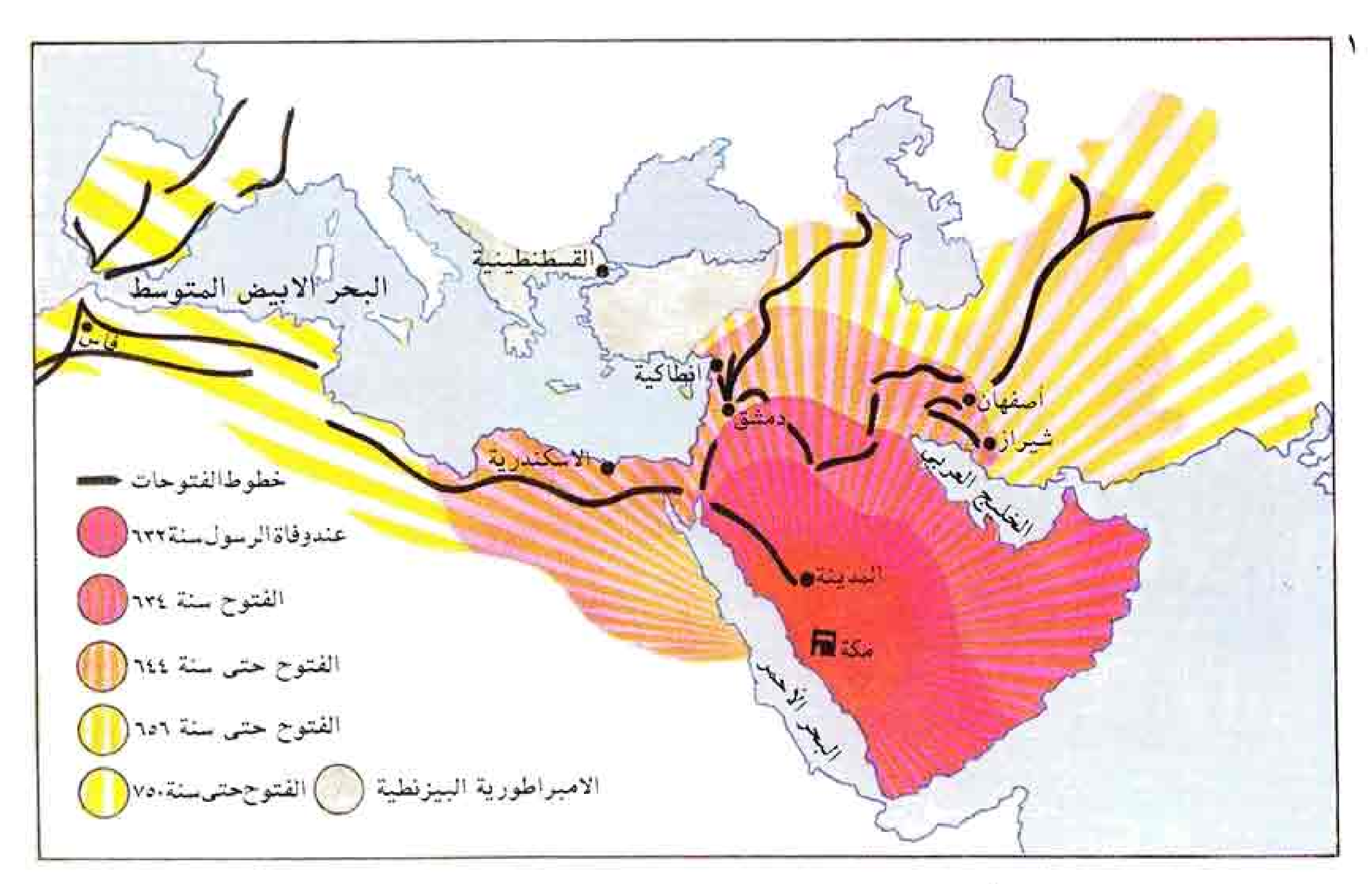
في الزمن نفسه تقريبا ، سار الفاتحون في اتجاه الهند بقيادة محمد بن القاسم الذي افتتح السند (اقليم كراتشي حاليا) . من ثم توجهوا الى البنجاب حيث اصبحت مدينة ملتان (الى الجنوب الغربي من مدينة لاهور حاليا) حاضرة من حواضر الاسلام الهامة في شمالي القارة الهندية .

هكذا بلغ الفتح الاسلامي مشارف الصين والهند . غنم الفاتحون بفضله غنائم طائلة ومواقع جغرافية استراتيجية أدت الى تغييرات جذرية في مجرى التاريخ الاقتصادي العربي الاسلامي ، وفي مجرى الحضارة العربية الاسلامية . ذلك ان الفاتحين قد اتصلوا بحضارتين عريقتين في القدم هما الصينية والهندية . فأغنوا بذلك التراث الاسلامي المتفتح . خلقت هذه الموجة من الفتوحات اقليمين جديدين من اقاليم الاسلام : اقليما تركيا - خوارزميا ، في الشمال ، صيني الطابع ، واقليما سنديا في الجنوب هندي الطابع ، بالاضافة الى الاقاليم الفارسية السابقة . وعلى كل حال فان هذا التوسع العربي الاسلامي المنقطع النظير ، كان سياسيا واقتصاديا أيضا ، وقد نجمت عنه أعمق التغيرات في تاريخ البقاع المفتوحة والتاريخ الانساني .

الفتوحات الاسلامية (٢) في المغرب

شملت الفتوحات الاسلامية غربا منطقة حوض البحر الابيض المتوسط ، عدا شواطئه الشمالية ، كما شملت فيما بعد أيام العثمانيين مناطق واسعة من اوروبا الجنوبية الشرقية والوسطى . كانت الفتوح على دفعات متفرقة . امتدت اولا عبر الشمال الافريقي حتى أقاصي المغرب ، ثم انثنت فعبرت مضيق جبل طارق الى ايبريا وجنوب فرنسا . بعد ذلك بفترة من الوقت انثنت باتجاه افريقيا الشرقية والوسطى والغربية . مع هذا التوسع الجغرافي لم يحاول المسلمون اجتياز الشقة المائية الضيقة وهي البحر الأحمر الى الحبشة (٤) . انتقل الاسلام اليها سلما مع التجار .

١

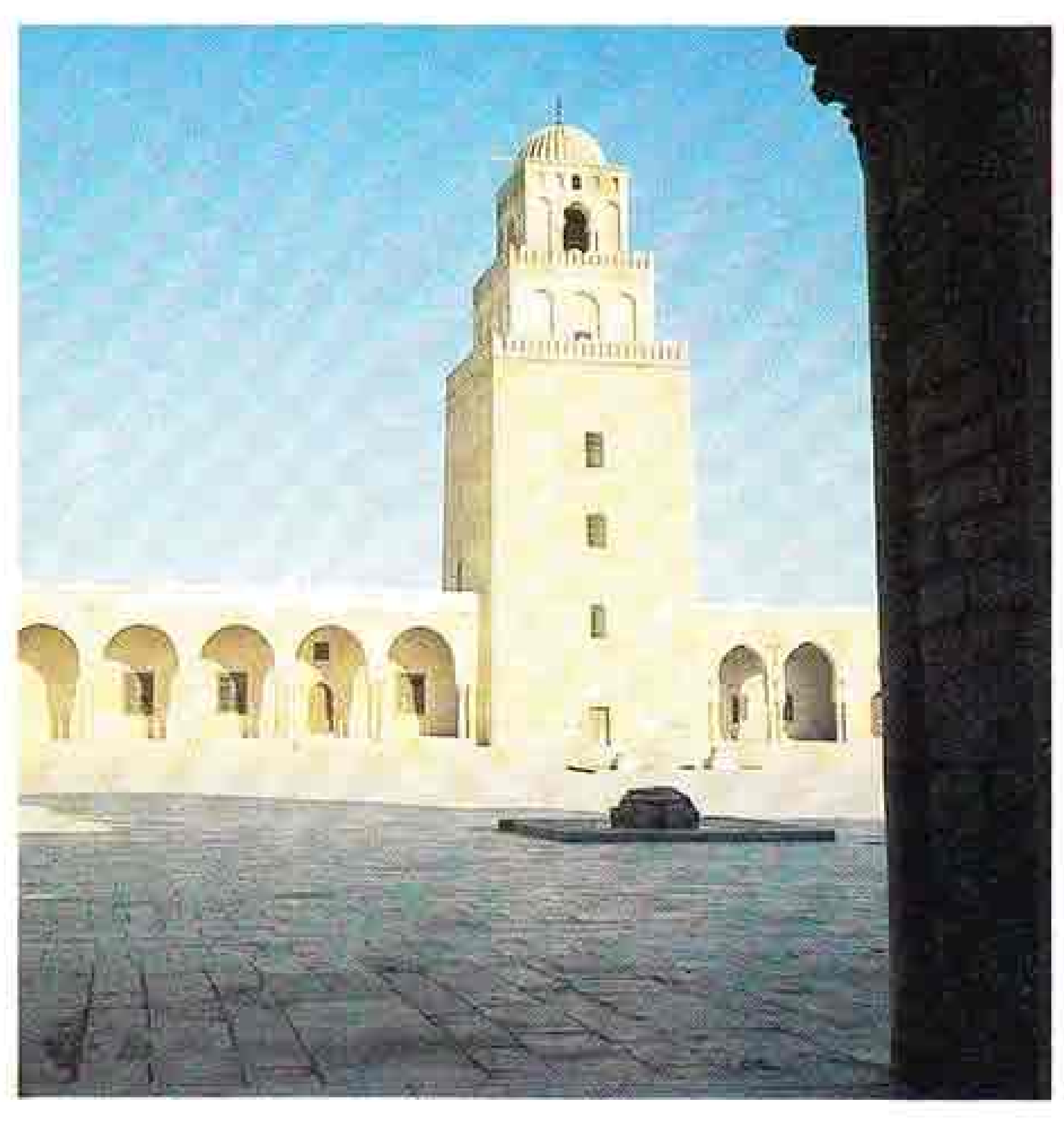


(١) ـ استمرت عمليات الفتح والاستقرار في شمالي افريقيا فترة تقارب سبعين سنة وذلك لسببين . أولهما القوة البحرية البيزنطية التي كانت تمد الحاميات . وترسل الهجمات عبر جناحها الغربي في صقلية وايطاليا . والثاني المقاومة المحلية التي تمثلت في بعض القوى البربرية . العمليات الأولى ما بين سنتي ٦٤٣ ـ ٦٧٠ كانت ما بين الفتح والاستكشاف تم فيها فتح برقة وفزان وطرابلس والانسياح حتى افريقية على يد عبد الله بن سعد . حين جاء عقبة بن نافع بدأ الفتح المستقر سنة ٦٧٠ هو المرابط الأول . بنى القيروان سنة ٦٧٠ لتكون قاعدة الفتح ورباطه . قتل في كمين نصبه له البربر وزعيمهم كسيلة عند بلدة بسكرة سنة ٦٨٣ ما يزال قبره في مكان استشهاده وعليه جامع في قرية سيدي عقبة شرقي الجزائر . بعد خمس سنوات استطاع زهير بن قيس البلوي أن يهلك كسيلة وجماعته عند بئر حمس (قرب القيروان) لكنه قتل غيلة في عودته الى مصر . فقرر عبد الملك بن مروان حسم الفتح في افريقية . ندب لذلك حسان بن النعمان الغساني ، الذي فتح قرطاجة عنوة سنة ٦٩٥ ثم هزم الكاهنة البربرية التي كانت بالتعاون مع الروم قد استولت على افريقية وخربتها . كانت الهزيمة سنة ٧٠٣ نهائية وبدأ من بعدها استقرار الفتح ونشر الاسلام .

فتح سوريا ومصر

في الموجة الأولى من الفتوحات الاسلامية غربا حمل المسلمون راية الفتح، حتى قبل وفاة الرسول الأعظم الى اطراف سورية الجنوبية ثم دخلوا الشام أيام ابي بكر وعمر، ودخلوا في الوقت نفسه مصر في فترة قصيرة جدا، بعد سلسلة من الانتصارات الحربية الباهرة على الروم (البيزنطيين) في البر والبحر. وكانت المعركة الحاسمة معهم هي معركة اليرموك (سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م .) في وسط الشام التي قادها خالد بن الوليد وانسحب الروم نهائيا بعدها من سورية (٥).

من بلاد الشام انتشر الفاتحون شمالا في الاناضول والجزيرة وارمينية حتى تخوم البحر الاسود الشرقية. في الوقت نفسه كانت مصر تفتح على يدي عمرو بن العاص. دام فتحها ما بين سنتي ٦٣٩ و ٦٤١ وسقط في النهاية حصن بابليون الذي اقيمت عنده الفسطاط.



٢ ٣

(٢) - كما فعل العرب في العراق والشام ومصر، من بناء المدن المعسكرات لتكون مواقع فتح متقدمة كذلك رأى عقبة بن نافع أن يفعل في افريقية وان يبني مدينة تكون رباطا للمجاهدين. يذكرون انه كان بموضع القيروان شجر كثيف تسكنه السباع فنظفه عقبة أولا بالنار ثم خطط المدينة فجعل فيها المسجد ودار الامارة والذخائر ومن حول ذلك مساكن القبائل. كمل البناء في اربع سنوات (٦٧٠ - ٦٧٤). جامع القيروان (الصورة) بنيت جوامع عديدة في موقعه نفسه منذ بناه عقبة بن نافع. لقد جدد هذا الجامع سنة ٧٠٣ ثم بني جامع آخر مكانه سنة ٧٧٣. أما الجامع الحالي فقد بناه سنة ٨٣٦ الأمير زيادة الله بمقاييس المستطيل الذهبي. مخطط الجامع يشبه المسجد الأقصى. مئذنته مربعة بارتفاع ١١ مترا وبثلاثة طوابق وتحمل الطابع العسكري تماما كالجدران الخارجية المدعمة والمزودة بالأبراج.

---

(٣) - لعب « الجمل » دوره في عملية السوق العسكري والتحرك العربي السريع بين الجبهات. كما لعبت الخيل دورها. الثقل في حركة الجيش الرومي البري على الطريقة الرومانية القديمة أعان المجموعات العربية القليلة على ضربه والانتصار عليه وبخاصة في افريقية حيث تقل حاميات بيزنطة. الصورة رسمت في الأصل لتزيين نسخة من مقامات الحريري (موجودة في المكتبة الوطنية في باريس).

(مصر القديمة اليوم) ثم استسلمت الاسكندرية سنة ٦٤٢ . بعد ذلك بسنة واحدة كان الفاتحون يفتحون بنغازي . وينساحون وراءها حتى افريقية .

رغم ان القوى العربية كانت قوى برية (٣) في الاساس الا ان قيادتها في الشام (وكانت لمعاوية) أدركت ضرورة الاسطول البحري لحماية الفتوح ولمتابعتها . غزا معاوية بنفسه قبرص (سنة ٣٠ هـ / ٦٤٩ م) ثم حقق المسلمون أول وأهم نصر بحري لهم في معركة ذات الصواري (شمال قبرص سنة ٣٥ هـ / ٦٥٤ م .) حين دمروا الاسطول الرومي ، وكان بقيادة امبراطور الروم ، واضطروه للهرب . نتيجة المعركة كانت ان الحوض الشرقي للبحر المتوسط صار بيد الاساطيل العربية .

بدأ اثر ذلك الاعداد لغزو القسطنطينية عاصمة الروم . تمهيدا لذلك أرسلت الغزوات

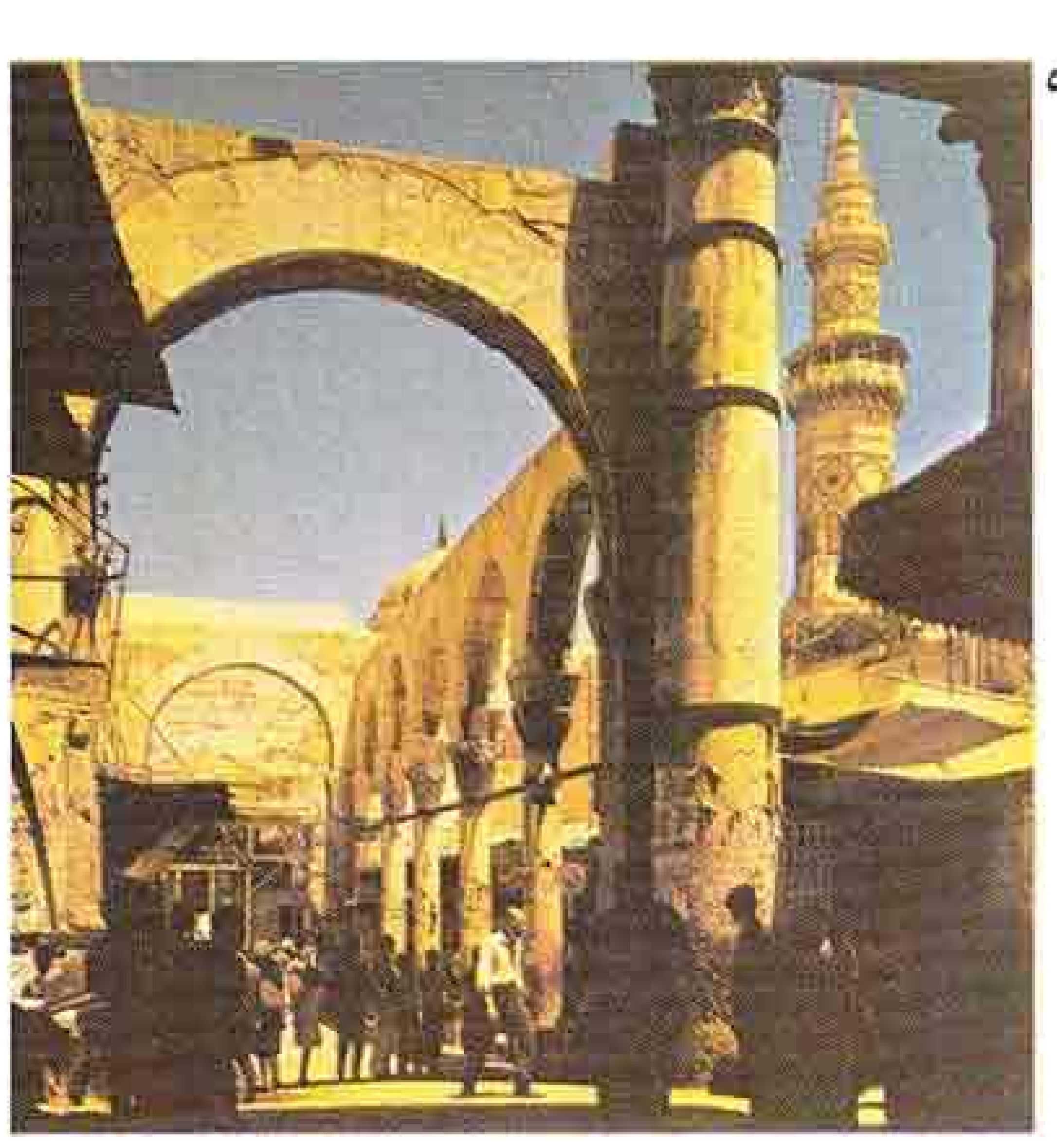
٤



(٤) ـ علاقة الحبشة بالعرب تعود الى عدة قرون قبل الميلاد وكانت سبب ظهور حضارة أكسوم . وعلاقة الاسلام بها تعود الى أيام الهجرة الأولى السابقة لهجرة المدينة . كانت العلاقات دوما تجارية مع الأحباش . لكن الدين الاسلامي انتشر مع العلاقات التجارية في شمال شرقي الحبشة وبخاصة في القرون ١٠ ـ ١٣ م . وأصبحت المنطقة من أرخبيل دهلك ومصوع الى بلاد الصومال تدين بالاسلام وتتكلم العربية الخليطة . امتد الانتشار الاسلامي عميقا بعد ذلك .

(٥) ـ نزل العرب الفاتحون من الشام في أرض لهم معها صلات قديمة ولهم فيها أهل وتجارات لذلك تمركزت المقاومة في الروم الذين كانت لهم مدنهم أو احياؤهم في المدن القديمة . ولما هزموا في اليرموك جلوا عن الشام كله . حين دخل الفاتحون دمشق كان المعبد الوثني القديم في وسطها قد تحول كنيسة ولكنه كان يحتفظ ببواباته المزخرفة الضخمة . الصورة لبقايا البوابة الغربية التي ما تزال قائمة اليوم عند مدخل الجامع الأموي .

٥



على رودوس واقريطس (كريت حاليا) (سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م) وتوجهت حملة برية، بقيادة يزيد بن معاوية، حاصرت القسطنطينية سنوات (٦٧٣ - ٦٧٧ م) ولكن ابتكار النار الاغريقية أفشل الحملة. الحدود الأناضولية التي قامت بعد هذه الفتوح لم تتغير بشكل ملحوظ، ورغم الحروب، الى أن جاء السلاجقة في القرن الحادي عشر.

فتح شمال افريقيا

في شمال افريقيا استمرت الفتوحات، في هذه الفترة، دون انقطاع تقريبا. ففي العام ٥٠ للهجرة (٦٧٠ م) فتح المسلمون افريقيا نهائيا وخط القائد عقبة بن نافع مدينة القيروان (٢) التي اصبحت فيما بعد عاصمة من عواصم الحضارة الاسلامية في المغرب. بلغ الفاتحون بعد هذا التاريخ بقليل مدينة تلمسان (شرقي الجزائر حاليا). وعاد عقبة فيما بعد الى الفتح فوصل المغرب الاقصى مفتتحا مدينة طنجة، وذلك قبيل مصرعه وهو عائد عند بسكرة (سنة ٦٣ هـ /٦٨٣ م). أما ما تبقى من المدن الساحلية، فقد سقطت الواحدة تلو الأخرى، وكان من أهمها مدينة قرطاجة، عاصمة البيزنطيين في شمالي افريقيا، التي سقطت عام ٦٩٦ م.

موجة الفتوح الثانية

في الموجة الثانية من الفتح أيام الوليد ابن عبد الملك عبر طارق بن زياد مضيق البحر وفتح نصف بلاد الأندلس تقريبا، وتبعه القائد موسى بن نصير الذي فتح ما تبقى منها، باستثناء جزئها الشمالي (سنة ٧١١ - ٧١٣). استقرت الحدود مع الفرنجة عند جبال البرتات (البيرنة). ولكن الفتح استمر في جنوب فرنسا ووسطها حتى وادي الغارون واللوار مدة قرن. من المعارك الهامة معركة بلاط الشهداء التي استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي سنة ٧٣٢ م. وقد حملها الفرنسيون بالأهمية لتمجيد قائدهم شارل مارتل مؤسس الأسرة الكارولنجية. لكن الوجود العربي استمر قرنا آخر في جبل القلال قرب «كان».

لم تتغير حدود الدولة الاسلامية الا قليلا بعد موجة الفتوح الثانية ايام الوليد بن عبد الملك الذي حاول بدوره فتح القسطنطينية. العباسيون كانوا يعتبرون الحدود التي وصلتها الدولة نهايات فبذلوا هممهم للدفاع عنها بينما كان الامويون يعتبرونها بدايات لا يصلون الى نقطة الا اعتبروها معبرا للتجاوز.

أهم ما تم ايام العباسيين من التوسع كان في بعض بلاد تركستان. أما عدا ذلك فقد قامت قوى بحرية اسلامية بالتوسع في المتوسط فأخذت خاصة جزيرتين:

الأولى: كريت التي احتلتها قوة من أهل الاندلس هم جماعة الربض الذين طردهم فلجأوا الى الاسكندرية، ثم أخرجوا منها فاحتلوا كريت (٢١٣ هـ / ٨٢٧ م) وأقاموا فيها حكما اسلاميا استمر حتى ٣٥٠ هـ/٩٦١ م.

الثانية: صقلية وقد غزاها الأغالبة منذ سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م. وهم اسرة حكمت افريقية منذ عهد الرشيد. وتدين بالولاء الاسمي للعباسيين. بذلوا في فتح صقلية وجنوب ايطاليا كثيرا من الجهد والمال والزمن. لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية. دام الحكم الاسلامي في صقلية حوالى قرنين ونصف القرن حتى أخذها النورمانديون بالتدريج بين سنتي ١٠٠٦ م وسنة ١٠٩١ م.

الاســــلام في عصره الذهبي

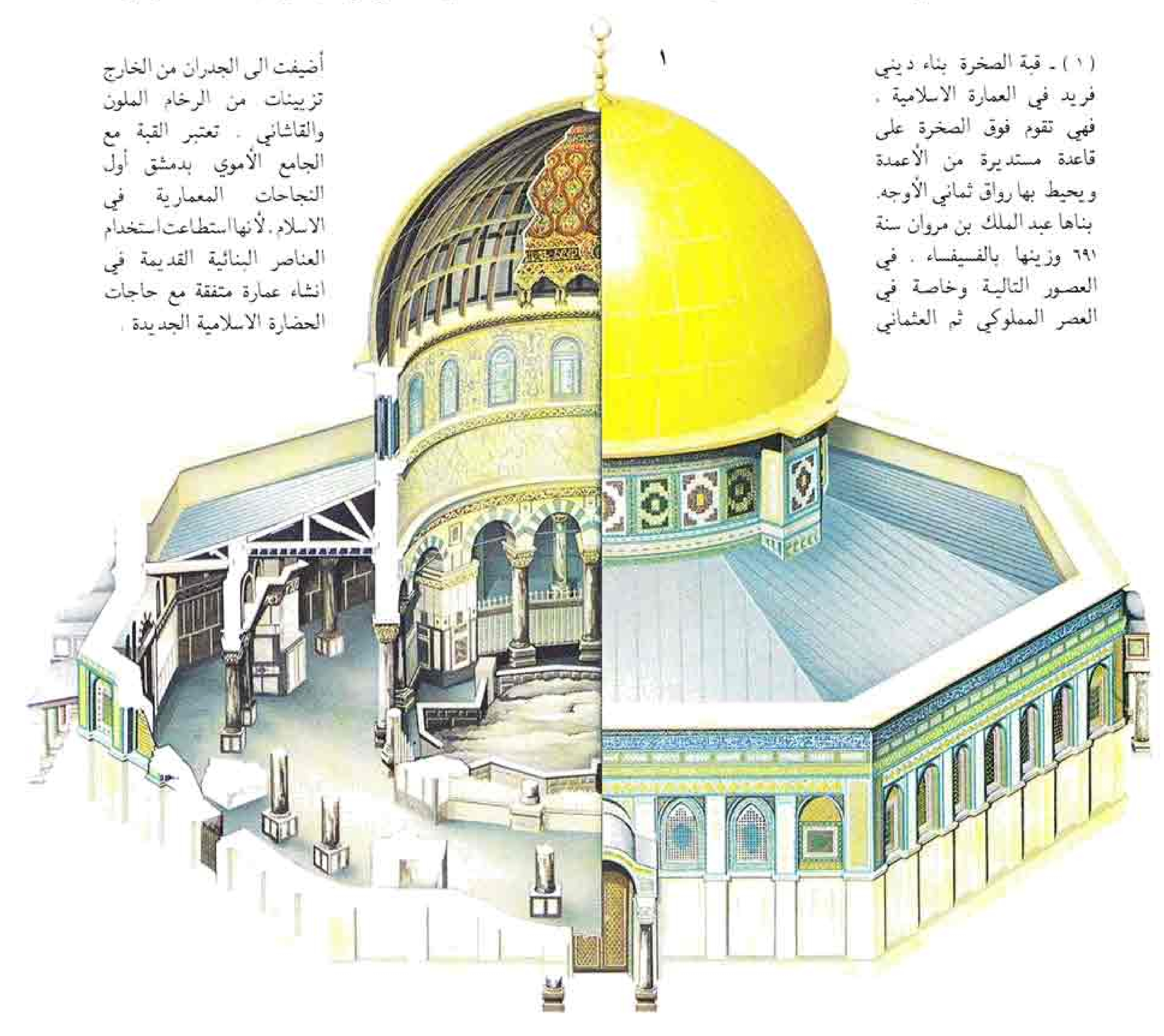
تاريخ الاسلام الذي بدأ بعهد الرسالة يقسمه المؤرخون الى عصور :

ـ عصر الخلفاء الراشدين الاربعة ما بين سنة ١١ هـ الى سنة ٤٠ هـ (٦٣٢ ـ ٦٦١) .

ـ العصر الأموي من سنه ٤٠ هـ الى سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م .

ـ العصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ الى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م حين سقطت بغداد في أيدي المغول . ويلحق به عصر الخلافة العباسية الصورية الذي ظهر في القاهرة تحت ظل المماليك منذ سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م حتى سقوطهم على أيدي العثمانيين سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م .

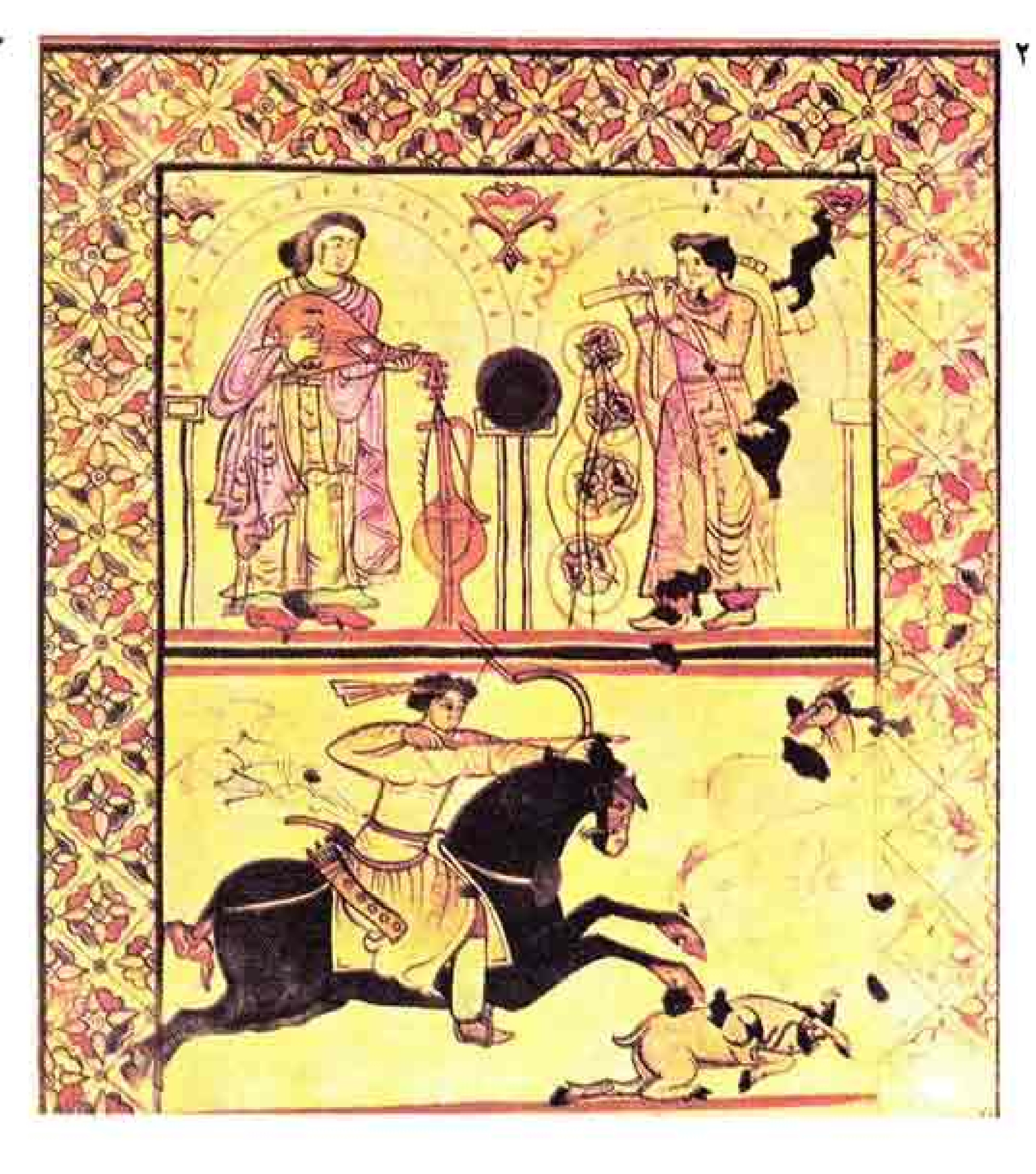
عند وفاة الرسول (ص) حلت مجموعة



(١) ـ قبة الصخرة بناء ديني فريد في العمارة الاسلامية . فهي تقوم فوق الصخرة على قاعدة مستديرة من الأعمدة ويحيط بها رواق ثماني الأوجه. بناها عبد الملك بن مروان سنة ٦٩١ وزينها بالفسيفساء . في العصور التالية وخاصة في العصر المملوكي ثم العثماني أضيفت الى الجدران من الخارج تزيينات من الرخام الملون والقاشاني . تعتبر القبة مع الجامع الأموي بدمشق أول النجاحات المعمارية في الاسلام . لأنها استطاعت استخدام العناصر البنائية القديمة في انشاء عمارة متفقة مع حاجات الحضارة الاسلامية الجديدة .

الصحابة مشكلة رئاسة الجماعة الاسلامية ، في اجتماع بسقيفة بني ساعدة ، بايعوا فيه ابا بكر الصديق لخلافته . لم يدم عهده سوى سنتين قام فيها بعملين هامين : قمع المرتدين الذين كانوا ، حتى قبل وفاة صاحب الرسالة ، قد انتقضوا على السلطة الاسلامية في الجزيرة ، وارسال الجيوش للفتوح . عهد ابو بكر بالخلافة الى عمر الذي تابع الفتوح . وتابعها من بعده عثمان بن عفان . خلافة علي بن ابي طالب تمرد عليها بعض الصحابة . أخمد حركة بعضهم (معركة الجمل سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م) لكنه اضطر لمحاربة معاوية طويلا (معركة صفين سنة ٦٥٧) فلما قتل في مؤامرة ، كان معاوية أقوى الصحابة مركزا فاستطاع نوال الخلافة . تميز عصر الراشدين عدا التوسع والفتوح ، بتنظيم الدولة الجديدة ، وبناء المدن ، والنزوح الاستيطاني العربي الى منازل الفتح ، وتراكم

٢



٣



(٢) ـ كان من عادة الخلفاء الأمويين بناء القصور في البادية . منها قصر الحير الغربي بناه هشام بن عبد الملك (٧٢٤ ـ ٧٤٣) على الطريق من تدمر الى دمشق سنة ٧٢٨ يتألف من مجموعة قصرين كبير وصغير ولهما سور واسع يزيد على ٦ كم . وثمة قناة تنقل الماء من سد بعيد جدا يجمع السيول وثمة مزرعة واسعة حول الأبنية . قاعات القصر كانت مزينة والصورة من قاعة الصيد فيه . نقلت مع بوابة القصر الى متحف دمشق .

(٣) ـ وجد هذا الابريق البرونزي في الفيوم مع بعض الحاجات البرونزية الأخرى وهو يعود الى القرن الثامن الميلادي ويظنون انه لمروان (الثاني) ابن محمد آخر خلفاء بني أمية الذي قتل في بوصير بالفيوم سنة ٧٥٠ م . زخارفه المنقوشة عليه مدهشة الدقة والجمال مقاييسه ٤١ × ٢٨ سم . وهو من محفوظات المتحف الاسلامي في القاهرة وله مثيل في متحف متروبوليتان في نيويورك . وهما من المصنوعات المعدنية القليلة الباقية من العهد الأموي .

الثروات بيد قادة العرب نتيجة الغنائم ، وتملك الأرض ، وظهور الاتجاهات السياسية المتعارضة . برغم ان الخليفة الثاني ذهب ضحية الفتوح والثالث ضحية الفاتحين والرابع ضحية التنافس ، الا ان العهد الراشد بقي في الأذهان النموذج المثالي لعصر الايمان والتقوى .

العصر الأموي

بدأ بمعاوية ، وكان انقلابا في طريقة الحكم المشيخي الذي مثله الراشدون . أدخل معاوية طريقة الحكم الوراثي التقليدية في المشرق . مهارته السياسية مكنته من الخلافة عشرين سنة ، ثم اعطاها لابنه يزيد (٤ سنوات أخرى) حتى تخلى عنها حفيده ، فنهض لها فرع آخر من البيت الأموي (مروان بن الحكم وابنه عبد الملك) ، استطاع التغلب على الصعوبات والطامعين . استمر العصر الاموي تسعين سنة توالى خلالها ١٤

٤



٥ أ



ب



(٤) ـ يقوم قصير عمرة في البادية شرقي الأردن . بناه حوالى سنة ٧١١ الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) ليكون منتجعا للراحة والصيد . وأقام فيه عدا أركان السكنى قاعة للعرش وثلاث قاعات للحمامات . أهم ما فيه ان جدرانه قد زينت بمجموعة رائعة من الصور الفنية تظهر فيها مشاهد الاستحمام والصيد وطراد الغزلان وحمر الوحش مع كلاب الصيد ، وبعض المشاهد الموسيقية . وفي احدى القباب تتمثل قبة السماء مع الأفلاك فيها والنجوم . يعتبر القصر ثروة فنية ، أو وثيقة حول التصوير في الشام في العصر الأموي .

(٥) ـ مجموعة الفسيفساء التي وصلتنا من العصر الأموي في الشام تمثل مرحلة الأوج في هذا الفن التزييني سواء في جمالها واتقانها أو تنوع مواضيعها كما تمثل في الوقت نفسه مرحلة النهائي في هذه الصنعة الفنية . في قصر المفجر الذي بني حوالى سنة ٧٤٣ (وأطلاله قرب أريحا في غور الأردن) نجد نموذجا من الفسيفساء رائع الجمال في أرض الحمام . نرى في (أ) جانبا منها لأسد يفترس غزالا . أما (ب) فنموذج من الزخارف التي تزين أعلى الجدران في باحة القصر بطائر الحجل الملون .

خليفة . حكم ثلاثة منهم ستين سنة (معاوية . عبد الملك . هشام) وحكم الوليد بن عبد الملك عشرا . بلغت الدولة الاسلامية خلال هذا العصر أقصى اتساع لها . بعد الموجة الثانية من الفتح ايام الوليد (٨٦ - ٩٥ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) وأخيه سليمان (٩٥ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٨ م) . صارت الدولة الأولى والكبرى في العالم . تبلورت الاتجاهات السياسية في أحزاب اتخذت لمواقفها أسسا دينية : كالخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة . عبد الملك وولاته عربوا دواوين الدولة والنقود مسجلين أولية الثقافة العربية والاستقلال الاقتصادي . سيطر العرب على البحر المتوسط (بعد معركة الصواري سنة ٣٤ هـ / ٦٥٥ م) . فتحركت التجارة العالمية حرة تحت سلطانهم بين الهند وأوروبا . ظهرت الملكيات الزراعية الواسعة . كثر الذهب في الولايات المركزية من الدولة بسبب عودة كمياته المجمدة قديما الى التداول والاكثار من استخراجه . بنيت جوامع وقصور عديدة (١) و (٢) و (٤) في الناحية الثقافية . بدأ تعريب الثقافات القديمة . والجدل في الدين ونشط الشعر والأدب . وتنظمت الكتابة العربية ووضعت أصول النحو .

دولة العباسيين

استطاع تنظيم سري قاده أحد أحفاد العباس (عم النبي) أن يفجر ثورة عربية في خراسان نجحت في النهاية في احتلال العراق . ثم النصر على مروان بن محمد آخر الأمويين (معركة الزاب سنة ١٣٢ هـ) ثم قتله (٣) في الفيوم بمصر .

بدأ العصر العباسي بخلافة ابي العباس سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ثم أخيه أبي جعفر سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م الذي كان جميع خلفاء بني العباس ، بعد ذلك ، من نسله .

توالى من العباسيين حتى سنة ٨٦١ م . ثمانية خلفاء كان أبرزهم المنصور (حكم سنة ١٣٦ - ٢٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م) والرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٧ - ٨٠٩ م) والمأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٤ - ٨٣٣ م) وأخيرا المتوكل (٢٣٤ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٨ / ٨٦١ م) . كان العصر كله متمما وتطويرا في مختلف النواحي للعصر الأموي .

السياسة العباسية

لم تتغير سياسة بني العباس كثيرا عن الأمويين في العهد العباسي . ظل العلويون كالخوارج هدف القمع وأضيف اليهم الامويون الذين تمكن أحدهم (عبد الرحمن الداخل) أن يهرب ويقتطع الاندلس امارة له ولأبنائه .

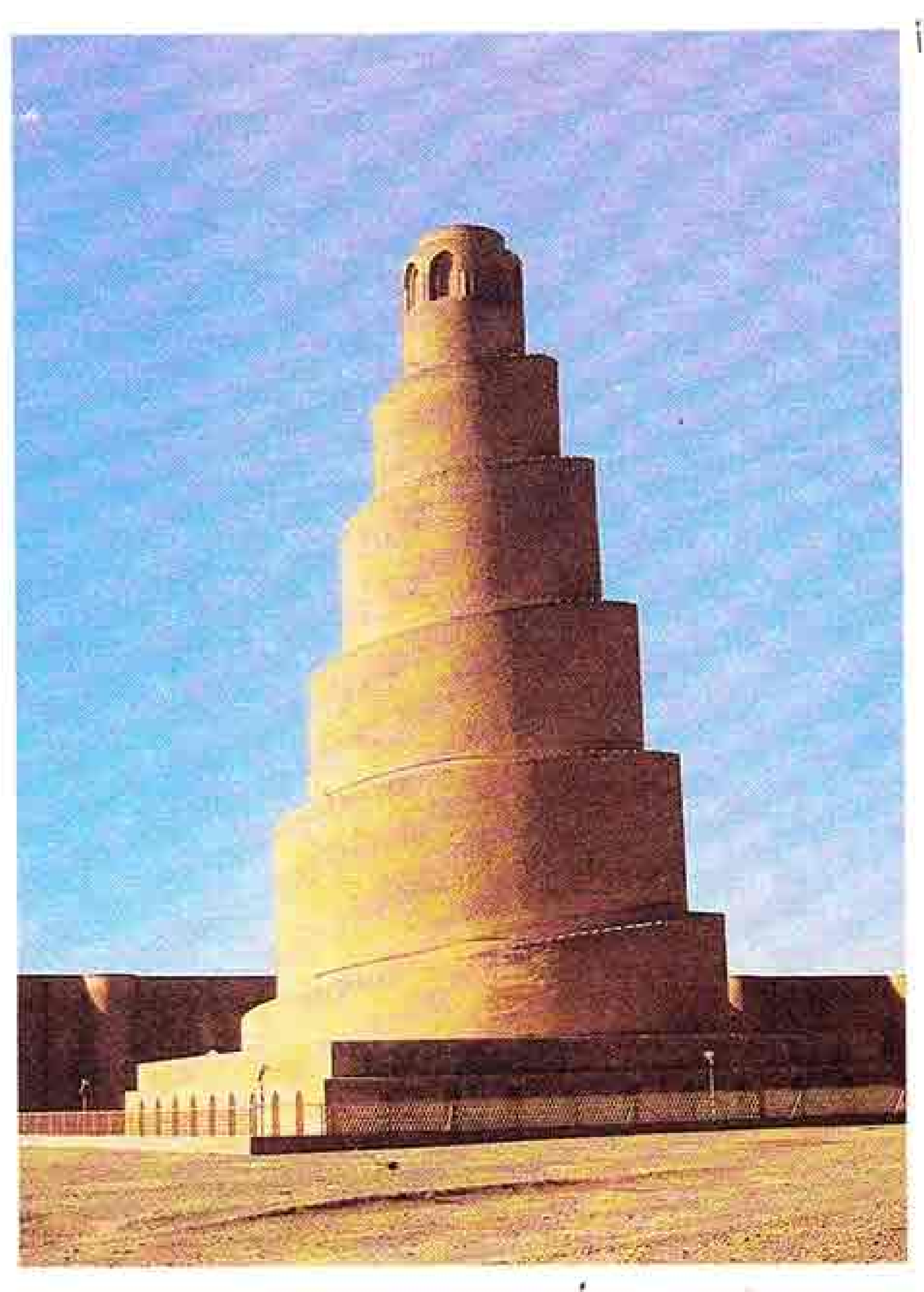
السياسة الخارجية اعتمدت الدفاع عامة لا الهجوم . في الداخل أيد العباسيون السنة والجماعة . أصيبت دولتهم بهزة كبيرة في خلاف الأمين والمأمون حتى قتل الأمين . تعقدت الادارة ودخلها اعداد من الفرس والسريان المسلمين وغيرهم .

توطد بالتدريج منصب الوزارة التي كان البرامكة أشهر من تولاها ثم نكبهم الرشيد (مطلع سنة ١٨٧ هـ) . أوجد المعتصم جيشا نظاميا كبيرا من المماليك الاتراك . نشطت الزراعة والتجارة العالمية وبخاصة في العراق . فتكونت طبقة من الخاصة « مقابل فقر العامة » . بنى المنصور بغداد (سنة ١٤٥ - ١٤٨ هـ / ٧٢٦ - ٧٦٥ م) ثم بنى المعتصم سامراء (٢٢٠ - ٢٢٥ هـ / ٨٣٥ - ٨٤٠ م) عاصمة للدولة .

الخلافــة

الخلافة مؤسسة اسلامية محضة ، ونظام سياسي خاص بالاسلام . تختلف عن الملك بأنها دينية - دنيوية معا لأن الدولة ذات طبيعة دينية ، وبأنها منصب تنفيذي باعتبار ان التشريع الالهي موجود ، وبأنها تحتاج الى موافقة الجماعة الاسلامية ، وتلك هي « البيعة » . لكن سلطاتها المطلقة ، بسبب الهامش الواسع بين النصوص الالهية العامة وخصوصيات الواقع الحياتي ، جعلها مجال الخلاف العملي والفكري . لذلك كان تطورها التاريخي يلخص التاريخ الاسلامي كله . وكان الخلاف حولها يفسر الكثير من أحداثه . ومن الاختلافات الفقهية والسياسية بين الفرق والأحزاب .

١ أ

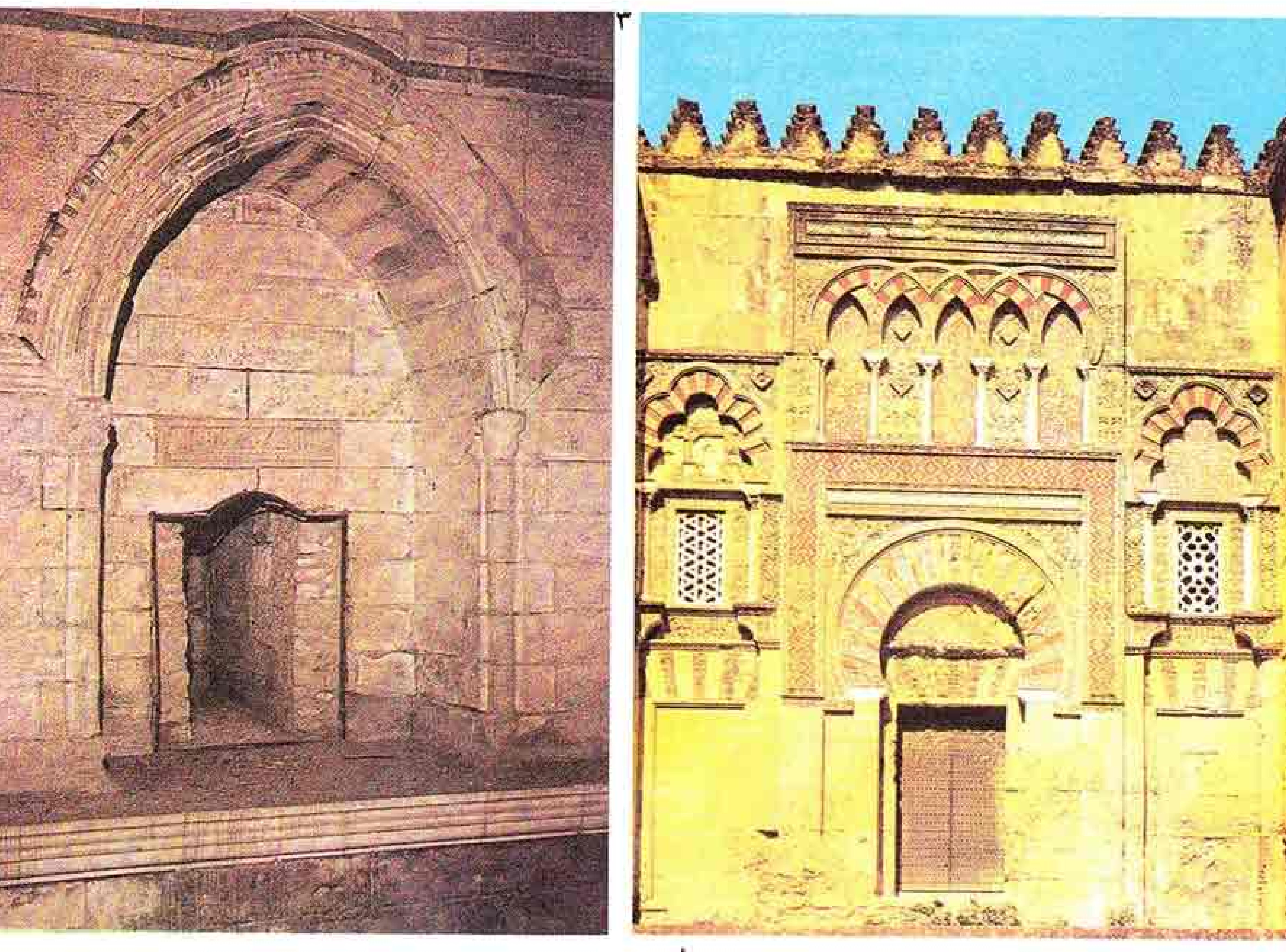


ب

(١) - حاول المعتصم أن يتخلص من أجواء بغداد ويبني لنفسه ولجيشه الجديد التركي مدينة أخرى فكانت (سامراء) التي أضحت عاصمة الدنيا حوالى خمسين سنة (خلال القرن التاسع) . تميز مسجدها الأعظم باتساعه الضخم (٢٦٠ × ١٨٠ م) ليكون متناسبا مع حاجة العاصمة وكثافتها السكانية ، والخلافة العباسية في الأوج . كما تميز ببناء المئذنة خارج الجامع على شكل برج وعلى نمط الزقرات القديمة في ما بين النهرين فهي ملوية (أ) ولم يتكرر نموذجها في غير عصرها . وأسرف الخلفاء والكبراء في تزيين قصورهم في سامراء وخاصة بالزخارف الجصية البارزة ومن نماذجها (الصورة ب) . بالاضافة الى الرسوم الجدارية . انتشر هذا الاسلوب وتنوعت عناصره الزخرفية في العمارة الاسلامية .

مر منصب الخلافة بتطورات طويلة ، متنوعة ، سواء من حيث توارثها (ولاية العهد) أو من حيث السلطات . الخلفاء الاوائل وهم الراشدون الأربعة لم يكونوا من أسرة واحدة وان كانوا جميعا من قريش . كان استخلافهم نوعا من الانتخاب المحدود . اختارهم وجوه المسلمين ، في المدينة ، وبويعوا البيعة الخاصة . ثم بايعهم المسلمون في الامصار البيعة العامة .

الخلاف الذي أثاره معاوية بن ابي سفيان ضد الخليفة الرابع علي ، أدى الى القتال . أعلن نفسه أميرا في القدس (سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م) . فلما قتل علي بعد عدة أشهر ، استمال الناس وأخذ بيعتهم لخلافته . التطور الهام الذي أدخله على المنصب هو تحويله من الانتخاب الى الوراثة ، باعطائها لابنه . أصبحت الخلافة بعده في أسرة واحدة . صارت ملكا أقرب الى السياسة منه الى الدين .



(٢) ـ يرتبط اسم قرطبة بالامارة ثم الخلافة الأموية . ظل أمويو الاندلس يتسمون بالأمراء ١٧٩ سنة لأن لقب الخلافة ، في القرون الثلاثة الأولى للاسلام ، كان ذا رهبة خاصة . اتخذوه بعد أن كسر الرهبة الفاطميون . في الصورة أحد أبواب جامع قرطبة الذي يلخص أمجاد الأمويين في الأندلس . ظل يبنى ويزين ٢٠٠ سنة .

(٣) ـ كان من عادة الخلفاء العباسيين خاصة تمويل عدد من المشاريع العامة في الأقاليم بالاضافة الى بناء المساجد . واذا تركنا جانبا عنايتهم كغيرهم بالحرمين الشريفين وجدنا لهم اتفاقا على بعض المشاريع الهامة ومنها مثلا اقامة مقياس لنهر النيل في جزيرة الروضة بجانب الفسطاط . بناه المأمون ثم أصلحه المتوكل سنة ٨٦١ . الصورة للباب الداخلي .

نظريات الخلافة

خلال العهد الأموي ظهرت ثلاث نظريات في الخلافة :

١ ـ الذين بقوا على مشايعة علي وابنائه عرفوا « بالشيعة » . قبلوا مبدأ الوراثة . لكنهم حصروه في آل محمد بوصفه حقا الهيا . مع الأيام تفرعت عنهم فرق عديدة حارب بعضها واستشهد زعماؤها . أهم التفرعات كانت في مطالع العصر العباسي حين قام الاختلاف حول الامام السابع ابن جعفر الصادق . فبعضهم تبع ابنه اسماعيل وهم السبعية ، وبعضهم اتبع ابنه الآخر موسى الكاظم وابناءه من بعده حتى الامام الثاني عشر (المهدي المنتظر) وهم الجعفرية .

٢ ـ الذين رفضوا الامام عليا ومعاوية هم الخوارج . قالوا بأن الخلافة لمن يصلح لها من المسلمين . قاتلوا طويلا دون هذا الرأي وكانت منهم عدة فرق . بقي منها حتى اليوم الا باضية .

٤



٥

(٤) ـ استفرغ الخلفاء العباسيون جهودهم في بناء القصور في بغداد في العصور المتأخرة . شكلت ما يشبه المدينة على الضفة الشرقية ومع ان ذلك دام خمسة قرون ونيف فلم يبق من بغداد العباسية الا القليل من الآثار . عوامل كثيرة أتت على مظاهر العمران فيها منها الغزوات والاهمال ومنها مادة البناء (باللبن والآجر) التي لا تقاوم الزمن . حتى سنة ١٩١٧ كان أحد أبواب مدينة بغداد ما يزال قائما فهدم . بنى الخليفة الناصر ذلك الباب سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م . وكان آخر ما أضافه خلفاء بغداد الى تلك المدينة قبل سقوطها بيد المغول سنة ١٢٥٨ . يعلو الباب افعوانان لعلهما طلسم لحمايتها لذلك كان يدعى باب الطلسم

(٥) ـ من الآثار العباسية التي بقيت والتي تتوزعها المتاحف مجموعة من القطع الخزفية الثمينة فيها الصحاف والجرار والأكواب . وهي تكشف عن تطور كبير في هذه الصناعة . وبخاصة في رسم الزخارف تحت الطلاء بلون واحد أو ألوان متعددة . مما ساعد على هذا التطور ما استوردته الطبقات الغنية في العصر العباسي من خزف الصين . كان الا بتكار الهام الذي اهتدى اليه الخزافون في العراق هو اكساب الاناء الخزفي بريقا معدنيا بعد طلائه بالدهان أو زخرفته البارزة . اشتهرت بذلك بغداد وسامراء والرقة والحيرة . هذا الطبق زخرف بكتابة عربية بارزة من صنع الحيرة في القرن العاشر أو الحادي عشر .

٣ ـ جمهرة المسلمين التي رضيت بالأمر الواقع وبالحكم الأموي عرفت بأهل السنة والجماعة . فيما بعد جاء بعض الفقهاء كالماوردي (ت سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨) وصاغ رأي السنة في الخلافة في نظرية متكاملة ذات شروط وأوصاف محدودة . أهمها أن يكون الخليفة من قريش . لكنها جاءت لاحقة للواقع لا مؤسسة له .

الخلافة العباسية

أعلن العباسيون الثورة على الامويين باسم « آل محمد » لكنهم حين وصلوا الحكم اعتبروا العباس عم الرسول (ص) هو الوارث الشرعي دون ابن عمه علي . على هذا أقاموا نظريتهم . فيما عدا ذلك اصطنعوا الموقف الأموي نفسه بكامله . اعتمدوا « السنة والجماعة » أساسا لدعم الخلافة . قاتلوا العلويين والخوارج على السواء . لم يضعوا نظاما لولاية العهد فبقيت الوراثة أسرية . تحديد الخليفة المقبل متروك للخليفة السابق . الذي كثيرا ما يعين عددا من أولاده لولاية العهد . أساء ذلك الى العباسيين كما اساء قبلهم الى الأمويين .

اصطبغت الخلافة العباسية بالصبغة الدينية أكثر من الاموية . تبنت نظرية التفويض الالهي التي كانت سائدة في الامبراطوريات القديمة ولدى الساسانيين ومزجت الدين بالملك . لكن تكاثر المسلمين من غير العرب ، ودخولهم في الدولة وتمازج الثقافات وتشعب الآراء الدينية ـ السياسية وخصومات الوارثين للعرش ولجوء الدولة في النهاية الى اصطناع الترك في الجيش ، والهرب من بغداد الى عاصمة أخرى هي سامراء (١) . كل ذلك أضعف من نفوذ الخلفاء . منذ أواسط القرن الثالث كان الطابع الديني للخلفاء يزداد على حساب النفوذ السياسي . حتى صاروا في القرن الرابع وما بعده مجرد رموز دينية امام الحكام من البويهيين (٥) والسلاجقة . حين دمر المغول بغداد (٤) سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ وأزالوا الخلافة العباسية لم يكن للخليفة سوى رقعة صغيرة من الأرض لا تجاوز جنوب العراق (١) .

الخلافات الأخرى

لم يبق العباسيون هم الخلفاء الوحيدين ، شاركهم الخلافة أيضا :

ـ الفاطميون : وهم ائمة الشيعة السبعية . أقاموا خلافتهم في المغرب ثم في مصر والشام (ما بين ٢٩٧ ـ ٩٠٩ / ٥٦٧ ـ ١١٧١) وكانت خلافة زاهرة هامة ألغاها صلاح الدين الأيوبي .

ـ الأمويون في الأندلس : تسموا بالأمراء فترة طويلة في قرطبة (٢) ثم بالخلفاء اعتبارا من سنة ٣١٦ / ٩٢٨ أيام عبد الرحمن الثالث . ولكن خلافتهم انهارت مع نزاعات ملوك الطوائف (سنة ٤٢٢ / ١٠٣١) .

حاول الملك الظاهر بيبرس (حكم ٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م) في أول العهد المملوكي احياء الخلافة العباسية في القاهرة ونصب فيها خلافة (سنة ٦٥٩ / ١٢٦١) دامت طوال العهد المملوكي . لكنها كانت لقبا فارغا مهمته منح الشرعية لسلاطين المماليك . أهملها العثمانيون بعد أن فتحوا مصر سنة ١٥١٧ . سلاطينهم المتأخرون استخدموا اللقب فيما بعد وبخاصة السلطان عبد الحميد ، لكن كمال أتاتورك ألغاها سنة ١٩٢٤ .

الأحكام السلطانية

أدار الخلفاء الراشدون دولة الاسلام الاولى بأسلوب مبسط مباشر يستند الى الشورى . كانوا يشرفون على أمور الأمة العسكرية والسياسية والمالية والقضائية والادارية من منازلهم نفسها . أو من المسجد النبوي ، وهو دار الخلافة الاولى ، ويباشرون امامة الصلاة بأنفسهم كما يباشرون القضاء . ينوب عنهم في هذين الامرين بالامصار الولاة والقضاة منذ عهد عمر بن الخطاب (الذي ظهر الديوان ايضا في عهده لتسجيل الجند ومقادير الغنائم والعطاء) . تعقدت رسوم دار الخلافة في العهد الأموي بالتدريج . ظهر الحاجب وديوان الحاكم والقصر في مركز الخلافة بدمشق . وكثرت الدواوين .

١

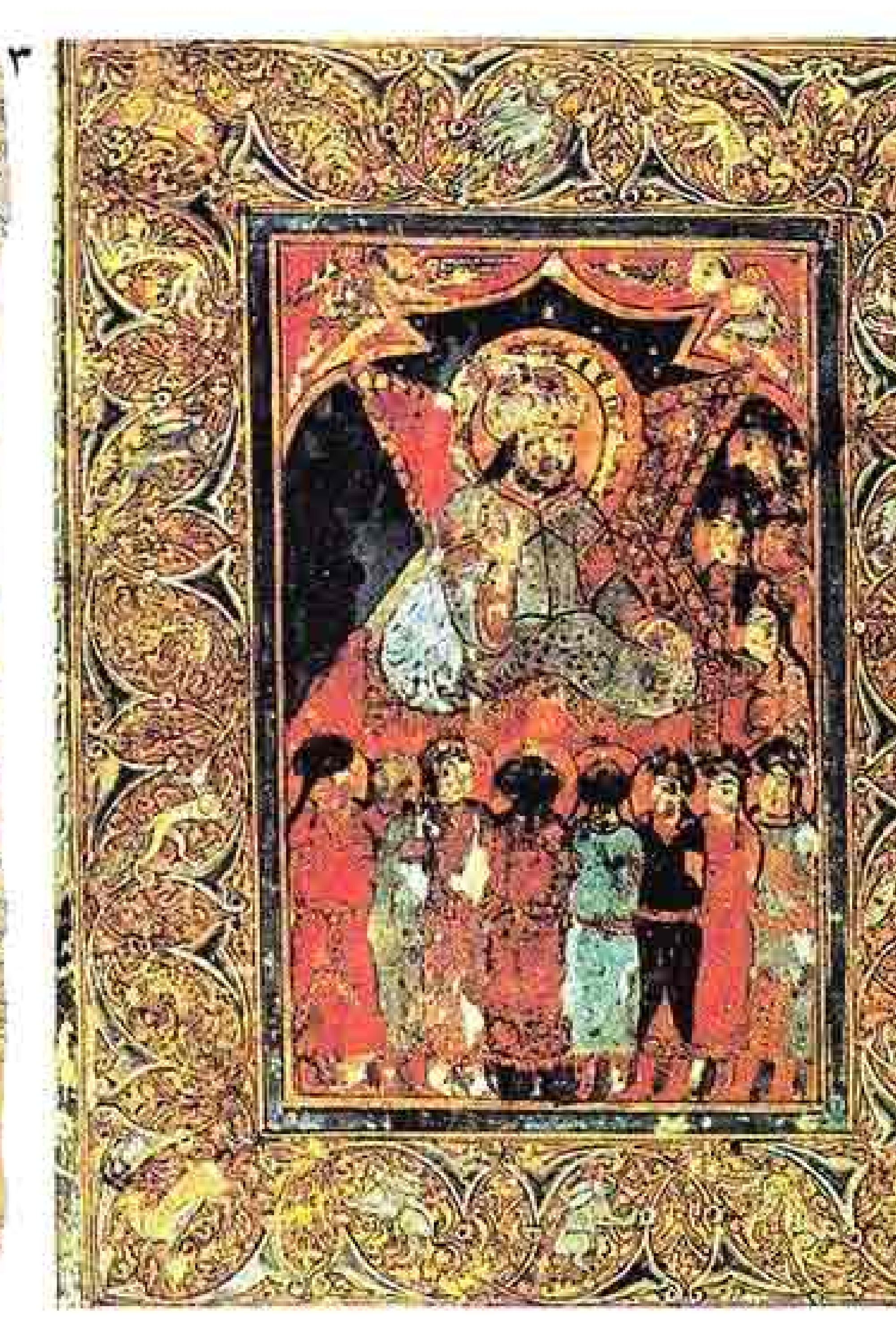
(١) ـ الرقعة الجغرافية الواسعة التي امتدت عليها الفتوح الاسلامية . مع تباين شعوبها وحضاراتها . خلقت للادارة الاسلامية مشكلة أساسية هي ضرورة اعطاء الوالي الاقليمي قدرا واسعا من السلطة للتصرف والادارة . لم يكن ذلك خطيرا من حيث النظام العام لأن الشرع الاسلامي كان المرجع الأول والأخير للجميع ولكنه من الناحية السياسية . وخاصة حين ضعفت السلطة المركزية اعتبارا من العصر العباسي الثاني (أواسط القرن التاسع) أدى الى تحول السلطات المحلية دولا وراثية هي ما يسمى بالدول المنقطعة . اللوحة تروي قصة ظهور وغياب الدول في الأقاليم المختلفة ضمن اطار العالم الاسلامي الواحد . لكن النظام الاداري في هذه الدول كان متشابها في الخطوط الاساسية . فالحاكم (أيا كان لقبه) عمله تنفيذ أوامر الشرع وان كان من ناحية أخرى مطلق السلطة . ورأس الجهاز الاداري هو الوزير أو الكاتب . والقضاء سلطة دينية الطابع .

أبقى الأمويون الأجهزة الحكومية السابقة على حالها ، فكانت تكتب بالبهلوية في العراق وايران وبالسريانية في الشام واليونانية وبالقبطية في مصر . لما جاء عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ ـ ٨٥ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥) عرب الدولة : بتعريب الدواوين في الشام والعراق ومصر وتعريب النقود . وتنظيم شبكة الاتصال مع الولايات بالبريد والديوان المركزي .

في العصر العباسي ساد الحكم المطلق . صارت للخلفاء القصور والحاشية (الخاصة) والمراسم والتقاليد . بلغت الحجابة لديهم مرتبة عليا تعادل مرتبة المستشار ، وصار للدخول عليهم رسوم منظمة . اتخذوا الالقاب ذات الطابع الديني ، أحاطوا أنفسهم بمظاهر التبجيل ومنها تقبيل الأرض بين ايديهم . دخل البلاط منذ أيام المنصور شخصيتان ؛ الطبيب والمنجم .

لكن رسوم دار الخلافة بلغت أوج التعقيد

٢



٣

(٢) ـ في الادارة الاسلامية ، رغم الطابع الديني للدولة ، لم يمتنع الحكام عن استخدام غير المسلمين فيها منذ أوائل العصر الأموي حتى العصر المملوكي . وبرز منهم كتاب كبار كابن المقفع والفضل بن سهل في الدواوين ووزراء معروفون (كابن كلس في العهد الفاطمي) . وأطباء في البلاط . كما كانت جباية الأموال وجرائدها في مصر والشام والعراق وايران في أيدي الكثير من أهل الذمة . في لوحة من كتاب مقامات الحريري (أواسط القرن ١٣) رسم للسلطان أو الخليفة وأمامه في حاشيته مختلف الشعوب .

(٣) ـ صناعة النسيج ازدادت رقيا في الصور والألوان والتقنية خلال العصر العباسي سواء في ايران أو العراق أو مصر . لكن اختلفت الاقاليم بعناصر التزيين والألوان . في ايران مثلا استخدمت زخارف حية ونباتية الى جانب العناصر الكتابية التي كانت تمنح النسيج الطابع الاسلامي . بعض العناصر الحية كانت حيوانات مجنحة تحمل تأثير الحضارات المجاورة . قطعة النسيج هذه من نسيج زندان ، تحمل مع الطابع الساساني التقليدي ملامح الفن الصيني .

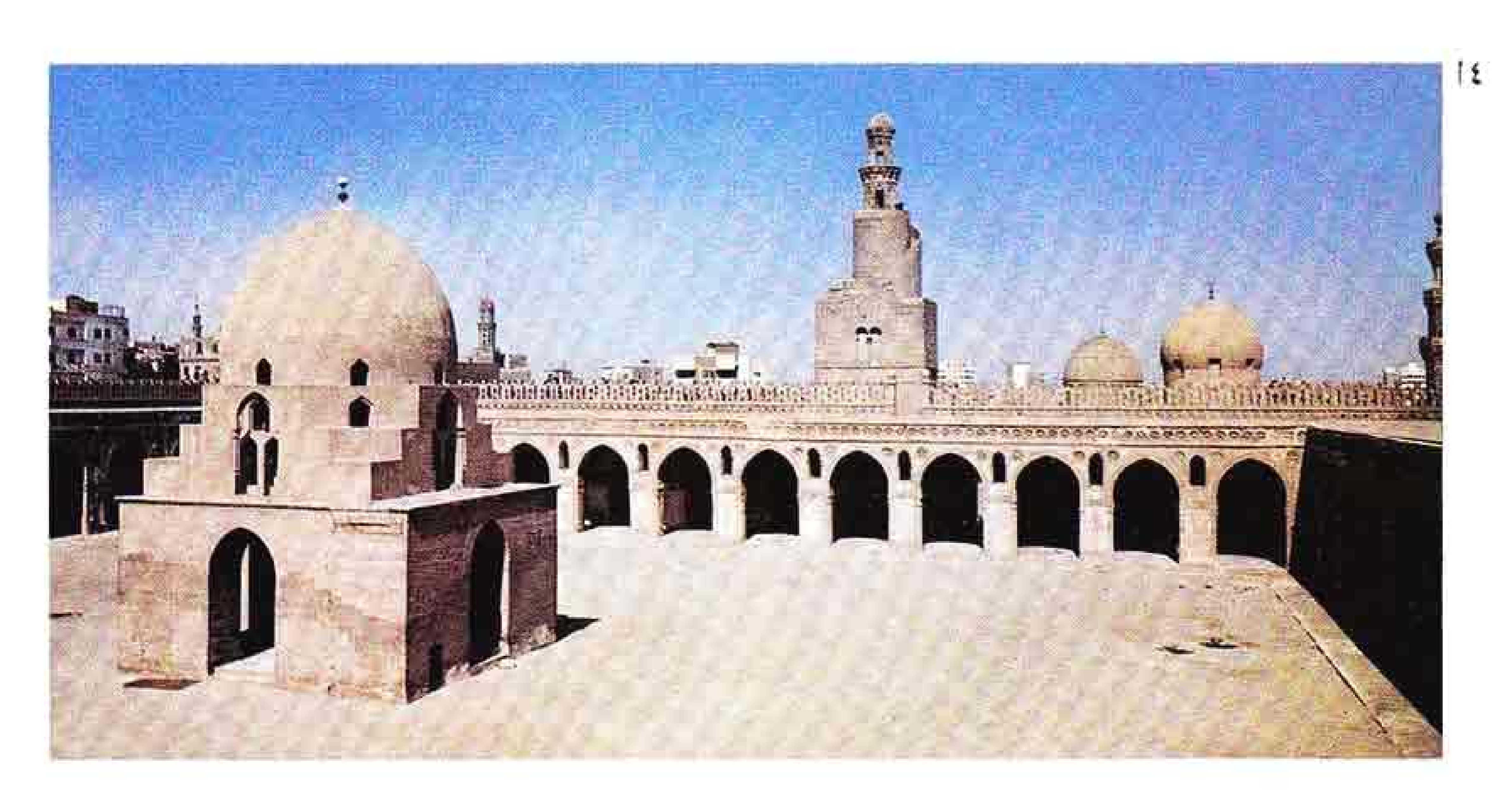
والتنظيم والفخامة لدى الخلفاء الفاطميين في مصر .

الوزارة والدواوين

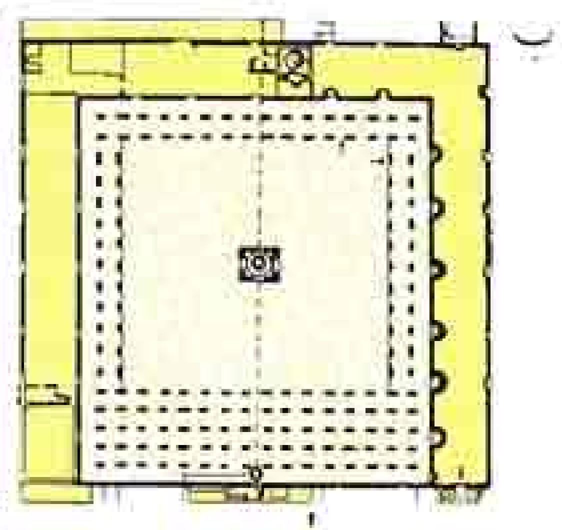
ظهر هذا المنصب بالتدريج خلال العصر العباسي الأول مع تعقد ادارة الدولة . كان يقال لمن يعاون الخليفة انه وزيره . الشخصيات الهامة من هؤلاء المعاونين (كالبرامكة) ساهمت في ايجاد هذا المنصب بشكل رسمي منذ ايام المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧) . بعض هؤلاء الوزراء كانوا من الثقة بحيث يفوضهم الخليفة في كل أمر . وبعضهم كان مجرد منفذ لأوامر الخليفة . فيما بعد قسم الماوردي الوزارة قسمين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ .

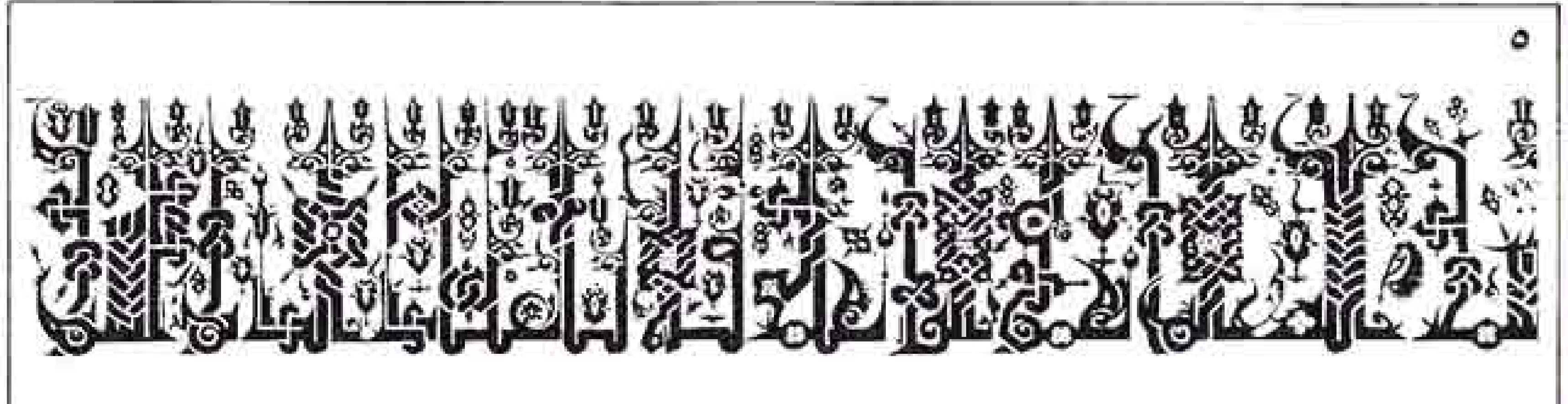
احتكرت الوزارة العباسية أحيانا بعض الأسر (بنو برمك ، بنو سهل ، بنو الفرات ، بنو الجراح) حين ضعف الخلفاء ضعفت معهم

١٤



ب





٥

(٤) ـ أحمد بن طولون كان . في أول ولايته لمصر من ولاة الاستكفاء الذين يعطون الولاية ليكفوا الخليفة أمرها مقابل مبلغ سنوي مقرر . في أواخر عهده تمرد قصار من ولاة الاستيلاء بسبب خلافاته مع رجال السلطة في بغداد . بين هذا وذاك أقام ابن طولون لنفسه بلاطا مصغرا عن بلاطات العاصمة سامراء . حتى مسجده بناه على شكل المسجد الأكبر فيها تقريبا . الصورة (أ) لمسجد ابن طولون مع مئذنته الملوية . وفي الصورة (ب) مخطط المسجد .

(٥) ـ تطور التزيين بالخط الكوفي تطورا واسعا في ايران خلال العصر العباسي . نموذجه المصور مأخوذ من ضريح بيري علمدار في دامغان سنة ١٠٢٧ .

الوزارة . حتى اذا جاء البويهيون الى بغداد سنة ٣٣٤ بعد فترة الاضطراب العسكري (٣٢٠ ـ ٣٣٤) لم يكن قد بقي من الوزارة الا الاسم .

ظهر منصب الوزارة أيضا لدى الخلافة الفاطمية في مصر ، ورافقها قوة وضعفا حتى انهيارها . كما ظهر لدى الأمويين في الاندلس لكنه اندمج مع وظيفة الحاجب كما تعدد مع تعدد الاعمال للمال والرسائل وغيرها .

جهاز الادارة كان يقوم على « الديوان » . الديوان الأول أوجده عمر بن الخطاب (سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م) فما لبث ان أصبح صاحبه رأس الجهاز الاداري . تعددت الدواوين بالتدريج في العصر الأموي وتعقدت في العصر العباسي . وكان لها كتابها ومحفوظاتها من الرسائل وجرائد الخراج والضرائب (٢) صارت الكتابة تخصصا له مستلزماته . وجدت في الولايات دواوين مماثلة لها بدورها تقاليدها . مع الايام صارت الدواوين نظاما بيروقراطيا كاملا . نجد تنظيماته وتخصصاته ورسومه الدقيقة في العهد المملوكي .

الولاة والعمال :

كان الولاة في القرنين الاولين من التاريخ الاسلامي مصغر الخلفاء في أمصارهم . تعطى لهم الصلاة (أي امامة الصلاة وقيادة الجيش) ويرسل معهم العامل لجباية المال . وقد تجمع العمالة مع الامامة . يحتجزون بعض المال لادارة القطر ويرسلون الباقي الى الخليفة . رقابة الخلفاء على الولاة كانت تتم بواسطة صاحب البريد الذي كان عين السلطان ، يرسل اليه مباشرة بجميع اخبار الولاية من اقتصادية وقضائية وسياسية .

حين ضعفت الخلافة العباسية في المركز في اواسط القرن الثالث (٩ م) أخذ الولاة نوعا من الاستقلال اللامركزي ، بلغ أحيانا درجة ظهور الأسر الحاكمة محليا منهم ، وقد سميت بامارة الاستيلاء (٤) . صار الولاة يقلدون الخلفاء في البلاط والعمران والثقافة ، مما أغنى الحضارة الاسلامية وأدخل عليها في دول المشرق خاصة (١) تأثيرات هندية وصينية .

القضاة :

الخليفة نظريا هو القاضي ، ولكن ترامي الدولة دفع عمر بن الخطاب الى تسمية القضاة . وله في ذلك عهد مشهور . كان الخلفاء فيما بعد يعينون بانفسهم قضاة الامصار ، لكنهم يجلسون بأنفسهم للمظالم . ثم ظهر في بغداد منذ ايام الرشيد منصب قاضي القضاة الذي يشرف على العملية القضائية في الامصار ، ويعين لها القضاة بأمر من الخليفة . كان بعض المتدينين يتحرجون من تولي هذا المنصب في القرون الاولى ، ثم صار بعضهم يطلبه ، في عصور الانحطاط ، لما به من سلطة ومغانم . تعدد القضاة في العهد المملوكي حسب المذاهب الأربعة .

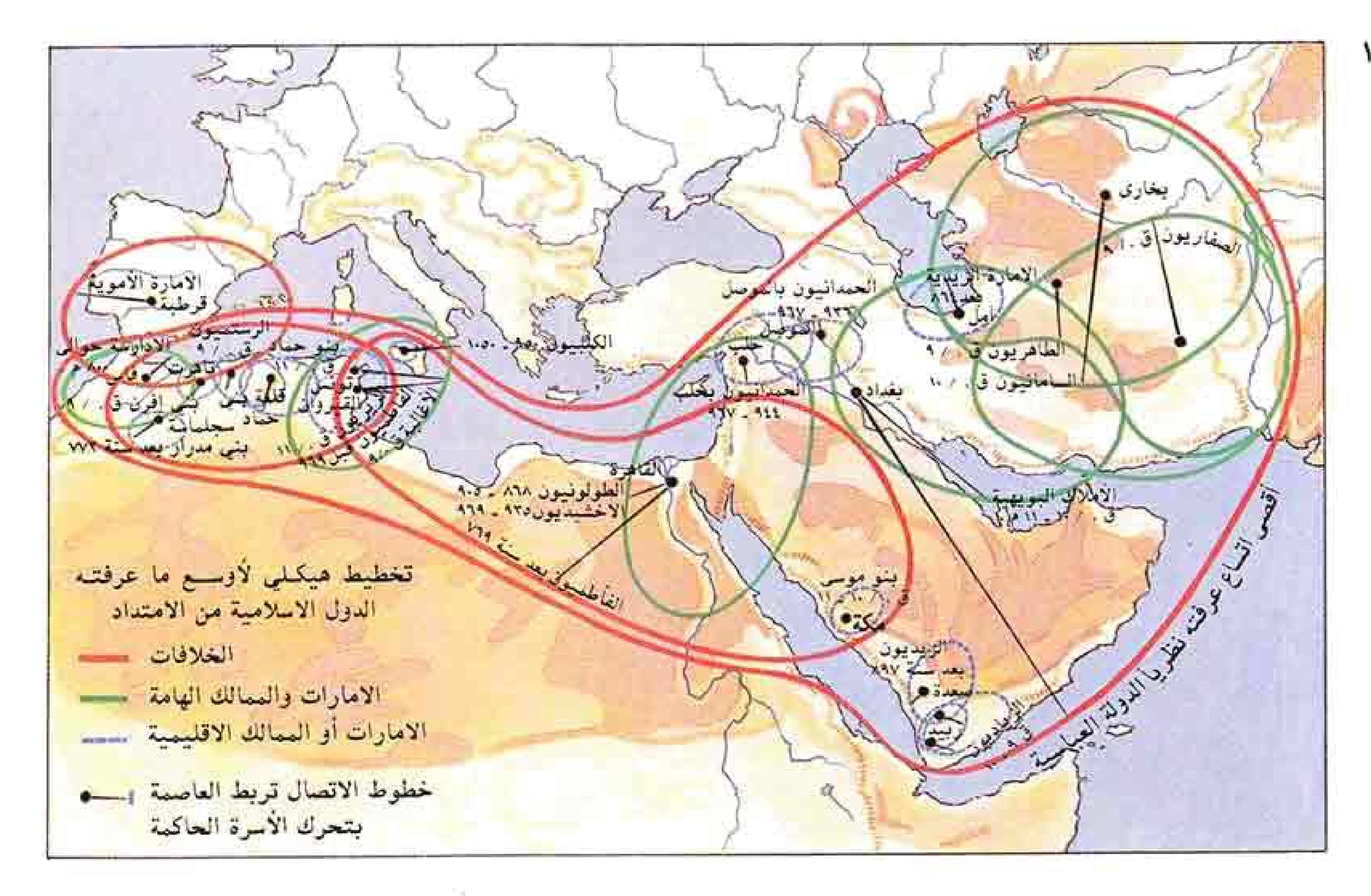
لعل أهم ما يضاف هنا ان حياة المدن في الاسلام كانت تخضع للرقابة الشرعية في الصحة والتعليم والاقتصاد والمعاملات والأسواق والأخلاق العامة والدين . يقوم بذلك شخص ذو مكانة وسلطات مطلقة هو : المحتسب ، وله ايقاع العقوبة الفورية التي تبدأ بالنصح وتنتهي بالسجن ، مرورا بالتعزير والضرب .

تصدُّع الأمبراطورية

كانت الدولة العباسية حتى أواسط القرن الثالث هـ / ١٠ م ما تزال وحدها الدولة الاولى والكبرى والأقوى في العالم . الدول الأخرى كانت تطيف بها ، وكلها ، باستثناء الصين ، كانت أصغر وأضعف ، بما في ذلك دول الخزر ، وامبراطورية بيزنطة ، ومملكة شارلمان الفرنجية ، وامارة الاندلس الأموية ودول الخوارج في افريقية والمغرب .

في سنة ٢٤٧ / ٨٦١ تآمر قواد الجيش الأتراك على الخليفة المتوكل فقتلوه . كان ذلك نقطة الانقلاب في صراع عناصر القوة والضعف في الدولة . الجند الاتراك الذين أرادهم المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧) آلة حرب تملكها الخلافة أصبحوا بعد المتوكل هم الذين

١



(١) - منذ بدأت الدول المنقطعة عن الخلافة العباسية الأم في الظهور ، كان من الصعب ضبط تطوراتها . قواها المحلية كانت هي التي ترسم حدودها على حساب القوى المجاورة . في المشرق (اعتبارا من مصر قبل العهد الفاطمي حتى السند وتركستان) كانت كلها منذ القرن الثالث امارات استيلاء تعبر عن ولائها الشكلي للخليفة العباسي بالخطبة له ونقش السكة باسمه . في المغرب اختلف الأمر . امراء الاستيلاء سموا أحيانا أنفسهم بأمراء المؤمنين والخلفاء .

(٢) - كان غنى الفاطميين وترف قصورهم موضوع حديث المؤرخين دوما . تحفهم مصدر اعجاب ودهشة ويذكرون منها السيوف المحلاة بالذهب وأحجار الزمرد والجوهر وأستار الحرير والديباج المنسوج بالذهب . لم يبق من ذلك كله الا النزر اليسير جدا ومنه هذه المنحوتة العاجية للصيد بالصقور .

(٣) - يكثر في الخزف الايراني بعد القرن العاشر رسم صور الأمراء لأن البلاطات الصغرى فرضت نفسها على الجو الفني . في هذا الطبق الذي صنع في نيسابور في القرن العاشر (قطر ٣٠ سم) صور الرسام رحلة صيد لأحد الأمراء فيه الأمير على فرسه وقد هاجمه من الخلف نمر . في الرسم أثر التقاليد الساسانية .

يملكون الخلافة ويتحكمون بالخلفاء ، كما جعلوا يصطرعون مع الوزراء ، ومع بعضهم بعضا على السلطة والمكاسب . زاد في الضعف توالي الثورات في المنطقة المركزية من الدولة (العراق) .

نجم عن ذلك كله ضعف الادارة المركزية (١) وظهور القوى المسيطرة في أقاليم الدولة ، على شكل دول متصلة بالولاء الشرعي مع الخلافة . بعضها كان يفرض نفسه فرضا على المركز ، وبعض كان من قوى الجند المركزي ولكن طموحاته كانت توصله الى الاستقلال الذاتي . على ان التصدع السياسي للامبراطورية لم يؤثر أي تأثير على نشاطات الحضارة العربية الاسلامية التي بلغت أوجها في القرنين التاسع والعاشر ، ولا على تزايد الوحدة بين أقاليمها فنا واقتصادا وثقافة ، رغم توزع الحركة الحضارية على الأقاليم بعد التمركز ببغداد .

٢



٣



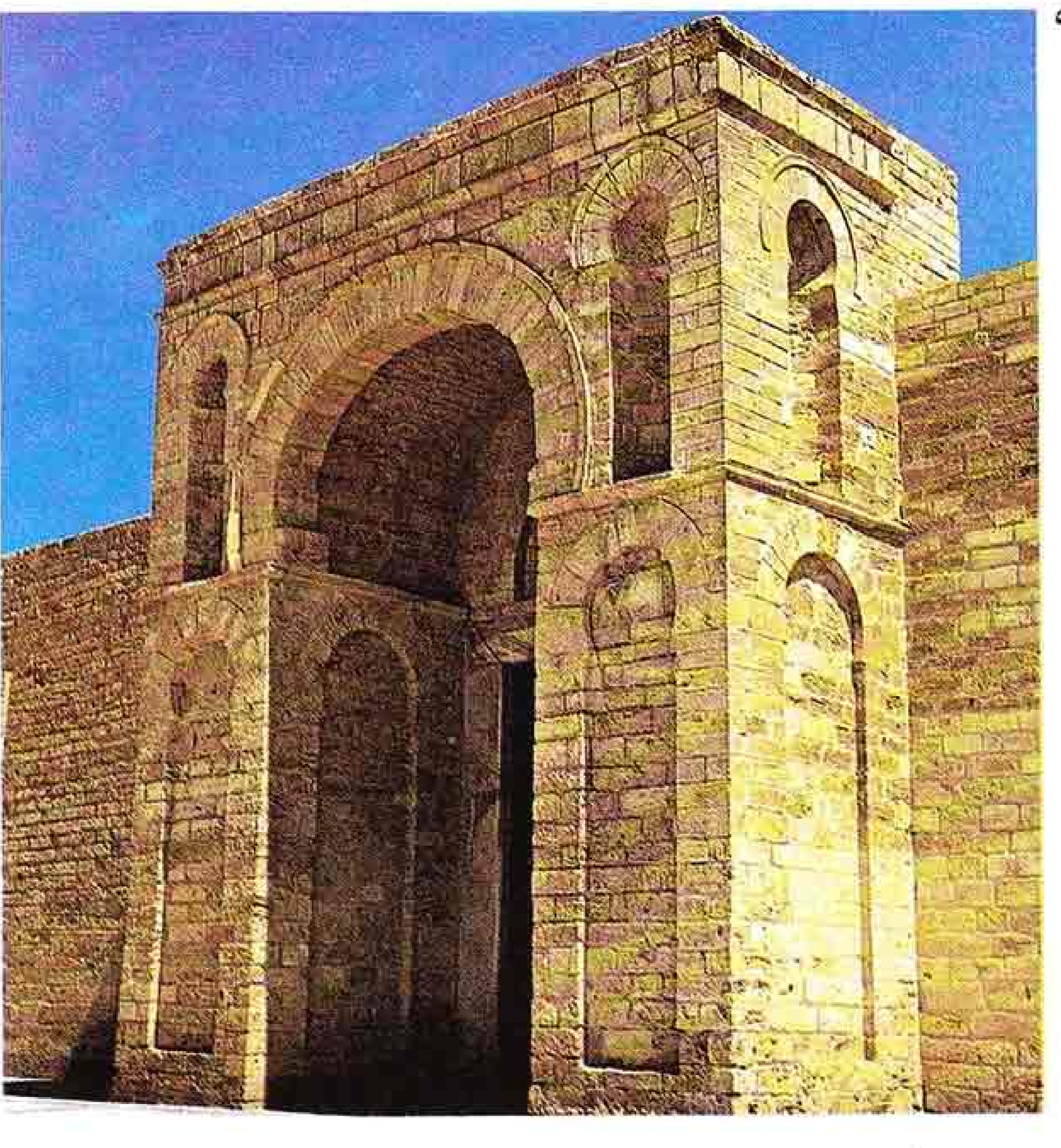
٤

(٤) ـ قامت الدولة السامانية (٨٧٤ ـ ٩٩٩) على أنقاض الدولة الصفارية (٨٦٨ ـ ٨٧٨) . من أشهر السامانيين اسماعيل (٨٩٢ ـ ٩٠٨) الذي نرى هنا مدفنه في بخارى (بني حول سنة ٩٤٣) . حفيده نصر الثاني ابن أحمد شملت مملكته ايران كلها مع الولاء للخلافة ببغداد . أهم ما قام به السامانيون تشجيع العلم والصناعة والعمران ونشر الاسلام في تركستان . انتهى السامانيون على يد الغزنويين (سنة ٩٦٢ ـ ١٠٣٧) .

الدول المنقطعة في المشرق

أول الدول الاقليمية لم تظهر في المشرق ، ولكن مع الأمويين في الأندلس ثم مع الاغالبة في افريقيا أيام الرشيد (سنة ١٨٦ / ٨٠٠ م). تطرف تلك الاقاليم في الغرب كان من دواعي قبول بغداد بالأمر الواقع في الاندلس ثم بالولاية الوراثية في افريقيا . في أيام المأمون ظهرت دولة مماثلة في المشرق وخراسان هي الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩ / ٨٢٠ ـ ٨٧٢) ثم حلت محلها الدولة الصفارية (٣) ، التي ملكت فارس وبعض السند ، ثم جاء السامانيون (٤) (٢٦١ ـ ٣٨٩ / ٨٧٤ ـ ٩٩٩) ، وأخيرا الغزنويون الذين اسسوا دولتهم في غزنة سنة ٩٦٢ فشملت ما بين اطراف العراق حتى البنجاب . انتهت على يد السلاجقة سنة (١٠٣٧) الذين احتلوا في أيام طغرل بك المشرق العباسي كله ثم حلت دولتهم في اطار الخلافة العباسية كلها ، وملأته زمن

٥



(٥) ـ كان أقصى ما استطاعت الخلافة العباسية عمله في عصرها الأول في افريقية هو توطيد نفوذها الاسمي عن طريق الاغالبة . باقي المغرب قامت فيه دولتان للخوارج ودولة للعلويين (الادارسة) مع امارات أخرى . حين قامت الخلافة الفاطمية في القيروان ابتلعت معظم هذه الدول واخضعت الباقي . بنى الخليفة الفاطمي الاول عبيد الله المهدي عاصمة جديدة له هي المهدية جعلها كالحصن . جامعها الكبير هذا بني حوالى سنة ٩١٦ وهو أحسن ما يمثل الفن الفاطمي في افريقيا .

٦



(٦) ـ احتل السلاجقة جميع أراضي الخلافة العباسية وحددوا قواها ، الا ان أثرهم ظهر خاصة في اقليمين وبشكل متناقض : فالأناضول الذي احتلوه صار مع الأيام تركيا واما ايران فزاد وجودهم في دعم طابعها الفارسي حتى فنونهم في ايران تأثرت بهذا الطابع . ومع ندرة نحتهم للتماثيل فقد وجدت لهم منحوتات منها هذا الرأس لأمير سلجوقي من القرن ١٢ ـ ١٣ ويظهر فيه رغم الملامح التركية التأثير المحلي الفارسي .

السلاجقة الكبار (ألب أرسلان وملكشاه) .

العاصمة بغداد نفسها وقعت بعد ٨٧ سنة من التسلط العسكري التركي الذي أعقب مقتل المتوكل في أيدي (بني بويه) . هم من الديلم الشيعة . نشأت امارتهم في شيراز سنة ٣٢٠ / ٩٣٢ وتوسعت في غرب ايران وسرعان ما استطاع أحمد بن ابي شجاع مؤسس الدولة ان يدخل بغداد سنة ٣٣٤ / ٩٤٥ ويفرض نفسه عل الخليفة العباسي . استمرت الدولة البويهية أكثر من قرن . اتخذ أمراؤها لقب الملوك وأخذوا من الخليفة ألقاب معز الدولة وعضد الدولة وبهاء الدولة . قاموا بعدد من مشاريع الري والبناء. أنهاهم السلاجقة سنة ١٠٥٥.

في الشام ومصر

في شمال العراق والشام (الموصل - حلب) قامت في معظم القرن الرابع الدولة الحمدانية . التي اشتهر منها سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦ / ٩٤٤ - ٩٦٧) بحروبه مع الروم وبلاطه الفخم . حظ هذه الدولة السيء جعلها دولة حدودية . في الوقت الذي كان فيه الروم يحققون نهضة عسكرية واسعة اكتسحوا فيها الحدود الاسلامية التقليدية في كيلكية والجزيرة واحتلوا عددا من الثغور والعواصم منها طرطوس وانطاكية . وصل مدهم الحربي ذات مرة الى دمشق . في مطالع القرن الخامس حلت محل الحمدانيين دولة بني عقيل في الموصل (٣٨٦ - ٤٨٩ / ٩٩٦ - ١٠٩٦) ودولة بني مرداس في حلب سنة (٤١٤ - ٤٧٢ / ١٠٢٣ - ١٠٧٩) استمرت الدولتان حتى الغزو السلجوقي (٦) .

مصر وجنوب الشام كان مصيرهما متشابها . تسلم القائد التركي أحمد بن طولون مصر سنة ٢٥٤ / ٨٦٨ فأسس فيها مع جنوب الشام الدولة الطولونية (حتى سنة ٢٩٢ / ٩٠٤) . بعد فترة ثلاثين سنة تكررت العملية ذاتها على يد محمد بن طغج الاخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ / ٩٣٥ - ٩٦٩) التي حكم في السنوات العشرين الأخيرة منها كافور الاخشيدي (ت ٣٥٦ / ٩٦٦) . الدولتان استغلتا النشاط التجاري في الشام ومصر لدعم استقلالهما المحلي .

دول افريقيا والمغرب

في أواسط عهد الرشيد كان المغرب الاسلامي موزعا بين أربع قوى :

١ - دولة الادارسة في شمال المغرب الاقصى (٧٨٩ - ٩٧٤) أسسها ادريس حفيد الحسن بن علي الذي فر من الانتقام العباسي ضد الثورة العلوية في الحجاز سنة ٧٨٥ ثم ابنه ادريس الثاني . بنى الاثنان مدينة فاس (٢) بقسميها عاصمة لهما .

٢ - دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الاقصى (٧٥٧ - ٩٠٩) كانت للصفرية ولها امامها . شأنها الكبير أخذته من موقعها على الخط التجاري بين السودان الغربي والمغرب . تجارتها كانت ناجحة رابحة لمرور الذهب الافريقي عن طريقها .

٣ - الدولة الرستمية في تاهرت والمغرب الاوسط للاباضية (٧٧٧ - ٩٠٩) ازدهرت بدورها نتيجة التجارة بين الصحراء وبين حوض البحر المتوسط .

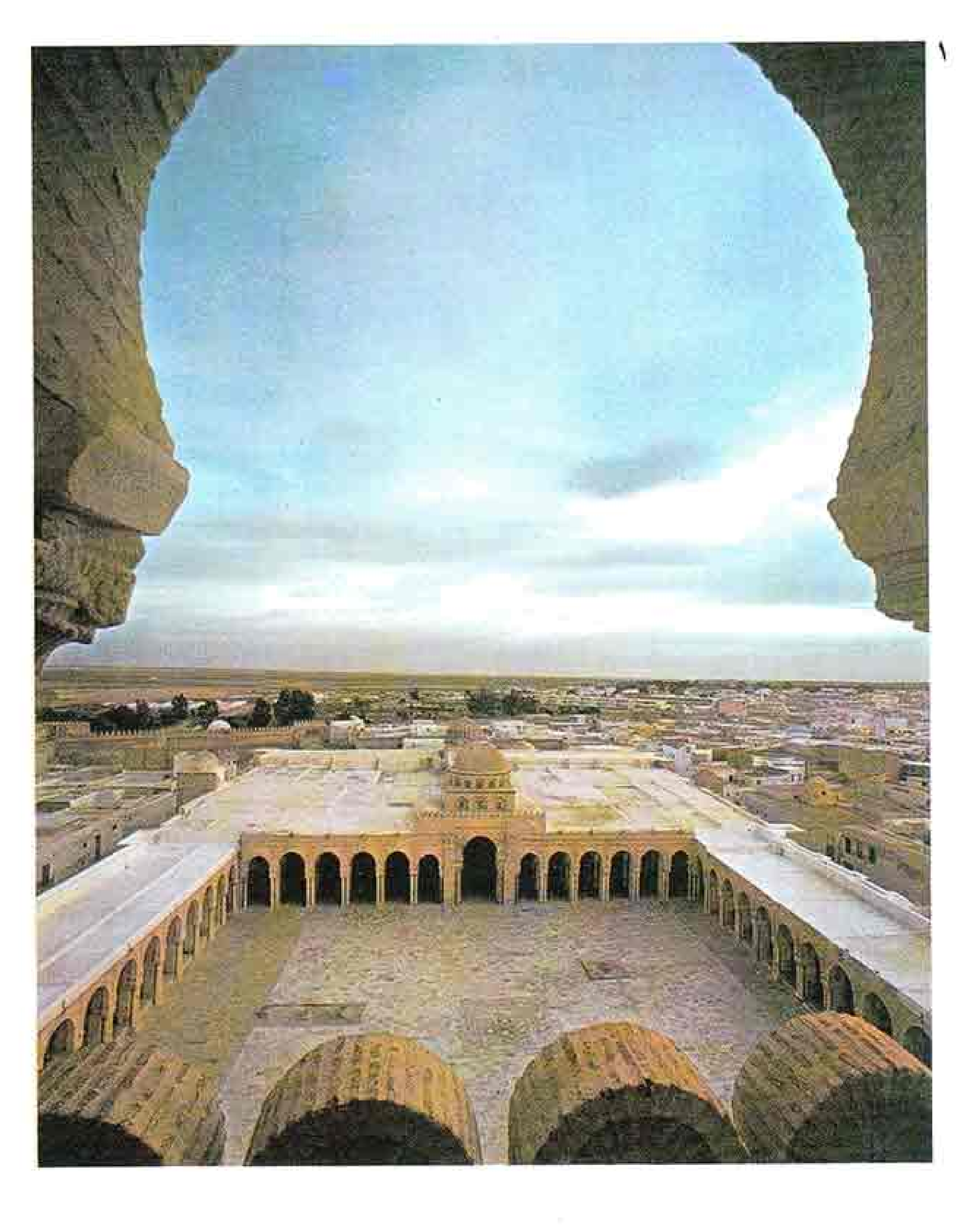
٤ - دولة الاغالبة (٨٠٠ - ٩٠٥) مؤسسها ابراهيم بن الاغلب . فوض اليه الرشيد امر افريقيا وراثيا . فكانت أول دولة عباسية لامركزية . عاصمتها القيروان .

شمال أفريقيا العربي
«بين الفتح والقرن ١١ م.»

ما كاد الفتح العربي لمصر يتم سنة ٦٤١ حتى امتد نحو برقة لتأمين الجبهة الغربية من الروم . مرحلة الاستطلاع استمرت حتى سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م . ووصلت طرابلس وفزان وافريقية . مرحلة الفتح المنظم جاءت ما بين سنتي ٥٠ ـ ٩٠ / ٦٧٠ ـ ٧٠٩ . قاد مرحلتها الاولى حتى سنة ٦٨٤ عقبة بن نافع الذي وصل المحيط . برز في المرحلة الثانية حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير الذي استكمل فتح المغرب والاندلس . سار تنظيم الادارة ونشر الاسلام واللغة العربية جنبا الى جنب مع الفتح .

اعتبر البربر الحكم الجديد تحريرا لهم . انتهز حسان اسلام البربر فجعل أكثر جيشه

١



(١) ـ أثرت القيروان في تاريخ افريقيا والمغرب في أمور كثيرة . منها نشر المذهب المالكي هناك . منذ القرن العاشر . فضل ذلك الى أبي سعيد سحنون التنوخي (٧٧٧ ـ ٨٥٤) . ولد بالقيروان ودفن بها . رحل الى المشرق وحين عاد سنة ٨٠٧ أظهر علم المدينة ومذهب مالك . لقب سراج القيروان وكان له ٧٠٠ عالم من تلاميذه . بجانب القيروان كان المركزان الدينيان الهامان . في افريقيا والمغرب هما : الجامع الكبير في تونس (الزيتونة) وجامع القرويين . الزيتونة أسس في شكله الأول سنة ٧٣٤ على يد الوالي الأموي عبيد الله بن الحجاب ثم أعاد الأغالبة بناءه كليا (٨٦٤ ـ ٨٦٥) على نفقة الخليفة العباسي المستعين . أما جامع القرويين في فاس فهو أقدم جوامع المغرب اليوم بنته سيدة قيروانية (فاطمة بنت محمد المهري) للهار بين من الفاطميين في القيروان أواخر القرن ٩ . ثم توسع المسجد مرات . وأعاد بناءه كله علي بن يوسف المرابطي (١١٣٥) (٨٥×٧٠ م) . وصار جامعة دينية قامت بدور الأزهر في المغرب .

منهم . قسم لهم في الفيء والأرض . أسس مدينة تونس وأقام فيها دارا لصناعة السفن . مهد ذلك كله لفتح الاندلس فيما بعد .

عهد الولاة

بعد موسى بن نصير ، تقلبت افريقيا والمغرب بين الهدوء والاضطراب أكثر من ثلاثين سنة . قتل الوالي يزيد بن ابي مسلم (سنة ٧٢٠) الذي أراد أن يسومها مثل سياسة الحجاج الثقفي بالعنف والشدة . حين كثرت المظالم والضرائب (على يد عبيد الله بن الحبحاب) ، لم يكن ذلك سببا في انتشار الافكار الساخطة على الحكم الأموي فقط ، ولكن في قيام الثورة عليه أيضا (سنة ٧٣٩) .

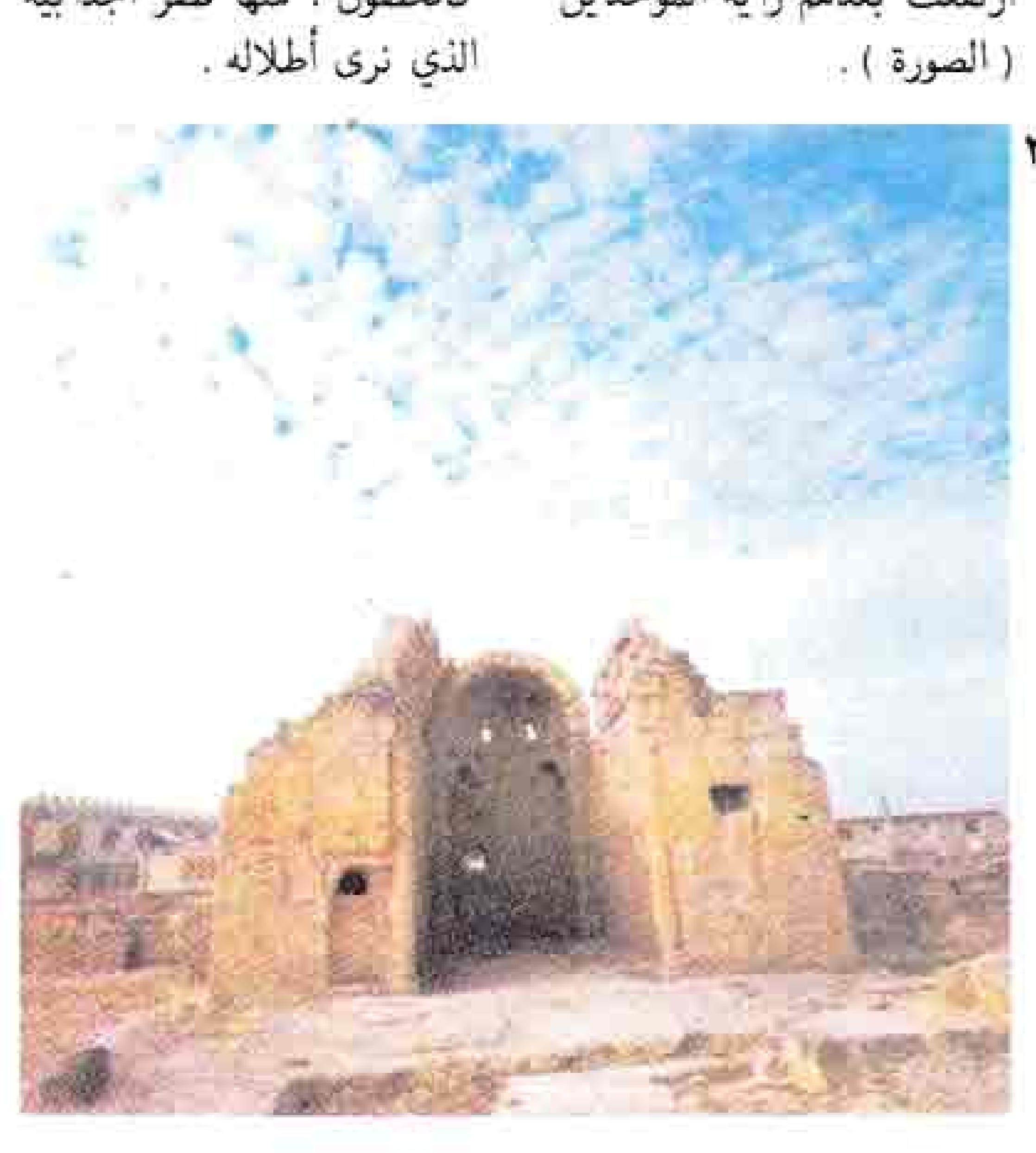
كانت أفكار الخوارج التي يئست من النصر في المناطق المركزية من الدولة ، قد ابتعدت لاجئة الى الاطراف القصية ، مثل سجستان وعمان وافريقيا . فوجد فيها البربر



(٢) ـ منطقة المغرب الاقصى لم تستطع في القرون الاربعة الاولى للاسلام أن تقوم بدور سياسي هام رغم قيام الدولة الادريسية فيها منذ سنة ٧٨٥ . ذلك أنها وقعت بين قوى افريقية والاندلس . وخاصة عند تنافس الخلافتين الفاطمية والأندلسية . سقطت تحت ضربات الحكم الثاني (٩٦١ ـ ٩٧٦) . أخذت المنطقة دورها حين قام المرابطون ثم ارتفعت بعدهم راية الموحدين (الصورة) .

(٣) ـ بنى الفاطميون في افريقيا ، بعض المدن (كالمهدية والمنصورة) والجوامع ومنها جامع اجدابية . بدأ في عهد المهدي بين سنة ٩١٨ ـ ٩٢٨ وتم في عهد القائم . بعد فتح مصر ، حين انتقل المعز اليها سنة ٣٦٢ ، مر بطرابلس فأهدى أهلها ناقة محملة بالذهب بنوا به جامع الناقة . على الطريق كان قد بنى عددا من القصور كالحصون ، منها قصر أجدابية الذي نرى أطلاله .

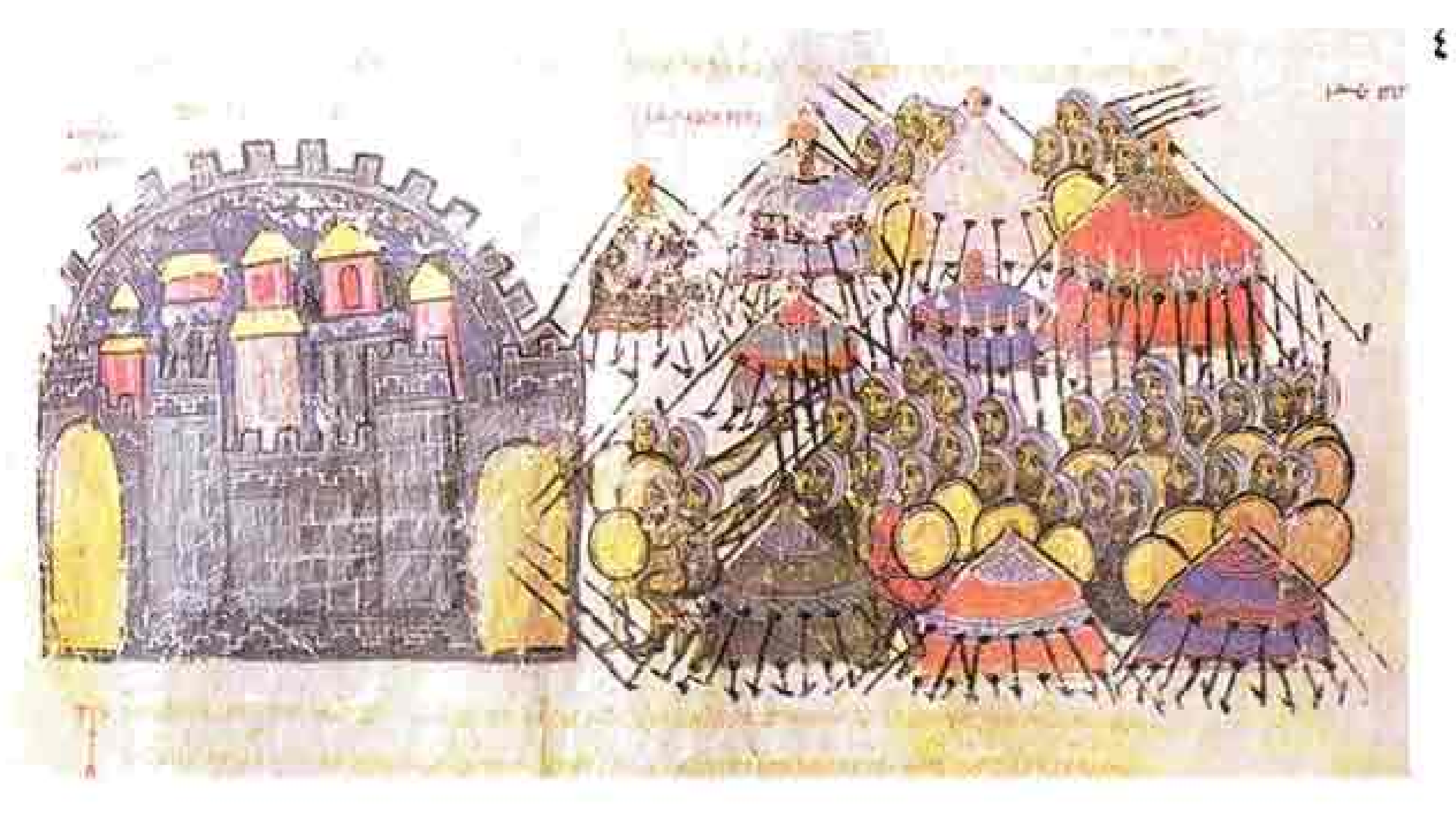
٣



خاصة ما يتوافق مع فهمهم لمبادىء الاسلام في التسوية والعدل وشرعية الثورة على الظلم .

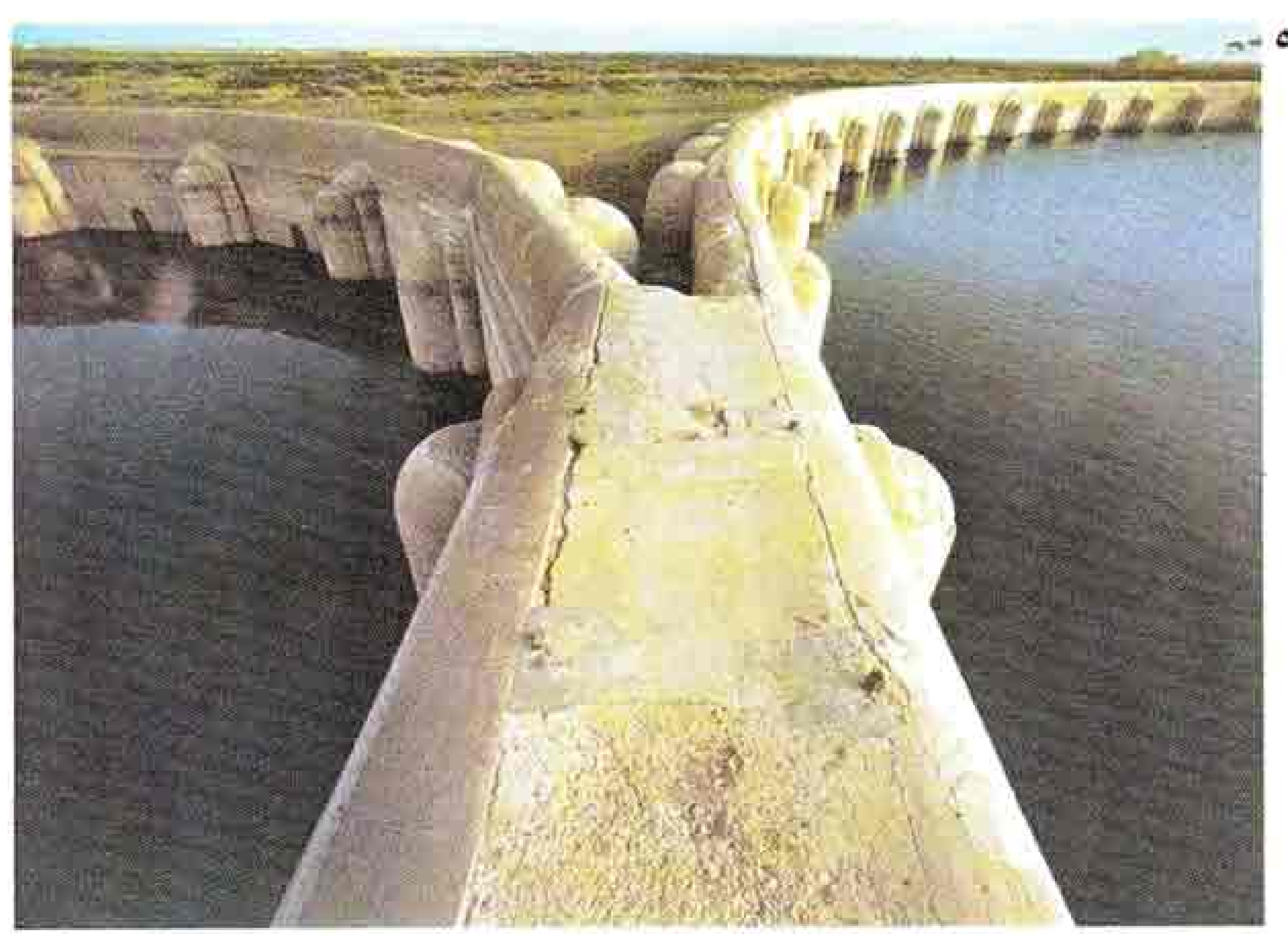
وفد على المغرب مذهبان من المذاهب الخارجية : الصفرية مع عكرمة الصفري الذي انتشرت افكاره في جنوب المغرب الاقصى . والأ باضية مع سلمة بن سعيد الا باضي الذي راجت أفكاره في المغرب الاوسط وحتى افريقيا وطرا بلس .

كان المذهبان ، رغم آرائهما السلمية في المشرق ، خميرة الثورة التي اندلعت سنة ٧٣٩ في المغرب كله . القوى التي جمعت وأرسلها الخليفة هشام بن عبد الملك هزمت مرة بعد مرة ، قبل ان تستطيع النصر سنة ٧٤٣ . لكن اضطراب الأمر في مركز الخلافة ، ثم سقوط الدولة الاموية سنة ٧٥٠ وانشغال العباسيين بالمشرق طويلا ، ترك افريقيا والمغرب منطقتين تواجهان وحدهما تقرير المصير .



٤

(٥) ـ المشاريع المائية كانت من أهم أعمال الأغالبة . عنى بها خاصة ابو ابراهيم أحمد بن الاغلب الذي بنى الماجل الكبير في القيروان . شرع ببنائه سنة ٨٥٩ وأتمه سنة ٨٦٢ . قطره ١٣٨ م . يسبقه ماجل صغير لترسيب الطمي وفي وسطه مجلس للأمير . في أواسط القرن الحادي عشر كان هناك ١٥ ماجلا غيره تجمع الماء للمدينة .



٥

(٤) ـ امتد فتح الأغالبة لصقلية ٦٦ سنة (٨٢٨ ـ ٩٠٣) . كان ملحمة طويلة لأن الامبراطورية البيزنطية كانت وراءها . اقتحموها حصنا حصنا . مزارة (سنة ٨٢٧) . بالرمو (سنة ٨٣١) . مسينا (سنة ٨٤٣) . ياني (سنة ٨٥٩) . سرقسطة (سنة ٨٧٨) . تورمينا (سنة ٨٩٢) وأخيرا انتهى الفتح بسقوط كوزنتسيا (سنة ٩٠٣) . وخروج الروم نهائيا منها . سجل مخطوط بيزنطي حصار مسينا للمؤرخ حنا سكيليتنرس .

عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، والي الامويين استغل الفرصة فأضحى شبه مستقل في الولاية . بعد ان قضى على ما قام من ثورات الاباضية ضده . وكانوا قد اختاروا اماما منهم في طرابلس ، كما فعل الصفرية من قبل في المغرب . لكن حكم بن حبيب انتهى بمقتله ، وانقراض بني حبيب من تلك المناطق ، وغلبة الجماعات الخارجية . العباسيون حاولوا دون طائل مد نفوذهم فيها ، الى ان استطاعوا السيطرة على افريقيا فقط بعد سنة ٧٦٨ .

الأغالبة ودول المغرب

سمح الرشيد للأغالبة بالحكم الوراثي في افريقيا ، ليكونوا قوة حدودية . وقد جعلوا عاصمتهم القيروان (١) مدينة الشمال الافريقي كله . قاموا بعدد من مشاريع الري (٥) والعمران ، ورعاية الثقافة . بنوا أسطولا بحريا هاما استطاعوا به ، بعد الجهد الطويل ، فتح صقلية (٤) والسيطرة على التجارة بين حوضي المتوسط . من ورائهم الى الغرب كانت تعاصرهم الدولة الرستمية في تاهرت ، والمدرارية في سجلماسة ، ودولة الأدارسة في شمال المغرب .

الخلافة الفاطمية

انتهت هذه الدول جميعا ـ عدا الأدارسة ـ مطالع القرن العاشر على يد الفاطميين . الداعية الفاطمي أبو عبد الله الشيعي استطاع نشر الدعوة الشيعية للامام الذي كان مختفيا في الشام ، واستفاد من القوى القبلية في الاستيلاء على افريقيا كلها . وجاء الامام عبيد الله المهدي فأعلن الخلافة الفاطمية في القيروان سنة ٩١٠ .

وطد المهدي وخلفاؤه خلافتهم الافريقية بقمع الثورات العنيفة وبناء العاصمة المهدية (٣) ثم المنصورة . وتزاحموا في النفوذ في المغرب وفي البحر مع أمويي الأندلس . سيطرتهم على جميع طرق التجارة والذهب بين افريقيا الغربية واوروبا مكنتهم من الغنى ، ومن تمويل الفتح الناجح لمصر والشام سنة ٩٦٩ بقيادة جوهر الصقلي الذي بنى القاهرة فورا لسيده المعز لدين الله فانتقلت الخلافة نهائيا اليها سنة ٩٧٣ . بلغت الخلافة الفاطمية أوجها في عهد الخليفتين العزيز والحاكم (الذي تأسس حوله المذهب الدرزي) ثم كان أكبر اسم فاطمي في القرن الخامس (١١ م) هو المستنصر أطول الخلفاء عهدا (٤٢٧ ـ ٤٨٧ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤) . تميزت خلافة الفاطميين بغناها ودعوتها الشيعية المنظمة (مركزها الجامع الأزهر) ونشاطها البحري التجاري وحضارتها الباذخة وقصورها الرائعة . عاصرت الحملة الصليبية حوالى ٧٥ سنة قبل أن ينهي صلاح الدين وجودها سنة ٥٦٧ / ١١٧١ .

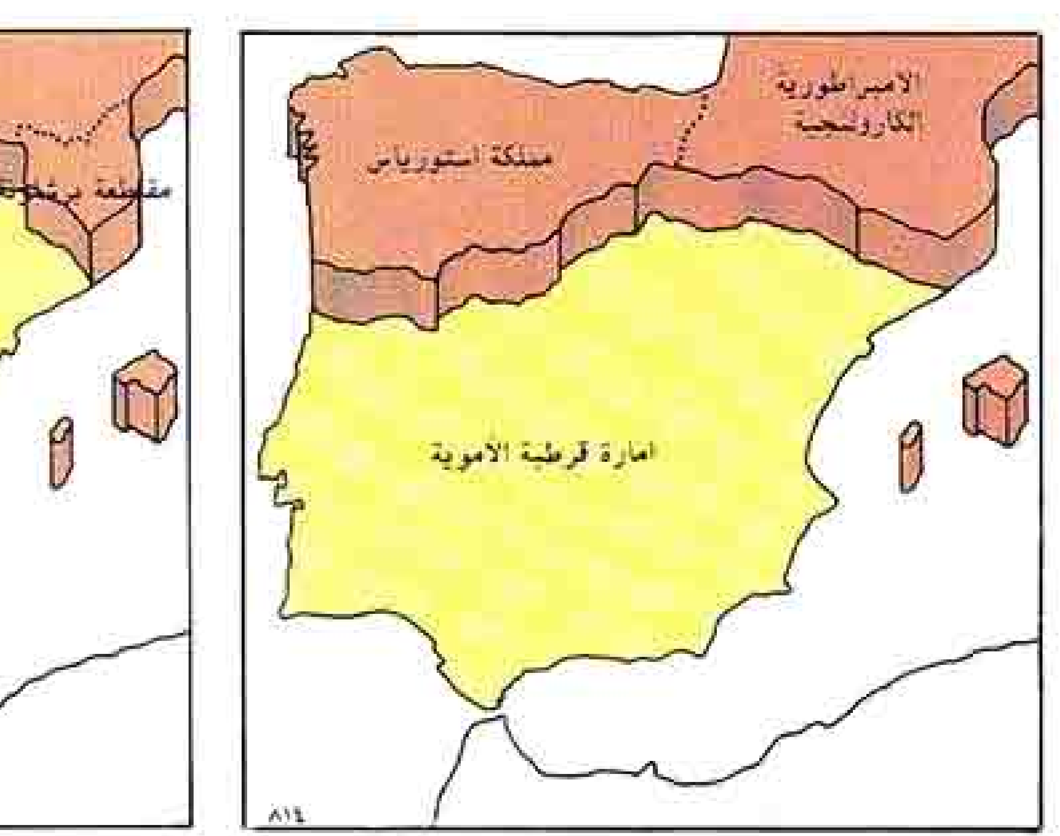
على ان انتقال الفاطميين الى المشرق وانشغالهم به ، أضعفا شأنهم في افريقيا والمغرب تدريجيا ، مما سمح باستقلال ولاتهم هناك . فظهرت في القيروان دولة بني زيري (٩٧٢ ـ ١١٤٨) التي خسرت صقلية أمام النورمنديين ، ودولة بني حماد في الجزائر (١٠٠٧ ـ ١١٥٢) . انتهت هاتان الدولتان بظهور الموحدين في المغرب (١١٣٠ ـ ١٢٦٩) بعد فترة المرابطين (١٠٥٦ ـ ١١٤٧) ، والسيطرة على المغرب الاسلامي كله حتى طرابلس ، مع الأندلس .

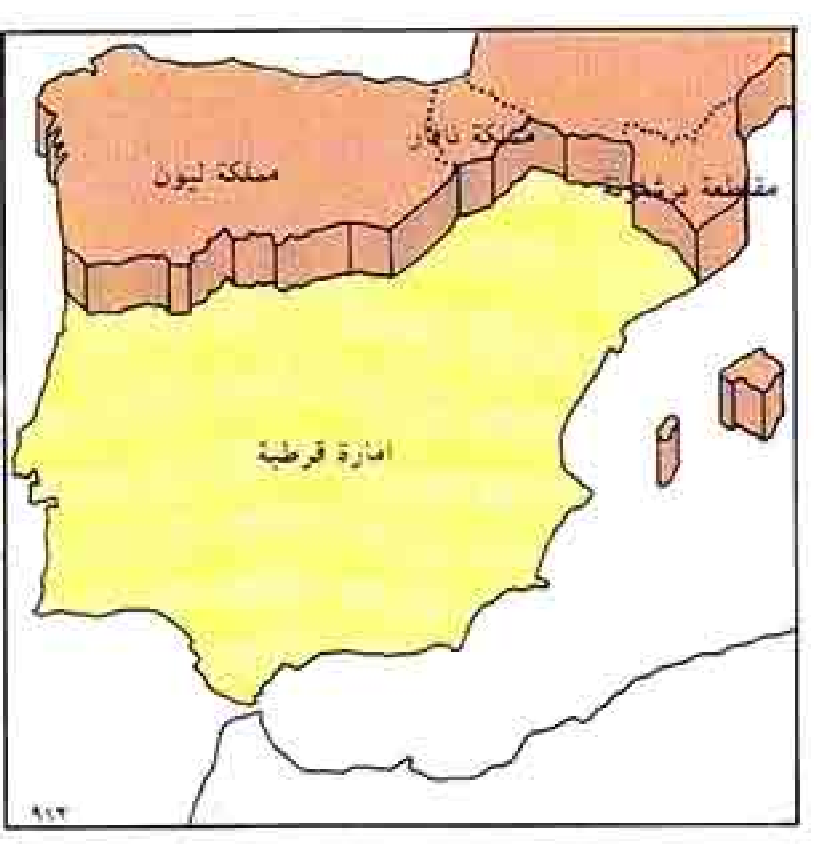
الأندلس (١)
عصر الامارة

تحولت الاندلس بعد مرحلة الفتح الاسلامي التي امتدت ما بين سنة ٧١٤ م / ٧٥٦ م الى رباط جهاد . كانت ولاية اسلامية بعيدة ذات تركيب معقد اثنولوجيا وسياسيا ودينيا . اشترك في الفتح العرب والبربر.

تزاحم السابقون واللاحقون من العرب والقيسيون واليمنيون منهم على منازل الارض والسيطرة . أما البربر فظلت فيهم رغم اسلامهم واستعرابهم اللغوي لغتهم البربرية وترابطهم القبلي . المهزومون بدورهم من القوط والايبيريين كانوا يحتفظون بالاقسام الشمالية الجبلية من اسبانيا . وظلت قواعدهم الشعبية على لغتها ونصرانيتها في المناطق المفتوحة لم يمسها الفاتحون .

١







الاراضي المسيحية
الأراضي الاسلامية
حدود داخلية ....

٢



(١) ـ تغيرت الحدود الاسلامية ـ الاسبانية دون انقطاع . التغير في القرن الثامن كان من جهة العرب . منذ مطالع القرن التاسع استقرت الحدود نسبيا قرابة القرنين . اعتبارا من أواسط القرن الحادي عشر بدأت حروب الاسبان الصليبية (الاسترداد) . أخذوا طليطلة سنة ١٠٨٥ . أهم غزواتهم جرت في القرنين ١٢ وخاصة ١٣ . لم يبق بعدها سوى غرناطة التي انتهت سنة ١٤٩٢ .

توالى على الأندلس في هذه الفترة ٢٠ واليا . امتلأت أيامهم بالخلاف المأسوي ، ولم يتوقف الجهاد ، ومشاريع الري والعمران . أشدها وطأة كانت الأعوام العشرة السابقة لظهـور عبـد الرحمـن الداخـل الأمـوي (سنة ٧٥٦) هناك .

تأسيس امارة الأندلس

في هذه السنة جرت معركة المصارة (على نهر الوادي الكبير) التي انتصر فيها هنا الامير الهارب من العباسيين على القوى المناوئة المحلية . كان دخوله بعدها الى قرطبة فتحا جديدا للأندلس . وصوله الى الحكم والمتغيرات السياسية التي جاء بها لم تنعكس على الاندلس فقط ، ولكن على نظام الخلافة الاسلامية . فاستقلاله كان أول انقسام في الدولة الاسلامية .

واجه عبد الرحمن عددا من المشاكل





(٢) ـ تقع طليطلة في وسط قشتالة . وكانت من الثغور الأندلسية . لكن تاريخها مفعم بالثورات . سكانها كانوا من المولدين . مثلها كانت لشبونة وسرقسطة . عوامل اجتماعية واقتصادية كانت تغذي ثوراتها . أخطرها ثورة ابن حفصون التي انتهت بضعفه المتمادي وتنصره قبل موته سنة ٩١٧ . آلت طليطلة أيام الطوائف الى آل ذي النون ثم كانت أول مكاسب الاسبان الكبيرة سنة ١٠٨٥ .

(٣) ـ كما برز الحمدانيون وسيف الدولة ضد الروم . تميز في الجبهة الأندلسية أسرة مغيث الرومي . واشتهر عبيد الله حفيد عبد الرحمن الداخل في عمليات الجهاد في الثغور التي كانت بدورها أيضا مضطربة الولاء . خلال هذه الحروب زرعت الحدود ـ كما في الشرق ـ بالحصون والقلاع التي يتداولها الطرفان . قلعة شقوبية منها . وكانت في الأصل عربية بنيت في القرن ١١ . أعيد بناؤها في القرن ١٤ نموذجا لقلاع قشتالة .

٣



الداخلية والخارجية ، نجح في التصدي لها بشجاعة . الأولى تنظيمية بحتة تتعلق بتوحيد المجتمع الممزق واصلاح الادارة وانشاء جيش غير متنافر قبليا أو عنصريا . المشكلة الثانية كانت التخلص من بقايا القوى المناوئة التي لجأت الى الشمال . أخطر منها كانت المشاكل الخارجية الثلاث :

ـ احباط محاولة الثورة التي دبرها الخليفة العباسي المنصور ضده .

ـ اخماد التحركات القوطية التي بدأت تطل في الشمال .

ـ التصدي للغزو الفرنكي الذي قاده شارلمان اشهر ملوك الكارولنجيين عبر جبال البرتات (البيرنة) ضد الاندلس بالاتفاق مع القوى الحاقدة الانفصالية ، وبالمساندة الكاملة من البابوية . فشل شارلمان ولقي جيشه في العودة أشنع الهزيمة (٧٧٨ م) . خلدت ذلك (انشودة رولان) المشهورة . جاء الداخل

٤

(٤) ـ تأثر كثير من الاسبان ، دون أن يعتنقوا الاسلام ، بالحياة الاسلامية وتقاليدها . وافتخروا بتكلم العربية ونظم الشعر . وهؤلاء هم المستعربون . ألفارو القرطبي ، أسقف قرطبة ، له كلمة مشهورة يتحسر فيها على ولع النصارى الاسبان بالأدب العربي والفلسفة الاسلامية بينما يهملون اللاتينية وشروح الأناجيل ، ويكتبون بالعربية ويزدرون الكتابة بغيرها . التأثير الاسلامي نفسه واضح في الفنون . حتى الرسم . في مخطوط لاتيني من القرن ١٣ نجد صورة لقطاف العنب وأعمال الحقل . وتظهر فيها التأثيرات الاسلامية بجانب تقاليد الرسم في القرون الوسطى .

٥



(٥) ـ الدنانير الأندلسية كانت مرغوبة جيدة العيار في أوروبا وحوض المتوسط . من نماذجها (أ) ثلث دينار ضرب في أفريقيا حوالى سنة ٧٠٤ . (ب) دينار من ضرب عبد الرحمن الثالث في الزهراء . (ت) دينار من ضرب عبد المؤمن أول الموحدين (١١٣٠ ـ ١١٦٣) .

بجيشه بعد ذلك فأنهى الثائرين .

مغامرة عبد الرحمن الداخل لم توطد فقط قواعد دولة أموية في الاندلس دامت قرنين ونصف القرن ، لكنها ايضا وطدت دعائم الحكم والحضارة الاسلامية هناك ثمانية قرون . بجانب الجهود السياسية والعسكرية ، قام عبد الرحمن الداخل خلال امارته التي دامت ثلاثا وثلاثين سنة (حتى سنة ٧٨٨) بعدد من الاعمال أثرت في تكوين الشخصية الحضارية للأندلس . منها تأسيس جامع قرطبة المشهور .

مشاكل الامارة الاندلسية

توالى على امارة الاندلس بعد عبد الرحمن سبعة امراء قبل أن تتحول في مطلع القرن الرابع الى خلافة على يد عبد الرحمن الثالث (٩١٢ ـ ٩٦٠) . كانت أيام عبد الرحمن الثاني الأوسط (٨٢٢ ـ ٨٥٢) وبعض أيام ابنه محمد (٨٥٢ ـ ٨٨٦) فترة الأوج في تاريخ الامارة ومجدها .

لم تكن حياة هذه الامارة بالهادئة ، ولا كانت مشاكلها بعد التأسيس أقل خطرا منها أيام المؤسس . عانت داخليا من تعقيد عناصرها السكانية والاجتماعية والدينية ، فعرفت عددا من الاضطرابات الخطيرة منها :

ـ ثورة الربض : (ضاحية قرطبة) . وقد اضطرب كله بتحريض الفقهاء ضد الحكم الأول (٧٩٦ ـ ٨٢٢) الذي أحرق الربض وطرد أهله (سنة ٨١٧) . قسم منهم هو الذي فتح كريت ، وانشأ دولة اسلامية فيها (٨٢٧ ـ ٩٦١) .

ـ حركات المولدين : (الذين أسلموا من أبناء البلاد) . كان سكان الثغور منهم يثورون وخاصة طليطلة (٢) . أخطر حركاتهم قادها عمر بن حفصون . استمرت خمسين سنة (٨٨٠ ـ ٩٢٨) وهددت قرطبة .

ـ حركات المستعربين : (الذين تكلموا العربية ولم يسلموا) . استغل رجال الدين جو التسامح فحرضوا جماعات منهم على الاستشهاد بشتم مقدسات الاسلام .

المشاكل الخارجية للامارة

من الناحية الخارجية عرفت امارة الأندلس الأموية أحداثا أخرى :

ـ هجوم الشماليين (الفايكنغ) : نهبوا اشبيلية (سنة ٨٤٤) ومدن الوادي الكبير ، ودمروا موانىء شرق الأندلس وجنوبها سنة ٨٥٩ قبل أن يسحق أسطولهم سنة ٨٦١ .

ـ فتح جزر الباليار : (سنة ٩٠٢) وكانت السيطرة عليها هامة استراتيجيا وتجاريا .

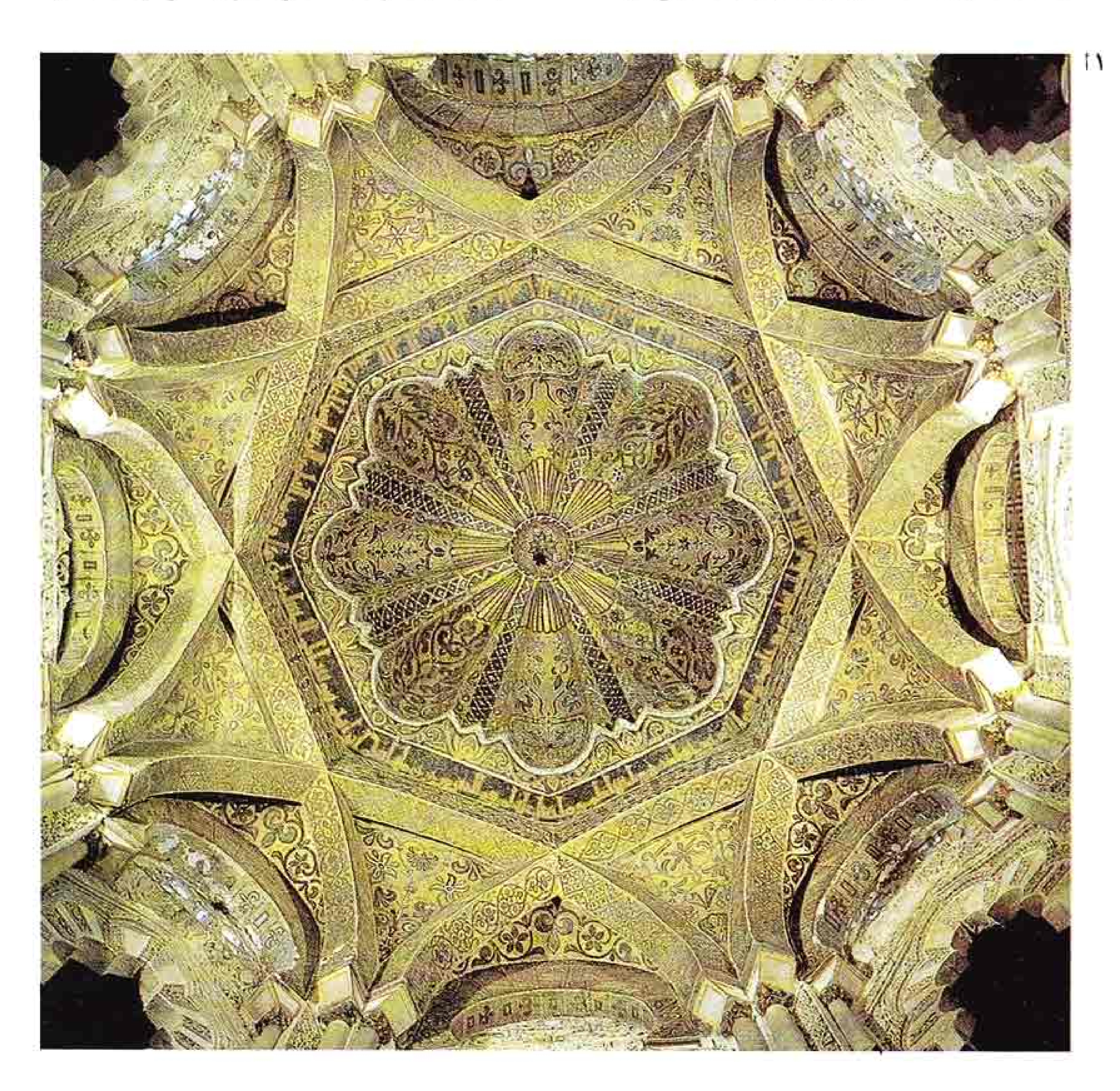
ـ صد هجمات الامارات الاسبانية في الشمال : وكانت تقوى وتتوحد بالدعم البابوي والفرنجي ، أخذت تسمى الهجمات حرب الاسترداد . تصدى للجهاد الدفاعي ضدها خاصة أسرة مغيث الرومي .

وأخيرا عانت الامارة الاندلسية في النصف الثاني من القرن التاسع أزمات داخلية شديدة أفقدت الحكم المركزي سلطانه (منها ثورة ابن حفصون) وتوزع الامراء المحليون حكم المدن (سرقسطة ، جاليقية ، بيشتر وغيرها). يسمي المؤرخون هذه الفترة بعصر الطوائف الأولى . أنقذ الامارة منه عبد الرحمن الثالث الذي أقام عصر الخلافة .

الأندلس (٢)
عصر الخلافة والطوائف

تولى عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) امارة الأندلس وهي غارقة في الاضطراب . عمل نصف قرن للنهوض بها . كان المؤسس الثاني . أعماله مدت في عمرها قرنا آخر رغم ضغط الظروف الداخلية والخارجية . أنهى عبد الرحمن ثورة آل حفصون بعد حرب متمادية لهم دامت ١٦ سنة . أخضع خلالها ايضا امراء الطوائف المستقلين . أنزلهم من حصونهم ونقلهم الى بلاطه للعمل في الجيش . حين انتهى من ذلك قضى ثماني سنوات أخرى في اخضاع أمراء الثغور الوراثيين ثغرا ثغرا : بطليوس (٩٢٨) ، طليطلة (٩٣٢) ، شنتبرية (٩٣٣) ، وأمراء الثغر الأعلى (٩٣٤) . أوقف خطر الدول القوطية الشمالية

٤١



بالقوة فلم يتغير الشريط الحدودي الشمالي في عهده . في الوقت نفسه دخل عبد الرحمن في زحام سياسي عسكري اقتصادي مع الخلافة الفاطمية التي نبتت سنة ٩١٠ قبيل مطلع عهده في افريقيا ، وأخذت المغرب ، وحاولت الامتداد الى الاندلس . قارعها طويلا في العمليات التجارية والعسكرية وفي المؤامرة والتجسس والدعاية والنزاعات القبلية . احتل بعض الموانىء والبقاع في المغرب . وأمام لقب الخلافة الذي اتخذه الفاطميون اتخذ عبد الرحمن ايضا لقب الخليفة (أواخر سنة ٣١٦ / ٩٢٨) وأمير المؤمنين . فلما انتقلوا الى مصر سنة ٩٦٩ استراح خلفاء الاندلس منهم .

عصر الخلافة الأموية

بعد ربع قرن من الجهد العسكري والسياسي عادت الاندلس دولة متماسكة قوية

ب



وكانت أروقته تغص بالعلماء والفقهاء والطلاب . وما يزال يدهش الزائرين في روعة بنائه وغابة أعمدته الرشيقة المتراكبة وزخرفته ومحرابه وقبة المحراب من الداخل (أ) . أبعاد هذا الجامع واسعة (١٨٢ × ١٣٢ م) ويشبه المسجد الأقصى في مخططه المستطيل . بنى عبد الرحمن الثالث منارته المربعة سنة ٩٥١ . بعد سقوط قرطبة أقيمت في قسم منه كاتدرائية .

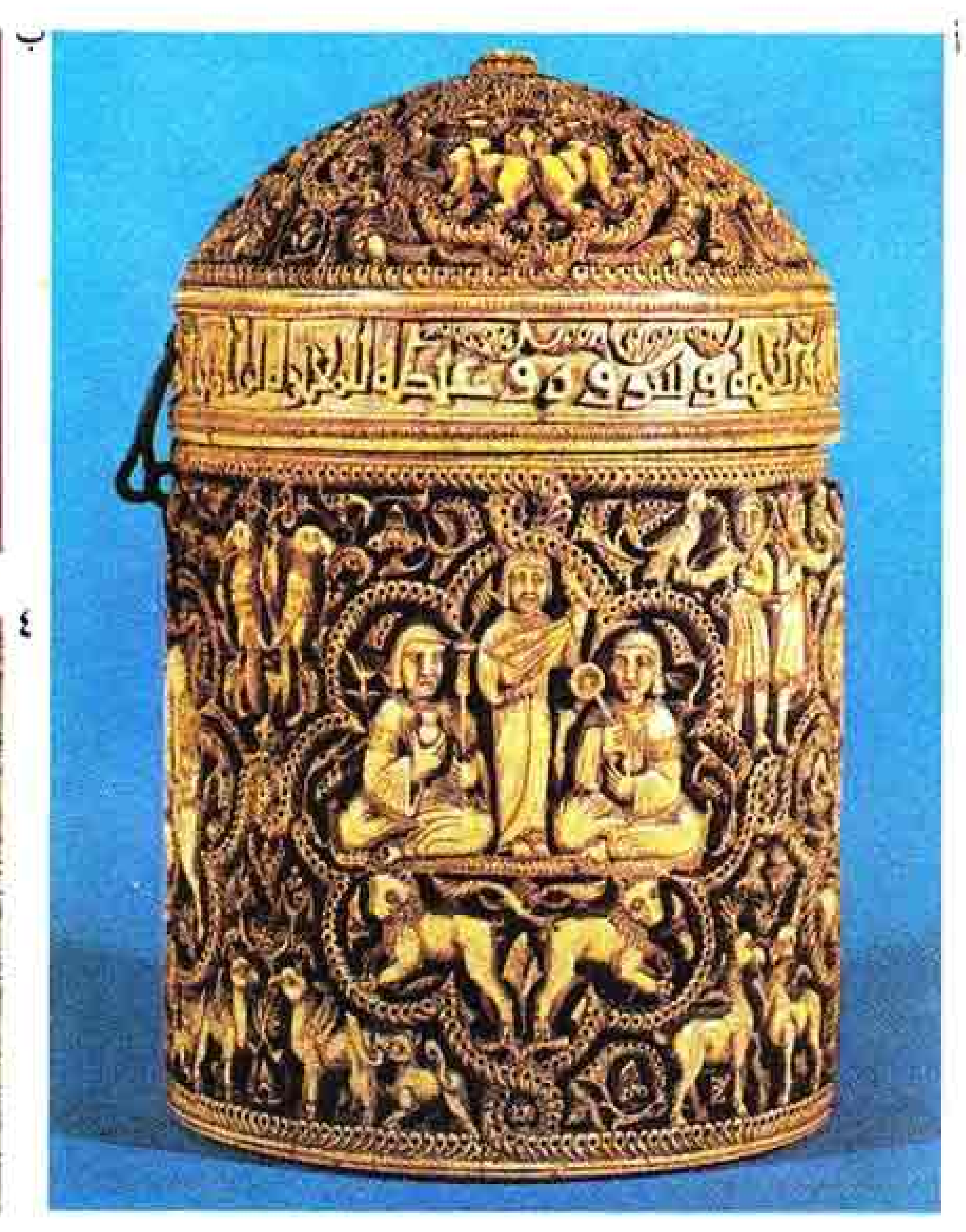
٢

(١) ـ عنى الأمويون في الأندلس ، كما في المشرق ، بالعمران والبناء . بنوا عددا من المدن منها مرسية (سنة ٨٢٥) والمرية (سنة ٩٥٥) وأعادوا بناء لاردة (سنة ٨٨٣) كما بنوا في شواطىء المغرب مدنا تجارية منها وهران (سنة ٩٠٣) وتنس (سنة ٨٢١) وأصيلة داخل المغرب ، عدا بناء الزهراء والزاهرة حول قرطبة ، وبناء الحصون الكثيرة وعدد من الجوامع الكبرى في اشبيلية وجيان ولاردة والمرية وغيرها . وأعظمها دون شك مسجد قرطبة العظيم (ب) الذي استمر بناؤه والاضافة اليه حوالى قرنين . وترك فيه كل أمير أثرا .

(٢) ـ صارت قرطبة زمن عبد الرحمن الناصر (النصف الأول من القرن العاشر) واحدة من مدن العصر الثلاث العظمى ، بجانب بغداد والقسطنطينية . أغلى الجواهر والتحف والجواري والكتب لم تكن تجد سوقا رائجة في غيرها . أحياؤها والأرباض (٢١ ربضا) تزدحم بالمنازل والقصور (٦٣٠٠) والمساجد (٣٨٧٧) وبمئات الفنادق والحمامات . وتبلغ حوانيت المتاجر فيها ٨٠ ألفا وبيوت السكنى ٢١٣ ألف منزل لأكثر من نصف مليون من السكان ، عدا الغرباء والعابرين والجند .

حول قرطبة (٢) ، صارت من أبرز الدول يومذاك غنى وقوة وتنظيما وحضارة . كانت تسيطر بموقعها وبجزر الباليار وما يتبعها من (جبل القلال) جنوب فرنسا على تجارة الحوض الغربي للمتوسط .

الحكم الثاني المستنصر الذي خلف أباه كان مثقفا أكثر مما كان سياسيا أو عسكريا . ترك شؤون الدولة لمساعديه . نشأ نتيجة لذلك بجانبه مجموعتان من القوى : الخدم الصقالبة ورجال البلاط . بعد موته استطاع محمد بن ابي عامر اليماني المنصور ان يستأثر بالسلطة . كان اقوى شخصيات البلاط بجانب الخليفة الصغير (هشام الثاني المؤيد ٩٧٦ ـ ١٠١٣) . تأيد مركزه بغزواته الموفقة في الجهاد (٥٢ معركة) وبنجاحه في تغيير بنية الجيش ، ومرونته السياسية ، وحبه الأدب وشعبيته ، حتى غطى على الخلافة . سمى المؤرخون عهده بالدولة العامرية . حين توفي





٣ أ ب ٤

(٣) ـ حفر العاج . هذه الحرفة الفنية الارستقراطية اشتهرت بها قرطبة المدينة العالمية الغنية . ما بين القرنين العاشر والحادي عشر . حين انهارت الخلافة الأموية ونهبت قرطبة لجأ نقاشو العاج مع غيرهم من الحرفيين الى كوينسا في رعاية ملوك طليطلة . من العاج القرطبي . علبة اسطوانية (أ) صنعت لرجل اسمه المغيرة سنة ٩٦٨ . وصندوق صنع لولي العهد هناك سنة ١٠٤٩ (ب) .

(٤) ـ الزهراء مدينة ـ مأساة . بدأ بناءها عبد الرحمن الناصر سنة ٩٣٦ بجانب قرطبة بالرخام والذهب والتماثيل والنوافير وبركة الزئبق وأقفاص الوحش والطير . وأتمها الحكم المستنصر سنة ٩٨٥ . حتى أصبحت فتنة الناس . كانت تضم ١٣ ألف ساكن . لكنها خربت سنة ١٠٠٨ فلم يبق منها الا بعض الآثار والنقوش كهذه النافذة . مثل ذلك كان مصير مدينة (الزاهرة) التي بناها المنصور بن ابي عامر سنة ٩٧٨ في تسع سنوات فلم تعش سوى ثلاثين سنة ودمرت في ثورة المهدي ضد العامريين سنة ١٠١٠ الذي استصفاها وأباحها .

بعد ٢٦ سنة من الحكم سنة ١٠٠٣ ، ترك فراغا لم يستطع أولاده ولا الخليفة سداده . فعانت خلافة الأمويين تدهورا سريعا ما لبث ان صار أمرا واقعا بوفاة هشام الثاني سنة ٤٠٣ وعدم قيام خلف له .

ملوك الطوائف

تمزقت السلطة بين عدد من الامراء في مدن الاندلس . عاشوا فترة في « وهم الخلافة » حتى اعلن وزير قرطبة ابن جهور الغاء الخلافة سنة ١٠٣١ . كان عصر ملوك الطوائف قد بدأ قبل ذلك بعشرين سنة .

عادت الاندلس مع هؤلاء الملوك في القرن الخامس هـ / ١١ م دويلات صغيرة اتخذ اصحابها الالقاب الملكية ، منهم بنو جهور في قرطبة ، وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو هود في سرقسطة ، وبنو زيري في غرناطة وغيرهم .

تميز في هذه الفترة مجاهد العامري (ت سنة ١٠٤٤) صاحب دانية وجزر البليار بقوته البحرية التي سيطرت على الحوض الغربي للمتوسط . حتى في عهد ابنه علي (ت سنة ١٠٨١) . هذا التمزق السياسي وما نجم من الحروب والمؤامرات شجع الدويلات الاسبانية على توحيد مواقفها والبدء الجدي في حرب الاسترداد الصليبية مدعومة من البابوية ومن الفرنجة . كان اعظم انتصاراتها المبكرة سقوط طليطلة بيد ملك قشتالة سنة ١٠٨٥ مما أدى الى تحرك المرابطين من المغرب ، وتدخلهم لحماية الاندلس مبتدئين باشبيلية بلد المعتمد بن عباد .

حضارة الأندلس الأموية

الصورة الحضارية لأندلس الأمويين تختلف تماما عن الصورة السياسية ، حتى في عهد ملوك الطوائف . التألق الحضاري الذي جعل قرطبة واحدة من مدن الدنيا كان نتيجة ثلاثة قرون من الفعالية والتطور .

اهتم الأمويون بتطوير الزراعة وجلب الزراعات الجديدة (كالنخيل والنارنج) وتنشيط التجارة العابرة بين المغرب وأوروبا. وكانت الأندلس بين القرنين التاسع والحادي عشر حلقة اساسية في دورة الذهب العالمية المتحركة بين غرب افريقيا واوروبا ، كما كانت مدنها ومرافئها سيدة التجارة العالمية في الحوض الغربي للمتوسط . وانعكس ذلك بوضوح في البذخ العمراني ورفاه الحياة .

غنى الدولة ظهر في تضاعف وارداتها زمن عبد الرحمن الثالث دون فرض ضرائب جديدة ، وفي تجاوزها أزمات الجفاف والطواعين . وفي أعمالها العمرانية الضخمة التي كان منها مئات المساجد والأسوار والقلاع والجوامع الكبرى ، وعدد من المدن (١) .

حضارة الاندلس كانت متأثرة بالمشرق في فتراتها الأولى خاصة . تقلده في العمران والثقافة وتقاليد المجتمع . واذا اتبعت المذهب المالكي بدل الاوزاعي ، منذ عهد الامير الثاني هشام ابن الداخل ، فان علوم الدين والاداب والشعر والعلوم الأخرى كانت مستمدة أو مقلدة أو مكملة لما ينتجه المشرق . الشهرة التي نالها زرياب مغني الرشيد في الاندلس ، وتأثيراته الاجتماعية والثقافية كانت رمزا لكل ذلك . لكن الاندلس بدأت التميز باساليبها وأذواقها الخاصة منذ عصر الخلافة . ودللت على تميزها في الشعر والموشحات والازجال وفي اساليب البناء والتزيين الكثيف والفنونوحياةالمجتمع.

الجيش والاسطول

كان فرض الجهاد على المسلمين بعد الهجرة ، وتكوين قوة عسكرية منهم تنتصر في معركة بدر ، نقطة تحول في تاريخ الاسلام . الدولة الاسلامية بدأت بذلك وجودها الفعلي . مغازي الرسول أثبتت فاعلية الجهاد والايمان في الدفاع وفي نشر الدعوة . بالنصر على الردة اجتازت دولة الاسلام أول ازمة كبرى هددتها بالتمزق .

حركة الفتوح جمعت هذه المعاني والقوى معا . العرب وحدهم كانوا قوام الجيوش الفاتحة . الموجة الثانية من الفتوح (١) زمن الوليد بن عبد الملك كانت أصعب لتناقص الغنائم وتضخم عطاءات الجند وطول المسافات بين المقاتلين وقبائلهم . تطوع فيها اهالي



(١) ـ كان الحصان جزءا أساسيا من عملية الحرب الاسلامية منذ الفتح حتى نهاية العصر المملوكي . للمشاة دورهم واستعمل بعض الملوك الفيلة في المشرق لكن الخيل كانت دوما أداة الحرب . الفارس (أ) تمثال خزفي من القرن الثاني عشر (صنع الرقة) والرسمان (ب) و (ت) على الخزف من العراق ومصر (القرنان ١٠ و١٣).

الحدود في خراسان والشمال الافريقي على أساس الرزق . لكن العرب ظلوا يحتكرون العطاء وصناعة الحرب والتسجيل في الديوان ، في نوع من الجندية الاجبارية . مقامهم كان خاصة على الحدود وكثيرا ما كانوا يجمَّرون اي يمنعون من العودة في الشتاء الى أهلهم . أو كانوا هم انفسهم يتثاقلون عن الحرب فتضع الدولة مكانهم في العطاء جنداً آخرين .

الجيش العباسي

العهد العباسي : أتى معه الى الجيش بعض التطور . فقد برزت القوى العربية القادمة مع الثورة العباسية من خراسان وبرز ابناؤها من بعدها وكونوا جيشا نظاميا تابعا للدولة . خلال ذلك كثر المسلمون من غير العرب ودخلت جماعات منهم في الجيش وبخاصة من خراسان نفسها . بينما كان العرب انفسهم ينصرفون ـ مع توقف الفتوح ـ

٢ أ



ب

ت

٣

(٢) ـ كانت بعض الأسلحة الفردية بجانب عملها الحربي تتحول بالأعمال الفنية الى حلية وزينة . ثمة كميات من الاسلحة المزخرفة والمنقوشة بالكتابات او المكفتة بالذهب والفضة كانت تستخدم في العادة للاستعراضات العسكرية التي كانت تجري باستمرار يستعرض فيها الخليفة أو الأمير بكامل لباسه الحربي قواده ويوزع الجوائز أو زيادة الرزق . في (أ) بوق عاجي من مصر الفاطمية (القرن ١٠ ـ ١١) وفي (ب) مقبض سيف من العاج صنع قرطبة وهي في أوج اتقانها لحفر العاج في القرنين ١١ ـ ١٢ . أما (ت) فهو سيف ابي عبد الله الصغير .

(٣) ـ عملية الحصار وهي لب العملية العسكرية الهجومية . صورها الفنانون المسلمون كثيرا . من ذلك هذه الصورة على طبق من الفضة نرى فيها الرماة في أعلى القلعة والفرسان حول السور .

عن الخدمة العسكرية والعطاء ، وعن الجيش النظامي ، الى اعمال الدولة والحياة المدنية . لم تعد طرائقهم ايضا في القتال صالحة لتطور آلة الحرب العباسية التي اضحت تعتمد السلاح الثقيل وحرب الحصار وتنظيم رماة السهام والفرسان واستخدام النفط والمجانيق وقذف الابراج مما يتطلب الخبرة والتدريب الطويل في الثكنات .

رأى المعتصم اهمال العرب لصنعة الحرب فأسقطهم من الديوان . وخاف الجيش الخراساني فاختار ان يجعل جيشه من العبيد المرتزقة . وهكذا بالغ في شراء الاتراك (٥) فلم يمض وقت قصير حتى صارت القوى المسيطرة في الجيش منهم ، مع وجود الديلم والفرس والزنج والعرب فيه . سرعان ما وقعت بغداد بما وقعت به روما من قبل ، من سيطرة قادة الجيش الترك هؤلاء سيطرة جرت الخلافة الى الحضيض .

٤



٥

(٤) ـ على هذا الطبق الخزفي الذي صنع ورسم في ايران في القرن الثالث عشر صور الخزاف الفنان معركة حربية كاملة ، تخليدا على ما يظهر لانتصار أصحابها الذين كتب اسماءهم بجانب صورهم أثناء حصار أحد الحصون . ونرى المنجنيق والفيلة في جانب من الصورة .

---

(٥) ـ اعداد الجيوش اختلفت من عصر لعصر ومن دولة لدولة . جيش العراق في القرن التاسع كان حوالى ١٣٥ ألفا بالاضافة للمتطوعين . ملابس الجند اختلفت بدورها حسب العصور . المماليك الترك كانوا مادة الجيش منذ القرن التاسع . في رسم جداري بسامراء (من القرن ٩) يظهر هذا الجندي وهو يحمل غزالا .

تكوين الجيوش الاسلامية التالية :

الجيش الفاطمي كان فرقا منظمة بالتطوع والرزق على الاساس العرقي . فهناك الزنج والمغاربة والعرب والأرمن والترك . وكان في القيادات بعض الموالي من المعتقين . السلاجقة حاربوا بجمهرة الشعب التركماني من الغز . لكنهم سلموا اعظم القيادات لأمراء الأسرة او لمماليكها الذين حمل معظمهم لقب أتابك (ومنهم آل زنكي) . الايوبيون عادوا الى تكوين الجيش من المماليك المشترين فما لبث هؤلاء أن أخذوا الحكم منهم ، وكونوا دولة المماليك التي استمر سلاطينها على التقاليد نفسها وتكوين الجيش من عبيد مختلف الأمم .

نظام التعبئة للقتال تطور مع القرون . كان في عهد النبي صفا واستخدم العرب في الفتوح ومن بعدها الكتائب ونظام الخميس (جناحان قلب ومقدمة وساقة) . كان يرافق الجيش النفاطون والنقابون وضاربو المجانيق والعيون (الجواسيس) والحدادون والنجارون ، عدا القضاة والاطباء والمؤذنين والقراء والحمالين والباعة . رغم بقاء السيف (٢) والرمح والسهم والدروع أسلحة فردية اساسية فقد تطورت لدى العرب الاسلحة الجماعية : مثل راميات السهام والمنجنيق والدبابة وأدوات النفط وصنعة الأبراج (٣) وآلات النقب . وظهر على الحدود البيزنطية وفي المغرب نظام الأربطة ، وهي حصون للمتطوعة يقيمون فيها للعبادة والحرب ، واحيانا لفداء الأسرى او الانذار بالأخطار .

الاسطول :

تعامل العرب مع البحر منذ أقدم الأزمنة . قبل الاسلام بقرون طويلة كانت لهم اساطيلهم في المحيط الهندي والخليج العربي . الفتوحات العربية الاسلامية وان كانت برية الا انها سرعان ما احتاجت الى الأسطول وبنته في البحر المتوسط منذ عهد عثمان بن عفان . حقق هذا الأسطول نصره الكبير في ذات الصواري سنة ٦٥٤ . عنى الأمويون بعد ذلك بأساطيل البحر وان دمر الروم اسطولهم في شرق المتوسط قبل سقوطهم بثلاث سنوات ، بسبب الحرب الاقتصادية بين الطرفين . العباسيون كانوا قاريين . أهملوا البحر .

الاسطول التجاري الاسلامي في القرن الثالث والرابع وصل الصين وشرقي افريقيا . أما في البحر المتوسط فكان البحر للدول الاسلامية المنفصلة مثل الطولونيين والاغالبة وكريت وجزيرة ميورقة . ثم ظهرت البحرية الفاطمية في القرنين الرابع والخامس . كان الصراع الاقتصادي السياسي بينها وبين البحرية الايطالية خاصة احد اسباب الحروب الصليبية التي سيطرت فيها الاساطيل الاوروبية على هذا البحر وتجارته .

كانت سفن المحيط الهندي تبنى بربط الخشب بالألياف بينما تجمع في البحر المتوسط بالمسامير ، أما السفن الحربية فكانت عامة نوعين ، كبيرة كالبوارج تتسع الواحدة لألف رجل ، وصغيرة كالطرادات لا تتسع لأكثر من مائة . وتزود البوارج بالمجانيق والابراج وآلات قذف النار . وثمة أنواع أخرى منها البدن والبغلة والجفن والحراقة .

استخدم العرب منذ القرن الحادي عشر على الأرجح البوصلة لتوجيه السفن . وكانت الملاحة لديهم علما له كتبه وجداوله ومعارفه .

المجتمع الاسلامي

قامت الدولة الاسلامية بعد الفتوح وتحت اجنحتها عناصر شتى من قوط وبربر وقبط وآراميين وفرس وترك ، يدين معظمهم بالمسيحية ، عدا الفرس الذين كانوا على المجوسية (الزارادشتية) . كانت هذه الشعوب تتكلم لغات شتى منها اللاتينية والبربرية واليونانية والسريانية والفارسية . الفتح جعل الطبقة العليا الحاكمة من العرب ، وجعل دينهم الاسلامي هو الدين الأول ولغتهم هي اللغة الأولى .

على هذا الأساس ترتبت طبقات المجتمع الاسلامي الأول . الفاتحون المسلمون هم الطبقة الاولى ، والآخرون هم في « ذمة » المسلمين . لم يمض قرنان على ذلك حتى

١

(١) ـ طبقة الخاصة كانت تعني الطبقة الارستقراطية في المجتمع الاسلامي . لم تكن مغلقة . كان يدخل فيها بيت الخلافة وآل البيت كما يدخل الكبراء في الوظائف والحكام ورجال المال والتجارة وقادة الجند . ملامح من حياة الخاصة نجدها في الصورة ، فثمة رسم الولادة والقابلة مع الخادم تعينان السيدة . بينما وقفت جاريتان بالماء الساخن والثياب . وفي الأعلى والد الطفل ينتظر . بينما أحد الشيوخ يدعو في جانب وآخر يستخرج طالع المولود في الجانب الآخر (من رسم الواسطي سنة ١٢٣٧) .

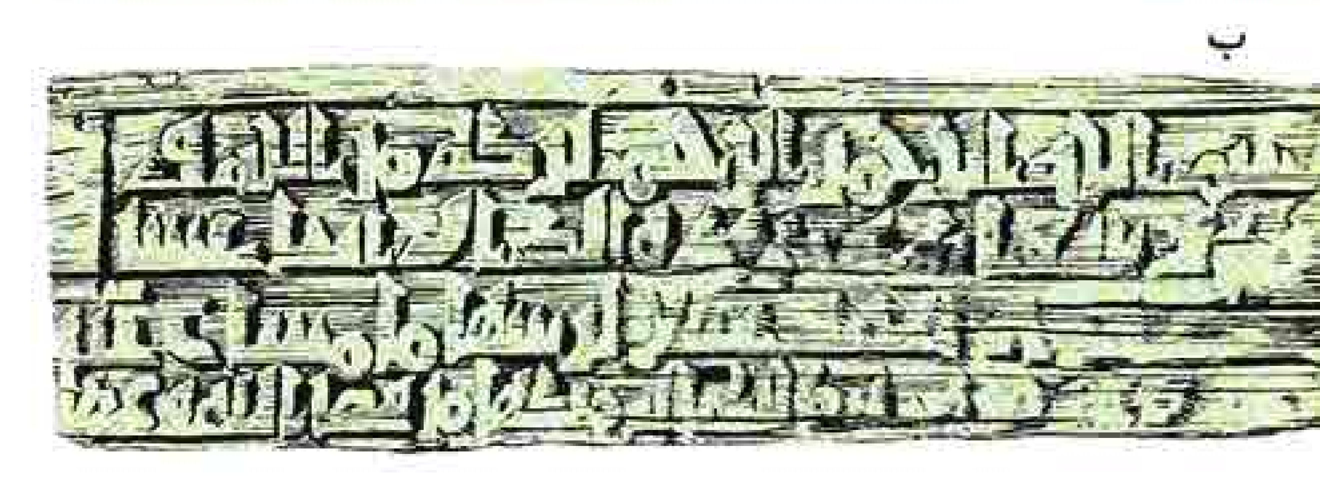
---

(٢) ـ نستطيع أن نعد في المدن الاسلامية ما يزيد على ٤٠٠ حرفة (صنف) لكل منها تقاليدها وأسواقها الخاصة وأخلاقها وحاميها من الأولياء والانبياء . وفيها المراتب من شيخ الكار . الى المعلم ثم الخلفة ثم الصانع ثم المبتدىء . الانتماء للصنف له شعائر احتفالية أهمها الشد والقسم . تتم رقابة الدولة عليها من قبل المحتسب وشيخ الكار . في

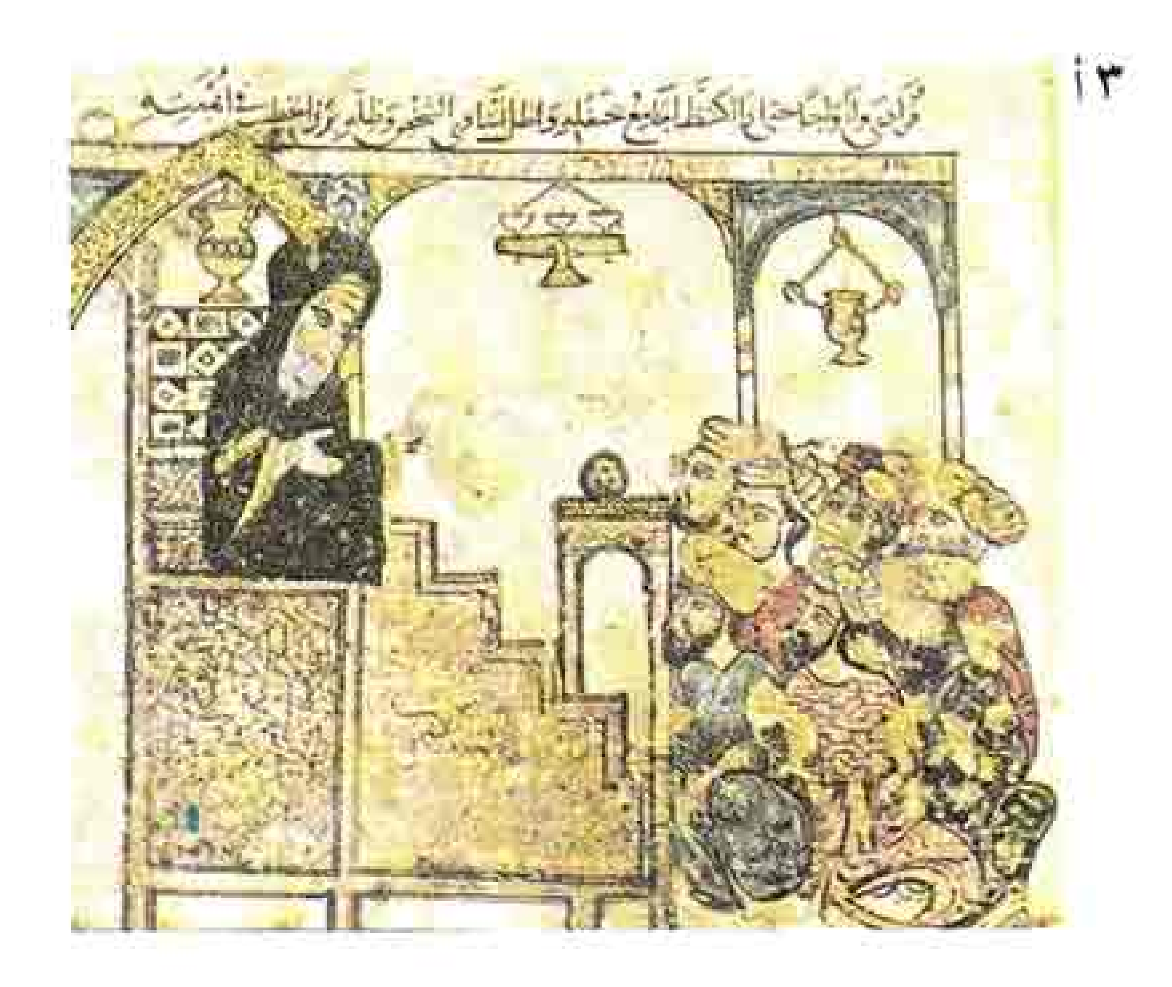
تبدلت الصورة تماما بتكاثر المسلمين غير العرب ، وانتشار اللغة العربية بين رعايا الدولة . بقيت بعض البقايا من الصورة الاولى ، لكن المجتمع الاسلامي صار ذا طبقات متداخلة معقدة بعض التعقيد : دينيا ، كان هناك المسلمون وأهل الذمة (من النصارى والمجوس) ولكل جماعة تنظيمها الديني . من الناحية الاجتماعية ، ظهرت على أساس السلطة والمال طبقتا الخاصة (١) والعامة . تشمل الأولى الحكام وكبار الموظفين والعلماء والمتمولين والملاكين والتجار سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، والثانية مجموعة من الطبقات فيها التجار الصغار والباعة وأصحاب الحوانيت والحرفيون وفيها الزراع والحراثون وفيها الحمالون وأهل الكدية والشطار والعيارون ممن يسمون بالغوغاء . كانت هذه الجماعات كثيرة العدد جدا في المدن الكبيرة كبغداد والقاهرة

٢ أ

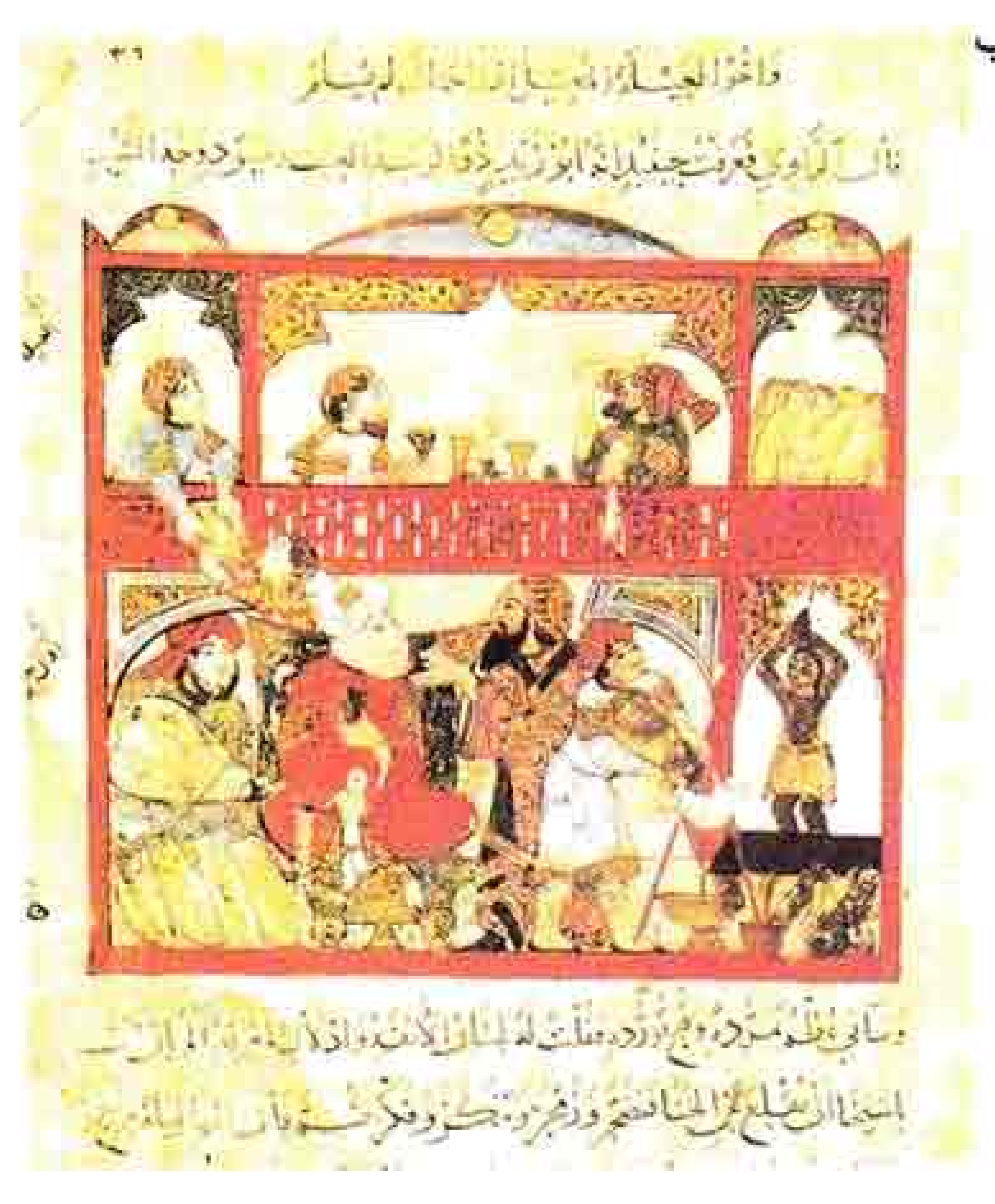
ب



٣ أ



ب



(أ) نجار يعمل (ب) تملك دكان بالفسطاط (القرن ٩) .

(٣) ـ حياة التدين والجد (أ) وحياة اللهو (ب) كانتا تتجاذبان المجتمع الاسلامي ولهما في كل عصر أجواءهما الكاملة . حفلت كتب الأدب خاصة والتاريخ بذكر أخبار الوعظ والزهد والتصوف كما تحدثت عن الأغاني والجواري واللهو والملذات حتى لدى الطبقات الشعبية .

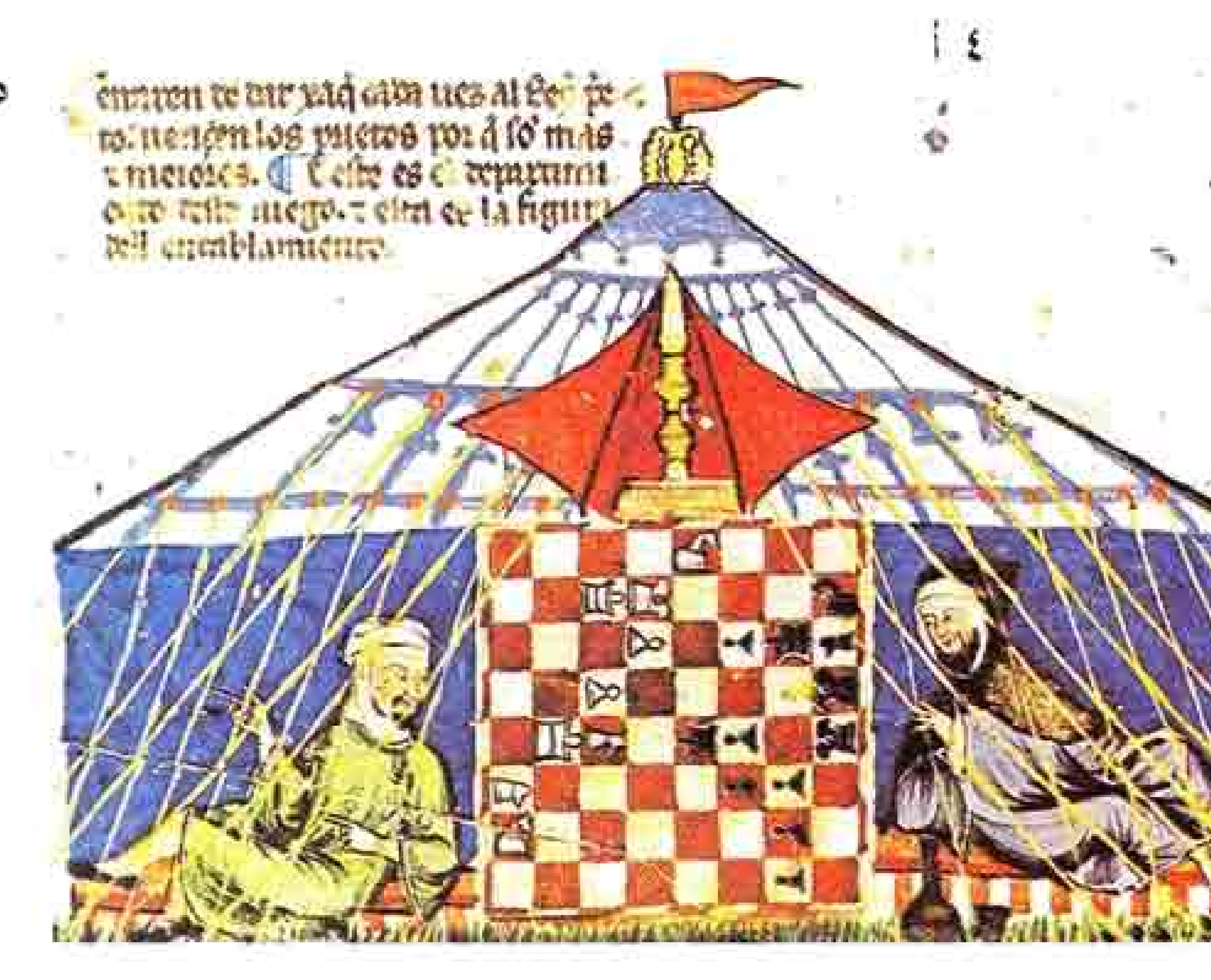
وقرطاجة ، ولها خطرها وثوراتها ، كما ان لها أحيانا تنظيماتها ورؤساءها ودورها السياسي . تأتي بعد هذه الطبقة ، طبقة أدنى منها هي طبقة العبيد ، وهي بدورها طبقات ، عناصرها من مصادر شتى ، تركية وصقلية ورومية وزنجية وهندية .

دخول العبيد الترك في الجيش منذ عهد المعتصم فتح لهم باب السياسة والحكم . صاروا قواد الجيش والسياسة ، ما بين اواسط القرنين التاسع والعاشر ، والمسيطرين على الحكم والثروات والأرض .

تعقد البنى الاجتماعية

ازدادت البنى الاجتماعية تعقيدا بعد ذلك ، فقد قدمت مجموعات الجيش الفاطمي من المغرب (ومعظمها من قبائل البربر) وقدمت من المشرق جموع الترك السلاجقة ، فصار هؤلاء وهؤلاء هم الطبقة السياسية ـ

٤ أ



ب



٥



(٤) ـ لعبة الشطرنج كانت من ألعاب التسلية الارستقراطية يتبارى فيها الخلفاء والكبراء ويتأنقون في رقعتها وحجارتها . في (ب) حجر شطرنجي للشاه صنع من العاج المزخرف في القرن العاشر أو الحادي عشر . أما اللعبة فنراها بين لاعبين من العرب (أ) في معسكر حربي . والصورة مأخوذة عن مخطوط لاتيني كتب سنة ١٢٨٣ محفوظ في الاسكوريال .

(٥) ـ جمهرة المجتمع الاسلامي كانت من المزارعين وتعيش في الريف ، هي أصل الثروة وتعاني من الكوارث الطبيعية والحربية . تجلت العناية بالزراعة في مشاريع الري ، كالنواعير والصهاريج والسدود ، وفي الكتب التي ألفت للفلاحة . الصورة رسمت لقصة حب أندلسية (قصة رياض وبياض) مخطوط في الفاتيكان من القرن ١٣ .

العسكرية الأولى في الشرق العربي . كان في هذه الطبقة ايضا مماليك للخلفاء الفاطميين ولسلاطين السلاجقة تسلموا القيادات . في الوقت الذي كان فيه العرب البدو يخرجون من الجزيرة العربية وينساحون في العراق والجزيرة والشام ومصر حتى شمالي افريقية (الهجرة الهلالية) . زال الفاطميون بعد ذلك وخمدت الحركة البدوية مع الحروب الصليبية . لكن النظام السلجوقي عاش مع الاتابكة والايوبيين ليفتح المجال للمماليك (وهم قادة الجيش) كي يصبحوا هم الحكام والطبقة الأولى الاجتماعية والعسكرية والسياسية في المجتمع الاسلامي (٣) .

المجتمع في العهد المغولي ـ المملوكي

هكذا ، في أواخر القرن الثالث عشر ، كانت الصورة القديمة قد اختلفت . المجتمع الاسلامي في ايران كان على حاله القديم ولكن تعلوه طبقة المغول الحكام (بعد انهيار بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨) وقد استعاد باللغة الفارسية خصوصيته ضمن الاطار الاسلامي .

أما في الشام ومصر فقام تحالف مصلحي بين ثلاث طبقات : المماليك والعلماء وكبار المتمولين . صارت هي طبقات المجتمع العليا مقابل الطبقات العامة من الحرفيين (٣) والباعة والزراع والحراثين . وأما في المغرب فان سيادة المجتمع كانت منذ القرن الخامس قد صارت للقبائل البربرية التي اسلمت وتعربت لغويا ونزلت من الجبال . برزت أولا صنهاجة الضاربة في الصحراء (في بني زيري وحماد والمرابطين) وقبائل السوس (في الموحدين) . ثم جاء الزناتيون (في بني مرين وبني عبد الواد) والمصموديون (في بني حفص).

الزراعة والحرف

رافق هذه التغيرات السياسية ـ الاجتماعية، تطورات تقابلها على المستوى الاجتماعي الاقتصادي . فقد ترك الفتح الاسلامي الأرض لأصحابها مقابل الخراج ، بينما وزع (الفيء) والأرض الموات (٥) على الفاتحين مقابل العشر . هكذا وجدت طبقة من ملاكي الأرض عربية وغير عربية في كل قطر . لكن ذابت الفروق العنصرية مع الايام . وبينما تحول المجتمع القبلي العربي الى العمل الزراعي ، حلت في ملك الارض تلك الطبقات الجديدة من الجند وكبار الدولة في العصر العباسي .

حين سيطرت الطبقات العسكرية الأجنبية منذ القرن التاسع على الحكم سيطرت معه على الأرض الزراعية بوصفها مصدر الثروة . استمر ذلك حتى العهد العثماني ، وكان الريف في كل الأحوال يدفع ثمن النكبات الطبيعية (من فيضان وجفاف وأوبئة) والعسكرية .

في المدن ظهر بالتدريج منذ القرن التاسع ايضا نظام الأصناف (الطوائف الحرفية) . واهتم تخطيط المدينة العربية اهتماما بالغا بها . صار لكل حرفة أو صنعة سوق يختص بها ، ورابطة حرفية بين العاملين فيها . اسهمت في ذلك بعض الأفكار الصوفية والفرق الدينية المعارضة . وبينما صارت الحرف بالتدريج كالوظائف السياسية والدينية وراثية ، كان من واجبات أهل الصنف التضامن فيما بينهم ومعونة أهل حرفتهم القادمين من البلاد الأخرى . هذا التكافل الاجتماعي بالاضافة الى الاوقاف أعطى المجتمع الاسلامي الكثير من ملامح التعاون الانساني .

المدينة الاسلامية

الاسلام بطبيعته مدني . وكان من أوامر عمر بن الخطاب في الايام الاولى للفتوح تأسيس المدن (الامصار) فكان منها البصرة والكوفة ثم الفسطاط ثم القيروان . ظلت الدولة الاسلامية على هذا التقليد نفسه . فلا نكاد نجد دولة اسلامية ناشئة الا واختطت لنفسها عاصمة تبنيها . وتبني بعدها مدنا أخرى عسكرية وسياسية وتجارية ، بالاضافة الى عشرات المدن - الحصون على الحدود . سكن العرب ، في الوقت نفسه ، مئات المدن القديمة في المناطق المفتوحة . وطوروها بالتوسعة والبناء بما يتفق مع حاجاتهم الحضارية . صارت الاسكندرية والموصل ودمشق وحلب وانطاكية والقدس ونيسابور

أ

ب

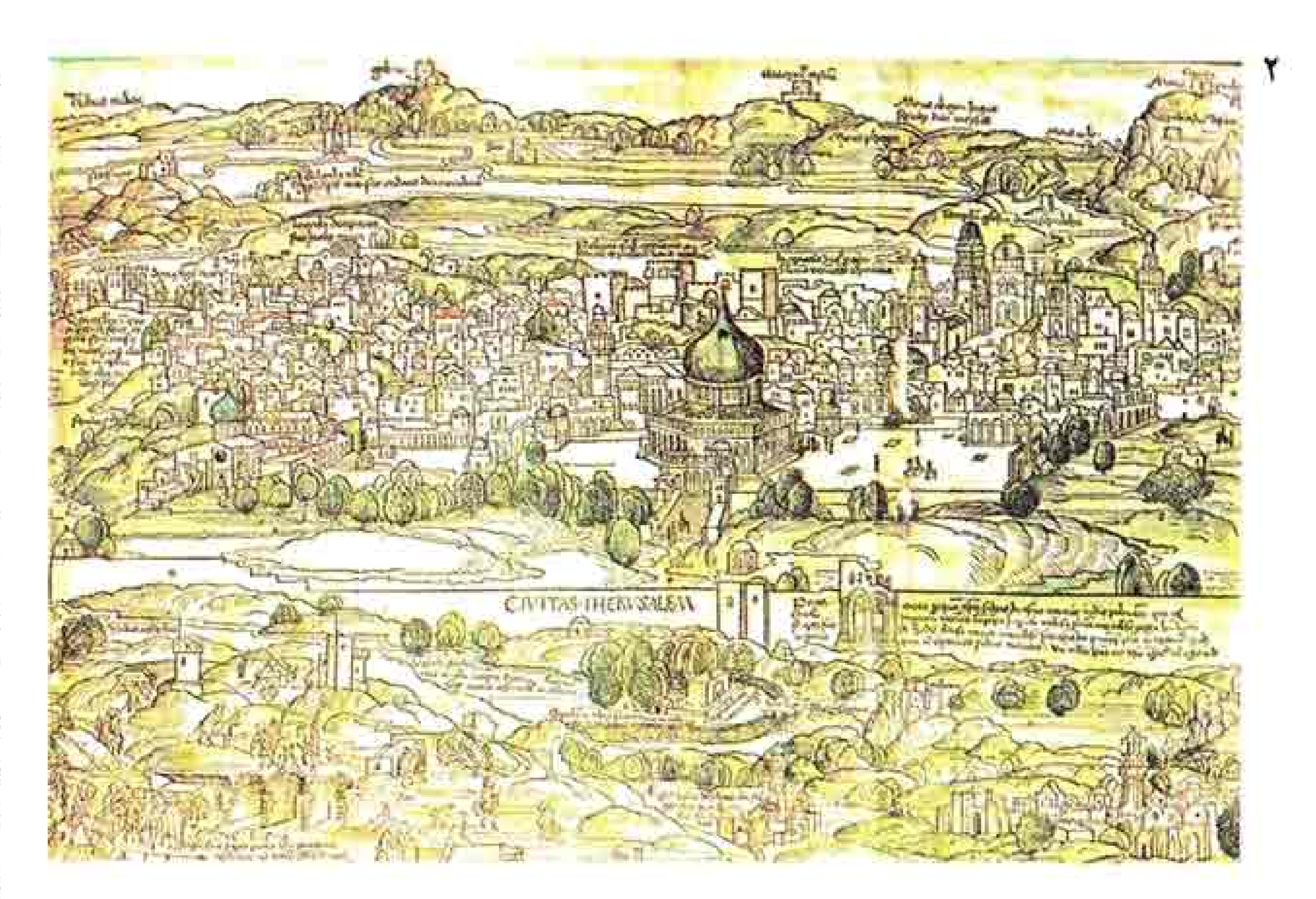
(١) - فاس هي أول عواصم المسلمين في المغرب الأقصى . أسسها على الوادي الكبير ادريس الأول حوالى سنة ٧٩١ . بعد عشرين سنة أخرى أسست على العدوة الأخرى للوادي فاس الأخرى توأم الأولى (عدوة القرويين مقابل عدوة الأندلسيين القديمة) . وحد المدينتين التوأمين يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ١٠٦٩ في سور واحد وبنى الحمامات والفنادق والأسواق فصارت عاصمة المغرب الثانية . فلما اتخذها المرينيون عاصمة لهم بين القرنين (١٢ - ١٥) بلغت قمة ازدهارها . ذكروا أنه كان على نهرها ٣ آلاف رحى منها ٤٧٢ بالمدينة . وكان بها دار سكة في كل من العدوتين و ٩٣ حماما و ٧٨٥ مسجدا وأكثر من ٨٩ ألف منزل و ١٧ ألف مصرية (مشربية) و ٤٦٧ فندقا و ٩٠٨٢ حانوتا و ٣٠٩٤ نولا و ٤٧ مصنعا للصابون و ٨٦ للدباغة و ١١٦ للصباغة و ١٣ للحديد والنحاس و ١١٧٠ فرنا و ٤٠٠ لعمل الكاغد و ١٨٠ للفخار . كانت فاس يومذاك وارثة النشاط الاندلسي .

وبخارى وسمرقند وقرطبة واشبيلية وغرناطة مدنا اسلامية أكثر بكثير مما هي من بناء الأولين .

المدن الاسلامية

شيدت المدن الاسلامية الأولى معسكرات للجند . بعد ذلك كانت المدن تبنى عواصم للحكام ، وسكنا سياسيا ملكيا تقوم على هامشه المدن ، بنشاطاتها الاقتصادية والفكرية . بنى المنصور بغداد (٧٦٢ ـ ٧٦٥) منزلا له ولاصحابه . جعل قصره والجامع والدواوين في وسطها . لما احتاجت الى الاسواق جعلها خارج الاسوار نحو الجنوب (الكرخ) . شيد المعتصم سامراء سنة ٢٢٠ هـ لتكون مقرا للحكم والجند . اقام احمد بن طولون مدينة القطائع ، بجانب الفسطاط ، قصورا له ولجماعته . كذلك اقام جعفر الصقلي مدينة القاهرة لسيده المعز الفاطمي (سنة ٩٦٩ م)

٢



(٢) ـ منذ القرن العاشر أضحت المؤسسات ذات الطابع الديني في المدينة الاسلامية عنصرا أساسيا من عناصرها التكوينية وملامحها المميزة : كالمدارس والزوايا والاربطة . وقد تكثر لتزيد على المائة كما في دمشق والقاهرة والقدس (في العهد المملوكي) ويتصل بها غنى مؤسسة الأوقاف الدارة عليها . وتأتي بعد ذلك منشآت الدفاع الحربي وهي السور بصورة خاصة وقد يكون ثنائيا وثلاثيا ومعه الخندق والأبواب . وغالبا ما توجد قلعة صغيرة في المدينة أو حصن يسكنه صاحب السلطة . ثم تأتي المؤسسات الاقتصادية ، كالأسواق وغالبا ما كانت ضيقة مسقوفة يختص كل منها بصنف معين . ثم الفنادق وقد تصل عدة مئات . والقيساريات والوكالات والارحاء . والأفران ومصانع الورق والزجاج والصابون والأنوال والمعاصر . أما الدباغة والصباغة والفخار ففي خارج المدينة . القدس (ورسمها هنا صنعه أحد الحجاج الغربيين في القرن ١٥) يمكن اعتبارها نموذج المدينة الاسلامية .

٣

(٣) ـ بنيت المهدية بين سنتي ٩١٤ ـ ٩١٨ . المهدي الفاطمي أرادها حصنا فاختار موقعها على الساحل . ونقر المرفأ (سعة ١٠٠ سفينة) في الصخر ، وأغلقه بالسلاسل وجعل لها سورا على البر بأبواب من الحديد . بنى بجوارها (زويلة) للناس . زين قصره ببعض النقوش ومنها رسمه وهو يستمع الى موسيقي يعزف المزمار .

لتكون قصور الحكم والسكنى . القيروان تحولت من قاعدة حربية متقدمة في افريقيا سنة ٦٧٥ م الى مقر سياسي وحاضرة للتجارة والاسواق والمنازل ، حين اصبحت مركز الولاية الافريقية . لما جاء عبيد الله المهدي أول الفاطميين لم يأمن على نفسه واهله هناك الا حين بنى المهدية سنة ٩١٣ ـ ٩١٧ هـ جعلها قصورا ومرسى ضخما منقورا في الصخر ، وبنى بجانبها مدينة زويلة بالسور والخندق والابواب والحرس والدكاكين لتكون للتجار واهل الحرف وسائر الناس . عبد الرحمن بن رستم حين أقام الدولة الاباضية في المغرب الاوسط بنى عاصمتها تاهرت سنة ٧٦١ على سفح جبل جزول الذي تغطيه الغابات . أقام بها الجامع والاسوار والدور والقصور . لم تلبث ان صارت بها الحمامات والاسواق والارجاء . وبالقرب منها المراسي تصلها بالاندلس . ابن واسول المكناسي زعيم الصفرية بنى قبله



٤ ٥ أ ب

(٤) ـ الحمام الاسلامي من حيث البناء والتقليد متأثر بالحمام الروماني السابق له أما كمؤسسة اجتماعية صحية فهو اسلامي بحت ، لأن النظافة والتطهر من أوامر الشرع . وقد تكاثرت الحمامات العامة في المدن الاسلامية التكاثر الواسع لأن المياه في هذه المدن عامة قليلة الوجود معظمها في مناطق أقرب الى الجفاف الجغرافي . منذ القرن العاشر صار لكل حي في المدن حمامه الخاص . المنمنمة من مدرسة بهزاد (القرن ١٥) .

(٥) ـ حرف المدن كانت كثيرة جدا بسبب تفرع التخصص وتعدد الأصناف . فباعة النسيج أنواع وعماله أنواع . وباعة القطن غير باعة الحرير أو الكتان . ولكل جماعة صنف ورئيس ، وأهم من هذا ان لكل صنف حاميا روحيا من الأنبياء أو الأولياء . وحين تقام للعامل حفلة « الشد » لدخول الحرفة كان للاحتفال طابع ديني . من الرسوم القليلة لهذه الطبقات العاملة . رسم بعض البنائين « أ » وبعض عمال « القبان » (الموازين) (ب) .

مدينة سجلماسة الصحراوية سنة ٧٥٧ . أقام بها الاسوار والبناء وجمع المياه وغرس النخيل . اتم بناءها بعد ذلك اليشع المدراري سنة ٨١٥ فاختط بها المصانع والقصور .

كذلك بنى ادريس الأول مدينة فاس (١) سنة ٧٩١ . وبني يوسف بن تاشفين أول المرابطين عاصمته مراكش في جنوب المغرب . ونعد بالأندلس على الأقل ست مدن عربية .

المدن الخاصة بالحكام

كان الحكام أحيانا يخرجون من العواصم ليقيموا قصورهم مدنا صغيرة على مسافة منها . الأمويون بنوا قصورهم في البادية والغور (قصر المشتى وقصر الحير ، وقصير عمرة) . الرشيد سكن الرقة والرصافة على حوض الفرات . المتوكل بنى المتوكلية شمال سامراء . ابراهيم بن الاغلب بنى العباسية سنة ٨٠١ جنوبي القيروان بالقصور والحمامات . حفيده ابراهيم بن احمد بنى سنة ٨٧٨ مدينة رقادة عاصمة ثالثة ، بستة قصور وعدد من الحمامات والفنادق والاسواق . وجعل لها السور وخزانات الماء . الخليفة الفاطمي المنصور ترك المهدية (٣) الى بلدة مجاورة سميت بالمنصورية جعل لها الابواب ونقل الاسواق وارباب الصناعات . المنصور ابو يوسف المريني بنى بجانب فاس مدينة البيضاء سنة ١٢٧٦ عاصمة له . عبد الرحمن الناصر بنى مدينة الزهراء قصورا رائعة له ولأهله قرب قرطبة . بنو الأحمر بنوا قصور الحمراء مدينة للحكم على مشارف غرناطة . يبقى أن نضيف ان المنجمين كانوا غالبا ما يستشارون في موعد البناء ومكانه .

مخطط المدينة الاسلامية

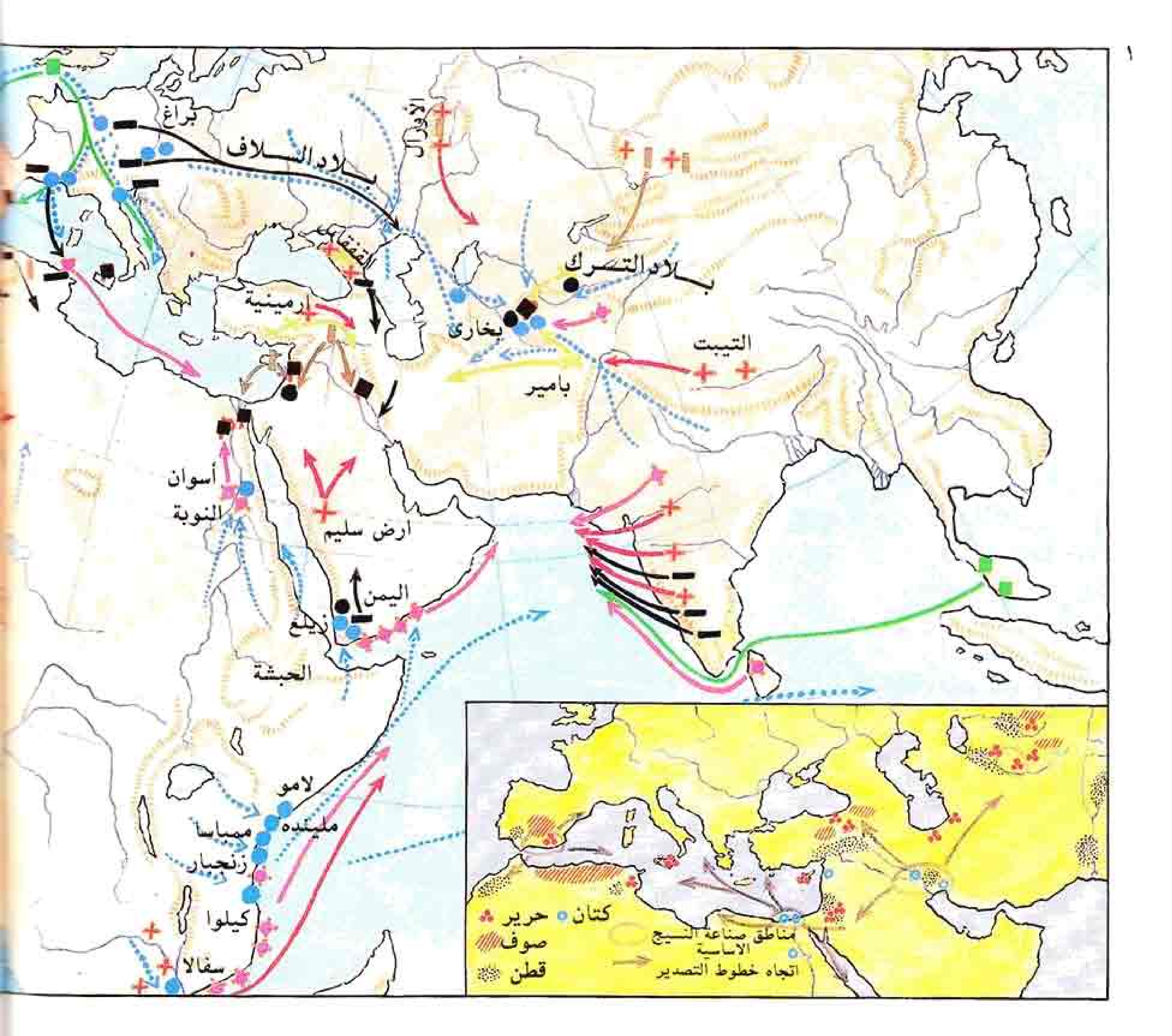
لم يكن ثمة مخطط محدد للمدينة الاسلامية ، ولكن كانت فيها مؤسسات محددة . كانت تبنى مربعة كالقاهرة أو مدورة كبغداد او متطاولة كسامراء . ومعظمها بأسوار لسبب أمني ، وتتجاوز ابنيتها السكنية الاسوار في أزقة متعرجة اعتباطية . لكن مركز المدينة الاسلامية كان على الدوام المسجد الجامع . هو نقطة الانطلاق في طبغرافيتها ، وفي تحويل المدن القديمة ، ويتوسط جميع المدن الاسلامية . فخامته ، ترتبط في العاصمة بقيمة الدولة وبغناها ، وفي المدن الأخرى بثروتها وكثافتها الديمغرافية . قلائل هي المدن التي وجد فيها أكثر من جامع واحد . لا يكون ذلك الا للمدن الكثيفة السكان (بغداد ٦ القاهرة ٧ البصرة ٣ فاس ٢ دمشق ٢) وان كانت توجد فيها المساجد بالمئات احيانا . بجانب الجامع كانت تقوم دوما دار الامارة للحكم (وقد تكون قلعة) ، ومعها الدواوين ودار الضرب ، كما يقوم السوق الاساسي الذي تتفرع منه الاسواق الضيقة في الغالب . العناصر الثلاثة كانت قوام المدينة . معظم المدن الاسلامية كانت تحوي قسمين منفصلين الى حد ما . المدينة السياسية للدولة والخاصة ، وفيها الجامع ، ومدينة الحياة العامة للشعب ، فيها الاسواق والحرف (٥) والسكنى .

أما المؤسسات فأهمها وأكثرها اناقة ما كان ذات طابع ديني ، ثم تأتي منشآت الدفاع المختلفة ، ثم المؤسسات الاقتصادية من اسواق وفنادق ، ثم المنشآت الحياتية كالحمامات بالعشرات . وتنظيمات السقاية والري .

التجـارة العالمية والنقود

موقع البلاد الاسلامية في قلب العالم المتحضر كله ، واتصالها المباشر بالهند والصين وتركستان وأوروبا وافريقيا الغربية والشرقية . وهي العالم المعمور يوم ذاك . جعلاها مركز التجارة العالمية وممر طرقها كلها خلال عشرة قرون على الأقل . مع هذا العامل الجغرافي تداخلت عوامل أخرى منها : تشجيع الاسلام للعمل التجاري . الغاء العرب للحاجز السياسي القديم بين المحيط الهندي والبحر المتوسط . تحريكهم دورة الذهب بين افريقية وأوروبا وآسيا الغربية . حتى الهند . تراكم الثروات في العصر العباسي والفاطمي في العراق ومصر والاندلس . تزايد حاجات الرفاه الكمالية فيها . التقاء خبرات العرب التجارية

١

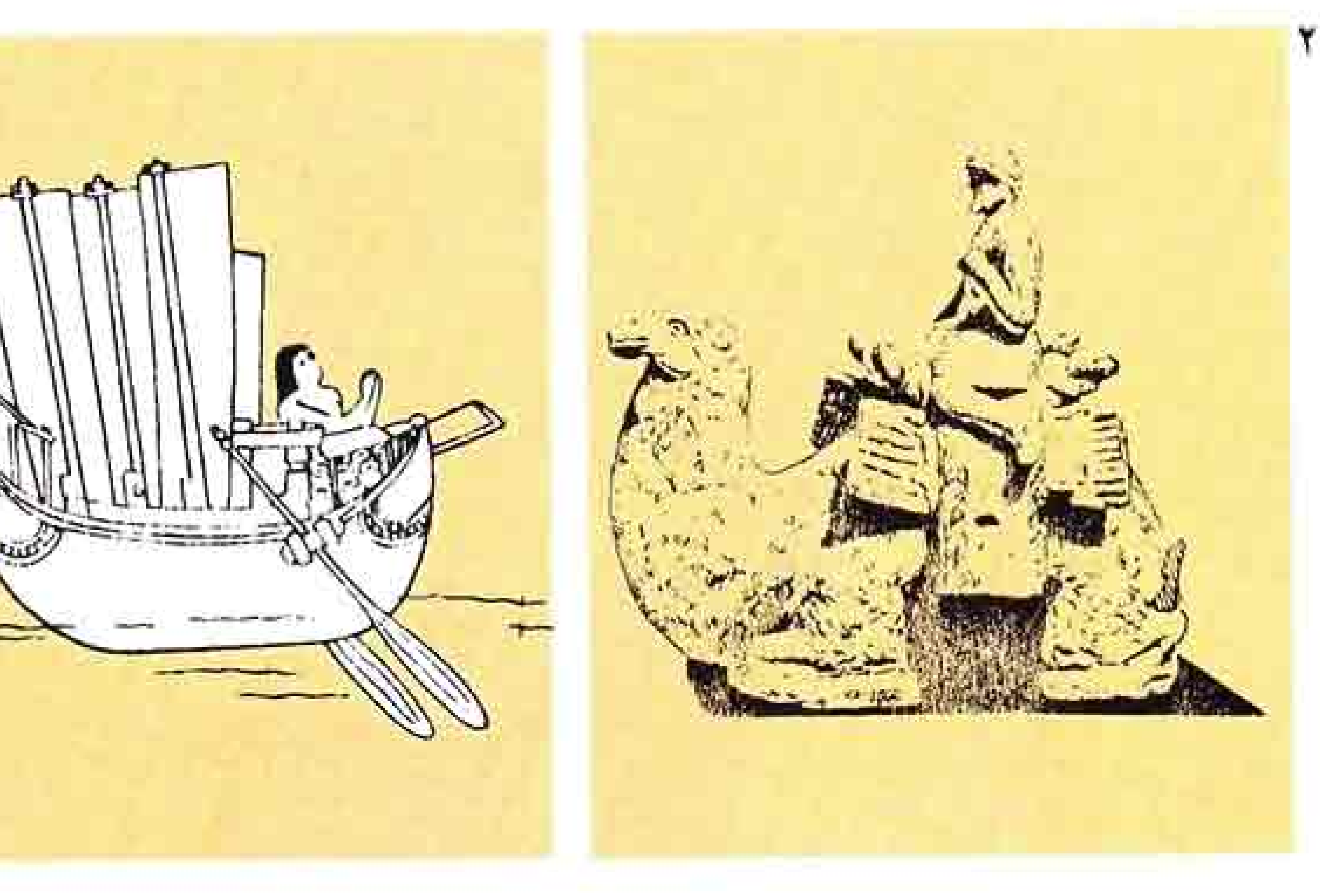


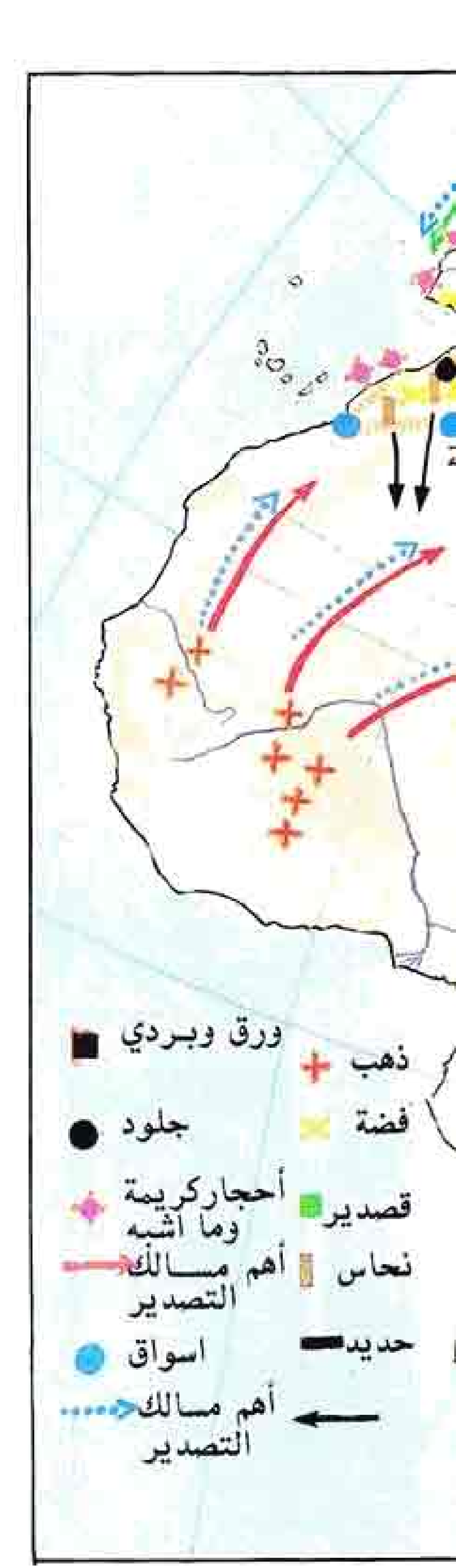
القديمة مع خبرات الشعوب الاخرى التي شكلت دولة الاسلام في العالم القديم كله . كل ذلك جعل التجارة الاسلامية في القرون المسماة بالوسطى هي التجارة العالمية الكبرى الوحيدة .

التجارة العربية العالمية

خدم العرب النظام التجاري العالمي بالدراسات الجغرافية الكثيفة وتسهيل نظام المكوس ، وايفاد البعثات والسفراء ، واقامة المحطات على الطرق ، والفنادق في المدن ، وبناء السفن ، واستخدام الاسطرلاب والبوصلة فيها ، وتضخيم القوافل والحماية لها ، واقامة الجاليات الاسلامية في المدن والمرافىء الاجنبية (من القسطنطينية واتل عاصمة الخزر الى تمبكتو وغاد على حوض النيجر ، الى مقديشو وممباسا في شرق افريقيا ، وحتى خانفو في الصين) (٢) . هذا الى

٢





(١) - تجار الخليج العربي (من البصرة وسيراف) وتجار عدن كانوا أبعد التجار انتشارا ورحلة . مع ذلك برز في التجارة ، بين الشرق والغرب في القرنين الثالث والرابع ، تجار الرادانية وهم من اليهود ، يطوفون أقصى أوروبا الى الصين . ثم برز تجار الكارم ، مركزهم في مصر ، استمروا حتى أواخر العصر المملوكي يسيطرون على التجارة العالمية ، لهم وكالات في كل بلد ، وتضامن عند النكبات ، وأموال طائلة يقرضون منها السلاطين .

(٢) - التجارة العالمية كانت تعتمد خاصة على السفينة في المحيط وعلى قوافل الجمال التي قد تزيد الواحدة منها على ألف جمل عبر القارات . الطرق البحرية والبرية كان يكمل بعضها بعضا . هناك طريق الحرير البري القديم يأتي عبر الصين الى سمرقند وبخارى حيث يتفرع فرعين واحد يمر من شمال بحر الخزر الى (اتل) ثم القسطنطينية أو كييف . وفرع اسلامي يصل الري ثم همذان الى بغداد حيث يلتقي بالطريق البحري القادم من خانفو (الصين) عبر مضيق سنغافوره الى سرنديب وساحل الملبار ثم سيراف والبصرة . يتجه فرع منه الى شرق افريقيا عبر عدن . كما يتجه فرع آخر من عدن الى قوص على البحر الأحمر ثم حوض النيل الى الاسكندرية . قوافل بغداد كانت تتجه الى موانىء الشام ومصر . كما تعبر آسيا الصغرى الى القسطنطينية . طريق شمال افريقيا يساير السواحل الى برقة وطرابلس والقيروان حتى فاس . منه فروع تخترق الصحراء الكبرى الى تشاد وحوض النيجر كما يتصل عبر صقلية وموانىء الأندلس بأوروبا .

اقامة البيوت المصرفية . وابتكار نظام السفتجة . (الحوالة المالية) . والصك (الشيك) .

ترك العرب في لغة التجارة العالمية الى اليوم عددا من مصطلحاتهم ومن اسماء السلع وخاصة النسيج . بلغت التجارة الاسلامية أوجها فيما بين القرنين الثالث والخامس للهجرة / ٩ ـ ١١ م . صار التاجر رمز الحضارة الاسلامية . المنافسة الوحيدة كانت تأتي من بيزنطة التي كانت تحتكر الصلة مع شرق أوروبا والخزر وتناضل في حوض المتوسط الشرقي .

المنافسة الاوروبية

منذ القرن العاشر دخلت القوى التجارية الايطالية والاوروبية الغربية حوض المتوسط . الحروب الصليبية التي شنتها هذه القوى من الاندلس الى الشام عبورا بصقلية ،



(٣) ـ لم تكن النقود التي صدرت في مختلف البلاد والعهود الاسلامية موحدة الوزن أو العيار سواء في الذهب او الفضة . بصورة عامة كان وزن درهم الفضة القديم = ٣ غرامات تقريبا . ووزن الدينار = ٤،٢٣ غ من الذهب . مع ظهور الدولة الفاطمية ظهرت الدنانير المغربية (ذات العيار الذهبي العالي) وانتشرت في تجارة المشرق . بعض العملات اشتهرت فترة طويلة بسبب جودة عيارها (أ) . (ت) أول دينار ضربه عبد الملك بن مروان . (ب) درهم أموي ضرب على الطراز البيزنطي .

(٤) ـ اختلفت المكاييل والأوزان والمقاييس في العالم الاسلامي . من اقليم لآخر ومن مدينة لأخرى . وحدة القياس كانت الذراع وهناك أكثر من ثلاثين وحدة قياس آخر غيره منها القصبة والذراع الهاشمي . والبز . والعمري . وحدة الكيل هي المد وهو مختلف وله أجزاء وأصناف . وحدة الوزن تستند الى الدرهم (غير الدرهم النقدي) والى المثقال (= ١،٥ درهم) . والرطل (= ٧٢ مثقالا = ١/٣ كغ حتى ١/٢ كغ) . المثقال = ٢٤ قيراطا والقيراط = ٤ حبات . الصنوج الصغيرة زجاجية والكبيرة حديد أو برونز كهذه السلجوقية (القرن ١٣) .

ولمدة تزيد على خمسة قرون ، كانت في اعماقها اقتصادية تجارية . رغم استرداد المشرق الاسلامي والمغرب أحيانا قوتهما الاقتصادية بين القرنين السابع والتاسع هـ ١٣ ـ ١٥ م الا ان القوى الاوروبية استطاعت ، بنتيجة الاكتشافات الجغرافية . تطويق العالم الاسلامي من الجنوب والوصول الى الهند ، والغاء دور البحر المتوسط التجاري . ذلك النصر الاقتصادي هو الذي قضى على التجارة الاسلامية .

بضائع التجارة (١) كانت متنوعة كل التنوع ، ولكن اوروبا كانت تصدر خاصة الرقيق والخشب والفراء مقابل الذهب والنسيج والتوابل والبخور والأحجار الكريمة . وشرق افريقيا يصدر الذهب والعاج والعنبر والحديد والرقيق . والهند الفولاذ والأخشاب الثمينة والتوابل ونسيج القطن والعطور والجواهر مقابل الخيل والمصنوعات والزجاج . ومن الصين الحرير والورق والأواني مقابل العاج والنحاس والكافور .

النقود :

كانت الدولة الاسلامية ثنائية المعدن . تتعامل بالفضة والذهب معا . كان ذلك لأنها ورثت الاراضي الساسانية في الشرق التي كانت تتعامل بالدرهم الفضي ، ومعظم اراضي الروم ، على البحر المتوسط ، وكانت تتعامل بالدينار الذهبي ، بالاضافة الى ان مناجم الفضة عامة كانت في المشرق ومكامن الذهب كانت في القسم الغربي من الدولة . اما قطع النقد الصغيرة فكانت من النحاس والرصاص .

ظلت دولة الاسلام حتى عهد عبد الملك بن مروان ، تتعامل بالدنانير البيزنطية نفسها وبالدراهم الساسانية ، وان ضربت منذ عهد عثمان بعض الدراهم الاسلامية على طريقتها . الخليفة عبد الملك (٣) هو الذي عرب النقود جميعا في الدولة ، بين سنتي ٦٩٢ ـ ٦٩٥ دخل من اجل ذلك في حرب اقتصادية مع الروم استمرت حتى آخر الدولة الأموية . كان خراج المشرق يقدر بالدرهم ، ومن الشام حتى المغرب بالدينار .

كان الدينار في مطلع العصر العباسي يساوي ١٢ ـ ١٣ درهما . وكان ضربه يتم في بغداد وحدها . وسمح احيانا لبعض المدن الكبرى بضرب الدراهم . نشوء الدول المنفصلة كالطولونية والاخشيدية والسامانية سمح لها بضرب نقودها الخاصة مع الاحتفاظ باسم الخليفة عليها ، رمزا للتبعية السياسية .

أما بلاد المغرب والأندلس فقد انفصلت بنقدها الخاص منذ انقطعت عن العباسيين (أواسط القرن ٨) فضرب الأمويون الدنانير . وكثرت مناجم الفضة لدى الأدارسة ، فضربوا الدراهم . وانفرد القرامطة في البحرين بضرب نقود ثقيلة جدا من الرصاص تتفق مع نظامهم.

كانت دور الضرب احتكارا للدولة وموردا من مواردها ، كما كانت رمزا لسلطتها ، في أيام الأزمات المالية ، كانت السلطات تتلاعب بعيار الذهب والفضة في عملتها وتلزم الناس بقبولها .

انتشرت النقود الاسلامية ، مع التجارة ، في اقاصي المعمور ، فكانت هي عملة التبادل التجاري على البحر البلطي (حيث وجدت كميات اثرية منها).وفي حوض النيجر . وفي الهند وسهوب تركستان . وفي موانىء الصين وسواحل افريقيا الشرقية .

التعليم والمدارس في الاسلام

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » هذه الكلمة هي من تعليمات الرسول العربي . كان هو نفسه المعلم الأول لأصحابه . مسجده بالمدينة كان للصلاة وللعلم ولادارة أمور الناس . احتفظ المسجد في التاريخ الاسلامي كله بهذه الوظيفة المثلثة . لم يكن مكان عبادة فقط ولكن مكان تعليم ، ومكان سياسة الناس والقضاء بينهم أيضا .

في العهد الأموي انتشرت مهنة تعليم الصبية . كان الحجاج من هذه الطبقة . تعليم الكبار كان يتم في المسجد . مادة التعليم هي القرآن وما يتصل به من لغة ونحو وتفسير وتفقه . لأولاد الخلفاء وكبار القوم كان ثمة

(١) - يمكن تقسيم مراحل التعليم في الاسلام الى ثلاث ، كان يبدأ للصغار بنين وبنات بالخط والحساب وتنتهي المرحلة باحتفال بختمة القرآن . ثم كان يستمر في المسجد بتعلم الأمور الدينية في الغالب وهي المرحلة الثانية . أما الدراسة العليا فكانت تتم في المدارس (لأمور الدين عامة) والبيمارستان للطب والمراصد للفلك وهي المرحلة الثالثة. وقد تتم في بيوت العلماء أنفسهم . صورة الكتاب (أ) رسمت لمخطوط لمقامات الحريري . مطلع القرن الثالث عشر . وعلماء الفلك (ب) من مخطوط شاهنشاه نامة في القرن السادس عشر .

ب

١ أ

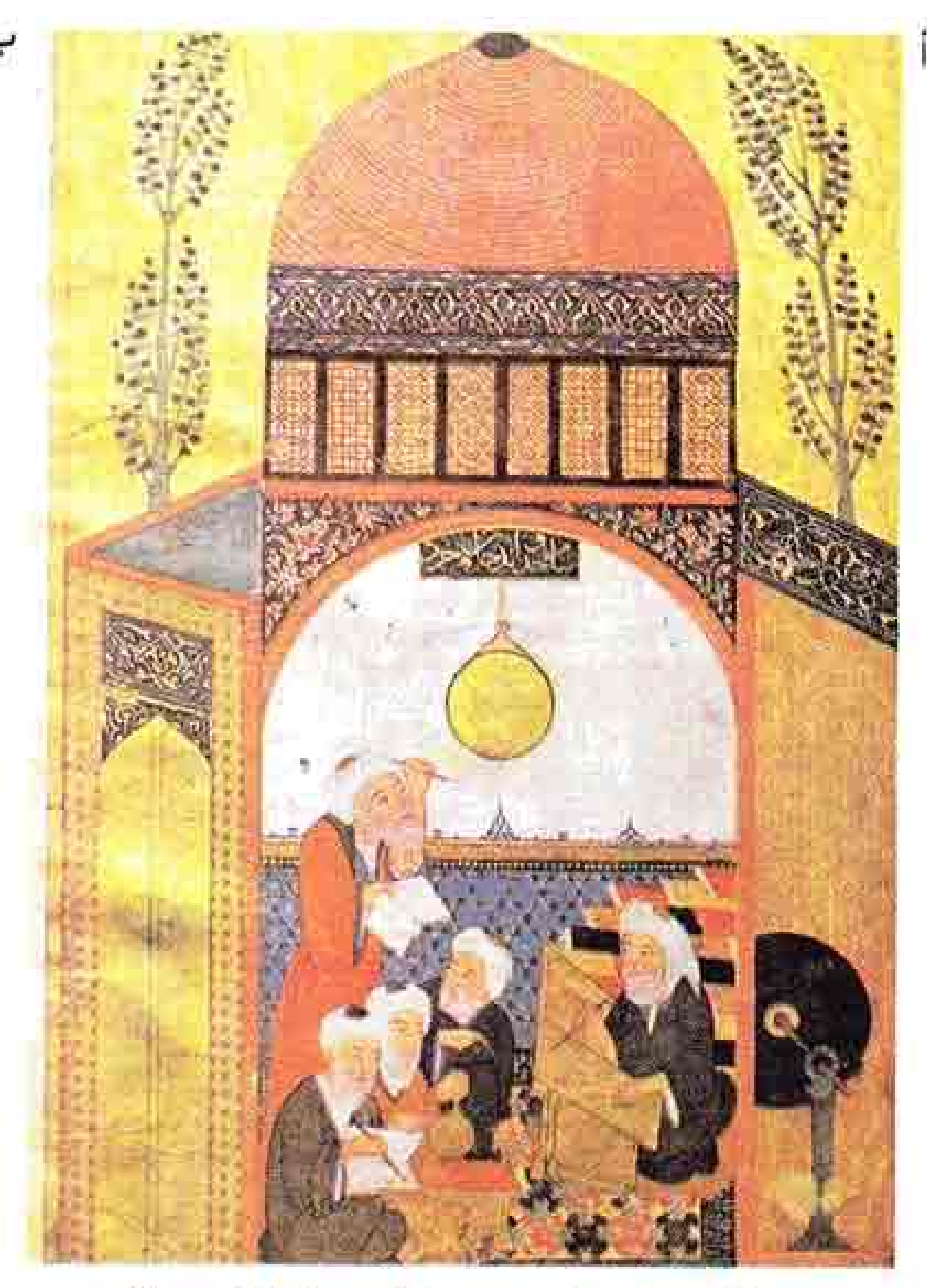


مؤد بون يختارون اختيارا من ذوي العلم والخلق القويم . كان للناس في المساجد والاسواق حلقات للدراسة والجدل وانشاد الشعر. لم تتطور لتصبح مثل المربد في البصرة ، وهو الصورة الاسلامية لعكاظ الجاهلية . لكن هذه الحلقات أفادت في تطوير الفهم للاسلام والتعمق به . فيها نشأ علم الكلام ، والاعتزال ، ونشأ النحو والمنافسة في معرفة اللغة ، والتفسير ، ومبادىء الفقه وروي الحديث ، والشعر والأدب ، قبل أن يسجل هذا كله في الكتب ويصبح من علوم الاسلام .

ظهور المدارس

ظلت المساجد مراكز العلم حتى القرن الرابع . حين عم الاسلام شعوب الدولة وغصت المساجد ، ولاسيما في خراسان ، بالمصلين والدارسين ، وصعبت الضوضاء على الطرفين

٢ أ



ب

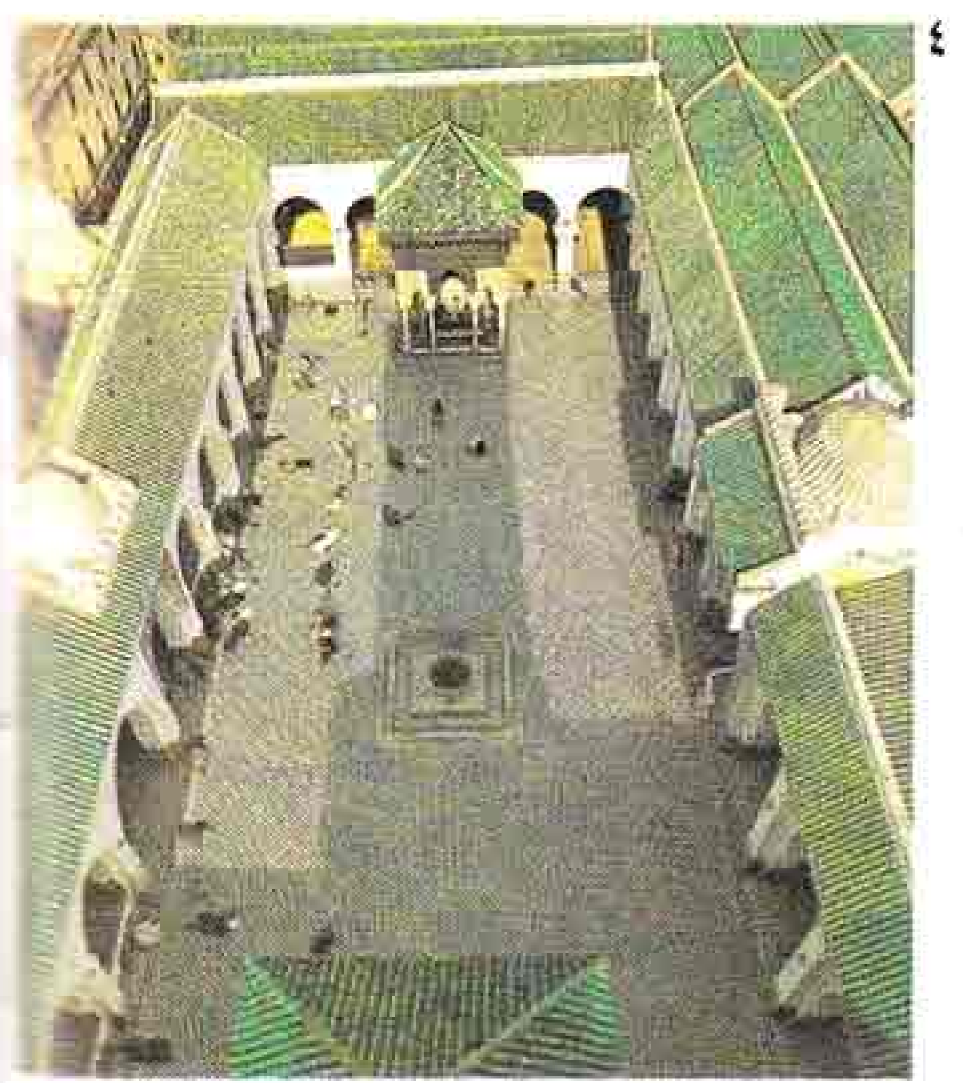


(٢) ـ من الصعب احصاء عدد المدارس الاسلامية . كانت تبلغ حتى أواخر القرن الخامس عشر عدة آلاف . ومن الصعب رسم مخطط عام لأ بنيتها لأنها لم تتبع كالمسجد نظاما خاصا محددا للبناء . فلكل اقليم وكل عصر نمطه العمراني ، ولكنها عامة كانت تحوي قاعات لسكنى الطلاب والشيوخ ، وباحات واسعة . أما في الزينة فكانت تتراوح بين البناء العاري الحجري ، كما في كثير من مدارس الشام ، أو الزخرفة المحدودة ، كما في مصر ، أو أغنى التزيين كما في مدارس العطارين (ب) وبوعنانية والصهريج التي بنيت في فاس في القرن ١٤ . كانت هذه المدارس تقابل الجامعات اليوم . ولما كان الاهتمام منصبا على التكوين التربوي الديني وتهيئة الموظفين ، كان معظمها لعلوم الدين واللغة . البيمارستانات التي كان يدرس فيها الطب كانت أقل عددا ، لأنها كانت باهظة النفقة . لذلك كان الطب يدرس نظريا أحيانا . أما الفلك فكان بناء المراصد يتبع رغبة بعض الحكام ، لذلك كانت دراسته في الغالب خاصة وفي بيوت العلماء وبالآلات الفلكية البسيطة . في (أ) رسم بعض العلماء يدرسون الفلك من مخطوط يرجع للقرن ١٥ .

ظهرت ، في نيسابور وغيرها ، ظاهرة انفصال حلقة الدراسة عن المسجد . انعزلت في مكان بجواره ، وهكذا ظهرت المدرسة (١) .

أراد نظام الملك (ت سنة ٤٨٥) وزير السلاجقة في القرن الخامس أن يقاوم الدعاية المنظمة التي كان الفاطميون يبثون بها مذهبهم الشيعي السبعي . والمدارس التي أقامها البويهيون للمذهب الشيعي . فالتقط فكرة المدرسة وطورها ليجعل منها ما يشبه الكلية الجامعية . انشأ في بغداد ، ثم في عدد من مدن ايران والعراق سلسلة من المدارس سميت بالنظامية . بنى لها الابنية الضخمة ، وأوقف عليها الاوقاف ، وعين لها المدرسين . وخصص للطلاب فيها الجراية المعينة . سرعان ما انتشرت الفكرة في المشرق السني كله . لم يمض قرن حتى كانت المدارس بالعشرات تنشأ في دمشق والموصل وحلب والقدس ومرو


٣


٤

(٣) ـ نظام « الحلقة » في الدراسة كان نظام الدراسة طول العهد الاسلامي وفي مختلف الاقاليم . والحلقة كانت حرة الحدود مفتوحة لمن شاء . لأن النظام التعليمي كله حر . لم يكن ثمة شرط أو قيد يمنع أي راغب في العلم من الجلوس الى أي حلقة يشاء . وصاحب الحلقة . يحدد مكان جلوسه للتدريس وموعده والكتاب الذي يدرسه . وقد يتلو من حفظه أو من كتاب أمامه (من تأليفه أو له حق روايته) . قد تضم الحلقة بعض النساء . وقد تصغر حتى لا تضم أكثر من بضعة نفر . أو تتسع الى عدة مئات فيتولى (المعيد) تكرار كلام الشيخ . ما يزال نظام الحلقة في الأزهر اليوم .

(٤) ـ المكتبات الضخمة في الاسلام كثيرة . ذكروا ان مكتبة الواقدي كانت ١٢٠ حملا . ومكتبة الصاحب بن عباد ٢٠٦ آلاف مجلد وقفها حين توفى (سنة ٩٥٥) على مدينة الري . كان فهرسها عشر مجلدات . مكتبة القصر الفاطمي كانت تحوي حوالى مليون و ٦٠٠ ألف . منظمة الغرف ومكتبة آل عمار في طرابلس التي أحرقها الصليبيون كان فيها مثل ذلك . في الأندلس والمغرب اشتهرت مكتبات قرطبة ، وفاس ، وبخاصة مكتبة القرويين . التي نرى في الصورة فناءها وهي أقدم جامعة في شمالي أفريقية شيدت ملاصقة للجامع منذ أحد عشر قرنا .

وبلخ . حين الغى صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية تحول الأزهر (٣) وهو « جامعة الفاطميين الكبرى » الى مدرسة سنية . ثم بنيت معه عشرات المدارس . في العهد المملوكي . كان في دمشق وحدها ١٣٠ مدرسة ، وفي القدس ٦٠ ، وفي القاهرة أكثر من مائة . من أشهر مدارس بغداد كانت المستنصرية ، وهي أشبه بالجامعة ، بناها المستنصر سنة ١٢٣٤ وفيها الحمامات والمطابخ وتوزيع الطعام والشمع والصابون وأدوات الكتابة على الشيوخ والطلاب .

طرق التعليم ومواده

طريقة التعليم كانت في حلقات لها أوقات محددة وشيوخ معينون ومادة علمية معروفة ، وتجري عليها أوقافها المرصودة لها . ويكتب الشيخ للتلميذ شهادته في ختام نسخته ، بالسماع والاجازة بالرواية مع التفصيل الواضح . لذلك صار للحلقات مع الأيام رسومها واصولها ، وكتبت المؤلفات في آداب العالم والمتعلم . كما أثار تباين الاوقاف بين مادة وأخرى تحاسد الشيوخ أحيانا وتنافسهم .

المدارس المذكورة ، كانت جميعا للعلوم الدينية . وقد تدرس فيها العلوم المساعدة كالمنطق وعلم الكلام ، أو العملية كالحساب . وظهرت كذلك مدارس خاصة للقرآن أو للحديث أو لبعض المذاهب أو بعض العلوم المعينة أو الكتب . أما الطب فكان يدرس في بيوت الاطباء ، أو في البيمارستانات . وبعض الأطباء كالدخوار الدمشقي حول بيته كلية طب ودرّس بها ووقف عليها كتبه وأمواله . في الربط والزوايا كان يجري تلقين الطرق الصوفية أيام المماليك والعصور المتأخرة (٣) .

الوراقة والمكتبات

كان في المساجد دوما ركن للكتب لخدمة الناس أهم ما فيه المصاحف . أما الأفراد ، فينسخون لأنفسهم او يستأجرون من ينسخ . ظهرت حوانيت الوراقين منذ كثر الورق في الاقاليم الاسلامية ، أي منذ أواخر القرن الثاني للهجرة . وهي دور بيع الكتب . كان الجاحظ يكتريها في الليل ليقرأ . وفي عهد اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٩١ م) كان في بغداد أكثر من مائة وراق في سوق واحدة . الوراقة تشمل نسخ الكتب وتجليدها وبيعها وبيع الورق وأدوات الكتابة . كما كان بعض الوراقين بدورهم علماء وأدباء يرتزقون بهذه المهنة (مثل ابن النديم وياقوت الحموي) وكانت دكاكينهم مجمع الأدباء والشعراء والعلماء .

ازدهرت الوراقة بسبب رغبة الناس في الكتب ، والمغالاة أحيانا في جمعها واقتناء المكتبات الخاصة . فاذا تركنا المكتبات العامة الموقوفة خاصة في المساجد والمدارس لأهل العلم وجدنا الخلفاء والكبراء وذوي اليسار يتبارون في انشاء المكتبات العامة والخاصة .

من أشهر هذه المكتبات ، دار الحكمة ، التي وجدت نواتها منذ عصر المنصور ، ولكنها نمت زمن الرشيد واشتهرت باسم المأمون لأنه عززها بالكثير من ترجمات الفلسفة والعلوم . يقابلها لدى الفاطميين مكتبة القصر الفاطمي . ومن مكتبات الكبراء مكتبة الصاحب بن عباد . وقد عرفت قرطبة بحب الكتب ، كما اشتهرت نيسابور (٤) .

هذه المكتبات لم تكن للدراسة فقط ، وكان في معظمها فريق من النساخين ، هم أشبه بالمطابع اليوم . كما كان بعضها مراكز دعوة دينية .

القرآن والحديث والفقه

القرآن كتاب الله المحكم أوحى به الى الرسول (ص) منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما هي « عصر الوحي » . نزل بعضه في مكة وبعض في المدينة . يغلب على آياته المكية القصر وهي في الدعوة لله وعلى المدنية الطول وأغلبها في التشريع . عدد سوره ١١٤ سورة . نقل متواترا كتابة (٣) وحفظا وترتيلا منذ عهد الرسول بدقة شديدة لم يعرفها أي كتاب .

جرى جمع نصوصه كاملة زمن أبي بكر . ونظمت آياته وسوره في مصحف موحد الترتيب (١) زمن عثمان بن عفان . يحوي أوامر الله ونواهيه فهو المصدر الأول والاساسي للتشريع في الاسلام (٤) .

١

كبار العلماء المؤلفين في علم الدين : الفقه ، التفسير ، الحديث ، الكلام ، التصوف

عبد الله بن إباض	الفقه الاباضي	ت ٧٠٥
الحسن البصري :	تأثر به الصوفيون	٦٤٢ - ٧٢٨
واصل بن عطاء :	رأس متكلمي المعتزلة	ت ٧٤٨
جعفر الصادق :	الفقه الجعفري	ت ٧٦٦
الأوزاعي :	الفقه الأوزاعي	ت ٧٤٤
أبو حنيفة :	المذهب الحنفي	٦٩٩ - ٧٦٧
مالك بن أنس :	المُوطأ	ت ٧٩٥
الشافعي :	كتاب الأم	٧٦٧ - ٨٢٠
النظّام :	(اعتزال)	ت ٨٤٥
أبو الهذيل العلاف :	(اعتزال)	ت ٨٥٠
ابن حنبل :	المُسند	ت ٨٥٥
الجاحظ :	(اعتزال)	ت ٨٦٨
البخاري :	الجامع الصحيح	ت ٨٧٠
مسلم بن الحجّاج :	الصحيح	ت ٨٧٤
داود الظاهري :	الفقه الظاهري	ت ٨٨٣
ابن ماجة :	السُنن	ت ٨٨٧
ابو داود :	السُنن	ت ٨٨٩
الترمذي :	الجامع الصحيح	ت ٨٩٢
النسائي :	السُنن	ت ٩١٥
الجبائي :	(اعتزال)	ت ٩١٥
الحلاّج :	(تصوف) كتاب الطواسين	ت ٩٢٢
الطبري (ابن جرير) :	جامع البيان في تفسير القرآن	ت ٩٢٣
الاشعري :	(الكلام) الابانة عن الديانة	٨٧٤ - ٩٣٦
الثعلبي :	الكشف والبيان عن تفسير القرآن	ت ١٠٣٥
الماوردي :	الأحكام السلطانية	ت ١٠٨٥

علوم القرآن

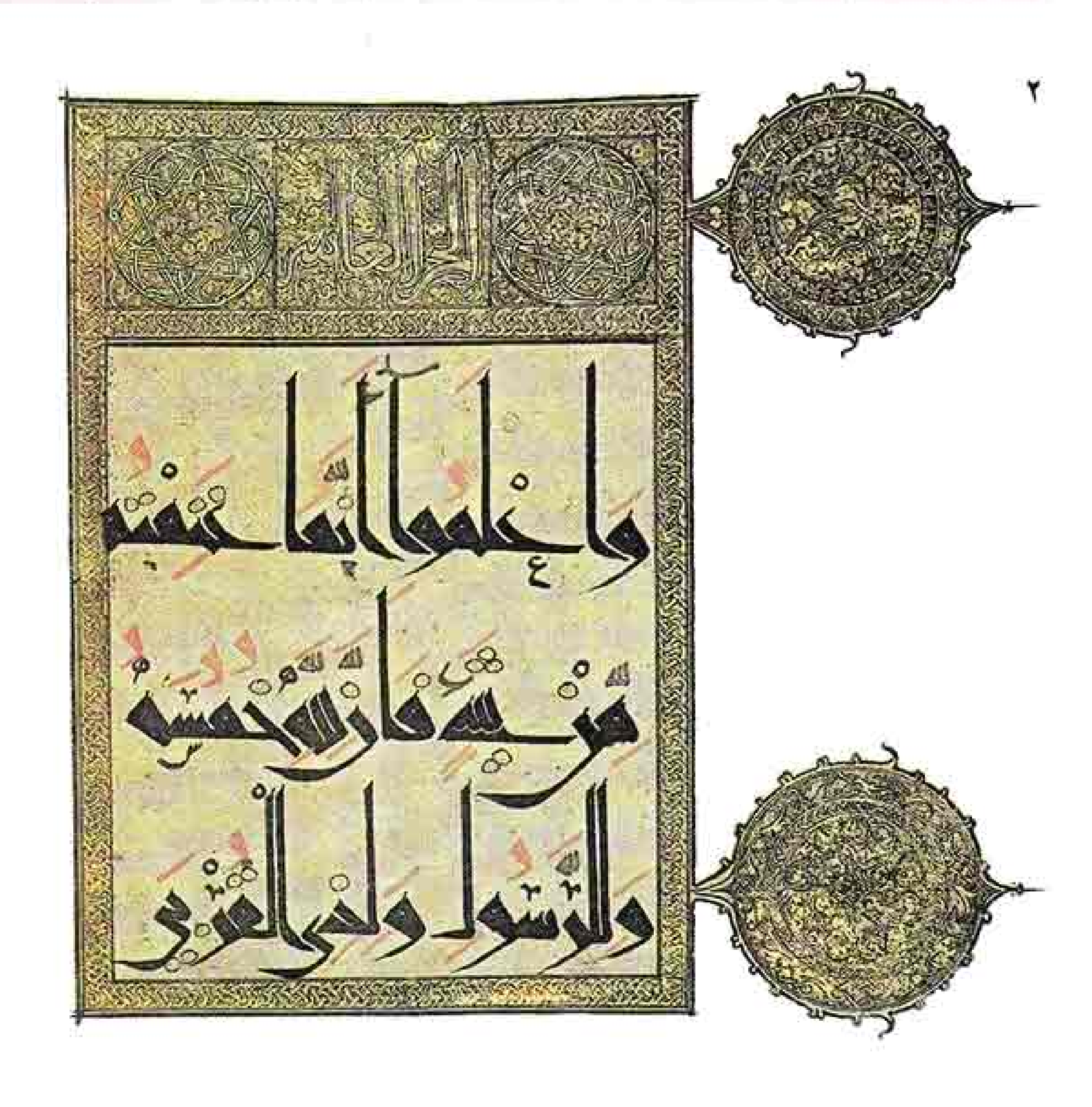
ما من كتاب كان موضوع دراسة في الاسلام ، وتفقه وتدبر وتأليف لدى المسلمين ، كما كان القرآن . ظهرت من حوله مجموعة من العلوم تسمى « علوم القرآن » . يتناول كل منها ناحية من نواحيه منها : علم اسباب النزول أو علم القراءات وعلم اعجاز القرآن . على أن أهمها هو علم التفسير ، ويقصد الى بيان معاني الآيات وتوضيحها وكشف المراد الدقيق منها . ازدادت الحاجة اليه بعد الفتوح ودخول غير العرب في الاسلام وتعقد الحياة والمشاكل .

ظهر في التفسير طريقتان :

التفسير بالمأثور : (أو المنقول أو الرواية) وهو تفسير الآيات بما اثر عن الرسول وأصحابه ، أو سمع عنه أو عنهم . من اشهر هذه التفاسير كتاب جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري سنة

البيهقي :	السنن	ت ١٠٦٦
الغزالي :	احياء علوم الدين	١١١١
الزمخشري :	الكشاف عن حقائق التنزيل	ت ١١٤٤
المرغنياني :	بداية المبتدى	ت ١١٩٧
الرازي :	التفسير الكبير	ت ١٢١٠
ابن عربي :	نصوص الحكم ، الفتوحات المكية	ت ١٢٣٧
ابن تيمية :	جدد المذهب الحنفي	ت ١٣٢٨
ابن قيم الجوزية :	اجتهادات في المذهب الحنبلي	ت ١٣٥٠

٢



(٢) ـ كان من البديهي أن يعنى المسلمون أشد العناية بالمصحف كتابة وتزيينا . كانت كتابته الأولى بالكوفية ولذلك ظلت المصاحف تكتب بها عدة قرون . لاسيما وأن شكلها العام تزييني أنيق . لكن تطور الكتابة العربية ما لبث أن ظهر في نسخ المصاحف بأنواع الخطوط الأخرى الأكثر سرعة والأوسع تداولا . وهكذا وجدت مصاحف كتبت بالقلم الفارسي وبخط الثلث وبالخط المغربي . الى أن شاع في المشرق العربي عامة اعتبارا من العصر المملوكي . وبخاصة في العهد العثماني ، كتابته بقلم النسخ وهو القلم الذي تطبع به الآن المصاحف .

(٣١٠ / ٩٢٢) يقع في ثلاثين جزءا . سار على نهجه الكثيرون .

التفسير بالرأي : ظهر نتيجة تطور الحياة العامة وزيادة التدبر للآيات بالفلسفة . منه كتاب مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي سنة (٦٠٦ / ١٢١٠) ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي سنة (٦٨٥ / ١٢٨٦) ، والكشاف للزمخشري سنة (٨٣٥ / ١١٤٣) .

هناك تفاسير جمعت المأثور والرأي كتفسير الطبري المتوفى سنة (٥٤٨ / ١١٥٣) أو فسرت القرآن على مذاهب معينة من الاعتزال أو الباطنية أو التصوف .

الحديث (أو السنة) :

وهو ما اثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير ، يفسر كتاب الله او يوضح ما لم يرد فيه . الحديث هو المصدر الاساسي الثاني للتشريع الاسلامي .

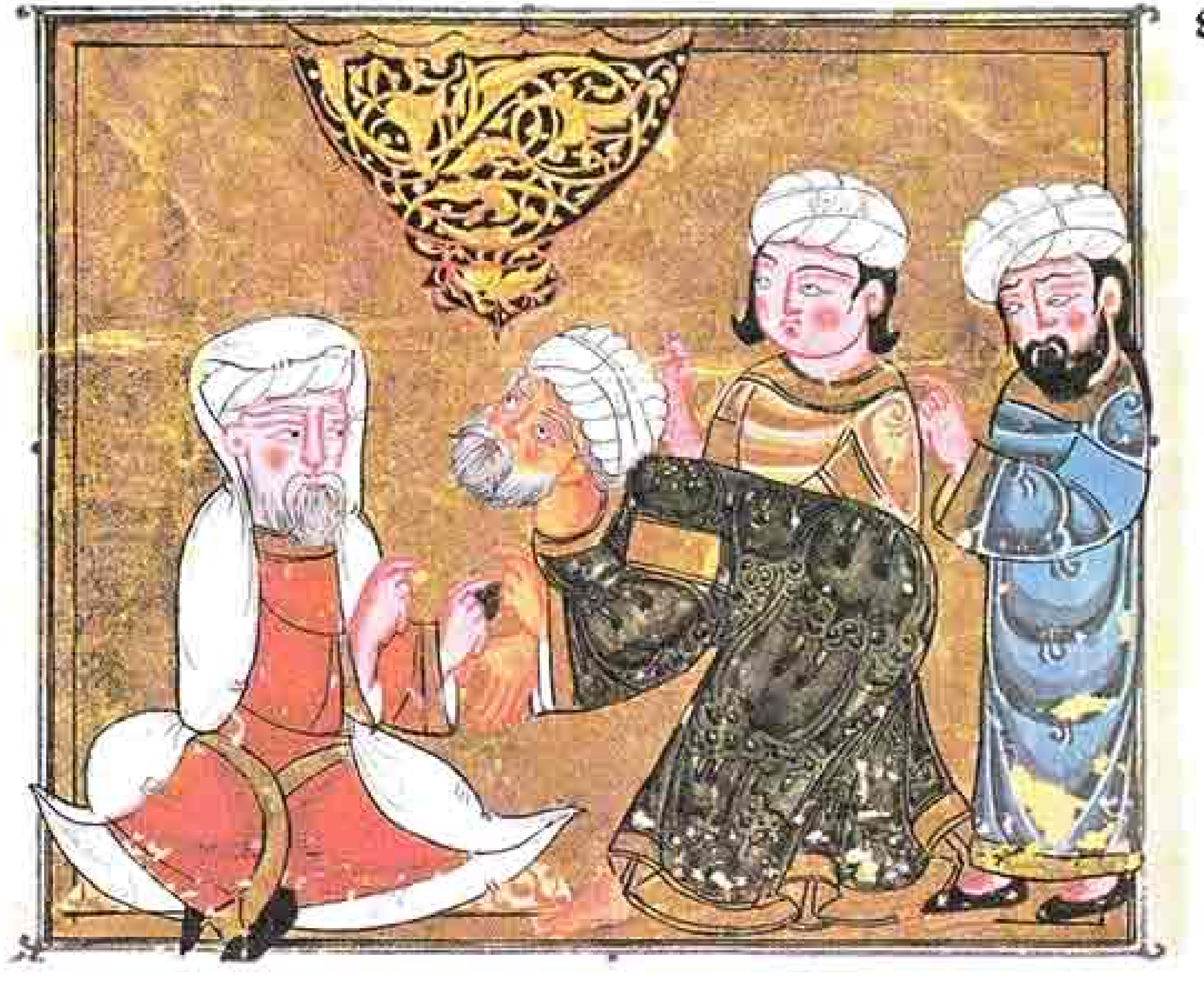
٣ أ



ب



٤



(٣) ـ مع تقديس القرآن تحوّل ما يتصل به فكرا الى علم ، وما يتصل به مادة الى فن . بجانب الكتابة والتذهيب والتجليد ، صار الحامل عملا فنيا . منه النموذجان : (أ) كرسي (ب) منضدة .

(٤) ـ القضاء الشرعي جزء اساسي من النظام الاسلامي . كان مجلس القاضي غالبا في الجامع ، وخاصة في العصور الأولى . يساعد القاضي الشهود وهم يهيئون له الدعاوى . تنوع المشاكل الحياتية أدى الى ضرورة التعمق في الفقه والاجتهاد في الأحكام . ظهر نتيجة لذلك عدد من المذاهب الاسلامية منها المذاهب السنية الأربعة الباقية . وقد كان معها في القرون الأولى للاسلام مذاهب سنية أخرى كمذاهب الأوزاعي والليث والثوري والطبري ومذاهب شيعية وخارجية . جميعها تعتمد القرآن والسنة لاستنباط الأحكام . بذل الفقهاء خير الجهد الفكري في ذلك . لكن آراءهم اختلفت في الطرائق والنتائج . بعضهم قبل الرأي والقياس والاجماع . وبعض رفضها وتشدد في الاعتماد على الحديث . وبعض رفض القياس وفتح باب الاجتهاد .

لم يدون تدوينا شاملا منظما كالقرآن . ولكنه روي عن الصحابة الذين سمعوا الرسول أو شهدوا أعماله . نشأ عن ذلك دخول الوضع أحيانا على الحديث . نتيجة الخلاف السياسي أو الفقهي أو العنصري وصعوبة حصره وتحديد الصحيح منه .

علماء الحديث تصدوا بجدارة كبيرة للمهمة الضخمة التي اقتضاها نقده . وانشأوا مصطلح الحديث أو « علوم الحديث » وهي مجموعة العلوم التي تستهدف في النهاية بيان الصحيح منه . والتفقه فيه ليكون اساس التشريع مع محاولة التعليل والتأويل . ومنها علم الجرح والتعديل لنقد الرواة وسند الأحاديث .

بدأ تدوين الحديث بشكل منظم منذ مطالع القرن الثاني للهجرة . من اوائل كتبه الموطأ للامام مالك بن انس سنة (٩٥ ـ ١٧٩ / ٧١٤ ـ ٧٩٥) ثم ظهرت في القرن الثالث مؤلفات عرفت لدى أهل السنة بالكتب الستة لشهرتها وتوثيقها وهي : صحيح البخاري (ت سنة ٢٥٦ / ٨٧٠) وصحيح مسلم (ت سنة ٢٦١ / ٨٧٥) وكتب السنن لابن ماجة سنة (٢٧٣) وابي داود السجستاني سنة (٢٧٣ / ٨٨٦) وجامع الترمذي (ت سنة ٢٧٩ / ٨٩٢) وسنن النسائي (ت سنة ٣٠٣ / ٩١٥) . في العصر نفسه ظهر من كتب الحديث المعتمدة المسند للامام أحمد بن حنبل سنة (٢٤١ / ٨٥٥) .

أما الشيعة فلا يقبلون من الحديث الا ما صدر عن الرسول أو روي عن الائمة المعصومين . اشهر كتب الحديث لديهم هو (الكافي) للكليني (المتوفى سنة ٣٢٩ / ٩٤١) و (فقيه من لا يحضره الفقيه) لابن بابويه القمي الصدوق (٣٨١ / ٩٩١) والاستبصار للشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧ . اهتم الشيعة كثيرا بعلم الرجال . ألفوا في ذلك الكثير من الكتب .

الفقه :

هو علم استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والسنة . أضيف اليهما لدى جمهور المسلمين الاجماع والقياس . وتردد أهل الحديث في قبول الرأي والاجتهاد الذي رضي به فقهاء الأمصار ذات الحياة المعقدة القديمة .

بلغ الفقه مستوى عاليا جدا من التطور ما بين اوائل القرن الثاني الهجري الى أواسط القرن الرابع (٨ ـ ١٠ م) وفي أوائل هذه الفترة ظهرت مذاهب الفقه السني الأربعة :

ـ الحنفي . وينسب الى أبي حنيفة النعمان (المتوفى ببغداد سنة ٧٦٨) .

ـ المالكي . ويرجع الى مالك بن انس (ت بالمدينة سنة ٧٩٥) والى كتابه الموطأ.

ـ الشافعي . واضعه هو محمد بن ادريس الشافعي (ت بمصر سنة ٨١٩) في كتابه الأم.

ـ الحنبلي . وصاحبه أحمد بن حنبل وضع أصوله في كتاب المسند .

في الفترة نفسها ظهرت أيضا المذاهب المعروفة في الفقه الشيعي :

ـ الزيدي . نسبة الى زيد بن علي زين العابدين (قتل سنة ٧٤٠ م).وينتشر في اليمن .

ـ الجعفري . نسبة للامام جعفر الصادق (ت سنة ٧٦٦) . وهو المذهب في ايران .

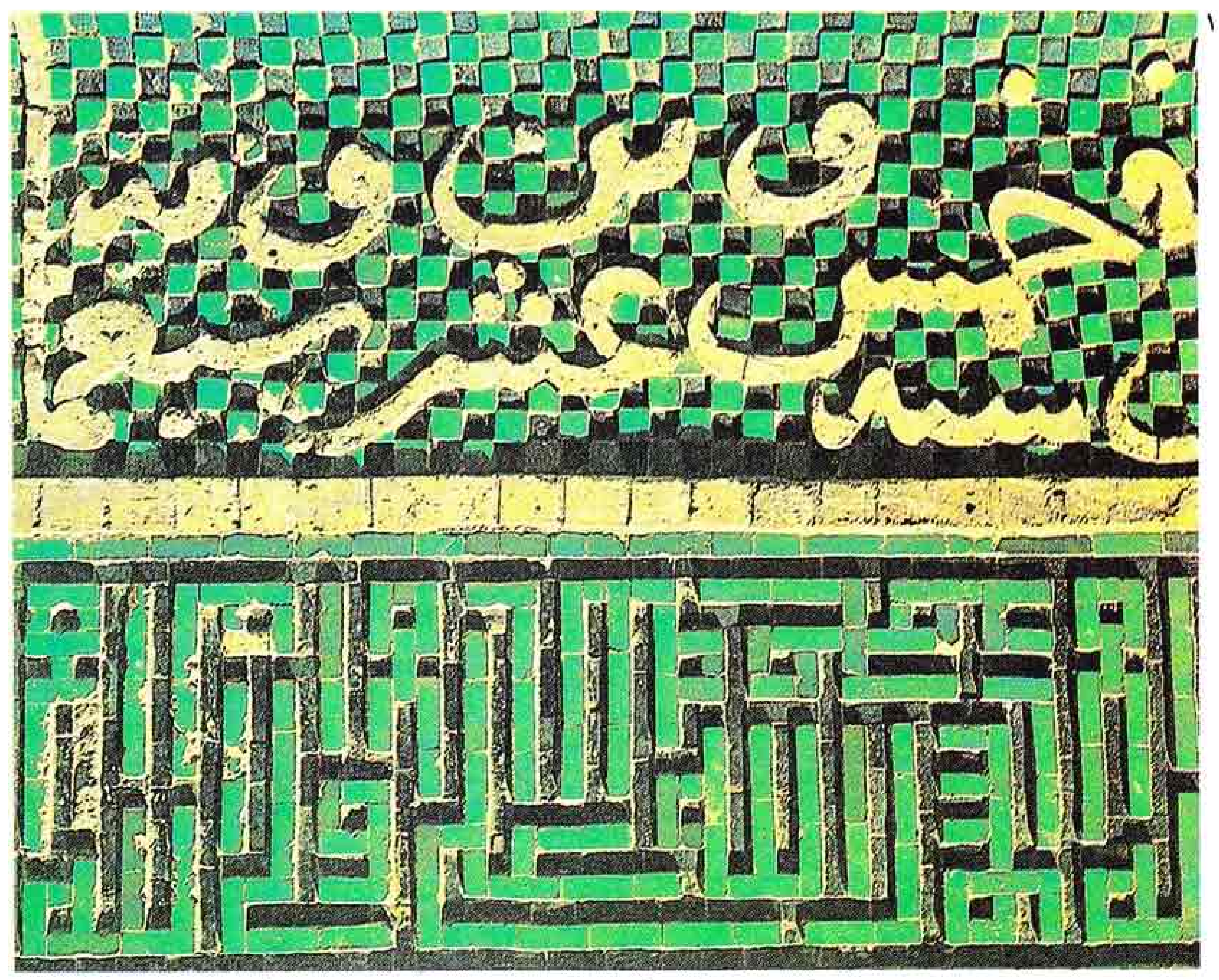
ـ الاسماعيلي . ويأخذ اسمه من اسماعيل ابن الصادق . وتتفرع منه مذاهب عديدة .

أما الفقه الخارجي فبقي منه مذهب الاباضية وينسب الى عبدالله بن اباض (ت ٧٠٥).

العلوم اللسانية والكتابة العربيّة

أصبحت اللغة العربية ، بعد ظهور الاسلام لغة الدين والفكر على امتداد الدولة . ساعد الاسلام على انتشارها لأنها لغة القرآن والحديث ، كما ساعد الحكم السياسي بوصفها لغة الحاكمين . ثم أعانتها خصائصها ونظامها اللساني الدقيق ، وغناها في المفردات والاشتقاق ، على أن تصبح بسرعة اللغة الأولى للمعرفة والثقافة والتجارة والسياسة في العالم خلال ثمانية قرون على الأقل . على هامشها عاشت الفارسية والتركية والبربرية خلال ذلك . على ان معرفة العربية لم تكن بالأمر السهل بالنسبة لغير العرب ، فانها لم تكن مكتوبة ولا مجموعة الألفاظ ولا منظمة القواعد أيام الفتوح . واذا كان من السهل

١



(١) ـ تظل نماذج التطور في الخطين الكوفي والنسخي ، أكثر النماذج توفرا لأنهما أقدم الأقلام من جهة ، ولأنهما استخدما بكثرة لتزيين الأبنية سواء بالآيات القرآنية أو تسجيل أصحاب البناء وتاريخه. الكتابتان اللتان تظهران على واجهة خانقاه ناتنز في ايران تقدمان نموذجين من الخط النسخي والكوفي معا ، مع تاريخهما سنة ٧٢٥ المعادل ١٣٢٤ م . استعمال الآجر في البناء هو الذي أوصل الخط الكوفي الهندسي الظاهر في الأسفل بشكل كتابة من الآجر المغشى بطبقة من الخزف الأخضر . أما الكتابة النسخية في الأعلى فكانت أكثر صعوبة لاستدارة خطوطها .

تبني كتابة محددة لها ، اشتقت من النبطية فقد كان من الضروري بذل الجهود الكبيرة لجمع مفرداتها وترتيبها من جهة ، وتنظيم قواعدها من جهة أخرى . بدأ جمع وتدوين اللغة والمعاجم في القرن الثاني الهجري (٨ م) مع الأصمعي (٨٢٨ م) وأبي عبيدة وغيرهما . دونوها أولا في رسائل حول مواضيع معينة (الخيل ، الابل ، النخيل ، خلق الانسان) وكان أول من رتب الفاظ اللغة على حروف الهجاء هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ) واضع علم العروض أيضا ، وبدأ بحرف العين فسمى معجمه كتاب العين . ثم توالى وضع المعاجم في القرن الرابع خاصة .

النحو

ما كان للغة العربية ان تحافظ على سلامتها ، بعد توطن العرب في المنازل المفتوحة ، وكلام غير العرب بها . حين شاع

٢ أ



ب

ت



(٢) ـ الكتابة الكوفية في القرن التاسع ، ومنها النص القرآني (أ) « فاتقوا الله واطيعون ... الآية » كانت مرحلة متطورة عن كتابة القرنين السابع والثامن . ومع ذلك عرفت الكوفية تطورا خاصا تزيينيا في ايران لم يؤثر كثيرا في تطور الخط العربي وان كتبت فيه أعداد من المصاحف . نرى نموذجا من هذا التطور في صفحة من القرآن (ب) كتبت في فارس في القرن العاشر وفيها الآية الكريمة « والله / عليم بالظالمين لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ... (الآية ٤٧ وما بعدها من التوبة) . وأما كتابة الصحن الخزفي (ت) المصنوع في العراق (القرن ١٠ ـ ١١) فهي تطور آخر باتجاه الكوفي الهندسي . الخط العربي علم واسع . القلقشندي (١٣٥٥ ـ ١٤١٨) من كبار كتاب العصر المملوكي ، كتب في موسوعته الضخمة (صبح الأعشى في صناعة الانشاء) ما يزيد على ٣٠٠ صفحة حول فن الخط وتاريخ الخط وتحسينه وهندسة الحروف وأنواع الأقلام .

اللحن في قراءة آيات القرآن ارتاع الناس . يقولون ان أبا الأسود الدؤلي وضع بأمر من الامام علي بعض الارشادات النحوية . يبدو انه تأثر فيها بالنحو السرياني والهندي . في البصرة كان ذلك ، ثم تبعته الكوفة . وفي المصرين بذل العلماء - وكثير منهم من غير العرب - جهودا كبيرة لوضع القواعد التي تعلم الناس صحة الكلام .

نشأت مدرستا البصرة والكوفة من هذه الجهود . الفرق بينهما اعتماد البصرة على القياس والكوفة على الرواية والسماع . حين ظهرت بغداد ، انتقل نشاط البلدين اليها . من أشهر علماء البصرة ، سيبويه (١٧١ - ٧٨٧) صاحب (الكتاب) في النحو .

الكتابة العربية

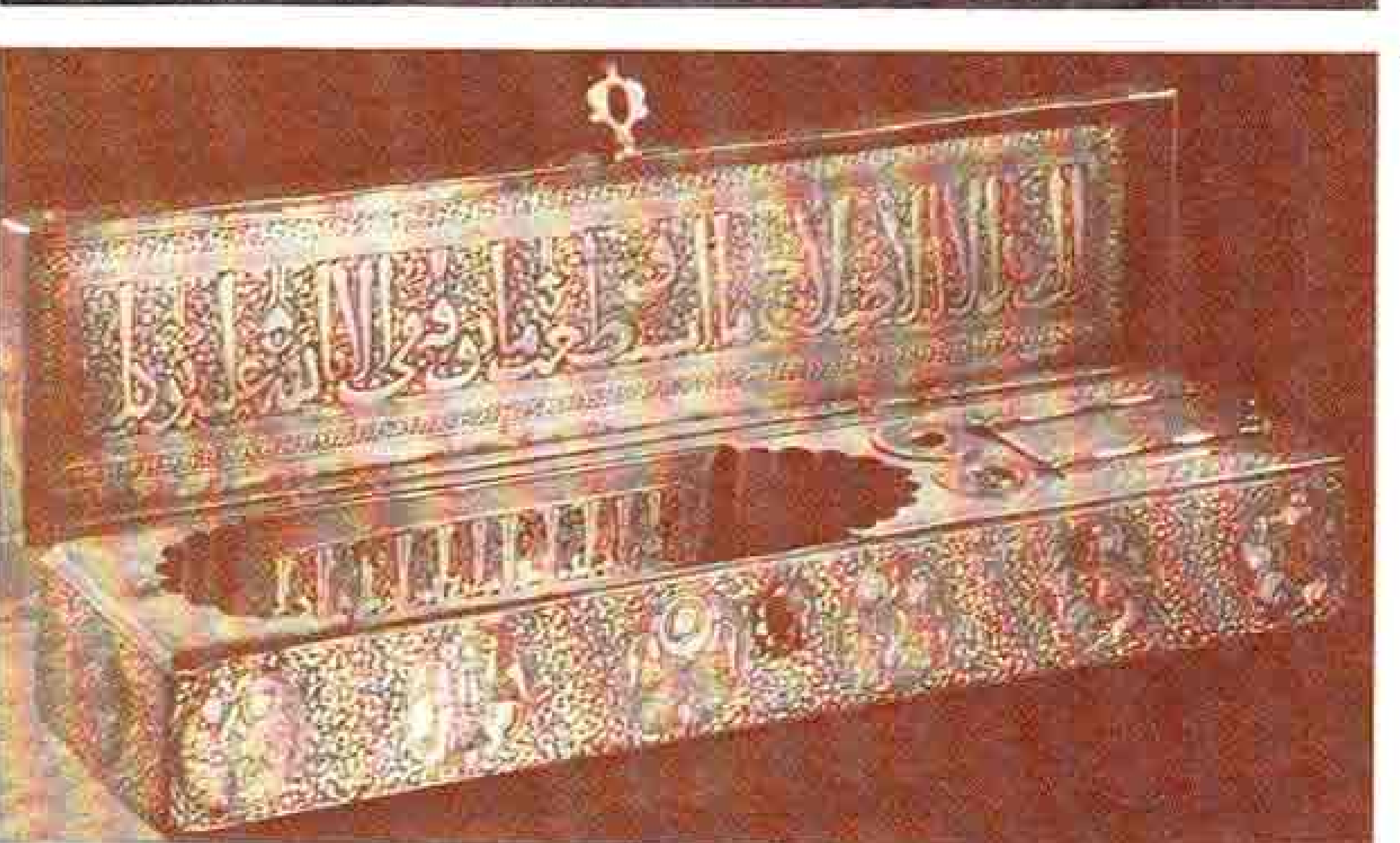
ظل عرب الجنوب يكتبون حوالى خمسة عشر قرنا قبل الاسلام بخطهم المشتق من

٣



(٣) - هذه الصفحة من القرآن الكريم كتبت بالخط الكوفي الشائع في كتابة المصاحف في القرن التاسع ، ولكن بالذهب على رق أزرق . ينسب ظهور هذا النوع من الخط الى القيروان . كانت الكتابة بالذهب على الرق والورق الثمين في القرن العاشر في الأندلس مقصورة على كتب البلاط . يكتبها كتاب الدولة المختصون بذلك الخط . ولعل هذا المصحف من أعمالهم . ونقرأ في الصفحة : واذكروه كما هداكم ... (سورة البقرة، الآيات ١٩٧ - ٢٠٢) .

٤



(٤) - كانت الكتابة تجري بقلم خاص من القصب (القلم الغزار) يبرى ليكتب به لدى الخطاط . عشرات من هذه الأقلام مختلفة الثخن حسب عرض الخط المطلوب . توضع الأقلام في وعاء قد يتصل بالدواة . الطبقة الارستقراطية من الكتاب كانت لهم محابرهم الارستقراطية تنقش وتكفت بالذهب والفضة . منها هذه الدواة - المقلمة البرونزية (صنع الموصل - القرن ١٣) .

الفينيقية والذي يدعونه المسند (= الخط) . أما في الشمال . فكتب العرب في الفترة نفسها بالخط الثمودي . قبيل الاسلام تسرب الى شمال الجزيرة حتى مكة الخط النبطي وتطور فيه رسم بعض الحروف . جرى هذا الانتقال عن طريق جنوب سوريا . كما جرى عن طريق الحيرة ، التي كانت تكتب بالخط نفسه قبل عدة قرون وعلاقاتها مع مكة قوية عبر دومة الجندل .

كانت حاجة تجار مكة الى الكتابة كبيرة ، لكن حاجة عصر الرسول والراشدين اليها كانت أكبر . شجع الرسول على تعلم الكتابة ، وكان من حوله عدد من الكتاب كتبوا بالاحرف النبطية ، حسب ما تطورت اشكالها لديهم . هذا التطور لم يكن موحدا ولذلك كان فيه ما سماه العرب بالخط الانباري والخط الحيري قبل الاسلام . وما سموه بالخط المدني والمكي والبصري والكوفي بعده . وعرفت كلها بالخط الحجازي في العراق . ولانت بسرعة اشكال حروفه بسبب الحاجة الى المرونة والسرعة ، فاستخدم في الأغراض اليومية وفي حركة التدوين والرسائل لدى الخاصة . لكن الكوفة تميزت بالحفاظ على شكل الحروف وتحديد كتابتها بشكل يابس مائل الى التربيع . ما لبث هذا الخط ان انتشر ، عن طريق كتابة المصاحف به (٢) ، وعرف باسم الخط الكوفي ، مع ان الكوفة كانت تكتب أيضا بالخطوط اللينة . ولعل « الكوفي » هو نفسه الذي كان يسمى البسط مقابل الكتابة اللينة التي عرفت بالتقوير .

أقلام الخط العربي

مشى الخط العربي في التطور بعد ذلك . خرج من الخط اللين السريع الخط الذي سوف يعرف بالنسخ ، بينما ظل « الكوفي » بسبب ارتباطه الجمالي بكتابة المصاحف يتطور بشكل زخرفي فقط (٣) .

لم تكن الكتابة العربية معجمة يومذاك وخاف الحجاج الثقفي تصحيف القرآن ، فأمر بالاعجام أي بتنقيط الأحرف ، ووضع الشكل وابتكرت علاماته . في العصر العباسي تعددت من القلم اللين النسخي الأقلام بالتدريج . ظهرت خطوط سميت بمقادير عرض الاقلام التي تكتب بها كالثلث والنصف والثلثين . كما نسبت الى الاغراض التي كانت تؤديها كالتوقيع والطومار والجليل ، أو اضيفت الى مبتكرها كالرياسي أو عرفت بهيئتها كالمسلسل الذي ليس في حروفه حرف ينفصل عن غيره ، أو سميت احيانا باسماء المدن والاقطار التي تكتبها كالبغدادي ، والمصري والفارسي والمغربي الاندلسي بسبب ما اكتسب الخط في كل قطر من خصائص محلية . صار في خط كل قطر انواع وطرائق ، فمنها الديواني والريحاني والفارسي والرقعي (٤). وانتهت جودة الخط في مطلع القرن الرابع الى الوزير ابي علي محمد ابن مقلة (توفي سنة ٣٢٨ / ٩٤٠) الذي بلغ بخط الثلث والنسخ مبلغ الكمال . جاء من بعده في الشهرة ابن البواب علي بن هلال (ت ٤١٣ / ١٠٢٢) فصارت طريقته في الخط مدرسة للخطاطين من بعده . ومن أشهرهم ياقوت المستعصمي (توفي سنة ٨٦٩ / ١٢٩٩) .

الأدب العربي

الأدب ، (والشعر بخاصة) ، كان من الاهتمامات الأولى للفكر العربي . البيان له عند العرب فعل السحر . حين الفتح كان العنصر الثاني من ثقافتهم بعد القرآن والاسلام ، هو الشعر الجاهلي ، « ديوان العرب » . روائعه ظلت تروى شفاها ، حوالى قرن وبعض القرن في الاسلام، قبل ان تسجل وتدون . لهذا تشكك الباحثون في نسبتها وظنوا فيها الوضع . لكن كثرة عدد الشعراء (أكثر من ١٥٠) ، وتنوع الأساليب تنفي الكثير من الشك .

المحاولات الاولى للشعر الجاهلي مجهولة ضائعة . ما وصلنا هو شعر القرن السادس الميلادي بعد ان بلغ الغاية في الاحكام لغة واوزانا وقافية وموسيقى ونظام قصيدة . وقد

١

(١) ـ كتاب الأغاني واحد من كتب الأدب العربي الكبرى . مجلداته التي تبلغ واحدا وعشرين مجلدا حوت أخبار الأدب . ومن خلال ذلك الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية . خلال القرون الأربعة الأولى للاسلام . مؤلفه أبو الفرج الأصبهاني (٨٩٧ ـ ٩٦٧) هو حفيد آخر خلفاء بني أمية . خزائن الكتب في المشرق والمغرب عنيت بهذا الكتاب الضخم وبعضها زينه بالرسوم ونجد في الصورة غلاف هذا الكتاب وقد رسم حوالى سنة ١٢٣٠ في الموصل (من مكتبة فيض الله باسطنبول) .

(٢) ـ قصة (مجنون ليلى) قصة عربية مشهورة وكما نفذت القصص الأجنبية الى العربية ، نفذت قصة المجنون الى الفارسية . ترجمت وكتبت نثرا وشعرا وصورت بعض نسخها كما نرى في الصورة التي تصور زيارة المجنون للكعبة ودعاءه عندها لعل الله يشفيه من حبها . (وهي من مخطوط كتب ورسم في القرن الرابع عشر) .

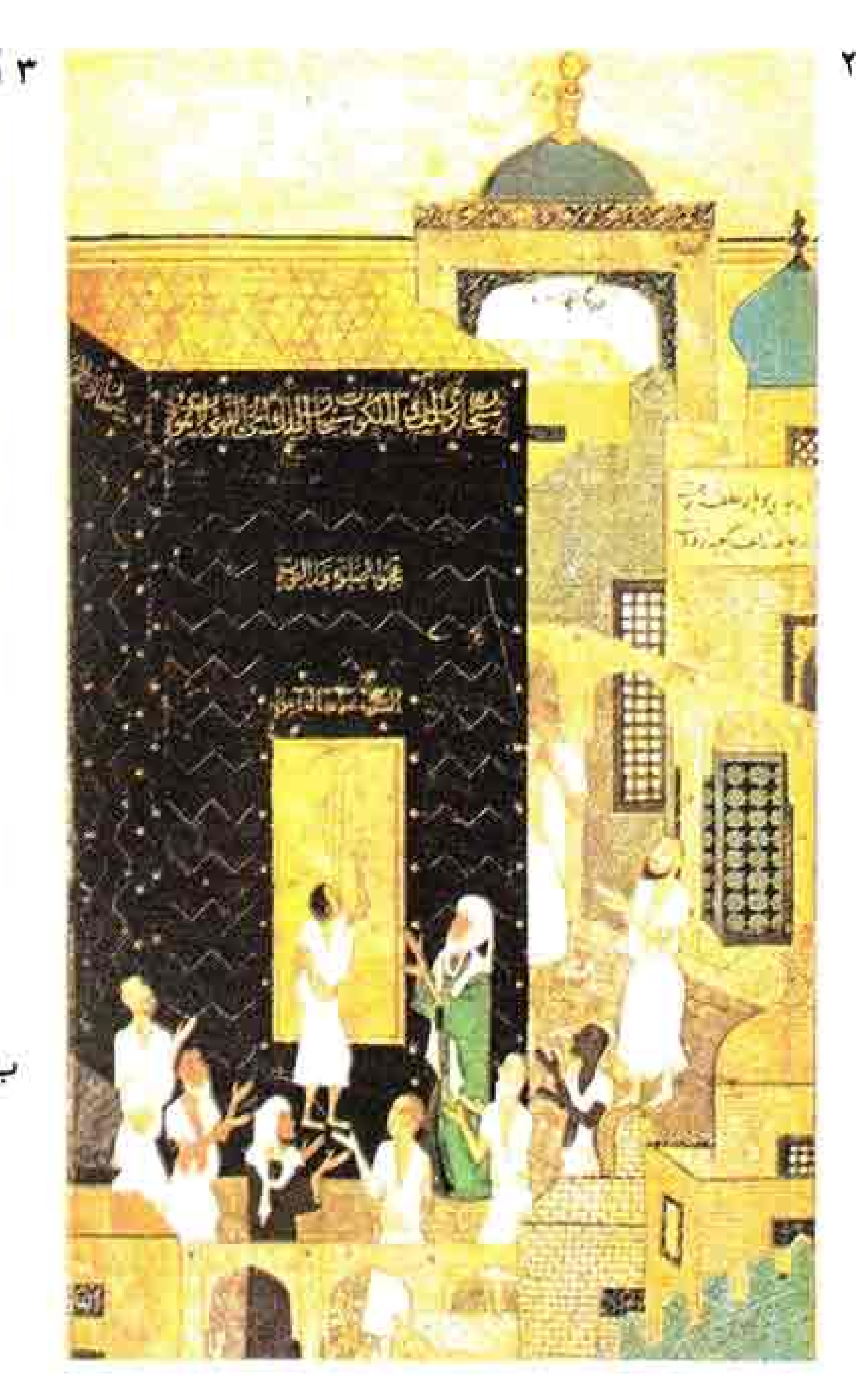
ضاع شعر اللهجات العربية المختلفة ، وشعر اليمن والجنوب ، وبقي شعر الجزء الشمالي من الجزيرة واللهجة القرشية . أشهر ما بقي هو المعلقات السبع او العشر . وقد سميت بالمعلقات لجودتها . أول اصحابها واقدمهم هو امرؤ القيس وريث عرش كندة (المتوفى حوالى سنة ٥٥٠) .

كان الشعر الجاهلي يشارك في اسواق العرب بوصفه بضاعة الفكر . كما كان من الاثر بحيث يرفع ويضع وينشر المآثر او المخازي . لسهولة حفظ الموزون من الكلام وللرغبة في روايته . تميز شعر الجاهلية بمتانته اللغوية وصوره الحسية والصحراوية .

الأدب في صدر الاسلام

الشعراء المخضرمون الاوائل امثال حسان بن ثابت شاعر الرسول (توفي حوالى سنة ٦٧٠) وكعب بن زهير (حوالى سنة ٦٦٢)

٢



٣ أ



ب



(٣) - ترجم ابن المقفع (ت سنة ٧٦٠) كليلة ودمنة في قالب عربي جعله من روائع النثر . حكاياته بحث عميق في السلطة والسياسة يرويه (ب) بيدبا الفيلسوف لدبلشيم الملك . في (أ) مشهد من حكاية الأسد وابن آوى (من مخطوط رسم بسوريا أوائل القرن ١٣) .

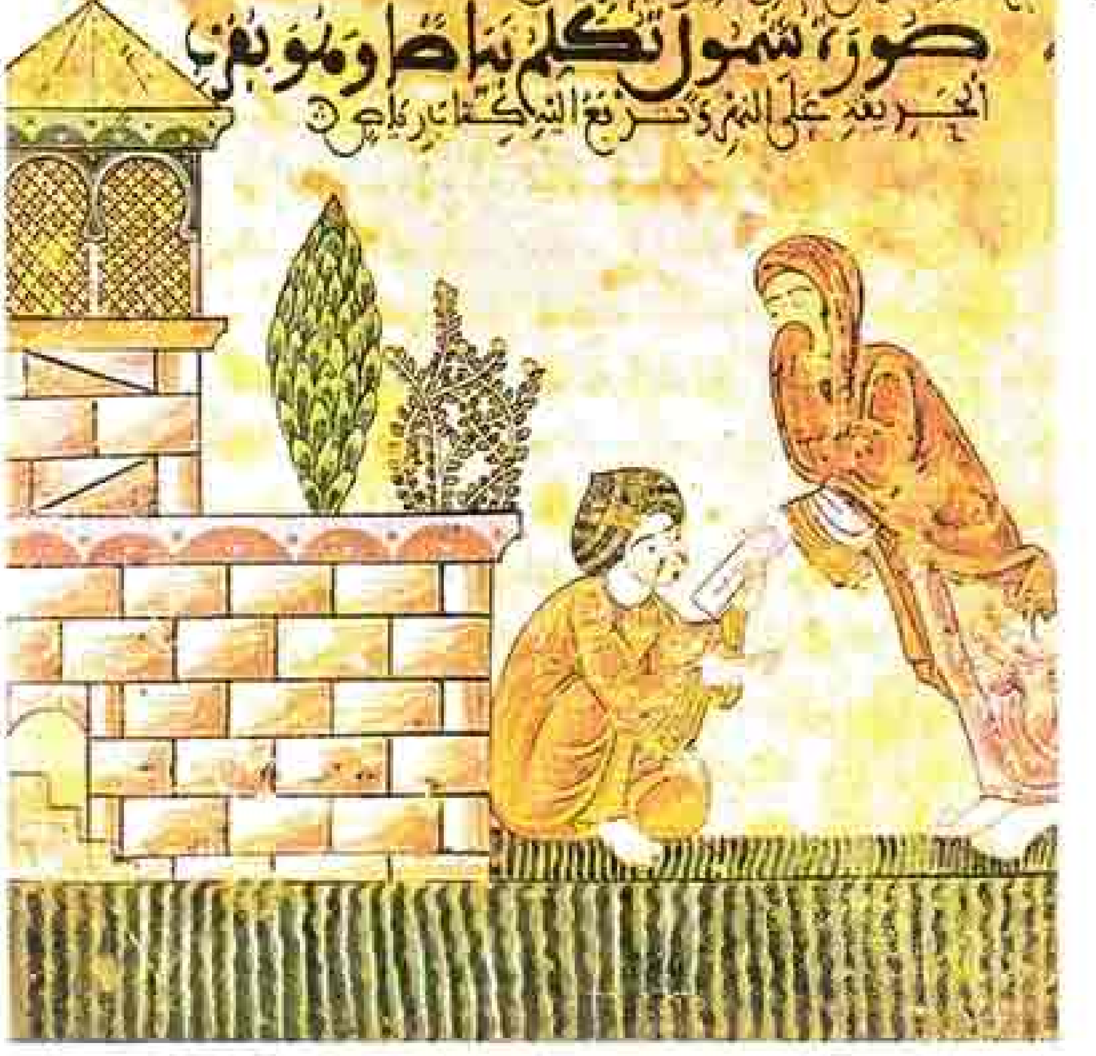
والخنساء كان شعرهم امتدادا للشعر الجاهلي في مبناه ولكن بروح اسلامية .

يجب ان ننتظر ذهاب معظم القرن الهجري الأول لنرى الشعر يعاود مكانته في الجو الفكري . بظهور الثلاثي : الأخطل (ت حوالى ٩٥ / ٧١٣) وجرير (٧٣٢) والفرزدق (ت سنة ٧٣٢ ايضا) وظهور شعراء الغزل الحر (مثل عمر بن ابي ربيعة المتوفى سنة ٩٣ هـ / ٧١١) ومدرسة الحب العذري (ومنها جميل بن معمر ت سنة ٧٠٠ وكثير عزة وقيس الملوح) . ظهرت الكتابة الأدبية مع عبد الحميد الكاتب (٧٥٠) وابن المقفع (٧٦٠) (٣) .

الأدب العباسي

ما ان بدأ العصر العباسي حتى أخذت آثار التمازج الثقافي والحياة الحضرية والفكر الجديد تظهر في الشعر العربي . أصحاب

٤



٥



٦

(٤) ـ في الأندلس والمغرب شاعت قصة حب تماثل قصص المجنون قيس الملوح في المشرق : قصة بياض ورياض . الصورة للمشهد المأسوي منها حين يسمع بياض ما جرى لحبيبته من السوء فيقع مغشيا عليه . رسم المشهد في الأندلس أو المغرب لتزيين مخطوط من القرن الثالث عشر .

---

(٥) ـ ترجم الكثير من القصص عن الهندية والفارسية وغيرها كما أضاف المؤلفون العرب جانبا طيبا اليها وبخاصة من قصص الحب . هذه القصص جمع منها الجهشياري وألف ما يزيد على ٤٠٠ سمر كان يريد أن يبلغها الى الألف . كل سمر ليلة كاملة . من بين المخطوطات النادرة التي وصلتنا من القرن التاسع . قطعة (أ) من مخطوط يحوي نهاية قصة حب تقول ان الحبيبين ماتا في قبرين متجاورين وقامت نخلة بين القبرين تجمعهما .

---

(٦) ـ لم تعد ألف ليلة وليلة من كتب القصص العربي فقط ولكنها أضحت من كتب القصص العالمي بعد أن ترجمت منذ أكثر من قرنين الى اليوم الى معظم اللغات الحية . وتركت تأثيراتها في الكثير من كتاب الغرب والشرق . اجتمعت قصصها من موارد مختلفة أخذت شكلها النهائي في العهد المملوكي . وهي رغم طابعها الخيالي تعكس الكثير من الأحلام الشعبية والواقع الاجتماعي .

الشعر الجديد الاوائل عرفوا بالمولدين . شعرهم كان أكثر رقة وصنعة وصورا . بشار بن برد (قتل سنة ١٦٨ / ٧٨٤) وابو نواس (سنة ١٩٨ / ٨٠٣) كانا من الرائدين . تلاهما في القرن التالي ابو تمام (سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٦) والبحتري (٢٨٤ / ٨٩٧) وابن الرومي (٢٨٣ / ٨٩٦) الى ان جاء المتنبي (قتل سنة ٣٥٤ / ٨٩٦) . فشكل هؤلاء جميعا قمة الشعر العربي وأخلد تراثه . لا يلحق بهم من بعد الا أبو العلاء المعري (٤٤٩ / ١٠٥٧) شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء .

تطور مماثل ظهر في النثر الأدبي . مع الايام . برزت . مع انتشار الورق واستبحار الحضارة . الكتابة الادبية . كان الجاحظ (توفي سنة ٢٥٥ / ٨٦٩) قمة النثر . يأتي من بعده طبقة من المترسلين ومن نقاد الأدب . خلال ذلك يدخل النثر مرحلة الصنعة والتكلف مع ابن العميد (٣٥٩ - ٩٦٩) والصاحب بن عباد (٣٨٥ / ٩٩٥) . يبلغ هذا الاسلوب المتكلف بالسجع والتجميل ذروته مع بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨ / ١٠٠٧) الذي ابتكر في الادب اسلوب المقامة . يقلده الحريري من بعده (٥١٦ / ١١٢٢) بعد هؤلاء أصبح التصنع البديعي سيد اساليب الكتابة حتى مطلع العصر الحديث .

لا يقتصر تراث الأدب العربي على هذه الجماعات المبدعة . فان ثمة بجانبها أدبا نثريا لا يقل شأنا عنها . ومنه كتب أدبية خالدة مثل كتاب الاغاني لأبي الفرج الأصبهاني (ت ٩٦٧) . والمقابسات لأبي حيان التوحيدي (ت ١٠١٠) . ونشوار المحاضرة للتنوخي (ت ٩٩٤) . وزهر الآداب للحصري القيرواني (ت ١٠٦٤) (١) .

الأدب الشعبي

في الطبقات الشعبية كان أدب آخر يتكون قوامه القصة (٢) . من حصيلة القصص المتداولة تكونت حتى القرن الرابع نواة الف ليلة وليلة (٦) التي تطورت بالزيادة والتعديل حتى أخذت شكلها الاخير في العصر المملوكي . نشأ بجانبها قصص شعبي مماثل كتب بعضه في العراق والشام وبعضه في مصر فيما بين القرنين الرابع والثامن للهجرة (١٠ - ١٤ م) . وكان منه القصص المطولة : عنترة . الأميرة ذات الهمة . تغريبة بني هلال . الملك الظاهر . علي الزيبق وكلها تعكس آلام الجماعات الشعبية .

في المغرب والاندلس كان الشعر والنثر يمشيان في خطى المشرق (٥) . اشتهر خاصة من الشعراء ابن هانىء الاندلسي (٣٦٢ / ٩٧٣) متنبي المغرب . وابن زيدون (٤٦٣ / ١٠٧١) وابن خفاجة (٥٣٤ / ١١٣٩) . برز من الادباء الكتاب ابن عبد ربه (٢٤٦ / ٨٦٠) صاحب كتاب العقد الفريد وابن حزم الظاهري (٤٥٦ / ١٠٦٤) صاحب « طوق الحمامة » وهو في الحب . وقد ترجم الى عدد من اللغات .

في الاندلس تطورت صنعة الشعر في اتجاهين :

- كسرت تقاليد القصيدة بايجاد الموشحات للشعر الغنائي ومن كبار اصحابها ابو العباس التطيلي (٥٢٠ / ١١٢٦) .
- طورت الشعر الشعبي المعروف بالزجل . وجعلت منه نوعا ادبيا راقيا بجهود ابن قزمان (٥٥٥ / ١١٦٠) .

الاتجاهان معا اثرا في الشعر العربي وفي تطور الشعر الاسباني والفرنسي فيما بعد .

العلوم الانسانيّة

في سنة ١٦ هـ حين اتخذ عمر بن الخطاب عام الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي (ويعادل سنة ٦٢٢ م) لم يكن يضع أساس علم التاريخ ، ولكنه وضع التوقيت الزمني . التاريخ كانت معلوماته العامة شائعة شفاها بين العرب . نجد اصداءها في تذكير القرآن للناس بها ، كما نجدها في أخبار العرب وأيامهم وفي قصصهم عن ملوك اليمن وغسان والمناذرة وفي رواية الانساب .

سيرة النبي ، ثم ظهور الاسلام وفتوحاته الصاعقة ، كانت من الاحداث التي هزت العرب هزا ، فأقبلوا يروونها . كما بحثوا عن تفاصيل الاشارات التاريخية القرآنية . وبعضهم بحث عن أخبار الشعوب الأخرى المغلوبة .

١



(١) ـ كتب التاريخ المصورة ليست بالكثيرة . في التراث الاسلامي المخطوط . وانما كثرت في ايران ثم في الأناضول العثماني بعد القرن الثاني عشر . الرسامون وجدوا في بعض النسخ التي تهدى للملوك والكبراء مجالا لابراز موهبتهم الفنية . بعضهم تجرأ فرسم السيرة النبوية . على ان التصوير التاريخي انصب على الفترات المتأخرة . في مخطوط رسم أواخر القرن الخامس عشر . نجد مشهد حصار تيمورلنك للاستبارية في ازمير سنة ١٤٠٢ .

من مجموعة ذلك تكونت ثروة تاريخية تخصص الاخباريون في جمعها وروايتها . الاهتمام الاساسي كان أولا بالسيرة النبوية لأسباب واضحة . اكتملت اخبارها المروية على يد محمد بن اسحق (سنة ٧٦٨ م) ومحمد الواقدي (سنة ٨٢٢) . اهتم الاخباريون بالفتوح ، لاسباب ادارية . كان أبرز من كتبها البلاذري (المتوفى سنة ٨٩٢). منذ القرن الثالث ، بدأت هذه الاخبار تسمى بالتاريخ ، على يد خليفة بن خياط (سنة ٨٥٤) ومن بعده . في أواخر القرن نفسه ، يظهر ابن جرير الطبري (سنة ٩٢٣) أول المؤرخين الكبار . ظل عشر سنوات يملي كتابه الضخم تاريخ الأمم والملوك .

التاريخ عند العرب

اهتمت الثقافة العربية بالتاريخ كل الاهتمام . ما من أمة صرفت عليه مثل الجهد

(٢) ـ الأطلس الجغرافي العربي مملوء بمحاولات رسم الخرائط للمناطق المعروفة من العالم وبخاصة للبلاد الاسلامية . معظم الخرائط في المخطوطات التراثية نقلت نقلا من الأصول التي وضعها مخططوها الأولون . وهؤلاء انما وضعوها على ضوء معارفهم الوصفية لا نتيجة فن خاص برسم الخرائط . ملاحو المحيط الهندي كانت لديهم خرائطهم الخاصة . ولكن الجغرافيين وضعوا مصورات أشبه بأن تكون هيكلية لا واقعية . وقصد بها لا الى تصوير الواقع الجغرافي الأرضي ولكن الى الدلالة الشكلية عليه . في عهد المأمون (أوائل القرن ٩) رسمت أول خريطة للعالم سميت « الصورة المأمونية » وقد ضاع أثرها وذكر المسعودي انها أكثر دقة من خارطة بطليموس . خلال القرن العاشر ظهر كتاب « صورة الأرض » لمحمد بن موسى الخوارزمي ، وهو فلكي رياضي . لكن الرحلات البحرية بعد ذلك ساعدت على عمق المعلومات الجغرافية وزيادة الخرائط في كتب الجغرافيا ، لاسيما مؤلفات القرن العاشر الذي يعتبر قرن الجغرافيا العربية . من خرائط القرن التاسع ، خارطة الاصطخري شمال أفريقيا واسبانيا على الشكل الذي نراه في (أ) ورسم ابن حوقل (ب) لغربي آسيا . الخريطتان تأخذان الشكل الهندسي لأنهما تقومان على الأساس الوصفي . تقدم رسم الخرائط بعد ذلك منذ القرن السادس عشر على يد بيري ريس العثماني .



الذي صرفه علماء الاسلام . ألفوا فيه ما يزيد على عشرين ألف كتاب ، بعضها في عشرين او اربعين او ثمانين أو مائة مجلد . من أشهر المؤرخين : المسعودي (سنة ٣٤٦) المؤلف الموسوعي ، وابن الأثير (ت سنة ٦٣٠) صاحب الكامل في التاريخ .

بلغ التاريخ شأوا كبيرا منذ أواخر القرن ١٣ حتى أواسط ١٥ بصورة خاصة بظهور عدد من المؤرخين منهم : الذهبي (١٣٤٩) صاحب تاريخ الاسلام . والمقريزي (١٤٤١) مؤرخ مصر المشهور . وقد ظهر في الأندلس كثيرون ، منهم ابن حيان (١٠٧٠) مؤرخ الاندلس الكبير . ولسان الدين الخطيب الوزير الطبيب (ت سنة ١٣٧٤) .

كتب المؤرخون العرب في جميع ألوان التاريخ المعروفة : في التاريخ السياسي والسير وتراجم الرجال ومواضيع الحضارة . نظموا المعلومات التاريخية في الغالب على

٣



(٣) - يعتبر الشريف الادريسي واحدا من أشهر الجغرافيين العرب ان لم يكن أشهرهم . لكن حياته غير واضحة المعالم تماما . بعض المصادر تذكر انه ولد في سبتة بالمغرب سنة ١١٠١ وتعلم في قرطبة قبل أن يقوم برحلات واسعة طويلة في المغرب الاسلامي وربما في بعض بلاد القوط والفرنجة . استقر به المقام في النهاية لدى الملك روجر النورماندي ملك صقلية المتنور فألف له كتابه المشهور : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي عرف بكتاب روجر . وهو تجميع للمعارف الجغرافية الاغريقية والعربية التي تكدست حتى القرن الثاني عشر (٦ هـ) . رسم الادريسي مع الكتاب خارطة للعالم نرى صورتها في الرسم . الجنوب فيها مرسوم الى أعلى كما يقضي بذلك موقع مكة في الأعلى . الخارطة في رأي الاختصاصيين كافة ، ذروة في رسم الخرائط الاسلامي . توفى الادريسي سنة ١١٦٥ . هذه الصورة أخذت عن مخطوط في مكتبة بودليان في اكسفورد ، يعود الى القرن الرابع عشر . الجغرافيون الذين جاؤوا بعد الادريسي ، كانوا في الغالب عيالا عليه . واتجهوا الى المعاجم الجغرافية (كياقوت الحموي) أو الموسوعات (كمسالك الأبصار للعمري) أو ذكر العجائب (مثل نخبة الدهر لشيخ الربوة وعجائب البلدان للقزويني) . قبيل عصر النهضة الأوروبية تقدمت الجغرافيا البحرية تقدما واضحا لدى العلماء المسلمين والبحارة ، في المحيط الهندي خاصة . بقي لنا من هذه الفترة كتب هامة في الملاحة البحرية ، منها كتاب العمدة المهرية لسليمان المهري وكتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد لابن ماجد .

الاساس الحولي . وأحيانا على تسلسل الخلفاء والملوك . أو على القرون . كان معظم المؤرخين من علماء الدين ، وان كان فيهم الكثير من الكتاب موظفي الدولة . كتب التاريخ المتأخرة تضخمت جدا ، وصور بعضها المصورون (١) .

الجغرافيا :

اجتمعت في الجغرافيا العربية ، منذ وقت مبكر ، معارف العرب الجغرافية ، مع المعارف المتوارثة عن اليونان . توسع اهتمام العرب بالجغرافيا بعد الفتوح لاتساع رقعة الدولة الاسلامية ، وحاجاتهم لمعرفة الأقاليم ، ولضرورات التجارة وطرق الحج والرحلة وحركة الجند .

في عصر الترجمة كانت كتب التراث الجغرافي القديم بين ما ترجم وبخاصة كتاب المجسطي لبطليموس ، الذي وسع معارف العرب في الناحية النظرية الفلكية . نجد أثره في مؤلفات جغرافيي القرن الثالث الهجري / ٩ م كالخوارزمي وابن الفقيه وابن رسته .

غير ان الجغرافيا العربية تجاوزت بسرعة هذه المرحلة تحت ضغط الحاجات العسكرية والادارية والاقتصادية للدولة الاسلامية . ظهرت منذ بداية القرن الرابع وحتى أوائل القرن السادس ، مؤلفات الجغرافيا العربية الأصيلة . جغرافيو القرن الرابع خاصة ساعدوا بمؤلفاتهم في الجغرافيا الوصفية والبشرية على فصل هذا العلم عن الجغرافيا الرياضية الفلكية . كتاباتهم اعتمدت خاصة الدراسة المباشرة للأرض والناس على السواء ، وعلى المشاهدة الشخصية . صارت الجغرافيا على ايديهم علم المسالك والممالك . منهم اليعقوبي (بعد سنة ٩٠٥) وابن خرداذبة (سنة ٩١٣) والاصطخري (٢) (سنة ٩٦١) وابن حوقل (٣) (سنة ٩٧٧) والمقدسي البشاري (سنة ١٠٠٠) . أهم ما أدخله هؤلاء على الجغرافيا هو استخدام الخارطة مع المتن للايضاح . أشهرهم بعد ذلك هو الشريف الادريسي (ت سنة ٥٦٠ / ١١٦٥) صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أرفقه بخريطة للأرض المعروفة كلها (٤) .

أخذ التأليف الجغرافي منذ القرن السادس شكل المعاجم والرحلات والموسوعات . ياقوت الحموي (١٢٢٩) وضع كتاب معجم البلدان . الرحالون وخاصة المغاربة وصفوا البلاد والجماعات التي رحلوا اليها مثل ابن بطوطة (١٣٧٧) . أصحاب الموسوعات كالنويري (١٣٣٢) في نهاية الأرب ، والعمري (١٣٤٨) في مسالك الأبصار ، وضعوا في موسوعاتهم كل ما عرفوا عن البلاد المختلفة ليكون في خدمة رجال الادارة .

علم العمران :

المؤرخون والمفكرون السياسيون في التاريخ الاسلامي سجلوا بعض الأفكار السوسيولوجية والاقتصادية والسياسية . تفرد المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون التونسي (توفي بالقاهرة سنة ١٤٠٦) بتنظيمها وتطويرها واقامة النظريات عليها ، وتكوين علم جديد سماه علم العمران . هو فلسفة التاريخ ، وعلم الاجتماع في آن واحد . جاء ذلك في المجلد الذي جعله « مقدمة » لكتابه في التاريخ « كتاب العبر » .

اشتهرت المقدمة في الغرب والشرق شهرة جعلت ابن خلدون ، في تاريخ العلوم الانسانية ، واضع علم الاجتماع وأحد فلاسفة التاريخ .

التعريب وتمازج الثقافات

كانت المنطقة التي فتحها العرب في القرن السابع ، ذات تراث ثقافي عريق ، تراكم عبر ثلاثين الى اربعين قرنا من قبل . أهم الثقافات المتداخلة فيه هي :

الثقافة الهلينستية المكتوبة باليونانية ، وكثير من عناصرها وثني اغريقي . مراكزها في الاسكندرية خاصة وفي انطاكية . الاسماء البارزة فيها هي اسماء أفلاطون وأرسطو (٦) ثم أفلوطين صاحب الافلاطونية الحديثة . وأرخميدس وفيثاغورث وهيبوقراط . كان لهذه الثقافة امتداد في بلدة جنديسابور بارض الفرس (انشئت سنة ٥٢٩) لكنها كانت في حالة خمول وتنثر اضواءها الأخيرة .

١ ٢



(١) ـ آل بختيشوع ، الذين نرى رسم واحد منهم (عبد الله) في مخطوط بالمتحف البريطاني ، أسرة من النساطرة الأطباء لعبت دورها في الأوساط الثقافية العربية حوالى ثلاثة قرون . وهي نموذج لأسر أخرى مثلها لعبت الدور نفسه مثل آل حنين بن اسحق وآل قرة . أول رجالها هو جرجيس بن بختيشوع (٧٧٠ ـ ١٥٣) الذي استقدمه المنصور من جنديسابور ثم بختيشوع ابنه (المتوفى سنة ٧٩٨) .

(٢) ـ من كتب الطب التي ترجمت للعربية كتاب الترياق (ضد السموم) المنسوب لجالينوس . صار مشهورا رغم انه مقالة محدودة . ترجمه الى العربية يحيى بن البطريق وله أكثر من نسخة مصورة منها النسخة الموجودة في المكتبة الوطنية في باريس والتي نرى في الصورة صفحتها الأولى ، كتبت في العراق على الأرجح أواخر القرن ١٢ . سجل في تزويقها اسم صاحبها محمد بن أبي الحسن بن الامام .

الثقافة الهلينستية المكتوبة بالسريانية . ومعظمها مترجم عن اليونانية ، ولكنها تحوي تراث الجدل واللاهوت المسيحي ايضا . كان يحملها السريان ، ومراكزها في حران ونصيبين وراس العين . وكانت نشيطة حية خلال العصر الاسلامي الاول .

الثقافة الفارسية ، وهي بهلوية اللغة زارادشتية الدين ، مع التنوعات التي دخلت على هذه الديانة بالمانوية (القرن ٢ ـ ٣ م) وبالمزدكية (القرن ٦) . معظم التراث الفارسي كان أدبيا ، أو علميا ـ فلسفيا مترجما عن اليونانية .

يضاف الى ذلك الثقافة الهندية التي كان تأثيرها يأتي بحكم الجوار والتجارة . لم تحل اللغة السنسكريتية دون وصول نتاجها الى العرب في الرياضيات والفلك والطب والفلسفة .

هذه كانت الروافد الأربعة للثقافة المقبلة .

٣

٤



(٣) ـ تبنى العرب المسلمون بصورة عامة النظرية الطبية الاغريقية التي أتى بها أبقراط وجالينوس في التآلف بين الأجزاء وفكرة التوازن بين الأخلاط والانسجام والأمزجة . وان صححوا فيها الكثير وأخرجوها في ثوب اسلامي . على وجه كتاب جالينوس جوامع المقالة الأولى ، نجد تحت البسملة صور بعض علماء الاغريق مثل مارسينوس واندروماخوس في مخطوط كتب سنة ١١٩٩ في العراق .

(٤) ـ ديسقوريدس اسم آخر من الاسماء التي لمعت في اطار الثقافة العلمية المترجمة عن الأوائل . كتابه (ماتريا ميديكا = المادة الطبية) الذي كتب سنة ٦٥ م . ترجم الى العربية في القرن التاسع الميلادي ويتناول ٦٠٠ عشب طبي . ظل معروفا متداولا في العالم الاسلامي ولو أن عددا من علماء المسلمين طوروا بعده علم النبات والعقار . الصورة هنا رسمت سنة ١٢٢٩ لمخطوطة كتابه الموجودة في اسطنبول

حركة التعريب

منذ الفتح الاسلامي ، بدأت حركة الاتصال والتعريب والتمازج بين « علوم الأوائل » هذه وبين الثقافة العربية المتمثلة : في الاسلام قرآنا وحديثا ، وفي اللغة العربية والأدب والشعر . دوافع عديدة دفعت الى ذلك : منها الوضع السياسي المميز الذي احتله الاسلام ، وأخذته لغة العرب بعد الفتح . ومنها الجدل المتبادل مع العقائد الأخرى والفضول للمعرفة والحاجة العملية لبعض المعارف ، كالطب والفلك والتاريخ . أعان على التعريب ، التقارب اللغوي بين السريانية والعربية ، وتجربة السريان السابقة في النقل عن اليونانية ونحت المصطلحات .

لم يكن قد مضى على الفتح نصف قرن حتى كانت بعض كتب الطب والتاريخ والكيمياء والفلك قد ترجمت الى العربية . الأمير الاموي خالد بن يزيد (المتوفى سنة

٥



(٥) ـ كانت بغداد في القرون الأولى للعصر العباسي (٨ ـ ١١ م) ملتقى ثقافات العالم القديم ، وعلوم الاوائل . تخصص بعض التراجمة فيها بكتب اليونان (وهم خاصة علماء السريان) وبعضهم بالترجمة عن الفارسية وبعضهم عن السنسكريتية . لكن الثقافة الاغريقية كانت الأوسع انتشارا . أسماء الاغريق وأقوالهم صارت شائعة في الوسط الثقافي . كما يظهر ذلك في كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم الذي نرى صولة (لصولون) من مخطوط له رسم في سورية في النصف الأول من القرن الثالث عشر (في طوبقبو) .

---

(٦) ـ كان مما نقل عن اليونانية والسريانية : ١٩ كتابا على الأقل لأرسطوطاليس وثمانية لأفلاطون (أو تنسب لأفلاطون) وعشرة كتب في الطب لأبقراط و ٦٤ كتابا لجالينوس وعشرة لأرخميدس . هذا الى ثمانية كتب أخرى في الطب لمؤلفين آخرين وبضعة وعشرين كتابا لروفوس ، بالاضافة الى كتب اقليدس وفيثاغورث في الهندسة والموسيقى وغيرها و ١٧ كتابا لبطليموس القلوذي منها كتابه المشهور بالمجسطي . ألمع الاسماء اليونانية التي شاعت وأثرت كان اسم أرسطو الذي اعتبره العرب المعلم الأول وأكثروا من الاعتماد على فكره أو الفكر المنسوب اليه وخاصة في المنطق والطبيعة . الصورة هي لأرسطو وهو يعلم تلاميذه . صورهم الرسام العربي في أشكال وملابس عربية (من مخطوط مختار الحكم ومحاسن الكلم . القرن الثالث عشر) .

٦

٨٥ / ٧٠٤ أو سنة ٨٩) عمل على ذلك . وأنفق فيه . مبادىء المنطق ومشاكل اللاهوت انتشرت بدورها مع الجدل اليومي وانتجت اوائل المتفلسفين امثال غيلان الدمشقي والجعد بن درهم في أواخر القرن الأول للهجرة . حين جاء العباسيون . انتقل مركز ثقل الدولة الى العراق . وأسهم الخلفاء العباسيون في تشجيع التعريب . الذي كانت تعمل عليه مجموعات وطبقات متعددة من السريان والهنود والفرس والقبط والعرب .

المترجمون

كان بين العاملين على التعريب . جماعة رسمية تترجم للبلاط منذ زمن المنصور حتى المتوكل (مثل ابن بختيشوع (١) وابن ماسويه واسحق بن حنين) ويلحق بها جماعة تترجم لكبار الدولة (كالبرامكة) . لمثل هؤلاء انشئت دار الحكمة في قصر الخلافة . وعلى يدهم ترجمت بعض كتب الطب (٢) . (٣) والفلسفة والنجوم خاصة . اسماؤهم معروفة في معظمها لأن الترجمة تحولت معهم الى صنعة ارستقراطية . ومؤسسة من مؤسسات البلاط . وصارت سبيل الغنى . حنين بن اسحق . كان يأخذ من الخليفة المأمون وزن الكتاب المترجم ذهبا . بنو شاكر كانوا يرزقون جماعة النقلة وزن الكتاب فضة . أو يدفعون لهم ٥٠٠ درهم في الشهر . من هؤلاء التراجمة الرسميين آل بختيشوع وآل حنين وآل ثابت بن قرة الحراني .

بجانب التعريب الرسمي وجدت اعداد واسعة من المترجمين . لم يرتبطوا بجهات رسمية . ولكنهم أثروا الثقافة بما عربوا من الوان الأدب والقصص والحكمة والازياج وتفسير الأحلام والموسيقى والعقاقير (٤) والحساب والتاريخ والجغرافيا والهندسة وعلم الحيل والريافة (استنباط المياه) والفلاحة والفراسة والسحر والحيوان .

لا نعرف الا بعض اسماء هؤلاء المترجمين كابن المقفع مثلا . وسلام الأبرش وعلي بن زياد التميمي . ونجهل مجموع الآخرين وهم مئات كانوا يرتزقون بالترجمة .ويعملون بالتعاون مع الوراقين في امداد الوسط الثقافي بما يطلب من ألوان المعرفة .

حصاد التعريب

قبل أن يأتي عصر المأمون (مطلع القرن ٣ هـ / ٩ م) كانت أعمال الترجمة منتشرة على نطاق واسع يدل عليها ان قواعد المنطق والفلسفة قد اسهمت قبل ذلك العصر في تقعيد النحو العربي . وتنظيم اللغة واحكام الفقه . وتنمية علم الكلام . وفي ظهور علماء كبار في الكيمياء (مثل جابر بن حيان المعاصر للرشيد) . وفلاسفة كبار (مثل الكندي المعاصر للمأمون نفسه) . وظهور اعداد من المنجمين والاطباء أيضا .

استمر عصر التعريب حوالى ثلاثة قرون . كان أوجها فيما بين اواسط القرن الثاني والثالث للهجرة . كان حصاد التعريب دخول علوم الأوائل كلها بما فيها من غث وثمين الى اللغة العربية (٥ . ٦) . وتحول الثقافة العربية الاسلامية بالتدريج ثقافة عالمية . متعددة العناصر . واغناء اللغة العربية بمصطلحات وطرق من التعبير الفلسفي والعلمي لم تكن تعرفها .

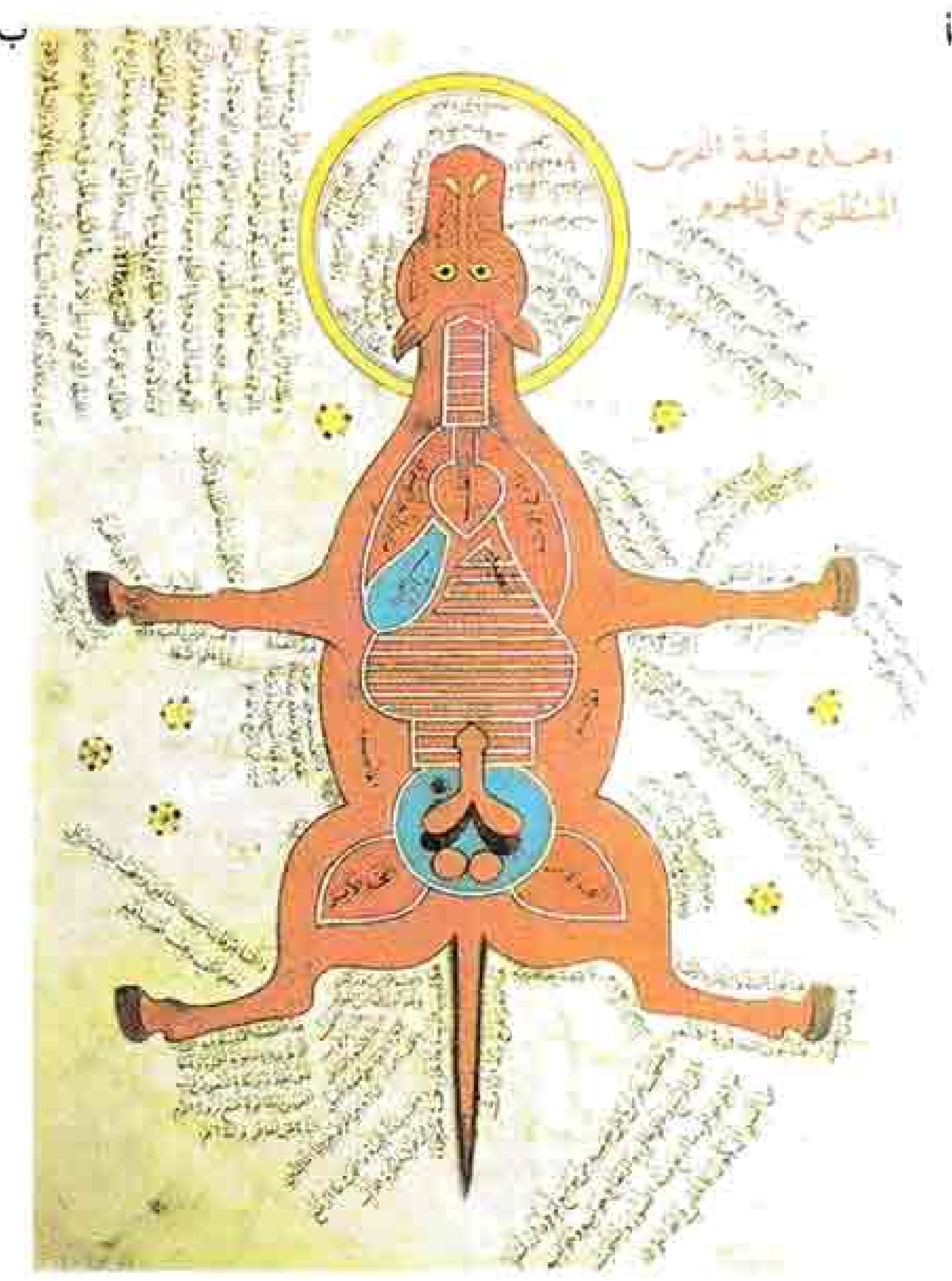
كانت حركة التعريب تجربة من أخصب التجارب الانسانية في التمازج الثقافي .

العلوم الطبّية عند العرب

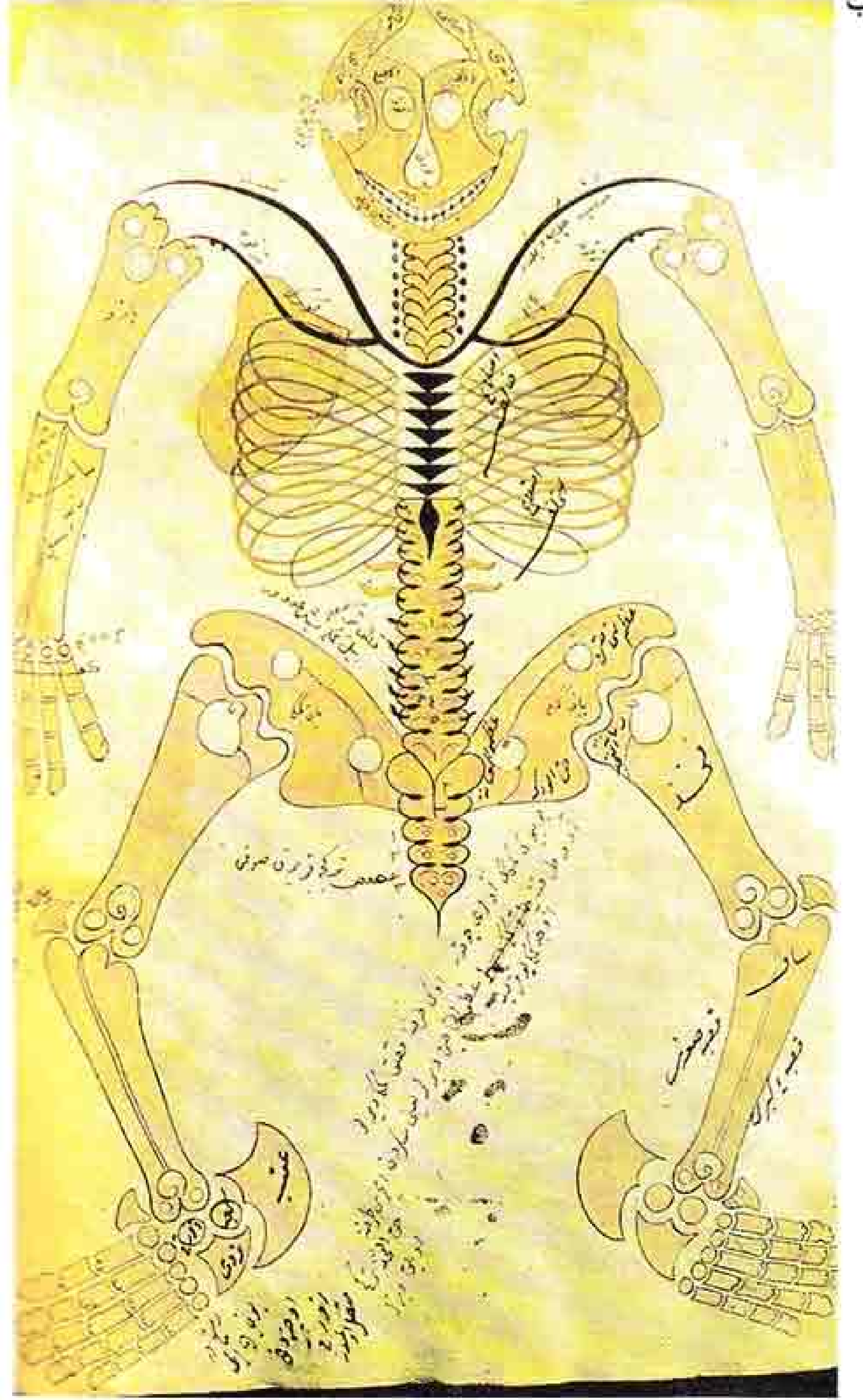
الطب تراث انساني . وقد أسهم العرب كثيرا في اغناء هذا التراث . في الجاهلية كان طب العرب على ثلاثة أشكال ، فمنه الطب بالسحر والكهانة والتعاويذ ، ومنه الطب التجريبي بالأعشاب والكي ، ومنه الطب العلمي الذي درسه بعضهم لدى الفرس والروم . هذا عدا المعرفة بالبيطرة وما يتصل بها .

بعد الفتوح والنزول في مناطق الحضارات القديمة ، كان أول من اتصل به العرب من علماء الأوائل هم الأطباء . اتخذوا منهم أطباء لهم ، ثم ما لبث هؤلاء أن ترجموا لهم وألفوا بعض كتب الطب بالعربية . ومن ذلك أعمال ابن اثال طبيب معاوية ، وتيادوق طبيب

أ١



ب



(١) - كان بعض الأطباء يتحرجون من التشريح . مع ذلك لا يكاد يخلو كتاب طبي من الأمور التشريحية التي بحثها كبار الأطباء كابن سينا والرازي وعبد اللطيف البغدادي . من كتب التشريح كتاب المنصوري لمنصور بن محمد سنة ١٣٩٦ والصورة (ب) من مخطوطة له في القرن ١٥ . أما الحيوان فأكثر ما اهتموا بتشريح الخيل (أ) كما نرى في رسم لمخطوط رسم في مصر في القرن ١٥ .

الحجاج وتاودون ، وعبد الملك بن أبجر الكناني طبيب عمر بن عبد العزيز ، وكلهم من القرن الهجري الأول (السابع).

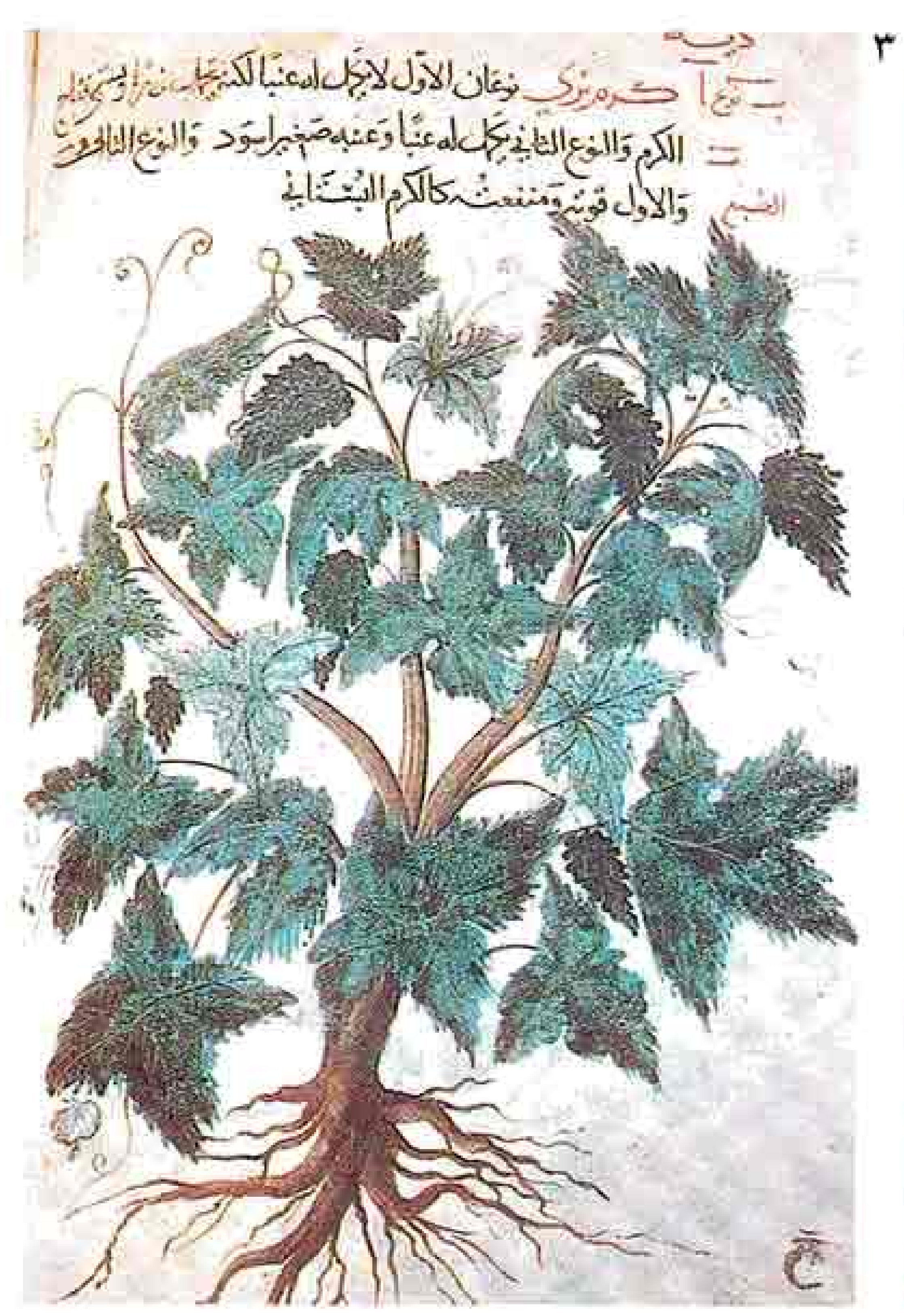
فتح هؤلاء الاطباء باب التراث الطبي المنحدر عن أبقراط (توفي سنة ٣٥٧ ق . م) وعن جالينوس (ت سنة ٢٠٠ م) وغيرهما . وجاء جبرائيل بن بختيشوع ، فترجم للمنصور كتب الطب اليوناني ، واستقدم يحيى بن خالد البرمكي أطباء الهند ، وفتح لهم بيمارستانا ترجموا فيه الطب الهندي . تشكل من الرافدين خاصة حصيلة علمية واسعة ، زادت بأعمال الترجمة الأخرى بعد ذلك ، حتى لم يبق كتاب في التراث الطبي الا صار بالعربية . وولدت في الوقت نفسه لغة طبية عربية كاملة المصطلحات .

ظهور الطب العربي

في تلك الأثناء كان الاطباء العرب

٢

٣



(٢) - أشهر كتب الكحالة عند العرب كتاب عشر مقالات في العين لحنين بن اسحق . الذي يعتبر بداية علم الكحالة العربي وأقدم تشريح لها . تنسب المقالات في الأصل لأبقراط وجالينوس . والصورة التشريحية هذه أخذت من مخطوط لكتاب حنين من القرن الثاني عشر (موجود في القاهرة) . الكحالة العربية تجاوزت هذه المقالات كثيرا على يد علي بن عيسى وعمار بن علي الموصلي المعاصر له .

(٣) - درس ابن البيطار نباتات المغرب والمشرق وخاصة في كتابه (الجامع في مفردات الأدوية والأغذية) وهو معجم هجائي فيه أكثر من ١٤٠٠ عشب دوائي لا يقل ما اكتشفه ابن البيطار منها عن ٣٠٠ . كان يصور النباتات بالألوان . مع ذلك ظل لكتاب ديسقوريدس اليوناني القديم رواجه . رسم الكرمة مأخوذ من مخطوط فارسي من القرن الخامس عشر يحوي الترجمتين العربية والفارسية له .

ينبغون أيضا . استوعبوا التراث وبدأوا يضيفون اليه من تجاربهم وخبراتهم . كانت مهنة الطب رائجة ، ومن وجوه الرزق الطيب ، لاسيما لمن يتصل بالخلفاء . بلغت ثروة جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد والبرامكة والمأمون ، حوالى ٨٩ مليون درهم .

بعد أن جاء عدد من الأطباء المترجمين المؤلفين في وقت معا مثل يوحنا بن ماسويه (سنة ٨٥٧) وحنين ابن اسحق (سنة ٨٧٣) ظهر الأطباء المؤلفون . كتب علي بن ربن الطبري (المتوفى سنة ٨٦١) كتاب فردوس الحكمة ، وهو موسوعة ثقافية للطب فيها الجانب الكبير . ثم ظهر أول الاطباء العظام ، أبو بكر الرازي (٣١١ / ٩٢٣) الذي يلقبونه جالينوس العرب . الاسم الطبي الاكبر من بعده هو ابن سينا (٤٢٨ / ١٠٣٦) الملقب بالشيخ الرئيس . كان فيلسوفا عظيما بقدر ما كان طبيبا عظيما . ما من كتاب طبي ظل العرب بعد ابن سينا . ألف ما يزيد على مائتي كتاب ورسالة معظمها في الطب . كان رئيس المستشفى العضدي في بغداد ، وهو أول من كتب عن الجدري والحصبة كتابة علمية دقيقة . وطور بذلك وبغيره الطب السريري . كتابه (الحاوي) يقع في ثلاثين مجلدة . ترجم الى اللاتينية وطبع عدة مرات في القرن السادس عشر بعد اختراع الطباعة . تحفل كتب الطب بعدد من الصور للفحص الطبي ، ومنها هذه الصورة .

٤

(٤) ـ ظهرت المشافي مبكرة في الاسلام . نجد ملامحها منذ القرن الهجري الأول . غير انها أصبحت مؤسسات رسمية ، ومن المعالم الاساسية للمدن اعتبارا من القرن الرابع الهجري . دعيت عند ذلك بالاسم الفارسي البيمارستان . انتشرت في العراق وفارس كما انتشرت في الشام ومصر وصارت بجانب التمريض مؤسسات لتعليم الطب . كانت تعتمد على الأوقاف ، في نفقاتها سواء للمرضى أو للأطباء أو للطلبة . سلاجقة الروم قلدوا البويهيين والأتابكة والأيوبيين والمماليك في المباراة ببناء البيمارستانات ومنها هذا البيمارستان في الأناضول ، في صورة لباحته الداخلية وأبهائه الواسعة .

٥



(٥) ـ فحص المريض بجس النبض في هذه المنمنمة مأخوذ عن مخطوط طبي فارسي كتب وصور في القرن الرابع عشر (الثامن الهجري) . وعمليات الطب السريري تدين كثيرا لأبي بكر الرازي (ت سنة ٢٩٣) وهو من أشهر أطباء

المرجع الأوحد في الطب مدة أطول من كتابه في الطب : القانون . طبه ظل يدرّس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر ، وبلغ الصين أيضا . لم يأت بعد ابن سينا من يبلغ شهرته . لكن موسوعة طبقات الاطباء التي كتبها الطبيب ابن ابي أصيبعة في القرن الثالث عشر م تزودنا بما يزيد على ٣٥٠ من أطباء العرب المشهورين حتى عهده في القرن الثالث عشر م . يتميز من هؤلاء خاصة : ابن النفيس الدمشقي (٦٨٧ - ١٢٨٨) الذي كان أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى وفهم تركيب الرئة والأوعية الشعرية ، وميّز بين الشرايين والأوردة فيها (١) . في الأندلس أبو القاسم خلف الزهراوي مؤسس علم الجراحة . كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » ظل مرجع الجراحة في الغرب حتى القرن السادس عشر .

رغم وجود الطب الشعبي ، كانت مهنة الطب تدرس في البيمارستانات (٦) وتجري منذ أواخر القرن التاسع ، تحت رقابة الدولة . كان ثمة امتحان للطبيب يجتازه ليمارس الطب . وثمة قسم يقسمه لحفظ المهنة . وثمة آداب وقيود تحدد أعماله ، وتحاسب أخطاءه في الدواء أو التصرف . رقابة المحتسب كانت تشمل الاطباء الذين قد يمنعون العمل ان اساؤوا الى أدب المهنة ، أو يغرمون ان نجم عن طبهم اضرار بالمريض .

الكحالة

ظهر لدى العرب الاختصاص الطبي ، فثمة الجراح والمجبر للعظام ، وطبيب الاسنان ، والحجام ، والفصاد ، كما مارسوا الطب النفسي والوقائي ، وعالجوا الامراض العقلية ، واهتموا جدا بالبيطرة . من المؤلفين فيها ، يعقوب بن أخي حزام (القرن ٤ / ١٠) الذي كتب أقدم مؤلف في هذا الفن . أبدعوا كذلك في الكحالة (طب العيون) . تشريح العين وعضلاتها وأعصابها وحركتها ووظائفها وأمراضها وجراحتها كانت معروفة لديهم (٢) . أشهر كحالي العرب هو علي بن عيسى البغدادي (ت سنة ١٠١٠) . له ٣٢ كتابا في الرمد أهمها تذكرة الكحالين . وصف فيه مائة وثلاثين مرضا من أمراض العين . نقل الى اللاتينية مرتين كما نقل الى العبرية .

الصيدلة وعلم النبات :

اهتم العرب بتحضير الأدوية والعقاقير كمتمم لعلم الطب . ألفوا الكثير في هذا العلم وسموه الاقرباذين ، استفادوا من التراث الاغريقي الذي يبرز فيه اسم ديسقوريدس كما استفادوا من اعمال الكيمياء لجابر بن حيان وغيره . اتجهوا خاصة الى دراسة النبات وخواصه بوصفه قوام الدواء والصيدلة . في القرن التاسع ، وضع الرازي كتابي الاقرباذين الكبير والصغير . وظهرت في القرن ١٢ رسائل محمد بن بهرام القلانسي أكثر المؤلفات شمولا في هذا الموضوع وكتاب (منهج الدكان) لنجيب الدين السمرقندي ، ولا يقل عنها .

وصل العلم بالنبات درجة عالية على يدي ابن البيطار الأندلسي (٣) (المتوفى بدمشق سنة ١٢٤٨) ومن قبله رشيد الدين الصوري (ت سنة ١١٨٧) . ومن الباحثين في النبات ايضا موفق الدين البغدادي (سنة ١١٣٢) وأبو جعفر الغافقي القرطبي (سنة ١١٦٥) الذي كتب الأدوية المفردة . وهو أوفى وأدق ما في اللغة العربية في موضوعه .

الفلك والرياضيات عند العرب

تراث المعارف الفلكية قديم في الشرق ، فقد كانت الشمس والنجوم موضع عبادة الاقدمين في المنطقة . عرب الجاهلية من بداة وحضر كانت لديهم معرفة علمية واسعة بالنجوم . لكن لم يكن لهم شيء من علم الهيئة الحقيقي . احتاج المسلمون الى بعض المعلومات الفلكية لأمور الدين (القبلة ، وقت الصلاة ، هلال رمضان) فاهتموا بعلم الهيئة الذي كان يرتبط في ذلك العهد بالتنجيم (٣) . أول كتاب في الفلك والنجوم ترجم على يد خالد بن يزيد الامير الأموي (المتوفى سنة ٧٠٨ م) وهو كتاب : عرض مفتاح النجوم ، المنسوب الى هرمس ، وقد صنعت كرة نحاسية للأرض كانت موجودة في

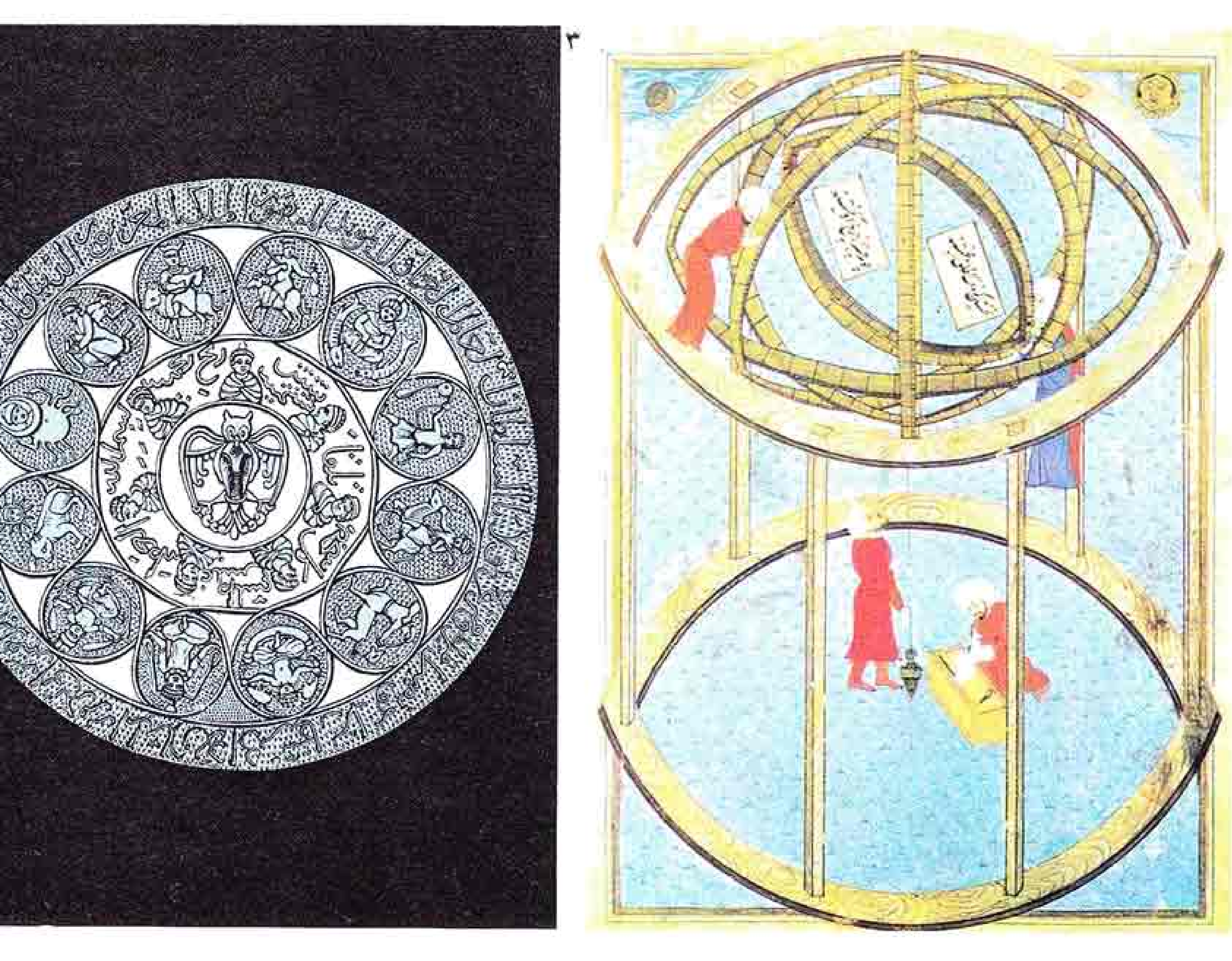
١



ب أ

(١) ـ أقدم كتاب عربي في الاسطرلاب كتبه ما شاء الله المنجم (في القرن التاسع) . أما أقدم جهاز موجود منه فيعود الى القرن العاشر وهو من صنع أصفهان . الأسطرلاب أهم الآلات الفلكية العربية . يشكل به الفلكي اسقاطا مخروطيا للقبة السماوية على سطح خط الاستواء ابتداء من نقطة القطب وتظهر دائرة الليل الزاوي واحداثيات السمت على صفائحه بينما تظهر الكواكب على الشبكة . هذا الجهاز متعدد الوظائف ومن عمله تحديد ارتفاع النجوم والكواكب . تفنن العرب في ابتكار أشكاله وتزيينه وتحسينه وصنع أنواع عديدة له منها (أ) اسطرلاب صنع في الاندلس (القرن ١٣) و (ب) جهاز آخر فارسي (القرن ١٧) ومنها الاسطرلاب الكروي .

العهد الفاطمي . المنصور بعد ذلك شجع هذا العلم . محمد بن ابراهيم الفزاري المتوفى سنة ٧٧٧ م نقل له كتاب السند هنتا الى العربية (صار يعرف بالسند هند) ووضع اول اسطرلاب في الاسلام (آلة قياس ارتفاع النجوم) . ترجم ابو يحيى البطريق للمنصور كتاب الاربع مقالات في صناعة الفلك . كما قاس له العلماء في بغداد ودمشق طول درجة نصف النهار . في عهد الرشيد بعد ذلك عربت التقاويم البهلوية التي عرفت بالزيج (٦) ووضع الخوارزمي زيجه الذي اشتهر به ، والذي صححه فيما بعد مسلمة المجريطي المتوفى سنة ١٠٠٧ م ونقل الى اللاتينية سنة ١١٣٦ م . جاء التأثير اليوناني متأخرا الى علم الفلك بتعريب كتاب المجسطي لبطليموس الذي ترجم مرتين في فترة ثلاثين سنة ، ولكنه صار بسرعة كتاب الفلك الأساسي لدى العلماء .



(٢) ـ من آلات العرب الفلكية، جهاز ذات الحلق . وهو ذو شكل كروي يحوي خمس دوائر نحاسية احداها لنصف النهار، وأخرى لمعدل النهار . وثالثة لمنطقة البروج . والرابعة لدائرة الميل . ولها أنواع عديدة . وقد تصنع بشكل ضخم ومن الخشب كما نرى في صورة من مخطوط شاهنشاه نامة (القرن السادس عشر) .

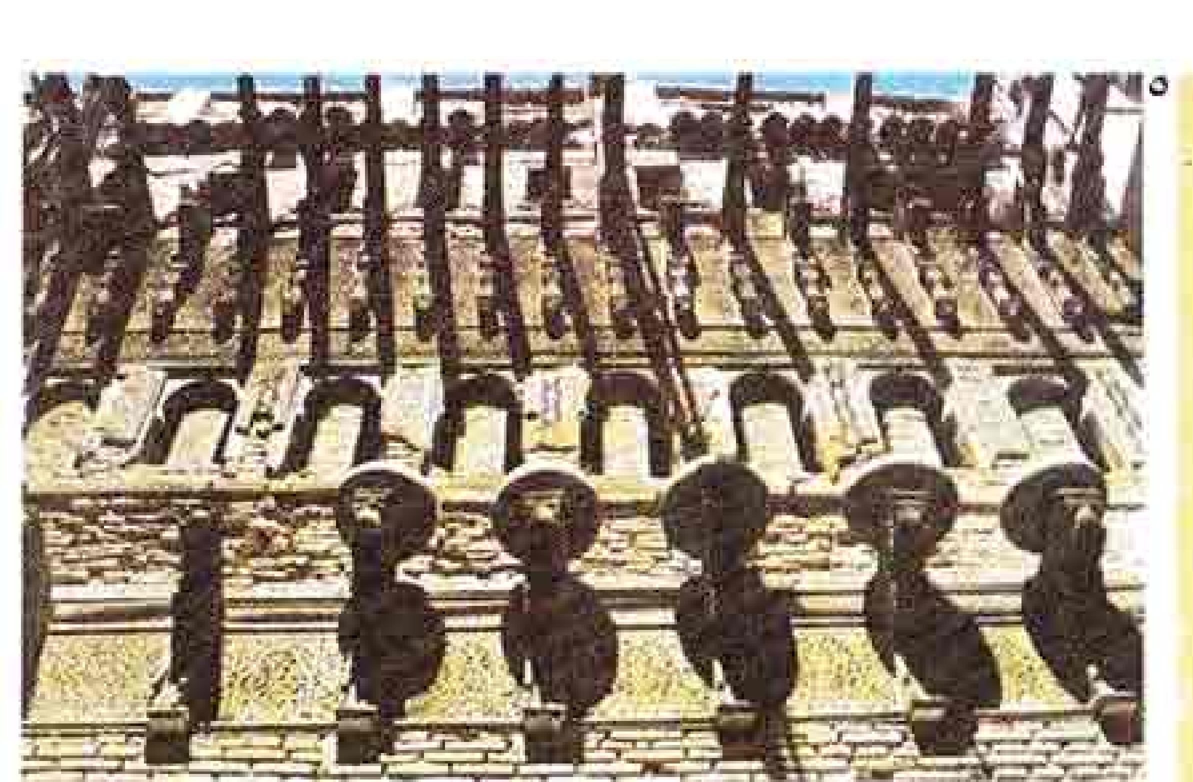
(٣) ـ رغم رفض علماء الدين للتنجيم ، ظلت عملياته موجودة . الخلفاء العباسيون والفاطميون جعلوا للمنجمين مكانهم في البلاط . عدد من علماء الفلك المسلمين كانوا يتنقلون بسهولة من علم الفلك الى التنجيم والتنبؤ الميتافيزيقي بالمستقبل . صور الأفلاك الاثني عشر رسمت على هذا الطبق للملك المعز الأيوبي (القرن ١٢) .

علماء الفلك العرب

في عهد المأمون مطلع القرن التاسع تمت أول الأرصاد المنظمة . استخدمت فيها أدوات على جانب من الدقة صنعت في جنديسابور . جرى ذلك في مرصد فلكي أقامه المأمون بجانب دار الحكمة ، حيث قامت أرصاد منظمة لحركات الاجرام السماوية . بنى المأمون مرصدا آخر في جبل قاسيون بدمشق ، حين جاءها سنة ٨٣٠ ، مكانه لا يزال موجودا .

في الوقت نفسه كانت بعثتان فلكيتان تقيسان طول درجة العرض الارضية قرب تدمر وفي بادية سنجار ، بغية تحديد حجم الارض ومحيطاتها . جاءت قياساتهم المسجلة قريبة كل القرب من القياسات العلمية اليوم . عمل في هذه المسألة نفسها بعد ذلك بنو موسى بن شاكر (أواسط القرن الثالث) الذين كان لهم في منزلهم ببغداد مرصدهم الخاص . اشتهر معهم معاصرهم ابو العباس







(٤) ـ كتاب (صور الكواكب الثابتة) لعبد الرحمن الصوفي (ت سنة ٩٨٦) من روائع كتب الفلك المصورة الملونة . ألهم الكثير من الفنانين لرسم الأفلاك بأشكال مختلفة منها الصورة المأخوذة من مخطوط كتب في القرن الرابع عشر .

(٥) ـ قياس الزمن آليا ، كانت له دوما وسائله . العرب صنعوا الساعات المزولية كما صنعوا الساعات المائية ومنها ساعة مدرسة بوعنانية في فاس .

(٦) ـ الزيج ، كلمة فارسية الأصل . استخدمها العرب للدلالة على الجداول التي كان الفلكيون يحسبون بها سير الكواكب سنة بعد سنة ، ويستخرجون التقاويم منها ، وهي كثيرة ومتعددة . هنا الصفحة الأولى من زيج أولوغ بك الايلخاني حفيد هولاكو في ايران (حكم ١٣٠٤ ـ ١٣١٦) . مأخوذة عن المخطوطة الاصلية لهذا الزيج وقد زينت بما يتفق مع نسخ الكتب الملكية من تذهيب وتزويق .

(٧) ـ لغة الرياضيات العربية القديمة لها مصطلحاتها التي تستعجم على المحدثين . الصورة تتناول تصحيح نصير الدين الطوسي (ت ١١٧٣) لبديهية اقليدس في المتوازيين .

الفرغاني الذي أمره المتوكل (قتل سنة ٨٦١) بعمل مقياس النيل في الفسطاط بمصر سنة ٨٦١ . وقد كتب المدخل الى علم هيئة الافلاك الذي نقل الى اللاتينية والعبرية في القرن الثاني عشر .

اشتهر من علماء الفلك بعد ذلك عدد كبير (٤) ألفوا الكتب وعملوا الارصاد والأزياج الهامة . من أهمهم محمد بن جابر البتّاني الصابيء الحراني (٨٥٠ - ٩١٨ أو سنة ٩٢٩) ولعله أعظم فلكي في الاسلام . أجرى ارصاده في الرقة واصلح أخطاء بطليموس وضبط مقدار انحراف دائرة البروج وحساب أفلاك الكواكب . اثبت امكان كسوف الشمس الكامل .

ومن مشاهير الفلكيين ابو الوفاء البوزجاني (ت سنة ٩٩٨) وأبو الريحاني البيروني (سنة ١٠٤٨) . جاء بعده عمر الخيام الشاعر المعروف (١٠٤٨ - ١١٢٣) وكان من كبار الفلكيين والرياضيين . وجاء بعدهم نصير الدين الطوسي (١٢٠١ - ١١٧٣) .

أجهزة الفلك والمراصد

استخدم العرب في الرصد أنواعا من الآلات منها ذات الحلق (٢) والاسطرلاب (١) وذات السمت ، والارتفاع ، وذات الشعبتين وغيرها . بالاضافة الى المراصد التي كان منها المرصد البويهي في بغداد ، والمرصد الحاكمي أقامه الفاطميون على جبل المقطم بمصر ، ومرصد مراغة الذي بناه هولاكو سنة ٦٥٧ وعمل فيه الطوسي ، ومرصد الخيام في نيسابور ومرصد البتّاني في دمشق وأولوغ بك في سمرقند . كانت تقوم بجانب هذه المراصد أحيانا مكتبات من أهمها مكتبة المرصد الايلخاني التي كانت تحوي - كما قيل - ٤٠٠ ألف مجلد .

الرياضيات

تطور الحساب على أيدي العرب ، بابتكارات ما تزال الأساس فيه . كان اليونان والعرب يرقمون بالحروف ، يعطونها قيما عددية . اقتبس العرب عن الهند مجموعتين من الرموز للأرقام ، وأقاموا منها سلسلتين عرفت احداهما بالهندية والأخرى بالعربية ، انتشرتا تدريجيا ، وخاصة في القرن ١١ م ، فما تزالان أساس الترقيم العربي والاجنبي الى اليوم . نظم العرب المراتب العددية وابتكروا علامة الصفر بشكليها (٠ و ٥) ولم يكن ذلك أقل شأنا من ابتكار الأبجدية . عمل على تطوير الحساب محمد بن موسى الخوارزمي أيام المأمون . وهو نفسه الذي ابتكر علم الجبر . كتب سنة ٨٢٥ كتاب الحساب الهندي وسنة ٨٣٠ كتاب الجبر والمقابلة . ما يزال هذا العلم يحمل الاسم نفسه الى اليوم . لأنه أخذ منزلة اقليدس (٧) في الهندسة وبطليموس في الفلك ، وكثرت شروحه وترجماته في مختلف العصور . وفي الكتاب لأول مرة وضع أساس الهندسة التحليلية ، واللوغاريتمات التي تحمل اسمه . من اشهر الرياضيين بعده ، الكرخي (توفي بين ١٠١٩ - ١٠٢٩) وعمر الخيام .

بالاضافة الى هذا كله ، أوجد العرب علم التفاضل والتكامل ، وعنوا بالجذور الصماء . أما علم المثلثات فيعتبر علما عربيا كاملا . لأن العرب فصلوه عن الفلك ونظموه ، وأضافوا اليه الكثير من النظريات والمصطلحات .

الكيمياء والفيزياء عند العرب

قبل الاسلام بقرون كان تراث الكيمياء قد اتصل بأفكار سحرية ونظريات ربطته بالأفلاك تارة وبالسحر تارة . وكان أهم الاسرار المغرية فيه هو ما سمي بحجر الفلاسفة أو « الاكسير » ويعني « المادة السحرية » التي يمكن بها تحويل المعادن الخسيسة الى معدن ثمين . هذا السر أعطى الكيمياء اسم « الصنعة » عند العرب ، وضلل الكثيرين ممن عملوا بهذا العلم في القديم .

كانت كتب الكيمياء أول ما ترجم من تراث الأوائل في الاسلام . حفيد معاوية الأول خالد بن يزيد (المتوفى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م) كان أول من اهتم « بالصنعة » . يقولون انه اراد أن يغني أصحابه بدل

١

أ

ب

ت

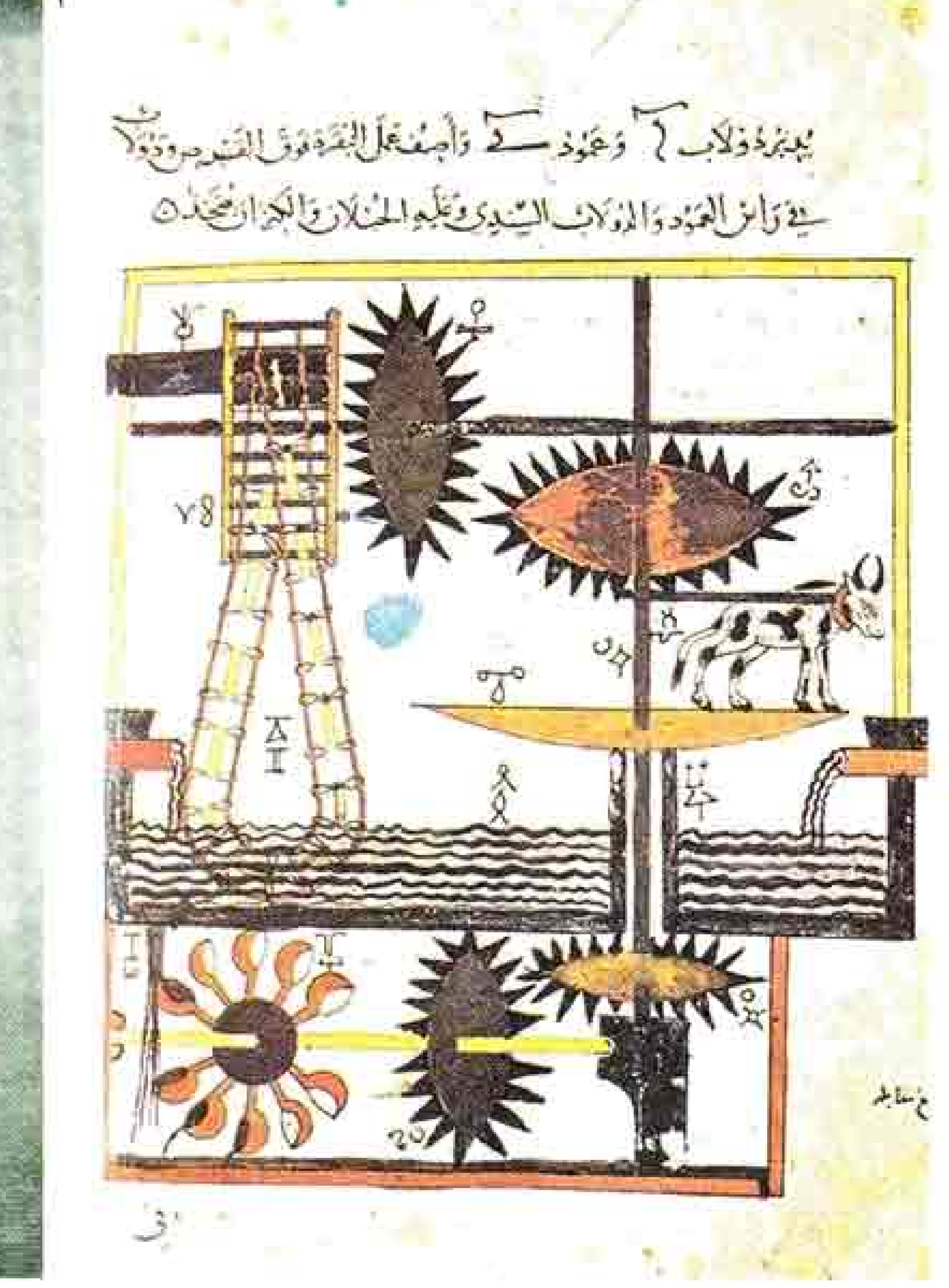
(١) ـ « البصريات » كانت ميدان الحسن بن الهيثم غير منازع . هو أعظم باحث فيها ما بين اقليدس وكيلر . كتابه « المناظر » الذي كتبه في مصر في النصف الأول من القرن ١١ ونشر لأول مرة في مدينة بال سنة ١٥٧٣ هو أهم مؤلف في البصريات ظهر حتى العصر الحديث . يكشف فيه عن براعته الطبية في تشريح وفيزيولوجية العين بجانب براعته الفيزيائية في تحليل عملية الابصار والنظر . ابتكر مخرطة يصنع بها العدسات لتجاربه . كشف قوانين الانعكاس الضوئي ووضع جداوله بالتجربة والاستقراء . درس سمك الطبقة الجوية وأثرها في رصد الظواهر السماوية وفي الشفق والغسق . الصورة (أ) من مخطوط له كتب سنة ١٠٨٣ تمثل مقطع العينين وأهم الأعصاب . (ب) تمثل المقطع نفسه في ترجمة لاتينية للكتاب في القرن ١٤ . (ت) دراسة كمال الدين الفارسي في القرن ١٤ لمسير الضوء في خط مستقيم من خلال غرفة مظلمة . بحثها ابن الهيثم قبله

الخلافة . فترجم كتبها وعانى الكيمياء بنفسه . وعمل في تحلية مياه البحر ، بجانب عمله في الفلك والعلوم الأخرى . يبدو انه لم يكن الوحيد . فانّا نجد علم الكيمياء يتمخض في القرن الثاني للهجرة عن أكبر علمائها في التاريخ الاسلامي وغيره قبل العصر الحديث .

جابر بن حيان

عاش أيام المنصور والمهدي والرشيد (ما بين حوالى سنة ١٣٠ وسنة ٢٠٠ هـ) . يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الكيمياء حتى سمي العلم : علم جابر . يعزون اليه تأليف (٢٥٠٠ كتاب و ١٥٠٠ رسالة . ثبت منها ٢٥٠ على الأقل . شأنه الهام هو في المنهج التجريبي (التدريب كما يسميه) الذي اتبعه وحاول فيه نقل الكيمياء من عمل سحري الى علم بالتجربة والمشاهدة الموضوعية . أنزله ذلك من الكيمياء منزلة أرسطو من علم المنطق .

٢



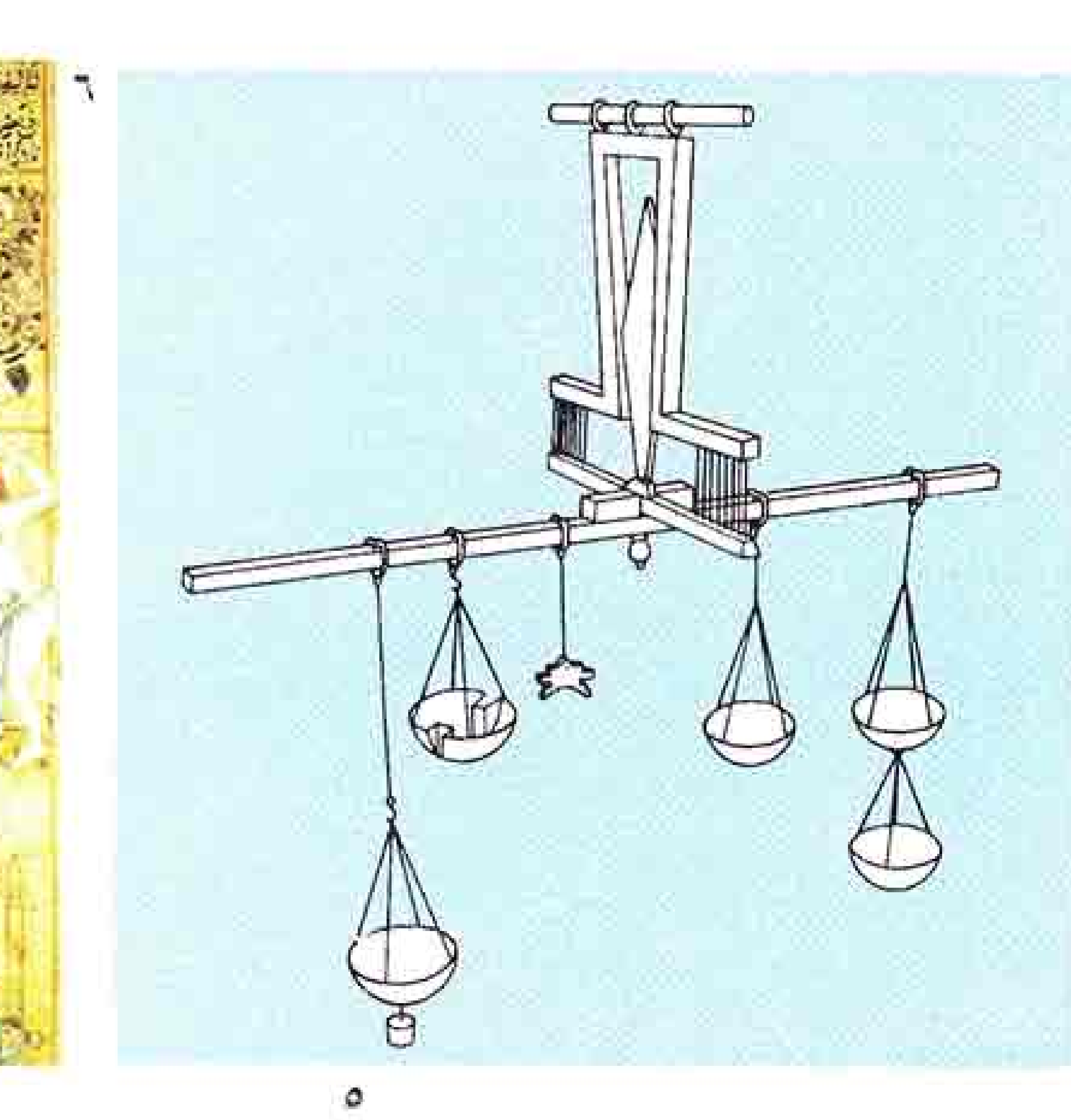
٣

(٢) ـ ألف العرب في الآلات الميكانيكية الذاتية الحركة ، وهم يسمونها علم الحيل . بلغ هذا النوع من المؤلفات ذروته في الكتاب الشهير الذي ألفه أبو العز اسماعيل بن الرزاز الجزري : « كتاب في معرفة الحيل الهندسية » . وهو بسبب تنوع محتواه وجمال مخطوطه وما فيه من رسوم ايضاحية ملونة أصبح أشهر الكتب في مادته في الغرب . ورد فيه وصف خمسين آلة ميكانيكية منها هذه الآلة الرافعة للماء .

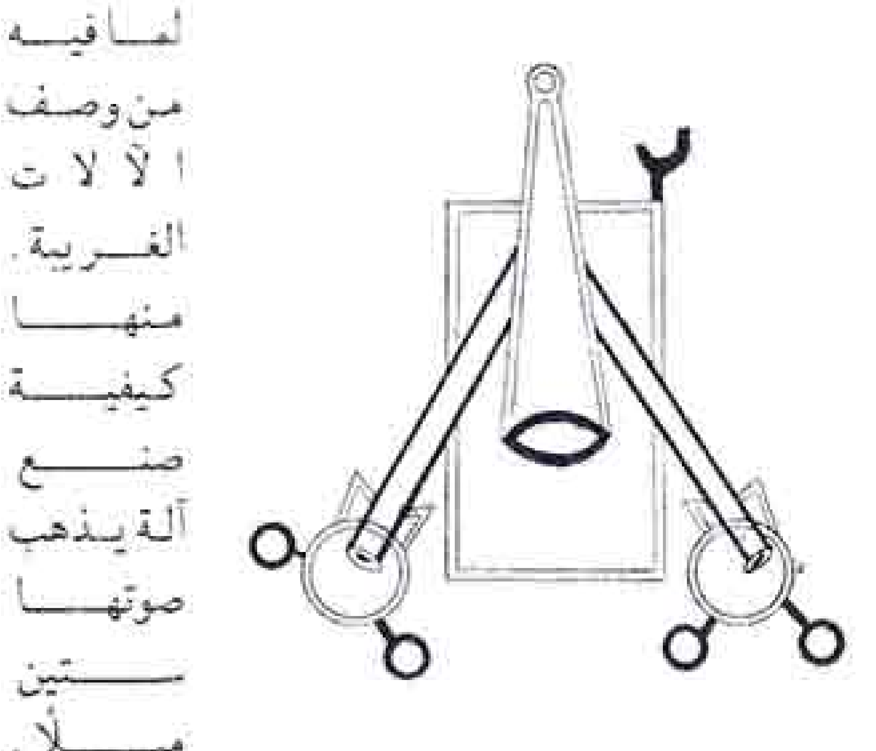
(٣) ـ عرف العرب وركبوا عددا من المواد الكيماوية المشتعلة . كما عرفوا البارود . نقلا عن الصين . الذين كانوا يستخدمون هذا المزيج من ملح النطرون مع نسب ملائمة من الكبريت والفحم في تفجيرات استعراضية في الاحتفالات . منذ مطالع القرن الحادي عشر عرف في المغرب والأندلس استخدام البارود في صنع قذائف مدفعية . الصفحة مأخوذة من مخطوط مغربي (سنة ١٠٠٨) يشرح كيفية صنع المدفع .

جانب من الكتب التي تحمل اسمه ملفق ، لكنها مع ذلك تمثل مدرسة جابر في الكيمياء . وهي المدرسة التي سادت من بعده في الكيمياء الاسلامية ، ثم صارت بعد القرن الثامن هـ / ١٤ م ومن خلال ترجماتها اللاتينية ، أشهر كتب الكيمياء وأشدها أثرا في أوروبا وآسيا .

اشتغل بالكيمياء بعد جابر كثير من علماء المسلمين . منهم الرازي الفيلسوف الطبيب (٨٦٥ ـ ٩٢٥) ، وله في الكيمياء اثنا عشر كتابا ترجم معظمها الى اللاتينية . من أهمها (سر الأسرار) . ابتكر بدوره أجهزة كيميائية عديدة ، منها المعدني ومنها الزجاجي ، ووصف أكثر من عشرين منها ، مع تفاصيل التجارب الكيماوية . اكتشف عددا من الحوامض . ممن جاء بعده أبو القاسم المجريطي (ت سنة ٤٠٠ / ١٠١٠) ، كتابه في الكيمياء من اهم المصادر في تاريخها . وقد



(٤) ـ الفيزيائيون المسلمون أولوا عناية خاصة « للميزان » تفوق وظيفته كأداة وزن . أرادوه أداة عملية لتقدير الوزن النوعي للمعادن والسبائك . محاولاتهم بدأت منذ عصر المأمون . البيروني خطا خطوات كبيرة في هذا الميدان . قدر فيه الوزن النوعي لثمانية عشر عنصرا ومركبا من الأحجار الكريمة والمعادن . الصورة تخطيط هيكلي لبعض الآلات التي ابتكرها البيروني في هذا السبيل .



(٥) ـ موسى بن شاكر المنجم كان في خدمة المأمون . أولاده الثلاثة برزوا في الهندسة والفلسفة والموسيقى والنجوم . أهمهم محمد (توفي سنة ٨٧٣) . كتابهم في الحيل اشتهر لما فيه من وصف الآلات الغريبة . منها كيفية صنع آلة يذهب صوتها ستين ميلا . والرسم هنا هيكلي حسب وصف الآلة (المخطوط في الفاتيكان) .

(٦) ـ كانت الصيدلة ، في بعض تراكيبها ترفد الكيمياء أو تتصل بها . لم يكن ثمة فاصل بينهما الا فيما يتصل بالأهداف . فالكيمياء فلسفية الهدف بينما هدف الطب والصيدلة عمل مباشر . لذلك كانت كتب هذه العلوم تراثا مشتركا للعاملين فيها . كتاب الدرياق المنسوب لجالينوس مثل لذلك في صفحته المصورة (سنة ١١٩٩)

ترجم الى اللاتينية . وعلي الجلدكي الذي عاش في مصر والشام (ت حوالى سنة ٧٤٤ / ١٣٤٣) . قضى الحياة في جمع كتب الكيمياء وتفسيرها كما ألف الكثير . جميع هؤلاء استغرق « الاكسير » معظم جهودهم لكنهم ، من خلال ذلك ، طوروا العمليات الكيماوية ، وا بتكروا الكثير من أدواتها ، وحسنوا عددا من الصناعات كالخزف والزجاج والصابون والعطور واستخدام البارود (٣) ووطدوا مبدأ التجربة في هذا العلم .

علم الحيل

ورث العرب بين ما ورثوا وترجموا من علوم الاوائل مباحث كثيرة في الفيزياء ، لعل أهمها : كتاب (الطبيعة) لأرسطو وكتاب الحيل الروحانية لآبرن وكتاب هيرون الصغير في الآلات الرافعة . منذ القرن الثاني استوعبت الثقافة العربية هذا التراث وتجاوزته . وساعة الرشيد الدقاقة مشهورة . انها أحد تطبيقات علم الحيل (التكنولوجيا الميكانيكية) الذي يقسمه العرب الى مبحثين الأول : جر الأثقال بالقوة اليسيرة والآلات التي تقوم بذلك . والثاني في آلات الحركات وصنعة الأواني العجيبة .

في هذا الميدان برز ابناء موسى بن شاكر (أواسط القرن الثالث) . وضعوا في علم الحيل كتابا يحوي مائة تركيب ميكانيكي ، عشرون منها ذات قيمة عملية (٥) . يبرز من بعدهم رضوان بن محمد الساعاتي الذي كتب حوالى سنة ١٢٠٤ كتابا في الساعات . في ذلك الوقت سنة ٦٠٢ ترك لنا ابن الرزاز الجزري كتابا هاما وصف فيه بعض اعمال الميكانيكا والديناميكا التي قام بها كالساعات والاوعية السحرية المتحركة والنوافير والآلات المطربة (٢) .

توازن السوائل والبصريات

بحث السوائل وتوازنها وضغطها وتجمع مياه الآبار والينابيع ، قام به عدد من العلماء منهم أبو الريحان البيروني (المتوفى سنة ١٠٤٨) الذي كان من أهم بحوثه دراسة قوانين الوزن النوعي (٤) . وبرز عبد الرحمن الخازن (حوالى ١١٠٠ - ١١٥٠) مؤلف ميزان الحكمة في بحوث الضغط الجوي والجاذبية والثقل وغيرهما في الصوت وسرعته ، وفي الموسيقى الرياضية .

أهم من كل ذلك أبحاث العرب في الضوء : اشتهر بها الحسن بن الهيثم (١) (٩٦٥ - ١٠٣٩) أعظم علماء الاسلام في علم الطبيعة : عاش في العراق والشام ومصر زاهدا يحترف الوراقة والنسخ . اقترح بناء سد أسوان . ألف مائتي كتاب علمي منها كتاب (المناظر) أهم المؤلفات استيفاء لبحوث الضوء قبل العصر الحديث . بهذا الكتاب وضع ابن الهيثم علم البصريات على أسس جديدة منظمة استحق معها لقب أبي البصريات .

لم يأت بعد ابن الهيثم من يوازيه بين علماء المسلمين في هذا المجال . ولكن قطب الدين الشيرازي (١٢٣٦ - ١٣١١) في مرصد مراغة (في القرن ١٣) ، هو الذي ناقش آراءه في كتابه (نهاية الادراك) . وكان أول من قدم تحليلا كيفيا صحيحا لظاهرة قوس قزح ، وانتشار الضوء . وتبعه تلميذه كمال الدين الفارسي (١٣٢٠) فكتب شرحا هاما على ابن الهيثم في كتاب (تنقيح المناظر) .

الفلسفة عند العرب[1]
القضايا الفكرية

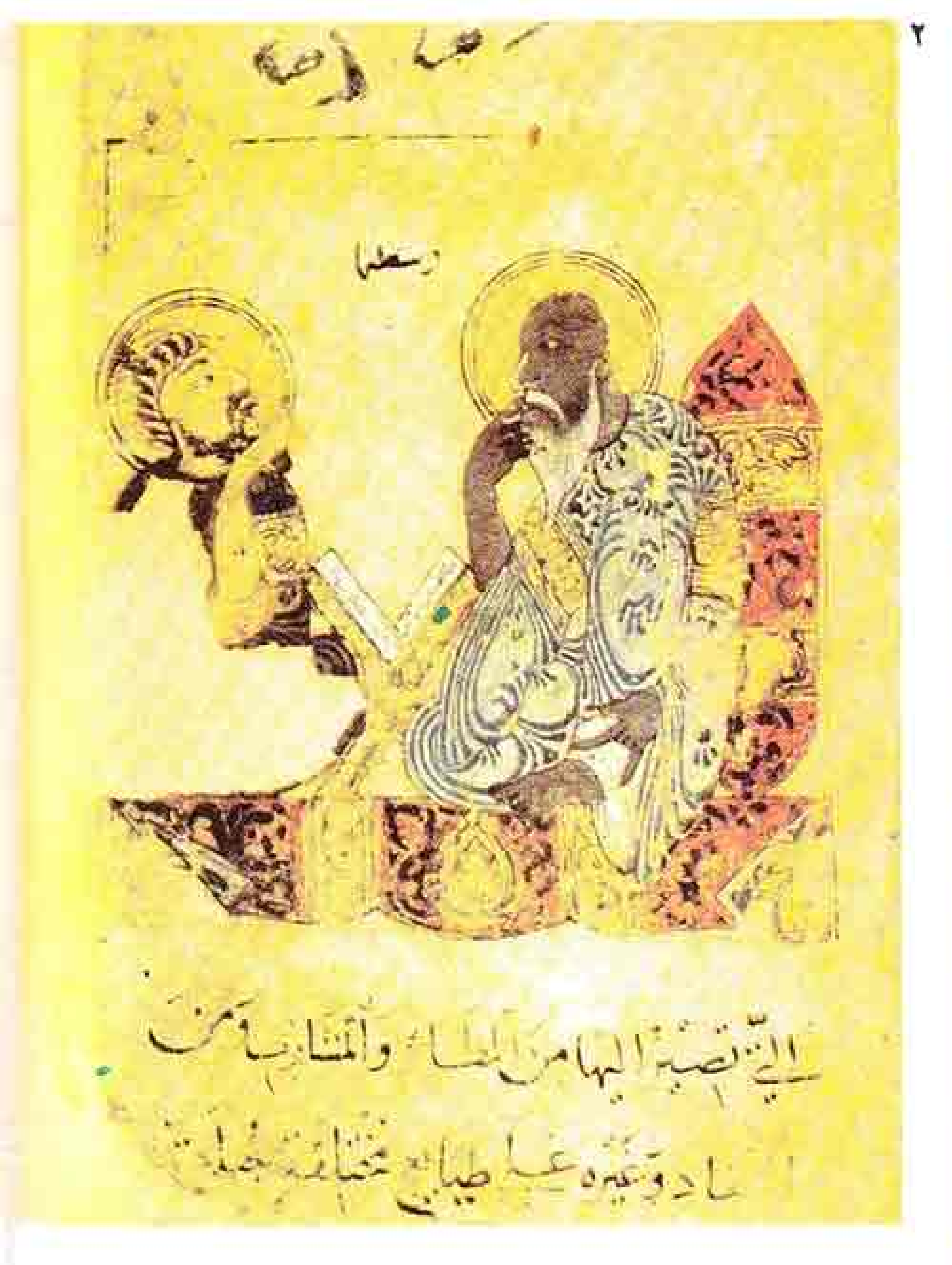
نشأت الفلسفة بالمعنى المعروف للكلمة في ايونيا (على سواحل آسيا الصغرى) في القرن السادس ق . م . ثم كانت من أهم نشاطات الفكر الاغريقي ثم الهلينستي المشرقي من بعده . لفظة فلسفة (فيلو - صوفيا) يونانية تعني حب الحكمة . العرب اقتبسوها . استعملوا أحيانا كلمة حكمة لبعض معاني الفلسفة .

اعتبارا من العهد الأموي بدأت بعض الافكار والرسائل الفلسفية بالدخول الى الثقافة العربية الناشئة . مع التوسع في ترجمة علوم الأوائل في العصر العباسي الأول ، دخل الى العربية بالتدريج كل تراث الفلسفة القديم تقريبا . نقله التراجمة علماء السريان

١



٢



(١)ـ أبو الوفاء المبشر بن فاتك الدمشقي (ت ١١٠٦) من قواد الفاطميين ومن العلماء الموسوعيين أيضا . شارك في الطب والهيئة والرياضيات والفلسفة والتاريخ . تتلمذ على يد الحسن بن الهيثم . كتب العديد من المؤلفات . كتابه مختار الحكم ومحاسن الكلم . يجمع

أهل الشام والجزيرة والعراق . كما ساهم في ذلك الفرس . أدخلوا الى العربية أعمال أفلاطون وأرسطو (٢) وفيثاغورث وأفلوطين الاسكندري وغيرهم . مع كوكبة المصطلحات الفلسفية . ومجموعات المشاكل في المنطق وما وراء الطبيعة والأخلاق وغيرها . لم يترجم هذا التراث بأشكاله الاغريقية الأولى ، ولكن في الاشكال الأخيرة التي وصلها بعد ان تداولته المذاهب والآراء في المشرق أكثر من اثني عشر قرنا . واختلطت فيه الشروح بالأفكار . بل نحلت فيه بعض الكتب لغير أصحابها (مثل كتاب الربوبية المنسوب لأرسطو باسم اثولوجيا ، وهو مقتطفات من تاسوعات افلوطين والافلاطونية الحديثة) (٤) .

التوفيق بين العقل والنقل

من جهة أخرى ، دخل التراث الفلسفي



أخبار الحكماء الاغريق وأقوالهم في مواضيع فلسفية وطبية وتاريخية . فهو يلخص الحكمة في عصره . نسخته المصورة الموجودة في طوبقبو ، التي رسمت في القرن ١٣ في سوريا . نجد على غلافها صور عدد من هؤلاء الحكماء ومنهم فيثاغورث وجالينوس وصولون .

---

(٢) ـ بسبب المنطق وقبول الفكر الاسلامي له أداة علم وحقيقة كان اسم أرسطو أكثر اسماء الفلاسفة الاغريق تداولا وقبولا في الفلسفة الاسلامية . صورة أفلاطون في هذه الفلسفة اختلطت بأفلوطين والافلاطونية الحديثة . أما صورة أرسطو فبقيت أكثر صحة . واعتبر دوما المعلم الأول . كتابه في المنطق (قاطيغوراس = المقولات) كان أشهر كتب الفلسفة ، ويليه كتبه في الطبيعيات . ويلي ذلك كتبه في الخلقيات .

---

(٣) ـ لم يكن سقراط صاحب نظام فلسفي . ولا يظهر كذلك في الفكر الاسلامي . وانما أخذ على أنه حكيم ، وصاحب آراء في الالهيات والطبيعيات والسياسة . ومن هنا كانت اضافته الى تراث الحكم ، الذي تلتقي فيه حكمة الهند وفارس بتراث الاغريق . نجده في مخطوطة مختار الحكم مرسوما ، مع تلاميذه بملامح اسلامية . يقول القفطي عنه في أخبار الحكماء : « له وصايا شريفة وآداب فاضلة وحكم مشهورة ومذاهب في الصفات قريبة من مذاهب فيثاغورث وابيدقليس . الا انه له في شأن المعاد آراء ضعيفة بعيدة عن محض الفلسفة » .

مختلطا بعلوم الأوائل ، لأنه كان جزءا منها ، ولأن التراجمة كانوا مثل أسلافهم وأخلافهم موسوعيين ، يرتبط الطب والفلك لديهم بالكيمياء والفلسفة . ظل الأمر كذلك طوال التاريخ الاسلامي . فصل العلوم عن الفلسفة وهي « أم العلوم » انما تم متأخرا جدا في القرن السابع عشر . واذا اهتم اصحاب الفلسفة في الاسلام باحصاء العلوم وتبويبها ، فلأنهم كانوا يرمون الى الدفاع عن العلوم الدخيلة ، والى ايجاد الصلة بين العلوم النقلية ، وبين علوم الاوائل (ومنها الفلسفة) التي سماها العلماء المسلمون بالعلوم « العقلية » الدخيلة ، ووضعوها منذ البدء ، موضع الشبهة ورفضوها ، رغم استخدامهم أدواتها الفكرية . الصراع معها ملأ تاريخ الفكر الاسلامي كله . بذل رجال العلوم العقلية الكثير من الجهد للتوفيق بين العقل والنقل ، واقامة الجسور بين الدين والفلسفة . كانت هذه القضية من أكبر هموم

٤

نظرية الفيض (الأفلاطونية المحدثة)

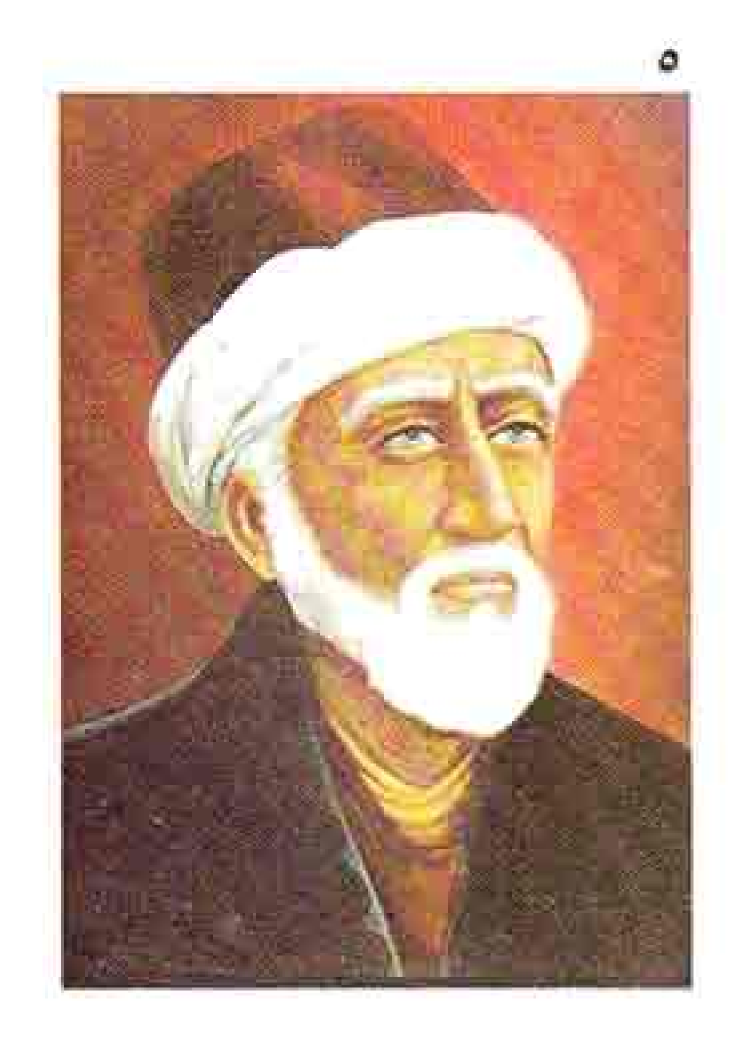
(الواحد ، الواجب الوجود أو الموجود الأول)

الفلك الأقصى (أو المحيط)	العقل الأول
فلك الكواكب الثابتة	العقل الثاني
فلك زحل	العقل الثالث
فلك المشتري	العقل الرابع
فلك المريخ	العقل الخامس
فلك الشمس	العقل السادس
فلك الزهرة	العقل السابع
فلك عطارد	العقل الثامن
فلك القمر	العقل التاسع
عالم ما تحت القمر	العقل العاشر
(أو عالم الكون والفساد) فيه التحريك / الصور الجوهرية / الصور العقلية	(أو الفعّال)

(٤) ـ نظرية الفيض ، ركن من أركان الفلسفة العربية ، لاسيما في شكلها الافلاطوني المحدث الذي وضعه الفارابي وابن سينا . ترقى النظرية الى أفلوطين (٢٨٠ م) ، وتقول انه يصدر عن الواحد سلسلة من العقول (١٠) يحرك كل منها فلكا من الأفلاك . أهمها العقل الفعال ، ومهمته تحريك العالم الأرضي وافاضة الصور الجوهرية (ومنها النفس) على الموجودات لدى استعدادها ، والصور العقلية على العقل لدى بلوغه مرتبة الاتصال . لهذا يدعى « بواهب الصور » .

(٥) ـ لم يكن أبو الريحان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨) فيلسوفا بالمعنى المتعارف ، لكنه كان علما من أعلام الفكر العربي الموسوعي . ومن اهتماماته الفلسفة بدقائقها وما يتصل بها من الفلك والرياضيات والطب . درس معتقدات الهند وقارنها بنظائرها اليونانية في كتابه : تحقيق ما للهند من مقولة ، وتحوي مؤلفاته الكثير من المقتطفات المستفيضة من محاورات أفلاطون وغيرها . فهرس مؤلفاته كان يملأ ٦٠ ورقة وكان على علاقة وثيقة بابن سينا وكبار مفكري عصره .

٥



الفلاسفة منذ الكندي والفارابي حتى ابن رشد . لكنهم قاسوا في ذلك الكثير . كما اضطهدوا أحيانا أو قتلوا على الزندقة .

مع ذلك كله فان النشاط الفلسفي لم يتوقف عبر التاريخ الفكري الاسلامي . ظلت مختلف المشاكل الفلسفية موضوع تأليف ودراسة . كانت لها أحيانا جماعات فكرية مثل جماعة (أخوان الصفا) التي ظهرت في البصرة أواسط القرن الرابع هـ (سنة ٩٧٠ م) ونشرت مجموعة من ٥٢ رسالة لخصت الفكر الفلسفي والعلمي للعصر . كانت متأثرة خاصة بالنظريات الفيثاغورثية وتحمل صبغة سياسية اسماعيلية . أهم القضايا التي عملت عليها الفلسفة الاسلامية ، بجانب التوفيق بين الفلسفة والدين . كانت : المنطق والميتافيزيقيا .

المنطق والأخلاق

يتصدر المنطق لائحة العلوم العقلية بوصفه - كما يقول فلاسفة العرب - آلة النظر . الغزالي يسميه معيار العلم . غايته تصحيح الأحكام . أهم ذرائعه القياس الذي يعتبر البرهان أعلى أشكاله . الفارابي كان أقوى مناطقة الاسلام قبل أن يظهر ابن سينا وابن رشد .

الأخلاق ، تناولها اوائل الفلاسفة العرب ، كالفارابي والرازي . كان بين ايديهم مجموعة واسعة من الاقوال الحكمية المترجمة عن الفارسية والسريانية واليونانية مثل « مختار الحكم ومحاسن الكلم » (١) للمبشر بن فاتك (ت سنة ١٠٨٧ م) وتحمل من الناحية الفلسفية الطابع السقراطي (٣) والرواقي . ومثل كتاب الاخلاق النيقوماخية لأرسطو ، مع شروحه لفرفوريوس (ت سنة ٣٠٤ م) ، وكتاب الأخلاق لجالينوس (ت سنة ٢٠٠ م) . توفر الفلاسفة على شرحها وربطها بالفكر الاسلامي . أهمل ابن سينا الانتاج الاخلاقي ، ولكن معاصره أحمد بن محمد مسكويه (ت سنة ٤٢١) صاحب (تهذيب الأخلاق) وغيره كان أعظم فلاسفة الاخلاق المسلمين . أسسها على قواعد نفسية وأفلاطونية متأثرة بأرسطو والرواقيين . ثم كان ابن رشد الوحيد بين فلاسفة الأندلس الذي كتب في الأخلاق . ألف فيها شرحا على الاخلاق النيقوماخية وصلنا في ترجمتين باللاتينية .

السياسة والالهيات

أهم من تناول السياسة أو العلم المدني ، هو الفارابي الذي ألف عددا من المؤلفات السياسية أشهرها : آراء أهل المدينة الفاضلة « السياسات المدنية » . تأثر بمثالية أفلاطون في الجمهورية ، وان لم تكن تنطبق على واقع الحياة الاسلامية . فلسفته السياسية تنظر الى المجتمع او الدولة كنموذج مصغر عن العالم الأكبر (الكون) . فيما نظرت الى الفرد (النفس) كصورة مصغرة عن ذلك العالم . لذلك حاول الفارابي في مدينته تعليل صدور الموجودات عن الموجود الأول (الله) وارتباطها بعضها ببعض ولاسيما بالانسان . ابن رشد بعد ذلك وضع شرحا وتلخيصا لجمهورية أفلاطون سماه (جوامع سياسة افلاطون) .

أما الالهيات (ما وراء الطبيعة) : فكانت القاسم المشترك بين جميع الفلاسفة . فالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد جميعا ، تشكل مواقفهم الميتافيزيقية لب فلسفتهم . على هذا الجانب من الفلسفة قامت الأفكار الاشراقية (٤) التي أسست الفكر الصوفي .

الفلسفة عند العرب (٢)
الفلاسفة

الملامح الأولى للفكر الفلسفي في الاسلام ظهرت أواخر القرن الأول الهجري (مطالع ٨ م) نتيجة تدبر القرآن من جهة ، والجدل مع حملة التراث الفلسفي القديم ، في ما بين النهرين والشام ومصر ، من جهة أخرى .

هذا بالاضافة الى الجدل المذهبي والسياسي ، والى ترجمة بعض رسائل الفلسفة ، وخاصة في المنطق ، الى العربية . في تلك الفترة المبكرة ظهر « المتكلمون » في ذات الله وصفاته وخلق القرآن . وفي القدر وفي مرتكب الكبيرة . المصائر السيئة التي انتهى اليها مثيرو هذه الافكار الدينية نجم عنها أمران متباينان هما : علم الكلام وفصل علوم الفلسفة عن الدين .

١

كبار رجال الفلسفة الاسلامية

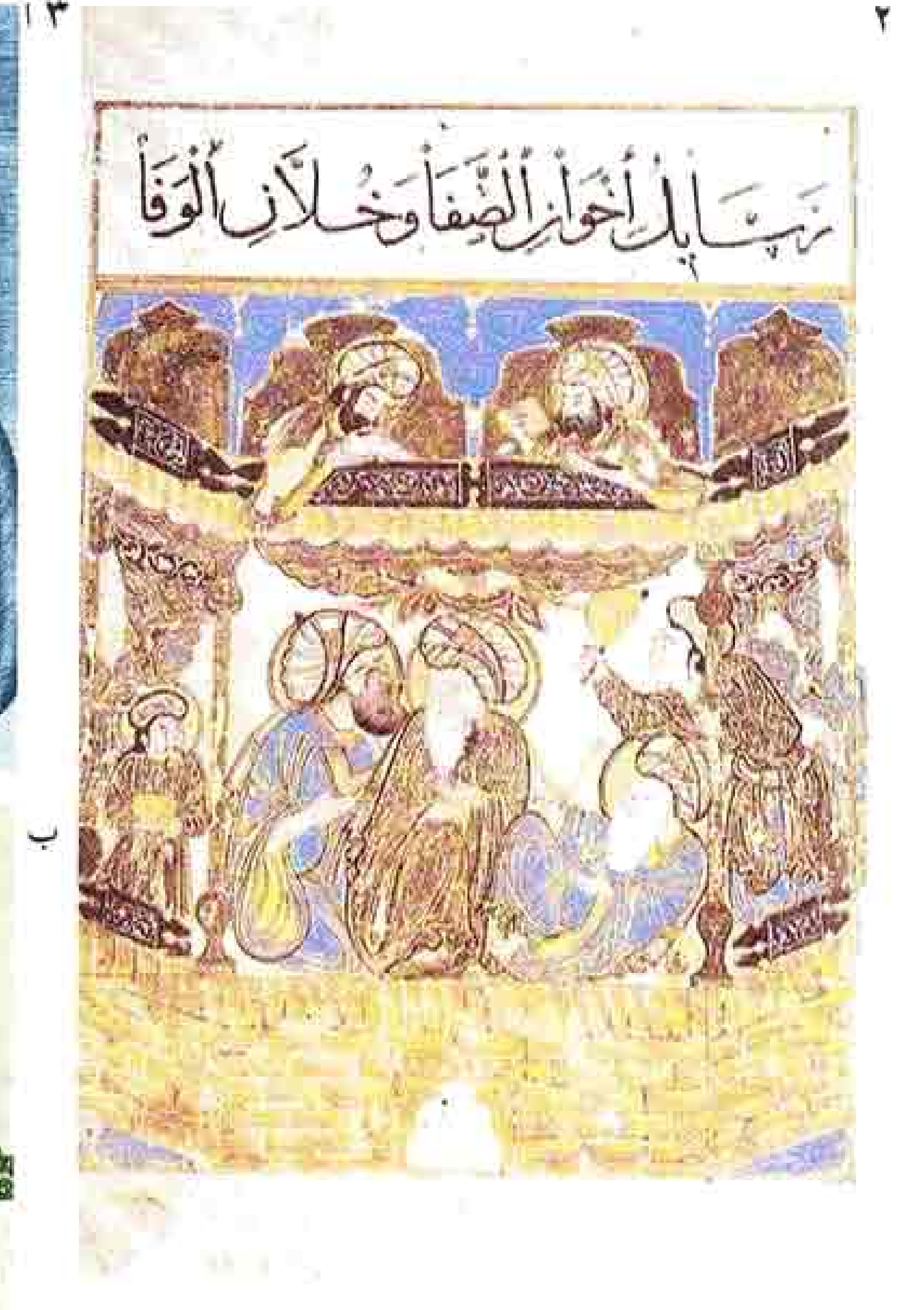
الكندي (أبو يوسف يعقوب) :	رسائل فلسفية	ت ٨٧٣
ابن مسرة :	كتاب التبصرة	ت ٩٣١
متى بن يونس (أبو بشر) :	استاذ الفارابي	ت ٩٤٠
الفارابي (أبو نصر) :	أراء أهل المدينة الفاضلة	ت ٩٥٠
اخوان الصفا :	رسائل	القرن ١٠
يحيى بن عدي :	تلميذ الفارابي	٨٩٣ ـ ٩٧٤
أبو سليمان المنطقي :	صوان الحكمة	ت نحو ٩٨٥
أبو حيّان التوحيدي :	المقابسات ، الامتاع والمؤانسة	ت نحو ١٠١٠
ابن سينا :	الاشارات والتنبيهات ، الشفاء ، النجاة	٩٨٠ ـ ١٠٣٧
ابن حزم :	طوق الحمامة ، تأثر فيه بأفلاطون	ت ١٠٦٤
الغزالي :	تهافت الفلاسفة ، المنقذ من الضلال ، احياء علوم الدين	ت ١١١١
ابن باجة :	تدبير المتوحد ، ومؤلفات طبية ورياضية	ت ١١٣٨
أبو البركات البغدادي :	كتاب المعتبر	ت ١١٥٢
ابن طفيل :	حي بن يقظان	ت ١١٨٥
السهروردي :	فلسفته	ت ١١٩٢
ابن رشد :	تهافت التهافت ، شرح كتاب أرسطو	ت ١١٩٨
ابن ميمون :	دلالة الحائرين	ت ١٢٠٤
صدر الدين الشيرازي :		ت ١٢٤٤

(٢) ـ اخوان الصفا جماعة فلسفية . موسوعية الثقافة . نذرت نفسها ـ كما قالت ـ للحق وجدت في القرن ١٠ ولا يعرف من اسمائها الا بضعة نفر . منهم سليمان محمد بن مسعر البستي الذي كتب باسم الجماعة رسائل أخوان الصفا في ٥٢ رسالة تمثل خلاصة الفكر العلمي والفلسفي للعصر . كانوا يعتبرون الرياضيات مفتاحا لأنفع المعارف أي لمعرفة الذات التي هي مقدمة لمعرفة الله . أخذوا بتناسخ الأرواح وأعلنوا وحدة الحقيقة الدينية والفلسفية . ووحدة الفلسفة والاسلام . كانت الجماعة في نظامها الميتافيزيقي الفيثاغورثي أكثر الجماعات الدينية الفلسفية تسامحا في الفكر . وتلتقي أفكارها مع فلسفة المذهب الاسماعيلي . حظيت الرسائل بكثير من العناية وصورت بعض مخطوطاتها . ومن ذلك مخطوط السليمانية في اسطنبول (الذي نرى غلافه) . كتب في بغداد سنة ١٢٨٧ .

علم الكلام والاعتزال

ظهر علم الكلام للرد بالعقل والمنطق على الشبهات والشكوك الجدلية التي تثار في مسائل الدين . انه بعكس الفلسفة ينطلق من مسلمات العقيدة الدينية الاسلامية لتأييدها بالأدلة العقلية . ولكنه يستخدم الفلسفة نفسها لاثبات التوحيد ، وقدم الصانع ، وحدوث العالم ، وصفات الله وعدله ، والنبوة ، ومشكلة الجبر والاختيار . واكب هذا العلم تطورات الفكر الديني الاسلامي كلها . وكان منه مذهب الاعتزال الذي طور مباحث علم الكلام وتوزع فرقا مختلفة قامت على أصول المذهب الخمسة : العدل ، التوحيد ، الوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف . انتشر الاعتزال خاصة في مطالع القرن التاسع وأصبح المذهب الرسمي للدولة العباسية آخر أيام المأمون وفي أيام المعتصم والواقث الذين أجبروا الناس على القول بخلق القرآن .

٢



٣ أ

ب

(٣) - الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا (بخارى سنة ٩٨٠ - همذان سنة ١٠٣٧) من العقول الموسوعية الكبرى في الاسلام . برع في الطب والفلسفة رغم عمله السياسي . وله (١٠٠ مؤلف) من أهمها : كتاب الشفاء في الفلسفة وهو أربعة أقسام (المنطق . الطبيعيات . الرياضيات . الالهيات) في ١٨ مجلدا . اختصرها ابن سينا نفسه في مجلد (النجاة) وللكتابين تراجم لاتينية وعبرية وسريانية والمانية وانكليزية قديمة . وشروح . كتابه الهام الآخر (القانون) في الطب (ب) . أشهر كتاب طبي عربي عند العرب وفي الغرب حتى القرن السابع عشر . ترجم الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر . والى العبرية . طبع أواخر القرن الخامس عشر سبع عشرة طبعة ، بالاضافة الى طبعة عبرية ، وطبعة بالعربية في روما سنة ١٤٧٦ في أربع مجلدات . (بعد اختراع الطباعة بحوالى ثلاثين عاما) . بلغ تأثير ابن سينا الصين أيضا . وهناك حتى اليوم ترجمات صينية لبعض أعماله في الطب .

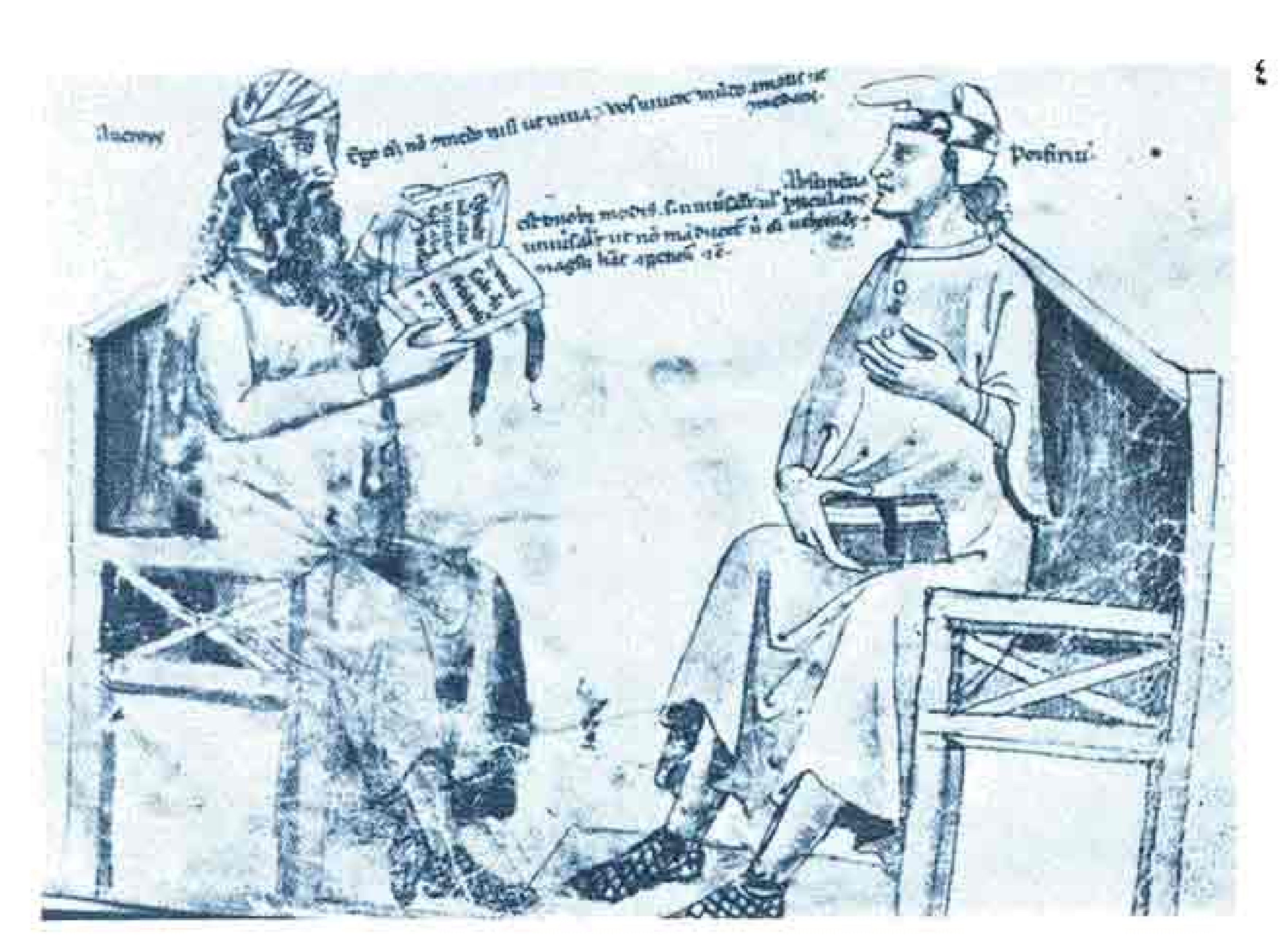
من كبار المعتزلة مؤسس المذهب واصل بن عطاء (ت ٧٤٩) وأبو الهذيل العلاف (٨٤١) وابراهيم بن سيار النظام (٨٤٥) والجاحظ (٨٦٨) .

غير ان الموجة الاعتزالية اضمحلت تدريجيا ، وحمل الكلام بعدها عدد من علماء السنة اشهرهم ابو الحسن الاشعري (توفي سنة ٩٣٥) الذي وضع مذهب الاشعرية ، ونظم علم الكلام ، وقوض الاعتزال ، وان ناهضه الكثيرون من العلماء ، وبخاصة الحنابلة . تم بناء الاشعرية على يد الباقلاني (ت سنة ٤٠٣) ولكن الغزالي كان أقوى معبر عن هذا المذهب الذي ساد الفكر السني بعد تأسيس المدارس النظامية . وكان من أكبر انصاره الفخر الرازي الفيلسوف الطبيب (توفي سنة ٦٠٦) .

الفلسفة

في ميدان الفلسفة الخالصة اختلف

٤



(٤) ـ منذ أواسط القرن الحادي عشر ، ازداد التزمت الفكري الديني . وازدادت الحملة على الفلسفة التي كانت قد تبنت بين المسلمين في الغالب الأفلاطونية الحديثة . أشد الحملات هي التي شنها أبو حامد الغزالي (ت سنة ١١١١) . هذا المتكلم المتصوف الفذ . كان ذا ذهن متوقد واستقلال فكري قل أن نجد لهما نظيرا . كتب كتاب تهافت الفلاسفة عرض فيه بالهجوم الشديد لميتافيزيقيا الافلاطونية الحديثة ونظرتها الكونية وللفلاسفة المسلمين وكبار اساتذتهم اليونان . وان قبل المنطق فقط . ونهى عن الرياضيات . تصدى ابو الوليد ابن رشد (ت في مراكش سنة ١١٩٨) للرد على الغزالي في كتاب سماه تهافت التهافت . جعل همه فيه الدفاع عن ارسطو وفكره . واتهام ابن سينا الذي اعتمد عليه الغزالي ، باساءة فهم ارسطو او تشويه آرائه . لأن ابن سينا في الواقع خلط بين مذهبي ارسطو وافلاطون تحت تأثير كتاب « الربوبية » المنحول على ارسطو . فانحرف تماما على فلسفته الاصلية . بجانب كتب الطب ، وضع ابن رشد عشرات التصانيف الفلسفية والشروح لمؤلفات أرسطو بالاضافة الى جمهورية افلاطون . وحاول في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ان يثبت ان لا تناقض بينهما . مع ذلك لقي ابن رشد الكثير من العنت بسبب افكاره الفلسفية . واضطهد أعنف الاضطهاد وان يكن جانب من اضطهاده سياسيا . أحرقت مؤلفاته وكتبه وأبعد عن البلاط في قرطبة سنة ١١٩٤ ثم عفي عنه بعد سنتين . لكنه توفي بعد قليل . اشتهر ابن رشد في اوروبا شهرة كبيرة بسبب فكره الفلسفي وما قدمه من الشروح لأرسطو (٣٨ شرحا ترجمت مرتين الى اللاتينية في القرنين ١٣ و ١٦) ولهذا لقب بالشارح . ضاعت بعض كتبه بالعربية وبقيت في النصوص اللاتينية والعبرانية . نشأت من أفكاره مدرسة فلسفية في الغرب عرفت بالرشدية سيطرت حتى القرن ١٦ ودرست في الجامعات . المصورون الغربيون كانوا يصورونه مع فلاسفة الاغريق كما في هذا المخطوط اللاتيني من القرن الثالث عشر حيث نجد ابن رشد يتحدث مع بورفيروس .

التطور . بجانب ازدهار المنطق ، كان العلم الرياضي يعتبر في الاسلام كما لدى أرسطو جزءا من الفلسفة .

تطرق معظم فلاسفة العرب الى الرياضيات ورأوا في علم العدد - كما لدى فيثاغورث - مفتاح جميع المعارف . بحثوا في علم المعادن والنبات والحيوان . اهتم كبارهم بعلم النفس خاصة وبالحس والخيال والارادة والحركة والعقل وتعبير الاحلام . كما كان يدخل في علم الطبيعة لديهم الظواهر الطبيعية . كانوا يربطونها بالأجرام السماوية ، ويسبغون على هذه الاجرام (كما لدى الكندي واخوان الصفا) (٢) خواص شبه الهية . كان يتوج هذه البحوث كلها علم الالهيات أو علم ما وراء الطبيعة الذي يدعوه أمثال الكندي والفارابي بالفلسفة الاولى . أبرز الفلاسفة الذين أقاموا من هذه المواضيع هيكل الفلسفة الاسلامية هم :

- يعقوب بن اسحق الكندي (١٨٥ - ٢٥٦/ ٨٠١ - ٨٧٠) أول فلاسفة الاسلام . أسهم في الترجمة وفي التأليف الفلسفي (٢٣٨ رسالة) درس مشاكل الالوهية والفلسفة الطبيعية وقوى النفس .

- أبو نصر محمد بن محمد الفارابي (٢٥٧ - ٣٣٩ / ٨٧٠ - ٩٥٠) ويسمونه بالمعلم الثاني (بعد ارسطو) درس وعاش في بغداد ٣٠ سنة ومات بدمشق زاهدا . له حوالى ٣١ مؤلفا تكشف تبحره في الرياضيات والكيمياء والفلك والموسيقى والالهيات والفقه والمنطق . حاول الجمع بين أفلاطون وأرسطو .

- ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ / ٩٨٠ - ١٠٣٧) الشيخ الرئيس الطبيب (٢) . له في الفلسفة كتاب الشفاء (١٨ مجلدا) . اختصره في كتاب النجاة . وضع اساس الاتجاه الافلاطوني الذي سيظهر من بعده في المذهب الاشراقي .

- أبو حامد محمد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ / ١٠٥٨ - ١١١١) عاش مذاهب الفكر والتصوف والفلسفة ، ترك من مؤلفاته مكتبة كاملة في العلوم الدينية والفلسفة . منها « تهافت الفلاسفة » و « احياء علوم الدين » .

الفلسفة في الأندلس

تميز الفكر الفلسفي هناك بالتوفر على التيار الاشراقي الذي استهله ابن سينا ، والذود عن الفلسفة في شكلها الأرسطي . وأقدم فلاسفة الأندلس ابن مسرة (٨٨٣ - ٩٣١) المتأثر بالأفكار الغنوصية (العرفانية) والصوفية ، والذي وجد الكثير من المقاومة ، واضطر للفرار الى المشرق فترة . وقد انصرف كل من ابن باجة (محمد بن يحيى ١١٣٩) وابن الطفيل (محمد بن عبد الملك ١١٠٠ - ١١٨٥) الى مشكلة الاشراق (الحكمة المشرقية) ، وبحثا طريق الوصول بالعقل وحده الى الله والحقائق الغيبية . كان طالب الحقيقة عند ابن باجة هو (المتوحد) الذي يصبو الى العزلة ، ويسعى الى الاتصال بالعقل الفعال ؛ وعند ابن الطفيل هو (حي بن يقظان) الذي نشأ وحيدا في احدى جزر المحيط الهندي ، وانتهى الى أسمى المعارف دون مرشد .

أما أهم فلاسفة الغرب الاسلامي فهو ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) من قرطبة (٤) . يلقب بدوره بالمعلم الثاني . انتصر لفلسفة أرسطو . وحاول التوفيق بين الفلسفة والدين . من خلال ابن رشد خاصة عرف الغرب ، منذ القرن الثاني عشر ، أرسطو والفلسفة الاسلامية .

التصوّف في الاسلام

كلمة التصوف التي اشتقت ، على الأرجح ، من لبس الصوف دلالة على الزهد ظهرت في الكوفة والبصرة ، منذ اواسط الثاني الهجري (٨ م) ، لتدل على بعض المتزهدين فيها . ما لبثت الكلمة بعد نصف قرن ، ان اضحت تطلق على جميع المتصوفة في العراق مقابل الملامتية ، صوفية خراسان . ثم انتشرت لتصبح بعد قرن من ذلك علما على تيار من أهم تيارات الفكر في الاسلام . وكانت رد فعل روحي وثورة ضمير على المظالم الاجتماعية والتباين بين الدين والعمل .

الأفكار الصوفية رغم التقائها في النهاية في نقطة واحدة هي محاولة الاتصال بالله الا

١ أ



ب



٢

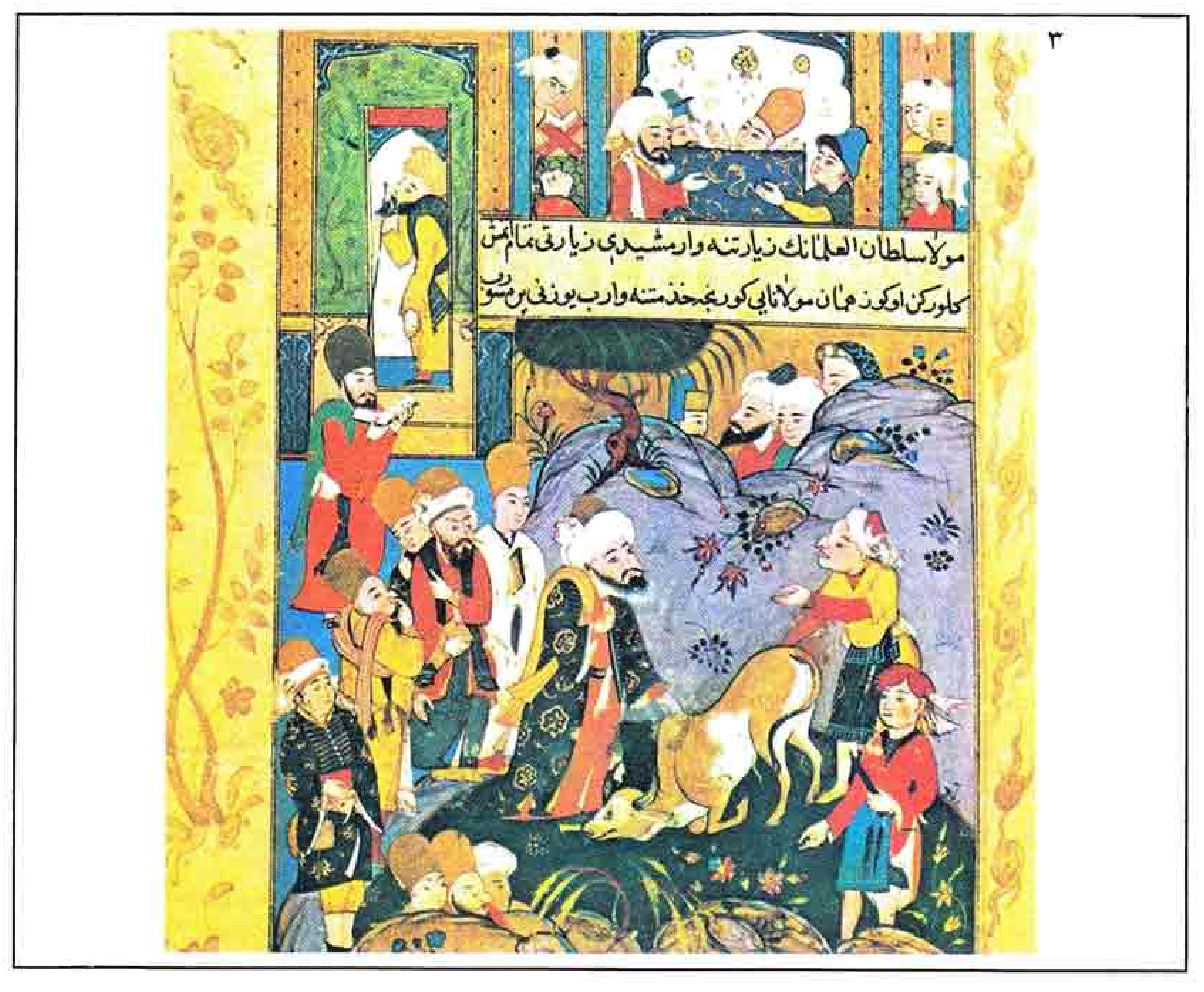
(١) ـ في العهد المغولي ، ظهر في المشرق عدد من كبار الشيعة النزاعين الى الصوفية الفكرية مثل آل طاووس والبهاء الآملي (ت بعد سنة ١٣٩٢) ، ثم ظهرت الحروفية في العهد التيموري مع فضل الله الاسترابادي (قتل سنة ١٤٠١) . تطورت الصوفية الشيعية من بعد وصار لها رموز خاصة نجدها على هذه السجادة (صنع ايران القرن ١٧) ومنها جلد النمر واناء الكدية والثوب المرقع . اناء الكدية المزخرف (ب) نقش بآية الكرسي لبعض الكبراء (القرن ١٥) .

(٢) ـ محي الدين ابو بكر محمد الحاتمي الطائي الاندلسي ، الصوفي المعروف بالشيخ الأكبر (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) ولد بالأندلس ولكنه طاف المشرق حتى بغداد بعد أن حج وتزهد . اختلف الناس في عقيدته وكان قدوة القائلين بوحدة الوجود وفيض التعدد عن الواحد . توفي بدمشق . بنى السلطان سليم العثماني جامعا فوق قبره . له حوالى ٤٠٠ كتاب ورسالة من أهمها الفتوحات المكية . ومنها هذان الرسمان اللذان يقدم فيهما بعض أفكاره بشكل هندسي متناظر .

ان هذه النقطة تختلف طريقة وتصورا وابعادا حسب زمان الصوفي ومكانه ومذهبه وأخلاقه لدرجة يصعب معها تعريف التصوف تعريفا واحدا واضحا .

أصول التصوف الاسلامي

أصوله متعددة ، لكن أولها وأهمها هو الذي يعود الى الدين نفسه . ظهر في تزهد ابي ذر الغفاري ، كما ظهر في الحسن البصري (توفي ٧٢٨) ومالك بن دينار ، حتى رابعة العدوية (سنة ٨٠١) في البصرة ، وظهر في تصوف ربيع بن خيثم (ت سنة ٦٧ / ٦٨٦) وجابر بن حيان وعبدك الصوفي (ت سنة ٢١٠ / ٨٢٥) في الكوفة (وكانوا على التشيع) . ولدى معروف الكرخي (سنة ٨١٥) . هذا الاصل يقوم على الزهد العملي والعبادة استنادا الى بعض آيات القرآن ، وبعض الاحاديث لا على الأفكار النظرية . كان أشبه



(٣) ـ كان كلام المتصوفة يثير عليهم غضب رجال الدين . منذ أواخر القرن الثالث كانوا يؤذون ويقتلون على الكفر ، على أن الفكر الصوفي الذي انتشر منذ القرن ١٣ في المشرق والمغرب ، تحول الى تنظيمات وطرق لا يظهر فيها الجدل الفلسفي . ولكن طقوس العبادة والحب لله وكرامات الشيوخ . جلال الدين الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣) مؤسس الطريقة المولوية ، رويت عنه كالرفاعي والكيلاني وغيرهم ، كرامات منها ما تصوره هذه المنمنمة التركية العائدة الى القرن السادس عشر ، من ركوع بقرة أمام الرومي تطلب البركة منه .

برياضة النفس على التنسك . ابراهيم بن أدهم وهو ابن ملك في بلخ (سنة ٧٧٩) أمضى تسع سنوات في غار بنيسابور . بشر الحافي (سنة ٨٤٣) قضى العمر حافيا . مالك بن دينار قضى اربعين عاما في البصرة ، بلد التمر ، ولم يتناول تمرة ...

على أن تمازج الثقافات في عصر الترجمة أتى الى التصوف بروافد وتأثيرات متنوعة سواء في السلوك أو التنظير :

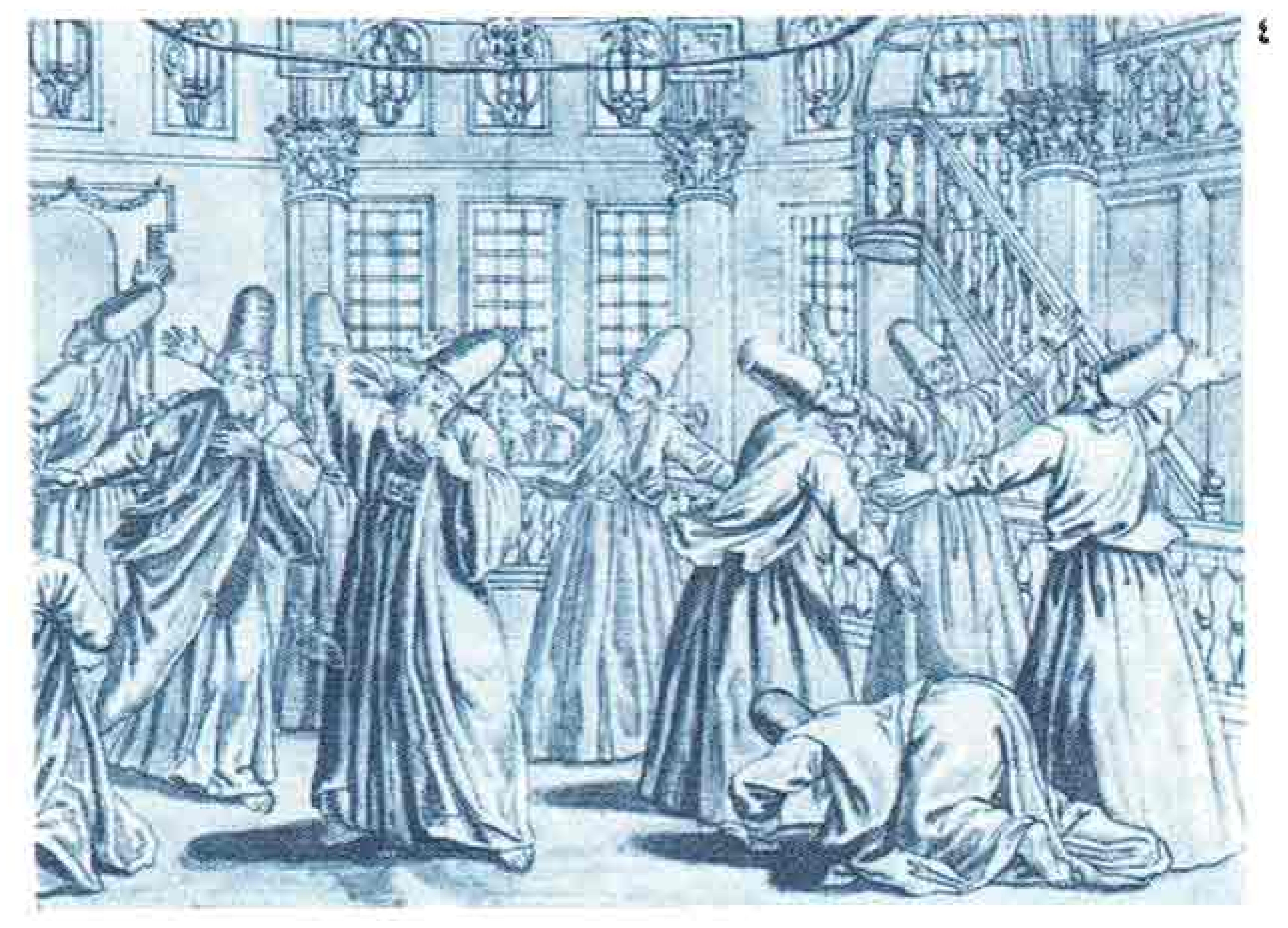
بعضها من الفكر الهندي وافكار وحدة الوجود البوذية وعقائد الفيدا .

وبعضها من المسيحية والرهبنة واللاهوت النصراني المختلط بالفلسفة .

وبعضها من الفلسفة الافلاطونية المحدثة التي تقول بالفيض الالهي .

وبعضها من الفلسفات الغنوصية (العرفانية أو الأدرية) التي تؤمن بروحانية النفس وامكان المعرفة التامة بالالهام والكشف .

٤



٥

(٤) - تشكلت حول كبار الصوفية فرق بعد فرق من المريدين (كالجيلانية والرفاعية ثم المولوية) لها اسرارها وطرقها في المجاهدة ولها مراتب السلوك والوصول . ومقامات الرياضة والأحوال . استعان بعضها بالسماع ، والرقص ، والطبول ، والاذكار . صارت الموسيقى تعين على التركيز وعلى الوقوف في حضرة الذات الالهية . بعض الفرق استعانت بالرقص ، ومنها المولوية التي تحاول بالدوران المتصل مع الموسيقى الوصول الى حالة الوجد . صار العشق والكأس وغيرها رموزا مجازية في رباعيات الخيام والرومي وحافظ .

(٥) - كان الشعر احدى وسائل التعبير الصوفية . اذا تركنا شعر الزهد ، كانت رابعة العدوية (ت بالقدس سنة ٨٠١) أول الأقطاب في شعر التصوف الذي بلغ قمته لدى ابن الفارض (عمر بن علي ١١٨١ - القاهرة ١٢٣٥) شاعر المتصوفة وصوفي الشعراء المعاصر لابن عربي . عاش فكره الصوفي وعبر عنه أرق التعبير . كان يأوي الى وادي المستضعفين بجبل المقطم . حج واعتكف بمكة ١٥ سنة ، نظم خلالها أكثر شعره الذي شرحه كثيرون ، وهو مملوء برموز الحب الالهي . كان يعشق الجمال المطلق المتجلي في الوجود . لذلك لقب بسلطان العاشقين . واختلف الناس به كما اختلفوا في كثير من رجال الصوفية الآخرين . أشهر قصائده التائية الكبرى التي عرفت بنظم السلوك . سجل فيها حياته الروحية وعرض مذهبه الصوفي . ثم الميمية في الخمرة (ويقصد بها المعرفة الالهية) . مذهبه الفني في الشعر ينسجم انسجاما كاملا مع مذهبه الروحي في وحدة الوجود .

التصوف الفلسفي

هكذا صار للتصوف بالتدريج مصطلحاته الميتافيزيقية الخاصة المتباينة بين صوفي وآخر. تطورت في الوقت نفسه مفاهيمه لتأخذ الشكل الفلسفي بعد أن صبت فيها فلسفة الفارابي وابن سينا المتأثرة بدورها بالافلاطونية المحدثة خاصة . منذ القرن الرابع / ١٠ م ، كان شيوخ التصوف حيارى بين ضروب ثلاثة في تفسير الاتحاد الصوفي بالله تفسيرا فلسفيا :

اخوان الصفا والفارابي وابن مسرة يقولون بالاتحادية ، أي ان الاتحاد يتم بتأليف المعاني تحت تأثير العقل الفعال (الذي هو الفيض الالهي) .

ابن سينا وابن طفيل وابن سبعين قالوا بالوصولية . أي بأن النفس تصل بالمجاهدة الى موافقة الحق حيث لا تعدد ولا كثرة ولا تفرقة .

شهاب الدين السهروردي (الشيخ المقتول بحلب سنة ١١٩١) وأتباعه (كالشيرازي سنة ١٣٤٤) قالوا بالاشراق أو بتجوهر النفس وتألق النور الالهي في اشراقات العقل الفعال . بذور هذه الافكار قال بها ابن سينا والافلاطونية . جاء السهروردي والشيرازي فأبرزا بوجه خاص الجانب القائم منها على الاتصال الاشراقي بالعقل الفعال . وجمعا بين الطريقة البحثية (اي طريقة الاستدلال الفلسفية) والطريقة الذوقية (اي طريقة المتصوفة) في مؤلفاتهما . واعتبرا ان للفلسفة اصولا مشرقية . فتاريخها عند السهروردي يبدأ بهرمس (وهو اخنوخ أو ادريس) ويمر بأفلاطون وارسطو وفيثاغورث وزارادشت . وينتهي آخر الأمر بالبسطامي (٨٧٥) والحلاج (قتل ٩٢٢) حتى يبلغ الى السهروردي نفسه . شاع هذا المذهب المليء بالأسرار والغنوصيات في ايران .

في القرن الثالث عشر دخل التصوف دوره الثالث بظهور المدرسة الوجودية أو الوحدتية القائلة بوحدة الوجود . كان ابن عربي الصوفي الأندلسي (ت بدمشق / ١٢٤٠ م) أول من صاغ هذا المذهب . قال ان وجود المخلوقات هو عين وجود الخالق . وان ثبوت الاشياء في علم الله هو أرقى درجات وجودها . وهي تصدر عنه بفيض على مراتب خمس . وان النفس تعود الى الذات الالهية الجامعة بانتقالها من الكثرة الى الوحدة(٢) .

كبار المتصوفة الذين ظهروا بعد ذلك مثل فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي كانوا على هذا القول بان الله هو الوجود من حيث هو كلي لا يقوم بشيء . وهذا الوجود هو الذي يفيض بالكائنات المشخصة . كما يفيض البحر من تحت الامواج .

الفرق الصوفية

اعتبارا من القرن الثالث عشر انتشر التصوف بشكل شعبي متزايد . وصار فرقا ونظما صوفية متعددة لكل منها طرائقها في مجاهدة النفس . أدى ذلك الى الانحطاط التدريجي في الفكر الصوفي ، بتحوله الى مجرد طقوس . وبدخول جماعات عامية فيه . واساء كثير من أدعياء التصوف سمعته ، وأكلوا أوقاف الخوانق والأربطة والزوايا التي انشئت له .

مقابل ذلك نضيف ان جانبا كبيرا من نشر الاسلام في غرب افريقيا وآسيا الصغرى وفي الهند واندونيسيا انما يعود الى رجال الفرق الصوفية . في هذه العهود المتأخرة .

الفن الاسلامي(١)
العمارة

الرقعة الجغرافية للفن الاسلامي شاسعة تمتد من اندونيسيا حتى الاندلس ، بما في ذلك افريقيا الغربية . وقد ازدهر زمنيا منذ القرن السابع حتى السابع عشر . رغم هذين الامتدادين في الزمان والمكان ، كان للفن الاسلامي شخصيته ، وله طابعه المميز بين فنون الامم . يظهر هذا الطابع في جميع فاعلياته الفنية ، من العمارة وزينتها الى الفنون الصغرى المختلفة . وذلك بالرغم من تعدد الشعوب التي انتجته ، وتنوع حضاراتها القديمة ، واختلاف المناخات والحاجات والاذواق التقليدية . استعار الفن الاسلامي العديد من العناصر من الحضارات السابقة له ، لكنه أعطاها طابعه الذي لا يخطئه النظر

١

(١) ـ سامراء ، التي ظلت حاضرة الدنيا نصف قرن (أواسط القرن التاسع) هي مدينة من الآجر واللبن . أطلالها التي هجرت منذ أحد عشر قرنا ما تزال تعكس شيئا من ماضيها الضخم . أول ما كشف التنقيب بين سنتي ١٩١١ ـ ١٩١٣ عن بعض معالمها ظهر فيه جامعها الكبير الذي بناه المتوكل بين سنتي ٨٤٨ ـ ٨٥٢ ، ويعتبر من أكبر مساجد العالم الاسلامي في السعة (٢٤٠ × ١٥٦ م) لم يبق منه اليوم الا بقايا جدرانه الخارجية ومئذنته الملوية التي كان المؤذن يصعدها على الخيل ليصل الى القمة التي ترتفع ٥٥ مترا . يذكرون انها تستوحي الزقرات القديمة في ما بين النهرين . وهي أولى المآذن المنفصلة عن الجامع . ومثلها مئذنة جامع ابي دلف في سامراء ، ومئذنة ابن طولون في مصر . جدران الجامع نفسه من الآجر وترتفع ١٠ أمتار لهذا كانت سميكة (٢،٦٥ م) وتدعمها ابراج مستديرة . في الزوايا اربعة ابراج ضخمة (بقطر ٣،٦٠م) .

أبدا ولغته التعبيرية المميزة .

العمارة الأموية

أهم ما في العمارة الاسلامية قبل العصر الأموي ناحية واحدة هي مخطط المسجد . مسجد الرسول هو الذي حدد معماريا ودينيا الخصائص الاساسية لمسجد المستقبل . في الباحة الواسعة لاجتماع المصلين والمكان الظليل لوقايتهم ، واستقبال الكعبة للصلاة ، ومكان المنبر . المساجد في عهد الرسالة والعهد الراشد كانت مبسطة البناء دون زخرف . العهد الاموي الذي اتخذ الشام مقرا وفيها آثار الحضارات القديمة المعقدة والبازيليكات المزينة ، أضاف الى المسجد التزيين . والبرج المرتفع للآذان (مما كان أساسا للمئذنة) .

أهم المساجد التي بناها الأمويون هو الجامع الأموي في دمشق . أمر ببنائه الوليد

٢

(٢) - لم يبد الفاطميون الاهتمام نفسه الذي كان يوليه الأغالبة قبلهم لبعض المواقع الدفاعية مثل المنستير التي يقوم فيها (حتى اليوم) رباط دفاعي متين . ومثل سوسة التي نرى مخطط رباطها . بني هذا الرباط سنة ٨٤٤ - ٨٤٥ وفيه الكثير من التأثير البيزنطي ومن ملامح قصور الأمويين في الشام ، لأنه قام في مناطق الدفاع البيزنطي القديمة . تقوم في أركانه الأربعة أربعة أبراج ضخمة اسطوانية يرتفع واحد منها ليتحول الى مئذنة وبرج مراقبة معا .

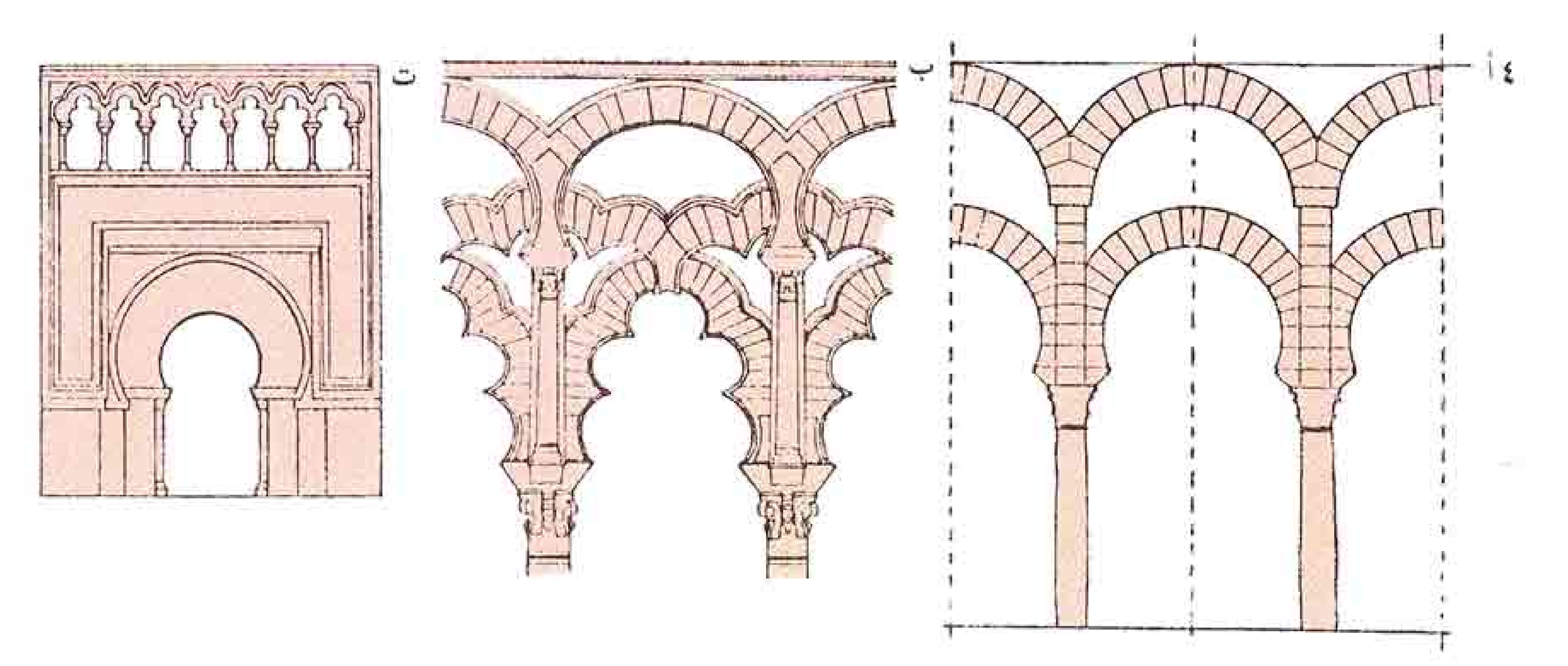
٣

(٣) - بدأ بناء جامع الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) في عهد العزيز الفاطمي سنة ٩٩٠ وانتهى في عهد ابنه الحاكم سنة ١٠٠٣ . هو ثالث المساجد الفاطمية الهامة (مع الأزهر - والأقمر الذي بني في عهد الآمر سنة ١٠٢٥) . عمارته متأثرة بالجامع الطولوني العباسي في المخطط ودعائم الآجر . أقيمت المئذنتان في ركنيه الأماميين كالأبراج . التجديد المعماري فيه هو مدخل الواجهة الرئيسية التي تبرز ٦ أمتار تقليدا لجامع المهدية في تونس .

ابن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) . بنى أيضا مسجد الرسول في المدينة بعد ان زاد كثيرا في سعته ، كما بنى المسجد الاقصى . لم يدخل الأمويون على المسجد فكرة المئذنة فقط في الشام ومصر (جامع عمرو بالفسطاط) ولكن أدخلوا أيضا ثلاثة عناصر معمارية جديدة أو متطورة هي المحراب المجوف ، والمنبر المرتفع والمقصورة بجانب المحراب .

البناء الديني الفرد الذي بناه الأمويون ولم يبن مثله في الاسلام هو قبة الصخرة في القدس . بناها عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) . انتهت سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢ م .

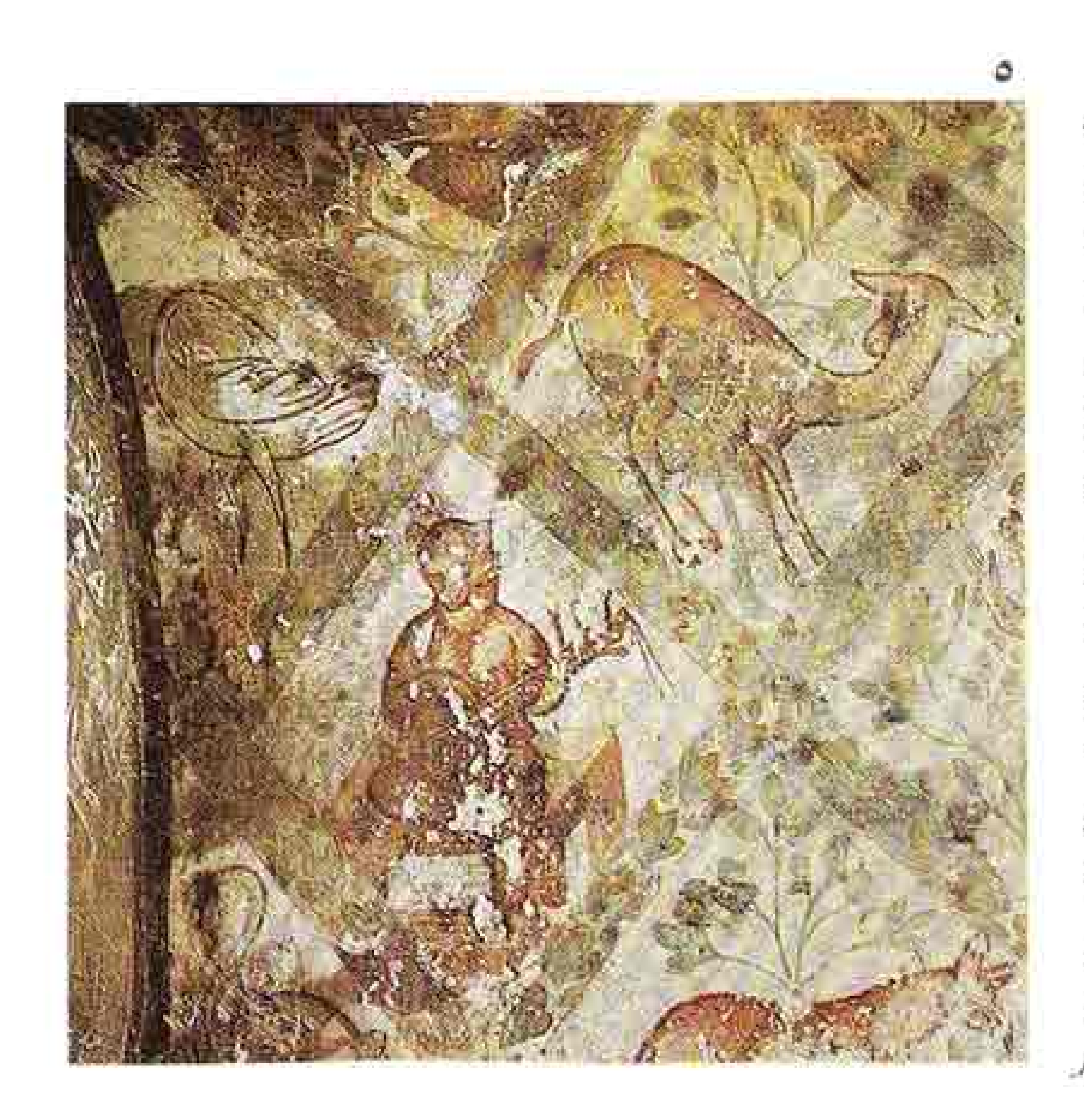
لم يكن نشاط الأمويين في الأبنية المدنية اقل منه في الابنية الدينية . اندثرت قصورهم في دمشق لكن آثار بعضها كشفت في القدس سنة ١٩٧٠ لصيقة بالأقصى . على انهم كانوا أكثر ميلا لسكنى البادية ، وقد أحصي لهم فيها ثلاثون قصرا تقريبا (٥) عدا



(٤) ـ غابة الأعمدة التي تملأ مسجد قرطبة تزيد على ٦٠٠ عمود وعضادة عدا المزدوج منها والثنائي . معظمها أتي به جاهزا من عمائر أخرى قديمة منخفضة السقوف . المهندسون أوجدوا حلولا رائعة لاستخدامها في الجامع المرتفع السقف جدا وللحفاظ على رشاقة المبنى وانفتاحه . أقاموا الأعمدة بعضها فوق بعض وربطوا بينها تارة بأقواس مزدوجة أحدها فوق الآخر (أ) وتارة أخرى جعلوا هذه الأقواس (ب) تلتقي وتفترق في مجموعة من الأقواس الصغيرة المفرغة .

(٥) ـ بالرغم من أن عناصر التوريق والتزيين الهندسي والكتابي والنباتي قد سيطرت على الجدران في العمارة الاسلامية وخاصة منها الدينية ، الا أن الرسم الجداري ظل أيضا موجودا وبخاصة في الأبنية المدنية . نعرف ذلك خاصة من الأخبار المروية لأن معظم هذه العمائر قد اندثر . كما نعرفه في الأطلال الباقية مثل سامراء وبعض بيوت القاهرة وفي قصر الحمراء . أقدم هذه الرسوم الجدارية الباقية ما رسم في قصير عمرة في العصر الأموي الصحراوي قبيل أواسط القرن ٨ .

٥



مدينة عين جر في البقاع بالشام .

يظهر في العمارة الأموية ازدواج التأثير البيزنطي - الساساني سواء في الهندسة او في الزخرف . لكن فيها ايضا تلمسا لأسلوب معماري جديد لم يأخذ بعد شخصيته النهائية فهي أول مدارس الفن الاسلامي .

العمارة العباسية

انتقل مركز الدولة في العصر العباسي الى العراق وبخاصة الى بغداد التي بدأ بناؤها سنة ٧٦٣ . المنطقة السهلية . جعلت مادة البناء من اللبن والاجر بدلا من الحجارة (كما في الشام) . وكان الايوان من تقاليد العمارة في المنطقة (على مثال ايوان كسرى) فدخل استخدام الايوان على البناء العباسي . لم يكن الخلفاء العباسيون يألفون البادية ، لذلك كانت قصورهم كلها ضمن المدن التي بنوها . لم يبق من آثارهم في بغداد العباسية الا القليل جدا ، ومنها المدرسة المستنصرية . عمرانهم الباقي يظهر في سامراء (١) ، التي اتخذها العباسيون حاضرة لهم حوالى نصف قرن .

نموذج العمارة الدينية فيها نراه في المسجد الجامع الذي بناه المتوكل (٨٤٦ - ٨٥٢) وفي مسجد ابي دلف . يتميز المسجد الجامع بين مساجد العالم الاسلامي كلها بمئذنته الملوية وسعته الكبرى . وزخارفه من الآجر . قلده ابن طولون بجامعه المعروف في مصر (سنة ٩٣١) . أما الاغالبة في افريقيا فقد توجهت عناية ثلاثة منهم الى المسجد الكبير في القيروان التي بني سنة ٨٣٦ وتوسع حرمه مرتين على حساب الصحن الذي ظل مع ذلك واسعا يشغل ثلثي العمق الكلي البالغ ١٢٥ متر .

العمارة العباسية المدنية المتأثرة بنظام الايوان الواسع المقبب تظهر في أطلال قصور سامراء والمتوكلية كما تظهر في قصر الاخيضر الذي يشكل مخططه حلقة الاتصال بين العمارة الاموية والعباسية . أما قصور الطولونيين فلم يبق منها شيء يذكر .

العمارة الفاطمية والأندلسية

لم تكن الخلافتان الفاطمية والاموية في الاندلس أقل نشاطا من الخلافة العباسية في الجهد المعماري . كان البناء الضخم جزءا من سمعة الدولة . منذ وصل الفاطميون الى حكم افريقيا ، بنوا لأنفسهم مدينة المهدية حصنا وقصورا وميناء (٢) . حين انتقلوا الى مصر بنوا القاهرة . لم تكن مدينة للناس ، ولكن مجموعة قصور للخليفة وأهله . لحقتها بعد ذلك أعداد من المساجد الضخمة . أهمها الجامع الأزهر (تم بناؤه سنة ٩٧٢) الذي اجتمعت فيه خصائص العمارة الافريقية مع العمارة الطولونية (٣) . عمارة الفاطميين المدنية لم يبق منها الا بعض الأبنية في المهدية والقاهرة . البقايا الأثرية تكشف تطور التزيين البنائي فيها الى ما عرف بالفن الفاطمي.

في الأندلس أروع الأبنية الدينية كان مسجد قرطبة الكبير (٤) . أرسى عبد الرحمن الأول الداخل سنة ٧٨٥ أساسه على نسق الجامع الأموي بدمشق وبمقاييس كبيرة . بذل الأمراء ثم الخلفاء الأمويون حتى سنة ٩٨٧ الكثير من عنايتهم في توسعته المتكررة وفي اغناء زخرفته . أما في البناء المدني فكانت مدينة الزهراء (القرن ١٠) نموذج القصور الأموية في الأندلس .

الفن الاسلامي (٢)
الرسم والتزيين

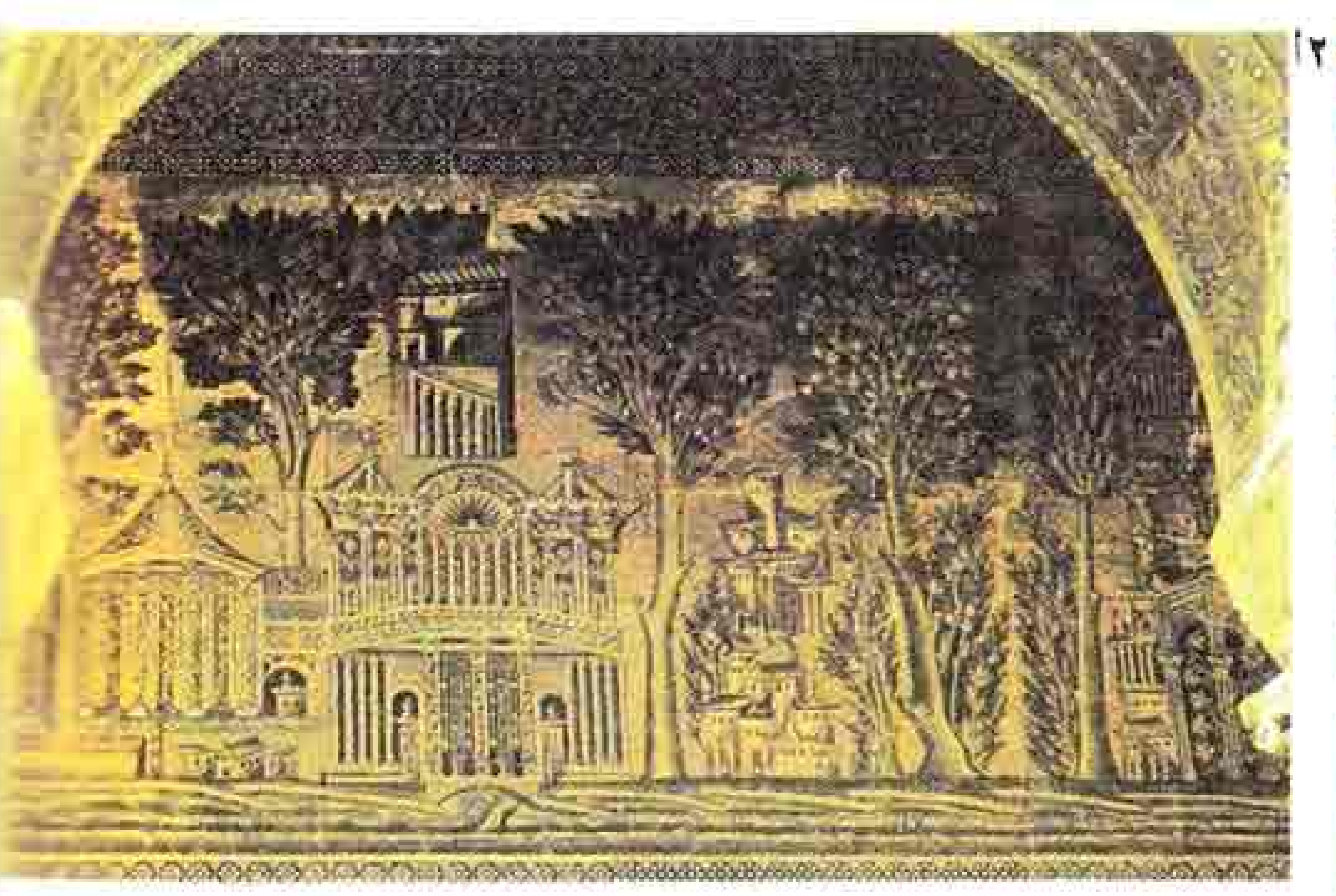
من أهم ما تكشف عنه بقايا القصور الاموية في الشام ، والعباسية في سامراء ، هو لوحات الرسوم الجدارية الملونة فيها ، والزخارف البارزة من الجص ، وبدء ظهور التوريق العربي (أو الرقش = الارابسك) .

انها تسجل وجود التصوير بشكل مبكر في الاسلام ، وتسجل في الوقت نفسه تكثيف الفاعلية الفنية تدريجيا وتوجيهها لدى الفنان الاسلامي الى العمل الزخرفي ، أكثر من التصوير الواقعي للأحياء . لم يكن السبب في هذا الاتجاه تحريما دينيا في الشرع ، ولكنه نوع من التحرج شاع تحت تأثير المحدثين والفقهاء الذين سيطروا على الفكر ، بين القرنين التاسع والثاني عشر (٣ - ٦ هـ) .

١ أ



٢ أ



ب



(١) - المصورون الفاطميون هم الذين رسموا هذه الصور (أ) و (ب) في كنيسة بالاتين في بالرمو (صقلية) بين ١١٣٢ - ١١٤٢ . الملك روجر الثاني النورماندي استدعاهم لتزويقها بالمقرنصات ورسموها بطابع اسلامي . صوروا الملك بشكل الخليفة في (أ) . سقطت صقلية بيد النورمان سنة ١٠٩١ .

ب



(٢) - منذ عهد مبكر رفضت جدران العمارة الاسلامية ان تبقى عارية . وصارت تغشى بالتزيين (من الفسيفساء والصور) . استمر هذا العصر المعماري يتوطد ويتعقد مع العصور حتى انتهى في المشرق الى التغشية الكاملة بالقاشاني وبالتزيينات الكتابية والهندسية من الاجر . وانتهى في المغرب والاندلس الى النقوش الجصية الملونة بالحمرة والصفرة والذهب والتي يختلط فيها الخط النسخي بالكوفي والرسم الهندسي بالغصن النباتي المحور . اندثرت صناعة

استنتجوا من بعض القرائن عدم حب التصوير ، وعدم توافق التقي الديني مع رسم الكائنات الحية ، الذي كانت تفعله الحضارات الوثنية ، وتقبله الكنائس المسيحية . اعتبروا ان من مظاهر التمايز عنها ، اقصاء الصور والتماثيل عن المسجد والحياة العامة . وهكذا انكمش الرسم ، وان لم يمت ابدا ، وتحولت وجهة النحت . بينما نما التزيين وتطور وتنوع ، وصار السمة الاولى من سمات الفن الاسلامي .

التزيين المعماري (التزويق والتوريق)

عملية التزيين كانت أساسية في العمارة الاسلامية ، سواء منها الدينية (٢) والمدنية . زخارف قبة الصخرة (وعناصرها من النبات وشجر النخيل والفاكهة من العنب والرمان) هي أول وأقدم محاولة للزخرف المعماري . التسامح في الرسم الفسيفسائي كان أكثر في الجامع الأموي حيث تظهر المناظر الطبيعية من انهار وشجر ومنازل كالقصور . واذا خلت

ت

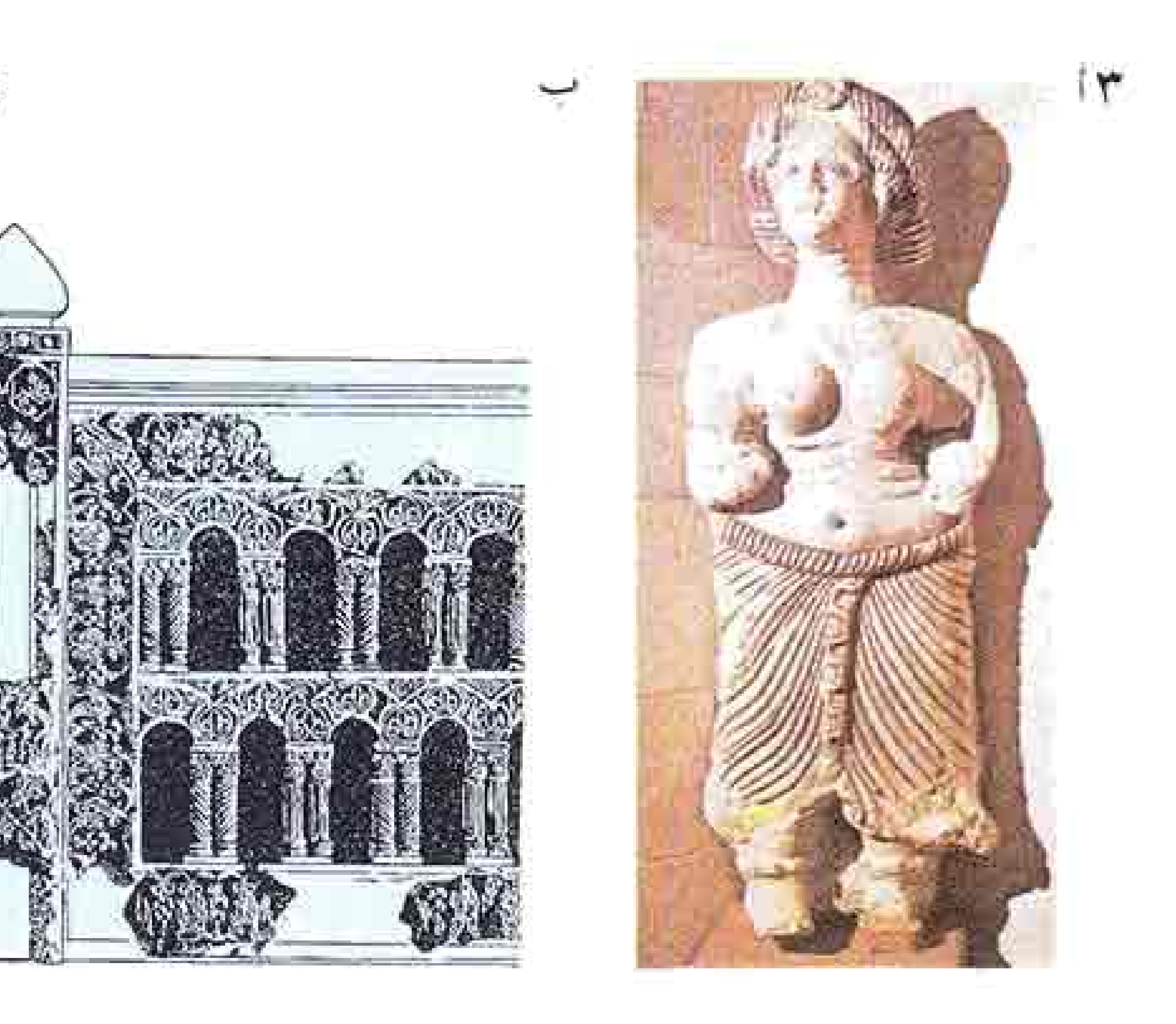


الفسيفساء (أ) تدريجيا بعد العصر الأموي ، سيطرت بدلا منها الزخارف الجصية التي تنقش بالقوالب في سامراء (ت) . وسرعان ما أخذ التوريق (الآرابسك) يكتسح الجدران كلها وبخاصة في الأبنية الدينية . عناصر التوريق من الزهور الى الغصن النباتي المحور الى الزخرفة والذي يقبل ان يشتبك فيه الحيوان والانسان كما في (ب) من الخشب الفاطمي المحفور في القرن الحادي عشر ، تلتقي كلها مع الكتابة في انسجام فني متكامل رغم التباين بينها . من الرقش والتوريق المعقد المتعدد العناصر ، سوف يسيطر بعد ذلك في المشرق والمغرب . ويغشى الجدران فلا يترك فيها مساحة خالية حتى أضحى ذلك من أهم مميزات الفن الاسلامي . شمل ذلك الأبنية المدنية (كقصور الحمراء) أو نصف الدينية (كمدارس المغرب) والأضرحة أو أبنية المساجد التي سيطر عليها القاشاني خاصة في ايران .

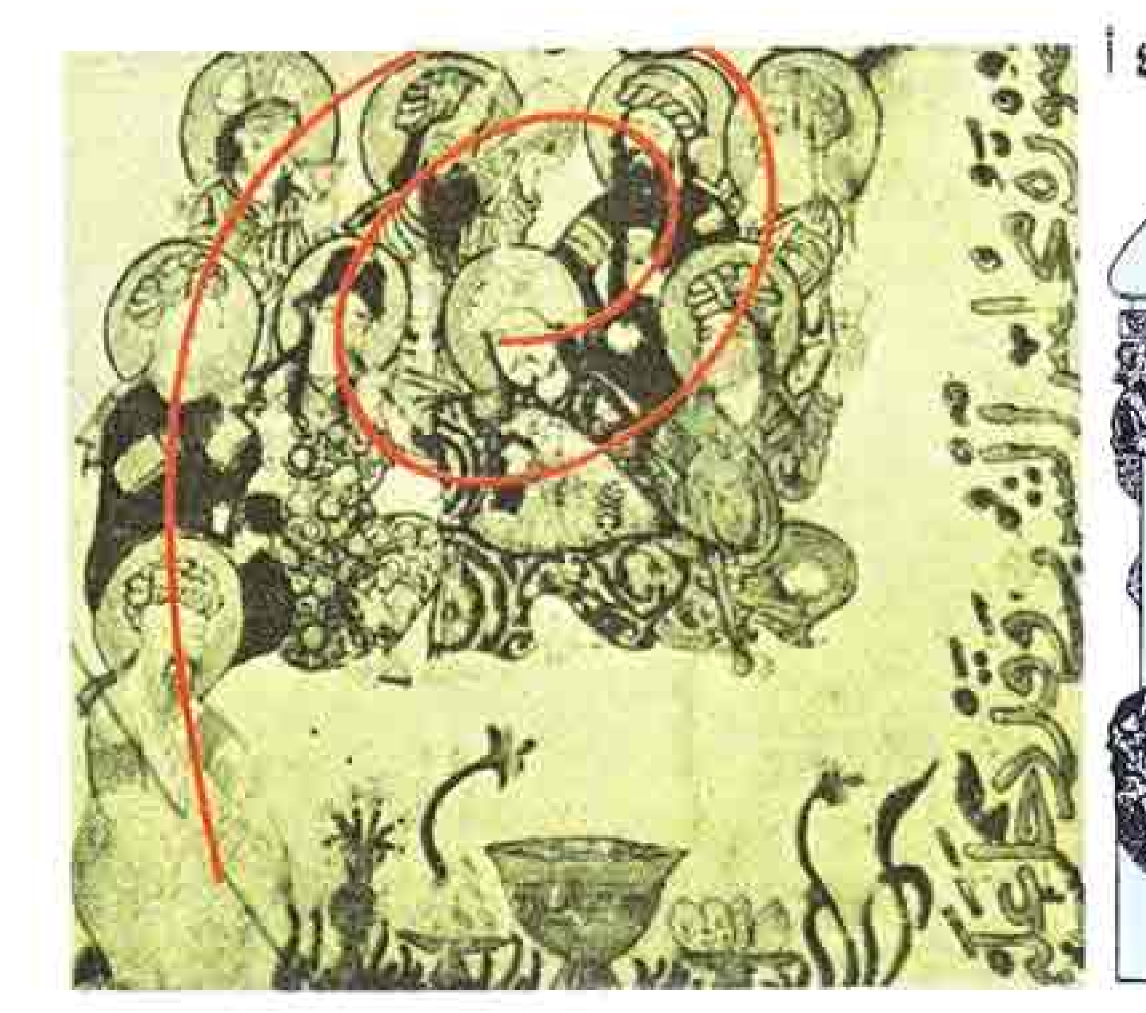
من الصور الآدمية والحيوانية . فقد ظهرت هذه الصور في القصور الأموية ، لا في لوحات الفسيفساء فقط ولكن بشكل رسوم جدارية تصور مناظر الصيد والاستحمام والرقص والموسيقى وبعض الحرف . كما في قصير عمرة وقصر الحير الغربي وخربة المفجر (٣) . كما نجد النحت في تماثيل آدمية نصف عارية ، وفي النماذج الحيوانية . وفي النقوش البارزة بالجص . على اننا نلاحظ ايضا ظهور مطالع التزيين الهندسي والنباتي المطور عن رسم النبات الحي . مطالع التوريق (الارابسك) بدأت منذ العهد الأموي وان كانت مقتبسة في الأصل عن النقوش القديمة في ما بين النهرين .

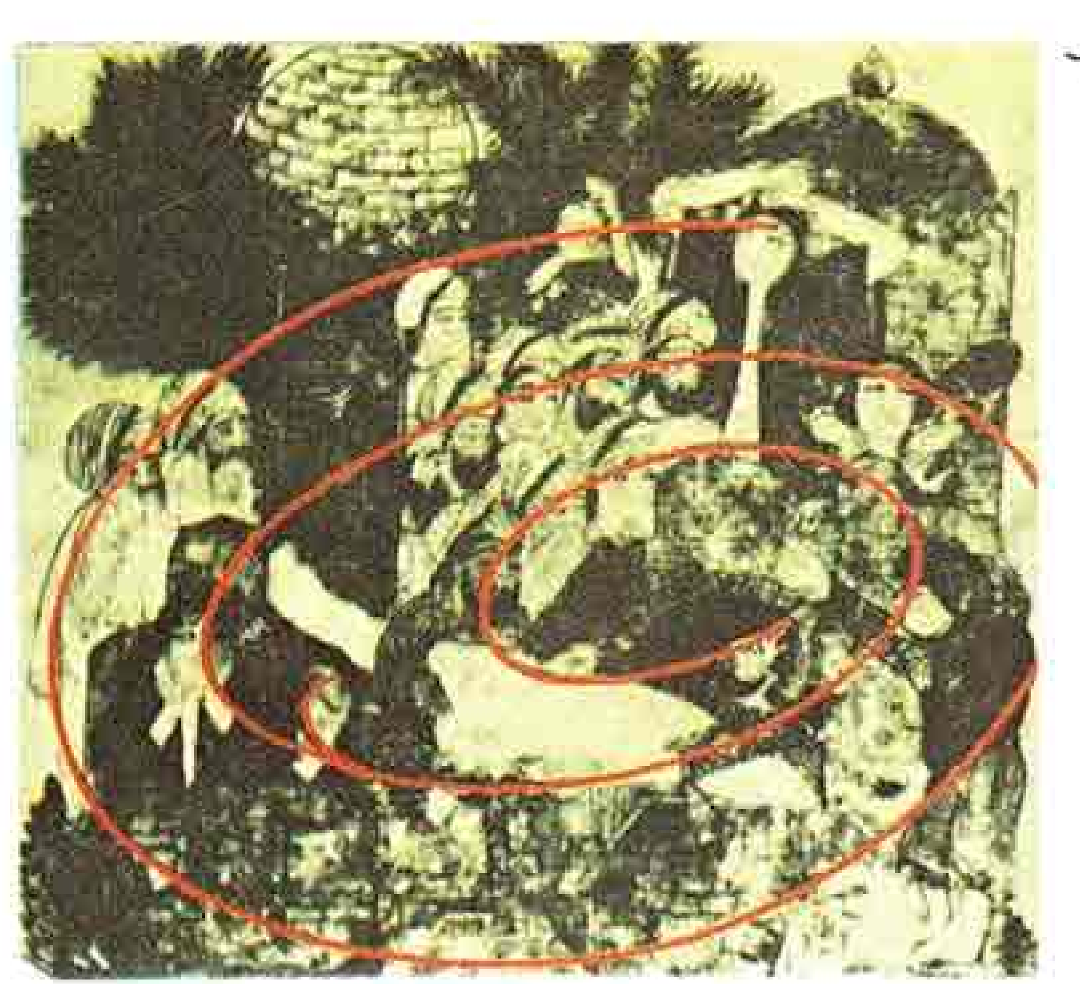
التزيين العباسي والفاطمي

في العصر العباسي ، يغيب تماما عن الأبنية الدينية عنصر المناظر الطبيعية


٣ أ ب

(٣) - قصر المفجر (الذي بناه الوليد الثاني الأموي حوالى سنة ٧٤٣) انجاز هندسي رائع يسبق في مخططه الضخم وفي زخرفته القصور الأموية كلها والعباسية ايضا . حتى قصر الحمراء الأخير في الأندلس لم يتجاوز ، في غير التلوين والتعقيد ، أساليبه الزخرفية ومنحوتاته الجصية الملونة . التمثال (أ) لراقصة وجدت في أطلال القصر . وأما (ب) فهو قطعة من حاجز (درابزين) مؤلف من طبقتين من الأعمدة التوائم الصغيرة يقوم حول باحة القصر .


٤ أ


ب

(٤) - تكامل فن التصوير الاسلامي في هدوء ، ولكن في اصرار متصل ، على أيدي رسامي الخزف والجدران والمخطوطات . ظهرت ثمار هذا التطور متأخرة منذ القرن ١١ في مدارس تصوير اسلامية واضحة المعالم على أيدي المصورين (المزوقين) من بغداد ودمشق والقاهرة . وبرزت فيما بعد ايران . تميزت هذه المدارس برفض محاكاة الطبيعة . وعدم التجسيم . واهمال المنظور . وكان سر المهنة (لاسيما لدى الواسطي) اعطاء الصورة مركزا تنطلق منه وبدور باقيها حوله في خط لولبي خفي يمر بكل شخوص الرسم ، أو النقاط الاساسية من المشهد .

والنباتية . وتبدأ الفسيفساء في الغياب ايضا حتى في الشام وفي افريقيا . ويزداد بوضوح العنصر التزييني الهندسي والنباتي حفرا في الجص أو في الحجر . التحرج الذي أقصى الصورة والتمثال عن المسجد منذ العصر الأموي ، ازداد مع سيطرة التخريج الفقهي في القرنين التاسع والعاشر . كما انه انسحب جزئيا على المباني المدنية وان لم يمنع عنها الصورة والتمثال . جدران القصور في سامراء ما تزال اطلالها تحمل بقايا الصور ذات الموضوعات الادمية . صور جدارية مماثلة كشفت في حفريات نيسابور ، كما كشفت في اماكن مختلفة . وفي القصور الغزنوية . وجدت بعض التماثيل ايضا . ولكن بشكل محدود . التزيين بالجص المنقوش والزخارف النباتية والهندسية أخذ يسيطر ، بل أخذ ايضا يبتلع الرسوم الحية . اندمج رسم الاحياء من نبات وحيوان خاصة وانسان ضمن هذا التزيين بالتدريج . وتحورت الاحياء فيه الى اشكال تزيينية . أهم ما اتى به الفن العباسي في مراحله المتأخرة ، هو تغشية وجوه الجدران كلها بالزخارف الهندسية المكرورة بواسطة القوالب . هذا الاسلوب هو الذي سيطر من بعده على التزيين المعماري الاسلامي ووطد قواعد « التوريق » او الرقش ، وبخاصة أيام العهد الفاطمي . في مصر . وفي المعمار الاندلسي والمغربي اللاحق .

على ان الأبنية المدنية كانت كثيرا ما تخرج على هذا الاسلوب « التجريدي » من التزيين الذي استأثر بالمعمار الديني . كانت تستخدم التزويق بدل التوريق أو معه . سواء في عمارة العصور العباسية التالية او في مصر الفاطمية او في الاندلس . « المزوقون » وهم الرسامون - حسب المصطلح الاسلامي - كانوا آخر من يدخل للقصور والحمامات لتزيينها بالرسوم . ذكرت اخبار عن مصور العراق : القصير وزميله ابن عزيز مصور مصر (اواسط القرن الحادي عشر) . ووجدت تصاوير جدارية في بقايا الابنية الفاطمية في القاهرة وفيها صور شراب ورقص مع الزخارف النباتية والطيور . هذا اذا لم نذكر الرسوم التي صورها المسلمون في الكنائس والقصور النورمندية في صقلية (١) واستمدت عناصرها من التصوير الفاطمي . الفاطميون خاصة لم يكترثوا ، خارج البناء الديني ، بالحرج الشائع من الرسوم الآدمية ، واستخدموها في التزويق منذ عهدهم الأول في المهدية (حيث وجدت صور لأمير في يده كأس وأمامه عازفة على المزمار) حتى أيامهم الأخيرة . حتى الفنانون في العصور العباسية المتأخرة لم يهجروا الرسم . حين انقطع التصوير في الابنية انصرفوا الى رسم المخطوطات ، وأبدعوا مدارس للتصوير الاسلامي (٤) .

التزيين بالخط

منذ القرن الرابع خاصة ، بدأ يدخل على التزيين المعماري الاسلامي عنصر الكتابة . الخط العربي بأنواعه ، وبخاصة الكوفي منه ، كان عنصرا سهل الاندماج في التزيين . ويظهر انه دخل أول ما دخل على تزيين المسجد بآيات قرآنية . ما لبث هذا العنصر ان انتشر وصار في كثير من العمائر ، وخاصة منذ العصر الفاطمي والسلجوقي ، مادة اساسية للتزيين . في الوقت نفسه ظهر أيام الفاطميين استخدام المقرنصات كأسلوب معماري يخلق من لقاء القبة مع زاويتي الجدار مجالا فنيا .

الفن الاسلامي (٣)
الفنون الصغرى

كان طبيعيا أن لا تموت الفنون في المناطق التي دخلها الفتح الاسلامي . كما كان طبيعيا ، في الوقت نفسه ، ان تتخذ الاشكال والمسارب التي تتفق مع الذوق الحضاري الجديد وحاجاته . وكما جرى في الفنون الاساسية (العمارة والرسم) من تجاوب مع المعطيات الاسلامية ، كذلك جرى في الفنون التطبيقية ذلك التجاوب نفسه ، رغم تنوع موادها ، وتعدد اساليبها التقليدية السابقة ، واختلاف أنواعها . وبهذا الشكل ظهرت الفنون الاسلامية الصغرى .

لا نملك من العهد الأموي الا بعض القطع الفنية نلمح فيها جميعا مطالع الفن الاسلامي الجديد . أما من العصور التالية ، فثمة العديد

١

(١) ـ منذ القرن التاسع صارت كتابة المصحف وتزيينه فنا من الفنون الاسلامية . لم تزده القرون الا رقيا وتطورا وتنوعا . الصفحة من مصحف خاص بالسلطان بايزيد ، من سلاطين آل عثمان (١٤٨١ ـ ١٥١٢) . وهي الصفحة الثانية من سورة مريم . استخدم الخطاط في الكتابة عدة أنواع من الخط العربي . النص القرآني نفسه كتب بخط قديم هو الطراز المحقق . قواعده وضعها الخطاط التركي الكبير حميد الله (القرن السادس عشر م / ١٠ هـ) . بين السطور ترجمة للآيات بالفارسية المكتوبة بخط النسخ وهو (حرف المطابع) . اسم السورة كتب بالخط الكوفي القديم ولكنه يستخدم حتى الآن بمثابة زخرف . المصحف من مجموعة مصاحف تشستر بتي في دبلن . عملية التذهيب يتبعها التجليد . كان المصحف يحفظ أولا بين لوحين من الخشب المزين . ثم استبدل به الجلد . تميزت صناعة التجليد منذ القرن الثاني عشر وخاصة في المغرب .

من النماذج واللقى الأثرية التي تسمح بالحديث عن عدد من الفنون .

النسيج والزجاجيات

كانت « الخلعة » تقليدا معروفا منذ العهد الأموي . دار « الطراز » الملحقة بالبلاط (٢) كانت تنسج هذه الملابس الرسمية . لكنا لا نملك الا قطعة واحدة تحمل اسم أحد الامويين ، بينما نملك ٥٨٨ قطعة تحمل اسماء الخلفاء العباسيين . وعليها كتابات كوفية بشكل اشرطة طويلة مذهبة او ملونة تبرز فوق النسيج الحريري أو الكتاني . في العهد العباسي وفي العهد الفاطمي ، كانت دور الطراز ومصانع بعض المدن في مصر مثل تنيس ودمياط تنتج الانواع الفاخرة المشهورة من النسيج الذي يصدر الى أنحاء العالم . التراث القبطي القديم في هذا المجال كان وراء ذلك . لكن ما بقي من نسيج العهد

٢

(٢) ـ قطعة حرير صنع « دور الطراز » بمصر (القرن ١٢) . اشتهرت مصر بنسيج الكتان والحرير بخيوط الذهب (متحف برلين) .

٣ أ



ب



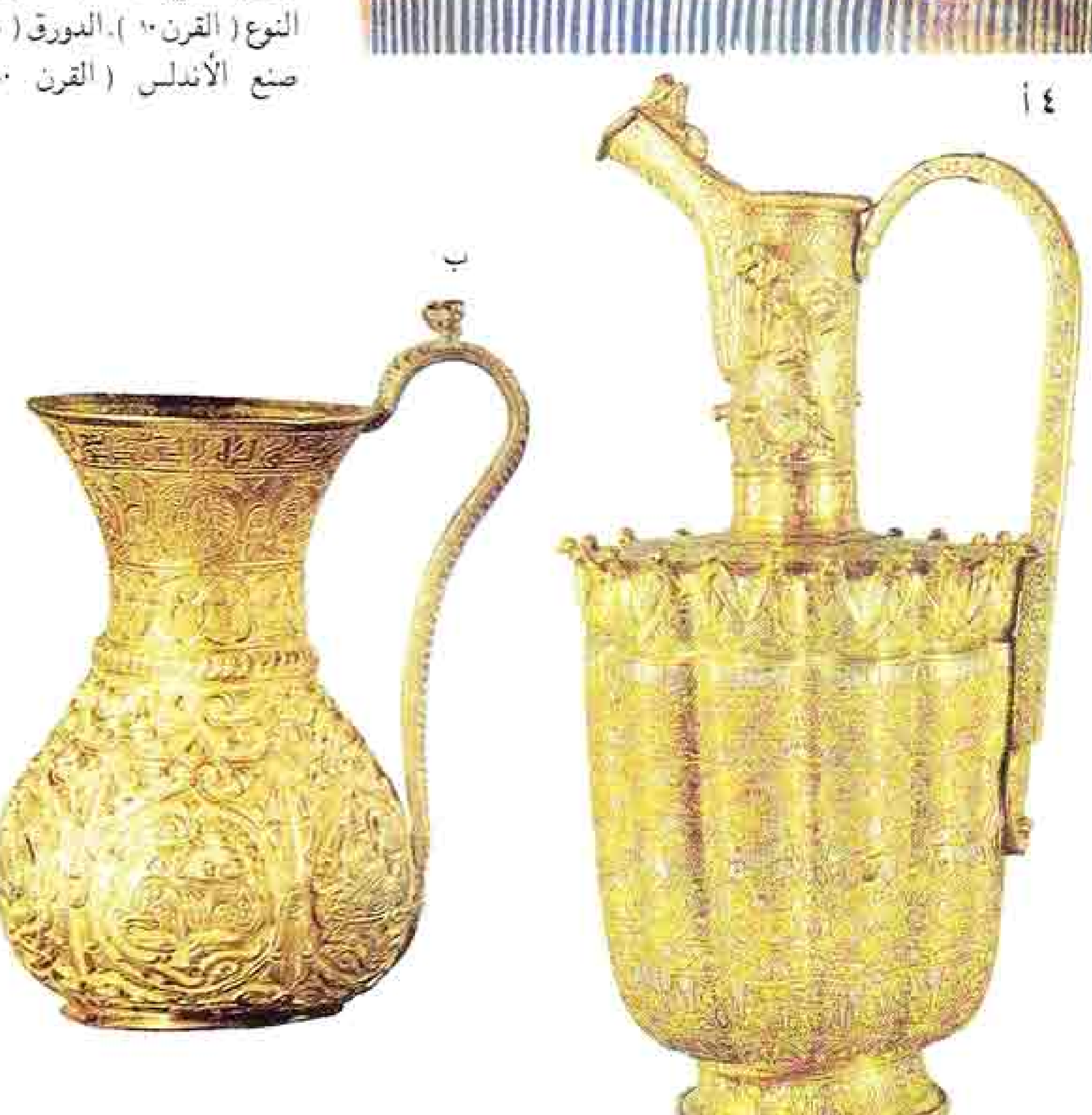
ت



(٣) ـ الخزف العباسي مجموعتان ، ذو لون أزرق أو أخضر رائق ، وذو بريق ذهبي (أ ، ب) من هذا النوع (القرن ١٠) . الدورق (ت) صنع الأندلس (القرن ١٠) .

٤ أ

ب



(٤) ـ الأواني العباسية من الذهب نادرة جدا . الدورق (ب) بويهي (القرن ١٠) أما (أ) فهو من البرونز المكفت بالفضة صنع خراسان القرن ١٣ .

الفاطمي هو أقل نسبيا مما بقي من العهد العباسي . وهو يتميز بدقة الرسم ، وانسجام الالوان ، واستخدام التوشية بالذهب ، ورسم الحيوانات بكثرة . مصانع المرية في الاندلس كانت من اكثر مصانع النسيج نشاطا بين القرن التاسع والثاني عشر . ينسج الحرير فيها ٨٠٠ مصنع . وثمة نقاب من الكتان المطرز بالحرير الملون يحمل اسم هشام الثاني (٩٧٦ ـ ١٠١٥) .

أما الزجاجيات : فقبل الاسلام بكثير كانت سوريا خاصة مشهورة بين بلاد المشرق بصنع الأواني الزجاجية الراقية . عثر في اطلال سامراء على عدد وفير من قوارير العطر ،والمصابيح والطاسات والأكواب المتنوعة في التقنية واللون ، وهي من الزجاج المقولب ، والمنقوش بالسكين ، أو بزخرفة الميناء ، أو الملون كليا ، او المكفت بعجائن شفافة متعددة الالوان . في العهد الفاطمي راج

٥



٦



(٥) ـ في الفترة الأموية والعباسية الأولى كانت التزيينات ذات عناصر نباتية وواقعية كالمراوح النخلية وتفريعات أوراق العنب . من نماذجها هذا الباب الخشبي من المسجد الأقصى (أواخر القرن ٨) . بعد ذلك تختفي الملامح الواقعية بتحوير العناصر النباتية والحيوانية الى الشكل التزييني . نماذج الخشب المحفور في مصر . مع قطع العاج والتزيينات المعمارية الاسلامية . تكشف هذا التطور في التوريق ، وخاصة في الفترة الفاطمية .

(٦) ـ تكاملت صناعة الزجاج الاسلامي تكاملا رائعا في عدد من المراكز . منها دمشق والموصل ومصر الفاطمية . بلغت الأواني الزجاجية أرقى أشكالها في الصنعة والزخرفة خلال العصر الأيوبي . من صنع الموصل (في القرن ١٣) هذا المصباح الذي تكامل فيه الرقة والشفافية مع التلوين والتزيين بقلم النسخ .

الزجاج وراجت صناعته وتطورت . لدينا من هذا العهد اكواب وأقداح ومصابيح (٦) وقوارير عطرية مقولبة او بطريقة النفخ مزينة بالنقوش او الصور الحيوانية او الزجاج المبروم . واختصت بعض المصانع المصرية في الفسطاط والاسكندرية بالبلور الصخري (الكريستال) وثمة منه في بعض كنائس اوروبا ومتاحف العالم ١٣ كوبا ، تعود الى القرن العاشر ، وعليها اسماء بعض الخلفاء الفاطميين .

الخزف والحفر

كان لصناعة الخزف دوما تقاليدها في المناطق التي فتحها المسلمون وقد كشفت التنقيبات في سامراء وفي نيسابور عن شأن هذين المركزين في تطور وصنع الخزف ، الذي عرف بعد ذلك في القرنين التاسع والعاشر ، أساليب جديدة في تقنية الصناعة ، منها رسم الزخارف تحت الطلاء . قلدوا بذلك البورسلين الصيني (من عهد أسرة تانغ ٦١٨ ـ ٩٠٨) لدرجة صار يصعب معها التمييز بينه وبين الصنع المحلي . كان الابتكار الهام الذي اهتدى اليه الخزافون المسلمون في العراق هو اكساب الاناء الخزفي بريقا معدنيا مختلف الالوان (من الأحمر النحاسي الى الاصفر الضارب الى الخضرة) (٣) انتشر هذا الابتكار في العالم الاسلامي بسرعة . وثمة نماذج كثيرة منه ، صنعت ما بين ايران والاندلس . اضيف الى ذلك فيما بعد ، تلوين العناصر الزخرفية وتنوعها ؛ بين نباتية وحيوانية وآدمية . استخدم اسلوب البريق المعدني نفسه في صنع البلاط الخزفي لكسوة الجدران . وجدت نماذجه في قصور سامراء وفي محراب جامع القيروان وفي اطلال مدينة الزهراء التي عثر فيها على أقدم أنواع الخزف في الأندلس . على ان الخزافين المصريين هم الذين اتقنوا أرقى تقنيات القاشاني ذي البريق المعدني وامتلكوا سر اتقانه .

أما حفر الخشب والعاج فقد وجد منذ العصر الأموي ، استمرارا للتقنيات السابقة للاسلام . ولكنه سرعان ما تحول ، على الخشب خاصة ، الى تزيينات متفقة مع الذوق الاسلامي الجديد . في العصر الفاطمي كان التطور المميز في تحوير التزيينات النباتية والهندسية ، وبرعت مصر والأندلس بحفر العاج ، وثمة قطع أثرية كثيرة من صنع البلدين .

التذهيب والمعدنيات :

كما دخل الخط مع الآية القرآنية في تزيين البناء الديني الاسلامي ، فقد دخل ايضا على مخطوطات القرآن لتزيينها (١) . وتحلية صفحاتها الاولى والاخيرة خاصة مع عناوين السور بالكتابة والتزيين المذهب . بدأ ذلك في العصر العباسي الأول . زخارف المصاحف الباقية من القرن التاسع متأثرة باساليب الفنين الساساني والسرياني . تجاوز التذهيب والرقش المصاحف أحيانا ليظهر على بعض الكتب الأخرى . كان الخطاط دوما هو الذي يكتب ، ثم تأتي مهمة الرقش والتذهيب ، على يده أو يد غيره ، لتملأ الفراغات حول الكتابة .

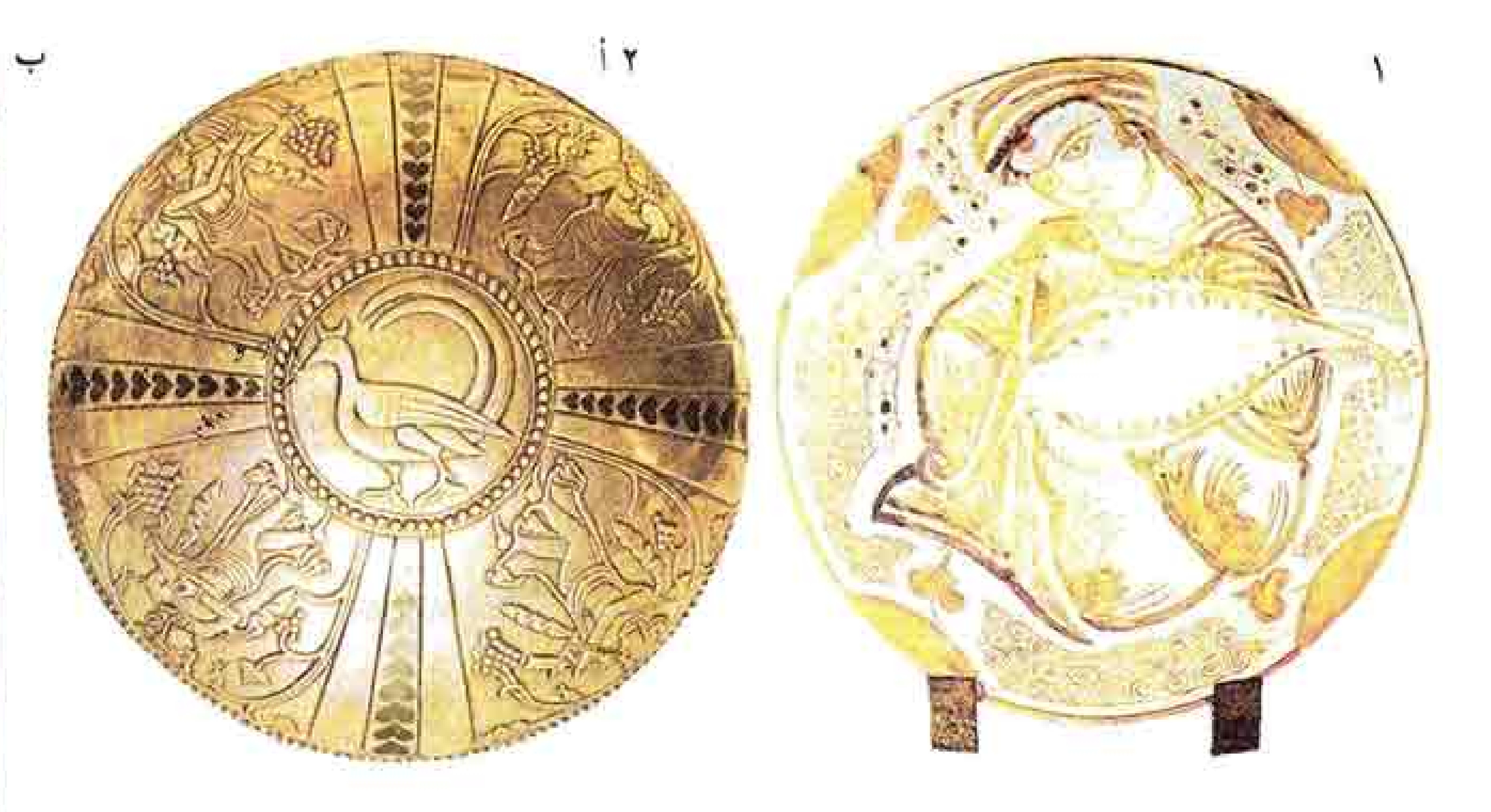
نماذج الأعمال الفنية الاخرى من الأدوات النحاسية والبرونز (٤) ومن الحلى المختلفة وأدوات الزينة والجواهر الكريمة كثيرة ، ولكن روحا واحدة تشيع فيها ولا يخطىء الناظر في ردها الى الفن الاسلامي .

الموسيقى العربيّة

موسيقى العرب في الجاهلية غامضة المعالم. لكننا نعرف عن وجود « القينات » المغنيات وبعض الآلات الموسيقية كالبربط والطبل والبوق والمزهر والدف والمزمار، وعن الحداء أمام الابل، والتهليل، وانشاد الشعر.

وكان لأطراف الجزيرة في اليمن والشام والعراق موسيقى وغناء. وكان لها اتصال بالموسيقى والغناء لدى الساسانيين والروم وبالاناشيد الكنسية البيزنطية.

بعد الاسلام وهدوء الفتح وجدت في المدينة، ومن حولها في الطائف ووادي العقيق وخيبر ووادي القرى، أجواء من الرفاه اجتذبت عددا من المغنين والقيان، وأوجدت مدرسة من الغناء والموسيقى فيها حتى



١ ٢ أ ب

(١) - آلات الموسيقى العربية تفوق الحصر. فالآلات الوترية أسرة كبيرة كاملة. وآلات النفخ الخشبية أسرة أخرى ليست أقل عددا وتنوعا. وآلات الضرب اسرة ثالثة. والآلات النحاسية أسرة رابعة. من مخترعي الآلات العرب: الفارابي (سنة ٩٥٠) الذي ابتكر القانون. والزنام (في عصر الرشيد) مبتكر آلة نفخ باسمه. وزلزل الذي اخترع العود المعروف بالشبوط والذي حل محل العود الفارسي القديم. زرياب الذي أضاف وترا سادسا الى العود. هذا الى الحكم الثاني أمير الأندلس (المتوفى سنة ٩٧٦) والبياسي (القرن ١١) الذي أدخل التحسينات على الأرغن. والأرموي الذي اخترع آلتين وتريتين هما النزهة والشرفة. هذا الصحن الخزفي (صنع في مصر في القرن الحادي عشر)، استخدم لتزيينه صورة عازف على العود. (محفوظ في المتحف الاسلامي بالقاهرة). كانت الآلات الموسيقية أيضا جزءا من عدة الحرب. ومتمما لأبهة الحكام. موكب العزيز الفاطمي مثلا للحرب كان يتقدمه فرقة عسكرية فيها ٥٠٠ طبل و ٥٠٠ بوق.

(٢) - كانت الموسيقى والغناء جزءا من حياة الخاصة. لهذا كثر على الآنية الارستقراطية تزيينها بالرسوم الموسيقية المتناسبة مع استعمالها. هذا الطاس من الفضة (أ) صنع في العهد البويهي، في القرن العاشر. ويحمل في الرسوم التي نقشت عليه، تقاليد الصناعة الساسانية. ونرى عليه حفلة موسيقى ورقص فيها الضارب على العود والراقصة والنافخ بالمزامير في الزق والعازف بالناي (ب) (الطاس موجود في متحف طهران).

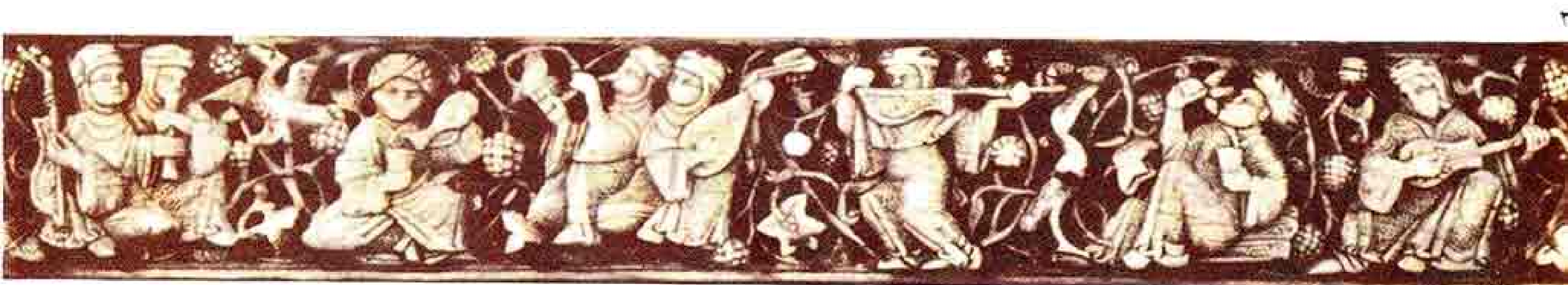
قيل : «أمهات القرى هي أصل الغناء ومعدنه» .

ظهور الموسيقى العربية وتطورها

كان من الذين وردوا المدينة أول موسيقيي العرب الكبار سعيد بن مسجح (توفي سنة ٧١٥) . كانت الموسيقى العربية الاولى سامية التقاليد . لكن ا بن مسجح أدخل نظرية موسيقية جديدة امتزج فيها التراث الموسيقي في الهلال الخصيب مع السلم الفيثاغورثي ذي الأصوات السبعة الذي ظل أساس السلم الموسيقي العربي حتى سقوط بغداد (سنة ١٢٥٨) .

تأيدت هذه النظرية في العصر العباسي الأول بما ترجم من كتب الموسيقى اليونانية . برز في تلك الفترة الموسيقي الثاني في التاريخ العربي اسحق الموصلي (٧٦٧ ـ ٨٥٠) رئيس المغنين في بلاط الرشيد والمأمون الذي مزج بين النظريات المتنافرة وترك ٤٠

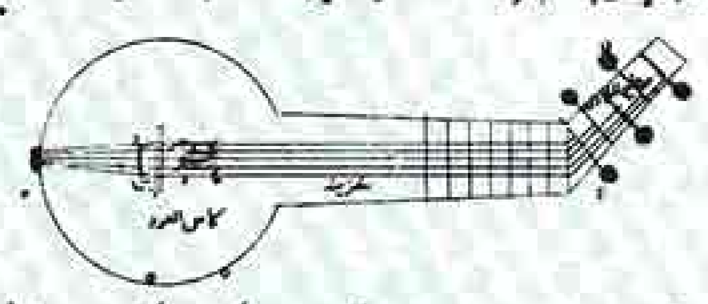
٣



(٣) ـ بعض الخلفاء كانوا موسيقيين ، لكن البلاطات عامة كانت تستقطب كبار أهل الموسيقى . سعيد بن محج ومعبد (٧٤٣) كانا للأمويين . الموصليان ابراهيم وابنه اسحق كانا للرشيد والمأمون . مخارق (ت سنة ٨٤٥) كان للواثق . زرياب كان لبلاط الأندلس . على هذه القطعة العاجية (من القرن ١٣) فرقة موسيقية فاطمية .

٤ أ

ب



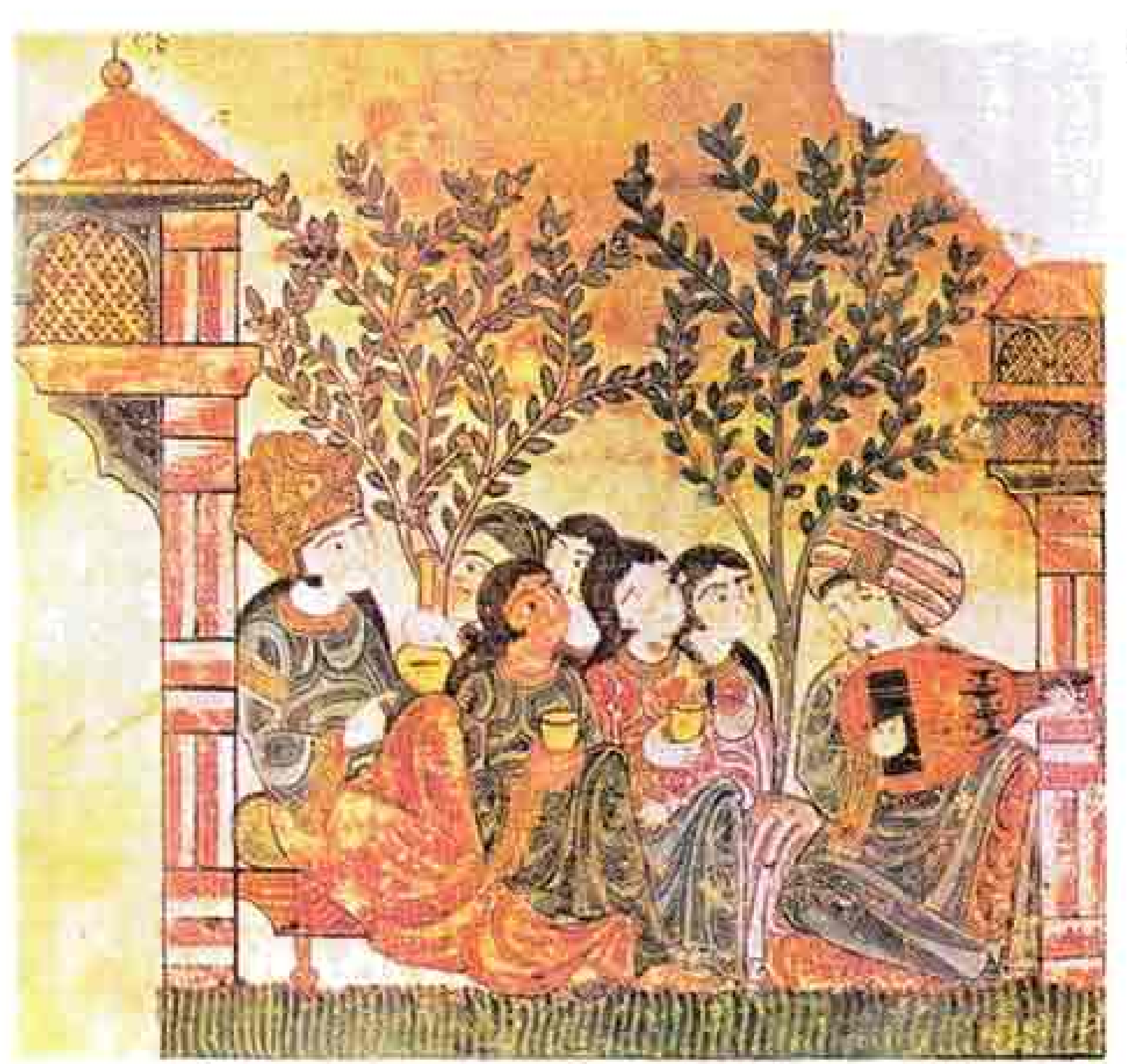
(٤) ـ كتاب كنز التحف ، كتب بالفارسية في القرن ١٤ يصف الآلات الموسيقية ورسمها ويحدد عملها . ومع ان كاتبه مجهول الا ان الكتاب اشتهر وتعددت نسخه التي نرى في (ب) صفحتين من طبعة قديمة له على الحجر . أما (أ) فصفحة من كتاب الموسيقى للكندي وفيها النوتة الرمزية .

كتابا في الموسيقى العملية وأخبار أهلها . في الوقت نفسه كان زلزل الضارب (توفي سنة ٧٩١) وهو الأخ غير الشقيق لابراهيم قد أصلح السلم الموسيقي وأحدث نغمة البيكاه في العود (٤ / ٣ البعد) .

بعد قرون من ذلك ، في أيام ابي الفرج الاصفهاني ، عادت نظرية المقام الخراساني الفارسية القديمة فأثبتت وجودها . ثم أخذ العرب عنها ولاسيما في الالحان . لكن صار واضحا تباين النظم الموسيقية العربية عن الفارسية والبيزنطية .

انتقلت الموسيقى العباسية الى الاندلس مع زرياب (توفي سنة ٨٥٢) ثالث الموسيقيين الكبار في التاريخ العربي ، الذي أسس مدرسة الموسيقى الاندلسية . كان فلكيا جغرافيا راوية ، كما كان تلميذ اسحق الموصلي في الغناء . احتفل به امراء الأندلس وأهلها كما أشاع هناك اجواء الفن والذوق .

٥

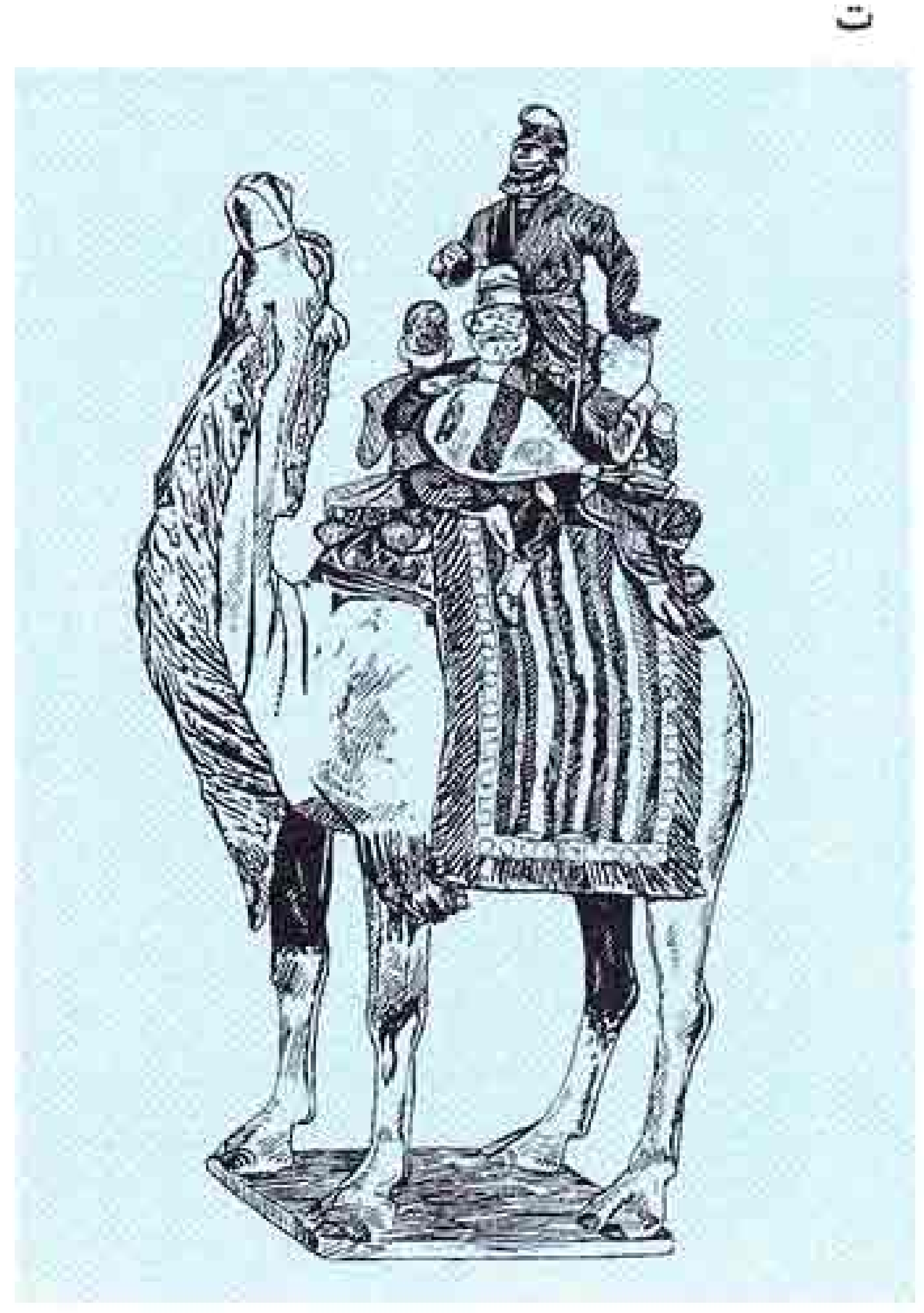


(٥) ـ الموسيقى الصوتية (الغناء) حظيت من العرب باهتمام فاق اهتمامهم بموسيقى الآلة وحدها . ازدوجت مع الشعر الذي قدم لها مقطوعات الغزل ، وابتكر لها الموشحات . وقدم لها النظام العامي ألوان الموال والزجل . اعتمد العرب على البعد الافقي أي اللحني (ميلودي) دون البعد التوافقي (الهارموني) وكان لهم رأيهم في درجة القرار والايقاع والزائدة الموسيقية ، أي زخرفة اللحن بضرب الدرجة اللحنية مع جوابها أو مع رابعتها وخامستها . واستخدموا الدرب ، أي مرافقة الغناء بآلات النفخ والوتر وضرب الايقاع بالدف والطبل . هنا مغن يغني على العود أمام احدى الأميرات وحاشيتها في مخطوط أندلسي لقصة بياض ورياض .

٦ أ   ب



ت



(٦) ـ هذه الصورة لضاربي العود والجنك (أ) ، (ب) مأخوذة عن الرسوم الأثرية . أما (ت) ، فهي فرقة موسيقية على جمل مصنوعة من الخزف في ايران في القرن ٨ .

وهو الذي نقل « النوتة » الموسيقية للأندلس .
في القرن الثالث عشر ظهر صفي الدين الارموي (ت سنة ١٢٩٤) الذي غنى للمعتصم آخر خلفاء بني العباس ، ولهولاكو المغولي ووزيره الجويني . كان آخر الموسيقيين الكبار . أوجد الارموي نظرية جديدة في الموسيقى العربية تعرف بالنظرية المقننة . سجل النوتة الموسيقية بالحروف والأرقام . كتب كتابيه المشهورين : « الأدوار » و « الرسالة الشرفية » . قبل أن يموت فقيرا سجينا .
بعد قرن من عصره شاع في الموسيقى العربية استعمال سلم آخر هو (نظام ربع النغمة) الذي ما يزال منتشرا اليوم .

الغناء

كان الغناء (٥) يرافق العربي من المهد الى اللحد ، زغردة وعويلا وجدا وهزلا وحربا وتهجدا . مجالس الطرب لدى الخلفاء (٣) والكبراء كان لها مكانها الخاص في حياتهم وتربيتهم (٢) . الخليفة الرشيد واخوته (ابراهيم وعلية) كانوا من كبار الموسيقيين والمغنيين . حفيده الواثق كان اعلم الناس بالموسيقى والضرب على العود . الطبقات العادية كانت بدورها تعطي الغناء مكانته . التحرج الذي أشاعه أهل الدين والتقوى ، منذ العصر الأموي ، لم يستطع أن يمنع الطرب الغنائي من أن ينتشر ويجد مكانه المريح في المجتمع .
منذ القرن التاسع ظهرت لدى الخلفاء العباسيين النوبة الموسيقية (١) وهي أعلى صورة فنية للموسيقى العربية . أصلها حضور المغني في نوبة معينة له ، ليعرض ما عنده ، ثم استعملت بمعنى تناوبه مع عازفي الآلات في حفلة موسيقية متكاملة تتألف من اربع قطع (وصلات) ثم اضيفت اليها في اواخر القرن الرابع عشر قطعة خامسة . ثم صارت في العهد العثماني سبعا (منها التقسيم والبشرف) انتشرت النوبة في الأندلس وكان منها الحلية الغرناطية والاشبيلية والقرطبية وانتقلت الى المغرب العربي وما تزال موجودة .
دخلت الموسيقى أيضا على جو الورع حين صارت ، بعد القرن ١٢ ، احدى وسائل التصوف للوصول الى حالة « الوجد » . كما استخدمت وسيلة للراحة ولشفاء الأمراض .

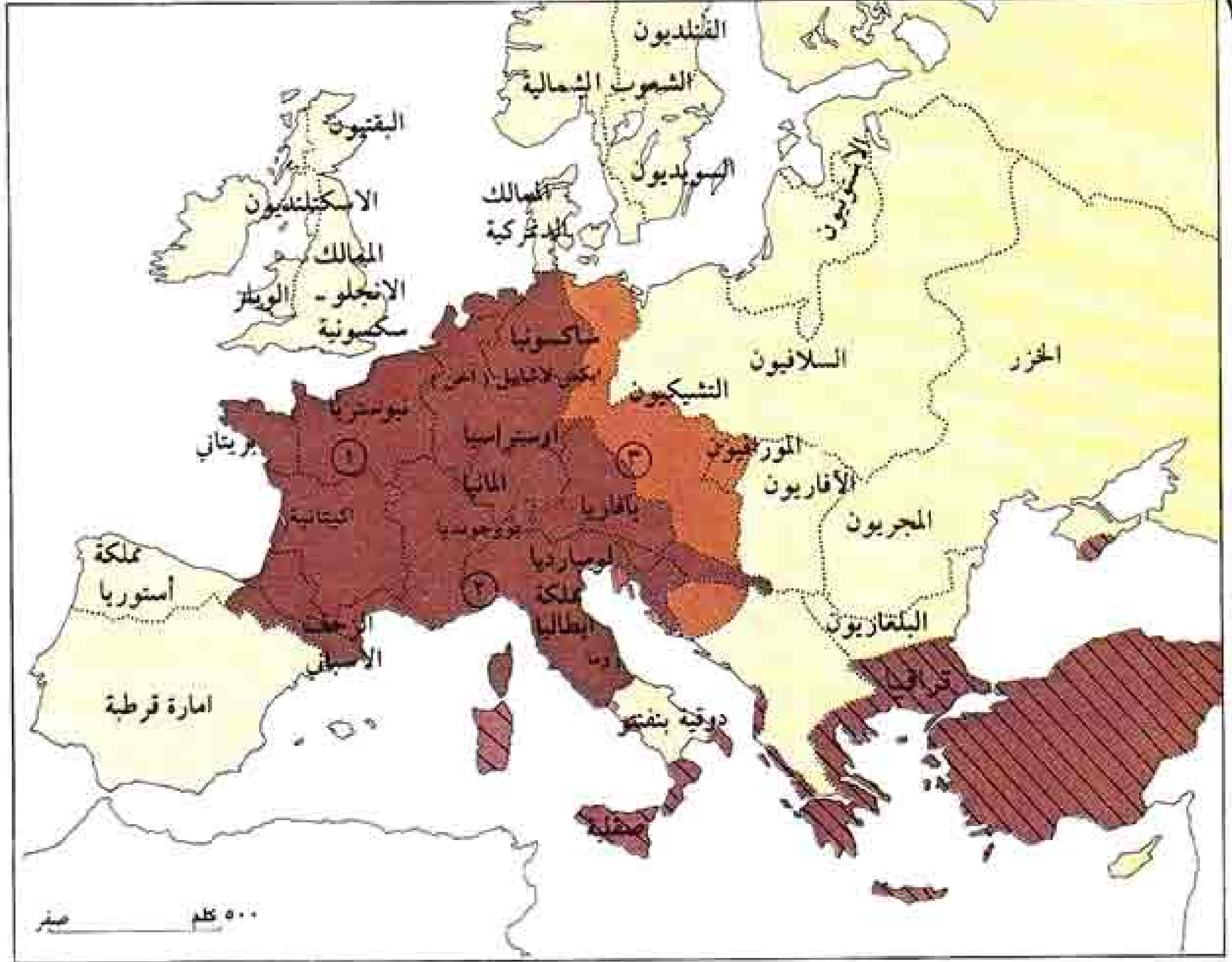
مؤلفات الموسيقى

ألف العرب في الموسيقى والغناء ما يبلغ ٣٥٣ كتابا حتى القرن ١٧ . منها كتاب « الأغاني » لابي الفرج الاصبهاني (ت سنة ٩٦٧) في ٢١ مجلدا . واذا كان كثير منها أدبي الطابع فان فيها جانبا كبيرا للموسيقى العملية وللجانب النظري الرياضي ايضا . في هذا الباب ألف العلماء والفلاسفة (٤) ومنهم يونس الكاتب (ت حوالى سنة ٧٦٥) والخليل الفراهيدي (سنة ٧٩١) والموصليان (الأب والابن) والفارابي (ت سنة ٩٥٠) بكتابه الضخم الشامل « الموسيقي الكبير » . وأخوان الصفا « القرن ١٠ » ، وابن سينا « سنة ١٠٣٧ » وتلميذه ابن زيلة « ت سنة ١٠٤٨ » صاحب الكافي في الموسيقى : الى أن جاء علم الدين قيصر « ت سنة ١٢٥١ » أشهر من أنجبت الشام ومصر من الرياضيين وأصحاب النظريات الموسيقية . في الاندلس كان أول من ألف في الموسيقى عباس بن فرناس (سنة ٨٨٨) ثم ابن باجة (ت سنة ١١٣٨) وابن رشد (١١٨٨) وابن سبعين (ت سنة ١٢٦٩) وكلهم من الفلاسفة .

شارلمان

الكارولنجيون ، وهم أسرة حاكمة نسبت الى شارل مارتيل وحفيده شارلمان ، أصبحوا الأسرة الارستقراطية الرئيسية بين الفرنك في القرن السابع . تصاعدت سلطة هذه الاسرة ومكانتها تصاعدا عظيما . في عهد شارل مارتيل (٦٨٨ ـ ٧٤١) الذي وحّد المملكة الفرنكية ، وأوقف التقدم العربي في معركة بواتيه عام ٧٣٢ ، وبادر بانشاء علاقات سياسية مع الكرسي البابوي ، وأدّت الى تأسيس « الامبراطورية الرومانية المقدسة » . بدأ ابن شارل مارتيل ، بيبين (٧١٥ ؟ ـ ٧٦٨) ، وهو أبو شارلمان ، يحكم منذ عام ٧٤٧ ، الى ان كرّس ملكا بموافقة البابا عام ٧٥٤ . وفي عام ٧٥٣ ، استنجد البابا اسطفان

١

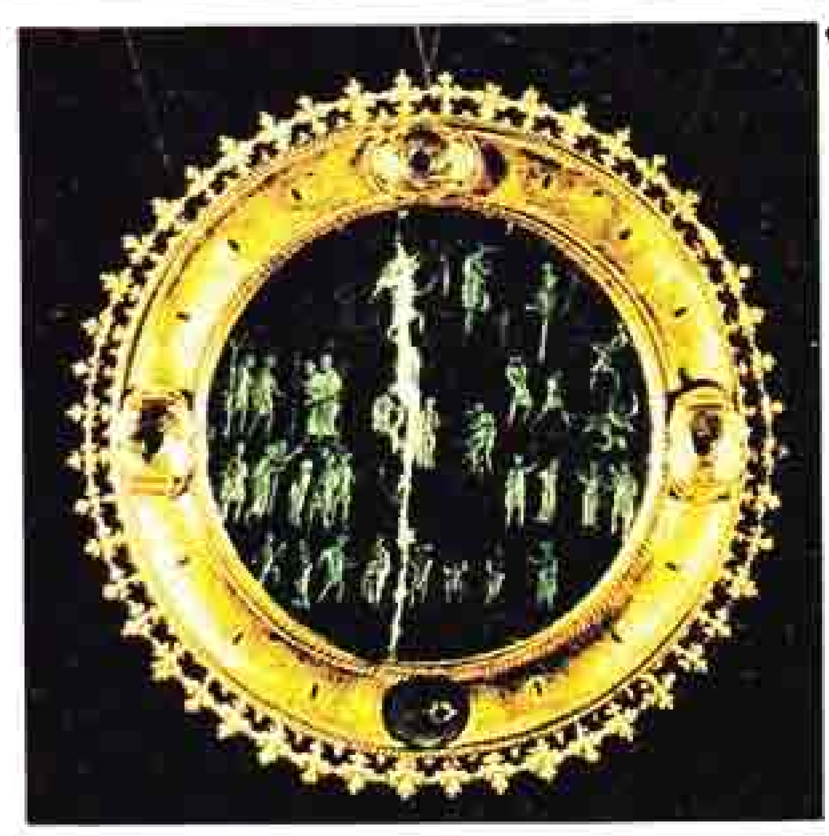


الامبراطورية الكارولنجية ٨١٤
الدول التابعة لشارلمان
الامبراطورية البيزنطية
تقسيم الامبراطورية الكارولنجية حسب معاهدة فردان عام ٨٤٣ بين :
(١) شارل
(٢) لوثار
(٣) لويس

٤



٢



٣



٥



بالفرنك ضد اللومبارد يين الذين استولوا على ايطاليا ، وأخذوا يهددون روما . من ذلك الحين ، أصبح ملك الفرنك حليفا تقليديا للبابا ، فدعيت الأسرة الكارولنجية لاقتسام ايطاليا مع البابا .

السلالة الفرنكية

كان الفرنك تقليديا يعتبرون ملوكهم متحدرين من أصل الهي ، وينظرون الى القبيلة كأنها من أملاك الأسرة الحاكمة . لم تظهر الدولة الفرنكية كدولة الا في ظل ملوك أقوياء ، مثل كلوفيس (٤٦٥ - ٥١١) وبيبين اللذين قضيا على جميع المناوئين . لدى وفاة بيبين ، خلفه ولداه شارلمان (٧٤٢ - ٨١٤) وكارلومان . لكن بعد وفاة كارلومان عام ٧٧١ ، استولى شارلمان على الحكم استيلاء تاما (٨) . وفي عام ٧٧٣ ، استجاب لنداء البابا ، وهزم اللومبارديين ، ومنذ عام ٧٧٤



٦

(١) - كانت مساحة امبراطورية شارلمان عند موته في ٨١٤ النقيض التام للتقسيم الذي تم التوصل اليه في فردان عام ٨٤٣ بعد ٣٠ سنة من النزاع بين خلفائه . كتب في ذلك الشاعر ثيودولف ، « أخذت الشقوق تظهر على الجدار المنيع الذي عرفت جمال زخرفته ، أثناء شبابي . لقد تلاشى من العالم الهرم كل شيء جميل ، ولم يبق أي اثر من قوته السابقة » .

(٢) - « بلورة لوثار » ، هي قطعة من البلور نقشت عليها ببراعة مشاهد من الكتاب المقدس . وقد صنعت في القرن التاسع . كانت هذه البلورة ملكا للوثار الثاني حاكم اللورين (حكم ٨٥٥ - ٨٦٩) . تدل نوعية النقش على استمرار الانجازات الفنية ، في الامبراطورية الكارولنجية .

(٣) - أدت وفاة رولان ، في معركة رونسفال عام ٧٧٨ ، الى تأليف احدى القصائد الملحمية الكبرى ، المعروفة « بنشيد رولان » . تجعل هذه الملحمة من فرسان شارلمان ، حماة نبلاء للمسيحية ضد المسلمين . وهكذا وضع الكارولنجيون في الأدب ، كما في السياسة ، أساس الأساطير في العصور الوسطى . الواقع انه لدى تراجع قوات شارلمان ، بقيادة رولان ، خوفا من عبد الرحمن الداخل ، عبرت تلك القوات جبال البرانس ، فهاجمتها جماعة من الباسك والمسلمين أبادت فلولها في رونسفال ، وقتل رولان .

(٤) - حفلة تتويج شارلمان على يد البابا ليون الثالث في كنيسة القديس بطرس في عيد الميلاد عام ٨٠٠ ، كما رسمها جان فوكي ، في القرن الخامس عشر . كان شارلمان الذي أعاد روما للبابا اثر سحقه لثورتها عليه ، يفتقر الى تكريس مقدس لمركزه الفعلي ، كامبراطور . فأصبح بفضل هذا التتويج ، الوريث الشرعي للأباطرة الرومانيين الغربيين .

(٥) - تبيّن هذه الصفحة ، من كتاب الطقوس لشارل الأصلع (٨٢٣ - ٨٧٧) ، تتويج أمير فرنجي ، لعلّه شارل نفسه ، يحيط به رجلا دين . ويبدو كأن الله يضع على رأسه التاج بيده . تمثل الصورة دور الكنيسة في دعم العرش ، واعتقاد الملك برسالته الالهية في آن واحد .

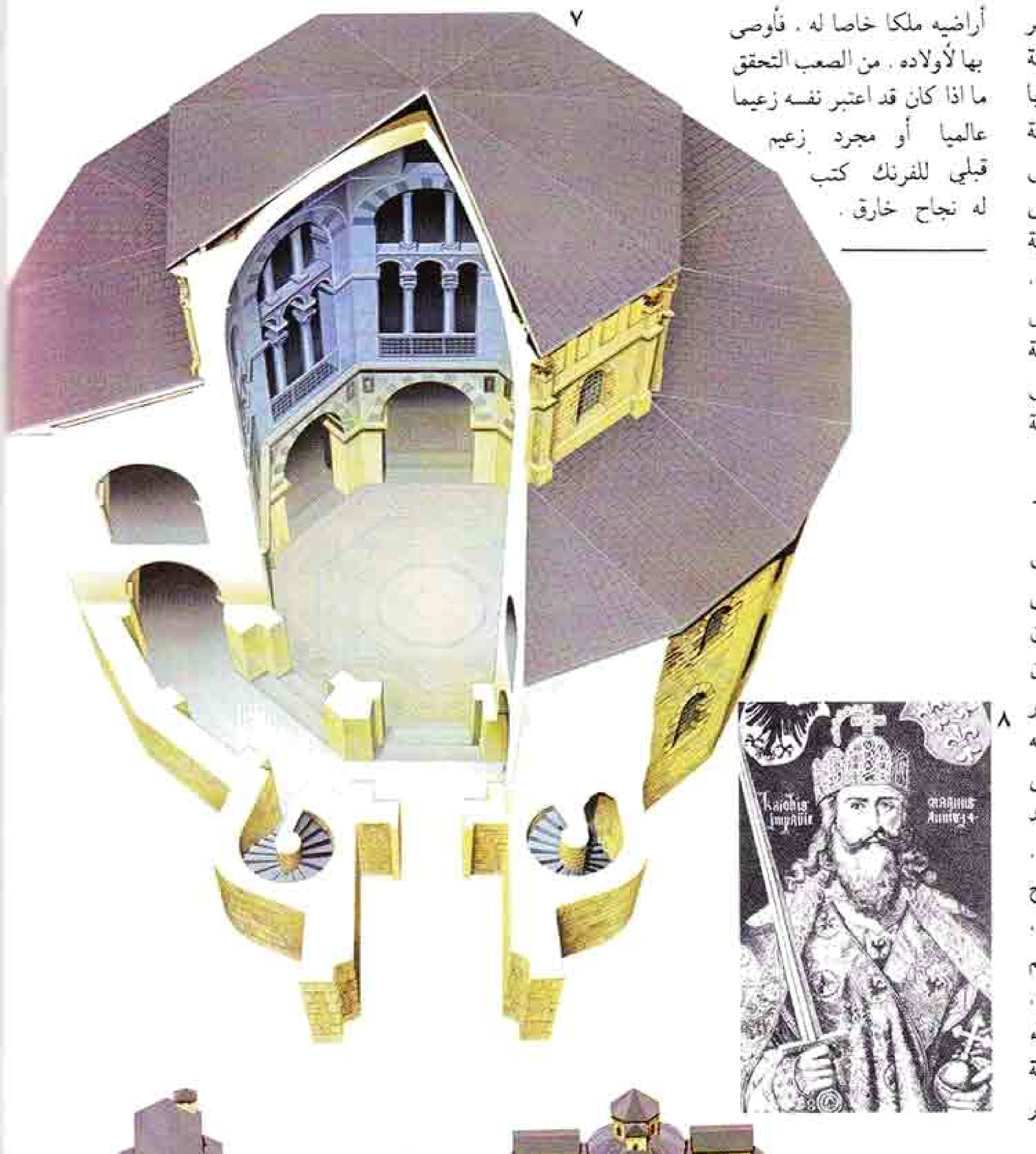
(٦) - كانت زعامة شارلمان العسكرية أساس قوته . كان العرف الفرنكي قائما على مبدأ التجنيد القبلي ، الذي يفرض على كل رجل حرّ واجب الخدمة العسكرية ، وتجهيز نفسه بنفسه أثناء الحرب . بعد فترة ، تنازل أحرار الطبقة الوسطى عن أراضيهم للاقطاعيين المحليين ، وحاربوا في حاشيتهم ، فوفروا بذلك على انفسهم التكاليف اليومية ، لكنهم قوّضوا وحدة الجيش .

أخذ يحكم ايطاليا بالقوة ، وأقسم اليمين على دعم البابا .

حكم شارلمان

مع الزمن ، أصبح الكرسي البابوي يخشى الفرنك خشيته اللومبارديين ، فراح يعمل على تقليص سلطة شارلمان . لكن المشكلة انتهت عام ٨٠٠ عندما توّج ليون الثالث شارلمان امبراطورا (٤) وانشأ « الامبراطورية الرومانية المقدسة » ، واضعا بذلك أسس الادعاء القائل بأن الامبراطور انما يستمد سلطته من الله ، وان البابا هو الذي يخلعها عليه (١) .

كان شارلمان أميا ولكنه كان محاربا ، فخاض المعارك ضد اللومبارديين في ايطاليا ، وضد زعماء الأجيلولفنج البافاريين . بالاضافة الى ذلك ، كانت له سلسلة مستمرة من المعارك ضد من كانوا يسمون



(٧) ـ كانت كنيسة قصر شارلمان في آخن التحفة المعمارية لأوروبا الكارولنجية ، ورمز السلطة الامبراطورية . بنيت على طراز كنيسة سان فيتالي في رافينا ، عاصمة الامبراطورية في ايطاليا ، بعد سقوط روما ، وصمّمت كمعبد لا يواء عرش شارلمان . يظهر في هندسة أرضية البهو الداخلي والأقواس والأعمدة تأثير الهندسة الاسلامية .

(٨) ـ كان شارلمان أقوى حاكم في تاريخ أوروبا ، في أوائل العصور الوسطى . كان طوله ١٩٣ سنتيمترا ، وكان عريض المنكبين ، وذا مظهر مهيب . كانت شخصيته غامضة ، وايمانه الشخصي متقلبا ، مع انه عمل على توطيد المسيحية ، في أرجاء مملكته . كان ذا طموح سياسي ، ونجح في تعيين وزراء قديرين ، وأدرك أهمية التربية والتعليم مع أنه لم يكن يجيد القراءة . وحّد أوروبا الغربية وأعاد بناء ما يشبه الامبراطورية الرومانية القديمة . الا أنه كان يعتبر أراضيه ملكا خاصا له ، فأوصى بها لأولاده . من الصعب التحقق ما اذا كان قد اعتبر نفسه زعيما عالميا أو مجرد زعيم قبلي للفرنك كتب له نجاح خارق .

« بالبرابرة » على تخوم المملكة : مثل العرب والآفار والسلاف والساكسون والدنمركيين . لم تكن الحرب تدور لأسباب سياسية فقط ، بل كان شارلمان غالبا ما يحارب من أجل الاستيلاء على الغنائم . كان شارلمان فقيرا أثناء سني حكمه الأولى ، وكانت سلطة الملك لدى الفرنك تعتمد على قدرته على الانعام على أتباعه .

حارب شارلمان العرب في الاندلس في حملة رئيسية بلغت حدود سرقسطة سنة ٧٧٨ . وانهزم عائدا عبر البيرنه ، حيث أباد المسلمون والباسك فلول الحملة ، وقتلوا الكونت رولان (٣) في هزيمة منكرة . بقيت ذكراها في « أنشودة رولان » الشهيرة .

أدت قوة شارلمان العسكرية الى قيام حكومة أوروبية مركزية كانت بحاجة الى جهاز اداري أكثر تعقيدا مما عرفه الفرنك من قبل . دشّن شارلمان بلاطه الجديد في آخن (٧) ، بتشييد قصر اقتبس الكثير عن الهندسة الاسلامية ، وكاتدرائية بنيت على نمط امبراطوري . فضلا عن ذلك ، استخدم طائفة من العلماء ، منهم ألكوين من نورثمبريا وتيودولف من اسبانيا ، لتدريب طبقة جديدة من الاداريين ، ولوضع كتابة جديدة سهلة القراءة ، ولاصلاح تقاليد الكنيسة وطقوسها ، ولوضع فلسفة امبراطورية تتماشى مع واقع السلطة الامبراطورية .

تنظيم المجتمع الفرنكي

حكم شارلمان ممتلكاته بواسطة نبلاء محليين ، بلغ عددهم أكثر من ٢٠٠ . كان كثير منهم من أصل ملكي ، فأدى تعيينهم من قبل شارلمان ، الى وضع أسس ارستقراطية دولية ، استمر وجودها حتى بعد سقوط الامبراطورية الكارولنجية .

كانت الادارة الملكية تصدر في سلسلة من المراسيم الامبراطورية التي تميزت بالوضوح والقوة . لعبت الكنيسة دورا رئيسيا في الادارة ، عن طريق الخدمات التي كان يقدمها الاساقفة والكهنة المثقفون من جهة ، وتوحيد العقيدة والممارسة من جهة ثانية .

كان المجتمع الفرنكي ، قبل ذلك الوقت ، مبنيا على ولاء القبيلة الشخصي للملك وحسب . لكن شارلمان أخذ تدريجيا يأمر بيمين ولاء جديدة . كانت هذه الأيمان بداية الملكية الاقطاعية المبنية على يمين ولاء تقسمها طبقة من النبلاء الملاكين ، وهو مفهوم يختلف كل الاختلاف عن ولاء القبيلة الشخصي لزعيمها .

أراد شارلمان أن يترك امبراطوريته مقسمة بين أولاده ، الا أن عهد ابنه لويس ، الذي بدأ عام ٨١٤ ، كان عبارة عن فترة من التنافس العائلي المرير ، بينما راحت الكنيسة تشد بقبضتها على الشؤون الدنيوية . ثم زادت في وهن الامبراطورية موجة جديدة من الهجمات الخارجية ، قام بها العرب والبريطانيون والفايكنج والنورمانديون . توفي لويس عام ٨٤٠ ، وبعد ثلاث سنوات من الصراع ، قضت معاهدة فردان بتجزئة الامبراطورية الى ثلاثة أقسام .

مع نهاية القرن التاسع ، كان الحكم الكارولنجي قد تلاشى ، الا أنه أعطى أوروبا نموذجا للحكم الامبراطوري ، وارستقراطية اقطاعية دولية ، وسلسلة من الروابط الاجتماعية الهامّة .

الفايكنغ

في أواخر القرن الثامن ، اندفع الاسكندنافيون الوثنيون الذين عرفوا باسم « فايكنج » عبر ممالك أوروبا الغربية الغنية . كانت التحسينات التي أدخلها الفايكنج على تصميم سفنهم الطويلة . وتزايد السكان في بلادهم . من الاسباب التي أدت الى توسعهم في هذه الفترة . شرعوا يهاجمون الأديرة الغنية غير المحمية ، وينهبون كنوزها . ويقتلون ويستعبدون رجال الدين . كالهجوم الذي قاموا به على دير القدّيس كثبرت في لنديسفارن بنورثمبرلند (٢) .

استعمار بريطانيا

انصرف بعض هؤلاء القادمين من البلاد

١

(١) ـ استخدم الاسكنديناڤيون، في عصر الفايكنج ، هذه الطرق الرئيسية في بحثهم عن الثروة وعن اراض يقيمون فيها . تظهر في الشرق المدن التي أسسوها على ضفاف الأنهار كمراكز لهم ، مثل كييف ونوفجورود . من هذه المراكز ، وعلى طول الأنهار ، وصل الاسكنديناڤيون الى مصادر التجارة والثروة في الشرق ، وفي الامبراطورية البيزنطية . في الغرب ، كانت أهم مناطق الاستيطان جزر بريطانيا الشمالية والغربية ، وشمالي وشرقي انجلترا ، والموانىء الارلندية (التي أسسوها هم أيضا) . وعن طريق المسالك البحرية الغربية بلغوا امريكا ، لكنهم لم ينشئوا فيها مستوطنات .

---

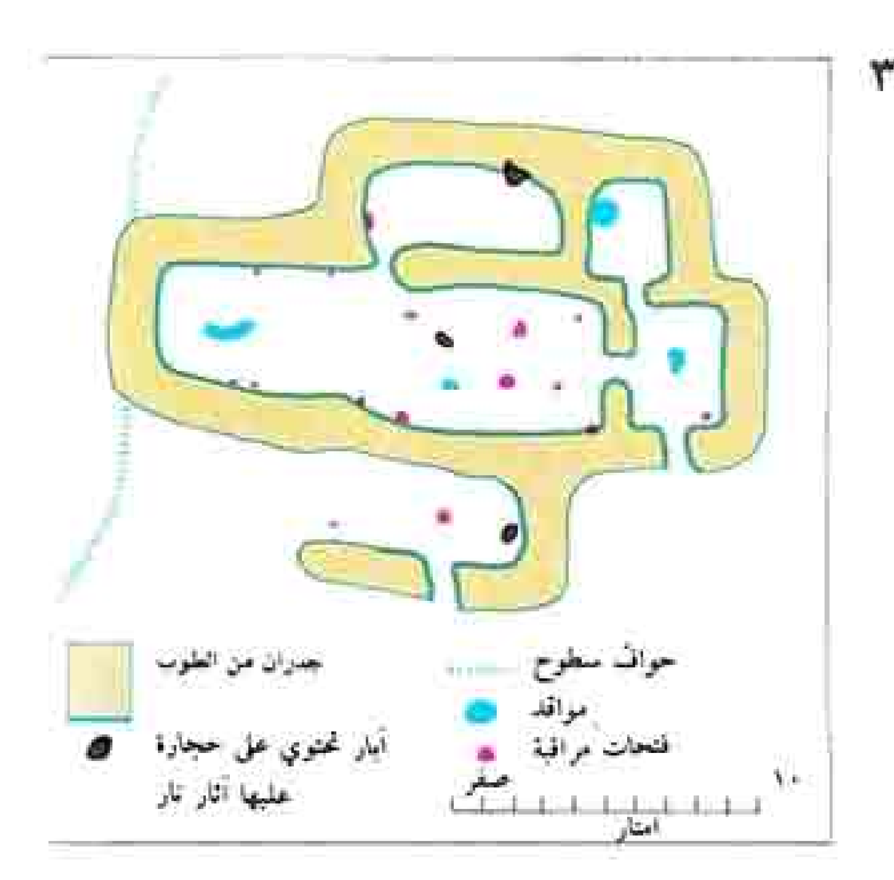
(٢) ـ هذان المشهدان المأخوذان من لنديسفارن ،

٢





٣



الاسكندينافية الى استعمار الاراضي للاقامة فيها. فالقبور، في اسكتلندا الغربية وفي مناطق بريطانية أخرى، وهي تزخر، حسب التقاليد الاسكندينافية الوثنية المتبعة في الوطن الأصلي، بالأسلحة والأشياء المنزلية، تدل على عملية استيطان تدريجية في هذه المناطق. وفي انجلترا تحولت الغزوات الاسكندينافية الى عمليات استيطان. في العقد السادس من القرن التاسع، ثم بعد سلسلة من الحملات ضد الممالك الانجليزية، اخذ الاسكندينافيون يستوطنون رسميا كفاتحين، وبموجب اتفاقية مع الفريد الكبير عام ٨٧٨، استوطن الاسكندينافيون شرقي وشمالي خط يمتد من نهر «لي» الى نهر «دي». هنالك أسسوا مملكة واحدة على الأقل (قاعدتها يورك)، بالاضافة الى كيانات سياسية أخرى في ايست آنجليا، ومنطقة ميدلاندز، حيث كانت سلطتهم

٤

٥



٦





يخلدان ذكرى الغزو الفايكينجي. يقول أحد النقوش على هذا الحجر: «٧٩٣. في هذه السنة ظهر في سماء نورثمبريا نذير شؤم... فقد دمرت هجمات الوثنيين كنيسة الله في ليند يسفارن».

(٣) ـ هذا التصميم لأحد البيوت اكتشف في حفريات أنس ـ أو ـ ميدوز في نيوفاوندلند، ويمكن ردّ تاريخه الى القرن الحادي عشر. يتصف بعدد من ملامح هندسة البيوت التي بناها الفايكينج في مستوطناتهم الاستعمارية، في أيسلندا وجرينلندا.

(٤) ـ تمثال بوذا البرونزي هذا نقل من افغانستان أو الهند، الى السويد في عصر الفايكينج. تشمل الأشياء المستوردة الى اسكنديناڤيا، والتي عثر عليها أثناء الحفريات، نقودا عربية وبيزنطية وانجليزية وفرنسية والمانية، بالاضافة الى الحرير، وجلود حيوانات أجنبية، ومصنوعات معدنية من بريطانيا، وفخّار وزجاج من المانيا.

(٥) ـ «ثور» هو معبود الرعد والزراعة والحرب الاسكنديناڤي، ويرمز اليه عادة بالمطرقة. في هذا التمثال البرونزي الذي يبلغ طوله ٦،٧ سم، تتخذ لحيته شكل المطرقة. وهذا الرمز كثيرا ما كان يستعمل كتعويذة، لحماية لابسها من الشر.

(٦) ـ هذا القيدوم (مقدمة السفينة) المحفور بشكل جميل، هو جزء من سفينة فايكينجية مستطيلة وجدت كاملة، داخل قبر امرأة من نساء القرن التاسع، في أوسبرج بالنروج. يبلغ طول السفينة نفسها، وهي مصنوعة من خشب السنديان، ٢٣ مترا، وكانت بالدرجة الأولى سفينة شراعية ساحلية، يمكن أيضا تسييرها بالمجاذيف. هذه السفينة هي من أكبر النماذج لسفن الفايكينج المستطيلة.

تتركز في « المدن المستقلة الخمس » : ليستر، ستامفورد، لينكولن، داربي، ناتينهام. في منتصف القرن العاشر، كان الانجليز قد استعادوا هذه المناطق، لكن انجلترا بكاملها تعرضت ثانية لفتح الاسكندينافيين وأصبح رجل دنمركي يدعى كانوت (٩٩٤ ـ ١٠٣٥) ملكا على انجلترا لفترة قصيرة.

استمرت المستوطنات الاسكندينافية قائمة، في اسكتلندا وجزيرة مان حتى القرن الثالث عشر. (وفي جزيرتي أوركني وشيتلند حتى القرن الخامس عشر). لكن في ارلندا، لم يحاول الاسكندينافيون فتح البلاد بكاملها، بل اكتفوا بتأسيس عدد من المدن. كانت دبلن أكثرها أهمية. اذ كانوا يستطيعون بواسطتها التأثير في تجارة الساحل الأوروبي الغربي. كانت السلع المستوردة من فرنسا واسبانيا تتقايض بالعبيد

(٧) ـ انتشل بدن سفينة نقل صغيرة من قاع خليج روسكيلد في الدنمرك وأعيد تركيبه. يبلغ طول السفينة ١٣,٥ م. ولها ظهر في المقدمة والمؤخرة وعنبر في الوسط. الساري مثبت على قاعدة السفينة، ويدعم الشراع الكبير الوحيد صار واحد مستعرض. كان من الممكن انزاله وحفظه في المستودع في حالة عدم استعماله. كذلك كان يمكن دفع السفينة بواسطة مجاذيف تدل عليها الثقوب المربعة الظاهرة في السطح الجانبي لها. كانت السفينة تدار بواسطة دفة مثبتة الى الجهة الجانبية من المؤخرة.

(٨) ـ كان الموقد المكشوف في وسط هذا البيت، الذي أعيد تركيبه في مدينة هيدبي بجوتلندا الجنوبية، يؤمن الحرارة اللازمة لتدفئة الغرفة وللطبخ. كانت الأسرة تجلس على مقاعد الطين الى جانبي الغرفة، وتأكل على موائد منخفضة. كانت الجدران مصنوعة من الأغصان والطين، وربما كانت تغطى بستائر. على كل من الجانبين كانت تقوم غرفة واحدة.

(٩) ـ تشهد على اتقان حرف الفايكينج هذه الدوارة (دليل اتجاه الريح) التي تعود الى القرن الحادي عشر. صنعت من البرونز المذهب. وربما كانت في الأصل جزءاً من زخرفة سفينة فايكينجية. كان الاسكندينافيون يفضلون التزيين بالحيوانات المتلوّية. وإبان عصر الفايكينج، أنتج الحرفيون مصنوعات ممتازة، مزينة بصور الحيوانات. جاءت مستقلة في الغالب عن تأثير الفن الأوروبي المعاصر لها. تشهد الآثار الشبيهة بهذه الدوارة على براعة الزخرفة.



٩ ٨ ٧

والعاج وسواها ، من منتجات الشمال .

في البلدان الأوروبية الغربية الأخرى كان الاسكندينافيون أقل نجاحا كمستعمرين أو فاتحين ، فلم ينجحوا الا في نورمانديا ، حيث منح رجل اسكندينافي يدعى رولو عام ٩١١ الحق باستيطان وادارة معظم تلك البقعة من فرنسا .

انتقل الاسكندينافيون ايضا الى شمالي الاطلسي بحثا عن الغنائم والأراضي الزراعية ، فاستوطنوا جزر فارو التي كانت مجهولة ، حتى ذلك الحين ، ثم ايسلندا ، وبلغوا جرينلند حيث أسسوا مستوطنتين رئيسيتين . ويبدو أيضا أنهم نزلوا على ساحل أمريكا الشمالية .

أوروبا الشرقية

كان للاسكندينافيين نفوذ في اوروبا الشرقية ايضا . فمنذ الحقبة الرومانية ، كانوا يتاجرون ، بصورة متقطعة ، مع منطقة شرقي البحر المتوسط ، سالكين طريق الأنهر البولونية والروسية . لكن في القرن الثامن ، حدثت حركة تجارية أكثر اتساعا وتنظيما ، فأسس السويديون محطات تجارية ، وتقاضوا الجزية من القبائل الفينو - أوجريكية والبلطية والسلافية ، في شرقي بحر البلطيق . وفي القرن التاسع ، ساهم الاسكندينافيون بنمو المدن التجارية الروسية ، في ستاراجا لادوجا ونوفجورود وكييف . وبقيت الطرق النهرية الممتدة على طول نهري الفولتشوف والدنيبر ، (والتي كانت تؤدي من بحيرة لادوجا الى البحر الأسود والقسطنطينية) تحت سيطرة الاسكندينافيين الى حد كبير ، من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر .

التجارة والتنظيم الاقتصادي

كانت صادرات الاسكندينافيين الرئيسية الفراء والعسل والعبيد ، بينما كانت وارداتهم الرئيسية الفضة والبهارات وسواها من السلع الكمالية . يدل على كبر حجم هذه التجارة الشرقية وجود حوالى ٤٠٠٠٠ قطعة نقد عربية (على أقل تقدير) ، عثر عليها في مواقع تعود الى عهد الفايكنج في جوتلندا والسويد .

تدل أيضا على هذه العلاقات مع الشرق ، نقوش طويلة محفورة بأحرف رونية (أبجدية توتونية قديمة) على حجارة سويدية . بعض هذه النقوش يشير الى بعثات تجارية ، كما يدل على وجود اسكندينافي مسالم في روسيا ، فيما يتحدث بعضها الآخر عن أحداث أكثر عنفا ، كحملة عسكرية الى بلاد العرب مثلا ، أو نزول مرتزقة اسكندينافيين في روسيا أو بيزنطة . كذلك تشهد المصادر اليونانية على وجود اسكندينافيين ، بين حرّاس الامبراطور .

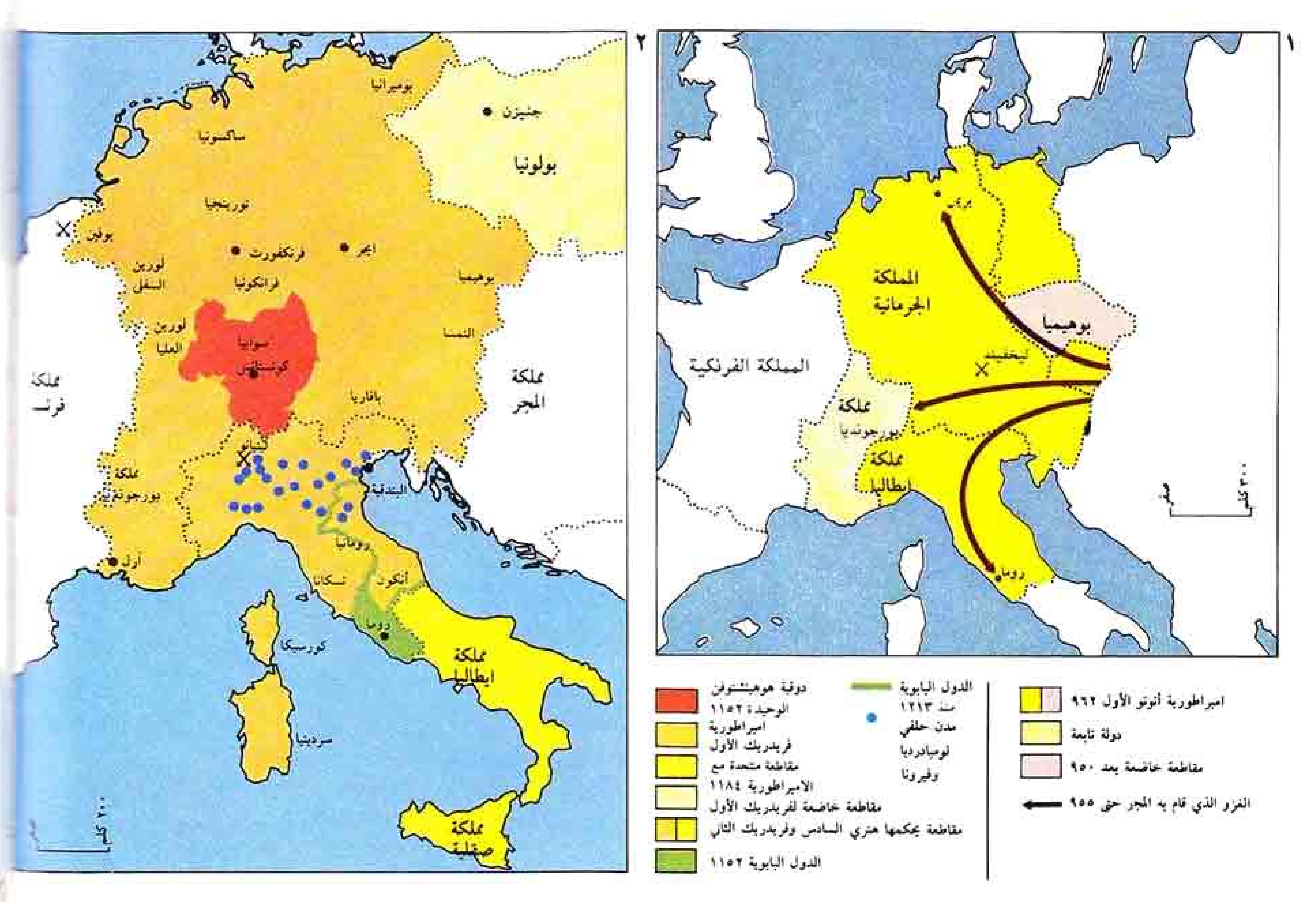
كانت الغزوات والاستعمار والتجارة ، وسواها من نشاطات الفايكينج التي رسّخت معالمهم في التاريخ الأوروبي ، مبنية على اقتصاد منزلي حضاري . كانت الزراعة أساس هذا الاقتصاد ، الذي توسع باستثمار أراض هامشية في اسكندينافيا ذاتها ، وانشاء عدد من المباني التي لعبت دور محطات تجارية رئيسية ، مثل بيركا في السويد وهيديبي في جوتلندا الجنوبية (٨) . وتشير المعلومات الأثرية وكتابات الرحالة التي عثر عليها في هذه المدن الى علاقات الاسكندينافيين الدولية . مع ذلك كان الاسكندينافي ، في عهد الفايكينج ، مزارعا بالدرجة الأولى .

الامبراطورية الرومانية المقدسة

حاولت « الامبراطورية الرومانية المقدسة » أن تبعث الى الحياة من جديد « غربا » مسيحيا موحدا ، كمثل ذلك الغرب الذي عرفته ، نظريا ، السنوات الأخيرة من الامبراطورية الرومانية . وصفت هذه الامبراطورية بالمقدسة ، لأنها كانت مبنية على النظرية القائلة بأن البابا يتمتع بالسيادة في الشؤون الدينية ، وبأن الامبراطور هو الذراع المدني للكنيسة وحاميها ؛ ودعيت رومانية ، لأن روما كانت لمدة طويلة المركز السياسي للعالم (٧) .

الصراع على السلطة

لم تكن النظرية القائلة « بأن البابا هو



(١) ـ بدأ توسع الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد تتويج رجل سكسوني عام ٩٣٦ ، هو أوتو الأول (٩١٢ ـ ٩٧٣) ، زعيما على الدوقيات القبلية الألمانية الخمس : ساكسونيا وفرنكونيا وبافاريا وسوابيا ولوثارينجيا . أدت محاولات أوتو الأول لتوسيع سلطته الى صراع متواصل ، لكنها أدت ايضا الى تتويج البابا له امبراطورا عام ٩٦٢ ، وذلك بعد أن كان قد أصبح ملكا على اللومبارديين عام ٩٥١ ، وبعد أن مهّد ، بانتصاره على المجر في معركة ليخفيلد عام ٩٥٥ ، لامتداد الامبراطورية غربا .

(٢) ـ كانت انجازات فريدريك الثاني (١١٩٤ ـ ١٣٥٠) الاقليمية ، وقد بلغت ذروتها في معركة بوفين (١٣١٤) التي هزم فيها آخر خصومه ، تحقيقا للطموح

ممثل سلطة الله الروحية على الأرض ، وان الامبراطور هو ممثل السلطة الزمنية » ، حقيقة واقعة الا نادرا . فمن الناحية العملية ، كان الأباطرة هم الاقوياء أحيانا ، والباباوات أحيانا أخرى ، كما كانت السلطة تتأرجح بين الاثنين في فترات أخرى . لكن منذ منتصف القرن الثامن ، أخذ الكرسي البابوي يتطلع بصورة متزايدة نحو الفرنك ، لتأمين حمايته من اللومبارديين ، وبلغ هذا الاعتماد ذروته عام ٨٠٠ عندما توج البابا ليون الثالث شارلمان امبراطورا في روما . ومع ان عبارة « الامبراطورية الرومانية المقدسة » لم تستعمل حتى القرن الثاني عشر ، فالاعتراف البابوي بشارلمان يمكن اعتباره بداية هذه الامبراطورية .

النزاع على صلاحيات التنصيب

الا أن روحا اصلاحية جديدة منبثقة من



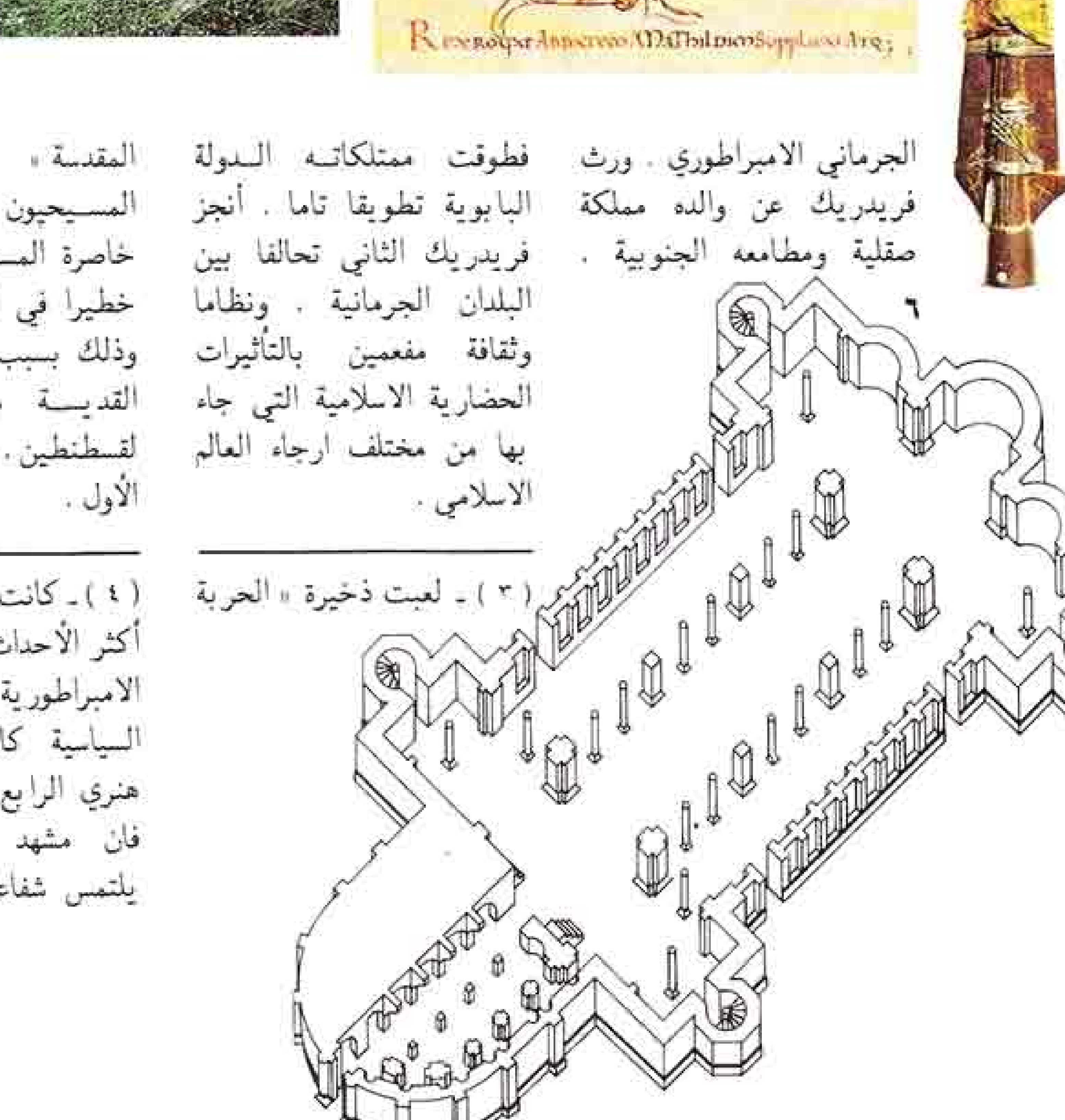
الجرماني الامبراطوري . ورث فريدريك عن والده مملكة صقلية ومطامعه الجنوبية . فطوقت ممتلكاته الدولة البابوية تطويقا تاما . أنجز فريدريك الثاني تحالفا بين البلدان الجرمانية . ونظاما وثقافة مفعمين بالتأثيرات الحضارية الاسلامية التي جاء بها من مختلف ارجاء العالم الاسلامي .

(٣) - لعبت ذخيرة « الحربة المقدسة » التي يعتقد المسيحيون انها اخترقت خاصرة المسيح . دورا سياسيا خطيرا في العصور الوسطى . وذلك بسبب التقليد القائل ان القديسة هيلانة اعطتها لقسطنطين . ومنه آلت الى أوتو الأول .

(٤) - كانت حادثة « كانوسا » أكثر الأحداث عارا في تاريخ الامبراطورية . ومع ان نتائجها السياسية كانت في مصلحة هنري الرابع في آخر الأمر ، فان مشهد امبراطور تائب يلتمس شفاعة « هيو » رئيس دير كلوني ، و « ماتيلدا » التوسكانية ، لطلب العفو من البابا ، قد جرح الكبرياء الالماني في الصميم . حتى أن خلاف بسمارك مع البابا في القرن التاسع عشر يعزى الى رغبة بسمارك في ان لا يذهب الى « كانوسا » أخرى .

(٥) - « قلعة ديل مونتي » في ايطاليا الجنوبية هي أروع حلقة في سلسلة التحصينات الستراتيجية التي صممها فريدريك الثاني . بتأثير من الأسلوب العربي . بنى هذا الامبراطور ، في صقلية وأبوليا ، جهازا دفاعيا واداريا ، كان أكمل الأجهزة وافضلها في اوروبا .

(٦) - بنيت كنيسة القديس ميخائيل ، في هيلدسهايم في ساكسونيا ، في أوائل القرن الحادي عشر . تحت اشراف الأسقف بورنوارد ، ودمّرت أثناء الحرب العالمية الثانية . زيّنت بعد بنائها برسوم برونزية بديعة ، وبسقف أفقي مطلي رائع ، تغطيه برمته صورة « شجرة جيسي » .



داخل البابوية ، أثارت مشكلة رئيسية حول قضية صلاحيات التنصيب . فالسؤال الذي أثير هو : من الذي ينصب الأساقفة ، البابا أم الامبراطور ؟ ولكن النزاع في أساسه كان يدور في الحقيقة حول الثروة والسلطة المرافقتين للمناصب المتنازع عليها .

حين بلغ « النزاع على صلاحيات التنصيب » (كما سميت هذه المشكلة) ذروته ، أدى ذلك الى انهيار تام للعلاقات الامبراطورية ـ البابوية ، مما اضعف المبررات النظرية التي قامت عليها الامبراطورية الرومانية المقدسة وسلطتها الفعلية . بلغت هذه المنافسة أوجها في عهد الامبراطور هنري الرابع (١٠٥٠ ـ ١١٠٦) الذي دعا الى مجمع امبراطوري في وورمس عام ١٠٧٦ وتوصل بواسطته الى خلع البابا غريغوريوس السابع .

ردّ غريغوريوس بعمل مماثل ، فخلع هنري وحرمه من الكنيسة ، وبدأ بتشكيل

٧



٨



٩



١٠

جميع الشعارات والرموز الامبراطورية ، لابنه هنري الخامس ، عارض بعض أفراد عائلته قراره بخلع البابا غريغوريوس السابع ، وتنصيب

(٧) ـ صنع تاج أوتو الأول الامبراطوري بمناسبة تنصيبه على يد البابا عام ٩٦٢ . يظهر الصليب المسيحي في مقدمته . وهو مثمّن الشكل ليرمز الى أورشليم السماوية ، وتعلوه قطعة نصف دائرية تمثل السيطرة على العالم . تحتوي كل من لوحتيه الأمامية والخلفية على ١٢ حجرا نفيسا كما تظهر على الجانبين صور ملوك من الكتاب المقدس . يرمز التاج بمجمله الى وظيفة لابسه المزدوجة = حاكم زمني ، ووصي للمسيح على الأرض .

---

(٨) ـ جاء اذلال هنري الرابع النهائي ، والذي يبدو في هذه الصورة المعاصرة له ، عام ١١٠٥ ، عندما أجبر على التخلي عن

بابا جديد ، وانضم اليهم هنري الخامس بعد أن أصبح شريكا في الحكم عام ١٠٩٩ ، ولم يلبث أن خلع والده عن العرش .

---

(٩) ـ صنع « بوق صيد شارلمان » ، وهو أحد كنوز الأباطرة ، في القرن الحادي عشر على الأرجح . لكنه لم يكن له أية صلة بشارلمان .

(١٠) ـ يبيّن رسم بيترالايبولي لحصار نابولي (١١٩١) جيوش هنري السادس ، وهي تحاول بالقوة فرض حق زوجته في المملكة النورماندية الايطالية . على الرغم من نجاحه في المراحل الأولى ، فان نابولي لم تسقط . لم يتوج هنري السادس ملكا على صقلية الا عام ١١٩٤ .

حلف قوي ضد الامبراطورية . حين أدرك هنري خطورة وضعه . قبل أن يقضي ثلاثة أيام مؤتزرا قميصا من الشعر في كانوسا (٤) بانتظار غفران البابا . عند ذلك سحب غريغوريوس قرار الحرمان . لكنه أبقى قرار الخلع ساري المفعول ، فرد هنري على ذلك بالزحف على روما عام ١٠٨٤ ، وارسال غريغوريوس الى المنفى ، حيث لاقى حتفه . أخيرا جاء حل « النزاع على صلاحيات التنصيب » عن طريق تسوية سمحت للامبراطور بأن ينصب الأساقفة بتسليمهم الصولجان ، تمهيدا لتكريسهم من قبل السلطات الكنسية .

بلغت تطلعات الامبراطور الدينية والسياسية ذروتها في عهد أسرة هوهنشتاوفن (١١٣٨ ـ ١٢٥٤) . كان كل من فريدريك الأول بارباروسا (١١٢٣ ـ ١١٩٠) وهنري السادس (١١٦٥ ـ ١١٩٧) يعتبر نفسه حاكما مقدسا لامبراطورية جرمانية أقامها الله . ارتكزت سلطة فريدريك الأول على تحالف عقده مع هنري « أسد سكسونيا » ، ضد النورمانديين وأهالي روما . وعندما عارضه البابا في عام ١١٥٩ عيّن بابا آخر من عنده ، هو فيكتور الرابع . منذ ذلك الوقت أخذ الكرسي البابوي يؤيد « الحلف اللومباردي ».

انهيار حلم

طالب الامبراطور هنري السادس بجميع أراضي النورمانديين ، لاسيما صقلية (١٠) ، وراح يحلم بالاستيلاء على تونس ، بل حتى على القسطنطينية ، وأنشأ أول اسطول امبراطوري . ترعرع ابنه فريدريك الثاني (١١٩٤ ـ ١٢٥٠) في صقلية ، فكان مواطنا من مواطني البحر المتوسط أكثر مما كان ألمانيا . كان طموحا وريبيا في آن واحد . ناصب الكرسي البابوي عداء مريرا ، وحقق أعظم توسع للنفوذ الامبراطوري (١) و (٢).

كانت صقلية ، في ظل أسرة هوهنشتاوفن . من الناحية الثقافية ، عبارة عن مزيج من التأثيرات الايطالية والعربية واليونانية والنورماندية والجرمانية ، كما كانت جزءا من ثقافة اسلامية أوسع ممتدة من تركستان حتى اسبانيا الغربية .

كان فريدريك ينظر الى السياسة كفن ، والى الحكم كمهارة بيروقراطية . وأهم من كل ذلك ، أنه قام برعاية الفنون والعلوم ، وجاء من العالم الاسلامي بالعلماء والمفكرين والأدباء والفنانين ليزين بهم بلاطه ، ويزود الفكر الاوروبي بانتاجهم ، كما أسس جامعة نابولي لكي تنافس جامعة بولونيا ، فكانت أول جامعة أوروبية حديثة أثرت تأثيرا قويا على الثقافة الأوروبية ، بعد أن زودها الامبراطور باعداد كبيرة من الكتب والمخطوطات العربية ووضع في منهاجها أعمال ابن رشد وغيره من العلماء المسلمين ، وكان توماس الأكويني أحد طلابها .

أغضبت المفاوضات التي أجراها مع المسلمين الغرب المسيحي ، لكنها مكّنته من تتويج نفسه في القدس ، دون أن يربح حربا صليبية . أدانته الكنيسة عام ١٢٤٥ في مجمع ليون الذي حكم بخلعه عن العرش . وعندما توفي ، وقضى الكرسي البابوي على سلطة أسرته ، انهار حلمه بمستقبل امبراطوريته العالمية . بقيت الامبراطورية على قيد الحياة ، ولكن على شكل منظمة اسمية ، حتى وصول نابليون بونابرت الى المانيا عام ١٨٠٦ .

التوسّع الأوروبي شرقاً

في القرون التي سبقت عام ١٠٠٠ للميلاد ، كانت أوروبا الشرقية عبارة عن أراض شاسعة مؤلفة من غابات قليلة السكان ، ومراع ، وجبال منخفضة سهلة العبور مر بها عدد من الشعوب المختلفة . بينما كانت قرى ومدن أوروبا الغربية تستعد لتصبح مسرحا لنشاط مجتمع يفيض بالحيوية . في المنطقة الواقعة بين البحر البلطيقي والدانوب ومستنقعات بريبيت ونهر الالبا كان يتجول الرعاة الكارباتيون ، والبدو الرحّل القادمون من المروج الروسية الجنوبية لينزلوا في حوض الدانوب ، وشعوب الغابات المعروفة بالفيستولا (وهم أسلاف الرومانيين والهنجاريين والبولونيين الحاليين) .

١



٢

٣

(١) ـ كانت كاتدرائية جنيزنو (جنيزين) مركز الدين المسيحي . في الدولة البولونية الجديدة . كانت تحتوي على ذخائر القديس أدلبرت البراغي ، أحد رسل أوروبا الشرقية . كانت جنيزنو ، وهي مركز بولوني قديم ، أهم المدن « القلاع » للملك بوليسلاف الكبير . وهذه المدن كانت تكتلات مزدهرة أفسحت مجالا واسعا للتجارة المحلية ، وأصبحت آخر الأمر مراكز لتصدير الحبوب الى الغرب .

---

(٢) ـ أصبح القديس وينسيلاس دوق بوهيميا والمعتنق المتحمس للمسيحية ، شفيع هنجاريا وبولونيا وبوهيميا . لم يجرؤ ، كدوق ، على مقاومة عدوان الملك الجرماني هنري الأول (حكم ٩١٩ ـ ٩٣٦) الذي أراد اخضاع الواند والسلاف فضلا عن البوهيميين . فأصبحت بوهيميا اقطاعا جرمانيا (تدين بولاء شكلي للامبراطور) . لكن وينسيلاس اعتبر مسؤولا عن الهزيمة . فقتله أخوه بوليسلاف وخلفه بأسم بوليسلاف الأول .

---

(٣) ـ كان « بوليسلاف الكبير » مؤسس المملكة البولونية الاولى . نتج عن حكمه ، الذي دام ٣٠ سنة ، توطيد نظام البلاد الداخلي ، واقامة كنيسة بولونية مسيحية وطنية ، وتوسع هام في الخارج . كلّ هذه التطورات حوّلت بولونيا من تحالف بين قبائل سلافية الى ملكية مركزية قوية . استطاع هذا الملك ، بواسطة تحالفه مع بوهيميا وهنجاريا

لم تتأثر هذه الشعوب بروابط الولاء السياسي أو الديني المصوّبة في المناطق المأهولة نحو الغرب والجنوب ، بل كانت ايضا معزولة عن بعضها بعضا من الناحية الثقافية .

يبدو أن شعوب الغابات ، وهم سلاف بولونيون او تشيكيون ، كانوا يقسمون الى عدّة قبائل ، وقد تم اكتشاف عدد من « الغرودي » (المستوطنات المحصنة الواقعة على التلال أو جزر المستنقعات) التي كانت عواصم لهم . كانت مروج الدانوب الأوسط ملتقى لموجات متتالية من الرحّل العائشين على غزو الأراضي المجاورة . كانت آخر هذه الموجات ، من المجر الأشداء الذين كانوا خليطا من الفنلنديين والأتراك .

انتشار التأثير الألماني

الى الغرب من هذه الشعوب ، كانت وكييف ، أن يجعل الأوديـر والفيستولا نهرين بولونيين بالفعل ، كما استطاع اعلان الحرب على الامبراطور هنري الثامن (٩٧٣ - ١٠٢٤) بين ١٠٠٤ و ١٠٠٨ ، واعترف الامبراطور ، آخر الأمر ، بوحدة الدولة البولونية . وجرى تتويج بوليسلاف عام ١٠٢٤ .

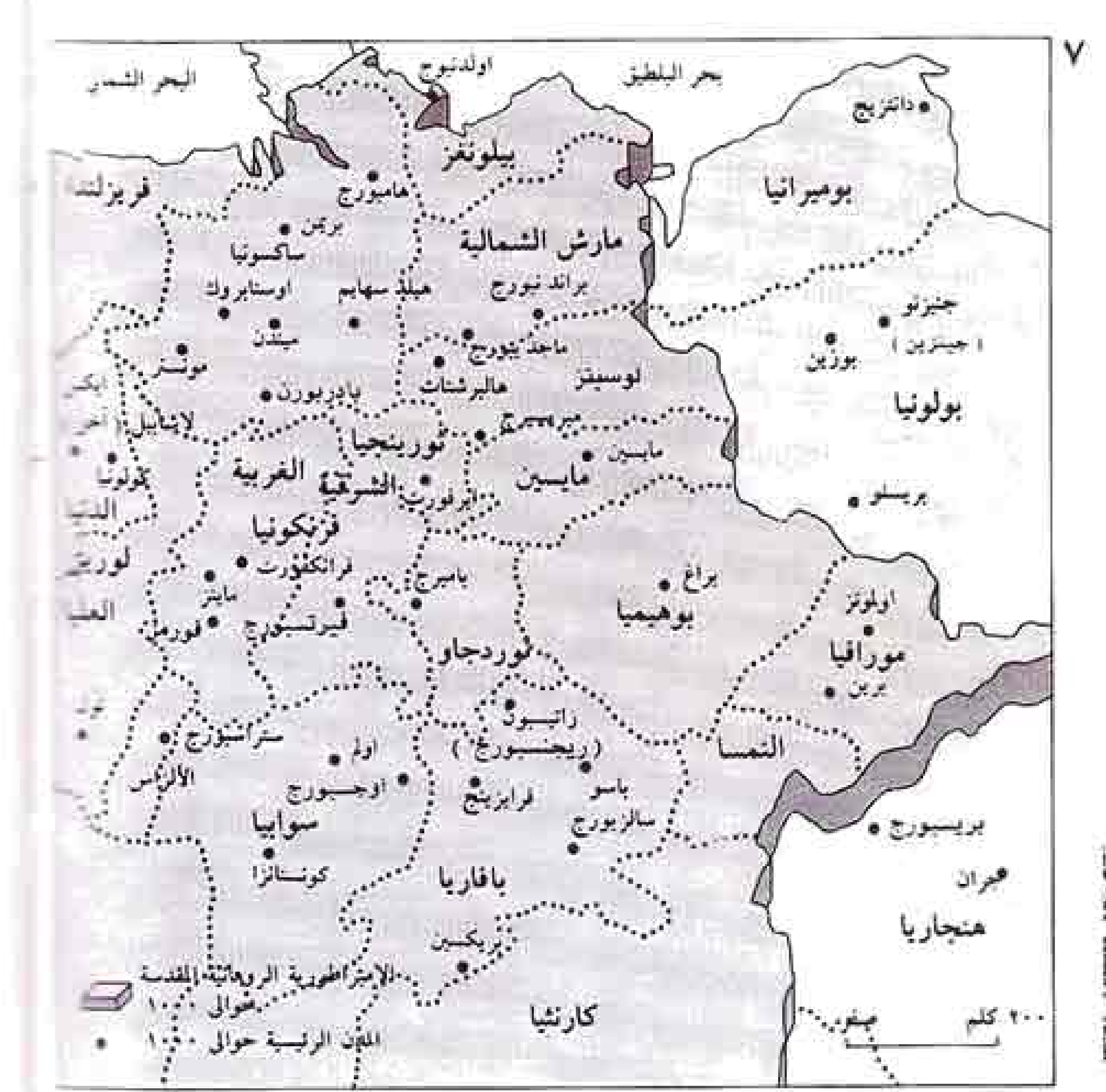
(٤) - بدأت المسيحية بالانتشار في اوروبا الشرقية بين ١٠٠٠ و ١٢٥٠ . وكان تنصير السلاف والمجر سريعا في ظاهره . لكن التنصير التام استغرق قرونا . جاء أولا المبشرون الجرمان أو البيزنطيّون الذين كان هدفهم الحقيقي تنصير الحكام واقامة أبرشيات . فلم تبلغ المسيحية الجماعات الريفية الا ابتداء من القرن الثاني عشر .

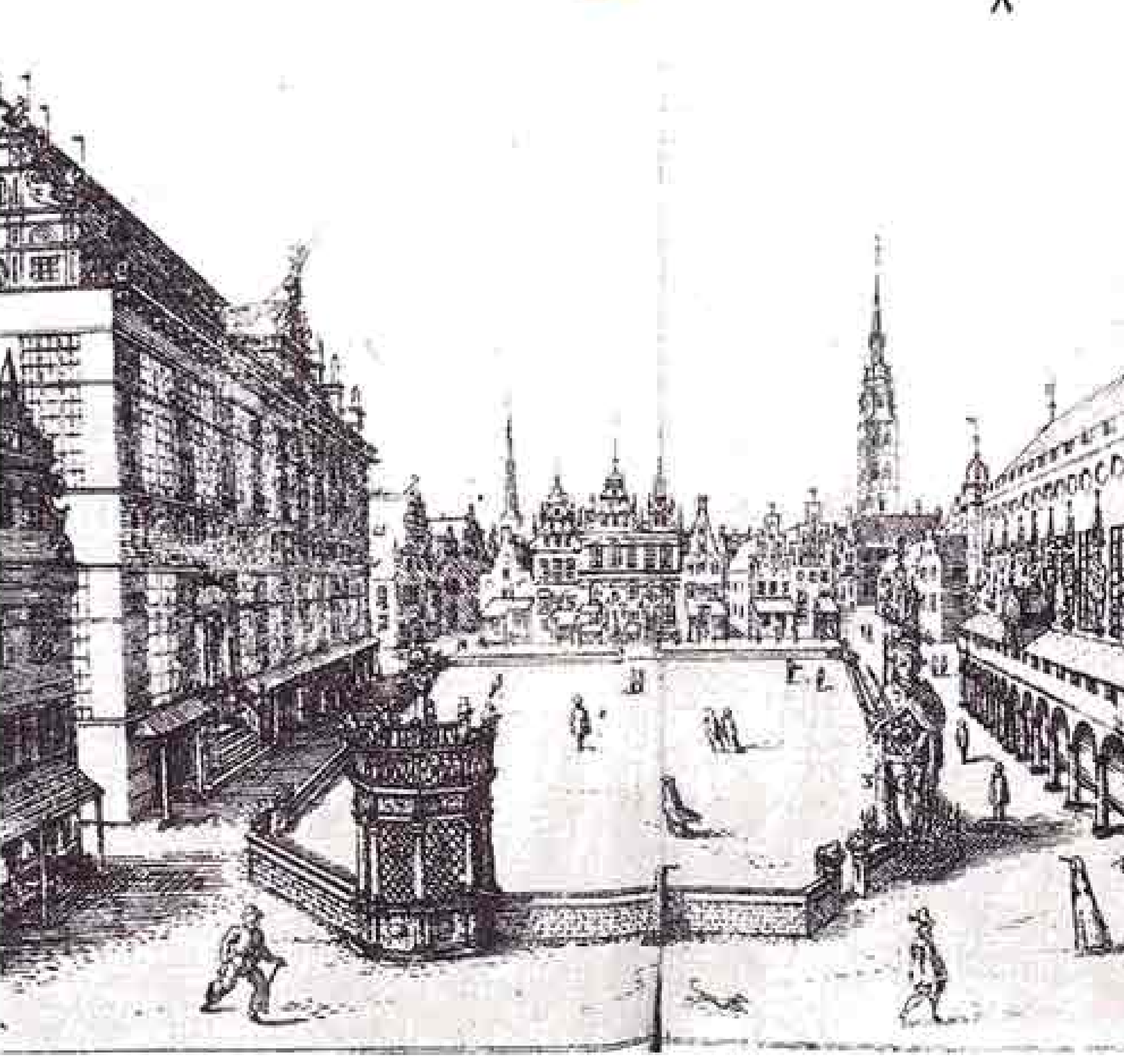
(٥) - كانت مارينبورج الشهيرة بقلعتها عاصمة منظمة الفرسان التوتونيين في بروسيا . تأسست جمعية الفرسان كرهبنة عسكرية من النبلاء ، من أجل الاحسان والتبشير عام ١١٩٠ ، ثم تخلّت عن العمل في الأراضي المقدسة . ونزلت في الساحل البلطيقي لفرض ارادتها في تنصير البروسيين الوثنيين . في عام ١٣٠٩ ، أسس الفرسان مقر قيادتهم في مارينبورج .

تقطن الشعوب الجرمانية التي كانت هويتها القومية حديثة أيضا . كانت تربط الجرمان بالسلافيين صلات وثيقة . صارت عدائية مرارا ، لكنها كانت سلمية في معظم الأحيان . كان المجتمع الجرماني يتألف من فئات حسنة التنظيم ، وكانت حضارتهم المسيحية مندمجة في الامبراطورية الرومانية المقدسة ، مما جعلها ذات تأثير دائم ومفيد . في ظلّ الملوك الاوتويين الأقوياء (٩١٩ - ١٠٢٤) ، الذين أصبحوا أباطرة بعد ٩٦٢ ، تسارع التقدم الألماني ، وظهرت لأول مرة بوادر التقارب والتوحيد بين القبائل المختلفة . مع حلول عام ١٠٠٠ ، كان المجر (الذين حدّ من غزواتهم الانتصار الالماني في معركة ليخفيلد عام ٩٥٥) والبوهيميون والبولونيون (٣) قد اتحدوا كل بدوره تحت سلطة سلالة واحدة مستقلة . كان أول دلائل هذا التطور انتشار المسيحية (٤) . فمنذ

٦

٧





٨

(٦) - أعطى البابا عام ١٠٠٠ تاجا للدوق المجري اسطفان فيما أعطى الأمبراطور البيزنطي تاجا آخر للدوق البولوني بولسلاف الأول بعد ٧٥ سنة من ذلك .

(٨) - مدينة بريمين ، الواقعة على ضفاف الويزر ، هي احدى الموانىء التجارية الالمانية الشمالية العظيمة ، أسّسها شارلمان في القرن التاسع ، فأنشأ تجارها مدينة ريجا عام ١١٥٨ ، ثم في عام ١٣٥٨ انضمت بريمن الى « الهانزا » طمعا بكسب الحماية .

القرن التاسع ، كان المبشرون البيزنطيون قد نصّروا المورافيين ، الذين قضى المجر على امبراطوريتهم المهلهلة ، فحلت محلها ، تحت التأثير الألماني ، دوقية بوهيميا التشيكية ، التي اعتنق أول حكامها المسيحية ، وعرف في التاريخ باسم القديس وينسيسلاس (حكم ٩٠٧ ؟ - ٩٢٩) وكان تابعا للملك الألماني .

كانت بوهيميا ، تحت الاشراف الجرماني ، محور التطور السريع الذي شهدته بقية انحاء أوروبا الشرقية . فكان الدوق بوليسلاف الأول (حكم ٩٢٩ - ٩٦٣) حما لأول دوق بولوني هو ميشكو الأول (حكم ٩٦٣ - ٩٩٢) الذي اعتنق المسيحية على يده . كذلك أدى تأثير القديس أديلبرت ، أسقف براغ (١) ، الى تعميد الدوق الهنجاري اسطفان (حكم ٩٩٧ - ١٠٣٨) . الا ان التأثير الجرماني كان يشكو من بعض الغموض والتناقض .

ظهور الهويات القومية

في القرن الحادي عشر ، صمد البوهيميون والبولونيون والهنجاريون في شخصيتهم الخاصة ، واكتسبوا حسا قوميا في ظل سلالاتهم الجديدة . لم يخلع على البريمسليين في بوهيميا اللقب الملكي حتى ١١٩٨ ، ومع أنهم كانوا جزءا من الامبراطورية الجرمانية ، فقد احتفظوا بلغتهم وعاداتهم السلافية دون تعديل . كانت أسرة بياست البولونية الحاكمة أشد أعداء الجرمان . فأصبح بلاطها في جنيزنو محور المقاومة لأطماع الأباطرة الساليين . الا أن وحدة الأراضي البولونية الشاسعة كانت ظاهرية فقط . فمنذ ١٠٧٩ حتى نهاية القرن الثالث عشر ، اشترك في حكم البلاد عدد من الأمراء البياستيين ، ثم اقتسموها فيما بينهم . لكن طيلة هذه الحقبة ، بقيت وحدة البولونيين وهويتهم القومية سليمتين ، بفضل كنيستهم الوطنية وثقافتهم المشتركة .

كانت أسرة ارباد الهنجارية أوفر حظا في المحافظة على وحدتها ، بالتعاون الوثيق مع الأباطرة الجرمان ، فازدهرت هنجاريا كجسر بين بيزنطة وروسيا وأوروبا الغربية .

الهجرة الجرمانية اللاحقة

توقف زحف الشعوب الجرمانية شرقا بعد سنة ١٠٠٢ على أبواب بوميرانيا وبولونيا وهنجاريا ، لكنه استؤنف على نطاق واسع بعد عام ١١٠٠ . رحب الحكام السلاف والمجر بالجرمان الوافدين ، باعتبارهم مزارعين جددا لأراض كانت قليلة السكان . جاء أولا التجار ، فملأوا المدن الويندية والبولونية والبوهيمية ، لاسيما لوبيك ودانتزيج على شاطىء البلطيق . تلت ذلك هجرة ضخمة من الفلاحين ، في القرن الثاني عشر ، فاحتلوا أراضي سيليزيا الخصبة ، وانتشروا في أنحاء بوهيميا ، وبعض أنحاء هنجاريا ومهدوا لفتح ترانسلفانيا . وأخيرا جاء « الفرسان » ، في الظاهر لتنصير الليثوانيين الوثنيين ، ولكن في الحقيقة لاقتطاع أراض جديدة على الساحل البلطيقي أيضا .

أنشئت رهبنات عسكرية ، توحدت عام ١٢٣٧ باسم « منظمة فرسان ليفونيا التوتونيين » ، فكان ذلك تدشينا للسيطرة الجرمانية على البلطيق . ولم تلبث الجماعات البحرية أن أسّست اتحادا عرف بالهانزا (٨) . لعبت الهانزا دورا ثقافيا وسياسيا هاما في أوروبا الشرقية الشمالية .

الفن الرومانسكي في القرن ١١

اقتبس بعض علماء الآثار ، في القرن التاسع عشر ، عبارة « رومانسكي » من كتب الأدب ، لوصف فن العمارة الذي كان سائدا قبل الفن القوطي ، دلالة على شبهه بالفن الروماني . ويطلق هذا التعبير اليوم على الفن ، ولاسيما العمارة ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . بعد زوال الامبراطورية الرومانية الغربية ، أدى الاضطراب السياسي والاقتصادي في أوروبا الغربية الى تقهقر الرعاية الواسعة الانتشار للفنون . وعلى الرغم من مظاهر الانتعاش الفني العظيمة في عهد الامبراطور شارلمان وخلفائه ، فالفضل في انتعاش الفنون في أنحاء أوروبا عام ١٠٠٠ ، يعود بكامله الى ظهور الحكومات القوية ،

١ - الواجهة الغربية
٢ - الابراج المحيطة بالواجهة الغربية
٣ - البهو
٤ - الجناح الجنوبي
٥ - الأجنحة الفرعية
٦ - قنديل فوق ممرّ
٧ - المذبح
٨ - القبا

١

(١) - اشتهرت كاتدرائية سانتياجو دي كومبوستيلا في اسبانيا بأنها مدفن « الرسول » يعقوب ، وكانت محجا لأعداد كبيرة من الناس ، من جميع أنحاء أوروبا في العصور الوسطى . كانت أربع طرق رئيسية للحج تنطلق من فرنسا لتصب في طريق واحدة اليها عبر شمالي اسبانيا . وكان في كل من هذه الطرق الاربع مزار هام . كانت أكبر خمس كنائس شيدت بين ١٠٥٠ و ١١٠٠ كنائس تور (سان مارتان) وليموج (سان مارسيال) وكونك (سانت فوا) وتولوز (سانت سرنين) وكومبوستيلا . لهذه الكنائس الخمس تصميم متشابه ، وكان لها تأثير في نشر مفهوم تصميم الكنيسة الرومانسكية الكبيرة أي البناء الكبير الشبيه بالصليب ، والذي له مدخل غربي رئيسي ذو أبراج (١ ، ٢) . وشرفات على المستوى الأعلى من القسم الداخلي ، مع تركيز على الطرف الشرقي بعدد من أنصاف الدوائر التي تستعمل كمذابح . كانت له ايضا ، حول صحن الكنيسة (٣) مذابح عديدة ، ولكنها كانت تستعمل بالدرجة الأولى كمكان لاجتماع المصلين . كان كل مذبح مكرسا لقديس معين ، وله مكان لحفظ الذخيرة المقدسة فوقه أو داخله . كانت الشمعدانات والستائر والمعلقات تحيط بالمذبح . في الصورة ، تظهر الكنيسة الثالثة عند موقع كومبوستيلا ، التي شيدها على الأرجح بناؤون فرنسيون ، وأنجزت حوالى عام ١١٢٥ ، ثم أدخلت عليها تعديلات عدة .

والى الاصلاحات التي تمت داخل الكنيسة .

رعاية الكنيسة للفنون

كانت الأرض مصدر الدخل الرئيسي في العصور الوسطى ، وكانت سلطة مالكي الأرض مطلقة . فرحبت الكنيسة بهبات الاراضي واصبحت من كبار المالكين الاقطاعيين ، حتى أنها كانت تملك ما يناهز ثلث مساحة فرنسا الحالية . في القرن الحادي عشر . كان المصدر الثاني للدخل هبات المؤمنين عند مزارات القديسين (٣) ، التي كان الحج اليها شائعا بين الناس ، من جميع الطبقات .

مع أن روما ، وسانتياجو دي كومبوستيلا في اسبانيا (١) ، كانتا المزارين الدينيين الرئيسيين ، فقد كان الناس يشجعون على زيارة مزارات عديدة أخرى . كانت المزارات تحتوي على ذخائر مقدسة ، يعتقد الكثيرون



٣ ٢ ٤ أ

(٣) ـ تمثال القديسة فوي هذا المغطى بالذهب صنع أصلا في القرن العاشر . الا أن الرواد الأتقياء لمزارها الواقع في كونك ، رصّعوا ، على مر القرون ، هذا الأثر المقدس بالحجارة النفيسة أو المنقوشة وبقطع البلّور . صنعت معظم مستودعات الذخائر المقدسة على شكل نواويس أو مزارات ، تحتوي على بقايا القديس ، وكان يظهر أحيانا في اعلاها رسم لجزء معين من جسده .



ب

(٢) ـ أعيد بناء الواجهة الغربية للكنيسة الرهبانية في سانتاماريا في ريبول قرب جيرونا ، بين عامي ١٠٢٠ و ١٠٣٢ . يشاهد هذا الطراز من الكنائس في جميع أنحاء أوروبا الجنوبية . ويتميز باستعماله لمواد بناء صغيرة ، و بعقوده المرتفعة فوق الأقسام الداخلية ، ولاسيما بذلك الاطار من الأقواس الصغيرة الممتد فوق الجدران الخارجية .

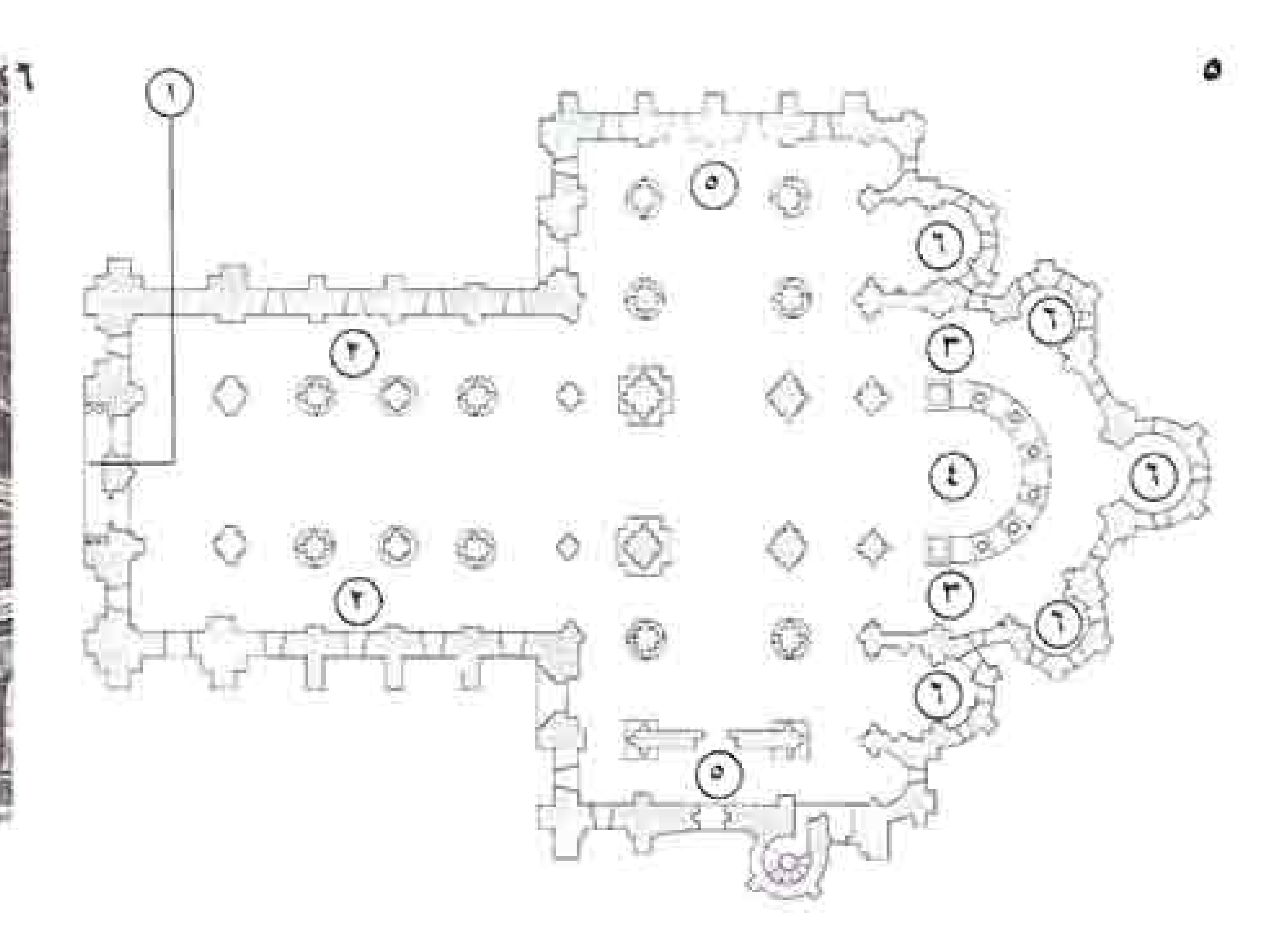
(٤) ـ في الأسكفات (العتبات العليا) الرخامية في كنيسة سان جيني دي فونتان في جبال البرانس (البيرينه) الفرنسية (١٠٢٠ ـ ١٠٢١) يظهر المسيح جالسا على العرش (ب) تحمله الملائكة . يحيط القديسون (أ) بهذا الرسم . وهو من أوائل المنحوتات الحجرية المعروفة التي تعود الى العصور الوسطى . يدل التصميم العام والحفر الخفيف المشظّى على أن النحاتين كانوا قد درسوا الرسوم الحجرية النافرة السابقة ، والمصنوعات المعدنية المعاصرة .

أن لها قوة شفائية عظيمة . وكان عرض هذه الذخائر أمام الحجاج حافزا لهم على التبرع لبناء كنيسة . كذلك شجع على اقامة المباني الدينية انشاء الأنظمة الرهبانية لحماية هذه الذخائر ، وتأسيس الأديرة لادارة الشؤون الروحية والزمنية للكنيسة .

هكذا أصبحت الكنيسة أعظم راعية للفنون فبنت منازل دينية . وزيّنتها بالرسوم (٦) والمعلقات ، وملأتها بالمذابح والحواجز الخشبية أو الحديدية المزخرفة .

ومع ازدياد طقوس العبادة الدينية تعقيدا ، ازداد اقتناء المخطوطات والمصنوعات اليدوية الدينية . لم يبق من القلاع والمنازل الحجرية من هذه الحقبة الا النادر ، مما يدل اما على أن هذه الأبنية لم تشيد بأعداد كبيرة ، أو أنها على الأرجح كانت تستبدل بها بسرعة أبنية أفضل وأكثر رخاء . كان همّ المعماري الديني الرئيسي بناء كنيسة تصلح

٥



٦

٧



(٥) ـ بني الطابق الأرضي لكنيسة سانت فوا ، في كونك بفرنسا (١٠٥٠ ؟ ـ ١١١٠) بتصميم يفي بأغراض الحجاج والرهبان معا . كان الحاج يدخل من الغرب (١) ، ويعبر عن طريق الممرات (٢) الى المشى الدائري (٣) ليشاهد الضريح الرئيسي داخل الهيكل (٤) . بينما كان الرهبان يلجون الكنيسة عبر الجناح الجانبي (٥) ، مرورا بالرواق الذي كانت أقسام الدير مبنية حوله . ثم يتجهون في موكب الى أماكنهم الخاصة خلف الحاجز ، أو الى مذابح ثانوية (٦) .

(٦) ـ في هذه الصورة الموجودة في كنيسة سان انجيلو ، في فورميس بالقرب من كابوا (التي أعيد بناؤها عام ١٠٧٣) يظهر المسيح يلمس عيني الأعمى الذي يغسل عينيه بعدئذ بمياه البئر ويبصر ثانية . تدل البقع الظاهرة على الخدود ، كما تدل ايضا الستائر ذات الزوايا ، على التأثير البيزنطي . وتمثل الرسوم مشاهد من العهدين القديم والجديد . وهي تغطي القسم الداخلي من الكنيسة بكامله . هذه المجموعة الكاملة هي اليوم نادرة جدا .

(٧) ـ صحن كنيسة سان ايتيان في نيفير (حوالى ١٠٧٠) المتجه شرقا نحو المذبح الكبير ، يبدو ضيقا ومظلما بسبب الحاجة الى دعم القباب الحجرية الاسطوانية الشكل . وراء الصف الأوسط من الأقواس ، يربط عمود نصف اسطواني القسم المرتفع الرئيسي بعضه مع بعض ، مساعدا بذلك على دعم القبة الرئيسية وبناء نوافذ عليا صغيرة . تقسم الاسطوانات الجدرانية الارتفاع الى وحدات منفرجة عمودية وليس أفقية .

للحاج وللراهب في آن واحد .

اشكال الكنائس الرومانسكية

كان في أوروبا الغربية نموذجان أساسيان شائعان من الكنائس : النوع الأول هو الكنيسة ذات السقف الخشبي والأجنحة ، والثاني هو المزار المقبب الصغير (الذي كان يشيد في موقع يمت الى الدين بصلة ما) . بنى النموذج الأول أصلا المسيحيون الرواد في روما ، واستمر مزدهرا دون تطوير يذكر في ايطاليا الوسطى حتى الفترة القوطية .

كان لكنائس هذا النموذج جناحان خاصان بالجوقة ، على كلا الطرفين في بعض الأحيان ، وواجهات غربية متعددة الطوابق ، يعلوها عدد من الأبراج في كل من الطرفين . وكان يربط بين هذه الأقسام المعقدة البهو الطويل ، وتفصل بين أروقة الطابق الأول والنوافذ العليا مساحات مسطحة من الجدران ، تطلى بالدهان أو تعلق عليها المطرزات (٥) . كانت جميع الكنائس الرومانسكية مدهونة بالألوان التي لم يبق منها أثر اليوم . لم يحدث مثل هذا التطور في ايطاليا الوسطى . ففي توسكانا ، غالبا ما كان يستعمل المرمر عوضا عن الرسوم الجدرانية ، كما في سان مينياتو آل مونتي بفلورنسا ؛ وفي بيزا ، كثيرا ما كانت أبراج الأجراس وأجران المعمودية تبنى منفصلة كليا عن البناء الرئيسي .

ليس بامكاننا التعرف الى النموذج الثاني ، اي مزارات الشهداء بالسهولة التي يمكننا بها التعرف الى النموذج الروماني ، مع أنه انتشر مع توسع الامبراطورية الرومانية ، في القرن الخامس ، في شمالي وشرقي اسبانيا ، ونصف فرنسا الجنوبي وشمالي ايطاليا ويوغسلافيا وآسيا الصغرى . تعود جذور هذا النوع الى المباني الرومانية الريفية التي كانت تبنى من الحجر المحلي الصغير أو من الآجر ، بدلا من الأحجار المصقولة او قطع المرمر التي كانت تبنى بها الصروح الامبراطورية . مع أن استعمال الأحجار الصغيرة كان يحد من حجم البناء ، فانه كان يسهّل تقبيب العقود الضيقة .

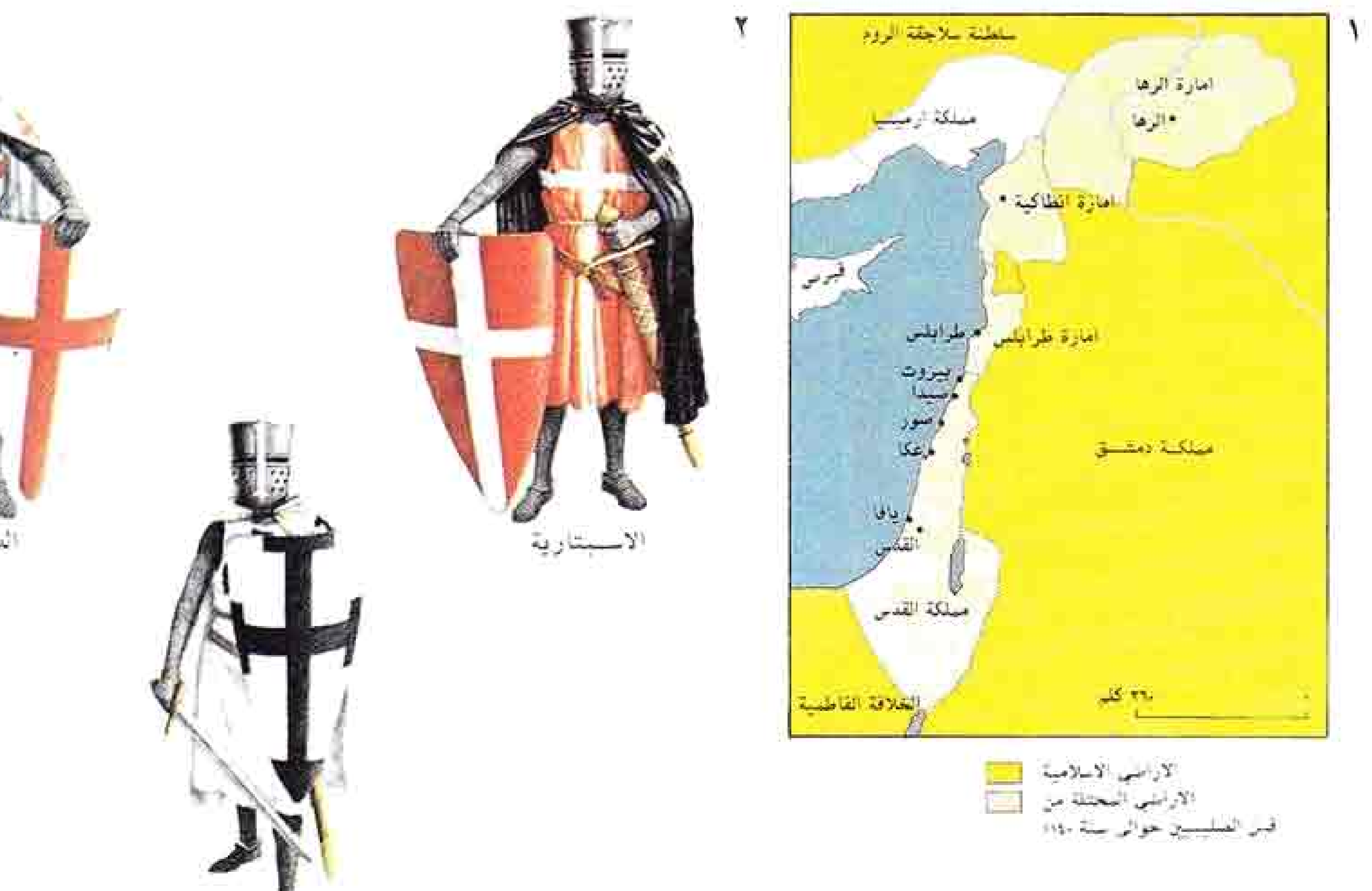
الكنائس الرومانسكية في فرنسا الريفية

مع الزمن ، اندمج هذان النموذجان ، وبعد تجارب كثيرة (لاسيما في فرنسا) ظهر تصميمان رئيسيان ، يتناسب كل منهما في كل منطقة مع ظروفها المحلية . فكنائس الحجاج الكبيرة (١) مثلا اتصفت « بالممشى الكنسي » الذي كان يسمح للحجاج برؤية الذخائر المقدسة المعروضة وراء المذبح الكبير ، أو في سرداب تحته ، دون اقلاق راحة الرهبان اثناء تأديتهم فروض العبادة .

أما الكنائس المرتبطة بنظام الرهبنة الكلونية ، لاسيما في بورجونيا فكانت لها اجزاء ناتئة نصف دائرية متوازية (سلسلة من فجوات نصف دائرية متفاوتة الارتفاع والعمق) تحيط بمكان جوقة الرهبان الرئيسية . وخلافا لتصميم الممشى الكنسي ، ربما كان هذا التصميم من العوامل التي شجعت البنائين على تغطية المساحات الرئيسية بالقباب وذلك لوجود جدران ضخمة تدعم البناء . بقيت انارة هذه المساحات المقببة مشكلة لم تحل بصورة مقبولة ، حتى شاع استعمال الحجر المنحوت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

الحروب الصليبية[١]
« بين سقوط القدس وتحريرها »

يطلق اسم الحروب الصليبية في الاصطلاح الغربي على الحروب التي شنتها اوروبا ضد الشرق الاسلامي مدة قرنين . العرب يسمونها حروب الفرنجة . الواقع انها حروب فرنجية وأوروبية قامت ضد الغرب الاسلامي (الاندلس) وضد الشرق الاسلامي على السواء . بدأ مقدماتها في النصف الثاني من القرن العاشر (٤ هـ) بهجوم بيزنطة على الشام ، (حملات حنا تزيمسكس سنة ٩٧٢ ـ ٩٧٥) وهجوم دول الشمال الاسباني ، مدعومة من البابوية ومن دول الفرنجة ، منذ أواسط القرن الحادي عشر على الاندلس واحتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ ثم احتلال صقلية من قبل النورماند سنة ١٠٩١ . الصليبيات كانت اذن



الاسبتارية

الداوية

فرسان التيوتون

(١) ـ هذه الخريطة للامارات الصليبية الأربع في الشام تمثلها حوالى ١١٢٠ ـ ١١٣٥ وهي في أوسع احتلالها وأوج قوتها . كونتية طرابلس كانت أصغرها وأضعفها . مملكة القدس كانت دينيا وسياسيا ومساحة هي الأولى وهي المشرفة على الامارات الأخرى والقائدة لتحالفاتها وسياساتها رغم المشاكل والتناقضات في كثير من الأحيان . اعتبارا من سنة ١١٤٤ تلغى امارة الرها من الخارطة الصليبية كمرحلة أولى ثم تتقلص الامارات كلها بعد حطين سنة ١١٨٧ فلا يبقى منها سوى الشريط الساحلي من المدن . المرحلة الثالثة تأخرت كثيرا بسبب الخطر المغولي من المشرق فلم تأت الا بعد سنة ١٢٦٠ واستمرت ثلاثين سنة .

(٢) ـ ظهرت على هامش الاحتلال الصليبي للشام مؤستان عسكريتان من الفرسان . عرفت احداهما بالاسبتارية والثانية بالداوية . قامت الأولى في الأصل لضيافة الحجاج الأوروبيين ثم صارت للجرحى في نظام ديري بندكتي . الداوية (فرسان الهيكل) قامت لحماية طريق الحجاج . ثم صارت عسكرية بابوية . المؤسستان صارتا رافدا حربيا للصليبيين وقامتا بالتجارة وامتلاك الحصون والحروب . كان ثمة مؤسسة ثالثة أقل شأنا هي فرسان التيوتون .

حروبا اوروبية ذات ثلاث شعب . رافقتها في المشرق يقظة اسلامية تمثلت في السلاجقة (النصف الأول من القرن ١١) ، وفي المغرب يقظة مقابلة تمثلت في المرابطين (النصف الثاني من القرن ١١) ثم استمر النضال بين الجانبين الى ان سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين سنة ١٤٥٣ وسقطت غرناطة بالمقابل سنة ١٤٩١ .

الصليبيات الفرنجية في المشرق يعتبرونها تقليديا ثماني حملات . الواقع انها لا تحصى كثرة . لأنه لم ينقطع ، وبخاصة في القرن الثاني عشر ، ورود المحاربين الصليبيين بمختلف الطرق الى المشرق الاسلامي .

أسباب الصليبيات والحملة الأولى

الأسباب الدافعة لهذه الحملات ليست واحدة ، لاسيما وقد امتدت قرنين من الزمن . اختلفت خلالهما الأوضاع والقوى والدوافع كل الاختلاف .

٣



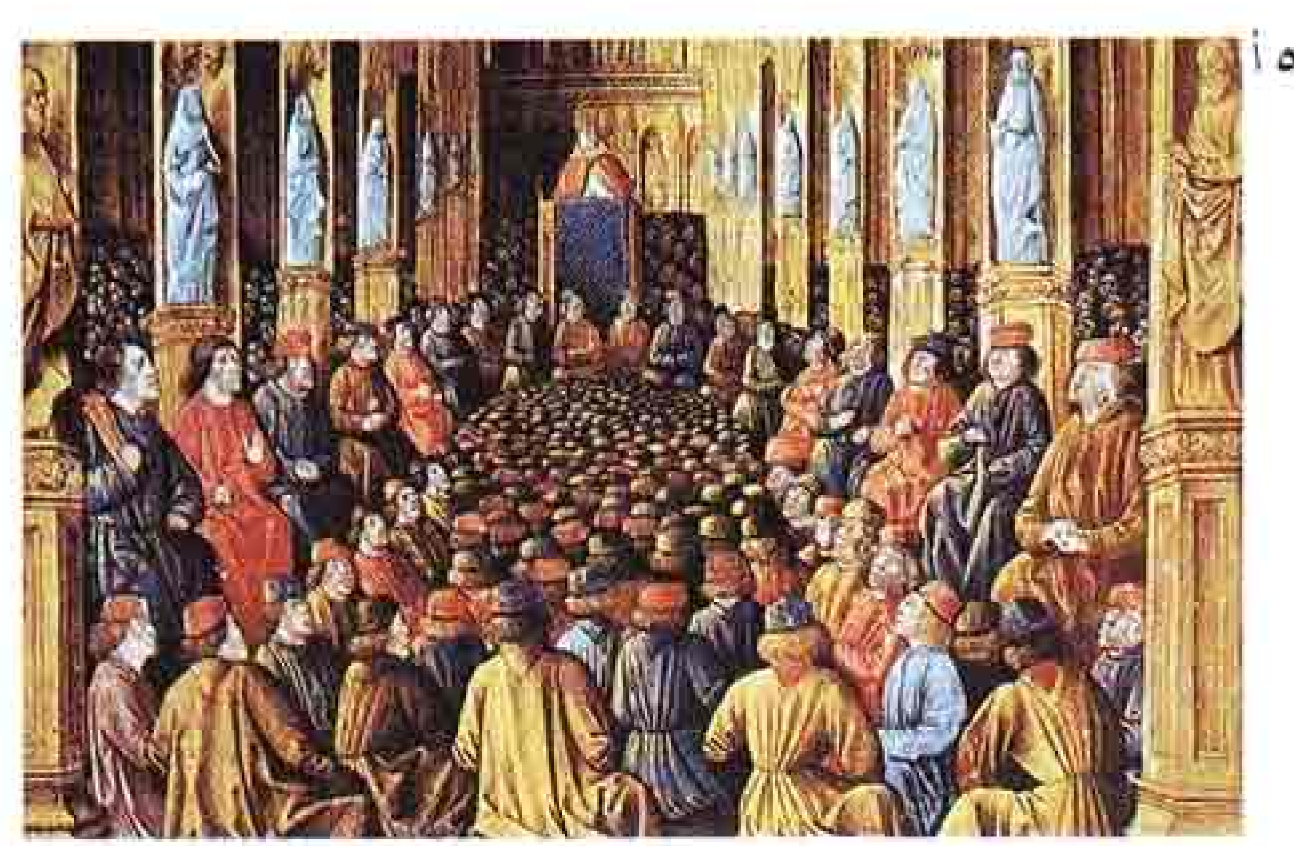
(٣) . ساعد الصليبيين الأوائل على النصر والاستقرار في المشرق ، تمزق القوى السلجوقية في الشام . وردود الفعل الضعيفة وغير الواعية ، التي وقفها كل من سلطان السلاجقة في اصبهان والخليفة الفاطمي في مصر . على انه منذ الأيام الأولى للاحتلال . ظهر في الجانب الاسلامي امراء يحاولون الوقوف للفرنجة . منهم مودود صاحب الموصل (١١١٣). وطغتكين الاتابك في دمشق . (توفي سنة ١١٢٧) . والأمراء الارتقيون في الجزيرة وحلب . بقيت المقاومة محدودة حوالى ثلاثين سنة . حتى ظهر الاتابك زنكي (١٠٨٥ - ١١٤٦) فجمع سنة ١١٢٧ بين حكم الموصل وحلب مكونا محورا قويا للمقاومة والجهاد . ومحاولا في الوقت نفسه . توحيد القوى الاسلامية في الشام . بجعل المحور ثلاثيا . وضم دمشق الى امارته . ففشل مع ان موقعها الاستراتيجي بالنسبة للقدس . والتجاري بالنسبة للشام كله من الخطر بمكان . لكنه ضم عددا من املاكها حتى حمص . واستولى على جانب من امارة انطاكية الفرنجية . ثم استطاع بذلك اعطاء أول جواب على احتلال القدس سنة ١٠٩٩ بفتح الرها والغاء امارتها سنة ١١٤٤ .

بدأت الحملة الأولى سنة ١٠٩٥ وهي ، تحمل في الظاهر الطابع الديني . حمل المحاربون على طول اجسامهم علامة الصليب لتكون حربا مقدسة . لكن اسبابا أخرى أوروبية ودنيوية خالصة كانت هي التي حركتها ، ثم غذتها وقادتها . منها : حركة الاصلاح في الرهبنات . تحقيق السياسة الخارجية للبابوية بالانتصار على الملوك ، وتوحيد شطري الكنيسة . التكاثر السكاني الاوروبي . وتزايد عدد الفرسان الذين لا أرض لهم . توحيد السيوف الاقطاعية المتخاصمة داخليا نحو عدو خارجي (لاقامة السلام الالهي) . أطماع المدن التجارية الايطالية . تكاثر المشاكل الاقتصادية في الغرب من مجاعات وديون . أضيف الى ذلك كله شائعة اضطهاد الحجاج الغربيين لبيت المقدس والخطر السلجوقي . حين صاح البابا اوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) في مجمع

٤ أ



٥ أ



ب



ب



(٤) ـ ملأت الحروب الصليبية بلاد الشام بالقلاع . كانت قلعة الحصن (الاكراد) أهمها . في شمالها سلسلة قلاع منها قلعة المرقب (ب) . بناها العرب سنة ١٠٦٢ ، وبقيت بيد الصليبيين منذ سنة ١١١٧ حتى استردها قلاوون سنة ١٢٨٥ . قلعة مصياف (أ) كانت للاسماعيلية ، الذين كانوا تنظيما عسكريا مرهوبا في الفترة الصليبية ، قام بعدد من الاغتيالات في الجانبين الاسلامي والصليبي .

---

(٥) ـ مجمع كلرمونت (نوفمبر سنة ١٠٩٥) كان نقطة انطلاق الصليبيات (أ) الكلمة التي ختم بها البابا أوربان الثاني خطابه فيه « هكذا أراد الله » كانت صيحة الحرب التي احتلت القدس سنة ١٠٩٩ . وظلت توقدها قرنين على الأقل . رسم الأوروبيون الجواب الاسلامي على هذه الصيحة . في صورة « ب » تمثل صلاح الدين الأيوبي وهو يأخذ خشبة الصليب من غي لوسينيان . ملك القدس في حطين سنة ١١٨٧ .

كليرمونت سنة ١٠٩٥ : هذه ارادة الله (٥) داعيا الى تحرير « القبر المقدس » من أيدي الاسلام وضرب موعدا محددا للقاء المحاربين عند القسطنطينية . استجابت له الكثير من القوى الاوروبية العاطلة عن العمل .

كان المشرق الاسلامي ، في تلك الفترة ، قد عرف صحوة حربية بدخول جموع السلاجقة الترك اراضي الخلافة العباسية ، وحملهم اعباء الحكم والحروب فيها . منذ سنة ١٠٥٥ . أخطر ما فعلوه انهم هزموا الامبراطورية البيزنطية وأسروا امبراطورها في موقعة ملازكرد سنة ١٠٧١ وأخذوا منها معظم آسيا الصغرى ، كما صاروا حكام الشام ، بما فيه القدس ، بعد أن أخذوه من الفاطميين .

عبرت جموع الصليبيين بعد القسطنطينية آسيا الصغرى . هزمت السلاجقة في دوريليوم سنة ١٠٩٧ . وقفت طويلا عند انطاكية حتى احتلتها سنة ١٠٩٨ . ثم انحدرت جنوبا فاحتلت القدس في مجزرة رهيبة (٧٠ ألف قتيل ، يوليو سنة ١٠٩٩) . أسس الصليبيون منذ الأيام الأولى لوصولهم امارة في الرها (في الشمال) ، ثم امارة في انطاكية ، ثم مملكة في القدس . وقبل ان تسقط طرابلس سنة ١١٠٩ أقاموا باسمها الامارة الفرنجية الرابعة (١) .

المقاومة للاحتلال الصليبي بدأت منذ أيامه الأولى (٣) . ظلت في تصاعد وبناء قلاع (٤) حوالى ثلاثين سنة حتى ظهر الأتابك زنكي (١٠٨٥ - ١١٤٦) الذي بدأ توحيد القوى الاسلامية . انجازه الكبير انه استطاع احتلال الرها سنة ١١٤٤ فألغى أول امارة صليبية في المشرق . كان ذلك نقطة التحول في تاريخ الصليبيات وبدء توازن القوى بين الطرفين .

الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩)

كانت ردود الفعل على سقوط الرها عنيفة . اشترك فيها لأول مرة ملوك أوروبيون : ملك فرنسا (لويس السابع ١١٢١ - ١١٨٠) وامبراطور المانيا (١٠٩٣ - ١١٥٢) كونراد الثالث . ملك المانيا سحقت قواته الكثيفة على ايدي السلاجقة (معركة دوريليوم سنة ١١٤٧) . لويس السابع وصل انطاكية بحرا . في اجتماع عكا سنة ١١٤٨ ، تقرر مهاجمة دمشق . كاد الحصار الذي ضرب عليها أن ينجح ، لكن خلافات الملوك حول الغنيمة سببت الهزيمة ، وفشلت الحملة .

توحيد القوى الاسلامية

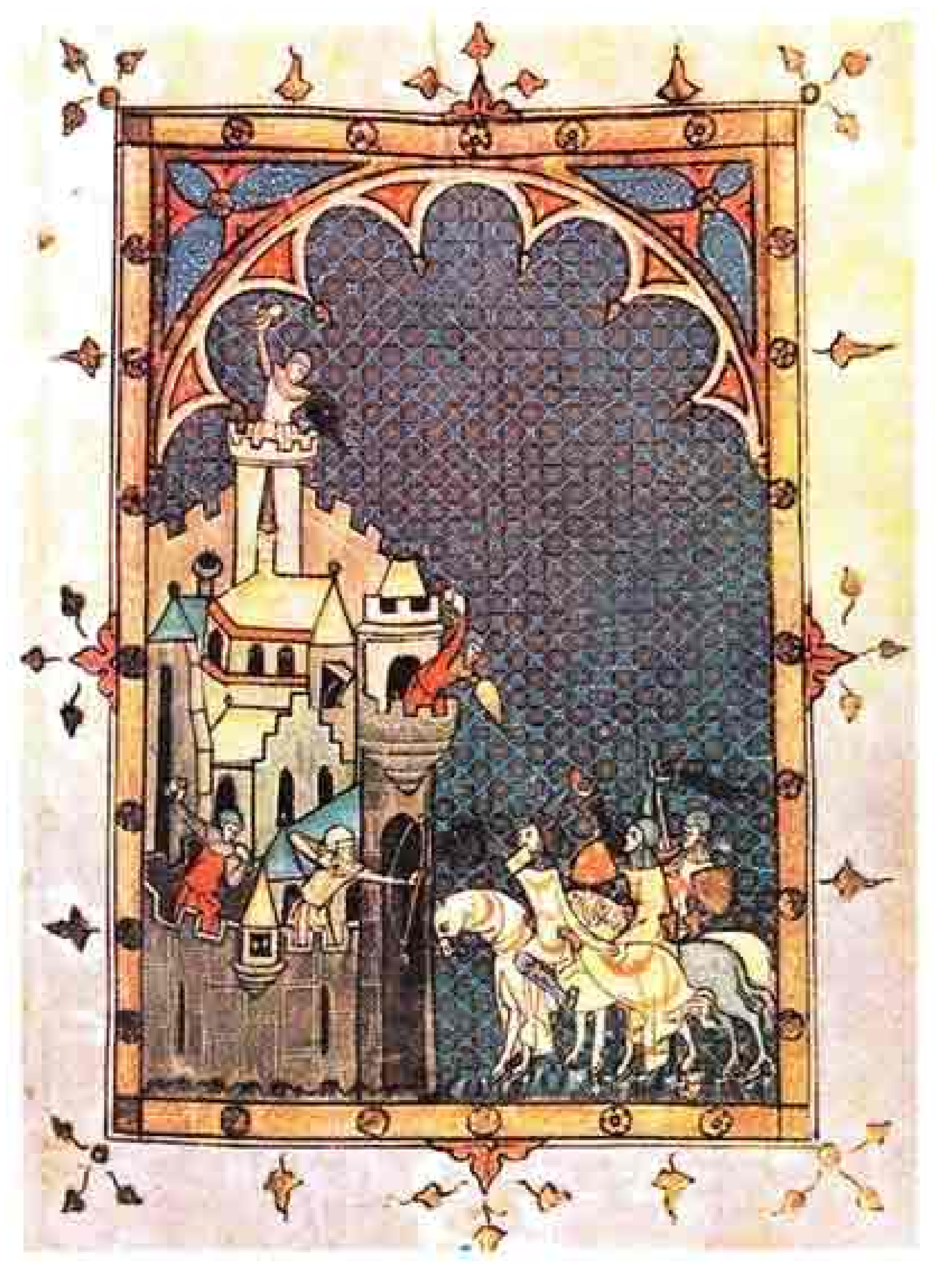
كان زنكي قد توفي ، فقطف الثمرة نور الدين محمود ابنه (١١١٨ - ١١٧٤) الذي استطاع ضم دمشق سنة ١١٥٤ الى مملكته في حلب ، وأن يحقق خطوات هامة في توحيد القوى الاسلامية . كان أهمها انه ربح السباق مع مملكة القدس الصليبية للاستيلاء على مصر . كانت الخلافة الفاطمية هناك في منتهى الضعف ، نتيجة خصومات الوزراء والجيش . استنجد بعضهم بنور الدين وآخرون بالصليبيين . حين تمكن قائده صلاح الدين الايوبي (١١٣٧ - ١١٩٣) من الحكم ألغى الخطبة للخليفة الفاطمي الأخير (العاضد) الذي توفي في تلك الأثناء . (سنة ١١٧١) . أضحت مصر الجناح الغربي لمملكة نور الدين التي صارت تطوق الامارات الصليبية من الشرق في الشام ومن الغرب في مصر . وفاته السريعة بعد ذلك ، تركت لصلاح الدين مهمة تسديد الضربة القاتلة للفرنجة بهذه المملكة الموحدة .

الحروب الصليبية (٢)
« في القرن الثالث عشر »

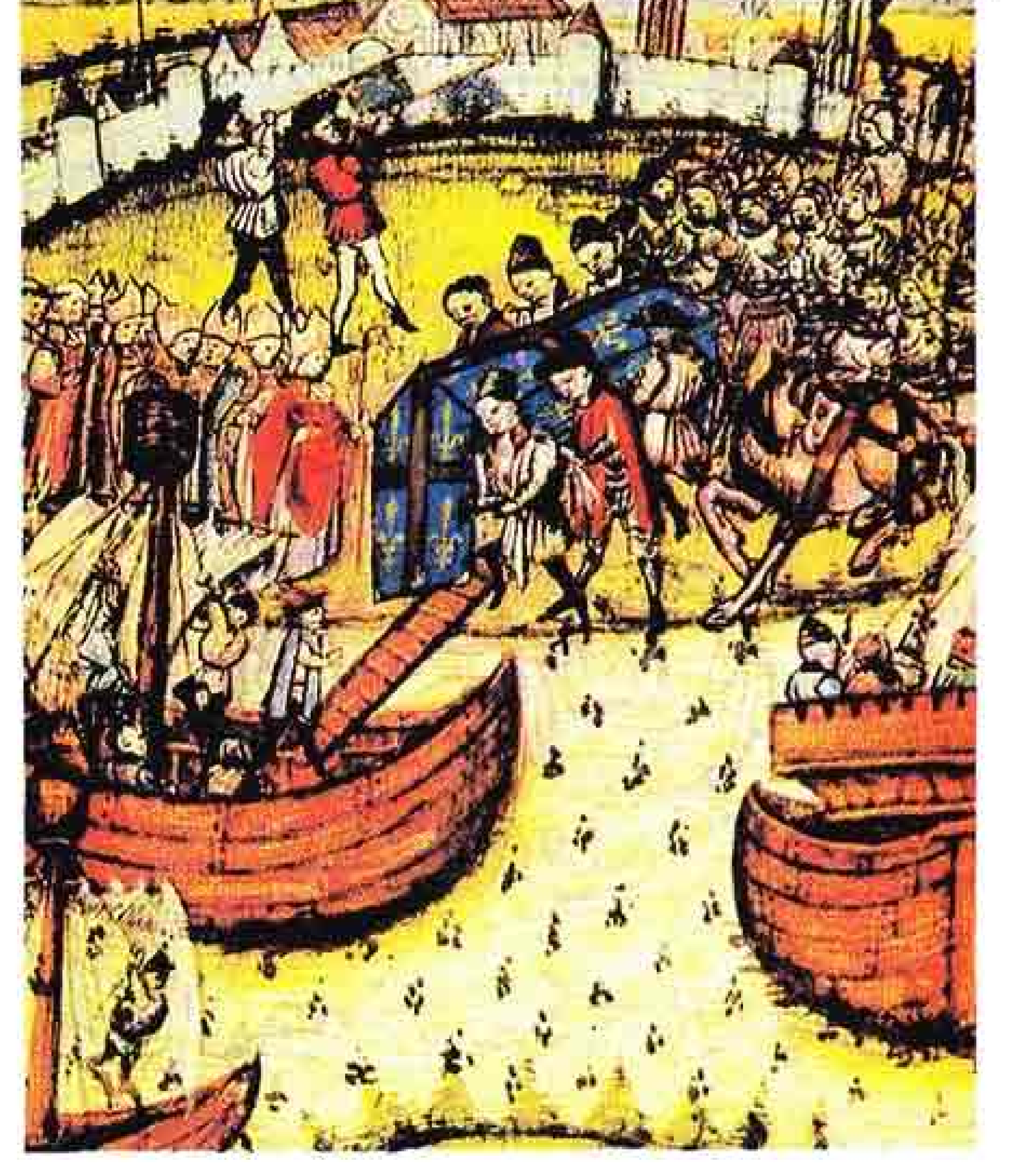
كان صلاح الدين الأيوبي هو الوارث الروحي والعملي لنور الدين . استطاع بالحرب والسياسة ، أن يجمع في يديه قوى المنطقة الاسلامية ، من شمال الجزيرة والشام ، حتى أقاصي مصر واليمن وبرقة .

كان ذلك نذير النهاية لمملكة القدس والامارات الفرنجية الأخرى في طرابلس وانطاكية . عند (حطين) غربي طبرية في (يوليو) سنة ١١٨٧ كانت المعركة الفاصلة بين قواها مجتمعة وقوى صلاح الدين . سحقت القوى الصليبية وأسر ملك القدس مع جمهور أمرائه . في اكتوبر من تلك السنة ، فتحت بيت المقدس (١) . لم تنته سنة ١١٨٧ حتى لم يبق للصليبيين سوى مدينة صور من

١



٢



(١) - بقيت القدس منذ بدء الصليبيات سنة ١٠٩٥ هي المدخل لتحريك القوى العسكرية الغربية ضد الاسلام عدة قرون . كما بقيت صورة احتلال القدس سنة ١٠٩٩ (لا استردادها سنة ١١٨٧) هي الصورة المسيطرة وكانت موضوع عدد كبير من الرسوم . لكن كل عصر كان يصورها من خلال مفاهيمه . في كتاب (انتقام القدس) الذي كتبه جاكوب فان مايرلان سنة ١٣٣٢ (في مكتبة جامعة غورينغن) رسمت القدس على شكل حصن من حصون القرن الرابع عشر في أوروبا .

---

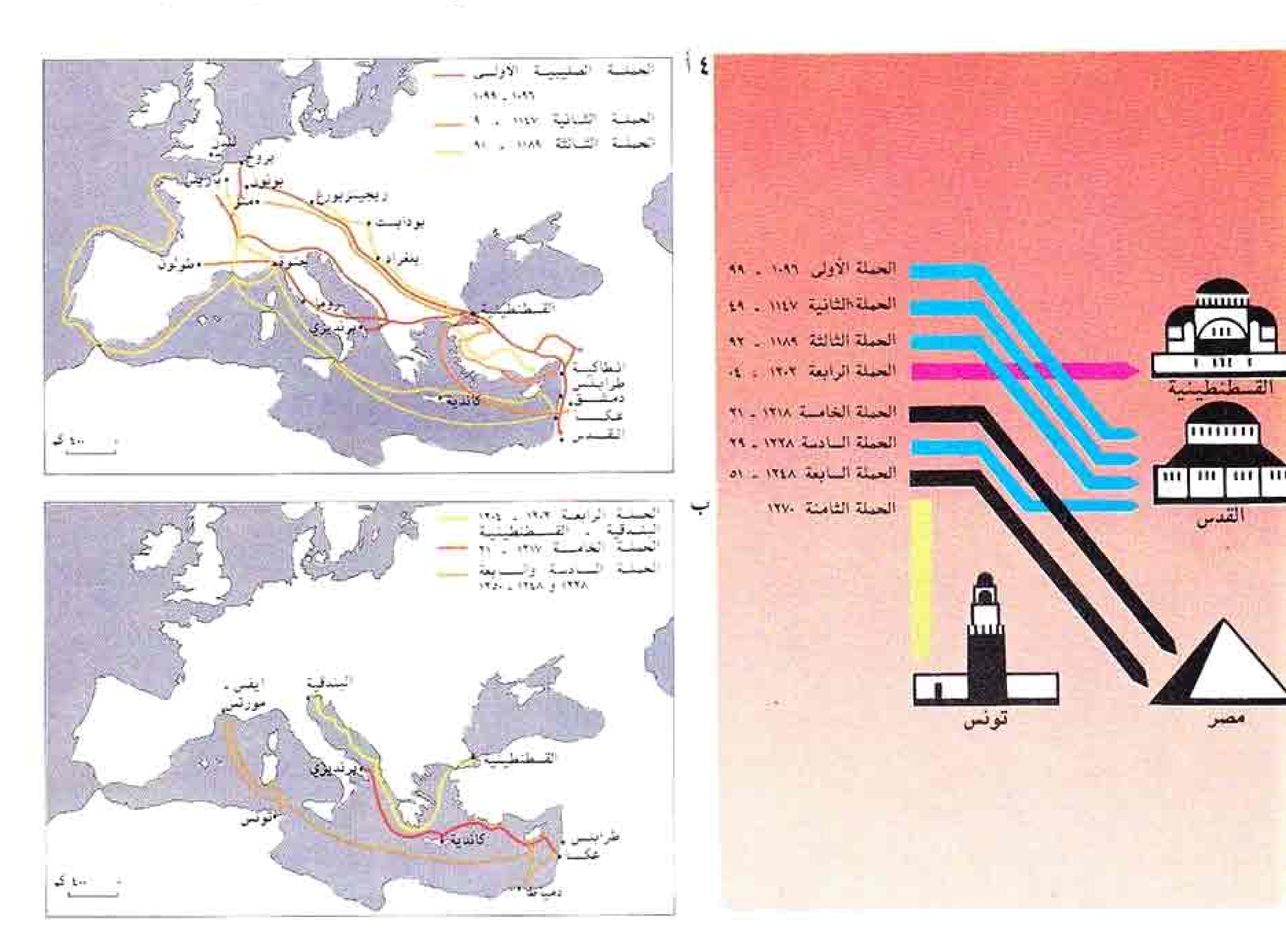
(٢) - يرتبط اسم لويس السابع بالحملة الصليبية الثانية . أما لويس التاسع فيرتبط اسمه بحملتين فاشلتين هما السابعة والثامنة . كان يعيش عيشة الرهبان وتعتريه أحيانا لحظات تشنج وغيبوبة . أسر في الحملة السابعة التي استعد لها أربع سنوات . مع ذلك عاد الى عكا حين أطلق من الأسر سنة ١٢٥٠ ليدعو من جديد الى الصليبيات . عاود المحاولة سنة ١٢٦٩ فقاد ألف فارس و ٣٠ ألف محارب في ٥٥ سفينة . فافترس الطاعون الحملة عند قرطاجة كما افترس لويس التاسع نفسه سنة ١٢٧٠ . نقل تابوته الى المركب (أ) مصور عن مخطوط (شاتورو) .

مملكة القدس . ومدينتي طرابلس وانطاكية مع بعض الحصون المجاورة .

الحملة الثالثة (١١٨٩ ـ ١١٩٢)

اهتزت أوروبا كلها لهذه العملية الكاسحة . المعاملة الانسانية التي عامل بها صلاح الدين أسراه والطلقاء (٥) ، لم تخفف من الغضب الذي تبلور في شكل حملة حربية دعيت بالحملة الثالثة . اشترك فيها امبراطور المانيا (فريدريك بربارسا ١١٢٣ ـ ١١٩٠) وملك انجلترا (ريتشارد قلب الاسد ١١٥٧ ـ ١١٩٩) وملك فرنسا (فيليب اوغسطس ١١٦٥ ـ ١٢٢٣) .

الجيش الالماني انتهى في آسيا الصغرى ، بالجوع والعطش . لم ينج منه سوى ألف رجل ، وغرق الامبراطور في نهر السالف بأرمينيا . الملكان الانجليزي والفرنسي وصلا بحرا الى عكا ، بعد خصومات بينهما . لحقا



(٣) ـ رغم ما كانت تعلنه الصليبيات من تحرير القبر المقدس ، فان أربعا من الحملات الصليبية (التي تعتبر ثمانيا) قد توجهت الى غيرها . اثنتان الى مصر ، وواحدة الى القسطنطينية ، وأخرى الى تونس . كانت الصليبيات عنوانا لمطامع دنيوية لبست الرداء الديني .

(٤) ـ تحركت القوى الصليبية من أوروبا الى الشرق على كل الطرق المتاحة في البر والبحر . كثير منها سحق على الطرقات الأوروبية نفسها ، كما جرى في الحملة الأولى (أ) وحملة الرعاة مثلا ، وكثير منها استغل لأغراض أخرى كما في الحملة الرابعة (ب) .

بالقوى الصليبية التي تجمعت فيها يقودها ملك القدس (بعد ان أطلقه صلاح الدين من الأسر) . نجم عن هذه الحملة دعم امارتي انطاكية وطرابلس ، واسترداد الفرنج بعض مدن الساحل الفلسطيني من صور حتى عسقلان ، بعد ان كان الملك الفرنسي قد انسحب الى بلاده . فشلت الحملة في مهمتها الاصلية وهي استرداد القدس . لكن أهم نتائجها ان قيادة الصليبيات أفلتت من أيدي البابوية . الحملات التالية (٤) كانت سياسية ـ اقتصادية ، وليس اللون الديني فيها سوى مظلة دعائية . توفي صلاح الدين سنة ١١٩٣ وخلفه ، بعد فترة من النزاع ، أخوه الملك العادل (حكم ١١٩٦ ـ ١٢١٨) الذي استمرت الدولة الايوبية به . كما توزعتها الاسرة حوالى ستين سنة في مصر (حتى سنة ١٢٥٠) ، وسبعين أو اكثر في الشام (١٢٦٠) وفي اليمن . الايوبيون هم الذين واجهوا الحملات



٥ (٥) ـ اسم صلاح الدين يحمل لدى الغربيين مرارتين ، الأولى استرداده القدس وانهاؤه المملكة الصليبية فيها ، والثانية ، سمعته الرائعة بالتسامح والفروسية . صار ، وهو العدو ، المثل الأعلى لعدد كبير من فرسان الفرنجة . حاول بطريق القدس وهو يستثير الناس في أوروبا (بصورة للقبر المقدس يدنسه المسلمون) أن يشوه سمعة صلاح الدين ، ولكن الوقائع التي رواها العائدون من الشرق كذبت الدعاية الزائفة . بدأ صلاح الدين (يوسف بن أيوب ١١٣٧ ـ ١١٩٣) الاهتمام بالحرب والسياسة في الثامنة والعشرين من العمر حين أرسله نور الدين زنكي مع الحملات الى مصر ، ثم صار الرجل الأول في الشام ومصر بعد وفاة نور الدين ، شملت سلطنته ما بين برقة وارمينية واليمن . بنى عددا من الحصون والمدارس والبيمارستانات . امتد حكمه لمصر ٢٤ سنة وللشام ١٩ . توفي بدمشق . مخطوط لاتيني (من القرن ١٣) رسم مندوبيه وهم يفاوضون الأسرى على الفداء .

(٦) ـ انحراف الحملات الصليبية عن الغايات الدينية المعلنة كان مما يفضح مطامعها الدنيوية . بعد فشل الحملتين الثالثة والخامسة في استرداد القدس شاع في أوروبا أنه لا ينقذ القبر المقدس الا الأطفال الأبرياء . تشكلت حملة من مئات الألوف منهم . زحفوا من المانيا وفرنسا الى سواحل المتوسط سنة ١٢١٨ ـ ١٢٢١ . تبرعت أساطيل المدن الايطالية بايصالهم فانتهت بهم الى أسواق النخاسة . حملة الرعاة التي تشكلت في المجر بعد فشل الحملة السابعة سنة ١٢٥٠ . سحقت في قلب أوروبا نفسها . أهل البندقية كانوا أكثر صراحة حين حولوا الحملة الرابعة لفتح بيزنطة واحتلال مركزها التجاري ونهب ثرواتها . ما يزال في ساحة سان ماركو الى اليوم . تلك الخيول البرونزية الأربعة التي نهبوها منها . ٦

الصليبية التي توجهت الى المشرق في هذه الفترة . بعضها انحرف الى وجهة أخرى (٣).

الحملتان الرابعة والخامسة

الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤) كان هدفها في الأصل مصر . تبرعت البندقية بأسطولها لنقلها شريطة فتح القسطنطينية أولا . كان الهدف الحقيقي احتلال مركزها التجاري . بفتحها سنة ١٢٠٤ انتهت الحملة (٦) .

كانت الحملة الخامسة (١٢١٨ ـ ١٢٢١) آخر حملة للبابوية نشاط فيها . اجتمعت جيوشها من وسط أوروبا خاصة في عكا . قرر مجلس الحرب الهجوم على مصر والاستيلاء على تجارتها . احتلوا دمياط (آخر سنة ١٢١٩) . حاول الملك الكامل (حكم ١٢١٨ ـ ١٢٣٨) المساومة على التهادن بسبب ظهور الخطر المغولي في الشرق . لكن الحملة زحفت نحو القاهرة . فأغرق المسلمون الاراضي بمياه النيل ، وكان في الفيضان ، فغرق الجيش الصليبي في الوحول . واستسلم مقابل الانسحاب .

الحملتان السادسة والسابعة

كانت السادسة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩) حملة لعنتها البابوية باعلان الحرمان لصاحبها . مع ذلك أحرزت من النجاح قدر ما أحرزت الحملة الخامسة من الفشل . صاحبها فريدريك الثاني . امبراطور المانيا وصقلية ، استطاع باستغلال المنافسات الأيوبية أن يأخذ القدس من الملك الكامل بمعاهدة ١٢٢٩ ويتوج نفسه فيها . ظلت المدينة للصليبيين ١٥ سنة (١٢٢٩ ـ ١٢٤٤) . حتى استردها المسلمون ثانية .

أما الحملة السابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٠) فكانت فرنسية خالصة . قادها لويس التاسع ضد مصر ايضا . كان طابعها استعماريا اقتصاديا . قام الملك بالاتصال مع المغول للضغط على الشرق الاسلامي من الجانبين . سقطت دمياط بيده سنة ١٢٤٩ . لكنه هزم عند المنصورة ووقع في الأسر . دفع ثمن خلاصه الجلاء مع ٨٠٠ ألف قطعة ذهبية .

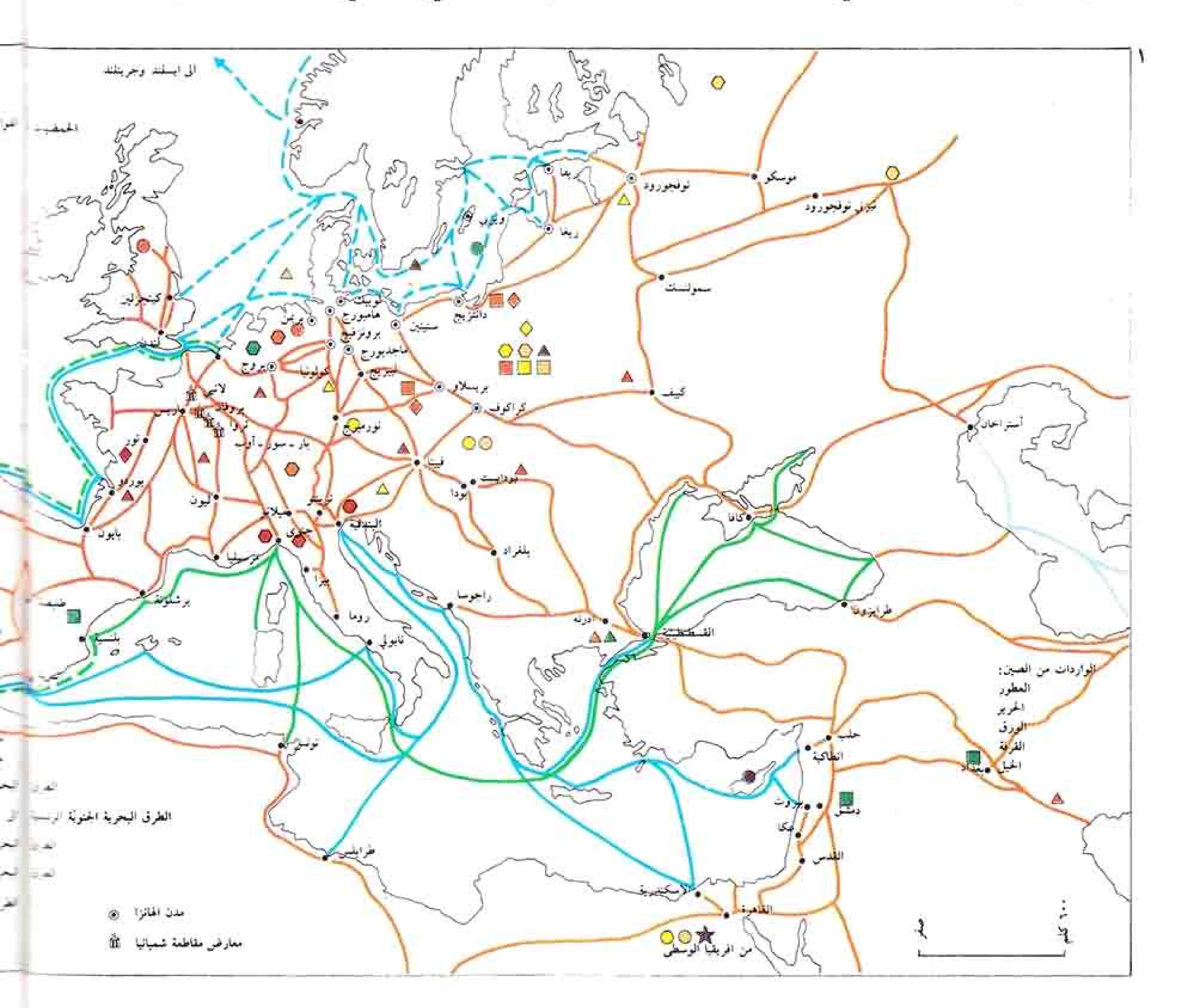
من الجهة الاسلامية جرى انقلابان بعد ذلك : توفي الملك الصالح أيوب أثناء المعركة فقاد مماليكه الحرب . وبدأت بهم الدولة المملوكية . من جهة أخرى زحف المغول عبر المشرق الاسلامي فسقطت بغداد بأيديهم سنة (١٢٥٨) . هزيمة هؤلاء أمام المماليك (في عين جالوت سنة ١٢٦٠) حررت المماليك من خطرهم ، فانصرفوا لتصفية الصليبيين . الملك الظاهر بيبرس (حكم ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) استرد يافا وانطاكية (سنة ١٢٦٨) وقلعة الحصن وغيرها . بينما كان لويس التاسع ، يهاجم الحفصيين في تونس في الحملة التي عرفت بالحملة الثامنة سنة ١٢٧٠ . وقد توفي هناك وفشلت الحملة (٢) .

تمت تصفية الوجود الصليبي في الشام بعد ذلك على يد السلطان قلاوون (حكم ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) الذي استولى على طرابلس . ثم على يد ابنه خليل الذي استولى أخيرا على عكا وأخرج منها سنة ١٢٩١ آخر القوى الصليبية في الشام . رحلت تلك القوى الى قبرص ، لتتابع عبثا العمل الصليبي قرنين آخرين .

كانت الصليبيات مناسبة مأسوية للقاء الشرق والغرب ، ولكنها سمحت لأوروبا أن تفيد كل الفائدة من الحضارة الاسلامية .

اقتصاد أوروبا الغربيـة «بين سنتي ٨٠٠-١٢٥٠م»

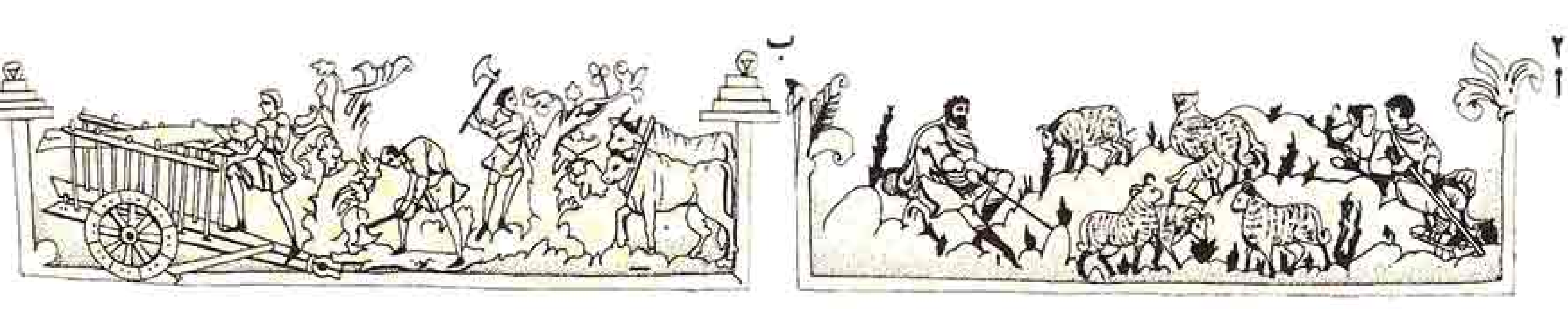
كانت أوروبا الغربية ، في القرنين التاسع والعاشر ، أشبه بالنسيب الفقير بالنسبة الى العالمين العربي والبيزنطي . كانت فقيرة في استثمار الموارد الطبيعية ، وفي المهارة التقنية ، والتماسك السياسي ، والانجاز الثقافي . وكانت تهددها ، بجانب ذلك ، جحافل المجر المندفعين من الشرق ، وغزوات متواصلة من جانب الفايكنغ الزاحفين من البلاد الاسكانديناڤية نحو الجنوب . الوحدة السياسية الظاهرية التي أقامتها الامبراطورية الكارولنجية (شارلمان وخلفاؤه) حركت الركود الاقتصادي على نحو محدود . حاول شارلمان أن يوجد عملة موحدة لامبراطوريته بديناره الفضي (بني) ، بدل المقايضة



الشائعة (٣) ، وشجع التجارة بتخفيض الضرائب الداخلية ، وأدخل نظاما عاما من الموازين والمقاييس . لكن تكرار أوامره يدل على عدم فاعليتها وتطبيقها .

تطور الزراعة

كانت الوحدة الفعلية للانتاج في أوروبا الغربية عامة هي الملكية الاقطاعية الكبيرة على النهج الروماني الموروث . لكن تدهور المواصلات دفعها الى نظام الاكتفاء الذاتي بشكل متزايد . في الفترة ما بين عامي ١٠٠٠ و ١٢٥٠ انتقل مركز الاقتصاد الأوروبي الى الشمال . جاءت الثروة مع الزراعة المتسارعة النمو في السهل الأوروبي الشمالي الممتد بين نهري اللوار والبا . كان هذا السهل أيام الرومان أحراجا قليلة السكان . لكن التكاثر السكاني أدى الى التوسع في قطع غاباتها ، واستصلاح أرضها ، وانشاء القرى والطرق فيها



ت

(١) - زاد عدد الطرق التجارية ، برا وبحرا خلال اواسط العصور الوسطى . فبعد ان كانت السبل النهرية هي اكثر الطرق استخداما للنقل بالجملة ، في أوائل العصور الوسطى ، أصبح النقل البري أسهل بكثير في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، لأن الطرق اصبحت أكثر سلامة من جهة ، ومن جهة ثانية لتزايد استعمال الحيوانات في أعمال النقل مع حلول عام ١٢٥٠ ، أصبحت حرفة المكارين ، الذين كانوا في الغالب من سكان جبال الألب العليا ، حلقة أساسية في التجارة الايطالية مع أوروبا الشمالية . كانت الطرق بالدرجة الأولى تصل مراكز الاستيراد ، مثل مدن ايطاليا ومدن الهانزا ، بمراكز الانتاج والمبادلة ، كمعارض أوروبا الشمالية ومدن الفلاندرز . لكن صلات أخرى اقيمت مع الطرق الاسيوية القديمة عبر بولونيا وهنجاريا . اما المسالك البحرية ، فقد نمت ، بصورة مثيرة ، خلال القرن الثاني عشر . كانت سفن البحر المتوسط في هذه الحقبة صغيرة قلما يزيد وزنها عن ١٠٠ طن ، وكانت تبحر عادة في مجموعات ، وعلى متنها تجار نشيطون من البندقية وبيزا وجنوا . وتتجه نحو معظم موانىء المتوسط . نشأت في بعض مدن الشرق الأدنى أحياء ايطالية بحلول عام ١١١٠ ، واستقر تجار البندقية فيما بعد في الاسكندرية ، وانتهت محاولاتهم للسيطرة على تجارة القسطنطينية بغزو تلك المدينة عام ١٢٠٤ ، مستغلين بذلك تسامح الأنظمة المحلية . كان للبحار الشمالية تقليدها الخاص بالفايكينج في ميدان الملاحة . وفي القرن الثاني عشر ، آلت تجارة الفراء ، التي كان الاسكندينافيون ينقلونها أصلا من نوفوجورود حتى بحر البلطيق ، الى تجار ينتمون الى المدن الالمانية الشمالية التي سرعان ما عمد تجارها الى تنظيم انفسهم في حلف دفاعي اسمه « الهانزا » .

---

(٢) - التقاويم المصورة للنشاطات الموسمية تعطي أفضل امثلة بصرية عن الملابس وأساليب الزراعة في العصور الوسطى . يظهر ، في الصورة « مايو » راعيا قطيعه (أ) ، والصورة « يونيو » عملية قطع الخشب (ب) ، والصورة « يوليو » عملية جمع التبن للعلف (ت) .

---

(٢). قامت بذلك أسر مستنفذة، ومجموعات من الفلاحين أو من أعضاء الرهبنات. كان التجفيف التدريجي لمستنقعات لينكو لانشير، وفلاندر وحوض البو من أبرز انجازات هذه القرون. فقد زادت موارد الثروة في أوروبا، وتحول البحر المتوسط الى منطقة حدودية، واتجهت مدن الجنوب في أوروبا الى النشاط التجاري المتزايد تلبية لحاجات الشمال النامي.

تحسنت في الوقت نفسه التقنية الزراعية تدريجيا، نتيجة ادخال المحاريث الثقيلة المركبة على عجلات في حراثة الأراضي الشمالية، وظهور المسحاة ومدراس الحنطة اليدوي، وشد حيوانات الجر في صفوف، وتطوير الرحى المائية لطحن الحبوب (شاعت تدريجيا منذ سنة ١٠٠٠ م). وتنظيم دورة المحاصيل الفصلية، وشيوع حدو الخيل، والسروج ذات الأطواق مما ساعد النقل.

٣ أ ب ت ث



٤



(٣) ـ كانت مشاكل النقود في العصور الوسطى تقسم الى نوعين: المحافظة على عملة مقبولة لدى جميع الشركاء المتعاملين، والقيام بالمبادلة، عوضا عن المقايضة، بواسطة عملة مقبولة. قطعة نقد كلوفيس الثاني (أ) مثال على المحاولة الميروفنجية التي بذلت للمحافظة على صيغة تضفي أهمية على العملة الرومانية. لكنها أدت الى تخفيض في تصميم هذه العملة وعيارها المعدني. كانت النقود الشبيهة «بصولد» (ب) «لويس التقي» الذهبي (٧٧٨ ـ ٨٤٠) تسك في عدة مدن، ولكن تحت اشراف الملك. لم يكن بوسع أي نظام اقتصادي غربي، في هذه الحقبة، أن يتحمل عملات ثابتة كالنوميسما البيزنطية الجوستينيانية (ج) أو الدينار الذهبي العربي (د). بقيت هاتان العملتان النقد الرئيسي، المتداول في التجارة الدولية، في العصور الوسطى، الى أن سك «الفلورين» الفلورنسي في القرن الرابع عشر.

(٤) ـ كانت أمالفي، بفضل مينائها الطبيعي، احدى الحلقات التجارية الرئيسية، بين العالمين الغربي والبيزنطي. قبل ظهور البندقية، عادت الحياة الى التجارة الغربية في المتوسط، بفضل المدن العربية في شمال افريقيا والأندلس والمدن الايطالية ،مثل أمالفي ونابولي.

نمو المدن

ارتكز نمو المدن الأوروبية ، حتى القرن العاشر ، على المدن الرومانية القديمة في ايطاليا والجنوب ، وعلى الثكنات والقصور الملكية العائدة للكارولنجيين وأسلافهم الميروفانجيين في الشمال . هكذا نمت مدن آخن (ايكس لاشابيل) ، وورمس ، فرانكفورت ، راتيسبون ، نيغميغن . ونشأت كذلك مدن أخرى ، وضواح تجارية لمدن قديمة ، مثل باريس التي كانت أهم مراكز انتاج وتبادل السلع المتوفرة للبيع . لكن التطور الزراعي والتكاثر السكاني ، أديا الى تصاعد شأن المدن ونموها بوصفها مراكز للحرف ، ولتبادل الانتاج . معظم المدن الجديدة ، انما نشأ لسد الحاجات المحلية ، فهي اما حصون قامت عندها الأسواق الزراعية أو موانىء لاستيراد البضائع وتصديرها . ومع تزايد استيطان الأرض واستصلاحها ، كان يزداد اتساع المدن وعددها . ويوحي عددها في الفلاندر وشمال شرقي فرنسا بوفرة أعداد السكان في هذه المناطق الزراعية ، وتزايد حاجاتهم الاستهلاكية . أدى التخصص الحرفي في المدن الى نشوء نقابات مستقلة . أول نقابة معروفة للتجار ، وهي نقابة (تييل) في هولندا ظهرت قبل سنة ١٠٠٠ . الا ان نقابة التجار ، كأداة تنظيم الجماعة التجارية لم تصبح شائعة حتى القرن الثاني عشر . مع ذلك ، فقد ازدهرت المدن نتيجة لازدياد حجم السوق الاستهلاكية التي أخذت تزداد بوضوح مع حلول القرن الثالث عشر .

التوسع التجاري

التجارة الأوروبية عبر البحر كانت ، حتى القرن الثامن ، تعتمد بصورة اساسية على بيزنطة التي تسيطر على الموانىء الجنوبية الرئيسية بأوروبا . وقد أوقفت حركة التجارة في البحر المتوسط بمنعها التجارة العالمية الا مع طرابزون على البحر الأسود ، ومع القسطنطينية ، وذلك للتضييق على التجارة الاسلامية . أفقر الاحتكار البيزنطي أوروبا حتى فقدت منها العملة الذهبية تماما في القرن الثامن ، وتحولت مراكز التجارة ، من مقاطعات البروفانس واللانجدوك ، الى المواقع الزراعية الجديدة في شمال أوروبا . قيام الدول الاسلامية في شمال افريقيا والاندلس هو الذي أوجد لأوروبا أبوابا جديدة للتجارة والمبادلة . وأخذ ذهب افريقيا يصلها منذ القرن التاسع . كما تحركت بضائعها من الفرو والخشب والرقيق نحو البلاد الاسلامية . وبدأ انتعاش الموانىء الايطالية والفرنجية على البحر المتوسط ، وبرزت أمالفي (٤) ، جنوة ، بيزا وخاصة البندقية .

مع حلول القرن ١١ كانت أوروبا قد أنشأت علاقات متقطعة مع الشرق عن طريق بحر البلطيق وروسيا . كما كانت الموانىء الايطالية قد وطدت صلاتها مع مصر (١) الفاطمية . تزايد غناها التجاري مع زيادة الطلب على بضائع الشرق في المناطق الشمالية ، جعلها ذات أساطيل قوية وأطماع واسعة . وكان ذلك أحد أسباب الحروب الصليبية . مستعمرات الصليبيين ودويلاتهم في شواطىء الشام زادت من استيراد الحرير والتوابل ، وفتحت الباب لاقتباس التقنات المتطورة من العالم الاسلامي . في أواسط القرن ١٣ كانت المدن التجارية الايطالية وثرواتها أحد أعمدة الاقتصاد الأوروبي .

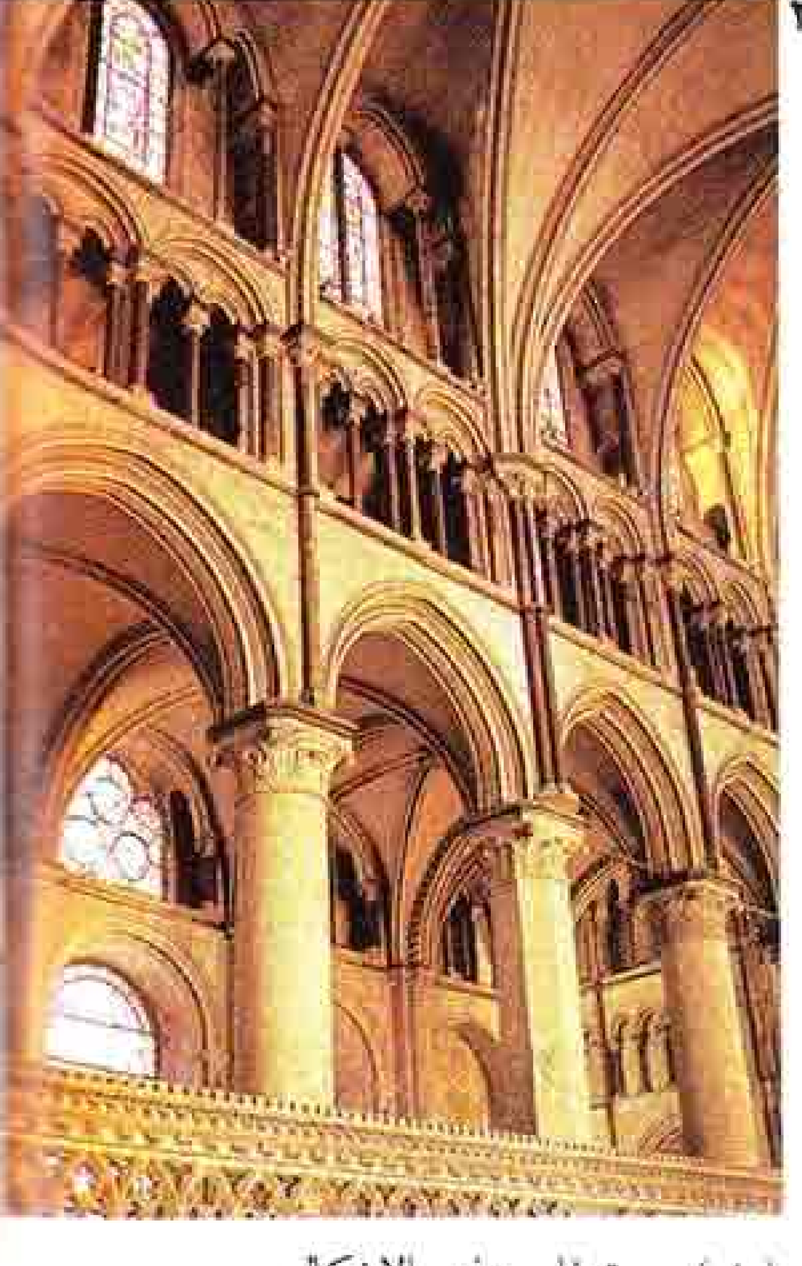
الفن القوطي
« بين ١١٤٠ - ١٢٠٠م »

استعمل تعبير « القوطي » اثناء النهضة الايطالية للدلالة على طراز معماري معيّن كان بربريا لدرجة لم يكن من الممكن معها اسناده الا الى القبائل القوطية ، التي حطمت روما الكلاسيكية ، في القرن الخامس . لكن هذا التعبير فقد دلالته السيئة تدريجيا . أما اطلاقه على النحت وفنون الرسم ، فهو ظاهرة حديثة نسبيا .

بداية الفن القوطي

اثناء الحقبة القوطية المبكرة ، كانت المشاريع الفنية الرئيسية ، كما كانت في اوائل العصور الوسطى ، ترتكز على بناء الأديرة والكاتدرائيات الكبيرة وتزيينها . لم





(١) ـ كاتدرائية « سينلس » هي أقدم كاتدرائية فرنسية ما زالت قائمة (شرع ببنائها عام ١١٥٣) ، وقد شيدت على نموذج سان دينيس . يستعمل فيها العقد المضلع المسنن على نطاق شامل . تسنده في معظمه ، أعمدة ذات تيجان مزخرفة بمنحوتات الازهار . هذا المنظر المتجه نحو الشمال الشرقي هو منظر المطاف الدائري ، ويظهر معه الى اليمين البعيد احد المعابد النصف دائرية .

(٢) ـ بقيت كاتدرائية لاون دون تغيير يذكر ، اذا استثنينا المطاف الدائري الذي استبدل به ، في اوائل القرن الثالث عشر ، طرف شرقي منبسط ، تزوده بالنور نافذة وردية . في البهو ، جرت محاولة صغيرة لتوسيع تناوب العقود ، باتجاه الأسفل . وذلك باضافة شعاع اضافي الى واحد من كل عمودين في الرواق .

(٣) ـ ظهر شكل مبسّط للعمارة القوطية بحلول عام ١١٦٠ في أديرة شمالي انجلترا السيسترسية . الا ان اقتباس الفن القوطي بكامله بدأ عند اعادة بناء مذبح كانتربري ، حوالى عام ١١٧٥ ، على يد المعمار الفرنسي وليم السانسي . اتصف تصميم هذا المذبح بعدة ملامح لم تكن مألوفة في فرنسا . لاسيما الأعمدة الرخامية السوداء التي شاعت في الفن القوطي الانجليزي ، اثناء القرن التالي .

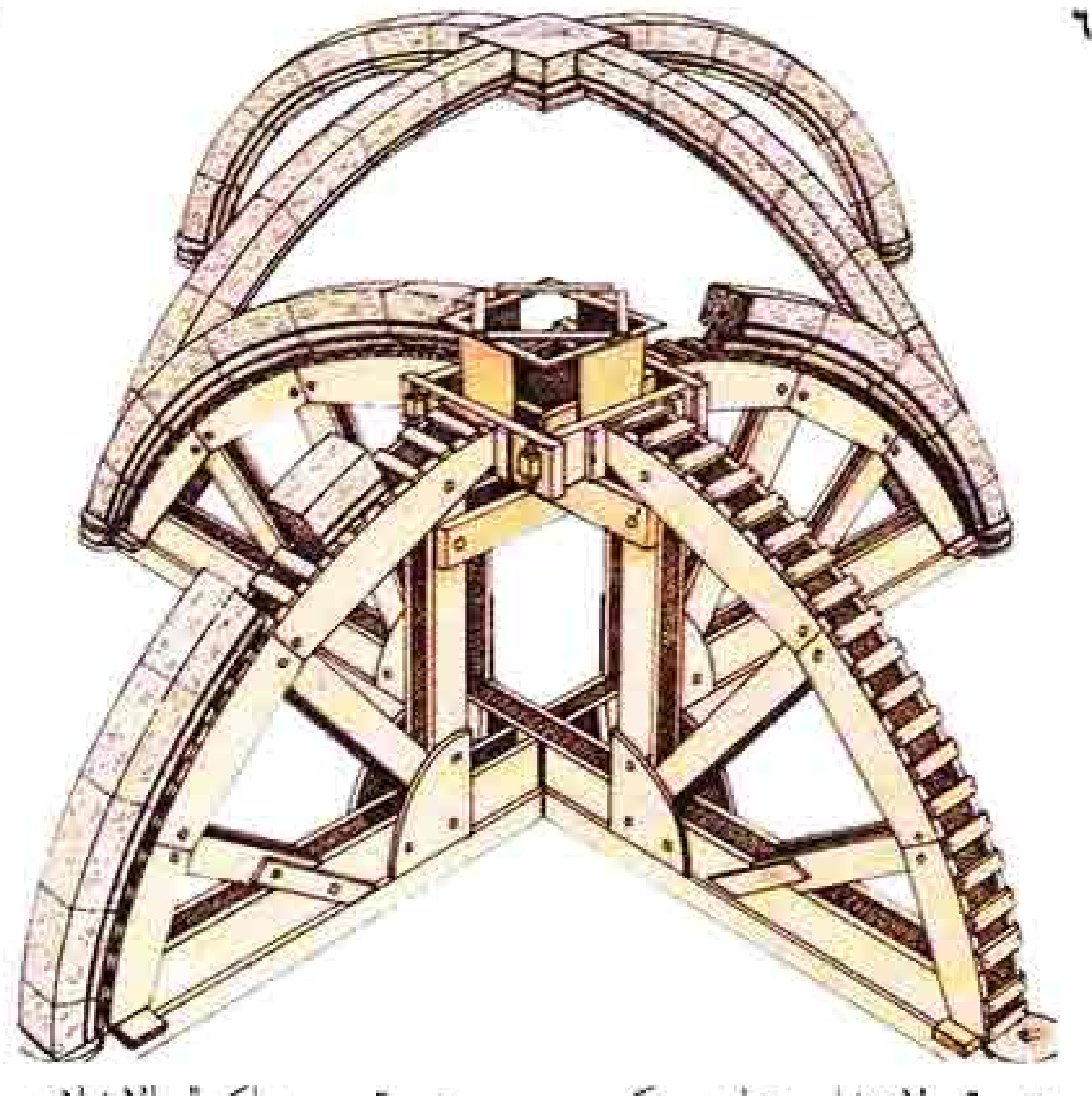
(٤) ـ تمثل هذه الاشكال الظاهرة على عضائد الباب في كاتدرائية شارتر (البوابة الغربية الوسطى) شخصيات من العهد القديم ، على الأرجح . يتم شكل المسيح الجالس فوق البوابة ، عن نبل هادىء ، يختلف عن اشكال المسيح ـ الديّان المرعبة ، التي تظهر على كثير من البوابات الرومانسكية . وتنعكس فيها روح العصر الدينيّة ، والمثل الروحية الشديدة الجد .

يستحدث البناؤون القوطيون الأوائل أشكال كنائس جديدة ، الا انهم أدخلوا تعديلات كبيرة على الطراز المعماري السائد حينئذ وعلى تقنية البناء ، مما يسمح بالقول ان الأسلوب القوطي كان ، من بين الانماط المعمارية السابقة للقرن العشرين ، أكثرها استقلالا عن التقاليد الكلاسيكية للعصور القديمة (١) .

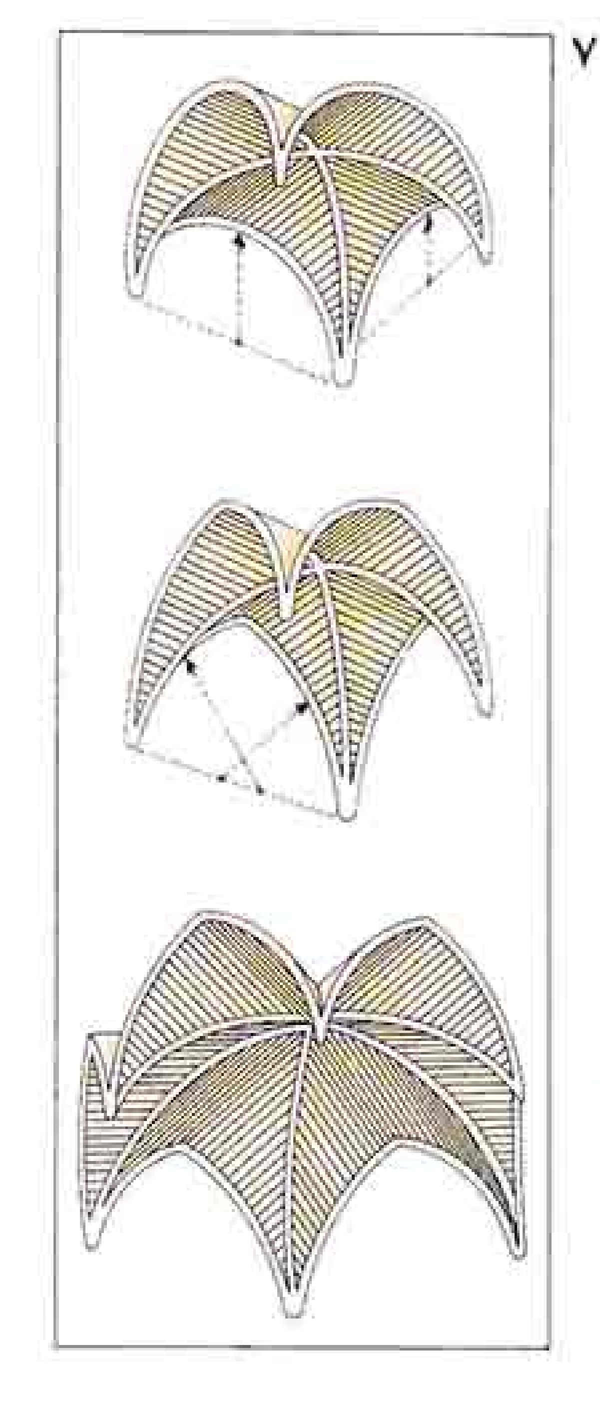
كان فن العمارة القوطية ، طيلة الثلاثين سنة الأولى لظهوره ، تطورا فرنسيا محضا ، الا أنه انتشر في أواخر القرن الثاني عشر خارج فرنسا . وفي حوالى عام ١٢٥٠ حل محل الأساليب الرومانسكية المحلية ، في معظم مناطق أوروبا الغربية .

كان جناح الجوقة في دير سان دينيس ، الذي شرع ببنائه عام ١١٤٠ بالقرب من باريس ، بناء تتساوى فيه الاصالة الفائقة ، مع الاتساق التام في التنفيذ . الا ان

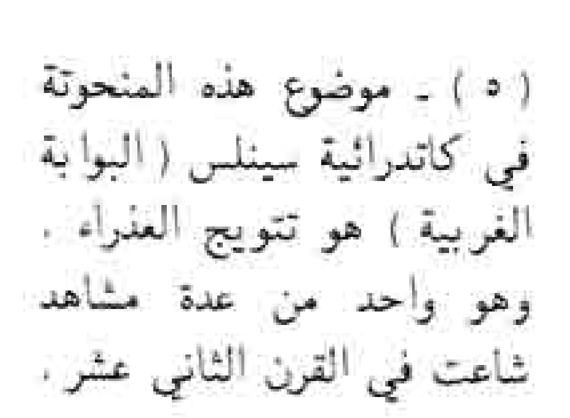
٦



٧



٥



(٥) ـ موضوع هذه المنحوتة في كاتدرائية سينلس (البوابة الغربية) هو تتويج العذراء ، وهو واحد من عدة مشاهد شاعت في القرن الثاني عشر ، نتيجة لانتشار تقليد تكريم العذراء . لا تزال آثار الطلاء الاصلي ظاهرة في هذه المنحوتة .

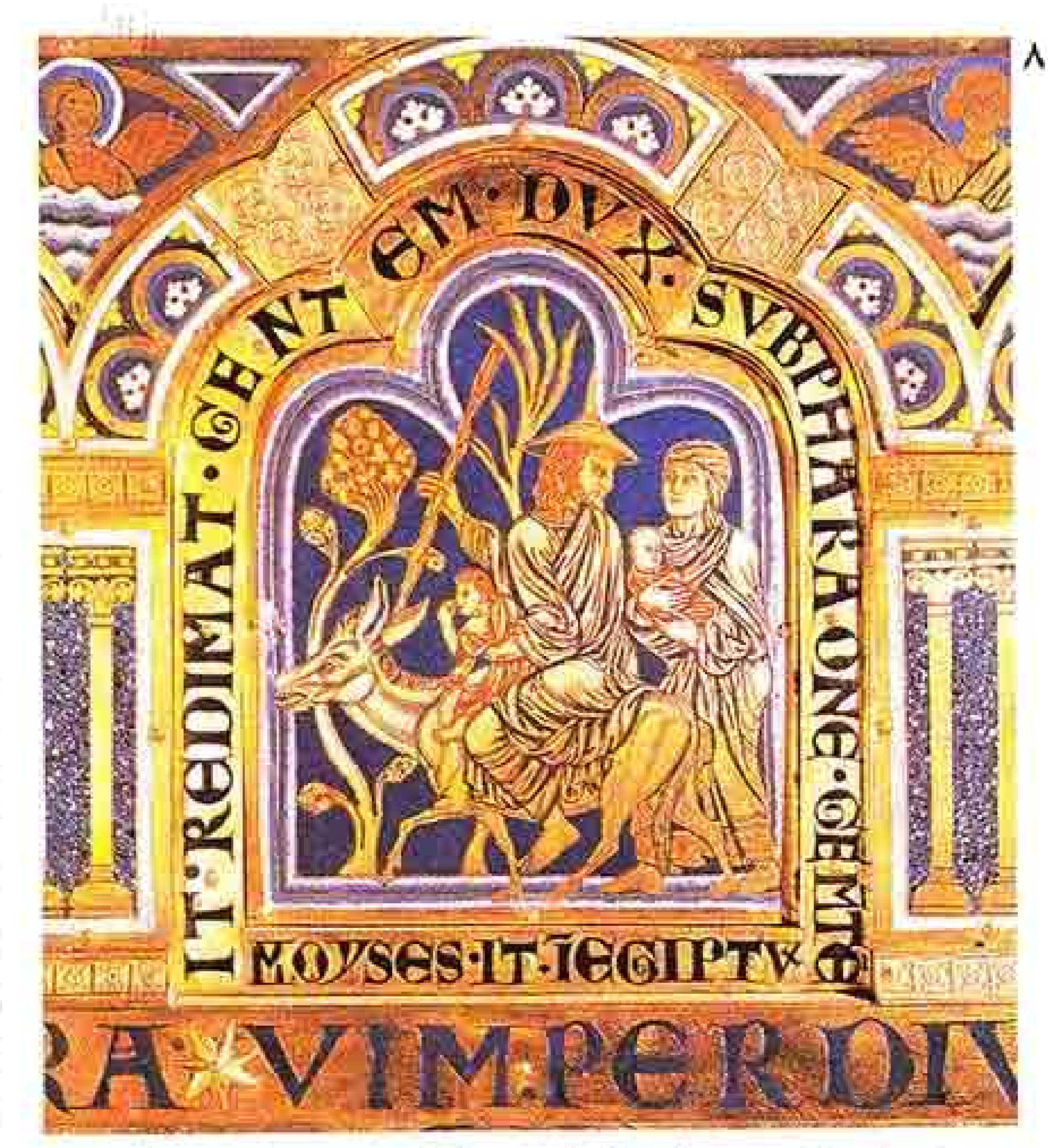
(٦) ـ تعرّض جناح الجوقة الجنوبي ، في كاتدرائية ايكستر (حوالى ١٣٠٠) للقصف عام ١٩٤٢ . ثم أعيد بناؤه عام ١٩٤٩ . يبيّن هذا المشهد السقالة الخشبية أو « المركزة » التي كانت تستعمل لبناء الأضلاع . تظهر بعض الأضلاع مثبتة في مواضعها . فيما لا تزال اي من الركائز الاساسية المنحوتة غير موضوعة . بعد اكمال الاضلاع ، تأتي المرحلة التالية ، وهي ملء المساحات المثلثة المقوسة القائمة بين الاضلاع بصفوف افقية من الحجر . لا تحتاج هذه العملية الى سقالة . لأن الاضلاع تفي بهذا الغرض . عند الوصول الى هذه المرحلة ، يكون السقف الخشبي الدائم قد شيّد .

(٧) ـ ظهرت العقود الواقعة تحت اضلاع نصف دائرية في انجلترا ونورماندي حوالى عام ١٠٩٠ . كانت المشكلة الرئيسية ، في تصميم الأضلاع النصف دائرية ، انه كان من الضروري خفض الأضلاع القطرية الكبيرة ورفع اضلاع الجدران وجعلها عمودية ، كي تصل جميعها الى ارتفاع الأضلاع المستعرضة . حلّ المعماريون القوطيون هذه المشكلة باستعمال الاضلاع المسننة . تنبثق هذه الاضلاع عن مركزين اثنين ، مما يعني أن ارتفاعها لم يعد متوقفا على عرضها .

الخصائص المميزة له تنبثق جميعها عن اسلوب تقني واحد اقتبس عن فن العمارة الاسلامي الظاهر مثلا في الجامع الأموي بدمشق ، وانتقل الى الغرب عبر الأندلس . وهو دمج العقود المضلعة بالأقواس المسننة .

العقود المضلعة والدعامات الحاملة للثقل

تتمتع العقود المضلعة بصفات كثيرة ، تميزها عن أنواع العقود الأخرى (٣) و (٧) . فأزواج الأقواس (الأضلاع) ، المتقاطعة فيها بشكل مائل ، توفّر لها اطارا يجعل من الممكن ملء تجاويف العقد فيما بعد . لذلك لم تكن المركزة (السقالة المنحنية التي تركز عليها العقود) ضرورية الا للأضلاع وليس للعقد بكامله . كذلك كانت العقود المضلعة خفيفة نسبيا ، اذ كانت تصنع من حجارة تنحت بعناية ، عوضا عن حجارة



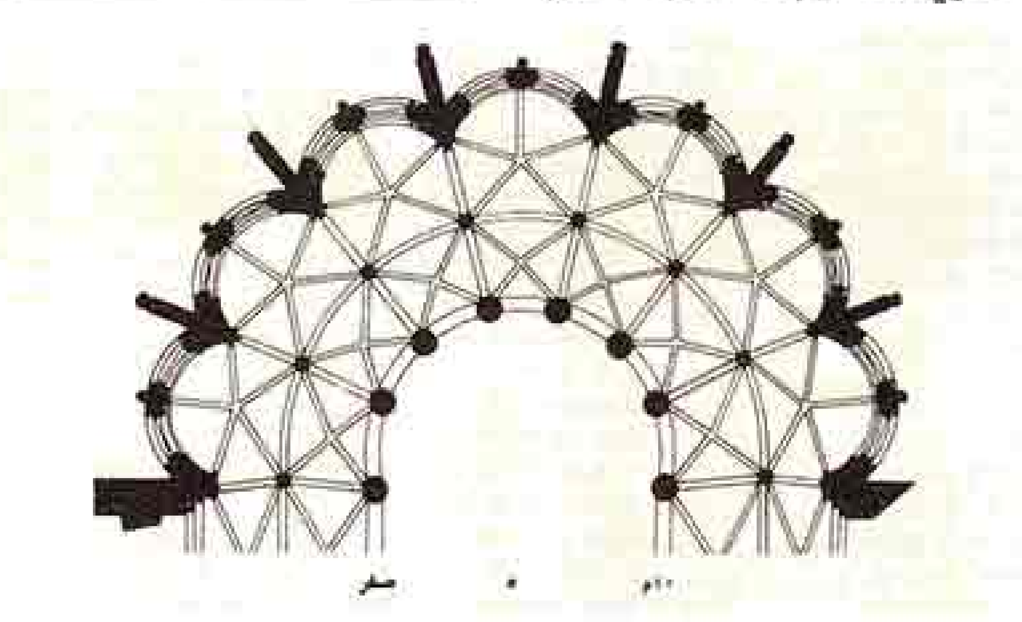
٨

(٨) ـ كانت صناعة المعادن الكنسية من أكثر الأعمال الفنية احتراما ، في العصور الوسطى . سطّر الأب سوجير رئيس دير سان دينيس شروحا مستطيلة تصف الكنوز التي جمعها ، من أجل ديره . لكنه لم يأت على ذكر المنحوتات الحجرية للبوابات الغربية الجديدة ، التي تعتبر اليوم بداية النحت القوطي . صنعت أصلا واجهة مذبح كلوسترنوبورج (١١٨١) لتكون منبرا . مما يفسر عدم استعمال المواد الثمينة فيها . لكن خلافا لجميع العادات ، سمح للفنان نقولا الفيرداني أن يوقع بأسمه عليها . تتصف هذه الأشكال الكلاسيكية بأنها ثلاثية الأبعاد ، في صلابتها ووزنها ، مما لا علاقة له بالمغالاة السطرية للفن الرومانسكي .

٩

(٩) ـ النوافذ المحيطة بضريح القديس توماس أ . بيكيت ، في كاتدرائية كانتربري . مليئة بالزجاج الملون الذي تظهر فيه صور المعجزات التي تمت على يده . وهي تذكرنا بتزيين الكتب الملون الذي شاع في أواخر القرن الثاني عشر .

١٠



(١٠) ـ هدم الطرف الشرقي لكنيسة سان دينيس العائدة الى القرن الثامن ، واستبدل به ، في القرن الثاني عشر هذا البناء المعقد ، الذي كان فيه ممشى نصف دائري موكبي لأن المطاف الدائري يمكّن الزوار الحجاج من مشاهدة ضريح القديس دينيس ، دون التشويش على الطقوس الدينية . تتفرع عن الممشى الدائري هذا سبعة معابد ، كل منها يقع جزئيا في زاوية نصف دائرية ناتئة قليلا . تشكل نوافذ هذه المعابد صفا متصلا ، وتصل بينها مساحات صغيرة من الجدران ودعامات رقيقة وعميقة . تدل الخطوط المتقاطعة على اماكن اضلاع القبب ، والصلبان على مواقع المذبح .

الدبش المدفونة في الطين . كما كان استعمال الأقواس المنتظمة هندسيا يسهل عملية مدها فوق أمكنة مختلفة الاشكال . لكن نقطة ضعف الأضلاع النصف دائرية ، المستعملة في لسّي وغيرها ، تتلخص في ان ارتفاعها (الشعاع) يجب ان يعادل بالضرورة نصف باعها (قطرها) ، بمعنى أن الاضلاع المائلة في عقد مستطيل ، وأضلاع الجدران ، كانت بحاجة الى بعض التعديلات الاعتباطية لجعلها مساوية في الارتفاع للأضلاع المستعرضة .

استطاع البنّاء الذي بنى سان دينيس أن يبني عقودا متساوية الارتفاع ، على سلسلة معقدة من المساحات والأشكال المختلفة ، وذلك بفضل دمج العقود المضلعة والأقواس المسننة دمجا يحافظ على الارتفاع الواحد ، مهما كان الباع . كذلك توصل هذا البنّاء الى ابراز خفة العقود ، بتثبيتها على أعمدة منفردة نحيفة . ثم انه طبّق مبدأ هيكل العقود المضلعة على الجدران الخارجية لجناح الجوقة . وحين تبيّن له ان العقود المضلعة لا تحدث ضغطا مستمرا باتجاه الخارج ، وهو الضغط الذي كان يوجب في السابق بناء جدران سميكة لتحمل الضغط ، عمد الى بناء دعامات بارزة جدا عن النقاط التي ينحصر فيها الضغط . ولما تحررت الجدران هكذا من وظيفة حمل العبء الرئيسي ، أصبحت منفتحة ، وأخذت تبدو كصف من النوافذ المتصلة ، فأمّنت بذلك انارة رائعة لجناح الجوقة بكنيسة سان دينيس .

كاتدرائية لاون

لم يلبث دير سان دينيس ان اصبح مصدر ايحاء لعدد من الكاتدرائيات الفرنسية الشمالية . ويمكن اعتبار كاتدرائية لاون (٢) ، التي شرع ببنائها حوالى عام ١١٦٠ ، النموذج الكلاسيكي لتلك الكنائس من عدة نواح ؛ فالارتفاع الداخلي يتألف من أربعة أدوار ، بما فيها شرفة فسيحة او منبر ، ويتألف العقد من ستة أقسام ورتبت اعمدته فرادى وثلاثا بالتناوب . غير ان النسب الضيقة ، السائدة في كنائس هذه الحقبة ، والتي تعتبر قوطية بكل معنى الكلمة ، لا تختلف عن نسب بعض الكنائس الرومانسكية الكبيرة .

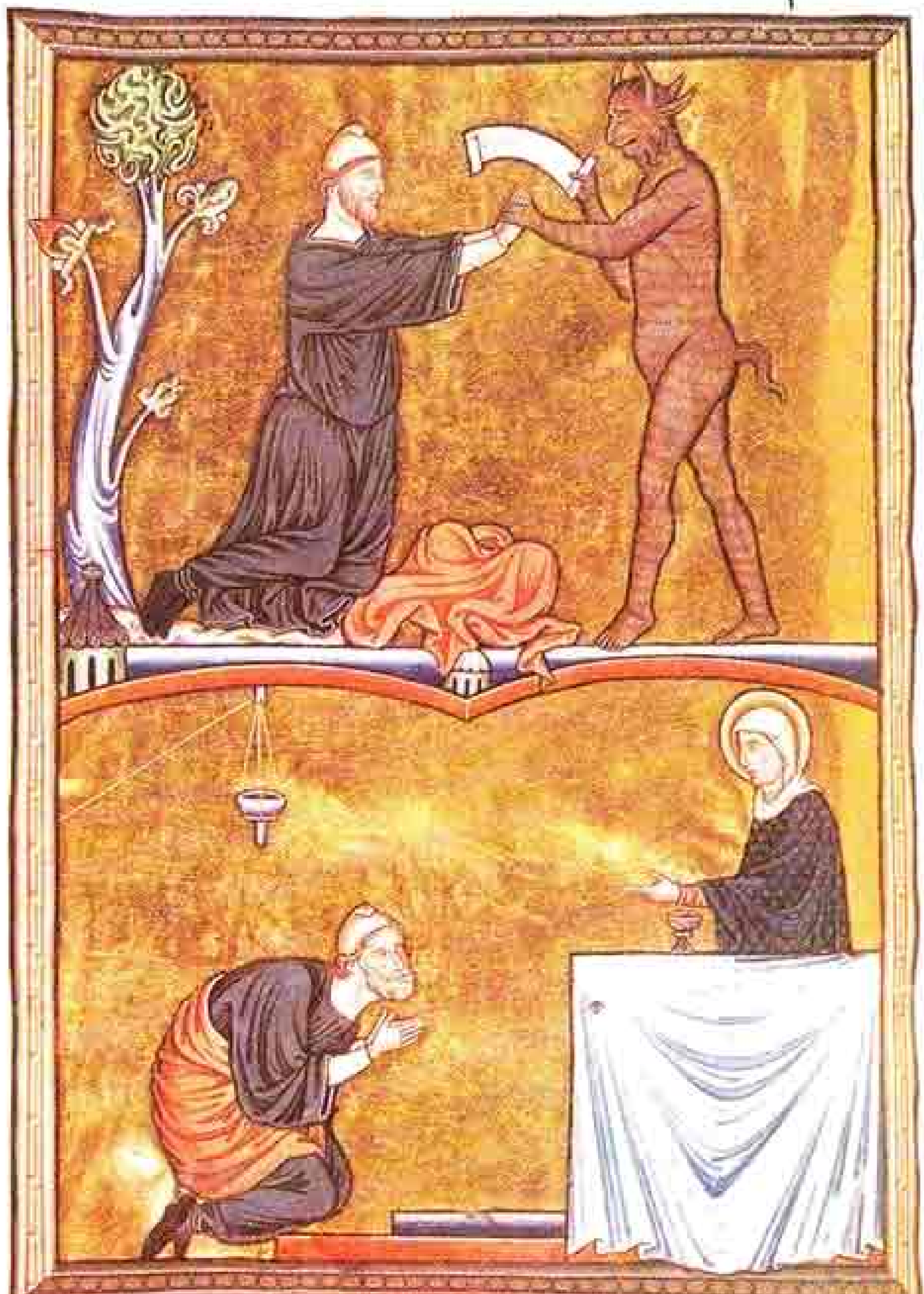
كانت التعرجات الخارجية الملساء ، لكنائس القرن الثاني عشر القوطية ، تكتسب شيئا من الحيوية بفضل الأبراج ، وهذه كانت تتراوح بين الاثنين المعتادين في الطرف الغربي ، وبين السبعة البارزة في لاون . ومن ناحية أخرى ، كانت توجد في الواجهات الغربية بوابات ضخمة استعملت فيها منحوتات نافرة جدا ، ليس فقط في الجزء العلوي منها (القوصرة أو المساحة الفاصلة بين اعلى الباب والقوس الواقع فوقه) ، بل ايضا في اقواس الاطار وعضادات الباب أو الرواق . أصبحت الاشكال الضخمة المنحوتة فوق العضادات (٤) علامة فارقة للاسلوب القوطي .

تميزت ايضا الأبنية القوطية الباكرة بأن اقسامها الداخلية لم تكن الا على مقدار قليل من الزخرفة المنحوتة ، اذا استثنينا التيجان المنحوتة ازهارا فوق الأعمدة . الا ان خشونة اقواسها واضلعها وأعمدتها كان يخفف منها الى حد ما الاستعمال السخي للزجاج الملون والاقلال من الألوان المطلية .

النظـام الاقطـاعي

في حضارة بدائية ، كالحضارة السائدة في اوروبا في اوائل العصور الوسطى والتي كانت تفتقر الى جهاز حكومي اداري ، وشرطة ، وهيئة قانونية ، كان من الطبيعي ان تكون المؤسستان المتينتان الوحيدتان هما : العائلة ، وخصوصا تلك المؤسسة التي عنها تنبثق الثروة والقوة ، الجماعة العسكرية وزعيمها . كانت الرابطة بين الزعيم والمحاربين ، هي أساس المجتمع « الاقطاعي » في المانيا وانجلترا وفرنسا ، اثناء القرنين الحادي عشر والثاني عشر . وكانت أخلاق المحارب في العصور الوسطى ، تتطلب ولاء قويا من التابع ، وكرما لا حدود له من سيّده .

١



٢



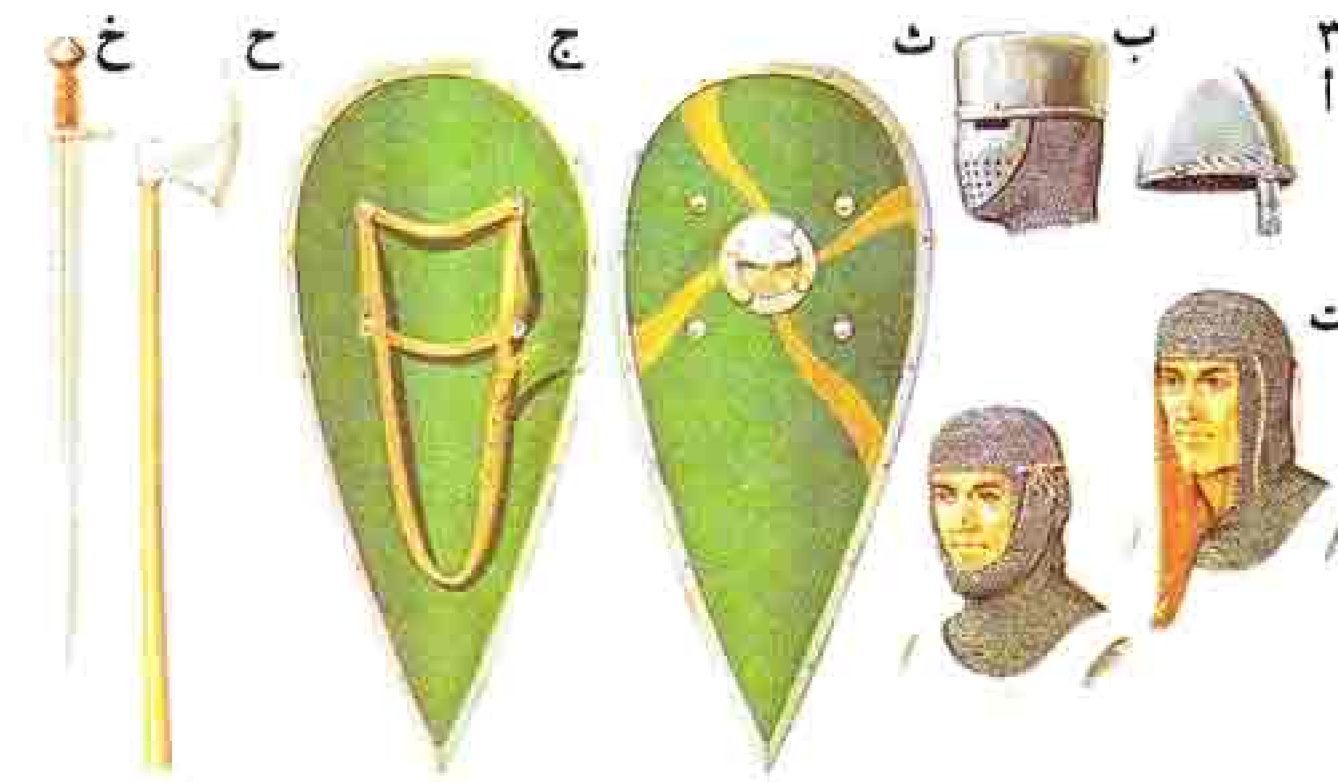
(١) - تبدو « حفلة الولاء » هذه العائدة الى القرن الثاني عشر ، مجازية . اذ تمثل ثيوفيلوس يقدّم واجب الطاعة للشيطان الحامل وثيقة خطّية . الا أن الهدف الحقيقي من طقوس الولاء كان جعل العقد علنيا ، وبصورة تبقي ذكراه محفورة في الذاكرة ، دون حاجة الى وثيقة مكتوبة . فقد كان من الضروري ، بسبب قلة عدد الذين يقرؤون ويكتبون في عصور الاقطاعية الأولى ، ابرام عقود قانونية ، أمام شهود يمكن الاعتماد على ذاكرتهم . كان مرسوم الخضوع يتم بأن يأخذ السيد يدي تابعه بين يديه ، وأن يتعانقا بعد ذلك عربونا للصداقة والتعاون الحربي .

(٢) - فارس من القرن الرابع عشر ، هو السير جيفري لوتريل . يتسلم خوذته ورمحه (هذا المشهد مأخوذ من مزامير لوتريل) . كان الفرسان يعتبرون ابطالا . وكانت مبارزاتهم تتصف بالأناقة والفخامة . اعتمدت قوة اندفاعهم على الركائب . كما كانت السروج العالية تشكل نقطة ارتكاز لهم . كانت الغاية من الرمح اسقاط الفرسان المنافسين عن مطيّتهم . كان الأسياد الذين يملكون خيولا كثيرة قليلي العدد . لكن هناك أدلة تشير الى أن طرق التكاثر الفعّالة التي استعملت اخذت تزيد في عددها . ففي كورفي بساكسوني ، كان اسطبل واحد يمد الجيوش الالمانية الامبراطورية بالخيول .

(٣) - امتاز الفرسان النورمانديون باستعمال ادوات القتال العملية . عندما ازداد طول السيف (خ) والفأس

الملكية الاقطاعية للأرض

كان من شأن الرابطة الشخصية بين المحارب وسيّده ، وفيما بعد ، بين مستغل الارض والمالك (المتجلية حينئذ في الولاء والتبعية والالتزام وهي درجات متصاعدة من التقيد بالواجب) أنها اخذت تنعكس في نطاق علاقات ملكية الأرض . لم تكن الملكية المطلقة للأرض معروفة في العصور الوسطى ، بل كان الملك يمنح الممتلكات أو الاقطاعات من الارض ، مقابل خدمات معيّنة ، عسكرية على الأغلب ، يتعهد بتأديتها المقطع بحلف اليمين . وكان هؤلاء الملاكون الرئيسيون أيضا يقطعون بدورهم الاراضي للفرسان ، لقاء يمين الولاء لهم . لم تكن حفلة مراسيم الولاء (١) تنطوي بالضرورة على ارتباط دائم او مقتصر على شخص واحد ، بل كان من الشائع أن يدين الفارس بالولاء ، بالنسبة الى قطعة واحدة من





(ح) ، أصبح من الضروري التروس الثقيلة (ث ، ج) . زيادة الوقاية . باستعمال كذلك حلت محل خوذة القرن العاشر (أ) خوذة ذات منظار (ب) وقلنسوة محبوكة من الزرد (ت) باحكام .



(٤) ـ كان الفارس المسلح محور المجتمع الاقطاعي ، وكان افراد من نخبة المجتمع وحدهم يستطيعون تأمين الأدوات الباهظة الثمن اللازمة للفروسية .

(٥) ـ كانت قلعة كارنارفون في بلاد الويلز (١٢٨٣ ـ ١٢٩٢) احدى القلاع الضخمة التي بناها أدوارد الأول ، بعد أن فتح ويلز . مع حلول عام ١٣٠٠ تقريبا ، كان الحصن البدائي قد تطور حتى أصبح عبارة عن مجمع محصن ، يبلغ من الضخامة والقوة حدا يمكّنه من ايواء وحماية حكومة أقليمية . وراء حصون مبتكرة تقنيا .

الأرض ، لعدد من الاسياد ، أو حتى لمن دونه اجتماعيا .

مع ذلك فان الحقبة الممتدة من عام ٩٥٠ حتى عام ١٢٥٠ قد دعيت « بالاقطاعية » بمعنى الكلمة الحقيقي ، وذلك بسبب سيطرة الطبقة الارستقراطية المحاربة في اوروبا الغربية ، وفي فلسطين تحت الاحتلال الصليبي . كان يجمع بين اعضاء هذه الطبقة طريقة خاصة للتدريب والقتال ، هي اسلوب « الفارس المحارب » ، وعرف سلوكي مشترك قائم على المثل العليا « للفروسية » . نشأت الارستقراطية انطلاقا من تفوق الخيالة التقني على الجنود المشاة ، وظهرت الى الوجود في عهد شارلمان تقريبا . لم تكن أوروبا قديما تعرف « الركاب » و « حدوة الفرس » ، وقد كان لادخالهما ، وبخاصة الركاب ، من آسيا الوسطى ، حوالى عام ٧٥٠ ، نتائج ثورية . فقد أصبح الفارس يستطيع ، وهو حامل رمحه ،

٦



٧



(٦) - أصبحت الفروسية مؤسسة أوروبية جليلة في العصور الوسطى . وقد تجلت بشكل رائع في هذه الصورة التي تمثل القديس لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٧٠) وهو ينقذ سيدة مسلمة وطفلها من الموت اثناء المعركة . أقام الفارس الاقطاعي لنفسه في تلك الحقبة ، قانونا للتصرف الشخصي المثالي يتعدى حتى انتماءه المسيحي . مع أن من أهم المناقب التي كانت تنسب الى الفارس المثالي هي الدفاع عن المسيحية ضد المسلمين . غير ان واجبي صيانة شرف المرأة ونصرة الضعيف والمظلوم كانا يحتلان في هذا القانون مركزا خاصا . فغدا تطبيقهما واجبا تجاه أي انسان مهما كان معتقده الديني .

---

(٧) - تمثال الصليبي ايكارد وزوجته يوتا من القرن الثالث عشر ، الموجود في كاتدرائية نورمبورج ، هو رمز للمثال الأعلى لطبقة الأشراف الاوروبية ، في أواخر فترة النظام الاقطاعي ، أي المحارب المسيحي . فمنذ الحملة الصليبية الأولى ظهر كما لو اتخذ القتال شكلا مثاليا . فيما ادعى الأوروبيون أنه دفاع عن العالم المسيحي ضد المسلمين . اشتركت اعداد كبيرة في الحملات الاستعمارية على القدس ، وانضم المتحمسون منهم الى رهبنات عسكرية مثل « فرسان الهيكل » (الداوية) و « فرسان الضيافة » (الاسبتارية) . وبالاضافة الى الحملات الصليبية الاستعمارية الكبرى ، خرج عدد من الفرسان فرادى ، لكسب الشهرة ، أو التكفير عن خطاياهم ، بالحرب في فلسطين أو الأندلس العربيتين أو ليتوانيا الوثنية .

الاندفاع بقوة ، بفضل سرعة الحصان ، دون ان يتعرض للسقوط عند الاصطدام بهدفه (٣). وقد زاد ذلك من أهمية الخيالة المقاتلين (٤). ولكن قبل حوالى ٩٥٠ ، كانت الخيل قليلة العدد ، لذا فان وفرتها النسبية عند الفرنك تفسر انتصارات شارلمان .

ظهور الفرسان

ثمة أدلة تشير الى ازدياد عدد الخيول بسرعة بعد عام ٩٥٠ . وفي القرن التالي ، كان الخيالة ، في كل مكان ، هم الذين يقررون مجرى الحروب . كان عددهم قليلا ، وأجهزتهم باهظة الثمن ، وتدريبهم طويل الأمد . الا أن ذلك زاد من كبريائهم.

كانت طبقات الفرسان ، والحالة هذه ، تسيطر على المجتمع المحلي . كان الفرسان يقومون بمهمات عديدة ؛ فالكثيرون منهم كانوا دون زعيم دائم ، لذا كانوا يبيعون خدماتهم ، كمرتزقة ، لمن يدفع أعلى ثمن لهم ؛ أما الآخرون ، لاسيما في مطلع حياتهم ، فكانوا يلتحقون بخدمة أحد كبار النبلاء كفرسان في قصره .

ربما كانت أشد مهارات الفارس القتالية تأثيرا هي الغارة التي تشنها فرقة الفرسان في دفعة واحدة . وهو اسلوب استعمل في الحملة الصليبية الأولى . لكن الفرسان كمحترفين ، تعلموا أيضا مهارات دفاعية ، كان أبرزها تطوير القلعة ، من برج بسيط في القرن الحادي عشر ، الى القلعة المحصنة في حوالى عام ١٢٠٠ (٥) . ولا شك أن تطوير اساليب وتصاميم بناء القلاع تأثر كثيرا بما تعلمه الصليبيون من العرب ، أثناء احتلالهم لأجزاء من الساحل الشرقي للبحر المتوسط .

نظام الفروسية وملكية الأراضي

كانت مثل نظام الفروسية تقضي بأن يقاتل الفرسان في سبيل الانتقام للمظلوم ، والدفاع عن شرف السيدات (يظهر موضوع الحب الرومنطيقي للمرة الأولى في أوساط الفرسان في جنوب فرنسا في القرن الثاني عشر) ، وفي سبيل نصرة الدين المسيحي ضد المسلمين (٦ ، ٧) . وقد ادّعى « فرسان الهيكل » (الداوية) و « فرسان الضيافة » (الاسبتارية) انهم جمعوا بين قوة الفرسان ، وطهارة الرهبان ، في حروبهم من أجل الأراضي المقدسة .

كانت حياة الفارس القتالية قصيرة نسبيا ، ما لم يصبح قيّما ، أو موظفا مرموقا ، عند أحد النبلاء ، لذا كان الفارس يطمع عادة بأن يحصل على اقطاع وينصرف الى زراعته . عندما كان الفرسان يستقرون على أرضهم ، كان معظمهم يعيش ببساطة ، في حصون صغيرة ، مؤلفة من غرفة في طابق أرضي يعيشون وينامون فيها ، ومن مستودع للذخيرة تحتها . ومع أن الفرسان كانوا يتمتعون بحقوق معترف بها على المستأجرين للأرض عندهم ، فلم يكن سكان القرية يعيشون دوما في ظل اسيادهم الفرسان . بل ان انتشار نظام الزراعة « ذي الحقول الثلاثة » المعقد ، وظهور التعاونيات القروية في فرنسا ، يدلان على أن عددا من القرى كانت تتمتع بحياة جماعية مستقلة ، مع انها كانت تدفع الضرائب المستحقة . كان الفارس يساهم ، في هذه الحياة ، بتأمين الزعامة والحماية ، وفي الكثير من الأحيان ، بالمبادرة الى احياء الأرض الموات المجاورة .

الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

طرابلس

هذه الموسوعة

لأول مرة في لغتنا العربية .
لأول مرة في تاريخنا بأسره ،
تصدر لدينا موسوعة مصورة ومعدّة فعلاً على مستوى العمل الموسوعي .

لم يكن بوسعنا ان نتجاهل هذا النقص في مكتبتنا العربية . ولم يكن من خطتنا أن نوفيه بأي عمل لا يجاري مستويات الموسوعات الحديثة في اكثر لغات العالم تقدمًا .

وقد أنفقنا بعض الوقت ونحن نبحث جاهدين عما يدعى عادة باسم "الحل الوسط" ، لكن البحث نفسه لم يعلمنا شيئاً سوى انه ليس ثمة حل وسط لأداء أي عمل جدّي .

فماذا فعلنا ؟

سؤال البديهي حقاً ، لكن اجابته الصحيحة لا تقع في نطاق هذه المقدمة وحدها أو هذا الكتاب كله ، انها تقع في عشرة مجلدات تضم حوالى أربعة آلاف صفحة وأكثر من عشرة آلاف صورة ، وجهد خمسمائة محرر ورسّام طوال أربع سنوات كاملة .

الصادق النيهوم



